

مَجَلَّةُ الْأَزْهَرِ

المجلد التاسع عشر

سكرتير التحرير المجلة
الدكتور محمد عبد الله ماضي
الأستاذ بكلية أصول الدين

مركز تحقيقات كليات علوم إيسدي

مدير المجلة
ورئيس تحريرها
محمَّد فريد جاريك

١٠٠ ليرة
٥٠ ليرة
٥٠ ليرة

الاشتراك السنوي

ثمان المئدة ٨٠٠ ليرة

الإدارة المجرة : بديوان الإدارة العامة للأزهر والمعاهد الدينية بالقاهرة

مطبعة الأزهر

١٩٤٧

المجلد التاسع عشر

الحرم سنة ١٣٦٢

٨٠

مجلة الأزهر



بإرشاد زاده سيواي
منگوره سوات

تصديق رشيديا عن مشيخة الجامع الأزهر الشريف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة السنة التاسعة عشرة لمجلة الأزهر

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وتنال الدرجات ، وتذلل العقبات .
والصلاة والسلام على محمد رسول الحق الى العالمين ، وعلى آله وصحبه وتابعيه
إلى يوم الدين ، صلاة وسلاما دائما أمين أبدا الأبدن .

وبعد ، فإننا نقدم لقراء مجلة الأزهر العدد الأول من سنتها التاسعة
عشرة ، شاكرين لله على ما أسدانا من معونته ، وسدد خطواتنا في خدمة
دينه وأمر حكيمته ، راجين أن يوالينا هذا التوفيق في عملنا ، لنبلغ به إلى أقصى
ما قدر له من كمال ، وأشرف ما نتوجه إليه من مآل .

ولا معدى لنا في هذا المقام من الإشادة بذكر ما يحوطنا به حضرة
صاحب الجلالة الملك فاروق الأول من ضروب التشجيع ، وما ينولنا به
من الرعاية والتأييد ، أعز الله به هذا الدين ، كما أعزه بسميه العظيم ، مؤسس
الامبراطورية الاسلامية عمر بن الخطاب ، ومد الله في عمره المبارك حتى يرى
ثمرات جهوده دائية القطوف ، ونتائج توجيهاته الاصلاحية مضرب الامثال ،
ومحققه للشرق جميع الآمال .

وقد وافق أول السنة الهجرية الجديدة (١٣٦٧) يوم جمعة ، فاتجهت
الرغبة السنوية لتأدية فريضة الجمعة بالجامع الأزهر ، فاحتشد فيه حضرات
العلماء الاعلام وكبار رجال القصر والوزراء والوجهاء ، وبعد أداء الصلاة
نهض حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل
الجامع الأزهر ، فألقى كلمة بليغة في تاريخ الهجرة النبوية ، ألم بجميع ما جرياتها
في عبارة مختارة ، وببيان قسيم ، وقعت من السامعين أرفع موقع ، وتعالى
الاهتافات بحياة حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، فزادت الاحتفال جلالاته .
وسفنشر الخطابة الجليلة لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الكبير وكيل
الأزهر في العدد المقبل من هذه المجلة إضافة لقراءتها في سائر البلاد الإسلامية .



الرسالة الملكية السامية

في عيد الهجرة النبوية

تفضل حضرة صاحب الخلافة الملك المعظم فوجه الرسالة الملكية السامية الآتية الى الشعب لمصرى وإلى الشعوب العربية والإسلامية بمناسبة عيد رأس السنة الهجرية . وقد أذيعت هذه الرسالة السامية في الساعة التاسعة والنصف من صباح العام الجديد ثم أعيدت إذاعتها في مساء مرتين وهذا نصها :

شعبي العزيز :

في هذه الذكرى العزيزة ، ذكرى الهجرة النبوية الكريمة ، أبعث إلى شعبي المحبوب ، وإلى الشعوب العربية الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، بأصدق التهنئة ، واجباً لهم جميعاً عزا ونصراً ، وسؤدداً ومجداً . وأحي في هذا اليوم المبارك ، يوم إشراق العزة النبوية ، وأشر مبادئ السلام والانسانية ، فلسطين الباسلة ، التي أجمعت الشعوب العربية على استخلاص حقوقها ، وكفالة العزة والحرية لأفرادها .

شعبي العزيز :

إن في الحوادث بعض التجارب القاسية التي تمر بالأمم ، وبلادنا تمر الآن بمحنة أليمة ، فقد أصيبت مصر العزيزة بوباء لا يرحم .

وإني أشارك شعبي فيما أصابه من بأساء ، وما نزل به من ضراء ، وأسأل
الله أن يلطف به ، فيما جرى به قضاؤه .

لقد قضى هذا الوباء على كثيرين ، وإن قلبي ليفيض بالحزن على هؤلاء
المنكوبين ، وأعزى أسرهم وأهلهم فيهم ، وأهيب بالموسرين منا أن يذكروا
آلام الفقراء والمعوذين ، وحاجات الضعفاء والمحتاجين ، وينفقوا مما يحبون
حتى ينالوا بر الله ونوابه ، وإحسانه ورضوانه .

وإني لأتوجه بفيض من الشكر وعرفان الجليل ، إلى الدول العربية الشقيقة ،
وإلى جميع الشعوب والحكومات التي آزرتنا في محنتنا .

ومصر ، وهي رقب في أمل وطيد ، ورجاء أكيد ، قرب اقتصارها على
هذا العدو ، ستذكر بأحد أثر هذه المساعدات في نجاتها من هذه الكارثة .

شعبي العزيز :

تعود ذكرى الهجرة النبوية ، وفي عودها تنبيه وتذكير . ومن الحق علينا
أن نعتبر بها ، ونقتدى بسيرة صاحبها ، التي تملأ النفوس إيماناً بعظمة الرسول
ورسالته ، وتحفزها إلى الاهتمام بهديه وسنته .

والشعوب العربية أحوج ما يكونون إلى العبرة والموعظة الحسنة بهذه
الذكرى ، فيما يجاهدون له ، ويناضلون في سبيله من استقلال ، وعزة وحرية .
أطاهد الله علينا وعلى العالم أجمع ، عام خير ، وبركة ، واطمئنان وسلام .

والسلام عليكم ورحمة الله

العيد والاعياد في الحج والعبادة

لحضرة صاحب الفضيلة الاسناذ الجليل

الشيخ محمود أبو العيون

سكرتير عام الازهر

إن لله عز وجل مواسم وأعيادا تفتح فيها أبواب الخير والبركة للمسلمين في الدين والدنيا ، وتنصرف فيها النفوس وقتا من غواشي الدنيا وأعراضها ، لخير الإنسانية ، والعمل الصالح للبشرية .

وإن من أكبر مواسم السنة كلها ، وأعلاها شأنًا ، وأجلها مكانة ، وأسمى منزلًا ، عيد الأضحي المبارك ، فهو عيد الأعياد ، وموسم المواسم ، فيه تنجس القلوب إلى الله سبحانه وتعالى ، ويتقرب إليه الخيرون من عباده بأعمال الخير والبر ، وتسخو الأيدي الشحيحة بالمعطاء والجود ، فيه تنجر الذنائب ، ويهضم الثريد ، ويطعم القريب والبعيد ، فهو يوم التضحية والفداء .

ويقترن بهذا الموسم موسم آخر ، هو يوم الحج الأكبر إلى البيت العتيق ، وهو أول بيت وضع للناس بمكة المكرمة ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ولم يعرف التاريخ ، ولم تهبط الأديان بعقيدة ، أو عبادة من العبادات ، فيها جماع الخير والسعادة للناس كعقيدة الحج إلى البيت الحرام .

وكانت لقريش سنن صالحة امتازوا بها عن العرب جميعا ، منها إقامة المناسك ، ويطوفون حوله ، وينحرون الذنائب

وقد أسلمت قريش لعبد مناف أحد أجداد النبي سيادتها وقيادتها ،
ووفادتها (١) ورفادتها (٢) ، وقام بالامر بعده ولده هاشم ، وكان اسمه «عمرا»
فسمته قريش هاشما ، لأنه هشم الثريد ، وأطعم الشعب في المجاعة حين اشتد
القحط بمكة .

عمرو والعلاء هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسندتون عجاف
وهو أول من آلف قريشا رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ؛
ومات بمدينة غزة من أرض فلسطين .

فالحج عبادة مقدسة في الجاهلية والاسلام ، وشأنه في الاسلام جسيم
وعظيم ؛ فالحجيج في الاسلام يتجردون من مظاهر الدنيا ، ومألوف عاداتهم ؛
فهم يكونون في حالة الإحرام طالين من كل حلية ، مجردين من كل لباس
إلا ما يستتر أجسادهم من غير مخيط ؛ وهضم طرية ، خشيتهم من الله ظاهرة
وبادية ، مهللين مكبرين ملبين : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ،
إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » . هنالك وفي تلك المعاهد
المقدسة يؤدون شعائر الله ؛ وهنالك تقص أرواحهم الصافية بالملأ الأعلى ،
فلارفت ولا فسوق ولا جدال في الحج ؛ وهنالك يجتمع المسلمون أبيضهم
وأحمرهم ، ملكهم وسوقهم ، فقيرهم وغنيهم ، في صعيد واحد ، متجهين
إلى قبلة واحدة ، ضارعين إلى إله واحد في خشوع واطمئنان ؛ وهنالك
يجتمع عشرات الآلاف من المسلمين حول البيت وفي عرفات مهبط التجليات
والرحمات ، متعارفين متواصلين ، متوادين متراحمين ، يضمهم الاسلام ،
وتجمعهم عقيدة التوحيد ، والتصديق بالرسول : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

والسر الذي يهدف اليه الاسلام في اجتماع المسلمين من أصقاع الأرض
وأقطارها في صعيد واحد ، إنما هو التعارف فيما بينهم ، وتوثيق الصلات
والروابط بين عصبياتهم ، وتبادل الآراء فيما يختلف من شئونهم وأعمالهم .

فالإسلام في ذلك الاجتماع الذي هو أشبه بمؤتمر عام ، يشهد فيه المسلمون منافعهم ، ويذكرون اسم الله ، يقصد إلى غرض نبيل شريف ، هو إيجاد عصبية إسلامية قوية ، متجانسة الآراء والأغراض ، متماثلة المقاصد والأفهام والآمال ، طامة على تقوية الشموعية القومية الإسلامية ؛ وكل شعب عضو في تلك الجماعة إذا ضم إليه الكل لنصرته ، والاختد بسترته ؛ وفي ذلك يكون المسلمون كما قال المعصوم - عليه الصلاة والسلام - كالخمس الواحد إذا اشكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمل والسهر .

كذلك كان المسلمون من قبل في حجهم وأعمارهم . وكذلك كانوا في غير حجهم وفي غير أعمارهم ؛ كان ينزل القحط في الحجاز ، فتسارع مصر إلى نجدة إخوانهم في الحجاز ؛ وكان يقع الضيم على المسلمين في العراق ، فذهب المسلمون في الشام إلى نجدة إخوانهم في العراق ؛ فهل تبدل الحال وتغير الأمر قد صار المسلمون في أقطار الأرض بددا ، وتفرقوا فيما بينهم أيدي سباع ، لا تجمعهم جامعة ، ولا تربطهم رابطة ، ولا تضمهم وحدة .

المسلمون - فدتك نفسي - أمة ، ملثوا بطابع الخدقين عديد . لكنهم جار الزمان عليهم أو ما تروهم أمثال رجبهم .

كل ذلك قد وقع ، وبذلك تمزقت الرفعة الإسلامية ، ورهنت قوة المسلمين . فانطمأت شعلة العرفان والنور في الربوع الإسلامية ، وأقعدت جندوة الحرارة والغيرة الدينية في الأقوام ، وانحرف ظل الحضرة عن كل ربيع المسكونة يتمتع فيه المسلمون وغير المسلمين بحمال الدين . وسبوا في السبياء المظلمة في رواق الأمن والسلام . زال كل ذلك والدار . ونفخت آلهة ، ودوسمت معاملهم ، وأصبح تاريخنا يقرؤه الناس للمظة والاعتذار .

ولكن هل آن الأوان لأن يستشعر المسلمون هذا الخذلان والانحلال ؛ هل آن الأوان لأن يصحو الرجل المريض ، وأن يدرك الخربة ، ويبصر النور ، وأن يفهم وصايا الدين ويعمل بها ، وأن يعلم أن الاستدامة للانحلال والضعف والفرقة والجهل ، خسران في الدنيا ، وعذاب مقيم في الآخرة ؟ !

[illegible][illegible]

مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

القصص في القرآن

القرآن خاتمة الكتب الإلهية ،
مترسبين ، هداية لعالمين ،
ولما كانت هذه الهداية لتدخل الأذان
للخارجين الروحية والعنيفة ، نزل القرآن في
الهداية على نوعها متشعبة من لغة وبيان
والعموم ، لكيلا يحجب زمان زمانها
فترك هداية القرآن والتعويل على هداية
نصوص الكتاب ، ينتهي إلى أن تكون
القرآن ، وانفرد دون سائر الكتب
الكتب الإلهية ، ليبقى على السور
الالامية ، وإلى أي حد وصوا من العلوم
ونحن قل أن نصل إلى موضوعات
تكون حواظ للعلماء والمتعلمين أن
عليهم من التورط في هذه القضية
من تلك الحواظ قوله تعالى
سؤال بعضهم عن مادية الروح ،
أن ما وصل إليه من العلم لا يوصله إلى
لا يتعجل في الحكم حتى لا يقع في الخطأ
ومنها قوله تعالى : سأريكم آياتي ولا استعجل
في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم
شبهات إذا أنا منه عاجل بأنه من حولي فلا
ومنها قوله تعالى : «وفوق كل شيء عرش
ليظاً متوا من كبرياتهم ، ويحسدو من وراء
النافقين ، وتقويم الدافقين
ومنها قوله تعالى : قل هاتوا برهانكم
صريح بأن كل قول يجب أن يكون أصلياً

فَإِنَّ هَٰذَا كِتَابٌ مُّبِينٌ
يُذَكِّرُ الْبَشَرَ بِمَا كَانُوا يَنْسَوْنَ
وَيُخَوِّفُهُمْ يَوْمَ تَأْتِي السُّحُبُ بِالْمَلَكِ ۖ سَاعَةً لَا يُمْسِكُونَ
فَإِنَّ هَٰذَا كِتَابٌ مُّبِينٌ
يُذَكِّرُ الْبَشَرَ بِمَا كَانُوا يَنْسَوْنَ
وَيُخَوِّفُهُمْ يَوْمَ تَأْتِي السُّحُبُ بِالْمَلَكِ ۖ سَاعَةً لَا يُمْسِكُونَ

oldbookz@gmail.com

أَنْ يَحْذَرُوا حَيَاتَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ كُنْ

الْفَارِسُ مِنْهُ عَلَى جَسَدَةٍ مَعْرُومَةٍ لَا تَحْيَا

وَاحِدًا أَوْ يَضَعُهُ قُرُونٌ ، يَقْلَلُوا مِنْ عَدَا

الْعِلْمِ الْأَوَّلِيِّ الَّذِي كَانَ قَبْلَ قُرُونٍ وَأَمَّا

الْمَعْرِفَةُ فَلَمْ تَكُنْ مَعَهُمْ وَأَكْثَرُ أَعْرَافِهِمْ

الْمَرْبُوحُ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ مَعَهُمْ فِي

الْمَعْرِفَةِ وَأَمَّا حَيَاتُهُ الْمَعْرِفَةُ فَتَلْكَ

وَلَمْ تَكُنْ مَعَهُمْ فِي الْمَعْرِفَةِ الْمَعْرِفَةِ

مِنْ أَعْلَانِ الْخَيْرِ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ

فِي أَعْلَانِ الْخَيْرِ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ

أَعْلَانِ الْخَيْرِ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ

أَعْلَانِ الْخَيْرِ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ

أَعْلَانِ الْخَيْرِ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ

أَعْلَانِ الْخَيْرِ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ

أَعْلَانِ الْخَيْرِ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ

أَعْلَانِ الْخَيْرِ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ

أَعْلَانِ الْخَيْرِ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ

أَعْلَانِ الْخَيْرِ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ

أَعْلَانِ الْخَيْرِ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ

أَعْلَانِ الْخَيْرِ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ

أَعْلَانِ الْخَيْرِ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ

أَعْلَانِ الْخَيْرِ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ

أَعْلَانِ الْخَيْرِ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ

أَعْلَانِ الْخَيْرِ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ

أَعْلَانِ الْخَيْرِ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ

أَعْلَانِ الْخَيْرِ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ

أَعْلَانِ الْخَيْرِ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ

أَعْلَانِ الْخَيْرِ وَبَقَايَا عِلْمِ الْفَرَسِ



مركز بحوث الحاسوب في الدراسات الإسلامية

وجاءت الأجيال الحديثة فوات نفسها من أخبار الأمم حيال تاريخ وميتولوجيا ، وأدربت على أن تعتبر الأول خلاصة ممحصّة من حوادث الشعوب الماضية ، وأن تعد الثانية حكايات خيالية تنزلت من عقول ساذجة ، اخترعها لها رجال مدلسون . فآلفوا أنفسهم متحليين من كل ما حتمل الاقدمون أنفسهم من تكاليف عقيدية ، وتقاليد وهمية ، معتبرين كل ما يوجد في تاريخ الأديان وكتبها المقدسة من أخبار وحوادث وانقلابات لا تنفق والتاريخ المبتور ، خرافات لا أصل لها في الواقع .

فهل بعد هذا البيان يسوع لانسان أن يقول إن حادثة بعينها أو حوادث من قبيلها تتصل بالدين ، خرافات لا أصل لها في الماخرات البشرية ؟ وهل بعد أن أعلن أحلاء العلماء الماديين في أوروبا من أمثال وليم كروكس مكتشف إشعاع المادة ، وروسن ولاس نديد دارون ، وسيزار لو مبروزو واضع علم الأسماك الفيزيولوجية للجراثيم ، ووليم جيمس البسيكولوجي الأمريكي الأتوم ، وشرنت توتنج مدرس علم النفس بجامعة برلين ، إلى ما لا يحصى من أمثال هؤلاء ، قلنا هل بعد أن أعلن هؤلاء على رموس الأشهاد وفي القرون العشرين - أنهم قد اكتشفوا عالم ما فوق الطبيعة ، وأنهم يتحدثون مع كائناته ، وأن هذه الكائنات تتحدث أمامهم وتكلمهم ، وتحدث أمامهم من خوارق السوايس العظيمة ما يفوق العقل ؛ قلنا هل بعد هذا يسوع لعاقل أن ينكر المعجزات التي أمدت بسبل في دعواتهم الدينية ، باعتبار أنها تناقض العلم ، ونخالص من غير العلم . إن يعتبر كل قصص ورد عن مثل هذه الأمور في الكتاب المقدس من غير العلم التي لا أساس لها من التاريخ ؟ أي تاريخ بشري تقدمه لنا الأجيال الحديثة من أخبار الانسانية ، وهو قائم على اعتبار أن وحوادث التاريخ الانسانية والحياة الآخروية ، والأرواح العلوية والملائكة من جهة وما فوق الطبيعة من جهة أخرى ، يتجمع ذلك أن كل ما يروى عنها ، ويتناقض العلم الذي في يده . ينبغي مظهر ما لها الحدود ، يجب أن يحسب من الأفاصيص الخرافية ؟ ! نعم إن الحوادث التي صاحبت رسالات الرسل دخل فيها كثير من المبالغات ، ولكن هذه المبالغات سمات يهتدى بها إليها ، فكانت الموافقة للعقل والعلم لدى العائشين معها في القرن العشرين ، وشهدوا الفتوحات العلمية الحديثة من تقنيات الذرة وأحالتها إلى أسلحة وهو القوة ، بعد أن عدها العلم مادة صلبة أكثر من

ثلاثة آلاف سنة ، ومن محاولة استخدام الاشعة الكونية لإحداث أعظم انقلاب في حياة الانسانية . ومن إثبات العالم الروحاني عماليا . كما صرح بذلك أكابر ممثلي العلم . وهذا واحد منهم (كاميل فلامريون) أشهر علماء الفلك في القرن العشرين يقول في كتابه (المجهول والمسائل النفسية) :

« لقد أثبتت المشاهدات الحسية وجود عالم روحاني عبق كتحقق العالم المادي المدرك بحواسنا الخمس »

هذه مقدمة نذكرها بين يدي كلمة نريد أن نقولها عن القصص في القرآن الكريم :

نوه الكتاب الكريم بأهم ماضية ومرسلين ، وقص من أخبارها وأخبارهم ما فيه موعظة للتالين والسامعين ، فلاحظ بعض المستشرقين ، وكلهم من غلاة الماديين ، أن من هذا القصص ما لم يرد في التاريخ . وبعضه يعتبر من الخرافات . وجوابنا على هذا كله ما ذكرناه من أن الذين دونوا التاريخ قد جروا في تعميم الحوادث على مطابقتها لأصولهم في تقرير الحقائق ، وقد بينا لك أن من أصولهم نكران وجود خالق الكون ، واعتبار الانسانية والحياة بعد الموت من أعرق المعتقدات الخيالية ، وأشدّها إضراراً بالروح الانسانية ، وهذا ليس بمعيار صحيح لتقدير ما هو حق وما هو باطل من الماخرات العالمية كما قدمنا . أما ما يعتبرونه في القصص من الخرافات ، فهو لأنهم يحنوا التاريخ على ضوء المبادئ المادية البهتة التي تعتبر ، كما قلنا ، وجود الخالق والروح ، والكائنات العلوية والسفلية ، وتأثيرها في خرق النواميس الطبيعية من الأوهام الطفلية . فإذا كان هؤلاء المكذبون ينكرون الحركة العظيمة التي قامت في أوروبا بين العلماء مدة مائة سنة وراء إثبات عالم ما فوق الطبيعة على مقتضى الدستور العلمي ، ويهزأون بما أدت إليه من النتائج المحسوسة في إثبات الروح والحوادث الخارقة للأنواميس الطبيعية ، والقائمون بها أئمة العلم العالمي ومدعمو أصوله ، وقد ألفوا فيها مئات من الكتب ، وأسسوا لها من لها من الجمعيات والهيئات ، وجمعوا لها بحوسبة مؤتمرات عالمية في أكبر عواصم الأرض ، ودحات دراستها في الجامعات وجهات لها مقاعد فيها ، ينكر هؤلاء المستشكلون هذا كله وهو قائم بين أيدينا ويهزأون به ، أفيمستغرب منهم بعد هذا أن ينكروا رسالات الأنبياء ، وأخبار الأمم السالفة وبيننا وبينها ألوف من المنين ؟ محمد زهير ومجدي

الايان الكامل

في نظر القرآن الكريم

حسرة صاحب الفضيلة الاسناذ الشيخ عبد الرحيم المدوي

وجه القرآن الكريم دعوته الى الناس ليؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وليصلوا الى خصال البر ومكارم الاخلاق، فغزت دهوره القلوب، واستولت على الافئدة، لما اتصل بها من حجج وما اكتنفها من براهين. على أنها في الحق دعوة الفطرة السليمة، فلا تحتاج الى دليل عند ذوي الالباب.

والايان عقيدة تملأ جوانب النفس بالامن، ونجوس خلال الجوانح، تمحو الاضطراب والشك، وتغمر القواد باليقين، وتفيض على صاحبها معاني الخير، من عزة النفس وزاها الطبع، وتحجب اليه العدل والانصاف والاستقامة، والاعتراف بالجميل، والاعتداد بعنائع المعروف، وتوجهه وجهة الخير في كل ما يأتي وما يدع. فاذا تم سلطانها وقويت دعامتها في نفس امرئ، فاعلم أنه وفق للسعادة وهدى الى الصراط المستقيم.

والقرآن الكريم لا يعمل على العقيدة المجردة في تسمية المؤمن مؤمنا حقا، بل يطلب آثاره وثمراته؛ فهو يشترط في المؤمنين شروطا اذا حصلوها استحقوا أن يخلع عليهم اسم الايمان، ويقرض عليهم صفات خاصة إذا حققوها صح في نظره أن يكونوا مؤمنين.

والناظر الى هذه الصفات (صفات المؤمنين في نظر القرآن الكريم) يجدها متعددة وتتنوع بقدر ما بينها من فوارق وما فيها من مميزات، لكنها رغم تباينها وتعددتها لا تتجاوز ثلاث صفات:

صفة يقصد بها تربية الناس وتقوية نفوسهم، وغرس الفضائل فيهم، حتى لا تنهم بالتكاليف، أو تضعف عن حمل ما حملت من أمانة، فيقدمون

حينئذ على كل تضحية ، ويتفانون في أعمال البر ، ويقفون جهودهم على سبيل الإصلاح والخير ، ويسلكون سلك الاعتدال في أحوالهم الخاصة والعامة .
يتحملون الشدائد ، ويتمسكون بالصبر الجميل ، فلا تزعمهم المخطوب ، ولا قلين من فئاتهم النواشب .

وبالجملة هي صفات يقصد منها صياغة النفوس البشرية على سنن الفضيلة وطريق الرشاد .

والصفة الثانية من صفات المؤمنين ترجع الى سلوك الانسان الشخصي وابتنائه الخير في خاصة نفسه ، وانتفاعه بالاستقامة في السر والعلن ؛ فهي رقابة يقظة على المرء في حركاته وسكناته ، وحراسة حازمة على الضمائر والنوايا ، لا يصدر صاحبها إلا عن فكر ، ولا يورد إلا عن ووية ، ولا يبدو للناس إلا في مظهر التقى والصلاح ، والطهارة وحسن القدوة ؛ فهو ملاك في صورة إنسان ، وروح لم تخالطها ظلمة الأجسام .

أما الصفة الثالثة من صفات المؤمنين ، فقد اهتم القرآن بشأنها بتمام اهتمام ، وعنى بها أجمل عناية ، لأنها ترتبط بسيرة المؤمن في الجماعة ، وتنصل بالرأى العام ، وتعقبك بالناس ومعاملاتهم ؛ وذلك كله له خطره ومكائنه في حياة الأمم والشعوب .

فلا غرابة إذا رأينا القرآن الكريم يفسح لها صدره ، ويفتح في الحث على تحصيلها ، ليسلم المجتمع من الشرور ، وتخلو الجماعة من عوامل الفساد ، فتعود الأمة ويسعد العباد .

والنوع الأول من الصفات ، وأغنى به الصفات التي يقصد بها تربية النفوس وإعدادها للخير ، تعددت أساليب القرآن في تحصيله والحث عليه .

فتارة يضع بين أيدينا صورة مغرية للمؤمنين العاملين الصادقين ، فيقول : « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وبالأصباح هم يستنقرون ، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » .

وأى نفس تسمع حديث أولئك المؤمنين السككة الذين يقضون الليل في ركوع

وسجود واضع وعبادة لا ينامون من الليل إلا غرارا حتى إذا أظلمهم السحر أخذوا في الاستغفار كمن أقام على جرم أو بات على إثم ؟ من ذا الذي يسمع حديث هؤلاء ولا يغفره ذلك الى الاقتداء بهم ، والسير في طريقهم ؟

وطورا يلج الى النفوس من طريق الوجدان والاحساس ، فيمثل لنا الكاملين في الايمان في صورة المسره الذي عراه ما عراه من خشية وخوف وما حل به من فزع ، ولكنها خشية لا تلبث أن تتحول الى طمأنينة ، وخوف لا يمتك إلا ريشما ينقلب الى راحة وأمان ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، الَّذِينَ يقيمون الصلاة وعمارزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » ، ويقول في آية أخرى « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

وأونة يطلب منا أن نقاوم ما فينا من غرائز ، ونقنبه الى ما فينا من ملكات قد تنزع الى الشر ، وتحت ستار ذلك قد يخفى علينا طريق الخير خضوعا لطبائعا وتمشيا مع غرائزنا ، فيرشدنا الى طريق الصواب في ذلك ، ويهديننا الى سواء السبيل . وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ، فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنُ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » .

ويقول أيضا « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّي مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدُوا لَكُمْ فَاحْذَرُوا » .

حب المال والولد طبيعة منهكنة من النفوس ، قد يستغها الشيطان فيضل الناس وهم لا يشعرون .

ومرة يحدتنا عن الشجاعة والثبات والصبر على الشدائد ، لينرس فينا هذه الاخلاق الكريمة ، فيقول :

« ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسولاه ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » .

وأخرى يصور لنا طاعة المؤمنين السكينة ، فيقول « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمره ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً » .

وحينما يدعوننا إلى الإيمان وعمل الخير ، فيصور لنا ذلك بأنه تجارة رابحة وصفقه تجلب السعادة وراحة البال ، فيقول « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون » .

وكثيراً ما يدعوننا إلى الشجاعة الأدبية وقول الحق ببضاه نقيّة لا يشوبها رياء ولا يخالطها نفاق ولا تمكر صفوها بحماة قرابة قريبة ، أو مداراة صديق ، فيقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

كما أنه رسم لنا طريقاً في الوقوف عند الاستقامة وترك ما لا يعني بقوله : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » . وقوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم » وأقام لنا دستوراً في عدم موالات أعداء الانسانية والدين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء » وقوله : « لا تجد قومياً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » .

أما الآوامر العامة التي يقصد بها الاستقامة في العلوك ، وحفظ الجوارح من اقتراف الذنوب ، والحرص على كل حلال طيب ، فكثيرة لا يحصيها العدد ، منها قوله « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » وقوله « يا أيها الذين آمنوا اتقوا من طيبات ما كسبتن مما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون » .

هذه مجموعة من أساليب القرآن القيمة في الحث على التمسك بالصفات التي

تهذب النفوس وتقوم الأخلاق ، وتمد المرء لكل ما طلب منه من تكاليف ،
وما قل من ثمرات ، وضمنها ما بين يدي القاريء الكريم ، لتكون له دستوراً
يخديه وفاقاً يقيمه .

أما النوع الثاني من صفات المؤمنين وهي التي تتصل بالإنسان في خاصة
نفسه ويصل نفسه به ، وهي ما قلنا عنها إنها صفات رقابة على الإنسان وحراسة
على سلوكه ، فمن أمثلتها قوله تعالى « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم
خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم
لغيرهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ،
فمن اجتنب وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ،
والذين هم على صلواتهم يحفظون ، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس
هم فيها خالدون »

وخلق بمن خضع في صلاته وبلغ الغاية في القيام بالأعمال البدنية والطاعات
وتجنب المحرمات وحفظ أمانته ، ورعى عهده ، أن تكون الجنة مآله ، والفردوس
طابقه أمره ، فيفوز بكل خير ، وينجو من كل ضير ، ويكون مع الذين أنعم
الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

والصفة الثالثة من صفات المؤمنين الصادقين ، هي تلك التي قلنا عنها إنها
تتصل بالجماعة الإنسانية ، وقلنا إن القرآن الكريم غنى بها لعمركم مكاتبا
وعظيم آثارها .

هذه الصفات تنقسم إلى صفات عملية إيجابية ، وإلى صفات سلبية يطلب
من المؤمن الكامل أن يتجنب عنها حتى يتم له الإيمان وتكمل له عقيدته . فمن
الأول قول الكتاب العزيز « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم
واقنوا الله الله يكرمكم » .

فالمسلمون إذا حققوا هذه الأخوة الدينية وعلموا أنهم ينتمون إلى أصل
واحد هو الإيمان الموجب للحياة الأبدية ، إذا هم فعلوا ذلك حسنت حالهم

واقظم أمرهم ، وتعاونوا في السراء والضراء ، وكانوا يدا واحدة على الأعداء ، ولما رأينا بينهم بأئسا ولا مسكينا ، ولا وجدنا منهم ملهوا أو محزوناً .

ورحم الله المؤمنين الأولين يوم كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ويمجدون بما لديهم وهم في أشد الحاجة إليه .

أما المسلمون الآن فقد أهملوا هذه الأخوة الدينية ، ففشا بينهم الحقد ، ونمت البغضاء ، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً ، فذلوا بعد عز ، وضفوا بعد قوة ، وذهبت ريحهم ، فكانوا كغناء السيل ، أو كالريشة في مهب الأاصير .

ومن الصفات الإيجابية أيضاً قوله عز وجل : « والذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم مغفرة ورزق كريم » .

فالمجرة الى الله والفرار بالعقيدة في وقت الفتن من علامات الإيمان الكامل ، لأنه يصبحها البعد عن الأهل والأحباب والأخوان والأصحاب والآباء والأمهات ، وبصبحها أيضاً ترك المال الذي هو قوام الحياة وعون المرء في كل شأن وحال ، ويصبحها أيضاً مفارقة الأوطان التي درج تحت سمائها وتنسم هوائها ، فلا عجب إذا كانت الهجرة التي من هذا القبيل أمانة كمال الإيمان وعلامة تغفل العقيدة في أعماق النفس . والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال تضحية عظمى تدل على ما بين الجوانح من إخلاص في النية وسلامة في الطوية ومتانة في العقيدة وقوة في الإيمان . وإيواء الضعفاء من المؤمنين وبذل المال لمعوتهم ، والقيام على حوائجهم وتهدمهم بالرعاية ، ومسح دموع اليتيم منهم ، وكفالة المجزة والأرامل ، كل ذلك دليل كمال الإيمان . وسمو العقيدة ونصرة الدين وحياطته من كيد الكائدين ، وبذل الجهود لإعلاء كلمته ورفع شأنه من علامات الإيمان الكامل والعقيدة الصحيحة .

وأما الصفات السلبية ، فمن أمثلتها قول القرآن الكريم « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلبسوا أقماسكم ولا تنابزوا باللقاب ، بئس الاسم

الفسوق بعد الإيمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا، يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم . » ومنها قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والمدوان ومعصية الرسول ، وتناجوا بالبر والتقوى ، واتقوا الله لدى إليه تحشرون . »

ومن الآيات الجامعة لكلا النوعين الإيجابي والسبي ، قول الله عز وجل في سورة الفرقان :

«وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما، إنها ساءت مستقرا ومقاما، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما، والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفورا رحيما، ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا، والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما، والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين، واجعلنا للمتقين إماما، أولئك يجزون الغرفة بما صبروا . يلقون فيها نجية وسلاما . »

فهى تحدثنا عن إيمان صادق جمع صاحبه بين السلوك الطيب، ودفع السيئة بالحسنة، وإتقان العبادة في ظلام الليل والناس نيام، والخوف من عقاب الله والخشية من عذاب النار، وكما للخوف من آثار سامية .

ثم تحدثنا هذه الآيات الكريمة عن أولئك المؤمنين الصادقين، بأنهم يعرفون قيمة الاقتصاد في المال وأنه سبيل السعادة، والاقتصاد في القول وأنه طريق راحة البال، وأنهم يعرفون قيمة النفس الانصافية فلا يهتكون لها مترا

ولا يري قون لها دما ، ويحترمون حقوق الغير ، فلا يكونون سبياً في ضياعها
بفسادة الزور وتلبيس وجه القضاء على القاضى ، وفي ذلك سلام المجتمع ونظام
شمل الجماعة .

هذه هي صفات المؤمنين الصادقين الذين قال الله فيهم : « وكان حقاً علينا
نصر المؤمنين » . وقال « إن الله يدافع عن الدين فهو إله لا يحب كل خوان
كفور » .

وهم الذين قال فيهم أيضاً « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات
ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبهم ، ولعلهم دينهم الذي
ارضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً » . يستدركنى لا يشكركون
في شيئاً » .

وقال فيهم أيضاً « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات
الفرودوس نزلاً ، خالدين فيها لا يفتنون عنها حولاً » .

وقال أيضاً : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم
وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار » .

وهم الذين أشاد بذكرهم في أصاليب متعددة بقوله « وعباد الرحمن »
ويقول « يا عباد لا خوف عليكم اليوم » . ويقول « يا عباد » ويقول
« أولئك حزب الله » .

فهل نحن الآن على سنن هؤلاء السيرة العظيمة من الذين هم لنا
من أمرنا راشداً ؟

كبر السن

قال العتبي : لما أسن أبو براء ممرود فملك الناس بلاعب الآلة ، وكان
في الجاهلية من أشجع الناس قلباً ، وأقواهم عصباً ، وأهمهم يقظون العدل ،
ضعفه بنو أخيه وانهموه بالخرف ، ولم يكن له ولد يدفع عنه فأنفأ يقول :

دفعتمكم عني وما دفع راحة
يصفني حلمي وكثرة جهلكم
على « إلى لا أصول بجاسل
فيكم يستعن بالأمول

أبو الأنبياء

لفضيلة الاستاذ الشيخ محمد عبد المذني
المدرس في كلية الشريعة

للإسلام ونبوه الكريم عليه الصلاة والسلام ، صلة وثيقة بخليل الله إبراهيم ، هي أقوى الصلات ، وأرسخها في التاريخ قدما ، وأكثرها بين الروابط وشائج وعرى .

ذكرني بهذا المعنى ، وفتح لي باب الكتابة فيه ، هذا العام الهجري الجديد ، وأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد هاجر بأبى العرب « هاجر » وولده منها وإسماعيل إلى بلاد العرب ، هجرة شبيهة بهجرة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، التي كان لها أطيب الثمرات ، وأبعد الآثار في نشر الدين ، وإبطال الشرك ، وظهور عقيدة التوحيد على كل عقيدة تنافها .

وحسبي في هذا المقال أن أعرض لناحيتين عظيمتين ، من وجوه هذا الاتصال والتقارب بين الرسولين الكريمين :

* * *

فإبراهيم هو الجد الأعلى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما هو الجد الأعلى لكثير من الأنبياء والرسل غيره ، وفي هذا يقول الله عز وجل : « ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون ، وكذلك نجزي المحسنين . وذكرياء ويحيى وعيسى وإلياس ، كل من الصالحين . وإسماعيل وإدريس ونيحان . وولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين . ومن آباءهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتيناهم وهديتناهم إلى صراط مستقيم . »

الضمير في قوله تعالى : « ومن ذريته » لإبراهيم عند أكثر العلماء لأن نوح . ولوط وإن كان ابن أخى إبراهيم إلا أنه ذكر في القرية تغليبا

ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم يمتاز في هذه النسبة بأمر يلفت النظر ،
 هيأه الله له ، واختصه به من بين هؤلاء الانبياء أجمعين : ذلك أن إبراهيم كان
 له ولدان : إسماعيل من هاجر ، ثم إسحاق من سارة ؛ فأما إسحاق فقد كثرت
 ذريته من الانبياء ؛ فشكل من نسب الى إبراهيم في هذه الآيات فهو من ذرية
 إسحق ؛ وأما إسماعيل فهو أبو العرب على اختلاف قبائلهم ، وليس له ذرية
 من الانبياء إلا سيدهم وخاتمهم ، عليه أفضل الصلاة والسلام ؛ فكان الشجرة
 الإبراهيمية قد أنبتت فرعين عظيمين وازن أحدهما الآخر جلالة وشرفا ، وكان
 « محمد » وحده وزان هذه السلالة الطاهرة كلها من الانبياء والمرسلين !

وابراهيم عليه السلام هو باني البيت الحرام ، ورافع قواعده بأمر الله ،
 ومطهره للطائفين والقائمين والركع السجود ، وواضع المناسك والمشاعر ،
 وهو الذي دعا به لهذا البلد الحرام أن يجعله آمنا ، تهوى اليه أفئدة من الناس ،
 وتجبي اليه ثمرات كل شيء ، وأن يبعث في العرب رسولا منهم يتلو عليهم
 آياته ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .

فهذه صلة إبراهيم بمحمد عليه الصلاة والسلام ، نسبا ووطنا وقوما ،
 وهي ناحية بارزة - من غير شك - في حياة هذين الرسولين الكريمين .

* * *

ولكن هناك ناحية أبرز منها ، وأقوى في تحقيق الصلة بينهما ، هي ناحية
 الاتفاق في الدعوة وأسلوبها .

وأول ما يلاحظ من ذلك أن إبراهيم عليه السلام كان منذ صغره مائلا
 عن الشرك ، متزها عن أرباسه ؛ فلم يشرك بالله قط على كثرة ما كان حسوله
 من بواعث الشرك ؛ فأبوه مشرك ، وقومه مشركون ، وللاصنام عندهم منزلتها
 وحرمتها ومعايدها ، ومع ذلك لم يمل قبل بعثته طرفة عين الى جانب الشرك ،
 ولم يعبد إلا الله ، ولم يخشع إلا الله ؛ وقد حدثنا القرآن الكريم أنه لما جادل
 أباه وقومه فيما يعبدون من دون الله استصغروه وقالوا له « أجنثنا بالحق أم
 أنت من اللاعنين » ، ولما حطم هذه الاصنام « قالوا : سمعنا ففى يذكرهم يقال له

إبراهيم . كل هذا يدل على أنه عزف عن الشرك ، وأخلص التوحيد لله ، وهو بعد في سن مبكرة لم يمد طور الفتوة والشباب ؛ ولهذا يقول الله عز وجل : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين » ويقول : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين » .

وكذلك كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقد تولاه ربه برأيته منذ طفولته ، وبراءة مما كان يسود قومه وعشيرته الأقربين من الشرك والفحش والعمر واللهو وسائر أنواع المجون ، وأدبه فأحسن تأديبه ، حتى كان يعرف في قومه « بالصادق الأمين » ، ولم يسجد لصنم قط ، ولا استقسم بركم قط ، ولا استطلع كاهنا ، ولا استعان بمواف ، وقد حببت إليه العزلة والبعد عن مظاهر الشرك والوثنية ، وهو العربي القرشي الذي نشأ فوجد أهله زعماء القوم وكبار المشركين .

وإبراهيم كان له طريقة عقلية مارة في محاجة الخصوم ، ومقارعة المبطلين بالدليل تلو الدليل ، على نحو من الاستدراج المنطقي ، أو ما يسمونه في البحث والمناظرة بإرخاء العنان للخصم حتى يماجا بما ليس في حسابه فيرتبك ويتلعثم ويضطر إلى التسليم .

وأمثله هذا فيما حكاه الله في القرآن الكريم عن إبراهيم كثيرة ، حسبنا أن نعرض لبعض منها بالتفصيل ، وأن نشير إلى بعض آخر :

١ — « ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك » .

محاجة دارت بين إبراهيم وجبار عنيد غره ملكه حتى نازع ربه الذي يملك ناصيته فادعى الربوبية ، وقد ناقشه خليل الله مناقشة أبطل فيها إفكه وسفسطه ، وبين كثرة جهله ، وضعف عقله ، وألزمه الحجة حتى انقطع وتمحير « إذ قال إبراهيم ربى الذى يحى ويميت » لم يقل له : وبى يحى ويميت ، لأنه لا يريد أن يصف الله بالإحياء والإماتة فحسب ، ولكنه يريد أن يستدل بأحيائه وإماتته وما يرى الناس من المشاهدات في الكون على وجود صانع لها ، فقال : ربى هو الذى يفعل ذلك ، كأنه قال له : أنا لا أعبد ولا أدين بالربوبية إلا

لمن بيده الأحياء والإماتة والتصرف في الخلق بما يشاء، لأنه هو الذي يستحق
عبادتي وخضوعي، أما من كان مثلي في خضوعه لهذا الرب وما يستحقه به،
فليس جديراً بأن يكون رباً لي. فإذا قال له الكافر: «أنا أحيى وأميت»،
لم يستطع أن يقول «أنا الذي أحيى وأميت»، وإلا لكان مكابراً صريحاً العناد،
ولكنه تحايل بهذا اللفظ ليخدع السامعين، ولا يكشف أمام الحاضرين،
فأسند لنفسه نوطاً من الأعمال صفاء إحياء وإماتة، على نحو من الحيلة
والسفسطة (١)، فكان إبراهيم يستطيع أن يريف له هذا الرد، ويبين له أنه
في واد غير واديه، ولكنّه لم يفعل، فأعرض عن هذه الحجة لأنه يعلم أن
صرف الوقت في ردها والنقاش فيها غير لازم، وانتقل إلى حجة أخرى. قال
إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فليس بميت لدى
كفر، لأنه لم يستطع مع هذه الحجة الساطعة أن يتبجح ويتلاعب بالالفاظ
والمعاني كما فعل من قبل. «والله لا يهدي القوم الظالمين».

٢ — وقد تجلت طريقته الخاصة أيضاً فيما قصه الله علينا من استدراجه
للذين يعبدون غير الله، إذ رأى الكوكب فقال: «هذا ربّي» وسكت على
ذلك مدة حتى إذا غاب الكوكب وأقل «قال لا أحب الكوكب» وهكذا فعل
مع القمر، ثم مع الشمس، فكأنه يقول لقومه: «ما من شيء من هذه الآله
المستحق للألوهية وأن يفرد بالتوحيد، هيّا بل هذه كلها تسبّحون لها
حتى نجدها، وتلك طريقة في إيصال الحقائق أو التوصل إليها من جهة النفس
والتربية بعظيم جدواها، وكأني بقومه فسدوا، فلو أنهم لم يفسدوا لكانوا
ما يعبدون، ثم تبين لهم أنه يستدرجهم من جهة النفس، فلو أنهم لم يفسدوا
الفرصة بعد هذا الاستدراج الذي تضمن إيصالهم إلى ما هم فيه من
خطواته، فأعلنها كلمة صريحة قوية ذات أساس متين، فلو أنهم لم يفسدوا
تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً، وما أنا
من المشركين».

(١) قالوا: كان يؤتى بالرجلين قد تحتم قتلها فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر
فكأنه قد أحيا هذا وأمات ذاك.

٣ - وقد اتخذى قومه باهانتة لأصنامهم ، واستهزائه بهم ، ثم أعلن فيهم أن هذه الأصنام عدوله ، فإذا كان لها قوة فلتفعل به ما تشاء ، فهو لا يخافها ولا يعبأ بها ، وهو آمن كل الأمن من قبائها ، لأنه لا يخاف إلا الله الذى فطره ، والذى يطعمه ويسقيه ، وإذا مرض فهو يشفيه ؛ ويصور لنا القرآن الكريم هذا التجدى فى مواضع كثيرة ، منها قوله تعالى : « وحاشا قومه ، قال : لننجو لنى فى الله وقد هدانا ولا نخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شئ علما ، أوفلا تتذكرون ! وكيف أخاف ما أشركتم ولا يفتخرون به ، أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ، فأى الفريق أحسن ملة ؟ إن كنتم تعلمون » .

وہذہ حجۃ لا یترى فیہا ذو عقل ، ولا یصد عنها من کان عندہ ذرۃ
من العاصی ، وذلک عنز اللہ بہا فبقول : « وتلك حجۃنا آتیناها ابراہیم
علی قومه » ، ترفع درجات من شاء ، ان ربک حکیم علیم .

[illegible]

وعلى مثل هذا السبق كانت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وحجته التي لقنها الله إياه كالقنها أباه إبراهيم من قبله ؛ فها جاء القرآن الكريم إلا بالمنطق الحق ،

والحجة البالغة ، وتتبع الخصوم في كل ما تعللوا به من شبهات لتكذيب الدعوة وتوهينها .

جادلوه في عقيدة البعث والفسور وقالوا « من يحيى العظام وهي رميم » ؟ فعلمه ربه أن يقول « يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم »

وكانوا يقولون : « أثنا لنارك آلهتنا لشارع مجنون ؟ » فيرد الله عنه بقوله « بل جاء بالحق وصدق المرسلين » « وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » « قل إني نهييت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي ، وأمرت أن أسلم لرب العالمين . هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طافلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون . هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » .

وهكذا تقوم دعوة الاسلام على لسان محمد صلى الله عليه وسلم بما قامت به على لسان إبراهيم عليه السلام : حجة وبرهان ، ونظر وتدبر في ملكوت السموات والأرض ، يدعى إليهما كل قائل ، ومنطق سليم لا يجعده إلا مكابر قد أطفاه العناد ، وأفسده اللجاج .

وقد استجاب الله بذلك دعوة إبراهيم ، وجعلها باقية في عقبه ، وإنما بقيت بمحمد وشرعية محمد .

ولذلك أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بإعلان هذه الحقيقة ليعلم الناس أن دين الله واحد ، فقال له : « قل إني هادي ربي إلى صراط مستقيم ، ديننا قيسما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

أوائل المتكلمين من المسلمين

واصل بن عطاء - شيخ المعتزلة

لفضيلة الأستاذ الشيخ علي مصطفى الغرابي

انتهى بنا الكلام في المقال السابق عن « واصل » الى ما كان له من المقام في العلم ، مع بيان بعض ما نسب له من كتب . وفي هذا المقال نحب أن نواصل الكشف عن بعض نواحي ذلك العالم السلفي حتى تؤدي له بعض حقه علينا ، فإن للآباء حقوقاً على أبنائهم ، وإن كثيراً من سلفنا قد ظلم من الزمن ومن أهله ؛ ولا نجد طريقاً لدفع ذلك الظلم عنهم إلا نشر الحقائق التي لو عرفها الناس لتغير رأيهم فيهم ، وحلوا منهم المحل الذي يليق بهم . وإن من هؤلاء العلماء « واصل ابن عطاء » لأنه شيخ المعتزلة ورئيسهم الأول . وبعد ما سمعت أيها القارئ نبذة صوّرت لك حياته تصويراً إجمالياً ، نحب أن تعرف أولاً موقف بعض علماء الفرق الكلامية الأخرى منه ، ورأيهم فيه ، فنقول تمة لما سبق :

٤ - واصل في نظر بعض علماء الفرق الكلامية :

إن ما تقدم - كما قلت - هو ما أمكننا استخلاصه عن واصل من جملة مراجع ، إلا أن بعض من ألفوا في الفرق الكلامية يذهبون في واصل الى غير ما ذهبوا اليه ، فيجعلونه تارة خارجياً ، وتارة جهمياً ؛ ولم يقف بهم الأمر الى ما ذكر من كونه خارجياً وجهمياً ، بل ذهبوا الى أكثر من هذا وهو « أنه كافر » .

أما من سماه « خارجياً » فهو عبد القاهر بن طاهر البغدادي الأشعري المتوفى سنة ٤٢٦ هـ سنة ١٠٣٧ م ، في كتابه « الفرق بين الفرق » ص ٩٨ : « ثم إن واصلًا وعمرًا وافقًا الخوارج في تأييد عقاب صاحب الكبيرة في النار مع قولها بأنه موحد وليس بمشرك ولا كافر ، ولهذا قيل للمعتزلة « إنهم مخانيث الخوارج » .

أستاذة « بأنه في منزلة بين المنزلتين ، وأنه فاسق » كما سذكر ذلك - إن شاء الله - عند الكلام على آرائه . ولقد كان ذلك الرأي الذي ذهب إليه التلميذ يخالف رأى أستاذة ؛ إذ أن الحسن كان يرى « أن مرتكب الكبيرة ليس في منزلة بين منزلتي الإيمان والكفر ، وإنما هو منافق فاسق » . قال أبو الحسين عبد الرحيم الخياط المعتزلي المتوفى آخر القرن الثالث الهجري في كتابه « الانتصار » ص ١٦٥ : وقال الحسن ومن تابعه : « مرتكب الكبيرة مع فسقه ونجوره منافق » . وقال ابن المرتضى في كتابه « المنية والامل » ص ٢٣ - حين تحدث عن الجدل الذي قام بين واصل وعمر بن عبيد على مرتكب الكبيرة - : إن واصل قال لعمر : أوليس تجد الفرق على اختلافهم يسمون صاحب الكبيرة « فاسقا » ، ويختلفون فيما عداه من الأسماء ، فالخوارج تسميه « كافرا وفاسقا » ، والمرجئة تسميه « مؤمنا فاسقا » ، والشيعة تسميه « كافر نعمة فاسقا » ، والحسن يسميه « منافقا فاسقا » .

ولما أجاب التلميذ بما يخالف رأى أستاذة طرده من درسه - كما تقول بعض الروايات - فقام واصل إلى جانب سارية من سوارى المسجد وأخذ يقرر رأيه على بعض زملائه الذين كانوا معه في درس الحسن ، وقد أعجبهم رأيه في مرتكب الكبيرة ، وكان من بينهم « عمرو بن عبيد » الذي انضم إليه بعد أن أقنعه واصل برأيه . إن تلك الرواية قد تدل على أن علاقة التلميذ بأستاذة قد ساءت ، وأن جبل المودة بينهما قد انقطع ، وأصبح التلميذ بهذا عالما لأستاذة ؛ وقد يقوى ذلك الرأي أن المؤرخين قد وقفوا إلى هذا الحد من كلامهم على واصل ، مما جعل أكثر من قرأ عنه ، بل كل من عرفه يعتقد أن الخصومة قد بقيت بين الحسن وواصل حتى توفي الحسن رضى الله عنه عليها ؛ وليس كذلك ، بل لما أن الخلاف بينهما كان قد ولحق ، ولم يكن للهوى والشيطان ، فإنه لم يؤثر على علاقتهما ، ولم يمنع التلميذ أن يحضر على أستاذة ويسمع لنصائحه وعظاته ويحفظ عنه وصاياه ؛ يدلنا على هذا ما كتب به واصل إلى عمرو بن عبيد - حين بلغه عنه أنه قد حاد عن نهج أستاذة في التفسير من تنقيص المعاني ، وتفريق المباني - ولقد اشتد عليه واصل في التفرع والتأنيب ، وأخذ يذكره

بكلام أستاذة فيه وأنه كان يخافه ، وأنه كان يتوقع منه أن سيميل عن طريقته ، وأنه شكاه لله مقدما . وقد ذكر ذلك الكتاب ابن عبد ربه في كتابه « العقد الفريد » ، ص ٣٨٦ — ٣٨٧ فقال : كتب واصل الى عمرو يقول : « أما بعد ، فإن استلاب نعمة العبد ، وتمجيل المعاقبة ، بيد الله ، ومهما يكن ذلك فباستكمال الآثام ، والمجادرة للجدال الذي يحول بين المرء وقلبه ، وقد عرفت ما كان يطمئن به عليك وينسب اليك ، ونحن بين ظهراى الحسن بن أبى الحسن رحمه الله ، لاستبشاع قبح مذهبك ، ممن قد عرفتهم من جميع أصحابنا ، ولما إخواننا الجاملين الواعين عن الحسن ... ثم قال : عهدى والله بالحسن وعهدكم به أمس في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشرق الاجنحة ، وآخر حديث حدثنا إذ ذكر الموت وهول المطلاع ، فأسف على نفسه ، واعترف بذنبه ، ثم التفت - والله - بمنة ويسرة معتبرا با كيا ، فكأنى أنظر إليه يمسح مرفض العرق عن جبينه ، ثم قال : اللهم قد شددت وضين راحلتى ، وأخذت أهبة سفرى الى محل القبر ، وفرش العفر ، فلا تؤاخذنى بما ينسبون الى من بعدى ... » الخ

إن ذلك الكتاب الذى أرسله واصل الى زميله « عمرو بن عبيد » يدلنا - كما قلت - على أن واصل قد بقيت علاقته بأستاذه ولم يفرق بينهما الخلاف فى رأى ، كما يريد خصوم واصل ، وكما يريدون أن يوسعوا شقة الخلاف بينهما ، وغضب الأستاذ على تلميذه ، مع أن واصل لم يكتف بمجرد العلاقة بينه وبين أستاذه ، بل كان يحرص على سماع دروسه ، والانتقال معه فى الأسفار ، والارتحال معه فى سبيل العلم ؛ لأن هذا الدرس الذى أوصى فيه الأستاذ تلاميذه الذين كان من بينهم (واصل وعمرو) كان بالمدينة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ويظهر أنها كانت آخر رحلة من الحسن الى مسجد الرسول عليه السلام ، حيث إنه رجع الى البصرة وتوفى بها ، وقد صارت العلاقة بينهما على خير حال . وبهذا يظهر خطأ من ظن أن العلاقة بين الأستاذ وتلميذه انقطعت ، وأن الأستاذ توفى غاضبا على تلميذه . وأحب أن أقف بالقارئ الى ذلك القدر من الكلام على واصل ، وفى مقال آخر سنتحدث عن آرائه الكلامية ، إن شاء الله .

الفنون . فما حاجت الفتن بدخول الفرنسيين مصر ، داخله الخوف ، ففر الى
تصعيد كجماعة من العلماء ، ثم عاد بعد أن حصل الأمن ، واتصل ببعض
علمائهم ، فكان يعلمهم العربية ، ويعلمونه من علومهم ، مما جعله يقول : « إن
بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ، وتتجدد معارفها » ، ويطول عجبها مما وصل
إليه الفرنسيون من العلوم والفنون .

ثم ارتحل الى الشام سنة ١٢١٥ هـ ، وأقام في دمشق زمنا ، وارتحل الى بلاد
الروم سنة ١١١٧ هـ ، وأقام هناك مدة طويلة ، وسكن بلدة « اشكودرة » من
بلاد الأرقوود ، وتأهل بها وأعقب ، سكن لم يبق عقبه ثمة . ولم يفتّر شغفه
بإفادة والاستفادة في رحلاته . حتى عاد الى مصر كما نروح الطير ، مزودا
بعلوم وفلسفات انتزعت من مشيخة عصره الإقرار بتفردده ، والاعتراف
بامتيازها . وكان أول ما بدأ به بعد عودته ، أن عقد مجلسا لقراءة تفسير
البيضاوي ، وكانت قد مضت مدة طويلة ، لم يقدم أحد من مشيخة الأزهر
على تدريس هذا التفسير فيها ، فحضره أكابر الشيوخ ، وكانوا يفضون حلقتهم
ويقومون الى درسه متى حضر لإلقائه . ومما نقل عنه أنه قال : « قدم علينا
عصر عام سبعة وثلاثين ومائتين بعد الألف كبير جبال الدروز ، أقيم أهل
الجبال عليه ، ملتجئا بوزيرها محمد علي باشا ، وقدم بصحبته بطرس النصراني ،
فاجتمع بالفقير مرارا ، ورأيت منه أدبا جادا ومحاضرة ومعرفة بالتواريخ والأيام
والأنساب والنحو وغير ذلك ، وكان يكتب الخط الحسن ، وامتدحني
بقصيدة منها :

أما الذكاء فانه أذكى وأبرع من إياسه
نضحى البديع رفيقه لما تفرد في جناسه
في نبي فن شأنه فسكانه باني أساسه

ولقد أجنده فوافقه في سائر العلوم - لاسيما الحكيمية وما يتبعها من الرياضيات
والهندسة وكانت غير معروفة في الأزهر - حسدا معاصريه ، فافتنوا في نصب
الفخاخ له ولمن ينصل به ، وزاد في حدة ذلك ما كان يلقاه من تقرب والى
مصر محمد علي باشا ، وعرفانه لفضله ، وإكباره لشأنه .

ومن أغرب ما يروى من مسكيدم : « أن المشايخ اجتمعوا مرة في القلعة

لأمر من الأمور ، وكان المترجم بينهم وهو شيخ للأزهر ، فصرفوا نعله ، واحتالوا حتى صرفوا خادمه ببلغته ؛ فعماد إلى بيته في حارة الحمام ما يشاء في جواره ، جامعا « فرجيته » على رأسه تذكرها . . .

وتولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ الدموجي سنة ١٢٤٠ هـ فقام بها خير قيام . وتوفي سنة ١٢٥٠ هـ .

وشعر العطار ونثره من المتعالم المشهور

* * *

وكان بين الخشاب والعطار ود متبادل ، وألفة وثيقة ، يصفها الجسري فيقول : « وبعد أن رجع صاحبنا العلامة الشيخ حسن العطار من سياحته ، مازج المذكور وخالطه ورافقه ووافقته ولازمه ، فكان كثيرا ما يبيتان معه ، ويقطعان الليل بأحاديث أرق من نسيم السحر ، وألطف من تساق نظم الدرر ، وكثيراً ما كانا يتنادمان بداري ، لما بيني وبينهما من الصلوة الأكيدة ، والمودة العتيقة ؛ فكان برناحان غندي ، ويطران التكفوت التي هي على النفس شديدة ، ويتمثلان بقول من قال :

في انقباض وحشة فإذا ربت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتهما وفلت ما فلت غير محنهم

ثم يتجاذبان أطراف الكلام ، فيجولان في كل فن من الفنون الأدبية والتواريخ والمحاضرات ؛ فتارة يتشاكيان تغير الزمان ، وتذكر الإخوان ؛ وأخرى يترنمان بمحاسن الغزلان ، وما وقع لهما من صدق وهجران ، ووصل وإحسان ؛ فكانت تجري بينهما مناديات أرق من زهر الريح ، وأفتك بالعقول من الحدق المراض ؛ وهما حينئذ فريدا وقتها ، ووحيداً مصرهما ، لم يعززا في ذلك الوقت بثالث ، إذ ليس ثم من يدانيهما فضلاً عن مساواتهما في تلك الشؤون التي أربت على المشائي والمثالي ؛ واستمرت صحبتهما ، وتزايدت على طول الأيام مودتهما ، حتى توفي المترجم ، وبقي بعده الشيخ حسن فريدا عن يشاكله ويناشده ، ويتجاري معه ويحاوره ، فسكت بعد حسن اليان ، وترك نظم الشعر والنثر ، إلا بقدر الضرورة وتفاق أهل العطر ؛

وذلك لتفاهم الخشوب ، وتزايد الكروب ، وفقد الإخوان ، وعدم الخلاق ؛ واشتغل بما هو خير من ذلك ، وأبقى ثواباً فيما هنالك ؛ من تقرير المعلوم وتحقيقتها ، والتأليفات المتنوعة في الفنون المختلفة وتنميتها ؛ وهو الآن على ما هو عليه من السعي في خدمة العلم وإقراء الكتب الصعبة ، وله بذلك شهرة بين الطلاب . . . الخ ، هـ .

ثم بعد ، فإن من يقرأ ترجمة المطار ، التي دوتها المرحوم العلامة أحمد بك الحسيني ، في مقدمته لشرح كتاب الام للشافعي ، المخطوطة في دار الكتب الملكية ، والتي هي المرجع الوحيد ، والتي لخصها المرحوم علي مبارك باشا في المخطط التوفيقية ؛ ثم يدرس ديوان الخشب المطبوع في مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ ؛ أقول : إن من يقرأ هذا وتلك ، يحزم — مع تجربتي — أنهما كانا فريدي وقتها ، ووحيدى عصرهما ؛ وأنهما أول من حمل راية التجديد في جحر العصر الحديث ؛ المطار في سائر العلوم لاسيما الحكمة وما يتبعها من الرياضيات والهندسة ؛ والخشب في فنون الشعر والنثر ، وأن من تلاهما من أعلام التجديد ، كالسيد جمال الدين والطويل والامام ، وكصفوت الاساطني ، والبارودي ومن بعدهم ، افتقدوا قبل أن يؤموا ، ورأوا قبساً فشوا في شئونه ، ونهضوا بسننه ، ووسعوا من دائرته . وبتقاضانا الإلصاف أن نضم إلى المترجمين العظمين ، صاحبهما الكريم العلامة الشيخ عبد الرحمن الخبزي ، فإنه لم يكن دونهما رغبة في التجديد ، وشغفا بالعلم ، وعلماً بأن وراء علوم الأزهر ، علوماً أخرى ، لا سبيل إلى رقي الفرد ، ولا إلى نهوض الأمة دون الجد في تحصيلها ، والعمل على اكتسابها .

* * *

على أن المترجمين ، وإن اختلفت جهتا فوقهما ، يلتقيان في أن كلا منهما طالع قرض الشعر ، وله في فنونه مضطرب ، يناسب عصرهما حيناً ويسمو حيناً ؛ ولهما فيه مساجلات ، لفت نظري من بينها موشحتان ، بدأ المطار فنظم أولاهما ، وعارضه الخشب فنظم الأخرى .

وفد رأيت أن أجعلهما موضوع « موازنة » بين المترجمين ؛ ثم بينهما وبين وشاحي العصر الحاضر ، في حديث آخر ، فقد طال هذا الحديث .

من طرائف القرآن الكريم

الفضيلة الاستاذ الشيخ عبد الغنى عوض الراجحي

المدرس بمعهد القاهرة ومبعوث الأزهر الى لبنان

كنت أفتاء اضطلعت بعمل رسالتى « متشابه المظم فى قصص القرآن الكريم » كثيرا ما يفضى الى النظر تقابله والاسترسال فيه الى طرائف قرآنية لم يصرفنى أنها كانت على هامش الرسالة عن تقييدها ، ثم بدأ تخصيصها ببحث مستقل ، والحقائق ضالة الباحث أنى وحدها التقطها .

كان عملى فى جوهره قائما على دراسة القصة فى القرآن ، كيف جاءت القصة الواحدة فى سورة على كيفية من الالفاظ والعبارات ، ثم جاءت هذه القصة نفسها فى سورة أخرى على كيفية أخرى من الالفاظ والعبارات ، تختلف الحكاية فى موضع عنها فى آخر ، والمحكى فى أصله شيء واحد . (١)

كان بيان السر فى ذلك كثيرا ما يجرى الى بيان السباق والسبق والمتحاق لكل قصة فى كل سورة ، وكان ذلك بدوره يجرى الى مراجعة السورة مراجعة إجمالية ، واستحضارها بصفة عمومية بحيث تكون من نعمها الى بينها أمام ناظرى كباقة الزهر لا تكاد تختفى فيها زهرة ، وعلى مسمى كحوقة الموسيقى لا تكاد تند منها نغمة .

وعلى ضوء هذا العمل سرعان ما ظهر لى أنه كثيرا ما يكون للسورة من القرآن ظاهرة تشيع فيها ، وتنساب خلال آياتها ، وتبدو واضحة السكين قوية المعالم فيما يتجاور أو يقتارب من الآيات .

هذه الظاهرة أعم من أن تكون معنى من المعانى ، أو نغمة من الالفاظ ، أو طريقة من طرق الأداء أو نحو ذلك ؛ كما أنها قد تكون سبباً فى العدول

(١) راجع مثالا لذلك فى قصة آدم حيث ذكرت فى السور : البقرة ، الاحراف ،

الحجر ، الاسراء ، الكهف ، طه ، ص .

عن طريقة سوق القصة في سورة الى طريقة سوقها في سورة أخرى ، وفي المدول عن لفظ الى آخر ، وعن وجه الى آخر ، ونحو ذلك .

انظر مثلاً سورة (طه) تصفحها وتتبع آياتها تجدها قد شاع فيها الذكر والنسيان وما يشفق منهما ويدور حولها ، الأمر الذي كان سبباً في سوق قصة آدم فيها مفتوحة بقوله تعالى « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً » مقتصرأ فيها على الإطناب في ذكر دخول آدم الجنة ، وعهد الله إليه بعدم الأكل من الشجرة ، ونسيانه عهد ربه ، وهبوطه الى الأرض ، مع التنويه له بذكر الله الذي من أعرض عنه فإن له معيشة ضنكا ومحشره الله يوم القيامة « عسى » قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى .

عنى أن سورة (ص) قد شاع فيها الشقاق والخصام ، فكان بدء القصة فيها بقوله تعالى : « ما كان لى من علم بالملاء الأعلى إذ يختصمون » ، وكان الاختصار فيها على الإطناب في حكاية ما كان بين إبليس وربه من مقاولات الخصومة والنزاع ، دون التعمرض فيها لمسألة دخول آدم الجنة ونسيانه عهد ربه ؛ كما لم يتمرض في سورة (طه) في نفس القصة للخصومة والمقاولات بين إبليس وربه .

أما أن سورة (ص) قد شاع فيها الشقاق والخصام « فالذين كفروا في عزة وشقاق » الآية ٢ ، وقصة داود فيها كثير من الخصومة باللفظ والمعنى من الآية ١٧ إلى الآية ٢٦ ، وأهل النار عند النهاية في تخاصم ، الآية ٩٦ وما بعدها .

أما أن سورة (طه) قد شاع فيها الذكر والنسيان فذلك يغنى عن الإطالة في بيانه الرجوع إلى الآيات ٣ ، ١٤ ، ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٢ ، ٨٨ ، ٩٩ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٣٦ ، ١٣٩ (١) .

(١) . ما ذكر من أرقام الآيات مع ما أشهد له من حقائق في هذا المقال إنما هو بمثابة مفتاح في يد الباحث ينسج له - التلويح إلى مداخل هذا البحث معتمداً على مجهوده الشخصي فأنتى لم أجدها فيها تراكباً اليه بحثى - أحداً ذكر شيئاً عن هذه الظاهرة في - سور القرآن - والسيوطى يحى سؤل به في أمثال هذه المباحث قد حام حولها ولم ينفذ إليها وكانت منه على ضربة معول قد يفر بها . راجع كتابه الاتقان في علوم القرآن ص ١٢٣ - ٢ ط الحلبي .

وانظر مثلاً آخر سورة يوسف ، ترها وقد شاعت فيها الرؤيا وتأويلها ؛ فالآيات ٤ ، ٥ ، ٦ ، رؤيا وتأويلها ، والآية ٢٦ مع الآية ٤١ رؤيا وتأويلها ، ومن الآية ٤٣ إلى الآية ٤٩ رؤيا وتأويلها ، والآيتان ١٠٠ ، ١٠١ حديث عن الرؤيا وتأويلها .

ثم انظر إليها أيضاً وقد شاع فيها المسكر والسكيد والتدبير ؛ فإخوة يوسف يستخلصونه من أبيه بحيلة « أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا لحافظون » ، وإنما أخذوه للإيقاع به ثم يبرئون أنفسهم أمام أبيهم بحيلة أن جاءوا على قميصه بدم كذب « وجاءوا أباهم عشاء يبكون قالوا يا أبانا إننا ذهبنا لنتسقى وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » ، وما أنت عموم من هذا ولو كذب صادق .

ثم تفيض له النجاة من الحب بتدبير بالغ اللطف من الله ، حيث جاءت سيارة فأرسلوا واردم فأدلى دلو ، قال : يا بشرى هذا غلام . ثم يدبر له امرأة العزيز أحكم الحبل حيث غلقت الابواب وقالت هيت لك ، ولما سمعت بمسكر سوءة في المدينة لقولهن : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه فبد شعهم حبلها ليراهن في ضلال مبين ، مكرت بهن فأعتدت لهن متكاً ، وكانت كل واحدة منهن سكينة وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملامك كريم ، قالت فذا سكن الذي لمنى فيه وتقدم يودنه عن نفسه فاستمعهم ، ولئن لم يفعل ما أمره لم يستخرجوه من السجن . ثم يدبر الله ليوسف خروجه من السجن وظهوره في مصر ، فحينئذ يرى يوسف حيث رأى عزيز مصر أحلاماً عسر تأويلها ، وأرسل يوسف ليخبره عن رؤياه فقال له في سجنه وعلم من تأويله للأحلام ما لا يعلمون . وقد استخرج يوسف إخوته مرة ثانية إلى مصر بحيلة « اجعلوا أصابعهم في أرجلهم لعالمهم يعرفوها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعالمهم يرجعون » ، وإنما كان ذلك لاجل أن يقول الله تعالى لهم من أبيهم كما قال « اتنوني بأخ لكم من أبيكم لا توتوني أبي » . ولما سلموا وأماخير المنزلين . فإن لم تاتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون » . ثم استبقى لديه أخاه بحيلة أن جعل السقاية في رحله ثم أذن أبوه المير بكما اسرقوا « فبدأ بأوعيتهم قبل وطأ أخيه ثم استخرجها من وده أخيه » وكانوا قد

«من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين» وفي الآية ٥ «فبكيدوا
بكم كيذا» وفي الآية ٢٨ «إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم» وفي الآية ٣١ «فلما
سمعت بمكرهن» وفي الآية ٣٣ «وإلا تصرف عني كيدهن» وفي الآية ٣٤
فصرف عنه كيدهن وفي الآية ٥٠ «إن ربي بكيدهن عليم» وفي الآية ٧٦
كذلك عندما ليوسف وفي الآية ١٠٣ «إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون» وفي
آية ٥٢ «إن الله لا يهدي كيد الخائنين».

وانظر مثلاً آخر سورة الأنبياء فقد شاعت فيها طريقة ختم الآية بالسكون
النافع يقع خيره فاصلة آخرها نون قبلها واو أو ياء، الآيات ٧، ٨، ١٤، ١٧،
٢٨، ٤١، ٤٦، ٥١، ٥٤، ٦٣، ٦٨، ٦٩، ٧٣، ٧٤، ٧٧، ٧٨، ٨١،
٨٣، ٨٧، ٩٠، ٩٧، ١٠٣، ١٩٤.

وانظر مثلاً آخر سورة صرجه فانها قد شاع فيها ذكر الرحمة والرحمن حتى
في قوله «يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود» كما في قول إبراهيم لأبيه «يا أبت إني أخاف أن
يغاث بك من الرحمن فتكون للشيطان ولياً» وقد تردد ذكر هذين اللفظين
في آيات ٢، ١٨، ٢١، ٢٦، ٤٤، ٤٥، ٥٠، ٥٣، ٥٨، ٦١، ٦٩، ٧٥،
٧٨، ٨٥، ٨٧، ٨٨، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٦.

ثم بدأت السورة بذكر الرحمة في قوله تعالى «ذكر رحمة ربك عبده
رؤف» فذكر في هذا المطلع الرحيم لتنظم السورة كلها، كما أنه على أثر هذا
الذكر في هذه الآية وهي مطلع قصة زكريا توارد سائر قصص السورة
سواء ذكر في مقامه على واحدة واحدة. واذكر في الكتاب مريم» الآية ١٦
«وذكر في الكتاب إبراهيم» الآية ٤١ «وذكر في الكتاب موسى»
الآية ٥١ «وذكر في الكتاب إسماعيل» الآية ٥٤ «وذكر في الكتاب
يسا» الآية ٥٦.

وانظر مثلاً آخر سورة الشعراء، فقد شاع فيها ذكر تكذيب الأقوام
وسمهم، ودعوة الرسل لهم بطريقة موحدة، فالآية ١٠٥ «وما بعدهما» كذبت
«سوء نوح مرسلين» «قل هم أخوه نوح لا تقنقون» «إني لكم رسول أمين»
«تقنقوا لله وأنبياءه» «وما نسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين».

والآية ١٢٣ وما بعدها « كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود
 ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من
 أجر إن أجرى إلا على رب العالمين » والآية ١٤١ وما بعدها « كذبت نمرود
 المرسلين إذ قال لهم أخوه صالح ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله
 وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين »

والآية ١٦٠ وما بعدها « كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط
 ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه
 من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين » .

والآية ١٧٦ وما بعدها « كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب
 ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من
 أجر إن أجرى إلا على رب العالمين » كما يأخذ هذه التكرار بحجزة
 التكذيب المذكور عن أهل مكة في مطلع السورة الكريمة حيث يقول تعالى
 فيهم الآية ٦ « فقد كذبوا فسيئاتهم أفباء ما كانوا به يستهزئون » ثم انظر إلى
 نفس السورة كيف شاع فيها ذكر هاتين الآيتين المتلازمين تكتمل أن كل
 قصة في السورة « إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو
 العزيز الرحيم » الآيات ٧ ، ٨ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٣٩ ،
 ١٤٠ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٩٠ ، ١٩١ .

كم تأخذ هذه الآيات بحجزة الآية المذكورة مطلع السورة الكريمة في
 الآية ٤ حيث يقول الله في أهل مكة « إن أشأ نزل عليهم من السماء آية فظنوا
 أعناقهم لها خاضعين » .

وانظر مثلاً آخر سورة القمر كيف شاع فيها ذكر التكذيب من الأقوام
 رسالهم على وتيرة متشابهة قصة نوح « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا
 الآية ٨ وما بعدها » .

قصة هود « كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر » الآية ١٨ وما بعدها .
 قصة صالح « كذبت نمرود بالنذر » الآية ٢٣ وما بعدها .

فصية لوط : كذبت قوم لوط بالنذر « الآية ٣٣ وما بعدها .
 قصة آل فرعون : كذبوا بآياتنا كلها « الآية ٤٢ ، ثم كان ذلك التكذيب
 كله أخذاً بحجزة التكذيب المذكور في مطلع السورة عن أهل مكة حيث يقول
 تعالى فيها الآية ٣ : « وكذبوا وتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر »
 ثم شاع في نفس السورة أيضاً ذكر « النذر » الآيات ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ،
 ٢٣ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ، وكان ذلك كله أخذاً بحجزة المذكور
 مطلع السورة الآية ٥ حيث يقول تعالى « حكمة بالغة فما تغني النذر »
 ثم شاع في نفس السورة أيضاً قوله تعالى « فهل من مدكر » الآيات ١٥ ،
 ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٥١ ، وكان بمثابة قرع العصا لأهل مكة صرات وصرات ،
 وكان في الوقت نفسه أخذاً بحجزة المذكور مطلع السورة الآية ٤ حيث يقول
 تعالى في أهل مكة « ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر »
 والظر مثلاً آخر وأخيراً سورة الرحمن ، والمرسلات كيف شاع في الأولى
 قوله تعالى « فبأى آلاء ربكما تكذبان » وفي الثانية قوله تعالى « ويل يومئذ
 للكافرين » (١) .

من تحقيق كميور علوم ردي

في سور القرآن روضات واضحة الحدود والمعالم ، لكل روضة رواء خاص
 وحسن متميز يترق في فيها ، وهو على شيء كثير من التشابه في مظهره ، وللتناسب
 في جوهره . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير .

جواد

نظر خالد بن عبد الله القسري من مظلة له يوماً فرأى أعراباً مقبلاً على
 بعير له فقال حاجبه : إذا قدم فلا تحجبه ، فلما قدم سلم وقال :
 أصحك الله قبل ما بيدي فما أطلق العيال إذ كثروا
 ألاح دهر ألقى بسككاه أرسلوني إليك وانتظروا
 فقال خالد : إذن لا تنزل لكي تسرع إليهم بما يسرهم . وأمر له بجائزة .

(١) راجع أيضاً السور المائدة والصفات والكهف ملك واجد فيها ما هو من هذا القبيل .

بحث في مقارنة الشرائع الوضعية

بالشريعة الإسلامية

لحضرة الأستاذ صاحب بكير

المدرس بكلية أصول الدين

عمرات من النساء وبجاسة الزواج

بينما فيما سبق أن الزواج يحرم بين الرجل والمرأة إذا كانت بينهما قرابة أو معاهرة، وأنضيف الشريعة الإسلامية إلى ذلك الوضع

والتحريم يرجع إلى عوامل فسيولوجية، وإلى أنه يؤدي إلى ضعف النسل وانتشار الأمراض، كما يرجع إلى عوامل خلافية

ومع ذلك ففي بعض الأحوال خاصة لبعض التشريعات غير الإسلامية يصبح التجاوز فيها، عن هذا التحريم، فيرخص به الزواج، وسنذكر من ذلك

أولاً - في عهد التشريع الكنسي ثم بعد ذلك في قانون الكنيسة والتي ترتب عليها حصول اضطراب كبير في سلطتها، مما أدى إلى تجاوز الزواج وتجاوز عن بعض الموانع، وكان ذلك لاعتبار كثير من الموانع في العهد الأول للكنيسة ما كانت توجد تراخيص تعفي عنها، مما حصل تعفي الكرامة، حيث لم يكن للكنيسة سلطان على أعضائها، فكانت هذه الزواج، لا السلطة التأديبية، فلقاضي الكنسي، مما لا يخفى على الزوج أو الزوجة فقط عراه.

وحينما أصبح قانون الكنسي تشريعاً حقيقياً، بأشبه مادة الزواج، ظهرت نظرية الاجازة والترخيص كإمتياز خاص ومحصري للمشرع فقط.

وفي القرن الثاني عشر على الأقل كان البابا يحتفظ بالسلطة العامة لمنح تراخيص الزواج ووضع القواعد والشروط التي تحدد تطبيقاتها. وحينما حصل النزاع في حق تشريع مادة الزواج بين الدولة والكنيسة، لم تتوان الدولة في أن تدعى لنفسها حق الترخيص بالنسبة للموانع التي قررتها هذه.

وفقد تقرر أن الموانع التي منشؤها حق طبيعي أو حق إلهي لا تلحقها لإجادة، أما الموانع التي منشؤها يرجع إلى الحقوق الوضعية، فإنها هي التي تكون محل إجازة وترخيص، سواء كان ذلك تشريع الكنيسة أو تشريع لدولة، كالترخيص بزواج الأعمام أو الأخوال أو العمت أو الخالات مع أولاد الأخ أو أولاد الأخت، وكالترخيص بالزواج بين أولاد الأعمام أو أولاد الأخوال أو أولاد العمت أو أولاد الخالات، وكالترخيص بالزواج بين إخوة الزوجين، وكالترخيص بالزواج بين بعض أقارب الزوجين الخ.

وقد قرر مجلس التراث عدم منح تراخيص الزواج إلا في أحوال نادرة وبأسباب هامة، ومع ذلك فإنه لم يراع هذا القرار حيث تضاعف عدد الموانع بمراتب زيادة فاحشة، فمن ذلك عدم كفاية الدوطة، وسن الخمس والعشرين سنة للمبنيات، وكالاتحاد الخفي، وكوسيلة لإنهاء دعوى هامة قائمة، وكالاتفاظ أعمى أو أبله ومحترمة، وغير ذلك.

وبهذه طاب الترخيص يكون برفع عريضة للبابا الذي يرسل بدوره ترخيصا على شكل رسالة للكهنة المنتدب الذي يقوم بتحقيق الوقائع المؤهلة للترخيص للمزوجين.

وأما القوانين الحديثة فقد ظهرت شديدة الحرص في هذه المسألة حيث لم يبق من الموانع إلا ما كان ضروريا، فمثلا القانون المدني الفرنسي لا يحظر الترخيص بالزواج الممنوع إلا في أحوال ضيقة، فهو لا يحجز مطلقا لزواج من نفس النسب (بين الأصول والعروع) كما لا يحجز الزواج بين الولد لمسمى ومن زوج من نسبه أو بالعكس، ولكنه يرخص الزواج بين بعض الأقارب والأعمام الخ، بشرط أن تكون هناك أسباب خطيرة، وبشرط موافقة رئيس الدولة على ذلك، فقد نصت المادة ١٩٤ على ما يأتي :

إبطال الزواج وإنفاؤه — مسموميات :

البطلان المطلق والبطلان النسبي

الجزء المترتب على مخالفة الشروط المقررة لعقد الزواج عرفه فقهاء وأصوليون عرى الزوجية . وقد كان قديما بطلان الزواج وأضر دعواه من اختصاص المحاكم الكنسية والبرلمانات . وقد نشأت عن ذلك حلول هيأت لأن يأخذ بها القانون المدني الفرنسي فيما بعد ، خصوصا التمييز بين الموانع المحرمة تحريما بسيطا ، وبين الموانع المحرمة تحريما مطلقا قاطعا ، والمؤدية إلى إبطال الزواج واعتباره كأن لم يكن ، كما هيأت هذه الحلول أيضا للقانون المذكور نظرية البطلان المطلق والبطلان النسبي . والفرق بينهما أن البطلان المطلق يبيح لكل ذي مصلحة في رفع دعوى الإبطال كما يبيح ذلك أيضا للنسبة المسمومية . (وهذا يشبه دعوى الحسبة) بينما أن البطلان النسبي لا يبيح رفع دعوى الإبطال إلا للزوجين أو لأحدهما أو لأقاربهما فقط . وقد زالت أهمية بطلان الزواج أمام ظهور تشريع الطلاق ؛ إذ أنه في العهد القديم كان الطلاق غير مباح وغير مشروع ، كما كان الالتجاء إلى إبطال الزواج هو الشائع كواسطة لانتهاء الزوجية ، وكانت أحواله كثيرة ؛ فقد كان يكفي العاط أو الإكراه مثلا للحكم ببطلان الزواج ، وكان هذا يقوم مقام الطلاق . والفرق بين البطلان والطلاق أن الطلاق يفهم عرى الزوجية مستقلا بينما يعتبر الزواج كأن لم يكن .

أحوال البطلان في القانون المدني الفرنسي

أحوال البطلان التي نص عليها هذا القانون ست (١) : عدم رضا الزوجين أو أحدهما (٢) عدم موافقة القريب الذي له حق لموافقة عرى الزواج بالنسبة للقاصر ، وهاتان الحالتان ترجعان إلى حماية إرادة الزوجين . وأما الأربعة

الموافقة فترجع إلى النظام العام ، ولذا فالبطلان المترتب عايبها بطلان مطلق ، وهي (٣) عدم البلوغ (٤) قيام زوجية لأحد الزوجين أو لـكليهما (٥) التزوج بالتحريم (٦) عدم مراعاة شرط من الشروط الشكلية الجوهرية كالإشهار ، وكاختصاص مأور الأحوال المدنية الخ . وسنتحدث عن أحكام نوعي البطلان .

البطلان النسبي

(١) من أسباب البطلان النسبي عيوب الرضا كالغلط والإكراه والغش ، وهي معروفة ؛ ومع ذلك فإن عيوب الرضا أساسا ليست سببا لبطلان الزواج المزمع إلا إذا كان الإكراه خطيرا ؛ وما الخوف من الوالدين الناشئ عن الاحترام فلا يعتبر سببا لبطلان الزواج ، بينما الغلط لا يكون سببا للبطلان إلا إذا كان الغلط واقعا على ذات الشخص . وهذا لا يتأتى الآن عمليا لأنه طبقا للقانون المدني الفرنسي لا بد من حضور الزوجين أمام مأور الأحوال المدنية ، وهذا يبعد كثيرا الوقوع في الغلط على ذات الشخص ، ولكن المحاكم الفرنسية ذهبت إلى إمكان الحكم بإبطال الزواج في حالة الغلط في الصفات الجوهرية للشخص ، إذ تعتبر هذه الصفات كذات الشخص ، فالغلط فيها يعتبر كالغلط في ذات الشخص .

ثم ليس لأحد خلاف الزوجين طلب إبطال الزواج ، ولكن المعاشرة لمدة ستة أشهر بعد إبطال الإكراه أو العلم بالغلط تعتبر إجازة ضمنية للزواج وقد تكون صريحة بالموافقة بالقول .

(٢) ومن أسباب إبطال الزواج عدم الموافقة عليه ممن له حق الموافقة ، وذلك بالنسبة لزواج القاصر . وحق طلب إبطال الزواج قاصر فقط على من له حق الموافقة ، وقد حدد القانون مدة لرفع دعوى الإبطال ، فالتسكوت طول هذه المدة يعتبر إجازة ضمنية ، وقد تستخلص الإجازة الضمنية أيضا من بعض الوقائع والظروف ، وكما تكون الإجازة صريحة بالقول .

أسباب البطلان المطلق :

هي (١) عدم الرضا من الزوجين أو من أحدهما (٢) عدم البلوغ القانوني

(٣) وجود زوجية قائمة لأحد الزوجين أو كليهما خلاف هذه الزوجية
(٤) الزواج بأحد المحارم (٥) عدم الاثهاد (٦) عدم اختصاص مأمور
الأحوال المدنية . وهذه الأسباب تبيح لكل ذي مصلحة كما للنيابة العمومية
طلب إبطال الزواج . وهذا البطلان لا تلحقه الإجازة . ومع ذلك ففي بعض
الأحوال يصح إجازة هذا الزواج وينقلب صحيح .

هل هناك أحوال يمكن أن يعتبر فيها الزواج غير موجود ؟

لم يشر القانون المدني الفرنسي الى هذه الأحوال ، ولكن يستفاد ذلك
من القواعد المقررة لإجراء عقد الزواج ، فلا يمكن مثلاً أن يقال إن هناك
زوجية عند اتحاد جنسي المتعاقدين ، وكعدم إشهار الزواج أو كعدم تدوين
مأمور الأحوال المدنية ، أو كعدم تسجيل عقد الزواج في السجل . ففي مثل
هذه الأحوال لا يمكن أن يقال بوجود زوجية . والفرق بين البطلان المطلق
وعدم وجود الزوجية أن البطلان المطلق قد تلحقه الإجازة في بعض الصور ،
بينما عدم الوجود لا تلحقه الإجازة ، لأنها فرع الوجود وتصحيح خطأ

آثار بطلان الزواج :

يترتب على بطلان الزواج انعدام آثاره في الماضي والمستقبل ، بینه في
حالي الطلاق والوفاة تنعدم الآثار في المستقبل دون الماضي . والأصل أن
الزواج الذي حكم ببطلانه يعتبر كأنه لم يكن ، ولم يخرج عن كونه معاشرة غير
قانونية فتعتبر الأولاد أولاداً غير شرعيين ، ولا تسقط أهلية المرأة في
التصرفات ، كما أن العقد الخاص بالنظام المالي بين الزوجين يعتبر كأنه لم يكن الخ .
ويلاحظ أن المرأة التي حكم ببطلان زواجها لا يجوز لها أن تعقد زواجا
جديداً من شخص آخر قبل خروجها من العدة ، وهي عشرة أشهر من وقت
صدور الحكم بالبطلان .

الزواج الفاسد .

وتختص هذه النتائج وقسوتها بالنسبة للزوجين أو لأحدهما ، وبالنسبة

للأولاد، فسعت الكنيسة ابتداء نظرية الزواج الفاسد، وملخصها أن الزواج الذي حكم ببطلانه يعتبر كأنه زواج صحيح بالنسبة للأولاد، وكذلك بالنسبة للزوجين أو لأحدهما إذا ثبتت حسن نيتهما أو حسن نية أحدهما. وعلى هذا فتعتبر الأولاد أولاداً شرعيين، وعلى الزوجين أن يفترقا وينقطعا عن المعاشرة ويعيدا زواجهما طبقاً للشروط والأوضاع القانونية. وقد أقر القضاء الفرنسي هذا المبدأ واتبعه.

الشرعة الإسلامية

إذا رجعت مذهب لأحد فبطلان العقد الذي لم يشرع بأصله ولا بوصفه، والفاسد ما شرع بأصله دون وصفه. فالزواج الباطل هو كما إذا حصل خلل في صيغة العقد أو خلل في أصل أهلية المتعاقدين لفقد التمييز كالجنون أو الصغر. وهذا الزواج يعتبر كأنه لم يكن، ويعتبر وجوده كعدمه، ويعتبر الدخول بمنزلة الزنا، فلا عدة على المدخول بها بعد المتاركة، ولا يثبت به نسب، ولا حرمة مصاهرة، ولا توارث، ولا مهر، ولا نفقة ولا طاعة.

وأما الزواج الفاسد فهو كما إذا احتل شرط من شروط صحته كعقد الزواج بغير شهود، وبمجرد هذا العقد لا يترتب عليه أثر ما، بمعنى أن المتزوجين زواجا فاسداً إذا افترقا قبل الدخول لا تثبت به عدة ولا مهر ولا حرمة مصاهرة ولا نسب ولا ميراث. أما إذا دخل الزوج دخولا حقيقياً فيترتب على ذلك: (١) وجوب المهر على الزوج، إما مهر المثل أو الأقل من المسمى ومن مهر المثل إن سمي في العقد مهر. (٢) وجوب العدة على الزوجة بعد التفريق. (٣) ثبوت النسب. (٤) حرمة المصاهرة، وما عدا هذه الآثار الأربعة فلا يترتب على الزواج الفاسد أثر آخر كالتوارث والنفقة والطاعة وحل الاستمتاع.

ودعوى التفريق تثبت لكل مسلم لأنها من دعاوى الحسبة إزالة للمنكر. وأما المالكية والشافعية فلا يفرقون بين الباطل والفاسد. وعلى هذا فكل نكاح لم تتوفر فيه الشروط المقررة فهو نكاح باطل وفاسد، وأما من حيث الأثر وخصوصاً النسب فقد وضع المالكية قاعدة عامة وهي:

« كل نكاح يندريء به الحد فالولد لاحق بالوفاة ، وكل نكاح يحجب فيه الحد لا يلحق الولد بالوفاة » .

ويستنتج مما سبق :

(١) أن الشريعة الإسلامية لم تقع في ذلك الاضطراب الذي وقعت فيه الشرائع الأخرى .

(٢) عدم وجود ما يسمى بالترخيص أو إحارة الزواج في الشريعة الإسلامية ، وهذا واضح لعدم وجود تعقيد في عقد النكاح الإسلامي .

(٣) لا توجد في الشريعة الإسلامية دعوى بفساد الزواج لأن البطلان أو الفساد ثابتان ، وإنما القاضى بحكمه بالتفريق بعد ثبوت البطلان أو الفساد .

(٤) دعوى التفريق في الشريعة الإسلامية حتى تسكن مسلم من باب إزالة المنكر . وبهذا يتضح تفوق الشريعة الإسلامية على غيرها من الشرائع الأخرى تنسبها مع المنطق والأخلاق ، وأن قواعد النكاح التي وضعها خلت من التعقيد والاضطراب ، فأصبحت صالحة لكل عصر . وهذه الميزة لا توجد في الشرائع الأخرى التي تغير كل يوم في قواعد زواجها . وهذا نحر عظيم للفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية .

أجوبة محكمة

قال هرون الرشيد لعبد الملك بن صالح : « كفراً بالجمعة وغدراً بالامام ؟ فقال الرجل : ما ذلك يا أمير المؤمنين إلا بغى باغ نافسى فيك بتقديم الولاية وحق القرابة . فقال الرشيد : هذا قامة كاتيك بخبرنى ففعلك . فقال عبد الملك : أحق يا قامة ؟ قال نعم ، لقد أردت ختل أمير المؤمنين والغدر به . فقال عبد الملك : كيف لا يكذب على من خافى من بهتنى في وجهى .

قال الرشيد : هذا ابنك شاهد عليك . قال عبد الملك : يا أمير المؤمنين هو بين مأمور أو طاق . فان كان مأموراً فمذور ، وإن كان طاقاً فما أخاف من عقوفه أكثر .

لغويات

القيثارة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي النجار

المدرس بكلية اللغة العربية

جری هذا اللفظ هكذا في عبارات المحدثين . وهو لضرب من آلات
اللهمودي ستة أوتار تحرك بالأصابع فيأتي من ذلك غناء مطرب . وهذا اللفظ
معرب عن جيتار في الفرنسية guitare ، وهو مبدوء بالحرف الذي بين
الجيم والكاف ، ويعرف بالجيم الفارسية . فترى أنهم أبدلوه قافا ، لما لم يكن
هذا الحرف من حروف العربية الفصيحة . وإني أختار وأستحب أن يكون
بدل هذا الحرف جيم عربية ، فيقال : القيثارة . وقد فعل العرب ذلك
بكلمات كثيرة عربوها على هذا النحو . فقد قالوا الجام وأصله لكاف بالكاف
الفارسية ، وقالوا آجر ، وأصله أيضا في الفارسية آكر ، وقالوا الجرداب
لوسط البحر ، وأصله الجيم الفارسية ، إلى كثير من المعربات على هذا النسق . على
أن العرب في قليل من الألفاظ أبدلت من الجيم الفارسية قافا ، وكافا ، فقالوا :
قربق ، وكربق لكان البقال ، وأصل الكاف والقاف فيه الكاف الفارسية .
وإني أسوق إليك نصا لإمام النحو سيبويه إذ يقول : « يبدلون من
الحرف الذي بين الكاف والجيم الجيم اقربها منها . ولم يكن من إبدالها
بد ، لأنها ليست من حروفهم . وذلك نحو الجربز ، والآجر والجورب .
وربما أبدلوا القاف ، لأنها قريبة أيضا ، قال بمصهم : قربز ، وقالوا : كربق
وقربق (١) » والجربز : الحب الخبيث ، وهو معرب عن الفارسية . ولقد وقفت
على صورة للكلمة (قيثارة) قديمة أتت بالكاف . وذلك في شعر أبي عامر
ابن شهيد الأديب الأندلسي . وذلك حيث يقول (٢) :

تغنيه أطيار القيان إذا انتشى بصنح وكيثار وعودِ كِران

(١) من الكتاب ج ٢ ص ٣٤٢ (٢) من القنينة ج ١ ص ٢٦٧

وخير لنا أن نتبع هذا التعريب القديم إذا لم نصر إلى الجيثار .
ومما يحسن ذكره في هذا المقام أن اللفظة انتقلت إلى الفرنسية عن الأسبانية
وهي في لغتها الأسبانية جسترا guistarra فدخلت الفرنسية بحكم الجوار ،
ودخلت العربية فيما يبدو عن الأسبانية بحكم المخالطة والمداخلة في الأندلس
في عهده السعيد . وفي بعض المعاجم أن الكلمة في الأفرقية ، ويحتمل
أن تكون العربية أخذت عنها . وما ذكرناه هو الأرجح .

ويرى القاريء مما سبق أن ابن شهيد استعمل الكيثار غير مختممة بتاء
التأنيث . ويستعملها المحدثون تارة مجردة من التاء كما فعل ابن شهيد . انظر
إلى قول الأستاذ محمد الصياد (١) :

ألقيت للنار في غفلة مني
عودي وقيثاري وقلت لي : غنّ

وتارة بالتاء - وهو الجاري في الاستعمال - ومن ذلك قول الأستاذ (٢)
أنور المطار في البصرة :

مدينة الماء والرواء ففتت بالحسن كل راء
وهجت قيثارة الفضاء بأعذب من الشعرى والغناء

احتج العمال على سوء معاملتهم

ترى هذا وأمثاله كثيرا . يستعمل الاحتجاج في موضع الإنكار
والسخط لبعض الأشياء التي تنوب امراً أو طائفة أو شعباً من الشعوب .
فالدولة تعتج لدى الدولة الملانية أن أهين سفيرها ، وأذيل نائباها ، والشعب
يحتج على إنكار حقه وهضمه ، وهكذا مما لا تكاد صحيفة دورية تخلو منه .
والاحتجاج في وضعه اللغوي هو الإدلاء بالحجة والدليل لتأييد الدعوى ،
وتمكينها ، ولاتراه في وضعه يدل على الإنكار الذي أطبق الناس على استعماله
فيه . والبحث يهدي إلى أن مراد هذا الاستعمال في العربية الترجمة لاسلوب
غربي يأتي فيه ما يقابل لفظ الاحتجاج بمعنى الإنكار . ويلاحظ أن الاسلوب
الغربي تفرق فيه مادة الاحتجاج بعبارة تدل على المخالفة والخصامة فيقال
في الفرنسية :

١ - من مجلة الكتاب جزء نوفمبر سنة ١٩٤٧ .

٢ - المصدر السابق .

أحتج في مواجهة جور واقع . Je proteste contre une injustice .
وهذه العبارة التي تقارن مادة الاحتجاج تشربها معنى الإنكار والاستياء ،
وليس كذلك ما يقرن مادة الاحتجاج في العربية ؛ فإنها توقع السامع في لبس
وإيهام . فالمدعى المسمى لقولك : أحتج على إهانتى : أنى أقبح الحجة على هذا الأمر
وأعتقد أنه وأدفع عنه . ويحلل لبعض الباحثين أن يخرج هذا الأسلوب على المجاز ،
فيزعم أن الإنكار يدعو الى الاحتجاج والاستدلال وبيان ما يدعوا اليه
من الأسباب ، وقد دل بالمسبب وهو الاحتجاج على السبب وهو الإنكار .
وقد علمت أن الداعي لاستعمال الاحتجاج في الإنكار لم يكن هذا الذي
يذكره هذا الباحث ، وإنما هو الترجمة للأسلوب الغربي ، كما عرفت . والأسلوب
الغربي قد لا يسه ما يقربه من معنى الإنكار ، وقد خلا عن ذلك الأسلوب
العربي . فالأولى للأدباء هجر هذا الاستعمال ، والعود الى أن يستبدلوا به
مادة الإنكار أو السخط أو الاستياء ، وما جرى هذا المجرى .

أخطركم بكذا

تستعمل مادة الإخطار بالشئ في الإعلام به . يقول الناس في هذا العصر :
أخطرت فلانا بكذا ، وأخطر الرئيس العامل أنه فصل واستغنى عنه ، وأخطر
صاحب البيت الساكن بالاخلاء ، يراد أنه أهله بذلك . ولا نرى هذا المعنى
المساده في اللغة ؛ غير أن عندي لها تحريجا : أن يكون هذا الأسلوب على القلب
في القصة ؛ والأصل أن يقال : أخطر بك هذا الأمر أى أجعله يخطر بك ،
يقال : أخطر الله بباله أمر كذا : وضعه في خاطره وروعه وقلبه . وذلك فيه
معنى الإعلام . فمعنى أخطر بك كذا : أشعرك به وأدريك ، فقلب هذا فقيل :
أخطرك بكذا . والقلب يجري في مخاطبات كثيرا ؛ من ذلك عرضت الحوض
على الناقة ، وخلعت رأسى من القلنسوة - وقد سلف لنا بحث في القلب يحسن
الرجوع اليه في هذه المجلة - وقد رأيت أن الإخطار كثيرا ما يستعمل في الإعلام
بالأمر المكروه ، وهو يرادف في هذه الحالة الإنذار . ومما يستعمل في بعض
الحين في معنى الإنذار : الإيدان . فهو في وضعه الأصلي للإعلام ، يقال :
أخطرك بكذا ؛ فخطته . ومن استعماله في الإنذار قوله تعالى : فإن تولوا فقل

آذنتكم على سواء» . قال الونخشمري : «وآذن من آذن إذا علم . ولكننه
كثر استعماله في الجري مجرى الانذار، ومنه قوله تعالى : « فأذنوا بحرب من الله
ورسوله » ، وقول ابن حازة : آذنتنا ببعضها أمباء » .

مرافق لهذا صورة لشهادة الميلاد

تري هذا الأسلوب في الكتابات الديوانية . وكثيرا ما يجد القاريء مثل
هذه العبارة : مقتطع من راتب فلان خمسة قروش . والمنشادر في هذا الأسلوب
أن يكون الوصف الذي بدئت به الجملة خبرا مقدما وذو الوصف مبتدأ مؤخر ،
فرافق خبر ، وصورة مبتدأ ، وهكذا على هذا النحو . ولكن يقوم في وجه
هذا التخرج أن الخبر يجب أن يكون مطابقا للمبتدأ ، فكان الواجب أن يقال :
مرافقة لهذا صورة ... وعلى ذلك لا يستقيم هذا الوجه . والتخرج الصحيح
أن يكون مرافق مبتدأ وصورة فاعلاله سد مسد الخبر ، ولا يجب تأنيث
المبتدأ في هذه الحالة . وتري أن الوصف استغنى برفوعه عن الخبر دون أن
يعتمد على نفي أو استفهام ، وهذا رأي الأخفش والكوفيين . ولا بأس
باتباعه لتصحيح هذا الأسلوب الجباري بين الناس .

دخل الطلبة المدرسة اثنين اثنين

يتردد هذا الأسلوب في الدلالة على تكرار العدد ، فيكررون اسم العدد
كما ترى . والمعروف عن العرب في هذا أن يأتوا بلفظ واحد بدلا من العدد
المكرر ، فيقال : دخل الطلبة المدرسة مثنى أو ثناء ، يعدلون إلى إحدى
هاتين الصيغتين عن اثنين اثنين . وهكذا يقولون : دخلوا أحاد وموحد ،
وثلاث ومثلث ، ورباع وسربع . وفيما جاوز هذه الأعداد خلاف طويل الذيل
بين علماء العربية لا يعنينا تفصيله وبسطه في هذا المقام . وقد ذكرت هذا
حين وقع نظري في صحيفة أخبار اليوم ٣ / ٥ / ١٩٤٧ على النبا الآتي :
« اتفق ستون من طلاب جامعة لوفان على أن يخرجوا من جامعتهم اثنين اثنين
في الساعة التاسعة صباحا » ، وقلت : إن هذا خطأ من الكاتب لم يوافق
الاستعمال العربي الصحيح ، ولو توخاه لقال : على أن يخرجوا من جامعتهم
مثنى ، أو ثناء . وقد كنت مقتنعا بهذا الحكم منذ قراءتي لشرح الاشتوني ؛

فقد وقفت حين ذاك في حواشي الألفية للشبّخ كس على قوله : « لا يقال : جاءوا واحدا واحدا ، ولا اثنين اثنين ؛ لأن العرب قد عدلوا عن ذلك إلى أحاد ومثنى ، وكذا أقرانهم . فهذا من الأصول الممجورة نص عليه في الدرة » . ورجعت إلى الدرة ، وهي درة الغواص للحريري ، فألفت النقل صحيحا لم يخرم منه الشيخ يس حرفا . وأردت التثبت والتوسع في هذه المسألة فرجعت إلى ما كتبه الشهاب الخفاجي على الدرة ؛ فقد كنت أعلم أنه كثيرا ما يتعقب الحريري في تخطيطه للأصاليب الجارية ، ويكر عليه كـ الناقد البصير . ولقد ألفت الشهاب الخفاجي بخطي الحريري في هذا الحكم ، ويصوب تكرير العدد فيما أسلفت ، ويسوغ أن يقال : دخل الطلبة المدرسة اثنين اثنين . وإني أسوق إليك كلامه ، ثم أناقشه فيه : قال الشهاب : « تخطيطهم في استعمال واحدا واحدا إلى آخر ما ذكره للدلالة على التكرير خطأ ؛ لأنه مقيس كثير في كلام العرب ؛ كما قال الشاعر :

إذا شربنا أربعا أربعا فقد لبسنا الفرو من داخل

ولو لم يكن أصلا شائعا لما كان أحاد معدولا عنه ، وكان المعدل فيه تقديريا ، ولا قائل به . وفي شرح الكافية للحدادي : أسماء العدد المستعملة للتكرير المعنوي بلفظها مطردة . وإنما عدل ليكون نصا فيما قصد به ؛ فإن ثلاثة ثلاثة مثلا يحتمل التأكيّد بخلاف صيغ أحاد وموحد . وتري أنه رد على الحريري بأصمّين : الأول أنه مقيس ؛ وهذا لا ينافي فيه ولا يجحد ، فلا فرق بين قولك : أعط المساكين درهمين درهمين ، وقولك : جاءوا اثنين اثنين في مجرى القياس . والثاني أنه كثير في الاستعمال . وهذا إذا صح كان هدما لكلام الحريري ونقضا أي نقض له . فإن الحريري بنى حكمه على أن هذا أمر أطرحه العرب وأهملوه وهجروه ، وما أطرحه العرب فهو مسطرّح ، وإن سوغه القياس على النظائر والأمثال . ونرى أن الشهاب لم يجيء في سبيل دعواه كثرة الاستعمال لما أنكره الحريري بشيء يذكر ، ولا سلطان مبين . فكل ما أورده قول الشاعر : إذا شربنا أربعا أربعا ، والظاهر أن الشاعر يريد : إذا شربنا أربعا من الأكؤس ثم أربعا منها ، وعلى ذلك لا يكون المقام لرباع ؛

فإنه لو قال: إذا شربنا ربيع كان المعنى: أننا طوائف، كل طائفة أربعة في حال الشرب كما لو قيل: خرجنا ربيع أى خرجنا طوائف كل طائفة أربعة، ولو أراد هذا لكان المقام لتأنيث العدد فيقول: إذا شربنا أربعة أربعة. وهذا يحصل لو شرب كل واحد من الطوائف كأساً واحدة، ولا يؤدي هذا إلى ما رتب عليه وقدر من قوله: فقد لبسنا الفرو من داخل، أى عمنّا الدفء أو غمرنا الحر؛ فإن ذلك لا يكون بالكأس الواحدة. فتري أن الشهاب ركب الشطط في هذا الاستدلال. على أنه لم يحمل الشاعر صاحب هذا البيت بما يرفع الجهالة عنه حتى نعلم حاله في الاحتجاج به. فلمعله أن يكون من المولدين الذين لا يحتاج بكلامهم. ويغلب على الظن هذا، فإن المعنى الذي ذكره، وهو لبس الفرو من داخل للكناية عن الدفء، معنى غريب يأتي من التأمل والتفكير، ولا يكون للعربي الساذج. ودعواه أن هذا الأصل لو لم يكن شائماً لم يكن أحاد معدولاً عنه كلام لا يغني عنه من الحق شيئاً. فكثير من الأشياء عدل عنها واقتصر على الفرع وأهمل الأصل إهمالاً كلياً. ألا ترى أن الأصل في قولك: عسى زيد أن يقوم، عسى زيد قائماً، ولو قيل هذا الأصل لوقع القائل في الخطأ الفاحش، وقد حكموا بالشدوذ على قول الشاعر:

أكثرت في العذل ملحاً دائماً لا تكثرون إني عسيت صائماً

وبعد، فما زلت على رأبي الأول في استهجان الأسلوب المدون في صدر البحث، ولا أزال كذلك حتى ينينى عنه وجه صحيح. وفقنا الله لاتباع الحق حيث كان.

شرجه

تستعمل هذه العبارة في معنى مساوي الشيء ونظيره في أمر من الأمور. وجاء في مجلة الاثنين ١٩٤٧/٩/١٦ ما يأتي «وأنا أيضاً شرجه» ويبدولي أن الأصل شرجه. فصحف الجيم إلى الحاء. ومثل هذا كثير. والشرج في اللغة من معانيه: المثل، والنظير. والله أعلم.

إيمان أبي بكر

لفضيلة الاستاذ الشيخ إبراهيم علي أبو الخشب

الإيمان ضروري للبشر لا يقل مسيس الحاجة إليه عن مسيسها إلى الطعام والشراب ، وذلك لأنه إذا كان الطعام والشراب غذاء الأجسام وقوامها ، فإن الإيمان غذاء الأرواح تسمو به إلى ملكوت علوي من العقيدة ربما كان من الصعب تحويلها عنه ، خصوصاً إذا كانت من تلك النفوس الكبيرة التي لا ترى اللذة والسعادة إلا في محيطه الواسع العميق . . . وهذا هو السر - على ما أرى - في أن المؤمنين يستهينون بالموت ، ويستعذبون الاستشهاد ، ويستسيغون التضحية ، ويستصغرون الشدائد مهما كانت لونها وطعمها ؛ بل يطلبون ذلك ، ويعملون له ، لتنمو تلك الشجرة وتتمكن ، فإذا « أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » . وكأما ينتفون هذا العراك رياضية وتهذيباً ، وثقافة وتأديباً .

وفضيلة الدينار يظهر سرها في حكمة لا في ملاحه رقصه

ومن هنا كان الجهاد - في الإسلام - باباً من أبواب الجنة . ومن هنا أيضاً كان نزوع محمد قبل الرسالة وقلقه وحيرته واضطرابه وخلوته بفار حراء الليلي ذوات المدد ، ينطلق إلى هدف يركز فيه إيمانه ، ويقصر عليه قلبه ولسانه ، وصره وإعلانه .

ومسارعة أبي بكر رضي الله عنه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم واضحاً يده في يده مدعماً لما جاء به إلى قريش خاصة ، وإلى الناس عامة ، قد يؤولها المؤولون بالصحبة القديمة ، والمودة السالفة ، التي ربطت بينهما طفلين غريبين ، وشابين فتيين ، ورجلين كبيرين ؛ والحب إذا تحكم بين شخصين ، وتأكدت في نفوسهما أواصره ، غطى على كل اعتبار ؛ مع أن الأمر ليس كذلك ؛ فإن الرجل كان من الظالمين المتعطشين ، لم يلبث حين توجهت إليه الدعوة أن أصابت منه « مواقع الماء من ذى الغلة الصادي » . ولو أنه عبد الأوثان

أو آمن بغير الله ، لكانت له كبرية ، وقال كما قال المعاندون : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .

وإذا كان الإيمان خوفا مشوبا بشك يساور العابد في رضاء معبوده ، فإنه كذلك صلابة في الحق ، وثبات على المبدأ — على حد بعض التعابير — . وهكذا كان ابن أبي قحافة ، فسا قرأ القرآن وجلست له وعيدته « فار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة » إلا بسكى واخضلت لحيته بالدموع ؛ وما ذكر يوم القيامة إلا ارتعدت فرائصه وقال : « لو كانت إحدى قدمي داخل الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله . » مع أنه من المبشرين بها . وحديث صلابته في الحق يتجلى في محاربته لأهل الردة ، أولئك الذين انتهزوا فرصة موته صلى الله عليه وسلم فتمعوا الزكاة . وكأني به :

في كل منبت شعرة من جسمه أسد يمد إلى الفريسة مخالبها

يقول له عمر بن الخطاب : كيف تقايل قوما يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ؟ فيقول له « والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلهم عليه » . وقد تصل تلك الصلابة في الحق إلى درجة أن تهىء لصاحبها أنه وحده دولة ، لها من اليأس صولة . وكثيرا ما تواتل المهن الشداد على صناديد المهاجرين والأنصار « وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » فإذا به كأنه صاحب المتنبي الذي يقول فيه :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلهم هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

بحيره ابن الدغنة حينما أراد الهجرة إلى الحبشة ويقول له « مثلك لا يخرج ولا يخرج ، إنك تكسب الممدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » ثم يطوف به على منتهيات قریش ومجتمعاتها يملهم بما بينه وبينه ، وينذرهم إن تصدوا له بسوء أن يردده إليهم أضعافا مضاعفة ، ويكون الرجاء حارا في أن يتخفى « المستجير » بدينه وقرآنه لئلا يفتن به نساؤهم وأبناءؤهم . ولكن ذلك لم يحرك من الرجل ساكننا ، أو يزعزعه طائفة ، فيحاول إعلان عبادته ، ويقرأ القرآن أمام بيته ، ويتهاوت

عليه الشيوخ والشباب ، تهافت الذباب على الشراب ، ویتهاوس المتهمسون ماذا يكون في تلك « المعاهدة » وسرطان ما يتجلى إيمان « الرجل » في قوله لجيره : إن كان يخرجك ما بيننا من جوار فاني « في جوار الله » العزيز الحكيم ! ولم يقر قراره دون أن يكافح ويكابد ، وينافح ويجمالد ، ويؤذن فيمن حوله من لداته وأقرانه « كلمة الحق » يعلنها مدوية صاخبة . وما هي إلا عشية ونذاجها حتى كان في صفوف المسلمين عثمان بن عفان ، وطلحة بن الزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وغيرهم ممن اعتز بهم الاسلام وانتصر .

والحق والایمان إن صبا على برد فقه كتيبة خرساء
لسفوا بناء الشرك فهو خرائب واستأصلوا الأصنام فهي هباء
يمشون تغضى الأرض منهم هيبة ولهم حيال نعيمها إغضاء
حتى إذا دانت لهم أطرافها لم يطفهم ترف ولا نعاء !!

والنفوس التي تترفع عن أوضاع المادّة هي التي تزهد في المال ، وتعزف عن مباحج الحياة ، وتذعن بالمعجزات وخوارق العادات . وكذلك رأينا رضى الله عنه ، تبرع بماله للأنبي لينفق في حاجته وحاجة المعوز البائس من صحابته ، فأخلف الله عليه غيره ، فتبرع به من جديد ، فأخلف الله عليه غيره فتبرع به ، وكلما تبرع أخلف الله عليه ، وكلما أخلف الله عليه تبرع . وقد قال له صلى الله عليه وسلم في إحدى هذه المرات : وماذا أبقيت لعيالك يا أبا بكر ؟ فقال : أبقيت لهم الله ورسوله . « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منها ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

ويخيل الى أنه المثل الأعلى للذين يؤمنون بالغيب . تلقاه صبيحة الإسراء نهر من الكفار فقالوا له ماذا ترى في رجل يزعم أنه قطع ما بين المسجد الحرام الى المسجد الأقصى في قطع من الليل ؟ والعرب تعلم أنها مسيرة شهر ، فقال لهم « صدقناه فيما يوحي اليه ، أفلا نصدق فيما هو دون ذلك » ؟ وتمضى السنون وبختر الله إلى جواره نبيه الكريم ، فيذهل الداهلون

عند نعبه ، ويقف عمر بالمسجد طارضا سيفه قائلا : من أخبر بهذا الخبر قصمته .
وهناك لا يغيب عن الصديق رباطة جأشه ، وقوة إيمانه ، وشدة شكيمته ،
فياخذ طريقه إلى المنبر ليقرأ على الناس : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله
الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن
يضر الله شيئا ، ولا يلبث أن يزول من هذه العاشية ؛ وكأن أحدا من
المسلمين لم يستمع إلى هذه الآية من قبل ، أو يدر أنها أنزلت .

ومنذ هذه اللحظة تلتفت الأنظار إليه ليكون « خليفة رسول الله » ،
وبتهدى إليه هذا الأمر فلا يزدهيه أو ينقص من تواضعه « إني وليت عليكم
ولست بخيركم ، إن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل
فقوموني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم » .

وبعد ، فهذه وجيزة عن « عقيدة رجل » أخبر الصادق المصدوق أنه
لو وزن إيمانه بإيمان هذه الأمة لرجح ؛ رجوت بعرضها أن تكون تذكرة
وعبرة « والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

مركز تحقيق التراث
مكتبة جامعة القاهرة

من حكم لقمان

قال لقمان لابنه : لا تركزن إلى الدنيا ، فانك لم تخلق لها ، وما خلق الله خلقا
أهون عليه منها ، فانه لم يجعل نعيمها ثوابا للطيبين ، ولا بلاءها عقوبة
للعاصين . يا بني لا تضحك من غير عجب ، ولا تمش في غير أرب ، ولا تسأل
عما لا يعنيتك . يا بني لا يضيع مالك ، وتصاح مال غيرك ، فان مالك ما قدمت
ومال غيرك ما تركت . يا بني من يرحم يرحم ، ومن يصمت يسلم . ومن يقل
الخير يغم ، ومن يقل الباطل يأثم ، ومن لا يملك لسانه يندم . يا بني زاحم
العلماء بركبتك ، وأنصت إليهم بأذنيك ؛ فان القلب يحيا بنور العلماء ، كما
تحيا الأرض الميتة بمطر السماء .

خالد

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز السيد موسى

تحدثت عن حياة أبي عبيدة بن الجراح ، وأثارت ذكراه الكلام عن خالد ابن الوليد ، لأنهما في المجد توأمان ، وفي السؤدد والعظمة صنوان .

خالد بن الوليد المحزومى كان من سادة بنى مخزوم ، وربحانة العرب ، لماله من حياة سامية وهمة عالية . فلورجعت الى حياته الحافلة بجلال الأعمال لرأيتها شعلة وقادة من المهد الى اللحد . ظهر خالد في أيام الرمح والسيف والبادية والجل ، ونبت في أصل أصيل ، ومجد أثيل ، وكان له خبرة فنية في قيادة الجيوش فاقت كل خبرة ، فهو قائد الفرسان ، وصاحب القبة في الجاهلية ، كانوا يضربون له القبة في أثناء حروبهم ، وينصبون خيامهم حولها ، ويرجعون اليه في شئونهم ، وكان لخالد في غزوة أحد الأثر البعيد في نصر دولة الشرك ، فانه تحيين شغل المسلمين بما وضعوا أيديهم عليه من الغنائم ، حيث كان النصر لهم ، وجاءهم من خلفهم وفرق جمعهم ، وإن كان لم يحن من وراء انتصاره هذا شيئا .

وفي السنة السابعة للهجرة أسلم خالد ، وفرح الرسول صلى الله عليه وسلم بإسلامه ، وقال له : الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا نرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا الى خير . فقال : يا رسول الله ادع الله لي أن يغفر تلك المواطن التي كنت أشهد بها عليك . فقال له عليه الصلاة والسلام : الاسلام يقطع ما قبله . وكان له في إسلامه الأثر الم محمود ، وفي جهاده الخطر البالغ ، فان الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ يوجه الجيوش الى خارج الجزيرة بعد ما قويت سوائع المسلمين . ولما وجه النبي صلى الله عليه وسلم جيشا نحو الشام ، جعل لهذا الجيش قوادا ثلاثة يتعاقبون عليه واحدا بعد الآخر إذا أصاب القائد الموت ،

وهم : مولاة زيد ، وابن عمه جعفر ، وشاعره ابن رواحة . وكان المسلمون في ثلثمائة ، وكان العدو في ألوف مؤلفة ، فأصاب الثلاثة الموت ، لحمل الراية من بعدهم خالد بن الوليد ، وبقيادته نجح جيش المسلمين من جيش العدو ، بما له من كياسة حربية وسياسة عسكرية . واطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعين الغيب على ماجرى ، وخطب أصحابه بالمدينة ، ونعى اليهم القواد الثلاثة ، ثم قال : وأخذ الراية سيف من سيوف الله . ومن هذا اليوم سعى خالد سيف الله المسلول .

وفي عهد أبي بكر وجه الخليفة الأول الى أهل الردة ، فكان له ما كان من مواقف مشهودة ، ومن قتله مسيلمة الكذاب . وقد نغم عليه بمض الشيء في هذه الحروب عمر بن الخطاب ، وأخذ يتحدث في شأنه ، فقال له أبو بكر : ارفع لسانك عن خالد فاني لا نعيم (أى لا أحمد) صيفاً سله الله ، وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم الرجل خالد بن الوليد !

وكان بجوار جزيرة العرب دولتان عظيمتان هما ما لها من عز وسؤدد ، وما كان بدور بخلد العرب أن يتوجهوا الى بحورها في وقت ما ؛ ولكن خالداً قائد الفرسان كان هو السهم النافذ الى بحورها ؛ وهما الفرس والرومان ؛ دولتان عظيمتان ، فقص أطرافهما خالد ، وأخذت كل دولة تنكش الى مركز دائرتها ، وتنقلص الى عاصمة بلادها ، وهو يسوقهما أمامه بسيفه ، حتى حطم الأسوار ، وجعل الإسلام يرفرف تيهاً وإعجاباً فوق تلك الديار .

استدعاه أبو بكر من العراق لحرب الشام ، وأسند إليه القيادة العامة بعد عزل أبي عبيدة عنها ، لأنه كان يرى فيه الحنكة السياسية والدربة العسكرية ، وأن الجفود كانوا معجبين به أبداً إعجاب ، لذلك كانوا طوعاً وعبارته ورهن إشارته ، وخالفه النصر في كل معركة .

وفي خلافة عمر بن الخطاب عزله عمر من هذه القيادة ، وقال له : ما عزلتك لريبة فيك ، ولكن افتن بك الناس فخفت أن تفتن الناس ! فتقبل العزل بنفس هادئة ، وألقى مقاليد القيادة الى أبي عبيدة وقلبه راض .

كان خالد يود من صميم قواده ومن أحباق قلبه أن تدركه منيته وهو غاز .

فقال وهو محتضر : لقد شهدت مائة زحف أوزهاها وما بقي في بدني
شبر إلا وفيه ضربة سيف ، أو طعنة رمح ، ثم أموت على فراشي هكذا كما يموت
البعير ، لا تأمت أعين الجبناء !

ذلك قول خالد وهو على فراش الموت . وإن صفحات المجد التي سجلها
التاريخ لخالد بن الوليد باقية أبد الآبدين ، وخالدة دهر الدهرين .

وقد حقق المؤرخون أنه مدفون بمسجده القائم بحمص ، وهو مسجد
يشهد على عظمة المدفون فيه . وقيل إن صورته كانت تغطي صورة واضحة
لعمر بن الخطاب فكانه هو ، حتى كان الكثير من الناس يشبهه فيها ،
فإذا رأى الإنسان أحدهما ظنه الآخر . بنى له ذلك المسجد العظيم السلطان
عبد الحميد أحد خلفاء الدولة العثمانية . وكيف تتصور أنه نال كل ذلك الفخار
وسجل له التاريخ تلك العظيمة ، في حياة قصيرة ، فانه لحق بربه وهو في الثالثة
والأربعين من عمره .

تلك صورة موجزة تقرب إلى ذهنك خالد بن الوليد وجهاده وبطولته .
وهكذا تكون رجالا لاسلام الذين تربوا في أحضان النبوة على ضوء
القرآن في عهده الأول ، فكم فيهم من أمثال خالد .

تلك اللحظات السريعة جالت بخاطري عندما وقفت أمام قبر خالد الذي
ثوى فيه عند زيارتي لحمص في سنة ١٩٤٦ . فعليك رحمة الله يا خالد !
صنعت فلم يصنع كصنعك صانع وما يصنع الاقوام فانه صانع

من حكم أبي حازم

طلب عبد الملك بن مروان أبا حازم ، فلما دخل عليه قال : تسلم يا أبا حازم .
قال : فيم أتسلم يا أمير المؤمنين ؟ قال : في الخرج من هذا الأمر . قال : يسير إن
أنت فعلته . قال : وما ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء من غير حلها ، ولا تضعها
إلا في أهلها . قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال : من قلده الله من أمر الرعية ما
قلده . قال : عظمي يا أبا حازم . قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا بموت
من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك . قال : يا أبا حازم أشر
على . قال : إنما أنت سوق فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر فاختر أيهما .

من أقباس النبوة :

يا هلال المحرم ... !

لفضيلة الاستاذ كامل محمد عجلان

مدرس بمعهد القاهرة

« رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق
واجعل لي من لدنك سلطانا نصيراً » قرآن كريم

يا هلال المحرم ! أرني أنظر الى جبينك ، حتى أستوحى من إسمائه لمحات
الظفر التي طبعت على مراياك ، طالما تقلب بك الفلك ، وأطاعك على رمال
الصحراء ، وعنت لغرتك لفتات الناظرين .

*** مكتبة كويتية علوم إسلامية ***

يا هلال المحرم ! أعندك فوق ما يغمرني من الذكريات الحسان ؟ ...

إنها إعجاز البشرية ، يوم صدع الرسول بالدعوة الخالدة ، مادامت السموات
والأرض ، وتكالبت عليه ضغائن الوثنية تصده عن الجهر بالحق ، وإرسال
نوره ينصب في قلوب العرب .

وفي زحمة الجهد ، رحبت (الحبشة) (النصرانية) بالمهاجرين الذي آواهم
دين السلام ، فكره البهم الكفر ، وبغض الأثم ، ورد عنهم غاشية الوثنية
الجامدة البغيضة .

يا هلال المحرم ! ما أنت في معالم الزمن ؟ وما وراء يومك من عبر تروهب
القلب خفياتها ، فيهتز من روعة المواقف المسلمة ، والصبر المؤمن ، والدعوة

المسكافة ، التي لا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، تعزير من قوى
ميتين .

يا هلال المحرم ! أرأيت يوم (الطائف) وقد راح الرسول مامر القلب
واسع الصدر ، يعرض دين الله على غلواء المشركين ، فتأخذهم العزة بالامتناع ،
ولسكنه ، وهو النبي الذي وعد بنصر الله ، يعود مناجيا ربه ، يشكو اليه فلة
حيلته في الصم الذين غلفوا قلوبهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا !

يا هلال المحرم ! ما الذي ارتسم على جبينك يوم كانت قريش تطارد الذين
آمنوا وأسلموا لله ، وأمام ركبهم رسول الله ، وهو يعدم بالنصر ، ويرسم
لهم بصبره معارج الخلود ، ويضع في أيديهم مفاتيح الجنة ، حتى لتهب على
وجوههم المرحمة رياحين ظلالها ، فتجمع عنهم لغوب الأذى ، في حر الهجير
ووقدة الرمضاء ؟

يا هلال المحرم ! نبشني عن طواف الرسول بين القبائل وهتافه بهم ، كلما
نزلوا بسوق ، أو اجتمعوا في واد ، أو طافوا بالبيت المتيق ... وهو الصبور
الذي لا ينطق عن الهوى ، يؤيده الوحي ، ويرشده فائق الإصباح ، وهادي
العمى عن ضلالهم ، تعالى الله عما يصف المشركون !

يا هلال المحرم ! أي غلالة كنت ترتديها في كبد السماء ، ليلة أن غرهم بالرسول
الفرور ، ونام المشركون على بابه يترصدون ... ؟
وناموا وعين الله يقظي ، لا تأخذها سنة ولا نوم .

يا هلال المحرم ! إنها نجوات تدوي في همساتنا ، كلما طاقت بنا نفحات
النبي ، وهزتنا أناشيد إهزاز الله لدينه ، ونصره لنبيه ، الذي وقف في مهاب
الأماسير يحمل الأذى ، ومن ورائه صحابة دفعوا أنفسهم وأموالهم وأهلهم
في سبيل الله ، وأرخصوا راحتهم حتى ارتفعت راية الاسلام ، وعلت في آفاق

القبائل ، وأودية العشار (الله أكبر) ! . هنالك ترددت أصداؤها في القرى والمدائن ، إنما تلتفها حتى اليوم ، وإلى قيام الساعة .

* * *

يا هلال المحرم ! هل أرسلت شعاعك فطوق باب (الغار) الذي آوى للنبي وصديقه ، وخدع أقلام الطالبين ، يريدون إطفاء نور الله ويأبى إلا أن يظهر آياته ، ويشيع بيناته ، هدى ورحمة للعالمين . « ذلك تقدير العزيز العليم » . وما خاب من كان الله معه . يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

يا هلال المحرم ! هلا أشفقت على المهاجرين فوليت الأدبار ، وحجبت نورك ونور أمك (الشمس) ، حتى يحمل الله الليل مرمداً على المشركين ، وكفى نور المؤمنين الذي يسعى بين أيديهم سراجاً منيراً وبدراً وهاجاً .

يا هلال المحرم ! أشهد لقد كنت ساعداً لمن ياجئون وراء الرسول ، ولو استطعت لقلت . ولكن سميت كلمة ربك لينصرون الله من ينصره ، وتمت إرادته ؛ ولا تنفع الطالبين لهفتهم على رد الرسول وصاحبه إلى مكة ، إلا إذا جاء الفتح وحق نصر الله ، ونادى فيمن أخرجوه من داره : إذهبوا فأنتم الطلقاء ! لا تثريب ... يا هلال المحرم ! يغفر الله ، ومن عفا وأصلح فأجره عند خافر الذنب وقابل التوب .

* * *

يا هلال المحرم ! ما فاتك أن تشهد طلعة البدر على أهل المدينة ، وهم يهتفون ويغننون ويطربون :

طلع البدر علينا . . .

طلع البدر علينا . . .

يا هلال المحرم ! ليتني وليت مزاحي كانت هناك ! ولكنني هنا في رجة الذكرى أخب وأضع ، وكأني أنظر في الجموع وهي تحيي الرسول المهاجر بدينه يدعو الناس للدخول في ساحة التوحيد أفواجاً .

وتمت على يديه كلمة الله العليا ، وتبست الانامل السفلى ، والعاقبة
للقوى . . .

يا هلال المحرم ! أين كنت في الألمان الخالدة ، والتطريبات الباقية ،
والأناشيد الهزاجة . . . ؟

أين كنت ، وأين أفقت الجميل منها ؟

* * *

يا هلال المحرم ! أين أنت من (هلالنا) الذي أضاء بنوره الدنيا
والآخرة ، وأشرقت بتعاليمه نفوس المؤمنين . . . !

إنه عنك مشغول ، والشفاعة عند الرسول مأمولة ، يوم لا ينفع المرء
إلا ما قدمت يداه . . .

يا رسول الله ! أنت لنا . . . قلبك سلام الله كلما درجت على جبين المعالم
الخالدة ذكرياتك العظيمة . . . مركز تحتية كويتية

اسأل الله وحده

قال الحسنی : قال أبو غسان : أخبرني أبو زيد قال : سأل سائل بمسجد الكوفة
وقت الظهر فلم يعط شيئا ، فقال : اللهم إنك بحاجة عالم لا تعلم ، أنت الذي
لا يموزك نائل ، ولا يحفيك سائل ، ولا يبلغ مدحك قائل . أسألك صبورا
جميلا ، وفرجا قريبا ، وبصرا بالهدى ، وقوة فيما تحب وترضى . فتبادر سامعوه
إليه يعطونه . فقال لهم : والله لا رزأتكم الليلة شيئا ! ثم خرج وهو يقول :

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله عوضا ولو نال الغنى بسؤال
وإذا النوان مع السؤال وزنته رجع السؤال ومثال كل نوال

وقال عبيد بن الأبرص :

من سأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

مدرسة النقد الأدبي (١)

المفضلة الأستاذ الشيخ عبد السلام أبو النجاء سرحان
المدرس بالأزهر

١ - النقد الأدبي ونشأته :

يحدثنا التاريخ أن النقد صلب الإنسان منذ نشأته ، وتناول كل ما صدر عنه من أيام طفولته ، بل تناول الطبيعة ومظاهرها ، والحياة وألوانها ، وحاول أن يخضعها للأذواق المتباينة ، ويوائم بينها وبين الطباع المختلفة في كل زمان ومكان .

ولقد كان ذا أثر واضح في وضع القواعد الاجتماعية والحاكمية وتقديم العلوم والفنون ، وبفضله ارتقت الإنسانية وارتفعت أعلام الحضارة ، واثمرت شجرة المعرفة ، فهو شجرة الحياة في شتى مظاهرها ، وطريق الصعود بالأمم والأفراد إلى درجات السكال .
ويؤيد النقد من الأسس الهامة والدعام القوية التي قامت عليها الحضارة الحديثة ، خصوصا من الناحية السياسية ونظم حكومات الشورى ؛ وكان من أقوى العوامل التي ارتقت بآداب الأمم وفنونها وصناعاتها ، وسارت بالعلم والمعرفة أشواطا بعيدة في سبيل الحياة .

ومن المتفق عليه في المصنوع الحديثة أن النقد ليس مما يعيب الأدباء والمفكرين والمؤلفين ، بل إنه ليمهد من أسباب الرواج للكتب العلمية

(١) في سني ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ هـ نشرت بحثا في مجلة الأزهر الفراء تحت عنوان « قدامة بن جعفر ومدرسة النقد الأدبي » قدمت له بكلمة موجزة عن مدرسة النقد الأدبي في مختلف المصنوع حتى عصر قدامة ، ثم ترجمت قدامة ترجمة مفصلة ودرست كتابه دراسة تحليلية ووعدت في نهاية البحث بالعودة إلى الكتابة تفصيلا عن مدرسة النقد الأدبي ، وهأنذا أتى بوعدي ، والله المستعان .

والأدبية عند الغربيين ، حتى إنه توجد طبقة خاصة صناعتها النقد ، لها مكائنها عند الجماهير ، وحكمها كحكم القضاء بين المتخاصمين ؛ وقبل أن يخرج المؤلف كتابه يقدمه الى بعض النقاد ، فما تحمل حرارة المراجع وثبت أمام الطعن والنهر حرج الى الوجود متين البنيان موطن الدعائم قوى الأساس ، وإلا أضحي شيئا تذروء الرياح .

ويعيننا في هذا البحث ، أن نتكلم عن مدرسة النقد الأدبي العربية ، ومدى ما وصلت اليه في العصور المختلفة ، موجزين ما استطعنا الى ذلك سبيلا .
ويجب أن يلاحظ أن ذوق المؤلف أو الشاعر لا يتفق وذوق كل إنسان ، للاختلاف العام في المشارب والاتجاهات ، وتفاوت العقول في وسائل الوعي والفهم والإدراك ، التي هي مرجع الحكم في أصول الفنون وأنواع الجمال .

كما يجب أن يراعى الفرق الكبير بين إلهام الأديب حين يفشي وتكون نفسه جمره ذهنية متقدة فيبدو إنتاجه خلاصة لدوب فكره وعصارة للهب طافته ، وبين نظر الناقد الهادي المتشد الذي يضع الكلام مواضعه ، ويقيسه بمقاييس فسيحة وعاطفة طبيعية .

والمقدرة على خلق الأثر الأدبي أقل — قطعاً — من المقدرة على تحليله ونقده . روى المبرد (ص ٢٣٣ ح ٢ عمدة) « أن أبا نواس ومسلم بن الوليد اجتماعاً من الأحيين ، فقال مسلم : ما أعلم بيتاً لك يخلو من سقط ! فقال أبو نواس : اذكر شيئاً من ذلك ، فقال مسلم : بل أنشد أنت أي بيت شئت ؛ فأنشد أبو نواس :
ذكر الصبوح بسحرة فارتما وأمله ديك الصباح صياحا
فقال مسلم : قف عند هذا ، لم أمله ديك الصباح وهو يبشره بالصبوح وهو الذي يرتاح اليه ؟ فقال أبو نواس : فأنشدني أنت . فأنشده :

طامى الشباب فراح غير مفند وأقام بين عزيمة وتجلد

وقال أبو نواس : ناقضت ؛ ذكرت أنه راح والرواح لا يكون إلا بالانتقال من مكان الى مكان ، ثم قلت : وأقام ، فجعلته منتقلاً مقبلاً في حال ، وهذا متناقض .

قال أبو العباس المبرد : « وكلا البيتين صحيح ، ولكن من طلب عيبا
وجده ، ومن طلب له مخرجا لم يفته »

فالنقاد قد تنكشف أمامه الحجب الخافية على المنشئ ، وتظهر له العيوب
التي لا يظن اليها الأديب ؛ وقد فطن المتنبي لهذا فقال :

أفام ملء جفوني عن شواردها

ويسهر الخلق جرأها ويختصم

فمن القسوة أن تأخذ المنشئ أو الشاعر بالشدة ، بل يجب أن تتلمس له العذر
ما استطعنا ، مادام لم يخرج عن القواعد العامة ، والبدهيات المعروفة ،
والخصائص الشائعة .

٢- ما النقد الأدبي ؟

أما النقد الأدبي فهو تقدير النصوص الأدبية ، ووزنها بمقياس الذوق الأدبي
وبيان درجتها الفنية ، وتمييز الأدب الرفيع من التافه الذي لا قيمة له ؛ وذلك
يستدعي فهم الأدب أولا ، وفهم مختلف الطبائع التي تنتجها ، ومعرفة أقدار
تلك الطبائع على ضوء الاتجاه الذي يريده الفن الأدبي الكامل .

ومن الخطأ أن ننظر الى أبيات القصيدة أو عبارات القطعة الأدبية
جزءاً جزءاً ، فإن كلامهما كطاقة من الأزهار المنسقة ، أو حبات العود المنمقة ،
فاذا نثرت أزهارها أو انفرطت حباتها ، زوى جمالها ، وتضاءل سحرها ، وذهب
بهاؤها ، وضاع رونقها .

والدر ليس بتافع أربابه ، ما لم يؤلف في النظام وينظم

والبيت الواحد من القصيدة أو العبارة المفردة من القطعة الشعرية كالزهرة
العنراء تنظر إليهم العين لتستشعر جمالها ، وتنتهب لونها ، وتستشف عذوبتها ،
في صمتها المعبر ، وحياتها العفيف ؛ ثم ينقل الحس هذه الصورة الجميلة الى
القوة المفكرة ؛ فتتخرط في سلك التأمل والإيمان ، وتستلذ منها النعس وتطرب
لها الروح ؛ فاذا عبث طابث بتلك الزهرة ومزقها أجزاء ، ذلت كبرياؤها ،
وأصبح البعث فيها نظرا علميا محضا ، لا خيالا سحريا جميلا .

فمن الإنصاف إذن أن ننظر إلى القصيدة باعتبارها وحدة مرتبطة ، ووحدة فنية متناسكة ، وتمثالا للجمال الشعري مركبا من قطع صغيرة ، وإلا زال كثير من روعتها وجمالها ؛ وذلك كما ترى صورة فنية لمشهد من مشاهد الطبيعة ؛ فإن اتساق الألوان واجتماعها في أوضاع متناسبة وأبعاد متناسقة ومقادير فنية يعطيها جاذبية سحرية تنتزع منك الإعجاب وتثير فيك المشاعر ؛ فإذا تفرقت هذه الألوان زال الجمال ، وضاع السحر ، ومات الهمور .

وسنرى أن نقاد العربية يسبرون على غير هذا المبدأ ، ويلتقدون الأبيات الفردية والألفاظ المنبثقة في التراكيب المختلفة ؛ ويرجع هذا مبدئيا إلى أن اللغة العربية واسعة النطاق فسيحة الأرجاء ، لا تجد حرجا من النقص ما كان نزيها ، ولا تترحم من تقويم مادام رائده الخير ؛ ويرجع ثانيا إلى كثرة كلماتها المترادفة واتساع مادنها بحيث استطاع الاستعاضة عن كلمة بكلمات ، وعن لفظ بألفاظ ؛ وبهذا وسعت كتاب الله بمباراته الفريدة ، وتراكيبه المعجزة ، ونظمه البديع ، وفتحت قلبها لعلوم الأمم المختلفة وآدابها وفلسفتها وحكمتها ، وهضمت الفنون المختلفة من قديم الزمن ، فازدادت بها جمالا ، وأفادت منها صقلا ً

الاذن عند العرب

قال زياد الحاجبه عجلان : كيف تأذن للناس ؟ قال : على البيوتات ، ثم على الأسنان ، ثم على الآداب .

فقال له الأمير : فمن تؤخر ؟ قال الحاجب : من لا يعبا الله بهم .
قال الأمير : ومن هم ؟ قال الحاجب : الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف وكسوة الصيف في الشتاء .

وكان سميد بن عتبة إذا حضرباب أحد من السلاطين جلس جانبا ، فقيل له : إنك لتباعد من الأذن جهلك . قال : لأن أدمى من بعيد ، خير من أن أقصى من قريب . ثم قال :

هو المنزل الأقصى إذا لم أقرب
خلاق ولا ديني ابتغاء التعجب
وبمعنى من ذاك ديني ومنصبي

فان مسيرى في البلاد ومنزلى
ولست وإن أدنيت يوما بيأئع
وقد عده قوم تجارة راج

الخطابة في الأندلس

المنذر بن سعيد البلوطي

لفضيلة الاستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر

على أن البلوطي - رحمه الله - كان يتخفف أحيانا من أوزار منصبه ، ويخضع عنه رداء تزمته وتوقره ، فيقول أحيانا فيها شيء من القوة والخفة ؛ مثل قوله حينما عدله إخوانه لتكفيتها لرجل كان قد سبّه :

لا تعجبوا من أنني كنيته

فإنه قد كنى أبا هب ، وما

يشير البلوطي بهذا إلى قول الحق تبارك وتعالى : « ثبت يدا أبي هب » وهي لفظة بارعة من البلوطي ، وحسن تعليل مقبول وجميل ، بل خلوص لطيف من مأزق تعرض له ، وكان يعاب به .

كذلك نرى البلوطي الواعظ الزاهد ، يبيع لنفسه في ساعات دعايته وفترات مراحته ، أن يتحدث عن الجمال ، وعن مفاتن النساء ، فيذكر قوامهن وأصداغن ، وما اتصل بذلك من حديث الهوى والفنون ، جاعلا ذلك لونا من الترفيه اللفظي المقبول ، الذي يزين الأسلوب ، ولا يחדش الكرامة . فانظر إليه مثلا إذ يكتب إلى فقيه العربية وفيد أو أبدها أبي على القالي ، يستعير منه كتابا في غريب اللغة ، فلا يجرد ما يقسم به في مجال الظرف والدعابة إلا الظبي الرقيق صاحب الخلد الأسيل ، فيقول :

بحق رُمِّ مهفف وصدغه المتعطف

ابعث إلى بجزء من الغريب المصنف

فيجاريه أبو على في أسلوبه بعض المجازاة ، وينقل التعبير من مجال إلى مجال ، فيرسل إليه ما طلب ، ويحبه بقوله :

وحق در مؤلف بهيك اى تألف
لابعن بما قد حوى الغريب المصنف
ولو بعثت بنفسى إليك ما كنت أعرف !

ونحن حينما نقرأ ما ذكره المؤرخون عن خفة روح البلوطى وصفاء ظلته
ولطيف دعابته وبديع مزاحه وهزله ، ونذكر بجوار ذلك ما كان له من فصاحة
وبلاغة ، نرجح أن هذا اللسان المقوال وذلك الطبع الاصيل الفياض لا بد من
أن يكونا قد أنتجا أشعارا عاطفية لها جمالها وعذوبتها ، وإن كنا لم نقف
عليها ، ومن يدري ! لعل متشددنا من مترمقي النقلة نعمند أن يحذف
هذه الأشعار ظنا منه أن روايتها مما ينال من صمعة البلوطى وجلال مرتبته .
وكيف نقول إن أمثال هذه الأبيات المتكلفة هي كل تراث البلوطى بين
الشعراء ، ونحن نرى من أخباره أنه كان ، الى ما سبق من صفاته الشعرية ،
بقادة سريع البديهة يقظا الاحساس ، عليا بأشعار النابغين من المتقدمين ، خبيرا
بأسرار تلك للأشعار ، دقيق التمييز بين الغث والسمين ، والطيب والخبث ،
كما ترشد الى ذلك القصة التالية :

حضر البلوطى : هو فى رحلته بمصر مجلس أبى جعفر النحاس وهو على أخبار
الشعراء ، فأملى شعرا لقيس مجنون بنى عامر ، وهو قوله :

خليلى ! هل بالشام عين حزينه أيمكنى على نجد ، لعلى أعينها ؟
قد آسها الباكون ، إلا حمامة مطوقة ، باتت وبات قرينها
تجاوبها أخرى على خيروانة يكاد يدينها من الأرض لينها !

فقال له منذر بن سعيد البلوطى : يا أبا جعفر ، ماذا - أعزك الله تعالى -
باتا يصنعان ؟ فقال له النحاس : وكيف تقول أنت يا أندلسى ؟ فقال : ماتت
وبان قرينها . فسكت أبو جعفر ولم يجر جوابا . قال منذر : وما زال - يعنى
جعفرا - يستثقلنى بعد ذلك حتى منعتى كتاب (العين) وكنت ذهبت
للاستساح من نسخته ؛ فلما يئست منه قيل لى : أين أنت من أبى العباس
ابن ولاد ؟ فقصدته فلقبت رجلا كامل العلم حسن المروءة ، فسأله الكتاب

فأخرجه الى ؛ ثم ندم أبو جعفر حين بلغه إباحة أبي العباس الكتاب لى . واد
الى ما كنت أعرفه منه ا .

فهذه القصة وأشباهها فى حياة البلوطى تدلنا على أنه كان ينطوى فوق ملكته
الوعظية على فيض من معين الشعر ا .

ومع أن البلوطى كان قاضى القضاة بقرطبة ، والامام الخطيب بالمسجد
الجامع ، فقد كان كثير الدعابة طويل المزاح . يقول عنه المنح بن خاقان :
« وإذا هزل نزل (١) » . ويقول يافوت : « وكان منذر على متانته وصلابته
حسن الخلق كثير الدعابة ، فربما ساء ظن من لا يعرفه به لدعابته ، فاذا رأى
ما يخل بالدين قيد شعرة ثار ثورة الأسد العنارى ، وتبدلت بشاشته عبوسا (٢) .
وقد ذكر له صاحب كتاب (مطمح الانفس) طائفة من دعاباته الصريحة
المكشوفة التى يذكر فيها أسماء العورات والحرمان (٣) . فلنكتف بإيراد
طرفة من طرفه الرزينة :

جاس منذر فى ليلة من ليلالى شهر رمضان للإفطار مع أولاده ، فاذا
بائل يسأل فيقول : يا أهل هذه الدار الصالحين ، أطعمونا من عشاءكم أطعمكم
الله من ثمار الجنة هذه الليلة ا . فقال البلوطى وهو يضحك : إن استجيب
لهذا السائل فيكم ، فليس يصبح منا واحد ... !

أفيكون معنى هذا أننا سلتغنى بإبداع البلوطى ولا نقف منه موقف
الناقد ؟ كلا فان الانصاف يقتضينا أن نقول ماله وما عليه . ولعل الموقف
المشين الذى رأيته للبلوطى ، هو نخره ومباهاته بموقفه بين يدي الناصر يوم
زاره رسول قسطنطين ، وتكريضه بأبى على القالى وهو ضيف الخليفة ونزيل
الامدلس ، وبحر اللغة ، وراوية الآداب . . . انظر الى البلوطى إذ يفتخر
بذلك الموقف ، ويمرض بالامام القالى فيقول :

[١] مطمح الانفس ص ٤١ . [٢] المعجم ج ١٩ ص ١٨٣ [٣] ص ٥٠ ر ٥١

مقالى كحد السيف وسط المحافل فرقت به ما بين حق وباطل
 بقلب ذكى ، ترتعى جراته كبارق رعد عند رعى الانامل
 فادحضت رجلى ، ولازل مقولى ولا طاش عقى يوم تلك الالازل
 وقد حدقت حولى عيون اخلها كمثل سهام اثبتت فى المقاتل
 ظير امام كان ، او هو كائن لمقتبل ، او فى المصور الاوائل
 وفود ملوك الروم وسط فنائه مخافة بأس ، او رجاء لنائل .. الخ

وينال من مكانة أبى على القالى ، ويمرض بتقدبهم إياه عليه فى الخطابة
 فيقول :

هذا المقام الذى ما طبه فند لكن قائله أزرى به البلد
 لو كنت فيهم غريبا كنت مطرطا لكننى منهم ، فاعناني النكد (١)

الحق أنه ليس من شيعة الكرم القوى أن يهزأ بالضعيف أو بمن خانه
 الحظ ، ولا أن يفتخر هذا المعز الزائد حينما يمنحه الله توفيقا لا يمنحه لسواه .
 زد على ذلك أن أبى على القالى لم يرتكب جرما ، ولم يظهر ضعفا يستوجب تحقيره
 والتعريض به ، فما هو إلا رجل خانه التوفيق وطأه الحظ وأرهبه الموقف ،
 فلم يستطع أن يقول ما يجب عليه ، ولم يرض أن ينزل الى كلام من هو دونه
 فأرتج عليه (٢) . ومن قبل القالى أرتج على كثير من الرجال والابطال
 الذين لهم أقدار معروفة فى بلاغة القول وحسن الأدب ؛ منهم عثمان بن عفان ،
 يزيد بن أبى سفيان ، يزيد بن المهلب ، وعبد الله بن طاهر ، وخالد بن
 عبد الله القسرى ، وزفر بن الحارث ، ومن بن زائدة ، وعدى بن أرطاة ،
 وروح بن حاتم ، وغيرهم . . .

ولقد كان عبد ربه الليشكوى حاملا لعيسى بن موسى على (المداخن) ،
 فصعد المنبر يوم الجمعة ليخطب القوم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم أرتج عليه

(١) ويروى هذا الشطر هكذا : ولا دهاني لم بنى ولا حيد .

(٢) رتج كفرج : استلقى عليه الكلام كأرتج عليه وارتنج واسترنج - القاموس .

فسكت ثم قال : « والله إنى لا كون فى بيتى فتجىء على لسانى ألف كلمة ، فإذا قمت على أعوادكم هذه جاء الشيطان فمحاها من صدرى ! ولقد كنت وما فى الأيام يوم أحب الى من يوم الجمعة ، فصرت وما فى الأيام يوم أبغض إلى من يوم الجمعة ، وما ذلك إلا لخطبتكم هذه ! (١) »

وصعد خالد بن عبد الله القسرى المنبر فأرّج عليه ، فكث ملها لا يتكلم ، ثم نهى له الكلام ، فقال : « أما بعد ، فإن هذا الكلام يحى أحيانا ويعزب أحيانا ، فيسيح عند مجيئه سيبه ، ويعز عند عزوبه طلبه ، ولربما كوبر فأبى ، وعولج فنأى ، فالتأتى لمجيئه خير من التعاطى لآبائه ، وتركه عند تذكره أفضل من طلبه عند تذكره ، وقد يرتج على البليغ لسانه ، ويختلج من الجرى جناحه ، وسأعرد فأقول ، إن شاء الله (٢) » .

فلم يكن مقبولا إذن من البلوطى أن يهتك حرمة ذلك العالم الكبير ، خصوصا وأنه ضيف ، وله من الأيادى السابقات ، والكلمات النابغات ، ما يغفر له مثل هذا الحصر !

ولعله يكون من المناسب هنا أن نذكر البلوطى - رحمه الله - بفصل له من خطبة ذكر فيها نفسه بواجبها نحو إصلاح ذاتها وتقويم معوجها ، وهو الذى طالما وعظ وخطب ، ونهى وأمر ، فقال : « حتى متى ، وإلى متى أعظ ولا أتعظ ، وأزجر ولا أنزجر ! أدل الطريق إلى المستبدلين ، وأبقى مقبلا مع الحائرين ! كلا ، إن هذا هو البلاء المبين ، إن هى إلا فتنتك أضل بها من تشاء ، ونهذى من تشاء ؛ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا ، وأنت حير الغافرين . اللهم فرغنى لما خلقتنى له ، ولا تشغلنى بما تكفلت لى به ، ولا تحرمنى وأنا أسألك ، ولا تعذبنى وأنا أستغفرك ، يا أرحم الراحمين ! »

اللهم آمين ، لنا وله وللناس أجمعين . . .

العدالة في الاسلام

من عدالة أمير المؤمنين عثمان بن عفان

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد علي منصور

من علماء الأزهر

قام العدل على قدم وساق في عهد أبي بكر وعمر ، وانتشر ميزان القسط بين الناس بالحق ، وأرخى الانصاف سدوله بين العرب ، واتسعت رقعة الاسلام ، وأمتت الأمة العربية من القوة بحيث يحسب لها ألف حساب وحساب ، ونمت فيها أفنان العزة ، واستحكمت فيها أصول القدرة ، وانتبعت إلى ما يعلى شأنها ويرفع قدرها ، واتجهت لكل شيء بحفظ وجودها ويمكن لها في الأرض ، وبلغت مرادها به - هذا الدين الإسلامي الصالح لكل زمان ومكان ، والذي أعدته الحكمة الإلهية ليكون خاتمة الأديان لنوع الإنسانية ، ينتهي بها إلى أسنى غايات الحضارة والمدنية ، ويأخذ بيدها إلى أقصى مراقق الآداب .

ذلك الدين العظيم الذي كفل لمعتقيه السعادة والحرية والعدل والانصاف والمساواة في الحقوق والواجبات ؛ فسادوا العالم أجمع ، وساسوا دوله ، وحكموا شعوبه ، وتواصوا بالحق ، وتوصوا بالصبر .

ولقد شاء الله ، ولا راد لمشيئته ، أن يصاب المسلمون في خليفتهم صهر بن الخطاب ، فزعت نفس الشقي أبو لؤلؤة الجوسي نزعة كانت من أشأم التزامات على العالم الإنساني ، اهتزت لها أعواد المنابر ، ونهذ رنينها إلى أحماق القلوب ، فطعن بخنجره أمير المؤمنين في المسجد بعد أن كبر للصلاة ؛ فسارع كبار الصحابة إلى خليفتهم وهو يهود بنفسه ؛ ولما علموا أنه في آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، طلبوا منه أن يمين الخليفة بعده ؛ فأبى وقال : لا أحمّلها حياً وميتاً ؛ فإن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني - يعني

أبا بكر - وإن تركتكم فقد ترككم من هو خير مني - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم عين سنة من أفضل الصحابة ، وأوصاهم أن يختاروا من بينهم واحداً ، في مدى ثلاثة أيام بعد دفنه . فنفذوا أمره ، وانتخبوا عثمان بن عفان ، وبايعوه بالخلافة بعد دفن عمر بثلاث ليال .

شب عثمان رضي الله عنه على الأخلاق الفاضلة ، والصفات الحميدة ، والسيرة الكريمة ، والحياء الذي أخذ منه بأوفر حظ وأعظم نصيب .

وكان رضوان الله تعالى عليه كريماً ، رءوفاً بالناس ، محباً لقراءة القرآن ، محبوباً من قومه ، متواضعاً يجلس مع أفراد الرعية كأنه واحد منهم ، وينام في المسجد ورداؤه تحت رأسه .

بما أثر عنه أنه اشترى من رجل قطعة أرض بعد أن اتفق معه على ثمنها ، ومضت الأيام تلو الأيام ولم يحضر البائع ليتسلم ثمن الأرض ، فأرسل إليه عثمان وسأله عن السبب في إبطائه عن تسلم الثمن ، فقال الرجل : إنك غبنتني ، واشتريت الأرض رخيصة مني ، وكلما قابلني رجل لامني على هذا البيع . فقال له عثمان : أنت حر في الرجوع ، فإن شئت أمضيت البيع وقبضت الثمن ، وإن شئت رجعت في البيع وأخذت أرضك ، فاختر ما تشاء : الأرض أم الثمن .

فهل بعد هذا عدل وإنصاف ؟ وهل وراء هذا خوف من الله ورأفة بالناس ؟ وهل هناك تصامح فوق هذا التصامح ؟ انظر ما قاله عثمان للبائع مع أن البيع قد انعقد وأصبحت الأرض ملكاً له . وأبم الحق إن هذا هو منتهى العدالة والتسامح ، والرأفة بالناس ، والخوف من رب العالمين !

كان لليهودي بئر بالمدينة ، يبيع ماءها للمسلمين ، ويتحكم فيهم ؛ فطلب عثمان من اليهودي أن يبيعه هذه البئر ، فأبى ؛ فراوده عثمان على أن يبيعه نصفها ، فقبل اليهودي على أن يكون ثمن النصف اثني عشر ألف درهم ، فأعطاهما له عثمان وأخذ نصف البئر ، واتفق معه على أن كلا منهما يستقي منها يوماً . وأباح عثمان للمسلمين أن يستسقوا من البئر في اليوم المحدد له ، وأن يأخذوا كفايتهم لليوم التالي . فلما رأى اليهودي ذلك ، وأنه لم يمد أحد يشتري منه ماء بعد ، باع النصف الباقي لعثمان بثمانية آلاف درهم .

فلم يأخذ عثمان البثر من اليهودى بالقوة ، ولم يجبره على بيعها ، ولم يملكها منه بنمن أقل من ثمن مثلها . وإفك لتلس من هذا شدة شفقته بالمسلمين ، واهتمامه بأمرهم ، وبذله المال عن طيب خاطر لمساعدتهم . كما تلج من خلاله الحزم والفظانة وسعة الحيلة ؛ فقد اشترى النصف الاول بنمن مرتفع ، وكان ذلك سبباً في أن يبيع الرجل النصف الثانى بنمن معتدل .

حدثت في بلاد العرب مجاعة في خلافة أبى بكر ؛ وعلم التجار أن ألف جل لثمان جاءت من الشام ذات يوم ، تحمل قمحا وزيبيا وزيتا ؛ فأرادوا أن يشتروا منه هذه البضاعة ليبيعوها للمسلمين ؛ وعرضوا عليه قدر ثمنها خمس مرات ؛ فامتنع وقال لهم : إن الحسنة بعشر أمثالها ؛ وإن الله تعالى قد أعطانى قدر ثمنها عشر مرات ، ثم أمر بتوزيعها على الفقراء والمساكين .

وفضلا عن ذلك فقد جهز جيش المسرة إلى تبوك ، وأنفق في ذلك عشر آلاف دينار ، وجهز ألف مجاهد ، وأهدىهم تسعمائة بعير ، ومائة فرس . ولم تمر به جمعة منذ أسلم إلا ويعتق فيها رقبة .

فهل رأينا كرما وعدلا وزهدا وسماحة وراء هذا ؟ يعرض عليه في هذا الوقت العصيب مقدار قيمة التجارة خمس مرات فتأبى نفسه العالية إلا أن يوزعها على المحتاجين ابتغاء وجه الله ، وطلباً لرضوانه . ويهود وقت الأزمة الشديدة بماله في منفعة المسلمين ونصر الدين ، بدون أن يطالب منه أحد أو يلجئه ملجئ ، سوى ضميره النقي ، وحببه لهذا الدين الاسلامي العظيم .

كان يقوم للصلاة مراداً بالليل وقبيل الفجر ، ويعد وضوءه بنفسه ، ولا يوقف أحداً من أهله أو خدمه . فقيل له : إذا شئت أيقظت بعض الخدم فيقومون بما تحتاج إليه ، وليس عليهم في ذلك حرج . فقال : لا أفعل ذلك أبداً ؛ الليل لهم يستريحون فيه .

هذا عدل واسع ، ورحمة كبيرة ، وشفقة عظيمة ، ورأفة نادرة ، وتواضع لا نظير له .

وصفوة القول في عثمان : أنه خليفة جواد سمح كريم ، ولين هين عادل مهل حلیم ، جمع أشتات الفضائل وحيد الخصال ، وضربت بحيائه الوافر الامثال .
رضى الله تعالى عنه وأرضاه !

منزلة السنة من الدين

وضرورة العمل بها والإنكار على من ردها

لحضرة الأستاذ محمد فؤاد افندي عبد الباقي

الفصل الأول — المقياس الصحيح للحديث :

يقول بعض المؤلفين :

إن خير مقياس يقاس به الحديث وتقاس به سائر الأنباء التي ذكرت عن النبي ، ما روى عنه عليه السلام أنه قال : « إنكم ستختلفون من بعدى ، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافقه فخذوه ، وما خالاه فليس عنى » .
وهذا مقياس دقيق أخذ به أئمة المسلمين منذ العصور الأولى ، وما زال المفكرون منهم يأخذون به الى يومنا الحاضر .

الفصل الثاني :

فلننظر في مقدار ما في هذا الحكم من صحة .
قال الامام الشوكاني في كتابه « إرشاد الفحول الى تحقيق الحق في علم

الاصول » ص ٣١ :

... وأما ما روى من طريق ثوبان في الامر بعرض الأحاديث على القرآن ، فقال يحيى بن معين : إنه موضوع وضعته الزنادقة .

وقال الشافعى : ما رواه أحد ممن يثبت حديثه فى شيء صغير ولا كبير (صواه : صغير أو كبير) .

وقال ابن عبد البر فى كتاب جامع العلم : قال عبد الرحمن بن مهدي : الزنادقة والخوارج وضعوا حديث « ما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله ، فان وافق كتاب الله فاما قننه ، وإن خالف فلم أقله » اهـ .

وجاء في كتاب جامع بيان العلم لابن عبد البر ج ٢ ص ١٩٠ :

قال عبد الرحمن بن مهدي : الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث ،
يعني ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما أنماكم عنى فاعرضوه على كتاب
الله فان وافق كتاب الله فآنا قلته ، وإن خالف كتاب الله فلم أذله ، وإنما أنا
موافق كتاب الله ، وبه هداني الله » .

وهذه الألفاظ لا تصح عنه صلى الله عليه وسلم عند أهل العلم بصحيح
النقل من سقيمه . ٥١ .

وجاء في الرسالة للإمام الشافعي ص ٢٢٤ .

قال قائل : أفتجد حجة على من روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« ما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فآنا وافقه فآنا قلته ، وما خالفه فلم أذله » ؟
فقلت له : ما روى هذا أحد يثبت حديثه في شيء صغير ولا كبير .
وهذه أيضا رواية منقطة عن رجل مجهول ، ونحن لا نقبل مثل هذه
الرواية في شيء . ٥١ .

وجاء في الحاشية بقلم الأستاذ أحمد محمد شاكر :

هذا المعنى لم يرد فيه حديث صحيح ولا حسن ، بل وردت فيه ألفاظ
كثيرة كلها موضوع ، أو بالغ للغاية في الضعف حتى لا يصلح شيء منها
للاحتجاج أو الاستشهاد .

قال في عون المعبود (٤ : ٣٢٩) : فأما ما رواه بعضهم أنه قال : إذا
جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فان وافقه فآنا قلته . . . فانه حديث باطل
لا أصل له ، وقد حكى زكريا الساجي عن يحيى بن معين أنه قال : هذا حديث
وضعه الزنادقة .

ونقل العلامة الفتني في تذكرة الموضوعات (ص ٢٨) عن الخطابي أنه
قال أيضا : « وضعته الزنادقة » .

ونقل هو والمجلوني في كشف الخفا (١ : ٨٦) عن الصغاني أنه قال :

هو موضوع .

وقد كتب الامام الحافظ أبو محمد بن حزم ، في هذا المعنى فصلا نفيسا جدا ، في كتاب الأحكام (٢ : ٧٦ - ٨٢) وروى بعض ألقاظ هذا الحديث المكذوب ، وأبان عن علمه فشنق . ومما قال فيه :

« ولو أن امرءا قال : لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن لسكان كافرا بإجماع الأمة ، ولـكان لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل ، وأخرى عند المعجز ؛ لأن ذلك أقل ما يقع عليه اسم الصلاة ، ولا حدا لأكثر في ذلك ؛ وقائل هذا كافر ، مشرك ، حلال الدم والمال » .

ثم قال « ولو أن امرءا لا يأخذ إلا بما اجتمعت عليه الأمة فقط ، أو يترك كل ما اختلفوا فيه ؛ مما قد جاءت فيه النصوص ، لسكان فارقا بإجماع الأمة . فهاتان المقدمتان توجبان بالضرورة الأخذ بالنقل » ١ هـ .

الفصل الثالث - نقض هذا المقياس - قال الامام الشوكاني في « إرشاد

الفحول » ص ٣١ :

وقد عارض حديث العرض قوم فقالوا : « وعرضنا هذا الحديث الموضوع على كتاب الله نخالف ، لأننا وجدنا في كتاب الله : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٥٩ / الحشر / ٧) ووجدنا فيه أيضا : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » (٣ / آل عمران / ٣١) . ووجدنا فيه : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (٤ / النساء / ٨٠) ١ هـ .

الفصل الرابع - فرض الله طاعة رسوله فيما سنه صلى الله عليه وسلم

قال الامام الشافعي في الرسالة ص ٧٣ :

بيان فرض الله في كتابه اتباع نبيه :

قال الشافعي : وضع الله رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضوع الذي أبان جل ثناؤه أنه جعله علما لدينه بما افترض من طاعته وحرم من معصيته ، وأبان من فضيلته ، بما قرن من الايمان برسوله مع الايمان به . فقال تبارك وتعالى : « فآمنوا بالله ورسوله النبي الذي يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه »

لعلكم تهتدون ، (٧ / الاعراف / ١٥٨) وقال : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، (٢٤ / النور / ٦٢) فجعل كمال ابتداء الإيمان ، الذي ما سواه تبع له ، الإيمان بالله ثم برسوله ، فلو آمن عبد به ، ولم يؤمن برسوله ، لم يقع عليه اسم كمال الإيمان أبداً ، حتى يؤمن برسوله معه ؛ وهكذا من رسول الله في كل من امتحنه للإيمان .

أخبرنا مالك عن هلال بن أسامة عن عطاء بن يسار عن عمر بن الحكم قال : أتيت رسول الله بحجارية ، فقالت يا رسول الله على رقبة أفأعتقها ؟ فقال لها رسول الله : ابن الله ؟ فقالت : في السماء ، فقال : ومن أنا ؟ قالت : أنت رسول الله . قال : فأعتقها اه .

الفصل الخامس — منزلة السنة من الدين :

قال ابن عبد البر في كتابه « جامع بيان العلم وفضله » جزء ثان ص ٣٣ و ٣٤ :

« وأما أصول العلم ، قال ككتاب والسنة ، وتنقسم السنة قسمين : أحدهما إجماع تنقله الكافة عن الكافة ، فهذا من الحجج القاطعة للأعذار إذا لم يوجد هناك خلاف ، ومن رد إجماعهم فقد رد نصا من نصوص الله يجب استتابته عليه ، وإرافة دمه إن لم يتب ، لخروجه عما أجمع عليه المسلمون ، وسلوكه غير سبيل جميعهم .

والضرب الثاني من السنة ، خبر الآحاد الثقات الأثبات المنصل الإسناد ، فهذا يوجب العمل عند جماعة علماء الأمة الذين هم الحجة والقودة ، ومنهم من يقول : إنه يوجب العلم والعمل جميعا اه .

جاء في « إرشاد الفحول » للامام الشوكاني ص ٣١ :

قال في معنى كلمة السنة : وأما معناها شرطا ، أي في اصطلاح أهل الشرع ، فهي قول النبي صلى الله عليه وسلم وفعله وتقريره . وتطلق بالمعنى العام على الواجب وغيره ، في عرف أهل اللغة والحديث اه .

وقال في « استقلال السنة النبوية بالتشريع » :
 « البحث الثاني » : اعلم أنه قد اتفق من يعتمد به من أهل العلم على أن السنة
 المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام ، وأنها كالقرآن ، في تحليل الحلال وتحريم
 الحرام . وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ألا وإنى أوتيت القرآن
 ومثله معه » ، أى أوتيت القرآن وأوتيت مثله من السنة التي لم ينطق بها القرآن ،
 وذلك كنحرى لحوم الحمر الأهلية ، ونحرى كل ذى ناب من السباع ، ومخلب
 من الطير ، وغير ذلك مما لم يأت عليه الحصر . ١٠ هـ .

وجاء في سنن أبي داود ٣٩ كتاب السنة ٥ باب لزوم السنة جزء رابع ص ٢٠٠

حدثنا عبد الوهاب بن نجدة ، حدثنا أبو عمرو بن كثير بن دينار ،
 عن حريز بن عثمان ، عن عبد الرحمن بن أبي عوف ، عن المقدم بن معديكرب ،
 عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله
 معه ، لا يوشك رجل شيمان على أريكتيه يقول : عليكم بهذا القرآن فما
 وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . ألا يحل
 لكم لحم الحمار الأهلى ، ولا كل ذى ناب من السبع ، ولا لقطة معاهد ، إلا
 أن يستغنى عنها صاحبها . ومن نزل بقوم فعليهم أن يقرؤه ، فإن لم يقرؤه فله
 أن يمتعهم بمنزل قراه .

حدثنا أحمد بن محمد بن حنبل وعبد الله بن محمد النفيلي ، قالا : حدثنا سفيان ،
 عن أبي النضر ، عن عبيد الله بن أبي رافع ، عن أبيه ، عن النبي صلى الله عليه
 وسلم قال : « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت
 به أو نهيت عنه فيقول : لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه » ١١ هـ .

وجاء في جامع الترمذى ٩٣ - كتاب العلم ١٠ باب ما نهى عنه أن يقال

عند حديث النبي صلى الله عليه وسلم . جزء ثان ص ١١٠

حدثنا قتيبة حدثنا سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر وسالم أبي النضر
 عن عبيد الله بن أبي رافع عن أبي رافع وغيره رفعه قال « لا ألفين أحدكم
 متكئا على أريكته يأتيه أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا أدري
 ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه . (قال أبو عيسى) : هذا حديث حسن صحيح .

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا معاوية بن صالح عن الحسن بن جابر اللخمي عن المقدم بن معد يكرب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث غنى وهو متكئ على أريكته فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله فإ وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله » ١ هـ .
وجاء في سنن ابن ماجه . المقدمة ٢ — باب تعظيم حديث رسول الله صلى

الله عليه وسلم والتغليظ على من عارضه . الجزء الاول ص ٥ .

« حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا زيد بن الحباب عن معاوية بن صالح ، حدثني الحسن بن جابر عن المقدم بن معد يكرب الكندي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يوشك الرجل منكنا على أريكته يحدث بحديث من حديثي فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل فإ وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما حرم الله » .

حدثنا نصر بن علي الجهضمي ، حدثنا سفيان بن عيينة في بيته أنا سألته عنه عن سالم أبي النضر ، ثم مر في الحديث قال ، أو زيد بن أسلم ، عن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا ألقين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه » ١ هـ .

بين معاوية ووالديه

لما قدم معاوية من الشام ، وكان عمر قد ولاء عليها ، دخل على أمه هند ، فقالت له : يا بني إنه قلما ولدت حرة مثلك ، وقد ولاك هذا الرجل فاعمل بما وافقه أحببت ذلك أم كرهته . ثم دخل معاوية على أبيه سفيان فقال له : يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم ، فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخرنا ، فصرنا أتباعا وصاروا قادة ، وقد قلبوك جسيا من أسرم ، فلا نخالفن أسرم فانك تجري إلى أمد لم تبلغه ، ولو قد بلغته لتنفست فيه . قال معاوية : فمحببت من اتفقاها .

الفن القصصي في القرآن

أرسل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون السكرتير العام للجامع الأزهر والمعاهد الدينية الكتاب التالي إلى حضرة صاحب العزة عميد كلية الآداب عبد الوهاب عزام بك .

الجامع الأزهر
مكتب السكرتير العام

حضرة صاحب العزة الصديق الكريم ، والجاهد المفضل ، الدكتور عبد الوهاب عزام بك عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول .

السلام عليكم ورحمة الله . وقد ترامى إلى سمعى عن طريق الصحف والمجلات ، وأحاديث الافراد والجماعات ، أن رسالة قدمت إلى الكلية من حضرة محمد أحمد خلف الله أفندي المدرس بالكلية لنيل درجة « الدكتوراه » وموضوعها « الفن القصصي في القرآن » .

وقد أحيطت هذه الرسالة بأشادات وشبهات تمس قداسة القرآن وصنيع الاسلام ، وهي — لو صحت — تستوجب التأديب والعقاب . وقد رأيت أن أكتب اليك — وأنت الرجل الغيور على دينه ، المعروف بماضيه المشرف في خدمة الاسلام وعقائد المسلمين — لكي تبادر بدراسة هذا الموضوع دراسة واقية . فاذا رأيت فيه ما يستوجب مجازاة أو عقاباً قلت به وأبنت للناس عنه ، حتى يكون ذلك عظة وعبرة ؛ وإن لم تر في الموضوع ما يستحق هذه الضجة أصدرت للناس بذلك بياناً تقطع به قول كل قائل .

وإنه ليهمنى أن أقف على حقيقة هذا الموضوع ، فمن أخطر الأمور أن تتعرض قداسة القرآن وكرامة العقائد لمثل هذه التخريصات .

وفي انتظار تصرفك الحكيم أهدي إلى عزة الصديق المفضل أخلص التحيات .

السكرتير العام
للجامع الأزهر والمعاهد الدينية

محمود أبو العيون

فورد لحضرة صاحب الفضيلة السكرتير المصمم للازهر هذا الجواب من
حضرة صاحب العزة عبد الوهاب عزام بك .

سيدى صاحب الفضيلة العلامة الشيخ محمود أبو العيون ،

السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد ، فقد جاءت رسالتكم الكريمة ، فتلقيتها شاكرًا لكم تفضلكم
بالكتابة إلى في أمر الرسالة التي سمعتم عنها .

وحقيقة الأمر أن طالبا قدم رسالة عن القصص في القرآن لينال بها درجة
دكتور ، فردتها لجنة الفحص . فهي رسالة بين طالب وأساتذته عرض عليهم
رأيه فعمد فوه خطأه ، كما يسأل التلميذ أسناذه ، أو يعرض عليه ما بداله من مسألة
مسترشدا . فلم تنشر الرسالة ، ولم تخرج من دائرة البحث والاستفهام ، حتى
تصلح أن تكون موضع مناقشة أو مؤاخذه .

وكتب الرسالة فيما أعرف عنه وكما يبدو من كتابته ، شاب مسلم قصد
أن يدفع عن القرآن الكريم بعض شبه الملاحدة أو رجال الأديان الأخرى ،
وحاد به اجتهاده عن سواء السبيل .

وأنتم تعلمون غيرتي وغيره زملائي من أساتذة قسم اللغة العربية على الدين
وعلى الكتاب المبين ، الذي أطمئن إليه قلوبنا ، وتحفظه صدورنا ، وتتلوه ألسنتنا ،
وهو حجة ناربخنا ومنفخرة لغتنا ، بل حجة الله البالغة ، وكتابه المجيد .

وأرى أن الأمر لا يعدو أن يكون غلط تلميذ اجتهد وأحسن النية . فرد
عليه رأيه ولم يؤذله أن ينشر هذا الرأي ، أو يتقدم بهذا الكتاب للامتحان .
ولو كان في الأمر غير هذا لكنا عند ظنكم في المؤاخذه والمجازاة ، وعند
واجبنا في اغافطة على كرامة القرآن ، وحرمة الاسلام .

وأنا أسأل الله أن يهيء لنا من أمرنا رشدا ، وبرزقنا السداد في الفكر
والقول والفعل .

والسلام عليكم من المحب المخلص .

عبد الوهاب عزام

٦ ذى الحجة ١٣٦٦

١٩٤٧ / ١٠ / ٢٠

مذكرة

مرفوعة من جبهة علماء الأزهر

الى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، ثم الى جهات الاختصاص
في الدولة المصرية وإلى الراى الاسلامى العام .

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد، فان جبهة علماء الأزهر ترفع الى مقامكم الكريم نحياتها بالغة سابعة ،
وتسنادكم في الحديث مرة ثمانية عن الرسالة التي تقدم بها عهد أحمد خلف الله
افندى المعيد بكلية الآداب ليحصل على درجة دكتوراه ، طاعنا في القرآن
الكريم بأن فيه قصصا غير صادق ، وبأن فيه تناقضا ، وبأنه مستمد من
التوراة والانجيل والامرائيليات وأدب الفرس واليونان ، وبأنه كلام فنان
تأثر بالمواطن وسبح مع الخيال واقتبس من الأساطير . ومعنى هذا أن
القرآن كلام عهد القصصى الفنان ، لا كلام الله المنزه عن المشابهة والحدنان .
ولقد ظاهره على هذا الزور والبهتان ، أستاذ المشرف على رسالته الأستاذ
أمين الخولى .

ولقد التمسنا إجراء تحقيق عاجل مادل ، وتوقيع عقوبة رادعة بالرجلين
إن صح الخبر . لكن مضت أيام طويلة لم نظفر فيها بطائل ، ولم يجر فيها
تحقيق على ما نعلم ، حتى بتنا وبات الراى الاسلامى العام تتامل من الأغضاء
على هذا القذى ، كأن دين الله لا خطوله ، وكأن كتابه أسطورة لا بأس أن
يخوض فيها من شاء بما شاء لا يسأل عما يفعل . . .

أمر عجب

ومن عجب أن جريدة الإخوان المسلمين طلعت علينا صبيحة يوم عيد الأضحى من هذا العام ، وفيها كلمة لعميد كلية الآداب سعادة الدكتور عبد الوهاب عزام بك ، يعترف فيها بخطأ صاحب الرسالة ، ثم يعترف بأن لجنة الفحص قد حكمت بخطئه ؛ لكن سعادته حاول بعد ذلك أن يهون الأمر ، وأن يجعل هذا الجبل الشامخ من الكفر والجهل أصغر من الذر ، فقال : « وحقيقة الأمر أن طالبا قدم رسالة عن القصص في القرآن لينال بها لقب دكتور ، فردتها لجنة الفحص ، فهي رسالة بين طالب وأستاذته ، عرض عليهم رأيه فمرفوه خطأ ، كما يسأل التلميذ أستاذه أو يعرض عليه ما بداله في مسألة مسترشدا ؛ فلم تنشر الرسالة ولم تخرج من دائرة البحث والاستفهام حتى تصلح أن تكون موضع مناقشة أو مؤاخظة » . ثم زاد سعادة العميد فوزي صاحب الرسالة وقال : « إنه شاب مسلم قصد أن يدفع عن القرآن الكريم بعض شبه الملاحدة وأحسن النية » . ثم قال « وأرى أن الأمر لا يمدو أن يكون غلط تلميذ اجتهد وأحسن النية » .

ولا ريب أن كلام هذا العميد يفيد أن صاحب الرسالة تلميذ لا معيد ، وأن مثله مثل مسائل مستفهم مسترشد ، لا واضع رسالة قاصد متمم ، يدافع عنها بكل ما أوتي من قوة مع سبق الإصرار والترصد . . . ويوهم كلام العميد فوق ذلك أن شأن هذا الذي سماه تلميذا شأن المجتهد إذا أخطأ وهو حسن النية ، فله أجر وليس عليه وزر . . . أجل ، يمثل هذا الامتخفاف قضى أو حاول أن يقضى عميد الآداب ، في أكبر جريمة من جرائم الإلحاد والجهل والخروج على الآداب .

ولقد كان الأجدر بل كان الواجب على سعادة العميد وهو يحنح إلى المجاملة ، أن يحامل الحق والاسلام والشعب المسلم وصالح الطلاب والكلية التي هو مسؤول عنها بين يدي الله والتاريخ ، لا سيما أنه عالم مسلم نسل من بيت إسلام وعلم .

معالم الجريمة

ولقد كنا نتمنى أن نطوى نحن المسألة كما أراد أن يطويها العميد ، لكن على أساس شريف حازم من التوبة والإنابة وإعلان الرجوع الى الحق من صاحب الرسالة وقائده ، أما بعد هذا الاصرار والعناد والمراوغة والافتراء على صراى ومسمع من الجمهور المسلم وغير المسلم ، فاننا نرى الامر جد خطير على نحو ما شرحنا فى مذكرتنا السابقة ، خصوصا أن معالم الجريمة قد بدت للعيان ماثلة ، ودم القتل قد جرت به أنهار الصحف والمجلات ، على رغم المراوغة وبذل الجهد فى إخفاء المعالم وطمس الحقائق !

١ — فيها هو الأستاذ أحمد أمين بك أحد أعضاء لجنة فحص الرسالة ، قد نشر تقريره محرراً مبرهنناً بنصوص وفقرات من نفس الرسالة ، وإذا هو يسجل كفر صاحبها وجهله عدة صراى لا مرة واحدة ، على وجه لا يختلف فيه منصفان .

٢ — وما هو الأستاذ أحمد الشايب وهو أحد أعضاء لجنة فحص الرسالة أيضا ، قد أخرج تقريره وفيه ما فى تقرير الأستاذ أحمد أمين بك ، بل زاد عليه وأسهب ، وكان أعنف فى حكمه وأشد !

٣ — وما هو صاحب الرسالة نفسه ، قد حاول جاهداً أن ينزل الميدان ويدافع عن نفسه نخافته قواه ، ولاذ بالفرار ، وتهرب من أن يمس موضوع الاتهام ، ولم يستطع أن ينفى شيئاً مما سجله عليه أستاذاه اللذان فحصا رسالته ، بل أخذ يتخبط فى الظلمات ، فكثرت مرة فى معنى الأسطورة كتابة مبتورة ، وسب مرة أخرى أستاذاه الشايب سباً قذراً لا يليق بأقل طالب فضلا عن معيد فى كلية الآداب . ثم تعلق بأذيال حربة الرأى غير فارق بين الحربة والكفر ، وتمسح بأعتاب الاستاذين الكبيرين الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ محمود مثلثوت ، فافترى عليهما أنهما أفتيا بما يفيد أنه مجتهد مأجور ، لكن هذا الافتراء لم يغن عنه شيئا ، فقد فضحه الشيخان ، وتبرأ من هذا الذى نسبته إليهما .

والى هنا ثبت بوضوح أن صاحب الرسالة قد جمع بين الكفر والجهل والوقاحة والافتراء والعناد ، وهى جرائم تكفى الواحدة منها لعقوبته وإقصائه عن مكانه فى كلية الآداب !! .

فرية الاجتهاد

أما القول بأنه مجتهد أخطأ فهو قول هزل ، لأن المسألة ليست مسألة اجتهادية ، كيف وموضوعها عقيدة من العقائد الأولية فى الاسلام ، وقد تضافرت عليها قواطع الأدلة واستفاضت بين الخواص والعوام . ألا ترى أن كون القرآن كلام الله لا كلام محمد ، وكونه حقاً لا باطل فيه وصدقاً لا كذب فى قصة من قصصه ولا فى خبر من أخباره ، وكونه وحياً يوحى أنزله الذى يعلم السر وأخفى من مماء الغيب ، لا استمداداً من الاسرائيليات والاساطير وأدب الفرص واليونان . نقول : ألا ترى أن كل أولئك أمور تناولتها نصوص الكتاب والسنة وانعقد عليها الاجماع ، واستفاضت بين المسلمين جيلاً بعد جيل من عهد نزول القرآن الى اليوم ، لا يمارى فى ذلك إلا جهول أو جحود ، حتى أصبحت هذه العقيدة من المعلوم من الدين بالضرورة . وذلك لا محالة يخرج موضوع الإجماع هنا عن أن يكون محل اجتهاد ، ويخرج بصاحب الرسالة عن أن يكون مجتهداً مأجوراً ، الى أن يكون مجرماً مرتدّاً مأزوراً !! ومن القواعد المشهورة بين الأصوليين ، أنه لا اجتهاد فى مقابلة النص ، وأنه لا يجوز الاجتهاد فيما قام عليه الاجماع ، أو علم من الدين بالضرورة .

الاستاذ أمين الخولى

يبقى الكلام على الاستاذ أمين الخولى ، وما أدراك ما الاستاذ أمين الخولى ؟ إنه الركن الاول فى هذه الجريمة . هو الذى تولى كبرها ، وقد اعترف ضمناً فى جريدة أخبار اليوم (١ - ١١ - ١٩٤٧) بأنه هو الذى غرر بتلميذه خلف الله وأنغراه على ما أجرم ، وأشرف عليه وهو يرتكب الجريمة ، ثم حاول حمايته وتأيينه والدفاع عنه بعد ارتكابها ، هازئاً بمقدسات الاسلام ومقرراته العلمية ، ساخراً من موقف جبهة علماء الأزهري وفضيلة المفتى السابق ، وأسمى

الرأى الاسلامى العام فى هذا الموضوع بأنه ضجيج عامى أهوج ، متقولا على المرحوم الأستاذ الشيخ محمد عبده ما لم يقل ، متهاونا بمقامه فى كلية الآداب كأستاذ ، وبمقام زميليه اللذين فحسا الرسالة كأستاذين جليلين ، وبمقام العميد الذى أعلن خطأ صاحب الرسالة كرئيس عظيم . بل لقد أسرف الأستاذ الخولى واشتط فأعلن إصراره على هذا الإلحاد بصورة التحدى لمصر والشرق كله إذ قال : « لو لم يبق فى مصر والشرق كله أحد يقول إنه حق ، لقلت وحدى وأنا أقذف فى النار : إنه حق حق » . ! ! .

أما بعد

فأننا نرجو فى دينكم وغيـرتكم أن تتفضلوا فتعملوا على تحقيق ما يأتى فى سرعة ، غسلا للآهات التى لحقت الدين والعلم والأزهر والجامعة والأمة الاسلامية كلها :

- ١ — تحويل الرسالة إلى فضيلة مفتى مصر الأكبر ، ليقضى فيها من ناحية الدين ، باعتباره جهة الاختصاص .
- ٢ — عقد جماعة كبار العلماء لمناقشة الأستاذ أمين الخولى (باعتباره عالما) فيما نسب إليه من تأييد ما فى الرسالة ، وفيما نشره بجريدة أخبار اليوم .
- ٣ — إيقاف الأستاذ أمين الخولى ومحمد احمد خلف الله أفندى عن عملهما ، حتى يفصل فى أمرهما .
- ٤ — عدم تجديد عضوية الأستاذ أمين الخولى بمجلس إدارة كلية أصول الدين .
- ٥ — تطهير الجامعة والمدارس فى مصر من كل ضليل ملحد .
- ٦ — تصحيح الأوضاع وإسناد تدريس المواد الدينية والعربية إلى أساتذة أمناء على دينهم وعلمهم وتلامذتهم ووطنهم .

وذلك أضعف الايمان

ذلك أقل ما يجب فى مثل هذا الحادث الجلل ، وإلا لحكم الإسلام على المرتدين معروف . وإن مصر الاسلامية بل زعيمة الأمم الاسلامية ،

لا يصح أن تكون بعد اليوم مباءة للالحاد والملاحدة ، وفيها الوعي الديني قد تلبه وتيقظ ، وفيها الأزهر المعمور قد ثار للمدوان على الاسلام وتغيظ ، وعلى رأسها ملك صالح مسلم يعرف كيف يقود السفين ويحمي العرين .

« والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل » .

وتفضلوا بقبول موفور التحية والاجلال .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

في ١٩ / ١٢ / ١٣٦٦ هـ - ٢ / ١١ / ١٩٤٧ م

رئيس الجبهة

الامين العام للجبهة

محمد الشريفيني

محمد عبد العظيم الزرقاني

عضو جماعة كبار العلماء

الاستاذ بكلية أصول الدين

عمر ومعاوية

قال يزيد بن معاوية : حدثني أبي أن عمر بن الخطاب لما قدم الشام ، قدم على حمار ، ومعه عبد الرحمن بن عوف على حمار ، فتلقاها معاوية في موكب ثقيل ، فجاوز عمر حتى أخبر ، فرجع إليه ، فلما قرب منه نزل إليه ، فأعرض عنه عمر ، فجعل يمشي الى جنبه راجلا ، فقال عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل ! فأقبل عليه الفاورق وقال له : يا معاوية أنت صاحب الموكب آتفا مع ما بلغني من وقوف ذوى الحاجات ببابك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال ولم ذاك ؟ قال : لانا في بلد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو ، ولا بد لهم مما يرهيبهم من هيبة السلطان ، فان أمرتني بذلك أقت عليه ، وإن نهيتني عنه انتهيت . فقال عمر : لئن كان الذي تقول حقا فانه رأى أريب ، وإن كان باطلا فانه خدعة أديب . وما أسرك به ولا أنهاك عنه .

فقال عبد الرحمن بن عوف : لحسن ما صدر هذا الفتى عما أو ردت فيه .

فقال عمر : مصادره جشمناه ما جشمناه .

الاسلام والمسلمون في شرق أفريقيا

لحضرة الاستاذ الدكتور محمود حب الله

مبعوث الأزهر الى شرق إفريقية

دراسات عامة

الحالة الاجتماعية

تتكون بلاد إفريقيا الشرقية من أربع مقاطعات : كينيا ، وتنجانيقا ، وبوغندا ، وبلاد الزنجبار ، وهي إما مستعمرات إنكليزية أو تحت الانتداب الإنكليزي ، ويسكنها ما يقرب من ستة عشر مليوناً من الآفسي ، ومن هؤلاء من يعتبر من السكان الأصليين ، ومنهم النازحون الذين انحدروا اليها من أقطار متعددة وأمم متباينة . مركز تحقيق كميتر علوم إسلامي

١ - السكان :

(١) فهناك الأوروبيون أو البيض ، وهم الطبقة الحاكمة والمتمتعة بكثير من الامتيازات ؛ فلكل أوروبي مركز ممتاز ، وعليه واجبات وفيود يقصد بها الاحتفاظ بكرامته وبمركزه الممتاز . فلمهم أحياء خاصة ، وفنادق خاصة ، ومرافق خاصة ، لا يسمح لغيرهم أن يطرقها ، ولا يصح لواحد منهم أن يسافر في الدرجة الثالثة ، لأنه لا يصح أن يكون شعبياً . والحد الفاصل الذي يضع الشخص في هذه الناحية أو في تلك الناحية هو اللون ، حتى يتبين خلافه . ويسكن هؤلاء المدن عادة إلا المبشرين منهم فانهم متغلغلون في طول البلاد وعرضها .

(٢) وهناك الهنود النازحون من الهند وسيلان ، وهم جماعات شتى وطوائف متعددة ، وأديان مختلفة ، شأنهم في ذلك شأن الهند نفسها . وهم

متغفلون في البلاد أيضا ، غير أنهم لا يتزوجون مع الوطنيين . وهذا هو السر في احتفاظهم بلغاتهم الأصلية ، على الرغم من طول مكثهم هناك .

(٣) وهناك العرب الذين نزحوا ولا يزالون ينزحون من جزيرة العرب ، وخاصة من عمان وحضرموت وعدن ومسقط . وهم متغفلون في البلاد كلها أيضا ، فتجدهم على قلتهم ، في المدن وفي القرى وفي الغابات . وهم يندمجون مع الوطنيين ويتزوجون منهم . وهذا هو السر في أن كثيرا منهم نسي لغته الأصلية واستبدل بها اللغة الوطنية ؛ ولكنه نال نظير ذلك إسلام الوطنيين .

(٤) وهناك الوطنيون الأصليون ، وهم أكثرية البلاد .

وأما المسلمون من السكان فيقربون من أربعة ملايين من الأنفس ، وهم منتشرون في البلاد كلها ؛ فتجدهم في العواصم وفي القرى ، وعلى السواحل وفي داخل البلاد ، وهم طبعا أقلية في كل مكان إلا في بلاد الزنجبار ، فهم هناك يكادون يكونون كل السكان ، ولا يوجد بينهم إلا نفر قليل من غير المسلمين . وتعتبر بلاد الزنجبار المركز الرئيسي للإسلام هناك ، لا لأن سكانها مسلمون فحسب ، بل لأن سلطانها عربي مسلم أيضا ، ويدين له كل عرب إفريقيبا الشرقية بالطاعة والولاء .

ب - الإدارة :

نحكم هذه المقاطعات كلها مباشرة أو عن طريق غير مباشر بالحكومة الانجليزية . وليس لغريم من السكان إلا سلطان محدود حين يوجد .

فعلى الرغم من أن الهنود يحتلون مراكز اقتصادية ممتازة ، لا نجد لهم أثرا حقيقيا في توجيه سياسة البلاد ، وكأنهم يخشون أن تضع الحكومة العراقيل في وجوههم وتسد عليهم أبواب الرزق أو تخرجهم من البلاد إذا ما أظهروا شيئا من التذمر ؛ ولهذا فهم يظهرون أنهم راضون بما يعود هناك من أوضاع . ولكن هل هذا هو الحقيقة ؟

وليس العرب بأحسن حالا من الهنود في تلك الناحية ؛ فليس لهم رأي حقيقي في توجيه سياسة البلاد أيضا . وعلى الرغم من ذلك فهناك ولاية من العرب في بعض البلاد ؛ وهناك مديرون منهم في بلاد الزنجبار يساعدون السلطان في إدارة البلاد .

وشأن الوطنيين في ذلك شأن غيرهم ، مع أن منهم مديريين ييوغنده ، ومن بين هؤلاء مدير مسلم ، وهو الوحيد هناك منهم .
وهناك من المسلمين من يعين عضوا في المجالس المحلية أو ينتخب فيها .
ولكن الكلمة العليا هي في النهاية لدى السلطان .

ج - القضاء :

والقضاء المدني بجميع درجاته في أيدي قضاة من الانجليز .
وأما القضاء الشرعي للمسلمين فهو ، حيث يوجد ، في أيدي المسلمين .
وسلطان القضاء منحصر في المسائل الشرعية من زواج وطلاق وميراث . وأحيانا يتعدد القضاة الشرعيون في البلد الواحد بتمدد الفرق . ولقد رأيت (١) في بلاد الزنجبار قاضيا للأباضيين وآخر لأهل السنة ، وفي ممباسا قاضيين لأهل السنة . على أنني لم أر قضاة شرعيين في غير هذين البلدين . ولقد عجبت ماذا يصنع المسلمون في البلاد الأخرى حينما تعرض لهم مشاكل ، وبينهم وبين هذين البلدين مئات من الأميال . ولقد سألت هذا السؤال فوجدت إجابات استظهرت منها أن الناس يحلون مشاكلهم بأنفسهم ، أو بواسطة مجالس يختارونها هم ، أو بواسطة عرفاء المكاتب مادام ذلك ممكنا ، وإلا فانهم يتجهضمون مشاق الرحلة إلى أحد هذين البلدين .

الحالة الاقتصادية

تتمتع هذه البلاد ، على وجه عام ، بالرخاء ورغد العيش . وذلك لتوفر المحصولات بسبب كثرة الأمطار وقلة عدد السكان بالنسبة لاتساع الأرض

(١) وعمن تشرفت بمعرفتهم السيد عمر بن سليط قاضي أهل السنة في بلاد الزنجبار . وهو عالم ورع وزعيم مدرسة ومحبيب إلى النفوس جميعا . ولقد شرفني بأن لازماني أثناء إقامتي ببلاد الزنجبار . وعرفت السيد محمد الأمين قاضي قضاء ممباسا ، وهو شافعي المذهب كالسيد عمر ، جليل القدر ، وله عدة مؤلفات باللغة الوطنية في الرد على القاديانية . ولم أشرف بمقابلته إلا مرتين زرتني في بيته الربني الذي كان يمرض فيه .

المكسوة بالخضر والفواكه ، ولجودتها وخصوبتها . فتجد في بلاد الزنجبار الكثير من القرقل وجوز الهند ، وهما من المحاصيل الرئيسية ، غير أنهما يباطن بأخس الأثمان ، وفيها معاصر لاستخراج زيت القرقل . وهناك المانجة والآناس والبرتقال والموز والبطيخ والذرة الشامية . وأثمانها بخسة جدا إذا ما قورنت بالأسعار في مصر . ولكن ذلك لا يؤثر كثيرا على السكان ، لأن مجردهم في استخراج هذه المحصولات ضئيل . ويكاد أحيانا ينحصر في جمع هذه المحصولات بعد أن يكون قد آن حصادها . وتجد في كينيا ، عدا الكثير من هذا كله ، الشاي والأرز والقمح والشعير ، وتجد في تنجانيقا الشاي والبن كذلك . وفي يوغندا كثير من البن والقطن وقصب السكر . وهناك مجال له ومصانع للسكر .

وعندهم ، عدا هذا ، كثير من المواد الخام الضرورية للصناعات . وتقدم الغابات المترامية الأطراف بكثير من أجود أنواع الخشب . وأما الثروة الحيوانية فيوجد منها الكثير . فهناك الحيوانات الوحشية التي ينتفعون بجلودها وعظامها وأوبارها . والحيوانات الأليفة التي ينتفعون بلحومها كذلك . ولقد ساعدتهم كثرة المراعى على الإكثار من هذه الثروة ، وهي في نمو مطرد .

وللبحيرات دخل كبير في كثرة الأمطار التي جعلت هذه البلاد جميعها تبدو كأنها حقل واحد مكسو وجهه بالخضر . وتقدم البحيرات أيضا بثروات أخرى مثل السمك والتلسيح . وهذه هي البحيرات التي تمد النيل بمائه ، ومنها بحيرة فيكتوريا الواقعة في يوغندا ، وهي من أكبر البحيرات التي تمد النيل . ولقد سمعت بهذه المناسبة ، أن حكومة يوغندا تفكر جديا في التحكم في ماء تلك البحيرة . وذلك لبناء خزان عند جنجا ليستغل في توليد الكهرباء من مساقط الماء هناك . وإذا تم هذا المشروع وضبطت مياه البحيرة فإذا يكون الشأن بالنسبة لمصر ؟ هل ستدفع النواحي الانسانية حكومة يوغندا إلى أن تترك المياه تجري في مجاريها الطبيعية ، أو أنها ستعتمد إلى تهديد مصر وإلى مساومتها ؟ ذلك ما يجب أن نتنبه له وأن نفكر فيه .

« يتبع »

الجانب الالهي من التفكير الاسلامي

هذا كتاب جليل قدره ، عظيمة فائدته ، طريف موضوعه . قام بتأليفه
 حضرة الاستاذ الالهي الدكتور محمد البهي مدرس الفلسفة بكلية أصول
 الدين . واسمه يدل على المجهود المصني الذي يقتضيه إبراز مثل هذا العمل الغد
 في اللغة العربية . ومجرد استكمال المراجع العربية التي اعتمد ، ونقل ملاحظات
 قيمة منها ، يدل وحده على مبلغ ما طناه الاستاذ المؤلف من الجهد الجاهد ،
 في سبيل إقامة هذا الصرح الفلسفي في أدق المواضع وأحوجها للعناية والتدقيق .
 الكتاب الذي نذكره الآن هو القسم الثاني من كتاب « الجانب الالهي
 من التفكير الاسلامي » وهو كما قال المؤلف : « يعرض موقف فلاسفة المسلمين
 في الشرق من التراث العقلي الاغريقي فيما وراء الطبيعة ... »

ولأجل الوصول الى هذه الغاية « يذكر آراء المدارس الفلسفية في الوجود
 وأصله وما ينتهي إليه ، ورأى هؤلاء الفلاسفة فيه ، ويوضح أن رأيهم في
 تصورهم الوجود ، وتصويرهم له ، يتمثل في التوفيق بين الدين والفلسفة ،
 أكثر من أن يعبر عن بناء جديد في التفكير الفلسفي فيما وراء الطبيعة » .
 ثم شرع حضرة المؤلف الجليل في خوض غمار هذه البحوث فذكر أولاً
 موقف العقلية الاسلامية من الفلسفة الاغريقية . ثم سرد أسباب قبول المسلمين
 لهذه الفلسفة ، وبحوثهم في التوفيق بين الدين والفلسفة . ثم ألم بمشكلة
 الوجود ، وذكر سبب اختلاف نظر الفلاسفة فيه ، وأتى على آراء البراهمة
 فيه ، وآراء الاغارقة ومنهم الايليون وأفلاطون وأرسطو والروافون ،
 وأضاف اليهم فلاسفة الافلاطونية الحديثة كفلوطين وبرقلس الخ . ثم انتقل
 الى رأى القرآن في الوجود ، وتوسع في إبراد رأى الكندي ، والقرابي
 وابن سينا . وبعد هذا كله انتقل الى مسألة الاستدلال على واجب الوجود ،
 وجاء رأى توماس الاكيني في دليل الوجود ، ونقد (كانت) للدلالة العقلية
 على وجود الله ، ووحديته ، وعلى علم واجب الوجود .

فهذا خضم متلاطم الأمواج من البحوث ، استطاع ممثل المذوع الانعري في
 الفلسفة الحديثة أن يحصره في ٢٩٢ صفحة حافلة بالنظرات القيمة ، والتعليقات
 الثمينة . فنشئ على هذه النافذة أطيب التناء ، أكثر الله من أمثاله في النبهاء .

وقد بناه النبي صلى الله عليه وسلم ، وأسس على التقوى من أول يوم^(١)
بعد مقدمه من مكة إلى المدينة ، دار السلام ، وهو ثل الإسلام : من بعد أن أسس
مسجد قباء^(٢) في بني عمرو بن عوف ، وكان قد أقام فيهم أربع عشرة ليلة .

أمر صلوات الله وسلامه عليه باتخاذ اللّسّين فاتخذ ، وبني المسجد في مبرك
ناوته . وهو يومئذ مرّ بد تمر^(٣) ليتيمين في المدينة ، وكانا راغبين أن يجعل الله
هبة لله ورسوله ، فأبى صلى الله عليه وسلم إلا الثن ، وأبتاعه منها بعشرة دنانير ،
أداها من مال أبي بكر رضي الله عنه ، ثم سُقف بالجريد ، وجعلت عُمدته من
خشب النخل ، وعمل فيه المهاجرون والأنصار ، وكان صلى الله عليه وسلم ينقل
معه اللّسّين في بنائه ، وهو يتمثل بقول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه :

هَذَا الْحِمَالُ ، لَا حِمَالُ خَيْرُ
هَذَا أَكْبَرُ - رَبَّنَا - وَأَطْهَرُ^(٤)
وقوله :

اللهم إن الاجرَ أجرُ الآخرة فارحيم الأنصارَ والمهاجرة

وجعلت قبلته إلى بيت المقدس : وكان صلى الله عليه وسلم يصلي نحو بيت
المقدس بعد مقدمه إلى المدينة حتى ولاه الله القبلة التي يرضاه وهي الكعبة البيت
الحرام ، على رأس سبعة عشر شهرا : وبما جاء في فضل هذا المسجد ما رواه الامام
أحمد بإسناد صحيح من حديث أنس رفعه « من صلى في مسجدى أربعين صلاة
لا تقوته صلاة كتب له براءة من النار ، وبراءة من العذاب ، وبراءة من النفاق » .
وأما المسجد الثالث فهو بيت المقدس ، مسجد الانبياء السابقين ، وقبلة الأمم
السالفين ، وقبلة هذه الأمة كذلك سبعة عشر شهرا كما قدمنا آنفا ؛ وورد أن
الصلاة فيه بخمسة صلاة فيما سواه^(٥) إلا المسجد الحرام والمسجد النبوي .

(١) إشارة إلى الآية الكريمة « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم ... »
وسيفرّك وجه الحق في سبب نزولها .

(٢) قباء من هوالى المدينة على نحو ثلاثة أميال منها ، وهي في الأصل اسم بئر
في هذا الموضع . (٣) المرید بوزن منبر : الجرين أو مربوط الايل .

(٤) أى الممول من القين والحجارة في بياض هذا المسجد ، أبر وأزكى عندك يا ربنا من
أحوال خبير نمرها وزيبها . (٥) رواه البزار بإسناد حسن .

وروى النسائي عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن سليمان بن داود عليهما السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل خلا لا ثلاثا : حكما يصادف حكمه ^(١) فأوتيته : وملكا لا يذغى لاحد من بعده فأوتيته : وسأل الله تعالى حين فرغ من بناءه ألا يأتيه أحد لا ينهزه ^(٢) إلا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه . وروى أبو داود عن ميمونة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم ^(٣) أنها قالت : يا رسول الله ، أفتنا في بيت المقدس ، فقال « إيتوه فصلوا فيه ، فإن لم تأتوه وتصلوا فيه فابعثوا بريت يسرج في قناديله » .

هذه هي المساجد الثلاثة المقدسة ، التي تشد الرحال اليها ، وتحتفل المشاق في سبيلها ، وتنفق النفقات في زيارتها والصلاة فيها : وأما غيرها فلا يدركها في هذه المنزلة . ولا يلحقها في تلك المزية . فالذين يتحملون النفقات في السفر إلى مسجد سواها ، أو يرهقون أنفسهم في الذهاب إلى غيرها ، جاهلون بسنة نبيهم ، أو متبعون لأهوائهم ^(٤) : وحق على أهل العلم أن يهدوهم صراطا سويا .

نعم : إن الرحلة للقاء الصالحين ، أو الأخذ عن العلماء العاملين ، أو النظر في ملكوت السموات والأرض : كل ذلك مما رغب فيه الكتاب والسنة وشهدت به سيرة السلف : قال الامام الغزالي : كان سعيد بن المسيب يسافر الايام في طلب الحديث الواحد . وقال الشعبي : لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كلمة تدله على هدى أو ترده عن زدى ما كان سفره ضائعا . ورحل جابر بن عبد الله إلى مصر مع عشرة من الصحابة ، فساروا شهرا في حديث بلغهم عن عبد الله ابن أنيس الأنصاري يحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعوه ^(٥) . والأخبار والآثار في الارتحال إلى طلب العلم ، وزيارة الإخوان ، والتدبر في آيات الكون ، وآثار السابقين ، أكثر من أن يلم بها كتاب فضلا عن مقال

(١) أي أن يكون حكمه موافقا لحكم الله عز وجل وشريعته .

(٢) لا يخرج من ولا يدفعه .

(٣) خادمه .

(٤) ومن مولاة أقوام أولعوا بالوالد ، ورأوا فرضا عليهم أن يؤثروا مساجد الله

وعبادته ، بشدة زحامهم ، وكثرة ضجيجهم ، وبلغ أقدارهم .

(٥) أنظر إجماعنا في آداب السفر .

والحق بعض العلماء مسجد قباء بهذه الثلاثة فأجاز شد الرجال اليه لأنه أول مسجد بنى في الإسلام ، وأول مسجد أعلن فيه النبي عليه والصلاة والسلام الجماعة بأصحابه ، وأول مسجد بنى لجماعة المسلمين عامة ، وكانت المساجد قبلة خاصة للأفراد أو القبائل ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يزوره كل سبت راكباً أو ماشياً ، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يحرص على ذلك اقتداء به صلى الله عليه وسلم .

واختلف العلماء في أي المسجدين نزل قوله تعالى «المسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه» ؟ فذهب جماعة من منهم مالك - إلى أنه مسجد قباء محتجين بما أخرجه مسلم عن أبي سعيد قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذي أسس على التقوى ، فقال : هو مسجدكم هذا ، يعني مسجد المدينة . قال النووي : وهذا نص بأنه المسجد الذي أسس على التقوى المذكور في القرآن ، ورد لما يقول بعض المفسرين أنه مسجد قباء .

والحق كما قال الحافظ ابن حجر أن كلا منهما أسس على التقوى من أول يوم بنى فيه ، وأن قوله تعالى في بقية الآية «فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين» يؤيد أن المراد مسجد قباء كما روى في سبب نزولها بسند صحيح . والسر في إجابته صلى الله عليه وسلم بأنه مسجد المدينة رفع ما يخطر بالبال من أن التأسيس على التقوى خاص بمسجد قباء ، وبيان أن مسجد المدينة يشاركه في هذه المزية ، ويمتاز عنه بفضائل أخرى .^(١)

وبعد ، فإن الحنيفية السمحة تدعو إلى الأسفار النافعة ، والرحلات المباركة ، التي تثمر ثمرها وتؤتي أكلها ، وتدل على الخير والهدى ، وتدفع الشر والردى ؛ كما تحذر من الأسفار العابثة والضائعة ، التي لا تكسب صاحبها في الدين أجراً ، ولا في الدنيا خيراً .

(١) وأما زيارة سلوات الله وسلامه عليه فكان المقصود الأول منها مواصلة أهل قباء وتفقد أحوالهم وأحوال من ظاب منهم من شهود الجمعة معه وهذا هو سر تخصيص الزيارة بالسبت .

فطرة الله

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد الهدى
المدرس في كلية الشريعة

قال الله تعالى : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .
يذكر الله عز وجل في هذه الآية ، أن الاعتراف به ، وإفراده بالالوهية ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، فإذا نُحِلَ المرء ونفسه ، حكم بأنه مربيوب لإله قادر حكيم ، خلقه وأنعم عليه ، وأن لهذا الإله واحد لا شريك له ، ولا سلطان لأحد مع سلطانه ؛ يرشده إلى ذلك عقله الذي ركب فيه ، ومنح قدرة يستطيع بها إدراك الحقائق ، والتمييز بينها وبين الباطل ، فهو يقول لنفسه : أنا قد وجدت بعد أن لم أكن ، فحال أن يكون وجودي بدون موجود ، ثم هذا الموجود الذي أوجدني لا بد أن يكون قادراً حكماً منعماً ، لأنه قد أوجد كثيراً من أمثالي ، وأنعم علينا بنعم لا تعد ولا تحصى ، تحيط بنا من كل جانب ، ولم يتركنا في هذه الحياة دون أن يمنحنا وسائل العيش فيها ، وأدوات السكون والقرار إليها . وقد جعل ذلك كله على نظام محكم متقن ، لا يعتريه الخلل ، ولا يتطرق إليه الفساد ؛ ولا بد أن يكون الموجود لهذا كله ، والمنعم بهذا كله ، والمتقن لهذا كله ، إلهاً واحداً ليس كمثل شيء ، لأنه لو كان متعدداً له نظير أو نظائر ، لاضطرب النظام ، وفسد الكون ، وذهب كل إله بما خلق ، وعلا بعضهم على بعض ...

هذه القوة الفطرية المركوزة في الإنسان ، والتي ترشده إلى إدراك الحق والواقع في شأن الالوهية إذا خلا من المؤثرات المصنوعة ، والعوامل الطارئة ... هي التي يذكرها الله عز وجل في هذه الآية ، ويذكرها في آيات أخرى ، على صورة أخرى ، إذ يقول : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة

إنا كنا عن هذا غافلين ، أو نكروا ما أنزلنا من قبل ، وكنا ندرى من
بعدهم ، أفدّهلكنا بما فعل المبطلون . وكذلك تفصل الآيات ، ولعلمهم يرجعون ،
(١٧٢ - ١٧٤ / الأعراف) .

فسواء أكان هذا من قبيل الحقائق التي وقعت وأخبرنا الله بها ، أم من
قبيل التمثيل والتصوير ، فقد اعترف أبناء آدم بأن لهم رباً ، وأن هذا الرب
هو المستحق وحده لعبادتهم : اعترفوا بذلك قولاً ونطقاً ، أو تكويناً وخلقاً ،
فلم يعد لأحد عذر في أن يخرج على هذه الحقيقة التي آمن بها وقررها ، وهو
خال من كل مؤثر ، بعيد عن كل إضلال وتحكم ؛ ولم يعد لأحد حق في أن يزعم
أنه إنما أشرك بالله لأن آباءه قد أشركوا فهو قد ورث عنهم الباطل من
حيث لا يدري ، ولم يدعه ويخترعه من ذات نفسه حتى يؤاخذ به ويعاقب
عليه ؛ لم يعد لأحد أوقى العقل أن يعتذر بهذا العذر ، أو يحتاج بهذه الحجة ،
وفي السكون آيات ، وفي الخلق شواهد بينات .

وشبه بهذا في القرآن الكريم أيضاً قوله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم
وميثاقه الذي واثقكم به » ، إذ قلتم سمعنا وأطعنا ، (٧ / المائدة) .

والقرآن الكريم يسوق هذه القطرة التي من شأنها أن تؤمن بالله وتفرد
بالربوبية ، مساقاً آخر حين يتعالم إلى العقول وما في السكون من آيات وشواهد
تدل على الله ، فيقول : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . إن
في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري
في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد
موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء
والأرض آيات لقوم يعقلون » ، (١٦٣ - ١٦٤ / البقرة) .

ويقول : « والله ملك السموات والأرض ، والله على كل شيء قدير . إن
في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب ؛
الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات
والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلاً ، سبحانه » ، (١٨٩ - ١٩١ / آل عمران) .

ويقول : ، أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من
فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج :
تبصرةً وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنات
وحباً الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد ، وأحيينا به بلدة
ميتاً ، كذلك الخروج ، (٦ - ١١ / ق) .

ويقول : ، أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنْشِرُونَ . لو كان
فيها آلهة إلا الله لفسدنا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما
يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة . قل ها أتوا برهانكم ، هذا ذكر
من ممي وذكر من قبلي ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون .
(٢١ - ٢٤ / الأنبياء) .

بل يصل في تعظيم شأن البرهان والعقل إلى أن يقول : ، ومن يدع مع الله
إلهاً آخر لا برهان له به ، فإنما حسابه عند ربه . (١١٧ / المؤمنون) .
ومن المعلوم أنه لا برهان لمن يدعو مع الله إلهاً آخر ، ولكنه مع ذلك
ساقه مساق الممكن ، اعتداداً بالعقل وثقة بحكمته .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المنبثة في الكتاب الكريم التي تخاطب
العقول ، وتستشهد بما في الكون من آيات : ونفهم منها أن الله جلت حكمته قد
طبع الخلق وفطرهم على الإيمان به وتوحيده ، وأن مظهر ذلك هو العقل الذي
لا يسعه حين يتدبر الدلائل ويرى هذا الكون البديع إلا أن يعترف ويؤمن
بصانعه القدير .

وقد جمع الله عز وجل في بعض الآيات بين العهد الذي أخذه ، والعقل
الذي أودعه . ومن ذلك قوله : ، إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يؤفون
بعهد الله ولا يقيمون الميثاق ، (١٩ - ٢٠ / الرعد) . وقوله : ، ألم أعهد
إليك يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدوني ، هذا
صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ، (٦٠ -
٦٢ / يس) .

ولقد حدثنا القرآن الكريم أن المشركين أنفسهم لم يكونوا منكرين لهذه الفطرة إنكاراً صريحاً ، ولكنهم كانوا يرددون ما هم عليه من شرك بمبررات يزعمونها ، كأن يقولوا : ، هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، (١٨ / يونس) أو يقولوا : ، ما نمدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، (٣ الزمر) . وأنهم حين يسألون عن مصدر هذا الوجود ، ومفيض هذا الإلّهام ، يترفون بأنه الله وحده دون هؤلاء الشركاء الذين اتخذوهم : ولذلك انفع الرسل بهذه الفطرة ، وخاطبوا في أممهم هذه الغريزة ، واتخذوا منها حجة قائمة دامغة على تناقض المشركين مع أنفسهم ، وخروجهم على مقتضى العقل : ، وإن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ، (٨٧ / الزخرف) ، قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ، (٣١ / يونس) ، أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تغلبوا شجرها ؟ إله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أم من جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ إله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ إله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون . أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ؟ إله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون ، (٦٠ — ٦٣ / النمل) .

وهكذا يقف أمامهم رافعاً لواء الحق في قضية تعرفها عقولهم وتؤمن بها فطرتهم ، فيبني عليها ، ويجادلهم على أساس التسليم بها ، والإذعان لها ، ويفتن في تعجيبهم والتعجيب منهم ، في هجوم عنيف ، وسخرية موجهة ، وكأنه يمسك بتلابيبهم ، أو يقبض على نواصيهم أن يفلتوا من الخيعة ، أو يهربوا من لوازمها البينة ، فهم منها في قيد أى قيد ، يحاولون الخلاص ، ولات حين مناص .

ولم يكن ذلك شأن المشركين على عهد محمد صلى الله عليه وسلم لحسب ، وإنما هو شأنهم على عهد كل رسول : كانوا يلتوون عن مقتضى الفطرة فيجابههم بها رسلهم ، ويتخذون منها الحجة القاطعة عليهم : وفي ذلك يقول الله عز وجل :

« ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله : جاءتهم رسلهم بالبينات فردّوا أيديهم في أفواههم وقالوا : إنا كافرين بما أرسلتم به ، وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض ، (٨ - ٩ / إبراهيم) .

وكما جاء القرآن الكريم بآثبات هذه الفطرة . والمحااجة على أساسها ، جاءت السنة الصحيحة بذلك :

أخرج البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة — وفى رواية على هذه الملة — فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . »

وفى صحيح مسلم عن عياض ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله : إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم ، أى حولتهم . »

وأخرج النسائى فى سننه عن الحسن بن أبى الحسن البصرى ، قال : حدثنى الأسود بن سريع ، قال : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع غزوات قال : قتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا مقاتلة ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتد عليه ، ثم قال : « ما بال أقوام يتناولون الذرية ؟ ! » فقال رجل : يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال : « إن خياركم أبناء المشركين ! ألا إنه ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها ، فأبواها يهودانها وينصرانها . »

فكل هذه الأحاديث تدل على ما يدل عليه القرآن الكريم من أمر الفطرة ، وأن الذى يصرف عنها إما تقليد للأباء ، وإما صارف من الهوى والشيطان .

وفى الحديث الثالث ما يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى أن يعامل أبناء المشركين بما يعامل به آبائهم من القتل ، أملا فى أن يثوبوا — إذا بلغوا الرشد — إلى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، ويقاوموا بالعقل أسباب التعصب وبواعث الهوى .

بمناسبة المولد النبوى

سيد الانبياء فى شعر أمير الشعراء

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر

المدرس بكلية اللغة العربية

أعتقد أنه لم يحفل شاعر من شعراء النهضة الحديثة ، فى مصر أو فى الشرق العربى ، بمدح رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، مثلما حفل بذلك أمير الشعراء أحمد شوقى بك . هنا الله روحه ، وأملر جدته شأيب رحته ، وأفاض عليه من سجال رضوانه !

كما أعتقد أن هذه الحفاوة بالرسول عليه السلام ، من شاعر ملهم مجيد ، أثر من آثار محبة هذا الشاعر للدوح ، ولما جاء به من شريعة محكمة ، جمعت إلى التوحيد محاسن الخصال ، ومكارم الأخلاق ، ونظاما كاملا للحياة الإنسانية الهنيئة السعيدة !

وقد ظهرت هذه المعانى واضحة جلية فى شعره الذى سنعرض لذكر أيسات منه عند المناسبة .

ولئن تأثر شاعرنا فى هذا الغرض الشعرى بشعر مادم رسول الله فى عصر المماليك ، الإمام المحب للحضرة النبوية ، الشاعر الذائع الصيت ، سيدى محمد البوصيرى ، إن لشعر أمير الشعراء ديباجة شعرية خاصة ، ومعانى خيالية ملهمة ، وأساليب من السهل الممتنع ، تكاد تضارع أساليب الشعر فى العصر العباسى الأول ! وحسبى أن أورد على دعواى هذه دليلين من أدلة كثيرة أضرب عنها صفحا لطول الكلام :

١ — قال البوصيرى فى مطلع مزيمته :

كيف ترقى رُقيك الانبياءُ باسماء ما طاولتها سماء ؟

وقال شوقى فى افتتاح مزيمته النبوية :

ولد الهدى فالكائنات ضياءُ وفم الزمان تبسم وثناء !

فالقارىء الأديب يحس الفارق الكبير بين المعنيين . ويدرك بوضوح تجلى الروح الشاعرية الفتيّة فى بيت شاعرنا ، وظهور الحقيقة الواقعية المتسمة ببعض الخيال فى بيت الإمام .

ب — قال البوصيرى فى مطلع البردة ، أو البردة :

أمن تذكر جيرانى بذى سَلَمَ مزجت دمعاً جرى من مُقلة بدم ؟

وقال شوقى فى مطلع نهج البردة :

ريمٌ على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي فى الأشهر الحرام^(١)

المعنى فى بيت البردة مطروق بين الشعراء القدماء والمحدثين . وهو فى بيت النهج مبتكر جديد ، أودع فى ثوب من جواهر اللفظ وشيب . ومع هذا فأليك ما يقوله أمير الشعراء تواضعاً منه وتادباً مع الإمام البوصيرى :

يا أحمدَ الخير لى جاءَ بتسميتي وكيف لا يتسامى بالرسول سمي^(٢) ؟

المساحون وأربابُ الهوى تبّعُ لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم^(٣)

مديحه فى حب خالص وهوى وصادقُ الحب يملئ صادق الكلام

الله يشهد أنى لا أعارضه من ذا يعارض صوب العارض العزم^(٤)

وإنما أنا بعض الغابطين ومن يغبط وليك لا يُذِمُّ ولا يُكَلِّم

(١) الريم بالياء : أصله الرثم بالهمز ، وهو ولد الظبي . والقاع : الأرض المستوية . والبان : شجر . والعلم : الجبل .

(٢) من أسماء الرسول عليه السلام أحمد ، واسم شوقى أحمد ، فهو سمى الرسول ،

وياً - اسمى : يتعالى .

(٣) أى التقدم والنفزة .

(٤) البارض : السطوح . والعزم : العزم الشديد .

وبعد ، فليس هذا المقام مقام موازنة أدبية بين البوصيري وشوقي ، وإنما هو مقام تجلية المداخل النبوية في شعر من شهد له شعراء المشرقين بالزعامة والإمارة على جميع شعراء هذا العصر . فلفسر في هذا الطريق نقول :

تجلى مدح شوقي لرسول الله في أربع قصائد من قصائده الغرّة ، جاءت كل قطعة منها صورة فنية رائعة ، تمثل المعاني التي تضمنتها أبدع تمثيل ، ونسبو بقارئها وسامعها من التخيل إلى التحقيق ، حتى كأنه يلمس المعنى من اللفظ بدون كد أو عناء !

١ — اختيار أمير الشعراء ممثلاً للحكومة المصرية في المؤتمر الشرق الدولي ، الذي عقد في مدينة جنيف بسويسرا عام ١٨٩٤ م فأشدد قصيدته الحمزية العصماء ، التي عنوانها ، كبار الحوادث في وادي النيل .

وهي تُرَبِّي على ثلاثمائة بيت من "حرّ الشعر وخالص القريض" طرق فيها موضوعات شتى ، ثم أفاض في مولد المسيح عيسى عليه السلام ، وفي حرّم دولة القياصرة ، وانتشار الظلم والفساد في أنحاء العالم شرقاً وغرباً ، وانغماس أكثر الناس في عبادة الأوثان ، واستيلاء الجاهل على النفوس ، حتى أظلم الشرق والغرب ، وعمت الفوضى ، وتطلعت القلوب إلى السماء متضرعة أن تنقذها من تلك الفوضى العاتية ، وأن تبدد عنها ذلك الظلام الحالك ، ثم قال عفا الله عنه :

أشرقَ النور في العوالم لما بشرتُها بأحمد الأنبياءِ
بالبّيم الأتمى والبشر الموحى إليه العلوم والأسماءِ
قوة الله إن تولت ضعيفاً تعبت في مراسه الأقوياءِ
أشرف المرسلين آيته النطقُ مُبيناً وقومه الفُصحاءِ
جاء للناس والسرائر فوضي لم يؤلف شتاها لواءُ
وحسب الله مستباح وشرع اللأثم والحق والصواب وراء

(١) المراس : الممارسة والمعالجة .

(٢)

فلجبريلَ جَيْشُهُ ورواحُ وهبوط إلى الأرض وارتقاء
بحسب الأفق في جناحيه نوراً نسلته النجوم والجوزاء
تلك آي الفرقان أرسلها الله ضياءً يهدي بها من يشاء
نسخت سنة النبين والرؤسـل كما يفسخ الضياء الضياء

وماك ما قاله في إنصاف عمرو بن العاص الذي تولى فتح مصر، فجلب لأهلها
العدل والنصفة، وجلب للإسلام بها الخير والبركة : وقد أشاد الشاعر بالنيل
العظيم، وأبان بأن من يستولى عليه فقد استولى على قارة أفريقية، وأن أفريقية
يعلو شأنها، ويستقيم أمرها إذا حرر وادي النيل من منيعه إلى مصبه، بخلاء
الاعداء عن أراضيها، وأن في استرقاق النيل رق هذا القسم من اليابسة : وذلك
إذراء شائن، وعيب فاضح قال :

فابك سمرأ إن كنت منصف عمرو إن عمراً لتير وتضوء
جاء للمسلمين بالنيل والنيل لمن يقتنيه أفريقاء
فهي تعلو شأننا إذا حرر النيل وفي رقبه لها إذراء

رحم الله أمير الشعراء ! لقد كان وطنياً خلصاً لوطنه . قبل أن يكون شاعراً
خيالياً مجيداً لشعره !

٢ - تنقل معي أيها القارئ إلى روضة أخرى من رياض شوقي في مسح خر
الكائنات ، لترى كيف يكون التفنن في القول ، ولتعرف مقدرة هذا الشاعر
على إبراز شاعريته وإبداع تفننه في مقام واحد ، بأساليب شتى ، وأفانين مختلفة .
قال من قصيدته في ذكرى المولد النبوي :

تجلى مولد الهادي وعمت	بشائره البوادي والقضايا (١)
وأسدت للبرية بنت وهب	بدأ يضاء طوقت الرقابا
لقد وضعت وهماجا منيراً	كما تلد السموات الشهابا
فقام على سماء البيت نوراً	بضوء جبال مكة والقابا (٢)

(١) للذن الكبيرة ، ومفردها قصبة .

(٢) جمع قبة وهو الطريق إلى الجبل .

وضاعت يثرب الفيحاء مسكاً وفاح القاع أرجساء وطاباً^(١)

ثم قال مخاطباً الرسول عليه السلام ، يذكر تفرق المسلمين ، وينعى عليهم
تضييع سنة الرسول وطريقته المثلى ، ومجرم أخلاقه وأخلاق أصحابه التي سادوا
بها الأمم :

وما للمسلمين سواك حصن
ولو حفظوا سبيلك كانت نوراً
بنيت لهم من الأخلاق رصناً
وكانت جنابهم فيها مهيباً
فلولاها لساوى الليث ذئباً
وساوى الصارم الماضى قراباً^(٢)
إذا ما الضمير مستهم وناباً !
وكان من النحوس لهم حجاباً !
نحانوا الركن فانهدم اضطراباً !
وللأخلاق أجدر أن تناباً !

أظنك أيها القارىء ترى معي أن هذا الشعر غنى بوضوحه عن الشرح والبيان ،
وأنه جمع إلى جمال الأسلوب الشعرى فى المديح نصاعة الحكم والنصائح الغالية ،
وتدرك منه تجلج روح الشاعر لإبراز محبة الرسول عليه السلام ، ومحبة شرعه المحكم
وما اشتمل عليه من أخلاق فاضلة !

٣ - وهذا نوع آخر من الافتتان السعري ، والفيض الشعرى الذى يبهرك
نوره ، ويفوح من بين ثناياه عبيره ! يحيى به النبى عليه السلام ، ويمتدح شريعته
وأصحابه . قال من همزته النبوية :

يا خير من جاء الوجود تحية
بيت النبيين الذى لا يلتقى
خير الأبوة حازم لك آدم
هم أدركوا عز النبوة واتته
خلقت لبيتك وهو مخلوق لها
من مرسلين إلى الهدى بك جاءوا
إلا الخنائف فيه والخنفاء^(٣)
دون الأنام وأحرزت حواء
فيها إليك العزة القصاء^(٤)
إن العظام كفؤها العظام

(١) ضاعت راتحة المك : تحركت ، ويثرب مدينة الرسول عليه السلام ، والأرجاء
النواحي مفردها رجا بوزن سبب .

(٢) الصارم : السيف ، الماضى القاطع ، وفراق السيف : فراق .

(٣) الخنائف : الظاهرات ، والخنفاء : الذين هم على ملة إبراهيم عليه السلام .

(٤) الحمينة الناجية .

بك بشر الله السماء فزُيِّفت
وبدا عجبك الذي قسّماته
وعليه من نور النبوة رونق
أثنى المسيح عليه خلف سمانه
يوم يقبّه على الزمان صباحه،
ذعرت عروش الظالمين فزلزلت
والنار خاوية الجوانب بينهم
والآي ترى والحوارق جمّة
نعم اليقيم بدت مخايل فضله
في المهد يستقى الحيا برجائه
وتضوعت مسكا بك الغبراء^(١)
حق وغرته هدى وحياء^(٢)
ومن الخليل وهديه سماء
وتهللت واهتزت العذراء^(٣)
ومساؤه بمحمد وضاء
وعلت على تيجانهم أصداء
نمّدت ذوائبها وغاض الماء
جبريل رّواح بها غداء
واليتم رزق بعضه وذكاء
وبقصده تستدفع البؤساء

لعلك أيها القارىء ، وقد وصلت إلى هنا ، تحس باستنشاق نسائم معطرة
بريا مدح محمد صلى الله عليه وسلم في صغره ، وأن الله اختاره من أشرف الرجال
وأطهر الأممات ، وأن أمارات النبوة قد بدت عليه وهو طفل يقيم ، إلى غير
هذا مما تبينته في نفحات أمير الشعراء العطرة !
وهذا روض آخر من الشعر يتعطر الكون كله بشذاه ، وتسمع الدنيا كلها
نفحاته الساحرة ، التي تهتز لها أوتار القلوب ، وتحن إلى سماعها النفوس . قال
يصف أخلاقه عليه الصلاة والسلام :

بسوى الأمانة في الصّبا والصدق لم
يامن له الأخلاق ما تهوى العلا
زانتك في الخلق العظيم شمائل
أما الجمال فأنت شمس سمائه
يعرفه أهل الصدق والأمان
منها وما يتعشق الكبرياء
يغرى بهنّ ونبوات الكرماء
وملاحه الصديق منك أيام^(٤)

(١) الأرض .

(٢) ما بين الوجنتين والانف .

(٣) مريم أم المسيح عليه السلام .

(٤) الأيام : نور الشمس وبعثتها .

والحسن من كرم الوجوه، وخيره
 وإذا سخوت بلغت بالجود المدى
 وإذا عفوت فقادراً ومقدراً
 وإذا غضبت فإنما هي غضبة
 وإذا رضيت فذاك في مرضاته
 وإذا خطبت فللمنابر هزة
 وتعد حليمك للسفيه مدارياً
 ما أوتى الفؤاد والزعماء
 وفعلت مالا تفعل الأنواء (١)
 لا يستهين بعفوك الجلاء
 في الحق لا ضغن ولا بغضاء
 ورضى الكثير تحلّم ورياء
 تغرو الندى والقلوب بكاء (٢)
 حتى يضيق بعرضك السفهاء

ثم انقل - عفا الله عنه - يصف منزله عليه السلام في العلم ، ويذكر
 معجزته الخالدة ، وشريعته الجامعة لخيري الدنيا والآخرة ، فقال :

يأتها الأئمة حسبك رتبة
 الذكر آية ربك الكبرى التي
 نسخت به التوراة وهي وصية
 بك يا ابن عبد الله قامت سمعة
 بنيت على التوحيد وهي حقيقة
 ومشى على وجه الزمان بنورها
 لما دعوت الناس لبي عاقل
 أبوا الخروج إليك من أوهامهم
 ومن العقول جداول وجلامد
 في العلم أن دانت بك العلماء
 فيها لبغى المعجزات غناء
 وتختلف الإنجيل وهو ذكاء
 بالحق من ملل الهدى غراء
 نادى بها سُقراط والقُدماء
 كُتبتان وادى النيل والعُرفاء !
 وأصمّ منسك الجاهلين نداء
 والناس في أوهامهم سُجّناء !
 ومن النفوس حرائر وإماء !

ثم وجه شاعرنا الخطاب إلى رسول الله ، متخلصاً إلى وصف حال المسلمين ،
 فقال :

(١) الأنواء جمع نوء ، وهو النجم الساطع أو الطالع . وكانت العرب تزعم أن الأمطار
 والرياح والحر والبرد من فعلها .
 (٢) الندى لغة في النادي .

أدعوك عن قومي الضعاف لازمة
أدري رسول الله أن نفوسهم
متفككون فما تضم نفوسهم
رقدوا وغرهم نعيم باطل
ظلموا شريعتك التي نلنا بها
مشت الحضارة في سناها واهتدى
صلى عليك الله ما يحب الدجى
في مثلها يلقى عليك رجاء
ركبت هواها والحبوب هواه
ثقة ولا جمع القلوب صفاء
ونعيم قوم في القيود بلاء
مالم تمل في رومة الفقهاء
في الدين والدنيا بها السعداء
حاد وحنت بالفلا وجناء (١)

هذه قطع من همزية أمير الشعراء في مدح الرسول . وهي ترينا ما يكتنه صدر هذا الشاعر من حب سيد الأنبياء . والإشادة بالدين الذي جاء به . والقطعة الأخيرة تنعش على الأمة الإسلامية موقفها من الشريعة . وتهيب بها أن تقبض بعد الخول ، وأن تستيقظ بعد طول الرقاد .

فهل آن للمسلمين والعرب أن يستجيبوا لداعى الوطنية . فيتخللوا من قيود الاستعباد ، ومن قيود الأهواء ؟ لعل هذا يكون قريباً : ولا سيما أنهم قد رأوا بأعينهم . وسمعوا بأذانهم ما حل بفلسطين . المجاهدة . ولا أقول . الشهيدة . لأنها تجاهد الآن وتستبسل في سبيل حريتها ، وستنصر على جميع أعدائها بإذن الله : والله مع الصابرين !

أيها القارئ الكريم ! أرى أن أقصر في هذه المناسبة على ما سقته إليك من شعر شوقي في مديح المصطفى : وهو قطرة من بحر مما جادت به قريحته الرقادة في هذا المقام . وسأعود إلى إتمام الحديث في فرصة أخرى ، إن شاء الله .

نظرية الارتكاب بالترك في الشريعة الإسلامية وفي القانون المقارن

محاضرة الأستاذ المحترم الدكتور أحمد محمد إبراهيم

من وكلاء النيابة العمومية

اعتماد عامة الناس سماع القول بأن أحكام الشريعة الإسلامية لا تتفق مع ما وصل إليه العقل الإنساني في تطوره ، وما ابتدعه من نظريات قانونية ليس لها وجود في فقه الشريعة . ومن المولم أن تكرار هذا القول أثر في تفكير كثير من المسلمين . فتراهم يرددونه في بساطة ، وكأنه قاعدة لا تحتمل جدلاً أو نقاشاً ، لكثرة ما ألفوه .

ولست أقصد الآن أن أناقش هذه الفكرة : ولكنني أريد أن أضع أمام المسلمين وغيرهم بعض ما جاء في كتب الشريعة الغراء عن نظرية "الارتكاب بالترك" التي ينسب فضل القول بها إلى علماء ألمانيا ، والتي اعتبرت مجداً قانونياً لهم . وسيرى المطلع على هذا البحث أن فقهاء الشريعة الغراء - رحمهم الله - قد عرفوا هذه النظرية قبل أن يعرف عنها العلماء الألمان شيئاً بقرون .

وقبل أن نبين معنى هذه النظرية يجب أن نذكر أولاً أن علماء القانون يقسمون الجرائم إلى جرائم إيجابية وأخرى سلبية . ويقصد بالجريمة الإيجابية الجريمة التي تتكون من القيام بعمل مادي . أما الجريمة السلبية فهي التي تتكون من مجرد الامتناع عن القيام بواجب يفرضه القانون : وبمعنى آخر الجريمة الإيجابية هي ارتكاب ما نهى عنه القانون : والجريمة السلبية هي الامتناع عن القيام بما أمر به القانون .

والجرائم الإيجابية هي الغالبة في القانون : ومن أمثلتها القتل والحريق والسرقة : فالقتل لا يحدث إلا إذا أطلق الجاني عياراً نارياً على المجنى عليه فأرداه قتيلاً : والحريق لا يتم إلا بعد وضع النار في المكان المراد حرقه : والسرقة لا تحصل إلا باختلاس مال الغير . ومن أمثلة الجرائم السلبية امتناع القاضي عن الحكم في الدعوى ، وامتناع الشاهد عن أداء الشهادة .

ولا يوجد أى خلاف في أى دولة من الدول على معاقبة من يرتكب جريمة من الجرائم السلبية أو الجرائم الإيجابية مادام القانون يعاقب عليها . ولكن الخلاف على أشده حول العقاب على ارتكاب جريمة إيجابية بطريق سلبى .

هل يعد قاتلاً من يجد آخر على وشك الغرق فيمتنع عن أن يمد له يد المساعدة قاصداً قتله ؟ وهل تعد قاتلة الأم التى تمتنع عن إرضاع طفلها ، أو عن ربط الحبل السرى له حتى يقضى نحبه ؟ هل يعد حارقاً من رأى النار مشتعلة في منزل وكان في إمكانه أن يطفئها ، فتركها لتلتهم المنزل ؟

مركز بحوث وتطوير العلوم الإنسانية

هذا الموضوع الذى اختلف على حكمه العلماء هو ما أسموه : ، الارتكاب بالترك أو العمل بالإمتناع Commission Por Ommission وهذا البحث لا يدور عادة إلا عند الكلام على جريمة القتل لمعرفة هل من الممكن أن يعد قاتلاً من يرتكبها بطريق سلبى أم لا ؟ والسبب الجوهري للخلاف هو عدم وجود نصوص صريحة في قوانين العقوبات تبين حكم هذه الحالة . ونذكر الآن حكمها في بعض القوانين الوضعية ، ثم نذكر بعد ذلك ما قال به فقهاء الشريعة الغراء في هذا الصدد .

إذا رجعنا الى القانون الرومانى ، وجدنا أنه يعتبر قاتلاً من يترك طفلاً حديث العهد بالولادة بدون طعام حتى يموت . وكان القانون الكنسى يعاقب بعقوبة جريمة القتل من يرى شخصاً معرضاً لخطر داهم ويبقى ساكناً مع قدرته على خلاصه . وقد لخص ، لوازل ، القاعدة القانونية في هذا الموضوع بقوله ، من يقدر ويمتنع بخطئه ، . ورغم هذا فكان رأى السائد في فرنسا في ذلك الوقت يخالف هذه القاعدة .

ويرى العلماء الألمان - وبرأيهم تقضى المحاكم - أن الممتنع يعاقب كقاتل إذا كان عليه واجب قانوني أو تعاقدى نحو المجنى عليه ولم يتم بهذا الواجب قاصدا قتله . فالأم التي تمتنع عن إرضاع ابنها حتى يموت تعد قاتلة : والشخص المكلف برعاية أعمى ويراه سائرا نحو بئر فيتركه يهوى فيه دون أن ينبهه إلى الخطر ، يعد قاتلا متى كان قد ابتغى من وراء عدم قيامه بواجبه قتل المجنى عليه . وحجتهم في قولهم بالعقاب هي أن الامتناع مظهر من مظاهر الإرادة ، والقانون يعاقب على النية الجنائية : فمتى اتوى شخص قتل آخر فانه يعد قاتلا . ولا قيمة للطريقة التي توصل بها لقتل المجنى عليه .

وهم يقررون في نفس الوقت أنه إذا لم يكن على الممتنع واجب قانوني أو تعاقدى فلا عقاب عليه : فمن يمتنع عن أن يمد آخر بالمساعدة أو الإحسان إليه لا يمكن أن يسأل عن النتيجة التي تترتب على امتناعه : لأن القانون لا يتطلب من الناس أن يكونوا محسنين ذوي مروءة ؛ وعلى هذا فلا يعد قاتلا من يرى جاره على سطح منزله والنار مشتعلة فيه ، فيمتنع عن أن يعطيه سلما ينزل به إلى الأرض ، وهو يقصد من وراء ذلك موته حرقا .

وقد نص القانون الإيطالي على العقاب على ارتكاب جريمة بطريق الترك ، فهو يقضى بأن من لا يمنع حادثة يوجب القانون عليه منعها ، يتساوى بمرتكبها . وهو في هذا يتفق والنظرية الألمانية ، ولكنه قد توسع في العقاب ، فنص أيضاً على عقاب من يمتنع عن القيام بواجب تمليه الإنسانية ؛ ولكنه جعل هذا الامتناع جريمة خاصة ، إذ لا يعد الممتنع مرتكباً للجريمة الأصلية ، فهو يعاقب بالحبس ثلاثة أشهر وبغرامة قدرها ٣٠٠٠ ليرة من يترك بدون مساعدة طفلا أو مجنونا أو شخصاً في خطر ؛ وأجاز مضاعفة العقوبة في حالة الوفاة .

والقانون الإنجليزي لا يفرق بين القتل بالارتكاب والقتل بالترك . فالذي يكون متكفلاً بطفل ويمنع عنه الطعام إلى أن يموت جوعاً ، مع أن في استطاعته إطعامه ، يعاقب بعقوبة القتل العمد .

وعلى العكس مما تقدم ذهب الفقه والقضاء في فرنسا إلى عدم جواز العقاب

على ارتكاب جريمة إيجابية بطريق سلبى ؛ لأن العدم لا ينشئ إلا العدم . والممتنع لم يتم بعمل ما ، فكيف نرتب على امتناعه نتيجة إيجابية ؛ وهذه الحجة ليست إلا سفسطة ، فليس هناك عدم أنتج عدما ؛ وإنما يوجد إعمال الإرادة على وجه معين . والشخص كما تتجه إرادته إلى العمل تتجه إلى الامتناع . وكل من العمل والامتناع لا يعد عدما .

وقالوا إنه يشترط لوجود جريمة القتل أن تكون هناك صلة سببية بين فعل الجاني والنتيجة التى حدثت . وهذه الرابطة لا وجود لها فى حالة الارتكاب بالترك . فمن يرى آخر مشرفا على الغرق ولا يساعده على النجاة بإلقاء حلقة النجاة إليه ، لا يعد قاتلا له . لأنه مات بسبب الغرق ، وليس سبب موته عدم إلقاء الحلقة إليه . وهذه الحجة بدورها لا تقوم على أساس . فعلاقة السببية قائمة وموجودة ، إذ لو لا الامتناع عن إلقاء حلقة النجاة إليه لنجا من الغرق . فسبب موته مرتبط أشد الارتباط بعدم استطاعته النجاة : وثم صلة قوية بين عدم المساعدة وعدم النجاة . يمكن القول معها بوجود علاقة السببية بين الامتناع وبين النتيجة التى حدثت . وسنعرض مرة أخرى لهذه الحجة فى نهاية البحث .

ويستدلون - فضلا عما تقدم - إلى حجة أخرى مستمدة من حالة التشريع الفرنسى . فقد صدر فى سنة ١٨٩٨ قانون يعاقب بعقوبة القتل من يمتنع عمداً عن تغذية صبي لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره بقصد قتله فيموت . وفى صدور هذا التشريع ما يدل على أن النصوص العامة لا تجيز القول بالعقاب فى مثل هذه الحالة . وإلا لما كان هناك ما يدعو إلى إصدار هذا القانون . وقد قضت المحاكم الفرنسية بأنه لا يجوز التوسع فى تفسير هذا القانون ، فلم تطبقه على من يمتنع عن تغذية مجنون أو مريض أو عاجز .

وقد اختلف شراح القانون المصرى فى هذا الصدد : فمنهم من قال بوجود العقاب فى حالة وجود واجب قانونى على الممتنع . ولم يتم به . كحالة الأم التى تمتنع عن إرضاع طفلها حتى يموت ، أو لا تربط له الحبل السرى قاصدة قتله ،

والمعرضة التي تمتنع عمداً عن إعطاء الدواء للمريض ، والشخص الذي يحبس آخر
ويتركه حتى يموت جوعاً .

ومنهم من رأى عدم العقاب : وحجتهم في ذلك أن نصوص التشريع القائم
لا تساعد على القول بالعقاب .

وهذا الخلاف بين الفقهاء تبعه خلاف بمائل بين المحاكم المصرية ، ففضى
بالبراءة في قضية أم اتهمت بقتل طفلها ، بتركه عقب الوضع حتى مات ، لعدم
صدور عمل إجباري يؤخذ منه تعدد القتل . كما قرر قاضي الإحالة في محكمة الميا
في قضية أم اتهمت بقتل ابنها الحديث الولادة عمداً ، بالامتناع عن ربط الحبل
الشري . بأنها لا تسأل عن جريمة القتل العمد ، واعتبرها مرتكبة لجريمة القتل
الخطأ : وأخذ بما ذهب إليه العلماء الفرنسيون من أن مثل هذا الفعل لا يمكن
العقاب عليه باعتباره قتلًا عمداً إلا بتشريع خاص ، لأنه لا يمكن أن يندرج تحت
حكم النص العام للقتل عمداً . وعلى خلاف ما تقدم قضت إحدى المحاكم بالعقاب
في قضية شخص اتهم بتهديد زراعه قطن بحجوز عليها ، بأن لم يطلب ضم محصولها
وتركه على الأشجار حتى ذرته الرياح . وظهر أن المحكمة اعتبرت الجاني مسؤولاً
عن ارتكاب الجريمة بالترك ، كمسؤوليته عن ارتكابها بالفعل .

ولا يفوتنا أن نذكر أن أغلب الفقهاء الذين لا يقولون بالعقاب في حالة
ارتكاب جريمة بالترك ، يعلمون رأيهم بأنهم يفسرون نصوص القانون المعمول
بها وهي لا تساعد على القول بالعقاب ، ويقررون بأنه لا يوجد ما يمنع المشرع
من أن يصدر قانوناً خاصاً بمقاب على الارتكاب بالترك في الحالات الخطيرة .

نكلام بقية

بين العطار والخشاب

من أدباء القرن التاسع عشر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

ومضى شيخ الإسلام العطار ، في بيته الثاني وقفله الثالث ، في مداره الذي
تخيره ، وعلى سننه الذي انتهج : فقال :

فتش فؤادي فليس فيه سوى
شخصك يا بهاء الملبع ثوى
قد ضلّ قلبي لتكثيره وغوى

ومكدا من حبة معدلا
لم يلق إلا تأثفا وقلا — مشرب —

ومضى الشاعر الخشاب كذلك في بيته الثاني ، وقفله الثالث ، يفيض
في تعداد شمائل الحبيب ، وينعم في ذكر أوصافه ، لينتهي من ذلك إلى الإصرار
الذي لا يخامره تحول ولا انتقال ، على هوى ذلك الحبيب : فقال :

وَصَاحَ نَوْرُ الْجَبِينِ أَبْلَجَهُ
وَرَدَى خَدَّ زَهَا (كَذَا) تَوَهَّجَهُ
إِلَيْهِ شَوْقِي يَزِيدُ لَا عِجَّهُ

فلست أصنى لعاذل عذلا
وعنه — ولله — لا أتوب ولا — أرغب —

ثم عرض بعد ذلك لتباريح الهوى ، ولواعج العصابة ، التي تعصف به ،
فقال :

فقطع قلبي بحبه إربا (كذا)
وصدّ عني فلم أنل أربا
أواء أواء منه ، واحربا !


أصل فؤادي بحبه : وقتلا
وذبت وجدا به : ولي قتلا : — فاعجب —

ولئن مضى الأسلوبان كلاهما على ما رسمنا في حديثنا الماضي ، من أن الأول
أسلوبٌ ، فقيه ، ، والثاني أسلوبٌ ، شاعر ، ، لقد كانت ، زها ، في قول
الحشّاب : ، ورديّ خدرها توهج ، : وكلمة إربا ، في قوله : ، قطع قلبي
بحبه إربا ، غير واقعتين موقعهما في الاستعمال الصحيح ؛ ذلك بأن الانسب
بالوهج ، وهو حرارة الشمس والنار ، هو ذكا ، لا زها ، ؛ فإن الذكاء ،
بالماء والقصر ، شدة وهج النار . ولأن إربا ، هنا بمعنى ، عضوا ، يقال :
، قطعت إربا إربا ، أى عضوا عضوا ؛ وهى بهذا المعنى إنما تكون بكسر
الهمزة وسكون الراء : ويتسكينها يذهب الجنس الذي حمله على هذا الاستعمال
العامى . على أن العذر أمام الشاعر ، مهد ، من التطبيع ، ومن تحريف النسخ ، ومن
الضرورة التي لا تخدش قوة الأسلوب .

فأما المعاني ، وعمل الخيال في تصويرها وجلوتها ؛ فإن شيخنا العطار ،
قد يتناول : ، تفرد الحبيب بسكنى قلب المحب ، وهو معنى من معاني العامة
المشتركة التي لا يتميز فيها شاعر عن شاعر ، إلا بروعة التصوير وجمال العرض ؛
فوضع في صورة شوهاء مشوشة ، فيها حشو ، وفيها إحالة ، وفيها عامية ؛ وأكبر
الغلن عندي أنه أراد أن يحارى إبراهيم بن سهل الأسرائيلي ، في مطلع موشحته :

هل درى ظلى الحما أن قد حمى قلب صب حته عن مكئس ؟
ولكن ، وأين الثريا من يد المتناول ؟ . ومهما يكن من شيء . فإننا نستطيع
أن نقول فى كثير من الشجاعة : إن مولانا الشيخ لم يقصد إلى معنى ، وإنما قصد
إلى هيكल من النظم ، فاستفاد له ذلك على ما اتفق ، لا على ما أريد . وإن أبيت
هذا الاجمال على عمومه ، فإنى أشير لك إلى قوله : . يأبها المليح . فهل تراها
مليحة ، ؟ . وقوله : . قد ضل قلبى لسنه وغوى . . وإذا عرفت أن . السكن ،
بضم السين مشددة وسكون الكاف ، هو أن 'تسكن' إنسانا منزلا بلا كراه ، فهل
ترى ضلاله وغيه لأنه أسكنه : . أولانه أسكنه بلا أجره ؟ ! ثم متى كان الاعتماد
سيا فى التأسف والقللا ، إلا إذا كان المحب أعوج ملتويا ؟ !

وإذا شئت أن ترى المعنى المراد الذى سخر له اللفظ تسخيرا ، وذلله تذليلا .
فاقرأ معى قول شاعرنا الخشاب : . قطع قلبى بحبه أربا . وصدا عنى فلم أقل أربا ،
أواه أواه منه واحربا . : حب طاغ ذهب بالقلب شعاعا . يقابل الصدود والإعراض
القاطع ، أليس صاحبه حريا بأنه يدعو بالويل والخراب . وأن يبسط قضيته لئاس .
فى هذا التقابل البليغ الأخاذ :

أصلى فؤادى بحبه ،  وقتلا رسدى

وذبت وجداه : ولى قذلا : — فاعجب —

علمهم يواسونه ، أو يسلونه ، أو يتوجعون لبواد ! ثم أليس من أعجب العجب ،
أن يفلاك من يحترق فؤادك بحبه ، وأن يقلبك من تذوب وجداه فيه ؟ ! والظن
موضع . فاعجب ، هنا ، مع موضعها فى القفل الأول لمولانا الشيخ الأكبر ،
تر الفرق بين الطبع والتطبع ، أو بعبارة فنية : بين التكلف والطبع . قال الشيخ
رحمه الله :

أما فؤادى فعنك ما انتقلا فلم تخيرت فى الهوى بدلا — فاعجب —

ثم إذا هفت بك الفتوة بما سمعت ، فمت إلى أن تشرب وأن تمس
من طرب معى ، فاقرأ قول الخشاب بعد ذلك :

مولاي رفقا بصيك الدنف
قد كدت أقضى عليك من أسف

تلا في رويحي فقد دنا تلقى

من ريمك العذب ، أروني نهلا

وهات كأسى ، وطف به ثملا - واشرب - !

راحا ، سناها يضى كاللهب

نيسر عن رطب لؤلؤ الحب

بين رياض ومسمع غزلا على المثنى إذا شدا رملا - أطرب - !

فان فيه نفحة من نفحات الشاعرية ، في عصورها الذهبية ، تضع الخشاب موضع الطليعة من شعراء النهضة ، وتبوئه من زعامتها المقام المحمود .

على أننا - إذا انحدرنا بطنقة شيخنا العطار ، عن مستوى طبقة شاعرنا الخشاب - لا نجد عريضا عن عده في الرعيل الأول من شعراء النهضة ، بما له من أشعار فيها قوة ، وفيها جمال .



ثم أما بعد . فان الظاهرة التي تلحظها في طلائع النهضة الحديثة من الشعراء ، تقليد المصاق للمقدمين في أوزان الشعر وقوافيه ، قد عينا ومحدثا ، فلا ترى شاعرا اخترع وزنا ، أو قافية ، أو فنا من فنون الشعر ، لم يعرفه المتقدمون ؛ ومضى الأمر على ذلك حتى عصر ازدهار النهضة ، وبلغوها أوج رفعتها ، أيام البارودي وصبري وشوقي وحافظ ، إذا استثنينا : مال واحتجب ، التي خرق بها ، الأمير ، خرقا في الاسلام ، و : ذات القوافي ، للسيد توفيق البكري ؛ فإذا أخذنا نتحدر عن القمة ، طرق أذنك هنا وهناك دعوة حييية الى القافية المطلقة ، تتعالى حينها ، ثم تخفت ، ثم تخفى ؛ حتى إذا شاخت ، النهضة ، وهرم الشعر ، دهمك سبيل أتى من الأوزان ، ومن القوافي . وبما تعرف ، وبما لا تعرف ، مما هو على صورة الشعر ، فاشتبهت الأعلام ، واضطربت السبل ، وحرار الدليل ، ومرد هذه الفوضى الغامرة الداجية ، التي ليس لحابطها فجر ، أن محدثي المجددين فهموا أن التجديد يتبع الهوى الخاص ، وأن لكل شاعر أن يحدد على حسب

هواه ، وأن يضرب في الأوزان والقوافي على غير هدى أو على هدى مادام دليله مزاجه ، وميزانه ذوقه ومشاعره ؛ والأذواق والمشاعر غير محدودة ولا مضبوطة ، فليكن الشعر غير مضبوط ولا محدود .

إن العرب لما دعت حاجتهم إلى التجديد في أوزان الشعر ، اخترعوا - في ظروف وأحوال مختلفة - فنونا ، حصرها النقاد في « سبعة » وهي : الدوييت ، والسلسلة ، والموشح ، وثلاثتها معربة ؛ وإنما يسوغ اللحن في « الخرجة » في الأخير منها ، بشروط شديدة . والزجل ، والكان وكان ، والقوما ؛ وثلاثتها ملحونة . والموالى ، ويكون ملحونا ومعربا .

ولما دعت حاجتهم إلى التجديد في القافية ، اخترعوا : المزدوج . والمسطر . ولكل واحد من هذه الابتكارات جميعا ، ضابط يحدده ويرشد إليه . ويميزه عن كل ماعداء ؛ وهذه الضوابط وشواهدهما وأوزانها وما يعرض لها من التغيرات ، والمثل الموضحة لكل أولئك ، منصوصة باستيفاء بالغ . في كتب العروض وفي كتب الأدب ، مما يجعل تعرضنا لها هنا من لغو الحديث .

فهل درج مجدود العصر الحاضر على هذا اللون في فنون تجديدهم ؟ كلا !

الاستاذ على محمود طه ، شاعر في الرعيل الأول من شعراء مصر في هذا العصر : ومقطوعته ، الجندول ، قطعة فنية رائعة في ذاتها . ثم بما أضفاه عليها اسحق مغنى العصر ، عبد الوهاب ، من مزاميره الداودية : هذه المقطوعة ، قد التزم فيها شاعرهما بيتا واحدا ، يكرر بعد كل مجموعة من أبياتها ، فيذكرنا بما عرفناه في حدائتنا من طريقة إنشاد ، البردة ، . إذ يردد بعد كل بيت فيها « مولاي صل وسلم دائما أبدا ، الخ . فهل أغنية الجندول « موشحة » ؟ إنها لا تنطبق على ضابط الموشح كما حدده مخترعوه . هل هي « حمل زجل » ؟ لا ، إنها معربة والزجل ملحون !

وهذا الاستاذ الشاعر الجليل : أنور العطار من كبار شعراء الشقيقة ، سوريا ، يقول في : « أغنية ... » بشرتها له الرسالة الغراء في العدد : ٧٥١ .

إن تراميت لي خيالا وظننا رقص القلب فرحة وثني

واحتواني حلم رقيق حبيب
لمو منى المسوى الذى أتمنى
والنشيد العذب الذى أتغنى

ثم يعود فيقول :

واذا رفرفت عليك شجونى وهما خاطرى ، وهما حنينى
فاسألى الليل أن يرق لحالى فهو مثل هيامك جم الفتون
شاعر خبير الرؤى والفنون الخ الخ

أعود فأقول : إن هذا ليس نسجا قديما ، وليس موشعا ، وليس زجلا الخ .
فهو لهذا من ضابط محدد أتهدى به عند الفسح على منواله ؟ .

وهذا صديقى الكريم الأستاذ محمود الحفيف ، وأوزانه وقوافيه وأعاريفه
وأضرابه ، شيء لا يناله الحصر ، ولا يحصيه العد ؛ وهذا الثالث المقدس ، يمثل
الكثرة الغامرة من شعراء العصر المجددين : فلا داعى للأطالة بذكر غيرهم .

إتنى — على الرغم من رجعتى — لا أبغض التجديد ، ولا أنى على المجددين ،
ولا أبط من همهم : وإنما أريد أن يكون للتجديد حدود نعيته ، ورسوم تضبطه ،
وعلامات ترشد إليه ، حتى يعم ، وينفع ، ويعيش . فأما التجديد المرادف للقوضى
فلا يُبعد الله غيره .

كلمات بليغة

كتب عمر بن العزيز : إلى رجاء بن حيوة : أما بعد فإنه من أكثر من ذكر
الموت اكتفى باليسير ، ومن علم أن الكلام عمل قل كلامه إلا فيما ينفعه .

وكتب عمر بن الخطاب إلى عتبة بن غزوان عامله على البصرة : أما بعد ، فقد
أصبحت أميرا ، تقول فيسمع لك ، وتأمر فينفذ أمرك ، فيألفا نعمة إن لم ترفعك
فوق قدرك وتطفك على من دونك ، فاحترس من النعمة أشد من المصيبة ،
وإياك أن تسقط سقطة لا شوى لها ، وتمثر عثرة لا عالها . (أى لا إقالة) .

مناسبة شهر الذكريات المحيطة :

تحقيقات علمية في وقت المولد والهجرة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين
المدرس بكلية الشريعة

من أحفل الشهور العربية بالذكريات المحيطة ، شهر ربيع الأول : فهو الشهر الذي اتفقت كلمة من يؤخذ بصحة آرائهم ، ويركن إلى أقوالهم ، على أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ولد فيه : وهو الشهر الذي تدل الروايات التاريخية الصادقة ، والأحاديث النبوية الصحيحة ، على أنه في العاشر منه — من العام الخامس والعشرين من ميلاده عليه السلام — قد تزوج بالسيدة خديجة بنت خويلد . وعلى أن خروجه من الغار في طريقه إلى المدينة كان فيه ، وأن دخوله قباه والمدينة كان فيه ، وأن إقامة أول مسجد أسس على التقوى من أول يوم ، كانت فيه أيضاً .

وهذه كلها كما ترى ذكريات عزيزة ، وحادثات مجيدة ، وقد أحبت — بمناسبة حلول شهرها العظيم — أن نكتب ما تيسر لنا الوصول إليه من تحقيقات علمية وتاريخية عن تحديد أوقات مولده صلى الله عليه وسلم وهجرته ، تصحيحاً للأخطاء الشائعة عنها ، والموجودة في أذهان بعض الناس ، والمعمول بها في بعض المناسبات ، وتقريراً للحقائق في ذاتها ، وإيضاحاً للبحوث الموضوعية الملبسة ، على المقالات الإنشائية السطحية التي تكتب عادة في مثل هذا الصدد .

المشهور عند الجمهور من العشاء أن ولادته عليه الصلاة والسلام ، كانت ليلاً حين طلوع الفجر في يوم الاثنين من شهر ربيع الأول : والخلاف بعد ذلك في تعيين هذه الليلة ، فقيل : إنه ولد لليلتين خلتا من ربيع الأول : وقيل : لثان خلون منه : وقيل : لعشر خلون منه : وقيل : لثاني عشرة خلت منه : نص عليه ابن اسحاق ، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن جابر وابن عباس رضي الله عنهم . وهناك روايات أخرى تقول : إنه صلى الله عليه وسلم ولد في رمضان ، ولكن هذه الروايات قد وصفها المحققون بأنها غريبة جداً ، وبأنها محل نظر . وإننا إذا استبعدنا هذه الروايات ، لضعفها ، ولعدم التعويل عليها ، فإنه لا يبقى معنا بعد ذلك إلا قول الجمهور بولادته صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول ، إلا أننا مع هذا لا نرى بين ما ذهب إليه الجمهور من الأقوال رواية قاطعة عن تعيين يوم ولادته من هذا الشهر .

ولذلك نجد أنفسنا مضطرين إلى سوق شيء من النقول المعتمدة التي نأخذها عن بعض المصادر العربية والأجنبية الوثيقة ، للمقارنة بينها ، وللوصول منها إلى ذكر الرأي القاطع في تعيين يوم ولادته عليه الصلاة والسلام .

نقل أصحاب الحديث عن قتادة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن يوم الاثنين ، فقال : ذلك يوم ولدت فيه . . .

وذكر ابن بكار والحافظ ابن عساكر : أن ذلك كان حين طلوع الفجر . ويدل له قول جده عبد المطلب : ولد لي الليلة مع الصبح مولود .

وعن سعيد بن المسيب : أنه صلى الله عليه وسلم ولد عند إهراق النهار - أي وسطه - وكان ذلك اليوم لمضي ثنتي عشرة ليلة من شهر ربيع الأول : وحكي الإجماع عليه ، وعليه العمل الآن في الأمصار .

وقال الإمام شمس الدين المعروف بالخلال : قد صحح النبي عليه الصلاة والسلام ولد في شهر ربيع الأول في العشرين من نيسان عام الفيل في عهد كسرى أنوشروان ، فلما أتت عليه أربعون سنة أو يوم ، بعثه الله ، فلما أتت له ثلاث

وخمسون سنة ، هاجر الى المدينة ، . ويقول المحققون من أصحاب التقاويم : إن شهر نيسان هذا يوافق دائما شهر إبريل ، فتكون ولادته صلى الله عليه وسلم في فصل الربيع .

وقال المسعودي في مروج الذهب : ، والذي صح من مولده عليه الصلاة والسلام أنه كان بعد قدوم أصحاب القبل مكة بخمسين يوما ، وكان قدومهم مكة يوم الاثنين ثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ثمانمائة واثنين وثمانين من عهد ذي القرنين ؛ وكان قدوم أبرهة مكة لسبع عشرة خلت من المحرم ، ولست عشرة ومائتين من تاريخ العرب الذي أوله حجة الغدر ، ولست أربعين من ملك كسرى أنوشروان ، وكان مولده عليه الصلاة والسلام ثمان خلون من ربيع الأول من هذه السنة بمكة ، .

وذكر ابن الأثير : أن كسرى حكم مدة سبع وأربعين سنة وثمانية أشهر ، وأنه عاش سبع سنين وثمانية أشهر بعد ولادته عليه الصلاة والسلام ، فيكون كسرى على هذا قد حكم أربعين سنة كاملة لعهد ولادته صلى الله عليه وسلم . وإذا علمنا أن كسرى جلس على العرش في سنة ٥٣١ ميلادية ، فتكون ولادته عليه الصلاة والسلام في سنة ٥٧١ ميلادية .

وذكر العلامة ، إيدلر ، في رسالة له في الكرونولوجيا الرياضية : أنه (صلى الله عليه وسلم) ولد في ٢٢ نيسان سنة ٨٨٢ من تاريخ الاسكندر ، كما نصره عليه ابن العميد بقوله : ولد (صلى الله عليه وسلم) ببطحاء مكة في الليلة المسفرة عن صباح يوم الاثنين ، ثمان خلون من ربيع الأول ، يوافق من شهور الروم الثاني والعشرون من نيسان سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة للاسكندر ذي القرنين ، .

وقد عرفنا أن شهر نيسان السرياني ، يقابله شهر إبريل الافرنجي . فيكون مولده صلى الله عليه وسلم حيثئذ في ٢٢ إبريل سنة ٥٧١ ميلادية .

وذكر المسيو ، سيلفستر دوماسي ، نقلا عن ، مقالات جمعية الطوائف والآداب ، أن ولادة النبي (صلى الله عليه وسلم) كانت الساعة السادسة من ليلة الاثنين لعشرين من نيسان سنة ٨٨٢ للاسكندر ، وهو يوافق ٢٠ إبريل سنة ٥٧١ ميلادية .

وإننا نختم هذه النقول المتفقة على أن الولادة كانت في شهر ربيع الأول ،
والمختلفة في تعيين وقت الولادة منه ، بما ذكره العلامة المرحوم محمود باشا
الفلكي - طيب الله ثراه - في كتابه : « تقويم العرب قبل الاسلام » الذي ألفه
باللغة الفرنسية ، وترجمه الى اللغة العربية أحمد زكي أفندي ، طبعة بولاق سنة ١٣٠٥
هجريه . فانه قد أتى فيه بعد استعراض أقوال الرواة والمؤرخين ، وتمحيص آراء
علماء الهيئة . بما أقام الحجة . وقطع المحجة ، وعين وقت الولادة بالضبط
والتحديد . قال :

« ولا يسعى إلا الجزم بأن ولادته عليه الصلاة والسلام كانت في فصل الربيع
من سنة ٥٧١ مسيحية . وحيث إن بمصر هذه الأقوال تصرح بأن شهر ابريل هو
شهر المولد النبوي الشريف . والبعض الآخر يدل عليه ، فاني اعتبره شهر الولادة ،
وربى علينا أن نبين في أى يوم من شهر ابريل كانت الولادة ؟ فنقول : إن الاجتماع
الحقيقي للقمر . حصل في شهر ابريل سنة ٥٧١ في يوم ١١ الساعة ٩ والدقيقة ٤١
بعد نصف الليل على حساب الزمن الوسطى لمكة المشرقة . ولم يمكن رؤية الهلال
بالعين المجردة إلا في مساء هذا اليوم . وحيث يلزم أن الشهر القمري العربي كان
مبدؤه يوم الأحد ١٢ ابريل ، وقد قال الثقات : إن النبي صلى الله عليه وسلم
ولد في ٨ أو ١٠ أو ١٢ من شهر ربيع الأول . وقد اتفقوا جميعا على أن الولادة
كانت في يوم اثنين ، وحيث إنه لا يوجد بين الثامن والثاني عشر من هذا
الشهر يوم اثنين سوى اليوم التاسع منه . فلا يمكن قط أن نمتدبر يوم الولادة
خلاف هذا اليوم .

« ويتلخص من هذا أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ولد في يوم الاثنين ٩
ربيع الأول ، الموافق ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ مسيحية ، فاحرص على هذا التحقيق ،
ولا تكن أسير التقليد . اهـ .

٢ - وقت الهجرة :

يشتبه على كثير من الناس مبدأ التاريخ الهجري ووقت الهجرة ، فيحسبون ،
بل ويحزمون أن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، كانت
في شهر المحرم ، بل وكانت في العاشر منه . والواقع أن الحقيقة تخالف هذا ، وأن

الوقت الذي جعلوه مبدأ للتاريخ الهجري غير الوقت الذي حصلت فيه الهجرة فعلا : وستعرف ذلك على التحقيق فيما سنبينه لك بعد . وسنسرّد لك المراحل التاريخية مرتبة بحرارة مضبوطة . بعيدة عن زحمة الأقوال الكثيرة . والروايات المختلفة .

في شهر المحرم قبيل نهاية السنة الثالثة والخسين من عمره صلى الله عليه وسلم حصل العزم على الهجرة ، وأخذ النبي يدبر أمرها ، ويستعد لتنفيذها : وفي اليوم السابع والعشرين من شهر صفر الخير ، خرج النبي وأبو بكر من مكة ، ولجأ إلى الغار ، وبقي فيها ثلاث ليل : وفي فجر اليوم الأول من شهر ربيع الأول ، خرج النبي وصاحبه من الغار متوجهين لتقاء المدينة : وبعد ثمانية أيام قضياها في الطريق ، وصلا إلى دقيّاء ، ضحى يوم الاثنين ثامن ربيع الأول الموافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ للميلاد ، و ١٠ تشرى عند اليهود ، سنة ٤٨٣ للهجرة ، وهو يوم عاشوراء عندهم . وإذا اعتبرنا أن يوم الوصول إلى دقيّاء ، هو يوم الوصول إلى المدينة - كما يراه معظم المحققين - فإن الثامن من شهر ربيع الأول ، يكون حينئذ موافقا للعشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢ ميلادية . أما إذا اعتبرناه منفصلا عنه - كما يراه بعض الباحثين - فإنه يكون قد دخل المدينة عصر يوم الجمعة ليلة السبت في اليوم الثالث عشر من شهر ربيع الأول : وذلك أنه لما وصل إلى دقيّاء ، نزل ضيفا عند بني عمرو بن عوف ثلاثة أيام ولياليها : وفي ضحى يوم الخميس الثاني عشر من ربيع أقام مسجد ، قباء ، : وفي صبيحة يوم الجمعة الثالث عشر من ربيع ، توجه إلى المدينة ، وفي طريقها نزل عند بني سالم ، وصلى الجمعة هناك ، ثم دخلها في عصر اليوم نفسه .

فمن نرى من كل هذه المراحل المتتابعة أن الهجرة الفعلية إنما وقعت في غير شهر المحرم ، وأنها بداية ونهاية - إذا اعتبرنا مبدأها الخروج من الغار - قد تمت في شهر ربيع الأول ، فلا محل إذن لما فهم بعض العلماء من أن الهجرة كانت في شهر المحرم .

وبإليك شيئا من الأسانيد الصحيحة التي تؤيد ما ذكرناه ، وتميط لك اللثام

عن جعل المحرم مبدأ السنة الهجرية :

ذكر الإمام السيوطي في كتابه ، التاريخ ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمر بالتاريخ يوم قدم المدينة في شهر ربيع الأول . قال ابن عساكر : هذا أصوب .

وأخرج البخاري في صحيحه : ، ما عذوا من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا من متوفاه ، وإنما عذوا من مقدمه المدينة .

وفي سنن سعيد بن منصور عن ابن عباس ، قال في قوله تعالى : ، والفجر ، قال : الفجر شهر المحرم ، هو فجر السنة . أخرجه البيهقي في الشعب ، وإسناده حسن . قال شيخ الإسلام أبو الفضل ابن حجر في أماليه : بهذا يحصل الجواب عن الحكمة في تأخير التاريخ من ربيع الأول إلى المحرم ، بعد أن اتفقوا على جعل التاريخ من الهجرة ، وإنما كانت في ربيع الأول .

وقد يعقب على بعض هذه الأسانيد بأن فيما ذكره السيوطي وابن عساكر من أمر النبي بالتاريخ ما يخالف المحفوظ المشهور من أن الأمر بالتاريخ هو عمر رضي الله عنه : فقد قال مصعب : ولما تشاور عمر مع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . وقال : بأي شهر نبدأ ، ففسرهم أول السنة ؟ قالوا : رجب ، فإن أهل الجاهلية كانوا يعظمونه : وقال آخرون : الشهر الذي خرج فيه من مكة : وقال آخرون : الشهر الذي قدم فيه : فقال عثمان : أرخوا من المحرم ، أول السنة وهو شهر حرام أول الشهور في العدة . وهو منصرف الناس عن الحج ، ففسرهم أول السنة المحرم ، وكان ذلك سنة سبع عشرة ، أو قال : ست عشرة في نصف ربيع الأول . وقد أجاب على هذا التعقيب المرحوم الشيخ حمزة فتح الله في كتابه ، التحفة السنية في التواريخ العربية . - طبعة بولاق سنة ١٣١٥ هجرية فقال :

، وقفت على ما يعضد الأول (ما ذكره السيوطي وابن عساكر) إذ رأيت بخط ابن القماح في مجموع له : قال ابن الصلاح : وقفت على كتاب في الشروط الأستاذ الزياتي ، ذكر فيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرخ بالهجرة حين كتب الكتاب نصارى نجران ، وأمر علياً أن يكتب فيه أنه كتب لحسن من الهجرة . فالتورخ بالهجرة إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمر تبعه في ذلك .

يبقى بعد ذلك كله ما أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن ابن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدم المدينة يوم عاشوراء ، فإذا اليهود صيام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هذا ؟ ، قالوا : هذا يوم أغرق الله تعالى فيه فرعون ، ونجى فيه موسى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أولى بموسى ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصومه .

وفى الحق أن ظاهر هذا الحديث يناقض ما نطقت به الروايات الصحيحة من أن الهجرة كانت فى شهر ربيع الأول ، على ما ذكرناه آنفا ، إذ لا يتفق أن الرسول حينما قدم المدينة وجدهم صائمين يوم عاشوراء ، وهو اليوم العاشر من شهر الله المحرم ، أو هو اليوم التاسع منه ، كما يقول ابن عباس ، وأنه ما قدم المدينة إلا فى شهر ربيع الأول . ولقد حمل هذا التناقض كثيرا من العلماء على استشكل هذا الموضوع ، وعلى رواج كثير من الآوهام ، التى وقعت فيها الأفهام .

وقبل أن نشرع فى إيراد ما يدفع هذا التناقض ، يحسن بنا أن نعرف أن اليهود من العرب كانوا يسمون أيضا بعاشوراء اليوم العاشر من شهر تشرى ، وهو أول شهور سنتهم المدنية ، وسابع شهور سنتهم الدينية ، وتشرى عند اليهود شهر الاحفالات العظيمة ، والمحافل المقدسة : وأن نعرف أيضا أن السنة عند اليهود شمسية ، بخلافها عند العرب ، فإنها قرية : وأن يوم عاشوراء الذى كان عاشر المحرم ، واتفق فيه غرق فرعون ، لا ينفيد بكونه عاشر المحرم ، بل اتفق أنه فى زمن مقدمه صلى الله عليه وسلم المدينة ، كان وجود ذلك اليوم . قال البيرونى فى كتاب الآثار : وقد قيل : إن عاشوراء عبرانى معرب - يعنى عاشور - وهو العاشر من تشرى اليهود الذى صومه صوم الكبور ، وأنه اعتبر فى شهور العرب ، فجعل فى اليوم العاشر من أول شهورهم ، كما هو اليوم العاشر من أول شهور اليهود .

وإذا عرفت هذا فاسمع ما يرد به على هذا الإشكال العلامة الخافض ابن القيم فى كتابه ، زاد المعاد ، قال : وأما الإشكال الأول ، وهو أنه لما قدم المدينة وجدهم يصومون يوم عاشوراء ، فليس فيه أنه يوم قدومه وجدهم يصومونه فإنه إنما قدم يوم الاثنين فى ربيع الأول ، ولكن أول علمه بذلك بوقوع القصة

ابن مضاء القرطبي

ورده على النحاة

لمفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

ابن مضاء القرطبي من علماء العربية الأندلسيين . عاش في القرن السادس الهجري . واستظل بظل دولة الموحدين في الغرب ، وكان قاضي القضاة في دولتهم . وقد كان مما أهمته أن يرده على النحاة ، ويخالفهم ، وينقض من أسسهم وأصولهم التي بنوا عليها نحوهم ، فألف في ذلك كتابا : وانبرى له بعض علماء الأندلس يرده عليه وينضح عن النحويين .

وما يُحمد للأستاذ الدكتور شوقي ضيف - من أساتذة الجامعة المصرية -

في اليوم الثاني الذي كان بعد قدومه المدينة ، ولم يكن وهو بمكة . هذا إن كان حساب أهل الكتاب في صومه بالأشهر الهلالية ، وإن كان بالشمسية زال الإشكال بالكلية . ويكون اليوم الذي نجي الله فيه موسى هو يوم عاشوراء من أول المحرم . فضبطه أهل الكتاب بالشهور الشمسية ، فوافق ذلك مقدم النبي المدينة في ربيع الأول ، وصوم أهل الكتاب إنما هو بحساب سير الشمس ، وصوم المسلمين إنما هو بالشهر الهلالي ، إلى أن يقول : « فظهر حكم هذه الأولوية في تعظيم هذا اليوم ، وفي تعيينه ، وهم أخطأوا تعيينه لدورانه في السنة الشمسية ... الخ » .

هذا ما تيسر لنا الوقوف عليه من التحقيق الدقيق في هذا العدد ، وقد أوردناه فيما تقدم بكل ما في طاقتنا من أمانة ودقة ، ونرجو أن نكون قد وفقنا فيما قصدنا ، والله المستعان .

أن عثر على كتاب ابن مضاء ، وذلكه للناس بطبعه في مظهر حسن : فكان له بذلك يد على المشتغلين بالنحو وعلوم العربية .

والكتاب لطيف ، عمد صاحبه إلى الإيجاز ، وتجنب الإسهاب ، والاقتصار على معاهد المقاصد . وللناشر مقدمة له بسط فيها الكلام على مقاصد الكتاب ، وزاد عليها آراء له على نحو ما فعل ابن مضاء في الانتفاض على النحاة ، وهضم قواعدهم ، وتأصيل قواعد جديدة في النحو . والمقدمة ضويلة تقع في مثل حجم الكتاب .

وقد أحببت أن أنظر في هذا الكتاب . وأدوت نظراتي فيه . وسأتناول بالبحث الكتاب من جهتين : نصوصه ومثله . وما فيه من فكر وآراء . وبعد هذا سأناول مقدمة الناشر البعثة .

نظرة في متن كتاب (الرد على النحاة) ونصوصه

مركز تحقيق كتب التراث

وقع في الكتاب تهنات ، قد يرجع معظمها إلى سقم النسخة التي كانت أصلاً في الطبع ، وقد أحببت أن أثبت عليها : لأن بعضها قد يحسن المعنى ، ويوهن الأسلوب . وإني أجمل ملاحظاتي فيما يأتي :

١ - في ص ٨٢ وردت العبارة الآتية : « ومن أعرض عنه وأنف منه هلك هلاك العجماء في الفيء عند عدم الرعي والماء » وقد ضبط الرعي بفتح الراء ، وهو هكذا مصدر ، ولا ينتظم مع الماء . والذي يبدو أنه الرعي بكسر الراء ، وهو السكلاء والمرعى ، وبذلك يتناسب مع الماء .

٢ - وفي ص ٨٢ وردت العبارة الآتية : « ولعل قائل يقول : أيها الأندلسي المسرور بالأجراء في الخلاء ، المضاهي بنفسه الحنفي ذكاً وأى ذكاً .. » وقال الناشر في التعليق : « يريد بالحنفي - فيما يظهر - سيوييه » . وهو يعتمد في هذا على أن الحنفي معناه العالم ، وفي اللغة أنه العالم يتعلم باستقصاء ، وقد

لا يصدق هذا على سيبويه الذي بلغ الغاية في فنته ونحوه . ثم بعد هذا يبدو قوله
 « ذكاه وأى ذكاه ، قليلاً نايياً في الكلام . ويذكر الناشر في التعليق على قوله
 « بنفسه ، أن في الأصل « بفتنه » ، ويبدو لي أن هذا قد لا يكون بعيداً عن
 تصواب . كما يبدو لي أن الأصل هكذا : « المضاهاى بفتنه الخفى ذكاه وابن ذكاه »
 يريد أن فنته وعلمه خفى لم يبلغ مبلغ الاشتهار والوضوح ، وهو مع ذلك يبارى
 « ذكاه - وهى الشمس - ، وابن ذكاه - وهو الصبح .

٣ - وفي ص ٨٤ ورد النص هكذا : « أنزرى بنحوى العراق ، وفضل
 العراق على الآفاق ، كفضل الشمس في الاشراف » ، وفيه كما ترى ، نحوى العراق ،
 مفرداً ، وكأن الناشر يرى أن المؤلف يريد سيبويه : والعراق لا يكون له الفضل
 على الآفاق بنوع فرد فيه ، قد يكون نبوغه وبراعته قلته من الدهر ، وإنما
 يكون خليفاً بالفخر إذا كان موطناً للنبوغ ، منبأ للبراعة والتبريز ، ومثابة لأولى
 الفضل ، ويبدو لهذا أن الأصل : « أنزرى بنحوى العراق » : ليكون جمعا .

٤ - وفي ص ٨٥ ما يأتى : « فمن ذلك ادعائهم أن النصب والخفض
 والجزم لا يكون إلا بعامل لفظى » . وأرى أن الأصل : لا تكون - بالتاء - :
 إذا كان هذا خبراً عن ثلاثة الوجوه من الإعراب : ولا تصح الصيغة بالتذكير
 إلا على تأويل أن المراد : لا يكون كل منها : وهذا تخريج بعيد .

٥ - وفي ص ٩٣ ورد النص الآتى عن الخصائص : « اعلم أن إجماع أهل
 البلدين إنما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يد أن لا تخالف - كذا ، والمألوف
 في الرسم ألا تخالف - المنصوص والمقيس على المنصوص » . وظاهر أن السياق

يقضى بأن يكون الأصل ألا يخالف ، أى إذا تكفل لك الخصم أن يوافق
 المنصوص ، والمقيس على المنصوص ، ولا يخالفه ، ولو بقى النص كما هو لكان
 المعنى أن الخصم يضمن ألا تخالف أنت ما ذكر ، وهو إنما يضمن ويلتزم عن
 نفسه لا عن نفسك . وعذر الناشر في عدم التنبيه على هذا أنه رآه هكذا بهذا
 التحريف في نسخة الخصائص المطبوعة ، وهى محشوة بالتصحيف والتحريف .

٦ - وفي ص ٩٤ في بقية النص السالف عن الخصائص : « وأراهم الحكمة في الترحيب له والتعظيم ، ، والترحيب بالحلم المهمة لا تعرفه يتعدى باللام ، وإنما يتعدى بالباء : وإني أرى أن الأصل : الترحيب - بالجيم - ، والترحيب : التعظيم ، وقد رجبه : عظمت . وتراه هكذا بهذا التعريف في نسخة الخصائص .

٧ - في ص ١١٨ ما يأتي : « ومن الأبواب التي يُظن أنها تعسر على من أراد تفهيمها وتفهمها ، لأنها موضع عامل ومعمول ، ولا داعية لى إلى إنكار العامل والمعمول . . ويلاحظ على الجملة الأخيرة أنها تناقض مذهب المؤلف ، فهو مبني على إنكار العامل ، كما سيجي لك ، فله داعية أية داعية إلى إنكار العامل والمعمول . ومن ثم فيبدو أن الأصل : ولي داعية إلى إنكار العامل والمعمول .



٨ - في ص ١٢١ أورد البيت الآتي :

أثعلبة الفوارس أم رياحا عدلت بهم ضهيئة والخشابة

وضبط الفوارس بالجر بإضافة ثعلبة اليه : وظاهر أن الفوارس وصف لثعلبة ، وصفهم بذلك لأنهم من بني يربوع ، وبني يربوع منهم فرسان بني تميم ، فكان ذلك وصفاً وثناء لثعلبة : وما تقرر في البحر إلا يضاف الموصوف إلى الصفة .

٩ - في ص ١٤٤ في سياق الاستشهاد على النصب في جواب التثني : « وقرىء : ودوا لو تدمن فيدهنون . . ويلاحظ على هذا أن الاستشهاد إنما يتم لو قرىء « فيدهنوا ، بالنصب ، - وقد قرىء كذلك - فيبدو أن الأصل ما ذكرت ، وما يشد من هذا أنه إنما يقال : قرىء كذا في غير قراءة العائمة ، وفي القراءات النادرة ، وهذا لا يصدق على قراءة الرفع . وما يذكر هنا أن قراءة النصب شاذة .

١١ - في ص ١٦٢، ذكر المؤلف من أمثلة ما أبدلت فيه الواو ياء، الأمر
نما فائوه واو ، نحو ، إيجل وإيسق ، وإيسق أمر من وسق ، ووسق
مضارعها يسق ، كوعد يعد ، وأمرها يسق بحذف الفاء لا يابداها ياء . ويبدو
أن الأصل : إيسن - بالنون - ، وهو أمر من وسن - يوسن : أصابته
السنة ، وهي أول النوم .

١٢ - في فاتحة الكتاب : ، أدام الله بركته ، ونور بنوره الإيمان كخلده .
وظاهر أن الأصل : نور الإيمان .

١٣ - في ص ٨٩ : ، قالوا إنه مفعول بفعل مضمر تقديره أضربت زيدا .
وظاهر أن الأصل : تقديره ضربت زيدا .

نقد المؤلف للنحاة

يقوم نقد المؤلف للنحاة على أنهم بنوا النحو على أن كل أثر إعرابي لا بد له
من عامل في الكلام ، وقد جشتمهم هذا من التكلف والإبعاد في التأويل ما كانوا
في غنى عنه . وهو يعيب عليهم هذا ويزري عليهم أية مزلة ، ويدعو إلى نبذ
العامل وطرحه في النحو ولفظه كما تلفظ النواة .

وقد قام جدان غفيف حول قضية العامل في النحو لبضع سنين خلت ، أثاره
أستاذ من أساتذة الجامعة المصرية - هو الأستاذ إبراهيم مصطفى - وتصدى
للرد عليه أستاذ من أساتذة الأزهر - هو الأستاذ الشيخ محمد عرفة - ،
وقد علنا بظهور كتاب ، الرد على النحاة ، لصاحبنا القرطبي ، أن القرطبي كان
سلفا وإماما للأستاذ الجليل إبراهيم مصطفى .

وينقد المؤلف النحاة في قولهم بالعامل بأمور :

١ - قالقول بأن ضرب في قولك ، ضرب زيد عمرا ، عمل الرفع في زيد

والنصب في عمرو ، يوم أن هذا اللفظ ، ضرب ، أحدث الرفع والنصب . بل قد صرح بهذا سيويه ولم يورب إذ يقول : « لا فرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدثه العامل » فانظر كيف نسب الإحداث إلى العامل . ويرى القرطبي أن هذا فساد كبير لا يقول به عاقل . والنحويون — وهم بحمد الله عقلاء — لا يقولون بهذا الذي يذكره القرطبي : وهم إنما نسبوا العمل إلى اللفظ لما كان داعيا المتكلم إلى أن يراعى في الكلام نحووا خاصا ، ويأتى في الكلمة بأثر معين . فضرب في المثال السابق يحمل المتكلم على أن يرفع زيدا وينصب عمرا إذا أراد ألا يخطئ سنة العرب في كلامهم : فقد كان العربي إذا رأى في الكلام مثل ضرب رفع ونصب ، وقد كانت هذه النسبة في مبدأ الأمر بسبيل من التجوز والتوسع ، ثم صار ذلك حقيقة عرفية يراد منها المعنى الصحيح . وانسخ اللفظ عن هذا المعنى الفاسد الذي يورمه الوضع اللغوي لكلمة العامل : واصطلاحات العلوم كثيرة تعتمد المناسبات الضعيفة للمعنى اللغوي ، وما رأينا من ينكر هذا . ومن العجيب أن المؤلف ساق عن ابن جني وغيره البيان الصحيح للعامل ، ونفوا هذا الذي يورمه لفظه ، وكان يحسب المؤلف هذا في السكف عن النحويين : فقدبان غرضهم واستبان قصدهم . وكان خيرا له ألا يثير هذا النقد ، ولا يجعله مما يحاسب عليه النحاة ، وأن يعنى نفسه بما أخذ يذهب مذهب أهل الكلام في فساد عمل اللفظ ، ويحتفل له ويعقب على قول ابن جني أن العامل هو المتكلم نفسه بأن هذا مذهب المعتزلة ، ومذهب أهل الحق أن العامل هو الله سبحانه وتعالى ، فكل هذا لا حاجة إليه .

٢ — والقول بالعامل ساق النحويين إلى أن يتكلفوا تقدير محذوف لا يدعو الكلام إليه . وإن أظهر كان عيبا . ومن أمثلة ذلك ما قالوا في « أزيدا ضربته » فهم يقدرون العامل في « زيدا » محذوفا وهو ضربت . وهو يذكرون أن هذا القول لا يحتاج إلى تقدير عامل . ووجه نظر النحويين في هذا التقدير أن ضرب فعل متعد إلى واحد ، وقد استوفى مفعوله وهو الضمير ، فزيدا لا بد أن يعمل فيه عامل آخر ، ولما لم يكن موجودا في اللفظ قدروه . ويذكر القرطبي أن هذا زعم

زعمه النحاة ، وكأنه لا يقول بالفعل المتعدي . وتراه في ص ١٠٣ يقول وهو
يمثل لدلالة اللزوم : « ودلالة الفعل المتعدي على المفعول به والمكان ، فتراه
يعترف بالفعل المتعدي ولا ينكره . وترى أن الذي دعا إلى التقدير داع صحيح .
والنحويون يقررون أن هذا المحذوف لا يصح إظهاره : إذ كان في الكلام ما يفنى
عنه ويقوم مقامه . ومن ثم كان إظهاره عيبا ، ولا شيء في هذا يزرى بتقدير العامل .
وليت شعري ما الفرق بين الحذف في هذا الضرب ، والحذف في الضرب الذي
استساغه المؤلف : كالحذف في قوله تعالى « ناقة الله وسقياها » ، وكلاهما دل
عليه دليل . وما هنا وجد في الكلام ما يفنى عن المحذوف ويسد مسده . ويرد
القرطبي أيضا بأن القائل لهذا الأسلوب قد لا يخطر بروعه محذوف ؟ والواقع
أن الناطق بالأسلوب أولا يراعى الحذف ، فإذا استقر الأسلوب وجرى على
الأساس غفل عنه القائل . وهذا لا يفنى أن في الكلام تقديرا .

وتراه في هذا المقام يورد إشكالا على النحويين يظنه معجزا لهم هادما لأصلهم
إذ ما ذا يضمرون في هذا المثال « أنيدا مررت به » . والقارىء لهذا يحزم بأن
لنحويين لم يعرضوا لمثل هذا المأزق الذي أدخله عليهم القرطبي . والنحويون
عرضوا له ووجدوا لهم منه مخرجان ، فهم يقدرون في مثله : لا بست ، والأصل :
لا بست زيدا : مررت به . ومعنى لا بست زيدا كان لي معه شأن وأمر ، وفسر
هذا بعد بأنى مررت به . وانظر سيبويه يقول : « وإذا نصبت زيدا لقيت أخاه ،
فكأنه قال : لا بست زيدا لقيت أخاه . وهذا تمثيل ولا يتكلم به » .

ومما يذكر في هذا الموطن أن النحاة ليسوا بجمعين على تقدير العامل في
الأسلوب الذي ذكره المؤلف . فمن السكوفيين من يرى أن الفعل عامل في الاسم
وضميره معا : إذ كانا شيئا واحدا : ومنهم من يرى أن الفعل عمل في الاسم ،
والضمير توكيد للاسم .

وبعد . فقد رأيت أن هذا النقد هين لئن لا يقوم بما أراده القرطبي
من الهدم والنقض .

آثار الزوجية

وسمو التشريع الاسلامي

على جميع التشريعات الاجنبية

لحضرة الأستاذ صالح بكير

المدرس بكلية أصول الدين

للزواج آثار قانونية هامة ، وسفقتحدث عن ذكر أهمها مع استعراض تاريخي تطورها .

ففي العهد القديم لأوروبا تلمخص هذه الآثار في أن الزواج يكسب الزوج الولاية والسلطة على زوجته ، سواء من حيث النفس أو المال ، كما اكتساب الولاية أو السلطة الأبوية للأب على أولاده . فكانت آثار الزواج تنحصر في أن للزوج حقوقا على زوجته وعليها واجبات نحوه . ولكن الكنيسة خففت وطأة هذا المبدأ استنادا لقول القديس پول بالاعتراف للزوجة بأن لها واجبات زوجها . ويلاحظ أن ولاية الزوج قد تطورت نحو التخفيف منها في نفس الاتجاه الذي تطورت فيه ولاية الأب على أولاده

ومن أم هذه الآثار قديما (وحدينا أيضا) أن تكون الزوجة عفيفة أمينة لا تفرط في عرضها ، فقد كان هذا التفريط يعتبر من أكبر الخيانات لواجب الزوجية .

وقد ترك عقاب الزوجة على هذه الجريمة للزوج نفسه ، فكان له حق مطاردتها بالسوط في الطرقات العامة للمدينة أو القرية . ولا شك أن هذا كان يودي بحياتها . كما كان رمزا إلى أن للزوج حق طرد زوجته الزانية من منزله بل من المدينة نفسها أو القرية التي هو بها ، وهذا قضاء عليها بالموت إذ لا تجد من يحميها قانونا . ويبدو أنه يمكن أن تستخلص قاعدة عامة من التشريع البربري (الجرماني) وهي أن للزوج حق قتل امرأته الزانية ، وكذلك شريكها في الجريمة حال التلبس المفاجئ ، كما أنه في حالة عدم التلبس كانت المحاكم تقضى بإعدام الزوجة الزانية .

وأما التشريع الكنسي الذي تبع هذه المبادئ فقد كان يقضى على الزوجة الزانية بالرجم ، وتشير كلمة المسيح فتقول ، الذي لا ذنب له هو الذي يبدأ بالقاء الحجر ولكن الكنيسة رأت أنه لعوامل إنسانية (في رأيها) ضد ما كان قائما من عادات قديمة قاسية أن تخفف من هذا العقاب مكفية بعقوبات بسيطة على الزوجة الزانية ، وكذلك تأنيب الزوج الزاني . هذا وإن كانت الزوجة الزانية كان يحكم عليها بعقوبة الحرمان فإنه كان يحكم أيضا على الزوج بالحرمان لمدة خمس سنين أو الى الأبد ، كما يحرم الزوج من الاحتجاج بخطأ زوجته الزانية . وأمام تعسف رجال الكنيسة في معاملتهم القاسية ضد الزناة تدخلت البلديات وصارت تنظر جرائم الزنا ، ثم حلت محكم الملك محل المحاكم الأخرى في نظر هذه الجرائم .

وقد بقيت آثار العقوبة المسيحية في أخلاق وعادات القرون الوسطى التي تحولت إلى نوع من التشفيع والإخجال الذين كانوا أشد خزيا من ارتكاب الجريمة نفسها . وقد كانت تصحب العقوبة غرامة مالية ، كما كان يكتفى بالغرامة في بعض الأحيان ، وكان يعاقب الشريك عقابا تحكما لا ضابط له متروك أمره للمحاكم فقد تذهب العقوبة إلى الزاني كغيره من المجرمين .

وتنفيد هذه العقوبات كان نادرا لصعوبة الإثبات .

وحينما اختصت محاكم الدولة بنظر جريمة الزنا أحل القضاء الملوكي محل عقوبات الكنيسة وعقوبات العرف والعادة عقوبات مقتبسة من مجموعة جوستينيان الجديدة وغيرها من التشريع الروماني . وتلخص عقوبة الزوجة الزانية في حبسها في دير وحرمانها من فوائد الزواج . كما كان يستعاض في بعض الأحيان عن الأجرامات القضائية بخطابات محتومة ، وذلك لتجنب المناقشات التي تثير الفضائح حيث قد يكون الإثبات عسيرا وغير قاطع ولا يترك إلا أثرا للأشاعات التي تشين الأسرة (كالمحاضر والإثبات بالكتابة والشهود) وانتهى التشريع أخيرا إلى أن حق اتهام الزوجة بالزنا هو من حق الزوج إلا في أحوال خاصة (كارتكاب الزوج جريمة الزنا أيضا وخشية الفضيحة) فلا يكون له هذا الحق كما أن الزوج فقد حقه في إعدام زوجته حال التلبس (وذلك من الوجهة النظرية) والذي كان

أثرا من الآثار القديمة . ولكن في الواقع اذا استعمل الزوج هذا الحق فانه ليس من الصعب عليه أن يحصل على العفو .

ويلاحظ كما سيأتى يياه . أن التشريع الحديث يفرق في المعاملة بين الزوجين الزانيين ، فلا عقوبة على الزوج الزانى ، كما لا يحكم عليه بالتفريق الجسمى كما لا يفقد حق الاحتجاج بزنا زوجته الزانية وإنما يحرم فقط من الفوائد المالية للزواج . وهذه التفرقة ليس منشؤها الدين ، وإنما كانت تطابق التقاليد والعادات التى تستند على مصلحة اجتماعية فى أن زنا الزوجة يجر إلى خروج أموال الأسرة إلى أجنبي ، كما يعرض الأولاد الشرعيين لهذا الخطر .

التشريع الوضعى : أما التشريع الفرنسى الحديث فانه يرتب آثار هامة على عقد الزواج :

١ — جرى العرف والاستعمال على أن الزوجة تحمل اسم زوجها ، كما تشير إلى ذلك المادة ٢٩٩ فرنسى مدنى ، وذلك بطريق المفهوم .

٢ — يكون محل إقامة الزوجة هو محل إقامة زوجها (١٠٨ فرنسى مدنى) .

٣ — ونصت المادة ٢١٢ مدنى فرنسى على وجوب الأمانة والمساعدة والتعاون بين الزوجين . ويستفاد من هذا أنه يجب على الزوجين عدم ارتكاب جريمة الزنا ، كما يجب على الزوجة السكنى مع زوجها . وكما أن النفقة تجب للمحتاج منهما على الآخر بما يقوم ويساعد على الحياة الزوجية .

٤ — ونصت المادة ٢١٣ مدنى فرنسى على أن الزوج هو رئيس الأسرة ، ويزاول وظيفة الرياسة فى الصالح المشترك للمنزل والأولاد ، وتشترك معه فى إدارة المنزل ماديا وأديا من حيث صيانة وتربية الأطفال ورعايتهم وتكوينهم ، وتقوم الزوجة مقام الزوج فى الرياسة عند وجود مانع للزوج .

٥ — ونصت المادة ٢١٤ مدنى فرنسى على أن كلا من الزوجين يشترك فى تكاليف شؤون المنزل (النفقة) وذلك بقدر طاقة كل واحد منهما إذا لم ينص فى عقد التظيم المسمى للزواج على شىء آخر يتعاق بذلك .

والأصل أن هذه التكاليف (النفقة) تقع على الزوج ، إذ أنه واجب عليه أن يقدم لزوجته كل ما هو ضرورى لمقومات المعيشة والحياة على حسب طاقته

وحالته، وتشترك الزوجة في ذلك بما تخصصه من أموال عند زواجها أو من ريع أملاكها التي تديرها. وفي حالة امتناع أحد الزوجين عن القيام بهذا الواجب فللآخر حق إجباره على تنفيذ هذا الواجب. ويلاحظ أن النفقة بقدر الحاجة وأنه إذا حكم بها ولم يطالب بسدادها في مواعييدها سقطت إلا في حالة الاستدانة عليها.

٦ — ونصت المادة ٢١٥ مدني فرنسي على أن اختيار محل سكني الأسرة هو للزوج، وعلى الزوجة الإقامة معه، ويجب على الزوج قبول إقامة زوجته معه وعدم منعها من ذلك. وإذا كان محل الإقامة الذي اختاره الزوج يحدث ضررا ماديا أو أدبيا للأسرة فللزوجة الحق في أن تطلب محل إقامة آخر، ويتضح من هذا وجوب الطاعة على الزوجة. وقد نص قانون العقوبات الفرنسي على جريمة هجران الأسرة بعقوبة الزوج الذي يهجر الأسرة بلا مبرر.

٧ — ومن أهم آثار الزوجية إلى عهد حديث عدم أهلية المرأة المتزوجة لأجراء التصرفات القانونية، فقد كانت القاعدة العامة أنه بمجرد زواج المرأة تفقد أهليتها لأجراء التصرفات القانونية (فتكون كالقاصر) وتقع تحت سلطة زوجها سيد المنزل. وهذا المبدأ نشأ عن مبدأ الوصاية المستمرة على المرأة الذي كان شائعا لدى الأغريق والرومان والشعوب الجرمانية. ولكن في أوائل عصر الامبراطورية الرومانية اندثر استعمال هذه الوصاية في روما ونالت المرأة استقلالها وأهليتها المدنية. ومع ذلك فإنها بقيت عديمة الأهلية في بعض الأحوال الخاصة كاللزامها لأجل شخص آخر، وكالتزامها على أموالها لصالح دائني زوجها. وكما قلنا فيما سبق إن الزواج بالسلطة اندثر في روما في العصر العلي، والذي كان يقتضاه تعتبر المرأة كأحد أولاد الأسرة فتقع تحت سلطة زوجها أو تحت سلطة رب الأسرة، وبقي الزواج بلا سلطة وهو الذي لا يجعل للزوج سلطة على زوجته قانونا لا عملا حيث يعتبر الزوجان متساويين، فتحتفظ الزوجة بأهليتها كما كانت قبل زواجها؛ ولذا لا يكون البحث عن منشأ نظرية عدم أهلية المرأة المتزوجة في القانون الروماني. كما يلاحظ أيضا أنه في مقاطعات الجنوب بفرنسا التي كانت تتبع القانون الروماني والتي كانت تسمى ببلاد القانون المدون، لا يعرف مبدأ

عدم أهلية المرأة المتزوجة . ولكن هذا المبدأ وجد في مقاطعات الشمال بفرنسا التي كانت متأثرة بالطابع الجرمانى ، وكانت تتبع العرف والعادة ، وكانت تسمى ببلاد القانون الغير المدون ، إذ كان من مبادئ الشعوب الجرمانية وقوع المرأة تحت الوصاية المستمرة ، ولو أن هذا المبدأ قد اندثر إلا أنه بقى له أثر وهو وقوع المرأة المتزوجة تحت سلطة زوجها حيث كان وصيها الطبيعي ، ولذا كانت توجد تفرقة بين النساء المتزوجات وغير المتزوجات من حيث أهليتهن المدنية . وغريب جدا أن المرأة قبل أن تزج تكون أهلا لجميع التصرفات وبمجرد زواجها تفقد هذه الأهلية .

وواضعو القانون المدنى الفرنسى أبقوا هذا المبدأ أخذوا من بلاد العرف والعادة ، وأدخل بذلك فى بلاد القانون المدون . ويلاحظ أن هذا المبدأ أصبح أثرا تاريخيا وسائرا إلى الزوال ، وقد قضى على أكثر آثاره فى فرنسا سنة ١٩٤٢ تحت تأثير النظريات الحديثة من تساوى الجنسين ، بتأثير الحركة النسوية .

وكانوا قد عللوا مبدأ عدم أهلية المرأة المتزوجة بأن الزواج شركة ويجب لكل شركة رئيس ، ولكن هذا التعليل غير سديد : لأن كل اشتراك يقتضى التساوى بين الشركاء ، ولا يستلزم أن رئيس الشركة تكون له السلطة المطلقة على شركائه ، ووظيفة الرئيس هى الإدارة تحت رقابة الشركاء ، وقيل بأن تقرير هذا المبدأ هو لأن المرأة فى حاجة إلى الحماية . ولكن هذا التعليل غير سديد أيضاً إذ أنه يمكن أن يقال ذلك أيضاً عن المرأة قبل زواجها . وقيل بأن سبب هذا هو نقص عقل المرأة ؛ ويرد على هذا بأنه يمكن أن يقال هذا قبل زواجها أيضاً . فالواقع لا يوجد تعليل منطقي سليم إلا أنه أثر تاريخي كما قلنا . وقد نالت المرأة أخيراً فى سنة ١٩٤٢ أهلية التصرف فلا تحتاج إلى إذن الزوج أو القضاء .

ومبدأ عدم أهلية المرأة المتزوجة ينحصر فى أنها لا تستطيع أن تزاول التصرفات حتى ولو كان على مالها الخاص إلا باذن الزوج أو القضاء . ولما كانت ضرورة إدارة شؤون المنزل تستدعى أعمالاً متعددة سريعة ، اضطر القضاء إلى اعتبار أن هناك وكالة ضمنية من الزوج لزوجته من يوم عقد الزواج لإدارة

قلنا فيما سبق إنه طبقا للمادة ٢١٣ مدني فرنسي بأن من واجبات الزوجين الأمانة ، فلا يجوز لأحدهما ارتكاب الزنا . وقانون العقوبات الفرنسي (كالمصري) يعاقب الزوجة الزانية بالحبس أو الغرامة . ولكن القضاء الفرنسي أصبح يكتفي بغرامة بسيطة قدرها ٢٥ فرنكا ، وهو مبلغ زهيد يشجع على ارتكاب الفحشاء لأنها عقوبة غير رادعة .

وأخيراً الزواج يثبت نسب الأولاد الذين يرزقون للزوجين على فراش الزوجية ، كما يترتب على الزواج حرمة المصاهرة (كما بين سابقا) ، ولكن يلاحظ أنه لا توارث بين الزوجين .

الشريعة الإسلامية : لا يفقد الزواج في الشريعة الإسلامية أهلية المرأة ، وليس للزوج على امرأته سلطة بالنسبة لأموالها ، إذ أنهما متساويان في هذه الحقوق : وبذلك كانت الشريعة الإسلامية أسبق التشريعات في تقرير مبدأ أهلية المرأة المتزوجة ، وليس للرجل على زوجته إلا الطاعة في حدود معينة . كما أن النفقة تجب على الزوج فقط ، وعلى قدر طاقته وحالته (قانون سنة ١٩٢٥) . ولا يسقط متجمد النفقة إلا بالإداء أو التنازل . كما لا تجب النفقة في حال نشوز المرأة . فالرجل في الواقع له القوامه في الحدود التي يفتها الشريعة الإسلامية . وبالزواج يثبت نسب الأولاد . كما هو سبب للتوارث بين الزوجين المسلمين .

ولذا خلت الشريعة الإسلامية من الاضطراب والتعقيد اللذين وقعت فيهما التشريعات الأخرى ، وأقرت ما أقرته الشريعة الإسلامية منذ أمد بعيد (سنة ١٩٤٢) بالنسبة لأهلية المرأة) . وهذا من فضل الله على المسلمين .

أوائل المتكلمين من المسلمين

واصل بن عطاء - شيخ المعتزلة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ علي مصطفى الغرابي
المدرس بكلية أصول الدين

لقد انتهينا في المقالين السابقين من الكلام على واصل بطريق إجمالي، والآن نريد أن نتحدث عن آرائه .



آراء واصل الكلامية : مركز تحقيقات كويتية علوم إسلامية

لقد كان الناس في عهد الرسول والخلفاء من بعده ثلاثة أصناف : مؤمن ، وكافر ، ومنافق .

فالمؤمن : هو ما اتفق ظاهره وباطنه ، ووافقت أعماله الجسمية اعتقاداته القلبية ، ينعكس نور إيمانه المستقر في قلبه على جوارحه فيدفعها نحو العمل ، وتكون أعماله ترجحاً عما يكنه قلبه من الإيمان الصادق ، واليقين الكامل .

والكافر : هو الذي جاهر بالمخالفة ، ووافقت أعماله الفاسدة ، عقيدته الباطلة فأعماله صورة لما في قلبه من الزيغ والضلال ، والفجور والكفران ، والشروع والآثام ، والسوء والبهتان .

وأما المنافق : فهو الذي يظهر خلاف ما يضمّر : يبطن الكفر ويظهر الإسلام ، ليعامل في الدنيا معاملة المؤمنين عن إخلاص وطيب خاطر ، وإن كان في الآخرة في الدرك الأسفل من النار : « يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون

إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ، ولهم عذاب أليم بما يكذبون « (١) » .

أما من وقع منه مخالفة من المؤمنين فيظهر أنه لم يكن له اسم يعرف به ، إما لأنه لم يوجد من المؤمنين من وقعت منه مخالفة لما جاء به الدين الاسلامي وما آمن به من أحكام الشريعة الاسلامية ، أو وجد من وقعت منه مخالفة على ندرة ؛ والآخر أصح بدليل آية القذف ، والذين يرُمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون ، . ففي هذه نرى أن القرآن الكريم قد سمي من يرمى المحصنة بالزنا ، ولم يقدر على إثباته بأربعة شهداء - « فاسقا » . وأنه يجلد ثمانين جلدة ، ولكن لم يبين لنا القرآن هل هذه التسمية - وهو أنه فاسق - تخرجه من الإيمان الى الكفر ، أو أنه مع إيمانه فاسق ، أو أنه خرج من رتبة الإيمان الكامل ، ولم ينزل الى حضيض الكفر ، أي أنه في منزلة بين المنزلتين ؟ لهذا رأينا المسلمين قد اختلفوا بعد عصر الرسول عليه السلام ، وبعد أن انقضى معظم عصر الخلفاء الراشدين ، فيمن ارتكب كبيرة من المؤمنين بأي شيء يسمونه ؟ أيسمونه « مؤمنا فاسقا » كما هو رأي المرجئة ؟ أم يسمونه « منافقا فاسقا » كما قال الحسن البصري ؟ أم يسمونه « كافر نعمة فاسقا » كما ذهب الى هذا الشيعة ؟ أم يسمونه « كافرا فاسقا » كما زعمت الخوارج (٢) .

اختلف المسلمون في الصدر الأول (القرن الأول الهجري) في ذلك ، وذهب كل فريق إلى أحد تلك التسميات التي ذكرناها وقد أدلى واصل بن عطاء دلوه في هذا الميدان ، وكان له رأي خاص يخالف فيه غيره من المعاصرين له ، وهذا ما يعرف عند مؤرخي الآراء الكلامية ، بمسألة مرتكب الكبيرة ، .

- (١) لقد بدل لما ذهب اليه من التقسيم للكورفول الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠ هـ « الناس ثلاثة : مؤمن ، وكافر ، ومنافق . فأما المؤمن فقد ألجمه الخوف ، وقومه ذكر العرض . وأما الكافر فقد قعه السيف ، وشرده الخوف ، فأذهن بالجزية وسج بالقرية . وأما المنافق في الحجرات والطرقات يسرون غير ما يملثون ، ويضمرون غير ما يظهرون » .
- (٢) للنبيه والامـل لابن المرتضى ص ٢٣ وللعل والنعل للشهرستاني ص ٣٣ ، طبع كيونتن .

كان واصل — كما ذكرت عند الكلام على تاريخه — أحد تلامذة الحسن البصرى ، وفي أثناء أحد الدروس التي كان يلقيها الحسن على طلبته ، وقف سائل وسأله عن مرتكب الكبيرة فقال : يا إمام الدين ، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبار ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة . وهم وعيدية الخوارج : وجماعة يرجون أصحاب الكبار ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الإيمان ، ولا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً ؟^(١) بعد أن ألقى السائل سؤاله هذا على الحسن البصرى لیسع منه القول الفصل في أمر مرتكب الكبيرة . وبينما هو ينتظر الجواب من شيخ المعلمين في ذلك العصر ، وإذا بواصل يتطوع بالجواب قبل أن يعلن أستاذه رأيه قائلاً : « هو في منزلة بين المنزلتين ، لا مؤمن ولا كافر »^(٢)

وجه تقرير واصل لهذا الرأي :

لم يذكر مؤرخو الفرق الكلامية أن واصل واجه أستاذه بالتدليل على رأيه . وإنما وقفوا عند حد ذكر الرأي مجرداً عن كل استدلال أو تعليل ، إلا أن بعض الكتب^(٣) قد حكّت لنا المحاجة التي وقعت بين واصل وعمرو بن عبيد الذي كان قد بقى على رأى أستاذه الحسن في هذه المسألة — مسألة مرتكب الكبيرة — ولما اقتنع عمرو بن عبيد برأى زميله واصل اعتقه وقال : « ما بينى وبين الحق من عداوة ، والقول قولك ، وأشهد من حضر أنى تارك ما كنت عليه من المذاهب . قائل بقول أبى حذيفة »^(٤) :

أما التقرير الذى أقنع به واصل عمراً فهو أنه قال : يا أبا عثمان ، لم استحق مرتكب الكبار اسم النفاق ؟ قال عمر : لقوله تعالى ، والذين يرمون المحصنات

(١) الملل والنحل للشهرستاني ص ٣٣ طبع كيورتن .

(٢) الفرق بين الفرق للبندادى ص ٩٨ والملل والنحل ص ٣٣ . طبع كيورتن . والتبدير فى الدين لأبى المظفر الاسفراينى ، ص ٤٠ . ومختصر الفرق بين الفرق لعبد الرزاق ابن رزق الله الرسمى ص ٩٨ .

(٣) للنبية والأمل لابن الرضى ص ٢٢ - ٢٣ .

(٤) للنبية والأمل ص ٢٣ .

ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون . . ثم قال : « إن المنافقين هم الفاسقون . . فكان كل فاسق منافقا ، إذ كان الالف واللام موجودين في باب الفسق . فقال واصل : أليس الله تعالى قال . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأواثمك هم الظالمون . . وقد قال في آية أخرى : « والكافرون هم الظالمون . . فعرف بالالف كما في القاذف ؛ فسكت عمر . ثم قال واصل : ألسنت تزعم أن الفاسق يعرف الله ، وإنما خرجت المعرفة من قلبه عند قذفه ؟ فإن قلت : لم يزل يعرف الله فما حجتك وأنت لم تسمه منافقا قبل القذف ؟ وإن زعمت أن المعرفة خرجت من قلبه عند قذفه قلنا لك فلم لا أدخلها في القلب بتركه القذف كما أخرجها بالقذف ؟

ثم قال واصل لعمر : أليس الناس يعرفون الله بالأدلة ويحملونه بدخول الشبهة ، فأى شبهة دخلت على القاذف ؟ ثم قال له واصل أيضا : يا أبا عثمان ، أيما أولى أن يستعمل من أسماء المحدثين : ما اتفقت عليه الفرق من أهل القبلة ، أو ما اختلفت فيه ؟ فقال عمرو : ما اتفقت عليه ، فالخوارج تسميه « كافرا فاسقا » ، والمرجئة تسميه « مؤمنا فاسقا » ، والشيعة تسميه « كافرا نعمة فاسقا » ، والحنابلة تسميه « منافقا فاسقا » . فأجمعوا على تسمية « مرتكب الكبيرة بالفسق » ، فأخذ بالمتفق عليه ولا نسميه بالمختلف فيه ، فهو أشبه بأهل الدين .

وهنا يجب أن نلاحظ أن واصل قد استعمل في استدلاله على رأيه وتقريره وإبطال رأي عمرو بن عبيد ، أو بالأحرى رأي الحسن البصري ، ثلاثة أنواع من الأدلة :

أولا : الدليل النصي من القرآن الكريم الذي أشار إليه بالآيات التي ساقها .
 ثانيا : الدليل العقلي الذي بدأه بقوله : ألسنت تزعم . . . وانتهى به في قوله : أليس الناس يعرفون الله . . . الخ .

ثالثا : الإجماع . فقد قال — بعد أن ذكر آراء المخالفين وبين ما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه — : « فأجمعوا على تسميته « بالفسق » ، فأخذ بالمتفق عليه ولا نسميه بالمختلف فيه ، فهو أشبه بأهل الدين . .

والص الأخير وهو قوله : « فهو أشبه بأهل الدين » يدل على أن واصلا ما كان يريد برأيه هذا إلا الرجوع إلى رأى مجمع عليه ، ولا يعمل هذا إلا من كان مخلصا للحق يقرر في الدين لله ، لا للهوى والشيطان : ومخالفته لرأى أستاذه ، الحسن ، لا تجعله متهما في دينه ولا كافرا ، كما يقول بعض علماء الأشاعرة الذين أرخوا لفرق المتكلمين : ومن هؤلاء أبو منصور ^(١) عبد القاهر بن طاهر البغدادي : قال عن واصل هذا في كتابه ، الفرق بين الفرق ص ٩٨ ، : ثم إنهما « أى واصلا وعمر » أظهرتا بدعتهما ، في المنزلة بين المنزلتين ، وضما إليها ، دعوة الناس إلى قول القدرية على رأى معبد الجوى ، فقال الناس يومئذ لواصل : « إنه مع كفره قدرى » ، وجرى المثل في كل كافر قدرى . ١ هـ

ومنهم كذلك أبو المظفر ^(٢) الأسفراينى الذى قال في كتابه « التبصير في الدين ص ٤١ » : فلما عرف الناس من واصل قوله بالقدر — وكانوا يكفرونه بالقول الاول — وهو المنزلة بين المنزلتين ، الذى ابتدعه في فساق أهل الملة — وكانوا يضربون به المثل ويقولون : إنه مع كفره قدرى . ١ هـ

ومن هنا ترى كيف أن أصحاب الفرق يتهم بعضهم بعضا ، وأيسر شيء يحكمون به هو حكمهم على كل من يخالفهم في رأى من الآراء مخلصا فيه ومجتهدا لا لشيء إلا الوصول إلى الحق ، والتمييز بين الصحيح والفساد ، والصادق والكاذب — أيسر شيء وأقربه خطورا على بالهم هو الحكم على من خالفهم « بالكفر » ، مع أننا قلنا : إن لعلماء الكلام أن يجتهدوا فيما لم يرد فيه نص قاطع بشرط أن يوفق ذلك مع القواعد العامة والقوانين الكلية التى قررها الدين الاسلامى ، كما أن للفقهاء ذلك الحق ، ومن اجتهد منهم وأصاب فله أجران ، ومن أخطأ — بشرط أن يكون طالبا الحق مخلصا في طلبه — أجر . وهو كذلك مؤمن لا كافر . وفى مقابل تال إن شاء الله تحدث عما سبق من آراء واصل الكلامية حتى نكشف عن عالم جليل من علماء المسلمين المتقدمين . والله هو الهادى إلى سواء السبيل .

حقوق الانسان

بقلم فضيلة الاستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الخشب

المدرس بمعهد القاهرة

بالأمس رأيتني أخط عنوان هذه الكلمة دون ما وعى ولا إدراك ،
ورأيت كأن وازعا يحفزني أن أمشي في منرجاته ، وأن أطوف بجنباته ، وأن
أسترسل فيه فربما كان من المقالات التي تجدر بعناية الكاتبين خصوصا في وقت
لا يفرغ أديب الى نفسه ، أو يسبح فيلسوف في مهامه خلوته ، وملكوت فكره
إلا عاوده الأسف على ما صار اليه الحال من انحسار وانهايار . وهنالك دوى في
رأسي صوت يغمغم ، ويل للانسان من الانسان ...! ، وأدركت بعدها على طريقة
الربط والترابط ، المسماة في رأى علماء النفس ، تداعى المعانى ، بانهايال أفكار
وهواجس أخرى كان أبرزها ما كان في الجاهلية من ظلم صارخ ، وجور شنيع ،
واعتماد لا يسيغه الذوق . وسوى هذا وهذا مما كان يتمثل في حروب ثور
بمخاجتها ، وتدور رحاها ، ويعسلو في أجواز الفضاء غبارها فلا تضع أوزارها
إلا إذا شارف الحيان على الفناء ، ودنا الفريقان من الموت ، وأناخ الهلاك بكلكله
عليهم جميعا ... فان أدرك الرشد عقلاءهم ، وأسعف رؤساءهم ، عادوا الى الصحو ،
وعلم كلاهما أى منقلب ينقلبون ، ولكن ذلك الى أمد ، ثم تعود السكره دواليك
وهكذا ...

وقد طاف الى جوار هذا الخاطر وأد البنات ، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل
وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون
أم يدسه في التراب ، وغير هذا مما يدل على العقوق ، وغمط الحقوق ، ونبد
التآلف . وانعدام الرغبة في التعارف ، حتى لسكان الناس وحوش نافرة ، أو معان
متناكرة . وحينئذ التمس العذر للعربي الجلف فيما كان يأتى من ظلم ، أو يقارف
من خطل ، لأنه لم تربطه آصرة ، أو تلم شمله عقيدة ، والامة من شأنها أن يجمع

القانون شتاتها ، ويخضع أهواؤها المختلفة لحكم السلطان أو رأى الخليفة . وهو وإن كان يسكن الجزيرة ، تقله أرضها ، وتظله سماؤها ، إلا أنه مع أخيه المواطن ، وزميله القاطن ، كما يقول التصوير القرآنى « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » . ولذلك كانت المنة واضحة بالتثام الأرواح ، وتساقق الأشباح ، وانسجام العواطف ، وتلاقى الأغراض ، يوم أن أذن صوت الوحي فيما بينهم « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم . . »

وانتقل الخاطر بعد ذلك انتقالا خاطفا الى دعاة المدنية الحديثة . والحضارة التى سخر العقل فى خدمتها جنونه وفنونه ، فقالت حتى متى يضللون الناس بتلك الكلمات الجوفاء ، والجميل المعسولة ، والأساليب المفضوحة . من دعوى ، حقوق الإنسان ، وضمان السلم ، ونزع السلاح ، ورد المظالم ، وانعاش الدول التى طحنتها ربحى الهيجاء ، وأتت عليها ويلات المعارك ، ودكت معالمها قنابل القتال ؟ وما هذه المؤتمرات التى تجتمع وتفض ، وتظعن وتقيم ، وهيئة الأمم ، ومجلس الأمن ؟ وما بالها بعد هذا كله لم تضمن السلام ، أو تكفل الطمأنينة ، وتقف المعتدى عند حد معقول من الاعتداء ؟ ألا إنهم قد يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . . والحرب لا تزال تطارد العالم ، وتكمن له فى كل مرصد .

وليس وراء دين محمد صلى الله عليه وسلم ما يضمن الهدوء والاستقرار ، ويُرَغَّب فى السلم ، ويُنفَر من الخصومة ، ويقضى على نزوات الهوى ، ونزغات الطيش ، إذ يدعو إلى الألفة ، ويُحَبِّبُ فى الإيثار ، ويحث المسلم أن يكون أخا المسلم ، لا يؤذيه : ولا يخونه فى عرضه ، أو ينتهك حرمانه . . . وقد رسم « حقوق الإنسان » باعتباره فردا . وباعتباره لينة فى بناء المجتمع . وحذره مواطن الهلكة . ونهاه عن موارد التلف ، ومزالق السوء . وضمن له بمشروعية البيع والشراء ، والرهن والإجارة . ونهيه عن الخلاية والخداع . ملكية صحيحة لا يصادفها جور ولا اعتداء . . . وأمره بالزكاة وبذل يد المعونة للبهائس الفقير ، والتفانى فى سبيل الخير العام ، ليكون المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . . وفى هذا من الدعوة إلى الإنسانية مالا تحصى . به شريعة ، أو تعترف به

تقاليد أخرى . . . ولا نقول هذا عصبية هو جاء لدين يُقضي أن ننافع عنه ،
وندعو إلى مائدته . . . فإنه يأتي فيما يباه الوراثية المقبولة ، والتقليد الأعمى ،
ويجب دائماً أبداً النظر والفقه ، والمماحصة والدرس ، حتى يكون الإيمان به
يقينا وإذعاناً بجريان من الرجل مجرى الدم الذي يذكي حرارة الحياة والحركة
« ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة » .

ولكننا نرجو هؤلاء الداعين إلى الوفاق ، الراغبين رغبة أكيدة في الإصلاح،
أن يجعلوا لهذا الكتاب الذي أنزله ربه مباركاً ليكون بين يدي هذا السكون هدى
للناس وبيانات من الهدى والفرقان ، نصيباً من النظر والاعتبار ، عسى أن تنتهي
هذه الإحس ، وتنقضي تلك المحن ، وتعيش الخليقة في بلمنية الحياة وغضارتها . . .

قلت لنفسى هذا الكلام حينما أمسكت بالقلم لا كتب تحت عنوان « حقوق
الإنسان » ، ولم البت أن سمعت هاتفاً في وادى الضمير يقول تيقظ من نومك
واصح من غفلتك ، فإننا في عصر « المادة » ، والمسلمون ليست لهم شوكة المسلط ،
ولا بأس المظفر الغالب ، وكل ما يملك أحدهم إذا دعا إلى الله أن يتلو آية ، أو يقرأ
حديثاً ، دون أن يعزز ذلك بما يحمله من عدوان الجاهل ، وسخرية الضال ، مع
أن رسولهم الذي يزعمون أن لهم فيه أسوة حسنة لم يغز غزواته ليفتح البلاد ،
ولا ليحجى الخراج ، ويضع في رموس المعاندين الجزية ؛ إنما حارب ليفتح القلوب ،
وينير البصائر ، ويوجه الأفهام إلى الخير : فمن اهتدى بهدائته عصم بها ماله ودمه
وكانت سبيله سبيل المؤمنين .

وعدت فقلت : وماذا يفعل المسلمون والبأس لغيرهم ، والغلبة لعدوهم ،
وأيديهم خلوا من السلاح والذخيرة . غير أن هذا الهاتف انبعث إلى جانبه هاتف
آخر بأبيات كنت أحفظها من شعر شوقي ، فظلت أعيد فيها وأردد :

هل كان حول محمد من قومه	إلا صبي واحد ونساء
فدعا فلبى في القبائل عصبه	مستضعفون قلائل أنضاء
نسفوا بناء الشرك فهو خرائب	واستأصلوا الأصنام فهي مباء
والحق والإيمان إن مُصَبَّاً على	برد فيه كتيبة خرساء

المظاهرة المصرية لتأييد حق العرب في فلسطين

كان يوم الأحد غرة شهر صفر سنة ١٣٦٧ (١٤ ديسمبر ١٩٤٨ سنة) يوماً من الأيام المجيدة في تاريخ مصر : فقد تألفت فيه مظاهرة هي أول ما حدث من نوعها في الشرق ، من ناحية عدد أفرادها ، فقد بلغوا مائة ألف : ومن ناحية مكانة المشتركين فيها ، فقد سار فيها كبار شيوخ الأزهر ، وكبار قساوسة الإكاثروس القبطي ، وأكثرتا طلبة العلم الأزهريين والجامعيين ، وسائر معاهد التعليم في القاهرة ، بين وبنات : فكانت مظاهرة رائعة لالتهاب شعور الشرقيين بقسمة فلسطين بين الإسرائيليين وأهلها المسلمين .

ففي الساعة الحادية عشر أمّ الأزهر كبار علماء الدين وطلاب العلم ، واشترك معهم بعض كبار رجال الإكاثروس القبطي ، منهم حضرات القمامصة : متياس سكرتير صاحب الغبطة بطريرك الأقباط ، ومديوس البرموسى ، وصمويل السويريانى أرسانيوس وكيل مطرانية بنى سويف ، والارسمندريث فلامتيوس الصوتى : ساروا إلى جانب حضرات أصحاب الفضيلة : الشيخ محمد عبد اللطيف دراز مدير الأزهر ، والشيخ محمود أبو العيون سكرتير عام الأزهر ، والشيخ عيسى منون شيخ كلية الشريعة ، والشيخ عبد الجليل عيسى شيخ كلية اللغة العربية .

وسار خلف هؤلاء العلماء والقمامصة بعض العلماء ، وسعادة صالح حرب باشا وفضيلة الشيخ حسن البنا ، وغيرهما ممن لا يحصون كثرة .

دشى هذا الموكب يحف به الجلال ، حتى وصل إلى ميدان إبراهيم باشا ، وكان قد أعدت في فندق الكوتيفنتال منصة للخطابة ، وجعل فيها كراسي لحضرات

« إننا مستعدون للتضحية بكل معانيها في سبيل إنقاذ فلسطين ، ونحن المسيحيين قبل أن نكون مسيحيين نعلن أننا على استعداد لتقديم كل تضحية في سبيل إنقاذ فلسطين وجعلها عربية . »

ثم أعقبه الأستاذ الأزهرى رئيس الوفد السودانى ، وألقى كلمة قال فيها :
« إن شباب الوادى فى الجنوب يهبون أرواحهم وأموالهم لفلسطين وللعروبة . »

وتلاه فضيلة الأستاذ الشيخ حسن البنا فألقى كلمة حماسية بليغة ، بدأها بقوله :
« لبيك فلسطين ! » ، فوقعت من المتظاهرين موقعاً جميلاً .
ثم استأنفت المظاهرة سيرها إلى ميدان عابدين ، فبلغته فى منتصف الساعة الثالثة ، وأخذت تهتف باسم فلسطين ؛ وهنا انتهت مهمتها ، وتفرق أفرادها .

من نصيح الآباء للأبناء

نما قاله لقمان الحكيم لابنه ~~يا بني لا تصحك~~ من غير عجب ، ولا تمشى فى غير أرب ، ولا تسأل عما لا يعنيك .

يا بني لا تضع مالك وتصلح مال غيرك ؛ فإن مالك ما قدمت ، ومال غيرك ما تركت .

يا بني إنه من يرحم يرحم ، ومن يصمت يسلم ، ومن يقل الخير يغتم ، ومن يقل الباطل يأثم ، ومن لا يملك لسانه يندم .

يا بني زاحم العلماء بركبتك ، وانصت إليهم بأذنك ، فإن انقلب يحيا بنور العلماء ، كما تحيا الأرض الميتة بماء السماء .

وقال أعرابي لابنه : يا بني إنه قد أسمعت الداعى ، وأعذراك الطالب ، وانتهى الأمر فيك الى حده ، ولا أعرف أعظم رزية من ضيع اليقين وأخطأ الأمل .

وقال على بن الحسين لابنه : يا بني اصبر على النوائب ، ولا تعرض للحنوف ، ولا تجب أخاك من الأمر الى ما مضرتك عليك أكثر من منفعتك لك .

مطالعات في الجبرتي :

العلماء سفراء وقادة

خليفة الأستاذ محمود الشرقاوي

يؤرخ عبد الرحمن الجبرتي مصر في القرنين الحادي عشر والثاني عشر
وشطرا من القرن الثالث عشر الهجري ، فهو يبدأ تاريخه بسنة ١٠٩٩ ، ويدون
حوادث هذه السنة بعد إجمال لما سبقها من تاريخ مصر : وينتهي تاريخه بنهاية
سنة ١٢٣٦ هـ .

وقد كتب الجبرتي تاريخه هذا في سنة ١٢٢٠^(١) . وتوفي على الأرجح
في سنة ١٢٣٦ كما يفهم من السطور الأخيرة من الكتاب : فهو إذن قد شاهد كثيرا
من دولته في تاريخه الذي سجله (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) ، وما لم يشاهده
الجبرتي بنفسه من الحوادث التي انتهت عصره رواه عن ثقات شاهدوا هذه
الحوادث وعاصروها . ولعله روى كثيرا منها عن أبيه الشيخ حسن الجبرتي الذي
كان عالما ثريا ذا مكانة وحظوة .

ويؤكد الجبرتي أن يكون وحده ، أو هو عن يقين ، ينفرد بتاريخ هذه الفترة
من تاريخ مصر باللغة العربية : وهو بمعاصرته لطائفة كثيرة من حوادث هذه
الفترة . وبما كان له ولأبيه قبله من المكانة ، قد دون هذه الحقبة من التاريخ في
كثير من الدقة والإحاطة والتفصيل : ويستطيع من يؤرخ مصر من بعده أن
يعتمد على صدقه في تاريخ هذه الحقبة ، وأن يوثقه .

... .

كان الأزهر وكان علماءه في هذه الفترة التي يؤرخها الجبرتي ، يشغلون مكانا

(١) ص ٢٧٧ جزء أول من تاريخ الجبرتي طبع المطبعة الشرفية .

رفيعاً في المجتمع المصري. ويؤثرون تأثيراً قوياً في حوادث ذلك العصر، وهم يشغلون بأخبارهم وحوادثهم جزءاً غير هين فيما كتبه الجبرتي من تاريخه؛ جزء غير هين في كمه ولا في كيفه؛ فهم في صفحات كثيرة من هذا التاريخ يذكرون، وهم في كل أمر جسيم من أمور مصر لذلك العهد يذكرون، من تعليمه كالقرويين كثير من الأمور محورها ومؤثرها الأول والأخير.

ومع أن مصر في هذه الفترة من تاريخها كانت تعيش في حالة موصولة، واقعة تحت حكم طائفة من المماليك يظلمون أهلها، ويستبدون بتقديرها، ويذكرون جميع من في مصر في ظلمات من الجهالة، ومن الرعب الدائم والخوف القاتم، حتى فسدت قلوبهم وعمولهم، وضمائرهم وأخلاقهم - مع أن مصر في هذه الفترة كانت في حالة الحال، فإن ما نجده من أخبار علماء الأزهر في هذه الفترة هو كالقرويين بصرى في الظلام؛ بل لعله أن يكون وحدهم الحديث القريب من كرامة الجبرتي في تاريخ هذه الفترة من حياة مصر.

علماء الأزهر في هذه الفترة هم من كل قبائل في رأس هذا المقال، كالقرويين، وسفراء وقادة، سفراء الشعب المظلوم أن حكمه ظلمة، وقادة الشعب الساجد لكل عدوان وجور وجبروت.

سفراء عند قوم يشك كل إنسان منهم في كل إنسان، ويرهب كل جرحه، ويوقع أهل كل بيت منهم بين بعضهم وبعض، ويتوجس كل أخ من أخيه.

وقادة بين قوم يقتل منهم الواحد والعشرة في أقل سب وبزاز سب، وتهدم أموالهم وتسي نساؤهم وأولادهم، ويخذ الناهب والقاتل والذليل كغيره من القوم له: أحسنت أنت سيدنا ونحن ملك يمينك.

هكذا كان الناس، وكان علماء الأزهر في ذلك الزمان.

يقول الجبرتي في حوادث شهر جمادى الأولى من سنة ١١٩١ هـ: "بعض الأوقاف المحبوسة على طلبة العلم آل إلى الطلبة المغاربة، ولكن واضع اليد على ذلك

الوقف جحد هذه الايولة وأبى أن يسلم فيه إلى مستحقه ، والتجأ في ذلك إلى يوسف بك الكبير أمير الخاج فأعانه ، فأقام المغاربة دعوى أمام القاضي ، فأثبت لهم الحق في هذا الوقف . ولكن الأمر كبر على يوسف بك فأبى أن يسلم بحكم القاضي بل أمر بالشيخ عباس . زعيم المطالبين بوقف المغاربة ، أن يذهب به إلى السجن . فلما ذهب رسل الأمير يوسف بك إلى الأزهر ليأتوا إليه بالشيخ عباس هذا ، طردهم انجاورون وسبوعم ولم يمكنهم من أخذه ، ثم قصدوا إلى الشيخ أحمد الدردير فأخبروه الخبر ، فكتب الشيخ الدردير كتابا إلى يوسف بك ألا يتعرض لأهل العلم ولا يعاند في حكم أصدره القاضي . وأرسل الشيخ الدردير كتابه هذا إلى يوسف بك . مع شيخين اختارهما لذلك ، أحدهما يسمى الشيخ الفرنوي ، فلما وصل الشيخان إلى يوسف بك برسالة الشيخ الدردير ، أمر بالقبض عليهما . وزجرهما زجرا شديدا . ثم حبسهما .

واترك لدجبرتي أن يقص ما جرى بعد ذلك بأسلوبه المخرّيف حيث يقول :

... ووصل الخبر إلى الشيخ الدردير وأهل الجامع ، فاجتمعوا في صبحها وابتصوا الدروس والأذان والصلوات ، وقفوا أبواب الجامع ، وجلس المشايخ بالقبلة القديمة ، وطلع الصغار على المزارات يكثرّون الصياح والدعاء على الأمراء ، وأغلق أهل الأسواق القرية الحوانيت ، وبلغ الأمراء ذلك ، فأرسلوا إلى يوسف بك فأطلق المسجونين . وأرسل إبراهيم بك من طرفه إبراهيم أغايت المال فلم يأخذ جوابا ، وحضر الأغا إلى الغورية ونزل هناك ونادى بالأمان ، وأمر بفتح الحوانيت . فبلغ مجاوري المغاربة ذلك فذهب إليه طائفة منهم وتبعهم بعض العوام وبأيديهم العصي والمسوف ، وضربوا أتباع الأغا ورجوه بالأحجار ، فركب عليهم وأشهر فيهم السلاح هو ومماليكه ، فقتل من مجاوري المغاربة ثلاثة أنفار ، وانجرح منهم كذلك ومن العامة ، وذهب الأغا ورجع الفريق الآخر ، وبقي الهرج إلى ثاني يوم . حضر إسماعيل بك والشيخ السادات وعلى أغا كتحدا الجاويشية وحسن أغا أغات المتفرقة والترجمان وحسن أفندي كاتب حواله وغيرهم فنزلوا الإشرقية وأرسلوا إلى أهل الجامع تذكرا بانفضاض الجمع وتمام المطلوب ، وكان ذلك عند الغروب ، فلم يرضوا بمجرد الوعد ، وطلبوا الجامكية والحراية فركبوا ورجعوا ،

وأصبح يوم الأربعاء والحال على ما هو عليه ، وإسماعيل بك مظهر الاهتمام لنصرة أهل الأزهر ، فحضر مع الشيخ السادات وجلسوا بالجامع المؤيدى . وأرسلوا للشيخ تذكراً محبة الشيخ إبراهيم السندوبى منحصراً أن إسماعيل بك تكفل بقضاء أشغال المشايخ ، وقضاء حوائجهم ، وقبول فتواهم ، وصرف جماهيرهم وجراياتهم . وذلك بضمان الشيخ السادات له : فلما حضر الشيخ إبراهيم بالتذكرة وقرأها الشيخ عبد الرحمن العريشى جهاراً وهو قائم على أقدامه . فلما سمعوها أكثروا من الهرج واللفظ ، وقالوا هذا كلام لا أصل له . وترددت الإرساليات والذهاب والمجيء بطول النهار ، ثم اصطلحوا وفتحوا الجامع فى آخر النهار . وأرسلوا لهم فى يوم الخميس جانباً من دراهم الجاهلية . ومن جملة ما اشترطوه فى الصلح عدم مرور الأغا والوالى والمحاسب من حارة الأزهر ، وغير ذلك شروط^(١) .

ثم يقول الجبرى بعد ذلك إن إبراهيم بك عيّن بعد هذه الحركة ناظراً على الجامع الأزهر بدلاً من الأغا ، وأهم الأسس من طرفه جندياً للطبىح . وسكن الاضطراب .

مركز تحقيق مكتبة مصرى

لم يكن فى هذه الفترة من تاريخ مصر من يستطيع أن يقف مثل هذا الموقف مع أحد من المماليك ، ولا مع تابع من أتباع المماليك : لم يكن أحد من العامة ولا من الخاصة مستطيعاً فى هذه الفترة من تاريخ مصر أن يرد مبعوثاً بعث به يوسف بك ، أو أن يصيح من فوق منبر بالدعاء على الممالك ، أو أن يكذب إلى أحد منهم كتاباً ينفه فيه إلى أمر كما فعل الشيخ الدردير حين بعث إلى الأمير يوسف ينفه إلى عدم التعرض لأهل العلم ومعاودة الحكم الشرعى ، على حسب قول الجبرى .

ولم يكن الممالك وأتباعهم وخدمهم يتحركون لأحد أو لطائفة من الناس ولا لأمر مهما يكن خطره مادام غير صادر عنهم أو عن أمير منهم ، ولكنهم عند ما يغضب أهل العلم فى الأزهر ، يبعثون إليهم بالرسائل يسترضونهم ويستشفعون

بشيخ منهم يتخذونه ضمينا لهم كما فعل إسماعيل بك بالشيخ السادات حيث جعله
عندهم شفيعا وضمينا ، ولم يكن الممالك يقبلون من أحد من الناس رأيا ولا يقضون
له أمرا إذا واجههم به . ولكنهم يسرعون إلى طلبة العلم فيقضون حوائجهم ،
ويترضونهم ويتصدقون اليهم في مساجدهم بحبيبين مسلمين قد أجابوهم لكل ما يطلبون .
ولا يظن ظان أن أهل الأزهر كانوا في غضبتهم هذه نفعيين تحركهم الرغائب
والمصلحة الخاصة حين يغضبون في أمر أوقافهم وأموالهم وجراياتهم ، فإن فيما
بذكره الجبرتي في صفحات كثيرة من تاريخه ، وما قد تلخص طرفا منه في هذه
الفصول ، ما يظهِرنا على أن أهل الأزهر كانوا يغضبون أشد الغضب أيضا في أمور
لا تنفعهم خاصة ، وإنما أثار غضبهم فيها الدفاع عن كلمة الحق ، وعن دين الله .
وعن الضعاف ، المظلومين من عباد الله .

الأدب مع الملوك

كان الحسن التؤلوي ليلة عبد المأمون وهو يسامرهم إذ نفس المأمون
والحسن يتحدث . فقال له : نعت يا أمير المؤمنين ؟ فانتبه . فقال المأمون : سوق
ورب الكعبة ! (أى لا يقول مثل هذا الكلام في حق أمير المؤمنين إلا سوق
لا يصلح لمجالسة الملوك) يا غلام خذ بيده ! فأخرجه الغلام .

ودخل أبو النجم على هشام بن عبد الملك ينشده أرجوزته التي أوقف :
الحمد لله الوهوب المجزل ، وهى من أجود شعره . فلما أتى على قوله :
والشمس في الجوار كعين للأحول ، غضب هشام وكان أحول . وأمر
بصفع قفاه وإخراجه ! .

ودخل كثير عمرة على يزيد بن عبد الملك . فبينما هو يتحدث إذ قال :
يا أمير المؤمنين ما معنى قول الشهاخ ؟ وأنشده بيتا له . فقال يزيد : وماذا على
أمير المؤمنين أن لا يعرف ما قال هذا الأعراي ! وأمر بإخراجه .

منزلة السنة من الدين

وضرورة العمل بها والانكار على من ردها

حضرة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي

رجاء في سنن الدارمي - المقدمة ٤ - باب السنة قضية على كتاب الله ص ٥٥

خبرنا أسد بن موسى ، حدثنا معاوية ، حدثنا الحسن بن جابر ، عن المقدم ابن معد يكرب الكندي ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم أشياء يوم خيبر : الحمار وغيره ، ثم قال : « يوشك الرجل متكاً على أريكته يحدث بحديث فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، ما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه . ألا وإن مما حرم رسول الله فبيّش ما حرم الله . »

رجاء في مسند الامام احمد - الجزء الثاني ص ٣٦٧

حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ، حدثنا خلف قال : حدثنا أبو معشر عن سعيد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا عرف أحدكم منكم أتاه عن حديث وهو متكى في أريكته ، فيقول : أتوا عن به قرآن : ما جاءكم عنى من خير قلته أو لم أقله فأنا أقوله ، وما أتاكم عنى من شر فأننا لا أقول الشر . »

رجاء في الجزء الرابع ص ١٣٠ و ١٣١

حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ، حدثنا يزيد بن هرون قال أنبأنا حريز بن عبد الرحمن ابن أبي عوف الجرشى عن المقدم بن معد يكرب الكندي ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه . ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل يفتنى شعباناً على أريكته يقول : عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه . »

ألا لا يحسن حكمكم أحبار الأهلبي . ولا كل ذي ناب من السباع : ألا ولا
لنقطه من من معكم إلا أن يستغنى عنها صاحبها : ومن نزل بقوم فعلهم
أن يقرؤهم . فإن لم يقرؤهم فليهم أن يعقبوهم بمثل قراهم . اهـ .

رجع في ص ١٣٢

حدثنا عبد الله . حدثني أبي . حدثنا عبد الرحمن وزيد بن حباب . قال : حدثنا معاوية
بن صالح عن الحسن بن جابر : قال زيد في حديثه : حدثني الحسن بن جابر . قال
سمعت المقدام بن معد يكرب يقول : حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم
حبيب المشيمة . ثم قال : يوشك أحدكم أن يكذبني وهو متكئ على أريكته يحدث
حديثي فيقول : يوشك ويحكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال استحلناه وما
وجدنا فيه من حرام حرمناه . ألا وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم
من شيء ما حرم الله . اهـ .



رجع في الجزء السادس ص ١٠٠

حدثنا عبد الله . حدثني أبي . حدثنا علي بن إسحاق . أنبأنا عبد الله . أنبأنا ابن لميعة .
حدثني أبو نصر أن عبيد الله بن أبي رافع حدثه عن أبيه عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال : لا عرف من يبلغ أحدكم من حديثي شيء وهو متكئ على أريكته
فيقول : ما أجد هذا في كتاب الله . اهـ .

وفل ابن عبد الله أيضا في كتابه جامع بيان العلم الجزء الثاني ص ١٨٨

(باب موضع السنة من الكتاب وبيانها له) .

قال الله تعالى ذكره : وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم .
الحج ١٦ . الجن ٤٤ . وقال : فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة
أو يصيبهم عذاب أليم . ٢٤ . التور ٦٣ . وقال : وإنك لتهدى إلى صراط
مستقيم . صراط الله . ٤٢ . الشورى ٥٣ و ٥٤ .

وفرض طاعته في غير آية من كتاب الله وقرنها بطاعته جل وعز . فقال
وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا . ٥٩ / الحشر / ٧ .

وروى عن عبد الرزاق قال : أخبرني الثوري عن منصور عن إبراهيم عن علقمة قال : قال عبد الله بن مسعود : لعن الله الواشحات والمستوشحات والمتنصصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله . قال : فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب . فقالت : يا عبد الرحمن بلغني أنك لعنت كبت وكيت ، فقال : ومالي لا ألعن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن هو في كتاب الله ! قالت : إني لأقرأ ما بين اللوحين فما أجده . قال : إن كنت فائرة ، لقد وجدته : أما قرأت ، وما آتاكم الرسول تخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، قالت بلى ، قال : فإنه قد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : قد أخرج هذا الحديث الإمام البخاري في صحيحه في كتاب

الأنساب (٧٧) باب المتنصصات (٨٤) بهذا النص .

حدثنا إسحق بن إبراهيم أخبرنا جرير عن منصور عن إبراهيم عن علقمة قال : لعن عبد الله الواشحات والمتنصصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله . فقالت أم يعقوب ما هذا ! قال عبد الله : ومالي لا ألعن من لعنه رسول الله . وفي كتاب الله ! قالت : والله لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدته ! قال : والله إن فرأيت له لقد وجدته ، وما آتاكم الرسول تخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ،

وجاء في إرشاد الفحول للإمام الشوكاني ص ٣١

قال الأوزاعي : الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب

قال ابن عبد البر : إنها تقضى عليه وتبين المراد منه .

وقال يحيى بن أبي كثير : السنة قاضية على الكتاب .

والحاصل أن ثبوت حجية السنة المضهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضروري

دينية ، ولا يخالف في ذلك إلا من لا حظ له في دين الإسلام .

وجاء في كتاب جامع بيان العلم لابن عبد البر الجزء الثاني ص ١٨٤

حدثنا خلف بن القاسم ، حدثنا ابن المفسر قال : حدثنا أحمد بن عيسى بن سعيد

القاضي ، قال : حدثنا داود بن رشيد قال : حدثنا بقية بن الوليد عن محفوظ بن المسور

الفهري عن محمد بن المنكدر عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

«يوشك بأحدكم يقول ههنا كتاب الله ما كان فيه من حلال أحلناه وما كان فيه من حرام حرمانه . ألا من بلغه عن حديث فكذب به فقد كذب الله ورسوله والذي حدثه ، اء .

وقال الإمام الشافعي في رسالته ص ٨٨ :

قال الشافعي : وما سن رسول الله فيما ليس لله فيه حكم ، فيحكم الله سته . وكذلك أخبرنا الله في قوله تعالى : « وإني لك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله ، ٤٢ ، الشورى ٥٢ و ٥٣ .

وروي عن رسول الله مع كتاب الله ، وسن فيما ليس فيه بعينه نص كتاب . وكل ما سن فقد ألزمت الله اتباعه ، وجعل في اتباعه طاعته . وفي العنود عن اتباعها معصيته التي لم يعذر بها خلقا . ولم يجعل له من اتباع سن رسول الله عذر . إنما وصفت ، وما قال رسول الله :

أخبرنا سفيان عن سالم أبو النضر مولى عمر بن عبيد الله سمع عبيد الله بن أبي رافع يحدث عن أبيه أنه قال : « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى ، مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول : لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه . اء .

قال ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم الجزء الثاني ص ١٩٠ :

والبيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين : بيان المجهل في الكتاب العزيز كالصورات الخمس في مواقيتها ووجودها وركوعها وسائر أحكامها ، وكيانه لمزكاة وحدتها ووقتها ، وما الذي تؤخذ منه الأموال ، وبيانه لمناسك الحج .

قال صلى الله عليه وسلم إذ حج بالناس : «خذوا عني مناسككم . لأن القرآن إنما ورد بحملة فرض الصلاة والزكاة والحج دون تفصيل . والحديث مفصل ، وهو زيادة على حكم الكتاب كتحریم نكاح المرأة على عمتها وخالتها وكتحریم الحمر الأهلية ، وكل ذي ناب من السباع ، إلى أشباه يطول ذكرها .

وقد أمر الله جل وعز بطاعته واتباعه أمراً مطلقاً بجملاً ، لم يقيد بشيء . كما أمرنا باتباع كتاب الله ، ولم يقل : وافق كتاب الله كما قال بعض أهل الزيغ ؟

العصر العظيم في تاريخ العالم

— ١ —

د. كافشيووس - جوتامو بودا - كزاندشت - فيث غورانس - من وجهة نظري كليفية

تأليف : د. ستانكا . تعريب : سحر طاعت زهران

« محاضرة خارج المنهج الدراسي أقيمت في جامعة هامبورج في التاسع عشر من -بتمبر- سنة ١٩٤٦ ، ويجب أن ينظر إلى ربط أصل نظريات هؤلاء الأربعة باستخدام الحديد والاستغلال السياسي كغرض بمحتاج إلى فحص وتعميق » .



مكتبة المخطوطات والكتب النادرة

لنأخذ لنا مبرح هو لعالم كله . ولكنه العالم القديم . ويمكن العصر هو النصف الأول من تاريخ العالم ، التاريخ القديم بأكمله ، وبعبارة أدق : عصر ما قبل المسيح . ثم لنسأل بعد ذلك أي رجال هذا الزمن كان أعظم شأنًا ؟ ولست نريد بالطبع أعظمهم قوة ، أو أكثرهم إزاقة للدماء وانتصارًا في الحروب . ولا في التدمير والتخريب ؛ وإنما نريد أعظمهم في تحقيق السلام . في الشعور العميق . في التفكير السامي ، والأعمال الصالحة . فإذا ما ابتدأنا ببلاد شروق الشمس في الشرق الأقصى ، فإننا سنذكر أولاً الحكيم الصيني الأعظم كافشيووس مفشي فلسفة الدولة لاكثر بلاد العالم سكانا . وإذا ما اضطلعنا الشمس في سيرها متجهة نحو الغرب ، فسجد أمامنا اسم معلم الإنسانية العظيم جوتامو بودا مؤسس أول دين عالمي .

أما في إيران فسيظهر أمامنا المعلم العظيم زردشت الذي دأ الناس والتقوى السماوية معاً للنضال ضد الشر في العالم . وأخيراً نجد في بلاد الإغريق بعض

الصعوبات : من يكون من بين مفكري هذه البلاد الانداز أعظمهم شأنًا ؟
سقراط ، أم أفلاطون ، أم أرسطو ، أم أبيقور ، أم زينون ؟ وهنا لن تترك
أعظمة الروحية على شخص بعينه ، فلن نستطيع أن نتحدث إلا عن مثل لقوة
لإغريق الروحية . ونكت بعد أبحاث قليلة ، وتردد قليل ، وبعد المقارنة
بينهم وبين الثلاثة الأوائل ، سنختار ولا ريب فيثاغوراس ، وهو الوحيد الذي
يمكن أن نضعه في مرتبة هؤلاء الثلاثة الأوائل (١) .

بعد كانوا عظماء ، وعظميتهم هي العامل المشترك بينهم ، ولكن هل ثمة عواس
مشتركة أخرى بينهم ؟ وماذا نعرف عنهم ؟

نأعرف ، ونعرف بالتحديد ، المكان الذي هموا منه : ويبدو من النظرة
الأولى أن ليس هناك شيء شائع بينهم ، بل إنه يحتمل وجود اختلافات وفوارق
كثيرة بينهم . نظرًا لأن الأماكن التي نشأوا فيها تباعد تباعدا شاسعا . وأما كن
ولاداتهم . . . وليس في ذلك ريب . كانت بعيدا بعضها عن بعض بحد كبير .
ولكنه يوجد نظام لافت للنظر في هذا البعد وفي توزيع هذه الأماكن ، فكل
مكان يبعد عن الآخر بمسافة قدرها ٣٠٠ ك . م . تماما ، وقد يظهر هذا التحديد
كأنه هو عارض لا معنى له . ولكن من الصعب أن نعتقد أن من الصدفة أن
يضم في كل مركز من مراكز الثقافة القديمة : في الصين وفي الهند وفي جنوب
غرب آسيا وفي اليونان حكيم عظيم ومعلم كبير ، كان له نفوذ قوى منذ آلاف
السنين . وإذا لم نجد في هذا النظام ظاهرة حكمية ، وعلامة لقانون هام في تقدم
نشر الروحي .

وبقي بعد ذلك الزمن : عصر نشاطهم : ومعلوماتنا هنا ليست دقيقة كل الدقة .
ولنا نستطيع تحديد تاريخ ولادة وموت واحد منهم غير كنفثيوس : فقد ولد
في عام ٥٥٠ أو ٥٥١ ومات في عام ٤٧٨ ق . م . وليست الأخبار عن فيثاغوراس
بهذه الدقة . وإن وجد تاريخ واحد عن حياته له بعض التأكيد : ذلك أنه ترك بلدته

(١) كنفثيوس ، جوتامو بودا ، زردشت .

ساموس حوالى عام ٥٣٠ ق. م.، وذهب الى إيطاليا و الى كروتونا حيث أنشأ
تخلته المعروفة، وحيث أمضى أخصب سنى حياته. ومن هنا يفترض الباحثون أن
فيثاغوراس قد ولد عام ٥٧٠ ومات فى عام ٥٠٠ ق. م. بالتقريب. وعلى ذلك
يمكن اعتباره معاصرا لكشفسيوس بأدق معانى هذه الكلمة. أما تاريخ جوتامو
ففيه من الشك أكثر مما فى سابقيه حيث لا يوجد تاريخ يمكن أن يؤخذ
نقطة بدء.

كما أنه يوجد اختلاف كبير فى تحديد زمن نشاطه وإزاحة التواريخ. ولكن العلماء
أجمعوا بعد بحث وتدقيق على احتمال ولادته فى عام ٥٦٠ ق. م. وموته فى عام
٤٨٠ ق. م. وقد يزيد كلا التاريخين أو ينقص عشر سنوات. وعلى ذلك يكون
جوتامو قد عاش فى نفس الزمن الذى عاش فيه كشفسيوس وفيثاغوراس.
ولا يمكننا أن نتجاهل أن هذا العصر الزمنى لاقت للنظر خاصة فيما يتعلق
بكشفسيوس وجوتامو، وعلينا أن نأخذ على أنه أهم تصادف فى تاريخ العالم كله.
ولكن يمكن أن يكون هذا العصر أكبر من ذلك. فعلى الرغم من أن عصر
زردشت غير محدد بالكلية، وعلى الرغم من أن آراء الباحثين تختلف فيه اختلاف
كبيراً. فليس لنا أن نصدق الكتاب الأغريق الذين اعتقدوا أنه كان يسبقهم
بآلاف السنين. وحتى رأى القائل إن زردشت كان يعيش قبل عصرنا هذا
بألف عام، يجب اعتباره رأياً باطلاً. ويميل جل المؤرخين إلى اعتباره عام ٧٠٠ ق. م.
أكثر السنين احتمالاً، وحتى فى هذه الحالة، أى منذ ٢٥ قرناً، يمكننا أن نلاحظ أنه
على أنه معاصر - بأوسع معانى هذه الكلمة - للثلاثة السابقين. فليس لنا أن ندخل
إلى عصرهم بالذات. فإنه ينتمى إلى زمنهم التاريخى.

ولكن هذا التاريخ ٧٠٠ ق. م. قد لا يمكن أخذه على أنه الكلمة الأخيرة
للعلم. فمثلاً يرى أوتران، وهو أستاذ معاصر، أن التاريخ الأكثر احتمالاً لحياة
زردشت هو الفترة التى بين ٦٦٠ و ٥٨٥ ق. م.

(١) انظر كتاب حياة بوذا: ١ ج. توماس، لندن ١٩٢٧.

(٢) شارل أوتران: ميثرا وزردشت وما قبل التاريخ للمسيحية.

Charles Autran: Mythra, Zoroastre, et la préhistoire
aryenne de Christianisme, 1935.

وفوق ذلك فقد ساد فديما أن زردشت كان معاصرا لوالد الملك الفارسي دارا. وذكّر ذلك المؤرخ الروماني اميانوس مارسيلينوس^(١) أما البارسيون وهم الزردشتيون الذين يعيشون في الهند، فيقصون نفس الخبر، ويميل المؤلفون المحدثون إلى قبول هذه النظرية. ووالد دارا كان يسميه المؤرخون الإغريق هستاسب Hystaspes: وجاء في تاريخ زردشت أن أول المؤمنين به والحامين له هو الملك هستاسب Vistaspa وهو اسم قريب من الأول، وتوجد كتابة على صخور المشهور بهستون، Behistun^(٢) تدل على أن اسم والد دارا هو هستاسب وهو نفس اسم حامي زردشت. وهذا اتفاق عميق المعنى يؤكد حقيقة: هي أنه في نفس هذه الكتابة الحفرية عن دارا توجد أول معلومات مباشرة، إن لم تكن عن زردشت، فمن عقيدته: فإن الكتابة تذكر اسم أهورا مازدا باعتباره موجودا أعلى. وقد دفعت هذه الحقائق بعض الدارسين إلى أن يحددوا بين شخصيتي هستاسب الواردة في الزند أفسنا، وبين هستاسب هستاسب والد دارا. ويوجد بحث قيم عن هذا الموضوع في مقال لارنس هارزفند انتهى منه إلى أن التماثل بين هستاسب المذكور في الكتابات الحفرية وبين هستاسب المذكور في الزند أفسنا هو تماثل كامل. فإن الاسم واللقب والزمن والحاشية، كل هؤلاء ذكروا بالضبط، وإن تضابفهم فوق كل شك^(٣).

ولو قاسمنا هارزفند رأيه، لرأينا أن دارا قد تولى الحكم عام ٥٢١ ق. م. وكان زمن نشاط زردشت هو الوقت الذي كان أبو دارا لا يزال فيه على قيد الحياة. أي منتصف القرن السادس قبل الميلاد: فيمكننا أن ننظر إليه كمعاصر للحكام الثلاثة الأول بالمعنى الضيق لهذه الكلمة، ومن هنا تزداد المعاصرة الثلاثية إلى معاصرة رباعية تضم أربعاً من أعظم الأحداث الروحية في تاريخ

(١) Marcillinus: "addidit Zoroastras 'diende".

Hystaspes rex prudentissimus, Darei pater".

(٢) فرية في فارس على حفورها كتابات حفرية تمان من كتبها هدي رونبول

١٨٤٦ (المغرب).

(٣) لارنس هارزفند «دراسة في الآثار الإيرانية» ١٩٢٩ ص ١٨٥.

البشرية . ومن المؤكد أن المؤرخين حتى وقتنا هذا ، يلاحظون هذه المجموعات السدنيّة لهذه السكواكب الروحية ، ذات القيمة الأولى في روحية البشر ، وأنهم على الأقل لم يهتموا بها الاهتمام الكافي .

وإن تعاصر هؤلاء الأعلام الأربعة ليعبر من القرن السادس في م . عظيم ، ولكن عظمته يمكن أن تقدر التقدير اللائق به إذا نظرنا إلى تأثير نظرياتهم في العصور اللاحقة : وأبسط هذه التأثيرات كان تأثير تعاليم فيثاغوراس على أيتحال ، إذا نظرنا إليها من الجانب الخارجي ، فهو قد جمع تياره من أتباعه المخلصين في أقروطونا ، وفي غيرها من مدن إيطاليا ، كونهوا فرقة ريبية أو أخوة روحية أخلصت لشخص أستاذها : وبعد الخلل الفروقة وطردها من أقروطونا ، وبعد موت فيثاغوراس ، بقيت جماعته حيا إلى مائة وخمسين سنة ، ولم تخف إلا في أواخر القرن الرابع ق . م . ومع ذلك فقد ظل تيار هذه التعاليم ومؤسستها باقيا ، إذ نرى الفيثاغورية أتت من جذور في القرن الأول ق . م . ، والقرن الأول الميلادي في هيئة الفيثاغورية الجديدة ، التي أثرت تأثيرا كبيرا على الأفلاطونية وظلت باقية باسمها حتى القرن السادس الميلادي ، أي بعد ألف سنة من موت صاحبها . بل إننا نجد آثارها باقية يومئذ في المسيحية ، وعندها ألا ندري أن فيثاغوراس كان أول من علم خلود الروح في أوروبا .

أما تأثير زردشت فمكان أعظم وأكبر ، فقد أوجت تعاليمه دينا جديدا ظل يسيطر على إيران حتى دخلها الإسلام في القرن السابع الميلادي ، بل إن اضطهاد الحكام الجدد لم يستطع أن يقطع نهائيا العقيدة الإيرانية الوطنية ، وأن يحتد ذكرى مذهبها . وما زالت توجد حتى اليوم جماعات صغيرة في إيران والهند تحيي ذكرى زردشت بعد أن احتفظت بها خمس وعشرين قرنا . وحدث نفس الأمر على صورة أكثر اتساعا لنظرية كنفشيوس التي عبادت بعد عدة قرون يعمرها الاضطراب ، فلسفة تسود الدولة ، أو دين الدولة الصينية بمعنى آخر : وتبجيل اسم كنفشيوس يحافظ عليه من كل الشعب الصيني . وكان تأثير جوده مو أعظم من ذلك كله : فإن البوذية لم تغز قلوب وأرواح شعب واحد خصب . وإنما هي قد غزت شعوبا مختلفة موزعة في أرجاء آسيا المتباعدة ، فصارت

البوذية أول الأديان العلمية المنتشرة . وإن انتشار البوذية السري وغزوها الموفق لدول مختلفة ، كبيرها وصغيرها ، لحادث يبعث على الدهشة ، ويظهر لنا مقدار النفوذ الروحي لكلام بوذا . وإذا حذفنا السؤال عن تأثير البوذية المحتمل على أصل المسيحية (١) ، فإن خمسة ملايين من أتباع هذا الدين — في أيامنا — علامات نهضتهم ونفوذهم المزايا حتى على البلاد غير البوذية ، لحير دليل على حيوية تعاليم جو تامو الدافقة .

وإن إذ نقف من هذا البحث "تقصير عن مدى تأثيرهم ، نرى أنفسنا مضطرين إلى الاعتراف بأنه ليس من بين رجال العصور القديمة إلا أربعة أو ثلاثة على الأقل لم يلبسوا من الإنسانية ، بل إن العالم ليزداد لهم تقديراً واحتراماً عصرنا . ونظهر لنا هذه الحقيقة عظمتهم الحقيقية ، وعظمة عصرهم الذي كانوا يعيشون فيه . ومن ناحية أخرى فإن هذا التأثير يفضح عن السمات الحقيقية لروح الإنسان الذي تأثر تأثراً عميقاً بهذه التعاليم ، حتى إن صداها ليردد طيلة ألفين ونصف من الأعوام . ونحجب أن نعرف بوجود اتفاق عميق بينهم : فإن كان كذلك فإن فيه هذه التطورات يعني إلى حد ما فهماً لجوهر الروح الإنساني .

(يتبع)

الحلم والجهل

لئن كنت محذراً إلى الحلم	إلى الجهل في بعض الأحابيز أخرج
وم كنت أرضى الجهل خدفاً وصاحباً	ولكنني أرضى به حين أخرج
فإن قال قوم إن فيه مباحة	فقد صدقوا والذل بالخر أصبح
ولي فرس للحلم بالحلم ملجأ	ولي فرس للجهل بالجهل مسرح
فرس شاء تقويمى فإني مقصوم	ومن شاء تعويمى فإني معوج

(١) بحث هذه المسألة بحثاً كاملاً ، ونرى أن السؤال الآن أصبح : إلى أي حد أثرت البوذية على المسيحية ؟ ، وكيف حدث هذا ؟ ، بدلاً من السؤال القديم : هل أثرت البوذية على للمسيحية أم لا ؟ وهو سؤال أصبح مبتذلاً باطلاً .

في أدب المرأة :

الجمال والصدق

لفضيلة الأستاذ كامل محمد عجلاز

المدرس بمعهد القاهرة

إذا وعت المرأة بعض الجوانب المشرقة من ماضى أديها ، كان لها منه ما يقوى
معنوياتها ، ويدفعها في طريق الأمل النافع ، والمثل الصالح ، والوجهة المجدية لها
ولابنائها ، والنافعة لوطنها .



وأغلب ما روى في كتبنا الأدبية المشاركة على جبين الأزمان ومختلف العصور ،
يشهد كله بوضوح أدب المرأة ، ويكشف فيما نسب إليها عن عاطفة إنسانية شريفة
وتزهو بالجمال ، والإخلاص ، والوفاء ، والركة البالغة .

والوان الأدب النسوى تغايت بحسب البيئة ودواعي الحياة وحبها مع الأحداث
السياسية والاجتماعية ، منها القوى ومنها الضعيف ، وفيها الفرح وفيها الحزن ،
وعندها المؤمل وعندها اليائس ، وقد توزع بين المنظر والمصور ، وحاملاً في
ثوب الحكمة والمثل ، والأقصوصة والأحدثة .

وحفظت لنا كتب الأدب وأسفار النوادر ومجائف الملح ومختارات
الأخبار ، بعض ظلال من حوار النساء وجدلهن ، ومواقفهن في الحروب ، وفي
سياسة الرأي ، والتفاخر ، والتفاضل ، والدفاع عن الحقوق لدى الخلفاء والقادة ...

كما خلدت الكتب لكثير من السيدات المسلمات ، ومن قبلهن للأعرافيات ،
خطباً احتفل بها الرواة ، واعتزت الكتب ، وازدانت بيلاعتها وصراحتها وصراحتها
وصدقها وقوتها . . . وآنسنا فيما بقي لنا من آثار المرأة ، روح الزوج المخلصة ،
والأم العطوف ، والأخت المفاخرة ، والابنة المعترزة بقوة قبيلتها ، وجهد عشيرتها ،
ودفاع قومها وانتصار جانب أهلها وحماها .

وإذا كان أدبنا يمتد فنه ، وتتأصل منابته ، وترجع إلى أعماق سميقة ، فإننا
لا ننسى ، كلما ذكرت مجامع الأدب وأسواقه ، مثل (سوق عكاظ) .
لا ننسى حظ المرأة ونصيبها في هذه المدارج ، كما لم ينسها التاريخ إذ خلدها
ما خلفت من كلم ، وما جودت من شعر ، وما حسنت من قول .

نعم : كانت النساء ترحل في مواسم الأدب مع الأهل وذوى القربى إلى
الأسواق : وبعد انطواء صفحات التجارة والتشاور في أمر الثارات والتفاخر
بالأنساب ، نجد المرأة تشترك في المعارك الأدبية ، وتشترك في الجدل البياني
والإفصاح البلاغي ، بما يعد في المكانة العالية ، والمنزلة المرموقة ، والقدر المحجب
الجميل النافع في موائد الرأي الأدبي ، وخاصة الشعر الذي كان عدة للعربي
والعربية ، يشرح قضية السياسة ، ويعبر عن أهداف الجميع وأمل العشائر ، ويكافح
في كل مأزق يقع ، أو مأزمة تجر ، أو خلاف ينشب .

ومن النساء اللاتي شهدن السوق الأدبية ، وكان لهن القدح المملئ : (الخنساء)
سيدة شاعرات العرب غير مدافعة ؛ ولقد حكم لها النابغة الذبياني حين أنشدته
قصيدتها في أخيها ، وفضل شعرها وأشار إلى الأعشى ، وقال لها : لولا أن
أبا بصير أنشدني قبلك ، لقلت إنك أشعر من بالسوق هذا العام .

• • •

حتى إذا أشرقت شمس الإسلام ، ورفعت مكانة المرأة ، وتميز كيانها العائلي
والمنزلي ، وقفت المرأة عند الحد الذي رسمه الإسلام لها ، ورضيت بنصيبها
ورسالتها القويم .

• • •

غدرت بنا بعد التصافى وختنا وشر خلال في الرجال خؤونها
وضيعت سرا كنت أنت أمينة ولا يحفظ الأسرار إلا أمينة

وينسب لأعرابية في التعلق بالوطن ، وقد هفت بأيات وكانت تسوق
أعزاً ترعاها فسألها أحد الرجال عن مدرجها وملعب صباها ، فقالت متمدحة
ذاكرة وطنها :

بلاد بها حل الشباب تمنامي وأول أرض مس جلدي ترابها

ولم يأت لأروى أياتاً لعربية تسمى (ميسون بنت بحدل) وهي أم يزيد بن
معاوية ، تشوق الى وطنها ومرقعتها الأولى ، ومعهدها ملاعبها ومالك لداتها
في البادية . تقول :

لبيت تخفق الأرواح فيك أحب الى من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني أحب الى من لبس الشفوف
وأكل كُثيرة في عمر بيتي أحب الى من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فج أحب الى من نقر الدفوف
خشونة عيشي في البدو أهوى الى نفسي من العيش الطريف
فما أبغى سوى وطني بدبلا وما أبهأ من وطن شريف

ومن الأيات المأثورة عن فتاة (جديس) في تمجيس قومها :
فللين خير من مقام على الأذى وللبوت خير من مقام على الذل

والذي لا شك فيه أن المرأة - وخاصة الأم العربية - هي التي كانت تفتن

ابنها أصول الأدب وتمده بقوى البيان : وكما ترضعه بلبنها كانت تسقيه من معين الشحم ونيل الأخلاق وكريم الطباع ، وتسليه الى والده فتى شب على جليل الخصال : وما على الأب إلا أن يعلمه الرماية وَيَفْتَتِلَ سَاعِدِيهِ ، ويزج به في ساحة الرجولة وقوة البأس ، والحفاظ على العيش كريماً .

وليس معنى ذلك أنها كانت تترك ولدها بعد أن يشب عن الطوق ، ويقف إلى جنب والده وفي وسط عشيرته ... لا ، بل كانت تقف منه موقف الناصح والموجه والمشجع .. ومن ذلك حديث (أسماء بنت أبي بكر الصديق) المسماة ذات النطاقين ، حين حوَصِرَ ابنها عبد الله في مكة المكرمة ، وأحاط به جند الحجاج من كل جانب وتولى عنه أنصاره وجنده ، فرّ منهم من فر ، وقتل من قتل . وبقي فريداً وحيداً ... فدخل على أمه (أسماء) وقال لها : إنه لم يبق إلا القتل ! وكانت حينذاك كبيرة مكفوفة البصر . فقالت له : أجزعا من لقاء الله ؟ فقال كلا ، ولكنني أخاف إذا قتلت أن يشتكوا بي . فقالت : إن الشاة إذا ذبحت لا تبالى بسلخها ، ثم انقلبت إلى مصلاتها .

مركز بحوث كويتية للدراسات الإسلامية

وقالت سيدة : وقد دفعت بابنها إلى مطلب يهمها ويهم أسرته وقبيله .

يا بني ، كان الله صاحبك في أمرك ، ووليّ نَجْحِ طَلِبَتِكَ . امض لا أشمت الله بك عدواً ، ولا أرى محييك فيك سوءاً . وقالت امرأة أخرى تنصح ابنها :

يا بني إن سؤالك الناس ما في أيديهم من أشد الافتقار إليهم : ومن افتقرت إليه هنت عليه ، ولا تزال تحفظ وتكرم حتى تسأل الناس وترغب . .

ولدينا مآثورات عن المرأة تشهد بأنها كانت ، ولا تزال ، حريصة على تنمية كرائم الطباع ، وتدفع بأبنائها الى الموارد الكريمة السامية ، ولا تقبل من شبلها أن يعطى الدنية في نفسه أو في موقعه ، أو يضرع إلى الرجال ، أو يخضع أمام مطالب الحياة . فيقدم يده صاغرة يستجدي العون ، أو يستمد من غيره مع امتنان أو إذلال .

والمثل الكريمة والتوجيهات الصالحة في سيرة النساء أكثر من أن تحصي ؟

مدرسة النقد الادبي

بقلم فضيلة الاستاذ الشيخ عبد السلام أبو النجا سرحان
المدرس بكلية اللغة العربية

مدرسة النقد الادبي :

لقد عذبت الامة العربية — أكثر من سواها — بنقد آثارها الادبية ، ومن
جيدها من رديتها : ذلك أنها أمة كلام وفصاحة ، تنو عواطفها للبلاغة ، وتهفو
قلوبها لسحر البيان .

ولذلك اهتمت بالنقد ، وفصل الطيب عن الخبيث ، ليبقى الاول على الازمان ،
ويرمى الثاني في زوايا النسيان . كما أشهد د. عبد الحزاعي :

يموت ردى الشعر من قبل أهله وجيده يبقى وإن مات قائله

وقد نشأ عن هذا الاهتمام حركة مباركة غايتها الارتفاع بالادب الى أسمى
مكان ، وعدتها البحث والتنقيب ، ثم الحكم والتعقيب ؛ ويطلق أدباء العصر
الحديث على هذه الحركة ، مدرسة النقد الادبي .

وقد كان لهذه المدرسة فصول وتلامذة وعمداء اختلف عددهم قلة وكثرة ،
باختلاف العصور السياسية والنهضات العلمية والادبية ، والذي نرجحه أنها نشأت
منذ نشأ الادب ، لأن النقد فطري في الانسان يحاول أن يصل به الى غاية الاحسان .
وسنقدم تاريخاً موجزاً لتلك المدرسة لنقف على الأطوار التي قطعتها في العصور
المختلفة حتى نضجت ثمرتها واتسعت رقعتها هذا الاتساع الهائل أيام العباسيين .

في العصر الجاهلي :

ففي العصر الجاهلي كان الشعر أهم فنون الادب ، فتناوله يد التشريح ؛ يذبح
النقد الحاد ، وساعدت مساعدة جديدة في إخراجه بهذا الثوب القشيب .

والمعقول أن يكون للنقد أثر هام في فضج الشعر العربي ، إذ كانت فصول مدرسته منتشرة في بقاع الجزيرة العربية ، متثلة في أسواق العرب ورحلاتهم الطويلة ، ومجتمعات الحج ، والمعارك الحامية بين القبائل .

ولقد كانوا يحتفلون بنبوغ الشاعر ، ولا يمكن أن يأتي هذا النبوغ فجأة ، بل لابد أن يكون بعد درس ونقد وتمحيص ، وبعد أن يظهر الشاعر في مجالات النقد حتى يعترف له الشعراء بالتبريز والتجلية : ولا نستطيع أن نغمط قريشا حقها في نقد اللغة الأدبية وتهذيبها ، ففضلها في هذا واضح مشهور : قال أبو نصر الفارابي في كتابه ، الألفاظ والحروف ، : كانت قريش أجود العرب انتقادا لأفصح الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسجوعا وأبينها إبانة عما في النفس (ص ١٤٧ الشهاب الراصد) .

ولو صح ما رواه ابن عبد ربه (ص ١١٩ ج ٦ العقد الفريد) ومن تبعه في شأن تعليق بعض القصائد بأستار الكعبة لأن العرب تخيرتها من الشعر القديم ، لكان ذلك أكبر دليل على انتشار النقد الأدبي وشهرته في الجاهلية : ولقد كان بعض الشعراء يبقون القصيدة عنده حولا لتهذيبها وتقيحها (ص ٧ ج ٢ البيان والتبيين و ص ١٠ طبقات الشعراء) وهذا العمل من صميم النقد الأدبي .

ومن ميزات النقد في هذا العصر أنه كان يعتمد على الفطرة ووحى الخاطر ، وتقدير اللفظ والمعنى ، وقوة التأثير ، وملاحظة كل عيب يمكن أن يمس القصيدة من حيث المعنى والاستعمال والأوزان والقوافي . وكان ذلك عاما منتشرا بين الشعراء وسواهم : ولكن عصر التدوين لم ينقل لنا من مظاهر النقد في الجاهلية إلا تنقا مبثوثة في بطون الكتب ، ومقتضبات مذكورة في سجلات الأدب .

ويرى الباحث أن النقد الجاهلي كان في الغالب سديدا لأنه نتيجة العرض على الذوق الأدبي الخالص ، ولم تكن قواعده وقضاياه العلمية قد عرفت بعد .

على أن مواطن النقد في الشعر والأدب كانت قليلة جدا بالنسبة للمصور اللاحقة ، ولهذا لم تكن المدرسة كثيرة الفصول والتلاميذ آنذ ، لأن الأسلوب الفطري كان يحكم الأدب العربي في جميع الأصناف .

وكان التابعة للذياني أكبر عمدة المدرسة في الجامعة ، فكانت تضرب له
قبة حمرام في سوق عكاظ ويأتيه الشعراء فينشده كل منهم شعره ليصدر حكمه
فيه . أتاه الأعمى مرة فأنشده ، ثم حسان فأنشده : فقال : لولا أن أبا بصير
أنشدني آنفا لقلت : إنك أشعر الجن والانس ! . قال حسان : والله لانا أشعر
منك ومن أبيك ومن جدك ! فقبض التابعة على يده ثم قال : يا ابن أخي ، إنك
لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأني عنك واسع
ثم اتجه إلى الحسناء فأنشده ، فقال : ما رأيت ذا متانة أشعر منك ، قالت :
ولا ذا خصيتين ! (ص ٣٣ الشعر والشعراء) . وقد ذكر قدامة نقده لحسان
في قوله :

لما الجففات الغر يدعن بالضحي وأسيفنا يقطرون من نجدة دما
بقوله : أكرت جفانك وأقللت أسياfk ثم رد على هذا النقد (ص ١٨
نقد الشعر) .

ومن أساطينها الذين طوواهم البين قبل الأوان طرفة بن العبد : روى المرزباني
أن المسيب بن علس مر بمجلس بني قيس بن ثعلبة فاستشدوه فأنشدهم بعض شعره
فلما بلغ قوله :

وقد أنتمى إهم عند احتضاره بناج عليه الصَّيْعَرِيَّةُ مُكْدَم
قال طرفة — وكان صبيا صغيرا — : استنوق الجمل ! (ص ٧٦ موشح) .
وهذا يدل على أن النقد الجاهل كان فطريا يلحظه الصغار والكبار ، لأن
البلاغة طبيعة لهم والبيان سليقة فيهم .

ومنهم ربيعة بن حذار الأسدي ، وقد ذكر المرزباني نقده لشعر
الزبرقان بن بدر وعمرو بن الهم وعبد بن الطيب والمخيل السعدي ، فليراجعها
من شاء (ص ٧٥ موشح) .

في صدر الاسلام :

وقد نزل القرآن باللسان العربي المعروف ، ولكن بأسلوب غير مألوف ،

ورأى الناس منه نهجا جديدا، وتعبيرا فريدا، بهر البلاغاء وأعجز الفصحاه، وسمعوا به نظما طريفا، جمع الى السلاسة دقة التعبير، وإحكام النسيج، وجمال السبك، فأخذوا بقوته، وسجدوا لبلاغته، وخشوا رءوسهم أمام شدة أسره وعظمة أسلوبه، ثم حاولوا أن يحاكيوه فشرعوا يغترفون من بحره، وينهلون من فيضه، ويقبسون من نوره، حتى نشأ لهم أسلوب جديد هذه به القرآن وغيره به نهج البيان. وفي هذه الأثناء كان الاسلام يطوى بين جناحيه كثيرا من حواضر العجم وبمالكها، فدخل في حوزته أكثر سكانها، واندفعوا يتعلمون القرآن ويدرسون شرائعه وأحكامه لأنه الدستور الخالد لدينهم الجديد.

وإذ كان القرآن عربيا، كان لابد من تعلم العربية لغة الدين ولسان الفالحين، والمغلوب مولع أبدا بالاقتراء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته ووسائل أحواله وعوائده كما قال ابن خلدون (ص ١٤٧ مقدمة)، والناس أبدا على دين ملوكهم وحكامهم.

هذا بدأت الحاجة تظهر إلى تلك المدرسة، فأخذت القضايا الادبية تنهال على محكمة النقد، وارتفعت بعض الشكاوى من المخالفين لقانون البيان العربي، فبدأ العمل في وضع قوانين الصياغة وقواعد اللغة العربية. وقد تأثر الأسلوب الأدبي في هذا العصر تأثرا واضحا، فجذدت تعابير حديثة، وماتت عبارات وألفاظ قديمة لم يرتضها الإسلام أو لم تنسج مع الأسلوب المذهب الذي أوجده القرآن الكريم والبلاغة النبوية السامية، وترتب على ذلك أن جاء كلام الإسلاميين عموما أعلى طبقة في البلاغة وأدواقها من كلام الجاهليين منظومهم ومشورهم (ص ٥٧٩ مقدمة).

والسبب في ذلك - كما قرر ابن خلدون - أن الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما، فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصنى رونقا وأرصف مبنى وأعدل تنقيفا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة، قال: وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والبصر بالبلاغة (ص ٥٨٠ مقدمة) ويتفق النحالي في هذا الرأي مع ابن خلدون (ص ٣ ج ١ يتيمة الدمر).

ومن عملاء هذه المدرسة حينذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقد منح

الله بصيرة نفاذة الى الاعماق، وفكرة نقادة في أوسع الآفاق، وكان صلوات الله وسلامه عليه سيد البلغاء وإمام الفصحاء. سئل مرة عن زهير فقال: إنا قد سمعنا كلام الخطباء والبلغاء. وسمعنا كلام ابن أبي سلى، فما سمعنا مثل كلامه من أحد (ص ٥٥ ج ١ زهر الآداب)، وقال صلى الله عليه وسلم في امرئ القيس: إنه أشعر الشعراء وقائدهم الى النار (ص ٧٦ ج ١ عمدة).

ومنهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. والذي يقرأ حكومته بين النجاشي وبنى العجلان (ص ٢٠٢ ج ١ بيان) أو بين الخطيئة والبرقان (ص ٣٩ ج ١ ديوان المعاني) يأخذه العجب من قوة إدراكه وحسن توسله في معاني الشعر، لإخراجها عن الهجاء. ولقد حكى الجاحظ في رواية هذه الاخبار: أن عمر كان أعلم الناس بالشعر. وقال الجهمي: كان عمر لا يكاد يعرض له أمر إلا استشهد فيه بيت شعري (ص ٢٠٤ ج ١ بيان) ولكنه مع ذلك كان يفيض التعرض للشعراء ويكل الأمر الى حسان بن ثابت وأمثاله ممن تهون عليهم سباهم؛ فإذا سمع كلامهم حكم بما يعلم. ويكون قد خلع بعرضه سليما. قال مرة لابن عباس: هل تروى لشاعر الشعراء؟ قال: ومن هو؟ قال: الذي يقول:

ولو أن حمدا يخذ الناس أخلدوا
ولكن حمد الناس ليس بمخلد
قال: ذاك زهير. قال: فذاك أشعر الشعراء. كان لا يعاقل في كلامه، ولا يتبع حوشيه ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه. (ج ١٠ ص ٢٨٩ أغاني دار الكتب).

ومنهم حسان بن ثابت. وكان عمر يحكمه في الخصومات الأدبية (ج ١ ص ٣٨ عمدة). سئل مرة: من أشعر الناس؟ فقال: رجلا أم حيا؟ قيل: بل حيا. فقال: هذيل (ج ١ ص ٧١ عمدة).

ومنهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. سئل مرة عن امرئ القيس، فقال: رأيته أحسنهم نادرة، وأسبقهم بادرة، وإنه لم يقل لرغبة أو لرغبة (ج ١ ص ٧٧ عمدة). وهذا يدل على إدراك صادق لمعنى الفاعرية، وبفضله - كرم الله وجهه - وضع أبو الأسود الدؤلي قواعد النحو (ص ٦٠ الفهرست) حين بدأ اللحن يطل برأسه من خلال الحياة الجديدة. وبهذا خضت مدرسة النقد الأدبي خطوة جديدة الى الامام.

التعريف بالعالم الاسلامي

امارة الكويت الاسلامية

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي
المدرس بمعهد القاهرة

الحالة الاقتصادية :

تعتبر التجارة الركن الأعظم لتقدم البلاد : لأن الكويت قاحلة ، لا زرع فيها يغنيها عما سواها ، وأهم بلد يتجرون معه هو ، البصرة ، إذ يستصدرون منها القمح والشعير والتمر والخضر والفواكه . وكذلك اتخذوا بغداد سوقاً لتجارة اللؤلؤ : وقد حدثت بين الكويت ونجد منازعات طويلة حول التجارة ، إذ رأى جلالة الملك عبد العزيز آل سعود عاهل المملكة العربية السعودية لبعض الأسباب أن يمنع رعيته من الاتجار مع الكويتيين . ثم تم الاتفاق أخيراً بين حكومة الكويت وعاهل الجزيرة على تنظيم التجارة بين البلدين وتكوين نجد من الكويت بمعاودة تكفل حقوق الطرفين : وكان ذلك في سنة ١٩٣٩ م .

وفي الكويت من الصناعات : الحياكة والتجارة والحدادة والصياغة ، وصنع السفن الشراعية ، حتى إنهم كثيراً يبنون سفناً تسع الواحدة منها ستة آلاف من قواصر التمر ، أي ما يقرب من خمسمائة طن ! .

وليس للكويت من الحاصلات أو الصادرات ما غيرها من الاقطار الكبرى ، فهي ليست زراعية ولا صناعية ، ولذلك تقتصر على تصدير الدهن والصوف ، وفراء الثعالب والبهائم ، وفرائد اللؤلؤ . وقد كانت تجارة اللؤلؤ في الكويت إلى عهد قريب هي أهم مصدر للربح ، وكانت الكويت تعرف به . ولكن أسعار اللؤلؤ اليوم قد انضمت ، وسوقه قد كسدت : وذلك بسبب مزاحمة اللؤلؤ الصناعي الذي ابتكره اليابانيون . وقد حدثني صديقي الأستاذ عبد العزيز حسين الكويتي أن في الكويت عائلات كبيرة ، كانت معروفة بالثراء والنعمة ، ولكنها نكبت نكبات قاسية من جراء هبوط أسعار اللؤلؤ بسبب هذه

المزاحمة التجارية ، وأن والده كان من تجار اللؤلؤ في الكويت ، وقد خسر في هذه التجارة مبالغ طائلة من أثر ذلك الانقلاب .

وقد استبدل كثير من الغواصين وتجار اللؤلؤ بسفن الغوص سفنا كبيرة يستخدمونها في التجارة بين الكويت وسواحل الهند ، وهي تدر مبالغ ضخمة على الرغم من الأخطار التي تصادفها . وعلى ذلك يصح أن نقول إن التجارة قد احتلت الموضع الذي كان يحتله اللؤلؤ قبل عشر سنوات . ومع هذا فلا تزال للؤلؤ مكانته ، ولا يزالون يفحصون عليه باحثين منقبين .

وليس استخراج اللؤلؤ عملا سهلا يطيقه كل من أراده أو حاوله ، بل له نظم خاصة وأوقات معينة معروفة : ولغوص على اللؤلؤ رجال مدربون ، وسفن مدربة ، ولكل واحد في السفينة وظيفة وعمل ، وهم يتجهزون بالطعام والشراب والسياب ، ويخرجون للبحث عنه . فيقضون في ذلك أياما عدة : وللغواصين على اللؤلؤ هناك زعيم لا يرجعون إلى وطنهم إلا عندما يصدر أمره إليهم ، فإذا انتهت المدة المعينة لهم من قبل حاكم البلد ، أخذوا ينتظرون الإشارة من زعيمهم ، وهي إطلاق مدفع يشور من سفينة ، فإذا سمعوا دوى المدفع تركوا عملهم ، وعادوا إلى أهلهم ، فإذا ما شاهدوا الكويت ولاحت لهم قصورها ، أطلقوا المدافع شكرا لله على رجوعهم إلى وطنهم سالمين غانمين . . .

ومن لطيف ما يذكر هنا أن الغواصين يقصون أمورا غريبة يشاهدونها في البحر ، فيتمولون إنهم يرون في القاع كهوفا عظيمة ، وغابات مظلمة ، وكشانا مرتفعة . وجبالا عالية ، وبعضهم يغلو في الإغراب فيزعم أنه شاهد في القاع رجالا ونساء من الجان بين صخور البحر وكهوفه ، ويتبين لكم ما في بعض هذه القصص من بعد عن الحقيقة حينما تعرفون القصة الطريفة التالية .

حدث أحد المهرة من الغواصين عن نفسه ، قال : كنت مع أصحابي يوما في مغاص اللؤلؤ . فنزل أحدهم إلى البحر ، ولم تكد تظا رجله الأرض حتى صعد إلينا خائفا مرعبا ، وأخبرنا بأنه شاهد امرأة من الجان جالسة في القاع وعليها عباءة سوداء ، وذكر لزيادة التأكيد أشياء من أوصاف العباءة ، فرأى أحد

إخوانه أن ينزل ليتحقق الخبر ، فجرى له مثل ما جرى لصاحبه ، ثم نزل الثالث والرابع وهكذا ، حتى فعل ذلك جميع من كان في السفينة ، وكلهم انفقوا على صدق ما قاله الأول ، فلما رأيت الكل قد أضربوا عن العمل بسبب تلك الحادثة رأيت أن أكشف الحقيقة بنفسى . ولكننى عند ما نزلت وجدت الأمر كما قالوا فدهشت وأصابنى من الرعب ما كاد يضطرني إلى الخروج ، غير أن نفسى أبت على أن يتحدث الناس عني بأننى جبان ، فصممت على استجلاء الحقيقة مهما كانت النتيجة ، فأقدمت على الجنية ، ولويت يدي عني عنقها بكل قوتي ، وقد أغمضت عيني ، فما أشعر إلا بالدم يجرى من يدي ، ففتحت عيني ، والصخر يصدمني صدمة عنيفة . فرأيت أنني قد صدمت بصخرة قد تلبست بعباءة . . . ولا تسئل عن فرحى عند ما عرفت الحقيقة . . . ولكننى أردت مداعبة أصدقائي ، فلبست العباءة وخرجت عليهم متخفيا بها ، فلما رأوني رموا أنفسهم في البحر ، وتركوا السفينة بما فيها ، إذ اعتقدوا أن الجنية قد قضت على ، وخرجت إليهم لتفرض عليهم أيضا . ولم يرجعوا من البحر إلا بعد أن سمعوا صوتي وأنا أضحك عليهم ساخرأ منهم !!

مركز توثيق الكويت لعلوم

الحالة السياسية :

أما عن حالة الكويت السياسية فحسبكم علما بها أنها قد دخلت تحت الحماية الإنكليزية من سنة ١٩١٣ م : ولم تكن هناك حكومة بالمعنى الصحيح في أول نشأة الكويت ، إذ كان آل الصباح المنشئون لها أسرة واحدة لا تحتاج إلى حاكم ، ولكن لما هبط عليهم الناس من هنا وهناك ، وخالطهم بعض الأجانب رأوا أن يولوا عليهم حاكما منهم ، فأجمعوا أمرهم على صباح الأول ، فقبل ، وظل الحكم من أيامه إلى أيام مبارك الصباح . شوري : يستشير الحاكم وجهاء القوم فيما ينتابه من المهمات ، وما يعرض عليه من القضايا ، وليس له الرفض أو القبول بعد أن يقر رأيهم على أمر : لأن السلطة الحقيقية لهم ، وإنما يعطى اسم الرئاسة عليهم تفضلا ، بل قد يذهب الأمر إلى أبعد من ذلك ، إذ يعجز الحاكم أحيانا عن أخذ الحق من بعضهم ، كما يتبين في القصة التالية :

فأخذ بعض هؤلاء الوجهاء سلطة إلى أمد من أحد الكويتيين : فلما دنا

الأجل ذهب الدائن إلى المدين يطالبه بحقه ، ولكن الوجيه ماطل : وامتنع عن الوفاء ، فرفع الرجل شكواه إلى الحاكم ، فصارحه الحاكم بأنه لا يستطيع إكراه ذلك الوجيه على الدفع ، ثم أرشده الحاكم إلى حل يدل على النباهة والذكاء . قال له : الرأي أن تذهب إلى زوجة هذا المدين المماطل فتخبرها بأن زوجها قد قال يوم أخذ السلعة : « امرأتى طالق ثلاثاً إن لم أوف إليك حقك عند أجله » ، فإنك ستحصل بتلك الحيلة على ما تريد : لأن ذلك الوجيه لا يرد لزوجه طلباً ، إذ هو عبد لها ، فقبل الدائن ذلك الرأي وقصد الزوجة فشرح لها الأمر ، فوعده بأنه تحقق له رجاءه ، ولما عاد زوجها إلى البيت احتجبت منه وامتنعت عليه ، فدهش لذلك وسألها عن السبب ، فأخبرته بالقصة ، وحثمت عليه أن يسارع بأداء الدين قبل اتصاله بها ، فأكد لها الزوج أن ذلك كذب وافتراء ، ولكنها امرأة ، فلم تصدقه ، فاضطر الرجل أن ينزل على أمرها ، وأدى إلى الدائن حقه .

أمير الكويت :

أما حاكم الكويت اليوم فهو الأمير الشيخ أحمد بن جابر آل الصباح ، وهو الحاكم العاشر من حكام الكويت ، وكثيراً ما يخاطبونه في الكويت قائلين في خطاباتهم : « مولانا الأمير الجليل ، صاحب العز والسيادة الشيخ أحمد بن جابر الصباح حاكم الكويت المفخيم أدام الله عزه وتوفيقه » .

وهو نجل الشيخ جابر بن مبارك آل الصباح ، ولد في الكويت سنة ١٨٨٠ م على الأرجح ، ونشأ فيها وتعلم القراءة والكتابة في قصر والده ، وهو ربيع القامة حنطى اللون ، ممتلئ الجسم كث الشعر بهي المنظر ، لطيف الحديث جذاب الملامح رزين متواضع ، يميل إلى معالجة الأمور باللين والحكمة ، بعيد عن العنف وسفك الدماء ، بعيد عن المحرمات وتعاطياها ، معروف بالميل إلى الاقتصاد ، ولديه ثروة كبيرة تقدر بالملايين ، وهو يلبس الملابس العربية ، وأبناء الكويت جميعاً في ذلك مثله ، ويضع الكوفية (الصمادة) والعقال على رأسه ، ويلبس العباءة دائماً . وينهض سموه مبكراً من النوم فيتوضأ ويصلي ويقرأ ما تيسر من القرآن الكريم ، ثم يشرب القهوة ويفطر ، ثم ينتقل بالسيارة إلى قصر الحكم في داخل

مدينة الكويت (وقصره الذي يعيش فيه يسمى الدسمان) وهو واقع في الطرف الشرقى من مدينة الكويت ، ويطل على خليج فارس ، فيستقبل الزائرين والموظفين وينظر فى الرسائل والكتب والشئون الأخرى حتى الظهر فيتغدى مع من يكون هنالك من الزوار والحاشية ، ثم يصلى الظهر جماعة فى مسجد القصر مع الموجودين ، ثم يستريح إلى العصر ، وقديما كان يغادر القصر إلى قهوة السوق ، وهى قهوة كائنة فى وسط سوق الكويت التجارية . وحوله رجال الشرطة والحجاب ، فيجلس فيها فيلتفت الناس حوله . فينظر فى مصالحهم وقضاياهم ويفصل فيها ، أى أنه كان يأتى إلى المتقاضين بدلا من أن يأتواهم إليه ، وتلك عادة جميلة قديمة من عادات شيوخ الكويت : وبعد أن ينتهى من نظر القضايا يعود بالسيارة إلى قصره قرب المغرب ، فيصلى جماعة فى مسجد القصر مع من يكون هناك من الزوار والحجاب والخدم وراه إمام القصر الخاص ، ثم يتعشى مع الزوار والحاشية فى غرفة المائدة ، ثم ينقل مع ضيوفه إلى المشرب فيتناولون القهوة ويسمرون حتى يأتى موعد النوم . وهو يكر إلى فى أكثر لياليه . . . أما اليوم فقد أثبت بالكويت بحاكم تقوم بالقضاء والفصل فى الخصومات نيابة عن الأمير .

وقد سن الأمير سنة طيبة حميدة ، وهى الاستماع إلى الدروس الدينية من بعض العلماء فى وقت معين من النهار أو الليل ، يقول الأستاذ عبد العزيز الرشيد : لا نعلم أن أحداً من حكام آل الصباح اتخذ له واعظا خاصا فى مجلسه العام كل صباح ، يفسر بين يديه الكريمتين الآيات القرآنية ، ويشرح الأحاديث النبوية ، ويبين شيئا من الأحكام والأخلاق ، غير أميرنا المحبوب ، فقد شرفنى للقيام بتلك الوظيفة العالية ، ودعانى إليها فلبيت فدأه ، وامثلت أمره . وقد كان يصفى لما يسمع من الآيات والمواظع إصغاء المنذر . وبقيت مدة طويلة قائما بهذه الوظيفة الشريفة قبل ولايته . .

هذا كتاب يقع في نحو مائة وأربعين صفحة ، ولكنه خلاصة بحوث ومطالعات تقع في مجلدات ضخام ، قصد منه مؤلفه الفاضل الدكتور أحمد فؤاد الأهواني ، مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الأول . يبان ماهية الفلسفة في جميع أدوارها ، عند اليونانيين الأقدمين ثم عند المسلمين ، ثم لدى الأوربيين الذين بدءوا ينتقلون منها إلى الدور النهائي لاكتساب المعرفة ، وهو الدور العلى . وقد أبدع كل الإبداع في توفية حق كل ما تصدى له من البيان . فافتتح الكلام عن الفلسفة بتعيين مدلولها ، ثم انقل منه إلى بيان تطورها ، ومنه ألم بالفلسفة اليونانية فلخص مذاهبها ومقاصدها إلماما يعتبر نموذجا في اتقان التلخيص ، يلم المطالع منه بماهية الفلسفة اليونانية وأشهر ممثليها في نحو خمس وعشرين صفحة تقرأ في سوية واحدة .

ثم خرج من هذا البحث إلى دراسة الفلسفة الإسلامية وتاريخها وبيان مراميها كما استخلصها من أقوال أئمتها الذين سرد كثيرا من أسمائهم : وانتهى من ذلك إلى بيان الفلسفة الحديثة مبتدئا بعصر النهضة .

وقد جعل لنظرية المعرفة بابا خاصا ، وأتى على مذاهب الفلاسفة فيها من أول القدامى إلى اليوم . كل هذا مع بيان أشهر الآراء في مشكلات الفلسفة الخ . موجز القول في هذا الكتاب أنه استخرج زبدة الفلسفة وجعلها في حيز يمكن كل إنسان أن يتناولها ويستفيد منها ، وهذه مقدرة في التلخيص والبيان والإحاطة تسجل لحضرة المؤلف بالإكبار والإعجاب .

نفحات من سيرة السيدة زينب

هذه رسالة تقع في ثمانى وأربعين صفحة ، أوجز فيها فضيلة الأستاذ الفاضل الشيخ أحمد الشرباصى المدرس بالأزهر ، سيرة السيدة زينب رضى الله عنها .
فهي زينب بنت علي بن أبي طالب ، وأمها فاطمة الزهراء ، ولدت في شعبان من السنة الخامسة للهجرة بعد ميلاد أخيها الحسين بستين .

تزوجت بابن عمها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب . وصحبت شقيقها الحسين في نزوحه إلى العراق ، وحدث هنالك المعركة بينه وبين عامل يزيد ، وقتل الحسين في المعركة فشق عليها ذلك ، واقتيدت إلى يزيد بن معاوية فسكاته كلاما موجعا وعادت إلى المدينة وأخذت تؤلب الناس عليه ، فاضطرها أشباع يزيد إلى الهجرة إلى مصر ، فأقامت بها مكرمة معظمه ، حتى توفيت في رجب من سنة (٦٢) هـ .

وقفاً أنطون الجميل باشا

لبي دعوة ربه إلى العالم الباقي كبير الصحفيين المصريين ، أنطون الجميل باشا ، فكان لنبه أثر عظيم في القلوب ولما عرف به من حسن الاضطلاع بمهمته العظيمة ، وجهل الآخر في خدمته الصحفية ، والتفرد عن الهوى في تغذية الرأي العام ، فكان في قيادته لسياسة أكبر جريدة في الشرق ، مثالا حيا للاتزان وبعد النظر ، فإذا كان أصحاب الاحرام لم يدخروا وسعا في تهويم عملهم بما يحتاج إليه من المال الوفير ، فإن أنطون الجميل باشا استطاع بما أوتيته من استقامة الرأي ، وتوخي الاحسن ، وتجرى الحقائق ، والترفع عن السخايف ، أن يرفع الاحرام إلى مستوى من السمو يعتبر المثل الأعلى في الصحافة .

أدرك أنطون الجميل باشا ، كما أدرك ذلك من سبقه في الاحرام ، أن مصر في عهدهما الراهن من الانتقال السياسي ، وما يمنوش هذا الدور من تفرق الكلمة ، واختلاف الاقطار ، في حلجة ماسية إلى منبر عام ، يستطيع كل صاحب مبدأ أن يدل منه برأيه إلى الجماهير في حرية تامة ، وجو بعيد عن المبالاة والملاحاة ، غرقف بقله موقفا وسطا في مزدحم المتنازعين ، ولا يكن في غير تضحية بمفاهيمه الفخفى التي كان يقضى به بين حين وحين ، غير منعرض لحزب ، ولا متعامل على طائفة ، حتى جعل الاحرام يقبضه من وجوه حتى جريدة التيمس اللندنية في اعتمادها عن الخلاقات ، وإشاداتها بكل اصلاح تقوم به أية جماعة من الجماعات السياسية في تلك البلاد .

وكان فقيدنا بما أوتي من الميل إلى العلم والادب ، وهما الموضوعان اللذان بدأ بهما حياته العملية ، يعجج المشتغلين بهما ، ويرحب بشمات جهودهم فيلجسها في أحسن مكان من الاحرام ، مع أنها كانت كثيرا ما تضيق عن انهر الاعلانات المنسجمة في أيام الحرب العالمية الأخيرة .

وبعد ، فلننالا نحمد من خصه بالتميز في وقاته ، فكل الناس سواه في التأثير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

احتفال الازهر

بعيد المولد النبوي الكريم

في الساعة الخامسة من مساء يوم الخميس ١١ ربيع الأول ١٣٦٧ الموافق ٢٢ يناير سنة ١٩٤٨ . قصد فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد مأمون الشناوي ، السراشق الضخم الذي أقامته مشيخة الأزهر الشريف في ساحة المولد النبوي الكريم بالعباسية لتحفل فيه بعيد مولد محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . فقبل فضيلته بحفاوة رائعة ، وهتافات مدوية ، اشترك فيها الشعب والطلبة .

مركز توثيق كويتى علوم إسلامي

وابتدأت الحفلة . فالتقى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد عرفة مدير الوعظ كلمة قيمة في ذكرى المولد ، ختمها بالدعاء لجلالة الملك ، وبالتعبير عن شعور الأزهر العظيم ، وسروره البالغ ، بتعيين الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوي شيخاً للأزهر : ودعا لفضيلته بالتوفيق في عهد الأزهر الجديد . ثم ألقى فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المعبود سلام مفتش الوعظ المساعد ، والأستاذ الشيخ محمد مصطفى أبو العلا الواعظ ، كلمتين مناسبتين للمقام . وإلى القراء الكلمة القيمة التي نشرها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر في هذه المناسبة الكريمة :

* * *

حق على الناس أن تشجهم أفكارهم عند ذكر مولد النبي صلى الله عليه وسلم إلى سامي حكمة المولى عز وجل ، وسنة البديع الذي أجراه في خلقه ، وخلق كل شيء فقدره تقديرًا ..

فقد اقتضت حكمته السامية ، ورحمته الواسعة ، أن فطرهم على دين الحق ، وأودع فيهم مبادئ الخير ، وما زالوا على ما فطرهم عليه من الإيمان بالله ، والثقة بالنفس ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، هائنين بحياة سعيدة ، حتى يوسوس لهم الشيطان ، فتتحرف قلوبهم عن الإيمان ، ويفسد ما بينهم ، وتسوء حالتهم ، وعندئذ يتجلى الله برحمته على عباده ، فيبعث فيهم رسولا ، يذكرهم بما أنساهم الشيطان ، ويردّهم إلى حظيرة الإيمان . وإن من أمة إلا خلا فيها نذير .
'سنة الله في الذين كفلوا من قبل' ، وإن تجد لسنة الله تبديلا .

ولقد كان العالم قبيل مبعث الرسول صلوات الله وسلامه عليه يتخبط في ظلمات الجهالة ، وسفين أمره في بحر لجي من الأهواء والشهوات ، لا يعصمه فيه كتاب : وأصبح الأمر في الناس فوضى ، يرسفون في أغلال من المنكرات التي تمجّسها الفطر السليمة ؛ فقويهم بملك أمر الدنيا من مال وسلطان ، ويبسط على من سواه كل غت وإرهاق ؛ وتقطعت أسباب المودة بين الناس ، فشنوا الغارات ، وأقاموا الحروب لأتفه الأسباب . وتمادوا في طغيانهم ، فوآدوا ، البنا ، وقتلوهن خشية الإملاق *تحت إشراف كميتر عيسى*

وعندئذ تجلت رحمة الله بعباده ، فبعث في العالم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم هدى ورحمة ، فأخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ووضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، وجاء بأسمى المبادئ ، لتحقيق العدالة والمساواة بين الناس ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، يأبى الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله اتقاكم . وحث الرسول صلى الله عليه وسلم على البر ، والتواصي بالفقراء ، والعطف على اليتامى ورعايتهم ، وعني بعلاقات الناس بعضهم ببعض ، فأقامها على أساس قويم من المحبة ، والوفاء ، والإخلاص لله .

ولقد جاهد الرسول صلى الله عليه وسلم في نشر الدعوة ، ولاقى من صنوف الإيذاء والاضطهاد ما لاقى ، حتى كتب الله النصر لدعوته ، وآتمه على عباده نعمته . نسأل الله الكريم أن يعيد هذه الذكرى المباركة ، وقد تحقق عز العروبة ، ومجد الإسلام ، مبتهلين إليه سبحانه أن يحفظ مولانا صاحب الجلالة الملك

فأروق الأول، وأن يمدد بعون منه ، ويوفقه إلى ما فيه مصلحة العباد ، وسعادة
البلاد . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وهذه كلمة فضيلة الاساذ الكبير الشيخ محمد عرفه
مدير الوعظ والإرشاد

بسم الله الرحمن الرحيم

« لقد من الله على المؤمنين ، إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته
ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . »

وإنها لمنة عظيمة . ونعمة كبرى . ولقد علم المسلمون فضل هذه النعمة : فهم
يحتفلون في كل عام بمولده صلى الله عليه وسلم ، ويجعلونه يوما معدوداً ، وعيداً
مشهوداً : وخير ما يصنع في الاحتفال به أن تنشر أخلاقه وصفاته صلى الله عليه
وسلم ، ليقتدى بها المسلمون . « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة . »

ونحن سنذكر صفة واحدة من صفاته لتكون عظة العام ، نتعظ بها وتندبرها ،
ونفرسها في نفوسنا ؛ هذه الصفة هي « الأمل » .

كان محمد صلى الله عليه وسلم عظيم الأمل فلا يقنط ، وكان كبير الرجاء
فلا ييأس ، وكان وهو في أحلك الأزمات يمتنى أصحابه بملك كسرى وقيصر .

هذا الأمل غرسه وتعهده في رسول الله أمور أربعة : إيمانه بالله ، وإيمانه
بالفضيلة ، فكان يعتقد أن الله ينصر الفضيلة والفضلاء ، ويخذل الرذيلة والأرذلين .

وإيمانه أنه كان هو وأصحابه على الحق والهدى ، وأن خصومه على الباطل
والضلال ، وأنه في هذا العراك المحتدم بينهم لا بد أن يدال من المبطلين للتحقين ؛
والقرآن الكريم مشحون بهذه العقائد ، يرددها ويثبتها في نفوس المسلمين : « ولقد
سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون . »

وتربية صالحة : فقد رباه الله أحسن تربية ، فحبب إليه الأمل ، وبغض إليه
اليأس والقنوط ، وجعلهما من صفات الضالين والكافرين . ولا تيأسوا من

رَوْحُ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ، ، ، وَمَنْ يَقْطَعْ
مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ، ، .

وقد بغتض إليه الأمل الكاذب ، وهو الأمل الذى لا يصحبه عمل ، أو يصحبه
عمل لا يودى إليه ، بل يودى إلى النقيض : ، كَذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ
الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ، ، . وقد نعى القرآن على الذين إذا أصابتهم كارثة أو ألفت
بهم مصيبة انحلت عقدهم ، وانطفأ أملهم ، وجزعوا أعظم الجزع ، ودخلوا
في ظلام اليأس : ، إن الإنسان لَخَلْقٌ هَلُوعٌ ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه
الخير تمسوعاً ، إلا المصلين ، ، .

أيها المسلمون ! ليس بعار على المرء أن يخيب في مسعاه ، إنما العار أن تتحل
عزيمته إذا أخفق ، وينطفيء أمله إذا فشل . أيها المسلمون ! الأمل قبس من نور
الله يضيء لكم السبيل ، وروح من روح الله يحيى به النفوس الميتة ، وهو الذى
يزرع الدنيا أمامكم بالورود والرياحين ، ويجعل صحراء الحياة المجردة ظلاً ظليلاً
وماء نيراً ، وجنات وعيوناً ، وزروعاً وكروماً ، وهو الذى يطالع في ليلالى الخطوب
المُدْهِمَةِ ، وظلماتها الحالكه ، *فقرآنكم خير* ، وهو الذى

وهو بعد ذلك كله إكسير الحياة ، فلا سعادة للرم بدونه : فالحياة به نعيم
سائع ، وبدونه جحيم لا يطاق : وهو الذى ينقذ البشر من السكبات والحن ،
ويعينهم على التغلب على الصعاب .

فاجعلوا لأنفسكم آمالاً واسعة ، واسعوا بكل ما فيكم من قوة لتحقيق هذه
الآمال . واحذروا الأمل الكاذب ، والسراب الخداع ، والبرق الخلاب ، فليست
الحياة إلا أن تعرفوا وتؤملوا ، وتحبوا وتؤمنوا بكل ما هو حسن وجميل .

وإني بهذه المناسبة أرفع إلى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر ، الشيخ محمد
مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر ، تهنئتي وتهنئة علماء الدعوة والإرشاد
بتقلده هذا المنصب السامى : ونسأل الله أن يعينه ويسدد خطاه .

وإنتا نهى الأم الإسلامية بذكرى مولد الرسول ، ونسأل الله أن يرزقهم
السعادة فى ظل حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق ، أبقاه الله ذخراً للإسلام
والمسلمين .

احتفال الأزهر

باستقبال شيخه الجديد صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

الشيخ محمد مأمون الشناوى

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك المحبوب حفظه الله ، فأسند مشيخة الأزهر الشريف إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى .
وصدر الأمر الملكى الكريم مساء يوم الأحد ٧ ربيع الأول عام ١٣٦٧ (١٨ يناير ١٩٤٨) .

وكان لبأ هذا التعيين الميمون ، والثقة الملكية الكريمة ، أعظم صدى في محيط الأزهر ، وفي القطر المصرى . والشرق الإسلامى كله ؛ لما عرف به الأستاذ الأكبر من سمو في الخلق ، وعظمة في الروح ، وقوة في النزعة الدينية الإسلامية .
وفي صباح يوم الثلاثاء ٩ ربيع الأول ١٣٦٧ شرف فضيلته الإدارة العامة للأزهر في وسط مظاهرات رائعة ، وحفارات مقطعة النظير ، اشترك فيها الطلبة والأساتذة والموظفون والشعب ، وكان الجميع يهتفون بحياة جلالة الملك منقذ الأزهر ، وحياة الأستاذ الأكبر .

وقصد فضيلته مكتبه وسط الزحام الشديد ، فألقى فضيلة الأستاذ محمد المدنى المدرس بكلية الشريعة ، ثم فضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى المدرس بالأزهر ، ثم حضرات الأساتذة : حسن جاد ، ومحمد جلال ، وعبد الرازق سلمان ، ومحمد خليفة ، ومحمد العزازى ، وغيرهم - كلمات وقصائد في تهنئة الأزهر بشيخه الأستاذ الأكبر ، معنيين شعورهم الطيب نحو فضيلته ، وابتهاج الأزهر كله بتوليده مشيخته ، وأملهم في مستقبل عظيم للعلم والعلماء في عهد فضيلته .

كذلك ألقى الأستاذ عبد الحميد الهاشمى رئيس البعثات السورية بالأزهر وكلية أصول الدين كلمة ترحيب وتهنئة قوبلت بالتقدير والتصفيق .

وفي موجة من الفرح والبشر والابتهاج ، ألقى الأستاذ الأكبر كلمته في شيوخ الأزهر وطلابه ، فكانت تقابل بالهتاف المتواصل بحياة الملك منقذ الأزهر وحياة الأستاذ الأكبر المصلح ، الشيخ محمد مأمون الشناوى .

وهذه قصيدة فضيلة الأستاذ حسن جاد المدرس بكلية اللغة العربية :

سرت باسمك البشري فعاودنا البشرُ وعادت لدين الله آماله الغر
ودانت لك الأيام بعد اعتسافها وأقبل في دنياه يعتذر الدهر
وأشرق نور الحق فانتشم الدجى وطالعنا صبح عن الحـير يفتر
وراحت أساطير الظلام شـتية يطاردها في جيش أنواره الفجر
تداركت المعمور أقـدارُ رحمة والله فيما قد ألم به سر
وأفقه الرحمن بعد احتضاره وبارب شر منه ينتظر الخير
فقل للذي قد ضاق بالصبر صدره رويدك إن العسر يعقبه اليسر
وقل لسكاري التيه : موسى أنا كمو أقبلوا من الأوهام قد بطل السحر
وقل لبني المعمور أؤسأ وخزرجاً تداركم مأمونه الصادق البر
وقل لبني الوجهين إن أباكم هو الأزهر الحاني وأمكمو مصر
وأنتم جناحها إذا هيض منها جناح فلا يرجى رقى ولا طير
فقيم أثرتم فرقة جاهلية يشب لها في ساحة الأزهر الجمر
تداركه الفاروق فالتام أمره ولولا يد الفاروق ما التأم الأمر
وآسى بمأمون نوازي جرحه قامت نوازي الخطب والنخم الشر
صبرنا الى أن بارك الله صبرنا وأجمل شيء في الحياة هو الصبر

فعـد يا إمام المسلمين لمنصب أضرب به الشوق المبرح والهجر
تهلل لما عدت حراً مكرماً يحالفك السعد المؤازر والنصر
خلعت عليه من وقارك هبة فأضحى عزيزاً لا يلم به ضمير
عرفت أبي النفس لا تعرف الهوى ومن آفة الأحلاق أن يعرف النكر

فأدرك حى المعمور من محنة الهوى فأنت له فى حادثات الهوى ذخـر
هو الفلك ضلت فى متاهات بحرها وعجت أواذيه وماج بها البحر
وما أنت يامأمور إلا منارها ومرفؤها الهادى إذا ما نأى البر
فوحـد على الحب الجميل صفوفه وضم بنيه لا يلم بهم وتر
وكن والدًا لكل يأسو جراحهم ويستل ما يضى النفوس وما يعرو

أهنيك يامولاي والناس كلهم يهتئى حتى سما بك لى قـدر
وما أنا إلا للعالى مهنيـم فقد هز أعطاف المعالى بكم فخر
ومثلك لا يزهى بغر قصائدى ولكن به تزهى قصائدى الغر
رجوناك يامأمور للخير والهدى ومثلك من يرجى على يده الخير



وها هى قصيدة فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى :

يوم تشيد بذكره الأيام قد عز فيه الدين والإسلام
المسلمون استبشروا وتيامنوا والأزهر ابتسمت له الأيام
لبست مآذنه الضياء وكبرت أركانه ودنت له الأحلام
وعلت بحياه ابتسامه شاكر واختال فيه شيوخه الأعلام
وازدات منبره بكل مفوه ينبك عنه جبينه البسام
وتسامع الطلاب بالبشرى ويا لجلالها فإذا الحياة سلام
وتضج من فرح معاهده العلى وترف فى أجوائها الأعلام
يوم تلالا فى الكنانة نوره وتسير تحمد فضله الأعوام
من ذا سوى الفاروق يكسوه السنا آلاء فاروق عليه كرام

يا يوم أزهرنا المجيد تحية أتت المني وشدا بك الإلهام
 أتت الحياة تدب في أركانها والخير والإخلاص والإقدام
 مأمون قلده الملك أموره مأمون أروع حازم مقدام
 هوفى القلوب نشيدها ورجاؤها هو في الهدى والسابقين إمام
 حفلت صحائفه بكل جميلة لشبابه بكرتها الإكرام
 هو في كواكبه المنيرة شمسها ويند من لآلئه الإظام
 علم التقى والخير والداعى إلى شرف الحياة وفي الخطوب همام
 بيت المعز وجوهر وفؤاد والفـ أروق بالمأمون ليس بضام
 خلق كما شاء الإله مطهر ومحبة وتعاون وسلام
 وخلال له الإيثار والحسن وما وجد السبيل لعزمه الإحجام
 متقبل لله يمشى خاشعا ولم يتمدى السماء هيام
 مضت السنين ونحن نهدم ما بنى أسلافنا وجميعنا أخصام
 وتمو دنا الأهواء ضلت قلوبنا ففرقت وتباغض وخصام
 أعمالنا الأقوال والجو الذي يحيا به النشء الجديد ظلام
 مأمون تليد الامام أعد لنا عهد الامام لحسننا الأوهام
 نحملت أعباء الإمامة فارعا تنهض بها الأخلاق والأحلام
 وأعد لقدس الدرس ماضى مجده ترجع اليه سكينه ونظام
 وامح الشقاق بمعهد هو أسوة للمسلمين وموتل وعصام
 يتفام الوادى بوجهك واخى والأزهر المعمور والإسلام

وهذه قصيدة فضيلة الأستاذ السباعي الشناوى

قم حتى مأمونا وحى الأزهر واهتف به أستاذ مصر الأكبر
 شمس تضيء المشرقين كأنها شمس الرسول سماؤها أم القرى

فيض من الاخلاص يغمر قلبه يا نعم إخلاصا يقود إلى الذرا
 أخلصت للعمور في أزماته وأتيته بالمعجزات فأزهرها
 في ساحة الانصاف قدت جهاده فرجعت مرفوع اللواء مظهرها
 قِيمٌ من التقدير لم يظفر بها في أي عهد فانتشلت الأزهرها
 ورفعت رأس بنيه بين لدااتهم وجعلتهم فوق الطوائف مظهرها
 فبني لك التاريخ مجدا خالدا وبأحرف التقدير خط وسطها
 واليوم في التفسير نرجو غيثكم إنا بساحتكم تعودنا القيرى
 قدت السفينة مفردا فأدرتها بمهارة أخذت بالباب الورى

• • •

هي نعمة خلقت لغرس ضغائن ياويله من ذا الذى قد دبرا
 إنا لنطلب وحدة الوادى فلا نبغى لدى الوجهين فصما للعرا
 أبناء مصر إخوة وجميعهم متأزرون ووحدة لن تبرا
 هي جذوة أرسل عليها نفحة من فيض قطرك تستحيل إلى ثرى
 وأثر نسيم الود في جنباته من بعد ما عصف الزمان وغيرا
 من كان كالمأمون في نفحاته حل العويس من الأمور وأكثرا
 أو كان كالمأمون في عزماته ساس الجميع بعزيمة لن تنهرا
 هو نفحة الرحمن أرسله هدى للعالمين ورحمة وتبصرا
 ولكم دعونا فاستجيب دعاؤنا وأنى لنا المأمون شيخا كبيرا
 اليمن في يمينه ينثر دره واليسر في يسراه أبهى منظرا

وفود الأزهرين من الأقاليم

وفدت إلى القاهرة جماهير من أساتذة وطلاب المعاهد الإقليمية، وانضم إليهم طلبة الكليات ومعهد القاهرة، واصطفوا في ساحة الجامع الأزهر، واعتلى خطبائهم شرفة الإدارة العامة للمعاهد الدينية يعبرون عن سرور طلاب العلم واستبشارهم بتعيين حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مأمون الشناوى « شيخاً للأزهر »، وبعد ما فرغوا من مهمتهم، تفضل فضيلته بتوجيه كلمة إليهم، جمعت من ضروب النصائح الأبوية، والإرشادات الأدبية ما يكفل للأزهر والأزهريين عهداً من النهوض والاستمرار يحقق ما يرجى منه لإنشاء جيل يؤدي رسالة الإسلام العالمية على أكمل وجه، وأشرف مآل.

أبنائى :

بسم الله الرحمن الرحيم أفتتح عهدى معكم ، وأتوجه إلى الله بالشكر على عظيم فضله ، راجياً لى ولكم التوفيق والسداد : وأدعو الله الكريم أن يحفظ ملاذ الأزهر وراعيه ، مولانا الفاروق العظيم : فإن أياديه على الأزهر غرام ناصعة ، وأمانيه للأزهر والأزهريين جليلة سامية ؛ وخير ما يرجوه جلالة مولانا الملك أن يظل الأزهر كما كان منذ ألف سنة ، مناراً للعلم والدين ، ومهبطاً للخلق الكريم ، ومنبعاً للأخوة والمحبة الصافية : فإن الألفة بين أبناء ذلك المعهد لما ترفع شأنه ، وتعلو ذكره . وتحله مكان الصدارة فى الفكر ، والخلق ، والدين .

وإني لا شكر لكم جميل شعورك ، وكرم تهانكم ، التي هب عنها خطباؤكم
وشعراؤكم ، وظهرت واضحة في صيحات الاستبشار التي استقبلتموني بها منذ
تفضل مولانا جلالة الملك فأسند إلي هذا المنصب .

كل هذا يحملني واثقا كل الثقة بأن ستكونون عند حسن الظن بكم .
وأنكم أساتذة وطلابا وموظفين ستعملون متكاتفين متساندين ، لمعونتي على السير
بكم وبالأزهر قُدُما نحو الأهداف السامية التي يتمناها لنا جلالة الملك المعظم ،
ويرجوها للأزهر كل محب له ، حريص على مجده . وإني لوائق أننا جميعا نحب
الأزهر ونرجو له كل ازدهار ونماء ؛ وكلكم يعلم أن رسالة الأزهر إنما تتحقق
على أكمل وجه إذا قامت على أيادٍ موحدة ، ونفوس مُصفاة . فلتنسوا كل
ما كان ، ولنجعل عهدنا من اليوم صفاء في القلوب ، وإيمانا برسالتنا ؛ ولتفسر
على بركة الله : ولكم مني - إذا أنتم حققتم أمني - كما حقق الله آمالكم ، فعكف
الطلاب على دروسهم ، والأساتذة على بحوثهم ، أن أبذل غاية جهدي في سبيل
مصلحتكم ومصلحة الأزهر ؛ فاجعلوا معي ، وانشدوا الوحدة ، واركبوا
ما ليس لكم من شئون ، والله يوفقني إلى ما فيه الخير واليمن لكم في حاضركم
ومستقبلكم .

أما تهنئتيكم لي فقد تم التعبير عنها ، ولمستها في فيض عواطفكم ، فاجعلوا
شكري عليها نصيحة خالصة : أن تنحدوا وتتألفوا ، وتقبلوا على دروسكم ،
ودعوا إلى الفرصة لأعمل في جو هادي ، كي أحقق لكم الأمل ، فإن الأمل بابه
العمل ، وهو أجدي علينا وعليكم من أوقات نضيمها في القول والتهاني ،
وقيل آخذوا فسيرى الله عملكم ورَسُولُهُ والمؤمنون .

وبعد ، فإن عهدي إلى العالم الإسلامي أن أعمل لخدمة العلم والدين ،
وأن أفسح المجال في الأزهر لكل طالب وباحث هدفه العلم والدين ، مهما تباعدت
أوطانه ؛ فالأزهر كعبة لكل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها ، ولكل وافد
عندى العون والمساعدة ، ليلبغ من العلم ما يريد ، حتى يعود إلى أهله داعيا
للأزهر ، وناشرا لدين الله . وعهدي إلى العالم الإسلامي أن أعمل على نصرة

قضية العروبة والإسلام ، والتسكين لكلمة الله ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله . .

وأخيراً أقول لكم جميعاً : إن بابي مفتوح لكل ذى حاجة ، وإنه لا فرق عندي بين أستاذ وأستاذ ، ولا بين موظف وموظف ، ولا بين طالب وطالب ، إلا بالتوفر على العمل ، والإخلاص فيه . مَنْ تَعَمِلْ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ . وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ . .

« وأكرر لكم جميعاً شكري على عظيم استقبالكم . وكريم حفاظتكم ، وحسن ظنكم ، وأدعوكم إلى العمل من الساعة . فاعملوا . والله معكم ، ولن يَبْزِغَ كُمْ أَعْمَالُكُمْ . »

وإني أبتهل إلى الله جلّت قدرته أن يحفظ مولانا جلالة الملك ، وأن يديم على الأزهر عطفه وبره . كما أضرع إليه أن يعيد على العالم الإسلامي ذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تحققت آمال المسلمين ، في مجد العروبة وعز الإسلام . والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة الأستاذ الأكبر في الوفود

يوم الأحد ٢٥ يناير سنة ١٩٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله على فضله العقيم . سبحانه ما أعظمه من منعم ! فقد مهّد لنا أقوم السبل الى خير ما أحب وتحبون : وأرفع آيات الشكر والولاء الى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم على سامى عطفه علينا ، وكريم بره بالأزهر والعلم والدين ، وعظيم رعايته لأمور المسلمين : وأشكر لكم جميعاً ما أبدىتموه من حفاوة ، وأقدر ما تحمّلتموه من مشاق . وإنه ليزيدنى اغتباطاً أن أجدكم دائماً عند حسن الظن بكم رجالاً تعرفون واجبكم في الحياة العلمية والاجتماعية ، فمكثرسوا وقتكم لتحصيل العلوم والمعارف ، وتبذلوا قصارى جهودكم في حماية الدين ونشر مكارم الأخلاق ، وبهذا تكونون قد أدبتم رسالة الأزهر الى العالم كأزهر بين عاملين . وكونوا إخواناً كما أمركم الله .

وبعد ، فقد مضى من العام الدراسي وقت غير يسير ، فأرجو ألا تدعوا فرصة العمل فيما بقي منه ، فسا ذلك أجدى عليكم وأجدر بكم ، وانشدوا الاتقان فيما تعملون فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً . وسارعوا الى ما وجب عليكم مترسمين الاخلاص لله وللعلم حتى نجنى الثمار جميعاً ، وإنها بفضل الله ومشيئته عزة للأزهر ، ومجد للعروبة ، وقوة للمسلمين ، وسلام على العالمين .

وأخيراً اعلبوا أن أبناء الأزهر لدى سواء ، ولكن كل بعمله ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكتب لنا التوفيق ، وأن يمدنا بروح من عنده ، وأن يحفظ مملكتنا المعظم فاروق الأول ، أعزه الله . والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة الاستاذ الاكبر

في طلبة معاهد الاقاليم

يوم الاربعاء ٢٨ يناير سنة ١٩٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أبنائي الأعزاء :

السلام عليكم ورحمة الله . أقدر لكم هذا الشعور الفياض ، وأحيي فيكم هذا الروح الكريم الذي ينم على عظيم إخلاصكم وصادق محبتكم وشدة تفانيكم في تقديركم للثقل العليا ، وتعلقكم بها . وأشكر لكم هذه الثقة الغالية التي لا تفتأون كل يوم تظهرون منها ما يثبت أركانها ويوطد دعائمها ، ويقوى من عزيمته الذين تتوجهون اليهم بها ، وأبادلكم تحية بتحية ، وإخلاصا بإخلاص .

أبنائي :

تعلمون أن الأزهر أقدم جامعة إسلامية ، وأعظم مؤسسة في التاريخ قامت بحفظ الشريعة الغراء ، وحراسة اللغة العربية ، وحملت وحدها عبء الثقافة والتعليم في الوقت الذي لم يكن في الشرق جامعة ولا مدرسة غيرها تقوم بمثل هذا الواجب . وأؤكد لكم أنه لولا وجود الأزهر في تلك الحقبة التاريخية الطويلة لعمت الجهالة ، وانتشرت ظلماتها بين الناس ، وانتاب التأخر والانحطاط كثيرا من نواحي الحياة ، وغلبت على الشرق كثرة من الظواهر الاجتماعية الخطيرة التي كان يصعب تلافيتها .

فالأزهر من هذه الناحية قد قام بأعظم الخدمات وأجل الفوائد للإسلام والعرب والشرق ، بل وللإنسانية جمعاء . فواجبنا نحن أبناء الجيل الحاضر إزاء

هذه الجامعة المجيدة أن نحافظ على هذا التراث العظيم ، وأن نرعاه ، وأن نتابع جهودنا ونبذل كل قوانا في سبيل الإبقاء عليه وإنماء ثروته وازدهارها ، والنهوض بها قُديما ، حتى نكون خير خلف لخير سلف ، وحتى نستحق أن نوصف بأننا أبناء بررة لأوائك الآباء الأبحاد . وغنى عن البيان أن هذا كله لا يتم ولا يتحقق إلا بحسن قيامنا بواجبنا ، وعنايتنا بما وكل إلينا ، والتفات كل فرد منا الى واجبه المنوط به ، ليؤديه على الوجه الأكمل ، ويضعه في وضعه الصحيح .

وإنه لطيب لى فى هذا المقام أن أنهى اليكم أن جلالة مولاي الملك المعظم يعطف على الأزهر وأبنائه كل العطف ، ويرعاهم أعظم الرعاية ، ويسره أن يبلغ جلالاته عنهم قيامهم بواجبهم وتأديتهم رسالتهم ، وتفرغهم للاشتغال بالعلم وحده ، وابتعادهم عن كل ما يحول بينهم وبين أى شىء من ذلك .

أمد الله فى حياة جلالاته ، وأيده بروح من عنده ، وأعز به الدين ، وجعل عهده كله خيرا وبركة على الاسلام والمسلمين ، والأزهر والأزهريين .

والسلام عليكم ورحمة الله .
مركز تحيتا كويتى علومى

عيد ميلاد جلالة الملك المعظم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر
يذيع كلمة قيمة عن هذا العيد بالراديو

يوافق اليوم الحادى عشر من شهر فبراير تاريخ ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم ، وقد جرت العادة أن يحتفل به الشعب المصرى وحكومته احتفالا عظيما ؛ بإقامة الزينات ، ورفع الأعلام ، وتسيير المواكب ؛ فرأى جلالاته مراعاة للناتج العام بما أصاب فلسطين ، أن يقتصر الاحتفال به على الرسميات ؛ فضرب جلالاته بهذا العمل مثلا من أروع الأمثلة على الشعور العالى ، والنظر الرفيع . ونزولا على الإرادة الملكية السامية رأى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشاوى شيخ الجامع الأزهر أن يكتب بإذاعة كلمة بالراديو فى هذا اليوم الأغر ، تجمع من مناقب جلالة الملك ، وما أثره الخالدة ، ما لا بد من الإشادة بذكره ، والنيمن بنشره : فجاءت على إيجازها بليغة جامعة ، كان لها وقع عظيم فى نفوس المستمعين من سائر الأقطار العربية .

ونحن تيمناً بهذا العيد الكريم نفشر كلمة فضيلته ، ونضم صوتنا إلى صوته فى الدعاء لحضرة صاحب الجلالة ، بأن يطيل الله فى حياته ذخراً لأمته ، وملاذاً لرعيته ، حتى يتم ما بدأه من إبلاغ بلاده سائر أمانها ، وجمع كلمة الأمم العربية ، وتوحيد جهودها ، حتى تبلغ شاو أوائلها علماً وعملاً ومدنية .

في المسنن العكونية :

التوافق بين آيات الكون وآيات القرآن

قانون الاسباب والمسببات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ

محمد عبد اللطيف دراز مدير الازهر (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات السادة : السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد . فمذ قريب تحدثت من هذا المنبر العام عن التوافق بين آيات الكون ، وآيات القرآن . ، مبتدئاً بهذا على أن منزل القرآن هو خالق الكون جل جلاله : وأشرت يومئذ إلى أن هذا الدليل لم يتدعه أحد من الناس ، وإنما الله سبحانه وتعالى هو الذي لفت أنظارنا إليه ، حيث يقول ، منوهاً بهذا التوافق ، وأنه برهان دامغ على أن القرآن من عند الله : ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً . . وضربنا مثلاً لذلك ، الوحدة ، التي تتجلى في مظاهر الكون من أعلاه إلى أسفله ، ويقوم عليها نظام آياته البينات في الآفاق وفي الأنفس ، وهي نفسها أسس القرآن : بل إن الوحدانية هي أساس دعوته ، حتى لو أردت أن تجمع الإسلام في كلمة واحدة ، لما وجدت أجمع له من كلمة التوحيد : فهو ينادي بوحدانية الله ، ووحدانية الدعوة التي نزلت بها الكتب ، وجاءت بها الرسل : وينادي بوحدة الإنسانية في الأصل والعصر ، وبوحدتها في الحقوق التي يقتضيها نظام الحياة : من الحرية ، والعدالة ، والإخاء ، والمساواة .

والمثل الذي نضربه اليوم على هذا التوافق بين آيات الكون وآيات القرآن هو ، قانون الاسباب والمسببات .

(*) من أحاديث فضيلته في الإذاعة

وإنما اخترت هذا المثل ، لأنه — فوق فائدته العلمية النظرية — سيفيدنا فائدة أخرى عمالية واقعية . ذلك أن كثيراً من المتدينين يعتقدون أن الدين إنما يقوم على المعجزات وخوارق الآيات ، وأنه ليس من الأصل فيه أن يضرد مع السنن الكونية ، حتى لقد غالى أتباعه في بعض العصور فخطروا النظر في أصوله ، وقصروا فهمها على طائفة قليلة منهم سموها « رجال الدين » فأساءوا بذلك إلى الدين إساءة بالغة ، بما حالوا بينه وبين الناس ، بل بينه وبين مدلوله الذي يريد الله منه . فإن الدين للإنسانية عامة ، لا لطائفة خاصة منها : إذ هو عقيدة الناس . وهو شريعتهم ، ولا يتأتى أن يعتقد الناس ما لا يفهمون . ولا أن يشترعوا شريعة تنأى بهم عن واقع الحياة . فكان ذلك أعظم سبب في عزلة الدين وإبعاده وإبعاد رجاله عن معترك الشؤون الدولية ، مع أن هداية الناس إلى الحق وإلى الاستقرار في الأرض لن تكون إلا على أساس الدين . وحيرة الإنسانية وضلالها وتناحرها الآن ، وهي في أوج المدنية والمعرفة ، خير شاهد بصدق ما نقول . والذي أريد أن أقوله : هو أن الإسلام لم يأت الناس بما لا يفهمون ، ولم يحمّلهم ما لا يطيقون . ولم يخرج بهم عن واقع الحياة فيما يحسبون وفيما يفعلون : فهو يسير مع الكون خطوة خطوة ، وخطرة خطرة . يتساوقان ويشجوابان . كأنهما الشخص وظله . أو الصدى وصوته ، بل الجسد وروحه ، والمادة وحياتها . وكما كانت الوحدة التي دعا إليها وحيدة شاملة من أعلى عليائها إلى نهاية مداها ، فكذلك قانون الأسباب والمسببات ، هو عنده عام شامل لا يخرج على كفته شيء . فلا يتعاضده كبير . ولا يفلت من حكمه صغير .

يقول الإسلام للناس : آمنوا لتهدوا ، وتحابوا لتسعدوا ، وافعلوا الخير لتفلحوا ، واعدلوا لتأمنوا ، وازرعوا لتحصدوا ، وتعلموا لتعرفوا ، واسمعوا لتتالوا ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . : وينهاهم عن القعود وتمشي الأماني الباطلة : فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة : وإن العزة والسعادة والمجد لا تنال بالآواكل والتواني ، والاعتماد على كرم الأنساب وشرف الأحساب ، والتشديق بالأديان ، والتفاخر بالقوميات . ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب : من يعمل سوماً يحجز به ، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . .

وهذه هي سنة الكون نفسه : لا بد لكل غاية من وسيلة ، ولكل نتيجة من سعي . ولكل أمل من عمل ، ولكل مقصد من الخير سبيله التي تهدف له وتوصل إليه . فهو إذا قانون واحد تقرؤ في القرآن كما تشهد في الأكوان ، ومنطق واحد يعبر عنه الكون بلسان حاله كما يعبر عنه القرآن بمقاله . وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . . هذا هو . قانون الاسباب والمسببات ، الذي أخذ الله به العالم أخذاً ، كما هو الشأن في سائر مظاهر السنة الإلهية : هي محكمات من الأمر لا تقض ، وعزائم لا رخصة فيها لأحد ، وإن كان أقرب الناس وأحبهم إلى الله . فلن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً . .

وأقرب مثل يحضرنا لهذا ، ما حصل للمسلمين في موقعي أحد ، وبدر قبلها ، حيث اختلفت الاسباب . فاختلفت النتائج تبعاً لها .

فالقدر كان لهم من أسباب النصر في بدر ، على قتلة عددهم وعددهم ، وحدة لا تنقسم عروتها ، وعزيمة لا يفل حذوها ، وإيمان تنزلت عليه الملائكة من السماء ، وصبر يزن به المسلم عشرة من الأعداء ، واثقياد وطاعة بلغ من شأنهما أن قال المسلمون للنبي : أما إنا لا نقول لك ما قال قوم موسى لموسى . اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . بل نقول : إنا معكم مقاتلون : سر بنا يا رسول الله كما أمرك الله ، والله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه وراءك ما تخاف منا أحد . ثم لا قوا أعداءهم على هذه الاسباب القوية ، التي أمدوا بها أنفسهم ، فأمدتهم الله بمعونته وتأييده ، وكان ذلك نصراً عزيزاً انتلفت على تحقيقه لهم أسباب الأرض وأسباب السماء .

أما في أحد : فلم يكن شيء من هذا ، بل كانت ظاهرة الخلاف أبرز ما كان من أمرهم : خالفوا الرسول في عدم الخروج إلى الأعداء — وكان عدم الخروج رأيه عليه الصلاة والسلام — ثم خالفوا أثناء السير إلى القتال : فانخذل « عبد الله ابن أبي » بثلاث الجيش من أتباعه المنافقين . ثم خالفوا عن أمره أثناء القتال ، فلم تنفذ فرقة الرماة أمره كما أراد . وكان إهمال هذه الفرقة هو السبب المباشر فيما أصاب المسلمين يوم أحد . وبعض ذلك فضلاً عن اجتماعه كاف في الهزيمة .

ولقد وقعت الهزيمة فعلا ، ونفذت سنة الله كما تفقد دائما ، وإن أصابت في إقضائها وقهرها أقرب الناس إلى الله ، وأعظم أهل الأرض إيمانا بالله ، محمداً صلى الله عليه وسلم وجيشه من المؤمنين ؛ فقتل نحو سبعين من أبطالهم ، وكانوا هم قد أصابوا أعداءهم بمثل هذا العدد يوم بدر ، حيث قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين ؛ فلما ارتاع بعض المسلمين للهزيمة وإن لم تخف عليهم أسبابها ، وجعلوا يتعجبون قائلين : أنى هذا ؟ وكيف نهزم وفينا رسول الله ؟ رد الله عليهم بقوله : « أو لمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم » ، فأنتم الذين تسببتم في هذه الهزيمة بخلافكم على قائدكم ، وفشلكم في أمركم ، وعدم إخلاصكم في عزيمتكم ، ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسسونهم يأذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون . منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين .

وفي هذه الموقعة نزل ذلك السياق الرابع الذي يبدأ من قول الله جل شأنه : « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال » ، والله سميع عليم ، إلى نحو ستين آية بعدها من سورة آل عمران .

وفي هذا النسق الطويل من تأديب القرآن ، وبالغ حكمته ، وبيان سنة الله في الكون ووجوب رعايتها ، ما لا يتسع هذا المجال للإفاضة فيه . ولكن حسبك منه الآن هذا البيان الجامع ، حيث يقول الله تعالى : « قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » .

حضرات السادة :

هل نجد بعد هذا من يخالف عن سنة الله عاجزاً أو جاهلاً ، ثم يسمى عجزه أو جهله توكلًا على الله وتسليماً لأمر الله ؟ ! وهل نجد بعد ذلك من يحمل روح القرآن وهدى الإسلام فيفسره على غير وجهه ويحمّله على غير محمله !

كلبتنا لأمثال هؤلاء المتواكين الجاهلين . أن يتدبروا القرآن ليفقهوا معاه ؛ فإن عجزوا عن ذلك فليتركوا ما لا يفقهون . وكلبتنا إلى المسلمين عامة هي هذه الكرامة التي ساقها الله إلى الناس كافة : « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » .

والسلام عليكم ورحمة الله .

دعوى الجاهلية

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طه محمد الساكت
المدرس بالأزهر

عن جابر رضى الله عنه يقول : ، غزونا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا ، وكان من المهاجرين رجل لعاباً ، فكسّمع أنصاريًا ، فغضب الأنصاري غضباً شديداً حتى تداعوا ، وقال الأنصاري : يا لثأر أنصار ! وقال المهاجري : يا للمهاجرين ! فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما بال دعوى أهل الجاهلية ؟ ثم قال : ما شأنهم ؟ فأخبر بكسمة المهاجري الأنصاري ، قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : دعوها فإنها خبيثة . وقال عبد الله بن أبي ابن سلول (١) : أقدمت دعوا علينا ؟ لأن رجعتنا إلى المدينة لئلا نخرج من الأعراس منها إلا ذل . فقال عمر : ألا نقتل (٢) يا رسول الله هذا الخبيث ؟ - لعبد الله - فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا ، يتحدث الناس أنه كان يحمل أصحابه ، رواه الشيخان .

ثاب : رجيع ، وقيل اجتمع . لعاب : مزاح . بصيغة المبالغة من اللعب ، وقيل كان يلعب بالحرايب كما تصنع الحبشة . وكسعه كمنعه : ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه . وتداعوا : استغاثوا ودعا بعضهم بعضاً بدعوى الجاهلية ، وهي أن يقولوا عند الحرب : يا آل فلان ، أو يا فلان ، فيجتمعوا لنصرة المستغيث ولو كان ظالماً .

لم يحرص الإسلام على شيء حرصه على سلامة الأمة ووحدتها ، وكشدّ بفيانها واجتماع كلمتها : وهو لذلك يحذرهما كل الحذر ، ويشفق عليهما كل الإشفاق ، مما يوهن أمرهما ، أو يضعف شأنهما ، أو يثلم ديبتهما ، أو يخرج كرامتهما وعزتهما . ومن تأمل قليلاً في قواعد الإسلام ودعائمه ، وأصوله وفروعه ، وأوامره

(١) أم عبد الله بن أبي ولقد أثبت ألف ابن الثانية ويثون أبي ، لأنها صفة أخرى لعبد الله لا لأبي .
(٢) روى بالنون ، وبالتاء .

ونواهيه ، وحكمه وأحكامه - وجد أسمى غاياته ، وأجل مقاصده ، أن تكون أمته
أجمع الأمم كلمة ، وأعظمها قوة ، وأرفعها مكانا .

وحسبك أن تنظر إليه وقد دعا بمختلف الأساليب وأقواها ، إلى الائتلاف
والتعاون والتحاب حتى نبي الإيمان عمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ووعد
المتحابين بأن لهم منابر من نور يوم القيامة ، وأن الله يظلمهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله :
وأمر بالتواضع حتى لا يبغى أحد على أحد : وأذهب عن المؤمنين بعد إذ بعث فيهم
رسولا من أنفسهم - عبثية ^(١) الجاهلية ونفخها بالآباء والأحساب ، فكاهم بنو آدم
وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى :
ورغب في إصلاح ذات البين ، وقال إن فساد ذات البين هي الحالقة لا أقول
تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين ! وشدد السكير على الفتن ما ظهر منها وما بطن ،
حتى لقد بلغ من نكيره على من أبتظ فتنة أو دعا إليها أن تبرأ منه حيا وميتا ،
فكان ، ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا
من مات على عصبية ^(٢) وقال : من حمل علينا السلاح فليس منا ^(٣) .

وهذه قصة تبين منهجه صلى الله عليه وسلم في سياسة أمته ، وحرصه البالغ
على اتحادها وائتلافها ، والحيلولة بينها وبين نزعات الشيطان ، ونزوات الشهوة ،
ومضلات الهوى .

روى أصحاب السير والمغازي أن بني المصطلق اجتمعوا لحرب النبي صلى الله
عليه وسلم ، فخرج إليهم حتى لقيهم على ماء من أموالهم يقال له المريسي ، فهزم الله
تعالى بني المصطلق وأمكن منهم . ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من
أمرهم وردت واردة من الناس تستقي الماء وتذود الخيل والإبل ، فاشتد الزحام
حتى اقتتل أجير لعمر بن الخطاب يدعى جهمجاه بن مسعود الغفاري . وحليف لبني

(١) بضم العين وكسرهما وتشديد الباء والياء والكسر . وهذا وما بعده اقتباس من
صحيح كتب السنة .

(٢) هي المأذنة عن المتيرة ظلما وعدوانا . والحديث رواه أبو داود عن جبير بن مطعم

(٣) رواه الشيخان في الصحيحين .

عوف يسمى سنان بن مسعود الجهني ، فصرخ الجهني : يا للأفصار : وصرخ الغفاري : يا للهاجرين ! فثارت حية ابن أبي رأس المنافقين وعنده رهط من قومه ، وقال أو قد فعلوها ؟ ناكرونا في ديارنا وكأثرونا في بلادنا : والله مامثلنا ومثلهم إلا كما قال الأول : ستمن كلبك يأكلك ! أما والله لن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ! ثم أقبل على رهطه فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم : أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم انحولوا إلى غير بلادكم !

تنهت الفتنة ، وهاج هائج الشر ، وبلغ النبي صلى الله عليه وسلم الخبر (١) ، وكانت له معذرة دونها كل معذرة في قتل رأس النفاق والشقاق وسوء الأخلاق ، ولا سيما بعد أن استأذنه الفاروق في قتله ، ثم ابنه عبد الله رضى الله عنه لما قيل له خطأ : إن أبي صلى الله عليه وسلم يريد قتل أهلك !

لكم صلوات الله وسلامه عليه ، وقد آناه الله الحكمة ، وبعثه ليتمم مكارم الأخلاق ، سالك ما هو جقيق به وبخير أمة أخرجت للناس . فنهى عن العصية ، وأخبر أنها خبيثة متنة لا تجلب إلا الوبال والنكال وخبت الفعال ، وأخبر عمر أن قتل هذا الخبيث ليس من الخير للمسلمين ، ولا للدعوة الإسلامية ، فإن دعاة السوء سيشيعون أن محمداً — وحاشاه — يقتل أصحابه ، لأن عبد الله بن أبي كان يظهر الإسلام والصحبة ويبطن النفاق والكفر ! ثم ما أجمل أن يأمر صلى الله عليه وسلم ابنه عبد الله وهو من خيرة صحابته أن يرفق بأبيه ويحسن إليه وقد هم بأن يحمل رأسه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، حسماً للفتنة ، وسبقاً إلى الطاعة ، وإثارة لمرضاة الله ورسوله على أقرب الناس إليه وأمسهم به ! . ثم أمر صلى الله عليه وسلم بالرحيل في وقت لم يكن يرتحل فيه ، ليشتغل كل بنفسه ، ويلهو عما يضرهم نار الحقد والحصام .

❦ ❦ ❦

(١) بلغه زيد بن الأرقم . وانظر قصته وتصديق الله إياه في تفسير سورة « المنافقون »

وقصة أخرى لا تقل عن هذه شأنًا إن لم تزد عليها، يرويها المفسرون وأصحاب السير أيضا. قالوا: مر قيس بن شاس اليهودي بنهر من الأوس والخزرج وهم في مجلس يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية: وكان شيخا عظيم الكفر شديد الضغينة على المسلمين، فقال: قد اجتمع ملائكة بني قيسلة^(١) بهذه البلاد والله ما لنا معهم إذا من قرار! وأمر شابا يهوديا كان معه أن يذكرهم يوم بُعث^(٢) ويثدغهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من أشعار، وكان يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على بني عمهم: ففعل عدو الله فعلته، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا حتى توائبوا وقالوا: السلاح السلاح! فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين وقال: يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم؟ فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضا، وانصرفوا مع النبي صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين: فأنزل الله عز وجل: يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين. وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله، ومن يعصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم. قال جابر: فما رأيت يوما أقبح أولا وأحسن آخرًا من ذلك اليوم.

هذا قاييل من كثير من دعوته صلوات الله وسلامه عليه إلى الألفة والوحدة، وجهاده في نبذ الشقاق والفرقة، وحسن بلائه في لم الشعث وجمع الكلمة. فهل آن لأمته، ولا سيما حملة شريعته، أن يستنوا بسنته ويمتدوا بهديه؟ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا.

تنبيه: وقع سهو أس ٨ ص ٢٠١ من العدد السابق، قباء، والصواب: المدينة.

حاشية: سأل بعض الأفاضل عما ألحق بالحرمين. والخلاصة أن العلماء اتفقوا على مضاعفة الثواب لما زيد في المسجد الحرام، واختلفوا فيما زيد في الحرم النبوي، فذهب النووي وغيره إلى أن التضعيف لا يشمل، ولكن رغبته صلى الله عليه وسلم في زيادته وتحقيق أصحابه لهذه الرغبة دليل على أن المضاعفة شاملة لما زيد فيه. ولعل الإشارة في مسجدى هذا، لإخراج المساجد المنسوبة إليه بالمدينة. وانظر: وفاء الوفاء.

(١) أم الأوس والخزرج ومما في الأصل أبناء عم.

(٢) بالعين وبالنون كخزاج، ويثكث؟ موضع بقرب المدينة. قاموس.

العقل السليم

في نظر القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم العدوي
شيخ معهد فؤاد الأول بأسبوط

القرآن الكريم كتاب الحياة ودستور الخلود . أنزله الله خاتماً للكتب السماوية ، وغاية للوحي الإلهي . وهو وإن كان كتاب الإسلام الذي هو دين الفطرة ، والذي توفرت فيه أنواع اليسر على الناس والتسهيل عليهم فيما يطلب منهم من واجبات : فإنه لم يعول على التقليد ، بل جعل العمل عدته فيما يدعو إليه . والتفكير الصحيح موائمه فيما يشرع للناس ، وفيما يفرض عليهم من حقوق . فأساليب القرآن الكريم رغم تنوعها في هداية الناس إلى الحق ، ومسالكه في جذب النفوس إلى الصراط المستقيم رغم تشعب أطرافها وتعدد نواحيها ، كلها تستمد سلطاتها من المنطق ، وتعتمد على صحيح النظر .

فهو إذ يضع الدليل القاطع بين أيدي الناس ليقفوا على ما فيه من مقدمات ونتائج ، يهيب بعقولهم لتفكر ، ويثير فيهم عاطفة الدبر والنظر . فإذا تناول الرد على منكري البعث الذين يقولون « إذا كنا عظاماً ورفاتاً إنا لمبعوثون خلقاً جديداً » قال لهم « كونوا حجارةً أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ؟ قل الذي فطركم أول مرة » : ليعلموا أن من قدر على المبدأ يقدر على المعاد ، لأنه أقرب منه منالاً ، وأقل مجالاً .

وهو إذ يحول وجهه إلى مسلك آخر من مسالكه في هداية الناس فيأمرهم بإطالة النظر في الآيات الكونية ، والتفكير في أطوار خلق الإنسان في هذه الحياة ، يعتد بالعقل كوسيلة فعالة للوصول إلى الغايات ، وسبب قوى في الحصول على سكون النفوس والقلقة وطمأنينة الفؤاد المشتت . ومن هذا النوع قوله تعالى :

فليَنظُر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، وقوله تعالى : « أنتم أشد خلنا أم السماء ، بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغشش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحّاها : أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، وقوله تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فلا يستجبوا لكم إن كنتم صادقين ، ثم يتدرج معهم الى أن يصدمهم بالحقيقة الواقعة وهي أن الأصنام في مستوى دون مستواهم ، وفي أفق غير أفقهم ، فيقول : « ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيدي يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ! قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ، وهو في كل هذه الطرق والأساليب يعمل على العقل ويحكمه في كل ما يقولون وما يعملون .

والقرآن أيضا إذ يعبد للناس طريق الهداية ، ويمهد لهم سبيل الرشاد ، فيضرب لهم الأمثال ليوازنوا بين الأمور ، ويفرقوا بين الحق والباطل ، ويقضوا على مدى الخائف بين الهدى والضلال ، فيقول : « وما يستوي البحران : هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، يعمل على العقل ، ويعتمد على تفكيره ، رغم كون الأمثال وضربها اللفظ ذريعة إلى تفهيم القلوب ، وأقوى وسيلة إلى تسخير النفوس الآلية ، لأنها تصوير للمعقول بصورة المحسوس ، وإبراز للمعاني في صورة الملموس ، وإلباس المطالب الصعبة المال ثوب المشاهد الذي لا ينسرك ، والمعلوم الذي لا يجادل فيه : ولذا يقول القرآن الكريم : « وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون ، .

بل إن القصص التي يسوقها القرآن الكريم للعبارة والاتعاظ لا يصل الناس الى الغرض منها إلا إذا حاطها العقل ، ولا تؤدي رسالتها إلا إذا كان الفكر رقيقا عليها : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ، .

ومن قبيل ما يسميه الناس على الهامش ، نقول : إننا لو تدبنا آيات القرآن الكريم ، لوجدناه ينسب التفكير إلى القلوب في أكثر الأحوال وأغلبها ، فيقول : « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ، « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، ، « وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، ، « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ، .

وتارة يشير إلى أن مركز العقل هو تجاوزيف الدماغ هناك في المخ والمخيخ
والخاع الشوكي . ولعل استنباط ذلك من قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا
الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ، سهل على الناظر البصير .

وهو في الطريق الأول ينظر إلى القلب كعضو ممتاز في جسم الإنسان يوزع
الحياة على أطرافه ونواحيه ، ويمده بأسباب البقاء : والرأس بما فيه مدين للقلب
بنموه وبقائه ، كما يشهد بذلك الطب والتشريح .

ونظرة عجيبة فيها سر دنا عليك من آيات ، وقصصنا عليك من حجج ، تكفيك
للموقف على مبلغ اعتداد القرآن الكريم في دعوة الناس إلى الحق ، بالعقل وتفكيره
والنظر وتدبيره ، والمنطق وبراهينه . فهو لا يعول على سلطان العواطف ،
ولا يعتد بالشهوات والرغبات . وإليك برهان ذلك من الكتاب العزيز :

يقول الله عز وجل لا يهيه الكريم : . إنك لا تهدي من أحببت . . ويقول سبحانه
وتعالى : . عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، ويقول : . وتخشى
الناس والله أحق أن تخشاه . . ويقول : . ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا
للشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، ويقول : يا أيها
النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك . . ويقص القرآن الكريم علينا
قوله إبراهيم لأبيه : إني أراك وقومك في ضلال مبين . . ويقول الله عز وجل : يا أيها
الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . .

ولذلك كله استباح عمر أن يخاطب عليا رضي الله عنهما حين تأخر في بيعه
أبي بكر رضي الله عنه بقوله : وما منا إلا له مقام معلوم ، ونبأ ظاهر أو مكتوم ،
وإن زعمت أنك قريب رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ، فأبو بكر قريب
منه قرابة ، والقرابة لحم ودم ، والقرابة نفس وروح . .

فالقرآن كما ترى لا يأبه للرغبات والعواطف ، ما دام العقل لا يؤيدها ، والمنطق
لا يؤازرها . فهي رغم كونها غرائز نشأت مع الإنسان وشبت معه ، لم يعرها
القرآن نظره ، بل أقام العقل عليها حارسا أميناً ، يخفف من شماسها ، ويكسر من
حدتها ، ويكبح جماحها : لتكون أداة خير وصلاح .

إسلام قریش فی فتح مکة

لم یکن بالسیف

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعیدی

المدرس بکایة اللغة العربیة

إن مما یشیر أوربا وأمريکا علی الإسلام فی عصرنا الحاضر ، جهلهم بكثير من أصوله الحققة العادلة : ومن أهم ما یجهلونه من هذه الأصول أن الإسلام لا یبيح استعمال السیف فی الدعوة إليه ، وإنما يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة : ومن أثر جهلهم بهذا الأصل ما عمدت إليه بعض المجلات الأمريکية منذ أيام ، من نشر صورة نبينا الکريم فی صورة زنجی را کب علی فرس وفي يده سيف يهدد العالم به : مع أنه لم يدع أحد إلى السلام كما دعا الإسلام إليه ، إذ قال تعالى فی الآية - ٢٠٨ - من سورة البقرة : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، وقد بلغ من حب الإسلام فی السلام أن اتخذ اسمه تحية اللقاء ، فلا يأتى مسلم شخصاً إلا بادره قائلاً : السلام عليكم ، ليكون السلام شعار المسلمين ، ويكون اسمه أكثر الأسماء ذكراً بينهم .

وقد تُعذر أمم أوربا وأمريکا فی جهلها بهذا الأصل الکريم من أصول الإسلام ؛ لأنها لا تجدد من المسلمين من يبلغه إليها على حقيقته ، ولا تجد منهم من يفهمها حقيقة الحروب التي قامت فی عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ويبين لها أنها لم تكن لإكراه الناس على الإسلام ، وإنما كانت موجهة لمن أراد فتنة أهله في دينهم ، وصر فهم عنه بالقوة : فكانت للدفاع عن العتيدة ، ولم تكن لإكراه الناس على الإيمان بها ، لأنه لا إكراه في الدين ، كما قال تعالى فی الآية - ٢٦٥ -

من سورة البقرة : « لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي » ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميعٌ عليمٌ .

بل قد تجد أمم أوروبا وأمريكا من بعض المسلمين من يزعم لها أن الإسلام انتشر بالسيف ، وأن هذه هي غايته التي يعمل لها ، فتزداد ضغنا وحقداً عليه ، وتحشى أمره إذا عادت إليه سطوته ، فتتفق كلمتها على حرب المسلمين ، وتقف حائلاً دون رجوع سطوتهم إليهم . وهي في عصرنا ذات قوة وبأس شديد . ولو أن الإسلام انتشر بالسيف حقاً لما أهتمنا أن يكون هذا سبباً في تأليبها علينا ، ولكن الحقيقة أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ، وأن ضرر هذا لا يقتصر على جمع كلمة هذه الأمم على حربنا ، بل يتخذ عندها حجة على الإسلام ، لأنها تقدر حرية الرأي والعقيدة ، ولا تبيح استعمال القوة في الإيمان بعقيدة من العقائد ؛ وهذا هو الذي جاء به الإسلام قبلها ، لأن الإيمان عنده إذعان بالقلب ، فلا يكفي فيه الإقرار باللسان من غير هذا الإذعان .

وقد كانت قريش أول من دعى من العرب إلى الإسلام ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يهتم بإسلامها أكثر من غيرها ، لأنها كانت صاحبة الزعامة الدينية في بلاد العرب ، فإذا صارت إلى الإسلام صار غيرها إليه تبعاً لها ، وقد أصرت على عنادها عشرين سنة ، حاربت فيها الإسلام أشد حرب ، وتولت زعامة القائلين بحربه من العرب ، حتى انتصر عليها في السنة الثامنة من الهجرة ، ففتح مكة في هذه السنة ، وكان قد سار إليها بجيش عظيم لم تقدر أن تقف أمامه ، فما إن دخل هذا الجيش مكة حتى بادروا أهلها إلى الإسلام ، وتركوا ما كانوا فيه من عبادة الأصنام .

وهنا يدخل في ظن كثير من الناس أن أهل مكة لم يسلموا إلا بقوة هذا الجيش ، وأنهم لو تركوا وأنفسهم لاستمروا على شركهم ، ولم يدخلوا في الإسلام دفعة واحدة كما دخلوا بعد ذلك الفتح . فإذا أردنا أن نفند هذا الظن وجب أن نرجع إلى الآيات التي أذن فيها للمسلمين بقتال قريش ، لأنها هي التي تبين لنا إن كان قتالهم لها من أجل إدخالها في الإسلام ، أو من أجل غاية أخرى غير هذه الغاية .

لقد أذن الله تعالى للمسلمين بقتال قريش في الآيتين — ٣٩ ، ٤٠ — من سورة الحج : « أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ مُّظْلَمُونَ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَيَسْعُ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ . إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . » وهاتان الآيتان صريحتان في أن الإذن بقتال قريش لم يكن لإدخالها في الإسلام ، وإنما كان لدفع ظللها عن المسلمين ، لأنها فتنتهم في دينهم ، وأخرجتهم من ديارهم بغير حق ، وأدت من قعد به الضعف منهم فأقام بينها ، ولم يهاجر إلى المدينة .

فتوالت الحروب بين قريش والمسلمين بعد الإذن في القتال لهذا الغرض من الفريقين ، فقريش تريد أن ترجعهم بالقوة إلى دينها ، وأن تقضى على هذا الدين الذي آمنوا به عن طواعية واختيار ، وهم يريدون أن يدفعوا ظللها عنهم ، ليعيشوا أحرارا آمنين في دينهم ، ولم يدخل في غرضهم أن يكرهوها على الدخول في الإسلام ، كما دخل في غرضها أن تسكرهم على الرجوع عنه .

وقد استمرت هذه الحروب إلى أن كانت السنة الثامنة من الهجرة ، وكان بين قريش والمسلمين عقد صلح ، ففقتضته وحاربت حلفاء المسلمين من خزاعة ، فسار النبي صلى الله عليه وسلم إليها بعد نقض هذا العهد لا ليكرهها على الدخول في الإسلام ، بل ليظهر قبلة المسلمين من عبادة الأصنام ، ويجعلها بيتا خالصا لعبادة الله تعالى ، كما كانت في عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

وإن من أظهر الأدلة على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد إكراه قريش على الإسلام أنه لم يجعله شرطا فيما أعطاه من الأمان لها ، بل دخل مكة من أعلاها وجيشه ينادى : من دخل داره وأغلق بابها فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . ولم يذكر في ندائه « من أسلم فهو آمن » ، لأنه يريد إيمانا خالصا عن طوعية واختيار ، وليس فيه شائبة قهر وإكراه .

أمهات المشاكل الفلسفية

عند ابن رشد

لحاضرة الاستاذ الدكتور محمد غلاب

تمهيد :

لا ريب أن بسط الحركة الفكرية في عصر من العصور يتطلب من الباحث عرض آرائه الشخصية في تاريخ الفلسفة عامة ، وفي الأنهاج التي سلكها أهل ذلك العصر خاصة . وكلما كان للبيئة المراد درسها اتصال وثيق بنفسه ، كان ذلك أدعى إلى حذره من سلطان العاطفة ، واحتياظه من فتنة الهوى ، لتصح مقاييسه ، وتعادل موازناته ، وتبرأ أحكامه من الخطأ بقدر المستطاع .

ولما كانت دراسة أهمية العصر ومزاياه ومظاهره الاجتماعية والسياسية ضرورة لا نزاع فيها لكشف خفايا المعضلات الفلسفية التي شغلت المفكرين في ذلك العصر من جانب ، ولما كان تاريخ الفلسفة من بعض وجوهه هو دراسة المحاولات التي قام بها الأفاضل من رجال الفكر في حل أهم المعضلات الكونية والجهود التي بذلوها في تلك السبل والمسلكات التي احتملوها من جرم إيمانهم بمبادئهم من جانب آخر ، فقد حق على كل من يتصدى لتاريخ الفكر أن يلم بهذه العوامل المؤثرة تأثيراً فعلياً مباشراً أو غير مباشر في تكوين هذا الفكر وفي تطورات ما مر به من مشكلات وحلول . ونحن على يقين من أن إلقاء الضوء على تعيين المشكلات الأساسية التي تعنى بها الفلسفة ، والطرائق التي تعرض بها تلك المشاكل على بسط البحث في العصور المختلفة ، والأسباب التي تحدد تلك الطرائق ، والمحاولات الفردية التي قام بها كل فيلسوف على حدة ، وما إلى ذلك من بواهر النتائج العقلية — لم يكن إلا ثمرة من ثمار الموازنة بين تلك العوامل .

على أن هذه العناية بالبيئة ومؤثراتها لا ينبغي أن تفسوت علينا الاهتمام بالمواهب الشخصية للمفكرين ، وبكل الأحداث التي يمكن أن تشرح منتجاتهم ، وتوضح آراءهم ، وتبلى أسباب اتجاهاتهم من الناحية النفسية البحتة ؛ وكذلك لا ينبغي

أن نغفل المظاهر المتباينة التي اتخذتها المشكلات وما تعاقب عليها من تطورات منذ أقدم العصور التي عرضت فيها ، لأن مجموعة هذه المظاهر وتلك التطورات هي التي تولف من المشكلات كيائها المئين الذي هو منشأ مغالبتها أحداث الدهر ، ومآتي بقائها على الزمن .

كانت الفلسفة الإسلامية إبان النهضة العربية تسكون مع الفلسفة الإغريقية كلاً منسجماً بلغ اتساقه حد الائتلاف الذي صار من العسير معه فصل أحد الإنتاجين عن الآخر ، فحمل ذلك عدداً غير يسير من الباحثين القدماء والمحدثين على تقرير أن مفكرى الإسلام لا يزيدون على أنهم نقلة أو مقلدون . ولا جرم أن هذا يقتضى من المعنيين بدراسة الحركات الفكرية مضاعفة جهودهم لإمطاة اللثام عن هذه الحقيقة . وذلك لا يتيسر إلا بالوقوف على منتجات أولئك الأعلام دراسة وتحليلاً ، وموازنة واستنباطاً ، حتى يتيسر لهم تحديد المنزلة الحقيقية التي تشغلها كل طائفة من المنتجات بإزاء غيرها . وهذا هو الذى سنحاوله آملين أن نهتدى إلى كشف المكانة الدقيقة التي تسحقها الفلسفة الإسلامية بين صفوف الفلسفة العامة : فإذا فرغنا من هذه المهمة عينا بالموازنة بين منتجات المشرق والمغرب من هذه الفلسفة ، ثم حددنا موضع كل منهما تجاه الأخرى .

بيد أنه لما كانت الفلسفة المغربية قد انتهلت من ينابيع الإغريقية الأصلية بطريقة مباشرة - إذا صح هذا التعبير - من جهة ، وسلكت في فهمها ذلك التراث وتوجيهها إياه وسائل أخرى غير التي سلكتها الفلسفة المشرقية من جهة ثانية ، وكانت في عمومها أو رتودوكسية أى أكثر ولائاً لأرسطو الحقيقي ، وأشد استمساكاً بآرائه الصحيحة من جهة ثالثة ، وكانت تظاهر بأنها تنعقب ذلك الإنتاج العربى لتقده أكثر مما تسفيد منه من جهة رابعة ، فقد دفعنا كل ذلك إلى أن نستجيب لما لدينا من العوامل الخاصة التي حملتنا على أن نغنى اليوم بدراسة أمهات المشاكل لفلسفية عند عين أعلام الفلسفة المغربية ، وهو ابن رشد . وإليك البيان :

(١) واجب الوجود ومعرفة بالنظر

لما كان الفلاسفة الذين تقدموا ابن رشد قد أجمعوا على أن الأداة الضرورية لمعرفة البارى ولفهم أسرار الكون - فضلاً عن الحكم عليها - هي المنطق

أو اتقانون العقلي الذي تعصم مراعاته الذهن عن الخطأ في الفكر . فقد كان من الطبيعي أن يتابع هذا النهج فيقرر أن معرفة مبدع الكون عن طريق التقليد من خصائص العامة ، وأنها لا قيمة لها لدى تصفيرة الممازاة التي انقهرها السماء لتكون موطن الحكمة ، أو لتؤدي رسالة كشف الحجب الكونية عما وراءها من أنوار باهرة ، وأسرار ساحرة . ولا جرم أن هذا يقتضى طلب تلك المعرفة عن طريق النظر المحض ، وأن هذا النظر لا يتيسر إلا لمن درس أداته الضرورية وهي المنطق دراسة عميقة تؤهله لاستخدامه على خير وجه حتى تكون النتائج مستبظة من أقيسة يقينية لا يتطرق إليها الارتباب . وليس هذا لحسب ، بل إنه أراد أن يخلق على النظر الفلسفي أحد دعوات القمداسة ، فجرح إلى محاولة إثبات أن الشرع قد أوجبه ، واستدل على دعواه هذه بذكر آيات من القرآن بحث الإنسان العاقل على التأمل في ملكوت السموات والأرض ليستنبط وجود مبدعه من النظر ، فسموا بعقله عن الإيمان التقليدي الذي هو من شأن الجماهير . وهو في هذا يقول :

« وإذا تقرر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها ، وكان الاعتبار ليس شيئاً أكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه ، وهذا هو القياس أو بالقياس ، فواجب أن نجعل نظرتنا في الموجودات بالقياس العقلي : وبين أن هذا النحو من النظر الذي دعا إليه الشرع وحث عليه هو أتم أنواع النظر بأنواع القياس ، وهو المسمى برهاناً . وإذا كان الشرع قد حث على معرفة الله تعالى وموجوداته بالبرهان ، كان من الأفضل أو الأمر الضروري لمن أراد أن يعلم الله تبارك وتعالى وسائر الموجودات بالبرهان أن يتقدم أولاً فيعلم أنواع البراهين وشروطها ، وبماذا يخالف القياس البرهان القياسي الجدلي والقياس الخطابي ، والقياس المغالطي ، وكان لا يمكن ذلك دون أن يتقدم فيعرف قبل ذلك ما هو القياس المطلق ، وكيف أنواعه ، وما منها قياس وما منها ليس بقياس . وذلك لا يمكن أيضاً ، أو يتقدم فيعرف قبل ذلك أجزاء القياس التي منها تتممت : أعني المقدمات وأنواعها (١) . »

(١) انظر صفحة ٣ « من فصل المقال فيها الحكمة والتربية من الاتصال » لابن رشد

ومما يسترعى الانتباه ، بل مما هو جدير بالتقدير في هذا الموقف هو صعود
فيلسوفنا بالباحث على درجات سلم المعرفة في أناة وتؤدة ، ومروره بوسائلها
الضرورية مروراً طبيعياً ليس فيه قفز ولا وثوب . فيبدأ بإرشاد الباحث بدياً
إلى التساؤل عن علم القياس هل سبق إليه الأولون أو لم يسبقوا ، فإن كانت
الثانية وجب عليه أن يحاول ابتكاره لينصبه معياراً لبحوثنا . وإن كانت الأولى
فقد لزمه التفتيش في كتب الأقدمين عن مبادئ ذلك العلم الهادى إلى الحق ، فإذا
عثر عليها تأمل فيها حتى يصبح قادراً على الانتفاع بها في إمارة اللثام عن معميات
الوجود ، دون أن تقف مخالفة أربابها له في العقيدة حجرة عثرة في سبيل الاستفادة
منها ، والاسترشاد بها . ولكن ليس معنى هذا التلذذ على الأقدمين أنه يكون
عبداً لهم ، بل إن لديه أتم أنواع الحرية في قبول ما يتبين أنه الحق ، وفي رفض
ما ينم عن زيف أو بطلان : وتلك هي أحدث وسائل البحث ، وبها يكون ابن رشد
قد سبق الباحثين المعاصرين إلى المناهج الحديثة بأكثر من سبعة قرون ، وهذا
الامتياز البديع هو الذى يحملنا على ذكر عبارته في هذا مع ما قد يبدو في ذلك
من إطالة : واليك تلك العبارة :

« وإذا تقرر أنه يجب بالشرح النظر في القياس العقلي وأنواعه كما يجب النظر
في القياس الفقهي ، فبيّن أنه إن كان لم يتقدم أحد ممن قبلنا بفحص عن القياس
العقلي وأنواعه أنه يجب علينا أن نبتدىء بالفحص عنه ، وأن نستعين في ذلك
المناخز بالمقدم حتى تكمل المعرفة به ، فإنه عسير أو غير ممكن أن يقف واحد
من الناس من تلقائه وابتداءً على جميع ما يحتاج إليه من ذلك ، كما أنه عسير أن
يستنبط واحد جميع ما يحتاج إليه من معرفة أنواع القياس الفقهي ؛ بل معرفة
القياس العقلي أخرى بذلك وإن كان غيرنا قد فحص عن ذلك . فبيّن أنه يجب
علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك ، وسواء كان
ذلك الغير مشاركاً لنا أو غير مشارك في الملة ، فإن الآلة التي تصح بها التزكية
ليس يعزير في صحة التزكية بها كونها آلة لمشارك لنا في الملة أو غير مشارك
إذا كانت فيها شروط الصحة ، وأعني بغير المشارك من نظر في هذه الأشياء
من القدماء قبل ملة الإسلام : وإذا كان الأمر هكذا ، وكان كل ما يحتاج إليه
من النظر في أمر المقاييس العقلية قد فحص عنه القدماء أتم فحص ، فقد ينبغي

أن نضرب بأيدينا الى كتبهم فننظر فيما قالوه من ذلك ، فإن كان كاه صواباً قبلناه منهم ، وإن كان فيه ما ليس بصواب فيها عليه (١) .

الآن وبعد أن فرغ ابن رشد من تقرير أن النظر هو الوسيلة المثلى لمعرفة الباري ، فقد أراد الترقى بالباحث الى مرتبة أسمى من التي انتهى منها ، وبجملها أن الشرع وسيلة الى الغاية العليا وهي الحكمة التي هي الحق والخير ، وأن الإيمان بغير هذه العقيدة ضرب من الجهل أو من الضلال ، وهو يشير الى هذا فيقول : « وينبغي أن تعلم أن مقصود الشرع إنما هو تعلم العلم الحق والعمل الحق : والعلم الحق هو معرفة الله تعالى وسائر الموجودات على ما هي عليه ، وبخاصة الشريعة منها ، ومعرفة السعادة الآخروية والشقاء الآخروى . والعمل الحق هو أمثال الأفعال التي تفيد السعادة ، وتجنب الأفعال التي تفيد الشقاء . والمعرفة بهذه الأفعال هي التي تسمى العلم العملى (٢) . »

وإذا ، فقد بان من كل هذا أن الغاية التي ترمى إليها جميع الشرائع ، ويرنو إليها العقل البشرى فى شوق وشغف ، ويهدف إليها الفلاسفة من بحوثهم المستفيضة ، ومجهوداتهم المتواصلة هي غاية واحدة ، وهي معرفة السر الاسمى لهذا الوجود وما انبثق عنه من أسرار ثانوية . ولما كانت الأدلة التي أسلفها الحكماء من الإغريق وفلاسفة الإسلام الشرقيين قد اشتملت على القدر الكافى لإثبات وجوب وجود الباري ووحدانيته وكلمه وسموه عن الند والشبه والتقسيم والتألف والحيثيات والزمان والمكان ، والكيف والانحصار . واتشخص والتحدد ، وما الى ذلك مما يتنافى مع مقام الألوهية الحقبة التي تقتضى أرفع مراتب التنزيه : ولما كانت أدلة ابن رشد على هذا كاه لا تكاد تعدو ما أتى به أولئك الأعلام فى هذا الصدد ، فقد اعتبرناها غير مبنكرة . ولهذا رأينا الإغضاء عنها هنا اكتفاء بما سبقها من منتجات أسلافه ، وركزنا اهتمامنا فيما بدا فيه تجديد ابن رشد ناصعاً جلياً ، وموعدنا المقال الآتى .

(١) راجع صفحتى ٤ و ٥ من كتاب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » لابن رشد .

(٢) ارجع الى صفحتى ١٨ و ١٩ من المرجع السابق .

هل بعث الرسول الى الجن

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسن حسين
المدرس في الأزهر

المستفيض على السنة العلياء في كتب الشريعة الإسلامية أن الله تعالى بعث رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الجن كما بعثه إلى الإنس . وهناك روايتان مشهورتان في هذا الموضوع : رواية « ابن مسعود » ، ورواية « ابن عباس » . سأذكرهما ، ونذكر أقوال العلماء فيهما ، بعد أن نبين أن بعض الفرق أنكر وجود الجن إطلاقا ، وأن العلماء حكموا عليهم بالكفر ، ونبين آراء الذين أثبتوا وجود الجن من ناحية أنهم أجسام ، أو حالون في الأجسام ، أو أنهم قوى خفية ، إلى غير ذلك مما يتصل بهذا الموضوع اتصالا وثيقا ، فنقول :

أنكر بعض الفلاسفة والمعتزلة ، والقدرية ، وبعض أهل الكتاب ، وجود الجن إطلاقا . وهؤلاء لا يشملهم بحثنا ، لأن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الجن إنما تكون حيث يوجد الجن ولا وجود لهم في نظر هؤلاء . وقد حكم العلماء على هذه الطوائف التي أنكرت وجود الجن بالكفر ، لمصادمة آرائهم صريح القرآن الكريم : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدي إلى الرشاد فآمنّا به ولن نَشْرِكَ بِرَبِّنا أحدا ، إلى آخر سورة الجن . وقوله تعالى في سورة الاحقاف : « وإذ صرّفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم مُنذِرِينَ . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيئوا داعي الله ، إلى آخسر الآيات الواردة في الجن في هذه السورة الكريمة ، وقوله تعالى في سورة الحجر : « ولقد خلقنا الإنسان من صلال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم » إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي تثبت وجود الجن صراحة .

والمصادمة آرائهم أيضا ما وقع عليه إجماع طوائف المسلمين ، وعلى رأسهم الصحابة والتابعون ، مما يكاد يكون معلوما من الدين بالضرورة .

ولما عرّف الشيخ الرئيس ابن سينا ، الجن ، في رسالته التي ألفها في حدود الأشياء بأنه : حيوان هوائي ، تتشكل بأشكال مختلفة ، وقال : هذا شرح للاسم ، فهم العلماء أن ابن سينا ينكر حقيقة الجن ، وأنها ليس لها وجود في الخارج ، إذ لو كان لما عدل عن تعريفها إلى شرح اللفظ . وعندى أنه استنتاج من العلماء ، فإن الرئيس لم يصرح بنفي الحقيقة والماهية ، وإنما اكتفى بشرح الاسم ، وهذا لا يعنى حتما اعتقاده نفي الوجود الخارجى ، ولم لا يجوز أن يكون سلك هذا السبيل لعدم معرفته ذاتيات الجن ؟ ومعلوم أن تعريف شئ بحقيقته وماهيته فرع العلم بذاتيات الماهية .

ولا شك عندى أن الصيرورة إلى هذا أفضل من أن نحشر ابن سينا في زمرة المنكرين المحكوم عليهم بالكفر .

هذا وقد أثبت وجود الجن طوائف المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، وتواتر ذلك عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وعن التابعين وعلماء أهل الكتاب وأتباع الرسل السابقين ، ومشركي العرب وغيرهم ، مما صار مشهوراً مستفيضاً متواتراً .

وافترق المثبتون إلى فرقتين : فرقة ترى أنها ليست أجساما ولا حالة فى الأجسام ، وإنما هى جواهر قائمة بأنفسها كالأرواح ، إلا أن أنواعها مختلفة بالماهية : فبعضها خيرة ، وبعضها شريرة ، وبعضها كريمة محبة للخير ، وبعضها دنيئة محبة للشرور والآفات . وأصحاب هذا الرأى لا يجدون مانعا من أنها تتعلق وتتصل ببعض أجسام هذا العالم — البشر — ما دامت كالأرواح .

وفرقة ترى أنها أجسام خفية عاقلة تغلب عليها النارية ، كما يشهد له قوله تعالى : **وَنَخْلُقُ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ** ، وهى قابلة للتشكل بأشكال مختلفة ترى بغير صورها الأصلية ، ولا يراها بصورها الأصلية إلا الأنبياء عليهم السلام . وخواص الخواص من المؤمنين .

وأصحاب هذا الرأى انقسموا إلى فرقتين : إحداهما تقول : إن هذه الأجسام مشتركة فى كونها حاصلة فى الحيز والمكان والجهة ، وموصوفة بالطول

والعرض والعمق ، ومختلفة في ماهيتها ؛ لأن الاشتراك في الصفات لا يقتضى الاشتراك في تمام الماهية . وثانيتهما تقول : إنها مشتركة في الصفات ، ومتساوية في تمام الماهية .

وقد توجه إلى أصحاب هذا المذهب (مذهب المجسمة) ، وإلى أصحاب المذهب الأول (مذهب القوى الخفية) ، اعتراضات كثيرة وجدل عنيف ، ومناقشات حادة قاهراً بدفعها والردود عليها ، ولو نقلناها هنا لطلال بنا المقام .

والذى يعنيننا فى هذا البحث هو أن الجن موجود ، سواء كان ' قوى ، أو أجساماً : فإن بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم تنوقف على وجودهم كما أسلفنا .

وهناك فى هذا الموضوع مذهبان مشهوران : مذهب ابن عباس ، ومذهب ابن مسعود .

مذهب ابن عباس :

يلخص فى آية النبى صلى الله عليه وسلم لم يبعث إلى الجن . ولم يأمره الله بتبليغهم . وإنما استمع الجن للقرآن الكريم صدقة واتفاقاً فآمنوا به ، وكان استماعهم له أثناء مرورهم بأحبة عكاظ للبحث عن السبب الذى منعهم من استراق السمع من السماء : وذلك أن الجن والشياطين كانوا — فى المدة الواقعة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام — يسترقون السمع ويخطفون الخطفة من ملائكة السماء ويلفونها للكلمة ، فتضيف الكلمة على الكلمة الصادقة مائة كذبة ، كما ورد فى صحيح البخارى : فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، رُميت بالشهب ، ومُنعت من استراق السمع : وذلك ما حكاه الله عنهم فى سورة الجن ، وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وأتاكمنا نقعد منها مقاعد السَّمْع ، فَمَنْ يَسْمَعُ الآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَاباً رَصِداً . وأنا لا ندرى أَهَرَأْرِيدُ يَمَسُّنَ فى الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً . فالتفتوا حول إبليس وشكوا له منهم من أمر السماء ، ففرقهم طوائف وأمرهم أن يطفؤوا حول الأرض كلها للبحث عن هذا الحدث العظيم ؛ فاتفق أن مرّت طائفة منهم جهة عكاظ ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يصلى الصبح بأصحابه ويحمر

بالقراءة ، فاستمع له الجن وقالوا : هذا والله هو الذى منعنا من أمر السماء ! ثم ولوا إلى قومهم منذرين ، دون أن يعلم الرسول من أمرهم شيئاً حتى أخبره الله بقوله : قل أوحى . الخ .

وإليك نص رواية البخارى عن ابن عباس : قال البخارى فى باب تفسير سورة قل أوحى : حدثنا موسى بن اسماعيل ، حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين فقالوا : ما لكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب . قال : ما حال بكم وبين خبر السماء إلا ما حدث ؟ فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ما هذا الأمر الذى حدث ؟ فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذى حال بينهم وبين خبر السماء ؟ قال : فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحلة وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمعون له ، فقالوا : هذا الذى حال بكم وبين خبر السماء . فهالك رجعوا إلى قومهم ، فقالوا : يا قوم ما لنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشd فأما به ولن نشرك بربنا أحداً . وأنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم . قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ، وإنما أوحى إليه قول الجن اه . هذه رواية البخارى بنصها عن ابن عباس . وقد رواها غيره بزيادات . وسند ذكر أقوال العلماء فى مذهب ابن عباس بعد أن تبين مذهب ابن مسعود .

مذهب ابن مسعود :

هو صريح فى أن الله تعالى أمر محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يبلغ الجن ، وأنه صلى الله عليه وسلم رسول إلى الجن كما هو رسول إلى الانس ، وأن الجن مكفون بأصول الشريعة وفروعها كالانس سواء . فقد جاء فى رواية عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أمرت أن أتلى القرآن على الجن » . وفى رواية أخرى عنه « أرسلت إلى الجن » . وهذا صريح فى أنه صلى الله عليه وسلم بعث إلى الجن .

واسمع رواية ابن مسعود بنصها : قال ابن مسعود : قال عليه الصلاة والسلام :
 « أمرت أن أتلو القرآن على الجن ، فمن يذهب معي ، ؟ فسكتوا ، ثم قال الثانية
 فسكتوا ، ثم قال الثالثة ، فقال عبد الله : قلت : أنا أذهب معك يا رسول الله .
 قال : فانطلق حتى إذا جاء الحُجُجُون عند شعب أبي دب ، خطب عليّ خطباً فقال :
 لا تجاوزوه . ثم مضى الى الحجون ، فالتحدروا عليه أمثال الحجل كأنهم رجال الزُّط
 يقرعون في دفوفهم كما تقرع النسوة في دفوفها حتى غشوه ، فغاب عن بصرى ،
 فقامت ، فأومأ الى يده أن اجلس : ثم تلا القرآن ، فلم يزل صوته يرتفع ،
 ولصقوا بالأرض حتى صرت أسمع صوتهم ولا أراهم ، فلما عاد الى قال : أردت
 أن تأتيني ؟ فقلت : نعم يا رسول الله . قال : ما كان ذلك لك : هؤلاء الجن أتوا
 يستمعون القرآن ، ثم ولوا إلى قومهم منذرين اه .

وروى أبو داود عن علقمة عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ،
 قال : أتاني داعي الجن فذهبت معه وقرأت عليهم القرآن : قال : وانطلق بنا
 وأرانا آثارهم وآثار نيرانهم . وفي شرح البيهقي من طرق شتى عن ابن مسعود
 أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى العشاء ثم انصرف فأخذ بيدي حتى أتينا مكان
 كذا . وفي آخر هذه الرواية ما نصه : فقلت : أين كنت يا رسول الله ؟ فقال :
 « أرسلت الى الجن ، فقلت : ماهذه الأصوات التي سمعت ؟ قال : هي أصواتهم حين
 ودعوني وسلبوا عليّ اه .

من هذه الروايات يتبين لك منها أيها القارئ الكريم ، أن الله تعالى أرسل
 محمداً صلى الله عليه وسلم الى الجن كما أرسله الى الإنس ، وأنه أمره بأن يتلو
 عليهم القرآن ، وأن بعض الجن مؤمن وبعضهم كافر ، مثلهم في ذلك مثل الإنس .
 انظر الى قول الله تعالى حكاية عنهم في سورة الجن : « وأنا لما سمعنا الهدى آمنا
 به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ،
 فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً . » وتثبت
 آيات الاحقاف بأن من الجن دعاة الى هداية قومهم . انظر الى قوله تعالى :
 « قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى
 الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم

وَيُخْرِجُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ . وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

وبعد ، فاعلم أيها القارى الكريم أن الذى عليه الممول لدى العلماء إنما هو مذهب ابن مسعود الموافق لصريح القرآن الكريم ، وأن مذهب ابن عباس لا يتنافى مع مذهب ابن مسعود . فإن ما ذكره ابن عباس وقع أولا ، فأوحى الله تعالى الى الرسول « قل أوحى إلى » . ثم أمر بعد ذلك بالخروج إليهم . وقد قال العلماء : إن واقعة الجن تكررت ست مرات ، وإن الواقعة التى رواها ابن عباس كانت أول الواقعات ، فإنها كانت قبل الهجرة بثلاث سنين .

ونحنى ابن عباس بعث الرسول إلى الجن ليس على إطلاقه ، وإنما هو خاص بهذه الواقعة الأولى فقط . وحاشا ابن عباس أن يخالف صريح القرآن . ومضى أمكن الجمع بين الروايات وجب الجمع . كما أسلفا .

ويقول العلامة ابن تيمية : إن ابن عباس علم ما حكاه القرآن ولم يعلم ما علمه ابن مسعود . فإن الواقعة الأولى التى رواها ابن عباس وقعت فى وقت كان ابن عباس فيه شابا حداثا ، لأنه لم يباهر الحلم إلا فى حجة الوداع . ومهما يكن من شيء فالواقعة تكررت . وهذا هو سبيل الجمع بين الروايات .

وقبل أن أختم هذا المقال أود أن ألفت النظر إلى ما فى قول الله تعالى : « قل أوحى إلى » الآية من أسرار - ففيها :

(١) أن الصحابة عرفوا أنه عليه الصلاة والسلام بعث إلى الجن كما بعث إلى الإنس .

(٢) توبيخ قريش بأن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فأمنوا به ولم يعاندوا كما عاندت قريش .

(٣) أن يعلم القوم أن الجن مسكفون كالإنس .

(٤) أن الجن يسمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا .

(٥) أن فيهم مرشدين يدعون أقوامهم إلى التوحيد . وفى آيات الاحقاف

ما يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى الجن وكلمهم ودعاهم إلى الإسلام وجعل منهم رسلا إلى أقوامهم .

وقتنا الله جميعا إلى ما فيه الرشاد .

نظرية الارتكاب بالترك

في الشريعة الإسلامية وفي القانون المقارن

لحضرة الأستاذ المحترم الدكتور أحمد محمد إبراهيم

من وكلاء النيابة العمومية

يتنا فيما تقدم معنى نظرية الارتكاب بالترك والآراء المختلفة في حكمها ، ويجدر بنا قبل أن نبين حكم هذه النظرية في الشريعة الغراء ، أن نذكر أن الحكم التكليفي الذي قد يوجب العقاب إما أمر وإما نهى . فعدم طاعة الأمر هو الجريمة السلبية ، وارتكاب ما نهى عنه هو الجريمة الإيجابية : وقد عبر عن ذلك مؤلف كتاب مبادئ الأحكام بقوله : « والعقوبة تكون على فعل محرم ، أو ترك واجب أو سنة أو فعل مكروه »^(١) . ومثال الجريمة الإيجابية في الشريعة : القتل والسرقة والزنا وقطع الطريق . ومثال الجريمة السلبية : امتناع المدين المورس عن سداد دينه ، وعدم إقامة المسلم الصلاة ، وامتناعه عن إيتاء الزكاة .

ولما كانت الأمثلة التي ذكرها فقهاء الشريعة ، فيما يسمى بنظرية الارتكاب بالترك ، قد وردت عند كلامهم على جريمة القتل ، فيحسن أن نوضح ماهية الوسيلة القاتلة في المذاهب المختلفة ، لأنها محل خلاف بينهم : وليس الارتكاب بالترك إلا وسيلة من وسائل القتل .

يرى الامام أبو حنيفة أن الآلة المستعملة في القتل يجب أن تكون محددة ، أي مفرقة للأجزاء : فإن لم تكن كذلك فلا يعتبر القتل عمداً . واعتبر الصحبان الآلة قاتلة إذا كانت لا تلبث ، أي لا تحتملها النفس .

ويرى الشافعي وأحمد أن أي وسيلة قاتلة تجمل القتل عمداً ، ولو لم تكن محددة . ومذهب مالك أن القتل يعتبر عمداً متى كانت الآلة قاتلة ، سواء كان الاعتداء على سبيل القتل أو اللعب . أما إذا كانت الآلة غير قاتلة فيعتبر القتل خطأً إن كان الاعتداء على وجه اللعب أو التأديب : فإن كان عداوة فالقتل عمداً .

وعند أهل الظاهر يعتبر القتل عمدا إذا كان نتيجة اعتداء يمت من مثله ، أو لا يمت من مثله . أما ما لا يموت من مثله أحد أصلا فليس عمدا ولا خطأ ، ولا شيء فيه إلا الأدب ^(١) .

وفيما يلي بعض أمثلة الارتكاب بالترك التي ذكرها الفقهاء وبيان حكمها :
إذا حبس المجنى عليه في مكان ومنع عنه الطعام والشراب مدة لا يبق فيها حتى يموت ، فعلى الحابس القود عند أحمد والشافعي ومالك . لأن الحبس مع منع الطعام والشراب يقتل غالبا ؛ وترتب القتل على ذلك يختلف باختلاف الأشخاص والظروف ؛ فإذا كان الشخص عطشا في شدة الحر مثلا ، مات في الزمن القليل ^(٢) . والحكم كذلك إذا منعه الدفء وكان البرد يقتل غالبا ^(٣) .

وفي مذهب مالك ذكر ابن يونس عن بعض القرويين ، أن من منع فضل مائه مسافرا عالما بأنه لا يحل له منعه ، وأنه يموت إن لم يسقه ، قتل به . وإن لم يل قتله يديه . وظاهر ذلك أنه يقتل به سواء قصد بمنعه قتله أو تعذيبه ^(٤) . وعنده أيضا - حيث يقتل الأصل بفرعه خلافا لجمهور الفقهاء - نص على أنه إذا منعت الأم ولدها الرضاع حتى مات ، تمثل إن قصدت قتله ^(٥) . وفي مذهبه أيضا أنه إذا أمر شخص آخر بقتل ثالث ، فيقتص من المباشر دون الأمر إلا إذا كان حاضرا فيقتل أيضا لقدرته على خلاصه ^(٦) .

وجاء في الفتاوى الكبرى (في مذهب الشافعي) أنه إذا حضر نساء ولادة ذكر ، فقطعت إحداهن سرته من غير ربط ، ونهاها الباقيات ، فمات بعد القطع بتليل : فإن كان يقتل غالبا فيجب القود عليها . ولو قيل بوجوب القود على الجميع إذا لم يرين الربط ، لم يبعد ؛ لأن المهلك ترك الربط . ولأن البرء مؤثوق به

(١) راجع مؤلفنا « القصاص » ص ٤١ وما بعدها والمراجع للشار إليها .

(٢) الترح الكبير - ٩ ص ٣٢٨ . المذهب - ٢ ص ١٨٨ .

(٣) كشف القناع - ٣ ص ٣٣٦ . شرح المنهاج - ٣ ص ٣٦٧ .

(٤) حاشية المسوق - ٤ ص ٢٨٥ . حاشية العاوي - ٢ ص ٢٤٦ .

(٥) شرح الدردير الكبير - ٤ ص ٢٨٥ .

(٦) شرح الخرنج - ٨ ص ١٢ .

لو ربط في العادة المطردة ، فالهلاك ينسب إليهن كلهن فيلزم من القود ،
والإفدية العمد (١) .

وعند الأحناف : لا قود أصلاً في الارتكاب بالترك (٢) .

واعمل أكبر أنصار الارتكاب بالترك ، ودافعيه إلى أبعد حدوده ، هو أبو محمد
ابن حزم . وتنقل هنا كلامه بحروفه :

٢٠٩٧ - مسألة : من استسقى قوما فلم يسقوه حتى مات . .

وقال علي : رويانا من طريق أبي بكر بن أبي شيبة أخبرنا حفص بن غياث عن
الأشعث عن الحسن ، أن رجلاً استسقى على باب قوم فأبوا أن يسقوه ، فأدركه
العطش : فضمّهم عمر بن الخطاب دية .

وقال أبو محمد : القول في هذا عندنا ، وبالله تعالى التوفيق ، هو أن الذين لم
يسقوه إن كانوا يعلمون أنه لا ماء له البتة إلا عندهم ولا يمكنه إدراكه أصلاً حتى
يموت ، فهم قتلوه عمداً وعليهم القود بأن يمسحوا الماء حتى يموتوا ، كثروا أم قلوا .
ولا يدخل في ذلك من لم يعلم بأمره منهم ، ولا من لم يمكنه أن يسقيه .
فإن كانوا لا يعلمون ذلك ولا يتدبرون أنه سيذوق الماء ، فهم قتلة خطأ ، وعليهم
الكفارة ، وعلى عواقبهم الدية ولا بد . برهان ذلك قول الله تعالى : فمن اعتدى
عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، وقال تعالى : والحرمات قصاص . .
ويبين يدرى كل مسلم في العالم أن من استسقاء مسلم وهو قادر على أن يسقيه
فتعمد ألا يسقيه إلى أن مات عطشاً ، فإنه قد اعتدى عليه بلا خلاف من أحد
من الأمة . وإذا اعتدى فواجب بهن القرآن أن يمتدى على المعتدى بمثل
ما اعتدى به ، فصح قولنا يبين لا إشكال فيه . وأما إذا لم يعلم بذلك فقد قتله ،
إذ منعه ما لا حياة له إلا به ، فهو قاتل خطأ ، فعليه ما على قاتل الخطأ .

وقال أبو محمد : وهكذا القول في الجائع والعاري ولا فرق ، وكل ذلك
عدوان . وليس هذا كمن اتبعه سبع فلم يؤووه حتى أكله السبع : لأن السبع
هو القاتل له ، ولم يمت من جنايتهم ولا مما تولد من جنايتهم . ولكن لو تركوه

(١) الفتاوى الكبرى ج ٤ ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٢) ابن عابدين ج ٥ ص ٥٣٦ .

فأخذ السبع وهم قادرون على إنقاذه فهم قتلة عمر ، إذ لم يمت إلا من فعلهم : وهذا كمن أدخلوه في بيت ومنعوه حتى مات ، ولا فرق ^(١) .

وهكذا نرى فقهاء الشريعة الغراء قد سبقوا العالم في الكلام عن الارتكاب بالترك ، وإن لم يعرفوا هذا الاسم . وظاهر أنهم قالوا بالنظريات الحديثة المختلفة : فلا يعتبر القتل بهذه الوسيلة موجبا للقصاص في مذهب أبي حنيفة . وأجاز البعض القصاص متى كان على الإنسان واجب قانوني كحالة الأم التي تمنع عن إرضاع ابنها ، أو كان عليه واجب أوجب به فعل نفسه كحالة من يحبس آخر ويمنع عنه الطعام والشراب . بل وقال البعض بالقصاص ولو كان على المرء واجب تلمية الإنسانية ، كامتناع شخص عن إعطاء من هو على وشك الموت جوعا فضل طعامه . وعلة هذا التوسع الأخير ترجع إلى أن الشريعة الغراء توجب على الناس أن يتعاونوا ، وأن يساعد كل واحد منهم أخاه قدر طاقته ، وإلا كان آثما . وإن مجتمعاً يقوم على هذه الأسس فهو خير مجتمع يمكن أن تراه البشرية .

ونحن نرى ضرورة العقاب في حالة الارتكاب بالترك ، ولو لم يكن على الممتنع إلا واجب تلمية الإنسانية وتفضييه المروءة ، إذا كان قيامه بهذا الواجب لا يعود عليه منه ضرر يذكر ، فلم لا يعد قاتلا ذلك الذي يرى شخصا على وشك الغرق ويمتنع عن إلقاء حلقة النجاة التي في يده للغريق قاصدا غرقه : أو ذلك الذي يمتنع عن إعطاء شخص على وشك الموت من انظما جرعة من الماء ؟ فمثل هذه النفوس التي تضرب بتقديم مساعدة لا يعود عليها منها ضرر يذكر ، ويترتب عليها قتل نفس حية ، يجب أن يعدها القانون خطرة ، وأن يعاقب صاحبها .

فالشريعة الغراء توجب التكافل والتعاون بين الناس . ولا أدل على ذلك

(١) المحلى ١٠ ص ٥٢٢ - ٥٢٣ - ونس في مذهب أحمد في باب الدية على أنه لا ضمان على من رأى إنسانا في مهلكة فلم ينجها منها مع قدرته على ذلك ، وقد أساء ، لأنه لم يملكه ولم يكن سببا في هلاكه (للنبي ٩ ص ٥٨١) وظاهر من هذا التعليل أنه يوافق ما تقول به النظرية الرئيسية من أن الواجب السببي هو الامتناع والنتيجة .

مما نص عليه الفقهاء من أنه إذا نزلت بشخص مخصّة ووجد مع رجل طعاماً ، فامتنع عن إطعامه ومن مساومته ، فإن له أن يقتله ، ولا شيء عليه إن قتله (١) .

وقد حكى أبو يوسف رحمه الله تعالى ، في كتاب الخراج ، أن قوما وردوا ماء فسألوا أهله أن يدلّوهم على البئر فلم يدلّوهم عليها ؛ فقالوا : إن أعناقنا وأعناق مطايانا قد كادت تنقطع من العطش ، فدلّونا على البئر وأعطونا دلّوا نستقي بها ؛ فلم يفعلوا . فذكروا ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : فبئلا وضعتم فيه السلاح (٢) !

أما إذا كان على الممتنع واجب يلزمه به القانون كحالة رجل الشرطة المكلف بحفظ الأمن ، أو يلزمه به الاتفاق كحالة من يتعاقد على قيادة كفيف . أو أوجبه على نفسه بفعله كحالة من يحبس شخصاً ويمنع عنه الطعام ؛ فيرى عقاب الممتنع ، ولو كان قيامه بالمساعدة يترتب عليه ضرر جسيم ، لأنه يحكم وجوده في هذا المركز التناوئي أو التعاقدى أو الواقعى بعد قابلاً لحمل كل النتائج التى تترتب على عدم قيامه بواجبه . وعلى هذا فإذا أدى الامتناع إلى القتل ، وكان الممتنع قاصداً القتل ، فإنه يعاقب بعقوبة القاتل عمداً ؛ أما إذا لم يقصد قتلاً فيعد قاتلاً خطأ .

وفضلاً عما تقدم فيجب أن تكون هناك بين الامتناع والجريمة رابطة السببية ، وقد سبق أن ذكرنا أن العلماء فى فرنسا يستندون إلى القول بأنفسهم رابطة السببية تأييداً لرأيهم فى القول بعدم العقاب على الارتكاب بالترك . والواقع أن المسألة دقيقة ، وتزداد دقة إذا تدخلت إرادة أخرى فى إحداث النتيجة التى حدثت . بأن ارتكبت الفعل المسمى للجريمة ؛ كحالة من يرى شخصاً يهيم بقتل آخر فيتركه يتم جريمته رغبة منه فى موت المجنى عليه .

وأضح من هذا المثال أن القتل تم نتيجة لإطلاق العيار الناري مثلاً ، والسببية بين هذا الفعل وبين النتيجة سببية مباشرة ، فى حين أن الصلة بين الامتناع عن المساعدة والقتل غير ظاهرة تماماً ؛ ولكن المعيار الذى نرى الأخذ به لتحديد

(١) معين الأحكام ص ٤٢ - تفسير القرطبي ص ٢٠ - ٢٢٥ (٢) راجع كتاب

المعاملات الشرعية لاسفادنا المرحوم أحمد بك إبراهيم ص ٢١ وما بعدها .

الحالات التي يعاقب فيها الممتنع والتي لا يعاقب فيها ، يحملنا تقرير وجود علاقة سببية بين الامتناع وبين النتيجة التي حدثت ، وهذا المعيار هو أن الممتنع لا يعاقب إلا إذا كان قادرا على منع الجريمة ، ولو حاول منعها ما حدثت . أما إذا لم يكن في قدرته أن يمنعها فلا يعاقب على امتناعه . فمن يرى شخصا على وشك الفرق ويسر لموته ، لا يمكن أن يعتبر قاتلا عمدا إذا تبين أنه لا يحسن السباحة ، وأنه لم يكن في وسعه أن ينقذه بطريقة أخرى . مثل هذا الشخص لا يمكن اعتباره قاتلا بالامتناع لأنه لم يمتنع في الحقيقة عن شيء ، وبذا لا تكون هناك علاقة بين امتناعه وبين الفرق . وكذلك من رأى شخصا يريد قتل آخر فلم يمنعه ، ولو تدخل لما كان لتدخله أثر على تمام الجريمة ، مثل هذا أيضا لا يعتبر قاتلا : لأن تدخله وعدم تدخله يستويان في النتيجة : أما إذا كان تدخله كفيلا بمنع ارتكاب الجريمة ، وامتنع عن التدخل فاصدا حصول هذه النتيجة ، فصلة السببية موجودة ، على ما سبق أن أوضحنا عند مناقشة النظرية الفرنسية .

ونرى أن هذه القاعدة لا تسرى إلا على الجرائم التي يمكن أن يتعدد مرتكبوها . ذلك أن هناك جرائم لا تقبل بطبيعتها أن يتعدد مرتكبوها ، فإذا ارتكبت جريمة من هذا النوع ، فلا يمكن أن تنسب إلا إلى من ارتكبها وإليه وحده . ومن الأمثلة على ذلك جريمة الزنا وشرب الخمر : فالزنا هو الوطء في غير حلال ، ولا توجد الجريمة التامة إلا بالوطء ، والوطء لا يمكن حصوله في محل واحد وفي وقت واحد إلا من شخص واحد ، فمن غير المصور أن يزني شخصان بامرأه واحدة في وقت واحد . وكذلك لا يعد شاربا للخمر إلا من يشربها فعلا : لأن الجريمة لا توجد إلا بدخول الخمر الفم ، ومن المستحيل أن يشرب شخصان جرعة واحدة من الخمر في وقت واحد . وعلى عكس ذلك نجد أن تعدد الجناة أمر عادي في جريمة القتل : فقد يطعن أكثر من شخص المجنى عليه في وقت واحد فيقتلونه .

وعلى ذلك فإذا امتنع شخص عن منع ارتكاب جريمة لا تقبل بطبيعتها تعدد الجناة ، فإنه لا يعد مرتكبا لها ؛ وذلك لاستحالة ارتكاب شخصين لها في وقت واحد . ويجب أن يوضع نص قانوني خاص يحدد العقاب في هذه الحالة .

لغويات

التقاوى

تطلق كلمة "التقاوى" في لسان عامة المصريين على البذور تبذر للزراع . ولا تراهم ينطقون لها بواحد ، فاسمعنا لها منهم مفردا . وقد حرصت منذ دهر على أن أقف على حقيقة هذه الكلمة ومأناها اللغوية . فلم يرد لي فيما وقفت عليه من المعاجم شئ يشفي الغلة وينقع الصدى . ففي المعاجم أن التقاوى مصدر تقاوى الشريك إذا تزايد في الشراك بينهما . وذلك أن يكون بين الرجلين دار مثلا فيقومهما ، ليشتري أحدهما نصيب الآخر . ومناسبة هذا لما عرف في هذه الأيام لا تكاد تبين . وقد وقفت إلى أن أهتدي إلى أصلها إن شاء الله . فقد جرى عرضا في بعض حديث أساتذنا الحجة الثقة الشيخ إبراهيم حمروش ذكر التقاوى . فذكر . - كحفظه الله - أن هذا الاستعمال يرجع إلى عهد رأس الأسرة العلوية الحاكمة في مصر : محمد علي الكبير . ذلك أنه كان يعطي الفلاحون من أهرام السلطان ومخازن الولاية ما يعينهم على الزرع من البذور . وكان ذلك يخرج من الديوان ، ويكتب في كتب الأعطية : يعطى فلان كذا كيلجة أو إردبا . تقوية له . فلما كثر قرن عطاء البذر بالتقوية وكان بينهما هذا التحالف ، غلبت التقوية على البذر وعرفت فيه . فكان إذا قيل : أخذت التقوية فإنما يعنى أخذ البذر : وجمع التقوية على التقاوى ، وغلب هذا اللفظ ، التقاوى ، على البذور ما قل منها وما كثر .

دأب المصريين الدفاع عن الوطن . ضد كل اعتداء

يكثر استعمال "ضد" هكذا . وكأن المستعمليه يخالونه ظرفا : فهم يلزمونه النصب . ولا يدعون به يتغير عن هذه الصيغة ، كما يفعل بالظروف والأدوات .

وترى في الرسالة (العدد ٦٢٣) : « هذه التمرّدات الجارحات ، التي أرسلها لورنس من طريق قصصه ، أثارت ثائرة التمسّاد عليه ، وأحفظتهم ضده . » والمعروف في اللغة أن الضدّ من الأوصاف : تقول : هو ضديّ فلان . وهما ضدّان . وفي أضداد . وفي مزدوجة أبي العتاهية :

لكل إنسان طبيعتان : خير ، وشر : وهما ضدّان

وتقول : أتيت بضدّ ما تفعل : ولهم في هذا فعل : يقولون : أضدّ الرجل : وفي أفعال ابن القوطيّة : أضدّدت : أتيت بالضد ، وهو خلاف الشيء . . . ويبدو لي أن المحدثين أتوا في استعمالهم الضد على غير وجهه من قبل الترجمة للأساليب الفرنجية . فقد جعلوا كلمة ضد ترجمة لكلمة كُنْترَ contre الفرنسية . وهذه الكلمة في الفرنسية ليست من الأوصاف ، بل هي من أدوات انوصل والربط : ولذا فهي عندهم من الكلمات التي لا يدخلها التصريف والتغيير : وهم يقولون : يتكلمون خلاف ما يفكرون Caeaspensées its par lent contre فتبعم كتابنا فقالوا : يتكلمون ضد ما يفكرون . وقد علمت أن هذه الترجمة ليست دقيقة وفق الصواب ، فليس من الدقة أن تضع الوصف موضع الأداة ، وتعطي أحدهما حكم الآخر ، فذلك جمع بين الضب والنون . وقد يخطر للباحث في هذا الأسلوب أن يخرج على أن « ضد ، حال : فإذا قلت : تشنّ الدولة الحرب ضد الأعداء الثلاثة : الجهل والمرض والفقر ، فالمعنى تشنّ الدولة الحرب في حال أنها ضد هذه الأعداء . ولكن مثل هذا لا يقصده مستعملو هذا الأسلوب ، وإنما يريدون أن الدولة تشنّ الحرب على هذه الأعداء ، فيضدّ في منزلة حرف الجرّ أو حرف الوصل والربط . وقد تقول : تحارب دولة ضدّ دولة ، وهنا لا تستقيم الحالية : إذ أن دولة من النكرات ، ولا يأتي منها الحال في مطّرد أمرها ، وقياس مثلها . ولعل الكتاب بعد هذا يعدلون عن هذا الأسلوب السقيم .

بقي معي حوالى مائة درهم

تري هذا الأسلوب كثيراً في كتابات المحرّرين . وفي صحيفة « المصرية » ،
في يوم ١ / ١١ / ١٩٤٧ : « فما بالك إذا أقحم عليهم حوالى مليون صهيونى ! » .
والكلمة « حوالى » ، لا مكان لها في هذا المقام . ويجب أن يستبدل بها زهاء
أو نحو ، أو غير ذلك مما يجرى في هذا المعنى . تقول : عندي زهاء مائة من الدراهم ،
ونحو مائتين من الرجال . وذلك أن حوالى إنما يقع ظرفاً مكانياً . تقول : قعدوا
حوالى محمد وحواله ، وحواليه ، وحواله ، وأحواله ، ولا يراد في هذا حقيقة التثنية
والجمع . وإني أسوق إليك بعض النصوص في هذا : لتقتنع بما أقول ، وتعطى
يدك بما أذكر . جاء في المصباح : « وقعدنا حوله » ، بنصب اللام على الظرف ، أى
في الجهات المحيطة به ، وحواليه بمعنى « . وفي اللسان : « قال الأزهرى : رأيت
الناس حواله ، وحواليه ، وحواله ، وحواليه » . وقال الصّبّان في حاشيته على
الاشموني : « ومن غير المتصرف حوال ، وحوالى ، وحوالى ، وأحوال ، وهو
يريد بغير المتصرف ما لا يخرج من النصب على الظرفية إلا إلى الجرة بمن ، وفيه معنى
الظرف في جميع أحواله . ومن شواهد استعمال حوالى في وجهها الصحيح ما جاء
في دعاء الاستسقاء : اللهم حوالينا ولا علينا . أى أنزل الغيث حوالينا : في مواضع
النبات ، لا في مواضع الأبنية : وذلك من قولهم : رأيت الناس حواليه ، أى مطيفين
به ، محذوقين . ومن شواهد ذلك قول الفرزدق :

اعلك يوماً أن ترينى ، كأنما بنى حوالى الأسود الحوارد^(١)

ملط

تري هذه الكلمة في لسان العامة . وهم يستعملونها في الوصف بالعُرى
والتجرد . يقولون : فلان عارى ملط . ويوردونها في موارد المجاز ، فيقولون :

(١) الحوارد : الغضاب ، واحدها حارد .

فلان فلتس وأصبح ملط . وقد كان من هم الأستاذ حسن توفيق العدل - عليه رحمة الله - أن يخرج هذه الكلمة ويردّها إلى أصل عربي . فكان أن اهتدى إلى أن أصلها مَرَط ، وذلك من قولهم : سهم أمرط ، ومريط ومُرَط : لاريش عليه . وعلى هذا فقد كان من العامة أن أبدلوا من الراء لاما ، وهذا ليس غريباً في اللغة ، فهذان الحرفان يتعاقبان ، كقولهم : فلق الصبح ، وفسّرَق الصبح . على أن خيراً من هذا التخرج عندي أن يكون هذا اللفظ من قولهم للذي لا نسب له : ملط ، ويقال : أملط ريش الطائر : سقط ، والملاطان : الجنبان ، سمي بذلك لأنه قد ملط عنهما اللحم أي نزع . والاملط : الذي لا شعر على جسده كله ، إلا الرأس واللحية : وكان الأحنف بن قيس أملط : لا شعر على بدنه ، إلا في رأسه . وإنما اخترت هذا لأنه لا يجوزنا إلى القول بالبدل ، مع ظهور الاشتقاق ، ووضوح المعنى فيه .

ابن جنى ، ابن ماجه

وقع السؤال عن هذه الأعلام وإعرابها . ذلك أنها تلزم السكون في الوصل والوقف ، ولا يفعل بها ما فعل بنحو سَقَر وخوارزم ومصر وطبرستان وخراسان مما دخل في العربية من الأعلام : فإن هذه الكلمات تجري عليها حركات الإعراب . وإن كانت تمنع التنوين . وقد عهدنا التزام السكون وتجنب ظهور الحركات فيما كان محتوماً من هذا الضرب بالياء الخفيفة أو الهاء . فما ختم بالياء ابن جنى - ويراعى سكون الياء وألا تشدد كياء النسب - وابن جنى أشهر من أن يعرف . فهو العالم الذي يعدّ بحق فيلسوف اللغة وجبرها : ومن ذلك على بن أحمد بن جنى ، وأحمد بن محمد بن جنى ، من المحدثين - ذكرهما صاحب القاموس - . ومما ورد محتوماً بالهاء ابن سيده اللغوي الأندلسي الضليع . صاحب المحكم والمختص . وابن مئنه وهو أبو زكريا يحيى من الحفاظ المشهورين وأحد أصحاب الحديث المبرزين . ومن ذلك ابن راهويه ، من جلة المحدثين . وقد حركوا الهاء إذا كان قبلها ساكن : نحو بُويّه جد البويهيين أصحاب الدولة في بعض عهود الخلفاء العباسيين : وزاه لقرية قرب نيسابور : على أنا نراهم يقولون : أشنّه لقرية قرب أصهان . ويحركون الهاء - وهذه القرية ينسب إليها الأثناني اللغوي - .

ويبحث المرء عن الداعي لتسكين أواخر هذه الكلمات ، ويبدو فيما كان مخنوماً بالياء كجنى أنه لو أجريت مجرى غيرها من المقوص لثقل في المجرور : نظرت الى جن يحذف الياء ، وهنا يلتبس بالجن ، فكان مما ينبغي دفعاً للبس إبقاء الياء في حالة الجر ، وحمل سائر الحالات عليها : وهكذا القول في جنى : ويضاف الى هذا أن الكلمة الأجمعية يراعى الإبقاء على كل حروفها ، فهذا ما بعث على بقاء الياء ساكنة . وأما المختوم بالهاء فكأن الداعي الى تسكينها أنها لو حركت لنوهم أنها تام تأنيث فأبقيت على السكون .

وبعد هذا أقول : إن هذه الكلمات معربة : إذ لا موجب لبنائها ، وإعرابها بحركات مقدرة على أواخرها منع من ظهورها سكون الحكاية ، أى حوكمي أصلها الأجمعي . ويراعى في حالة الجر أن إعرابها بفتحة نيابة عن الكسرة : لأنها من الاسماء التي منعت الصرف للعلمية والعجمة . والله أعلم .



في الاخوان

قال شاعر :

خير إخوانك المشارك في المُرّة وأين الشريك في المر أينا
الذي إن شهدت في الحضر أذنه ر وإن غبت كان أذنا وعينا

وقال آخر :

إذا رأيتُ انحرافاً من أخى ثقة ضاقت على برحب الأرض أوطاني
فإن صددت بوجهي كي أكاثمه فالعين غضبي وقلبي غير غضبان

حول كتاب الرد على النحاة

لابن مضاء القرطبي

لحضرة الأستاذ الدكتور شوقي ضيف

تفضل الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار ، فهدى في هذه المجلة الغراء بعدد ربيع الأول مقالا عن كتاب الرد على النحاة الذي نشرته ، وهو كتاب أراد به صاحبه ابن مضاء القرطبي أن يهدم نظرية العامل التي صغبت كتب النحو العربي وعقائدها وجعلتها عسيرة الفهم .

ومقال الأستاذ الجليل مقسم إلى قسمين ، قسم خاص بمتن الكتاب ونصوصه أشار فيه إلى هنات وقعت في هذه النصوص ، وقسم خاص بآراء الكتاب أشار فيه إلى ما في هذه الآراء من خطأ وفساد ، وسأعرض لمناقشة كل قسم على حدة .

هنات المتن والنصوص

أما الهنات التي أشار إليها الأستاذ الجليل فأكثرها ظنون واقتراحات في قراءة بعض عبارات النصوص ، وهي في أغلبها مجرد افتراضات ؛ فمن ذلك ما جاء في الكتاب ص ٨٣ من قول ابن مضاء : « ولعل قائل يقول : « أيها الأندلسي المسرور بالإجراء بالخلاء ، المضاهي بنفسه الحنفى ذكاه وأى ذكاه » : وسياق الكلام هنا يدل على أن ابن مضاء يحكي على لسان شخص قد يلومه فيقول : « أيها الأندلسي الذي خلا له الميدان في الأندلس فهو يجري فيه ولا يجري فيه أحد معه ، ولو كان في المشرق بين علماء النحو وعلى رأسهم سيبويه ما أجرى إلى هذه الغاية من الطعن على النحاة وعلى سيبويه خاصة . ومن هنا قلت في هامش الكتاب : إن ابن مضاء يريد بالحنفى ذكاه - فيما يظهر - سيبويه . وقد ذكره بعد ذلك صراحة ، والكتاب كله مؤلف لرد نظرية العامل التي جاء بها : ومعروف أن

كتاب سيبويه . أصل النحو العربي ، وأصل نظرية العامل التي تشبث بها النحاة جميعاً . وهذا الفهم وما يطوى فيه من توجيه للعبارة لم يُرض الأستاذ الجليل ، ولذلك اقترح أن نقرأها هكذا : « أيها الأندلسي المسرور بالإجراء بالخلاء ، المضاهي بفضه الخفي ذكاه وابن ذكاه ، وذكاه بالضم الشمس وابنها الصبح . ولا ريب أن في هذا تكلفاً شديداً في التعبير لساناً بحاجة إلى بيان ووصفه ، ولو اقترح الأستاذ الجليل أن نقرأ كلمة الخفي وحدها بالخاء المعجمة أي أن نقرأها الخفي ما أنكرنا عليه ، وقلنا هذا احتمال ممكن ، وقد عرض لنا أثناء النشر وفضلنا عليه الاحتمال الأول .

وهذا السياق في الكلام والحديث عن سيبويه جعلني أقرأ عبارة تالية رواها ابن مضاء على لسان هذا الشخص الذي يلوه على هذا النحو « أتزري بنحوى العراق » . ونشرتها هكذا بالإفراد في كلمة نحوى ولم أجمعها كما يرى الأستاذ الفاضل لأن الأولى أكثر اتساقاً مع السياق . وربما كان خيراً من اقتراحه أن نقرأ العبارة هكذا : « أتزري بنحو العراق » بدون ياء ، وهذه قراءة جيدة ولكنني فضلت الأولى لأنني وجدت في الأصل الياء .

وقد رجح الأستاذ الجليل أن نقرأ الفعل ، يكون ، في العبارة الآتية بصيغة المؤنث لا بصيغة المذكر كما نشرتها في ص ٨٥ وهي : « فمن ذلك ادعاؤهم - النحاة أصحاب نظرية العامل - أن النصب والخفض والجزم لا يكون إلا بعامل لفظي ، ولا أزال عند رأي وذوق في أن صيغة الفعل هنا بالمذكر خير من صيغته بالمؤنث ، والطريف أن الأستاذ الجليل يحيزها ، ومع ذلك يتقدمها ويعتبرها هتافاً !

ونقل ابن مضاء عن الخصائص في ص ٩٣ هذا النص : « اعلم أن إجماع أهل البلد إنما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يده أن لا تخالف المنصوص والمتمسك على المنصوص » وقرأت أنا الصيغة هكذا : تخالف ، ورأى الأستاذ الجليل أنها ليست كذلك ، إنما هي يخالف ، وأنا لا أؤيد رأيه ، فهو ممكن ، ولكن أقول إن رأيه يقبل ، وكذلك رأيي : لأن الكلام دائر بين شخصين وموقف كل منهما من صاحبه ، ولذلك يصح أن يكون الفعل تخالف أو يخالف . أما كلمة الترحيب التي جاءت في نص الخصائص هذا فلعلها بالجيم .

وجاء في كتاب ابن مضاء ص ١١٨ : « ومن الأبواب التي يظن أنها تعمّر على من أراد تفهيمها وتفهمها ، لأنها موضع عامل ومعمول ، ولا داعية لى إلى إنكار العامل والمعمول . . ورأى ذلك الأستاذ الجليل فتبادر إلى ظنه أن العبارة مضطربة وأن كلمة « ولا داعية لى إلى إنكار العامل والمعمول » لا تتماشى مع السياق ، ولذلك أصلحها على هذا النحو : « ولى داعية إلى إنكار العامل والمعمول » . والعبارة ليست فى حاجة إلى هذا التصحيح ، فابن مضاء يقول : ومن الأبواب التي يصعب أن تفهمها أنت أو تفهمها لغيرك بدون أن تؤمن بنظرية العامل ، لأنه يتحتم أن تكون موضع عامل ومعمول ، والحال أنه لا داعية لى إلى إنكار العامل والمعمول الخ . وهذا كلام واضح لا يحتاج تغييرا ولا تصحيحا ! . وقد عرض الأستاذ الجليل عقب ذلك لبيت جرير ، :

أثعلبة الفوارس أم رياحا عدلت بهم طيبة والحشايا

واستظهر أن تكون الفوارس بالنصب لا بالجر ، لأنها صفة لثعلبة ، وجرها يكون من باب إضافة الموصوف إلى الصفة ، ومع أن هذا غير ممتنع وله أمثلة معروفة تذكرها كتب النحو ، قلنا لا أتمسك به وأرى أن الإضافة هنا على حقيقتها فى بابها الخاص . ومن هنا كنت لا أوافق الأستاذ الجليل على نصب كلمة الفوارس .

وذكر ابن مضاء أثماء استشهادا على النصب بعد الفاء فى التمنى قوله تعالى : « ودوا لو تدهن فيدهون » . وحتم الأستاذ الجليل أن تكون القراءة هنا : « ودوا لو تدهن فيدهنوا » ، لأن ابن مضاء بصدد الاستشهاد على النصب فى التمنى لا الرفع ، وإنما جئت بالقراءة الأولى لأنها هى التى ذكرها ابن مضاء نفسه ، وكأنه يريد أن يلفت قارئه إلى أن الفعل المضارع قد يرفع مع التمنى إما على العطف أو على التقطع . وقد رجعت إلى كتاب سيبويه فوجدته يشير إلى ذلك فى باب نصب المضارع بالفاء ويذكر نفس الآية الكريمة . وهذا مادفعنى إلى أن أبقى على الأصل بدون تغيير ، وخاصة أنه يلفتنا إلى أن المضارع قد يرفع بعد الفاء فى التمنى . وأظن من حق ابن مضاء أن يلفتنا إلى ذلك . ولا أزال أرى أن الفعل المقدر فى مثل : أزيذا ضربته يذغى أن تقدر معه الهمزة وإن لم تشر إلى

ذلك جمهرة النحاة، لأننا إن لم نصنع خرج الكلام من باب الإنشاء إلى باب الخبر !

أما قول ابن مضاء في ص ٨٢ عند عدم الرعى والماء فلا أُنمَع أن تكون الكلمة الرعى بالكسر وإن كنت لا أجد مانعاً من أن تكون بالفتح . وأكبر الظن أن الأستاذ الجليل يتفق معنا الآن بعد استعراض هياته التي أخذنا بها أنها مجرد افتراضات . حقا بقي من هياته هيتان مطبعيتان هما : كلمة إيسن وهي الأمر من وسن في لغة شاذة ، فقد جاءت في الكتاب إيسن : ثم كلمة : ، ونور بنور الإيمان خلده ، . فقد جاءت : ، ونور بنوره الإيمان خلده ، وهذا خطأ مطبعي واضح . وأنا على كل حال أشكر للأستاذ عنايته بالكتاب وقراءة نصوصه قراءة فاحصة . ولعل من الواجب أن أذكر أني نشرت هذا الكتاب من نسخة حديثة حرفت فيها الكلم عن مواضعها ، وشوهت تشويها شديداً ، ولولا أني استعنت بكل ما أمكنني الرجوع إليه من مؤلفات في النحو مخطوطة ومطبوعة ما استطعت أن أخرجه إلى الباحثين .

نقد الأستاذ الجليل لا بن مضاء

وذهب الأستاذ الجليل بعد حديثه في الهنات والافتراضات السابقة ينقد ابن مضاء ، وبدأ هذا النقد ببيان محدود جداً لنظرية ابن مضاء في هدم العامل في النحو العربي وكل ما يرتبط به من تقديرات وتأويلات وعلل وأقيسة . وإني أستاذن الأستاذ الجليل في أن ألخص نظرية ابن مضاء في كتابه حتى نكون أكثر وضوحاً ودقة فيما نعرض له من ذلك .

لقد استهل ابن مضاء كتابه بقوله : « قصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغنى النحوي عنه ، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه ؛ فمن ذلك ادعائهم أن النصب والخفض والجزم لا يكون إلا بعامل لفظي ، وأن الرفع منها يكون بعامل لفظي وبعامل معنوي ، وعبروا عن ذلك بعبارات توهم في قولنا ضرب زيد عمراً أن الرفع الذي في زيد والنصب الذي في عمراً إنما أحدثه ضرب ، وذلك بين الفساد .

وقد صرح بخلاف ذلك أبو الفتح بن جنى وغيره : قال أبو الفتح في خصائصه بعد كلام في العوامل اللفظية والعوامل المنوية : وأما في الحقيقة ومحصل الحديث فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للتكلم نفسه لا لشيء غيره . .

ابن مضاء إذن ينادى في مفتتح كتابه بأن فكرة العامل في النحو ليست صحيحة لأن الذى يعمل الحركة في الكلام كما يقول ابن جنى ليس هو مثل ضرب وإنما هو المتكلم نفسه . وهذا كلام منطقي . ومن هنا يقول ابن مضاء : إن الإيمان بأن لفظاً يحدث حركة في اللفظ التالى له لا يقول به عاقل .

وقد ناقش الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار هذه الفكرة وقال : إن النحويين بحمد الله عقلاء ، وإنهم إنما يقولون بالعامل النحوى على سبيل المجاز . وكأنى بالأستاذ نسي ما قاله ابن مضاء فى ص ٨٨ إذ لا يكتفى فى هدم نظرية العامل بأنها تخالف منطق العقل فيقول : ربما زعم بعضهم أن هذا العامل النحوى إنما مثل عاملاً على وجه التشبيه والتقريب لتيسير تعلم العربية . وأظن أن هذا نفسه ما يقول به أخيراً الأستاذ الجليل ؛ لأن وجه التشبيه والتقريب هو نفسه وجه التجوز الذى قال به .

وقد رد ابن مضاء نفسه على ذلك بأننا لسنا فى حاجة الى فكرة العامل ولو كانت على وجه التشبيه والتقريب أو على وجه التجوز لأنها تحط كلام العرب عن رتبة البلاغة ، إذ نرى النحاة يحيلون الكلام عن وجهه من الفصاحة بما يقدرون فيه من عوامل محذوفة . ولقد أفضى بهم ذلك الى أن يرفضوا أساليب عربية فصيحة ويضعوا مكانها أساليب نحوية ركيكة إرضاء لنظرية العامل .

ليست المسألة مسألة استعمال اصطلاح نحوى بضرب من التجوز ، إنما هى مسألة خطيرة ؛ فقد جاء النحاة وعلى رأسهم سيبويه باصطلاح أفسد نحوهم وملاءم بتقديرات وتأويلات لا دليل عليها فى اللغة ، ومع ذلك فقد جعلوا هذا الاصطلاح القطب الذى دارت عليه رحى النحو كله .

وابن مضاء يستطرد من ذلك الى بيان ما جرت به نظرية العامل في النحو العربي من تصعيب وتعقيد، وما جرت به أيضا من رفض لأساليب العربية وأخذ بأساليب نحوية مضطربة: ونراه يعقد من أجل ذلك فصلا للعوامل المحذوفة في الكلام من مثل تقدير «أدعو» في نحو «يا عبد الله» وتقدير «مستقر» أو «استقر» في مثل «زيد في الدار» وينتهي من استعراضه لكل ذلك الى نفي فكرة العامل المحذوف، وأن الكلام ينبغي أن يعرب كما هو بدون تقدير ولا تأويل.

ولم يكتف ابن مضاء بإلغاء فكرة العامل المحذوف، فقد دعا أيضا الى إلغاء فكرة المفعول المحذوف وكذلك المفعول المستتر في مثل «زيد ضارب عمرا»، فضارب ليس فيها ضمير مستتر تقديره هو بل هي تدل على هذا الضمير الذي يسمى فاعلا بمادتها، ومثلها في ذلك ضرب في نحو «زيد ضرب». وقد استدلل ابن مضاء على ذلك بالفعل المضارع في نحو أعلم ويعلم وتعلم؛ فإن الفعل يدل بمادته على الفاعل وأنه متكلم أو غائب أو مخاطب. وكذلك الشأن في ضرب فهي تدل على الفاعل وأنه غائب مذكر بمادتها؛ وبذلك ينهي ابن مضاء الى أن الفعل يدل على الحدث والزمان كما يقول النحاة، ويدل على الفاعل أيضا كما يقول هو، وكما نرى في الأمثلة السابقة.

ويناقش ابن مضاء بعد ذلك باين «شهورين» في النحو بكثرة التأويل والتقدير في عباراتهما، وهما باب التنازع وباب الاشتغال. أما التنازع فإن النحاة يبحثون فيه صورة من التعبير دارت على ألسنة العرب وفيها نجد فعلين وراهما فاعل أو مفعول مثل «آمن وصدق المسلمون». يقول علقمة:

تعتق بالارطى لها وأرادها رجال فبذت نبلهم وكليب

وقد رد النحاة هذه الصورة من التعبير لأنه لا يصح في رأيهم أن يتسلط عاملان على معمول واحد أو بعبارة أدق لا يصح أن يجتمع مؤثران على أثر واحد. وإذن فإذا أن تعمل الأول وتضم في الثاني أو تعمل الثاني وتضم في الأول، فتقول: آمن وصدقوا المسلمون على رأي الكوفيين، أو تقول آمنوا وصدق المسلمون على رأي البصريين! ويستمر النحاة فيضمرون المفعولات كما أضمرنا

الفاعل ، وإنهم ليستخرجون أثناء ذلك كثيراً من الصور المعقدة وخاصة في أبواب الأفعال التي يعدونها إلى مفعولين أو أكثر نحو قولهم : « ظننت وظناني شاخصاً الزيد بن شاخصين ، وقولهم : أعلمت وأعلمانيهما إياهما الزيد بن العمر بن منطلقين ،

ويحمل ابن مضاء حملة شعواء على مثل هذه الصور المرتبكة التي ليس لها نظير في كلام العرب ، وإنه ليرفضها ويرفض معها نظرية العامل التي جعلت النحاة يردون صورة أصيلة من التعبير العربي ويضعون مكانها صوراً نحوية مرتبكة .

ويخرج ابن مضاء من بحث باب التنازع إلى بحث باب الاشتغال وما جاء فيه النحاة أيضاً من صور مضطربة لم ترد عن العرب من مثل : « أزيداً لم يضربه إلا هو ، وأخواك ظناهما منطلقين ، وأنت زيدا ضربته ، إلى غير ذلك من أساليب لم تأت في العربية ولكن جاءت في كتب النحوي لترضى نظرية العامل وما يتصور لها النحاة من سلطان وكبرياء . ونرى ابن مضاء يحمل هنا على مثل هذه الأساليب غير المستعملة ، كما نراه يحمل على طريقة درس النحاة للباب عامة وتقسيمهم لأساليبه بين ما يجب رفعه وما يجب نصبه وما يرجح فيه الرفع وما يرجح فيه النصب وما يجوز فيه الأمران ، مقدرين — في أغلب العبارات — عوامل مضمرة لا دليل عليها في قول المتكلم . وكل ذلك يرفضه ابن مضاء ويضع مكانه قاعدة بسيطة ، وهي أن الاسم السابق للفعل في هذه العبارات إن عاد عليه ضمير رفع رفعناه ، وإن عاد عليه ضمير نصب نصبناه ، وبهذا حل مشكلة باب الاشتغال ، وربما كان أكثر الأبواب النحوية تصعباً وتعقيداً .

وقد وقف الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي التجار على هذا كله فلم يعجب به . بل لقد ذهب يبين ما في إنكار ابن مضاء لتقدير النحاة فعلاً محذوفاً في مثل زيدا ضربته من فساد مداره أنه ينكر بذلك فكرة التعدى واللزوم المشهورة في النحو . وليس من ريب في أن ابن مضاء ينكرها ، وهل يمكن أن يؤمن بها وهي جزء من نظرية العامل وأن منه متعبداً ولازماً ؟ لقد ألغى ابن مضاء نظرية العامل وكل ما يتصل بها من تقدير وتعليل وتقدير ، وأيضاً فقد دعا إلى أن تلغى معها كل

ما في كتب النحو من جدل وأقيسة وعلل . وليس ذلك كل ما دعا إلى إلغائه . فقد دعا أيضا إلى إلغاء التمارين غير العملية من مثل قول النحاة : ابن من البيع على وزن فُعَل ، مادام ذلك لم يأت في اللغة .

وأنا لا أرتاب في أن آراء ابن مضاء لا تزال في حاجة إلى مناقشة واسعة ، وهي مناقشة قد انتهى بنا إلى هدم الإطار الذي رسم فيه النحو القديم كله . ولن يضيرنا ولن يضير النحاة السابقين ذلك ، فقد أدوا لنحوهم — كما تصوره مؤسسا على نظرية العامل — رسالة كاملة . ولست أبالغ إذا قلت إن العقل العربي المشتعل ذكاء لم يخدم علما لغويا كما خدم النحو العربي . ونحن تكبر هذا العقل ونكبر النحاة معه . ولكن هذا لا يمنعنا أن نحاول التجديد في النحو ما دامت هناك حاجة حقيقية إلى هذا التجديد .

ولقد نشرت هذا الكتاب « الرد على النحاة لابن مضاء » ، ووضعته بين يدي الباحثين المحدثين حين رأيت الجهود تنحفر من كل جانب لإصلاح النحو العربي وتذليل كتبه وتيسير قواعده . وهذا ما جعلني أقدم له بمدخل واسع بينت فيه حاجتنا إلى تصنيف النحو تصنيفاً جديداً حتى نرفع عن الناس ما يفدحهم ويثقل كاهلهم في تعلمه . وقد حاولت بعد ذلك أن أضع للنحو تصنيفاً جديداً مهتدياً فيه بما دعا إليه ابن مضاء من تصفية النحو العربي لا من نظرية العامل فقط بل من كل ما يتصل بتصعيبه وتعقيده . ولست أزعم أن هذه التصنيف نهائي ولا شبيه بالنهائي إنما هي صورة مثلت بعد درسي للنحو على هدى آراء ابن مضاء في ذهني ومثلتها لحضرات الباحثين . وقد وعد الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار بمناقشتها . وإني لا تنهر هذه الفرصة فأحييه تحية طيبة ، سائلاً الله أن يرزقنا السداد والإخلاص في الفكر والقول والعمل .

شىء من الذوق !

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى

مدير دار الكتب الأزهرية

نشرت إحدى الصحف الأسبوعية تحت عنوان : رأس السنة ، ما يلي :

بلغت الاسعار فى ليلة رأس السنة رقعا قياسيا ؛ فقد كان رسم الدخول وثمان
العشاء فى «الاورج» للشخص الواحد أربعة جنيهات ونصف جنيه ، وفى «شبرد»
أربعة جنيهات ، ومع ذلك لم يكن فيهما موضع قدم .

قرأنا ذلك الخبر ، فأخذ منا العجب ، وفاضت نفوسنا بشتى الأحاسيس ، وحاولنا
توجيه ذلك الهوس والإسراف فلم نفلح . وأى هوس وأى متاع ذلك الذى يدفع
ببعض الناس الى هذا الإسراف والى التراحم على الظفر به ، والتسابق فى المشاركة فيه ! .

وما بال هؤلاء الناس ، وفى أى أمة يعيشون ، وبأى إحساس يحسّون !
ألم قلوب يفقهون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها !
لو كان هؤلاء من صميم الشعب يألمون لألمه ، ويهتمون لهمه ، ويفكرون فيما يفكر
فيه ، ويعانون ما يعاينه ، لشغلهم ما يشغله ، أو لدعتهم المجاملة والذوق على الأقل
إلى أن يشاركوه فى محنه وكوارثه ولو بالمظاهر ، إن لم يشاركوه بالقلوب والضمائر .

إن الشعب المصرى - ككل شعوب العالم - يحتاجه المحن ، وتظهر عليه
الشدائد ، ويجهده ساسته وقادته عليهم أن يجدوا منها مخرجا ، أو يستطيعوا لها فرجا .

يعجّ الشعب المصرى بمختلف المشاكل ، وتدور فى خلد بعض أفراد شتى الأفكار
والمذاهب ، وتشغله مجتمعا قضيته السياسية التى تظاهرت ضدها قوى الشر والاستعمار ،
وتشغله وطأة الغلاء التى أخذت بمنافسه ، وعقدت عليه أسباب الحياة ، وتشغله
نازلة الكوليرا ، وتهده فى الأرواح والأرزاق ، وتشغله مشاكل أخوته وجيرانه
من الشعوب العربية ، وبخاصة فلسطين ؛ وتشغل كل طائفة من طوائفه أحوالها المالية
والأدبية ، وتكاد تخرج بعض هذه الطوائف من جادة العقل ومنهج الرشاد .

تشغل الشعب وتشغل طوائفه هذه الأحداث ؛ ولكن عصابة من هؤلاء الأغنياء لا يجدون فيها مشغلا ، ويجدون من فضل أوقاتهم وسعة أموالهم مجالا للهو والمتاع البغيض ، ويسترخصون في سبيله البذل ، ويستقلون العطاء .

ولو أن هؤلاء الذين يدفعون في الليلة الواحدة أربعة جنيهات ونصف جنيهه للعشاء ورسم الدخول ، عدا ما يستلزمه العشاء ويستلزمه الهناء من نفقات إضافية ، قيل لهم في جد الأمور وعظائم الأحداث هاتوا شيئا من أموالكم نكسوا بها عراة ، أو نطعم بها جياعا ، أو نرفه بها عن المرضى والمنكوبين من إخوانكم في الوطن أو الدين ، لكفتوا أيديهم ، وهزوا رموسهم ، وولتوا مدبرين .

إننا لانتجنى على هؤلاء فيما نقول ، ولا نفرق فيما ندعى ؛ فهذه هي قوائم التبرعات لمنكوبي فلسطين ومنكوبي الكوليرا ، فهل شرفت هذه القوائم بأسماء كثير منهم ! إنه ليحز في نفوسنا أن تخلو أمكنة هؤلاء في هذه القوائم ، وتعمر بأسماء صغار الموظفين ، وطوائف العمال والصناع ، ممن عمرت قلوبهم بالإيمان ، وغمر نفوسهم حب الوطن .

نحن لا نحسد هؤلاء على ما آتاهم الله من فضله ، ونؤمن عن يقين بقسمة الله تعالى في الأرزاق ، وأنه يمنع من يشاء بغير حساب ؛ ولا نطمع ولا نرضى لغيرنا أن يطمع في أموالهم بغير طوعية من أهلها ، وبالوسائل التي يتوسل بها غيرنا في بلاد أخرى ، ولكننا نذكرهم بحق الله في أموالهم ، وبحق الفقير والبائس والمحروم في غناهم ، ولا نطالبهم باسم الدين ، فالدين أبعد ما يكون عن خواطيرهم ، ولكننا نطالبهم باسم الوطن الذي وهب لهم هذه الأموال وهذه الخيرات ؛ وباسم الفلاحين والعمال الذين يعملون لهم في مزارعهم ومصانعهم ومتاجرهم ، تلفح وجوههم حرارة الصيف ، ويقاص أطرافهم زمهرير الشتاء ، يواصلون الليل بالنهار فلا يصلون إلى الكفاف .

سنطالبهم باسم المدنية والمروءة والذوق والانسانية أنت يكونوا أعوانا لإخوانهم في الشدائد ، ولأوطانهم ذخرا في الملمات .

نطالبهم أن يكونوا لأوطانهم كبعض الأجانب الذين قدروا للوطن قدره وعرفوا له حقه ، فلبوا نداء الوطن وداعى الذوق والمجاملة ، وبذلوا في مواطن البر منه بعض ما وهب لهم من خير ، وسجلت لهم في صحائف المجد والذكر آيات الحمد والتقدير .

في ذكرى مولد الفاروق :

تولية محمد على الكبير

العلماء يختارونه لمصلحة الشعب

لحضرة الأستاذ محمود الشرقاوي

عند ما يحىء اليوم الحادى عشرى من شهر فبراير من كل عام ، يستقبله الشرقيون عامة والمصريون خاصة والأزهريون على الأخص بقلوب مستبشرة ووجوه فرحة ، ونفوس مطمئنة عامرة بالإيمان .

عند ما يحىء هذا اليوم السعيد من شهر فبراير في كل عام يستقبله الشرقيون والمصريون والأزهريون خاصة بهذه القلوب المستبشرة ، وهذه الوجوه الفرحة المتهللة ، والنفوس مطمئنة ، لأنه يقع في ذكرى مولد صاحب الجلالة الملك العظيم فاروق : وكل يوم يقترن ذكره بذكر صاحب الجلالة الفاروق فهو يوم البشارة والفرح والتهلل واطمئنان القلوب العامرة بالإيمان .

الإيمان بمجد مصر ، ومجد العرب ، ومجد الاسلام . والفاروق ، حفظه الله ورعاه ، هو رمز هذه الأجداد جميعا ، هو رمز المجد لمصر ، فهو العامل الساهر على مجدها وسؤددتها ورفع شأنها ، وأن تال مكانها اللاتق بها بين أمم الارض .

هو رمز المجد للعرب ، فهو العامل الساهر على مجدهم وسؤددهم ورفع شأنهم وتوحيد جهودهم وصمودهم لما يقع عليهم من عنت وضغط وإرهاب .

هو رمز المجد للإسلام ، فهو العامل الساهر على مجده وسؤدده ، وإحياء ما كان له من قوة وشمول ورفع شأن . والأزهر هو القائم على تراث الاسلام والحفيظ على ما له من قوة كاملة موفورة لم يور زندها ولم تشعل نارها ، ولم يتوهج بعد نورها ؛ وهو يخرج هذا السكامن الموفور من قوته ، ومور زنده ، وشعل ناره ، وموهج النور الساطع الفياض منه إن شاء الله .

فمن حق الأزهر ومن حق أهله خاصة أن يبتهجوا ، وأن تستبشر قلوبهم ، وأن تهلل وجوههم ، وأن تطمئن نفوسهم عامرة بالإيمان عند اليوم الحادي عشر من شهر فبراير . يوم الذكرى السعيدة ، لمولد الملك العظيم فاروق .

وللأزهر واتصاله بالأسرة العلوية حديث قديم ، بدأ حيث بدأ مؤسس هذه الأسرة الكريمة أن يلى شؤون هذا الوطن العزيز الذى أحبه محمد علي وقضى حياته كلها عاملاً مجداً دؤوباً على رفع شأنه والتمسكين له ، أن تجدد فيه الحياة ، وأن تنمو وتطرد حتى تصبح شباباً وفتوة ، وحتى أصبح اسم محمد علي قريناً للنهضة المصرية الحديثة ورمزاً لها .

وكذلك أحب هذا الوطن العزيز محمداً علياً ، وحفظ له أعز ذكرى وأعز مكان من الإجلال والتمجيد والاكبار .

وسنجد فيما تلخصه فى الصفحات القادمة عن الجبرتي ، أن علماء الأزهر هم الذين اختاروا محمداً علياً ليكون والياً على مصر ، وأنهم اختاروه لما وجدوا عنده من الرأفة بالشعب والمحبة له والعدل فيه .

وجد شيوخ الأزهر فى ذلك العهد هذه الصفات الكريمة ، من المحبة للشعب والعطف والعدل والشجاعة أيضاً ، موفورة عند محمد علي ، فاختاروه والياً على مصر ؛ ووجدوا كذلك أن الشعب المصرى الذى أهاض جناحه وأفسد حياته ظلم المماليك يحب محمداً علياً ويريده والياً عليه ، فحقق علماء الأزهر لهذا الشعب المبهض المظلوم أن يولى عليه ذلك الرجل العطوف العادل الشجاع : محمد علي الكبير .

• • •

يذكر الجبرتي فى حوادث شهر المحرم من سنة ١٢٢٠ الهجرية : أن محمداً علياً قدم القاهرة من الصعيد حيث كان يحارب المماليك : ويقول فى حوادث يوم الخميس الحادى عشر من شهر المحرم هذا : إن أحمد باشا خورشيد والى مصر فى ذلك الوقت طلب المشايخ والسيد عمر مكرم والولجاقلية وأرباب الديوان ، فلما اجتمعوا قال لهم : إن محمد علي وحسن باشا راجعان من قبلى من غير إذن

وطالبان شرا، فإما أن يرجعا من حيث أتيا ويقاتلا الممالك، وإما أن يذهبا إلى بلادهما وأعطيهما ولايات ومناصب في غير أرض مصر، ومعنى أمر من السلطان وكيل مفوض ودستور مكرم أعزل من أشياء وأولى من أشياء وأعطى من أشياء وأمنع من أشياء^(١).

بهذه اللهجة التي تم عن الغضب والتوجس كان أحمد باشا خورشيد والى مصر يتحدث عن دخول محمد على القاهرة، ولكن محمدا عليا دخل القاهرة كما يقول الجبرتي بعد عصر يوم الجمعة التاسع عشر من شهر المحرم هذا، وذهب إلى بيته بالازبكية، فنع أحمد باشا المشايخ والوجاقلية من الذهاب إلى محمد على والسلام عليه. وفي يوم الجمعة ١٠ صفر من السنة نفسها ورد تقليد لمحمد على بولاية جدة، فامتنع من طلوع القلعة ليلبس الخلعة بهذه الولاية، ثم اتفقوا على أن ينزل الوالى إلى بيت سعيد فيلبس محمدا عليا الخلعة فيه.

وبعد إلباس محمد على خلعة الولاية على جدة يومين اثنين، ركب المشايخ إلى بيت القاضى واجتمع به الكثير من المتعلمين والعامة والأطفال حتى امتلأ الحوش والمقعد بالناس وصرخوا بهوهم: شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم! وطلبوا من القاضى أن يرسل باحضار المتكلمين فى الدولة لمجلس الشرع... لحضر الجميع واتفقوا على كتابة عرض حال بالمطلوبات، ففعلوا ذلك... وفى تلك الليلة أرسل الباشا مراسلة إلى القاضى يرقق فيها الجواب ويظهر الامتثال ويطلب حضوره إليه من الغد مع العلماء ليعمل معهم مشورة^(٢).

ولكن القاضى والعلماء لم يذهبوا الى الوالى كما طلب، لأنهم خشوا خديعته، وحضر لهم من أخبرهم أنه أعد لهم كميناً يغتالهم وهم فى طريقهم اليه.

ثم يقول الجبرتي: «فلما أصبحوا يوم الاثنين^(٣) اجتمعوا ببيت القاضى وكذلك اجتمع الكثير من العامة فنعوهم من الدخول الى بيت القاضى وقفلوا

(١) ص - ٣٤٧ جزء ٣ من الجبرتي طبع المطبعة الشرفية.

(٢) ص - ٣٥٠ جزء ٣ من الجبرتي.

(٣) يوم الاثنين ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ وهو يوافق ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ ميلادية.

بابيه ، وحضر إليهم أيضا سعيد أغا والجماعة ، وركب الجميع وذهبوا إلى محمد علي وقالوا له : إنا لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ولا بد من عزله من الولاية . فقال : ومن تريدونه يكون واليا ؟ قالوا له : لا نرضى إلا بك وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير . فامتنع أولا ثم رضى . وأحضروا له كرعا وعليه قفطان وقام إليه السيد عمر والشيخ الشرقاوى فألبساه له ، وذلك وقت العصر ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة ، وأرسلوا إلى أحمد باشا الخبر ^(١) .

ولم يرض أحمد باشا بطبيعة الحال هذا التنصيب وهذه التولية من العلماء وأهل الرأي واختيارهم محمدا عليا ، بل قال إني مولى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ، ولا أنزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة ، ^(٢) .

وفي هذه الفترة من النزاع بين محمد علي وبين أحمد باشا الوالى المخلوع ، نستطيع أن نستبين فيما دونه الجبرتي ظاهرتين لازمتا هذه الفترة كلها من النزاع حتى استقر الأمر لمحمد علي :

الظاهرة الأولى : تشدد العلماء عامة ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف خاصة ، في أمر تمكين محمد علي من الاستيلاء الفعلي على السلطنة ، وهذه الفقرة مما كتبه الجبرتي تصور لنا إلى حد بعيد هذا التشدد . وركب السيد عمر أفندى في قلة من الناس وذهب إلى بيت حسن بك أخى طاهر باشا ، وكان هناك عمر بك الذى نزل من القلعة ، فوقع بينه وبين السيد عمر مناقشة في الكلام طويلة ، ومن جملة ما قال : كيف تعزلون من ولاة السلطان عليكم وقد قال الله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ؟ فقال له : أولو الأمر العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا رجل ظالم وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة ، وهذا شيء من زمان حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فانهم يعزلونه ويخلعونهم ^(٣) .

أما الظاهرة الثانية : فهي هياج الشعب وثورته على الوالى المعزول حتى ينزل من القلعة ، وحتى يستطيع محمد علي أن يوطد لنفسه الحكم ؛ فقد كان الشعب

(١) ص - ٣٥٠ جزء ٣ من الجبرتي .

(٢) ص - المصدر نفسه .

(٣) ص - ٣٥٢ جزء ٣ من الجبرتي .

أو « الفلاحين » كما قال أحمد باشا المعزول ، يرى أنه قد اختار لنفسه واليا يجد عنده المحكومون « العدالة والخير » فهم لا يستقر لهم قرار حتى يستطيع هذا الحاكم العادل الخبير أن يحكم فيهم ، وهم حريصون على ذلك حتى « إن الفقير من العامة كان يبيع ملبوسه أو يستدين ويشترى به سلاحا ، وحضرت عربان كثيرة من نواحي الشرق وغيره ^(١) كما يقول الجبرتي .

وقد بلغ من تأييد المصريين لمحمد علي في موقفه هذا ضد الوالي الخلوغ أن أرسل هذا الوالي فرمانا إلى بعض أنصاره في قليوب يقول فيه : إنه « يجب عليهم معاونته صيانة لعرض السلطنة وإقامة اناموسها وناموس الدين ، وإن « الفلاحين ... ! » محاصرونه ومانعون عنه الأكل والشرب . فلما وصل ذلك فرمان إليهم بقليوب أرسلوه إلى محمد علي وأرسله محمد علي إلى السيد عمر أفندي النقيب ^(٢) .

ويقول الجبرتي في حوادث الشهر نفسه : إن المعلم جرجس الجوهري وهو من وجوه القبط في ذلك التاريخ كان من المردة على بيت السيد عمر مكرم المشاركين له في تأييد محمد علي ، وإنه كان يجتمع بالشيخ الشرفاوي والشيخ الأمير والقاضي في بيت السيد عمر لتدبير الأمر في نصرة محمد علي والعمل على هزيمة أحمد باشا خورشيد ^(٣) .

وهكذا بقي الحال زمنا بين العلماء والشعب ومحمد علي من جانب ، وبين خورشيد باشا الذي تحصن بالقلعة لا يريد أن يرحلها إلا بأمر من السلطنة كما يقول .

ولكن الجبرتي بعد ذلك يقول : إن أمرا ورد من السلطنة بتولية محمد علي وخلع أحمد باشا خورشيد ، ولكنه لم يمثل ؛ ففي يوم الاثنين ١١ من شهر ربيع الثاني سنة ١٢٢٠ ^(٤) وصل الخبر بوصول القابجي إلى قليوب ، وأنه طلع إلى برّفوه

(١) ص - ٣٥٢ ج ٣ من الجبرتي .

(٢) ص - ٣٥٣ » » »

(٣) ص - » » » »

(٤) يوافق ١٠ يوليو سنة ١٨٠٥ ميلادية .

وسار من هناك . فلما أشيع ذلك اجتمع الناس وطوائف العامة ، وخرجوا من آخر الليل وهم بالأسلحة والعدد والطبول إلى خارج باب النصر ووقفوا بالشوارع والسقائف ... الخ^(١)

ثم يصف الجبرتي بعد ذلك استقبال القاهريين لمن يحمل إليهم أمر تنصيب محمد علي وعزل خورشيد وصفا شاقا إلى أن وصل القادمون إلى الأزبكية فنزلوا ببית محمد علي باشا وحضر المنيخ والأعيان وقرءوا المرسوم الذي معه ومضمونه الخطاب لمحمد علي باشا وإلى مُجدة سابقاً وإلى مصر حالا النداء من عشرين ربيع أول^(٢) حيث رضى بذلك العلماء والرعية ، وأن أحمد باشا معزول عن مصر ، وأن يتوجه إلى الإسكندرية حتى يأتيه الأمر بالتوجه إلى بعض الولايات^(٣) .

فمن هذا التاريخ الذي أورده الجبرتي تبدأ ولاية محمد علي الرسمية بأقرار الباب العالي لما اختاره العلماء والشعب .

ولكن خورشيد باشا لم يمثل أمر السلطنة لعزله وتولية محمد علي وقال : « أنا متول بخطوط شريفة وأوامر ميفة ولا أنزل بورقة مثل هذه »^(٤) ، وبقي خورشيد حتى بعد هذا الأمر من السلطنة ممتنعاً تأخذه العزة بالإثم يأبى أن ينزل على رغبة الشعب أو على أمر السلطان .

وفي يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر ربيع الثاني من العام نفسه^(٥) « وصل السلحدار إلى بولاق وركب من هناك إلى المكان الذي أعد له وصحبته مكاتبه إلى أحمد باشا المخلوع ومضمونها الأمر بالنزول من القلعة ساعة وصول الجواب إليه من غير تأخير وحضوره إلى الإسكندرية ، وجواب آخر إلى محمد علي

(١) ص ٣٥٦ — ٣٥٧ ج ٣ من الجبرتي .

(٢) ١٩ يونيو سنة ١٨٠٥ ميلادية .

(٣) ص ٣٥٧ ج ٣ من الجبرتي .

(٤) ص ٣٥٨ > > »

(٥) ٢٥ يوليو سنة ١٨٠٥ ميلادية .

بإيمانه في القائمقامية حيث ارتضاء الكافة والعلماء ، والوصية بالسلوك والرفق بالرية (١) . ولم يمتثل خورشيد باشا مرة أخرى لهذا الأمر من السلطة .

ولكن قوة الشعب والعلماء وإصرارهم على خلع خورشيد باشا وتنصيب محمد على والحصار الذي ضربوه جميعاً على خورشيد في القلعة جعله يسلم ويخرج من هذا العناء فينزل حريمه من القلعة وكثيرين من رجاله في يوم الاثنين التاسع من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ هـ ثم نزل الباشا المخلوع من باب الجبل في رابع ساعة من النهار ، في اليوم الثاني ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ (٢)

وهكذا مكن محمد على الكبير في مصر ، وانتصر العلماء والفلاحون ، على خورشيد باشا الأرثوذكسي ومن كان معه ، واختار الشعب والياً عليه من رأى عنده العدالة ، فيهم ، والخير ، لهم . وأقرت السلطة هذا الشعب على اختياره حيث ارتضاء الكافة والعامّة ، حتى سعى في تنصيبه قبط مصر ، كما رأينا من قبل .



ونحن نجد بعد هذه السنين الطويلة وبعد هذه النهضة الجبارة التي حققها محمد على لمصر ، وذلك الأمن والأمان والاستقرار الذي شمل البلاد المصرية وملحقاتها جميعاً ؛ نجد من هذا كله أكبر دليل على فراسة علماء الأزهر وإخلاصهم وصادق حسهم وحسن تقديرهم حين وقع اختيارهم على محمد على الكبير ليكون والياً على مصر ، وعلى صدق تلك الحاسة الشعبية الموفقة التي أجمعت على تأييد محمد على عندما اختاره العلماء كما أجمعت على إكباره وحبّه .

واعتقد أن خير ما يروى على الناس في عيد الملك العظيم فاروق شبل إسماعيل ومحمد على الكبير ، هو هذه الصفحات الناصعة المشرقة من تولية محمد على واختيار علماء الأزهر والفلاحين ، له ، لمصلحة الشعب .

أعتقد أن هذه الصفحات الناصعة المشرقة هي خير ما يروى للناس باسم الأزهر في عيد هذا الملك العظيم فاروق .

(١) ص ٣٥٩ - ٣٦٠ ج ٢ من الجبرتي .

(٢) ص ٣٦١ د د د

الغزل

في كامل المبرد

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الغنى اسماعيل

المدرس بكلية اللغة العربية

الغزل ضربان : ضرب ترى عليه مسحة اللهو ، وسيا المجون ، ولم يقصره صاحبه على غانية ، إنما جعل فيه لكل غانية تراءت له نصيبا ، وكل فتاة لها حظ من الجمال قسما موفورا .

وضرب آخر تعرف العفة في ألبانه ، وتكاد تلس الكرم والظمر بين أجزائه ، يتم كل مقطع منه عن عاطفة مشبوبة ، وصباية صادقة ، وحب عفيف غير مشوب بما ينكر معاملة ويفسد جوانبه .

هذان الضربان وقاهما المبرد حقهما من الاختيار ، وذكر كثيرا من رجالهما .

فقد أفرد الباب الخامس والعشرين والخامس والأربعين للغزل ، ولن ترى فيهما لغيره إلا أن يكون شاهدا على وضع لغوى ، أو مذهب نحوى . وفي الباب الذى عقده للغناء ، والذى عقده لالترويح عن القارئ ، والذى عقده للتشبيه ، شعر كثير يتعلق بالمرأة وأوصافها ؛ وبين هذه الأبواب فصول جرت فيها محاورات بين شعراء الغزل تزيد مادة النسيب ، ويزداد بها النقد الأدبى . ومن قبل هذا وذاك مقطعات لها الصدارة فى هذا الباب ، وكان وصف المبرد لها صادقا . يقول فى باب الأساليب العربية :

« وما يستحسن لتخلصه من التكلف ، وسلامته من التزيد ، وبعده من الاستعانة ، قول أبى حية :

رمتى وستر الله بينى وبينها عشية آرام الكناس رميم

فلو أنها لما رمتي رميتها ولكن عهدي بالفضال قديم
يرى الناس أني قد سلوت وإني لم رمى أحناء الضلوع سقيم
يقول : رمتي بطرفها وأصابني بمحاسنها ، ولو كنت شابا لرميت كما رمت ،
وفتنت كما فتنت ، ولكن قد تطاول عهدي بالشباب .

ثم يقول : « وما يستحسن لفظه ، ويستغرب معناه ، ويحمد اختصاره ،
قول أعرابي :

فمن يك لم يعرض فاني وناقتي بحجر الى أهل الخي غرضان
هوى ناقتي خلني وقدامي الهوى وإني وإياهما مختلفان
تحن فتبدي ما بها من صباة وأخفي الذي لولا الأسي لقضائي

وبعد هذا بقليل آيات تصف الأمانى العذبة الروية ، وأخرى لجميل تصف
الالفاظ وأثر العيون المراض في النفوس ، وثالثة لأبي حية يعارض بها جميلا ،
وموازنة بينهما لأبي العباس ، وفي هذه الفصول يمس المبرد مسا رقيقا أناسا
لامسوا المحبين واتصلوا بهم ، فمنهم من سافر بينهم ، وكان مثلا لظرف الحجاز
ونسكه ، كإبن أبي عتيق ، ومنهم من اكتسب بالعشق ورآه تمرا يساط بسويق ،
كأبي العتاهية الذي يصور لك مذهبه في الحب هذان البيتان :

رمتي بسهم الحب أما قذاده فتمر وأما نصله فسويق
ألا رب خود عينها من خزيرة وأنيابها الغر الحسان سويق

هذا عرض وجيز للغزل في كامل المبرد ، وأنا أحسبه جاوز مختار أبي تمام
عددا ، وإن كان مختار أبي تمام يفضل لإحاطته بكل المعاني العربية في هذا الباب
على كثرتها وتعدد موضوعاتها . ومهما يكن فقد ذكر شعراء كثيرين واختار
لكل منهم من رائع شعره في الغزل : فإبن أبي ربيعة والعرجي والأحوص ونصيب
وابن الرقيات وابن حسان والراعي والثقفى وبشار وأبو نواس من الإباحين .

وجميل وكثير والمجنون وابن ذريح وذو الرمة وابن ثور وأضرابهم من
العذريين . وقد خص المبرد شاعرين من هؤلاء فأكثر من الاختيار لهما ، وهما
إبن أبي ربيعة ، وقيس بن معاذ .

وقد أحسن المبرد كل الإحسان في الاكثار لهذين : فعمر زعيم الإباحيين
بلا منازع ، عنه أخذوا ، وبه اقتدوا ، وطفقوا يعارضونه في أشعارهم ومجالس
لهوهم ؛ والمجنون إمام لمن أتى بعده من أرداء الهوى . وتبله الغرام ، فله عذره بل
توفيقه وإصابته .

هذا وقد بدا لي وأنا أجبل فكري في مختاره أمور أعرضها في هوادة ويسر
مع اعترافي بفضلته وأستاذيته .

منها أنه لم يختار إلا لشاعر إسلامي أموي ، أو عباسي على قلة ، فكأن
أبا العباس كان يرى أن الغزل لم يكن غرضاً مستقلاً إلا في عهد بني أمية ، فإن لم
يكن يراه فقد مهد باختياره الطريق للقائلين به . وفي الحق الذي لا يسع منصفاً
أن يبدى صفحته له ، أن هذه الكثرة لم يعدها الأدب العربي قبل الأمويين ،
بل لم تعهد في مكة والمدينة من قبل شعراء وهبوا أنفسهم للغزل ، وقضوا دهرهم
في قصف ومجون ، وعمرود بعيشة مفعمة باللهو والانقياد للشهوات .

ومنها أن المبرد كان يستغنى في الاختيار أحياناً ليرضى مذهبه النحوي ،
وإن نفر منها الذوق ، وأنكرها الأدب ؛ تراها في غير موضع من كتابه يطنب
في بيانها ويستطرد من أجلها . بل قد تكون القطعة طريفة في معناها ، سلسة
في أسلوبها ، فيعتمد المبرد إلى إيقاعها بهذه الترهات فتتوهم بها وتشوه من جمالها .
اقرأ قصيدة عمر :

من رسولى الى الثريا بأنى ضقت ذرعاً بهجرها والكتاب

لتعلم ما صنع فيها وحشد حولها من غشاء النحويين . وفي الحق أن المبرد كان
وفياً بوعده إذ يقول : والنية أن نشرح ما وقع فيه من الإعراب شرحاً شافياً ،
وفي الحق أن الباحث لا يكون وفياً للبحث العلى إذا لم يقل إن مختار المبرد
في هذا الباب كثير منه من النوع المتوسط ، ونادر فيه الردى ندرة الجيد ،
وأن أبا العباس أهمل كثيراً من الشعراء المجيدين الذين توجوا الأدب بأكاليل

من روائع شعرهم في هذا الباب ، مؤثراً لشعراء خاملين : وقد يذكر شواهد من قصائد في الذروة العليا من النسب ويتغافل عنها ، في حين أنه قد يذكر قصائد لا تعد رأساً ولا ذنباً فيه ، من أجل تفسير كلمة غريبة نائية .

هذا وإنني أدلك على مقطعة من مختاره الجيد تماماً للبحث ، ووفاء بحق الأدب ، وأرسل على هامشها كلمة قصيرة تقوم مقام النثر لجليل معناها . قال قيس ابن معاذ :

ولم أر ليلتي بعد موقف ساعة يطن مني ترمي جمار المحصب
ويبدى الحصا منها إذا قذفت به من البرد أطراف البنان المخضب
فأصبحت من ليلي الفداء كناظر مع الصبح في أعقاب نجم مغرب
ألا إنما غادرت يا أم مالك صدى أيما تذهب به الريح يذهب

أسعده الزمان فلف شمله بليلى في منى حين كانت ترمي الجمار فتتلاعب بعقله حركاتها اللذيذة وأناملها المخضوبة ، فتراه مذهب العقل مشترك اللب ، وما هي إلا ساعة من نهار حتى فرق بينهم النفر ، فراحه ركايبهم مزومة ، فحدد إليهم الطرف ولا يستطيع الدنو منهم لأن حولهم أحراساً شداداً : فهو كالناظر إلى النجم دانيا لمغيب ، وكان متاع قليل من حبيب راحل ، أورث حزناً طويلاً ، ووكل به شقاء لازماً ، وأعقب حسرة لا تدفع ، ولوعة لا ترد ، وأبقى شيئاً يبيع الاسماع ما يمنع العيون .

إلا إنما غادرت يا أم مالك صدى أيما تذهب به الريح يذهب

هل ترى في هذا الكلام غريباً أو ساقطاً سوقياً يمجج سمعك وينبوعه ذوقك؟ ألسنت ترى له كونه بالقلب وعلقاً بالنفس ودركاً للحاجة ، مع القصد في المعنى واللفظ ؟ وهو إن أسرف في البيت الأخير فإن الهوى يخرج من حد الإسراف إلى حد الاستطراف ، ويجعله في باب النادر المفرد والبارع المستجاد . وما أجل هذه المبالغات بتولاهما مدح فيجيد حوكها فيكون لها موقع من القبول باهر ، ومنخل

وسأختم كلمتي بهذه الأبيات التي قالها المجنون حين نعى إليه أن ليلي يغدى
بها أو يراح :

كان القلب ليلة قبل يغدى بليلي العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد غلق الجناح
لها فرخان قد تركا بوكر فعشما تصفقه الرياح
فلا في الليل نالت ما ترجى ولا بالصبح كان لها يراح
تلك التي أطلقت لسان المبرد بأنها أبلغ ما قيل في خفقان القلب ، وأنها غاية
الوصف بالاضطراب . وكيف لا تكون ؟ أليس قلبه كقطاة أنزلها الدهر على حكمه
من طلاقة وأمن ، إلى شرك غلبها وأمكنه منها قدر متاح فباتت تكابد وتسمى
جهدا في الخلاص ، وقد عز الخلاص حين حم القضاء فغلق الجناح ؟ وبما زاد
في حزنها وأهاب بهمومها تركها فرخين بمهب الرياح قد افتقدا الكاسب وعجزا
عن النهوض .

أسأل الله أن يؤلف بين قلوب المسلمين ، ويشعرها جلال الألفة وجمال المحبة ؛
محبة الفضائل ورياضة النفوس عليها وإيثار الباقيات الصالحات ؛ محبة تنام فيها
الأهواء ، وتتحسم بها الأدواء ، وتقطع العلل والمعاذير ، ولا تبقى إلا النفوس
بريئة من أضغانها ، سالكة سبل ربها ، في إيمان وأمن ورضى ، حتى تلقاه
راضية مرضية .

استعطاف بليغ

قال العتيبي : أمر عبد الملك بن مروان بقطع مرتبات آل أبي سفيان
وجوائزهم ، لموجدة وجدها على خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .
فدخل عليه عمرو بن عتبة فقال : يا أمير المؤمنين إن أدنى حقك متعب ،
وبعضه قاذح لنا ، ولنا مع حقك علينا حق عليك باكرام سلفنا لسلفك . فانظر
إلينا بالعين التي نظروا بها إليهم ، وضعنا بحيث وضعتنا الرحم منك .

انحلال الزواج

لحضرة الأستاذ صالح بكير

المدرس بكلية أصول الدين

الأصل أن الزواج ينحل بوفاة أحد الزوجين ، وقد ينحل أيضا بالطلاق .
وسنعرض لهذا الأخير في أهم القوانين القديمة والحديثة . وأما الغيبة فلا تحل
الزواج مهما طال مدتھا .

القانون الروماني : ينحل الزواج في القانون الروماني بموت أحد الزوجين
أو بفقد الحرية أو الحقوق المدنية : إذ الزواج القانوني كان معتبراً من الحقوق
المدنية التي لا يتمتع بها إلا المواطن الروماني ، كما أن الزواج كان ينحل أيضا
بالطلاق . ويلاحظ أن الزواج بلا سلطة كان ينحل كانحلال الزواج بالسلطة .
وطريقة ذلك كانت على عكس الشروط المكونة للزواج : فبما أن الزواج عقد يتم
بالتراضي فكذلك الطلاق أي يحصل بالرضا المتبادل . وبجانب هذه الطريقة
كانت توجد طريقة أخرى خاصة بالزواج بلا سلطة ، وهي أن يهجر أحد الزوجين
زوجه *Répudiation* ويتخلى عنه . وعلة ذلك أن الزواج كان من الحقوق الخاصة .
والثابت تاريخياً أن الدولة كانت لا تتدخل في مسألة انحلال الزواج : وبناء
على ذلك كانت لا توجد حدود للطلاق ، فكان ذلك سبباً لشيوعه وانتشاره
في أواخر عصر الجمهورية وأوائل الإمبراطورية ، حتى لقد وصل الحال بالنساء
أن يحسبن سفين بعدد طلاقهن . وقد ترتب على انتشار الطلاق مساوياً اجتماعية
وساعد على قلة النسل . وكان الطلاق يحصل بإقرار شفوي أمام سبعة شهود .

وفي القرن الثاني وجد نظام الهجران أو التخلى بطريق إعلان من الزوج
لزوجته ، ولم يوجد تشريع للطلاق إلا في عصر الإمبراطورية المسيحية التي حاولت

القضاء على الطلاق ولكن بدون أن تقرر مبدأ لذلك ، ويعتبر أول تدخل للدولة في شؤون الطلاق هو ما قام به ديكايانوس (ولم يكن مسيحياً) حيث قرر بأنه في حالة عدم كفاءة الزوجين أو في حالة وجود نزاع بينهما فإن القاضي يقرر لمن تكون له حضانة الأولاد .

وظهر بوضوح في عهد قسطنطين المسيحي الاتجاه نحو الحد من الطلاق ، كما لا يجوز الهجران إلا في أحوال معينة . وأكثر ما كان يقع ذلك كان من جانب الزوج ، ولكن المرأة يجوز لها أن تهجر زوجها إذا ارتكب جريمة قتل أو تسميم أو انتهك حرمة القبور . وكانت توجد عقوبات في غير هذه الأحوال .

أنواع الطلاق في عصر جوستيان :

يمتاز هذا العصر بتشريع غريب لمادة الطلاق ، وقد حصره في أربعة أحوال :

- (١) طلاق بالتراضي ، وكان قد قرره ثم ألغاه ثم قرره جوستيان الثاني .
- (٢) طلاق لأسباب شرعية كعجز الزوج عن إتيان زوجته عجزاً نهائياً ، أو لعقم الزوجة ، ويعتبر هذا الطلاق هجراناً . (٣) طلاق في معنى الهجران ويعتبر عقاباً لأحد الزوجين الذي ارتكب خطأ نحو زوجه الآخر . (٤) طلاق بلا سبب شرعي وهو هجران لا يستند على سبب شرعي ، ومع ذلك فإنه يقع صحيحاً ويترتب عليه عقاب الذي وقع منه الهجران .

عقوبات الطلاق :

كانت هذه العقوبات في عصر جوستيان وهي : (أ) عقوبة توقع على المخطيء من أحد الزوجين الذي حصل بسببه الطلاق (ب) عقوبة ضد الزوج الذي طلق بلا سبب . والعقوبات على نوعين : مالية وجسمانية ، تختلف على حسب الظروف والأحوال ، كالاعتقال مؤبداً في أحد الأديرة .

القانون الجرمانى :

بدأ القانون الجرمانى من حالة قديمة جداً حيث كان الزوج وحده هو الذي له حق هجران زوجته ، ويظهر أن استعمال هذا الحق ما كان يستند على سبب بل على مجرد رغبة الزوج . ولكن فيما بعد خففت حدة هذا الحق ، وذلك بسبب الخوف من التعرض للانتقام من أقارب الزوجة إذا هجرها الزوج بلا سبب

كالزنا مثلاً . ثم أخذ الطلاق بالتراضى يحتل مكانه فى القوانين الجرمانية التى وقعت تحت تأثير النفوذ الرومانى ، وذلك بجانب طلاق الهجران الذى يحصل من الزوج إذا كان هذا يستند على سبب صحيح . ولكن الواقع أن الزوجة كان لها أيضاً هذا الحق أى لها حق هجران زوجها . ويبدو أن عدم المساواة بين الزوجين فى هذا الحق لم يندثر بعد حيث إن الزوجة التى كانت تهجر زوجها بلا سبب كانت تعرض للعقوبات الجسدية . بينما أن الزوج لا يتعرض لمثل هذه العقوبات وإنما توقع عليه عقوبات مالية . ويتضح أنه وإن كان الجارى عليه العمل فى إثبات الطلاق هو الكتابة إلا أنه يظهر أن هذا الشكل ليس ضرورياً حيث كانت توجد أشكال أخرى غير الكتابة .

القانون الكهنى :

فى وقت ظهور المسيح كان غير منتظر أن تنتشر المسيحية فى أنحاء العالم القديم (اليهود والاعريق والرومان) .

ويلاحظ أن الطلاق كان يعارض مع هذا الدين الجديد ، وقد كان من المنتظر أن يقضى هذا الدين على الطلاق حيث أن الانجيل وحوارى المسيح يرون الطلاق أمراً غير مقبول وغير مرغوب فيه . وكانوا ينادون بمبدأ عدم قابلية الزواج للانحلال ، فيجب على الزوجين أن يتصالحا ويتسامحا عن الجرم المرتكب لأن مبدأ الاحسان يجبرهما على عدم الانفصال بلا عودة . وأحد الأسس الذى يستند عليه هذا المبدأ هو ما ورد فى عبارة القديس ماتيوس (٥ / ٥١ / ٣٢) وكانت موضوع نقاش وجدل بقطع النظر عن مسألة الهجران بسبب الزنا . والرأى الغالب بين رجال الكنيسة هو أن الطلاق (حتى فى حالة الزنا) محرم ، فيجب على الزوج إعادة زوجته الخاطئة متى ندمت وتابت عن ذنبها . ولكن للزوج الحق بل واجب عليه أن يبتعد عن التى تصر على خطئها ، كما أنه ليس له الحق فى الزواج . وقد فاز وانتصر هذا المبدأ بواسطة القديس أوغستين الذى ربطه بالفكرة القائلة بأن الزواج رباط دينى وصورة لاتحاد المسيح بالكنيسة ، فلا يقبل الانحلال لعدم قابلية اتحاد المسيح بالكنيسة للانحلال ، وكان هذا عقيدة سائدة .

وقد انتصر هذا المبدأ فى الكنيسة منذ القارة (إفريقيا)

السابقات إلى الاسلام :

رسول النساء الى الرسول

لفضيلة الأستاذ كامل محمد عجلان

مدرس بمعهد القاهرة

طابت نفوس أهل (المدينة) بهجرة الرسول اليهم ، وبات الإيمان يعمر قلوب
الانصار والمهاجرين ، وجعل الرجال والنساء يتدارسون القرآن ويتفهمون ما نزل
منه ، ويتبعون ما يأمر به النبي ، ويوحى بعضهم الى بعض ، ما تلقاه بين يدي
رسول الله ، وما سمعه من صحابته ، وما عرفه من الدين وقواعده وأوامره ونواهيه .
وكانت نساء الانصار يتشوقن في لطفة الى استماع القرآن ، وتبصر واجههن ،
وما شرع لهن ، وما يقربهن الى الله ولقي

وكان كل رجل يعود الى بيته بعد أن يحضر مجلس الرسول ، وقد وعى ما ينصح
به أهله ، وما يركي روح بيته وعشيرته من أخت أو أم أو زوج .

وكانت في (المدينة) مثابة الإسلام بعد الهجرة (فتاة) في ريعان شبابها
ومقبل عمرها ، يزينا جمالها ، ويعلو بها عقلها . لها بين لداتها منزلة بفضل فصاحتها
وسعة إدراكها ، وشدة تلهفها على المعرفة والوقوف جاهدة على ما ينادي به الرسول
وما يدعو اليه الإسلام ، من كل ما يهم المسلم والمسلمة ، والانصارية والمهاجرة .
وكانت كلما تلقت من أدب الدين شيئاً ، زادها إيماناً ورغبة في أن تقتني آثار
ما يوحى ، وما يتنزل من السماء . . .

وتريد أن تشارك الرجال في السبق الى المعرفة ، ولكن حياء المرأة وطبيعتها
وبعدها عن مجالس الصحابة إذا تحلقوا حول الرسول ، كل ذلك كان يقلقها ، فتم
بزميلاتها وتطلب عندهن حاجتها من العلم والمعرفة فلا تجد إلا بمقدار . ولأنها

لتخشى أن تكون درجة النساء في الجهاد منقصة تقهر المرأة إلى مرة عند الله
أقل من الرجل المجاهد في سبيل الله .

لقد بايعت الرسول مع من بايعن من النساء حين هاجر إلى المدينة ، وأسليت
لله وأخلصت لدينه القوى المتين . ولكنها ترى الرجال يجاهدون في سبيل الله
ويعتازون بصلاة الجماعة واجتمع والأعياد .

طال بها التفكير ، وهداها عقلها إلى أن ترجع إلى رسول الله .

ولكن كيف السبيل ؟ أتذهب إلى نساء النبي وتسأل إحداهن ؟ ... لا شفاء
لنفسها إلا إذا قابلت رسول الله . وإنه ليجلس بين أصحابه كلما دعا أمر ، أو نزل
وحى . أو استراح بهم الجهاد ، أو قضيت الصلاة .

طال بها التفكير ، وأخيرا غلب على حياتها شدة إيمانها وشوقها إلى معرفة
مكان المرأة وحظها من الجهاد وأجرها على ما تقدم في حياتها من كفاح مع
السابقين إلى الإسلام .

كاد يشق قلب شوقها غير من حرمان المرأة حمل السلاح وحضور
الجنائز والحج بعد الحج . وتخيأت أن يكون في تلك المميزات ما يحرم المرأة
من الفضل ، وما يخلف قدرها في أجر الآخرة ، إذا فتحت أبواب الجنة للسابقين
الداخلين في دين الله أفواجا .

وأخيرا لم تجد بدا من الذهاب إلى رسول الله . وما أن علمت أنه أخذ مجلسه
بين صحابته يزكيهم ويعلمهم الكتاب ويرشدهم ، حتى انطلقت تدفعها الرغبة ويحفها
الحياء ويحوطها الأدب .

راحت (أسماء بنت يزيد الأنصارية) تنصب في سيرها العاجل وخطواتها
المؤملة ، وأنفاسها المتلهفة ، وتفكيرها الدائر حول ما تسأل فيه الرسول ، وماذا
تعود به إلى نساء المدينة من قول تزفه بشرى إلى النساء المسلمات ، ليكون حديثاً
يروى ، وأثرا يذكر ، وأدبا يحتذى ، ودستورا يقتدى به ، وتقف المرأة عند حدوده
طيبة النفس ، مستريحة الخاطر ، آمنة على أملها في الجنة ، وحظها فيما أعد الله للمتقين
من جنات عرضها السموات والأرض .

نعم : مضت (أسماء الأنصارية) إلى مجلس تحف به الهيبة . وهناك قالت :
« يا رسول الله بأبي أنت وأمي ! أنا وافدة النساء إليك . إن الله عز وجل
بعثك إلى الرجال والنساء كافة فأمنّا بك ويأهلك . »

« إنا معشر النساء محصوراتٌ مَقْصُورَاتٌ ، قواعد في بيوتكم ، وحاملاتُ
أولادكم ؛ وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعة وعبادة المرضى وشهود
الجنائز والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهادُ في سبيل الله .
« وإن أحدكم إذا خرج حاجا أو معتمرا أو مجاهدا ، حفظنا لكم أموالكم ،
وعَزَلنا أثوابكم ، ورينا لكم أولادكم ، أفنشَارِكُكم في الأجر والخير ؟ . »



كأنى بها قد صمتت في أدب وانتظار لما يوجه الرسول . وكأنى بالصحابة
يعجبون من ذلاقة لسانها . وكأنى بها تنفست عن راحة بالها حين سألت عن
كل ما يشغلها ويثقل صدرها .

وهنا التفت النبي إلى أصحابه بوجهه كله ، ثم قال :

« هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه ؟
فقالوا : يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا . »

والتفت النبي إليها وقال : « أفهمي أيتها المرأة وأعلى من خلقتك من النساء أن
'حَسَنَ تَبَعَلِ المرأةُ لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يَعْدِلُ ذلك كله ،
وتبعل المرأة لزوجها : إطاعتها له ، وحسن أدبها معه ، وقيامها بحقه . »

عادت أسماء من عند رسول الله إلى نساء المدينة ، والفرح يملأ جوانحها ، وإنها
لتتوسط حلقات زميلاتها وتفصح عن لقاءها للنبي . . . وإنها لتروى ما سمعت منه
وقت وفادتها ، وحسن استماعه لها ، ورقة جوابه ، ورأفته بها وبمعشر النساء جميعا .
لقد سمرت عند الرسول تبغى بيان أجرهن على جهادهن ، فعلت أن جهاد
المرأة « هو رعاية زوجها ، ولها أجر المجاهدين في سبيل الله . ومن يوم هذه
السفارة عرفنا خطبة الرسول للنساء إلى الرسول . »

وأصبحت (أسماء) مرجع نساء قومها، يدبرن رأيا، ويتبعن ما يصح به،
وأضحت مرجع كثير من التابعين يرذّن من أفصاحها وفضل أدبها ما شاء الله
وشاءت لها غيرتها على حقوق المسلمات وتثقيف المسلمين.

إنها أسماء، وكما في الصحايات من مثل تستطيع المرأة أن تقتدى بهداها،
وتعرف الهدف الذي حدد لها من أول مطلع التشريع والتوجيه.

إن جهاد المرأة في منزلها هو الجهاد الأكبر؛ لأنها تحمل نفسها على الصبر،
وتدفعها إلى العمل في سبيل الأسرة، وتردها عن الميل إلى الخروج على طبيعة
ما أعدت له وأعد لها الأجر من ورائه.

ومما يدل على قيمة جهاد المرأة في بيتها، ويؤكد ما وعد به رسول الله، قوله
إلى أحد الرجال، وقد جاء يوما إلى مجلس النبي، فقال:

«يا رسول الله: إن لي امرأة إذا أتيت مهموماً قامت إلى فأخذت بطرف
ردائي ومسحت على وجهي وقالت: إن كان همك للدنيا فصرفه الله عنك، وإن
كان همك للآخرة فزادك الله هما».

فقال الرسول: «إن لها أجر الشهداء ورزقهم».

تلك هي بعض مواقف المرأة، وبعض ما أعد لها من أجر الله، وما أثارته
وافدة النساء.

وليس معنى ذلك أنها لا تشترك في الجهاد والمحارب إن دعت الظروف وقضت
المواقف، بل إن رسالتها الكبرى في المنزل قد تسمح لها بأن تشترك في مد
الجيوش المحاربة بما تستطيع من مال وجهد وعمل في حد طاقتها.

ولا أصدق على ذلك من موقف أسماء الصحابية هذه. فلقد عاشت طويلا
بعسد الرسول وأدركت موقعة (اليرموك) بين المسلمين والروم، ولما التحم
الجيشان كانت تقوم على إسعاف الجرحى وإمداد المحاربين بالماء، ولما حى
وطيس الحرب تناولت عمود خيمتها وتقدمت إلى صفوف المحاربين وجعلت
تضرب حتى قتلت تسعة من المحاربين من جنود الروم أعداء المسلمين.

وتلك القوة من فضل الإيمان في نفوس السابقات إلى الاسلام.

أساليب العيش

بين الأدب والدين

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم أبو الحشب
المدرس بالأزهر

—

كان فيما تناقل الناس جيلا بعد جيل ، وقيلا بعد قبيلا ، أن الضرورة تبيح المحظورة ، وأن طالب القوت ما تعدى . لذلك فهم يرون في سبيل سدّ العوز ، ودفع الفاقة ، والابقاء على الحوباء ، أن يحتال الانسان صنوف الخيل ، ويسلك أعنف الطرق ، لئلا يمنع ما عساه أن يودي بنفسه جوعا ، أو يختر بها صرعى في ميدان تنازع البقاء .

مركز تحقيق كتب التراث

غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا !
وقد عيب على الحريرى هذا اللون من الأدب الذى كان أشبه الأشياء بالكدية والاستجداء : لأن الناشئ لا يأخذ عنه إلا ضعفا وخضوعا ، وذلة وخنوعا ، إذ ينتهى منه إلى مثل قوله :

ليست الخبيصة أبغى الخبيصة وأنشبت شصى فى كل شيصه
وصيرت وعظى أحبولة أربع القنيسر به والقنيسه
وأجأنى الدهر حتى ولجت بلطف احتيالى على الليث عيصه

وربما كان أشد اعتدالا ، وأكثر إنصافا ، من يرى أن يتخير الرجل مرامى رحله ، ومواطن سفره ، ومواضع تسأله ، فلا يرجو ما هب ودب ، ولا يقصد كل حاف ومنتعل ، وإنما يعتام مواقع الغيث ، ومنابت الكلاء .

وإذا ابتليت ببذل وجهك سائلا فابذله للتكريم الفضل

ما اعتاض بأذل وجهه بسؤاله عوضا ولو قال الغني بسؤال

ولم تكن هذه سيئة عصر خاص ، ولا جريرة بيئة خاصة ، ولكنها تركة الضعف الخلقى الذى يتوارثه بناء السوء عن الآباء اللئام . . . ثم هى إلى جانب هذا جناية الأدب الرخيص فى شعر ، المديح ، الذى يوبناه فى أبواب ، ونسقاء فى صحائف ، تأديبا لأحفادنا ، وفلذات أكبادنا . وكنا نود أن يجاروا الممدوح فى عطائه ، والكريم فى سخائه ، فإن اليد العليا خير من اليد السفلى ، إلا أنهم جاروا السائل فى صياغة المدائح ، وصفاقة الصفائح ، وبالغوا فى المقصود ، كأنه المعبود .

وما رأيت - فيما رأيت - من هذا الطراز من الشعر ما يحتفظ فيه القائل بماء وجهه ، أو يرفع بكرامته ، اللهم إلا فى أبيات لبشار بن برد يوجهها إلى أحد البرامكة ، زاعما له أنه لا يسأله عن ذلة ، ولا يقصده عن صغار ، بل هى ضرورة تبادل المنافع ، قضت أن يكون بذل فى مقابل بذل ، وعطاء ثمنا لعطاء :

أخالد لم أخبط اليك بدمه سوى أننى عاف وأنت جواد

فإن تعطينى أفرغ عليك مداعنى وإن تاب لم يضرب على سداد

ركابى على حشرف وقلبي مشيع ومالى بأرض الباخلين بلاد

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازى على سواد

وللدين الاسلامى أدب أفضل من هذا الأدب وأسمى منه لأنه قام على مبدأ ، ولقد كرما بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا ، وهذا التكريم فى نظره يقوم على أساس ألا يكون الإنسان عبدا لغير الله . وألا تصل به الحاجة والفقر إلى درجة أن يجعل وجهه فى مواطئ الأقدام ، والناس كلهم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

وإذا كان سبحانه قد فضل قوما على قوم فى الرزق ، ففى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، ولو أن هذا الحق بذل عن طوعية واختيار ، لما كان هنالك سائل ولا محروم ، وقائل الله الشح :

ولو سئل الناس التراب لأوشكوا إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا

ومع هذا فإنه لم يكل الفقير إلى حقوق غنى الأغنياء، ولكنه حث على السعى،
ورغب في الزهادة، وكره أن يعيش المرء عالة على أخيه، وعلينا أن نطرق أبواب
الرزق من أفضل العبادات، وأحسن القرب. على أنه مما استقر في الطبائع أن
الحاجة ما دخلت في مودة إلا أفسدتها، ولا معاشرة إلا أغصنها، ولا جماعة
إلا فرقناها :

إن من أحوجك الدهر إليه وتعلقت به هنت عليه
ليس يصفو ود من آخيته إن تطلعت لشيء في يديه

وقد جاء في الحديث « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب فيبيع خير له من أن
يسأل الناس أعطوه أم منعوه » . وهو لا يقصد - بالطبع - التخصيص على
الاحتطاب خاصة، وإنما هو أسلوب من أساليب العيش الشريف، والحياة المحترمة.
وهيات أن يولى المسلم وجهه إلى عمل من الأعمال قاصداً الكفاف، ودفع
المسغبة معتمداً على المولى جل جلاله، ثم يجيب مسعاه، أو لا يتحقق رجاءه،
وقوله صلى الله عليه وسلم « لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق
الطير تغدو خماساً وتروح بظانا، يرسم صورة واضحة للأعمال المقرونة بنجاح
المسعى، وبلوغ الغاية، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » .

ولم تضق الحياة بنا ولكن زحام السوء ضيقها بحالا
ولم تقل براحتها بنينا ولكن ساقوا الموت اقتالا
ولو زاد الحياة الناس سعياً وإخلاصاً لزادتهم جمالا

نعم هو زحام السوء ضيق رفعتها مع اتساعها، وصيرها كأحبولة الصياد
في نظر طلاب الأقوات، ورواد الرزق، وهكذا :

لو أنصف الناس استراح القاضي وبات كل عن أخيه راضى

وقد تذبذب بنا الزمن إلى درجة أن أصبح فينا من يقول : « لو أنصف
القاضي...! » والواقع أنها عيوب اجتماعية يحمل أوزارها الكبار والصغار.

عيد الانسانية

لفضيلة الاستاذ الالمعى الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس بالأزهر

يوم الميلاد النبوى الكريم، عيد الإسلام والسلام، عيد الإنسانية والحضارة،
عيد الحق والحرية، والإخاء والمساواة .

يوم خالد فى تاريخ البشرية الرهيب : كان فاصلا بين النور والظلام ،
والفوضى والنظام ، والحرب والسلام ، والشقاق والوئام : كان فارقا بين حياتين :
حياة الاستعباد ، والحرية : وحداً بين عهدين : عهدى الوحشية ، والمدنية .

ولد محمد صلوات الله عليه ، فولد معه النور والهدى ، والحق والخير ، والرحمة
والإيثار ، والفضيلة والشرف ، والعزة والكرامة .

وما أظن الدين يعترف بماتسمية نحن مصالحة أو مداراة ، ويسميه قانون
الأخلاق تضائلا ونزولا . على أنك تعذر من تلجئه الضرورة ، وتسوقه الحاجة .
أما هؤلاء الذين ليسوا بحاجة إلى هذا كله فما عذرهم أمام الله والتاريخ ؟ أعذرهم
أن فى ذلك الرقى والجاء ، والتقدم والعلو ، والغنى واليسار ، والتمكين لدى الرؤساء
أو المسئولين ؟ وهو على حد قول القائل :

ما يحرز المرء من أطرافه طرفا إلا تخونه النقصان من طرف !
والسكال بالأخلاق لا بالأرزاق ، وبالأدب لا بالحسب والنسب . وخير
ما يكون المؤمن أن يكون كما قال القرآن ، لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا
بما آتاكم ، والبطولة لم تكن إلا فى الرجولة :

والرجل الضرب من تساوى فى نفسه الصعب والزلول
فهو إذا انحط أو تعالى لا آتية منه ولا الخمول
كالسيف لا زينه التحلى يوما ، ولا عيبه الفلول !

وشبّه محمد صلى الله عليه وسلم مفطوراً على أسمى الفضائل والمواهب والأخلاق ، التي تعتبر تراثاً خالداً تعزّز به الإنسانية ويفشده الناس .

وبعث محمد إلى الناس كافة ، فجعل الرسالة ، وأذى الأمانة ، ونشر السلام . وجعل كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا هي السفلى ، وقضى على من كانوا يعملون جاهدين ليطفئوا نور الله ودين الله .

ومات صلى الله عليه وسلم بعد أن ترك وراءه ديناً عاماً آمن به العالم ، وكتاباً سماوياً رددته الأجيال والقرون ، ودولة خضع لها الشرق والغرب ، تأتمر بأمر الله ، وتسير على حدود الله ، وتؤمن بدين الله ، وكتابه الحكيم ، ورسوله العظيم .

محمد صلوات الله عليه نشيد الإنسانية الخالد ، وأمل الحضارة الباسم ، وأوّل داع إلى أعظم دين ، وأنبل مُثُل ، وأكرم غايات ، وأسمى أهداف .

محمد صلوات الله عليه هو نبي الإسلام ، ورسول السلام ، وأعظم إنسان تعزّز به الحياة والناس ، في شتى العصور .

محمد صلوات الله عليه هو أملنا في الماضي والحاضر والمستقبل ، وقدوتنا في الحق والإصلاح والخير ، ومثلنا الأعلى في كل ميدان ، وكل فكرة أو عمل .

يا رسول الله ! بارك خطوات أمتك الإسلامية في الدفاع عن حرياتنا وعزّمتها وكرامتها : وبارك ملاذ الشرق والعروبة والإسلام : فاروق المعظم ، حفظه الله . وبارك هذا المعهد الإسلامي العظيم : الأزهر ، الذي يعمل لنشر دينك ، وإحياء سنتك : وبارك هذا العهد الجديد السعيد ، في تاريخ الأزهر والإسلام ، عهد حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الإمام الشيخ محمد مأمون الشناوى : أيده الله ، في ظل الفاروق المحبوب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الايان بما فوق الطبيعة

أساس لبقاء النوع الإنسانى وترقيه

اشتدت الفلسفة المادية فى القرن الماضى فى نشر أصولها . معتمدة على ما كشفته العلوم الطبيعية من مساتير القوى الكونية ، ذهابا من قادتها إلى أن تجرد العقول من كل علاقة بما فوق الطبيعة يفضى إلى فضج القوى العقلية الإنسانية ، ويكون أثر ذلك على الأخلاق والمعاملات والعلاقات الاجتماعية رقيا لا تشوبه شائبة ، وكلا عليا وعمليا يؤدي الإنسانية إلى عهدها الذهبى المنتظر ، دون أن ترتطم بمعطلات اعتقادية تحول بينها وبين الحقائق الكونية .

وقد بذل أشيع هذه الفلسفة جهد الجبارة فى نشر مبادئهم ، فأكثروا من المحاضرات الفلسفية المؤيدة لمذهبهم ، وعمدوا إلى طبع المؤلفات التى تؤيد مزاعمهم طبعات رخيصة الثمن لتنتشر بين الطبقات الدنيا من الشعوب ، حتى تم لهم ما أرادوا من زعزعة عقائد العامة فى شئون ما فوق الطبيعة ، وأصبح الاستخفاف بالمقررات الدينية ، واعتبار قادتها وممثليها من العاملين على صد النفوس عن الاشتراك فى بناء العالم الجديد الخالص من شوائب الرجعية ؛ فكانت ثمرات هذه الجهود التى بُذلت ، انتشار روح التمرد فى الطبقات العاملة ، واستهتار أصحاب الأموال فى جمع الثروات ، وإنفاقها فى اللهو والقصف ، والتفنن فى ضروب اللذات ؛ ونشأت من هذا الوضع مذاهب متطرفة بين العمال وما فى حكمهم ، تذرعت بكل صنوف الوسائل المدمرة للوصول إلى نظم اجتماعية لو تحققت لكانت وبالا ويلا على المجتمعات المتقدمة ؛ بل تألفت أصول اجتماعية اعتبرت مُثالا عُليا ، على حين أنها حالات استثنائية تولدها الضرورة ثم يزول بزوالها .

كل هذا لا يُظهر بوضوح تأثير المذهب المادى فى إنتاجه ، ولكن هذا

التأثير يظهر في تدهور الآداب العامة ، وفي ارتخاء الرُّبُط الاجتماعية إلى حد أن اعتبرت تلك الرُّبُط في بعض الجماعات من بقايا العصور الهمجية التي يجب العمل على حلها .

أما تدهور الآداب في القرنين الأخيرين فليست في حاجة إلى بيان أطواره : فقد أصبح كل ما كان يعتقده الناس إفراطا أو تفريطا ، أو تجاوزا لحدود الأخلاق العالية ، يعتبر من بقايا الوسوس العتيقة . ففي البيت أصبح الأولاد يشبون على عصيان آبائهم وأمهاتهم ، مستسلمين هذه الحالة عنهم ، فقد نشأ التدافع أول الأمر بينهم ، فالأولون ببقية من الغيرة أرادوا أن يحدوا من حرية زوجاتهم تحقيقا لمبدأ القوامه الفطرية عليهن ، فنشأت مشادات بين الفريقين ، انتهت بخذلان الرجال . وكان خذلانهم بعاملين : أحدهما تسمُّمهم بالمبادئ المادية ، وثانيهما بسيادة الروح الإباحية في الخارج ، فأقروا بخطة خسف ، وانتهى أمرهم بالتسليم بدون قيد ولا شرط : فكيف في بيئة مثل هذه أن تحمل النابتة على اتباع طريقة أدبية ، وما فائدتها في بيئة هي مثال الانحلال والتدهور ؟

على هذا النحو عمت الفوضى البيوتات ، وتعدتها إلى دور الدراسات ، حتى أصبحت مهمة التعليم عبئا ثقيلا على القائمين بها .

أما من ناحية الربط الاجتماعية فقد أصابها من الارتخاء ما وصل إلى أشد درجات الخطورة . ومظاهر هذه الخطورة قيام الاعتصابات لأوهى الأسباب : فبينما يكون دولا ب الأعمال على أكمل ما يكون من النظام إذا ببادرة اعتصاب في بعض فقام العمال ، لا يلبث أن يعم جميع الذين يعملون مثل عملهم في جميع أرجاء المملكة ، فيصبح الناس إما لا يحدون خبزا يأكلونه ، أو نورا يستضيئون به ، أو وسائل نقل تقرب بين مساوفهم ، وتحمل تجارتهم ، أو وقودا يدير آلاتهم ، ويدفع عادية الزمهرير عنهم . وكلما استرضيت طائفة خلفتها أخرى ، بغير مبالاة ، بما يستتبع هذه الاضرابات من وقف الأعمال ، وإرباك الأحوال ، وسقوط الوزارات : وأكثر ذلك لا عن ضرورة ماسة ، وإنما تطلعا لولاية الحكم ، وتربصا للفرص لنيل بعض المآرب المادية ، وقد أصبح هذا الداء مستشرى إلى حد أنها لا تكاد تفرغ الجرائد من حوادث اعتصاب ، حتى تشتغل بغيره ، وهلم جرا .

وأشد خطرا على الانسانية من هذا كله موت عاطفة التراحم بين الجماعات المختلفة ، والذهاب في الخصومات الى أبعد حدود القسوة والغشمية ؛ فالأمم المتجاورة المتوحدة في ديانتها وثقافتها ومدنيتها ، قد تتخالف في سياساتها ومطامعها ، فيدلا من أن تعمل على تقريب وجهتي نظرها ، وتجهدا في وجدان تسوية عادلة بين مصالحهما . تعمل كل منهما على حرمان جارتها من حاجتها ، والاستئثار بكل الفوائد دونها . فلا تجد المتوترة منهما إلا اللجوء الى القوة في الحصول على رغبتها ، فتقع بينهما حرب ، والحرب وسيلة وحشية ، فهي تناحر لا يصح وقوعه بين الأمم التي تعقل اليوم نتائجها من الحراب والدمار . وقد تجر هذه الحرب الدول التي تمت الى كل من المتخاصمين بسبب ، فتقلب الى مجزرة عامة بين أمم تملك كل منها من آلات التدمير ما لا يصح استخدامه لاهلاك بعضها بعضا .

حدث كل هذا في كل أدوار الانتقالات الاجتماعية ، حيث لم تكن وسائل الاقتناع مغنية . وبقى إلى اليوم وفي العالم محكمة دولية للعدل ! وفي هذا دليل محسوس على أن الأمم بعد أن بلغت هذه الغايات البعيدة من فهم الحقوق الطبيعية ، وذوقت ثمرات السلام في النواحي العلمية والمدنية ، لا تزال تغلب عليها النزعة الوحشية ، بل تفاقم شر هذه النزعة فيها إلى حد أنها تندفع إلى الخضوع لها ، وهي تعلم أن نتيجة ذلك إهلاك النوع الانساني ، وتجريده من كل ما كسبه من ثمرات المدنية والاكتشافات العلمية .

كل هذا أثر الفلسفة المادية ، لأنه يتماشى ومبادئها من تنازع الحياة ، وبقاء الاصلح ، وقيام الأقوياء على أنقاض الضعفاء ، وما اقتننت به العقول من أمثال هذه الكلمات الفارغة التي لو بقيت ، لأدت النوع البشري إلى عهد من الوحشية لا يمتاز عما كان عليه النوع الانساني في أول عهده بالوجود .

هنا يشعر القارىء بأن النوع الانساني ينقصه لأجل أن يحيا حياة طيبة ، ويزداد علما ورقيا إلى ما لا حد له يقف عنده ، إلى عامل أدبي يحد من نزعة الوحشية ، ويصده عن الانقياد لطبيعته الحيوانية . عامل يلائم ما متع به من روح علوى ينزع به إلى السمو الخلقى ، والرقى الأدبي ، والترفع عن التوحش الحيوانى . هذا العامل الأدبي هو ما حمله الدين إليه من الاعتقاد بعالم ما فوق الطبيعة . والذي يسهل على الدين مهمته العظيمة ، ويسوغ له الإدمان على الدعوة إليه ، أن الانسان

قد أدرك وجود هذا العالم العلوى من يوم ظهوره على الأرض . ولا يزال على ما كان عليه إلى اليوم ، بل زاد شعورا به وشوقا إلى الاستزادة من معرفته .

نعم إن الانسان أطلق العنان لخيالاته في إدراكه لذلك العالم ، فترك شيئا مما يتصوره من كائنات روحانية ، وشؤون علوية ، إلا ألحقه به تحت أسماء واختصاصات شتى ، تخالفت الشعوب فيها تخالفا كبيرا : ولكنها اتفقت جميعها على أن ذلك العالم العالى هو مصدر القوى العامة ، منه تشع على جميع الكائنات ، وإليه يرجع تدبيرها وتقويمها ، وأن العالم الظاهر للحواس منفعل له انفعال الجسم للروح ، والمادة للقوى التى تدبرها .

ولما اتسعت للإنسان آفاق المعارف الطبيعية ، زاد تعلقه بذلك العالم واعتقد أن فيه أمثلا العليا وغاياتها البعيدة .

وجاءت الأديان فأيدت الشعور الفطرى به لدى الانسان ، وأزالت عنه ما ألحقته به طفولة الأمم من الأباطيل والخرافات ، وجعلته مصدر أمر الله ونهيه ، ومنتزلة قدرته التى تمتد الكائنات بمسيرها ويكملها ، ومشوى الأرواح والملائكة ، وفيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من المشاهد العلوية ، والأنوار القدسية .

فالتفوس البشرية الممتعة بالعقل والإدراك ، والشعور الحاد بالجمال والقبح ، إذا نالها البشيم من معاناة الحياة الأرضية ، وأصابها الرهق من مغالبة حوادثها ، وشعرت بالهلع والوحشة من تعاقب الكوارث عليها ، لجأت إلى ذلك العالم المحجوب عنها ، فاستمدت منه القوة والصبر على تكاليف الحياة ، واستلهمت الروح الذى يشع منه المبادئ العليا لمعالجة العوادم التى تحيط بها من كل جانب ، فتشعر بنفحة مشجعة ، وطمأنينة مثبتة ، قد لا تبالى بعدها إذا لقيت حتفها ، لأنها تعتقد أنها ستنتقل بعد هذا الجهاد الموبق الى ذلك العالم العالى ، لتعيش فيه مع الأرواح العالية ، والنفوس الطاهرة .

لا جرم أن الشعور بوجود ذلك العالم يجعل للحياة الانسانية ، وللعنت الذى يصيب الانسان فيها معنى ساميا ، وعاقبة معقولة ، ويحمله على ملازمة الخلال النبيلة ، والمبادئ القويمة ، خلافا لمن لا يعتقد بوجوده ؛ فانه إذا تجهمت له الحياة فكر في ارتكاب الجرائم ، واقترب المآثم ، ولم يبال بشيء غير نفسه ؛ فإذا عمت

هذه الحماية حتى صارت عقيدة لامة ، فانها تتجه إلى طريق الشر ، فلا تحترم عهدا ، ولا تلزم ميثاقا ، فاذا قاتلت وانتصرت ، نشرت الرعب في النفوس ، وأشاعت الظلم في الأحكام ، وما تزال ترتكب منكرات تليها منكرات ، حتى تصادفها قوة أكبر من قوتها فتلحقها بالأذلين .

فإذا استشرى هذا الداء الإلحادي ، واعتقته الأمم ، وأثمر العلم من الأسلحة المدمرة ما يكون استعماله وبالا على الحضارة الانسانية ، فإن تلك الأمم لا تتأخر عن استخدامه فتهلك الحرث والنسل ، وينتهي العالم بعد هذا الدور من التناحر إلى حالة من البؤس لا يرضاها أشد الناس عداوة لبني نوعه .

ولقد كانت المبادئ الإلحادية قد قويت شوكتها في القرنين الثامن والتاسع عشر فكان ثمرة ذلك حدوث حربين عالميتين ، لم تراع فيهما المرحمة الإنسانية ، ولا العدالة العرفية ، ف ضرب المتحاربون المدن بالقنابل الضخمة غير مباليين إن كانوا يقتلون بها جنودا في خطوط النار ، أم الأسر الوادعة المكتظة بالنساء والولدان ، والمهرمى والزمنى منهم ، فأبادوا ملايين من النفوس البريئة رغما من التمدن المسادى الذي أفاده العلم للناس ، ولم يغن بعض ما كانت تغنيه العقيدة الدينية في مثل هذه الأدوار الحرجة .

ولو اتفق اختراع قنابل أشد فتكا كالقنابل الذرية ، وحدثت حرب جديدة ، لتراشق بها الخصوم ، وإذا ذاك تصوح زهرة المدنية ، ويخبو نورها ، وترتكس الجماعات البشرية إلى أسوأ مما كانت عليه أيام جاهليتها الأولى .

وليس بعد هذه التجارب المحسوسة دليل على أن العلم الطبيعي لا أثر له في تهذيب النفس الإنسانية ، ورفع كابوس الوحشية عنها ، اللهم إلا ظاهراً من التقاليد الأدبية يستخدمها الناس في مقابلاتهم ومعاملاتهم ، وقلوبهم من الإنسانية الفاضلة ، والكمالات الخلقية هواء .

هنا يعترض علينا معترض فيقول : إن ما ذكرته عن الوحشية المستكنة في نفوس المتمدنين ، رغما عن بلوغهم الغايات البعيدة في العلوم الطبيعية ، صحيح لا يمكن التماهى فيه ، ولكن تاريخ الجماعات في أشد أدوار حماسها الدينية لم تخل

من قساوات أسوأ مظهرأ ، وأفظع مخبرأ مما ذكرت . ألم يذبحوا مخالفينهم في الدين ذبح الأغنام ، ألم يلقوهم جماعات في النيران ، ألم يرموا بهم من شواحق الجبال . لا شيء غير أنهم لا يدينون بدينهم ، ولا يتعبدون بكتابهم ؟ .

نقول : نعم ، حدث كل ذلك من الجسانين ، ونحن لم نقل إن العقائد وحدها تبلغ الجماعات الى المثل العليا من الكمال الصحيح ، دون أن تستضيء عقولها بأنوار المعارف الكونية . وتشبع نفوسها بحكمة الدين الحق : لذلك جاء الإسلام داعياً إليهما معاً ، فقال تعالى : « وقل رب زدني علماً » ، حتى أنه حصر كمال العلم بالله والوقوف عند حدوده في العلماء ، فقال : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . ودعا النبي صلى الله عليه وسلم الى طلب العلم ، وحث عليه في أقوال أثرت عنه تعتبر مثلاً علياً في التحضيض عليه : من ذلك قوله : « يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء . فيرجح عليها » وقوله : « لموت عالم أشد على الله من موت قبيلة » وقوله : « اطلب العلم ولو بالطين » .

فالجاهل إذا تدين ولم يجد من تربيته البيئية ، ولا من ثقافته الحكيمة . رادعا يردعه عن الشطط ، تخيل أن في التكيل بأعداء دينه ، والعدوان عليهم . وسائل تحظيه من الله بأجزل المشوبات .

ومن الأمثلة التي نسوقها لبيان سمو الإسلام ، أن رجالاً دخلوا فيه وآباؤهم كانوا لا يزالون على كفرهم ، فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم : هل يقتلونهم إذا صادفهم في كتائب الأعداء ؟ فنهاهم عن ذلك احتراماً لحرمة الأبوة . بل نهاهم أن يقتلوا من أعدائهم الطاعين في السن ، والمصابين بمختلف العاهات ، والنساء والولدان وخدم المقاتلين ، ورجال الدين ، وحظر عليهم حرق دورهم ، وتقطيع أشجارهم ، وطلب إليهم أن لا يقتلوا أسراهم ، وأن يحسنوا إليهم ، وأن لا يقتلوا المستسلمين . فاتفق أن أحد أصحاب النبي قتل مستسلماً ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك وقال له : « إني أبرأ الى الله من عملك » فقال إنه استسلم والسيف يهوى على رأسه تفادياً من القتل . فأجابه النبي : وهل كشفت عن قلبه ؟ إنا أمرنا أن نأخذ بالظاهر .

كل هذا يدل على أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ درجة الكمال النفسى إلا بالدين
مقترنا بالعلم ، وليس بأحدهما دون الآخر . بهذا التحديد العظيم فى آخر أدوار
الإنسانية جاء الاسلام ، فجعل الدين والعلم توأمين متلازمين ، وعاملين متكافلين ،
وضرب أهله فى الأرض متشبعين بهذه الحقيقة ، فلم يجدوا علما إلا تدارسوه .
ولا فلسفة إلا اطلعوا عليها ، عاملين بقول نبيهم صلى الله عليه وسلم : « خذوا
الحكمة ولا تبال من أى وعاء خرجت » ، وخذ الحكمة ولو من مشرك ، فاستقدموا
العلماء والحكماء من كل قطر ، وتركوهم على دينهم ، وأجروا عليهم الأرزاق
بسخاء لم يسمع بمثله فى أمة قبلهم ، وكلفوهم ترجمة كتب العلم والحكمة ، وأكبوا
عليها درسا ونقدا ، وتحريرا وتقريراً ، حتى بلغوا الغاية منها ، وزادوا عليها
زيادات لا تزال محل إعجاب أئمة التاريخ الى اليوم .

ولو كان دينهم لم يحضهم على طلب العلم هذا التحضيض الذى لم يؤثر عن أية
أمة سواهم ، لبقوا على جهالتهم ، فانقلبت فتوحاتهم شرا عليهم وعلى البشرية ،
ولبادوا كما بادت الأمم المنعسفة قبلهم . ولما بق لهم ولدينهم الأثر الذى بق الى
اليوم وسبق على الدهر . *مركز تحقيق كتب التراث*

فعلى المسلمين أن يدرسوا هذه الناحية من تاريخهم ، فهى التى ستجعل من
دينهم مفزعا للعالم كله فى مستقبل ليس بعيدا عنا . وقد بدت بوادره فى الأفق :
فلم لتحقيق هذا العهد الكريم ، عهد الاسلام الحق ، دين الإنسانية أجمع .

أما وقد بلغنا الى هذا المدى ، فالذى بق أن نقوله إن المدنية القائمة أصبحت
مهدة بالزوال من ناحية العلم ، إذا لم تسعف بالعقائد الصحيحة . وقد أكرم
الله هذا النوع الكريم فكشف له فى هذا الزمان الأخير من البدات المحسوسة . على
شرطه فى دراسة العلوم الكونية ، ما يوجد له إيمانا راسخا بما فوق الطبيعة ،
وبيقاء الأرواح بعد تركها للأجساد ، بما لم يدع شكاً لمرتاب ، ولا حجة لمتردد :
« وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون ؟ » .

محمد فريد وجدي

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

لفضيلة الأستاذ الشيخ طه محمد الساكت

المدرس بالأزهر

عن أنس رضي الله عنه قال : غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر ، فقال :
يا رسول الله ، غبتُ عن أول قتالٍ قاتلتَ المشركين ، لئن الله أشهدني قتال
المشركين ليسرني الله ما أصنع . فلما كان يومُ أحدٍ وانكشف المسلمون . قال :
اللهم إني أعوذُ إليك بما صنع هؤلاء — يعني أصحابه — وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء
— يعني المشركين — ثم تقدم ، فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعدُ بن معاذ : الجنة ،
ورب النضر ! إني أجد ريحها من دون أحدٍ . قال سعد : فما استطعت يا رسول الله
ما صنع . قال أنس : فوجدناه به بضعا وثمانين ضربة بالسيف ، أو طعنة برمح ،
أو رمية بسهم ؛ ووجدناه قد قُتل ، وقد مُثل به المشركون ، فما عرفه أحد إلا
أخته بناته . قال أنس : كنا نرى — أو نظن — أن هذه الآية نزلت فيه وفي
أشباهه من المؤمنين « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » إلى آخر الآية : وقال :
إن أخته — وهي تسمى الربيع — كسرت ثنية امرأة ، فأمر رسول الله صلى الله
عليه وسلم بالقصاص : فقال أنس : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق لا تكسر
ثنيتهما ، فرفضوا بالأرث وتركوا القصاص . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » رواه الشيخان .

البنان : الأصابع ، وقيل أطرافها ، وهي الأنامل . واحدها بنانة . والثنية :
واحدة ثايبا الفم ، وهن أربع في مقدمه : ثنتان من فوق ، وثنتان من أسفل .
وأرث الجراحات : ديتها ، وجمعه أروث . وإبرار القسم : تصديقه وعدم تخنيته .

إذا صح للأمم الحديثة أن تفخر بما تسميه في نظام جنديتها بالكتاب
 الفدائية ، أو فرق الموت ، فإن الإسلام أولى بذلك منهم وأحق . ونبادر بأنا
 لا نذكر هذه النظم الحديثة بجانب النظم الإسلامية ، إلا كما نذكر الشقاء بجانب
 السعادة ، والضلالة بجانب الهداية ، والموت بجانب الحياة ؛ والضد كما يقول علماء
 النفس أقرب خطورا بالبال إلى ضده . وإلا فأين من يلقي بيده إلى التهلكة
 في سبيل الاستعمار والغلب والجشع ، واستلاب الأموال والأعراض ، والبطش
 بالضعفاء والمساكين — ممن يرحب بالموت في سبيل الله وإعلاء كلمته ، وإحقاق
 الحق ونصرتة ؟ وأين من يقذف بحجمه طعمة للحرب على غرة ، انتصارا لعقيدة
 آثمة ، أو إجابة لثورة جامحة — ممن يبذل نفسه مطمئنة راضية ، ابتغاء مرضاة
 ربه ، وشوقا إلى نعيمه وقربه ؟ ، للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له
 لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه لا فتدوا به . .

كان الإسلام غنياً بهؤلاء الفدائيين ، بل كان كل أتباعه مثلاً في تقديته بالنفس
 والنفيس — على درجات بينهم — إذا مست دعوة الحق ، أو أهينت كلمة الصديق ،
 أو انتهكت حرمة العهد والذمام ، أو فصمت عروة الحلف والوئام .

وهذا أنس بن النضر رضى الله عنه ، أحد السابطين الأولين ، والأبطال
 الفدائيين ، يكبر عليه أن يغيب قهرا عن غزوة بدر ، أول غزوة أسس عليها
 جسد الإسلام ، وشهدها النبي عليه الصلاة والسلام ، فيتمنى على الله أن يعوضه
 خيراً مما ضاع منه ، وأن يشهده موقعة يبلى فيها بلاء حسناً ، ويرى ربه فيها —
 وهو أعلم به — أنه وفى العهد ، صادق الوعد ، قد باع نفسه وما له لله ، لا يبتغي
 شيئاً غير فضله ورضاه ! ثم يجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيذكر له
 أمنيته . ويوثق لديه عهده : حتى إذا جاءت غزوة أحد ، وما أدراك ما غزوة أحد ؟
 أصيب فيها الغزاة ببعض ما كسبوا ، وأثابهم الله غما بغم بما انحرفوا ، وكادت
 الدائرة تدور عليهم بما تعجلوا ، ولولا فضل الله عليهم ورحمته لذهبت ربحهم ،
 واتحمت آثارهم .

جاءت هذه الفزوة ، فصدق المسلمون حملتهم في معمران الحرب ، وأنحنوا
أهل الشرك تمثيلاً وتنكيلاً ، حتى ولوا مدبرين خاسرين : هنالك برقت لهم
غنائم المشركين عن كذب ، فامتدّت إليها عيونهم ، وتطلعت لها نفوسهم ،
فنسوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالألا يبرحوا مكانهم ، ولو كانت العاقبة لهم :
وهنا لك أحاط المشركون بهم وقد رأوهم اشتغلوا بدنياهم عن آخرتهم ، فأعملوا
فيهم سيوفهم حتى كادوا يظفرون بهم !

وبينا الجيش منكشف مضطرب ، قد تمزقت صفوفه ، وانفرط عقده --
جاء الفدائي الوفي أنس بن النضر رضى الله عنه ، يني بندره ، وير بقمه ، ويستقبل
الموت استقبالا رهيبا لم يعرف التاريخ مثله ، حتى إذا لقي سعد بن معاذ منهزما
وهو من هو شجاعة وثبات جأش ، صاح به : واها لريح الجنة إنى لأجد ريحها
ورب النضر عند هذا الجبل !^(١) وما هي إلا أنفاس معدودة حتى دخل الجنة
فرحاً مستبشراً ، ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم
يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من
خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

قال سعد وهو يصف للرسول صلى الله عليه وسلم إقدام أنس وحن بلائه :
والله ما استطعت يا رسول الله على عظيم بلائى أن أصنع صنيعه أو أن أبلى بلاءه !
وقال ابن أخيه أنس بن مالك : ولقد وجدنا به أكثر من ثمانين ثامة ، ما بين
ضربة بسيف ، وطامة بسن ، ورمية بنبل . ولقد شوّه المشركون تمثيلاً وتمطيعة
فلم يعرفه أحد إلا أخيه الربيع بفت النضر ، عرفه بدينه ، وكان حسن البنان
جميلها . قال أنس : فكنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نرى أن هذه
الآية الكريمة قد نزلت فيه وفي أمثاله من المجاهدين الصادقين ، رجال صدقوا

(١) واها كلمة تدل على الإعجاب أو القلمف ، كأنه يعجب بريح الجنة وقد تمثالها أو
أكرمه الله بشداها . والنضر يجوز أن يكون ابنه الصغير الذى تركه في رعاية الله مؤثرا
عنه الجهاد في سبيله ، وأن يكون أباه الذى كان يبره ويكرمه .

ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه^(١) ومنهم من ينتظر^(٢) وما بدلوا تبديلا . .
وليت شعري فيمن تنزل هذه الآية إن لم تنزل في مثل هذه الصفوة التي اصطفاهما
الله لإعزاز دينه وإعلاء كلمته ؟

ولم تنس أنسا رضى الله عنه دهشة الموقف ورهبة ، أن يعتذر لربه وهو
ماض في سبيله ، عن المسلمين وقد تفرقوا ، ويبرأ من المشركين وقد تجمعوا^(٣) ،
وأن يكون مثالا عاليا في صدق اللقاء ، والصبر على البلاء ، واستعجال اللحاق
بالشهادة .

ومنقبة أخرى يرويها أنس بن مالك عن عمه رضى الله عنه . تدل على
ماله عند الله من فضل ومنزلة : تلك أن أخته الربيع خاصت جارية من نساء
الأنصار أغضبته في شيء ، فلطمته فكسرت ثنيتها ، فدعى أهلها إلى الصلح فأبوا
إلا القصاص ، وتحاكموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : كتاب الله القصاص ،
وهو صلوات الله عليه لا تأخذ في الحق لومة لائم ولو كان أقرب الناس إليه :
فقال أنس وهو يرجو العفو : أتكسر ثنية الربيع يا رسول الله ؟ لا ، والذي بعثك
بالحق لا تكسر ثنيتها . فبينما هو يرجع رسول الله راجيا من فضل الله ، ورسول الله
صلى الله عليه وسلم يرجعه — عفا أهل الجارية عن القصاص ورضوا بالدية ،
وصدق الله من صدقه . ووفى لمن وفى له . ومن أوفى بعهده من الله . ؟

(١) أمثال أنس وحزرة ومصعب رضى الله عنهم . والنحبة : الموت ، وأصله النذر ،
ولما لم يكن للحى بد من الموت ، وكأنه نذر لازم في رقبته — قيل لمن مات قضى نحبه كأنه
وفى بنذره المحتوم عليه .

(٢) من بقية المؤمنين المجاهدين الذين لم يستشهدوا .

(٣) وما أجل تعبيره في جانب الأولياء « بالاعتذار » وفي جانب الأعداء « بالتبرؤ »
وأن كان غير راض عن صليح الفريضة جيبا .

وأرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً رائعاً وحكمة بالغة : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » .



لقد كانت الأمة الإسلامية مرفوعة الرأس ، مسموعة الكلمة ، عزيزة الجانب ، أيام أن كان فيها أمثال أنس بن النضر رضى الله عنهم من يستجيون لله وللرسول إذا دعاهم لما يحبه ، لا يتخاذلون ولا يتسواكلون ، ولا يهينون ولا يضعفون ، فإذا ما زلوا زلة فسرعان ما يرجعون ويذنبون . ويتخذون من الشدائد عبراً رائعات ، وعظات بالغات ، ومنارا في الشبهات والظلمات . ثم ضعفت التربية الإسلامية رويداً رويداً لما استنام المسلمون إلى الدعة ، واطمأنوا إلى الراحة ، واستراحوا إلى الترف ، والترف آفة الأمم . وقاتل الهمم ! وكانت مصيبة المصائب أن تركوا الجهاد لما خدعهم الأعداء بالمدينة ، ورموهم بالمصيبة ، وأعدوا لهم ما استطاعوا من قوة ، وهم في غمرة ساهون ، حتى إذا تمكّنوا منهم انقضوا عليهم من حيث لا يشعرون !

ألا فليتنبه المسلمون وليستيقظوا ، وليعودوا إلى تاريخهم الأول وبجدهم المؤمل ، ولا سبيل إلى ذلك — إن شاءوا — إلا إذا جاهدوا في سبيل الله . وأعنوا كلمة الله ، واتبعوا رضوان الله . والله ذو فضل عظيم .

تواضع

قال عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز : قال لى رجاء بن حيوة : ما رأيت أكرم أدباً ولا أكرم عشيرة من أيك . سمعت عنده ليلة ، فبينما نحن كذلك إذ غشى المصباح ونام الغلام ، فقلت : يا أمير المؤمنين قد غشى المصباح ونام الغلام فلو أذنت لى أصلحته ، فقال : إنه ليس من مروءة الرجل أن يستخدم ضيفه ، ثم حط رداءه عن منكبيه وقام إلى الدبة فصب من الزيت فى المصباح وأشخص الفتيلة ، ثم رجع فقال جرير بن عبد الله : يا أمير المؤمنين أعزم علينا كلنا أن نقوم فتوضأ . قال : صدقت ولا علمتك إلا سيداً فى الجاهلية ، فقهاً فى الإسلام . قوموا فتوضأوا .

محمد صلى الله عليه وسلم

الكلمة التي تفضل بإلقائها من المذيع في أسبوع محمد ، صلى الله عليه وسلم
حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد عبد اللطيف دراز
مدير الأزهر والمعاهد الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم :

حضرات السادة :

السلام عليكم ورحمة الله . في هذا الشهر الكريم يحتفل المسلمون في أنحاء العالم
بذكرى نبي الرحمة ، ورسول الهدى : محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقد ولد في صبيحة
يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول عام الفيل ، ولأربعين سنة خلت من ملك
كسرى أنوشروان . ويوافق ذلك العشرين من أبريل سنة إحدى وسبعين
وخمسة من ميلاد المسيح عليه السلام .

ذكرى ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم هي ذكرى التاريخ والإنسانية عامة .
ولولا ما ابتلى به الناس من التعصب الشديد للأديان ، أو القوميات ، أو موروث
التقاليد عن الآباء والأجداد ، لما كانت هناك ذكرى في التاريخ على طوله وامتداده
أحق أن يكون الاحتفال بها عاما شاملا من هذه الذكرى الكريمة ؛ فإنها ذكرى
رسالة جامعة ، أنقذت الإنسانية مما كانت ترأع فيه من الجحالة ، وتضرب في يدها
من الضلال ، وتسام به في حياتها من الذل والاستعباد وسوء العذاب .

كان يسود العالم في ذلك الوقت مملكتان تهتمسان السلطان في الأرض :
الفرس والروم . والنظام السائد فيهما هو النظام الاقطاعي ؛ فالأرض موزعة
بين الأشراف والسادة ، يقوم في كل ناحية منها رئيس مسيطر ، وسيد متكبر ،
يملكها ومن حملت وما حملت من ناس وأنعام ومنافع وأموال . والكل عبيد له
عاملون ، وأتباع مستخرون ، لا ترد له فيهم كلمة ، ولا يشاركه في شأنهم أحد ،

ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ! . والفرس يحوس يعبدون النار . والدين في الروم حُرقت كلمته ، ومالت عن استقامتها ، وعادت الطبيعة المتأصلة في نفوس الرومان إلى وثنياتها الأولى ، وإن تسمت بالمسيحية وظهرت في مسوح الأحبار والرهبان . وكانت اليهودية في اليمن ، وفي يثرب من جزيرة العرب ، وفي أنحاء شتى من الأرض - قد فقدت هي الأخرى مددها الإلهي ، وأظلمت على أهلها السيل . منذ أغلقوا قلوبهم وأبصارهم عما أنزل الله على موسى من هدى وحق ونور . وجزيرة العرب شر من ذلك كله تهم في جهالة جهلاء . وضلالة عمياء ، لا تخضع لقانون من وضع الناس ، ولا لشريعة من وحي السماء : وحياة القبيلة هو نظامها الأساسي ، لا يحسب العربي أن أحداً من غير أهل قبيلته تربطه به رابطة ، أوله عليه حق . فكل دم غير دم القبيلة هدر ، وكل عرض غير عرضها مباح ، وكل مال غير مالها غنيمة : هذا إلى فقر مدقع ، بلغ بهم أن يقتلوا الأولاد خشية الفقر ، وإلى عنجية طاغية ، بلغت بهم أن يثدوا البنات خشية العار ، يحيط بذلك كله وثنية مستحكمة ، ألهمت كل ما استطاعت تأليه من مظاهر الطبيعة في الأرض والسماء : إلا أن هذا الجانب القائم المظلم من الحياة العربية لم يؤثر على جانبها الآخر الوضيء الذي لها أن تكون من بين بلاد الله أهلاً لأن تحمل أعظم رسالة وصلت من الله إلى خلقه ، وأن تجاهد في سبيلها جبايرة الأرض من الملوك ، وأساطين العقل من الفلاسفة ، حتى قهرت الأولين بعدلها وقوتها ، وأقنعت الآخرين بحقها وهداياها .

نقول : إن ذلك الجانب القائم المظلم من حياة العروبة في جاهليتها لم يؤثر ، ولم يكن من شأنه أن يؤثر ، في هذا الجانب المشرق الوضيء ، بل لعل الجانبين جميعاً هما النتيجة لحياة العرب في جزيرتهم القاحلة الجرداء ، فهما جانبان من الخير والشر ، هياً لها الأول منهما أن تحتل في نفسها من الفقر والضر وعيش البداوة ما أصابها في جاهليتها من ذلك كله ، وهياً لها الثاني أن تحتفظ في نفسها من أصول الفضائل لخيرها وخير الناس جميعاً ما لا يمكن أن تغرس أصوله . أو تزكو زروعه ، إلا في تلك النفوس العزيزة الكريمة التي تربت على الشجاعة والسماحة والسخاء وإباء الضيم ، وعاشت دهورها الطويلة بهذه الصفات ، على أنفة لا يجذبها حطام الجبارين ، وفي منعة من إذلال الحاكين وبطش الغالبيين .

بين المؤمنين والملحدین

نشرنا في الجزء السابق كلاماً عن الإلحاد والعلماء ، وأتينا على آراء بعضهم ، فكان لهذا العمل وقع عظيم في نفوس القارئین ، وخصوصاً الشبان المنخرجين من الجامعات منهم : فقد كانوا يظنون أن أكثر الناس علماً هم أصعب الملحدین شكیمة ، فإذا بهم يرون أنهم كانوا أكثر الناس شعوراً بوجود الخالق ، وأحرصهم على إعلان ذلك عنهم ، وهذا مصداق لقوله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . حصر سبحانه وتعالى الخشية على وجهها الأكمل في العلماء ، لأنهم بما أوتوا من صفات النظر العميق ، والتحليل الدقيق ، يقفون من أسرار الابداع الإلهي في الوجود ، ونواحي الإعجاز فيه ، على ما لا يقف عليه سواهم ، فيكون إيمانهم أعاق بالنفس ، وأبعد غوراً فيها من إيمان غيرهم من الواقفين عند حدود القشور الظاهرة للوجودات .

وقال تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم ، قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » ، فجعل شهادة العلماء بوحدايته ، في درجة شهادة الملائكة ، وهم من لا يتطرق اليهم الشك ؛ وفي هذا من الاعتداد بآراء أهل العلم ما لا مزيد عليه : وما ذاك إلا لأن العلم نور معنوي يظهر من خفايا الأشياء ما لا يراه الذين لا يستعينون به .

قال العلامة الأفاضلي (شفرول) Chevreul وهو عالم من أعلام علم الكيمياء الفرنسيين ، وقد أراد أن يصمم جرأة بعض غلاة الماديين في زمانه بوصمة عار لا تمحى :

« لقد سألت نفسي . وأنا في زمان يتكرر الزعم فيه بأن العلم يؤدي إلى المادية : ألا يكون من الواجب على الرجل الذي أمضى حياته في وسط كتبه ، وفي داخل معمل كيميائي ، باحثاً عن الحقيقة ، أن يهبط محتجاً على قول مناقض للعلم كل المناقضة ؟

.. وأنه لهذا السبب صرح بأنه لم يكن قط لا أدرياً ولا مادياً ، وهو على استعداد لأن يبين أسباب ذلك .

« نعم لم أكن قط لا أدرياً . فإني معتقد بوجود ذات إلهية أبدعت تناسقين عظيمين : تناسق عالم الاجمادات الذى يكشف عنه أولاً علم الميكانيكا السماوية ، وعلم الظواهر الذرية : وتناسق العالم العضوى الحى . فلم أكن قط فى أى عهد من عهود حياتى مادياً . لأن عقلى لم يستطع أن يدرك بأن هذين التناسقين ، وهذا الفكر الانسانى كانوا من نتائج الاتفاق والخطب .. »

وهذا الأستاذ (دولاباران) De Lapparent العلامة الجيولوجى الكبير قد قال :

« فضلاً عن أنى لم أضق ذرعاً بعقائدى ، فأنا على عكس ذلك أجد منها باعثاً قوياً لمداينة أعمالى العلمية .. »

وقال الأستاذ الرياضى المشهور (كوشى) Cauchy :

« ليست عقائدى ثمرة أوهاى الوراثة ، ولكنها نتيجة تحقيقاتى العميقة .. »

وقال الفيلسوف الجليل (جوتلوب شينون) :

« إن فكرة الألوهية هى المركز الذى تلتقى فيه جميع طرق التفكير الانسانى .. »

وقال الشاعر العالمى الكبير (فيكتور هوغو) وهو يخطب المجلس التشريعى فى ١٥ يناير سنة (١٨٥٠) .

« أما عن نفسى فليسمح لى بأن أعلن على رموس الاشهاد بأنى أعتقد بوجود الله ، وهو فى نظرى أثبت وجوداً من هذا الوهم الضئيل الذى نسميه بالحياة . فهو مائل أمام عيني لا يبرحهما . وأنا معتقد بوجوده بجميع ما فى الاقتناع من قوى : وبعد دراسات كثيرة أصبح الحقيقة العليا لعقلي ، والتعزية المثل لروحي .. »

وقال العلامة المؤرخ الطبيعى فابر Fabre :

« إنى أعتقد وجود الله ... وبدون ذلك لا أفهم شيئاً ، أى يصير كل شيء أمام نظرى ظلاماً بهيماً .. »

وقال العلامة الكبير كاود برنار Claude Bernard وهو أشهر فيزيولوجي
أنجبه البشرية :

« إن الفلسفة الحسية والمذهب المادى كلاهما فى نظرى غير معقولين ولا يمكن
الدفاع عنهما .. »

وكتب الفيلسوف المشهور (مونتيني) Montaigne :

« إن الكفر بالله رأى مناقض للفطرة السليمة وسخيف ، ويصعب إقناع
العقل بصحته مهما كان هذا العقل ضعيفاً ومضطرباً .. »

وصرح (دنيس كوشان) العضو بالأقاديما :

« المذهب المادى قد رُفض رفضاً باتاً ، فإن المذهب الذى يفضى الى قتل
الضمير ويسلب الانسان شعوره بالمسئولية ، لا يعقل أن يكون له سلطان على
على العقول .. »

أما المؤرخ الطبيعى الكبير (فابري) Fabre المقدم ذكره فقد صرح بما يأتى :
« كل عهد له أهواء جنونية . فإني أعتبر الكفر بالله من الأهواء الجنونية .
وهو مرض العهد الحالى . وأيثر عندى أن ينزعوا جلدى من أن ينزعوا منى
العقيدة بالله .. »

بعد أن نقلنا هنا ما نقلناه من أئمة العلوم الطبيعية الخالدين من أهل العصر
الحاضر ، نرى من العدل أن نأتى على آراء أئمة الملحدون فى إيثارهم ما هم عليه من
الإنكار ، على ما عند خصومهم من الإثبات . ولعل أكثر القراء يود أن يعرف
ذلك حتى يكون فى تقديره للعلماء المؤمنين على بينة .

يعجب القراء إذا قلنا لهم إن إلحاد الملحدون لا يستند على شيء غير مرض
نفسانى ، وهو تصریح منا جريء نرجو أن تقنعهم به بنقل بعض أقوالهم .

أشهر الكفار المعاصرين البيولوجى المشهور (لودانك) Le Dantec مدرس
البيولوجيا (علم الحياة) بجامعة السوربون . له كتاب أسماه : (إنكار الله)
قال فى صفحة ٣٨ منه :

« إن سألتني عن علة إنكارى لوجود الله ، فإنى سأفضى بها إليك فى إيجاز .
ولكنى لا أخفى عنك بطلانها ، وإنى لأعتبر نفسى عاقلا حين أقول لنفسى على نحو
ما فعل المسيو (دولاباليس) : إذا كنت أعتقد وجود الله ، فذلك لأنى كافر به .
وهذا دليل جيد لا يمكننى أن أقيمه على عدم إيمانى . فأنى منكر لله على نحو
ما أنا بروتونى (بروتون قطر فى فرنسا) ، كما يكون الانسان أسمر أو أشقر دون
أن يكون قد أراد ذلك .

« وليس لدى حامل شخصى يحملنى على أن أدلل على أن نكران الله أحسن
من أى شىء آخر ، لأنى لم أستطع أن أتذوق شيئا آخر .
وقد نقل العلامة الدكتور (ليون ووتى) عن الأستاذ لوداتك هذا القول
وعقب عليه بقوله :

« من المحال أن يكون الانسان أوقح مما ترى ، وفى الوقت نفسه أبعد
عن المنطق . »

« وإليك إماما آخر من أئمة الماديين وهو الأستاذ (بوخنز) الالمانى فإنه
قال فى كتابه اقوة والمادة :

« إن الفرض الذى مؤداه وجود قوة خالقة لا يمكن قبوله . »

قال هذا ولم يعط دليلا واحدا لإثباته . والقاعدة المقررة عند العلماء ولا يشذ
عنهم الماديون : أن العلم لا يمكن أن يبنى على الفروض ، فكل قول لا بد أن
يقوم على صحته أدلة محسوسة . فهل لديه دليل أو شبه دليل على أن السكون يمكن أن
يوجد وتذظم كائناته بدون قدرة خالقة ؟ حقا إن هؤلاء الملحدون لا يستندون
فى إلحادهم على شىء غير المزاعم الباطلة .

ولا نفسى أن نأتيك بمثال آخر من تحككاتهم فقتبسه من كتاب الفيلسوف
هيجل الالمانى Hegel ، الموسوم بالمنطق الكبير ، وكأنه كما يقول الدكتور
(ليون ووتى) وصفه بالكبير تهكما . فقد أتى فيه على نفى الخالق بدليل نعته بأنه غير
قابل للدحض وهو هراء محض . وإليك هذا الدليل :

المادة شيء غير الروح .

والروح شيء غير المادة :

فهما إذن متغايران .

وإذن فهما شيء واحد .

قال الدكتور (ليون ووتى) عقب هذا الدليل : ، على اعتبار أن هذا دليل لا ينقض وخاصة بوصف أنه من المناطق الكبير ، فهذا نجاح عظيم ! أما نحن فلا نرى فيه إلا شيئاً واحداً لا يمكن نقضه ، وهو أنه ضرب من الخبل فى عقل هذا العالم المادى المزعوم . .

وزاد الدكتور المذكور على هذا قوله :

، إليك مثالا آخر من الهذيان التى تعترى هؤلاء الماديين . وهو صادر من الأستاذ (تين) Taine . ونحن إنما اخترناه لأنه صادر من فيلسوف مشهور من الملحدين . فقد قال :

، ليست المادة بشيء غير صورة وهمية . وكل جسم ليس فى حقيقته غير خيال ملون ومركز ومعين ومتحيز . فهو فى الحقيقة مجموعة قوى ، وكل مجموعة قوى ليست بشيء ، فينتج من ذلك أن الجسم الذى ليس هو فى الواقع غير مجموعة قوى ليس بشيء . .

وقد عقب الدكتور (ووتى) على هذا بقوله : ويكون قياساً على ذلك أننا لسنا بموجودين أيضاً ! إن من العبث دحض أمثال هذه الغباوات .

محمد فريد وجدي

عيد ميلاد جلالة الملك المعظم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر
يذيع كلمة قيمة عن هذا العيد بالراديو

يوافق اليوم الحادى عشر من شهر فبراير تاريخ ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم ، وقد جرت العادة أن يحتفل به الشعب المصرى وحكومته احتفالا عظيما ؛ بإقامة الزينات ، ورفع الاعلام ، وتسيير المواكب ؛ فرأى جلالاته مراعاة للتأثر العام بما أصاب فلسطين ، أن يقتصر الاحتفال به على التسميات ؛ فضرب جلالاته بهذا العمل مثلا من أروع الأمثلة على الشعور العالى ، والنظر الرفيع . ونزولا على الإرادة الملكية السامية رأى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر أن يكتب بإذاعة كلمة بالراديو فى هذا اليوم الأغر ، تجمع من مناقب جلالة الملك ، ومآثره الخالدة ، ما لا بد من الإشادة بذكره ، والنيمن بنشره : فجاءت على إيجازها بليغة جامعة ، كان لها وقع عظيم فى نفوس المستمعين من سائر الأقطار العربية .

ونحن تيمناً بهذا العيد الكريم ننشر كلمة فضيلته . ونضم صوتنا إلى صوته فى الدعاء لحضرة صاحب الجلالة ، بأن يطيل الله فى حياته ذخرأ لأمته ، وملاذاً لرعيته ، حتى يتم ما بدأه من إبلاغ بلاده سائر أمانيتها ، وجمع كلمة الأمم العربية ، وتوحيد جهودها ، حتى تبلغ شأوا وأائلها علماً وعملاً ومدنية .

بسم الله وعلى بركة الله نفتتح هذا البرنامج الحافل الذى أعدته دار الإذاعة المصرية ابتهاجا بعيد الميلاد الملكى لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول ، ونسأله معها بكل قلوبنا فى الاحتفال بهذه المناسبة السعيدة التى تقدرها البلاد حق قدرها ، وتفرح بها من حبات قلوبها ، والتى تجد فيها مذكرا لها بتلك النعمة الكبيرة التى أنعمها الله على البلاد ، وهى ميلاد الفاروق العظيم .

أجل : فقد كان ميلاد جلالته طالع من وإقبال على الأمة ، وبشير خير وإسعاد على شعب وادى النيل ، الذى وجد فيه أميرا محبوبا ، وولى عهد مبارك النقية ، ميمون الطلعة ؛ كما اقترن ميلاد جلالته بفيض من تحقيق الآمال الوطنية ، وبلوغ الأمانى القومية ، واسترداد سلطة الأمة ، واسترجاع حقوقها الدستورية ، واستكمال أهدافها السياسية .

وما كاد جلالته يعتلى أريكة الملك ، ويباشر حقوقه الدستورية ، حتى نهض بالبلاد نهضة قوية فتيحة ، وتقدم بها تقدما ملحوظا ، وخطا بها خطوات واسعة فى جميع نواحي الثقافة وأساليب الحكم ؛ فقد استقر فيها النظام الجامعى ، وارتقى فيها التعليم بكل أنواعه ، وساد فيها الحكم النيابى القائم على احترام سلطة الألة وتمثيل رأيها ، والأخذ بنظام الشورى بينها ؛ وهكذا بعث جلالته فى كل جانب من جوانب الحياة العامة قبسا منيرا من روحه الوضاء ، فأثار السيل ، وعبّد الطريق ، وسما بالأمة إلى الجوزاء ، وقاد السفينة فى وسط الشدائد والأزمات كأحسن ما يقودها ربان ماهر ، ومدرّب حكيم بصير بالعواقب .

ولقد كان فى مقدمة الإصلاحات جميعها ، وفى طليعة هذه المآثر كلها ، عناية جلالته بالتعليم الدينى ، واهتمامه بجامعة السكيرة ، وبمعاهده الثانوية والابتدائية ؛ فقد أولاها جميعا مزيد رعايته ، وحبها سابغ عطفه ، وكلاهما بإرشاداته السامية ، وتوجيهاته العالية ، وحاطها بعينه الساهرة على مصلحة شعبه ، ومكّن لها من أن تؤدى رسالتها على الوجه الأكمل ، وأن تقوم بواجبها آمنة مطمئة فى جلال رعايته وحمايته .

ولقد أوحى إليه دينه القوي، وإيمانه الصادق، ووجهه للحق، وتقديره للسلام، وإخلاصه في العمل، وانتصاره للعدالة، أن يعنى بشؤون العروبة والإسلام، وأن يجعلها في المكان الأول من اهتمامه : فوطد أواصر المودة والصداقة والمحبة بين جلالته وبين ملوك ورؤساء الدول العربية، وقوتى وشائج الوفاق والوئام بين أقطابها، وربط بين قلوب شعوبها وأممها برباط وثيق من الشعور والإحساس، وعطف على زعمائها وأبطالها اللاجئين إلى حماه عطفًا بارزًا ملموسًا، وانتصر للشعوب المظلومة منها انتصارًا نشاهد له كل يوم آية من آيات المجد، ومنقبة من مناقب الشرف والفخار، حتى لقد أصبحت كل تلك الشعوب بفضل هذه السياسة الرشيدة، والتصرفات الحكيمة، وهذا العقل الراجح، والتفكير الناضج، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وحتى صارت كأعضاء الجسم الواحد إذا تأثر منها عضو بشيء شاركته سائر الأعضاء الأخرى .

هذه إشارة عابرة إلى بعض آثار جلالة العلمانية، وأعماله الإصلاحية والعمرانية، ومواقفه العربية والإسلامية : فإذا ما انتقلنا من كل ذلك ويتمننا نحو ما عرف عن جلالته من حرص على العدالة، وحب الإنصاف، واحترام للحقوق، وتقدير للعاملين : ومن بر بالفقراء، وأخذ بيد الضعفاء، وعطف على المحتاجين، وتشجيع للناهضين، وتكريم للناهضين : فإننا سنجد مجال القول فسيحاً، وميدان الكلام متسعاً .

خطب أحد فصحاء العرب بين يدي ملك عظيم، فقال :

« إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكهم، وأفضل الملوك أعظمهم نفعا » .

وإننا إذا أخذنا هذا القول ونظرنا من ثناياه إلى أعمال مليكنا المحبوب فإننا لا نشك في عظمة جلالته، ولا نتردد في أفضليته : لأن نفعه عام، وبره شامل، وخيره وافر؛ ولأن أريحيته يعرفها الصغير والكبير، والغنى والفقير، ويتحدث عنها

العمال في أعمالهم ، والطلاب في جامعاتهم ومعاهدهم : فانهم يلبسونها كل يوم فيما تجود به مكارمه العالیه ، وتسخر به أياديه المشكوره .

وإذا كان النفع — كما يقول ذلك العربي البليغ — هو مقياس العظمة وعنوانها ، وعماد الأفضلية وقوامها ، فمن غير الفاروق المحبوب يكون أهلا لها ، وهو أعظم الناس نفعا لبلاده ، وبرا بشعبه ، وحبذا على رعيته ، وإخلاصا لمصلحتها .

لقد أحسنت دار الإذاعة المصرية كل الإحسان في إعدادها هذا الاحتفال بعيد الميلاد الملكي السعيد : فانها إذ تفعل ذلك إنما تحتفل بميلاد ملك عادل صالح مصلح ، مسلم غيور مخلص ، وفي دمقراطي ، ساهر على مصلحة شعبه ، عامل على رقي أمته ، جدير بكل حب ووفاء ، وتحقيق بكل إخلاص وولاء .

إننا إذ نشاركها هذا الحفل الباهر ، ونشكرها على القيام بهذا الواجب ، نضرع إلى الله جلّت قدرته أن يحفظ جلاله مولانا الملك المعظم ، وأن يبارك في عمره السعيد المديد ، وأن يكأله بالنصر والتأييد ، وأن يحوطه برعايته وتوقيه ، وأن يحيه حياة طيبة مباركا فيها ، نعم بنفعها العباد والبلا .

كما أننا ننتهز هذه الفرصة السعيدة لنرفع إلى جلاله فروض التهنئة والتبريك ، مع خالص الدعاء وصادق الولاء . والسلام عليكم ورحمة الله .

هذه هي البذور الإنسانية السليمة التي زرعت في تلك الأرض الخصبة الطيبة ، يحولها سياج من الفقر والامية ، وما يتبعهما من عيش البداوة ، ليحول بينها وبين ما يفسدها من الخبائث والأوصار : أو هو الجانب الروحي السامي الذي استقبل به الجزيرة شمسها بعد أن دار الزمان دورته ، فودعت ليها المظلم ، لتستقبل نهارها المضيء ، فكانت البعثة المحمدية هي هذا النهار . الذي أشرقت شمسها على العالم أجمع ، فطهرته من أرجاسه ، وهدته من ضلالاته ، وأرشدته من غيه ، وأخرجت الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، الله الذي له ما في السموات وما في الأرض .

جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والعالم على ما عرفنا : ضعيف ضائع ، وفقير جائع ، وغنى كنود ، وقوى جعود ، وجهل مستحكم ، وظلم متحكم ، والناس طبقات بعضها فوق بعض ، لا يميزها علم نافع ، ولا عمل صالح ، وإنما هو البطش والقهر بحكم العصبية والقلب ، وبسطة الجاه ووفرة المال والولد ، حتى تنهى تلك الطبقات إلى طامغوت من الطواغيت يسمى كسرى أو يسمى قيصر ، يؤلهونه تأليها ، ويتخذونه من دون الله رباً ، فموا لا يحكمهم بل يستعبدونهم ، وليسوا له برعية ، بل هم لذاته عبيد ، ورحم الله أمير الشعراء حيث يقول :

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم إلا على صنم ، قد هام في صنم !

جاء الإسلام لحرر هؤلاء العبيد ، وكسر هذه الأصنام ، وطرد سدتها ، وهدم أوكار عبوديتها . وأعلن أن الناس جميعا إخوة متساوون في الإنسانية ، ربهم واحد وأصلهم واحد ، كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ، إلا بالتقوى : . يأياها الناس إنا خلقناكم من ذكروأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ،

واشتد في ذلك حتى كانت هذه العقيدة أول ما عمل على تأصيله في النفوس ، ولعل بعض مثقفي اليوم الذين يعرفون عن مدينة الغرب أكثر مما يعرفون عن الإسلام : لعل هؤلاء يجهلون أن الإسلام هو أول مقرر لتسوية الفقير بالغنى في حق التعلم ، وأنه لا ينبغي أن يحول حائل بين الفقير وبين مشاركته الغنى ، لا في نوع التعليم ولا في مكانه ، فلا يجوز أن يكون لهذا مدرسة ولذلك أخرى ،

كما أنه لا ينبغي في العبادة أن يكون لهذا مسجد ، ولذاك آخر ، وكان ذلك لما رغب قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن ينحى عن مجلسه الضعفاء والعبيد ، حتى يمكن أن يحضره الأشراف والعظماء لسماع القرآن ، عسى أن يهدوا بهديه : فشنع القرآن على هؤلاء القوم ، وبالع في التكبر على هذه الرغبة ، ونزل قوله تعالى : . ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم فتكون من الظالمين . .

حرم الإسلام الربا ، وكان كما هو الآن وفي كل زمان مباءة ضر وإضرار ، وسبباً من أشد الأسباب في الفقر وضياع الأموال ، وأحل البيع وسائر المعاملات النافعة المشروعة ، وشرع الزكاة ، فجعل للفقير حقاً مفروضاً في مال الغني بأعد بينه وبين طرفين يتحكان الآن في العالم باسم الرأسمالية والشيوعية ، فقرر من هذا الحق ما يكفي الفقير ، ولا يرهق الغني ؛ وبهذه الزكاة المفروضة أنقذ الفقير من الحاجة والعوز ، وصان نفسه من الضعة والذل . ذلك أنه حينما يأخذ الزكاة إنما يأخذ حقه المفروض الذي وضعه الله في مال الغني ، وألزمه بأدائه عبادة كالصلاة والصيام ، ووفاء كالدين والعارية ؛ وبهذا أزال ضغن الفقير واحتقان قلبه بالبغضاء على الغني ، ووقى الأمة شر هذه الثورات الفتاكة ، التي يبعثها الفقر باسم الشيوعية أو الاشتراكية المتطرفة . ولم يقف الإسلام عند حد الزكاة المفروضة في هذه المساواة ، بل ترك الباب مفتوحاً لمن شاء أن يزداد من الخير ، ودعا إلى البذل والإحسان ، يل إلى التفضل بالإيثار في كثير من آي القرآن الكريم : بل لقد قدمه على الزكاة المفروضة في بعض هذه المواطن : ولا غرو ، فإن ما يدفع نافلة أدل على السماحة وعلى الإيمان بما يدفع فريضة ؛ ومن هذا قوله تعالى : . ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب . .

فإتياء المال هنا هو هذا الإحسان غير المفروض ، أما الزكاة المفروضة فذلك حيث يقول بعد هذا في الآية نفسها : . وأقام الصلاة وآتى الزكاة . .

ويلاحظ أيضاً أن الإحسان وإيتاء المال على حبه صدقة لوجه الله ، لم يتقدم على الزكاة المفروضة وحدها ، بل قدم عليها وعلى الصلاة أيضاً ، بل لتمد قرن بعقيدة الإيمان نفسها فذكر بعدها مباشرة .

حضرات السادة :

هذه مثل هي غاية في الإيجاز لما تبعته ذكرى المولد النبوي من آثار الإصلاح والإصلاح ، وقد كنا نود لو استطعنا أن نفيض القول في نواح أخرى من تلك الآثار الكثيرة التي لا يحصوها العد ، واسكن حسبنا هذا اليوم ، وحسبكم أنتم أن تقرؤوا هذا القرآن الكريم أو تستمعوا إليه ، وأن تنظروا هذه الشريعة الهادية والامة المهديّة وهذا النور النجّاج المتألق الذي لا يزال — ولن يزال — إلى يوم القيامة إن شاء الله يهدي الناس إلى الاستقامة والرشاد ، وإلى الأخوة والمحبة والسلام ، ويقوم على مدى العصور مثابة للحق ، وقسطاً للعدالة ، وراية أمن وإيمان يأوي الناس إلى وارف ظلالها وإن أنكر المنكرون وجحد الجاحدون .

حسبكم أن تتأملوا هذا كله ، ثم عدوا بعد ذلك — إن استطعتم — آثار بعثة خاتم الرسل والأنبياء عليه الصلاة والسلام . فإن آثار هذه البعثة الجامعة ، لا يمكن أن تعد إلا إذا عدت آثار الرحمة الإلهية . وذلك ما لا يعد : قال تعالى : « ورحمتي وسعت كل شيء » ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتتبعون الرسول النبي الأمي ، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزّروه ونصرّوه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون . .
والسلام عليكم ورحمة الله :

حسن الظن بالاخوان

قال محمد بن بشار :

من لم يردك فلا ترد	غلط الفتى في قوله
يسد العتاب ولم يعده	من نافس الإخوان لم
واعطف بودك واستعده	عاب أخاك إذا هفا
واش فقل لم تعتمد	وإذا أتاك بغية

أمهات المشاكل الفلسفية

عند ابن رشد

عضلة علم الباري

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب

المدرس بكلية أصول الدين

من المعلوم أن أرسطو قد نفى عن المحرك الأول علم ما في هذا العالم الأرضي من أحداث حائلة، وظواهر متغيرة، وجزئيات ناقصة، وأشخاص كائنة فاسدة : وعلل ذلك بأن المحرك الأول عقل محض، بل هو فوق قوة العقول المجردة . وهذا يقتضي أن يكون موضوع علمه أسمى المعلومات، ليلتئم العالم مع المعلوم، ولما لم يوجد معلوم يوازي ذاته في السمو . فقد لزم أن تكون هذه الذات — وهي أسمى الموجودات — موضوعاً لأسمى العقول، فلم يكن بد من أن يقتصر علمه على ذاته . هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنه لما كان المعلوم علة للعلم، فقد اقتضى — لو علم المحرك الأول بالأحداث الأرضية — أن تكون تلك الأحداث علة لعلمه، وبالتالي لا فتقر إلى عالم الكون والفساد في شؤونه، وهذا نقص شائن يتعارض مع استغناء مقام الألوهية . وفي هذا يقول أرسطو :

« لأنه لا يناسب مقام المبدأ الأول أن يدخل عقله ما هو أدنى رتبة منه في الوجود . كيف يعلم من هو منزله عن كدر المادة ما في العالم من الأعداد والأدناس، والفواحش والجزئيات الجنسية من غير أن ينقص من صفاته شيء ؟ ثم لو قلنا إن له علماً بالأشياء الخارجة عن ذاته لوجب أن يكون علمه مستفاداً منها، وأنه لا يكون علماً إلا بوجود تلك الأشياء، فصار المبدأ الأول محتاجاً إلى غيره لكي يكون علماً، وهذا لا يناسب جلال ذاته، مع ما فيه من إدخال

المادة في ذات الإله . إن المادة هي الإمكان ، فلو احتاج المبدأ الأول إلى الأشياء الخارجة لحصول العلم لكان قابلاً للتغير والاستحالة ، وذلك عبارة عن الامكان . فالأولى أن يقال : إنه ليس للإله علم بغيره ، فالواحد البسيط لا يعلم إلا الواحد البسيط وهو ذاته . فهو إذاً ، علم وعالم ومعلوم من ذاته . فالخلاصة أن المبدأ الأول هو حياة أبدية كاملة من سائر الوجوه ، مبهجة بما لها من العلم بكمال ذاتها الجليلة ، إذ ليس السرور إلا العلم بالكمال (١) .

فلما جاء ابن سينا وأيقن أن الذي حمل أرسطو على القول بهذا الرأي هو إفراطه في تنزيه المحرك الأول عن الاتصال بنقائص عالم الحس ، أقر هذا المبدأ وزاده إيضاحاً وتأيداً . وتوسع في تعليلاته وأدله ، فأبان كيف أن طبيعة المدركات الحسية تقتضي مدركات تلائمها في طبيعتها وتشارك معها في المحدودية والجهة والانعصار مما تنزه عنه الباري ، وأوضح كذلك عملية انطباع المعلومات في عقل العالم ، واقتضاءها قابلية الذات الأقدس لهذا الانطباع ، ثم شرح نظرية تغير المعارف الجزئية واستلزام ذلك ضرورة ، تغير العلم ثم تغير العالم ، إلى غير ذلك مما أفاض الشيخ الرئيس في بسطه ورددنا عليه في موضعه مفقدين (٢) ما ذهب إليه من آراء .

جاء بعد ذلك أبو حامد الغزالي فرمى فلاسفة الاسلام بالكفر من أجل هذه النظرية ونظريتين أخريين ، هما أزلية العالم ، وحشر الأرواح دون الأجساد ؛ فلما اطلع ابن رشد على هذه المعركة الحامية الوطيس انتفع بما دار فيها من أخذ ورد ، وتمحيص وتحليل ، وتوجيه وتعليل ، وتخطيء وتصويب ؛ وأخيراً أعلن أن من رمى الحكماء بحدود علم الله للجزئيات فإنه لم يفهم مراميهم ، ولم يدرك مغازيهم ، لأنهم لم يحددوا في نظره علمه بها على الإطلاق ، وإنما جحدوا العلم الشبيه بعلم الحوادث ، أي العلم المعلوم للوجودات ، لا ما كان علة لها .

(١) انظر صفحتي ٥٢ ، ٥٣ من كتاب « تاريخ المذاهب الفلسفية » للأستاذ سائق (مخطوطة بدار الكتب المصرية) .

(٢) راجع صفحة ٦٢ وما بعدها من كتابنا « مشكلة الألوهية » .

وبعد أن يبسط هذه المشكلة بسطا وافيا يعرض فيه لما فهمه المتكلمون من آراء الحكماء فيها ، ويصارع الغزالي بأنه أخطأ القصد ، وجانب الحق ، يشرع في بسط الفكرة التي ارتأى أنها تحمل في ثناياها حل هذه المعضلة العويصة ، فيقول بعد كلام طويل ما يلي :

« والذي ينحل به هذا الشك عندنا هو أن يعرف أن الحال في العلم القديم مع الموجود خلاف الحال في العلم المحدث مع الموجود : وذلك أن وجود الموجود هو علة وسبب لعلنا ، والعلم القديم هو علة وسبب للموجود ، فلو كان إذا وجد الموجود بعد أن لم يوجد حدث في العلم القديم علم زائد كما يحدث ذلك في العلم المحدث ، للزم أن يكون العلم القديم معلولا للموجود لا علة له : فإذا واجب ألا يحدث هنالك تغير كما يحدث في العلم المحدث : وإنما أتى هذا الغلط من قياس العلم القديم على العلم المحدث ، وهو قياس الغائب على الشاهد ، وقد عرف فساد هذا القياس . وكما أنه لا يحدث في الفاعل تغير عند وجود مفعوله ، أعني تغيراً لم يكن قبل ذلك ، كذلك لا يحدث في علم القديم سبحانه تغير عند حدوث معلومه عنه : فإذا قد انحل الشك ولم يلزمنا أنه إذا لم يحدث هنالك تغير ، أعني في العلم القديم ، فليس يعلم الموجود في حين حدوثه على ما هو عليه ، وإنما لزم ألا يعلمه بعلم محدث ، لكن بعلم قديم ، لأن حدوث التغير في العلم عند تغير الموجود إنما هو شرط في العلم المعلول عن الموجود . وهو العلم المحدث . فإذا العلم القديم إنما يتعلق بالموجود على صفة غير الصفة التي يتعلق بها العلم المحدث ، لا أنه غير متعلق أصلاً كما حكى عن الفلاسفة أنهم يقولون لموضع هذا الشك : إنه سبحانه لا يعلم الجزئيات ، وليس الأمر كما توهم عليهم . بل يرون أنه لا يعلم الجزئيات بالعلم المحدث الذي من شرطه الحدوث بحدوثها ، إذ كان علة لها لا معلولا عنها كالحال في العلم المحدث . وهذا هو غاية التنزيه الذي يجب أن يعترف به ، فإنه قد اضطر البرهان إلى أنه عالم بالأشياء ، لأن صدورها عنه إنما هو من جهة أنه عالم ، لا من جهة أنه موجود فقط ، أو موجود بصفة كذا ، بل من جهة أنه عالم ، » (١) .

أما نحن فإننا لا نرتاب ألبتة في أن أرسطو كان صريحا في نفي العلم بعالم الكون والفساد عن المحرك الأول ، ومن آيات هذه الصراحة التي لا تحتمل أدنى ريب أن تلاميذه — وهم ألصق الناس به وأعلمهم بآرائه — قد أخذوا عليه ذلك وهاجموه من أجل تلك الفكرة قائلين له بعد كلام طويل : « ثم جعلت هذا المحرك لا يعقل إلا ذاته بدعوى أنه لا يليق بجلاله علم ما في الأمور الدنيوية من الجزئيات الدنيئة ، ثم مثله بقائد الجيش ، فكيف يقود الأمير الجيش إذا لم يبصره ولم يخطر له ببال ؟ وكيف يصح تدبير العالم من متحيز في نفسه ، مقصور على علم ذاته لا يحاوزهها : وإذا جحدت تدبيره إياه ، فمن أين وجود العالم في بدء نشأته ؟ ومن أين بقاءه إذا لم يكن المبدأ الأول حظ في تدبير أموره ولا أدنى إلمام به ؟ فكأنك قد جعلت الإله والعالم قطعتين منفصلتين لا اتصال لإحدهما بالآخرى ، وقد انتقدت أفلاطون حيث جعل عالمين : علم الحس وعالم المعاني واليقين ثم عجز عن بيان الاتصال بينهما . وأنت قد وضعت العالم ثم وضعت الإله مقابلا له ، فعجزت عن بيان ماهية العالم وما هية الإله بما يزيل الشك ويدرك الشبهة حتى بقيا متقابلين لا اتصال بينهما ولا تأثير . فإذا تحققنا قولك وسبرنا معنك وجدنا أنه لا حاجة للإله بالعالم ، ولا حاجة للعالم بالإله (١) . »

وكما أننا نجزم بثبوت هذا الرأي لأرسطو فإننا كذلك لا نتشكك في أن ابن سينا كان واضحا غاية الوضوح فيما ذهب إليه سواء منه ما تأثر فيه بأرسطو أو ما ابتكره في تأييد هذه النظرية . ولا نتردد في الجزم بأن توجيه ابن رشد هذا هو غير ما أراده أولئك الفلاسفة ، ولكننا أيضا لانجاري الذين رموا هذا الفيلسوف الأخير بالتعصب للفلاسفة إلى حد أنه كان أشد منهم حرصا على أنفسهم كما يقولون ، أو الذين زعموا أن كلفه بمخاصمة الغزالي وتخطيئه هو الذي دفعه إلى الانزلاق في هذا المأزق الحرج . وإنما نحن نرى أن أحد تعليلات أرسطو لنفيه العلم عن المحرك الأول — وهو تخرجه من أن تكون الموجودات الحائلة علة للعلم الأزلي — هو الذي قد سطع بريقه على عجل في عقل ابن رشد فألهمه فكرة هذا

(١) راجع صفحتي ٤٨ و ٤٩ من كتابنا « مشكلة الألوهية » .

التوجيه الشخصي حيث ساءل نفسه عن تلك العلية فألفاها واردة فتأمل فيها وحاول التنقيب عن وسيلة للتخلص منها ، فاهتدى إلى فكرة العلم القديم الذي لا يشبه العلم المعلول للوجودات الكائنة الفاسدة ، وهو العلم الذي اصطدم به أرسطو . فوقف منه بين نارين ولم يكن له بد من اختيار أحد أمرين ، أحلاهما مر ، وهما : القول بمعلولية العلم الأزلئ للشخصيات الحادثة ، أو القول بنفي العلم عن المحرك الأول بتاتا . ولما كان الأمر الأول لا يؤيده المنطق من ناحية ، وكانت فكرة موضوعية الذات الأسمى للعقل الأسمى تحتل في رأسه موضعا بارزا من ناحية أخرى ، فقد رجح اختيار الأمر الثاني . أما ابن رشد فلم يقو على احتمال نفي العلم عن الباري ، ولم يستسغ فكرة معلولية هذا العلم للوجودات الحادثة ، فأجهد نفسه في البحث عن حل لهذه المعضلة يرأب ما انصدع بين هذين الطرفين المتعارضين ، وكانت تلك المعارك الجدلية العنيفة قد هيأت له أسباب هذا الحل . فلم يلبث أن ظفر به وأعلنه . ولكن الذي نأخذه عليه هو زميه كل من تقدموه بعدم استكناذ مرمى الحكماء من آرائهم مع ما كانت عليه تلك الآراء من جلاء . ومن الممكن أن يكون قد تصور أنه ما دام هو قد استطاع كشف هذا التوجيه . فلا بد أن يكون أرسطو — وقد عرفت رأيه فيه من قبل — قد كشفه بالأولى .

وكما أننا نأخذ على ابن رشد مغالاته في تقدير أرسطو . نأخذ على أبي حامد زميه أولئك الأعلام بالكفر مع ثبوت حسن نياتهم والتحقيق من أنهم لم يقصدوا من وراء هذا النفي إلا تنزيه الباري عما تصوروا أنه شائن بمقام الألوهية وإن كانوا قد أخطئوا فيما ذهبوا إليه غير باغين ولا عادين .

الجاهل

قال النبي صلى الله عليه وسلم : . الجاهل يظلم من خالطه . ويعتدى على من هو دونه ، ويتطاول على من هو فوقه ، ويتكلم بغير تمييز ، وإن رأى كريمة أعرض عنها ، وإن عرضت فتنة أردته وتهور فيها .

نقول : الجهل هنا بمعنى السفاهة كما قال الشاعر الجاهلي :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

الحب

بين العباد والرب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني
المفتش بإدارة الأزهر

-

لفظ الحب وما تصرف منه ، من الألفاظ الكثيرة الدوران في الكتاب العزيز : فقد جاء في أكثر من ثمانين موضعاً منه على أساليب شتى ، إثباتاً ونفيّاً : وهو أيضاً من الألفاظ التي وردت في السنة المطهرة على نحو ما وردت في القرآن الكريم .

وه الحب ، فيما جاء من هذا وذاك نوعان :
(١) حب العبد لله .

(٢) وحب الله للعبد .

ولكل واحد من هذين النوعين ظاهرة جديرة بالنظر والدرس :

فأما حب العبد لله فهو منزلة ترتفع بصاحبها إلى أعلى درجات السمو والكمال والتزّه : وهذه المنزلة تستدعي من صاحبها أن يؤثر محبته — كما هو الشأن في كل محب — بكل شعب من شعاب قلبه وفكره ، وأن يضحي في سبيله بكل رغبة من رغباته ، وأن يتحمل في رضاه كل عناء ، ويصبر على كل بلاء : ذلك أن الحب — كما يعهده الناس بين بعضهم وبعض — هو علاقة فوق المعرفة ، وميل وانعطاف فوق الإرادة والرغبة : فكل واحد منا يعلم من نفسه أنه يعرف فلاناً من الناس ، أو يعرف كذا من الأشياء معرفة رضا وقبول دون نبوة عنه أو نفور منه ؛ ولكننا لا نسمى هذا حباً ، لأن الحب أعمق في نفس المحب أثراً ، وأكثر

لفراغ القلب شغلا ، بل الحب الحقيقي هو الذى لا يترك فى القلب فراغا ، ولا يدع للنفس سبيلا للتوجه إلى ما سوى الحبيب .

وإذا كان الأمر بهذه المثابة ، فحب العبد لله هو الإيمان الحق ، وليس الإيمان الحق مجرد المعرفة وإذعان النفس ، وبعبارة أخرى : الإيمان الحق هو إيمان المحب لله المنفعل به الذى يؤثره على نفسه ، وتبدو آثار حبه إياه فى جميع أقواله وأفعاله وتصرفاته : أما الإيمان الجاف الصامت السلبي الذى لا يعدو الإذعان النفسى ، والإقرار القلبي ، ولا تظهر آثاره فى مظهر من المظاهر العملية الإيجابية ، فليس هو الإيمان الذى يريده الله من عباده .

إن المؤمن الحق هو الذى أدرك جمال الله وجلاله ، وأدرك لطفه وإحسانه ، وعلم علم اليقين أنه هو المنعم المفيض الذى لا إنعام إلا به . ولا فيض إلا منه ، ثم انفعّل بهذا الإدراك فأحبه ، فأصبح قلبه مشغولا به ، وعمله موجها إليه ، ولذته وارتياحه فى طاعته وعدم المخالفة عن أمره . يتحمل فى ذلك ما يتحمل راضيا مغتبطا قرير العين مطمئن القلب ثابت القدم : فإذا أحسن إليه حبيبه تلقى هذا الإحسان شاكرًا بلسانه وقلبه وفعله : وإذا ناله شيء فى سبيل مرضاته تلقاه صابرا عليه ، غير متبرم به ، ولا ضائق به صدرا .

ذلك هو المحب ، وذلك هو المؤمن : وآية ذلك أن الله ذكر الكافرين والمؤمنين فجعل حبه هو العلامة المميزة بين هؤلاء وهؤلاء إذ يقول : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله . » وذكر الذين يتبدلون بدين الحق ما سواه فقال : « يأبى الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه . » فقد وضع الحب فى موضع الإيمان . وقد نعى الله على الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة فوصفهم بأنهم « يحبون العاجلة ، ويذرون وراءهم يوما ثقيلا » أى أنهم أحبوها فأثروها ، ولو أحبوا الله لآثروه ، كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ، . وقد نفى الإيمان عن يوادون أعداء الله فقال : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم

أو عشيرتهم ، وذلك لأن عدو المحبوب عدو للمحب ، كما أوجب على المؤمنين حب رسوله وحب أوليائه ، لأن محبوب المحبوب محبوب ، ورسول المحبوب محبوب ، وفي ذلك يقول الرسول الكريم : « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » . « وما تحاب اثنان في الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبا لصاحبه » . ويقول الله عز وجل : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » . وهكذا نرى حب الله وإيثاره على كل ما سواه هو الإيمان الحق في كل ما جاء على لسان الشرع . والدستور الجامع في ذلك هو قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فمربصوا حتى يأتي الله بأمره » . والله لا يهدي القوم الفاسقين .

وأما حب الله للعبد فلم يثبتته القرآن الكريم إلا لذوى الأعمال العظيمة التي تفوق في قيمتها ومنزلة العاملين بها ما سواها من جنسها ، ولم ينفعه إلا عن ذوى الصفات السيئة الموهلة في السيئ التي من شأنها أن تشيع الضرر والفساد .

بيان ذلك أن الآيات التي أثبتت حب الله للعباد تصف هؤلاء العباد المحبوبين بأوصاف هي أمهات الأخلاق ومنابع الفضائل النفسية ، ولها من السموعما يشاركها في أصل معناها ما يجعلها جذيرة بالحب الذي هو فوق مجرد القبول والرضا .

ومن ذلك قوله تعالى : « إن الله يحب المحسنين » والإحسان صالح لأن يراد به الإنعام على الغير ، وأن يراد به الاتقان والتبريز في كل شيء ، فاذا أريد به الإنعام فهو منزلة فوق الإعطاء لأن الإعطاء قد يشاب بشائبة من المن أو الأذى أو اختيار الأذى تخلصاً منه . ولا يكون العطاء إحساناً حتى ينزه عن ذلك كله ، ويسمو صاحبه فيه إلى الدرجة التي يصفها الله ورسوله في مثل : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا عما تحبون » و « لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » و « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه » و « إن الله طيب لا يقبل

إلا طيباً . من كل ما يدل على تحرى الحالة الفضلى ، والصورة المثلى فى كل جانب من الجوانب .

وإذا أريد بالإحسان إتقان العمل عامة والاحتفال له والتبريز فيه ، فليس كل من أدى عملاً يكون محسناً بمجرد أدائه ، فالأداء قد يكون مجرد تخفف وإبراء ذمة . أما إحسان العمل وأدائه كاملاً متقناً فهذا شيء آخر : وإلهم ليقلون : إن الإحسان فوق العدل إذ العدل هو التسوية ، والإحسان معنى زائد عليها ، فمن أدى الحق وأخذ الحق فهو عادل . ومن تجاوز عن بعض حقه مسامحة منه وكرماً ، وأعطى أكثر مما عليه تلطفاً منه وتفضلاً ، فهو محسن : ولذلك يقول الله عز وجل : فمن عُنى له من أخيه شيئاً فاتبع بالمعروف وأداء إليه بإحسان . فيطلب المبروف فى الاتباع والمطالبة ، والإحسان فى الأداء ، ويقول : ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، فلا يكتفى بالعدل الذى هو المساواة ولكن يأمر بما فوقه وهو الإحسان ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون .

بهذا يتبين أن الله جلت حكمته لم يمنع حبه لجزء الإنفاق أو الأداء على ما جرت به العادة . وإن كان يرضى عن ذلك ، ولكنه منح هذا الحب الذى هو فوق الرضا والقبول لما يناسبه .

ولما كان المحب يعامل حبيبه بمنتهى الكرم ، ويتلطف معه أعظم التلطف ، فإن الله جل علاه يعامل المحسنين الذين يحبهم هذه المعاملة ، فيقول : ، وبشر المحسنين ، ، إن رحمة الله قريب من المحسنين ، ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ، وسيزيد المحسنين ، ، وإن الله لمع المحسنين ، .

وكما يقال هذا فى الإحسان يقال أيضاً فى الصبر ، إذ الصبر منزلة فوق الاحتمال ، لأنه مجاهدة وحبس للنفس عن كل ضجر أو تبرم ، وهو أساس كثير من الفضائل ، وإن اختلفت أسماؤها : فالشجاعة هى الصبر على مكاره الجهاد : والجود هو الصبر على بذل المال والمعروف : والكتان هو الصبر على شهوة الإفاضة والكلام : والعفاف هو الصبر على نوازغ النفوس والشهوات : ورعاية الصدر هى الصبر على المثيرات والمحفظات ، وهكذا : ولذلك يعلن الله أنه : يحب

الصابرين ، ويذكر الصبر في خصال البر ، والصابرين في البأساء والضراء ، ويحمل
الصابرين هم أصحاب الحظ العظيم ، وما يُلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو
حظ عظيم ، ويعلن أنه سيغفر الصابرين بمزيد من الفضل الذي يعادل هذا الحب
فيقول : « وبشر الصابرين » ولنجزي الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا
يعملون » إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب » إن الله مع الصابرين ،
« يحزون الفرقة بما صبروا ، وجزاهم بما صبروا جنة » سلام عليكم بما
صبرتم فنعم عقبى الدار .

وقل مثل هذا في بقية المواضع التي أثبت الله فيها حبه لعباده ، مثل قوله تعالى
« إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » و « يحب المتقين » و « يحب المتوكلين »
و « يحب المقسطين » . الخ .

وقد جاء الحديث الشريف مؤيداً لهذا المعنى القرآني إذ يقول عليه الصلاة
والسلام فيما رواه عن ربه « قال الله تعالى : لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل
حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به . .
ولست النوافل في الحديث هي صلاة ركعتين أو ركعات بين يدي الفريضة
أو بعدها خصب ، ولكنها كل زيادة وفضيلة فوق ما هو مطلوب في العادة ،
وذلك يشمل كل ناحية من نواحي الحياة ، كالأحسان والصبر والتقوى
والتطهر . . . الخ .

ومعنى قوله « كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به » هو التوفيق
والهداية والرعاية في كل حال ، نتيجة للحب الذي منحه إياه : ولا شك أن الذي
يسمع بالله ، ويبصر بالله لا يضل ولا يشقى : وذلك أيضاً هو معنى قوله تعالى
« إن الله مع المحسنين » و « مع الصابرين » إذ يلزم هذه المصاحبة كل
توفيق وسداد .

يقي بعد ذلك الآيات التي نرى فيها الله حبه عن عباده ، مثل قوله تعالى : « والله
لا يحب الفساد » و « لا يحب المفسدين » : ولا شك أن الفساد إجرام فوق
العادة ، وأن المفسدين أعداء المجتمع والعاملون على تقويض بنيانه ، وزعزعة
أمنه واطمئنانه . فإن الشخص الذي يذنب ذنباً عادياً يكون جرمه على نفسه ،

أما الذى يعيث فى الأرض الفساد فجرمه على المجتمع كله : ولذلك قد يتوب الله على الأول أى يوفقه للتوبة والرجوع ويغفر له ، أما الثانى فقلما يوفق للتوبة لأن قلبه مظلم ، ونفسه فى ضراوة الوحوش الكاسرة .

وحسبنا أن الله جل علاه يذكر الفساد والمفسدين فى أخطر المناسبات ، إذ يقول : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » .

ونتيجة هذا المقت للفساد والمفسدين هى ما ذكره الله عز وجل فى مثل قوله « إن الله لا يصلح عمل المفسدين » ، زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون ، « فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » .

وكذلك يتمال فى قوله تعالى : « إن الله لا يحب الظالمين » ، وفى القرآن الكريم بيان عاقبة هذا المقت وعدم الحب : مثل قوله « إنه لا يفلح الظالمون » ، « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » ، « فأخذهم العذاب وهم ظالمون » ، « وقد خاب من حمل ظلما » .

وأحسب أنه لا يصعب بعد هذا البيان على من شاء من القراء ، أن يتتبع الفكرة على هذا النحو فى مثل قوله تعالى : « إن الله لا يحب الكافرين » و « لا يحب الفرحين » ، و « لا يحب من كان مختالا فخورا » ، و « لا يحب من كان خوانا أثيما » . وخير ما أنختم به هذا الحديث دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم الذى كان يدعو به ربه « اللهم ارزقنى حبك ، وحب من أحبك ، وحب ما يقربنى إلى حبك » .

الود للأكرمين

قال العطوى الشاعر :

ومن بمؤاخاته	تشرّف	صن الود إلا عن الأكرمين
ضمير مودته	أجيف	فكم من أخ ظاهر وده
بما هوى لك أو زخرف		ولا تغتر من ذوى خسلة
تذكر منه الذى تعرف		إذا أنت عاتبه فى الإخاء

شعراء الازهر

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان

المدرس بكاية اللغة العربية

ليس الشعر مما يعدّه الازهر من مفاخره : فالعلماء ورثة الانبياء : والنبوة والشعر لا ينتقيان : وقد قيل لحسان رضى الله عنه : لان شعرك فى الإسلام : قال : لان الإسلام ينهى عن الشر ! وقال الخبيث بشار : أزرى بشعرى الأذان . ذلك إلى أن من طبيعة البحث العميق الذى يمتاز به الازهرى أن يعوق عن البراعة فى الشعر .

غير أن هذا كله لم يحل دون أن يقول الشعر كثير من الازهرين فى القديم والحديث : ودون أن يجيده ويبرز فيه أفراد ينزلون فى الصفوف الأولى من صفوف الشعراء المعدودين فى جميع العصور : ولا يضيرهم أن كانوا قليلين ، فإن الشعر موهوب ، لا مكسوب : تربيته الثقافة وتنمويه ، ولكنها لا تعطيه : وقد يضحي الازهرى بهذه الموهبة إيثارا لما هو بسيله مما هو الأشرف الأهم ، والمقصد الأعظم .

ولست أريد أن أؤرخ للشعر فى الازهر ، منذ كان الازهر : ولا أن أترجم لكل من يقول الشعر فيه : فإن شرح ذلك يطول ؛ ويفتح أبوابا ليس من الخير أن تفتح . وإنما أقتصر على هذه الفترة التى ابتدأت بعصر إسماعيل الى اليوم : على أن أتناول أمثال من يقول (١) :

أز مع الركب رحيلا فاعمد	فالتبعا ، قبح الله الجلد !
زعموا أن غدا فرقتنا	ذكروا الموت فسئوه بعد
ما لجفتي بولع البين به	إنه لو كان بحرا لنفد

لا أمثال من يقول (١) :

علوم الفقه والتوحيد والتفسير . أشباه
علوم حشوها جهل وتخليط عرفناه
وبعض رجالها ضلوا وفي أوهامهم تاهوا
ولولا حسن نيتهم لقلنا : حسبنا الله !

وقد نغفل بعض من لا يروقه أن نعرض لهم عن لهم في الشعر مقام معروف
توخياً لرضاهم ، وبعدا عما عساهم يعدونه تحسباً غير مرغوب فيه : وإن كان هدفنا
الأصلي في هذا الموضوع ، هو الإشادة بذكر الأزهر من ناحية غير مطروقة ،
لا التوسع في النقد ، ولا الإقازة في التراجم والتفاصيل . وربما أغفلنا الترتيب
الزمني ، لاعتبارات وضرورات تقتضيها ذلك الاغفال المؤقت حتى تغلب
على بواعثه .



مركز بحوث الدراسات الإسلامية

(١) السيد حسين والي

هو السيد حسين والي بن العلامة السيد حسين والي بن السيد إبراهيم والي ؛
ينتهي نسبه إلى الامام أبي عبد الله الحسين بن علي ، رضي الله عنهما .

ولد في منية أبوعلي من أعمال مركز الزقازيق في مديرية الشرقية ؛ في رجب
الفرد سنة ١٢٨٥ ، نوفمبر سنة ١٨٦٨ ، وطلب العلم في الأزهر ، منتسباً إلى رواق
معمر ، إلى أن نال شهادة العالمية سنة ١٣١٧ هـ - ١٨٩٩ م . وأذن بالتدريس
في الأزهر سنة ١٩٠٠ ، ثم ندب للتدريس في مدرسة القضاء الشرعي سنة ١٩٠٧ ،
ثم عين مفتشاً في الأزهر والمعاهد الدينية سنة ١٩١١ ، ثم وكيلاً لطنطا سنة ١٩١٤ ،

(١) للميل المحترم الشيخ عبد المتعال العميد

ثم سكرتيراً عاماً للمجلس الأعلى بالأزهر سنة ١٩٢٠ ، وبقي في هذا المنصب إلى أن ألغى في ديسمبر سنة ١٩٢٦ ، وفي ٧ من شهر ربيع الأول سنة ١٣٤٣ (٦ من أكتوبر سنة ١٩٢٤) عين في هيئة كبار العلماء بمرسوم ملكي كريم نصه :

« عتین فی هيئة كبار العلماء كل من حضرات : الشيخ محمد مصطفى المراغي الحنفي المذهب رئيس المحكمة العليا الشرعية ؛ والشيخ حسين والي السكرتير العام لمجلس الأزهر الأعلى والمعاهد الدينية ، والشيخ محمد الحلبي ، والشيخ سيد علي المرصفي ، الشافعي المذهب . . »

وتوفي - طيب الله ثراه - في ٢٨ من فبراير سنة ١٩٣٦ ، وهو عضو في مجلس الشيوخ ، وفي المجمع اللغوي . وما تزال أصداء جولاته تدوي في قباها ، فيتجاوبها آفاق العروبة في مشارق الأرض ومغاربها إلى اليوم .



والسيد حسين والي . أحد الأقطاب الذين سما حظهم من التبهر في علوم اللغة العربية وآدابها ؛ وأخذوا بأفاقها وشعابها . على جميع الباحثين والمتأدين ؛ في عصر النهضة ، فلا يسبقهم سابق ، وإن ناصاهم شواذ في أقطار الشرق العربي معدودون معروفون . هم الأئمة ، وسائر الناس على آثارهم مقتدون .

لا جرم أن مواهب السيد حسين والي ، جديرة بأن تبوئه هذه المنزلة الرفيعة التي لا ترام : فلقد كان - إلى تبهره في علوم الأزهر - كاتباً قديراً ، وشاعراً فحلاً . يكتب كما يكتب حمزة فتح الله ، والسيد توفيق البكري ، والشدياق الخ ؛ ويشعر كما يشعر حمزة فتح الله ، والسيد توفيق البكري ، وآل اليازجي ، وغيرهم وغيرهم من كبار الكتاب وفول الشعراء ؛ في مصر والشام والعراق ؛ ويصاول المؤلفين والباحثين في وزارة المعارف وغيرها ، وينقدهم وينال منهم ويوجههم فيتجهون . ويفتي في اللغة والأدب ، فينقطع كل قول ، ويخفت كل صوت . ذلك بأنه كان مطلعاً ، فقيهاً لغوياً ، ذواقة ، هاضماً لما علم ، واثقاً مما يقول ؛ والإيمان بالرأي أقوى أسلحة الشجاع . وكان الطبعي أن ينال السيد حسين والي

من الشهرة عند الخاصة والعامة كفاء هذه الموهب المتوافرة : بيد أنه غرض من شهرته شمائل : هي في شرفها وعنصرها أنفس جوهرها ، وأعز قيمة . وأرفع جمالا من كل شهرة .

كان السيد حسين والى غالبا في التعصب القديم ، يعتز به ، ويحافظ عليه . ويرعاه في دينه . وفي سمته ، وفي لغته ، وفي كل ما يحيط به . حتى لقد سمي أولاده : أسامة ، ولؤى ، ونزار ، والفرات . يحدوه إلى ذلك نسبة الشريف . ونشأته الأزهرية ، ووقار ألبسه الله منه رداء فضفاضا : ثم نزعة صوفية عميقة ستعلم نبأها بعد حين .

هذه الشمائل المركبة في طبيعة السيد حسين والى : أبت عليه :

أن يدعو إلى التجديد : أبهر أسلحة الشهرة في هذا العصر

وأن يتبدل ، فينكت ، ويشتم ويشتم ، ويهدم السابقين ، ويخطئ اللاحقين : وأن ينافق ، فيلقى كل قائم بوجه ، وهو يؤمن بأن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيها : وأن يكثر ، فيملأ الصحف والمجلات ترثوة ، ويحدثا مرددا مكرورا .

والحمد لله الذي ركب في طبيعة السيد حسين والى ما ينافر وسائل الشهرة في هذا العصر ، فلو لا ذلك لما وجد الخبز كثير من المشهورين !

وبعد ، فليس من همي أن أترجم للسيد حسين والى ، فأن ذلك --- إلى أنه يتقاضاني مجهودا ضخما --- ليس من صميم موضوعي : وحسبي هذا التعريف الموجز بهذا العلم المطوى . علّ فيه غرارة بنشره ، مفخرة للأحياء ، ووفاء للأموات . بيد أن لدى من نواحي الإعجاب بهذا الرجل العظيم ، ما يشجعني على معالجته في فرصة أخرى ، وفي موضع آخر . نسأل الله التوفيق .

قلنا : إن المترجم شاعر فحل ، وهو حكم لا يخامرنا شك في صحته وبعده عن كل مجاملة وإسراف ؛ ولا نلن ناقدأ بخالفنا فيه ؛ إلا بمثل ما قيل في السيد

توفيق البكري ، من أن شعره لا يوافق روح العصر . وهذا ليس تقدماً للشاعر ولكنه نقد لمذهبه : وهو كلام لا وزن له : أما الموهبة الشعرية التي هي مناط النفي والإثبات . فأنها كاملة ضخمة عند السيدين ، كليهما : على أن السيد البكري وإن لاقى السيد والي في أن كليهما شاعر مقل ، أوسع مضطرباً وبجلاً منه : فلقد سمعنا وقرأنا للبكري كثيراً : ولم نسمع ولم نقرأ لوالى إلا القليل .

فمن هذا القليل تقريره لكتاب « شذا العرف » للمغفور له الشيخ الحلاوى : وهذا التقرير أبلغ الدلالة على قوة الشاعرية عند المترجم ، فقد التزم فيه — على طريقة شعراء عصره — أن يكون الشطر الأول في البيت تاريخاً لسنة ١٨٩٤ الفرنجية ، والشطر الثاني تاريخاً لسنة ١٣١٢ الهجرية ؛ وعدة التقرير عشرة أبيات غاية في الجزالة والفخامة ، على رغم القيود والأصفاد التي كتبل بها شاعريته ، مما لا يقدره قدره إلا من عاناه . وهو في هذا الصنيع لا يقل عن الشيخ ناصيف اليازجي وولديه خليل وإبراهيم . اقرأ من هذا التقرير :

شذا العرف بالطبع ميناء رقى و برق اضطفاء الصرف لطفاً برق
كتاب كريم أغار من الخسوف وأجمل كل كتاب سبق
صنيع أخى الفضل داني الأبادي وأرقى جليل شريف الأرق
أغرّ البرايا النيل الفريد من البدر دون ذكاه انمحق
غياث العلا الحلاوى العزيز مناط النهى من به الفخر حق
لعمرك هذا الذى عزّ جاها يبت ثابه المديح نطق

هذا شعر لو قيل على الطبيعة ، لدلّ على قوة الموهبة الشعرية عند قائله ؛ فكيف وقد كتبل كما قلنا بالأغلال والأصفاد ؟ .

وبما وقفنا عليه من شعره : القصيدة النومية ، التي ندع له رحمه الله تعالى تقديمها . قال :

« قال منشئها ، الفقير إلى الله . حسين والى الأزهرى الشافعى ، ابن العلامة المرحوم السيد حسين والى ، الحسينى : سبب إنشاء هذه القصيدة ، أنى اجتمعت

مرة بالمقطب الرباني ، والهيكل الصمداني ، صاحب البركات والنفحات ، سيدي ومولاي الشيخ ابراهيم أبي العيون ، أستاذ السادة الصوفية ، وملاذ القادة الخلوتية : وكَلَّمْتُهُ في حاله مع الغوث ، فقال : مني للمصطفى : وبعد جدال مع الاستاذ في شأن ذلك ، ومطالبتة بالدليل ، قال لي : ما تراه في النوم ، أخبرني به . فإزلت أفكر في أمره ، حتى رأيت في الرؤيا بمصر ليلة الجمعة ٢٦ شعبان سنة ١٣١٤ ، النبي صلى الله عليه وسلم . ويد الشيخ في يده مثل المتصالحين : وأنا والغوث على بعد يسير من الشيخ ، وقصوفا في تجاهه . مغموسين في أنواره صلى الله عليه وسلم . تعمنا هيبة ووقاره : وأشار عليّ صلى الله عليه وسلم ، أن أمدح الشيخ ، وأصف حاله وحاله : فدحته بهذه القصيدة واقفا ، حيث لم يتغير أمر واحد منا عما هو عليه : وكأنّ هذا بالمدينة المنورة ، في فضاء ، ليلا : ثم استيقظت فكتبتها إلا قليلا شط عن فكري ، فاجتهدت فيه إلى أن وفقت له بإرشاد منه صلى الله عليه وسلم في رؤية أخرى : ثم لما تلوتها على الشيخ بحضرة الأجلاء من الإخوان ، أمرني أن أصلي وأسلم على النبي صلى الله عليه وسلم في بيت ، ففعلت : فكانت واحدا وسبعين بيتا ، من مخلع البسيط : ثم قال لي : انتظر الإذن منه بالتسمية ، فانتظرت ، حتى أذنت بهذا الاسم ، الإشارة النبوية ، وعلى الله القبول ، اهـ .

ومطلع هذه القصيدة :

أَمْسَيْتُ بِاللّهِ فِي شُؤُونِ وَالْجَنِّ وَالْإِنْسِ فِي شُؤُونِ
لَمْ أَنَسْهُ ، وَهُوَ خَيْرٌ مَعْطٍ لَا فِي حَبَابِكَ وَلَا سَكُونِ
ومنها :

وَالْأَمْرُ عِنْدِي أَمْرُ رَبِّي وَالْأَمْرُ عِنْدِي أَمْرُ دِينِي
أَرْنُو ، وَلَكِنْ لَصْنَعُ رَبِّي وَذَاتُهُ الْأَقْدَسُ الْمَتِينِ
فَلَوْ حَلَفْتُ بِأَنْ عَيْنِي لَمْ تَغْفُ ، مَا زَغْتُ فِي يَمِينِي

أنسى هو الله في جموع وفي عُدُون ، وفي ظعون (١)
 في الحب أغرقت في بحور وما لجأت إلى سفين
 وإن شربت ، شربتُ نورا والناس تشرب من معين
 سلوا قريني إذا تسنى عن كنه عشقي 'يحب' قريني (٢)
 لا لوم ، إن لم أطع خدينا غنيت بالله عن خدين !
 وهـل أخاف سوى قوى عدل ، بقبضته ورتني
 سقاني الله كأس شوق على ضروب من اللثون !
 ومنها ، وهو في الصميم :

أنح قرب المزار على شكواي ، والقرب ذو نون
 أراي أبو العيون طه - وربى - بالميون
 قطب يدور الرضا عليه ومنتهاه 'مدى' البطون (٣)
 قطب جدير بأن لبابه أجمع المتون
 نفسى تطاوعه من قبل ، كالصافن الحرون
 تبعته قد رأيت دخلت في كهفه الحصين
 أزال إبليس عن نزالى حتى نجموت من الخثون
 بفضله السابق الفوادي خلصت من زمن الفتون
 به تحققت ما براني لما تلقيت باليمين
 فإن تكن للورى عيون فلي وحيدا أبو العيون !
 ومنها ، وهو عوذتها :

يا مصطفى أنا منك فارأف بحادث وامق كمين
 مشكت بين يديك أرجو أن أستم على اليقين
 يا سيد الأنبياء إني أمل لإحسانك الهتون
 أنقذ فوادي من أمور فإنما هو كالجنين

(١) عدون : إقامة . (٢) قريني : الملك الموكل بي ، وتسنى : أمكن .
 (٣) البطون ، الاحيال .

لو لم أر الآن منك حلماً لغررتُ في نازل بطين^(١)
على التقى والهذى أعنى وسدّ إن كثرت ديونى
وإن عصيت فكن شفيحاً فليس غيرك بالقمين
فإن نار السعير ليست تزداد عنى بالحصون
من ذا يُسلم فى وليد له إلى مُحرق مهين
وهل أرى فى القيام غياً وأنت - دون الورى - ضميني ؟
وختمها بقوله :

صلى وسلم مصطفىه عليه فوق مدى السنين

والقصيدة بالمقدمة المذكولة هنا ، مطبوعة بالمطبعة الشرفية سنة ١٣١٤ هجرية ،
وبها مشها تعليقات وجيزة ، وهى فى أسلوبها ومعانيها ، تعرب عن نفسها .



رحم الله الإمامين الجليلين ، ونفعنا بآثار هذا السلف الصالح . آمين

مركز تحقيق التراث

الفخر بالموت

كان العرب يتماجدون بالموت فى الحروب ، ويتهاجون بالموت على الفراش .
قال السموءل مفتخراً :

وما مات مناسيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظباء نفوسنا وليس على غير السيوف تسيل
يقول مامات سيد منا على فراشه قط ، ولا ذهب دم قتيل لنا هدرا ، ولم نر
فى تاريخ جاهلية أمة أنهم كانوا على هذا النحو من استساغة الموت والتباهى به ،
وإمل ذلك كان منهم مبالغة فى التمدح بالشجاعة .

(١) النازل للبطون : المنفعت للبيدلى الأرض .

موقف المسلمين

من القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر

الأستاذ بكلية اللغة للعربية

-

أُنزل القرآن على نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم ، منذ ١٣٨٠ عاماً^(١) .
ولم يزل بعناية الله محفوظاً من التحريف والتبديل إلى عصرنا هذا ، ثابتاً كالطود
الشامخ ، يرد بغى الباغين ، وكيد الكائدين .

وكلما مرت عليه الأحقاب والسنوات ، ازدادت على طول الزمن جدته ،
وتمثلت لقارئه قوته ، وتجلت للناس عظمته ؛ ولن يزال كذلك بإذن الله حتى تقوم
الساعة : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

واقْدَكَانَ للمسلمين معه في تلك الحقب الطويلة موقفان : موقف السلف ،
وموقف الخلف : وهما نذا أشرح الموقفين . أما الأول فلذ كراه الطيبة ، وأما
الثاني فللعظلة والاعتبار :

موقف السلف من القرآن :

لما نزل القرآن الكريم تلقاه المسلمون الأولون بصدور منسرحة ، ونفوس
مطمئنة ، وقلوب مؤمنة ؛ وجعلوه إماماً يقتدون به ، ودستوراً يعملون بأحكامه ،
ويسرون في الحياة على ضوء تعاليمه .

كانوا يتلونه بالسنتهم فترسم صور معانيه الجميلة على صفحات قلوبهم ،
منقوشة بيد التوفيق والهداية والإخلاص لله ولرسوله وللمؤمنين .

(١) ذلك أنه ابتداء نزوله قبل الهجرة بثلاثة عشر عاماً .

كانوا يقرءونه فيجاوز حناجرهم إلى قلوب عمرت بالإيمان ، وملئت باليقين .
وأفعمت بالشجاعة !

كانوا يرتلونه ترتيلاً ليتفهموا معانيه السامية . ومراميهِ الواعظة ، وإشاراتهِ الدقيقة ، واستلزم هذا أنهم كانوا يؤدونه بطريقة الأداء العربي الفصيح ، الخالية من التلحين الموسيقي . والنغم الغنائي ، الفاشيين الآن في قراءة قرأتنا . وطريقة العرب الأولين هذه هي التي أشار إليها القرآن الكريم ، حاثاً عليها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « ورتل القرآن ترتيلاً » (١) .

وقد فضّلوا رضى الله عنهم لما في القرآن من هداية وإرشاد ، فأحلوا حلاله ، وحرّموا حرامه ، ووقفوا عند الحدود التي رسمها لهم : لذلك أثنى عليهم المولى جل وعز ، فقال : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتتبعون أحسنه : أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » .

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول حينما استشفع عنده حبشه أسامة ابن زيد في إقامة حدّ السرقة على إحدى العظيمات من نساء قريش أتشفع في حد من حدود الله ؟ ! وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ! ،

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لعمر بن العاص ، أحد دهاة العرب ، ووالى مصر الأول ، وفاتحها في عهده ، لمناسبة حادثة شهيرة (٢) ، يقول له : متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ! .

وهذا على كرم الله وجهه يقول لما نزلت آية تحريم الخمر : « لو وقعت قطرة في بئر فبليت مكانها منارة لم أؤذن عليها ، ولو وقعت في بحر ثم جف ونبت فيه السكّال لم أرعه ! » .

أما الجهاد في سبيل الله فقد طبّقوا في شأنه توجيه القرآن المستفاد من قوله تعالى « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة » ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله

(١) الترتيل في القراءة : التمثل فيها والتبيين بنير بنى ، والبنى هنا معناه مجاوزة الحد في الغنات والمدود ، وخروج التلاوة إلى الألحان والاقاني .

(٢) حكم فيها عمر رضى الله عنه أن يقتل المعري من عمر بن عمرو بن العاص ، بالرغم من أنه ابن حاكم مصر !

وعدوكم ، وجعلوه نُصب أعينهم ومطمح أنظارهم ، لكن لا للاستعمار والاستعباد والاستيلاء على حطام الدنيا الزائل ، بل جاهدوا في الله حق جهاده ، وصبروا وصابروا ابتغاء مرضاة الله ، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، حتى قال سعد بن معاذ الأنصاري قبيل غزوة بدر مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخاف منا رجل واحد . وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا . إنا لصير في الحرب ، صدق في اللقاء »^(١) . وقال عتبة بن نافع لما حارب الروم والبربر وانتصر عليهم حتى وصل إلى بحر الظلمات (المحيط الاطلسي) « يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك »^(٢) .

والمتتبع لتاريخ حياة أولئك المسلمين الأولين يرى أنها كانت حياة مودة وإخاء ، وعمل وكفاح ، وجد وجهاد وانتصار ، مع عزوف عن التكاثر في الأموال للأفراد ، بل للأمة والدولة لمساعدة الفقراء والموزين . ومع بعد عن الدنيا التي تفنك بالعقول والأجسام ، وصيانة الحرية الكاملة لمن كان يخالفهم في الدين من أهل الذمة . اليهود والنصارى .
هكذا كانت حياة المسلمين الأولين التي أعلمها تعاليم القرآن . وهي تلخص في كلمات :

توحيد لا إشراك معه ، وجهاد لا بغى فيه ولا عدوان إلا على الظالمين .
وعمل لسعادة الدنيا والآخرة ، وتكافؤ في الحقوق الإنسانية ، وتمتع بالكفاف من الرزق الحلال !

وهذه الحياة الطيبة قد اقتبسوها من تعاليم القرآن ، وطرقه المثل في الهدى والإرشاد : لذلك تم لهم ما أرادوا ، ففتحوا الأقطار ، ومضروا البلدان ، وضربوا للإنسانية المثل العليا في العدل والإخاء ، والحرية والمساواة : ودامت دولتهم على هذا زمانا ليس بالقصير ، كانوا فيه مضرب الأمثال ، ومفخرة الأجيال ، ومعجزة التاريخ . وهذا مصداق قوله تعالى : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » .

(١) سيرة ابن هشام (٢) تاريخ الأمم الإسلامية ، محاضرات الحفري بك الجزء الثاني .

هذا موقف سلف المسلمين من القرآن العظيم : فاسمع أيها القاريء الكريم موقف منزل القرآن جل وعز من هؤلاء العظماء حيث يقول : « كنتم خير أمة أخرجت للناس : تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » . وهذا هو الثناء المستطاب ، الذي تشرئب إليه النفوس ، وتثلج به الصدور !

موقف الخلف من القرآن :

والآن أشير الى موقف المسلمين من القرآن بعد عصر النبي عليه السلام . وعصر الخلفاء الراشدين وبنى أمية : ليستبين فضل السلف من المسلمين السابقين ، وليتنبه المسلمون في هذا العصر الى ما قصروا فيه هم ومن سبقهم من مسلمي المصور الأخيرة ، لعلمهم يتداركون ما فاتهم من مجد وسؤدد . ويحققون ما يرمى اليه القرآن من عز وكرامة ، واتحاد وقوة !

فقد وضع المسلمون الأولون أسس العظمة الإسلامية كما أقبسوها من هدى القرآن الكريم . وكان على من جاء بعدهم أن يشيدوا على أسس هذه العظمة صرحا إسلاميا عاليا ، قوتى الأركان ، مضىء الجوانب ، يشع منه النور على جميع أرجاء المعمورة : ولكنهم — وبالأأسف — لم يفعلوا شيئا من ذلك ! بل تأخروا وتقدم غيرهم ، وكسلوا ، وجدد وعمل غيرهم . وإلى القاريء البيان .

بجمل في الشئون الآتية :

(١) الاتحاد والتعاون :

دعا القرآن المسلمين الى الاتحاد والتعاون في آيات كثيرة ، ومناسبات شتى . فقال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » ، « ولا تازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » ، « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ، « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » .

فإذا كان موقف الخلف من المسلمين إزاء هذه التوجيهات السديدة ؟

الجواب : أنهم ساروا على الضد منها ، ولم يفسطوا للدسائس الجوسية الخفية ، التي دست بذورها في أرض الجامعة الإسلامية من أواخر عهد عمر رضى الله عنه ، ثم نبتت في أواخر عصر بنى أمية ، ثم نمت وترعرعت في عصر العباسيين ، ثم

كانت النتيجة أن ذهب ربح المسلمين، وتعرض بنيان الخلافة أو الجامعة الإسلامية، وقامت على أنقاضها دويلات مختلفة المشارب، مفككة العرى، ضعيفة الجانب. فإذا يرجى للإسلام منها وحالها على ما وصفنا؟ ثم قامت دولة الترك العثمانية، فلم تلبث أن منيت في ريعان شبابها بدسائس أخرى على الطراز الأول، أو أشد منه وأنكى، وأخيراً تقوضت هي الأخرى، وأصبحت في خبر كان ١.

(ب) التوجيه القرآني في شئون الحرب :

قال الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » : وقال عز شأنه : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » . لقد أعد المسلمون الأولون ما استطاعوا في وقتهم للقاء عدوهم فظفروا وكانت لهم الغلبة ، وقصر من جاء بعدهم من المسلمين في تطبيق ما ترمي إليه الآية الأولى والثانية أيما تقصير ! ذلك أن ما كان يستطيعه المسلمون في أول ظهور المحترعات الحربية الحديثة أكثر مما قاموا به فعلاً ، إذ كان في مكتهم - لو أنهم عنوا بهذا التوجيه السامي - أن يتفلقوا في أوروبا ، وينقلوا إلى بلادهم صناعة المعادن المختلفة ، وطريقة استخلاصها من المناجم المحلية ، وينقلوا مع هذه الصناعة صناعة الأسلحة الحربية الحديثة . التي تشملها كلمة (ما) في الآية الكريمة ، والتي يفسرها قوله تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » . أنزلنا الحديد : خلقناه . والتعبير بمادة النزول يشير إلى أنه هبط على الأرض من لدن قادر حكيم . والبأس الشديد : ما فيه من قوة للفك والإهلاك . ومنافع الحديد التي يرمز إليها القرآن : يفسرها ما هو مشاهد في عصرنا هذا من استعماله في كل مرافق الحياة إلا قليلاً . وإني في هذه المناسبة أرسلها صرخة مدوية يرن صداها في أنحاء العالم الإسلامي والعربي ، فأقول :

« أعتقد أنه لا تفوم للمسلمين ولا للشرق العربي قائمة إلا إذا جعلوا لشئون التعدين والصناعات المختلفة المقام الأول ، وبغير هذا لا يكون الجيش جيشاً ، ولا الدولة دولة . وسأبين بقية الشئون التي قصر فيها المسلمون الخلف في فرصة أخرى ، إن شاء الله . فإلى اللقاء »

الكبرى كالدولة والامبراطورية ، بل والانسانية جمعاء . وحين قال أحد أتباعه بأكيا : إنه لا إخوة له ، أجابه كنفشيوس . علينا أن ننظر للناس في العالم كله كأنهم إخوة ، وحيث أن يبكي إنسان لانعدام إخوته . . وأجاب عن سؤال : ما هي الانسانية ؟ بقوله : . الحب ، وهو جواب يبدو كأنما هو أمر مسيحي . ولكنه ليس كذلك على حذر حتى لا نتخذنا ظواهر الكلمات ، فان نشوة الحب العجيب في خطبة الجبل^(١) كانت بعيدة عن عقل كنفشيوس الحذر الرزين ، المرتبط بأمور الأرض أشد الارتباط . وسئل : هل يجازي الانسان الشر بالخير ؟ فأجاب : . وكيف يجازي إذن عمل الخير ؟ . أما نظريته في السلوك نحو الآخرين ، فقد بينها في القانون الذهبي : . ما لا تحب أن يعاملك به الناس ، لا تعامل به غيرك . . وهي القاعدة الذائعة التي سبق بها كنفشيوس . كانت ، بخمسة وعشرين قرنا .

وإذا ألح أي إنسان ، على الرغم من أي شيء ، في أن يبحث عما يشير العواطف في مؤسس أي دين ، فانه في حال كنفشيوس يوجد الشعور بالوقار ، والحذر ، والشعور بالتقاليد الدينية من الناحيتين العقلية والعملية ، ومهما كان الأمر ، فانه شعور حقيقي أكد كنفشيوس تحججه ، فقد وضع برنامج الإصلاح الاجتماعي والسياسي لتحقيق السعادة للعالم أجمع : . لو قلدني حاكم مقاليد الحكم اثني عشر شهرا لحققت شيئا عظيما ، وفي مدى ثلاث سنوات احقق أغراضى بأجمعها . . وقد اضطر الى ترك إقليمه . لو ، ، وجاب الأرض بقية حياته من ولاية إلى أخرى ، يبحث عن الحاكم الذي يقلده مقاليد الحكم . وكان يقابل في أحسن الأحوال باحترام واستقبال غير حار دون وعود ، وأحيانا بجفاء ، بل وبالسجن . ولكنه لم يجد الحاكم الذي يبحث عنه . ولما شعر بدنو أجله قال : لم يوجد حاكم ذكي يقلدني مقاليد الحكم ، لقد انتهى زمني ! . وهذه آخر كلمات تروى عنه . لقد كان أول وأعظم . عقلي . هو في نفس الوقت أول ولعله أعظم . دون كيشوت .^(٢) بأحسن معاني هذه الكلمة .

(١) السيد المسيح .

(٢) بطل القصة التي كتبها بهذا الاسم الكاتب الإسباني المعروف سرفنتيز في القرن السادس عشر للميلاد . ويعتبر هذا من «إنسان خيالي» أو «حلم متعمس» (المرب) .

وما كان لي أن أعتذر ، وهذه الحفلة تقام لافتتاح الموسم الثقافي لمكتبة

الأميرة فريال ، تلك المكتبة التي لها في نفسى مقام ملحوظ ، وذكري عزيزة :
فقد أنشئت لنشر الثقافة في ضاحية لها مكانتها . وقد بذل في سبيل إنشائها جهد
موفور حتى أصبحت لا أقول : ضخمة . ولكن أقول : أنيقة ، وإن الأناقة لمن
حوافز القراءة ودواعي الاقبال على المطالعة ، ونحن محتاجون الى هذه الحوافز
نعالج بها انصراف الناس عن دور الكتب وعن التزود من زاد العقول .

وأما الذكري العزيزة لهذه المكتبة في نفسى فهى أنى كنت خطيباً في حفلة
افتتاحها يوم شرفها جلالة الملك المعظم بزيارته ، وكان ذلك في الفترة التي كتب
على أن أكون فيها وزيراً للمعارف . والحمد لله على السلامة منها . وقفت يومئذ
أذكر ما للكتبات من أثر في توكيد النهضة وإمدادها بأسباب النماء والازدهار .

ولقد كان صديق الداعي رفيقاً في هذه الليلة ، فترك لي تحديد الموضوع ،
وخيراً فعل ، فإني لا أتحدث إلا في موضوع يترك لي اختياره . لأنى في هذه
المواقف من الهواة لا المحترفين ، وليس على الهاوى إلا أن يتكلم بما يحيش به
صدره ، ويخطر بباله ، في غيرة تكليف ولا إملاء .

سألت نفسى : فيم أتكلم ؟ ولم يطل بي التفكير . فقد ذكرت أنى متهم بالتشيع
للرأة ، وكنت أرمى بهذه التهمة وأنا وزير للمعارف حين نفاذ الرقيات ، فيقال
إنى أرقى النساء الى الدرجات العليا التي هي وقف على الرجال . ولما كنت قد نشأت
لا أفرق بين المرأة والرجل ، بل أعتمد أن الله خلقهما لتحقيق وحدة المجتمع
وتنسيقه . فإني لم أكن أعير سمعى لتلك الدعاوى التي تميز فريقاً دون فريق .

وما إن ذكرت ذلك حتى اخترت ، محيط المرأة ، موضوعاً للحديث ،
وحسنى من دواعي الاختيار لهذا الحديث بعينه أنه متصل بهذه المؤسسة التي تحمل
اسم أكبر درة في تاج الفاروق ، وهى غفر الفتيات : الأميرة فريال . فليكن
لموضوع الحديث قبس من ذلك الشرف الذى أضفى على تلك المؤسسة الكريمة .

وكذلك حفزنى على اختيار هذا الموضوع أننا فقدنا بالأمس القريب سيدة
من أكرم سيدات الشرق على الشرق ، وهى المرحومة المبرورة هدى هانم شعراوى

وكلنا نعرف جولاتها في الإصلاح . وجهودها في المطالبة بحقوق المرأة ، وما كان لها من مروعات ومبرات تؤيد بها الرسالة التي نصبت نفسها لها ؛ فمن تسكريم ذكرها — طيب الله ذكرها — أن نتحدث عن شأن كان شغلها الشاغل ومهما الأكبر .

ونما زادنى إشارا لهذا الموضوع أن المجتمع تشيع فيه اليوم ألوان من الآراء في حقوق المرأة ، وتختلف المعسكرات الاجتماعية والثقافية في تعيين اتجاهها وتبيان مهمتها . ولقد قرأت في هذه الأيام كلاما ألقى في شعبة من شعب هيئة الأمم المتحدة جاء فيه : أن المرأة الشرقية ما تزال محجورا عليها ، وأن هناك فوارق وفواصل بينها وبين الرجال ؛ وأن مرد ذلك إلى الدين الاسلامي ، ووقوفه عقبة في سبيل نهوض المرأة ومساواتها بالرجل .

وإذن فمن الخير أن يكون حديثي عن مقام المرأة في ظل التشريع الاسلامي حتى يتبين ما لها من حقوق ، وما عليها من تبعات

ولست أدعى أني مستطيع من استيفاء القول في هذا الموضوع في وقفة واحدة : فإن شؤون المرأة تتطلب سلسلة من المحاضرات والأحاديث ، ولا غرو فإنها تكون نصف المجتمع ، وتوحي إلى النصف الآخر : وطالما قلت في أحاديثي : إني أخشاها ، وقد تكون خشيتي مبعثا الاحترام لها وتقدير مهمتها ، وقد يكون مبعثا إيماني بقوة بطشها إذ هي نصف متحكم في النصف الآخر : فالرجال إن حكموا أو عملوا قائما يحكمون ويعملون بوحى من وراء الستار : بل لقد ارتفع الستار وأسفر مبعث الإيحاء . وإن المرأة اليوم توجه وتتوجه ، وتثقف وتثقف ، فهي ظاهرة الوحي . غالب أمرها في كل شيء . فما قولك في نصف هو الكل ؟ !

حقا لقد مرت بالامة فترات من الظلام أصاب المرأة فيها جانب من الحيف والإخضاع ، ولكن ذلك شذوذ اجتماعي يعرض للأمم في بعض عصورها لعوامل طارئة ، ثم لا يلبث أن يزول .

إني رجل أدين بالإسلام . وفي من ثقافته قسط ، فمن الحق على أن أجهر بأن الإسلام أول من مكن للمرأة في المجتمع الإنساني . فليس بمجهول أن

المرأة حين بزغ نور الإسلام كانت في حضيض الذلة والانحطاط ، ينكر عليها حق التوريث ، ويؤبى عليها أن تشترك في أى نظام من نظم المجتمع ، فأعلن الإسلام مساواتها بالرجل ، إذ رسم لهما فروضا واحدة في العبادات والمعاملات ، وجعلها بمنزلة واحدة في الحقوق والواجبات . ترى القرآن يخاطب المرأة والرجل على إحد سواء في شئون العاجلة والآجلة ، وتراه يبين أننا نشأنا جميعا من نفس واحدة ، وأنها افترقنا جنسين لكي نواف شطرى المجتمع البشرى : وتراه يعترف بالأسرة ويعبر عن الزواج بأنه الميثاق الغليظ : وتراه يدعو إلى المساواة بقوله : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » .

وإن في حياة الرسول صلوات الله عليه لما يدلنا على أنه لا فرق بين امرأة ورجل في حق أو واجب ، فقد بايعه النساء كما بايعه الرجال ، وقد استفتوه في شؤنهم كما استفتاه الرجال . وفي عهد . عمر . كان الرجال والنساء يدعون جميعا إلى الاجتماعات العامة . وما إن شق طريق الجهاد حتى انفتح للمرأة المسلمة باب وقفت فيه موقفا إنسانيا يعطر به ذكر التاريخ ، وما إن تحاققت حلقات العلم وطلبت رواية الحديث حتى اشترك النساء بالسهم الوافر ، فرويت عنهن الأحاديث ونقل عنهن الشرع ، ولم يخف أثرهن في سياسة أو اجتماع .

أطلق الاسلام حرية المرأة ، فأباح لها التصرف فيما تملك ، ولو وازنت بين شرائع الغرب وشرعية الاسلام لتجلى لك أن الاسلام أبر بالمرأة وأكفل لحقوقها وأكثر إفساحا لحريتها من التشريع الحديث . وأذكر أنى لقيت سيدة هي زوجة مشرع فرنسى كبير ، فتحدثت إلى فيما تحدثت تزف الى أن فرنسا في طريقها إلى استصدار تشريع يبيح للمرأة المتزوجة التقاضى دون إذن الزوج . فقلت لها : أما زالت فرنسا متأخرة إلى هذا الحد ؟ فقالت : نحن أول أمة غربية سنت هذا القانون ؛ فقلت لها : يوسفى بل يسرنى أن أخبرك بأن الاسلام فرغ من ذلك منذ أربعة عشر قرنا ، فمنع المرأة هذا الحق ، واعترف لها بالرشد التام .

فما لا ريب فيه أننا نحيا في ظل تشريع كفل للمرأة ما تطمح اليه من الحقوق ؛ وإذا كانت المرأة قد لقيت في بعض العصور إعناتا وإجحافا فليس الذنب ذنب التشريع ، وإنما هو ذنب الذين حرموا المرأة حقوقها المكتسبة ؛ ولذلك يجب

علينا أن نستقي الحقوق من منابعها الأصلية الصافية . قبل أن تكدرها عهود العنت والشذوذ . وإن نصوص التشريع وحقائق التاريخ لتدلنا أصدق الدلالة على أن ينابيع الاسلام الصافية تفيض بالخير للمرأة ، وتوجد لها بحقوقها غير منقوصة .

ماذا تطالب المرأة به ؟ بالثقافة ؟ لقد فرض عليها الاسلام أن تعلم . بالميراث ؟ لقد أعطيت نصف حظ الرجل . وليس في هذا تمييز للرجال على النساء . بل إن فيه تمييزاً لمن على الرجل ، وأكاد أقول : إن فيه محاباة للمرأة ، فعلى الرجل تقع أعباء النفقات ، فإن كان ثمة غنم له في الميراث فهو غنم يقابله كبير غرم . وكيف لا وقد رفعت عن المرأة أنفصال الإنفاق على نفسها وعلى ذوى قرابتها ؟ ومن الانصاف إذا أردنا الحكم على شئ أن نحكم عليه بمجتمعه ومتصلاته بمقدماته ونتائجه . بقى للمرأة مطالبها بالحقوق السياسية . فهل حرمتها الاسلام تلك الحقوق ؟ كلا ، بل أباح لها أن تباشر مختلف الأعمال ، وتنوئ شتى المناصب . حتى منصب القضاء ، على اختلاف بين الفقهاء ، فلم من أجاز للمرأة أن تكون قاضية كالرجل سواء بسواء .

مركز تحقيق كتب التراث

إنى لا عجب لتكرار الجدل في حقوق المرأة ، وفي الموازنة بينها وبين الرجل . حتى ليجعلنا هذا الجدل معسكرين ينقسم بهما جسم الأمة الى شطرين . على حين أننا في حاجة الى التمازج والتوحد . وفي معتقدي أن المسألة ليست مسألة حقوق للمرأة تجحد أو يعترف بها ، وليست مسألة موازنة بين النساء والرجال أى الجنسين أعلى وأقدر ، وليست مسألة عجز المرأة عن الحكم كالرجل . فعلها أكفأ له . وقد جربنا حكم الرجال من عهد آدم فكانت الحال كما نرى من بلاء وشقاء . وبقي أن نجرب حكم المرأة فربما كان أحمد أثراً ، وأحسن عقباً .

المسألة فيما أعتقد توزيع الاختصاص على أساس من حسن توزيع القوى والمزايا وضروب الاستعداد . ونحن في التوجيه الثقافي نهدف إلى توزيع الطلاب بحسب استعدادهم ومزايهم دون نظر إلى رغبتهم وميلهم وحقهم الطبيعي ؛ فمن واجب الدولة أن توجه كل فرد من أفراد الأمة الوجهة التي هي أكثر صلاحية لها وأكبر غناء فيها .

وإن واجب التوزيع في سبيل مصلحة المجتمع لا يمنع أن يشترك أبناء الأمة في اختصاص عام ، ثم تكون لهم ميادينهم الخاصة في غيره . والمرأة قد حباها الله رسالة جليلة هي إنشاء الجيل وتوجيهه ، فيجب أن نعدّها لتأدية تلك الرسالة على خير الوجوه . ولكي ندرك قيمة إعدادنا لها يجب أن تتمثل أن أبنائنا إذا نشروا في بيئة جاهلة رضعوا الجهالة والخور . فلا تزداد بهم الأمة إلا ضعفا على ضعف ، والأمة لا تنفاس مكانتها بعدد أبنائها ، وإنما تقاس بما لهم من كفايات ومزايا وقوى في معترك الحياة . وما دمتنا لا نعنى بإعداد المرأة حتى تخرج لنا الجيل الصالح القوي بأخلاقه ، السليم في عقلمه وجسمه ، فانه لا رجاء في نهوض . وسنبقى نعيش ونسير بشق مائل ، تتعثر خطانا ، ونستهدف للتداعي والسقوط .

فليكن من ههنا أولا أن نهيم المرأة لرسالتها الكبرى ، ثم نأخذ ما زاد من وقتها وما فضل من جهدها للانتفاع به في الميدان العام : على أن المرأة هي في ميدانها الأول ملكة متوجة . وفي ذلك الميدان العام جندي في غمار الجنود . فلتفرغ لمملكته قبل كل شيء . وليكن عملها في الميدان الآخر نافلة تسخو بها نفسها حين تطمئن الى أنها قامت بالفروض خير قيام . فأما أن تحمل بنا الفوضى ، فنرى المرأة تزهد في رسالتها لتتمزق جهودها في ميادين مختلفة فإن ذلك يجعل شأننا كشأن جيش ذي وحدات ضربت فيه الفوضى أطنابها ، وترك الجند فيه مرا كزهم ، نخلت وحدات من أبطالها ، وغصت وحدات بغير رجالها . فكيف يتسنى لجيش محتل النظام كهذا الجيش أن يحارب أعداءنا الثلاثة من فقر وجهل ومرض ؟

نحن لا ننكر على المرأة أن تتعلم وأن تبلغ في التعلم ، ولا نأبي عليها أن تشارك في أي ضرب من ضروب العلوم والفنون والآداب : ولكتنا ننكر عليها كل الإنكار ونأبي عليها كل الإباء أن تتعرد على ما يفرضه النظام الاجتماعي وما تلزمها إياه الطبيعة الانسانية من عنايتها بإنشاء الجيل وتوجيهه والاستعداد له حتى لا ينشأ في عمية وضلال .

إن المرأة المصرية تطالب اليوم بحق الانتخاب ، وإني مؤيدها في هذا المطلب ، متعجب أشد التعجب ممن يخالفونها في الرأي ، فالغرض من الحياة النيابية هو

الإشراف والتوجيه ، وللرأة نصيبها الأكبر في التوجيه : وكذلك من أغراض الحياة النيابية التقنين ، وللرأة عتملة تمكنها من الاشتراك في سن القوانين ، وليس التقنين إلا ضوابط اجتماعية لمنع الشذوذ ، ولحشد الجهود منظمة في سبيل الخير والحق ؛ وهناك من القوانين ما هو خاص بالأسرة ، وذلك هو اختصاص المرأة الأصل ، ومن القوانين ما هو خاص بالأملاك والضرائب ، والمرأة مالكة كالرجل ، فمن حقها أن تشترك في المراقبة التي هي مناط الحكم في الدساتير . وإن من القواعد المتكررة أن من يدفع ويؤدي ، له الحق في أن يشرف ويراقب ، والمرأة لها نصيبها في الثروة والملك والميراث ، فكيف تؤدي الضرائب ولا يكون لها حق المراقبة والإشراف ؟

بيد أني أشفق على المرأة المثقفة من أن يشغلها اقتضاء هذا الحق عن أداء رسالتها الكبرى ، رسالة إنشاء جيل ديمقراطي يزن الحقوق ويمدر الواجبات ، ويحسن النهوض بالتبعات ، ويتموى على مواجهة التيارات العارمة في ركب العالم المتحضر .

مركز تحقيق وتطوير علوم راسدى

ومن المعلوم أن الدستور المصرى لم يحرم المرأة حقوقها السياسية ، ولكن قانون الانتخاب جعل الانتخاب مقصورا على الرجال : ولعل ذلك لأننا كنا حديثي عهد بالأوضاع الدستورية ، فأريد لنا أن نخطو خطوات رفيقة لا طفرة فيها ولا وثاب .

وأحسب أنه قد آن لنا أن ننتفع بالمرأة في المجالس التشريعية ، فإن التشريعات اليوم لم تعد مقصورة على فن الحكم الضيق ، إذ أصبحت الحكومة محور الشؤون الاقتصادية والاجتماعية .

فلنبع للمرأة الاشتراك فيما يدخل في اختصاصها : ولنلاحظ في تعليمها أن نعدّها لرسالتها الكبرى أولا وللرسالة العامة أخيرا .

وأذكر أننى تحدثت في وقت مضى الى كبير يابانى ، فعلمت منه أن فى اليابان جامعة للفتيات ، فسأله : أتمشون الاختلاط بين الجنسين ؟ فأجابنى : لسنا نخشى

من ذلك شيئاً ، وإنما قصدنا أن نهى للنساء ثقافة تودى بها رسالتها ، ولا نمنعها مع ذلك أن تتجه الى الميدان العام كما تريد .

ونحن في مصر حتى اليوم لم تؤسس جامعة خاصة نهى فيها المرأة لرسالتها الخاصة ، فتخرج الى الحياة مزودة بثقافة في تكوين الأسرة وتوجيه الزوج وتنشئة الطفل وهداية الشباب .

ولا نزاع في أن ميدان الخدمة الاجتماعية هو خير الميادين لجهد المرأة ، ونحن أحوج ما نكون الى تعمير هذا الميدان بالعنصر الصالح له .

فعلينا أن نعمل على الانتفاع بجهود الجنسين متضامنين متفاهمين ، بدلا من أن نضيع الوقت في جدال عقيم حول الحقوق التي استقرت وتبينت .

وحسبنا دليلا على حق المساواة وأنه طبيعي لا ريب فيه ، أن الريف المصرى يضم خمسة عشر مليوناً يعمل نصفهم من النساء عمل الرجال بجانب عملهن الخاص . وليس بعد هذا برهان على استطاعة المرأة العمل في الميدانين الخاص والعام ، ولكن الريفية لم تتقف ولم ترب ، ولذلك تعاني ضعفا في القيام بمهمتها التي تبذل فيها جهدها كله ، ولو تجردت نساؤنا المثقفات للخدمة الاجتماعية في الريف لارتفعن به الى مستوى لا يبق كريمة .

فلتعمل المرأة والرجل ، فإنه لا خير في مجتمع لا يتعاون فيه الجنسان معا على العمل . ولنعلمها حسرا لا هوادة فيها على عوامل الفقر والمرض والجهل ، حتى تنهض بالامة نهضة حققة .

بلاغه الاستعطاف

لما ظفر المأمون بابراهيم بن المهدي ومثل بين يديه ، قال ابراهيم : كل ذنب دون عفوكم ، فإن صفحت فسكركم ، وإن أخذت فبحقك .

ثم قال : يا أمير المؤمنين : إنه وإن كان جرمي يبلغ سفك دمي ، فحلم أمير المؤمنين وتفضله يبلغاني عفو ، ولى بعدهما شفعة الاقرار بالذنب ، وحرمة الأب بعد الأب . فقال المأمون : لو لم يكن في حق نسبك ما يبلغ الصفح عن زلتك ، لبلغك إليه حسن توصلك ، ولطيف متصلك .

ابراهيم هذا كان عما للمأمون ، خرج عليه وقاتله ليغتصب الخلافة منه .

ابن حزم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الله المراغي
مدير إدارة المساجد بوزارة الأوقاف

نسبه ومولده ونشأته :

هو أبو محمد بن علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف ابن معدان بن سفيان بن يزيد مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس الأموي. وأصله من بلاد فارس. وأول من عرف مسلباً من أجداده يزيد. ولم نفق في تاريخ صحيح على رفع نسبه بعد يزيد. يقول صاحب كتاب « نفح الطيب » : إن أباه أحمد يكنى بأبي عمرو ، وجده « غالب » بن يزيد . ويقول ابن خلكان : إن « غالباً » بن صالح كما قدمنا . ويرجع الاضطراب في اسم بعض أجداده إلى أن النسابين لم يعنوا بالأنساب التي تنحدر من أصول غير عربية عنايتهم بالأصول العربية . والمعروف أن أول من دخل الأندلس من أجداده جده خلف ، فأقام فيها وأعقب ، حتى ولد عليّ المشهور بابن حزم في بيت كريم من والد عظيم هو أبو عمرو أحمد الذي كان رئيساً للوزارة في عهد المنصور بن أبي عامر . وكان مولده في آخر يوم من رمضان سنة ٣٨٤ هـ — ٧ من شهر نوفمبر ٩٩٤ م في قرطبة . ولا عجب أن ينشأ ابن حزم نشأة كريمة فيها نباهة الشأن ، ورجاحة العقل ، وحرية الرأي ، وشجاعة القلب ، وجرأة المنطق ، والطموح إلى المعالي ، والمغامرات في سبيل الاحتفاظ بالمجد والتسامي فيه .

لذلك نرى أن ابن حزم قد توافرت له عوامل النبوغ والنهوض ، واجتمعت له أسباب كثيرة تفاعلت فأضفت عليه من ذبوع الصيت ورفع الذكر ما لم يجتمع لغيره في عهده ، بل ندر أن يحفظ التاريخ في غير عهد ابن حزم ما حفظه لابن حزم من مقومات العظمة ، وبواعث الإجلال التي كانت مشارع إعجاب محبيه والمعجبين به ، ومثار شأن مبغضيه وشائيه والحاقدين عليه .

تعلّمه وشيوخه ونبوغه :

لم يلبث ابن حزم حين درج ، حتى حفظ القرآن في سن مبكرة ، ثم عُني بحفظ متون العلوم وهو لا يزال يافعا ، ثم أخذ يتذوق معاني هذه المتون حتى أحاط بموضوعاتها على أكابر علماء قرطبة الذين لمحوا فيه لونا من الذكاء قل أن يُعرف بين معاصريه ، واستشرفوا فيه فطنة أكبروها : فأعربوا لوالده أن لولده مستقبلا عظيما ينتظره . ويذكر ابن حزم في كتابه : طوق الحمامة ، أن شيخه في كثير من العلوم هو العالم الكبير عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي الذي غادر الأندلس في حرب الطوائف . كما درس ابن حزم على الشيخ أحمد بن الجصور عالم الأندلس المنوف في سنة ٤٠١ هـ . ومن شيوخه الذين نشئهم يحيى بن مسعود المحدث المشهور ، وقد تلقى عليه ابن حزم الحديث رواية ودراية ؛ كما أخذ الفقه عن شيوخ قرطبة : وكان في نشأته شافعي المذهب ، ثم انتقل إلى مذهب أهل الظاهر . وأخذ المنطق عن محمد بن الحسن المذحجي القرطبي . وله شيوخ آخر كانوا يترددون على منزل والده يتناوبون ابن حزم تأديبا وتعلما ؛ ولكن ابن حزم لم يكن بالتلميذ الذي يعتمد على معلمه يرضع على أيديهم ندى العلوم ، أو يرتكن على ما يستخلصه أساتذته من عصارات الفنون ؛ بل كان عصاميا ؛ فما إن شب عن الطوق حتى أخذ يقرأ لنفسه ، ويدرس لنفسه ، ويفكر لنفسه ، معتدأ برأيه ، مستقلا بفهمه ، معتزا ببحنه ؛ ونبغ في علوم جمة ، فكان فقيها مفسرا محدثا أصوليا متكلما منطقيا طيبا أدبيا شاعرا مؤرخا ، عاملا بعلمه ، ثم زاهدا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدبير الملك في بلاط أمراء قرطبة .

ابن حزم بين عهدين :

كان ابن حزم في عهده الأول رجل العلم والحكمة والرياسة والحكم ، وكان وزيرا يكبر الوزراء ، ومستشارا يبرز المستشارين ، عالما يفوق العلماء في ذلك العهد الذي قرب إليه الكثيرين وحب إليه الكثيرين ، كما أبعد عنه الكثيرين وبغض فيه الكثيرين ؛ فكان له أصدقاء وأعداء ؛ فلما نشبت الاضطرابات السياسية في قرطبة التي أنزلت الأسرة العامرية عن عرشها ، وقد كان والد ابن حزم مستوزرا فيها ، تأثر مركز الوالد والولد بهذه النكبة الفادحة ، فعانى الاثنان من صنوف المحن

الشيء الكثير وخاصة بعد سنة ٤٠٠ هـ — سنة ١٠١٠ م : فقد عاد هشام الثاني الى العرش ، وكان لهذا أثره في نفس الوالد حتى توفي في نهاية ذي القعدة سنة ٤٠٢ هـ فأقام ابن حزم بقرطبة بعد وفاة والده الى المحرم سنة ٤٠٤ هـ فغادرها حيث لم يطب له فيها المقام ، وهو لا يطبق الضيم ولا يرضاه ، ولا يطعم الذل بل يأباه : فقد وجد أن الحروب الأهلية مزقت شمل الأكابر في قرطبة ، وأن البربر خربوا قصر أمرته البديع ، فلم يجد بدا من الرحيل ، فاختار المرية مكانا لإقامته .

ولكن هل طابت الإقامة لابن حزم في هذه البلد ؟ نعم إنه استطاع أن يعيش قليلا هادئ البال ، حتى اتفق على بن محمود مع خيران صاحب المرية على خلع الأمير سليمان الأهوى عام ٤٠٧ هـ ، وعظم نفوذ خيران ، ورأى في ابن حزم خصما يتآمر عليه لمصلحة الأمويين ، فلم ير بدا من سجنه هو وصديقه أحمد بن إسحاق للتخلص من نشاطهما ، فظلا في السجن بضعة أشهر : ولكن ابن خيران رأى في بقاءهما — ولو سجينين — شبحا مخيفا ، ففأهما حيث ذهب الرجلان الى حصن القصر ، فوجدا من حاكمه صدرا رجا ، ومكشاعده موضع التكريم والقبول ، حتى نودى بعبد الرحمن الرابع المرتضى خليفة في مدينة بلنسية . فاستأذنا حاكم حصن القصر وركبا سفينة ذهبا فيها الى هذه المدينة ؛ فلما وصلا رأى عبد الرحمن أن يستوزر ابن حزم ففعل : فلما قامت حرب غرناطة اشترك فيها ابن حزم مع جيش الخليفة ، فوقع في الأسر ، ولم يلبث في الأسر طويلا ، بل أطلق سراحه بعد مدة قليلة : فرأى أن يرجع الى قرطبة ، فعاد إليها في عهد الخليفة القاسم بن حمود سنة ٤٠٩ هـ بعد أن تركها ست سنوات .

ولما نودى بعبد الرحمن الخامس المستظهر خليفة بعد خلع ابن حمود سنة ٤١٤ هـ وكان الخليفة الجديد صديقا لابن حزم ، ولكن الحظ العاثر لازمه هذه المرة أيضا ، فلم يستمتع بالمنصب طويلا : فإن صديقه عبد الرحمن قتل في نفس العام بعد بضعة أسابيع ، وزج بابن حزم في السجن . وهكذا كان ابن حزم يخرج من شدة الى شدة ، ويأرجح سجناً الى سجن . فقد قضى في السجن فترات إن كان المؤرخون لم يحددوها بالضبط فإنها من غير شك أثرت في حالته النفسية ، وعرقلت جهودهم ، وقد ذكر بعض المؤرخين أن ابن حزم استوزره

هشام المعتمد بعد ذلك . وهنا يغفل التاريخ ما آل إليه ابن حزم . ولكن المؤكد أن ابن حزم اعتزل أمور السياسة ، وتفرغ للدرس والتأليف والدفاع عن آرائه . وهذا عهده الآخر الذي لم يهنأ فيه بالاستقرار ، كما سنبين بعد .

مرحلة من حياة ابن حزم :

أسلفنا أن ابن حزم كان شافعي المذهب : ثم جنح الى الاجتهاد سالكا طريق أهل الظاهر ، آخذاً بظاهر الكتاب والسنة ، حاملاً على أهل القياس : ولم يحجزه جلال الأئمة — كأبي حنيفة ومالك والشافعي — عن الطعن في آرائهم ، والرد عليهم بجرحا أدلتهم : وكان لسانه في نقد سواهم من العلماء أشد وأسلط حتى لا يكاد يسلم أحد من لسانه .

قال أبو العباس بن العريف : « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف الثقفي شقيقين » . فقد كانت له حرية واسعة في نقد خصومه ومخالفه في الرأي جعلته هدفاً للسهام ، وغرضاً للنبال . فلم يكن في حياته الجديدة هادي البال ، مطمئن النفس . لكثرة أعدائه وخصومه . الذين بادلوه ذماً بدم . ونقداً بنقد لم يسلم فيه من التجريح . ففهموا منه القلوب . وأبعدوا عنه الأمراء ، وحذروا منه العامة . وبغضوا فيه الطلاب : ولذلك لم يتلذذ له إلا نفر قليل من أولئك الذين لم يخشوا في مرافقته لومة لائم . وقد بلغ من أمره أن المعتضد بن عباد أحرق كتبه بإشيلية ، فقال ابن حزم :

دعوني . من إحراق رق وكاغد
فإن تحرقوا القرطاس لن تحرقوا الذي
يسير معي حيث استقرت ركائبي
ويقول في تسليه نفسه عن السجن :

ولكن لي في يوسف خير أسوة
يقول مقال الصدق والحق إنني
وليس علي من بالني اتقى ذنب
حفيظ علم ما على صادق عتب

هذه عجمالة تجلي لنا ما لقي ابن حزم في حياته من أحداث الزمن ، وغير الدهر ، ولما عودة أخرى ، إن شاء الله ؟

علم الاجتماع

بين ابن خلدون وأوجست كونت

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

المحرر بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

نشرنا في عددي جمادى الآخرة وشعبان من العام الماضي بحثاً في علم الاجتماع بين ابن خلدون ومونتسكيو، والآن نحاول أن نعقد المقارنة بين فيلسوفنا العربي وفيلسوف غربي آخر هو أوجيست كونت. ونعتذر مقدماً لحضرات القراء الكرام إن لاحظوا بعض التكرار. وسنتناول في هذا البحث الكلام عن موضوع علم الاجتماع، والأساس القائم عليه، ومنهج البحث عند كل منهما، والموضوعات الفرعية التي تكلم فيها كلاهما.

١ - موضوع علم الاجتماع والأساس القائم عليه :

رأى ابن خلدون أن هناك أخطاء شائعة لدى المؤرخين في نقل الأخبار وتصوير الحوادث : وذلك يرجع في كثير من الأحيان إلى جهل هؤلاء المؤرخين بأحوال الاجتماع البشري والاصول الخاضعة لها هذه الأحوال : فهم لم يعرفوا أن هذا الاجتماع في أحواله وظواهره يشبه كل الحوادث الطبيعية التي تخضع لقوانين ثابتة ، كما أنهم لم يعرفوا أن النظم الاجتماعية ليست لها صفة استقرار ولكنها تختلف باختلاف الأمم والأزمان والامكنة . وشعر ابن خلدون بضرورة إنشاء علم جديد مستقل ، ذي موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الانساني ، وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته ، فإذا كانت

كل حقيقة متعلقة طبيعية يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها
 وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه . . ويظهر من
 هذا أن الموضوع الذي يتناوله ابن خلدون بالبحث في هذا العلم المستقل هو
 الكشف عن القوانين التي تخضع لها تلك العوارض والأحوال التي نسميها نحن
 الآن بالظواهر الاجتماعية التي لا تسير أبداً وفق الأهواء والمصادفات ولا حسب
 ما يوجهها إليه آراء الأفراد، ولكنها تخضع أبداً لقوانين خاصة ثابتة مطردة لا تتغير
 في ثبوتها واطرادها عن قوانين حركات الشمس في شروقها وغروبها، وتغيرات
 القمر في تزايدها وتضاؤلها، وأن النظم الاجتماعية لا تستقر على حال وتختلف بعضها
 عن بعض بحسب اختلاف الأمم والأزمنة والأمكنة . . وإلى هذه الفكرة يشير
 بقوله : « فإن كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً لا بد له من طبيعة تخصه
 في ذاته ، و . . أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة
 واحدة ومنهاج مستقر ، وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال
 إلى حال ، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فسكذلك يقع في
 الآفاق والأقطار والأزمنة والدول »

أما أوجيست كونت فلا يعنى بتحديد موضوع علم الاجتماع تحديداً تاماً ،
 ولا يفرق بينه وبين ما تدرسه العلوم الأخرى ؛ لأنه يرى أنه كل ما عدا الظواهر
 الكونية والرياضية . . وهو لا ينظر إلى المجتمع باعتباره جملة أفراد مستقلين
 منفصلين ، وإنما يرى أن للجماعة روحها الخاصة التي تضغط على الأفراد فتكون هناك
 طبيعة عامة تمتاز بها الجماعة وحدها . . ولهذا الجماعة قوانين تسيطر على مقتضاها ،
 فيجب دراسة عناصر المجتمع ثم الوظائف التي تقوم بها الظواهر الاجتماعية ،
 والدعائم التي ترتكز عليها هذه الوظائف وعلاقة الوظائف بعضها ببعض ؛ ولما
 كانت الظواهر الاجتماعية خاضعة لقوانين تشبه القوانين الطبيعية في ثبوتها
 واطرادها فلا بد من البحث عن هذه القوانين والكشف عنها حتى يتسنى لنا أن
 نصلح المجتمع على أساس ذلك ، وإصلاح المجتمع كان غرض كونت المنشود ؛ فإنه
 رأى أنه لا يمكن أن يقيم إصلاحه هذا والفساد ضارب أطنابه على التفكير ،
 والفوضى العقلية سائدة ، فلا بد أولاً أن يكون التفكير علمياً ، وأن تنتقل إلى

المرحلة الوضعية في علم الاجتماع كى تنسجم كل أنواع التفكير ، وحينئذ يتكنا أن نسير في إصلاحنا ؛ فمن الواجب أن ننظر بعين واحدة لكل العلوم فلا تدرس العلوم الطبيعية دراسة وصفية تحليلية تقصد منها الكشف عن القوانين ، ثم ننظر إلى الظواهر الاجتماعية كأنها أشياء ميتافيزيقية لا سبيل إلى دراستها وتحديداتها ، فإن هذا لا يصح . بل يجب أن ندرس الظواهر الاجتماعية دراسة وصفية تحليلية هي دراسة ما هو كائن كما هو الشأن في العلوم الطبيعية ، وبذلك نتقل بعلم الاجتماع إلى المرحلة العلمية ، وبذلك أيضا يتم الانسجام في التفكير .

٢ - منهج البحث :

من المعروف أن المنهج العلمى لعلم الاجتماع هو دراسة العالم للظواهر الاجتماعية كما يدرس أشياء واقعية . دراسة يتخلل فيها العالم عن الآراء السابقة ، فيحلل الظواهر ويرف كنهها وحقيقتها وخصائصها ، ويستعين فيها بالملاحظات والتجارب ، وبالنتائج التى وصلت إليها العلوم الأخرى ، وعلى ضوء كل هذا يحاول الكشف عن الوظائف التى تؤديها هذه الظواهر وعن علاقاتها ببعضها ببعض ، ثم يستخرج القوانين العامة الخاضعة لها هذه الظواهر . ومنهج ابن خلدون منهجا علميا فهو يستقرى الحوادث التاريخية ، ويرى أنها مرتبطة ببعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول والسبب بالمسبب ، ويرى أن الأغلاط التى يرتكبها المؤرخون ناتجة عن أنهم لا يقيسون الماضى والحاضر والمستقبل بقياس واحد ، ولا يتورعون عن ذكر أشياء خارجة عن منطق الواقع ، ولا تتفق مع نوااميس العمران فى شيء . وهذا يدل على جهلهم بطبائع الأحوال فى العمران أى القوانين التى تخضع لها الظواهر الطبيعية والجهل بقوانين الظواهر الاجتماعية أيضا . فابن خلدون يقول مثلا فى صدد تحرى الحقائق التاريخية : « فليرجع الإنسان إلى أصوله وليكن مهتما على نفسه ، ويميزا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته ، فما دخل فى نطاق الإمكان قبله ، وما خرج عنه رفضه » . ويشرح هذا الامكان فيقول : ليس مرادنا الامكان العقلى المطلق فان نطاقه أوسع شيء فلا يفرض حدا بين الواقعات وإنما مرادنا الامكان بحسب المادة التى للشيء ، فاذا نظرنا إلى رجله وحسنه ومقدار عظمه وقوته أجرنا

الحكم عليه من نسبة ذلك على أحواله . . . ، مع الابتعاد في كل ذلك عن التشيع
لآراء أو مذاهب أو ميل إليها . لأن النفس ، إذا خامرها تشيع لرأى أو نخلة قبلت
ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة ، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها
عن الانتقاد والتمحيص . . . ، وابن خلدون في نقده للتورخين يحاول أن يربط
بين تطور الاجتماع الانساني وبين علله القريبة ، فهو ينظر في أحوال الجنس والهواء
ووجوه الكسب ويعرضها مع بيان تأثيرها في التكوين الجسمي والعقلي في
الانسان وفي المجتمع .

أما كونت ، فيتبع الطريقة الوضعية في بحثه عن الظواهر الاجتماعية وتطورها
وانشعابها ، ويقول إن من الواجب على عالم الاجتماع كي يستطيع ذلك أن يكون
ملما بمحصول علمي كامل يبدأ من الرياضة حتى البيولوجيا التي تبين للعالم الطريقة
المقارنة ، فلا بد للعالم أن يسير من السهل الى المركب ، فالرياضة ضرورة لكي
يعتمد الانسان التفكير الوضعي . لكن الظواهر الاجتماعية لا تحتاج الى استخدام
الأعداد والتحليل وحساب الاحتمالات . فان مثل هذا الحساب إذا طبق على الظواهر
الاجتماعية منعنا من المعرفة المضبوطة التي تمكنتنا من إخضاع الظواهر لقوانين
كسائر ظواهر العلوم المختلفة . . . وكذلك يجب أن يلم الباحث الاجتماعي بالعلوم
الفيزيائية والطبية وهي التي تكون الملاحظة بها أول وسيلة للبحث .

وعلى كل حال فأوجيست كونت يستخدم المنهج التاريخي في الاجتماع ،
فالاجتماع علم مجرد والتابع الرئيسي له هو التاريخ ، هذا التاريخ الذي غرضه البحث
عن القوانين التي تحدث التطور الاجتماعي بمقتضاها . ولا يصح أن نأخذ نظرية
جزئية لهذا الضرب من التاريخ ، بل يجب أن نعتقد أن الظواهر بأنواعها تتطور
تحت تأثير متبادل بينها . فلا يصح تفسير التطور بنوع معين من الظواهر دون
أن نعرف فكرة عامة عن التطور الكلي ، فيجب أن نتبين الحالات الخاصة من
حيث النوع والزمن ، وهذه الاتجاهات تعين مجموعة من الظواهر مددة لأن
تدرس دراسة اجتماعية . فإذا تم ذلك يمكن تعيين ازدهار ظاهرة من الظواهر طبيعية
كانت أو أخلاقية أو عقلية أو سياسية ، واتصال هذه الناحية باضمحلال الظاهرة
المضادة .

وهكذا فإن كونت أقام المنهج الوضعي ، ولكنه لم يستطع أن يطبقه على الاجتماع إلا بفرض علم معين له واقعيته وهو التاريخ الذي أمدّه بالأمثلة العملية لتطور الظواهر الاجتماعية ، ومن هذه الناحية يوجد شبه بين ابن خلدون ، ولكن ابن خلدون استعان بالتاريخ من أجل الاجتماع ، وفرض كونت الأول والأخير هو الاجتماع . والمهم أن ابن خلدون وكونت فكرا في التاريخ حين فكرا في الاجتماع . وأنهما وفتا الى ذلك باتباعهما المنهج الواقعي ، ولما كان التاريخ يعد أمثلة عملية تطبيقية للظواهر الاجتماعية فقد استعان كلاهما به .

٣ — الموضوعات التي تناولها كل منهما :

تعتبر مقدمة ابن خلدون جامعة لكل البحوث الاجتماعية التي ظهرت في العصر الحديث على يد دوركهم ، أو بعبارة أخرى التي بعثت على يد دوركهم بعد ما كادت تطوح بها أيدي البلى بعد وفاة كونت : فإذ رجعنا الى مقدمة ابن خلدون رأينا أنه يلخص مادة علمه من الناحية الموضوعية في أنها ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران والملك والكسب والعلوم والصناع ، بوجوه برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة وتدفع بها الأوهام والشكوك . ثم بعد ذلك يقسم موضوعه الى ستة أبواب تكلم في الباب الأول عن العمران البشري على الجملة وقسمه من الأرض ، وفي الباب الثاني عن العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية ، وفي الباب الثالث عن الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية ، وفي الباب الرابع عن العمران الحضري والبلدان والأمصار ، وفي الباب الخامس عن الصنائع والمماش والكسب ووجوهه ، وفي الباب السادس عن العلوم واكتسابها وتعلمها .

وهذا لا يقل عن تقسيم المدرسة الاجتماعية الحديثة التي بعثت دراسة كونت من حيث القيمة والشمول لمواضيع الاجتماع ، فالباب الأول يقابل مقدمة علم الاجتماع أو الاجتماع العام ، والباب الثاني يقابل أصول المدنية الانسانية ، والباب الثالث يقابل الاجتماع السياسي ، والرابع يقابل المورفولوجيا الاجتماعية أو دراسة التركيب الجمعي ، والباب الخامس يقابل الاجتماع الاقتصادي ، والسادس يقابل

الاجتماع القضائي واللغوي والديني والتربوي . ومن هنا يتبين أن ابن خلدون قد استوعب في مقدمته كل أنواع البحوث الاجتماعية عامة كانت أو خاصة ؛ فهو قد تكلم عن النظم الاجتماعية متبعا للمجتمع بالدرس والتحليل في جميع أطواره منذ نشأته وبدأوته الى استقراره وانتظامه في المصر والدولة ، وتردده بين القوة والضعف والقوة والكهولة والنهوض والسقوط ، واستقصى خلال ذلك أحوال هذا المجتمع وخواصه وعناصر تكوينه وتنظيمه من الفرد والجماعة الى السلطان والدولة ، وما يعرض لهذه العناصر في حياتها الخاصة والعامة من الظروف والأحوال ، وما يقتضيه سلامة هذا المجتمع ، وما يؤذن بفساده وانحلاله ؛ وتكلم أيضا عن الاجتماع العائلي والاجتماع الاقتصادي والاجتماع القضائي والاجتماع اللغوي والاجتماع الأخلاقي والاجتماع السياسي . هذا ما نجده في مقدمة ابن خلدون وهو شاهد عدل ضد هؤلاء الذين ينسبون علم الاجتماع الى كونت . فمن إذا غضضنا النظر عن دور كهيم واعتبرناه كباعث لآراء كونت ولدراسته لا أكثر ولا أقل ، استطعنا أن نعطي لابن خلدون الأولوية بفعل الزمن . هذا ومن الظلم أن نهضم حق دور كهيم في تكملة بحوث كونت ، فكونت أهم ما ينسب اليه هو تأسيسه علم الاجتماع ، ولكننا لا نجد هذه الدراسة التقسيم الواضح لمواضيع الاجتماع . فابن خلدون إذن قد فعل مثل ما فعل الباحثان الغربيان ، والسبق له بفعل الزمن .

وقد قسم كونت شعب علم الاجتماع الى شعبتين : شعبة الستاتيك سوسيال وتدرس العناصر التي يتألف منها المجتمع والوظائف والدعائم التي تقوم عليها هذه الوظائف والعلاقات بينها ، والديناميك سوسيال وتدرس التطور الانساني وتبحث عن القوانين الخاضعة لها الظواهر الاجتماعية في المجتمع الانساني في تطوره . ومن الحق أن نقول إن كونت في دراسته لهاتين الشعبتين قد تأثر بالدراسات السابقة ، ففلسفة التاريخ قد مهدت لشعبة الديناميك ، والدراسات الخاصة مهدت لشعبة الستاتيك ، ولكن يمكننا أن نقول إن ابن خلدون لم تساعد الدراسات التي قبله كثيرا ، بل يعد الخالق لهذا العلم الجليل الذي أتى به .

وقد عني كونت بشعبة الديناميك أكثر من عنايته بشعبة الستاتيك ، فاستخلص من دراسته فيها قانونه العام ، قانون الأحوال الثلاثة ، الذي ينص على أن كل فرع

من فروع المعرفة يحاز مراحل ثلاث : المرحلة الدينية ، والمرحلة الميتافيزيقية ، والمرحلة الوضعية : ورتب العلوم بمقدار أسبقيتها إلى الوصول إلى المرحلة الوضعية فرأى أن أولها هي العلوم الرياضية وآخرها هو علم الاجتماع . على أن هذا القانون ليس مطرداً في جميع الأحوال ، فهناك علوم لم تمر بالمراحل الثلاث بل انتقلت تَوّاً من المرحلة الدينية إلى المرحلة الوضعية . وهناك بعض الحقائق لم يفكر فيها إلا تفكيراً علياً ، كما أن هناك أناساً في المجتمع الواحد يفكرون تفكيراً دينياً وغيرهم يفكرون تفكيراً ميتافيزيقياً ، وآخرون يفكرون تفكيراً علياً . فقانون كونت إذن قانون فاسد . ولم ينس كل من ابن خلدون وكونت أن يتكلموا عن العوامل المؤثرة في الظواهر الاجتماعية بُصدد كلامهم عن مواضيع علم الاجتماع . وأهم العوامل التي ذكرها ابن خلدون هما العاملان الديني والجغرافي ، وقد بالغ ابن خلدون في أهمية العامل الجغرافي ونسب إليه أموراً كثيرة تتعلق بتغير الظواهر وتطورها ، وباجملة كل ما يحدث في المجتمع . أما كونت فعنده ما يقرب من أربع عوامل مؤثرة : هي الأفكار الدائنة والأخلاق والظواهر الاجتماعية والإنسان ، وهنا نلاحظ أن كونت قد قال بتدخل الإنسان في الظواهر الاجتماعية ، إلا أنه أسرع وحدد مجال هذا التدخل فقال : إن أقصى ما يحدثه الإنسان هو تقصير أمد مرحلة من مراحل قانون الأطوار الثلاثة .

خاتمة :

والآن وعلى ضوء ما ذكرنا ، ألا نستطيع أن نحدد مكان كل من ابن خلدون وأوجيست كونت بصدد علم الاجتماع ؟ إن الحق أبلج وضاح ، فلا يستطيع منصف أن يقول إن كونت هو مؤسس علم الاجتماع ، فقد سبقه ابن خلدون قبل ذلك بخمسة قرون ؛ ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن كونت هو مؤسس علم الاجتماع الذي أخذته مدرسة دوركهم وتوسعت فيه ، لأننا لم نستطع حتى الآن أن نثبت أن هناك همزة وصل بين ابن خلدون وكونت ، وأن فيلسوف الأفرنج قد اطلع على ما خلفه فيلسوف العرب ، فكما نشأ ابن خلدون في بيئة لم تقو على فهم علمه وطوحت به أعاصير السياسة في مشارق الأرض ومغاربها ، فإنه أيضاً لم يجد من الخلف من يتابعه وينمي دراسته أو على الأقل من يرددها ، بل بقي علمه

حيرة العالم

وموقف رجال الدين

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغي
مدير دار الكتب الأزهرية

تحتاج العالم منذ زمن قريب موجهة من الفلق الفكري والخلق والاقتصادى ،
تنفقم شدتها شيئاً فشيئاً ، وتنذر مظاهرها بأسوأ العواقب : ويجهد رجال الفكر
ورجال السياسة ورجال الحرب أنفسهم فى وقاية الشعوب شرور هذه العواقب ؛
وأنى قلب المرء طرفه ، وأى شعب استعرض أحواله ، ألى مشاكل يأخذ بعضها
برقاب بعض ، كلما حلت منها مشكلة برزت مشكلة أشد استعصاء على الحل من
سوابقها . فمجموع الطوائف فى أكثر الشعوب تشكو الحظ وتشد الإنصاف :
فطوائف الموظفين تشكو قلة الرواتب والمعجز عن مواجهة تكاليف المعيشة :
وطوائف العمال تشكو قلة الأجور وتنامس التقريب بينها وبين غيرها من

مطويها إلى أن قدر الله له الذبوع ، وهو فى هذا يشبه كونت الذى لم يجد من الخائف
أيضاً من يتابعه إلى أن ظهر دور كهيم ، إلا أن الفترة التى انقضت بعده كانت
أكثر بكثير من الفترة التى انقضت بعد ابن خلدون .

على أننا نرى أن العالم الشرقى وإن سبق العالم الغربى بالزمن ، فقد سبقه أيضاً
فى مقدار شمول علمه وإحاطته بكل التفاصيل ، فجهوده يوضع فى كفة ، ويوضع
فى الكفة الأخرى مجهود كونت والمدرسة الاجتماعية ، وأنه كان أجراً من كونت
فى قوله بأن الظواهر الاجتماعية تخضع لقوانين ثابتة مطردة لا تقل عن
القوانين الطبيعية ؟

الطوائف في مستوى الحياة ، وترنو بعيون البغض والضغينة إلى أصحاب رموس الأموال : وطوائف الفلاحين في بعض الشعوب ترى أنها دون غيرها قد اختلفت بالظلم وتخلفت عن ركب الزمان ، أجراً وتعليماً وصحة ومكاناً : وطوائف الطلاب يسبقون الزمان ويرون أنهم أقدر على حمل الرسالات في الأمم من الكهول والشيوخ . ويشورون على التقاليد في سائر الشئون ، منبئين إلى ذلك بقوة الشباب ، وبالإيجاء الداخلي تارة والخارجي تارة أخرى : ويطمع بعض هذه الطوائف فيما في أيدي الطوائف الأخرى مما أذن الله به عليها ، من غير وجه المشروع .

ولهذه الطوائف مطالب لا تنتهي ولا تقف عند حد ، وكثير منها يستعصى على الحل والتفيد ، ولكنها مع ذلك تصر عليه وتلتمس إلى تحقيقه وسائل لا يفضل بعضها بعضاً إلا في العراية وقوة الابتكار . فإضراب عن العمل ، وإضراب عن الطعام ، واعتصام بالآماكن ، إلى أمثال هذه الوسائل التي تلتقي جميعاً في البعد عن الإقناع ، وعن مواطن الرشاد .



كذلك يشكو أكثر الشعوب اختلال الموازين الخلقية ، ومغايرة الرذائل فيها للفضائل : فرقابة الآباء أبناءهم رجعية ، وتورد الأبناء وعنادهم حرية ، والخروج على الأساتذة والمعلمين ديمقراطية ، وتبرج النساء مدنية ، وتصونهم واحتشامهم رق وعبودية ، والتفاؤل لباقة ، والنبات على المبدأ جمود وصلابة ، والرحمة جبن ، والتسامح عجز ، والسخاء خرق ، والشح حزم ، والغش في الصناعة والتجارة مهارة ، والصدق والأمانة خيبة وخسارة ، والعمل بالتقاليد غفلة عن مقتضيات الرقي والتقدم ، والدستور الخلق الشائع إنما هو الثورة على الماضي والخضوع لسلطان الهوى والمصلحة ؛ فعلى أي وجه هو بيت فافعل ، وأنى تحققت مصلحتك فاعثم فرصتك ، لا تبالي خلقاً ، ولا تراقب أحداً .

من راقب الناس مات هماً وفاز باللذة الجسور

وعلى هذا النحو من الاضطراب في الأخلاق تشكو الشعوب الاضطراب في الأفكار ، والخيرة في غمرات المذاهب المتجددة ؛ ففي كل منها شيع وأحزاب ومذاهب وآراء ، يناقض بعضها بعضاً ، ويتهم بعضها بعضاً ، ليس من ههنا أن تصلح

الشعوب ، وإنما هما أن تظهر وتسود ، وتشكر بحرية الشباب بعلوم الفلسفة والأخلاق والعلوم النظرية عامة ، ويرون أن العلوم الجديدة بالدرس والبحث وأن توجه إليها أفكار الشباب وعزائم الأمم ، إنما هي العلوم التي تصل بها الشعوب إلى غاياتها المادية : من غلب وفتح وبطش واستعمار ، وما عدا هذه العلوم فسفطات من مخلفات الماضي شغل بها العلماء أوقات فراغهم لحسب . هكذا كان حال الشعوب إلى ما قبل الحرب الأخيرة . وظلت تسير من سيء إلى أسوأ حتى جاءت هذه الحرب فزادتها سوءا بما خلفته من آثار ازداد بها العالم شقاء وبلاء ، إذ تركت كثيرا منها فريسة للفقر والجوع والمرض ، وللبيادة الهدامة التي تبلبل الأفكار وتدعها نهبا للأوهام والآلام : وأصبحت الجماعات والشعوب تعاني من تلك الأحوال وتفقد الأمن والاستقرار ، ولكن دون جدوى ولا طائل .

فأصبحت من ليلي الغداة كتمايض على الماء خاقته فروج الأصابع

وأخذ الساسة ورجال الحرب أنفسهم بعلاج هذه الحال ، وإعادة الأمن والاطمئنان إلى قلوب الشعوب ، فأنهم التوفيق وفشلوا في هذه المهمة برغم ما بذلوا من الوقت والجهد ، وما أتوا من غرائب القوانين والمبادئ : لأن باعثهم إلى ذلك باعث ذاتي تلميه عليهم مصالح دولهم وحاجاتها . ومحال أن ينجح هؤلاء في مساعدتهم ما داموا يصدر عن هذا الباعث .

وستظل الشعوب تتقلب على جمر القلق والفوضى ، ما ظل رجال السياسة يتولون قيادتها : ولن يستقر لها قرار ولن تعم بأمن وسلام إلا إذا تخلى هؤلاء الساسة عن مكان القيادة وأسلموه إلى من هم أقدر عليها منهم ، وهم رجال الدين : فرجال الدين بالدين أقدر على قيادة الشعوب من هؤلاء ، وقد عاشت الشعوب في ظلال هذه القيادة قرونا طويلة مطمئنة رخيية البال ناعمة العيش منذ جاءت الأديان ، وهذا كانت الأديان مهيمنة على عقائد الناس وأعمالهم .

وما تحولت حالها ونزل الشقاء بها إلا منذ نادى في الشعوب نذر السوء بأن رقابة الأديان أصبحت لا تلائم هذا العصر وتحول دون تقدم الشعوب ، وظهرت نظرية فصل الدين عن الدولة ، وعمل بهذه النظرية بمض الشعوب ، وما عمل بها شعب إلا ارتكس

في حماة الفوضى، وورد موارد الشقاء، مهما توافرت له أسباب الحياة المادية من مال وعلم وجاه وسلطان؛ لأن السعادة ليست في هذه وما يتعلق بها، ولكنها الرضى النفسى والاستقرار الروحى؛ وكم من غنى قوى تجمعت له أسباب الثروة والجاه ولكنه ظل شقيا قاق النفس مضطرب الحس كالسفينة في مضطرب الأمواج. وإنما قلت إن رجال الدين بالدين أقدر على قيادة الشعوب وتحقيق سيادتها من رجال السياسة؛ لأن رجال الدين يقودونها بما جاء به الدين، والشعوب بشعورها الفطرى بالتدين وحاجاتها الفطرية إليه، أسرع استجابة لهؤلاء من أولئك. وما جاءت الأديان إلا لإسعاد الشعوب وهنأتها. جاءت الأديان بأصول العقائد والأخلاق والآداب والعبادات والمعاملات، لتطهر الأنفس، وتطهر الجماعات. وتربط الأفراد بعضهم ببعض، وتربط الجماعات بعضهم ببعض، وإن اختلفت أديانهم برباط المحبة والإخاء. لا يطمع قوى في ضعف، ولا يبنى حاكم على محكوم. ولا يفضل جنس جنسا، ولا يسود لون لونا؛ يسير الجميع في ظلال هذه التعاليم إلى غايتهم التي أرادها الله لهم، والدين مستقر السكينة، وملجأ الضمائر، به يرضى كل بما قسم له، وبه يدأب عاملا حتى يبلغ الغاية من عمله، وبه تخضع النفوس إلى أحكام السنن العامة في الكون، وبه ينظر الإنسان إلى من فوقه في العلم والفضيلة، وإلى من دونه في المسال والجاه، اتباعا لما وردت به الأوامر الإلهية.

قد يسخر من هذا القول بعض الناس، وليس غريبا أن يسخر في هذا العصر الذى دان فيه الناس بأديان من الهوى والمادة؛ أن يسخر بعض الناس بالدين ومن يتكلم بالدين؛ ولكن ما لنا وللسخرية الأغبياء الجهلاء! وهناك من رجال الفكر والسياسة ممن يعتقد بهم من يرى هذا رأى ويدعو إلى ما ندعو إليه. خطب زعيم من أشهر زعماء الغرب وأبرزهم شخصية في مناسبة من المناسبات فقال: لا بد من الرجوع إلى الكنيسة. ومن قبل ذلك دعا إلى هذا كبار رجال الأديان في العالم.

لقد أسرف العالم، وبخاصة الطبقات التى تسمى مستغنية، في سخط الله، وأتوا بأعظم الجرائم وأشنع المنكرات، فوكلهم الله إلى أنفسهم، ففرقوا في بلج من الحيرة والآلام الجسدية والنفسية، ولم يشفهم بمعام فيه غرائب العلوم ومعجائب

الاستكشافات . بل لقد زادتهم حيرة وملأت حياتهم غما وهما . وليس ينجيهم إلا أن يعودوا إلى ربهم ، وأن يسترضوه عسى أن يرضى عنهم . ولن يرضى عنهم إلا إذا غيروا ما هم عليه بما ينكره الدين ، بما يعرفه الدين ويرضى عنه الله : . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أنكرتم من زمانكم فيما غيرتم من أحوالكم » . ويقول العلامة محمد عبده : أرشدنا سبحانه في محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها ، ولا بادت ومحى اسمها من لوح الوجود ، إلا بعد نكوبها عن تلك السنة التي سنّها الله على أساس الحكمة البالغة : إن الله لا يغير ما يقوم من عزة وسلطان ورفاهة وخفض وأمن وراحة . حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر وإشراق البصيرة . والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة ، والتدبر في أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار . ثم لعدوهم عن سنة العدل وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة : وحادوا عن الاستقامة في الرأي ، والصدق في القول ، والسلامة في الصدر ، والعفة في الشهوة ، والحية على الحق ، والقيام بنصره ، والتعاون على حمايته . خذلوا العدل ولم يجمعوا همهم على إعلاء كلمته ، وآتبعوا الأهواء الباطلة وانكبوا على الشهوات الفانية ، وأتوا عظام المنكرات . خارت عزائمهم فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة ، واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصره الحق ، فأخذهم الله بذنوبهم . وجعلهم عبرة للمعتبرين .

من شعر الخلفاء الراشدين

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوم فتح مكة :

ألم تر أن الله أظهر دينه	على كل دين قبل ذلك حائد
وأسلبه من أهل مكة بعدما	تداعوا إلى غي من الأمر فاسد
غداة أجال الخيل في عرصات	مسومة بين الزبير وخالد
فأمسى رسول الله قد عز نصره	وأمسى عداه من قتيل وشارد

حول آى الكتاب والسنة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى
المدرس بمعهد القاهرة الثانوى

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام » .

قل أن تلقى من أهل زمانك من خلا من الملق والرياء .

يلقاك يحلف أنه بك واثق وإذا توارى عنك فهو العقرب

أولئك هم الضعفاء الضعفاء الذين لا يجدون من قوة الشخصية ما يخول لهم أن يواجهوا بالحقائق ، ولا يأنسون من أنفسهم إيماناً ببارئ المسموكات أن يأرزوا^(١) إلى كمفه ويلجئوا إلى كمفه . وهؤلاء هم الذين يصفهم الذكر الحكيم معيراً ومننداً : وإذا جاموكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ، إن الله بما يعملون محيط . . . ويقضى فيهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله بأنهم شرار الناس فيقول : « تجدون شر الناس ذا الوجهين الذى يلقى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » . ترى كثيراً منهم قد منحه الله ثقافة فى الفكر ووهب له ذلاقة فى المنطق ، من الذين قال فيهم سيدنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « إن أبغضكم إلى وأبعدكم منى بحالس يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .

وما أشد خطورة هذا النوع من الناس على المجتمع . إن أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم ، ! قالوا : يا رسول الله ، كيف يكون منافقاً عليم ؟

قال : « عليم اللسان جاهل القلب والعمل ، . ولقد صدق صلوات الله وسلامه عليه : فإن هؤلاء هم الذين اتتمنوا نخانوا ، واطمأن الناس إليهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم فكانوا الذئاب العاتية . على أن أمثالهم جديرون أن يظهروا للناس على كنههم ، وأن تتجلى حقيقتهم على وجهها ، وإنها « إن تلك مثقال حبة من خردل فتسكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله » .

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا ، فإن على قلوبهم ما كانوا يكسبون .
وأخطأهم التوفيق فيما يأتون وما يدعون . فتنة في الأرض وفساد كبير : أن تظهر في حال يعلم الله خلافها منك ، وأن تكون ذا وجهين فيمن عرفته .

هي والله قلوب خاوية ضعفا وهلعا ، خالية من كل إيمان وحكمة ، هاروية في الدرك الأسفل من الرذيلة : قلوب أولئك الذين لا يستطيعون أن يواجهوا بحقيقة لدى جمول أنوك ، لم يذق حلاوة الحق ، ولم يبال ألا يكون على صراط مستقيم .
رحمك الله يا ابن الخطاب ! لقد صممت قواعد الرجولة في جماعة محمد حتى فغرت الأفواه بكلمة الحق تسمعها من المرأة المسكينة راضيا مغتبطا ، بل متهللا مستبشرا : تقول لك في محفل العلية من أمة محمد : إن الله يقول غير ما تقول يا عمر ، وتجيها بقولك : الحمد لله الذي جعل في الرعية من يرد عمر إلى صوابه . وتدوى بها صارخة لترجم بها الشيطان وتذكذك صرح العنصرية الجاهلية : أيها الناس ! أخطأ عمرو وأصاب امرأة . رحم الله امرأ أهدى إلى عيوب نفسي . وتدب إلى مهبط السرائر في نفوس المسلمين ، لينزل كل جبار عن جبروته أمام الحق ، وما كنت إلا نصيره وأسيره . ولينكر كل إذى أثره مهما ارتفع ذاته وأثرته . ليس عمر بأكبر من أن ينصح ولا بأصغر من أن ينصح . تلك هي النفس التي لفحت بحكمة الاسلام . وهذبت بريضة القرآن ، لا هم لها إلا أن تقيل الانسانية من عثارها وتصلها بملكوت السماء . وهذه هي خلافة الله في الأرض ، ترفع العدل وتخفض القسط .

يأبى قومى يعلمون أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، فيقيثوا إلى رشدهم ، ويلتمسوا العزة والسؤدد في سيرة سلفهم . ولا ينسوا تلك المجادة القعساء . فأما الرئيس « الراعى » فينشد الخير العام متجافيا عن الغرور والغطرسة ، يسمع النقد ويقبل النصيح ، وينكر الغش ، ويرفض المدح ، إلا ما أعان على خير ، أو وجه إلى رشد ، ما يزيده شئ من ذلك إلا ارتفاع شأن . ولا يرى المنصب منه إلا كل قوة وسلطان : ولعمرك الله ما أفلح قوم ضاع الحق بينهم ، وآثروا من ليس عند القسطاس بأثير . وأما المرموس فيذكر دائما أنه عون أمين لراعيه ، فهو مشغول عن كل ما يشاركه فيه ، وأنه إذا رآه في ظلم فواجبه تقويمه ، وأنه إلى إرشاده أحوج منه إلى مدحه وإطرائه . فالذكرى تنفع المؤمنين . . . إذا رأت أمتي الظالم فلم تأخذ على يده أو شك أن يعم الله الكل بعذابه . . . واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب . .

ألا قبح الله أولئك الذين يمالئون على الضلال . ويزكون أفعال الجهاك ، لأن لهم سطوة وقوة ، وفيهم نزوة ونبوة ، كأنما تتغلى عنهم رحمة الله إذا سخطوا ، وتصيهم قارعة أو تحل قريبا من عازهم إذا ما تسكروا . . إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسم ينصرون . .

ألا قبح الله أولئك المادحين القادحين ، الذين « اتخذوا أيمانهم فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون . . . وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مستندة يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون . إن الله سبحانه يوجهنا وجهة القوة ويدعونا بدعاية الكرامة . من كان يريد العزة فلله العزة جميعا . .

يريد الله سبحانه ليدعم فينا الثبات في الأمر . والعزيمة على الرشد . والتفاني في نشدان الحق حيثما كان وعند من كان : . كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شأن قوم على ألا تعدلوا ، استوى في ذلك الصغير والكبير ، والأمر والمأمور ، لا تفرقة أمام محكمة البصائر الثاقبة . ورحم الله أمير الشعراء إذ يقول فيما يصف به حكومة الاسلام وصاحبها صلى الله عليه وسلم :

ورسمت بعدك للعباد حكومة
لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الكل فيها وحده
والكل تحت لوائه أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة
والأمر شورى والحقوق قضاء

فما بال هذا الذي يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويلبس للناس مسوح الرهبان ،
أبعد ما يكون من قداسة الأديان ؟ يا قومنا إن للدنيا سييلاً وللآخرة سييلاً . وإن
من سوء التقدير أن تخطئوا . إن مارسه ربك لتعامل به معه فلا يحمل بك أن
تجعله سلعة رخيصة بين عباده . إن الله أغنى الأغنياء عن الشرك ، وإنه غيور ، ولا
أحد أغير منه . . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة
ربه أحداً . .

تالله ما رثيت لشيء رثائي لأولئك الدُّسَر الذين يتقلبون في المجالس
يخوضون في الباطل ويترددون على شتى المحافل يحملون ألقاظاً قد حبروها
ليشتروا بها عطف الرؤساء فيظفروا بهم ، ويعدو بهم طورهم بخساً لأصحاب
الحقوق ، وإضاعة لذوى الكفايات من العاملين . لقد خسر البائع وخسر المشتري !
« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . .
الاخلاص لوجه الله ولواجب المجتمع هو الطريق الوسطى والجادة التي يتفاوت
الناس في سلوكها . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً
يرده . . ولكنه طريق وعرة ، ومركب صعب لا يمتطيهِ إلا من وهب له الله سبحانه
قوة النفس ، وصحة الطبع ، وإيثار الجسد ، وهيئات ذلك إلا أن يوفق الله من شاء
من عباده .

تالله إن أمة لن تبلغ الذروة وتنب إلى القمة حتى يكون مقياس الدرجات
والمنازل فيها الكفايات والأعمال التي تنفع المجتمع ، وترفع من شأن الوطن .
أما أن يكون الميزان أن تتعرف إلى كبير فيختصك ويصطفيك ، أو تلتمس شفيعاً
فتذل له نفسك وتريق على بابه كرامتك ، فما شيء أشد فتكاً بكيان الأمم ولا أعمل
في تقويض أركانها منه ، فانه مقبرة الكفايات ، ومزرعة الهمم والمنافسات . لقد مسخ
التفكير ، وشاهت الحقائق ، وعميت الأبصار والبصائر ، وعند الله المخرج والمنجى .

يأبىها الناس إن خزائن الله لا تنفذ ، وأبوابه لا تغلق ، وإنه لن يصيب نفساً إلا ما كتب الله لها في رزقها وأجلها : فاتقوا الله وأجملوا في الطلب . نافسوا في المكارم لا في عرض الدنيا الحقير ، خذوا أنفسكم بكرامة الإسلام ، وبعزة الإيمان ، من حارب الله في عباده يبغي أو استهانة حربه الله ، إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فليسمعهم منكم بسطة الوجه ، وحسن الخلق ، وإيصال الحق إلى صاحبه . ارحموا الإنسانية المهضمة يسلم دولاب العمل لخدمة الجماعة ولخدمة الفرد .

وأنت يا صاحب الحاجات المعذب ، ويا من تفتى نفسك في مطالب الحياة : أرح نفسك ولذ بركن الله الركين ، واعمر قلبك بالإيمان والرضا ، دع كل أمر في وضعه الطبيعي ، فلا تسرف في المزاحمة على عرض الدنيا ، ولا تستهدف فيها الخصومات لا قبل لك بها . واعلم أن من ضاق عليه الحق فالباطل عليه أضيق ، واذكر أنه « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » ، ونفسك أكرمها فانك إن تهين نفسك عليك فلن تاني لها الدهر مكرماً

إن الثروة الحق في الخلق الكريم والقلب السليم ، والنفس الرضية المطمئنة ، والخلو من التطاحن المزرى ، والتشاحن المقيت الذى يظهر الإنسان في مظهر الخنزير حرصاً واستماته .

إن القلب السليم هو ذلك القلب الخير ، بفسح الطريق لسالكيها ، ومعاونة الإنسانية في كل ما يلابسها : هو ذلك الذى يسير بالقسطاس المستقيم ، ولا يرسف في قيود من تعصب أو محاباة . من يسير الرفق حيث يسير ، وينشر الأمن والبشر والبر والخصب ألويته حيث ينزل ، ذلك المعتر بالله المتوكل عليه ، الذى يرى أن الخير كله في يديه ، فلا يقول إلا حقاً ، ولا ينطق إلا صدقاً . ولا يصدر إلا عن رجولة أى رجولة .

أيها المادح العباد لتعطى إن الله ما بأيدي العباد
لا تقل في الجبان ما ليس فيه وتسم البخيل باسم الجواد

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْوَى

نقل المسجد

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

مسجد جمعية إحياء المساجد بشبرا اشرينا أرضه بمال مأخوذ من
الاكتابات ، ونوينا في الشراء أن تكون الأرض مسجدا ، وكانت الأبنية مقامة
عليها قبل الشراء ، والشعائر قائمة ، لأنها كانت مستأجرة من صاحبها بهذا القصد .
وقد اعترض بعض المؤسسين على موقع المسجد لأنه في شارع ضيق جدا ، ولأن
مساحته ضيقة ، وأبدى رغبته في إقامة المسجد في مكان يكون قريبا من الشارع
المتسع . وأما قد رأيت فتوى من لجنة الفتوى مأخوذة من كلام ابن تيمية مفادها
أنه يجوز نقل المسجد على أن يجعل المكان الأول من صالح المسجد . فيستأجر
مثلا لتكون غلته للمسجد . وهذه الفتوى لا تنفعنا إلا قليلا لأننا نريد أن نبيع
الأرض والبناء وتصبح ملكا حرا لمن يشتريها ، ونشتري بثمنها مع ما نجمعه من
الاكتابات أرضا بالمكان القريب المتسع ، ونبنى عليها مسجدا متسعا . فهل هناك
رأي يجاوز ذلك ؟ نرجو الإفادة .
على حسن البوالات

الجواب :

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى
آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان يوم الدين .
أما بعد . فتفيد اللجنة بأنه إذا كانت إقامة المسجد على القطعة المراد شرائها
خيرا وأصلح من المكان المراد بيعه ، جاز بيع هذا المكان وشراء ما يراد شرائه
بثمنه مع ما ينبرع به ليكون مسجدا بدله . وذلك بواسطة المحكمة الشرعية المختصة
إذا كان المكان الأول قد جعل مسجدا بالفعل . وهذا على ما ذهب إليه الإمام
أحمد بن حنبل ، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية . وهو ما تختاره اللجنة للفتوى .
والله أعلم .
رئيس لجنة الفتوى

عبد المجيد سليم

نواحي الاعجاز

في أخلاق الرسول

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد شاهين

تخصص الوعظ والإرشاد

روى القاضي عياض في السقاء نقلاً عن الطبري عن علي كرم الله وجهه ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله برسالته : قلت ليلة لفلان كان يرعى معي : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب ، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم ، فجلست أنظر ، فضرب على أذني فممت ، فما أيقظني إلا مس الشمس ، فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك ، ثم لم أهتم بعد ذلك بسوء ، اهـ .

بما وعاه صحيح التاريخ من أمر الرسول وسيرته قبل مبعثه ، أنه عليه السلام كان في تلك المرحلة من حياته يمتاز على أقرانه وأهل بيئته عموماً ، بسلوكه الخاص ، وأخلاقه التي كان بها نسيج وحده . فقد اشتهر عند العرب بالحلم ، والرفق ، والتواضع ، والإخلاص إلى الرزاة والصمت : كما اشتهر بانقباضه التام عن كل ما زخرت به بيئته وانهمك فيه أقرانه من المنازعات ، واللجاجة في الخصومة ، والزهو ، والخيلاء ، والمفاخرة في المحافل بآثر العشيرة ومناقبها وأيامها ، والمكاثرة بما أحرزت من حطام الدنيا ومتاعها ، والمغامرة في تحصيل الغنائم والمتع بشن الغارات وإثارة المعارك ، واللهو بالصيد والقتص ، ولعب الميسر ، ومعاقرة الخمر ، والتشبيب بالنساء . وأثر عنه نفوره الشديد من عوائد قومه وعاداتهم وعمائدكم ، كزجر الطير ، والاستقسام بالأزلام ، والرجوع إلى الكهنة والعرافين عند المشاكل : واشتد متمته للأوثان حتى لم يطعم من قرابينها ، ولم يحضر

أعيادها . وقيل إن رجلا استخلفه مرة بالأوثان فغضب وقال : إنه لا يجد أبغض إلى نفسه من هاتيك الحجارة ! فأن كان ولا بد فإنه يخلف بالله .

ولما زادت وحشته من تهاليد قومه وأساليبهم في الحياة ، داخلته حيرة وضيق ، وأخيرا لاذ بالعزلة في غار حراء ، يتأمل ويفكر ، فأنس بذلك وإطمان قلبه . قال ابن القيم في زاد المعاد : « ثم حبيب إليه الخلو والتعبد لربه ، وكان يخلو بغار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، وبُغضت إليه الأوثان ودين قومه ، فلم يكن شيء أبغض إليه من ذلك » .

وروى البخاري عن عائشة رضوان الله عليها : « أول ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم : فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبيب إليه الخلاء . فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، حتى جاءه الحق » . وحدثنا صحيح التاريخ أن سلوك الرسول وأخلاقه الفريدة قد استلقت إليه أنظار العرب عامة ، وأهل الرأي منهم خاصة ، فأكبروه وأحبوه ، ولقبوه بالأمين ، واختصوه بمعاملة استثنائية ، فأشركوه مع مشيختهم في مهام الأمور برغم سنه الباكرة ، وتحاكموا إليه فسأج في عهد حلف الفضول لحفظ النظام وتأمين الحجاج .

ولما تنازعت القبائل عند تجديد بناء الكعبة بشأن إعادة الحجر إلى موضعه وكادوا يمتشقون السيوف ، تحاكموا إلى الرسول ، فبسط رداءه ، ووضع عليه الحجر ، ثم أمر كل قبيلة أن تأخذ بطرف ، فرفعوا الحجر ووضعوه الرسول موضعه . وهكذا كانت نباهة شأنه عند قومه بأخلاقه الباهرة ، حتى لقد توسموا فيها برادر شأنه المرتقب . ومستقبله العظيم : فطالما كان عمه أبو طالب يردد هذه الكلمة في زهو وثقه : « ليكون لابني هذا شأن » ، على أنه إذا لم يكن يعلم على وجه التحديد ما هو هذا الشأن المرتقب لابن أخيه لأن بشارت المكتب السماوية بنبوته لم تكن ظاهرة للقرشيين ظهورها لأهل الكتاب ، ولأن البشائر والحوادث التي اقترنت بميلاده لم يظهر مغراها جميعا إلا بعد البعثة . فإن أبا طالب قد عاين في فتاه محمد طرازا فريدا من الشخصية لا عهد له بمثله عند أمثاله من شبيبة الجليل ،

فتوقع له شأنا ومجدا في مستقبل حياته . ولقد صدق فراسة أبي طالب الراهب بحيرا عندما التقى به محمد وعمه في طريقهما إلى الشام بالتجارة .

وعلى الجملة فإن أخلاق الرسول كانت في نظر المعاصرين له من أشراط مجده وإرهاص نبوته قبل بعثته ، كما كانت بعدها من معجزاته الباهرة التي ألفت حوله القلوب . وآمن بسببها بعض من آمن به ، وأشار بها خصومه الالدام .

عن حابر بن عبد الله رضى الله عنه : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم معلق بالشجرة فاخترطه فقال : تخافني ؟ قال : لا ، قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : الله » .

وفي الشفاء للقاضي عياض . وفي صحيح أبي بكر الأسمايلي : فقال : ومن يمنعك مني ؟ قال : الله . فسقط السيف من يده . فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف فقال : من يمنعك مني ؟ فقال : من خير آخذ . فقال : تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ؟ فقال : لا ، ولكن أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك . فخلى سبيله . فأتى أصحابه فقال : يا أيها الناس ! وفى رواية القاضي أن الأعرابي هو غورث بن الحارث .

وقال فى الشفاء : « وجاءه زيد بن سعة قبل إسلامه يتقاضاه ديناً عليه فحبذ ثوبه عن منكبه وأخذ بمجامع ثيابه وأغلاظ له . ثم قال : إنكم يا بني عبد المطلب مظل ، فأنهره عمر ، وشدد له فى القول ، والنبي صلى الله عليه وسلم يتبسم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أخرج يا عمر : تأمرنى بحسن القضاء . وتأمره بحسن التقاضى » . ثم قال : لقد بقى من أجله ثلاث ، وأمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعاً لما رآه ، فكان سبب إسلامه . وذلك أنه كان يقول : ما بقى من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفت فى محمد إلا اثنتين لم أخبرهما : يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلماً ، وكذلك كانت عظمة الرسول الخلفية شاهد صدق بعظمته وصحة دعوته عند المعاصرين له قبل البعثة وبعدها . وبها أشاد العدو والصديق ، وألهمت الشعراء فتجاوبوا بها فى الآفاق وتغنوا بها فى المحافل .

العصر العظيم

تعريب الأستاذ عمر طلعت زهران

— ٢ —

وعلينا ، لكي نفهم هذه النعالم أن نرجع إلى مصادرنا ، وهنا نجد صعوبات جمة . وقد يكون سبب هذه الصعوبات ندرة هذه المصادر كما هو الحال مع فيثاغوراس ، فلم يبق من كتاباته سطر واحد . هذا إذا تسكلمنا عن كتاباته التي يختلف الباحثون فيها ، فيما إذا كان قد كُتب شيء على الإطلاق . وقد فقدت كتابات تلاميذه ، أيضا ، وأول المصادر المكتوبة عنه كانت مراجع لمؤلفين آخرين لا ينتمون إلى الفيثاغورية ، يبتدون بالمؤرخين مثل : هيرودوت وديودورس ، وفلاسفة مثل : أفلاطون وأرسطو ، . أما أدق الأخبار عنهم فيمكن أن توجد فقط في مؤلفات الكتاب الأفلوطينيين ، يامبيخوس وبورفيروس ، أو في مؤلفات ، ديوجين ، . وعلينا أن نتذكر أن هذه الكتابات قد وضعت بعد موت فيثاغوراس بنحو سبعة أو ثمانية قرون ، ويجب أن نكون على أشد الحذر حين نأخذ من هذه المصادر المشككة غير المعتمد عليها .

أما الصعوبات التي تعترض مصادر البوذية فهي صعوبات جمة مختلفة إذ هي على عكس الصعوبات الأولى . فإن على الباحث أن يناضل لا ضد

وفي العصر العباسي عني بدرس أخلاق الرسول بعض العلماء المحققين ، فكشفوا بمنطق البحث الدقيق ناحية رائعة من الإعجاز في خلق الرسول على نحو ارتضاه علما من أعلام النهضة العباسية ، هما الجاحظ من المعتزلة ، والغزالي من الأشعرية ، كما سيتضح لك بعد .

والآن ما عسى أن يكون موقف الباحث الحر في العصر الحديث حين يعرض بالبحث والتحليل للجانب الخلق من السيرة النبوية في ضوء العلم المجرد والمنطق المحايد ؛ ترى هل يرى رأى أولئك الأوائل في اعتبار أخلاق الرسول من معجزاته الواضحة ، أم له رأى آخر ؟ سوف نرى .

ندرة المصادر ، بل ضد كثرتها وتعددتها . فانه يوجد على العموم ثلاثة أو أربعة أنواع من الكتابات البوذية : الكتابة البالية ، والسسكريتية ، والصينية ، والكتابة اللامية بالتبت . وأقصر هذه الكتابات وأهمها هي الكتابة البالية عن البوذية الجنوبية ، وهي مع قصرها تبلغ ثلاثة أضعاف حجم الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد . أما السسكريتية فأكثر طولاً . وتشمل الكتابات اللامية بالتبت ١٠٨٣ كتاباً تقع في ١٠٨ مجلداً . ولكنها جميعاً تتضاءل أمام الكتابات الصينية التي تتكون من ١٦٦٢ كتاباً تقع في ٦٧٠٠ مجلد . فمن منا لا يستطيع ألا يضل في متاهات هذه النصوص ، كل واحد منها على حدة ، بله كلها مجتمعة .

أما صعوبات النصوص الزردشتية فانها ذات طبيعة مختلفة عن ذلك : فان هذه النصوص توجد في الزند أفستا ، وهو كتاب الزردشتيين المقدس . وقد بنيت آمال كبيرة على نشر هذا الكتاب ، ولكن ما إن نشرها العالم الفرنسى انكيتيل دوبيرتون ^(١) حتى خابت الآمال . فبدلاً من وعظ موحى به ، وصورة فذة للصراع بين الخير والشر في العالم ، وجد أن الزند أفستا إنما تحتوى على أناشيد وأدعية لا معنى لها ، خالية من الحياة على صورة السحر . ووجدت الخيبة صداها في كلمات المستشرق الانجليزى الكبير سير وليام جونز ، إما أن يكون زردشت لم يكتب هذا الكتاب أبداً ، وإما أن يكون مجرداً من العقل ، وفي كلتا الحالتين لا يستحق هذا الكتاب أن ينشر . وكان سير وليام مغالياً في نقده إذ تمكن الباحثون بعد مجهود كبير من اكتشاف بعض آثار العظمة الروحية السابقة . ولكن هذه الآثار كان يغطيها طبقة كثيفة من الزيادات والتحريفات ، تجمعت على مر العصور ، فجعلت معرفة النص الصحيح مستحيلاً . وعلى الرغم من أى شئ فإن الأثر الذى تركه هؤلاء الحكماء على عقول البشر كان عميقاً حتى إن أشباحهم لتبدو منيرة متميزة خلال ظلام العصور الماضية ، ومن خلال التحريف والتشويه الذى أصاب كتاباتهم .

ويطلق على كنفشيوس دائماً أنه مؤسس الدين الوطنى للدولة الصينية ،

(1) Anquetil Duperron, Zend Avesta, Ouvrage de Zoroastre. Paris 1771.

ولسكن كلمة دين . هذا يجب أن تقابل بمرض التعفظ ، وعلى أية حال ، فهي لا تعنى أى نوع من العبادة أو إقامة الشعائر لمعبود ما ، فإن معنى . الإله ، كان بعيدا عن الكنفشيوسية . وكل ما نجده هو كلمة . السماء ، تستعمل بمعنى غامض ، وحتى في هذا الصدد يقف كنفشيوس ثابتاً ويقول : . لا تتكلم السماء ، وإنما تتمثل إرادتها في أعمال الناس ، وهذا كل شيء . . أما إذا سئل عن كيفية عبادة الأرواح الخالدة . فإنه يجيب . إنا لا نعرف كيف نخدم الناس ، فكيف نستطيع أن نعبد الأرواح ؟ . وبفس هذا الأسلوب كان يجيب عن الأسئلة الميتافيزيقية ، أما عن السؤال : ما هو الموت ؟ فإنه يجيب . إنا لا نعرف ما هي الحياة ، فكيف لنا أن ما هو الموت . .

وبحاجب هذه الواقعية الصرفة التي نراها في آرائه وحاجته . الى الاهتمام بكل أنواع الميتافيزيقا ، فإن منهجه في البحث كان منهجاً عقلياً : التفكير ، فالدراسة ، فالبحث . فلا يوجد به شيء موحى به من أعلى ، ولا شيء يفوق الطبيعة أو يفوق العقل .

وكان مدار البحث في دراساته هو الإنسان نفسه ، وأحيانا الفرد ، يقول الجميع : الامبراطورية . المملكة ، العائلة ، أساس الامبراطورية هو المملكة ، وأساس المملكة هي العائلة ، وأساس العائلة هو الفرد ، ولكن هذه الآراء الفردية نادرة ، فإن كنفشيوس كان جماعياً ، وكان عمله الأساسي هو : وضع علاقات الجماعات ، في العائلة والدولة وفي البشرية . ولنا أن نسأل : في أى اتجاه كان يبحث عن حل المشكلة ؟ ونستطيع أن نجيب دون تردد : في العائلة . فإن العائلة كانت نقطة الابتداء لكل فلسفته الاجتماعية والسياسية ، ويروى لنا مؤرخو حياته أن العظمة والجلال اللذين اكتسفا حفل جناز أمه أدهشا مواطنيه وجعلاه ذائع الصيت ، وأمضى بعد الجناز ثلاثة أيام بحاجب المدفن مخصصاً كل الوقت للتأمل والأعمال الفلسفية ، ومن هنا أነعت نظريته . وينبع من تمجيد العائلة ميله للدراسات التاريخية ، بل وهنا نجد منبع تمسكه . بالتقاليد ، أيضاً ، إن لم نقل ، المحافظة ، أو الرجعية ، لوصف مثله الأعلى للتحكم الأبوي في العلاقات العائلية وعلاقات الدولة . ومن الطبيعي أن يكون هذا الشعور نفسه هو منبع العناصر التقدمية - إن لم نقل الثورية - في آرائه وتعاليمه . ويجب أن تشمل عناصر العلاقات العائلية علاقات المجتمعات

الكبرى كالدولة والامبراطورية ، بل والانسانية جمعاء . وحين قال أحد أتباعه بأكيا : إنه لا إخوة له ، أجابه كنفشيوس : علينا أن ننظر للناس في العالم كله كأنهم إخوة ، وحيث أن يبكي إنسان لانعدام إخوته . . وأجاب عن سؤال : ما هي الانسانية ؟ بقوله : الحب ، وهو جواب يبدو كأنما هو أمر مسيحي . ولكنه ليس على حذر حتى لا نتخذنا ظواهر الكلمات ، فان نشوة الحب العجيب في خطبة الجبل^(١) كانت بعيدة عن عقل كنفشيوس الحذر الرزين ، المرتبط بأمور الأرض أشد الارتباط . وسئل : هل يجازي الانسان الشر بالخير ؟ فأجاب : « وكيف يجازي إذن عمل الخير ؟ » أما نظريته في السلوك نحو الآخرين ، فقد بينها في القانون الذهبي : « ما لا تحب أن يعاملك به الناس ، لا تعامل به غيرك » . وهي القاعدة الذائعة التي سبق بها كنفشيوس^(٢) كانت ، بخمسة وعشرين قرنا .

وإذا ألح أي إنسان ، على الرغم من أي شيء ، في أن يبحث عما يشير العواطف في مؤسس أي دين ، فانه في حال كنفشيوس يوجد الشعور بالوقار ، والحذر ، والشعور بالتقاليد الدينية من الناحيتين العقلية والعملية ، ومهما كان الأمر ، فانه شعور حقيقي أكد كنفشيوس^(٣) ، ففقد وضع برنامج الإصلاح الاجتماعي والسياسي لتحقيق السعادة للعالم أجمع : « لو قلدني حاكم مقاليد الحكم اثني عشر شهرا لحققت شيئا عظيما ، وفي مدى ثلاث سنوات احقق أغراضى بأجمعها » . وقد اضطر الى ترك إقليسه « لو » ، وجاب الأرض بقية حياته من ولاية إلى أخرى ، يبحث عن الحاكم الذي يقلده مقاليد الحكم . وكان يقابل في أحسن الأحوال باحترام واستقبال غير حار دون وعود ، وأحيانا بجفاء ، بل وبالسجن . ولكنه لم يجد الحاكم الذي يبحث عنه . ولما شعر بدنو أجله قال : « لم يوجد حاكم ذكي يقلدني مقاليد الحكم ، لقد انتهى زمني ! » وهذه آخر كلمات تروى عنه . لقد كان أول وأعظم « عقلي » . هو في نفس الوقت أول ولعله أعظم « دون كيشوت »^(٤) بأحسن معاني هذه الكلمة .

(١) السيد المسيح .

(٢) بطل القصة التي كتبها بهذا الاسم الكاتب الإسباني المعروف سرفنتيز في القرن

السادس عشر للميلاد . ويعتبر هذا من « إنسان خيالي » أو « حلم متعمس » (للمرب) .

تشابه النظم في القرآن الكريم

لعضيلة الأستاذ عبد الغني عوض الراجحي

في مقالين سابقين كشفت عن أسرار هذه الظاهرة وعن مواقعها في القرآن الكريم .

ولما كانت هذه المواقع يصح أن تسمى « متشابه القرآن » ، وكان للفظ المتشابه إطلاقاً متعددة متشابهة . فإني أحب الآن وفي هذا المقال أن أبين هذه الاطلاقات مع إيضاح الفروق بينها فأقول :

صيغتنا التفاعل والافتعال تأتيان من مادة واحدة لفائدة معنى واحد هو التشارك في معنى المسادة . تقول من القتل : اقتتلوا وتقاتلوا ، ومن الخصام : اختصموا وتخاصموا . ومن الشركة : اشتركوا وتشاركوا : ولا يخرج الأمر عن ذلك في قولك : تشابهوا واشتبهوا : فالتشابه والاشتباه ذوا أصل واحد ويفيدان معنى واحداً هو المشاركة بين الأشياء في الأوصاف والكيفيات (١) . وعليه قوله تعالى : « تشابهت قلوبهم » وقوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً

(١) من ذلك « ملاك التأويل القاطع لذوى الاتحاد والتعطيل » في توجيه التشابه اللفظي من آي التنزيل « لابن جعفر بن الزبير القرني » و« البرهان في متشابه القرآن » لـ « كرماني » و« كشف المعاني في متشابه المثاني » لبدر الدين بن جماعة ثلاثها رسائل صغيرة مخطوطة ، ثم كتاب « درة التنزيل وغرة التأويل » للخطيب الأسكافي « في متشابه التنزيل » وقول السيوطي في كتابه الاتقان « النوع الثالث والثون في الآيات للشبهات » .

(٢) لا يكر على ذلك كون المادة لا بخصوص هذه الصيغة مفيدة لهذا المعنى كقولهم : أشبه الولد أباه . وقولهم :

أصبح ذبه شبه من أمة . من عظم الرأس ومن خرطمه

مثنى ، وقوله تعالى ، والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، وفي آية أخرى ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، فالاشتباه والتشابه في كل ذلك بمعنى التماثل في الأوصاف والكيفيات ، ولو لم يكن الأمر على ذلك لفسد المعنى وبطل أمر التقابل في قوله تعالى : ، مشتبها وغير متشابه ، .

ولما كانت المماثلة في المميزات من شأنها أن تؤدي إلى الالتباس والخفاء وعجز الذهن عن التمييز بين المتماثلات ، وكلاهما عن التحديق فيها كما قال القائل :

رق الزجاج وراقت الخمر فتشابهها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

لما كان الأمر كذلك ذهبوا يقولون : المشتبه والمتشابه ، ويريدون الملتبس الخفي أمره ، فيقولون : اشتبهت الأمور ، يعنون أنها التبتت وأشكلت ، ويقولون : اشتبهت القبلة ، يعنون أنها خفيت على من يريد بها لا يدري في أى الجهات هي حتى يصل إليها . وعليه قوله تعالى : « إن البحر تشابه علينا ، وقوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، .

فإذا كانت آيات القرآن كلها يشبه بعضها بعضا فى الصدق والإعجاز وسمو المعانى ، صح أن يطلق على القرآن كله أنه بهذا المعنى متشابه كما قال تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها ، والمتشابه بهذا المعنى لا يقابل بالمحكم ولا يتمتع معه إطلاق المحكم على القرآن كله ، بمعنى إحكام آياته وصيانتها عن كل نقص وبطلان ، وإصابتها المحز فى حسن السبك والنظام ، كما قال تعالى « كتاب أحسنت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، .

وإذا كانت بعض آيات القرآن قد التبتت وعجز الذهن عن إدراك مدلولها والإحاطة بمعناها ، ولم يتمكن العقل البشرى من النهوض بذلك والاستقلال به فقد اصطاح العلماء على أن يطلقوا على ذلك البعض من الآيات أنها بهذا المعنى متشابه القرآن ، وعلى البعض الآخر الذى اتضحت دلالاته وبان المراد منه أنه محكم .

فالمتشابه والمحكم على هذا متماثلان ، وبعض القرآن متشابه وبعضه محكم ، كما قال تعالى ، هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات .

وإذا كان بعض آيات القرآن قد كرر في مواضع متعددة وسور مختلفة والمعنى الأصلي في هذه الآيات المكررة واحد ، والتركيب اللفظية يشبه بعضها بعضا لاتفاقها في أصل العبارة وقوامها مع نوع اختلاف بشيء من التقديم تارة والتأخير أخرى والذكر تارة والحذف أخرى والتعريف تارة والتشكيك أخرى والفصل تارة والوصل أخرى ونحو ذلك — كان لنا أن نطلق على هذا النوع من الآيات أنه بهذا الاعتبار متشابه القرآن ، لكن من حيث إن التشابه هنا يقع في نظم القرآن وله زيادة تعاق بنصوص الآيات : عباراتها وألفاظها المنظومة ، فأنتى أختار أن أسميه متشابه النظم في القرآن ^(١) وبعض القرآن متشابه وبعضه غير متشابه .

هذا المتشابه لا يقابل بالمحكم ، ولا يراد بهذه الآية القرينية الذكر التي قوبل فيها بين المحكم والمتشابه . أما ما حكاه السيوطي في كتابه ، الاتقان في علوم القرآن ، النوع الثالث والأربعون في المحكم والمتشابه ، حيث استعرض الآية الكريمة فجعلها محور البحث وقال فيها حكاه من الأقوال . وقيل المحكم ما لم تكرر ألفاظه ومقابله المتشابه ، كذلك ما حكاه من بقية الأقوال التي أبعد الناس فيها النجعة كالقول بأن المتشابه أوائل السور والمحكم غيرها ، والقول بأنه الناسخ والمنسوخ والمحكم غيرهما ، والقول بأنه القصص والأمثال والمحكم غيرهما ، والقول بأنه ما يؤمن به ولا يعمل والمحكم ما يؤمن به ويعمل ، والقول بأنه الألفاظ الغريبة . كالآب ويؤمنون ، والمشاركة كاليد واليمين وما فيه تقديم وتأخير وعموم وخصوص ، وما يحتاج فيه إلى معرفة زمانه ومكانه وشرطه ونحو ذلك ، فشكل هذا توسع وتساهل وجرى وراء ما تشتم فيه رائحة الاشتباه كأن كل شيء صعب فهمه واحتاج إلى بحث وإعمال ففكر فهو عندهم من المتشابه المقصود بالآية ، وفوق أن هذه الأقوال كلها لا تمشي مع الآية من أولها إلى آخرها ولا تلتئم مع ما هو معروف

(١) راجع تعريف النظم في كتاب « دلائل الإعجاز » لأجرجاني ص ٦٤ ط المنار .

من الخلاف في إدراك هذا التشابه . والوقوف على لفظ الجلالة في قوله تعالى . وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، فإن هذه الأنواع المذكورة بما فيها من المباحث قد أخذت ألقابا علمية أخرى واستقلت بأبواب في علوم القرآن ، وذلك ، كأقسام القرآن ، وأمثاله وقصصه وعامه وخاصه وناسخه ومنسوخه وغير ذلك .

والأولى عندي أن ينأى بأمثال هذه المباحث عن أن تكون مرادة بالآية أو مقصودة بهذا التشابه المقابل بالمحكم . وبذلك تخلص الحقيقة التعريفية للتشابه الذي يحل فيه الخطب ويدق الأمر وتقف العقول الانسانية حياله مكبله بأغلال العجز والقصور : التشابه الذي من أجل السؤال عنه ضرب عمر ابن صبيغ ، وطرده الامام مالك من مجلسه رجلا اعتبره رجلا بدعة في قلبه زيغ حين قال له : الرحمن على العرش استوى ، كيف استوى ؟ التشابه المتعلق بالذات العلمية وصفاتها ، والذي إذا أطلق لفظ التشابه تبادر هو الى الفهم ، والتبادر كما يقولون علامة الحقيقة ، وكاد الناظر في أقوال العلماء وتأليفهم وصنيعهم في مباحثهم أن يدعى إجماعهم على ذلك

بعد أن انتهى بنا البحث إلى تحديد متشابه النظم في القرآن بأنه ما أعيد فيه المعنى الأصلي الواحد بعبارات مختلفة متشابهة ، نرى أنفسنا وكأنها تقسامل : إذا اختلفت العبارات في موضع عنها في آخر فكيف يكون المعنى واحدا ؟ أو ليست المعاني تابعة للألفاظ تختلف إذا اختلفت وتحد إذا اتحدت ؟

وللإجابة على هذا السؤال نفتح المجال للامام عبد القاهر الجرجاني حيث يقول ^(١) « لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها ؛ فإن قلت : فإذا أفادت هذه مالم تفده تلك فليستا عبارتين عن معنى واحد بل هما عبارتان عن معنيين اثنين ؟ قيل لك : إن قولنا المعنى في مثل هذا يراد به الفرض والذي أراد المتكلم إثباته أو نفيه نحو أن تقصد تشبيه زيد بالأسد فتقول زيد كالأسد ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول كأن زيدا الأسد ، فتقيد تشبيهه أيضا بالأسد ، إلا أنك تزيد في معنى تشبيهه زيادة لم تكن في الأول

(١) « دلائل الإعجاز » باب اللفظ والنظم ص ١٩٩ وما بعدها طبع النار .

وهي أن تجعله من فرط شجاعته وقوة قلبه وأنه لا يردعه شيء بحيث لا يتميز عن الأسد ولا يقصر عنه حتى يتوهم أنه أسد في صورة آدمي ، وإذا كان ذلك كذلك فانظر هل كانت هذه الزيادة وهذا الفرق إلا بما توخى في نظم اللفظ وتركيبه حيث قدم المكاف إلى صدر الكلام وركبت مع أن ؟ .

ثم قال بعد ذلك كلاما طويلا خرج منه بقوله : إن الفصاحة والبلاغة وتخير الألفاظ عبارة عن خصائص ووجوه تكون عليها معاني الكلام ، وعن زيادات تحدث في أصول المعاني كالذي أريتكم فيما بين زيد كالأسد ، و . وكان زيدا الأسد ، . وقوله : لا سبيل إلى أن تجيء إلى معنى البيت من الشعر والفصل من النثر فتورده بعينه وعلى خاصيته وصنعتة بعبارة أخرى حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك لا يخالفه في صفة ولا وجه . ولا يفرنك قول الناس : قد أتى بالمعنى بعينه وأخذ معنى كلامه فأداه على وجهه فإنه تسامح منهم ، والمراد أنه أدى الغرض ، فأما أن يؤدي المعنى بعينه على الوجه الذي يكون عليه الكلام الأول حتى لا تعقل هنا إلا ما عقلته هناك وحتى يكون حالهما في نفسك حال الشنفين والسواريين — المتماثلين — في غاية الأحالة ، وظن يفضي بصاحبه إلى الجهالة . وللعلامة ابن تيمية ~~في~~ حيث يقول : وقد ذكر الله قصة موسى في مواضع من القرآن يبين في كل موضع منها مكان العبرة والاستدلال ، كما يسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء متعددة كل اسم يدل على معنى لم يدل عليه الآخر ، كلها أسماء تختلف في المدلول وتتحد في الذات ، وإن كانت القصة المذكورة واحدة في ذاتها فصفاتها متعددة ، ففي كل جملة من الجمل معنى ليس في الجملة الأخرى . وليس في القرآن تكرار أصلا .

ظهر إذن أن هذا التشابه المكرر لمعنى أصلي واحد مع اختلاف التراكيب ، لك أن تقول إن المعنى فيه واحد ، ولك أن تقول إن المعنى فيه مختلف ، فالوحدة باعتبار أصل المعنى المراد أدائه المقصود إعطاؤه ، والاختلاف بحسب ما يعرض لهذا الأصل من زوائد يختلف بها المكرر في موضع عنه في آخر لاختلاف المقام في موضع عنه في آخر . كما أن لك بالتالي أن تعتبر ذلك تكرارا وأن لا تعتبره — كما قال ابن تيمية — تكرارا . . .

(١) معارج الوصول الرسالة الثانية . من مجموعة الرسائل ص ١٨٩ المطبعة العصرية الشريعة طبعة ثانية .

الروح والجسد

بتلم الدكتور الأستاذ
تعريب الأستاذ محمد كمال الدين الشاهد

من أنا ؟ أروح أم جسد ؟ أم أن مريحا من الأثير قد صوّتت ؟
أنا ؟

يقص علينا التلمود أنه أمام عرش الأعرس ، في يوم العرس ، سجد كل من الجسد والروح أن ينجب العرس على الأثر إلى أركبت . سيمول الجسد ، إن الروح هو الذي أذن . لا أنا ، فبدونه لا حياة ولا قوة لي ، ولكن الروح سيجادل قائلا ، لا ، إنه الجسد الذي أذن وأثم ، لقد جرفني معه ، إلى نقي ، غير مدنس .

ولكن العدالة ستأخذ مجراها . كما يروى التلمود ، العاقبة الآتية .

« كان لأحد الملوك حديقة غناء ، بها مائدة وغط من الذهب ، فأتى رجلين بحرساتها ، أحدهما أعمى ، والآخر أعرج .

« وقال الأعرج يوماً يحدث صاحبه ، إلى ترى فاكهة غنية ، ولكن أتى لي أن أصل إليها ؟

« فرد الأعمى ، ارتق كتنى ، وقدنى إلى المكان ، فاحصل على الفاكهة سويًا ، وحين وجد الملك أن الفاكهة قد اختفت ، أتى بالرجلين أمامه .

« فقال الأعرج ، كيف أكون أنا السارق ، وأنا لا أقدر على السير ، .

« وقال الأعمى ، لا يمكن أن أكون قد سرقت الفاكهة ، فلست أرى ، .

ولكن الملك الذكي الحكيم . وضع الأعرج فوق كسفي الأعمى . وحاكما
كشخص واحد . .

وهكذا ينتهي التلود إلى أن العبد الإلهي سيوقع العقاب على الروح
و الجسد معا .

الروح والجسد متميزان : فالروح هو الذي يدفع الجسد . والجسد يؤدي
ما يملكه عليه الروح .

ولكن ما هو الروح تماما ؟ إن أسهل طريق للإجابة على هذا السؤال هو
أن نقول : كما أنه يوجد وسط نسميه الأثير . تحيا فيه القوى المغناطيسية ،
فكذلك يوجد وسط تحيا فيه القوى الفيزيكية .

وهذا الوسط هو جوهر غير مادي ، نسميه الروح . فالروح إذن هو المجال
الذي تتمثل فيه العمليات الفيزيكية .

ولما كان الروح هو الوسط الذي تتمثل فيه العمل الفيزيقي ، فقد يبدو أنه
بأنى إلى الجسد لحظة الميلاد ، لا قبل ذلك . لأنه لا توجد قبل الميلاد ظاهرة فيزيكية .

مركز تقيت كميتر علوم رسيدي
SOUL and BODY

By Dr. A. E. Silverstone, Ph. D.

(مجلة الأزهر) إن ما ذكره الدكتور سيلفسترون تعليقا على ما قاله التلود
هو رأيه الخاص ، وهو أمر يختلف فيه العقول . وقد روى البخاري بسنده عن النبي
صلى الله عليه وسلم قوله : . إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ،
ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك . ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه
الروح ... ، الحديث .

وهذا الكلام موافق للحسوس ، فإن الجنين يتحرك في بطن أمه بعد أربعة
أشهر من وجوده في بطن أمه ، وهي مقدار المائة والعشرين يوما التي ذكرها
الحديث الشريف .

على ذكرى المولد النبوى الكريم :

بعث أمة وميلاد دولة

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد السلام أبو العجا م. ح.

المدرس بكلية اللغة العربية

العالم غارق في بحار لجية من الجهالة . والناس يمشون في أعمق مكنى من الضلالة ، والفقر آخذ بالتواصي والأقدام ، والاضلال ضارب خيامه في كل مكان ، والشقاء يحيم على كل بيت ، والمادية تستهوي أفئدة الناس ، والشهوات مرغى لها العنان ، والظلم يوجه جيوشه حيثما أراد ، ويرسل بطشه أنى شاء ، ونظام الإقطاع صنو حكم الطغيان ، وقانون الطبقات منفذ بإحكام ، والحريات سلسلة في الأغلال ، والأنفاس معدودة على النساء والرجال ، والعقول محبوسة في ظلمات البغي ، والعلوم معقولة بضلالات الغي ، والفرس والروم في صراع مخيف وحرب سجال ، والعرب بين لاتهم وعزاهم لاهون ، وفي ضلالتهم وجهلهم سادرون .

في هذا الجو المكفهر . وفي تلك الأزمات العصيبة ، وعلى فترة من الهدأة وياس من المصلحين ، ومع بزوغ الفجر وإشرافه . سفع على الدنيا نور نجم جديد . نعم في هذا الجانب الساكن من العالم المضطرب . وفي هذه السكة المتأحله الجرداء . وبين مهاد الفقر ودثور الشقاء ، استهل محمد بن عبد الله بعلمته في يوم الاثنين التاسع من ربيع الأول (٢٠ من أبريل سنة ٥٧١ م) فتفجرت بناييع الحكمة من مواطن الضلال ، وانسابت أضواء الهدى في كل مجال ، وتلألأت أنوار العلم والمعرفة والحياة .

ولقد ارتجت الدنيا جميعها لهذا الميلاد ، وصحت من غفوتها بعد طول الرقاد ،

واقتر ثغر العالم عن بسمه الأمل ، وأحسن الناس خيرا مشرق الجنيات ، وكتبا مضى الصفحات ، ورأوا نورا ساطعا يهر البصائر والأبصار ، واستمال العقول والأفكار ، وعرفوا نظاما فريدا أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وقاد الأفراد والجماعات إلى مواطن العزة والسعادة والسلام .

كان هذا هو القدي الأول . لميلاد الإنسان الأول . فاهتزت السموات وتنبعت البشريات ، وتعمقت الآمال بهذا المولود السعيد .

وكأننا نلهب الله الكائنات سر القدر ، وعنهما أنه النبي المتظر ، فاتجهت كلها نحوه ، واستشرفت أعناقها إليه ، وأخذت ترعاه وتلاحظه أينما حل وحيثما سار . واقعد نشأ صلوات الله وسلامه عليه أكمل ما يكون خلقا وخلقا ، وأسمى ما يعرف عقلا وفضلا ، إذ صمد الله على عينه ، وصاغه بيديه ، وهبأه لرسالته . وأمره فأحسن تأديبه : صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة . فكان حريا أن يخاطبه الله تبارك وتعالى بقوله « وإنك لعلى خلق عظيم » .

لهذا كان ميلاده صلى الله عليه وسلم لبداية بذلك الانقلاب الخطير في حياة العالم ، وإرهاصا بذلك الإصلاح الشامل الذي بعث به ، وبشرى بتلك الرسالة الخالدة التي خلفت أعظم نظام عرفه البشر في السياسة والتشريع والاجتماع .

واقعد عاش صلوات الله وسلامه عليه قبل الرسالة ، مثالا يحتذى في كمال خلقه وحسن معاملته ، وصدق قوله وموفور أمانته ، حتى عرف بين أهل مكة بالصادق الأمين : كذلك اشتهر عنه لين الجانب ، وقوة العزم ، والجرأة في الحق ، والعطف على الناس . ومواساة الضعفاء والبر بالمسكوبين ، فكانت أخلاقه أكبر داعية له ، ومعاملته أعظم دليل عليه ...

وما إن ألقى عليه عبء الرسالة ، وحمل ذلك الثقل الفادح ، وأوحى إليه أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، حتى حمل اللواء ، ونظم الأداء ، ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبث في قلوب مناصريه إشعاعا من وحي رسالته ، ونفث في نفوس مؤازريه سحرا من فيض قوته ، فكانوا منارا مشرقا لدعوته ، وجنودا مخلصين لقيادته .

ولقد حاولت قريش أن تكسف هذه الشمس المشرقة ، وتمنوه ذلك النور
القدس الموهج الذي أعده الله لهداية العالمين به ، ولكن خاب نالها وضاع أملها ،
وردت سهامها في نحورها ، فأصاب من الكفر وأهليه مقتلا . ولم يمض زمن قليل
حتى رأى الناس ضوء الرسالة الجديدة ، وتناثرت أشعتها بين قبائل العرب
المختلفة ، ثم استقرت بعد ثلاثة عشر عاما في طيبة الطيبة ، أو المدينة ، كما أسماها
صلوات الله عليه .

وهناك أرست الدولة الفتية قواعدها ، وأقامت دعائمها ، وأخذت تضع الخطة
لإصلاح العالم وهداية الناس من جديد .

حمل الدعوة بآياتهم دستور هذا الدين الجديد . وقدموا أمام دعوتهم كتاب
الله رأس القوانين . فقرأوا فيه الحرية التي يشهدونها . لا إكراه في الدين قد
تبين الرشد من الغي . . والعادلة التي يتقدمونها : إن الله يأمركم أن تؤدوا
الأمانيات إلى أهلها . وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . . إن الله يأمر
بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . .
والمساواة التي حرروها : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا
وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . والإخاء الذي يبحثون عنه :
إنما المؤمنون إخوة . . ولا يغتب بعضكم بعضا ، يحب أحدكم أن يأكل لحم
أخيه ميتا . : ثم رأوا المثل العليا في الخلق والآداب والاجتماع يفيض بها
تشريعه ، وأعجبوا بطريقته في العلاج حين يشخص الداء ويصف الدواء ، كما لمسوا
في سيرة الرسول وصحبه أقصى خطة وأقوم منهاج ، وسمعوا الرسول الكريم
يجلتي أصول سنته ويوضح أساس رسالته فيقول : المعرفة رأس مالى . والعقل
أصل ديني . وذكر الله أنيسى . والثقة كبرى . والحزن رفيق . والعلم سلاحى .
والعبر ردائى . والرضا غيمتى . والعجز غرى . والزهد حرقى . واليقين قوتى .
والصدق شفيعى . والجهاد خلقى . وقرة عيني في الصلاة . . ويقول : الناس سواسية
كأسنان المشط . . لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . إلى غير ذلك من
المبادئ التي جاء بها الاسلام وقررها الكتاب والسنة .

ولقد عرف العرب قبل سائر الناس هذه المبادئ الخالدة ، ولمسوا تلك المثل

الرفيعة ، فطربوا لنغمها ، ولذا لهم رنينها ، فأنصتوا لها ، واستجابوا لدعوتها ،
وشغفوا بالرسول حبا ، وزادوا برسالته كلفا ، فانضوت قبايلهم تحت لوائها ،
وانخرطوا سراعا في سلك أتباعها ، والتفوا حول حامل مشعلها ، ودخلوا أفواجا
في حوزتها ، واجتمع شتاتهم حول رايها ، وأسسوا على التقوى دولة فتية لم تلبث
إلا قليلا حتى طوت أعظم الدول تحت جناحها ، وثلت عروش الأكامرة
والقياصرة ، وامتد رواقها من المحيط الأطلسى غربا إلى سور الصين شرقا ، ومن
جبال القوقاز شمالا إلى المحيط الهندي جنوبا ، وبهذا تغير وجه التاريخ في أقصر
حبة عرفها التاريخ .

ولقد أدام الله عز المسلمين الأولين ومنحهم نصره وتوفيقه ، ورفع أعلامهم
على سواى الزمن ومنازل الأمم ، وبوأهم فى العالمين مسكنا عليا . وجعلهم
أساطين العلم والسياسة ، وقادة الشعوب والأمم ردحا طويلا من الزمن ، حتى
خلف من بعدهم خائف تكالبوا على الشهوات ، وانغمسوا فى الرذائل ، وفتنوا
نما فتح الله عليهم من خزان الأرض وجناتها . فأدال الله دولتهم ، وسلمهم عزهم
وحريتهم . ومكن منهم أعداء دينهم ، فاستعمروا بلادهم ، وضربوا عليهم الذلة
والسكينة . وسامروهم الخسف وأهواهم .

وإن فيما يلاقيه المسلمون فى فلسطين وسواهم لأعظم العسر التى تدعو إلى
التفكير الطويل . وتوجب على المسلمين أن يفيثوا إلى دينهم ، ويرجعوا إلى دينهم .
حتى يستحقوا نصره . ويستأملوا عونه . . . ولينصرون الله من ينصره . وإن
نصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . .

ولعل فى ذكرى مولد الرسول الكريم . صلوات الله وسلامه عليه — ما يحفز
المسلمين عامة وشباب الهيئات الإسلامية خاصة . إلى العمل بجد وإخلاص ، فى سبيل
سيادة الإسلام وتنفيذ شرائعه ، والعمل بمبادئه .

وفقنا الله جميعا لما فيه نصر دينه وإعزاز كلمته ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

أبو نواس

بين الطبع والصنعة

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد المسعود

المدرس بكلية اللغة العربية

أصدق الشعراء فطرة ، وأصفاهم ملكاً ، وأصحهم طبيعة ، وأقومهم سليقة .
وأجودهم تصويراً للمعاني واقتراحاً للأفكار ، وأثباتاً للأحياء : هو الذي يشهد
التجاوب بين شعره ونفسه ، وتموى الأواصر وتشتت الروابط بين ما يهدير به حسه
من المعاني ، ويشرق في فريضه من جمال الفكر وإبداع الخيال . وكلما كان شعر
الشاعر استجابة لشعور يحتاج في أطواء قلبه ، وتصويراً لإحساس يضطرم في
نفسه ، كان أمس اتصالاً بالطبع ، وأسرع نفاذاً إلى القلب ، وأشد إثارة
للأحاسيس والعواطف .

والشاعر الفحل دائماً تنور في نفسه المعاني ، وتشتعل الحواسر وتشتجر
الأفكار وتندافع الأخيالة ، فلا يملك حبسها ، ولا يستطيع كبتها ، بل ينطلق به
كالسيل الجارف لا تقف أمامه الحواجز والسدود . وكالفارس المتناحر ما استطاع
دفعه ولا تعويقه .

ذلك شعر الفطرة والطبيعة ، يدخل على القلب من غير أنش ، ويلامس النفس
دون عناء أو جهد ، ويبقى خالداً لا تنكره الأذواق ولا تحمده الأسماع . لأنه ضمن
الطبيعة التي لم تجتذب له بهرجة ، ولم تحفل له بزيئة ، ولم تقترنه إلا صباغ مما يصح
وما لا يصح . نعم قد تداخله الأصباغ وتسرى في ثناياه الألوان الزاهية البهجة ،
ولكنها كذلك ألوان طبيعية لم تحشد لها صنعة ، ولم يحتل في رسمها فكر ، ولم يدخل
في تصويرها تكلف أو اعتساف ، وبذلك تظل دائماً وعلى تنابع الأيام قوية الضوء
ساطعة اللعان ، لا تبلى ، ولا تتخاق ولا تنصل ولا تحول .

فإذا نصب معين الشاعر وفتر إحساسه . وركدت خواجه وأفكاره ، وإذا
نقص جِدَّ شانُ قلبه والتهاب عواطفه . راح يعتسف الأخيلة ، ويقتسر الأفكار ،
ويستجمع الشوارد من هنا وهناك ، يؤلف منها أشتاتاً متنافرة وأمشاجاً متناكرة .
وصوراً قد لا ترضى الذوق ولا تروج عند نقاد الأدب : وذلك شعر الصنعة
ونتاج التكلف . وقد يخطئ الشاعر القوي فيحاول أن يوشى شعره بألوان الحلى
 وأنواع الزينة . فيكون إقبالاً على هذا وتكافه له ورصده كل ما يملك لاقتناصه . سبياً
 في فتور إحساسه وتراخي شعوره ونقص الفطرة لديه . قد تجود الصنعة ، وتحاول
 أن تطاول الطبع مطاوعة . وليكنها لا بد أن تجور على المعنى الذي يريد الشاعر
 ويختفل له الأديب . وإذا حسنت الصنعة مرة فهي في عشرات أخرى باردة
 غثة غير مقبولة .

وإذا حاول الشاعر أن يقتسر الأخيلة اقتساراً . وأن يقتص ألوان البديع
 ليوشى بها شعره ويحلى أدبه ، وإذا جهد في التماس التكت واصطياد الزينات
 والحلى ، فلا بد أن يشتد التراخي بينه وبين نفسه . ويخيم الشعور على عاطفته وحسه :
 ومن هنا كانت جذية الصنعة على الأديب وطغيانها على الطبع وتشويهها للمعاني .
 وإن خلعت على الألفاظ بريقاً وتشويقاً عديمي

والمهم فيما أرى هو أن يترك المرء نفسه على سجيتها ، ويمكن لها في طبيعتها ،
 ويترك لها تخير الطريق الذي تحبه وترتاح له وتأنس إليه . فإذا اتجهت إلى المبالغة
 في تصوير معنى . كان لها من "طبع" سليم والفطرة الصحيحة ما يحفظ التلازم
 والتساوق بين حقيقةه ومجازها .

ونحن نحب أن نعرض هنا صورتين لشعر الطابع القوي الموهوب ، إحداهما
 لشاعر قديم هو امرؤ القيس ، والأخرى للشاعر الذي نتحدث عنه وهو أبو نواس .
 نرى كيف تأتلف الفطرة القوية الحياشة مع الصنعة الجميلة البراقة ، وكيف يتحكم
 الطبع في المحسنات البديعية فيجعلهم جزءاً منه .

قال امرؤ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى

فقلت له لما تغطي بصلبه وأردف أعجازا وناء بكاسكل :
 ألا أيها الليل الطويل ألا انجى أصبح وما الإصباح منك بأمثل
 فانظر كيف أراد الشاعر أن يعبر عن طول ليله وكثرة الآلام والهموم التي
 نحشد فيه فأتى بهذه الصورة التي تبعث الرهبة وتثير الوحشة وتدعو إلى الإشفاق
 بأن جعل الليل كوج البحر يغمر الناس ويغطي على الأحياء ، ويكنهم بسدوله
 وأستاره فلا يدع لهم منفذا ولا يترك لديهم متنفسا ، وجعل له صلبا وصدرا وأعجازا
 ودعاه وخاطبه ، وهذا كله مبالغة في التعبير واتجاه إلى حسن التصوير ، وقد ساعد
 على هذا فطرة لا تضعف ، وقوة لا تتخاذل ، وسجية وثابة لا تعرف التراخي
 ولا التكوص .

ويقول أبو نواس :

وخيمة ناطور برأس منيفة لها يدا من رمدها برليل
 إذا عارضتها الشمس قامت ظلالها ولب واجهها آذنت بدخون
 حلبت لأصحابي بها درة الصبا بصهباء من ماء الكروم شمول
 إذا ما أتت دون اللهاة من الفنى عما هم من صدره برحيل
 فلما توفى الشمس جنح من الدجى واستجمعت غير جميل

أراد أبو نواس فيما أراده من هذه الصورة الفنية الرائعة ، أن يقول : إن الخمر
 تنقى همومه وتزيل آلامه ، وإنه يلعب ويلهو ويتجن حين يحن الليل وينشر الدجى
 أظفابه على الخليفة ، فبالغ في تصوير المعنى مبالغة تدعو إلى الإعجاب حقاً وتملاً
 النفس طرباً وروعة ، وأخبر أن الهم يدعو للرحيل من صدره حين توشك الخمر
 من لهاته . وانظر إلى هذا المعنى الرائع البديع الذي يصوره تصويراً قوياً بقوله :
 فلما توفى الشمس جنح من الدجى .

ومع ذلك نرى الطبع وثاباً مشرقاً لم تضعفه صنعة ، ولم يساور نضرته بهرج
 متكاف أو زينة مقتسرة ؛ ذلك لأن طبيعته وجيشان نفسه وامتلاءها بالإحساس
 والشعور ، يدفعه لأن يقيس الصورة بالصورة ، ويقارن الانداد بالانداد ، ويجمع
 النظير إلى النظير ليتبها له معناه في أكمل أشكاله وأوفى ضروبه ، ثم تعرض له

(١) للناطور : حافظ الكرم أو الزرع . زليل : زال .

ألوان الزينة رفيقة وادعة تتوالب اليه هيئة طائفة من غير أن يرتصد لها في كل ناحية . وتلم به مهلة مستجيبة دون أن يجهد نفسه في تصيدها من كل مكان . وهكذا كان أبو نواس في أكثر شعره شاعرا واتاه الطبع ، واجتمع له غزارة الإحساس ، وفيض الشعور ، وبراعة الخيال ، وإشراق المعاني وسموها ، وأسلس له زمام اللغة ينفق من كنوزها ويلعب بألفاظها ، ويتنقل بين رياضها وأزهارها . لا يتكلف قولاً ، ولا يعتسف معنى ، ولا يخال لفكرة . ولو أنه صرف نفسه عن الشعر صرفاً وراض حياته على غيره لاستعصى عليه الطبع وأبت ذلك شياطين الشعر . فهو شاعر بروحه ، وشاعر بأعصابه ، وشاعر بكل ما فيه من فكر وإحساس وعاطفة .

وهناك صورة أخرى من صورته الشديدة تجلت فيها قوة الضبع ولطف الزينة . قال :

وحرام كالياقوت بيت ~~منقته كمنيرة~~ وكادت بكفى في الزجاجة أن تدمى

فأحسن بها شيخوخة في إلتافها وألطف بها بين المفاصل والعظم

تغازل عقل المرء من ابتسامه وتخدعه عن لبه وعن الحلم

وهل هناك أجمل راحة وأبلغ تعبيراً وألطف دخولا على النفس وإثارة للحس وتهيجا للعاطفة من قوله : . . . تغازل عقل المرء . . .

ومن شعره الموشح بألوان البديع قوله :

إن هذا يرى ولا رأى للأحرى حق أنى أعده إنسانا

ذاك في الظن وهو عندي كالذي لم يكن وإن كان كانا

وفي هذا ما يسميه علماء البلاغة المذهب الكلامي ، وهو إيراد حجة المطلوب . فهو يقول : إن هذا يرى أنى أعده إنسانا وهو أحق فلا رأى له فهو ليس بإنسان ،

ثم يؤكد ذلك بقوله : إنه عند نفسه إنسان وهو غلبي لا قيمة له ولا وجود
كأن لم يكن .

ومن الهزل الذي يراد به الجد قوله :

وإذا ما تمى أذاك مفاخرًا فقل عدا عن ذا كيف أكلت للضب

وهو من أبلغ ما يقال في السخرية البالغة والتهكم الشنيع . ومن التصدير ورد
العجز على الصدر قوله :

وحياة رأسك لا أعدو دلتها وجبء رأسك

وقوله :

ظن بي من قد كلفت فهو يحسبون على الظن

ومن لزوم ما لا يلزم قوله :

أما وزند أبي على إنه زند إذا استوريت سهل قد حكا
إني لبأى الصنع على مهمي من غيركم ويعاف إلا مدحكا
ومن الاقتباس قوله :

خط في الأرداف سطر من عروض الشعر موزون
لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون
وقوله :

قل لليلح أما تروى الحديث بما خالفت فيه وقد جاءت به الصحف
إن القلوب لأجناد مجندة لله في الأرض بالآهواء لختاف
فما تعارف منها فهو مؤتلف وما تناكر منها فهو مختلف

ومن الغلو وهو ادعاء ما لا يمكن قوله :

لا يزال أثير حيث حلت فليس 'شراها' نهار
وقوله :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق
وقد كرر هذا المعنى بقوله :

حتى الذي في الرحم لم يك صورة لغواده من خوفه خفقان

وقد اختلف العلماء حول هذا المعنى كثيرا فقال صاحب «معاهد التنصيص»
المتساعلون في هذا النوع كثيرون كأبي نواس وابن هاني الأندلسي والمني
والمعي . والاضراب عن ذلك أسب ، وقال أيضا ، ومن لطيف ما يحكى هنا
أن العتابي الشاعر لقي أبا نواس فقال له : «أما استحييت من الله بقولك ، وأخفت
أهل الشرك ... ؟ » فقال له أبو نواس : «وأنت أما استحييت من الله
بقولك :
مركز تحقيق مكتبة التراث العربي

ما زلت في غمرات الموت مطرحا يضيق عني وسيع الرأي من حيل
فلم تول دائما تسعى بالعطفك لي حتى اختلست حياتي من يدي أجلى

فقال له العتابي : «ما علم الله وعلمت أن هذا ليس مثل ذاك ، ولكنك أعددت
كل باصع جوابا» .

وقال الجرجاني في كتابه الوساطة بين المنبي وخصومه : «وأما ما جرى مجرى
أبي نواس ، وأخفت أهل الشرك ، فهو من المحال الفاسد ، وكل هذا عند أهل
العلم معيب مردود ومنفي مردول ، وإن كان أهل الإغراب وأصحاب البديع من
المحدثين قد لهجوا به واستحسنوه وتنافسوا فيه وبارى بعضهم بعضا به .»

وقال المرزباني في الموشح : هذا البيت ، وأخفت أهل الشرك ، بادي العوار
حدا ... فقد أحال وأسرف وتجاوز .

ولكن قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر يستحسنه ويحتج له ويقول : إنه إنما أراد به المبالغة والغلو بما يخرج عن المرجود ويدخل في باب الممدوم ليلبغ النهاية في النعت .

ونحن نميل إلى رأيه ونرى أنه أراد أن يبلغ في قوه الخليفة وشمول هيبة وإحاطة سطوته حتى ليس هناك صورة من الرهبة والخوف والرهغ يمكن أن تخطر بالفكر أو تطوف بالبال إلا دخلت في هذا المعنى الذي رسمه وافرعه خياله وغاص عليه فكره وأحسن تحديده بيانه ، لأنه رجل تأثرت مشاعره وامتزج إحساسه بالخوف من الرشيد ، فهو يحذره يمتطآن ونائما ، ويرهب دائما سطوته وشدة أخذه ، وإن صرامة الرشيد كانت تملك على الشهراء وخاصة مثل أبي نواس نفوسهم ، فإذا أرادوا مدحه تمثل أمامهم ما يحذرونه فيه ويخشونه منه ، ولم يكن أبو نواس وحده من الذي يبلغ في الحديث عن سطوته وقوته ، بل هذا أشجع السلي يمدحه فيقول :

مركز تحقيق مكتبة مصر

وعلى عدوك يابن عمر محمد
فإذا أتته رعته وإذا أتته

على أنها تستطيع أن تقول : إن أبو نواس لم يكن ممدوحا تصدقته وحكم به ، وتسبب بتعاليه ؛ وإن وقع في شعرة شيء من تصدعه الشعري أو الاصباح البدعية فهو أجمل الألوان التي تأتي عفوا وتجيء طبعه لم يبدل هذا جهدا ولم يذلف فيها فكريا ، ولم يرتصد قوة لاقنناص أشباحها وتأليف أمشاجها من هنا وهناك ، ومن هنا كان أبو نواس شاعر التابع السمع ، والفطرة القوية الموهوبة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الترك والاسلام

عقب الحرب العالمية الأولى التي انتهت في سنة (١٩١٨) م بهزيمة المانيا وأنصارها ومن شايعها، أصاب الأتراك يوم من أيام الأمم ، وكانوا من الدول التي دارت عليها الدائرة، وللأمم أيام تمر عليها لتجدد وجودها إن كان بها كدما^(١)، أو لتقضى عليها إن كانت قد استنفدت جميع مذكورها من الحياة .

هذه الأيام تلم بالأمم وهي بين برائن أعدائها، فتشمرها بالخطر على وجودها، وتعتصر منها شعورا قويا بضرورة حفظ ذاتها . وكيف يكون ذلك والاسنة مشرعة إلى صدورها من كل جانب؟ فتستमित، وتوحى إليها هذه الاستماتة أن تتجرد من كل غريزة غير غريزة تازع البقاء . فإذا انتهت مناضلتها هذه عن الفوز بإبعاد الخطر عنها، عادت إلى متابعة وجودها الاجتماعي، ولكن على أصول غير التي كانت عليها، فتتخلى عن أخلاق كانت متأصلة فيها، وتقاليدها كانت عزيزة عليها، وعادات كانت جزأ من نفسيتهما، خشية أن يكون في ثابا هذه الأخلاق والتقاليد والعبادات ما يعرض وجودها للخطر كما حدث لها من قبل .

من الثورات التي تتخذ مثالا قبيحا لما نحن بسيله ، الثورة الفرنسية ، فإنها لما أخذت جذوتها، أسفرت عن ضروب من التطرف تعتبر من لوازم هذه الحالة، منها تجرد ذويها من الدين وتحاييمهم عن كل عقيدة، وغلوم في مبدأ المساواة إلى حد أنهم حذفوا من لهجتهم لفظة مسيو (سيدى) وأبدلوا بها لفظة السيد، كراهية أن تكون في لهجتهم كلمة عليها عبقة من امتيازات الطبقات، وليس بين الفرنسيين سيد ومسود . ولكن لم تمض إلا سنين قليلة حتى عاد كل ذلك إلى نصابه من الاعتدال .

ثار الأتراك ثورتهم في سنة (١٩١٨) فكانت أجب ثورة في تاريخ الاغلايات الاجتماعية ، إذ توصلوا، وقد خسروا الحرب، إلى استرداد جميع حقوقهم

(١) الدماء البنية من الحياة .

من قاهريهم ، وفاز عوهم إياها منازعة الابداد في مؤتمر لوزان ، واستعادوا كل ما كان لهم من السيادة على بلادهم ، بيد ان كانت قد قسمت سواحلها على العامعين فيها ، حتى شهد لهم خصومهم بالرجولة البالغة اقصى حدودها ، والبطولة التي ليس وراها سرى لمستزيد . فكان هذا الحادث أغرب ما دونه المؤرخون في تاريخ الانقلابات ، وأمثل ما يستشهد به الاجتماعيون على مدى ما تستطيع احداثه روح الاجتماع في الشعوب .

والذي يجب أن لا يغفل عنه الباحث الاجتماعي في الثورة التركية انها لم تكن على غرار كل ثورة ، وفي حدودها المروفة ، فانها لم تكن لأسباب داخلية كسواها ، حين ثور الامة فيها على حكموتها او على بعض طوائفها المتعاطية عليها ، ولكنها كانت ثورة ذات أغراض خارجية ضد أمم كانت تود الحد من سلطانها على حقوقها الطبيعية . فكان هذا الحادث أغرب ما دونه المؤرخون في تاريخ الثورات ، وأمثل ما يستشهد به الاجتماعيون على مدى ما تستطيع احداثه روح الشعور بالكرامة في شعب من الشعوب .

والا تراك في هذه الناحية كغيرهم ، خرجوا من هذه الثورة متأثرين بروح تواقه لكل جديد ، سيئة الظن بكل قديم ، وقد كان الدين بما حمله مما ليس فيه ، وما استغل له اسمه من التضليل والتقوية ، في مقدمة ما اتجهت أنظارهم اليه ، إلا أنهم حفظوا له كرامته فلم يمسوه بسوء ، مكذفين بحذف الطبقة المهيمنة عليه ، ذهابا منهم إلى أن حذف تلك الطبقة ، ينجي الآخذين به من تضليلاتهم ، ويحميهم من التسلط على عقولهم ، فلا يستطيعون استغلال جهالتهم ، ولا تستخيرهم لارادتهم . وفاتهم ان الاستمرار على هذا الوضع يفضي إلى إقفار بلاد الترك من علماء الدين ، ويتسع المجال أمام الناس فيها الى الوضع والابتداع ، فتؤول بهم الحال إلى شرمال ، وهذا ما لا تصبر عليه أمة عرفت بالغيرة الدينية كالامة التركية . فلما هدأ روع الجماعة ، وأمنت الدولة فيه على وجودها ، ارتفعت أصوات الشعب بالمطالبة بتأسيس كلية لدراسة أصول الدين ، وتعميم تدريس مبادئه وأصوله بالمدارس الابتدائية والثانوية ، لتشب النابتة عارفة بأمور دينها ، ملئة بمرامي شريعنا .

فما كاد الشعب يؤانس قبولا من مفكرية لندارك ما عسى أن يوجد من
النقص في بنائه ، ليلبغ المنزل الأعلى من الحياة الانسانية الفاضلة تحقيقاً لما قدره له
مبدؤه العظيم ، حتى نهض بطالب حكومته بوجوب تدريس الدين لطلاب المدارس
الابتدائية والثانوية ، وقد وجد منها إذنا صاغية لأنها حكومة شعبية لا عمل إلا
تحقيق رغبات الجماعة . ولكنها قررت لذلك نظاما حكيميا يحمي الحقائق الدينية
أن يندس اليها ما ليس منها من أوهام العامة ، فشرطت أن لا يتجارى على تدريس
الدين غير المدرسين الحائزين لجميع الشروط المطلوبة من مدرسي مدارسها .

وقد تلقت الأهرام من مراسلها باسطنبول تلغرافاً نشرته من نحو عشرة أشهر
جاء فيه قوله :

« أذاعت وزارة التربية الوطنية منشورا أباحت فيه إنشاء مدارس للتعليم
الديني بعد الحصول على ترخيص من هذه الوزارة .

« ولكنها اشترطت اقرار وزارة التربية للبرامج التي تضعها تلك المدارس ،
(الكتب) التي تستعملها ، وقد فرحت أن يكون مدرسو هذه المدارس حائزين
لجميع الشروط المطلوبة من مدرسيها . . . الخ .

وقد سارعت الامة تحت قيادة كبار زعمائها للاستفادة من هذا الترخيص
الى أبعد حد ، حتى أنها قررت إنشاء كلية لاصول الدين لتخريج العلماء الذين
يدرسون الدين في المدارس الحكومية ، وقد وصل إلى القاهرة أخيرا واحد من
رجال هذه النهضة المباركة ، وهو سعادة السيد تحسين جندوفلو وزير المعارف
السابق في تركيا ، ومهمته الآن الاطلاع على برنامج التعليم في كلية اصول الدين
المصرية لاقتباس ما يحسن اقتباسه من علومها ، وقد رأى أن يزور حضرة صاحب
الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الفناوي ومحدثه في هذه الشؤون
الدينية ويستهديه برأيه . فأكرم فضيلته وفادته ، وذكر له طرفاً من ماضى
الأتراك الحافل بجلال الأعمال في خدمة المسلمين والاسلام ، ورجا الله أن
تستمر هذه الدولة حريصة على دينها ، عاملة على أعلا كلته بين العالم .

فأجابه سعادة السيد تحسين جندوفلو بأن الأتراك لا يزالون على ما كانوا

عليه مستمسكين بدينهم ، غيورين عليه ، واستشهد على صحة قوله بحركتهم الأخيرة في ضرورة فتح مدارس لتدريس الدين ، وإنشاء كلية له لتخريج العلماء .

فأظهر فضيلة الأستاذ الأكبر اغتباطه بهذه الأنباء ، وتنى للقائمين بهذه الحركة المباركة في تركيا أن يكمل الله جهودهم النجاح .

ولما وصل الحديث الى ذكر مدى انتشار التعليم الديني في تركيا ، أجاب رئيس لجنة المعارف بأن الدين يدرس الآن في المدارس الابتدائية والثانوية كمادة أساسية ، وأضاف الى ذلك أن في النية تخصيص مدارس ثانوية لإعداد طلبتها للانخراط في سلك طلبة كلية أصول الدين المزمع إنشاؤها وللاحاقها (بالجامعة العلمية) .

فأفاض فضيلة الأستاذ الأكبر في جلالة هذا العمل وفائدته في تكوين نابتة فاضلة ترفع مجد الأمة إلى أدلى المكنات ، وتصون الأخلاق أن تتدهور إلى مكان يحق من الانحلال ، وأبدى فضيلته استعداد الأزهر للمعاونة على إنشاء هذه الكلية .

ثم توج فضيلته حديثه برجاء أن يهتم وزراء الأمور الترك بتدريس اللغة العربية في المدارس التركية .

فقال سعادة رئيس لجنة المعارف في المجلس الوطني بأن هناك مشروعاً يرمى الى تدريسها إجبارياً في تلك المدارس .

هذا ملخص الحديث الذي دار بين حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر ووزاره الكبير سعادة تحسين جندوفلو الذي ندب لتنفيذ رغبة المجلس الوطني التركي في إعادة التربية الإسلامية إلى سابق عهدها في تركيا .

بما يجب أن نلفت النظر اليه في هذا الشأن أن الأمة التركية الممثلة في مجلسها النيابي لم تجعل لرجال الدين القوام المطلق على ضمائر الناس ، ولا الاستبداد بحق التوجيه الروحي لهم ، كما هي الحالة لدى الأمم الشرقية ، فجعلت لنفسها القوام عليهم ، فاشتدَّت النظر في البرنامج الذي يضعه رجال الدين للتعليم الديني ، وفي الكتب التي يؤلفونها لنشر الدين وتعميمه .

واشترطت ما هو أخص من ذلك في الحد من حرية رجال الدين مبالغة في المحافظة على حرية الضمائر ، وذلك بأن حظرت أن تفتح مدرسة للتعليم الديني حيث لا توجد مدرسة للتعليم العلماني ، أي التعليم الخالي من التأثير الديني ، وهي ترمي بذلك إلى درء خطر الهدوان على حرية الضمائر .

والذي يلوح لنا أن الأتراك لا يخشون من سيادة الروح الإسلامية على جماعتهم ، لأنهم يعرفون ما للاسلام من فضل في تنوير العقول ، وتقرير الحقوق الطبيعية للإنسان ، وفي عنايته بنشر العلوم والفنون ، وفي حكمته في قيادة الجماعات في معترك المزاومات العالمية : كل هذا يعرفه الأتراك ويقدرونه قدره ، وقد وضعوا فيه كتباً ، ولكنهم بتمريرهم هذه التحفظات يسيثون الظن بالذين يتولون أمره ، فلا يعرفون مدى إدراكهم لروح الاسلام السامية ، ومبلغ فهمهم لحكمته العالية . بل يعلمون أن من التحفوا شمسار رجال الدين أفراداً لا يقدرون تبعاً قيادة النفوس قدرها ، فيضطرب سيرهم في توجيهها ، فيجيدون بها عن الصراط السوي إلى سبل يتأدون منها إلى غايات بعيدة من الجمود العقلي ، أو الانحلال الخلق . وليس هذا بما رمى إليه الأتراك من ثورتهم التي ضربت بها الأمثال ، وسجلت لهم صفحة خاصة في تاريخ الوطنية الصحيحة .

وعلى كل حال فإن عود الأتراك إلى إباحة التعليم الديني يعتبر حادثاً جليلاً في تاريخ الأمة الإسلامية ، وسيكون له رد فعل في جميع الشعوب الشرقية ، لأن في سماحهم الاشتغال بأمور الدين بعد التحلل منه نحو ربع قرن ، إيذاناً منهم بأن الاسلام ضروري لحفظ كيان الجماعة ، فهم في هذه الناحية لم يحاكوا الأوروبيين الذين قرروا أن لا تشتغل الاداة الحكومية بغير المصالح الدنيوية ، تاركة أمور الدين لرجالها ، والمبالاة بهم أو اهمالهم إلى الأفراد أنفسهم ، شأنهم مع الدين كشأنهم مع كل دعوة يقوم بها جماعة في حدود الحرية الشخصية .

ولا يجوز أن يغيب عنا بأن هذا الموقف من برلمان الأمة حيال الدين سيكون له أثر كبير في محو البدع التي تزوج في الكتب الشعبية باسم الاسلام ، ولا يقرها الكتاب ولا السنة ، ولا يملك أهل البصر سلطة لإزالتها ، ومنع ظهور أمثالها . وبعد فسيشهد العالم كله بعد حقبة من الدهر شعباً إسلامياً لا تكسر مظهره شائبة من بدع العامة ، ولا من طامات كذبة المتصوفة ؟

محمد فريد محمد

يومان...!

الكلمة التي ألقاها حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز

مدير الأزهر والمعاهد الدينية

يوم ٢٢ / ٢ / ١٩٤٨ بدار الإذاعة

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات السادة :

السلام عليكم ورحمة الله .

أما بعد ، فما أعجب التاريخ فيما يبدى ويعيد ! وما أعظم أحداث الدهر
وتصرفاته عبرة للعتبرين وذكري للمستبصرين .

يومان للعروبة والإسلام تشابهتا حتى اختلطتا ، وتقاربا حتى اتحدتا ، فما يمتاز
أحدهما عن الآخر ؛ هما يومان في عداد الزمن ، ويوم واحد في أحداث التاريخ : يومنا
الحاضر ، ويوم صلاح الدين . القوم هم القوم ، والميدان هو الميدان ، والدعوى هي
الدعوى ، وإن أخذت لونا آخر واختلفت في بعض الصور والأوضاع . فأوروبا التي
تولت كبر الحروب الصليبية هي التي تتولى اليوم كبر كل حرب ضد العرب والمسلمين
في فلسطين وغير فلسطين ، وليست أمريكا إلا امتدادا لأوروبا عتيقة وثقافة
وسياسة ، وكان بيت المقدس هو الغرض من الحروب الصليبية ، وكذلك هو نفسه
الغرض من الحرب الصهيونية ، وكما زجت الصليبية بيت المقدس في دعواها
تضليلا تستر به أغراضها من الفتح والملك والافساد في الأرض ، فكذلك
الصهيونية لا تريد من وراء دعواها في هذا البيت المقدس إلا الدولة والملك
لتكون سرطانا في جسم العالم العربي يقضى على أممه ودوله ، وتقوم تلك الدولة
اليهودية به — لا قدر الله — في وسط الوطن الاسلامي مباءة بغى وضرار
وافساد ، تفرق فيه أبناءه ، وتؤلب عليه أعداءه .

وقديما كان الصليبيون من الغرب والتتر من الشرق يدا واحدة على العرب والمسلمين ، واليوم أوروبا وأمريكا من الغرب وروسيا من الشرق يدا واحدة كذلك على العرب والمسلمين : فأهلاً بالتاريخ يميد نفسه ، ويدعوننا الى ما نشأنا عليه من أحداث ، وما عرف لنا من واقف ، ليكتب الابناء والأحفاد من صحف المجد بأيديهم مثل ما كتب الآباء والأجداد .

ما هذه البروق والرعود ؟ وما هذه الزلازل والانهزلات ؟ وما هذا العالم تتحزب أحزابه ، وتتكتب كتائبه ، وتجتمع أممه ودوله من مشرق الأرض ومغربها ، تسوقها الدسائس الدنيئة والأغراض السافلة ، لتروع الهادين ، وتخيف الآمنين ، وتحارب المسالمين ! . ما بال هذه الحضارة التي كان يظنها الناس قسطاس العدالة ودستور الحقوق ، وأساس التقدم في جميع مناحي الحياة ، قد ارتدت على أعقابها خاسرة مرتكسة في هذا الدرك من التعصب والجهالة ، حتى عميت عن الحق في أجلى مظاهره وأثبت مواضعه وأحق قضاياها ، فاندفعت في حمية الجاهلية تدوس العدالة ، وتغتصب الحقوق ، وتثير الحروب ، وتعثر في الأرض فسادا .

سبحانك ربى ! أياكون للذهب الصهيوغى وغيره من ضروب المادة كل هذا السلطان في الأرض ، أو تحط الروحانيات والمعنويات السامية في الناس الى أن تصبح مهينة ذليلة تسحق تحت أقدام المادية الغليظة التي نهضت في الأرض بقوةها وجبروتها عملاقا ماردا وشيطانا رجيا ، ترهب الناس بفظاعته وتخيفهم بقوته . هو في الشرق الشيوعية وجيوشها الحمراء ، وفي الغرب الرأسمالية وقابلهما الذرية : ثم بعد ذلك تتظاهر هذه المدنية الخداعة فتذكر الإنسان وحقوقه في ملكه ، وفي تقرير مصيره ، الى آخر ما يجأرون به في الشدة والضيق ، وينسونه في الفرج والسعة . فمن يراؤون ؟ وعلى من يكذبون ؟ أياظن هؤلاء الناس أن الله الذى خلق السموات والأرض بالحق وأقامها لأعظم غاية من الحق ، يحيط به علمه وتديره وإرادته : أياظنون أن الله قد دفع هذا الخلق كله الى بضعة نفر من طواغيت الأرض يعلنون فيه الفساد والفسيان ، ويرفون باسم الشيطان راية البغى والعدوان ! . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا . راجعوا التاريخ أيها الناس وقلوبوا صفحاته : لقد كان النبي من الانبياء عليهم الصلاة والسلام ،

أو المصلح من المصلحين يأتي وهو نقطة من الحق في خضم متلاطم الأمواج من الباطل ، فلا تزال هذه النقطة تتسع وتتسع ، ولا يزال أمرها يكبر ويمتد حتى تغمر اليم على سعتة وتلاطم أمواجه ، وتحيل ذلك المحيط من الماء الاجاج عذبا زلالا سائغا للشاربين . ذلك مثل الحق والباطل ، وهو مثل خالد لا يزول : وإن عى الناس عن ذلك فلينظروا إلى هذا المثل الذي افتحننا به حديثنا ، فخذ ثمانمائة سنة على التقريب ، كان للعرب والمسلمين مع المتعصبين عليهم من أهل البغي والمدوان نفس هذا الموقف الذي يقفه الصيونيون وأنصارهم من العالم شرقا وغربا ، وكان زعيم العرب والمسلمين إذ ذاك هو البطل العظيم والملك العظيم : صلاح الدين الأيوبي . ولقد تألب المشرق والمغرب كلاهما على العرب والمسلمين في ذلك العهد ، وأجابت الأمم عليهم بخيلها ورجلها ، فدهمها الصليبيون من الغرب ، ودهمها التتر من الشرق ، وارتكب الفريقان في طريقهما إلى هذه البلاد مع كل أمة أوقعها سوء الحظ في طريقهم أشنع وأبشع ما رواه التاريخ من تشكيل وتدمير ؛ وكانت مصر كما هي اليوم قطب الرسى وزعيمة اللواء ، وقلب العروبة والإسلام ؛ فجمعت العرب والمسلمين جميعا تحت لوائها ، ووقفت للدنيا كلها بالمرصاد ، تضرب الصليبيين بإحدى يديها وتضرب التتر بالأخرى ، واستمرت الحروب وطالت وامتدت أيامها ونسكباتها ، حتى ردت مصر التتر أربع مرات ، أولاهها في معركة « عين جالوت » سنة ٦٥٧ هـ بقيادة ركن الدين بيبرس ، وكانت آخرها بالقرب من « دمشق » سنة ٧٠٢ هـ في عهد الملك الناصر ، محمد بن قلاوون الذي هزمتهم جنوده هزيمة منكرة ، وكان عدد الأسرى منهم في هذه المعركة عشرة آلاف أسير فقط ، فضلا عن القتلى والجرحى ، وكانت هذه الموقعة هي الفاصلة بين حق مصر والعرب والمسلمين ، وباطل التتر المعتدين الظالمين . أما الصليبيون فكانوا من قبل ذلك وفي أثنائه في حرب طاحنة دائمة مع العرب والمسلمين . وقد استمرت هذه الحروب ما يقرب من مائة عام ، وسقطت آخر دولة لهم بالشام سنة ٦٩١ هجرية . فله أنت يا مصر من بلد عظيم ، ولله العرب والمسلمون ! .

ماتنا سنة تجتمع فيها الدنيا كلها على مصر ، ومن ورائها العرب والمسلمون ، فتقف لهم طول هذه المدة رافعة الرأس ناصعة الجبين ، صامدة ثابتة لاتهين

ولا تلين ، ولا يفل لها حد ، ولا يثنى لها عزم ، حتى لاحت تباشير الصباح ،
وبزغ فجر النصر ، وتقدمت مصر والعرب أمام العالم كله تركز راية المجد على
أعلى قمة في تاريخ الجهاد ، والعاقبة للمتقين .

فإذا ينتظر المتألبون المنعصبون الباغون على العرب والمسلمين اليوم ،
إلا أمثالها . ليكون ذلك إن شاء الله ، ولتعلن نبأ بعد حين . وإذا كان الأحزاب
في الدهر الأول قد لاقوا نكالهم على يد — صلاح الدين — وخلفائه من بعده ،
فإن كل ملك ورئيس دولة وحاكم في بلاد العروبة والاسلام اليوم ، ليعتبر
نفسه خليفة من خلفاء صلاح الدين ، داعياً بدعوته ، وقائماً بأمره . وإن الشعوب
العربية والاسلامية اليوم هي بحمد الله أكثر عدداً وأعز نفراً . ذلك إلى أن
الحق هو الحق ، والباطل هو الباطل ، فما نصر به الله العرب والمسلمين من تأييد
ومعونة فيما مضى ، سينصرهم بمثله اليوم ، وهو سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم
النصير : فلا يهولنكم معشر العرب والمسلمين ذلك الضجيج والتهريج ، ولا يخيفنكم
من القوم ما جمعوا من جمع ، ولا مما أعدوا من عدة ، ولا ما لوتوا به من جيش
دولى وغير دولى : فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع
الصابرين .

أيها العرب والمسلمون :

أخلصوا النيات ، ووحّدوا الصفوف ، وجاهدوا باسم الله في سبيل الله ؛
واعلموا أنكم تقفون مع القوم أمام سنة الله القاهرة في الحق والباطل ، والله تعالى
يقول : « بل نقذف بالحق على الباطل ، فيدمغه فإذا هو زاهق ، ويقول :
« وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

دعائم الاستقرار

في التشريع القرآني

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني

المفتش بالأزهر

من طبيعة الإنسان أنه ينفر من كل تكليف يحد من حريته ، ويقيده في تصرفه بشيء من القيود . ذلك أن الانسان -- من بين الكائنات الحية -- ذو اعتداد بنفسه ، وشعور بقوة التفكير وسلطانه العقلي : فهو يتساءل دائماً : لماذا يقيد ؟ وبأى حق يقيده الآخرون ؟ وهل هم في تقييدهم إياه منصفون أو متحكمون ؟ فإذا استطاع أن يجيب على هذه الأسئلة في نفسه إجابات معقولة يطمئن إليها ، أو أن يسمع من غيره إجابات تريحه وتطمئنه ، قبل مبدأ التقييد والنزول عن حريته ، واعترف بحق الذي يقيده وأذن لسلطانه ، وهيساً حيانه على حساب هذا القيد طائعاً مختاراً حتى يصبح بعد حين أمراً مألوفاً لديه ، يحبه ، ويدافع عنه ، ولا يرضى به بديلاً : أما إذا لم يقتنع بالإجابات النفسية أو الخارجية عن هذه الأسئلة أو عن بعضها ، فانه يثور على هذا القيد أو على من يحاول فرضه عليه ، أو يبيع نفسه للتخلص منه في خفية كلما أمكنه هذا التخلص وأمن معه على نفسه وماله وما يهمه . لهذا كانت كل القوانين والتكاليف محتاجة إلى دعائم ثلاث ، لكي تستقر وتؤدي إلى الغاية منها ، وتصبح في نظر المجتمع قاعدة التعامل والسلوك : تلك الدعائم الثلاث هي :

- (١) إقناع المكافين بحاجتهم إلى قبول مبدأ التقييد في الجانب المعين الذي يراد التكليف به ، وفرض أى نوع من أنواع الالتزام فيه : وبعبارة أخرى : مجيء هذا التقييد بعد أن يشعر المكافون أنفسهم بحاجتهم إلى مجيئه .
- (٢) إقناعهم بشرعية السلطة التي عنها يصدر هذا التقييد .

(٣) إقناعهم بأن هذا التقيد قد جاء على قدر الحاجة ، فلم يشعل ولم يسرف .
هذه هي الدعائم الثلاث التي تستقر عليها القوانين ، وترسخ في المجتمع ،
ونكسب الهبة والاحترام ، وتأمين شر الانتفاض عليها ، والتفلت من سلطانها
في السر أو العلانية ؛ ولذلك لا تعمر القوانين أو التكاليف التي أساسها مجرد
الرغبة من فارضها دون الشعور بها من جانب المكلفين ؛ ولا تعمر القوانين
التي تفرض من غير ذي حق مشروع في فرضها ، لأن سنادها حينئذ هو القوة ،
والقوة عارض يزول ؛ ولا تعمر القوانين التي يشعر المكلفون بها بأنها ثقيلة
فادحة تكلفهم من الأعباء فوق ما يستطيعون ، أو تتجاوز بهم حدود ما تقضى به
الحاجة ولو كان محتملا في نفسه .

* * *

ولقد قام التشريع القرآني في كل ما جاء به على هذه الدعائم الثلاث ؛ ولذلك
كان هو الشريعة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان ، القادرة على أن تبث في
العالم أسباب الطمأنينة والرضا والأمن والسلامة ، وأن تقيه عوامل الزلزل
والاضطراب والفوضى .

أما الدعامة الأولى : وهي إقناع المكلفين بحاجتهم الى التقيد بتشريع معين
في أمر معين ، فإننا نرى لها مظاهر في الكتاب الكريم ، نذكر منها ما يأتي :
(١) كان القرآن الكريم لا ينزل في مكة إلا فيما يتصل بالعقائد وأصول
الرسالة وأمّهات الأخلاق والفضائل ، ولا نكاد نجد حكما تفصيليا في أية ناحية
من النواحي العملية نزل في مكة ؛ وهذا أمر طبيعي لأن القوم حينئذ لم يكونوا
مستعدين لتقبل أي قيد يقيدون به في أحوالهم ونظامهم الاجتماعي ؛ فقد كانت
عروق الشرك ضاربة فيهم ، متشبثة ببرائتها في عقولهم وقلوبهم ، وكانوا من ناحية
أخرى وحدات متناثرة تتمثل في العصبيات القبلية وما يتفرع منها ، متخذة ألقا
أضيق كعصبيات العشيرة أو البطن أو الفخذ أو البوّة الى أب قريب ؛ ومثل
هذه الوحدات لا تكون أمة واحدة منجانسة ذات أهداف واضحة ، وميول
متلاقية . فلو أن القرآن الكريم عاجلهم في هذا الطور بالتشريع التفصيلي ، وكلفهم
مع الإيمان والتوحيد بهذه القوانين التي نراه قد عني بها فيما بعد حين كان ينزل

بالمدينة ، لعرض أحكامه وقوانينه ، بل دعوته كلها للضياع ، ولكان مثله كمثل من يذر الحب في أرض غير صالحة - أو فترة غير صالحة - للإنبات والإثمار ، دون أن يمهدها ويشقها ويمسوها ، ويبني لبذوره فيها أسباب الصلاح ، من رى وتعمد ، وأوقات مناسبة .

والخلاصة في هذا الجانب أن التشريع الإسلامي القانوني لم يأت في مكة ، ولم ينزل به القرآن لأهلها ؛ لأن البيئة لم تكن شاعرة بحاجة إليها ، ولا مستعدة لتلقيه بالقبول ؛ ولهذا توفرت آيات الكتاب الكريم في هذه الفترة على تطهير هذا المجتمع من أدران الشرك ومفاسد العقيدة والأخلاق ، شأن الذي يهدم ويزيل الانقاض قبل البناء .

(٢) عندما استقر شأن المسلمين كأمة ، وتميزوا في المدينة كدولة ناشئة لها شئون داخلية وخارجية ، لم يكن هم القرآن أن يشرع الأحكام ويرتبها ارتجالاً حتى تصور أن الأمر كان أمر قوانين تهباً ونصاع ويأق بها إلى الناس لينفذوها حين تعرض لهم مشاكل تنصل بها ؛ لم يكن الأمر كذلك ، وإنما كان التشريع ينزل على حسب الحوادث ؛ فإذا برز في محيط المسلمين أمر يحتاج إلى حكم نزل هذا الحكم ، وإذا غنى المسلمون بالسؤال عن شيء أو التماس تشريع فيه أجيئوا إلى ذلك حسب ما تقضى به أحوالهم ؛ ولذلك يجد فيما ذكره المفسرون والمشتغلون بالقرآن أبواباً من العلم هي ما يعرف بأسباب النزول ، ونجد الروايات تتكفل في جانب كثير من الآيات ببيان الشأن الذي نزلت فيه ، والفضية التي كانت سبباً في هذا التشريع ، والإحساس الاجتماعي الذي تهباً له وتطلبه ، ودعا إليه وترقبه .

ومن أراد أن يتجلى له ذلك فليرجع إلى هذه الأسباب في كثير من الآيات التشريعية في شئون الزواج والطلاق واللعان والنفقات والمهور ، وفي شئون الحجاب ودخول البيوت وآداب الاجتماع العامة والخاصة بين الأسر والأفراد والمروسين والرؤساء ، وفي شئون العبادة وشروطها ورخصها ، ونحو ذلك .

ونكتفي هنا بذكر مثال واحد هو مثال المجادلة ، وهي المرأة التي كان زوجها قد ظاهر منها ؛ حدث الرواة أن أوس بن الصامت قال لزوجته خولة بنت ثعلبة ،

وقد غضب لمراجعته إياه في شأن من شئونه : أنت على كظفر أمي . وهي عبارة كان العرب في جاهليتهم يحرمون بها نساءهم على أنفسهم ، فلما سكن غضبه أراد أن يماودها ولكنها أبت حتى تستفتي في أمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلقت إليه ، وقصت عليه قصتها ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أراك إلا قد حرمت عليه ، فراجعته وقالت : يا رسول الله إنه ما ذكر لفظ الطلاق ، فقال لها : لم ينزل على في أمرك شيء وما أراك إلا قد حرمت عليه ، فظلت تراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجادله وتقول : يا رسول الله إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب في ، فلما خلا سني ، وثرث بعاني — أي كثر أولادي — جماعني عليه كأمة وتركني إلى غير أحد ، فإن كنت تجد لي رخصة يا رسول الله فحدثني بها ، فلا يزيد الرسول عليه الصلاة والسلام على أن يقول لها : لم ينزل على في أمرك شيء وما أراك إلا قد حرمت عليه ؛ ثم اتجهت المرأة إلى الله شاكية ضارعة تقول : رب أشكرك إليك وحدتي ، وشدة فاقتي ، وما يشق علي من فراق زوجي ، رب إنك تعلم أن لي منه صبية صفارا إن تركتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلى جاني لم يضرهم ، فأذن الله لشكواها ، وقبل ضراعتها ، وأنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم قوله : قد سمع الله قول التي تجادل في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتأسا ، ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتأسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم .

فالظاهر إذن كان نظاما معروفا عند العرب ، وقد علم الله أنه نظام صائر بالتشريع الإسلامي إلى الإلغاء لأنه غير صالح للبقاء ، ولكنه مع ذلك لم يعاجل بإلغائه ، وتركه حتى تنبأ له الجو التام بعد وقوع هذه الحادثة المؤثرة ، والحاج الزوجة فيها على الله ورسوله مما ألفاه .

وفي ذلك دلالة واضحة على أن التشريع القرآني لم يكن يأتي لمجرد أخذ الناس به وإملائه عليهم ، وإنما كان يأتي تلبية للحاجة ، وبجارية لتطلب الحوادث والرأى العام إياه .

(٣) نجد القرآن الكريم يقرن الأحكام التي يشرعها غالبا بما يدل على انبناء تشريعه فيها على مصالح الناس أنفسهم ، وعلى أن أحوالهم تتطلبها ، ولا تستقيم بدونها ، فيعطى بذلك فكرة واضحة عن أن المشرع لا يشرع لمجرد الرغبة في أن يشرع ، ولكن ليحقق مصلحة معينة بعد أن تتضح حاجة المجتمع الى تحقيقها ، وعدم صلاحه بدونها ؛ ومن ذلك أنه يعمل لكثير من الأحكام تعليقات تبين أحيانا الباعث الذي يبعث عليها ، وأحيانا المصلحة التي تتضمنها ، وأحيانا المضار التي تترتب على إهمالها وعدم الأخذ بها .

يقول الله تعالى في تحريم نكاح المشركات والإنتكاح الى المشركين :
 «ولا تسكحوا المشركات حتى يؤمن» ، «ولا تؤمنوا» ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ،
 «ولا تؤمنوا المشركين حتى يؤمنوا» ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ،
 أولئك يدعون الى النار ، والله يدعو الى الجنة والمغفرة بإذنه ، ويبين آياته للناس
 لعلهم يتذكرون ،

لا شك أن أمر النكاح واختيار الزوجة أو الزوج أمر له أهميته وخطورته ، ولا شك أن البيئة الإسلامية بيئة مقتطعة من بيئة العرب المشركين ، وقد كانوا جميعا أهل وطن واحد ، وبينهم وشائج قرى وصلات معاملة ، وأنواع من الصداقات والتعارف ، فإذا أراد مسلم أن يتزوج ، ووقع اختياره على مشركة فليس هذا عجيبا ، وربما طغت عليه عوامل الرغبة والحرص على هذه الزوجية فقدمها على عوامل الأخوة الدينية ؛ فلما حرم الله زواج المشركين والمشركات قرنه بأمرين :

أحدهما : أن الاختيار الزوجي لم تقتصره الطبيعة على جانب معين حتى يشعر الإنسان بأنه إذا لم يفرز ببيغيته ، ويحقق طلبته من هذا الأفق بالذات فإنها لا تحقق ، ولكن في أفقه الخاص المحيط به المشارك له في العقيدة والرأى فرصا للاختيار يتحقق بها مطلب من لا يريد التعت ، فيمكنه أن يجد زوجات مؤمنات وأزواجا

مؤمنين ، وإذا كان في جانب المشركين والمشركات شيء من عوامل الاغراء والترجيع أثار في نفسه الإعجاب ، فليذكر أن الإيمان صفة ترجع سائر الصفات عند الموازنة ؛ فلو أن أمة مؤمنة وزنت بامرأة مشركة لكان لها في نفس المؤمن رجحان وإيثار ، ولو أن عبدا مؤمنا وزن برجل مشرك لكان له في نفس المؤمن رجحان وإيثار ؛ فهو بهذا يثير فيهم نخوة الإيمان ، ويقابل بها نخوة المعازمة والمكاثرة والتفاخر بالزوجية . ولا شك أنه يصيب من ذلك هدفه ، والقوم مؤمنون لا يعدلون بإيمانهم شيئا ما من أغراض هذه الحياة .

الثاني : وصفه المشركين والمشركات في هذا المجال بقوله « أولئك يدعون إلى النار ، فإن معناه : كيف يمرض المؤمن نفسه وما عسى أن يرزق به من بنين وبنات ثمرة لهذه الزوجية إلى خطر الارتقاء في أحضان الشرك المفضي إلى النار ؟ وهل مثل ذلك في القياس إلا كمثل امرئ يلقى بنفسه طائعا مخارا في النار ويظن أنه في حصانة منها وإنما لا تحرقه ؟ وديك قد تحصن هو منها فهل يضمن حصانة ذريته ؟ لا شك أن الحزم هو الابتعاد عن النار جملة ، والتمس الحياة في كف آمن غير هذا الكيف .

ويقول الله جل ثناؤه في أمر الحيض : « ويسألونك عن الحيض قل هو أذى فاعزلوا النساء في الحيض ولا يمتسجنوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، إن الله يحب النوايين ويحب المتطهرين » .

فيعمل التشريع في ذلك ، وهو وجوب اعتزال النساء في الحيض ، وعدم قربهن إلا بعد التطهر ، بعلّة طييبة يتقبلها كل عاقل حريص على نفسه وصحته ، وهي أن هذا الحيض أذى : وفي هذا التمييز دقة وبراعة وإقناع ، حيث جعله نفس الأذى ، وأتى به صالحا لأن يفهم منه معنى التأذى والنفرة من المنكر والتزهد عنه ، وأن يفهم منه معنى التأثير على الصحة وإلحاق الضرر بالبرآء المعافين . وفي العدد القادم إن شاء الله تعالى ، تتابع الحديث في هذا الموضوع ؟

المسلمون بين الامس واليوم

كيف تقدموا ، ولماذا تأخروا ، وكيف ينهضون ؟

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين

المدير المساعد لمكتب البحوث والثقافة

بالأزهر الشريف

لو أننا ذهبنا نستعرض أحوال المسلمين في عصورهم الأولى ، ورحنا نستقي أخبارهم الماضية ، ونستقري ما كانوا عليه من مجد وسؤدد — لوجدنا أنهم قد سبقوا في كل شأن من شئون الحياة ، وبرعوا في كل ناحية من نواحيها ، ولاقتنع معنا كل منصف بأنه لم تكد شمس الإسلام تسطع فوق ربيّ تلسم الديار المترامية ، والربوع الفسيحة ، حتى كان المسلمون قد انتهوا من تملك ناصية العلوم والفنون ، والأخذ بزمام الثقافة والعرفان ، وحتى كانوا قد تمت لهم الصدارة الدولية والاجتماعية بالرغم من سلطان تينك الأمتين العظيمتين العريقتين في الحضارة والرقى ، وحتى ظهر من المسلمين القواد العظام ، والسياسيون المحضكون ، والعلماء النحارير ، والمشرعون المتمكنون ، والأدباء الزايع ، والأطباء الماهرون ، والفلاسفة الممتازون ، كما ظهر بينهم عدد غير قليل من رجال الفكر والإصلاح ، وأرباب الأموال والتجارات ، وعباقرة الإداريين والمحكّثين ، وأعلام الولاة والوزراء ، وسوى أولئك وهؤلاء ممن ساروا بأمتهم قدما نحو ذرى الكمال والسمو ، ووصلوا بها إلى قم العلا والمجد .

ولو أننا رحنا بعد ذلك كله ننقب بين ذخائر المكتبة العربية ، ونبحث في جواهرها وكنوزها الثمينة ، ونحصي تلك الثروة العلمية الطائلة التي خلفها لنا المسلمون الأولون في تلك الأحقاب الزاهرة ، لا استطعنا أن نقول — ونحن مطمئنون كل الاطمئنان — : إن هذه الثروة لم تسبق إليها أية أمة من الأمم ،

ولم تتح لأي شعب من الشعوب ، ولا استطاعت تلك الثروة أن تتحدى ثقافات الأمم المختلفة في شتى أنحاء الأرض بما حوته من نفائس وفرادى في كافة المواد والفنون ، وسائر العلوم والمعارف .

ولعل القارىء الكريم بعد هذا كله ، يفكر في أن يسألني عن السرّ في هذه العظمة ، وعن السبب في هذا النهوض ، الذي لا يوجد له نظير بين أمم الإنسانية جمعاء .

والسبب يسير كل اليسر ، سهل أعظم السهولة : ذلك أن العالم كان متمطشا أكبر التمتع إلى دين ، يقوم من اعوجاجه ، ويصلح من فساد ، وينتقل به من حياة الجاهلية الجاهلاء إلى حياة راقية مهذبة ، وينتشل من وهدة الهمجية والفوضى والاضطراب ، إلى مجتمع تسود فيه الطمأنينة ، ويتوفر فيه النظام والاستقرار ، يأخذ بيده إلى حيث يشعر بالوجود الصحيح ، والإنسانية الفاضلة : فما إن أشرقت الأرض بنور الإسلام ، حتى وجد العالم فيه ضالته المنشودة ، ورأى فيه طلبته المبتغاة ، وأقبل عليه ينفياً ظلاله فيها يضمن له أنها عيشة ، وما يكفل له خير حياة ؛ وما إن أنزل الله تعالى القرآن الكريم ، والدستور العظيم ، والحجة البالغة ، والحبل المتين ، وأمدّه الرسول بالسنّة المطهرة ، شارحة له ، ومبينة لمعانيه ، حتى أيقن أهل النصفة والاعتدال بأن هذا هو الدين الصالح ، والنظام المحكم ، والمنهاج القويم ؛ لما اشتمل عليه من حقائق صحيحة ، وأصول متينة ، وعقائد سليمة ، وأحكام يسيرة ، وحنيفية سمحة ، وهداية واضحة ، وآداب راقية ، وأنظمة عالية ؛ ولما جاء به من أخلاق كريمة ، ومعاملات سامية ؛ ولما حث عليه من صفات نبيلة ، وفضائل حميدة ؛ ولما رغب فيه من برّ ومعروف ، وخير وإحسان ؛ فسارعوا إلى الدخول فيه أفواجا ، وهرعوا إليه من كل حذب وصبوب ، وبادروا إلى الأخذ بقواعده ومناهجه ، والإصغاء إلى نصائحه وإرشاداته ، والسير على تعاليمه ومبادئه ؛ وآمنوا بأن الانضمام تحت لواء الإسلام هو خير طريق ، يحقق لهم ما يرجونه من سعادة وفلاح ، ويضمن لهم ما يصبون إليه من حياة إنسانية رشيدة ، ومثل اجتماعية عالية ، ومعنويات مثالية كاملة .

وقد انضم إلى هذا أن المسلمين الأولين كانوا ممن صفت نفوسهم ، وعلت همهم ، وقويت عزائمهم ، وندرت شجاعتهم ، وأخلصوا لعقائدهم ، واستمسكوا بدينهم ، وعملوا به في السر والعلن ، وراقبوا الله في الجهر والخفاء .

وكانوا ممن يضحون الدنيا في سبيل الدين ، ويذلون كل مرتخص وغال لإعلاء كلمة الله ؛ ومن يرون أن الدين هو كل شيء ، وأنه يجب أن يفندى بأعز ما يملكه المسلم ؛ ومن يعتقدون أن كل فرد منهم إنما هو مجند لخدمة الاسلام ، وأن هذه الخدمة يجب أن تكون في الميدان الذي يتيسر لصاحبه أن يذبح فيه ، وأن يبرز فيه بأثر نافع ؛ فكان منهم المشتغلون بالفتوح والإمارات ، والقضاء والإفتاء ، والتعليم ، والحراسة والرباطة ، وغيرها ؛ وكان منهم المشتغلون بالعلوم يدرسونها ويجمعونها ، ويدونونها ، ويرتبونها ، ويستخرجون أنواعها وضروبها ، ويتكبرون طرقها وأساليبها ، ويضعون فيها المعاجم والمدونات ، والموسوعات والمصنفات التي نفاخر بها اليوم ، والتي تعد أعظم ما وصلنا إليه في العلوم الإسلامية والقرآنية وعلوم السنة ، والعلوم اللسانية ؛ فوصلوا بفضل كل هذه الجهود الجبارة إلى تشييد صرح ذلك المجد الشاخص الذي سجله لهم التاريخ ، والذي يشهد بما كان لهم من مضاء العزيمة ، وصدق الإيمان ، وطول الباع في شتى العلوم والفنون .

وهناك سبب جوهري آخر غير كل هذا الذي ذكرناه ، وهو أن تلك النشأة القوية المبدئية ، قد كونت في طبائع المسلمين الأولين خلقا إسلاميا عاما ، تركز في نفوس أفرادهم وجماعاتهم ، وزود بكل الصفات والمفومات التي تبني عليها حضارة الأمم ، وتموم عليها عظامتها ، ويتأسس فوقها رقيها ومدنيتها ، وقد استطاعوا بوساطة هذا الخلق المتين ، وهذه النشأة الدينية القوية أن يبلغوا ما وصلوا إليه ، بما ألعنا إليه آنفا .

هذه هي أم الأسباب الخاصة والعامة التي نهضت بالمسلمين الأولين ، وسمت بهم إلى مشارف العزة والكمال ، وجعلتهم يخلقون في سماوات المجد والرفعة .

فقل لي بربك : ماذا يكون الحال ، لو أننا أردنا أن نوازن بين حالة المسلمين اليوم ، وبين حالتهم بالأمس ؟ وماذا تكون النتيجة الواقعية لهذه الموازنة باترى ؟
إننا نعتقد أن أى مسلم ينطوى ضميره على أقل ذرة من الإنصاف والمعدلة ، سيشعر بالخجل العميق من نتيجة هذه الموازنة ؛ لأن حالتنا اليوم ، تكاد تكون في جماتها وتفصيلها على النقيض من حالة أسلافنا الأماجد ؛ فالنفوس ضعيفة ، والهضم كليلة ، والعزائم فائرة ، وسوق العلوم باثرة ، وحركة النشاط فيها خامدة ، والوازع الدينى مفقود ، والاعتصام بمبادئ الإسلام منعدم ، والأخلاق الإسلامية لا أثر لها في بيئاتنا المختلفة ، والتنشئة الدينية لا تسلم في أوساطنا من السخرية والنمذ .

وباليت الأمر قد وقف بنا عند هذا الحد ، بل لقد تعداه الى أن شاعت بيننا أمراض خلقية فتاكة ، وتفشت فينا آفات اجتماعية وبيئية ، وتمكنت في نفوسنا عادات مرذولة ، وموروثات فاسدة ؛ وإذا لم يتداركنا بلطفه ، فستزل بنا الطامة وتحل بنا الكارثة .

ولكن ، هل معنى هذا أننا نأس من العلاج ، وأنها نقطع الأمل في استعمال الدواء الناجع ؟ كلا ، فإن هذا لا يليق بشعوب عريضة في المجد ، ولا يحمل بأهم أصيلة في المعالي ، ولا يتفق وما جاء به الإسلام من دعوة الى العمل في الدنيا بالجد والسكد ، والهمة والنشاط ، ومن أنه دين المدنية والعمران ، واليقظة والنهوض ؛ إنما يجب — درأ لكل تلك المفاسد التي عليها المسلمون الآن — أن تكون النواة الأولى التي نضعها لإنهاض المسلمين من غفوتهم ، وإقامتهم من كبوتهم ، وإيقاظهم من رقوتهم ، هي أن نرجع بهم الى حظيرة الإسلام ، وأن نعود بهم الى تعاليمه الصحيحة ، وأن نربهم على مبادئه القسوية ، وأن نغرس في نفوسهم أن آدابه وفضائله هي التي يجب أن تكون الهدف الأول لهم في كل ما يصدر عنهم من أعمال وأفعال ، وأن نجعل الروح الإسلامى هو السائد في جميع معاملات المسلم ؛ فتكون معاملته لربه بمراقبته في السر والعلن ، وقيامه بفعل المأمورات ، وترك المنهيات ؛ وتكون معاملته لنفسه باختياره الأصلح والانفع لها في أمور الدين والدنيا ؛ وتكون معاملته للخلق برعاية الأمانة في كل ما يتصل بهم ، ويرتبط بحقوقهم ؛

فيجب أن يكون الرعاة أمناء مع رعيّتهم فيما وكل اليهم من أداء الأمانات ، ورد الظلمات ، والعدل في الحكومات ؛ ويجب أن يكون العلماء أمناء مع الناس بأن يرشدوهم الى الاعتقادات والأعمال النافعة لهم في الدنيا والآخرة ، وأن ينجبهم التعصبات الباطلة ، والمذاهب الفاسدة ؛ ويجب أن يكون الآباء والأبناء والأزواج والأقرباء والأصدقاء أوفياء بعضهم لبعض ، وأمناء في الحقوق المطلوبة من كل منهم نحو الآخر .

وهكذا يجب أن تسيطر الأخلاق الإسلامية على كل حركة من حركاتنا ، وأن تتمثل في كل تصرف من تصرفاتنا ؛ فانه لا تصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، وإنه لا يستقيم لها حال ، ولا يعظم لها شأن ، إلا إذا اهتدت بهدى الإسلام ، واسترشدت بوصاياه وحكمه ؛ وفي هذا يقول القرآن الكريم : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم » . ويقول الرسول الأعظم : « تركت فيكم أمرين ، لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله ، وسنة نبيه » .

فان نحن نجحنا في هذه الخطوة ، وأخذنا بها أنفسنا ، واستطعنا أن يكون لها السلطان الروحي في بيئاتنا وأوساطنا الخاصة والعامة ، فان المسلمين - ولا ريب - سينهضون نهضة قوية مباركة ، يكون لها أبعد المدى ، وأكبر الأثر في محيط الإنسانية العام .

حقيقة الكرم

قال حاتم الطائي :

أضاحك ضيفي قبل أنزال رحله ويخضب عندي والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القري ولكنما وجه الكريم خصيب

تحقيقات

حول عقيدة ابن رشد

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

تمهيد :

اجتازت الفلسفة الإغريقية بغداد ومصر وسوريا إلى بلاد الأندلس، تحدى بها شروحا وتوجيهاتها، وتحليلاتها وإجلالها، ونقدها ومهاجماتها، فكان إزهارها في بلاد المغرب هو أوان ذبولها وتدهورها في المشرق؛ ولكن يبدو أن فلاسفة الأندلس قد أغضوا عن مجهودات أسلافهم الشرقيين في إيضاح الفلسفة الإغريقية، أو حرصوا على الأقل على أن يظفروا بهذا المظهر، فلم يعرضوا - في مجموع آرائهم - لمنتجات أولئك الأعلام الشرقيين إلا بالنقد والتجريح، ورميهم بعدم الفهم تارة وبالتدليس أو بمجاملة الجماهير تارة أخرى.

ولقد كان من نتائج هذا النهج الذي انتهجه هؤلاء المفكرون بازاء أسلافهم أن اقتنع بعض مؤرخي الحركة العقلية في المشرق بأن إنتاج المغريين يمكن أن يعتبر سلسلة أجنبية عن إنتاج أسلافهم، فأهملوهم في مؤلفاتهم عن عمد، بل عن سبق إصرار. وإذا، فلم يكن سطوع أسمائهم نتيجة لمجهودات المؤرخين الشرقيين، وإنما كان الفضل فيه للدرسين من الأوروبيين الذين تأثروا بهم تأثرا عميقا. ومن آيات ذلك أن ابن جبرول كان في القرن الثالث عشر أحد المنابع الأساسية للأفلاطونية الحديثة، وفي الوقت عينه صار مذهبه أعظم المذاهب التي طبعت الفرائسيكانيين بطايفها؛ وأكثر من هذا أن ابن رشد كان له - في فلسفة العصور الوسيطة - أثر بلغ من العظم حدا جعل كل باحث يشعر بأن الضرورة تقضي

عليه بأن يخصص بين منتجات تلك البيئة في هاتيك العصور فصولاً مسببة . ولقد أطلق الباحثون المحدثون على هذا الجانب من مذهب ابن رشد اسم الرشدية اللاتينية " Averroïsme latin " وهم يعنون بذلك تلك الحركة التي بدأت تنمو وتنتشر في جامعتي باريس وبادوا منذ القرن الثالث عشر والتي ظلت زاهرة متلاثة في هذه الجامعة الأخيرة إلى عهد النهضة كما سنبين ذلك في موضعه ، وليس ذلك لحسب ، بل إن القديس توماس — رغم مهاجماته إيّاه — كان يدعو أعظم شراح أرسطو على الإطلاق . وقد تأثر به إلى حد أن استعار في مؤلفه العظيم نفس الصور التي ابتكرها ابن رشد في شروحه لأرسطو (١)

وإذاً ، فقد تبين مما تقدم أن مصادر المعرفة الحقة للفلسفة الأندلسية توجد في المغرب أضعاف وجودها في المشرق ، وأن من الوفاء للعلم عامة ولهذا الجانب من جوانب الإنتاج الفكري خاصة ، أن نتعقب هذه الفلسفة — ولكن دون أن نهمل مصادرها المباشرة من كتب أصحابها — في مؤلفات الأوروبيين غير مباينين بما عسى أن يقال من أننا اعتمدنا على مصادر دخيلة ، فإن ذلك سيكون من جانب القائلين به لونا من ألوان التجني ، إذ أن أولئك الباحثين الغربيين هم ورثة المنتجات المغربية عامة ، والتراث الرشدي خاصة ، عن طريق اللغتين : العبرية واللاتينية اللتين ترجمت إليهما مؤلفات هؤلاء الأعلام إبان محنة الفلسفة ، ومن ثم لا ينبغي أن تصرفنا العصبية عن تعقب الحقائق في مواطنها ، لأن العلم لا وطن له .

ولا جرم أن هذا التصميم يحملنا على أن نتعقب بدياً ما كتبه أولئك الباحثون عن عقيدة ابن رشد ، وما وصلوا إليه من نتائج فيما يتعلق بإيمانه مستبطين تلك الأحكام من رأيه في الدين صراحة أو تليحاً . ولقد عثرنا في الشرق والغرب الإسلاميين وفي العصور الوسيطة المسيحية على أحكام لعدد وافر من العلماء والمفكرين أصدروها على هذا الحكيم ، وفيها من التباين والتضارب ما لا يعلم مداه إلا الله ؛ ففريق يرتفع به إلى السماء ، وآخر يهوى به إلى الأرض ، وثالث

(1) P. Palhoriès, Vies et doctrines des grands philosophes, t. II, p. 59.

يرى أنه مؤمن قوي الإيمان ، ورابع يعلن أنه في طلائع الملاحدة والزنادقة ،
 بيد أنه لما كان مبعث هذه الآراء إما التعصب وضيق الصدر من حكم العقل ،
 وإما الجهل والتحيز ، فقد شئنا أن نضرب عنها كلها صفحا مكتفين بآراء العلماء
 المحدثين ، لأنها كانت نتيجة خالصة لبحوث عناية ، وثمرة بريئة لتأملات فكرية ،
 وبالتالي لا يمكن إغفالها أو التغاضي عنها ، وإن كان هذا ليس معناه أنها سلت من
 الهفوات ، كلا ، بل هي مشتملة على كبوات ، وسوف نشير الى ما فيها من انحراف
 عن جادة الصواب ، ولكننا على يقين من أن ما فيها من هنات ليس ناجما
 في مجموعته عن تحامل أو عن سوء قصد ، لانا نعرف عن أكثر أولئك القوم
 في غير هذا الموضع ما يرفعهم في نظرنا الى مرتبة الأبرياء الذين لا يناون عن
 الحق إلا مجزا أو قصورا ، والله وحده الكمال .

والآن إليك آراء أولئك الباحثين ، فاستمع إليها برحوبة صدر حتى تنتهي منها ،



ليتيسر لك نقاشها في جو على مفعم بالهدوء .

رأى رينان :

أعلن إرنست رينان في كتابه ، ابن رشد والمدرسة الرشدية ، أن هذا
 الفيلسوف باحث حر الفكر إلى حد بعيد ، وأنه لا يتعمد في بحوثه بدين ولا عقيدة ،
 وأن لادينيته صريحة في كثير من مؤلفاته ولا سيما في شرحه لجمهوريّة أفلاطون ،
 وهذا يدل على أنه عثملى محض ، وفيلسوف نقي ، لم يشغل نفسه بأولئك الدينيين
 المكبلين ، بل كان يفلسف بحرية : نعم إنه لم يعتمد أن يصطدم بالدين ، ولكنه
 لم يحاول كذلك أن يزعب نفسه ، ليتجنب الاصطدام به ^(١) .

قد يتبادر إلى ذهن الباحث على أثر مطالعته عبارات رينان السالفة أنه لا علم
 له بتلك المؤلفات التي كتبها ابن رشد ، ليوافق فيها بين الفلسفة والدين والتي طالما
 شغل نفسه فيها بالمتكلمين ، وحاول جهد طاقته أن يتجنب الاصطدام بالدين :
 ولكنه إذا أمعن في كتاب رينان تبين أنه يعلم هذه المحاولة من جانب ابن رشد ،
 وأنه يعلمها بعلمتين : إحداهما حرصه على حياته ، وثانيتهما الرحمة التي استولت على

(١ و ٢) انظر الصفحة ١٢٩ و صفحة ١٦٤ وما بعدها الى صفحة ١٧٣ من كتاب

نفسه فجعلته يتجنب إيلام الجماهير بالطعن في عقيدتها ، وفي هذه الخطة من جانبه برهان ناصع على سعة عمله وخلوه من التعصب (١) .

لا ريب أن في هذه الدراسة الرينانية شيئا من الحقيقة وإن كانت لم تصل إلى إيضاح الخطة الرشدية الصحيحة ، ولا إلى إثبات الأسباب الحقيقة التي حدثت فيلسوفنا إلى سلوك هذا النهج ، ولكن عذر رينان في هذا التقصير واضح وهو أنه لم يطلع على النصوص الرشدية العربية أو على ترجمة دقيقة لها ، بل إن كل ما وصل إليه منها هو بضع شذرات من تهافت التهافت ، باللغة اللاتينية ، وملاحظات ترجمها الأستاذ مانك عن اللغة العبرية ، وهذا لا يمكن الباحث من إصدار حكم موثوق به على المؤلف ، وفوق ذلك فإن رينان كان لادينيا وكثيرا ما هاجم المسيحية بالذع العبارات ، ومن ثم هو مشغوف بتصيد زنادقات من الهواء ونسبتها إلى من يكتب عنهم من المفكرين ، وقد صيرت هذه الخطة مؤلفاته غير معتبرة في البيئات العلمية .



مركز تحقيقات فكرية إسلامية

رأى مانك :

قرر مانك أن ابن رشد — بالرغم من أن آرائه الفلسفية لا تتفق مع عقيدته الدينية — كان يعني كثيرا بأن يكون مسلما حسان الإسلام (٢) . وقد استنتج مانك هذا الحكم مما رآه في نصوص ابن رشد من اعتناؤه بالتدليل على أن الدين والفلسفة يدعوان إلى حقيقة واحدة .

ومما لا شك فيه أن الأستاذ مانك قد لاحظ أن هذا تناقض من جانب ابن رشد ، وعذره في عدم إدراكه حقيقة هذه المسألة واضح كذلك ، وهو أن نصوص فيلسوف قرطبة لم تعمل إليه على حقيقتها .

رأى دونكان ماكدونالد :

شرح ماكدونالد بأن ابن رشد قد تعهد في كتابه تهافت التهافت ، أن

(١) انظر صفحة ٥٥٤ وما بعدها من كتاب « مزيج من الفلسفتين العربية والعربية »

يضع نقاباً سميكاً على زندقته، أما رسائله التي زعم أنه أراد بها التوفيق بين الفلسفة والدين، فهو لم يدع فيها نافذة مفتوحة أمام فلسفته الحقيقية^(١).

ومعنى هذه العبارة أنه كتب هذه الكتب الدينية ليتق بها سخط المسلمين، ثم أقفل أبوابها في وجه الأفكار الفلسفية الحقيقية، ولم يدع في داخلها مجالاً إلا للآراء العاسية.

رأى ت. ج. دي بوير:

ذهب دي بوير في كتابه الأول «تناقضات الفلسفة» الذي نشره في سنة ١٨٩٤ إلى أن ابن رشد باحث عقلي متمتع بآرائه، وأن التناقضات المقصودة التي ظهرت في كتبه لم تكن إلا سخرية بسيطة من لدن عالم يحتقر العامة ولا يأبه للوسائل التي يسلكها لتحويل اتهامات الجماهير الغبية عن نفسه، فهو مثلاً حين يرض لمسألة خلود النفس يقرر أنها ليست في متناول الفكر البشري، على حين أنه لا يعتقد هذا، بل هو مقتنع بأن العقل الإنساني قادر على بحث هذه المسألة^(٢).

أما في كتاب «تاريخ الفلسفة في الإسلام» الذي نشره في سنة ١٩٠١ فهو لم يعد إلى البحث في هذه المسألة، بل تجاوزها في غير أكثر، كأنها لا تعني الباحث، أو كأنه عدل عن رأيه فيها ولم يشأ أن يذبح القراء إلى هذا العدول.

ليس من الغريب أن يكون «دي بوير» في كتابه الثاني قد عدل عن آرائه التي قررها في كتابه الأول، لأن عدداً من الباحثين المتأخرين في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي قاموا ببحوث هامة حول هذا الموضوع اعتمدوا فيها على نصوص ابن رشد العربية، وكان من نتائجها أن ضعفت الآراء القديمة القائلة بتقية ابن رشد أو بسخريته من جماهير المسلمين.

ومن أشهر العلماء الذين قاموا بهذه البحوث الأساتذة: أ. ف. ميرين، وميجيل أزين، وليون جوتييه. وسطوف معك في الكلمة الآتية نبذ من آرائهم، فإلى الملتقى.

(١) انظر صفحة ٢٧٦ من كتاب «نمو على التوحيد والفقه الاسلامي» لما كتبته لوندرو سنة ١٩٢٣.

(٢) راجع صفحة ٩١ من كتاب «تناقضات الفلسفة» تأليف بوير.

أسباب تأخر المسلمين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر
الأستاذ بكلية اللغة العربية

عرضت في مقالى السابق تحت هذا العنوان بمجلة الأزهر (عدد صفر)
للموضوعات الآتية :

١ - ضعف المسلمين فى العصور الأخيرة ، وتأخرهم فى ميدان الحضارة ،
على حين تقدم غيرهم .

٢ - بيان أن هذا التأخر لا يصح أن يعزى الى طبيعة الاسلام ، لأنه دين
الحضارة والمدنية الصحيحة ، ولا الى طبيعة المسلمين أنفسهم ، لأنهم لا يختلفون
عن أسلافهم الأماجد عقولاً وأفهاماً .

٣ - نتيجة ما ذكر ، وهى أن هذا التأخر إنما جاءهم من عوامل خارجية
وأسباب طارئة ، أثرت تأثيراً سيئاً فى حياتهم الدينية والدنيوية ، وأخرتهم عن
بعض الأمم فى مضمار الحضارة والتقدم والرقى ! .

وهذا بيان الأسباب بالتفصيل ، وقد رأيت أن أقسمها الى ثلاث درجات :
أولى ، وثانية ، وثالثة .

أسباب التأخر من الدرجة الأولى :

أهم هذه الأسباب ما يأتى :

١ - عدم تيقظ المسلمين وسائر العرب للدسائس الخفية والمكائد الخبيثة
المهلكة ، التى مصدرها من قديم المنافقون من المشركين واليهود ، ومن أسلم من
بعض الأعاجم الوثنيين والروميين الذين ملأ الحق على الاسلام صدورهم ،
وعششت البغضاء بين جوانحهم ، وباضت حمائم الترات العصبية والدينية فى أبراج
نفوسهم . قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر ! . .

هؤلاء الذين أشرت إليهم في كلامي أمثال عبد الله بن أبي ابن سلول ، رأس المنافقين في عصر النبي صلى الله عليه وسلم : ثم عبد الله بن سبأ ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبّه من اليهود ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي بالولاء ، اليهودي الأصل ، الذي اشتهر ببغض العرب : وفيروز أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة ابن شعبة ، وزباد ابن سمية أو ابن أبيه ، وغير هؤلاء من الرافضة والخوارج ، وكثير من الموالي الذين دخلوا في الاسلام أو تظاهروا به ولم يكن لهم غرض إلا الوقعة بالمسلمين وبالرب جميعا ، وأغلب هؤلاء الكائدين للإسلام وأهله من اليهود والمشركين . وقد صدق الله العظيم حيث يقول : لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، فإن الواقع والتاريخ حقا صدق هذا الكلام الذي : لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولنوضح الآن كيف كان عدم اليقظة لدسائس من ذكرنا سببا جوهريا من أسباب تدهور المسلمين قديما ، وقد بقي أثره إلى عصرنا هذا .
تجمع من أعداء العرب المسلمين ثلاث جماعات من أخطر جماعات الشر والخبث والخديعة .

الأولى - جماعة اليهود المطبوعين على الشر وكراهية المسلمين ، لأنهم أصحاب الدين الجديد ، ولأنهم قتلوا أكابر اليهود الذين ناصبوا النبي وأصحابه العداء ، فخرضوا قريشا وغيرها من القبائل العربية على مناوئته ومحاربته ، قصدا إلى إبطال دعوته وطمس شريعته : أمثال كعب بن الأشرف ، وابن أبي رافع الملقب بتاجر أهل الحجاز : ولأنهم طردوا من بقي من اليهود على دينه في عصر عمر رضي الله عنه .

الجماعة الثانية - المنافقون وأولادهم وحفدتهم من مشركي العرب ، الذين كانوا أضرب بالاسلام من أعداء الاسلام والذين قال الله فيهم : يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون ، وكان على رأسهم عبد الله ابن أبي ابن سلول ، الذي هلك في السنة التاسعة من الهجرة .

الجماعة الثالثة - مبغضو العرب من الموالي الذين دخلوا في الاسلام بعد فتح فارس والروم ، كالخوارج والرافضة وعلى رأسهم زياد بن سمية .

نظمت تلك الجماعات أعمالها تظليماً سرياً دقيقاً محكماً ، بحيث يتوارثه الأبناء والأحفاد من الآباء والأجداد ، ووضعت الخطط والبرامج للقضاء على الاسلام ومحو سلطان العرب ، وتذرعت في سبيل تنفيذ غايتها الكبرياء بالدهاء والمكر والخديعة ، والتستر باسم الاسلام . وهذا النوع من خطط الجماعات السرية الضارة لم يكن للعرب عهد به ، لا في جاهليتهم ولا في إسلامهم ، لأن العرب معروفون بظهارة القلب ، وصراحة ضمير ، وخلوص النية ؛ لذلك آمنوا مكر هؤلاء الدخلاء في الدين وفي العروبة ، واثمنوهم على الأرواح والأموال والأعراض ، حتى ولوهم الإمارات وقيادة الجيوش ، ولم يتخذوا الحيطة لمراقبة حركاتهم السرية الإجرامية ، التي نفذوها بكل حذق ومهارة ؛ وكلما انقضى من هؤلاء جيل خلفه جيل آخر ، يفرق سابقه في المكر والدهاء وتلبس الحيل الشيطانية ، والوسائل الجهنمية ، حتى اتوا على بذل الخلافة الاسلامية من قواعده ، وأصبحوا هم أصحاب الصولة والدولة ، وذوى الحكم والنفوذ في أغلب بلاد العرب والاسلام !

والى القارىء طرفاً من فعالهم الشبكية ، وأحاديثهم الشيطانية ، ومؤامراتهم الهدامة :
المؤامرة الأولى :

قتل عمر بن الخطاب غيلة : بدموا أولى مؤامراتهم الخطيرة بقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، الخليفة الثانى بعد أبى بكر رضى الله عنهما ، لأنهم رأوه صعد بالعرب إلى قمة المجد في زمن وجيز ، بعد أن طرد اليهود من الحجاز ، ودوخ ملوك كسرى والروم ، ففتح الأقطار واختط الأمصار ، وأقام العدل بين الناس ، وأخذ العرب يجتثون ثمار كدوم وجهادهم في سبيل الله ، ويعيشون في ديارهم وخارج ديارهم عيشة راضية عزيزة هنيئة رغيدة !

وقد غزل خيوط تلك المؤامرة ، وحاك نسجها ، وحبك أطرافها أبناء كسرى وقيصر ، الموتورون من عرب الإسلام في عهد عمر بقتل آبائهم ، ونفويض ملكهم ، وأسر ذرائعهم ونسائهم ؛ وقد أعانهم على ذلك اليهود المطرودون من المدينة ، ومن أسلم منهم ومن المسيحيين واختار الإقامة بالمدينة ؛ مثل كعب الأحبار الذى أعلن عن موت عمر قبل وقوعه بثلاثة أيام !! ومثل جفينة المسح

الذي استقدمه سعد بن أبي وقاص من الخيرة ليعلم أولاد العرب الكتابة والقراءة . وعلى الجملة فقد أحكمت حلقات هذه المؤامرة لإحكامها بالنا ، لأن أصحابها رأوا الفرصة سانحة لقتل عمر ، خشية اطراد نمو الإسلام وتقوية دعائمه بهذا الخليفة العادل الفاتح !

ولست الآن بصدد التحقيق في كيفية مقتل عمر رضي الله عنه ، فان هذا الامر قد تكفل به المؤرخون ، وإنما أريد أن أبين أطوار تلك المؤامرة التي تعد أكبر حدث في تاريخ الاسلام ، إذ بنتيجتها فتح باب الشر على المسلمين والعرب ، ولم يغلق هذا الباب إلى وقتنا هذا . وقصدي بذلك أن يتنبه المسلمون والعرب إلى أمثال تلك المؤامرة ، فيقتلوها في مهدها ، ويظفروا بلادهم بمن يشكرون في نياتهم من الدسائس والجواسيس ، أعداء الوطن والدين والمروية .

كيف دبرت المؤامرة ؟

أولاً — استفاضت الأخبار عند أبناء فارس والروم أن عمر الخليفة لا يتخذ لنفسه حرساً كما يصنع ملوك العجم وفياصرة الروم ، للحفاظ على حياتهم من الاغتيال ، ولاظهار أبهة الملك وعظمة الحاكم .

ثانياً — أرسل كسرى رسولاً من لدته ليستبطن صحة هذه الأخبار ، فلما جاء رسوله المدينة أخذ يسأل عن مكان الخليفة فدل عليه ، فوجده في المسجد نائماً على الأرض وليس معه حارس ولا حاجب ، فقال هذا الرسول (الجاسوس) قوله المشهورة : « عدلت فأمنت فتمت يا عمر ! » وتيقن أن هذه الكلمات وقعت عند العرب المسلمين موقع القبول والرضا ، لأنها تدل بظاهرها على تقدير عمر والإعجاب بخطته الرشيدة ، مع أنها تخفي وراءها أمراً خطيراً وشرّاً مستطيراً . ثم عاد الرسول إلى كسرى فأخبره بما رأى ، وشاع هذا الخبر في أنحاء فارس ، فقوى عزيمتهم على الانتقام من عمر باغتيال حياته .

ثالثاً — من سوء حظ المسلمين في ذلك الوقت أنه كان بالمدينة عاصمة الخلافة حفنة من عناصر السوء لم يأبه لهم أحد ، ولم يلتفت العرب إلى حركاتهم المريية . مع أنهم كانوا الرأس المفكر والعقل المدبر لهذه المكيدة الكبرى ، وهم : الهرمزان أمير الأمواز الذي أسلم خوفاً من السيف بعد أن قضى الصلح

بينه وبين المسلمين مرارا ، وجفينة المسيحي الذي تقدم ذكره وفيروز أبو لؤلؤة المجوسى بطل هذه المؤامرة ، الذى سبك الحيلة على سيده المغيرة بن شعبة والى الكوفة ، فجعله يستأذن عمر فى قدومه المدينة ، بدعوى الانتفاع بصناعاته المتعددة وهى الحدادة والنجارة والتماشة . هذا هو الظاهر ، وفى الواقع هى الستارة التى تستر بها هذا العليج لتنفيذ فعلته الأثيمة ، وجرمه الشنيع ؛ وكعب الاحبار اليهودى الاصل الذى استتر باسم الإسلام ، وكان على علم بتدبير المؤامرة ، إن لم تقتل إنه رأس المتآمرين وكبيرهم الأمر الناهى .

اجتمع هؤلاء الرهط ورأوا الفرصة قد سنحت تماما لاغتيال الخليفة ، فأوعزوا الى من وقع عليه الاختيار لتنفيذ الجريمة ، وهو فيروز المجوسى ، ن يشكو سيده المغيرة الى عمر ليخفف عنه ما كلف به من المال ، لأنه يبهظه ولا يقدر على أدائه ، فسأله عمر عن صناعاته ، فقال فيروز (حداد . نجار . نقاش) فقال عمر : ليس ما طلب اليك أدائه بكثير ، فانصرف أبو لؤلؤة وهو يتوعد عمر !!

رابعا — لم تكن شكوى أبى لؤلؤة الى عمر — إلا ستارا كشيئا يخفى وراءه ما قصده هذا اللعين ، وهو التثبيت من معرفة شخص عمر ، حتى لا يخطئه فبقول غيره ، وقد فعل ذلك بعد أن أعينه الحيل فى سبيل الوصول الى التمكن من رؤية عمر ، لأنه بحكم دينه المجوسى ممنوع من حضور مجالس الخليفة التى كانت تعقد غالبا فى المسجد ؛ لذلك تظاهر بالشكوى ، لعل به بأن عمر لا يرد شاكيا كائنا من كان .

خامسا — جاء دور التنفيذ ، فصنع أبو لؤلؤة خنجرا له طرفان ، نصابه فى وسطه . وعين المتآمرون يوم النتل وساعته ، وهو اليوم السادس والعشرون من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ وقت صلاة الصبح . وفى فجر هذا اليوم كان عمر رضى الله عنه يوقظ الناس للصلاة ، ثم حضر المسجد وأقيمت الصلاة ، فسوى الصفوف على عادته ، ثم كبر تكبيرة الإحرام ، ولم يكد يشرع فى القراءة حتى طعنه أبو لؤلؤة المحرم الاثيم عدة طعنات إحداهن تحت السرة ، وهى التى أنفذت مقاتله - رضى الله عنه - وقضت عليه ، ثم مر القاتل بين الصفوف فطعن ثلاثة عشر من المسلمين ، مات منهم سبعة ، ثم قتل هذا الملامون نفسه بيده . وبقتل عمر ختمت حياة بطل عربى اعتر بالاسلام . ولا يسمنى بعد هذا إلا أن أقول :

إن القلب ليتفطر حزناً ، وإن النفس لتتحرق كدماً ، وإن العين لتكاد تبكى
دماً لفقدك يا أمير المؤمنين !!

ولو شئت أن أبكى دماً لبكيتك عليه ولكن ساعة الصبر أوسع !

هذا ، والعامل المنصف لا يشك في أن قلبه رضى الله عنه كان نتيجة حتمية
لتساهل المسلمين في التحري والتدقيق الواجبين في شأن من يشك في حسن نيّتهم
من عرفت عداوتهم ، وبدت عليهم مخايل الحُبث والدهاء .

نعم : إن هذا قضاء الله الذي لا مرد له ، والذي أشار إليه النبي عليه السلام
في حديثه ^(١) قبل وقوعه : ولكن هذه العقيدة لا تتنافى مع الأخذ في الأسباب
واستعمال الحذر ، لعدم علمنا بما قدره الله في المستقبل ، ثم يكون بعد ذلك ما يكون .
فترك اليقظة وعدم التنبيه لحركات العدو تقصير لا ينبغي أن يكون ؛ وقديماً قال
العربي الحكيم : حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة .



مركز تحقيقات كليات علوم إسلامية

(١) الحديث المشار إليه رواه البخاري ومسلم في (كتاب الفتن) . ورواية البخاري
أخصر . وما هي ذي :

« عن شقيق قال : سمعت حذيفة يقول : بينما نحن جلوس عند عمر إذ قال : أيكم يحفظ قول
النبي صلى الله عليه وسلم في الفتنة ؟ قال : فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره : فكفرها
الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال : ليس من هذا أسألك ، ولكن
التي تموج كموج البحر ! قال ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين . إن بينك وبينها باب
مغلقة . قال عمر : أيكم الباب أم يفتح ؟ قال بل يكسر . قال عمر : إذا لا يفتح أبداً .
قلت أجل . فلما لحذيفة : أكان عمر يعلم الباب ؟ قال نعم ، كما أعلم أن دون غد ليه . وذلك
أنى حدثته حديثاً ليس بالأغاليط . فبهذا أن نسأله من الباب ؟ فأمرنا مسروقاً فسأله فقال
من الباب ؟ قال : عمر ... انتهى الحديث . واقول : الفتنة التي أشار إليها الرسول عليه السلام
هي فتنة قتل عثمان وعلى والحسين رضى الله عنهم ، وكسر باب الفتنة كناية عن قتل عمر
رضي الله عنه .

التقليد

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم العدوى

شيخ معهد أسيوط

لا أريد أن أتناول هذه الكلمة بالبحث على طريقة الفقهاء والمشرعة فأبين أن مذهب المقلد مذهب مفتيه أولا، ولا باسان المتكلمين في العقائد فأدلل على أن إيمان المقلد مقبول أو غير مقبول؛ وإنما أريد معالجة بحثها من ناحية أنها مسلك من مسالك الأفراد والجماعات في هذه الحياة، وأنها صفة من صفات الناس وحال من أحوالهم في سلوكهم بعضهم مع بعض، وأنها بهذا الاعتبار قد تكون خيرا محضا إذا كانت تسابقا في الخيرات، وتنافساً في صنوف البر، وترسماً للثل العليا في نواحي الحياة وما يعرض للجماعات من مشاكل؛ وعندئذ نرى الدين يشرح لها صدره، ويشد أزرها، ويقوى دعائماً، ويجورها عطفه ورضاه، فنراه يكثر من الحث عليها ويتفنن في إغراء الناس بسلوك طريقها واتباع منهجها بشتى الطرق والأساليب، لأنها إذ ذاك تسير بالأمم الى ما يليق بها من مجد ونفاز.

وتارة تكون شرا محضا إذا كانت محاكاة للفسدين، وتقليدا للبضلين، وتشبها بالأشرار المجرمين، فتكون همزة الوصل الى الدمار، وتثير على الأفراد والجماعات الزعازع، وتقض منهم المضاجع، وتصبح وسيلة قريعة لانهايار الأمة وتلاشي سلطانها في وقت وشيك. وعندئذ تكون في نظر الدين سبة في جبين الانسان الذي وهب العقل فلم يحكمه ولم يهتد بهديه، ووصمة عار لذلك الانسان الذي كرمه الله على كثير من خلقه فكفر النعمة وغمط الحق.

فالتقليد إذا كان خيرا محضا كالتسابق في الخير، والتنافس في صنوف البر، والتفاني في كل ما ينفع الأمة ويعود عليها بالخير والبركات، كالتسابق في بناء الوحدات الصحية التي تصون صحة أبناء الأمة وتوفر لهم خير العلاج، وكالتنافس

في مساعدة المحتاجين وإغاثة الملهوفين، وتشديد الملاجئ والمستشفيات، وتعليم أبناء الفقراء، تقليدا للخيرين، وتشبها بالبررة الكرام في كل عصر، وترسما للثل العليا في الشعوب الراقية : أقول إذا كان التقليد على هذه الشاكلة كان من الأمور العظيمة التي لها خطرهما في بناء كيان الأمم، وكان بالتالي مطمح نظر الدين ومحل تقديره . فلا غرابة إذا رأيناه يكثر من طلبه وبحث عليه، ويسميه تأسيسا بالقدوة الحسنة، وتشبها بالكلمة من الناس . على أنه في الواقع مذهب الطريق مذهب السبيل : لأنه غريزة في الإنسان يصاحبه في كل أطواره، تتم عنه حركاته التقليدية أيام طفولته، وحرصه على أن يكون من النبغاء كهلا وبافعا، ومبالغته في أن يكون اسمه مسجلا في صحيفة العباقرة رجلا كامل الرجولة . ولا غرو إذا كانت منزلة التقليد في نهضات الأمم مكانة اللبنة الأولى من الأساس، والحجر الأول في مقومات الجماعة .

أجل : فإن للأمم عوامل كثيرة، تنهض بها، وتأخذ بيدها إلى معارج الرقي . فالعلم النافع طريق صحيح لرقى الأمم : وسهر الزعماء والقادة على مصالحها سبيل معبد لسعادتها : وإخلاص بنينا في خدمتها وتفاهمهم في توفير أسباب عزتها يسير بها إلى المجد قدما : والدفاع عن حرياتنا والذود عن حماها والتضحية في سبيلها بكل مرتخص وغال . موصل جيد إلى ما تبغيه من عزة وما تريد من سلطان .

لكن هذه العوامل كلها مع كثرتها وكثرة ما تحويه من مزايا، لا تفصل بالامة إلى قمة المجد إلا إذا كان لبنينا في كل هذه النواحي قدوة حسنة يرسمون خطاها، ومثل عليا يأتسون بها في كل ما يريدون لها من عزة وبعد صيت .

أما مكانة التقليد بهذا المعنى الجميل في نظر الدين فهي المكانة التي لا تبارى ولا يشق لها غبار : ألم تر إلى القرآن الكريم كيف حثنا على التأسي بالقدوة الحسنة في قوله تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » ، وفي قوله تعالى « أولئك الذين هدى الله فبهم دام اقتده » ، وكيف وضع بين أيدينا صورا شتى لعباده الذين صاحبهم التوفيق ولأزمهم السداد : لنسير على نهجهم ونقتدى بسيرتهم . استمع إلى القرآن الكريم حيث يقول : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » ، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ، والذين

يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقرا ومقاما ، إلى آخر الآيات الكريمة في سورة الفرقان .

بل انظر إلى القرآن الكريم كيف يصور لنا سلوك الكلمة من الناس ، والسعداء من عباده المؤمنين الذين عرفوا قيمة العمل فجدوا نفوسهم على تحصيله ، وقدروا حسن الجزاء فسموا إليه حثيثا ؛ وذلك حين يصف لنا حال المتقين فيقول : « إن المتقين في جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم ، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستفرون ، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ، ليفتح أمامنا العمل الصالح ، ويمهد لنا سبيل الإخلاص فيه لنسعد بما أعده الله لعباده المخلصين .

وانظر إليه كيف يصف حال المؤمنين الصادقين الذين لم تزل قدمهم لوسوسة المفسدين وتخيل المنافقين ، وكيف يضع يدنا على ما كان منهم من حزم وثبات وصبر وجلد ، وكال دين وقوة يمين ، إذ يقول : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فأنقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم . » وكيف نهانا سبحانه عن أن نركن إلى قرناء السوء ، أو أن نسير على نهجهم المعوج فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر . »

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بأن نفتدى برسوله العظيم ونترسم خطاه ، فلأنه صلوات الله وسلامه عليه كان المثل الأعلى للإنسانية الكاملة في كل صفاتها ومميزاتها ، ولأن السير على نهجه القويم الذي رسمه لنفسه في السلوك كاف في وصول الإنسان إلى كل ما يبتغي من عزة أو يريد من كرامة

فهو صلى الله عليه وسلم مثل أعلى في الثبات على المبدأ ، ولذا قال حين طلب منه الكف عن دعوته : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته ، مع كل ما كان يلقاه من خصوم الدعوة من شدة وبطش .

وكان مثلا أعلى في الانصاف ، ولذا يقول : « والله لو سرق فاطمة بنت محمد لقطعت يدها ، !

وكان مثلاً أعلى في التواضع ، ولذا قال لتلك المرأة التي ريمت منه وتملكها
الفرع بين يديه : « ليفرخ روعك فاني لست بجبار ولا متسلط قاهر ، وإنما أنا
ابن امرأة كانت تأكل القديد » !

وكان مثلاً أعلى في الصبر على الملمات والتسليم لقضاء الله ، ولذا قال حينما مات
ولده ابراهيم : العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا : وإنا لفراقك
يا ابراهيم لمحزونون . فياله من قدوة حسنة يحجب الناسى بها ، ومن مثل أعلى يتحتم
على المؤمنين الصادقين ترسم خطاه !

لا يبلغ الواصف المثني مدائحها وإن يكن محسناً في كل ما وصفا
وهذه المعاني السامية التي اختص بها صلى الله عليه وسلم ، هي التي طبعت
أصحابه بطابع الكمال ، ودرتهم على خير الخلال .

فها هو ذا عمر بن الخطاب كان مثلاً أعلى في الحرص على مصلحة الرعية
وتفقد أحوالها ليلاً ونهاراً : مر ذات ليلة في بعض شوارع المدينة فسمع امرأة
تتشدّد وهي في خدرها بيتين تشكو فيهما غيبة زوجها ، فسأل عنها فعلم أن
زوجها في الغزو ، قد طلت غيبته ، فأصدر أمراً بأن لا يفتب الجندي عن
أهله أكثر من أربعة شهور .

وكان مثلاً في الانصاف ، فتمدّ ضرب بدرته سعد بن أبي وقاص وهو خال
الرسول ، حينما رآه يتخطى رقاب الناس ليأخذ عطاءه ، فقال سعد : لم هذا يا أمير
المؤمنين ؟ فقال عمر : رأيتك تستهين بسطان الله في أرضه ، فأردت أن أعليك أن
سلطان الله لا يهابك !

وكانت تجبى إليه خيرات فارس والروم ومصر والعراق ، وهو الورع الزاهد
يلبس المرقع من الثياب ، ويأكل خبز الشعير بغير إدام .

هذه الخلال الكريمة وأمثالها هي التي ملكت على المسلمين في العصور الأولى
زمامهم ، واستولت على مشاعرهم ، فكانوا مثلاً علياً رقت بالإنسانية إلى أوج
عزتها ، وسعد الناس في رحابها ، واتسع سلطان الدولة الإسلامية ، وطبقت سمعتها
أجواز الفضاء ، وسارت مع الشمس إلى كل أفق ، وصاحبت القمر المنير في كل مطلع .

ولن تاريخ الأمم الإسلامية لحافل بالممثل العليا في كل نواحي الحياة ، ولم يكن ذلك مقصورا على الرجال لحسب ، بل كان للنساء الحظ الوفير في الشجاعة والصبر وقوة الإيمان والثبات إذا ادلهمت الخطوب أو اسود ليل النوائب .

فها هي امرأة أبي طلحة مات ابنها وأبو طلحة غائب في عمله اليرى ، فلما قدم الى البيت سأل عن حالة ابنة ، فقالت له امرأته : إنه لم يكن في يوم من الايام أحسن حالا ولا أهدأ بالاً منه اليوم . فاطمأن وقدمت له الطعام فطعم ، ولما أخذ قسطه من الراحة قالت له : يا أبا طلحة ألا تعجب لجيراننا ا كانت عندهم وديعة لبعض الناس فلما جاؤا يطلبونها غضبوا . فقال بئس ما صنعوا ، الوديفة لصاحبها شأوا أو أبوا . فقالت : إن ابنك كان وديعة لدينا من الله عز وجل وقد استرد اليوم وديعته . فزاد على أن أسترجع ، ثم ذهب الى الرسول الكريم فأخبره الخبر : فقال الرسول : إنها ستنجب لك أولاداً كثيرين . وقد حقق الله هذه البشارة النبوية لأبي طلحة ، فولدت له امرأته هذه عشرة أولاد كلهم حفظ القرآن الكريم .

ولقد بقى تاريخ أولئك الأقدمين مناراً للسايرين ، ودليلاً واضح الحجّة للعاملين ، الى أن فترت العزائم ، وتغلّبت الشهوات ، وجرف سيل المدنية الكاذبة كل حزم وعزم وخلق كريم .

على أننا في هذا العصر الحاضر يسرنا أن نرى في بني المسلمين في جميع الاقطار ميلاً كبيراً لتقليد أسلافهم الأولين ، والسير على طريقة أجدادهم الأجداد الذين بنوا لهم صروح المجد ودعّموا بنيان الاخلاق : فتركوا ما ألفوه زمناً طويلاً من التقليد الأعمى في كل شؤونهم : في البيوت والدور ، في إنفاق المال في غير النافع ، وإضاعة ثرواتهم فيما لا يجدى ، ومحاساة المفسدين في آرائهم ، والخروج على تقاليدنا الصالحة الموروثة ، والتظاهر بالوطنية في وقت الرخاء حتى إذا جد الجدد انماعوا وتلاشوا كما تنماع قطرة الندى تحت أشعة الشمس الوهاجة .

والفضل في كل ذلك للعدائد والنوب ؛ لجزى الله الشدائد كل خير ، نهبت منهم الغافل ، وأبقت كل كسلان ؟

شعراء الازهر

أحمد الزين

لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الجواد رمضان

المدرس بكلية اللغة

إذا كنت - يا زين - زين الأدب فأن كتابك زين الكتب
قلائد ، طوقت جيد البيان بهن ، وحليت جيد العرب
خلاق تزدى بنفح الرياض إذا ضحكك من بكاء السحب
وما المرء إلا خلاق كريم وليس بما قد حوى من نشب

هذه أبيات لشيخ الشعراء ، المغفور له اسماعيل صبرى باشا ، يقرظ بها كتاب « قلائد الحكمة » الذى ألفه الأستاذ المرحوم الشيخ أحمد الزين ، وهو لما يزل طالبا فى سن العشرين ، وقدم له الأستاذ العلامة محمد فريد وجدى بك بمقدمة فى فلسفة الأخلاق ، جاء فى ختامها : « هذا غيض من فيض أسوقه بين يدي ما أنا فيه الساعة من النظر فى أرجوزة الأخلاق الموسومة « قلائد الحكمة » للشاعر المطبوع الشيخ أحمد الزين : فقد جمعت فى أقل من ألف بيت ، ما تشئت من شمل الكلم النوابع ، وتفرق من درر الحكم البوالغ ... ولا غرو ، فقد نبغ الأستاذ الزين عبقرىا بطبيعته ، كبيرا على حدائقه ، مبرزاً وهو فى سن العشرين ، على فحول المعرقين ، .

من هذه القلائد فى آداب الأصدقاء :

أرى القطا أسرابا فاطلب الأصحابا
إن الصحاب مُعدة ذخيرة للشدة

هم زينة الإنسان وسـلوة الأحران
هم حلية المعطل وعم سلاح الأعزل
إياك والمنازعة فانها مقاطعة

وأذكر — وما أوجع الذكرى — أنه حينما كان يطيب لنا في نادى الشعراء ، قهوة عم حسين بشارع محمد على ، أن نغم بأثارة المرحوم الزين ، يقودنا المرحوم الأستاذ الهراوى ، فى نشيد منغوم ، تنجاوب أصداءه فتستوقف السابلة ، ويحتاج الزين ، فيتمذف كل واحد منا بمقطعة : فهذا جاهل ، وهذا متشاعر ، وهذا لو ذهبت كل كلمة من شعره إلى صاحبها ، لما بقى له شيء الخ الخ ونحن — مع كل أولئك — ما نزال نتغنى منشدين :

يمشى ، القطا أمرا با فاطلب الأصحابا
هكذا نغير ، أرى ، فنجعلها يمشى ، والقطا لا يمشى ، ولكنه يطير : لنزيد
فى ثورته وإفداعه ، حتى تبلغ من ذلك ما نريد . أواه
لله أيامنا المواضى لو كان ماض لنا يعود ! وهيات !
ومنها فى فضل العلم : *مرزق تحقيق كميونر علوم رمدى*

والعقل غرس طيب له العاوم صيب
يذبل منه ناضره إن لم يصبه ماطره
فروه بالمعلم وزكه بالفهم
والذهن مثل النار فى المرنخ والعفار^(١)
وختمها بقوله :

تلك سجايا عالية وذى عظام غالية
جمعتهما فى شعرى كلواؤ فى نحر
فى حين أن الأدبا فى أرض مصر تضبا
وباذل الآداب كباذل التراب
فكدت عنها أنكل لولا الامام الأفضل

(١) للرخ والعفار : شجرتان فيها نار ليس فى غيرها من الشجر ، ويسوى من أغصانها

علامة الزمان ومهبط العرفان
هذا فريد العصر وغرة في مصر
وذو الملا والمجد فيها « فريد وجدى »
تلك يد لا تكفر ونسبة لا تذكر

وقد طبعت هذه القلائد سنة ١٩١٨ : وكان قد سبقتها إلى الوجود ، القطوف الدانية ، فطبعت سنة ١٩١٧ : وهي « باكورة شعر الزين » ، جمع فيها طائفة من قصائده في مدائح بعض البارزين يومئذ ، وعلى رأسهم المغفور له صاحب العظمة السلطان حسين كامل ، طيب الله ثراه . وفي المنزل والعتاب ، وختما بتخميسه لمعلقة امرئ القيس ، الذى نشره قبل ذلك على حدة : وكان له في آفاق الازهر وخارج الازهر صدى بعيد المدى .

وعلى الرغم من قوة شعر الزين في هذه الباكورة الرائعة المبكرة ، فقد طغت عليها محفوظاته الزاخرة ، فظهرت المحاكاة في مواضع منها : قوية حيناً ، وضعيفة حيناً : ولكنها على كل حال بواكير نابغة موهوب .

من غزله الرقيق :

أهاج الشوق من سلمى اذكأر
وزار لها على الهجران طيف
تردت من غداها بليل
أترهب غرب سيفك أسد ترج
تسائل أربعا بالجرع أقوت
فما لطلوها تأبى جوابا
وقد حل البلى فيهن حتى
كأن لم تغن بالشمار ليلا
عشبة خفت بالركب القطار
وهل أبقى الهوى بي ما يزار ؟
كذلك يرتدى الليل النهار
وبعيتك التجلد حين ساروا
وتحتى رسمها ديم غزار
وأنى تنطق الدمن القفار
كأن على معالم قار كذا ،
ولم توقد بها للضيف نار

ومما يبدو فيه المحاكاة ، قوله : يدح ، علامة العصر ، وفريد الدهر ، وغر مصر ، الأستاذ محمد فريد بك وجدى ، معارضا مروان بن أبى حفصة في قصيدته التى أولها : « طرقتك زائرة ففى خيالها ، :

قفْ بالرُّبوعِ مسائلًا أطلالها
دَمَنَ عفونٌ ، وأصبحت عرصاتها
ولقد نعمتَ بها ودهركَ مقبل
دارَ ليضاء السوائفَ طافلة
وكانَ بارقُ ثغرها إن حدثت
وكانَ في فيها سلافاً قرقفا
عهدي بها تصلُ الحبال ، فما لها
أرأتَ نذيرَ الشيبِ لاحَ بمفرق
لا تحسبي يا نعمَ شبي كبرة
مما حمى عيني كراها أنى
ما زال ليلَ الجمل فيها ضارباً
أُمتٌ يجرُّها الصبا أذيالها
تُزجى بها قُلصُ النعامِ رئالها
بوعودِ خود ما خشيت مطالها
رودُ تَزييرِ على الفراق خيالها
هنديّةٌ ضمنَ القيون صقالها
تسقيك من بعد الكرى سلسالها
قطعت حبالك بعد وصلك مالها ؟
أم قد أطاعت في الهوى عذالها
لكنها غير الخطوب ، فيا لها !
في أمةٍ قد سوّدتُ جبالها
حتى رأيتك يا فريد ، هلالها



ومن الظريف الذي لا يتمضي عجبهُ ، خلق الاعتداد العمل بالفس ، الذي
شب مع الزين وصحبه إلى الحده ، فحدا به — وهو لما يزل طالباً — إلى أن يوجه
إلى المغفور له الشيخ عبد الرحمن قراعة ، وهو مدير الأزهر ، وفي الخلاصة من
أدبانه ، قعيدة من ثلاثين بيتاً ، يماتبه بها . ويبحث بها إليه : يقول له فيها :

تحمّل رعاكَ الله مني رسالةً
تقول له : إني صحبتك حجة
ألا إن سوء الظن بالمرء عجمة
ولا تنس يوماً من مسمى إساءة
ولا تك ممن غره الجهل فاغتمدى
وقد كنت لي ضرراً فساوره الضنى
وكان لسانى مُجتمه دون عرضكم
فن ظلمكم صيرتموه عليكم
يكيدون لي من غير ذنب إلى العلا
تبلغها عنى المدير المعظما
أظنك لي يوماً إلى المجد سلماً
نظائن بكل الناس شراً لتسلما
وإن هو أولاك انجيل وأزما
يعدُّ صديقاً من أتاه مسلماً
فنجته عنى وقد كان مؤلماً
وسيفاً على الأعداء منكم مصمماً
سليلاً ، وكان الظلم للمرء مغرماً
فن كاد فأيمدد بحبل إلى السما

أضيعت حقوق الأذكىاء بأرضكم وكنت أرى ألا تضاع وتهضم
فإن لم يكن للدح عندك حرمة فشيد بناء العدل إن كنت مسلما

* * *

فأما تخميس المملكة، فقد أحدث — كما أسلفنا — ضجة، كان بها خليفما؛
فإن القوة تشيع في أطرافه، ويضاعف الإعجاب به حدائنه ناظمه، مما طار بذكره
ومهد له من مجالس العظماء في الأزهر وفي غير الأزهر، وأثار في نفوس كثيرين
من لداته ومن غير لداته، الحسد له، والغيرة منه؛ ومن ذا الذي يسمع طالبا في
السادسة عشرة أو السابعة عشرة، يحارى أمير الشعر الجاهلي، الملك الضليل،
فيقول:

بكيت على ربع ورسم معطل يحود ثراه كل أنحم مسبل
وقات وقد حلت بفاج فأسل (قفانك من ذكرى حبيب ومزل
بسقط اللوى بين الدخول فحول،

ربوع بعيدا بالظعان عليها ودار بذات الأئل أطفل رثما
وأخرى بحزوى مثلما لاح وشمها (فتوضح فالتمرة لم ينف رسمها
لما نسجت من جنوب وشمال،

ويسير فيها على هذا الفسح البارع، حتى يختمها بقوله:
وما زال طير الأيك يسجع بكرة ولم يدر أن قد هاج لقلب لوعة
يحن وما تدرى له العين دمه (كان سكاكى الجواء غدية
صبحن سلافا من رحيق مفلفل،

ثم لا يثلا الإعجاب نفسه، أو يأكل الحسد قلبه؟

والحق أنه لو اطرده رقى الزمن في حياته العاملة بنسبة بدايته، لمات وهو
أمير الشعراء وشيخ العلماء؛ ولكن حرفة الأدب أدركته، منذ تخربه سنة ١٩٢٥
فأخذت ترفع عمله الصالح إلى أسفل، وأخرجت به بعدئذ الصدور التي كانت
تتسع لداله قبلئذ في الأزهر، فتركته يردد:

فيا لك بحرا لم أجد فيه مشربا على أن غيرى واجد فيه مسبحا !

أحرام على بلبله الذو ح ، حلال للطير من كل جنس ؟
ولا من سميع !

ثم عطف عليه المكتبة الملكية ، فساكنته في عمالها بالمياومة من سنة ١٩٢٦ حتى أدركه ، الإنصاف ، فرقاه إلى الدرجة السادسة .

زرت القسم الأدبي الذي كان يعمل فيه « الزين » منذ شهور ، فاستقبلني دون أصدقائي في القسم — وكلهم أصدقائي — وأخذ يطلعني على ثمرات جهوده : ثم قال : أنا أريد أن أعمل في الأزهر : قلت : إن في الأزهر شرا كثيرا لا تقوى على احتماله : قال : وكيف قدرت أنت على احتماله ؟ قلت : مكره أخاك لا بطل : إنني فيه كما قال أستاذك حكيم المعرفة :

فيا برق ، ليس السكرخ دارى وإيمانى رمانى اليه الدهر منذ ليل

قال : فلا كن معك في الجحيم ! قالت : سأرجو أولياء الأمور أن يندبوك لدراسة الأدب في كلية اللغة : قال : بل يدينوني تعبيننا : قلت : إن دون ذلك أدوالا ! قال : حاول : قلت : أبذل جهدى .

ثم زرت القسم الأدبي بعد ذلك بأسابيع ، ولما سألت عنه ، قيل لى : لنقل إلى وزارة المعارف ، قلت : عجبا ! وما يمنع الزين في وزارة المعارف ؟ قيل : إن « التنسيق » قد أهله للدرجة الخامسة : ولما لم يكن في ميزانية المكتبة خامسة خالية ، فقد نقل إلى « قسم الثقافة » في الوزارة ، ثم دنا للدرجة : قلت : خير . وتنظرت أن أقرأ اسمه في ترقية وزارة المعارف في الصحف : ففجأني نعيه بعد أيام !

ولم يقتصر النحس الذى لازم الزين ، على الحياة العملية ، بل أدركه -

في الأدبيات : فإن غيره من الشعراء الذين يعترفون للزين بالتقدم ، ويعتقد هو - وهو محق في الجملة - أنه أشعر منهم ، كالأستاذ علي محمود طه ، والأستاذ رامي ، والأستاذ محمود أبو الوفا . قد شغلوا كبار الفن الغنائى في مصر ، بآثارهم ، من الأشعار ، والموشحات والأزجال : ولم تسمح أم كلثوم ، ولم يسمح عبد الوهاب ، بتأحين مقطوعة للزين ، على تطلب ، وعلى صلاحية شعره ، وبخاصة ما صنعه لهذا الغرض كمقطوعة « العود ، للتغنى والتأحين : ومرد ذلك الى إصراره في الاعتماد بالنفس كما قلنا : ولا يتلاقى تيه وتيه : ففي المثل : « تيه مغنّ ، وعَظرف زنديق » .

وقد غلب على الزين : « الشاعر الراوية » منذ أحداثه ، لكثرة محفوظاته ، التي جرت في شعره أولا بحاكة وتقليدا ، ثم لما أفلح سرت فيه جزالة ، وغمامة وشدة أسر ورصانة قافية وحلاوة جرس . وكان الزين جميل الإلقاء ، لا يتكف ولا يتصنع ، ولا يمتنع الكلام مضغاً ، يغنى النفس ، ويسك السمع ، كما يفعل كثير من المتكلمين : بل كان يرسل الكلام على بحبته ، متغنيا مطبوعا ، فيخلب الألباب ، ويسحر النفوس ، ويستولى على القلوب .

وما أقيمت حفلة رثاء لعظيم من عظماء مصر ، إلا كان مكانه فيها بجانب شوقي وحافظ والمطران : يُذنى غيره ويُذكر ، ويرد غيره ويطلب : وهو في كل أولئك مطمح الأنظار ، وزين الحفلات !

أما بعد ، فلقد فقد الأزهر آنفا ، شاعرا أكسبه نفرا بلا ثمن : أجل ، لقد فقد الزين !

ابن مضاء القرطبي

والرد على النحاة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

— ٢ —

٣ — ويلج المؤلف في ذكر مساوي حذف العامل ، وما استتبعه من فساد وخطأ ؛ فهناك ضروب من الحذف في زعم النحويين لو أظهِر المحذوف لا استحالة المعنى وكثرت ، وكان التأليف تأليف أسوء بمجته الذوق وينوبه اللسان . واختار ابن مضاء للإبانة عن دعواه هذه مثالين :

١ — فهم يقدرون في أسلوب النداء — نحو يا عبد الله — العامل أدعو . ومن المقرر أن أسلوب النداء لإنشاء لا خبر ، ولو أن هذا الذي قدّره النحاة أبرز ، فقليل : أدعو عباد الله لا نقبل الكلام خبراً ، ولتغير الأسلوب وزال عن وجهه ؛ ومبعث هذا هو تقدير العامل ، وجعل قضيتته في العربية ضربة لازب لا مناص منها . والنحويون لم يكونوا ليغيب عنهم ما أورده عليهم ابن مضاء وألزمهم إتياء . وهم يقولون : إن الخبر قد يأتي في موقع الإنشاء ، كما يقال : سدد الله خطاه ، وأجزل ثوابه ، وهذا لا يحجده القرطبي فيما نعلم . وفي أسلوب النداء من الدليل على أن الغرض الإنشاء من لفظ الخبر لو صرح به ، مالا مجال لإنكاره . ويقول النحاة : إن العرب عدلوا عن ذكر العامل وإنابة الحرف عنه ، للنص على هذا الذي يحرص عليه المؤلف الناعي عليهم ، وإيكون الأسلوب إنشاء لا ريب فيه ، ولا احتمال يعتريه . وقد دعاهم إلى أن في الكلام تقدير أن النداء كلام مستقل ، والشأن في الكلام أن يتألف من اسم وفعل أو من اسمين . وما عهدنا كلاماً تألف من حرف واسم ، فهذا مبعث التقدير ، وليس مبعثه — كما يزعم القرطبي —

العامل . ويحسن أن أذكرها أن من النحويين من لا يقدر العامل في أسلوب النداء .
فيرى المبرد أن ^(١) حرف النداء هو العامل لصدقه . وسد الفيل ؛ ويرى أبو علي
الفارسي أن أدوات النداء أسماء . وإذا لا يتوجه هذا النقد إلى جميع النحاة ، كما
يوهمه كلام ابن مضاء .

ب — والنحويون يقدرون في نصب المضارع بعد الفاء والواو أن
المصدرية ، ويستنون النصب إليها وهي مضمرة لا سبيل إلى إظهارها . ففي نحو
اجتهد فنجح ، التقدير اجتهد فأن تجح . وقد ساقهم هذا إلى تأويل هذه الجملة
بالجملة الآتية ، ليكون منك اجتهد فنجاح . وقد عملت أن مظهره ومضمرة
لكثرة استعمالها في النصب بها ، فكانت أم الباب في النصب كما يقول
النحويون . والقرطبي يورد عليهم المثال : « ما تأتينا فتحدثنا ، فإن
تأويله على مذهب النحاة : « ما يكون منك إتيان حديث » . ويزعم
القرطبي أن هذا التأويل لا يقوم في المعنى والغرض بما قام به الأصل . ذلك أن
المثال « ما تأتينا فتحدثنا » يأتي على وجهين من المعنى : فيجوز أن يكون المراد :
« ما تأتينا فكيف تحدثنا ! » أي أن يكون المراد نفي الإتيان فينتفي تبعاً لذلك الحديث ؛
إذ كان الحديث مسبباً عن الإتيان . ويجوز أن يكون المراد : « ما تأتينا محدثاً ، أي
« ما تأتينا في هذه الحالة حالة تحديثك إيانا » ، وإنما تأتينا غير محدث لنا . فهذان
المعنيان يحتملهما الأصل . أما تأويله وهو « ما يكون منك إتيان لحديث » ، فلا
يحتمل هذين المعنيين ، فيما زعم ابن مضاء ، رحمه الله . وهنا وقع في الكتاب
في الحديث عن التأويل : « وهذا اللفظ لا يمطى معنى من هذين المعنيين ، وأغلب
الظن أن الأصل : لا يعطى هذين المعنيين . ولم يفصح ابن مضاء عن وجه قصور
التأويل عن الأصل ، ويغلب على الظن أنه يرى أن التأويل يعني نفي الإتيان البتة .
على أن هذا زعم من ابن مضاء لا يتابع عليه : فإذا قلت : « ما يكون منك إتيان
حديث » ، كان المعنى : « ما يكون منك إتيان يعقبه حديث » . وهذا يكون إذا لم يأت
أصلاً ، أو أتى ولكنه لم يحدث ؛ ولا شك أنه في الحالة الأخيرة يصح أن يقال :
« ما جرى منك إتيان لحديث » ، بل أتيت فلم تحدثنا . ومن المعروف الذي لا ينكر

(١) راجع شرح الرضي على السكاكبة في مبحث النحوي .

أن النفي إذا توجه الى مقيد بقيد فقد يقع النفي على المقيد ويتجه نفي القيد ، وقد يقع النفي على القيد دون المقيد . وقد جاء قوله تعالى : « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها » ، ويرى بعض المفسرين أن جملة ترونها في موقع الصفة للعمد ، ومن هؤلاء من يرى أن المعنى أن ليس هناك عمد ، وبمضهم يرى أنها لا عمد لها لا ترى ، ومن هؤلاء مجاهد وقتادة . ويرى الفخر الرازي أن المعنى بالعمد إمساك الله لها ، وتديره لها ما تبقى به في الحيز العالي ، ولا تساقط . وقد بان من هذا أن التأويل يقوم في المعنى بما قام به أصله . وأما وجوب إضمار أن وتجنب ذكرها فيعمله النحويون بالمحافظه على صورة عطف الفعل على الفعل ، ولو أظهرت أن المكان فيه صورة عطف الاسم على الفعل .

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام أن تقدير أن وإحالة النصب عليها هو رأى البصريين ، فأما الكوفيون فيرون النصب بالقاء والواو ، فلا حذف عندهم ، ومن ثم لا يتوجه هذا النقد اليهم . ومن الكوفيين من يرى أن النصب بالمخالفة ، وهي عامل معنوي لا يخرج الى تقدير . وهنا ينبغي أن ننبه الى ما يكرره ابن مضاء أن النحويين وضعوا هذه القاعدة : كل منصوب فلا بد له من ناصب لفظي ، فقد رأيت أن الكوفيين منهم من يجعل النصب بالمخالفة ، وهو عامل غير لفظي . وهذا العامل يقولون به في الأسماء ، كالمفعول معه .

٤ — ويورد ابن مضاء على القول بالحذف نقضا يصوغه في صيغة الحجة والمنطق ، ويضيق عليهم الخناق في الجدال والخصومة ، فإذا هو خصم جدل قدير ، فهو يردد الحذف بين أن يكون المحذوف له وجود في النفس ، أو لا يكون له ذلك ، فإذا لم يكن له وجود في النفس فأنى يعمل ! ونسبة العمل إلى معدوم على الإطلاق محال ، وهو إنما يورد هذا الوجه لتتميم الحصر ، وإلا فإن النحاة يكفونه مؤنة هذا ولا يتولون به . فأما إذا كان لها وجود في النفس وحذفت في الكلام إيجازا ، فإن هذا يترتب عليه أمور كلها شر مبین : أغليس الكلام يكون ناقصا إذا حذف منه بعض أجزائه ؟ فهذا أحد الأمور ، وهذا الذي يقدره النحويون أي دليل عليه في الكلام ! إن الذي بعثهم على القول بالحذف أمر ليس في صميم الكلام ، ولا في طبيعة الأسلوب ؛ وإنما هو ما وضعوه

وافترضوه: « إن كل منصوب فلا بد له من ناصب لفظي، وهذا أمر ظني لا يدفع إليه قاطع من دليل، وهو ما لا ينبغي أن ينصب في وجه اليقين، وهو خلو الكلام من هذه الممتدات، فيقدر ما شاء النحويون وشاءت صنعتهم. ويستجير ابن مضاء النحويين بعد هذا إلى أهوية يتمتعون فيها صرعى: أليسوا بهذه المحذوفات التي انساقوا إليها يزيدون في كتاب الله ما لم يأت به سلطان مبين ولا كتاب منير ويقولون في القرآن بآرائهم، وقد جاء في هذا الوعيد الشديد، ويقولون في القرآن بخير علم، وهذا من أكبر الموبقات والآثام! »

والنحويون لا يبالون أن يكون الكلام ناقصا إذا دل الدليل على أن في الكلام حذفًا. وابن مضاء يقول بالحذف في بعض الكلام، ويرضى للكلام أن يكون ناقصا إذا دل عليه دليل: كما في قوله تعالى: « ناقة الله وسقياها ». وهم يرون فيما يذهبون إليه من وجوه الحذف أن الدليل دل عليه. فلا عليهم أن يقال إن الكلام ناقص كما يقول ابن مضاء. وموضع الخلف بينهم وبين ابن مضاء أنهم يرون أنفسهم مسوقين في الحذف وراء الدليل، وابن مضاء ينكر عليهم هذا. وفي الأمثلة التي أوردها عليهم — نحو أزيذا ضربته؟ ويا عبد الله، وما تأتينا فتحدثنا — دل الدليل القوي عندهم على الحذف فاعمدوه وقالوا به: كما قال هو في بعض أبواب الحذف. ولو أنه أقنعهم بأنه لا موجب للحذف لعدلوا عنه، ولكفوا مؤنة التأويل والتقدير. ولكنه لم يبلغ أن يصرفهم إلى رأيه، ويلفتهم عما استقر عندهم من الرأي والمذهب. وإذا كان الحذف لبعض أجزاء الكلام — عاملا كان أو غير عامل — سنة من سنن الكلام العربي، فلا بدع أن يكون في القرآن الذي جاء على غرار الكلام العربي ذلك. ويص^(١) العلماء على أن المقدرات في الكتاب العزيز ليست منه: إذ هي إنما اقتضاها تركيب الكلام وفهم المعنى. والمقدرات بعد ليست من اللفظ المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أثر وجمع بين دفتي المصحف الكريم. ومن العلماء من يرى أن المقدرات من القرآن وليكن ليست لها أحكام القرآن اللفظية: من الإعجاز وحرمة القراءة على الجنب، وما جرى هذا المجرى. وبعد فالأمر لا يدعو إلى هذا التحويل الذي ركب منته ابن مضاء وبالع في وأرغى لنفسه فيه العنان.

(١) انظر حاشية الأمير على حبه السلام على جوهرية التوحيد في مبحث بسطة المنصف.

٥ — ويذكر ابن مضاء فيما يورده على النحويين قنديهم متعاق الجار والمجرور في نحو ، زيد في الدار ، إذ يتولون : إن التقدير كائن أو استقر . وليس لهذا التقدير من باعث إلا ما وضعوه . من : كل أثر إعراني فلا بد له من عامل . وأقول له : إن التقدير في هذا الباب لا يمتدحه جميع النحويين ؛ فمن النحويين من يجعل الخبر هو الملفوظ ولا يقدر شيئاً . فقد كان ينبغي أن يعرف ذلك ابن مضاء ويتابعهم إذا شاء ، ويعرض عن الرأي الآخر ، والذين قدروا دُفعوا إلى هذا بما ساقهم إليه النظر في الكلام العربي . فقد وقفوا على قول كثير عزة :

فإن بك جثماني بأرض سواكم فإن فؤادي عندك الدهر أجمع
إذا قلت : هذا حين أسلو ذكرتها فظنات لها نفسي تتوق وتزع

فيرى أن أجمع تأكيد مرفوع ، وليس في الكلام المنطوق ما يصلح أن يكون متبوعاً لهذا التوكيد . فكان أن ذهب النحاة بحق إلى أن الأصل : كائن عندك ، ، وفي كائن ضمير مرفوع انتقل إلى الظرف حين حذف الوصف ، وجاء تأكيد هذا الضمير مرفوعاً على نسقه . وحق لهم بعد هذا أن يروا أن العربي ينوي متعلقاً في هذا الأسلوب . ولولا هذا ما ساء الإتيان بالتوكيد المرفوع . ويرى الناظر أن هذا استدلال صحيح ونظر صائب لا يدفعه ابن مضاء إن ابتغى شرعة الإنصاف .

٦ — وما ينقده ابن مضاء ويأخذه على النحويين ما يروونه من استتار الضمائر في المشتقات التي لا ترفع الاسم الظاهر ، نحو محمد قائم . وذكر ابن مضاء من أدلة النحويين على هذا الزعم قول العرب : زيد ضارب هو وبكر عمرا ، فقد جاء هو توكيداً للضمير في ضارب ، ولا يجوز أن يكون هو فاعلاً لأنه ضمير منفصل ، وبحجى الفاعل ضميراً متصلاً هنا بالاستتار ممكن ، فلا يعدل عنه ، كما هي السنة في كلام العرب . فقد ثبت استتار الضمير في الوصف في هذا الأسلوب . والعرب تعتمد إلى هذا حيث يريدون العطف على فاعل الوصف كما في هذا المثال . وابن مضاء يبدو منه أنه لا يعارض في استتار الضمير في هذا الموطن من الكلام حيث الحاجة ماسة إليه حتى يؤكد فيجىء العطف عليه . ولكنه لا يرى طرد ذلك وتعميمه في سائر المواطن حيث لا تدعو الحاجة إليه . والنحويون يرون

أنه في هذا الأسلوب بدت نية العربي في شأن هذا الوصف وأنه يلاحظ فيه ضميراً ، فكان ما ظهر دليلاً على ما خفي : وهذا استدلال صحيح . فأما التفريق بين الوصف في الأساليب مع اتحاد اللفظ والمبنى فما لا يستقيم مع النظر الصحيح والمناطق السديد .

ويذكر ابن مضاء أيضاً من أدلة النحويين على استتار الضمائر في الأوصاف قول العرب : مررت بقوم عرب أجمعون ، ومررت بقاع عرْفَج كُثَّة . ألا ترى أن أجمعون تأكيد مرفوع ، ولا وجه له إلا أن يجعل تأكيداً للضمير في عرب وهو مرفوع : وكذلك كله تأكيد مرفوع تابع للضمير المرفوع في عرْفَج : وذلك على تأويل الجامدين : عرب وعرْفَج بالوصف : فيراد بعرب المتولدون من الجنس المعروف ، وبالعرْفَج المندرج في هذا الجنس من الشجر . وإذا ثبت استتار الضمير في المؤول بالمشتق فأولى أن يثبت في المشتق المحض . ويسلم ابن مضاء بهذا ، وإنما يتكلم في طرد هذا ، وقد عرفت أن لا وجه له في هذا التأييد : فالشأن في اللغة الاطراد والافتقار : وشأن العلماء الاستدلال بالأمر يبدو في بعض المقامات على حاله في سائرهما متى صحَّ لهم وجه الاطراد ولم يظهر وجه التفريق .

٧ — وأنكر ابن مضاء على النحويين قولهم باستتار الضمير في الفعل في نحو زيد قام ، وساق كلاماً طويلاً في هذا المقام ، وأورد في نهايته الكلام على الاستتار والحذف ، ولم يستن الفرق بينهما . والنحويون يرون استتار الضمير في مثل هذا إذ رأوا أنه يقال : إن زيدا قام هو وعمرو ؛ وواضح أن الضمير ليس هو الفاعل ، وإنما هو تأكيد للضمير المستتر على حد ما قلنا فيما سبق في الكلام على الوصف . وهم يرون أن هذا الضمير ينبغي أن يكون فوق رتبة المحذوف ، ويكون في حكم المذكور وإن لم يكن حتى يسوغ تكليده : وذلك أن التوكيد يقتضي الاهتمام بالموكد والبعد عن حذفه وإطراحه . فدفع النحاة إلى القول بالضمير المستتر وأن يجعلوا له من قوته في النفس واتصاله بالمذكور ما ليس للمحذوف . وبذلك يبين الفرق بين الاستتار والحذف ، ويبين وجه القول فيما أورده ابن مضاء على النحاة .

٨ — وينكر المؤلف على الحاجة وضمهم باب التمرين في الصرف ، وأنه لا جدوى ولا غناء في تعلمه والاشتغال به . وباب التمرين يتصد به تنبّه طالب العربية إلى القواعد الصرفية ، وكيف يصوغ الكلمة وفق القوانين والمزاج العام للعربية . وقد تدعو الحاجة إلى ارتجال كلم لا توجد في اللسان ، فيحسن أن يتعود متعلم اللسان هذا الأمر . قد يدعو الأمر إلى أن أسمى من أشاء اسما يوازن فعلا من مادة باع ، فهل أقول : بوع أو بيع ؟ وقد أسمى بعض العقاقير بموازن فاعول من مادة الشفاء ، فهل أقول : شافي أو شافئ ؟ والذوق العربي يحب أن يسود في المرتجل ويجرى طبقا للنقول في العربية . ويعجبني هنا ما تفعله العامة بألستهم في الكلمات المعربة ، فهم إذا خلوا وسجيتهم أتوا بها صحيحة إلى حد ما . ألا تراهم يقولون : السيامي السينا ؟ وترى المثقفين يحرضون على السينا ، ولفظ العامة أقعد وأقيس . وتراهم يقولون : الكسرونة لما عربوا كسرُول Casserole الفرنسية . وقد جروا على المزاج العربي الذي يستثقل الراء قبل اللام ، ولا يحفظ ذلك إلا في ألفاظ معدودة منها الغُرْلَة ، وَاُرْل اسم لجل . ونحن في هذا العصر الذي يحتاج فيه إلى إبداع أسماء للسميات الحديثة أحوج ما نكون إلى التوسع في باب التمرين ، والتبحر فيه ، واكتناه أسرار العربية ، حتى نحاذيها ونسير على منهاجها . والله الموفق للصواب .

بيان حقيقة

نسب إلى زميلي الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان أبياتا في مقاله المنشور
بعدد (جمادى الأولى من مجلة الأزهر) فأصرح بأنها ليست لي ، ولا أحب أن
تنسب إلي ولو مداعة ؟

عبد المتعال الصعيدي

ضرب الناشزة في الاسلام

مباح مبغوض

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدي
المدرس بكلية اللغة العربية

قد يقرأ كثير من الناس قوله تعالى في الآية — ٣٥ — من سورة النساء :
« واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واحجروهن في المضاجع واضربوهن ، فإن
أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عليا كبيرا ، فيظن أن الله أباح للرجال
ضرب الناشز من النساء على أنه شيء يليق بالرجل الكامل ، ولا يقدح في مروءته
ولا ينقص من منزلته . وقد يفهم كثير من النساء أن الله أباح بذلك ضرب
الناشز ممن إباحة خالصة ، يأتيها الرجال كما يأتون سائر المباحات ، فلا يكون
عليهم فيها حرج ، لأن إتيان المباح لا حرج فيه ، بل قد ورد الترغيب في إتيان
ما أباحه الله ، لأن الله يحب أن تأتي بما أباحه لنا ، كما يحب أن تأتي بما فرضه علينا ،
ولهذا ذم في القرآن من حرم على نفسه ما أباحه الله له : فإذا فهم بعض النساء
ذلك من إباحة ضرب الناشز ممن دخل في نفوسهن منه ما يدخل ، وقلن كيف
يضع الله تعالى المرأة من الرجل هذا الموضع المذل ، وهو الذي رفع من قدرها
ما رفع ، وأعطاهما من الحقوق ما أعطى ، ومنع عنها من المهانات ما كانت فيه
بمنزلة العجاوات ، إذ كانت تحرم من الميراث ، ويحدها فيها كفرد من الأسرة ،
وإذ كانت تورث مع التركة ولا ينظر إليها في هذا كإنسان لا يصح أن يورث ،
وإذ كان يباح للرجل وأدها وينظر إليها في هذا كحيوان لا حرمة لنفسه ، فلم يرض
الاسلام لها شيئا من هذا كله ، وأنصفها فيه من الرجال الذين استغلوا ضعفها بإزاء
قوتهم ؛ فكيف يبقى لهم مع هذا حق ضربها ، ولا يرى فيه شيئا من الحرج عليهم ،
وفي هذا هدر لكرامتها كشريك لزوجها في منزلها وأولادها ، وحط من منزلتها

أمام أولادها وخدمها ، فتسقط هيبتها في نفوسهم ، ولا يؤدون لها حق الطاعة كما يجب ، لأن الزوج يعاملها بالضرب أمامهم كما يعاملهم ، فلا يرون فرقا بينها وبينهم .

ولم أرى أن أعنى أولا بدفع ما يفهم من تلك الآية من إباحة ضرب الناشز من النساء لإباحة خالصة ، وأن أبين أن الله يشرع في مثل هذا للمصلحة التي لا يصح أن تتأثر بالعاطفة ، فيدبح أحيانا مالا يرضيها لأن المصلحة تقتضيه ، وقد يصل في إظهار المصلحة إلى حد أن يبيع من الأشياء ما يبغضه ، ولهذا أباح الطلاق وجعله أبغض الحلال إليه : وكذلك ضرب الناشز من النساء ، فليس من المباحات التي يحب الله أن تؤتى كما تؤتى فروضه ، وإنما هو كالطلاق الذي أباحه وكره أن يؤتى .

ولم هذا ذهب عطاء في ضرب الناشز من النساء ، فقال : لا يضربها وإن أمرها ونهاها فلم تطعه ، ولكن يفضب عليها . وقد ذكر القاضى أبو بكر بن العربي أن هذا من فقه عطاء ، فإن من فهمه بالشرعية ووقفه على مظان الاجتهاد علم أن الأمر بالضرب في تلك الآية أمر لإباحة ، ووقف على الكراهية من طريق أخرى ، في قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث عبد الله بن زمعة « إني لأكره للرجل يضرب أمته عند غضبه ، ولعله أن يضاجعها من يومه » . وروى ابن نافع عن مالك عن يحيى بن سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استؤذن في ضرب النساء ، فقال « اضربوا ، ولن يضرب خياركم ، فأباح وندب إلى الترك ، وإن في الهجر لغاية الأدب . ثم قال القاضى أبو بكر : والذي عندي أن الرجال والنساء لا يستوون في ذلك ، فإن العبد يقرع بالعصا ، والحر تسكفيه الإشارة ، ومن النساء بل من الرجال من لا يقيمه إلا الأدب ، فإذا علم ذلك الرجل فله أن يؤدب ، وإن ترك فهو أفضل . قال بعضهم وقد قيل له : ما أسوأ أدب ولدك ! فقال : ما أحب استقامة ولدى في فساد ديني . ويقال : من حسن خاق السيد سوء أدب عبده . وإذا لم يبعث الله سبحانه للرجل زوجة صالحة وعبدًا مستقيماً فإنه لا يستقيم أمره معهما إلا بذهاب جزء من دينه ، وذلك مشاهد معلوم بالتجربة .

وقد ورد مثل هذا في كتاب الطبقات لابن سعد ، فروى عن القاسم بن محمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ضرب النساء ، ف قيل : يا رسول الله ، لهن قد فسدن ، فقال « اضربوهن » ، ولا يضرب إلا شراركم . وروى عن أم كلثوم بنت أبي بكر أنه كان قد نهى الرجال عن ضرب النساء ، ثم شكاهن الرجال إلى رسول الله فخلى بينهم وبين ضربهن ، ثم قال « لقد طاف بآل محمد الليلة سبعون امرأة كلهن قد ضربت ، ما أحب أن أرى الرجل نأثر فريص عصب رقبته على ممر يئته يقاتلها » . وروى عن إياس بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا تضربوا النساء » فتركوا ضربهن ، فجاء عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، قد أبرّ النساء على أزواجهن ، فأنذن في ضربهن . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لقد طاف بآل محمد الليلة سبعون امرأة كلهن تشكو زوجها ، ولا تجد أولئك خياركم » .

فهذه كلها أحاديث تدل على كراهة ضرب الناشزات ، وتصف من يضربهن من الرجال أقبح وصف ، فيجب أن تحمّل إباحة ضربهن في القرآن على حال الضرورة ؛ وهذا حين لا يجد الرجل مفرأ من هذا التأديب ، فيكون التأديب بالضرب حينئذ خيراً من التأديب بالطلاق ، لأن ضرر الضرب يقتصر أمره على المرأة ، أما ضرر الطلاق فيتعداها إلى أولادها ومن يؤذيه طلاقها ، ويورث العداوة والبغضاء بينه وبين أهلها .

على أن السنة قد بينت الضرب الذي أباحه القرآن في حال نشوز المرأة ، فإذا هو لا يطلق عليه اسم الضرب إلا على نوع من التجوز والتساهل ، وقد جاء تفسير هذا الضرب في بعض ما رواه الطبري ، فروى عن قتادة أنه قال في تفسير « واحجروهن في المضاجع واضربوهن » : تهجرها في المضجع ، فإن أبت عليك فاضربها ضرباً غير مبرح ، أي غير شائن .

وروى عن عطاء أنه قال : قلت لابن عباس : ما الضرب غير المبرح ؟ قال : بالسواك ونحوه . وفي رواية : السواك وشبهه يضربها به . ولا شك أن الضرب بالسواك وشبهه لا يعد ضرباً ، وإنما هو مس رفيق يكفى في تنبيه الحرة إلى خطئها وإرشادها إلى طاعة زوجها ، فإن لم يكف في هذا لم يحز تعديه إلى الضرب بغيره ؛

فإما صبر على أذاها ونشوزها ، وآثر الصبر على المفارقة بالطلاق ، وله في ذلك أجر الصابرين ، وجزاء المحسنين ؛ وإما طلقها ليحفظ على نفسه دينه ، ولا يضارها بامساكها على كره منها .

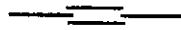
وهذا يتبين أن الإسلام لم يخالف سنته في إنصاف المرأة بإباحة ضرب الناشزة ؛ لأنه لم يبح منه إلا المس الرفيق ، وهو في الحقيقة يقصد منه التنبيه لا الضرب ؛ ولأنه مع هذا نفر الرجال منه ، وجعل من يفعله من شرارهم ؛ ولأنه يقصد منه مصلحتها ، وأن يتق به الفرقة بالطلاق ، وضرر الطلاق أكبر من ضرر مثل هذا الضرب . ويجب على النساء أن يهدئن من تأثرتهن ، وألا يجرين في هذا مع عاطفتهن ؛ لأن المصلحة فوق العاطفة ، وحكم العاطفة كثيرا ما يضر ؛ أما حكم المصلحة فهو نافع أبدا ، ولا يحصل منه ضرر لمن ولا لغيرهن . ويجب عليهن أيضاً أن يعرفن أن الإسلام حرم ضربهن ، ولم يبح إلا ضرب الناشزة مع كراهته له ، فكاد بهذا يحرم ضربهن مطلقا . وهذا ما أردت أن أدفعه أولا من الخطأ في فهم إباحة ضرب الناشزة في القرآن الكريم .

وإني أبين بعد هذا كيف أبيع للرجل هذا الضرب على كراهته ، وكيف كان صاحب الحق فيه عند نشوزها ؛ ويان هذا أن الأسرة لا بد لها من رئيس يكون له الحكم فيها ، ويقوم بتدبير أمورها ، ويفصل فيما يحصل من نزاع بين أفرادها ؛ لأن الأسرة إنما هي دولة في داخل دولة ، فلا بد لها من رئيس كالدولة التي توجد بداخلها ؛ وهذا الحق يجب أن يعطى في الأسرة للرجل ؛ لأن هو الذي يقوم برعايتها ، ويسعى فيما يتطلبه وجودها ، فيجب أن يكون هذا الحق له دون غيره ؛ على أنه مع هذا أقوى على النهوض به ، وأقدر على احتماله ، وأصلح له من غيره ؛ وللرئيس حق تأديب مرءوسيه ، وهذا يشمل الأسرة كلها ، ولا يصح أن تخرج المرأة منها ، لتستقيم أمور الأسرة ، ولا يرى أحد من أفرادها أن له حق الخروج على رئيسها ، بل يدين كل فرد منها له بحق الطاعة ، ويدعن لحكمه إذا حكم ، ويخضع لتأديبه إذا أدب ، ولا يرى في هذا حرجا في نفسه ، أو حطا من كرامته ، لأن مصلحته في هذا التأديب ، وحكم المصلحة فوق حكم العاطفة .

لا اكراه فى الدين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسن حسين

المدرس فى الأزهر



الدين مجموع أمور ثلاثة : إيمان ، وإسلام ، وإحسان .
(فالإيمان) أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر
خيريه وشره .

و(الإسلام) أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة
وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج بيت الله إن استطعت إليه سبيلاً .

و(الإحسان) أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . هكذا
أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا جبريل حين سأله عنها فى الحديث
المشهور الذى رواه مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقال الرسول
فى آخر الحديث : هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم . فهل يتصور أن يحصل الاكراه
فى أحدها أو فى مجموعها ؟ كلا .

الإيمان :

أما الإيمان فهو عقيدة وإذعان وتسليم ، والعقائد محلها القلوب ، ولا سلطان
لأحد على القلوب إلا علام الغيوب : والدين من هذه الناحية ، ناحية العقيدة
والإذعان والتسليم — أعنى الإيمان — أمر عام مشترك بين جميع الأمم من آدم
عليه السلام إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين . فدعوة
الرسول أجمعين تنصب على هذه العقيدة . عقيدة الإيمان بوجود وجود الله ،
ووحدانيته ، ونفى الشرك والوثنية بشكل قاطع لا مجال للشك والريب فيه .

والناظر في قصص الرسل في القرآن الكريم يجد هذا المبنى في سهولة ويسر ، فما من رسول إلا دعا قومه للتوحيد ونبذ الوثنية . فالأكره لا يجد له مسلكا إلى القلوب ، إذ لا سبيل لأحد على قلب أحد بالسيف ، فإن أكرهته واستجاب لك فإنما يستجيب لك بلسانه كاذبا تحت تأثير الضغط وخشية الهلاك ، وأنت لا تستطيع أن تكذبه لأنه لا سبيل لك إلى قلبه ووجدانه وشعوره وباطنه وسره ، كما وقع ذلك في صدر الإسلام لبعض أحد أصحاب رسول الله مما ستمنعه عليك فيما بعد . فالسبيل إلى العقيدة إنما هو البرهان الساطع والحجة العقلية وتوجيه أفكار الناس وعتولهم إلى آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم ؛ ولذلك كانت دعوة الرسل كاهم مؤيدة بهذه البراهين الساطعة المقاطعة ، والمعجزات ، واقتضت حكمة الله جل شأنه أن تكون المعجزات متفاوتة مختلفة باختلاف حال الأمم ومناسبة لهم تمام المناسبة ، لاجل أن تؤدي رسالتها ، وتسلك سبيلها إلى القلوب من أقرب الطرق .

مثال ذلك معجزة السيد عيسى عليه السلام الظاهرة في دعوته « إحياء الموتى » : فإن الطب كثر في زمنه وبلغ نهايته ، ولكن أقصى ما يستطيعه الطبيب الماهر بمواعده عليه وتجاربه هو معرفة الداء وصف الدواء . فلما أرسل الله عيسى عليه السلام جعل معجزته من هذه الناحية — ناحية الطب — لكن أى طب هذا ؟ طب أذهب قلوب الأطباء وأطار ألبابهم وأذهلهم ، إذ آمن من الأطباء يستطيع إحياء الموتى ؟ فكانت المعجزة من ناحية علمهم ، لتسلك سبيلها إلى قلوبهم .

وموسى عليه السلام : كثر السحر في زمنه كثرة مزججة ، ونبغ السحرة نبوغا فائقا ، وكان فرعون يستند عليهم في تثبيت دعائم عرشه ، ولذلك دعاهم لمعارضة موسى عليه السلام لزعمه أنه ساحر ، وأنهم أعلم منه بالسحر . فكانت معجزة موسى من هذه الناحية ، ناحية ما يعلمون ، لأنهم : ولذلك كان السحرة أنفسهم أسرع القوم استجابة لموسى ، لأن المعجزة عرفت سبيلها إلى قلوبهم فأمنوا إيمانا لم يزعه تهديد فرعون إياهم بالعذاب المهيمن ، بل قالوا له في شجاعة المؤمنين وصراحتهم « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ، فاقض

ما أنت قاض ، إنما تتمضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى . . إى وربى لنمد قلوبنا له هذا ، مع أنهم حديثو عهد بإيمان ، ولكنها العقيدة لا سبيل للإكراه عليها .

وسيد الخلق أجمعين صلوات الله وسلامه عليه : بمث في أمة عربية ، في طبيعتها وسليقتها الفصاحة والبلاغة ، لا يجدون في ذلك حرجا ولا مشقة ، وإنما هي طبيعتهم المرسلة ، وبجيتهم المطلقة ، لا عناء ولا جهد ، ولا تحضير ولا مقدمات ؛ فكان البلاغة تجري في دماهم ، وتردد مع أنفاسهم ، فهم فرسان هذا الميدان بلا منازع . فكانت معجزة الرسول من هذه الناحية : القرآن الكريم : بهرهم ، وأدبهم ، وأدهشهم . وعلى لسان من جاء القرآن : على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، الأسمى الذى لا يقرأ ولا يكتب ، فكانت الدهشة بالغة ، وكانت الذهول مروعا .

وفي الواقع كان الطريق مختلفا : فهم من ناحية يمتقدون أنه من كلام البشر أو الجن ، وببوا خضتهم في معارضته على هذا الزعم الفاسد ، والقرآن من عند الله لا سبيل إلى معارضته ، ولكنهم عارضوه بمد التحدى ، على إعادتهم فيه ، فتحداهم بعشر سور من مثله ، فعجزوا ، فتحداهم بسورة واحدة ، بل بأقصر سورة ، فعجزوا عجزاً ظاهراً ، وهم أصحاب هذا الشأن : البلاغة والفصاحة : فتنبه العقلاء إلى أن هذا لا بد من عند الله ، وأن صاحبه رسول ، ما في ذلك شك ولا ريب : فآمنوا . من طريق المعجزة إيماناً لم يزحزحه ما صبه عليهم ، وهم المستضعفون ، صناديد قريش من ألوان العذاب ، مما لا يتحملة البشر .

وإليك بعض ما يحضرنا في هذا الشأن :

هل أذاك نبأ بلال ، الرقيق الضعيف ، وما لاقاه من سيده من ضروب التعذيب والقسوة والوحشية بما هو فوق احتمال البشر ؟ كان يوثق يديه ورجليه ويرقده على حجارة مكة في الصيف الصائف وفي شدة اليقظة ، بعد أن يجرده من ثيابه ، ثم يحمى حجراً كبيراً بالنار ، كأن حرارة الشمس في إبان شدتها لا تكفيه ، ويضعه فوق صدره وبطنه ، فيسيل دمه إلى أن

يصل الى درجة النزع : كل هذا لأجل أن يرجع عن عقيدته ، وهو حديث عهد بها ، فلم يرجع ، بل لم يسكت ، فسكان يعبر عما في أعماق قلبه من إيمان بقوله أثناء التعذيب الشديد : أحد أحد ! . وكانت كلمة الكفر الظاهرية باللسان ترضى سيده فيخفف عنه من هذا العذاب ، فلم يشأ أن يتحولها . أرأيت أروع من هذا المثل الذي ضربه بلال في التضحية في سبيل العقيدة ! .

وهل قرأت في التاريخ الإسلامى ما أصاب أسرة « ياسر » عمارا وأباه ياسرا ، وأمه سمية ؟ أما الأبوان فقد قتلا تحت العذاب ، ولم يرجعا عن عقيدتهما ولا باللسان ، وهما أول قتيلين في الإسلام ، وأما عمار فقد كان شابا حدثا ، وقد رأى ما أصاب والديه ، وعلم أن مصيره مسيرهما ، فأعطاهما كلمة الكفر باللسان ، فهل كفر عمار ؟ كلا إطلاقا . اسمع ما يقوله الله في هذا « من كفر بالله من بعد إيمانه ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » . واسمع ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال له بعض الصحابة : يا رسول الله إن عمارا كفر : « كلا إن عمارا ملىء إيمانا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان ببلحن ودمه » . هذا قول الله وهذا قول رسوله ، وكلاهما صريح في أن الاكراه لا يمس العقيدة وإن قال صاحبها ما ينافيها بلسانه . وفي بعض الأحاديث أن عمارا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي ، فجعل النبي يمسح عينيه وقال له : « مالك ، إن عادوا لك فعد لهم بما قلت ، نعم إن هناك فرقا شاسعا بين مقام عمار ، ومقام والديه : فهو قد أخذ بالرخصة ، وهما صدعا بالحق إلى أن ماتا تحت العذاب ، فقامهما عند الله أرفع . ويدل على ذلك ما روى في حادثة أخرى : أن مسيلة الكذاب أخذ رجلين فقال لأحدهما : ما تقول في محمد ؟ قال : رسول الله ، قال : فما تقول في ، قال : أنت أيضاً ، فخلاه أى أطلق سراحه : وقال للآخر : ما تقول في محمد ؟ قال : رسول الله ، قال : ما تقول في ، قال : أنا أصم ، فأعاد عليه ثلاثا ، فأعاد جوابه ، فقتله ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أما الأول فقد أخذ برخصة الله ، وأما الثانى فقد صدع بالحق فهنيئاً له » . وهناك صهيب ، وخباب ، وسالم ، وجبر مولى الحضرمى وغيرهم ، كل له قصة ، وكل قد ضرب أرفع الأمثلة في التضحية في سبيل العقيدة . فتلك صور

إسلامية رائعة لو أردنا ذكرها لطال بنا القول ، وربما أفردنا لها مقالا خاصا .
أرأيت معي ، مما قدمناه لك أن الإكراه لا يجد سبيله مع الإيمان .

الإسلام :

أما الإسلام ، وهو الانقياد الظاهري لما جاء به الرسول من الشهادتين والصلاة الخ ؛ فله حالتان : إحداهما : أن يكون ناشئا عن العقيدة ، أعني الإيمان ، فيكون أثرا من آثاره ، وهو الإسلام الصحيح المعتقد به ، لأنه الموافق لما في القلب ، فهذا حكمه حكم الإيمان لا يتصور فيه الإكراه أصلا ؛ لأنه ناشئ عنه وأثر من آثاره ؛ والثانية ألا يكون كذلك ، وهو إسلام غير صحيح لا يعتد به ، لأنه لم يوافق ما في القلب كإسلام المنافقين ، فانهم أسلبوا ظاهرا ، وقلوبهم مشبعة بالوثنية والشرك ، وكانوا يصلون كما يصل المؤمنون ، ويصومون كما يصومون ، ويجلسون في مجلس الرسول ويستمعون إليه ، ولكنهم كانوا في كل ذلك كاذبين بشهادة القرآن « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » ، « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

فهذا النوع من الإسلام لا يسمى في الحقيقة دينا ، فهو خارج عن موضوع « لا إكراه في الدين » . فسيان جاز فيه الإكراه أم لم يجز ، لأنه باطل من أساسه . وهذا النوع من الإسلام غير النوع الذي يكون قلب صاحبه خالياً من العقيدة : الإيمان ، ولكنه مستشرف له متطلع إليه ، وهو المشار إليه بقوله تعالى « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » . فهو إسلام لم ينشأ عن الإيمان ، ولكن القلوب خالية ليست ملوثة بالشرك ، بل هي مترقبة دخول الإيمان . ومهما يكن من شيء فالإسلام الصحيح المعتقد به شرعا لا يدخله الإكراه ، سواء كان ناشئا عن الإيمان بأن يكون متأخرا عنه ، أو يكون سببا له ومدخلا إليه .

أما الإسلام الذي لا يعتد به كإسلام المنافقين ، فلا شأن لنا به لبطلانه من أساسه كما تقدم .

الإحسان :

أما الإحسان : فهو مقام المراقبة ، مراقبة العبد ربه كأنه يراه ، وهي مرتبة من أرفع المراتب في العبادة ، ليس هناك أرفع منها إلا متمام المشاهدة ، على ما يقول الصوفية ، وقد أشار الحديث الشريف إلى أن للإحسان مرتبتين : إحداهما أرفع شأنًا من الأخرى : فالأولى أن يعبد المؤمن ربه كأنه يرى الله : والثانية أن يعبد معتقدا أن الله يراه . وقد ضرب شراح الحديث لذلك مثلا يقربه إلى الأفهام : قالوا : إن الأجير إذا رأى المالك وقت العمل لاشك يبذل أقصى جهده في العمل إرضاء للمالك ، وهذه هي المرتبة الأولى . فإذا لم يكن المالك حاضرا ، لكن الأجير يعتقد أنه مطلع عليه من ثرفة منزله مثلا ، بذل جهدا مشكورا أيضا ، ولكنه أقل من اجتهاده فيما لو كان المالك حاضرا ، وهذه هي المرتبة الثانية . وهذه المراتب الرفيعة في العبادة لا تكون قسرا ، وإنما ينساق المسلم اليها انسياقا ناشئا عن إيمانه . فلا إكراه في الدين إيمانا وإسلاما وإحسانا . كيف وقد قال الله تعالى « أفأنت تكبره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وقال « فاعلمك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

روى أنه كان لأنصاري من بني سالم بن عوف ابنان تنصرا قبل أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قدما المدينة ، فلزمهما أبوهما وقال : والله لا أدعكما حتى تسلبا فأبيا ، فاختموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الأنصاري : يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟ فنزل قوله تعالى : « لا إكراه في الدين » .

كلمات لأمرأ المؤمنين

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله عدي بن أرطاة: أما بعد فقد أمكنتك القدرة على المخلوق ، فاذكر قدرة الخالق عليك ، واعلم أن مالك عند الله مثل ما للرعية عندك . وقال المنصور لولده المهدي ، وقد تولى الخلافة بعده : لا ترم أمرأ حتى تفكر فيه ، فإن فكرة العاقل مرآته تربه حسناته وسيئاته . واعلم أن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى ، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة ، والرعية لا يصلحها إلا العدل ، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه .

في البلاغة العربية :

قديمنا وجديد الناس ...

لفضيلة الأستاذ الشيخ على محمد حسن العماري
مبعوث الأزهر الى المعهد العلمي بأم درمان

لم ينصفنا من يظن أننا ندافع عن القديم لأنه قديم ، وننافع عن السابقين من علمائنا عصية منا لهم ، ونأخذ الطريق على المحدثين استهانة بهم وبآثارهم ، فما إلى ذلك قصدنا ، وكيف ، وقد كتبنا في هذه المجلة في عدد قريب نكشف عن بعض عيوب كتبنا القديمة ، وندعو الى التخلي عن هذه العيوب ، وإراحة الدارسين من همومها وأنقالها ؟ والحق أنا إنما ندافع عن القديم لأنه البناء المتماسك الذي لم يستطع بناء المحدثين أن ينهض بجانبه ، وأحياناً نتمسك بالقديم مرغمين لأننا نتلفت فلا نجد في جديد الناس ما يغني غناه ويسده مسده ، فلا نستطيع أن نوافق على هدم القديم ، وليس بين أيدينا جديد صالح تركز عليه بلاغتنا العربية . نعم في هذا البناء عيوب ، ولكنه — مع ذلك — يؤوي ويظل ويستر ، أما بناؤكم فهو يقوم على أساس واهٍ ، لو أراد مستند إليه أن يمد يده ليساعده على النهوض لانهار البناء ، وبقي المستجير في العراء .

والفكرة عندنا لا تزال كما كانت عند أسلافنا : يقول أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : « وليس لقدم العهد يفضل القائل ، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحق »^(١) . ويقول أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري : « ولا نظرت إلى المتقدم فيهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه

حظه ، فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخير ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ، ورأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباد ، وجعل كل قديم منهم حديثا في عصره ، وكل شريف خارجيا في أوله . . . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثنينا عليه به ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله ، ولا حداثة سنه ، كما أن الردى إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه ^(١) .

وإذا كان هذا في الشعر واجبا فهو في العلم أوجب ، فسيئنا — إذن — أن نصف العلم وحده . ثم أمضى الى المقصد .

وقد انتهى بنا الحديث في الامتال السابق (هدم المجددين وبنائهم) إلى هدم نظريتهم في الاتكاء على (الإيهام) وجعله وسيلة الى إخراج بحث (شبه كمال الانقطاع) من البحث البلاغي ، وبيئنا أن الإيهام لا يمنع العطف نحويا ، وإنما يمنعه بلاغيا ، وأكبر حجة على ذلك هذا البيت الذى اعتمدوا هم عليه ، فقد قلنا إنه بعد الفصل فيه إيهامان آخران ، ونحب أن نضيف اليوم أن علماءنا كانوا متنبهين إلى هذه الفكرة ، فقد ذكروا أن الإيهام يوجد فى كل من كمال الاتصال وشبهه ، وأن صاحب التلخيص إنما اقتصر على ذكره مع كمال الانقطاع لكثرة فيه ، بل قالوا إنه يكون فى الأقسام كلها . قال فى عروس الأفراح : ولك أن تقول الإيهام كما يدفع الفصل بين الجملتين اللتين بينهما كمال الانقطاع يدفعه بين اللتين بينهما كمال الاتصال ، وكذا غيره من الأقسام السابقة واللاحقة ، فليعتبره الناظر . والإيهام مشروط بأن لا يعارضه إيهام آخر ، وذكر بعض الكتاتين تعليقا على قول الإيضاح : إما لدفع إيهام خلاف المقصود ، قال : ووجوب الوصل فى هذا من جهة البلاغة لأنه يمكن دفع ذلك بالسكوت بين الجملتين أو بمعونة القرائن ، وهو إنما يكون فى كمال الانقطاع بين الجملتين كما فى المثال المذكور : لا وأيدك الله ، وقبل إنه يمكن اعتبار الوصل لدفع الإيهام فى كمال الاتصال أيضا كما

تقول لمن سألك : هل تشرب خمرًا : لا وتركت شربه . وقيل إنه يتعين الفصل في كمال الاتصال مطلقا ويدفع الإيهام في مثل هذا بطريق آخر فيقال : لا قد تركت شربه أو نحوه .

ثم نراهم يحاولون أن يخرجوا من دائرة البلاغة بحث كمال الانقطاع وبحث كمال الاتصال ويعتمدون على أن العطف أساسه المغايرة والمناسبة ، فنحن لانعطف إلا شيئين متغايرين متناسبين ، والمغايرة ألا يكون المعطوف نفس المعطوف عليه ولا جزؤه ، تقول : جاء زيد نفسه أو جاء زيد زيد فلا تحتاج للعطف إذ لا مغايرة فيها ، بخلاف ما إذا قلت جاء زيد وابنه ، فالعطف لازم هنا لوجود المغايرة ، وكذلك تبين الشئيين يمنع من أن نضع بينهما علامة وصل لأنهما غير صالحين للاتصال ، ومن المتفق عليه أن كمال الانقطاع اخلاف السياق ، فهما كلامان ليست بينهما وحدة فليس ممقولا أن يتصلا ، وعلى ذلك فليس هذا الموضع محل بحث بلاغي لأنه وجه واحد لا يمكن الدخول عنه ، وأما كمال الاتصال ، وهو تأكيد ومؤكد أو بديل ومبدل منه أو بيان ومبين ، فهو باب وحده : ذلك أن الاتحاد فيه في السياق تام فطبيعي أنه سياق واحد فلا داعي للفصل فيه إذا أغنى عن ذلك شدة الاتصال .

هذا موجز ما قالوا ، وخلاصته أن الباحث في الفصل والوصل يجب عليه أن يطرح عنه بعيدا هذين الموضعين ، لأن الفصل في الأول واجب ، والوصل واجب في الثاني ، والبلاغة إنما تبحث في الجائر .

ولست واجدا شيئا من العناية في الرد على هذا ، فان العطف جائز بين الخبر والإنشاء ، وقد نقل عن سيبويه جواز جاء زيد ومن عمرو ، وفي شرح بانن سعاد لابن هشام هذا الشاهد :

تناهى غزالا عند باب ابن عامر وكحل مآقيك الحسان بأئمد

ولا خلاف عندهم في جواز هذا العطف في نحو قوله تعالى : وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا مانع عندي أن يجعل من عطف الإنشاء على الخبر العطف في قوله تعالى : إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ، هم وأزواجهم في ظلل على الأرائك متكئون ، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ، سلام قولاً من رب رحيم ،

وامتازوا اليوم أيها المجرمون ، ولا داعي لهذا البيان الطويل المعقد الذي ساقه أبو يوسف يعقوب السكاكي في كتابه المفاح موضحا وجه العطف هنا .

وأما كمال الاتصال فبحسبنا أن نقول لهم : إن هذه التوابع ليست توابع اصطلاحية ، ولذلك نرى علماءنا كانوا في غاية الدقة حين قالوا : فوزانه وزان كذا ، من تأكيد أو بدل أو بيان ، على أننا نرى أن النص الأدبي الواحد يكون بيانا فيعطف مرة ولا يعطف أخرى ، قال الله تعالى في سورة البقرة : « ولذنبيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » وقال عز وجل في سورة إبراهيم : « ولذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » .

ولعل من العجب أن يقول هؤلاء في قوله تعالى « أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين » كان يمكن أن يعطف فيقول : وأمدكم . يا الله تحلونه عاما وتحرمونه عاما ! .

بقي لديهم شبه كمال الاتصال ، وهو أولى الأقسام عندنا بأن يخرج عن البحث البلاغي لأن « المسألة - إذن - ليست مسألة سؤال وجواب واستئناف وبتاع ! ومن المؤسف أن يقع فيه عبد القاهر نفسه » كما يقولون . وإنما المسألة أن هنا كلامين متكاملين مختلفين حقيقة أو حكما ، وما دام الأمر كذلك فالفصل واجب ، لأنه لا يعطف كلام شخص على كلام شخص آخر ، وإذا أراد القارىء أن يفهم هذا الباب كله من أوله إلى آخره فما عليه إلا أن يفهم هاتين الكلمتين اللتين قدمناهما : قالوا : إذا كان الخطاب بين متعددين حقيقة فهذا أول مواضع الفصل وهو أسلوب الحوار - ولم يعطونا فكرة عن أسلوب الحوار هذا - والأصل في الحوار أن يكون بين شخصين وقد يقع لمثل حالتين مختلفتين لشخص واحد ، فالحوار الذي نقصده هنا هو الذي يقع بين متعددين حقيقة أو حكما : حقيقة هذا أول مواضع الفصل ، حكما فهذا أول الكلام في الفصل والوصل ، والأصل فيه أنه حيثما وجد التقابل بين كلامين فهو أول مواضع الفصل ، وحيثما وجد تكامل بينهما كان ذلك أول مواضع الوصل ، وإذا حدث اللبس أو التردد بين هذين الطرفين دخل عمل علم

البلاغة : وتعدد السياق اعتبارا يدخل فيه شبه كمال الاتصال وشبه كمال الانقطاع .
وأما في كمال الانقطاع فإما أن يتعدد السياق وإما أن يتحد ، فإذا تعدد السياق
فهما كلامان ، وإذا وجدت بينهما مناسبة فالفصل ، وإذا اتحد فاما أن يتعدد
المتكلمان حقيقة أو اعتبارا وحينئذ نستغنى عن الوصل ونفصل ، وأما أن يتحد
المتكلم بالجلتين وحينئذ يجب الوصل .

وهذا البيان اللطيف ، وبهذا التععيد الرائع ، نخلص من هذا الباب الذي كانت
(تسكب فيه العبرات) ولكننا فقط نحتاج إلى جهود جديدة لتبين للناس كيف
تدخل هذه الأقسام كلها تحت أسلوب واحد ، بمضنه فرضى . والحق أنى - إلى هنا -
وقفت ، ولست بمستطيع أن أزيد بيانا أو إيضاحا ، ولعل في العلماء المتعمقين
في الدراسة من يستطيع أن يفهمنا هذه القاعدة الجديدة لهذا الباب المسكين ؟

العدل في الاسلام

بث الاسلام في قلوب أهله روح العدل بين الناس ، وضرب النبي صلى الله عليه
وسلم المثل العليا فيه ، واثم به صحابته من بعده ، حتى أصبحت محاكمهم مضرب
الأمثال إلى يومنا هذا . ناهيك أن القضاة في عهده الأول كانوا يساؤون الحاكمين
بالرعية في مجالس القضاء . وهذا ما لم يحدث له نظير في العالم إلى اليوم .

من ذلك أن الأشعث بن قيس من كبار سادات العرب دخل على شريح القاضي
في مجلس القضاء . فقال له شريح : مرحبا وأهلا بشيخنا وسيدنا ! وأجلسه معه .

فبينما هو جالس عنده إذ دخل رجل يتظلم من الأشعث . فقال له شريح :
قم يا أشعث فاجلس مجلس الخصم ، وكلم صاحبك . قال الأشعث : بل أكله من
مجلسي . فقال له القاضي : لتقومن أو لآمرن من يقيمك . فقال له الأشعث :
أثم ما ارتفعت . فقال له شريح : رأيت ذلك ضرك ؟ قال لا . قال شريح : فأراك
تعرف نعمة الله على غيرك ، وتجهلها على نفسك .

منزلة السنة من الدين

لحضرة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي

الفصل السادس

تقسيم السنة الى ما ورد فيه نص كتاب والى ما لم يرد فيه نص كتاب

قال الإمام الشافعى فى رسالته ص ٣٢ :

(البيان الرابع)

قال الشافعى : كل ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس فيه كتاب ، وفيما كتبنا فى كتابنا هذا من ذكر ما من الله به على العباد من تعلم الكتاب والحكمة - دليل على أن الحكمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مع ما ذكرنا مما افترض الله على خلقه من طاعة رسوله ، وبين فى موضعه الذى وضعه الله به من دينه - الدليل على أن البيان فى الفرائض المنصوصة فى كتاب الله من أحد هذه الوجوه :

منها ما أتى الكتاب على غاية البيان فيه ، فلم يحتج مع التنزيل فيه الى غيره .
ومنها ما أتى على غاية البيان فى فرضه ، وافترض طاعة رسوله ، فبين رسول الله عن الله : كيف فرضه ، وعلى من فرضه ، ومتى يزول بعضه ويثبت ويحب .

ومنها ما يقنه عن سنة نبيه ، بلا نص كتاب .

وكل شيء منها بيان فى كتاب الله .

فكل من قيل عن الله فرائضه فى كتابه ، وقيل عن رسول الله سنته ،

بفرض الله طاعة رسوله على خلقه ، وأن يتبها الى حكمه . ومن قبل عن رسول الله فعن الله قبيل ، لما افترض الله في طاعته .

فَيَجْمَعُ القبولُ لما في كتاب الله ولسنة رسول الله القبول لكل واحد منهما عن الله ، وإن تفرقت فروع الأسباب التي قبيل بها عنهما ، كما أحلَّ وحرَّم ، وفرض وحدَّ : بأسباب متفرقة ، كما شاء ، جل ثناؤه ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ٢١ / الأنبياء / ٢٣ . ٥١ .

وقال أيضا ص ٢٢ :

ومنه (أى من البيان) ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس لله فيه نص حكم ، وقد فرض الله في كتابه طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم والالتزام الى حكمه ، فمن قبل عن رسول الله بفرض الله قبل . ٥١ .

وقال في ص ١٠٨ :

قال الشافعي : فيما وصفتُ من فرض الله على الناس اتباع أمر رسول الله : دليلٌ على أن سنة رسول الله إنما قبيلت عن الله ، فمن اتبعها فبكتاب الله تبعها ، ولا نجد خبرا ألزمه الله خلقه نصًّا يثبتنا إلا كتابه ثم سنة نبيه .

فإذا كانت السنة كما وصفتُ ، لا شبهة لها من قول خاق من خلق الله ، لم يجز أن ينسخها إلا مثلها ، ولا مثل لها غير سنة رسول الله : لأن الله لم يحمل لأمر بعده ما جعل له ، بل فرض على خلقه اتباعه ، فألزمهم أمره ، فالخلق كلهم له تبع ، ولا يكون للتبع أن يخالف ما فرض عليه اتباعه ، وذن وجب عليه اتباع سنة رسول الله لم يكن له خلافها ، ولم يتم مقام أن ينسخ شيئا منها . ٥١ .

وقال في ص ١٩٧ :

فلو أن امرأ لم يلم لرسول الله سنة مع كتاب الله إلا ما وصفنا ، مما سن رسول الله فيه معنى ما أنزله الله جملة ، وأنه إنما استدرك ما وصفت من فرض الله الأعمال ، وما يحرم وما يحل ، ويُدْخَلُ به فيه ، ويخرج منه ، ومواقفته ، وما سكنت عنه سوى ذلك من أعماله — قامت الحجة عليه بأن سنة رسول الله إذا قامت هذا المقام مع فرض الله في كتابه مرة أو أكثر : قامت كذلك أبدا . ٥١ .

وقال في ص ٩١ :

وسن رسول الله مع كتاب الله وجهان : أحدهما نص كتاب فاتبه رسول الله كما أنزل الله ، والآخر جملةً بين رسول الله فيه عن الله معنى ما أراد بالجملة ، وأوضح كيف فرضها ، عاماً أو خاصاً ، وكيف أراد أن يأتي به العباد : وكلاهما اتبع فيه كتاب الله .

قال : فلم أعلم من أهل العلم مخالفاً في أن سنن النبي من ثلاثة وجوه ، فاجتمعوا منها على وجهين ، والوجهان يجتمعان ويشترعان : أحدهما ما أنزل الله فيه نص كتاب ، فبين رسول الله مثل ما نص الكتاب : والآخر مما أنزل الله فيه جملة كتاب ، فبين عن الله معنى ما أراد . وهذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما .

والوجه الثالث ما سن رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب .

فمنهم من قال : جعل الله له ، بما افترض من طاعته ، وسبق في علمه من توفيقه لرضاه ، أن يسن فيما ليس فيه نص كتاب .

ومنهم من قال : لم يسن سنة قط إلا ولها أصل في الكتاب ، كما كانت سنته لتبيين عدد الصلاة وعملها على أصل جملة فرض الصلاة ، وكذلك ما سن من اليسوع وغيرها من الشرائع ، لأن الله قال « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، النساء / ٢٩ » ، وقال : « وأحل الله البيع وحرم الربا » البقرة / ٢٧٥ : فما أحل وحرم ، فإنما بين فيه عن الله ، كما بين الصلاة .

ومنهم من قال : بل جاءته به رسالة الله ، فأُثبتت سنته بفرض الله .

ومنهم من قال : ألقي في روعه كل ما سن ، وسنته الحكمة : الذي ألقي في روعه عن الله ، فكان ما ألقي في روعه سنته .

أخبرنا عبد العزيز عن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الروح الأمين قد ألقي في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها فأجلوا في الطلب . » .

فكان مما ألقى في روعه سنته ، وهي الحكمة التي ذكر الله ، وما نزل به عليه كتاب فهو كتاب الله ، وكلّ جاءه من نعم الله ، كما أراد الله ، وكما جاءته النعم ، تجمعها النعمة ، وتتفرق بأنها في أمور بعضها غير بعض ، ونسأل الله العصمة والتوفيق .

وأى هذا كان ، فقد بين الله أنه فرض فيه طاعة رسوله ، ولم يجعل لأحد من خلقه عذرا بخلاف أمر عرفه من أمر رسول الله ، وأن قد جعل الله بالناس كلهم الحاجة إليه في دينهم ، وأقام عليهم حجته بما دلم عليه من سنن رسول الله معاني ما أراد الله بفرائضه في كتابه ، ليعلم من عرف منها ما وصفنا أن سنته صلى الله عليه وسلم إذا كانت سنة بيّنة عن الله معنى ما أراد من مفروضه فيما فيه كتاب يتلونه ، وفيما ليس فيه نص كتاب - أخرى (أى سنة أخرى) ؛ فهي كذلك أين كانت ، لا يختلف حكم الله ثم حكم رسوله ، بل هو لازم بكل حال . ١ هـ .

وجاء في فتح الباري لأستاذ الدنيا في علم الحديث الحافظ ابن حجر العسقلاني
الجزء الثالث عشر ص ٢٠٣

قال ابن القيم في الرد على من رد خبر الواحد إذا كان زائدا على القرآن ما ملخصه :

السنة مع القرآن على ثلاثة أوجه :

أحدها - أن توافقه في كل وجه فيكون من توارد الأدلة .

ثانيها - أن تكون بياناً لما أريد بالقرآن .

ثالثها - أن تكون دالة على حكم سكّت عنه القرآن ؛ وهذا الثالث يكون حكماً مبتدأ من النبي صلى الله عليه وسلم فتجب طاعته فيه . ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يطاع إلا فيما وافق القرآن لم تكن له طاعة خاصة ، وقد قال تعالى : من

يطع الرسول فقد أطاع الله ، السند / صحيح

الفصل السابع

إنكار الأئمة على من رد الحديث الصحيح

قال عالم الشام جمال الدين القاسمي في كتابه قواعد التحديث ص ٢٦٣ :

وقال الحميدى : سأل رجل الشافعى عن مسألة فأفتاه وقال : قال النبي صلى الله عليه وسلم كذا وكذا : فقال الرجل : أتقول بهذا يا أبا عبد الله ! فقال الشافعى : رأييت في وسطى زناراً ؟ أتراني خرجت من الكنيسة ؟ أقول قال النبي صلى الله عليه وسلم ، وتقول لى أتقول بهذا ! أروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أقول به ؟ ١٩ هـ .

وقال في ص ٣٩٢ :

وصلى رجل من يكتب الحديث بحجب ابن مهدي ، فلم يرفع يديه ، فلما سلم قال له : ألم تكتب عن ابن عينة حديث الزهري عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه في كل تكبيرة ؟ قال : نعم ! قال : فإذا تقول لربك إذا لقبك ، في تركك لهذا وعدم استعماله ؟ !

وقال في ص ٢٨٧ وهو في رسالة الشافعى ص ٤٥٠ :

وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه في رسالته « أخبرني أبو حنيفة بن سماك ابن النضل ، قال أخبرني ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي شريح الكعبي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عام الفتح : « من قتل له قتيل فهو بخير النظرين : إن أحب أخذ العقل ، وإن أحب فله القود » : قال أبو حنيفة فقلت لابن أبي ذئب : أناخذ بهذا يا أبا الحارث ؟ فضرب بصدري وصاح على صياحا كثيرا ، ونال مني ، وقال : أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول أناخذ به ! نعم آخذ به : وذلك الفرص على وعلى من سمعه ، إن الله تبارك وتعالى اختار محمدا صلى الله عليه وسلم من الناس فهداهم به وعلى يديه ، واختار لهم ما اختار له ، وعلى لسانه ، فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين ، لا يخرج لمسلم من ذلك . قال : وما سكت حتى تمنيت أن يسكت . ١٩ هـ .

وقال العارف الشيرازي في مقدمة ميزانه : قال الامام محمد الكوفي : رأيت الإمام الشافعي رضي الله عنه بمكة وهو يفتي الناس ، ورأيت الإمام أحمد واسحق ابن راهويه حاضرين ، فقال الشافعي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وهل ترك لنا عقيل من دار ، فقال اسحق وروينا عن الحسن وإبراهيم أنهما لم يكونا يرياناه ، وكذلك عطاء ومجاهد ! فقال الشافعي لإسحق : لو كان غيرك موضعك لفركت أذنه ! أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقول قال عطاء ومجاهد والحسن ؟ وهل لأحد قول مع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة ؟ بأبي هو وأمي ! اهـ .

وقال ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم - الجزء الثاني ص ١٨٩ :

حدثنا محمد بن عبد الملك قال حدثنا ابن الاعرابي قال حدثنا سعدان بن نصر قال حدثنا سفيان بن عيينة عن هشام بن حجير قال : كان طاوس يصلي ركعتين بعد العصر فقال له ابن عباس : اتركها ، فقال : إنما نهى عنهما أن يتخذ سنة ، فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد صلاة العصر فلا أدري أتعذب عليها أم تؤجر ، لأن الله تبارك وتعالى قال : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، الأحزاب - ٣٦ اهـ .

وقد رواها الإمام الشافعي بزيادة بيان في رسالته ص ٤٤٣

أخبرنا مسلم وعبد المجيد عن ابن جريج أن طاوساً أخبره أنه سأل ابن عباس عن الركعتين بعد العصر فنهاه عنهما ، قال طاوس : فقلت له : ما أدعهما : فقال ابن عباس : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً » .

فأرى ابن عباس الحجة قائمة على طاوس بخبره عن النبي ، ودلّه بتلاوة كتاب الله على أن فرضاً عليه ألا تكون له الخيرة إذا قضى الله ورسوله أمراً . وطاوس حينئذ إنما يعلم قضاء رسول الله بخبر ابن عباس وحده ، ولم يدفعه طاوس بأن يقول : هذا خبرك وحدك ، فلا أثبتته عن النبي ، لأنه يمكن أن تنسى . اهـ .

وقال أيضاً ص ٤٤٦ :

أخبرنا مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن معاوية بن أبي سفيان

باع سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها ، فقال له أبو الدرداء : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن مثل هذا : فقال معاوية : ما أرى بهذا بأساً ! فقال أبو الدرداء : من يعذرني من معاوية ! أخبره عن رسول الله ويخبرني عن رأيه ! لا أساكنك بأرض !

فرأى أبو الدرداء الحجة تقوم على معاوية بخبره ، ولما لم ير ذلك معاوية فارق أبو الدرداء الأرض التي هو بها ، إعظاماً لأن ترك خبر ثقة عن النبي .
وأخبرنا أن أبا سعيد الخدري لقي رجلاً فأخبره عن رسول الله شيئاً ، فذكر الرجل خبراً يخالفه ، فقال أبو سعيد : والله لا آوئى وإياك سقف بيت أبدا !

قال الشافعي : يرى أن ضيقاً على المخبر أن لا يقبل خبره ، وقد ذكر خبراً يخالف خبر أبي سعيد عن النبي ، ولكن في خبره وجهان : أحدهما يحتمل به خلاف خبر أبي سعيد ، والآخر لا يحتمله .

أخبرنا من لا أتهم عن ابن أبي ذئب عن محمد بن خفاف قال : ابتعت غلاماً فاستغسلته ، ثم ظهرت منه على عيب ، ففحصت فيه عمر بن عبد العزيز فقضى لي برده وقضى على برد غلته ، فأتيت عمروة فأخبرته فقال أروح اليه العشية فأخبره أن عائشة أخبرتني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في مثل هذا أن الخراج بالضمان . فعمجت إلى عمر فأخبرته ما أخبرني عمروة عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم . فقال عمر : فما أيسر على في قضاء قضيته ، الله يعلم أى لم أرد فيه إلا الحق ، فبلغتني فيه سنة عن رسول الله ، فأرد قضاء عمر ، وأنفذ سنة رسول الله . فراح اليه عمروة ، فقضى لي أن آخذ الخراج من الذي قضى به على له .

أخبرني من لا أتهم من أهل المدينة عن ابن أبي ذئب قال : قضى سعد بن إبراهيم على رجل بمقضية ، برأى ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، فأخبرته عن النبي بخلاف ما قضى به ، فقال سعد لربيعة : هذا ابن أبي ذئب ، وهو عندي ثقة ، يخبرني عن النبي بخلاف ما قضيت به ؛ فقال له ربيعة : قد اجتهدت ومضى حكمك ؛ فقال سعد : وأعجباً ! أنفذ قضاء سعد بن أم سعد وأرد قضاء رسول الله ! بل أرد قضاء سعد بن أم سعد وأنفذ قضاء رسول الله ! . فدعا سعد بكتاب القضية فشقه ، وقضى للمقضى عليه . اهـ .

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْوَى

موالاة المستعمرين خروج من الدين

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

شعب طرابلس الغرب شعب عربي مسلم كان قد منى بعدوان الإيطاليين واستعمارهم حقبة من الزمن ، تخللها جهاد صادق من لدنه في سبيل الشرف والحرية . ثم شامت عدالة الله أن تكسر إيطاليا وتنقض يدها من هذه البلاد العربية المجاهدة ، ولكن شامت الأقدار كذلك أن تزعم الدول الكبرى أنها صاحبة الشأن في تقرير مصير هذه البلاد العربية ، وأنها ستختبر لذلك رغبة أهلها وتسأهم عن مطالبهم . وما من شك في أن مطالب أهل هذه البلاد الإسلامية تنحصر في التخلص من كل نفوذ أجنبي ، والتمتع بالحرية والسيادة الكاملتين تحت جناح الإسلام والعروبة . فما حكم الشريعة الإسلامية على أفراد يدعون أنهم عرب مسلمون ، ويشذون في الوقت ذاته عن ميول شعبهم المشروعة ، ويعلنون عن رغبتهم في أن تتولى الإشراف على بلادهم حكومة أجنبية مستعمرة لاتصلها بالإسلام والعروبة صلة ؟

والمرجو أن تعلنوا رأي الشريعة في هؤلاء الأفراد .

على رجب

رئيس حزب الاتحاد المصري الطرابلسي

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد، فقد قال الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » . وقال تعالى « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولاه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » .
« يأياها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » . « يأياها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبائلا ، ودُّوا ما عَصَيْتُمْ قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » .
« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » . « يأياها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وإبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقربتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكنُ ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتمسكوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

مركز تحقيق كميونر علوم إسلامي

هذه الآيات وغيرها من القرآن الكريم ، أوجب الله بها على المؤمنين أن يعتصموا بحبله المتين ، وأن يتحدوا فيما بينهم على حفظ دينهم وتركيز سلطته وإقرار كلمته ، ونهاهم عن الاختلاف والتفرق ، وحذرهم عاقبة ذلك من الفشل وذهاب الريح وتلاشي السلطان .

ولما كانت ، والالة بعض المؤمنين لغيرهم من أعداء الدين سبيلا للتفرق ، وخروجا على وحدة المسلمين ، وسببا للفتنة ، عني القرآن في غير آية بنهى المؤمنين عن اتخاذهم أولياء من الكافرين ، يلقون إليهم بالمودة ، ويعملون معهم على ما يمكنهم من تحقيق أغراضهم من التسلط على المسلمين وإضعاف شوكتهم في بلادهم ؛ وقرر أن هذا الصنيع مشاقة لله ولرسوله ، واتباع لغير سبيل المؤمنين ، الذى هو الوحدة والاعتصام بحبل الله ، واعتبره خيانة لله وللرسول ، وخيانة للأمانات التى ناط الله رعايتها بالمؤمنين ؛ وقرر أن هذا الصنيع أيضا لا يمكن أن يوجد مع الإيمان بالله واليوم الآخر ، وأن دعوى الإيمان بمن يخرج على أمته

ويعاون من حاد الله ورسوله ، دعوى كاذبة لا قيمة لها عند الله ، ولا وزن لها عند جماعة المؤمنين .

هذا ما تدل عليه هذه الآيات الواضحة ، وبها كان الاتحاد بين المسلمين من أعظم الواجبات الدينية عليهم ، وكان الاختلاف والتفرق من أكبر ما نهى الله عنه ، وكانت موالاة الأعداء والتعاون معهم فيما يضر المسلمين ويزلزل سلطانهم ، بابا من أبواب الكفر والخروج من الدين .

وفي ضوء هذا الأصل الذي يقرره القرآن الكريم للاحتفاظ بالكيان الاسلامي ، نستطيع أن نقرر أن هؤلاء الافراد الذين يدعون أنهم عرب مسلمون ويشذون في الوقت ذاته عن ميول شعبهم المشروعة في التخلص من كل نفوذ أجنبي ، والتتبع بحريتهم وسيادتهم السكاملتين ، ويدعون عن رغبتهم في أن تتولى الاشراف على بلادهم حكومة أجنبية مستعمرة لاتعلمها بالاسلام والعروبة صلة : نستطيع أن نقرر أنهم يخرجون بذلك على الدين ، ويفرقون كلبة المسلمين ، ويحدثون الفتن التي يتذرع بها أرباب الاستعمار ويدخلون بها بلاد الاسلام ، فيغتصبون حقوقهم المشروعة ، ويبدلون عزتهم ذلة ومهانة ، وقوتهم ضعفاً واستكانة .

وقد صرح القرآن بأن أمثال هؤلاء لا ينجيهم من الوعيد الشديد ما يدعونه من أنهم يتحامون بذلك شراً قد ينزل بهم ، أو يتوخون مصلحة تصل اليهم : وقرر أن ذلك ليس إلا اتحالا لأعداء موهومة ، وارتكانا لشبه باطلة يزينها ضعف الإيمان وابتغاء عرض الحياة الدنيا ، ويقول في شأنهم - بعد النهي عن اتخاذ اليهود النصارى أولياء ، وبعد تقرير أن من يتولاهم ملحق بهم ومعدود منهم - يقول : فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين .

هذا هو حكمهم عند الله وفي نظر الدين . وترى اللجنة بعد هذا أن الدين يوجب على المسلمين عامة وعلى مسلمي طرابلس خاصة ، أن يكافحوا هذا الصنف من الناس الذي منيت به الشعوب الإسلامية فزعزع سلطانها وأطمع الأعداء

فيها ، فأخذوا يتقصون أرضهم من أطرافها ، ويدخلون عليهم من كل باب ، حتى صارت بلاد المسلمين طعمة للآكلين ، وغرضا للمستعمرين .

ولو أن المسلمين تنهوا الى هذا الواجب ، وكأفوا هذا الوباء الاجتماعي الذي نبت فيما بينهم ، وطهروا بلادهم من جرائمه ، لاحتفظوا بعزتهم وسلطانهم ، ولتمتعوا بحريتهم وسيادتهم ، ولكان لهم ذلك المجد الذي تقلص عنهم بموقف أمثال هؤلاء الخونة الآثمين . . . ولتسكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ، والسلام على من اتبع الهدى .

المرأة بين طاعة الزوج والوالد

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

الزوجة في عصمة زوجها هل لوالدها حكم عليها ؟ وأيهما - أى الزوج والاب - أحق بالطاعة إذا كانت الزوجة في زيارة عند أهلها وأمرها زوجها بالسفر معه وأبى والدها ؟ نرجو الإفادة .
يونس محمود شعراوي

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد ، فقد اطلعت اللجنة على السؤال ، وهي تفيد بأنه قد سئل شيخ الاسلام ابن تيمية في امرأة تزوجت وخرجت عن حكم والديها فأيهما أفضل : برها لوالديها أو مطاوعة زوجها ؟ فأجاب رحمه الله بما خلاصته :

إن المرأة إذا تزوجت كان زوجها أملك لها من أبويها ، وطاعة زوجها

عليها أوجب : قال الله تعالى : « فالصالحات قانتات — أى مطيعات لله ورسوله ولأزواجهن — حافطات للزيب بما حفظ الله ، . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة ، إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا ثبت عنها حفظتك في نفسها ومالك ، . وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحصنت فرجها ، وأطاعت بعلمها — دخلت من أى أبواب الجنة شئت ، . وقال عليه الصلاة والسلام : « لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، وبلفظ آخر : لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهن عليهن من الحقوق ، إلى غير ذلك من الأحاديث التى أوردها رحمه الله . إلى أن قال : فليس للبرأة أن تخرج من منزل زوجها إلا بإذنه سواء أمرها أبوها أو أمها أم غير أبويها باتفاق الأئمة . وإذا أراد الرجل أن ينتقل بها إلى مكان آخر مع قيامه بما يجب عليه وحفظ حدود الله فيها ، ونهاها أبوها عن طاعته فى ذلك ، فعليها أن تطيع زوجها دون أبويها ؛ فإن الأبوين هما ظالمان ليس لهما أن ينهياها عن طاعة مثل هذا الزوج . أما إذا أمرها أبوها أو أحدهما بما فيه طاعة لله مثل المحافظة على الصلوات وصدق الحديث أو أداء الأمانة ، ونهياها عن تبذير مالها أو إضاعته ونحو ذلك بما أمرها الله ورسوله ، أو نهاها الله ورسوله عنه ، فعليها أن تطيعهما فى ذلك ولو كان الأمر من غير أبويها ، فكيف إذا كان من أبويها ؟ .

كذلك إذا نهاها الزوج عما أمر الله أو أمرها بما نهى الله عنه ، لم يكن لها أن تطيعه فى ذلك ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، . وليس للبرأة أن تطيع زوجها أو أحد أبويها فى معصية الله ، فإن الخير كله فى طاعة الله ورسوله ، والشر كله فى معصية الله ورسوله .

ومن هذا يعلم أن حق الزوج أعظم ، وطاعته أوجب ، فيما تجب الطاعة فيه بما ليس بمعصية الله ورسوله . والله سبحانه وتعالى أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

عبد المجيد سليم

خدم البيوت

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم أبو الخشب
المدرس بمعهد القاهرة

على الرغم من أن الدين الإسلامى يوصى بمعالى الأمور، ويغض في سفاسفها
ويذكر على الناس أن يتزولوا في سلوكهم، فإننا نرى أن ضرورة العيش تقضى
في بعض الأحيان أن يكون هنالك تفاوت في درجات الأشخاص ومراتبهم،
لحاجة اختلاف الأوضاع والمنازل... وليس في ذلك كله من ضرر ولا غبن،
حيث إن الدافع إليه ما يحتمه واجب المعونة العمرانية، الذى توصى به نواميس
هذا الكون، وقد أقامه سبحانه على أساس تبادل المنافع، والإنسان مدني
بالطبع — كما يقول ابن خلدون — لأنه لا يمكنه أن يكون طبيباً ومهندساً
ونجاراً وبناءً وطاهياً وخبازاً وغير ذلك في آن واحد ليكتفى حاجته بنفسه،
ويقوم بأموره دون احتياج إلى تسوية غيره. علوم رضى

والخدمة في البيوت من المشاكل الاجتماعية التي تستوجب من المصلحين أن
يولوها شيئاً من عنايتهم، وليس ذلك من ناحية إعدادهم لمباشرة هذه المهمة،
والقيام بها على أكمل الوجوه وأحسنها... وإن كانت الأمم الراقية تعد لهم
المدارس ليتخرجوا منها أساتذة في فن الخدمة، وليتوفروا على سعادة المنزل،
وإحاطة بأسباب الرفاهة والسرور، ولكن من ناحية أخرى هي ناحية وضع
الحد اللائق بما يصح أن يكون بينهم وبين مخدوميهم من وشائج صحيحة،
وصلات قوية، يمكن بها أن يتوفر هدهود الخاطر — على الأقل — بين
طرفين تمس نظم الحياة إلى ارتباطها.

ولعل وزارة الشؤون أحست بذلك كله فخطت إليه بعض الخطوات، وهي
وإن لم تكن كل ما يجب أن يكون، إلا أنها بعض ما كان يجب أن يكون؛
لأنها تتناول ناحية خاصة هي الاحتفاظ بالحقوق المدنية للخادم.

والقرآن الكريم يعنى بهذه المشكلة بشكل أشمل وأوسع . والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء أفبعممة الله يمحدون ، والمفسرون يقولون إن المراد بما ملكتهم الأيمان فى الآفة ، العبيد والخدم ، وكأنه تعالى لم يحفل هذا التفضيل إلا للابتلاء والامتحان ، وإلا فالناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالقوى . . . والاجدر بالمخدومين أن يردوا فضل رزقهم على خدمهم فهم فيه سواء ، حتى لا يكون هذا جحودا لعممة الله عليهم ، وكفرنا بإيثاره إياهم .

سبحان من لو شاء سوى بيننا وأدال منك فقد أطلت عذابى !

وكان صلى الله عليه وسلم يردف غلامه معه على الدابة ، ويوصيه وينصحه ويخاطبه خطابا لا يشمره معه بالنزلة والمهانة . ويقول « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم ، وليلبسه مما يلبس . . . ولا تكفروهم من العمل ما لا يطيقون ، وهو لا يرضى أن تقوم تلك الصلة على غير الأخوة والمساواة فى الحقوق والمعاملة . فأين ذلك كله مما نحن عليه اليوم ؟ لا يكاد يمر يوم من الأيام لا نسمع فيه بحوادث إجرامية يندى لها وجه الكرامة والأخلاق ، مما يدل على أن الارتباط بين أرباب البيوت والخدم لم تعد شرة من شعراته متماسكة تسلك الاتصال النائم على الالتلاف والحب . والسبب فى هذا لا يرجع إلى صن الأسىاد بالأجرة ، وشبههم بأن يستوفوا الخدم حقوقهم كاملة غير منقوصة لحسب : إنما هو يرجع — مع هذا — إلى سوء المعاملة . وكأن تلك الوصية التى وردت فى الحديث « فمن كان أخوه تحت يده الخ ، كانت تنبؤا بما سيكون ! . فان الذى نعرفه أن كثيرا من المخدومين جرؤا على هذا السن ؛ لا يؤكلون خدمهم إلا من أكل الكلاب ، كما لا يلبسونهم إلا بالى اليباب . أما المبيت فحدث عنه ولا حرج . افتراش للغبراء ، والتحفاف بالسماء ، فوق سطح البيت ، أو الطابق السفلى منه . وقد ثبت أن سوادا عظيما من مرضى الأمراض الصدرية من هؤلاء الذين أعوزتهم رحمة الرحاء ، وتخلت عنهم عذالة القضاء ، ونقدوا من دنياهم أسباب الهاء ، وهكذا تودى بالمجتمع عوامل الهدم ، ومعاول الفتك والتدمير .

ولا أزيدك معرفة بكلمة « يا ولد يا خدام ، تلك التي لا يلذ لصاحبه أن يخاطبه
بغيرها حين يطلب منه أن يجيء أو ينصرف ، وربما كان مؤدبا معه إذا كان من أولئك
الذين يكتفون بها دون أن يردفوها بكلمات أخرى من كلمات المهانة والتحقير ...

ومن الخجل المؤسف أن بعضا ممن يعاملون الخدم بهذه العنجهية الخلقية يبيحون
لهم أن يتخاطبوا نساءهم وبناتهم بحجة أنهم خدام ، وأن ذل الخدمة يكسر من شرتهم
ويطفيء من حميتهم ، ويسكن من لوعتهم ، فلا تحدثهم نفوسهم بشر ، ولا يدور
بخواطرهم سوء . فإذا قلت لهم إن الدين يحرم هذا السلوك ، قالوا ضرورة العمل ،
وذل الخدمة ، وأقاموا لك ألف دليل ودليل على أن « هذا الولد » مؤدب وابن
حلال . ١١ وأن بيوتهم لا تحتوى إلا ملائكة لا يمضون الله ما أمرهم ويفعلون
ما يؤمرون ... وأحب أن يتدبر أرباب « البيوت » هذه المسألة على الخصوص ،
مسألة « فوضى الاختلاط » القائمة بين الخدم — بنين وبنات — وبين نساءهم
وأبنائهم ، فإن كنت أريد أن أجعل منها وحدها موضوعا لولا أنى خفت أن
أكون قاسيا ، وليس من حصافة الواعظ ، ولا من لباقة المصلح ، أن يمالج الأمور
بالقسوة ، أو يداوى العلل بالعنف ... ووددت لو يرجع المسلمون إلى كتاب
الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فإنه ما ترك في ذلك صغيرة
ولا كبيرة إلا بينها ، وأوضح معالمها ، وجعلها كالشمس حين ترسل أشعتها على
هذا السكون فتضئ عليه النور والضياء ... وإذا كان بعد هذا من زيادة في موضوع
« خدم البيوت » فهو أن يفهم جماعة الأرستقراطيين أن الدين لا يعترف بنظام
الطبقات ، ولا يفرق بين اليد العليا واليد السفلى ، إلا بمقدار ما يرغب في الفضل
ويحبب في المزية ، حثا للهمم ، واستنهاضا للعزائم ، وذهابا للخممول إلى حيث
لا يكون في نفوس المسلمين « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . وأن الضرورة
الاجتماعية هي التي جعلت هذا التفريق في المنازل ، فإذا خدام ومخدوم ، وأخذ
ومعط ...

والناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدام

ذكرى مرور خمسين سنة

الشيخ جمال الدين الأفغاني

مصلح ديني وزعيم سياسي

لحضرة الأستاذ محمود الشرقاوي

في اليوم التاسع من شهر مارس الماضي يتفق مرور خمسين سنة على وفاة جمال الدين الأفغاني .

ومن حق الأزهر على نفسه ، ومن حقه على أهله وعلى نهضته المرجوة ، أن يدرس وأن يطيل الدرس ، وأن يتأمل فيطيل التأمل ، في حياة هذا النفر القليل من الأبطال الذين أهابوا بالحياة الدينية أن يفوق أهلها بما كانوا فيه من فتور يشبه الموت ، ومن تزمّت يشبه الجود ، ومن سكون يشبه العدم ، ومن وقوف بهذه الحياة الدينية عند ما انتهت إليه في أيام لم تكن أزهر الأيام لهذه الحياة الدينية ، ولا أقواها على الإنتاج ، بل لعلمها أبعد ما تكون عن الإنتاج المفيد ، وعن القوة أو القدرة على التفكير المستقيم والفهم السليم ، أو عن قبول هذا التفكير المستقيم ، لو أنه وجد بمن يقدر عليه في عصرهم أو في غير عصرهم .

ومن هؤلاء الأبطال القليلين الذين أهابوا بهذه الحياة الدينية أن يخرج بها أهلها من هذا الضيق والتزمّت : جمال الدين الأفغاني ، الذي كان زعيماً سياسياً ومصلحاً دينياً ، والذي لقي ربه بعد حياة كلها كفاح وجهود في يوم ٩ مارس من سنة ١٨٩٧ .

ولو أننا سألنا عما ألفه السيد جمال الدين من كتب أو نشر من أبحاث أو ألقى من خطب ، ما وجدنا شيئاً ذا قيمة ، فكيف بالذي يجعل صاحبه مصلحاً وزعيماً ! . سنعرض في حديثنا عن حياة الأفغاني إلى كتيبه الذي سماه «الرد على الدهريين»

وإلى بعض خطبه وما كتبه بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده في مجلة « العروة الوثقى »، التي أصدرها في باريس : سنعرض لهذا ولله فلا نجد فيه شيئاً ذا قيمة يسمح أن يقال بسببه : إن جمال الدين مصلح ديني أو زعيم سياسي .

ولكن جمال الدين لم يكن مصلحاً وزعيماً بكتبه أو محاضراته ومقالاته : بل كان زعيماً مصلحاً بسيرته وحياته ، وشخصه وخلقه ، وكفاحه وإخلاصه لفكرته : وسنجد فيما نترجم به للسيد من هذه الصفحات أنه لم يكن مصلحاً دينياً وزعيماً سياسياً فقط ، بل هو صاحب الفضل الأول والأكبر في هذه النهضة الدينية والسياسية والاجتماعية في هذا الشرق الحديث .

في إقليم « كرن » من بلاد الأفغان ، وعلى بعد ثلاثة أيام بسير الأبل من عاصمتها كابل ، ولد للسيد « صفر » في قرية « أسعد آباد » ولد سماه محمداً جمال الدين ، والسيد صفر هذا هو أحد أفراد عشيرة قوية كبيرة الفوذ كثيرة العدد ، تمتلك مساحات واسعة من الأراضي الزراعية ، ويتصل نسبها بالإمام الترمذي ، ثم ترتقى بالنسب إلى الإمام الحسين بن علي ، رضي الله عنه .

وكانت ولادة هذا الطفل في سنة ١٢٥٤ هـ [١٨٣٩] ميلادية ، وعند ما بلغ هذا الطفل السابعة من عمره كانت الفتن والحروب الداخلية بين الأسرة المالكة في الأفغان قد أطاحت بثروة هذه العشيرة القوية الكبيرة حيث جردها الأمير « دوست محمد » من أملاكها بعد أن تغلب على أخيه الذي كانت هذه العشيرة تعينه وتؤيده . ثم أمر « دوست محمد » بعد ذلك بإخراج هذه العشيرة من إقليمها ، وأن تقل إلى كابل وفيها السيد صفر وابنه الصغير ، وبقي جمال الدين في كابل يدرس العلوم الشرعية والعقلية والتاريخ ، ويدرس إلى جانبها قليلاً من الطب والتشريح وشيئاً من العلوم الرياضية ، فاستوعب قسطاً كبيراً من هذه العلوم كلها في عشر سنين ، ثم انتقل إلى الهند فأقام بها أكثر من سنة يشتغل ببعض علوم الرياضة على طريقة أوروبية ، وسافر بعد ذلك للحجاز ليحج ولكنه بقي يطوف في بلاد الحجاز حتى دخل مكة بعد عام (١) .

ثم عاد جمال الدين بعد هذه الدراسة وهذه المعرفة إلى وطنه فتولى وظيفة في حكومته ، وهذه الوظيفة اتصل بدوست محمد الذي أجلى عشيرته عن وطنهم وجردهم من أملاكهم ، فأحبه هذا الأمير وأعجب به ، واستصحبه معه في جيشه الذي سيره لفتح « هراة » ، ولكن هذا الأمير مات على أبواب المدينة ، ثم فتحت بعد موته .

ودارت الفتنة بعد وفاة « دوست محمد » ، واتسمت رقعتها ، وشبت نارها بين إخوة أربعة حتى استتب الأمر لمحمد أعظم ، وكان الشاب جمال الدين يمينه على إخوته . فرفع هذا الأمير منزلة جمال الدين وأكبر شأنه واعتمد عليه في كل أمر حتى جعله كرئيس وزراء . وأخلص جمال الدين لأميره حتى كاد أن يدين بالطاعة له جميع من في الأفغان : ولكن الحرب قامت مرة أخرى بين القبائل وبين الطامعين في الملك ، حتى تغلب « شير علي » ، على ابن أخيه محمد أعظم ، فهرب هذا ، ثم مات بعد أشهر في نيسابور .

توجس جمال الدين بعد ذلك من شير علي وخشى غدره ، وكان هذا الأمير الجديد يخشى أن يمس جمال الدين بسوء لمكانة عشيرته واحترام العامة له بسبب نسبه ، ولكن جمال الدين استصوب أن ينجو بنفسه من هذه الفتنة ، فاستأذن الأمير في أن يحج ، فأذن له على شرط ألا يمر بإيران حيث كان الأمير المهزوم محمد أعظم لما يمت بعد فيها ، فارتحل جمال الدين إلى الهند ، واستقبلته حكومتها بحفاوة فيها من الحذر والحيلة أكثر مما فيها من الاحترام والمحبة ، حتى إنها لم تسمح له بطول الإقامة في الهند ، ومنعت العلماء من الاجتماع به إلا على أعين من رجالها . وبعد شهور أخرجته حكومة الهند من شواطئها ونقلته على مركب لها وعلى نفقتها إلى السويس ، ومنها قدم إلى القاهرة فأقام فيها أربعين يوما ، والتقى به فيها جمع من السوريين الذين يطلبون العلم ، وطلبوا أن يقرأ لهم شرح « الأظهر » ، فقرأ لهم بعضا منه في بيته ، وفي هذه الأيام القليلة التي أقامها جمال الدين في القاهرة تردد على الأزهر وعرف بعضا من طلاب العلم فيه .

ثم حوّل جمال الدين هزمه من السفر إلى السلطنة العثمانية .

أيام من وصوله إليها أمكنته ملاقة على باشا الصدر الأعظم ، فأحبه وأكرمه وأقبل عليه ، ثم لقي بعد ذلك عددا كبيرا من رجال الدولة ، فأحبه بعضهم وخشيه بعضهم ، وأعجب به أكثرهم ، ولقي فيمن لقي بالآستانة رياض باشا وزير اسماعيل ورسوله إلى الباب العالي .

ونعتقد أن هذه الفترة من حياة جمال الدين التي قضاها في عاصمة الدولة العثمانية كانت من الفترات الحاسمة في تاريخ جمال الدين وتكوين شخصيته وبروز اسمه في البلاد الإسلامية وخاصة تركيا ومصر ، فقد تناقل الناس الثناء عليه ، وذكروا عليه ودينه وأدبه ، حتى عين بعد ستة شهور من قدومه الآستانة عضوا في مجلس المعارف .

ولكن هذا الصفو والاستقرار لم يدوما للسيد الأفغانى : فقد نصح له المخلصون من خاصته أن يفارق الآستانة بضعة شهور ثم يعود ، فخرج منها غاضبا محققا ، ثم قصد إلى مصر مرة أخرى ليروح عن نفسه ، ولكن رياض حبيب إليه البقاء في مصر واستماله للإقامة فيها قال : وأجرى عليه رياض رزقا في كل شهر حتى يسهل له سبل العيش .

ويذكر مؤرخو السيد قصصا مختلفة عن سبب خروجه من الآستانة بعد ما نال فيها من الخطوة ، فيقال إنه بعد إقامته فيها اتصل بحزب « تركيا الفتاة » ، جنون تورك ، الذى كان يعمل ضد الخلافة فعُضِب عليه لذلك . ويتمال إنه التقى مرة برياض باشا فأخطه السيد وأغلاظ له القول في مجلس حافل من وجوه الدولة . ولكننا قد رأينا أن رياض هو الذى استمال السيد بعد خروجه للبقاء في مصر لعرفانه فضله ؛ فنحن نستبعد هذه الرواية من إغلاظ الأفغانى لرياض .

ويروى الشيخ محمد عبده قصة طريفة طويلة عن خلاف قام في الآستانة بين السيد وبين شيخ الاسلام حسن أفندى فهمى ، وقد شغل هذا الخلاف صحف الآستانة وأهلها ، وسلط شيخ الاسلام الوعاظ على أن يسفهاوا الشيخ ويطعنوا عليه حتى طلب جمال الدين أن يحاكم شيخ الاسلام . ثم نصح له المخلصون من خاصته أن يفارق الآستانة فترة ، فنزح إلى مصر حيث استبقاه رياض للإقامة فيها ، فأقام .

نزل جمال الدين مصر في شهر المحرم سنة ١٢٨٨^(١) ، وكان يعرفها من قبل قليلا ، ولكنه في هذه المرة اندمج في حياتها الادبية والاجتماعية ، وتردد على دار ابراهيم بك المويلحي ، وكانت قائمة في حارة الأمير حسين بشارع محمد علي ، وهي في ذلك الوقت ندوة المفكرين والعظماء والقادة ، فلما أجرى عليه رياض باشا رزقا شهريا عشرة جنيهات مقابل بقاءه في مصر ولو لم يؤد عملا ، استأجر منزلا في حارة اليهود^(٢) .

يقول الشيخ محمد عبده : إن طلاب العلم عرفوا الأفغاني عند ذلك واهتدوا اليه واستوروا زنده فأورى ، واستفاضوا بحره ففاض درا ، وحملوه على تدريس الكتب فقرأ من الكتب العالية في فنون الكلام الاعلى والحكمة النظرية طبيعية وعقلية ، وفي علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الاسلامي ، وكانت مدرسته بيته من أول ما ابتدأ إلى آخر ما اختتم .

في هذه المرة بقي جمال الدين في القاهرة فترة أطول ، وهي الفترة التي كون فيها جماعته ، وأسس مدرسته الذهنية ، وثبت فيها دعوته الإصلاحية ، واتصل بتلميذه وصفيه الشيخ محمد عبده .

بقي الشيخ جمال الدين يدرس ويدعو دعوته الإصلاحية ، ويشارك في كل أمر ذي خطر من حياة مصر في ذلك العهد أكثر من ثمانين سنين ، أريد فيها أن يُنشأ للباسون محفل في مصر ، فأيد السيد إنشاء هذا المحفل ، وحبه وشارك فيه ، فتألبت عليه الخصوم ، وكان قنصل إنجلترا واحداً من هؤلاء الخصوم ، وكذلك كان كثيرون يخشون دعوة جمال الدين وفكرته الإصلاحية ، ويرون فيه وفي دعوته خطراً ، فاتفق هؤلاء وهؤلاء وسعى قنصل إنجلترا حتى نفي الشيخ من مصر هو وتابعه أبو تراب من غير محاكمة ، وأخرج من مصر في سنة ١٢٩٦ هـ^(٣) فقصده إلى الهند مرة أخرى .

[١] ٢٢ مارس سنة ١٨٧١

[٢] في خان أبو طاقية .

[٣] أغسطس سنة ١٨٧٩

الصوفية المسلمون

لفضيلة الأستاذ نور الدين شريبه

خريج كلية اللغة العربية

هذا كتاب ألفه الدكتور رينولد . ا . نيكلسون ، وهو على صغر حجمه جم الفائدة للذين يتوخون دراسة الصوفية . والمؤلف غنى عن التعريف ، فهو حجة في هذه الناحية من الدراسة الاسلامية ، قصر عليها حياته باحثا وناشرا ، وهو على ما له من مخالفة لوجهة النظر الاسلامية — سنلتزم الرد عليها — أقرب المستشرقين الى الإنصاف ، وأعظمهم في هذه الناحية من الدراسات الاسلامية .
نور الدين

مركز تحقيق كميوتير علوم إسلامي

مقدمة :

يبين عنوان هذا الكتاب بيانا كافيا ، السبب الذي من أجله احتوته سلسلة تمثل الجهود والأخطار التي يلقاها أفراد الباحثين وجماعاتهم في الكشف عن الحقيقة .

والصوفية Sufism — فلسفة الاسلام الدينية — قد وصفت في أقدم تعريف موجود بأنها : إدراك الحقائق الربانية ، . والصوفية المسلمون ولعنون أن يسموا أنفسهم : أهل الحق ^(١) .

وحين أعرض أصول مذاهبهم — على هذا الوجه من الرأي — سوف

(١) (الحق) لفظ كثيرا ما يدور على ألسنة الصوفية يشيرون به الى [الله]

أعتمد الى حد ما على ما جمعته خلال الأعوام العشرين السالفة من مصادر لتاريخ جامع للتصوف الاسلامي . وهو موضوع واسع الأطراف ، متعدد الجوانب ، يحتاج الى المجلدات الضخمة للكشف عن حقيقته في إنصاف .

وليس في طوقى هنا إلا أن أرسم هيكلًا عامًا لبعض القواعد والطرق ، والخصائص المميزة للحياة الروحية كما عاشها مسلمو كل طائفة ومرتبة ، منذ القرن الثامن الميلادي الى وقتنا الحاضر .

وإن الدروب التي سلكوها لشاقة ؛ وإن ما تؤدي اليه من الجهاد لمظلم محير . قد عذمت فيه الصّوى . ومع ذلك فإن لم نأمل أن نصحب السّفَر إلى غاية رحلتهم ، فإن معرفةً نجمعها عن وسطهم الديني وتاريخهم الروحي ، لا بد أن تساعدنا على فهم الرياضات النفسية الغريبة التي كتبوا عنها .

ومن هنا أود قبل كل شيء أن أقدم ملاحظات قليلة على أصل الصوفية ، ونموها التاريخي ، وصاتها بالاسلام ، وصفتها العامة .

ولست هذه الأمور مافعة لدارس علم (الأديان المقارن Comparative Religion) وحده ، بل إن شيئاً من العلم بها لا غنى عنه ألبتة لدارس الصوفية نفسها دراسة جد . ولقد يقال إن الرياضات الصوفية جميعها تلتقي عند نقطة واحدة وذلك - حق : بيد أن هذه النقطة عينها تتخذ وجوها واسعة الاختلاف تبعاً إديانة الصوفي ، وسلالته ، ومزاجه : كما أن الخطوط التي تجتمع حول هذه النقطة تتباين تبايناً عظيماً ، لا حد لنوعه . والأنواع الكبرى من الصوف ، وإن كان بينها شيء من الشبه في العموم ، كل منها يميز بخصائص خاصة ، تنبجت من الظروف التي منها نشأ ، وفيها ترعرع : وكما أن النوع المسيحي لا يمكن أن يفهم دون الإشارة إلى المسيحية ، فكذلك النوع الاسلامي لا بد أن يبحث متصلاً بالنمو الخارجي والداخلي للإسلام :

وكلمة (Noldeke) التي انحدرت من الديانة الآغريقية إلى الآداب الأوربية ، يقابلها في العربية والفارسية والتركية — لغات الاسلام الثلاث الرئيسية — كلمة (صوفي) . واللفظان على كل حال ليسا مترادفين تماماً ، لأن اللفظة (الصوفي) مدلولاً دينياً خاصاً .

وقد قيدها الاستعمال بالصوفية الذين يدينون الدين الاسلامي . والكلمة العربية ، وإن اكتسبت على مدى الأيام مدلول الكلمة الإغريقية الرفيع : شفاه مقفلة بالأسرار القدسية ، وعيون مغمضة على النشوة الحاملة ، إلا أن مدلولها كان متواضعا يوم جرت على الألسنة لأول مرة -حوالى سنة ٨٠٠ م (حوالى نهاية القرن الثانى الهجرى) .

واشتقاقها لا يزال حتى الآن موضع خلاف . فأكثر الصوفية يشتمونها — غير عابئين بتواء التصريف — من اصل عربى هو (الصفاء) .

ومنى هذا أن يكون الصوفى « هو الصافى القلب » أو هو « المصطفى » . وبعض الباحثين من الأوربيين يردها إلى الكلمة الإغريقية سوفوس ، ومعناها « نيو صوفى » . ولكن « نولدكه Noldeke قطع - فى مقال نشر منذ عشرين عاما - أن الكلمة مشتقة من (الصوف) ، وأنها كانت فى الأصل موضوعا لزهاد المسلمين الذين تشبهوا بالرهبان المسيحيين فى ارتدائهم غليظ الصوف ، دليل ندمهم على ما أسلفوا ، وعلى اطراحهم متاع الحياة الدنيا .

والصوفية الأولون كانوا فى الواقع زهادا وادعين أكثر منهم متصوفة . فإدراكهم المستوى عليهم للخطيئة ، تصحبه الرهبة من يوم القيامة وعذاب النار : تلك الرهبة التى ليس فى طوقنا أن نتحققها ، والتى صورت فى القرآن تصويراً حيا ، دفعتهم الى أن يحدوا فى الهرب من الدنيا خلاصا لهم . وينذرهم القرآن من جهة أخرى أن الخلاص يتوقف أساسا على مشيئة الله الخفية التى تهدى المهتدى سواء السبيل ، وتضل الضالين عن القصد القويم ، وأن حظهم قد رقم فى الألواح الخالدة - ألواح عناية الله - لا يستطيع شئ لها تبديلا . فيجب أن يعلم أنه إذا قدر لهم أن ينجيهم صومهم ، وصلاتهم ، وما يأتون من أعمال الخير ، فهم لا بد ناجون . واعتماد كهذا لا بد أن يفتى الى التأمل فى الله ، والخضوع المطلق للمشيئة الربانية . وتلك ميزة من ميزات التصوف فى أقدم صورته .

وقد كان المعين الأصيل للحياة الدينية الإسلامية خلال القرن الثامن الميلادى - الثانى الهجرى - هو الخوف - الخوف من الله ، والخوف من جهنم ، والخوف من الموت ، والخوف من الخطيئة . على أن الدافع المناقض له كان

قد بدأ يظهر تأثيره ؛ وجعل من ولاية الله رابعة - على الأقل - مثلاً ملحوظاً لإنكار الذات الصوفي الحق .

ومن هنا لم يكن ثمة فرق كبير بين الصوفية وبين المتشددین من المسلمين السفین ، إلا أن الصوفية يجعلون لبعض مذاهب القرآن أهمية خاصة ، وينمونها على حساب غيرها من المذاهب التي يمتبرها كثير من المسلمين متساوية الأهمية . ولا بد كذلك من القول بأن حركة الزهد استلهمت المثل العليا المسيحية ، وكانت شديدة التعارض مع روح الاسلام المرححة النشيطة . والنبي في حديث مشهور قد رفض تقشقات الرهبانية ، وأمر قومه أن يحبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله ، وجعل من نفسه - كما هو معروف - أصدق الأمثلة على تحييد الزواج . وتحريمه للبتولة وإن لم يخل من تأثير فإن فتح خلفائه لفارس وسوريا ومصر قد وصل المسلمين بأنكار عدلت نظرتهم إلى الحياة وإلى الدين تعديلاً عميقاً .

والقارئون للقرآن من الأوروبيين لا تعوزهم الدهشة من اضطراب مؤلفه وعدم تماسكه في معالجة كبار المعضلات ؛ وهو نفسه لم يكن عالماً بهذه المعارضات ولم تكن حجرة عثرة في سبيل صحابته الذين تقبل إيمانهم الساذج القرآن على أنه كلام الله . ولكن الصدع من هنا كان . وسرعان ما أظهر نتائج بعيدة الآثار . من هنا قامت (المرجئة) الذين يصدون الإيمان فوق الأعمال ويؤكدون الحب في الله وحسن السيرة . و (القدرية) الذين يؤكدون أن الإنسان مسئول عن أعماله . و (الجبرية) الذين ينكرون ذلك . والمعتزلة الذين أنشأوا علم الكلام مؤسساً على قواعد العقل وأنكروا صفات الله لأنها لا تتفق ووحدانيته ، والقضاء الأزلي لأنه لا يتفق وعدله . ثم (الأشاعرة) أخيراً متكلمو الإسلام الجدليون الذين صاغوا النظام الديني والغبي (الميتافيزيقي) الذي يقوم عليه مذهب أهل السنة إلى الوقت الحاضر .

تعليق :

يقم الاستاذ نيكلسون دعواه الخاطئة عن القرآن ، والرسول ، وصحابته ، على شعب أربع ؛ فهو يقرر :

أولاً : أن مؤلف القرآن مضطرب غير متماسك في معالجة كبار المعضلات .
ثانياً : أنه نفسه لم يكن عالماً بوجود هذا الاضطراب والتعارض .
ثالثاً : أن إيمان صحابة الرسول الساذج قد دفعهم الى الإيمان بأن القرآن كلام الله .

رابعاً : أن الفرق الإسلامية : من أمثال المرجئة ، والقدرية ، والمعتزلة ، والأشعرية ؛ إنما قامت بسبب هذا التعارض الذى يحتويه القرآن .
 والباحث المنصف ، بقليل من التأمل ، لا يسهه إلا أن يرى الشطط الفكرى والخطأ التاريخى الذى وقع فيه الاستاذ (نيكاسون) .

فؤلف القرآن عنده هو محمد صلوات الله عليه ؛ وليس القرآن كتاباً أنزل من عند الله على رسوله . وهذه دعوى سبقه إليها كفار قریش أنفسهم ، واجهوا بها رسول الله حين دعاهم إلى كتاب الله فقالوا عنه : إنه « إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون » ، فقد جاموا ظلماً وزوراً . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ، بل ذهبوا الى أنه يستملها رجلاً غيره ، فكذبهم الله بقوله : « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » .

وتحداهم رسول الله أن يأتوا بشئ شور مثله فجزوا ؛ وبالع في تحديهم فطالبهم أن يأتوا بسورة فجزوا ، وقام هذا التحدى ، بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى الرفيق الأعلى ، مدى هذه القرون الطوال . وابتلى الاسلام بفرق الزنادقة ، وطوائف الملاحدة ؛ وقد حاولوا الكيد له بكل وسيلة . ولكنهم جنبوا أمام هذا التحدى القائم في وجوههم من الكتاب العزيز .

وعجيب أمر السادة المستشرقين ؛ فمن يقرأ ما كتبوه عن محمد صلوات الله عليه — حتى المنصفون منهم — ينتهى إلى رأى عجب فيه ؛ هو أن محمداً من أوساط الناس ، لا يتميز — عندهم — بشئ من العبقرية الفذة ، ولا الفكر المستنير !! فكيف استطاع هذا الرجل العادى أن يؤلف هذا الكتاب الذى دانت له الملايين من البشر ، والذى انطوى على نظام شامل لحياتهم ، يجمع أصولها التى لا يذغى أن يختلفوا عليها ، ويدع فروعها لعقولهم ، واجتهادهم ، وسنة نبيهم ؟ كلا الدعويين يناقض الآخر .

وثمة شيء آخر يثبت أن القرآن من عند الله . فقد ورثنا رسول الله كتاب ربه ، وسنته هو . ومن يقرأ الكتاب الكريم والسنة النبوية يرى الفرق واضحاً بينهما في كل شيء : في أسلوب التعبير ، وفي الموضوعات التي تعالجها ، والأسلوب الذي تعالجها به . فلو كان الكتاب من عند محمد صلى الله عليه وسلم لكان الكتاب والسنة صنوين — في التعبير على الأقل — وهو ما لا يقول به من له دراية ببسائط اللغة العربية .

القرآن كتاب الله . ما هو بقول بشر ، ولا سحر ساحر ، وإن تعامى عن هذه الحقيقة الواضحة المتعالمون .

وليس في القرآن تناقض ولا تضارب ، بل ، منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . وإذا كان السادة المستشرقون لم يتيسر لهم فهم هذه المتشابهات ، وعدوها متضاربات ، فليس ذلك ذنب القرآن ، ولكنه ذنب معرفتهم القاصرة باللغة العربية خاصة والتفكير الإسلامي عامة . وأنت مهما جهدت أن تتذوق لغة غير لغتك كما يتذوقها أبناءها فإن تستطيع . وقد يقرأ القارئ العربي آية من الكتاب العزيز فتأخذ روعتها ، أو بيت شعر فيمتز طرباً : ولكنه لا يجد هذه اللذة حين يقرأ لشيكسبير أو ملتون . وأهل كل لغة أعرف بخفاياها .

والقرآن ليس كتاباً ألف في موضوع بذاته ، حتى يلتزم فيه ما يلتزم في الكتب الموضوعية على هذا النحو من المقدمات والتمهيدات ، ثم النتائج والخواتيم . ولكنه كتاب شامل لحياة المسلمين ، وضع لهم كاية : يحدد فيه الفيلسوف مادة فلسفته ، والصوفي روحانيته ، والمشرع أصول قوانيته ، والأخلاقي قواعد سلوكه ، واللغوي فرائد بيانه . ومن هنا تنوع ما فيه من قصص وحكمة ، وتشريع ، وتاريخ ، وكان على هذا كله متناسقا لا اختلاف فيه ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

والذين لهم بصر بالدراسات الإسلامية يعلمون أن الجماعة الإسلامية قد ابتليت بعد وفاة الرسول بالاختلاف على من يلي الحكم إلى أن سكن هذا الاختلاف ظاهراً بولاية أبي بكر رضى الله عنه أمر المسلمين ؛ وأن السفينة الإسلامية قد

ارتطمت بصخرة مقتل عثمان ، وقيام المطالبين بدمه في وجه علي ؛ وتشعبت الحياة الإسلامية واتسعت بموامل الفتح والاختلاط والوراثات الفكرية المختلفة التي انصبت في المحيط العربي الإسلامي ، فقامت هذه الفرق المختلفة .

وليس هذا موضع استقصاء أسباب قيامها . ولكن الذي لا ريب فيه أن القرآن لم يكن سبباً مباشراً لقيام هذه الفرق .

ولقد وددت لو أن الذين يعالجون الموضوعات الإسلامية من المستشرقين ينزعون عنهم لباس التعصب ، ويلتزمون الانصاف في أحكامهم ، ولا يندفعون وراء عواطفهم ، إنما يبتغون الحق لذات الحق . ولكن هذه منزلة لا يصل إليها إلا القلة المختارة من المفكرين ؟



قيل لمعاوية : إن آذنتك يقدم معارفه في الإذن على وجوه الناس ، قال معاوية : وما عليه ؟ إن المعرفة لتتفع في الكلب العقور ، والجل الصؤول ، فكيف في رجل حبيب ذي كرم ودين ؟ .

نقول : لعل هذا الرد مكذوب على معاوية ، فإن مثله لا يصح أن يجهل أن النظام والعدالة يجب أن يتغلبا على المعرفة . وليس بمنكور أن المعرفة تنفع ولكن لا في إخلال بنظام ، ولا في إضاعة حق : ولو صح ما نسب إلى معاوية لكان للموكلين بالنظم الاجتماعية ، وبالعدالة في الأحكام أن يميلوا مع المعرفة حيث مالت . وقد كنا نود أن كتب المحاضرات تعني بالتنبيه إلى مثل هذه الشؤون فيقننه القراء إلى ما يتخلل مطالعاتهم من وجوه للتقدم فتربى لديهم ملكة الأدب الصحيح .

الشعر في العهد الأيوبي

لفضيلة الأستاذ الشيخ رياض ملال
المدرس بكلية اللغة العربية

— ٢ —

تحدثت في عدد سابق ^(١) عن لون من ألوان تشجيع الأيوبيين للأدب عامة وبخاصة الشعر، وهو الإثابة عليه بالإنعام الجزل والنوال الغمر، مما ألهب قرائح الشعراء وأذكى شاعريتهم : واليوم نتحدث عن عامل آخر من عوامل الأخذ بناصر الشعر وشد أزره في عهد الأيوبيين، وهو مشاركة الأيوبيين لأربابه ومحترفيه، في مدارسته والعكوف عليه، واقتنائه :

رووا أن عضد الدين ابن مؤيد الدولة أسامة بن منقذ، كتب شعر أبيه وجمعه لصالح الدين، وهو لشغفه به يفضلته على جميع الدواوين، حتى إذا كان مؤيد الدولة بدمشق، جالس لصالح الدين وآنسه، وذاكره في الأدب ودارسه ^(٢)، وكان لصالح الدين إذا بلغه عن شيخ رواية عالية وكان ممن يحضر مجلسه، أحضره وسمع عليه وأسمع أولاده وبماليكه، وإن لم يكن ممن يحضر عنده ولا يطرق أبواب الملوك سعى إليه . ويروون أنه كان حافظاً لأنساب العرب عارفاً بسيرهم؛ كما عرف عن الكامل الأيوبي حبه للعلماء ومجالستهم ومناقشتهم في مسائل غريبة في الفقه والآداب والعلوم، يمتحن بها الفضلاء إذا حضروا في خدمته ^(٣)؛ وهو الذي أنشأ دار الحديث بالقاهرة التي قال فيها المقرئ : إنها ثانی مدرسة للحديث على وجه الأرض . وقد تذاكر الأدباء في أحد مجالسه أصعب القوافي في الشعر؛ فقال : من أصعبها الياء الساكنة فن كان منكم يحفظ شيئاً منها فليذكره؛ فتذاكروا في ذلك فلم يتجاوز أحد منهم عشرة أبيات .

(١) صفر ١٣٦٧ .

(٢) الروضون ج ١ ص ٢٦٤ .

(٣) أبو الفداء ج ٣ ص ١٦١ .

فقال السلطان : أنا أحفظ منها خمسين بيتاً قصيدة واحدة ، وذكرها ، فاستحسنوا منه ذلك . فقال القاضي شرف الدين كاتب سره : أنا أحفظ منها مائة وخمسين بيتاً قصيدة واحدة ؛ فقال السلطان : يا شرف الدين : جمعت في خزائني أكثر دواوين الشعراء في الجاهلية والاسلام ، وأنا أحب هذه القافية فلم أجد منها أكثر من الذي ذكرته لكم ، فأنشدني هذه الأبيات : فأنشده قصيدة ابن الفارض الياثية التي مطلعها :

حادي الاظعان يطوى البيد طي منعما عرج على كشبان طي^(١)

ويروى صاحب مرآة الزمان^(٢) عن المعظم عيسى الأيوبي أنه قرأ الأدب والنحو على تاج الدين الكندي ، فأخذ عنه كتاب سيدييه وشرحه الكبير للسيرافي والحامسة ، وكان يحفظ الإيضاح لأبي علي الفارسي ، حتى قال صاحب النجوم الزاهرة في حقه : إنه رجل بنى أيوب وعالمهم غير مدافع . ولا شك أن تلك غاية ما يجهد له العالم المتخصص لا الملوك المشغولون ، إلا إذا أسرهم العلم واستبد بهم . ولعل من أبين الدلائل على العناية بالشعر أن يجتمع الإخوة الثلاثة : الكامل الأيوبي صاحب مصر ، والأشرف صاحب الجزيرة ، والمعظم صاحب دمشق ، بقصر الكامل في المنصورة بعد طرد الفرنجة من دمياط ، ثم يبعثوا إلى جوارهم فيحضرن في جمع من أهلهم وخواصهم ، فيأمر الأشرف جاريته أن تغني ، فغنت :

ولما طغى فرعون عكا وقومه وجاء إلى مصر ليفسد في الأرض

أتى نحوهم موسى وفي يده العصا فأغرقهم في اليم بعضاً على بعض

فطرب موسى وقال : يا لله ! كررى ! . ولكن أخاه الكامل شق عليه ذلك فأسكتها وقال لجاريته : غني أنت ، فغنت :

أيأهل دين الكفر قوموا لتنظروا لما قد جرى في وقتنا وتجددا

أعياد عيسى إن عيسى وحزبه وموسى جميعاً ينصران محمدا

(١) شرح ديوان ابن الفارض لرشيد بن غالب ج ١ ص ٩

(٢) مخطوط في التاريخ الاسلامي

فأنجب ذلك الكامل وأمر لكل من الجاريتين بخمسمائة دينار ، فضمت تلك الليلة من أروع ليالى الشعر والغناء عند الأيوبيين .

وأما إحساس الأيوبيين بمحاسن الشعر واهتزازهم له ومبلغ تأثرهم به ، فأمر تفيض به كتب السير والتاريخ ، وتشرق به أخبار ملوكهم وأمرائهم : فقد عرف عن صلاح الدين أنه كان يستحسن الأشعار الجيدة ويرددها في مجالسه ؛ فكثيراً ما كان ينشد قول أبي منصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن إسحاق الحميري :

وزارني طيف من أهوى على حذر من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولى به فرحا وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
ثم انتهت وآمالى تخيل لى نيل المنى فاستحالت غبطتى أسفا

وكان يعجبه قول تشو الملك أبي الحسن على بن مفرج المعروف بابن المنجم المصرى الدار والوفاء ، وهو فى خضاب الشيب :

وما خضب الناس البياض لقبحه وأقبح منه حين يظهر ، ناصله
ولكنه مات الشباب فيسودت على الرسم من حزن عليه منازل

قالوا : فكان إذا قال مات الشباب ، يمسك كرسىه وينظر إليها ويقول : إى والله مات الشباب ^(١) ١ وكتب مرة الى بعض أصحابه بدمشق :

أيها الغائبون عنى ولم كنـ ستم لئبى بذكركم جيرانا
إننى منذ فمعدتكم لأراكم بعيون الضمير عندى عيانا

كما كان يتمثل بالأبيات فى المناسبات وينددها فى المنامات إذا اشتد به أمر أو حل بساحته خطب . كتب مرة الى أخيه تورانشاه كتاباً يذكر له فيه واقعة فى أوله :

ذكرتك والخطى يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر

ويروى ابن الأثير أنه رأى هذا الكتاب بخط يد صلاح الدين ^(٢) ولما مات تورانشاه هذا حزن عليه حزناً شديداً ، وجعل يكثر إنشاد أبيات المراثى

(١) النجوم الزاهرة ٦٠ ص ٥٦ . (٢) مختصر أبى الفدا ٣٠ ص ٦٠ .

وكان كتاب الحماسة من حفظه ^(١) وقيل له إن الوخم كثر في مرج عكا من كثرة القتل فتمثل :

اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي

وكان مرة خارجاً الى الشام فخرج الناس لوداعه ، فسمع قائلاً يقول في ظاهر الخيم :

تمتع من شميم عرار نحمد فابعد العشية من عرار
فتطير من ذلك وانتبض بعد انبساط . وقد كان خلفاء صلاح الدين بهذه المثابة يطربون للشعر ويفزعون اليه عند المناسبات ، مما يبين عن مبلغ كلفهم به واحتفالهم له ؛ فعرف عن الكامل أنه كان يعجبه البيتان :

ما كنت قبيل ملك قلبي تصد عن مدنف حزين
ولمّا قد طمعت لما حلت في موضع حصين ^(٢)
وكان ينشد كثيراً في مرضه :

يا خليلي خبراني بصديق كيف طعم السكرى فأني نسيته
كما عرف عن تورانشاه أنه أرسل إلى صلاح الدين كتاباً فيه أبيات من شعر شاعره ابن المنجم ، منها :

فهل لأخي بل مالكي علم أني إليه وإل طال التردد راجع
وأني بيوم واحد من أمانه لملكي على عظم المزية بائع
ولم يبق إلا دون عشرين ليلة وتجنّى الخى أبصارنا والمسامع
لدى ملك تعنو الملوك إذا بدا وتخضع إعظاما له وهو خاشع
كتبت وأشواق إليك ببعضها تعلمت النوح الحمام السواجع
وما الملك إلا راحة أنت زندها تضم على الدنيا ونحن الأصابع ^(٣)

أما بعد ، فإلى عدد آخر نرجى الحديث عن الشعراء من البيت الأيوبي ، وسنرى منهم شعراء لهم في صناعة الشعر باع طويل ؟

(١) الروضتين - ٢ ص ١٨ (٢) النجوم الزاهرة - ٦ - ٢٢٢

(٣) الروضتين - ٢ - ١٨ ، ١٩ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

في الاحتفال بذكرى المغفور له الملك فؤاد الأول ، وتوزيع الجوائز
على أوائل الناجحين في حفل حافل شرته معالي رئيس الديوان الملكي

—

الحمد لله الذي وفق المصلحين ، والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين ،
وعلى آله وأصحابه والتابعين لهجه القويم ، وصراطه المستقيم .

أما بعد : فإن للعاملين لذكرى ، وإن للمصلحين لأثراً ، وإن أولى العاملين
بالذكر ، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وأقاموا ركن الدين ، ونهضوا بواجباتهم
على أكرم وجه ، وأمثل سبيل . وأى رجل أخلق بالذكر وأحق بالتمجيد من عاهل
مصر العظيم ، المغفور له ، الملك فؤاد الأول . فقد كان - طيب الله ثراه - مثلاً
يحتذى في إعزاز الدين ، وإكرام رجاله ، والنهوض بهم إلى المسكنة اللاتقة
بدينهم الحنيف ، وتعاليمه السامية .

ولو أردت أن أعد مآثر فؤاد العظيم ، وأياديه الغر الميامين ، على الأزهر
ورجاله ، لما وسعتني صحائف وصحائف . وهذا التاريخ من قبلى ، قد سجل اسم
فؤاد في عداد الخالدين ، وامتلات صحائفه بآثاره الخالدات ، التي نهضت بمصر
كلها نهضة عظيمة ، في جميع مناحي حياتها ونشاطها الاجتماعي ، والثقافي ،
والسياسي ؛ فما من مؤسسة ولا جماعة هدفها الخدمة العامة والإصلاح ، إلا يتوج
اسم فؤاد جهودها ، بما بذل لها من عون أدبي ومادى .

لم يكن - طيب الله ثراه - يسمح أن تمر لحظة من حياته العامرة بوجوه النفع
والإصلاح ، دون أن يسجل في ثبوت النهضة أثراً جديداً من آثاره الدافعة بالامة
الى أوج الرقي والحضارة .

واليوم ونحن نحى الذكرى الثانية عشرة لهذا المصلح العظيم ، لا نستطيع أن نمر على آثاره في النهضة العلمية دون أن نقف لحظات نستعطر فيها الرحمة على هذا العاهل العظيم .

أما الأزهر ففي عنقه لفؤاد العظيم ، دين لن يستطيع أبناء الأزهر مهما جاهدوا في ذكره ، أن يوفوا حق الملك العظيم ، الذى بذل لهم من نفسه وماله وسلطانه ، ما أقام لهم عمود معبدهم العتيد على أساس مكين من الإصلاح الدينى والعلمى ، حتى حق أن يلقب فؤاد على الزمن « منشىء الأزهر الحديث » .

فاللهم أسكنه المقام المحمود الذى وعدت من يعملون فى سبيلك ، ويؤدون الحق ، ويؤازرون الخير ، ويبرون العلم والعلماء ، قدر ما جهد فؤاد نفسه فى خدمة العلم والدين ، وجزاء وفاقا لما بذل فى سبيل الله وأعان على مرضاته .

اللهم أجزل له مثوبتك بما أجزل للمسلمين من عطاء ، وبما أمد الأزهر من فيض الرعاية .

« لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وأولئك لهم الخيرات ، وأولئك هم المفلحون . أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك الفوز العظيم » .

أبنائى الأزهريين :

إن إحياء ذكرى عاهل مصر العظيم فؤاد الاول واجب على الأزهريين ، عرفانا بما أسدى لهم من جميل رفع من قدرهم ، وأعلى من ذكركم . وإن من آثاره التى لا يحصىها العد هذه اليد التى أسداها للطلاب تشجيعا على طلب العلم ، وحثا لهم على التنافس فيه ؛ فقد وهب - أسكنه الله فسيح جناته وأثابه خير المثوبة - جائزة مالية عظيمة لأوائل الناجحين من خريجي الكليات الأزهرية الثلاث ، التى هى من غرس يدي ، تقديرا لهم ، وحفزا لغيرهم .

ولما ننتهز فرصة ذكره فنقدم هذه الجوائز للأول والثانى من ناجحي الشهادات العالية فى الكليات الثلاث ، مكررين الدعاء من قلوبنا أن يجعل جلالة

في جنات الخلد مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

« والله يدعو إلى دار السلام ، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم فقتل ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ،

ولعل أجل ما نعتز به في هذه الذكرى العزيزة علينا وعلى الوطن ، هو ما تفضل به علينا حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم الملك فاروق الأول ، شبل فؤاد العظيم ، بمناسبة إحيائنا هذه الذكرى ؛ فقد تفضل حفظه الله فأسبغ على الأزهر ورجاله نعمًا لا حد لها ، ورعى طلابه بعناية سامية يعلن بها رضاه السامى وتقديره للعاملين المجدين . ولا غرو فالفاروق ابن فؤاد العظيم .

وكل يوم تطلع مع شمس مآثرة ومحمدة للفاروق ، هدفها عزة الدين ، وغايتها نصره الإسلام والمسلمين .

والآن أضرع إلى الله العلى القدير باسمى واسمكم أن يحجزه عنا خير الجزاء ، وأن يحياه حياة طيبة مباركة تتم بتفهمها العباد والبلاد . إنه سميع مجيب ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

الاسلام والاشتراكية

وسمو نظام الاجتماع الاسلامى على جميع النظم العالمية

تلطف سعادة الوزير المفوض لدولة المجر فزار حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الاكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الازهر ، فى أوائل شهر مايو الجارى ، رافعا لفضيلته تحيات مسلى هنغاريا . فقابل فضيلته هذه التحيات بمثلا ، ورجا سعادة الوزير المجرى أن يبلغها اليهم مشفوعة بدعائه وجميل ثنائه .

ثم جرى فى هذه المقابلة كلام عن حال المسلمين فى المجر ، فأجاب الوزير بأنهم ينعمون بالحرية الدينية والاجتماعية ، وبأنهم يتمتعون بعناية حكومتهم ، وبأنها أصدرت حديثا قوانين اعترفت فيها بمساواة الدين الاسلامى لسائر الأديان المعترف بها فى بلاد المجر .

فأبدى له فضيلة الأستاذ الاكبر سروره بهذه الأنباء ، ورجا سعادة الوزير المفوض أن يبلغ أولئك المسلمين أن يبقوا متمسكين بدينهم ومخلصين لوطنهم . ثم انتهر الوزير هذه الفرصة فسأل فضيلة الأستاذ الاكبر عن مبلغ صحة ما يكتب عن الاشتراكية فى الاسلام .

ففضل فضيلة الأستاذ الاكبر بإجابته بما يأتى :

• أود أن أوضح لسعادة الوزير كلمة الدين دون تأثر بأى مذهب أو رأى ، إلا الرأى العلى الخالص . وكلمة الدين هى أن الاسلام نظام قائم بذاته لا علاقة له بالاشتراكية ولا بغيرها من المذاهب . وهو نظام يكفل للمسلمين السعادة فى معاشهم ومعادهم ، ويضمن لهم التكافل الاجتماعى بفرض الزكاة على القادرين والموسرين لمصلحة الضعفاء والفقراء . على أنه مع ذلك يعترف صراحة بالملكية الفردية ونظام الموارث ، والتفاضل فى الكسب والرزق . وهذا النظام يقوم على قواعد اجتماعية وعمرانية لا نظير لها فى أى مذهب دنيوى من المذاهب الحديثة .

ونحن نقول تعليقا على هذا التصريح القيم : إنه أقوم وأعدل ما يكتب عن النظام الاجتماعي والمالي في الاسلام .

فإن قول فضيلة الأستاذ الاكبر : إن الاسلام نظام قائم بذاته لا علاقة له بالاشتراكية ولا بغيرها من المذاهب ، حق لا مرية فيه . فإن الاشتراكية لم توجد إلا في القرن التاسع عشر ، فأين هي من الاسلام الذي أنزل في القرن السابع للميلاد ؟ نعم وضع مشرع اسبارطا اليونانية (ليسكورج) نظاما اقتصاديا لجمهوريته لم تقم عليه أمة قبله ولا بعده ، آخى به بين جميع الاسبارطيين ، حتى كانوا يتناولون الطعام مختلطين في موائد عامة كأنهم أعضاء أسرة واحدة ، وكانت أموالهم مشاعة بينهم لا غنى فيهم ولا فقر ؛ ولكن هذا النظام لم يلبث أن تصدع ، وزالت معه دولة اسبارطة ، ووقعت تحت كلال المقدونيين ، دون أن يترك أهلها أثرا عليا أو فنيا كما ترك إخوانهم الآثينيون . وقد كانت بلادهم جبلية قاحلة لا تسمح أن تقوم بها أمة تتخذ نظاما يصلح أن يسمى نظاما اجتماعيا قويا ، لذلك لم يفكر حتى غلاة الاشتراكيين في أن يتخذوا ما كانت عليه 'قدمة' تؤيد ما يذهبون إليه من نظرياتهم .

أما قول فضيلته عن الإسلام : إنه نظام يكفل للسليين السعادة في معاشهم ومعادهم ، ويضمن لهم التكافل الاجتماعي ، بفرض الزكاة على القادرين والموسرين لمصلحة الضعفاء والفقراء ، فثابت لا يمكن التردد فيه . فقد أثبت التاريخ أن الضعفاء والفقراء في المجتمعات الإسلامية نالت في جميع بلاد المسلمين من الرعاية ما لم ينل بعضه أمثالهم في جميع البلاد ، ومنها أوروبا ، إلى أوائل القرن التاسع عشر .

فقد كانت الطبقة الدنيا من الشعوب تعيش في الحرمان ، بل في العبودية للسراة والمثرين . وكان الفلاحون يباعون ، حتى في فرنسا نفسها وفي أرق ممالك أوروبا ، مع الأرض التي يعملون فيها ، فينتقلون من ملكية سيد إلى ملكية سيد آخر دون أن يستشيرهم أحد في مصيرهم .

قال فضيلة الأستاذ الاكبر : فرض الإسلام الزكاة على القادرين والموسرين لمصلحة الضعفاء والفقراء . وقرن لهم ومهرهم القادرين والموسرين

الاسلام من أول عهد الرومان إلى عهد الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر كانت تفرض الضرائب والأتاوات على الفقراء ومتوسطى الحال ، وكانت تعنى الأغنياء والأقوياء منها . وقد حملت هذه المعاملة العامة في الدولة الرومانية على الاضراب عن العمل مرات متتالية ، فكانوا في كل مرة يرضخ لهم القادرون والموسرون بصباغة لاترؤى غلة ، فلما أعوزهم الاصطبار تركوا أعمالهم ولاذوا بالجبال ؛ وما زال أمرهم بين بين حتى زالت الدولة الرومانية ، وخلفتها حكومات استعانت على خنق شكاوى العامة بالدين ، بعد أن حرقوه عن حقيقته .

كان الملوك والأمراء ورجال الدين ، ومن لهم صلة بهؤلاء في أوروبا ، معقنين من كل التكاليف المالية على مزارعهم الواسعة ، وعماراتهم الثابتة ، وتجاراتهم الرائجة ؛ وكان على العامة أن يرسفوا في قيود الفاقة ، وأن يصبروا على آلام الحرمان . فلما جاء الاسلام قلب هذه الحال الى ضدها ، ففرض على القادرين والموسرين زكاة لمصلحة الفقراء والضعفاء والمعوذين ، ودعاها حقاً لهم ، فقال تعالى : « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » .

وقد شدد الاسلام في تحصيل هذا الحق حتى قاتل الممتنعين عن أدائه . فانه لما امتنع بعض القبائل العربية عن دفع الزكاة ، أمر أمير المؤمنين أبو بكر أن تحصل منهم بالقوة ؛ فلما أكبر بعض أصحابه هذا التشديد قال : « والله لو منعوني عقال بغير لقاتلتهم عليه » . وأنت خير بأن هذه الزكاة كان يؤدى جانب كبير منها للفقراء والمملقين . قال الله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم ، وكلها كما ترى وقف على مصالح الفقراء وحفظ كيان الاجتماع . فقوله تعالى : « والعاملين عليها » أى على تحصيلها فإنهم يعطون أجورهم منها . وقوله سبحانه : « والمؤلفة قلوبهم » أى الذين أسلموا حديثاً فتستألف قلوبهم بإمدادهم بشئ يستصلحون به معاشهم ليتحققوا أنهم بين ظهري قوم رحيمين . وقوله جل وعز : « وفي الرقاب » أى في فك أسر الأرقاء ، فقد كان من عادة العرب أن يعين الواحد منهم لرقيقه مالا إذا أداه له تحرر من أسرهِ . فأمر الله

غرض عمراني جليل يشعر بأن الإسلام يرمى الى إعانة الضعفاء على أية صورة كان ضعفهم . وقوله تعالى : « والغارمين ، أى والمدينين لأنفسهم فى غير معصية ولا إسراف . وكذلك الباذلى أموالهم لإصلاح ذات البين ، فيرد إليهم ما دفعوه وإن كانوا أغنياء ، تنشيطا لهم على العمل للإصلاح بين الناس . » وابن السبيل ، : المسافر الذى فقد ماله .

وقول فضيلة الأستاذ الأكبر لمحدثه : « وهذا النظام يقوم على قواعد اجتماعية وعمرانية لا نظير لها فى أى مذهب دنيوى من المذاهب الحديثة ، ، فتأكد لا مبالغة فيه ، فإن العقول الإنسانية عجزت عن فرض نظام اقتصادى يسرى سريان نظام الزكاة ، ويتناول الثروة العامة من جميع نواحيها ، على الوجه الذى عليه الزكاة فى الإسلام . فإن كل ما فعلته هذه العقول وتفعله أن تفرض على دَخل كل إنسان وعلى ما يؤول إليه من الأموال ، ضريبة تصاعدية تحصلها وتضيفها الى خزينة الدولة ، فتنفقها فى الوجوه التى تنفق فيها سائر إيراداتها .

ولكن الإسلام خص دَخل الزكاة ، مهما كثر ، فى رَأب صدوع المجتمع التى أساسها الفقر والإعواز . وقد ثبت أن الفقر فى الطبقات السفلى من المجتمعات شر أدواء الاجتماع ، فهو يحمل الواقعين تحت كلاله على إتيان جميع ضروب الشرور للحصول على أخص حاجات الحياة وهو القوت . فالبطون إذا خوت ، والأجساد إذا عريت ، دفعت أصحابها لاستساعة جميع صنوف الجرائم ، وعدت ذلك عملا مشروعاً . ومهما أعدت الحكومات من درجات العقوبات باءت فى كبجها بالفشل .

وفى البيئات التى يشيع فيها الفقر ، تروج جميع المذاهب المتطرفة التى تستحل جميع شمول الأعمال الوحشية للوصول إلى أغراضها ، وتعتبر ذلك من الأمور المشروعة . وقد ذقت أوروبا من هذه الناحية شر ما يولده الفقر من الأعمال الضارة بال عمران ، من أول الاضرابات البريئة عن الأعمال ، إلى آخر ما تتطور إليه من الثورات التى لا تبقى ولا تذر . وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من الفقر ، وهو أزهق الناس فى الدنيا ، ولم يملأ بطنه قط من طعام .

فن أحكم ما رأيناه فى الإسلام ، وكل ما فيه متناه فى الأحكام ، أن يفرض على أهله فريضة مالية يخصصها لتدارك حاجات الفقراء . وقد عُنى عناية فائقة

بأمر هذه الطبقة حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من بات شبعان وجاره جائع ، . ناهيك أنه سعى ما يدفع لإعانة الفقراء حقاً لهم ، لا مجرد تفضل من الأغنياء عليهم . وقد أمر بامداد طالب المعونة بحاجته مهما كان مظهره فقال : « أعط السائل ولو جاءك على فرس » .

بهذه التعاليم اضطلمت الأمة الإسلامية ، فلم ينتشر فيها الفقر انتشاره في غيرها ، ولم يصيبها من أهل الإملاق شر في جميع أدوار حياتها الاجتماعية ، واستن المسلمون بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم في علاج الفقر بتقدير ما هُتدوا اليه ، فأسسوا للفقراء الملاجىء ، وشيدوا لأبنائهم المدارس المجانية ، ووقفوا عليها عتائل أموالهم ، ولا يزالون يحرون على هذه السنة .

ولم يكتف الإسلام بما فرض من الزكاة ، بل جعل كثيراً من الكفارات أموالاً تبذل للفقراء ، أولئك رقاب الأسراء ، وكلها ترمى إلى الترفيه عن المحتاجين ، وقد عُدت الآيات التي وردت في الكتاب الكريم عن بذل المال في وجوه البر ، فوجدت أكثر مما ورد منها في الحث على الصلاة .

إن الذين يطلعون على الحوادث العالمية ، وخاصة الحادثة من تطاحن الأحزاب وما يجره هذا التطاحن من اضطراب الأمور ، وقلق النفوس ، يدركون لأول وهلة أن منشأها سوء توزيع الثروة بين الأفراد ، فإذا وجد نظام اقتصادى يحول حصة صالحة من الثروة العامة تحويلاً آلياً مبنياً على نظام قار ثابت ، إلى الناحية التي تشكو الإقلال ، سواء بتوزيعها نقداً ، أو بإنشاء ملاجىء ومستشفيات وصيدلات ومدارس مجانية ، بحيث تسد حاجة أهل الإقلال ، فإن المذاهب الاشتراكية من معتد لها ومتطرفها لا تجد حاجة لتكدير صفو الحياة الاجتماعية . وهذا يتم عمله بواسطة الزكاة .

فما أصدق فضيلة الأستاذ الأكبر إذ قال لوزير المجر : « إن هذا النظام الإسلامى يقوم على قواعد اجتماعية وعمرانية لا نظير لها في أى مذهب دنيوى من المذاهب الحديثة » .

محمد فريد وهجرى

الرفق في العبادة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين
مدير إدارة البحوث والثقافة المساعد
بالأزهر الشريف

أخرج الإمام أحمد بإسناده عن رجل من باهلة، قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة مرة ، فقال : من أنت ؟ قلت : أما تعرفني ؟ قال : ومن أنت ؟ قلت : أنا الباهلي الذي أتيتك عام أول ، فقال : إنك أتيتني وجسمك ولونك وهيئتك حسنة ، فما بلغ بك ما أرى ؟ قلت : والله ما أفطرت بعدك إلا ليلاً . قال : من أمرك أن تعذب نفسك ؟ من أمرك أن تعذب نفسك ؟ ثلاث مرات : صم شهر الصبر ، قلت : إني أجد قوة ، وإني أحب أن تزيدني ، قال : صم يوماً من الشهر ، قلت : إني أجد قوة ، وإني أحب أن تزيدني ، قال : فيومين من الشهر ، قلت : إني أجد قوة ، وإني أحب أن تزيدني ، قال : ثلاثة أيام من الشهر ، قال : وألح عند الرابعة ، فأكاد ، فقلت : إني أجد قوة ، وإني أحب أن تزيدني ، قال : صم الحرم وأفطر . »

من هذا الحديث نعلم أن الله تعالى نهى عن الانتقال في الطاعات ، والمغالاة فيها ، وأمر بالرفق واليسر في العمل بأحكام الدين ، وحث على ألا يفعل الإنسان ما فعله ذلك الرجل الباهلي ، وما كان يفعله كثير من العباد والمتنسكين الذين كانوا يحملون أنفسهم من العبادة ما يضر بأجسادهم ، ويشق على نفوسهم ، فهو لاء وإن كانوا أهل صدق وجد واجتهاد ، إلا أنه ينبغي ألا يتمتدى بهم في هذا الإفراط والتشدد ، وإنما يقتدى بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن خير الهدى هديه ، وقد كان ينهى عن التعسير ، ويأمر بالتيسير ، ودينه الذي بعث به يسر ، وكان يقول : خير دينكم أيسره ، وكان أكثر تطوعه صلى الله عليه وسلم ببر

القلوب وطهارتها ، وسلامتها ، وقوة تعلقها بالله ، خشية له ، ومحبة ، وإجلالا ، وتعظيما ، ورغبة فيما عنده ، وزهدا في الدنيا .

سئلت فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر بن عبد العزيز بعد وفاته عن عمله ، فقالت : والله ما كان أكثر الناس صلاة ، ولا أكثرهم صياما ، ولكن والله ما رأيت أحدا أخوف لله من عمر لقد كان يذكر الله في فراشه ، فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف ، حتى نقول : ليصبحن الناس ولا خليفة لهم . وقال بعض السلف : ما بلغ من بلغ عندنا بكثرة صلاة ولا صيام ، ولكن بسخاوة النفوس ، وسلامة الصدور ، والنصح للأمة .

فالنبي صلى الله عليه وسلم لما رأى ذلك الرجل الباهلي ، وقد نهكه الصوم ، وغير هيئته ، وأضر به في جسده ، أمره أولا أن يقتصر على صيام شهر الصبر ، وهو شهر رمضان ، فلما طلب منه أن يزيده من الصيام ، وأن يأمره بالتطوع ، قال له : صم يوما من الشهر ، فاستزاده ، فقال له : صم يومين ، فاستزاده ، فقال له : صم ثلاثة أيام ، فلما ألح عليه عند الثالثة ، ما كاد يزيده على الثلاثة أيام من الشهر .

وكذلك فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع عبد الله بن عمرو بن العاص : ففي صحيح مسلم عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : صم يوما — يعني من الشهر — ولك أجر ما بقي . قال : إني أطيق أكثر من ذلك ، قال : صم يومين ، ولك أجر ما بقي ، قال : إني أطيق أكثر من ذلك ، قال : صم ثلاثة أيام ، ولك أجر ما بقي .

ووجه ذلك أن الصيام يضاعف مالا يضاعف غيره من الأعمال ، ولا يعلم منتهى مضاعفته إلا الله تعالى ، وكلما قوى الاخلاص فيه ، وإخفاؤه وتنزيهه من المحرمات والمكروهات ، كثرت مضاعفته ، فلا يستبعد أن يصوم الرجل يوما من الشهر ، فيضاعف له بثواب ثلاثين يوما ، فيكتب له صيام الشهر كله ، وكذلك إذا صام يومين من الشهر ، فأما إذا صام ثلاثة أيام فالأمر ظاهر ، لأن الحسنة بعشر أمثالها ، فالיום بعشرة أيام .

وحديث الباهلي هذا ، يدل على أن التكلف في العبادة بما يشق على النفس ، ويتأذى به الجسم ، غير مأمور به شرعا ؛ ولذلك قال له النبي صلى الله عليه وسلم : من أمرك أن تعذب نفسك ؟ وأعادها عليه ثلاث مرات .

وهذا كما قاله لمن رآه يمشى في الحج ، وقد أجهد نفسه : إن الله لغني عن تعذيب هذا نفسه ، فروه فليركب .

وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص ، حيث كان يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ويختم القرآن في كل ليلة ، ولا ينام مع أهله ، فأمره أن يصوم ويفطر ، ويقرأ القرآن في كل سبع ، وقال له : « إن لنفسك عليك حقا ، وإن لآهلك عليك حقا ، فأت كل ذي حق حقه . »

ولما بلغه أن عثمان بن مظعون أراد التبتل قال له : أترغب عن سنتي ؟ قال : لا ، ولكن سنتك أريد ، قال : فإنني أنا وأصلي ، وأصوم وأفطر ، وأنكح النساء ، فاتق الله يا عثمان ، فإن لآهلك عليك حقا ، وإن لضيفك عليك حقا ، وإن لنفسك عليك حقا ، فصم وأفطر ، وصل ونم .

وعزم جماعة من الصحابة أن يتبتلوا ، فجلسوا في البيوت ، واعتزلوا النساء ، وحرموا طيبات الطعام واللباس ، وهملوا بالاختصاص ، وأجمعوا لقيام الليل ، وصيام النهار ، فنزل فيهم : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين . »

وقد ورد النهي عن صيام الدهر ، والتشديد فيه . وهذا كله يدل على أن أفضل صيام التطوع هو ألا يضعف البدن ، حتى يعجز عما هو أفضل منه من القيام بحقوق الله تعالى ، أو حقوق عباده اللازمة ، فإن أضعف عن شيء من ذلك مما هو أفضل منه ، كان تركه أفضل . فالأول مثل أن يضعف صيام التطوع عن الصلاة ، أو عن الذكر ، أو عن العلم ؛ والثاني مثل أن يضعف عن الكسب للعيال ، أو القيام بحقوق الزوجات ، فيكون تركه أفضل .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يتوسط في إعطاء نفسه حقها ، ويعدل فيها غاية العدل ، فيصوم ويفطر ، ويقوم وينام ، ويأكل ما يجد من الطيبات كالحلواء والعسل ، ولحم الدجاج ، وتارة يجوع حتى يربط على بطنه الحجر ، وقال : عرض على ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهاباً ، فقلت : لا ، يارب ، ولكن أجوع يوماً ، وأشبع يوماً ، فاذا جمعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت حمدتك

وشكرتك . فاختار صلى الله عليه وسلم أعدل الأحوال ، ليجمع بين مقامات الشكر والصبر والرضا .

وقد ورد : « اكفوا من العمل ما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملوا ، . وورد : « أحب العمل الى الله أدومه وإن قل ، . فن عمل عملا يقوى عليه بدنه في طول عمره في قوته وضعفه ، استقام سيره ؛ ومن تحمل ما لا يطيق ، فانه قد يحدث له مرض يمنعه من العمل بالكلية ، وقد يسأم ويضجر ، فيقطع العمل ، فيصير كالمنبت ، لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى .

وقد ندم عبد الله بن عمرو بن العاص في آخره أمره حين عجز عن الاستمرار على ما أخذ بنفسه من قيام الليل وصيام النهار والإفراط في العبادة وقال : ليتني قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد كان رجل في زمن التابعين ، يصوم ويواصل ، حتى عجز عن القيام ، وكان يصلي الفجر جالسا ، فأنكروا ذلك عليه ، حتى قال عمرو بن ميمون : لو أدرك هذا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لرجوه .

وكان ابن مسعود يقل صيام التطوع ، ويقول : إنه يضعفني عن قراءة القرآن ، وقراءة القرآن أحب الى .

وأحرم رجل من الكوفة ، فقدم مكة ، وقد أصابه الجهد ، فرآه عمر ابن الخطاب ، وهو سىء الهيئة : فأخذ عمر بيده ، وجعل يدور به الحلق ، ويقول للناس : انظروا الى ما يصنع هذا بنفسه ، وقد وسع الله عليه ! .

ولعل السر في مطالبة الاسلام (بالرفق في العبادة) والاعتدال في أعمال التطوع واضح كل الوضوح ، فان الله تعالى خلق الانسان محتاجا الى ما يقوم به بدنه من مأكل وشرب وملبس ، وأباح له من ذلك كله ما هو طيب حلال تقوى به النفس ، ويصح به الجسم ، ويتعاونان على طاعة الله ؛ وحرّم عليه ما هو ضار خبيث ، يوجب للنفس طغيانها وقسوتها وغفلتها وأضرها وبطرها ؛ فمن أطاع نفسه في تناول ما تشتهيه مما حرّمه الله عليه ، فقد تعدى وظلم نفسه ، ومن منعها حقها من المباح حتى تضررت ، فقد ظلمها ومنعها حقها ؛ فمن تكلف من التطوع ما تضر به في جسمه ، كما فعل ذلك الباهلي ، أو ما يمنع به حقا واجبا عليه ،

كما فعل عبد الله بن عمرو بن العاص وشيخه بمن عزم على ترك المباحات في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فانه ينهى عن ذلك ؛ ومن احتمل بدنه ذلك ، ولم يمنعه من حق واجب عليه ، لم يته ، إلا أن يمنعه عما هو أفضل ، فانه يرشد الى عمل الأفضل . وأحوال الناس تختلف فيما تحمله أبدانهم ، وتتقبله نفوسهم ، فيرشد كل واحد الى ما يناسب حاله .

وهذا كله يدل على سماحة الاسلام وسهولة أحكامه ، وما أصدق ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول : « إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » .

كما يدل على شفقة الرسول صلى الله عليه وسلم ورحمته بالمؤمنين ، إذ كان لا يترك فرصة إلا تعهدهم فيها بالنصح والإرشاد ، وتوجيههم الى ما فيه خيرهم وصلاحهم في دينهم ودنياهم ، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم .



طلب الحوائج

قال خالد بن صفوان : لا تطلبوا الحوائج في غير حينها ، ولا تطلبوها من غير أهلها ، فان الحوائج تطلب بالرجاء ، وتدرك بالنضاء .

وقال : مفتاح نجح الحاجة الصبر على طول المدة ، ومغلاقها اعتراض الكسل دونها . وقد جاء ذلك في الشعر فقال شاعر :

إني رأيت وفي الأيام تجربة للصبر عاقبة محمود الأثر
وقل من جد في أمر يحاوله فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وقال حكيم : لا تطالب حاجتك من كذاب ، فإن يقربها بالقول ويبعدها بالفعل ؛ ولا من أحق ، فإن يريد تفعلك فيضرك .

وقال شبيب بن شبة : إني لأعرف أمرا لا يتلاقى به إنسانان إلا وجب به النجح بينهما . فقل له : وما ذاك ؟ قال : العقل ، فان العاقل لا يسأل ما لا يمكن ، ولا يرد عما يمكن .

تحقيقات حول عقيدة ابن رشد

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بالجامعة الأزهرية

رأى ميرين :

استند هذا العالم في حكمه على ابن رشد إلى نصوص كتاب «تهافت التهافت» ، فأنهى به بحثه إلى أن ابن رشد لم يبدل جهدا مخلصا في التوفيق بين الفلسفة والدين فحسب ، بل إنه في بعض المسائل الأساسية قد أخضع الفلسفة للدين ، والعقل للعقيدة ، فكان الدور الذي منح الفلسفة تمثيله هو دور شرح الحقائق الآتية عن طريق الوحي ، وفي الدائرة التي حددوها الدين . وليس هذا النهج من مبتدعات ابن رشد ، بل هو مألوف عند جميع فلاسفة العرب ، ولكنه هو فقط أكثر ظهورا في فلسفة ابن رشد . فمثلا نحن نشاهد ابن سينا يغمس في نوع من التنسك المظلم الذي لا يفهمه إلا تلاميذه كلما اصطدم بمشكلة لا تتفق مع رأى القرآن ؛ أما ابن رشد فقد ذهب إلى ما هو أبعد من هذا حيث أعلن مثلا بإزاء مسألة الحياة الأخرى أنه يجب ترك هذه المسألة ، وأنه — إلى أن يجد لها العقل حلا يتفق مع القرآن — يعد الخروج فيها عن حدود الإيضاح القرآني ، أو الارتياح فيه ، ضربا من الإلحاد . ومن هذا يتبين أننا إذا تعقبنا الفلسفة العربية إلى آخر خطواتها ، ألقيناها دائما خاضعة للدين ^(١) .

ونحن لا نحسب أننا في حاجة إلى التنبيه على خطأ هذا العالم بعد الذي أسلفناه حين عرضنا لفلاسفة الإسلام من محاولاتهم المغالية في إخضاع الدين للفلسفة الإغريقية وجعلها هي المركز الرئيسي الذي يجب أن يجذب إليه النصوص القرآنية ، وما ذكرناه من آرائهم التي تثبت في وضوح أنهم كانوا يقدمون العقل

(١) انظر مجلة « الموزيثون » البلجيكية سني ١٨٨٨ - ١٨٨٩ تحت عنوان

« دراسات في فلسفة ابن رشد » .

على كل شيء إلى حد حمل الأستاذ «كارادى» فو ، على أن يعلن أنهم كانوا يجعلون
الوحي في الدرجة الثانية بعد الفلسفة .

ميجيل أزين :

بدأ هذا الباحث دراسته بترجمة فصول من كتب : « تهافت التهافت ،
و « فصل المتعال ، و « كشف الأدلة ، الى اللغة الأسبانية ، ثم عقد بينها وبين
نصوص القديس توماس الاكوينى موازنة دقيقة خرج منها بأن رينان قد غالى
في زعمه أن ابن رشد كان عقليا محضا ، وأن الحقيقة الناصعة هي أنه خصم لدود
للتعقل الحس ، وأن مذهبه في محاولاته التوفيق بين الفلسفة والدين يشبه مذهب
القديس توماس ، إذ هو يرمى إلى إثبات أن العقل — وليست الفلسفة أو البحث
عن جواهر الأشياء بالبرهان إلا من منتجاته — يقود إلى عدد كبير من الحقائق
ولكنه لا يتمود إليها جميعها . ولهذا لم يكن بد من الوحي الإلهي أولاً لكي يصور
الحقائق الضرورية للنجاة أمام أخيلة الجماهير في صورة رمزية فاتنة ؛ ثانياً لكي
يلهم الجميع حتى الفلاسفة بعض الحقائق لما بعد الطبيعية التي يستطيع العقل أن
يدرك وجودها لا معانيها . وبما أن مصدر العقل والوحي واحد ، فمن غير الممكن
أن يتناقضا ، بل يجب أن يتعاونوا ، غير أنه لما كان الوحي يفوق العقل ، فقد
وجب في حالة التعارض الظاهر أن يخضع الثاني للآخر .

وأخيرا ينتهى « أزين » في بحثه إلى أن إخلاص ابن رشد الديني ينبغي أن
يوضع فوق كل ريبة ، وأنه في جميع مهاجماته التي وجهها إلى المتكلمين لم يتعد حد
السنة النقية ^(١) .

ليون جوتييه :

لم يقع هذا العالم فيما وقع فيه أسلافه من التسرع في الحكم على ابن رشد ،
ولمّا أصدر رأيه فيه بعد روية وتمعن ، وهو يتلخص في أن الباحث — لكي يدرك

(١) انظر للفيلسوف المعنونة « رشدية القديس توماس الالهية » المنشورة في الكتاب
الذي عنوانه : « إجلال إلى دون فرانثيسكو كوديرا » .

الأسباب الحقيقية التي حملت ابن رشد على المناقض الظاهري الذي يشاهده الناظر في فلسفته -- يجب عليه أن يعرف أن هذا الفيلسوف قد قسم بنى الإنسان إلى ثلاث فصائل، وأبان نوع المعرفة الذي يجب أن يقدم إلى كل فصيلة (١).

فأما أفراد الفصيلة الأولى فهم الفلاسفة أو ذوو البراهين العقلية الذين لا يقنعون بدون الحجة القاطعة، والمعرفة التي يجب أن تقدم إلى هؤلاء هي المعرفة العقلية البحتة، أى أنه لا يصح أن يخفى عليهم شيء ألبتة، بل ينبغي أن يباح لهم تحليل النصوص المتشابهة أو المعقدة من الكتب الدينية، إذ لا يجوز أن يحتجب عنهم سر ولا أن تقف في طريقهم معجزة، لأن الأسرار والمعجزات ليست إلا بعض الرموز المقدرة للجواهر ولا تتصل بالمعرفة الفلسفية التي لا تتعلق إلا بالحجج العقلية.

وأما أفراد الفصيلة الثانية فهم رجال الدين الذين يعتمدون على الأقاويل الجدلية، وهؤلاء قادرون على أن يتبينوا المصاعب الموجودة في النصوص الدينية فحسب، ولكنهم عاجزون كل العجز عن فهم المعاني الحقيقية لهذه النصوص. ويجب على الفلاسفة ألا يقدموا اليهم من المعرفة إلا النوع الأوسط الذي يتلاءم مع عقلياتهم، وهو التأمل المؤلف من أجزاء عقلية وأخرى دينية.

وأما أفراد الفصيلة الثالثة فهم العامة الذين تستهويهم الأساليب الخطائية، وهؤلاء عاجزون عن كل شيء ولا يصح أن يقدم اليهم أى تأويل، بل يجب أن يأخذوا بحرفية النصوص، وأن يؤمنوا بجميع الرموز والتمثيلات دون بحث ولا تأويل.

ومن أوضح الأدلة على صحة هذا التقسيم هو ذلك القول المأثور: «الله في السماء». فإن العامة يعتقدون أنه يقطن السماء كما يقطنون منازلهم، ورجال الدين يؤولون هذه الكلمة بأن الله فوق النقص والضعف الإنسانيين، ولكنهم لم ي

(١) تبع ابن رشد بلا ريب في هذا تقسيم أرسطو الحجج إلى برهانية وجدنية وخطائية وشعرية وسوفسطائية ثم طرح الرابعة والخامسة لافراط أولاهما في الخيال، وفساد ثانيتهما، وأبقى الثلاث الأولى، وقسم الانسانية ومعارفها على غرارها.

يوضحوا تأويلهم يقولون : « إن الله في كل مكان » . أما الفيلسوف فإنه يعلم أن قول رجال الدين : إن الله في كل مكان ، يساوى قول العامة : إنه في السماء ، لأنه في الحالتين يكون جسما يشغل قدرا من الفراغ قل أو كثر ، وهو لهذا يقول : « إن الإله ليس في أى مكان ، وإنما هو موجود في ذاته ، وإن تأثيره هو الذى يشمل كل مكان » .

ومن هذا يتبين أن الفلاسفة يجب عليهم أن يفلسفوا سرا ، وأن يضنوا بمعارفهم على أهل الطبقتين : الوسطى والدنيا ؛ وألا يوضحوا لهم بشيء من أسرار حكمتهم ؛ كما يجب على رجال الدين ألا يكشفوا النقاب للعامة عن شيء من معارفهم حتى لا يعرض العقل لهدم الدين من النفوس التى هو ضرورى لها .

ومن هذا أيضا يبين أن الفلاسفة والدين ليسا إلا تعبيرين عن حقيقة واحدة تقضى الحكمة ألا يستعمل أحدهما في موضع الآخر ؛ الأول عقلى واضح ، والثانى رمزى غامض . وهذا هو معنى التوفيق الذى حاول ابن رشد تثبيته بين الحكمة والشرعية ، فقرر أنهما تستطيعان السير جنباً إلى جنب كأختين متحابتين مادامتا متجهتين إلى صنفين مختلفين من الناس . ولو أن المعتزلة والأشعرية قد فهموا هذا لما كانوا مصدر تشكيك الناس في دينهم كما فعلوا حين حسبوا أنه يجب أن يدعى الناس جميعا على نهج واحد وبدون تمييز بينهم إلى معرفة الإله وإلى الحقائق الدينية ، وبأحوال للجميع بالتأويلات التى ظنوا أنها حقيقية . ولما لم يكونوا متفقين فيما بينهم فقد أنشؤا مذاهب وشيعا كان هما الأول أن تبادل التهم بالكفر والزندقه ، وفى الواقع أن كل تلك الصدوع الدينية التى وقعت في الاسلام تولدت من هذه التأويلات المختلفة التى لا تتفق مع الفلاسفة ولا مع العامة .

بقى الآن أن نعرف كيف تصاغ الحقائق الفلسفية في عبارات رمزية تتفق مع عقليات الجماهير ، إذ أن هذه الصياغة لا تحدث في نفوس الفلاسفة المتخصصة بالمجردات ، ولا في نفوس العامة العاجزة ، وإنما هي تحدث في نفوس الأنبياء الذين بعد أن يفيض عليهم العقل الإيجابي — كما يفيض على الفلاسفة — إدراكات عقلية برهانية يعود فيرن في أخيلتهم رنيناً يجعلهم قادرين على تحويل الأفكار النقية إلى تمثيلات رمزية ، وهذا دليل قاطع على أن النبي هو وحده الإنسان الكامل

الاسمى من الفيلسوف ، وهو الذى تجتمع فى نفسه الحكمة مع الدين ، وهو الصلة الحية بين العقل والعقيدة .

وأحسب أنه لم يبق بعد ذلك موضع للقول بأن ابن رشد ليس عقليا خالصا ؛ أو بأنه أخضع الفلسفة للعقيدة كما زعم أصحاب هذا الرأى ؛ وإنما الحقيقة التى لا ريب فيها هى أن هذا الفيلسوف لم يخط كلمة واحدة تشهد بخضوع الفلسفة للدين ، بل بالعكس قد أعلن أن الفلسفة والديانة ليستا متساويتين ؛ فموضوع الأولى من الثانية هو موضع الصفوة من الشعب ، والفكرة النقية من رمزها المادى ؛ وهذا هو الذى حمله على أن يؤول النصوص الدينية فى حالة اختلافها مع الفلسفة ليتحقق التوفيق بينهما ^(١) .

هذا هو موجز رأى الأستاذ ليون جوتييه فى ابن رشد وآرائه بإزاء الدين ، ولا أراى فى حاجة إلى التصريح بأنه رأى ثاقب دقيق يحمل فى طياته برهان عمق كاتبه وفهمه للموضوع الذى عالج ، وقدرته على التغلغل فى غيايات الفلسفة الرشدية .

سياسة الملك

قال الوليد بن عبد الملك لأبيه : يا أبت ما السياسة ؟ فأجابه : هيبه الخاصة مع صدق مودتها ، واقتياد قلوب العامة بالانصاف لها واحتمالها فوات الضائع . وكتب أبرويز ملك الفرس إلى ابنه شيرويه : اعلم أن كلمة منك تسفك دماء ، وأخرى تحقن دماء ، وأن سخطك سيف مسلول على من سخطت عليه ، وأن رضاك بركة مستفيضة على من رضيت عنه ؛ وأن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك . فاحترس فى غضبك من قولك أن يخطئ ، ومن لؤنك أن يتغير ، ومن جسدك أن يمحى ؛ فان الملوك تعاقب حذرا ، وتعفو حملا . واعلم أنك تجل عن الغضب ، وأن ملكك يصغر عن رضاك ، فقد رلسخطك من العقاب ، كما تقدر لرضاك من الثواب .

(1) L. Ganthier. la théorie d'ibn Rochd sur les rapports de la religion et la raison, p. 74 - 78, 84 - 85, 108 sq.

أسباب تاخر المسلمين

المؤامرة الثانية

قتل عثمان رضى الله عنه

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر

الأستاذ بكلية اللغة العربية

وصلت مع القارئ الكريم في مقالى السابق تحت هذا العنوان الى نتيجة المؤامرة الأولى ، وهى اغتيال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان المتآمرون يظنون أنه سينفرط عقد الجامعة الإسلامية بهذا الحادث الفظيع ، فيتم لهم ما أرادوا من الشر والوقية . ولكن ساء ظنهم ، وخاب أملهم ، و دُسِّقَط في أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلوا ، حين رأوا كلمة المسلمين مجمعة تحت راية الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه . عند ذلك تواروا تحت ستار من المكر والخداع برياسة عبد الله بن سبأ^(١) اليهودى ، وعمدوا إلى إثارة الفتنة والدس بين المسلمين ، واستعملوا لذلك كل دهاء وكياسة ، حتى أوقعوا بين المسلمين وخليفتهم ، وكانت النتيجة أن قتل رضى الله عنه فى داره والمصحف بين يديه ! وبذلك قوى عزهم على تنفيذ جميع مؤامراتهم المدبرة ، فأشعلوا نار الخلاف بين على ومعاوية رضى الله عنهما ، وانتهت تلك الفتن بقتل الإمام على

(١) وكان يلقب بابن السوداء ، لزيد أمه . أسلم من خبث نية وفساد طوية وكيد للإسلام ، وهو الفائل بأن عليا رضى الله عنه وصى محمد عليه السلام وقد خصبه هذا الحق من تولى الخلافة قبله من الخلفاء فالواجب على المسلمين أن يقوموا لاعادة الحق الى أهله . وقد تبعه كثير من ضفاف الإيمان وأهل الأهواء على هذا الرأى الفاسد . وكان ظهوره بالبصرة سنة ٣٤ هـ ثم طرد منها فذهب الى الكوفة ثم الى الحجاز ثم الى الشام فطرد من الجميع ، فذهب الى مصر وبها طاب له المقام ، فأخذ يلغز بين المصريين آراءه التى كانت بذورا لفتنة « التى تموج كوج البحر » كما سبق بيانه فى نهاية المقال السابق .

ابن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين ، وأحد شجعان العرب في الإسلام . قتله الخوارج من أعضاء الجماعات السرية التي أوضحت أمرها آنفا . وهذه هي (المؤامرة الثالثة) .

وكان قصد المتآمرين بهذه المؤامرة أن يقضوا على سلطان العرب في جميع بقاع الإسلام بقتل أساطينهم في مصر والشام والعراق ، وهم على ومعاوية وعمرو ابن العاص ؛ وبذا تقع الفوضى ويحدث الاضطراب في صفوف المسلمين . ولما لم يتم لهم جميع ما أتملوا من الفساد والإفساد ، ركزوا جهودهم سرا في الإيقاع بالحسين ابن علي رضي الله عنهما ، حتى كانت (المؤامرة الرابعة) التي انتهت بقتله رضي الله عنه ، وتشيت آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم في كثير من بلدان الإسلام !

ولست الآن في مقام مؤرخ يسجل الحوادث الدامية التي وقعت في تاريخ الإسلام ، ولكنني بصدد بيان أن تلك الفواجع الالهية ، والخطوب الجسيمة لم يكن مصدرها العرب أنفسهم كما يدعى ذلك أعداء العرب من مستشرقين وأوروبا ؛ وإنما كان مدبر أمرها ، ومطير شررها وموقد نارها بين العرب هم أولئك الفئام من مدعي الإسلام وليسوا منه ولا من العروبة في شيء ، الذين نكب بهم الإسلام نكبة لم يرتفع منها رأسه الى وقتنا هذا ، والذين تربصوا الدوائر بخلفاء بني أمية ، وأوقدوا نار العداوة بينهم وبين بني العباس ، ثم طوّحوا ببني العباس في مهاوى الردى والدماء ، ثم خلفتهم ذريتهم لتعيث الفساد في دويلات الإسلام بمصر والعراق والشام ، بل وبلاد الأندلس العربية التي كانت لإحدى جنات الدنيا ، وإحدى عجائبها التاريخية .

وإن تعجب أيها القارئ . فعجب أن أمر تلك الجماعات لم يقف عند هذا الحد من الضرر البالغ ، بل تعداه إلى ضرر أبلغ ، وجُرم أخف ، وطوية أسوأ من كل ما ذكر ؛ ألا وهي التشكيك في الدين .

وذلك أنهم لما رأوا أن تقلص ظل السلطان العربي لم يثمر الثمرة المرجوة لهم ، وأن دعائم الاسلام لا تزال ثابتة بالقرآن وبسنة الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لما رأوا ذلك الذي غاظم عمدوا إلى إثارة الشك في الدين بين ضعفاء الإيمان من المسلمين ، ففسروا القرآن بحسب أهوائهم تفسيرا باطنيا باطلا

لا تؤخذ معانيه من ألفاظه العربية ١ واخترعوا مسائل الجدل في أصول الدين ، كالقول بالتجسيم ، وبالجبهر ، وبوجوب الصلاح والأصلح على الله تعالى .

وكذبوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضعوا آلاف الأحاديث المعطلة لمبادئ الإسلام ، أو الموقعة في الضلال ، أو المفسدة للأخلاق ، ونسبوها إلى الرسول عليه السلام زورا وبهتانا (١) ١١

وزادوا الطين بلة بتأليف الكتب في بيان مثالب العرب وتعداد مساوئهم وإسناد كل إفك وتقيصة وباطل اليهم ، من دون أن يكون لذلك ظل من الحقيقة والواقع ، حتى إن ابن خلدون المؤرخ المشهور تسم بهذه الأفكار الخاطئة ، وتجننى على العرب ظلما في فصلين عقدهما في مقدمته التاريخية إذ يقول :

(فصل) في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب ١

ثم يقول بعد ذلك :

(فصل) في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك ١

وقد كتب في هذين الفصلين ما شاء له هواه ، وأملته عليه غريزته ، ناسيا أو متناسيا حضارة العرب في الأندلس ذات الجنان الفيحاء ، والقصور الشامخة ، والآداب والعلوم ! وغافلا أو متغافلا عن تلك الرزايا المجوسية والرومية التي انصبت على رؤوس حكام العرب ، والتي لو جعلت على شم الجبال لذكرتها دكا ، وتركها قاعا صفصفا (٢) لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ١ وكأنى بلسان حال العرب يقول :

صبت على مصائب لو أنها صبت على الأيام عدن ليايها

فيا لله للعرب ، ثم يا لله للمسلمين ! !

كلمة إنصاف :

على أن ما حدث من بعض الشراذم الضالة الشريرة لا يمنعنا أن نقر بالفضل ،

(١) ولكما الحمد لله إذ تصدى لتمييز هذه الموضوعات رجال من علماء الحديث المخلصين

أهل الرواية والدراية . رحمهم الله ورضى عنهم :

(٢) الصفصف : الأرض المستوية ، والعوج : الانخفاض ، والامت : الارتفاع .

ونعترف بحمیل الصنع لمن دخلوا فی الاسلام من غیر العرب ، وهم الکثرة
الکثرة من المسلمین ، فقد خدموا الاسلام أجل خدمة سجلها التاريخ .

فأكثر مفسری القرآن من هؤلاء الأعلام ، وجل حفاظ الحديث النبوی
ورجال الرواية من هؤلاء ، وفطاحل الغویین والنحاة وعلما البلاغة والأدب من
هؤلاء ، بل أستطیع أن أقول : لولا أولئك الأئمة الأعظم ، من علماء الإسلام
الأعاجم ، لاندurst هذه العلوم ، وأضحت فی خبر کان !

إلى هنا یلاحظ القارئ أنى أطنبت فی بیان السبب الأول من أسباب تأخر
المسلمین ، إلا أنى أعتقد أنه السبب الرئيسی لهذا التأخر ، وكل ماعداء من الأسباب
الأخرى مرده الى هذا السبب .

السبب الثانى — إهمال المسلمین العمل بروح الكتاب والسنة فيما دَعُوا اليه
من الحث على الاتحاد والتعاون ونبد العصیة الممقوتة ، والأخذ بأهداب العلم
الدينى والدنیوى ، والجهاد فی سبیل الله . وهذا الإهمال دام قديم ظهر فی عصر
بنى أمیه ، ثم أخذ ينتشر بعد ذلك بین المسلمین انتشار النار فی الهشيم !

وكان یحمل جرائم هذا المرض رجال من موالى الفرس والروم ، أمثال
من عرضنا لذكركم فی السبب الأول . ظهر هؤلاء للناس بمظهر التدين والطاعة
والإخلاص لله ولرسوله ، وأخفوا بین ثنایا عباداتهم وطاعتهم سموم الأمراض
الاجتماعية ، وشكوك العقائد الدينية ، بثونها فی نفوس من شاموا ، فی الوقت
الذى شاموا !

ومن عجیب أمر المسلمین أنهم لم یتنهوا الى ما نههم اليه الرسول صلى الله عليه
وسلم فی أحاديثه الصحيحة من صفات هؤلاء المارقین من الدين ، الذين یلبسون
للناس جلود الضأن ، وقلوبهم كقلوب الذئاب . روى البخارى فی صحیحه
عن أبی سعید الخدری رضی الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
یقول : « ینخرج فیكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم ، وصیامكم مع صیامهم ،
وعملکم مع عملهم ، ویقرءون القرآن لا یجاوز خاجرهم » یرقون من الدين

كما يمسرق السهم من الرميّة ^(١) ، ينظر في النصل ^(٢) فلا يرى شيئاً ، وينظر في القيدح ^(٣) فلا يرى شيئاً ، وينظر في الريش ^(٤) فلا يرى شيئاً ، ويتبارى في الفوق ^(٥) . ومعنى الحديث أن كل واحد من هؤلاء يتظاهر بالصلاح والتقوى وليس في قلبه منهما شيء ، وأنه يدخل في الإسلام ويخرج منه لا يعلق بقلبه منه شيء ، كما يخرج السهم من الصيد المرمى بقوة الرمي لا يتعلق به ولا بشيء من أجزائه دم ولا غيره ، حتى إن الراى يتبارى ويشك هل في الفوق شيء ؟ مع أنه ليس بموضع للشك . وهذا الحديث ونحوه من أصدق الدلائل على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم ، وهو ينطبق تمام الانطباق على غلاة الخوارج والرافضة والباطنية ، الذين نكسب بهم الإسلام في عصر على كرم الله وجهه ، وفيما بعده من عصور الإسلام إلى يومنا هذا !

السبب الثالث — موجة الإلحاد التي طغمت على العقائد في العصور الأخيرة ، فأغرقتها في بحر لجى من الشك والخيرة ، فكان من أثر ذلك أن ضعف اعتقاد الناس في البعث والنشور والعرض والحساب ، وفي الثواب والعقاب الآخرويين ، أى الجنة والنار ، وترتب على هذا الأثر أن قلت الرغبة في الخير بين المسلمين ، وكثرت نوازع الشر فيما بينهم . وهذه نتيجة طبيعية لمن لا يرجو ثواباً ، ولا يخشى عقاباً !

ونظرة فاحصة إلى حال المسلمين الأولين تربك صحة ما أقول :

آمن السابقون الأولون إيماناً صادقاً بما جاء به الرسول عليه السلام ، فكان من أثره أن باعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله بأن لهم الجنة ، فقاتلوا الأعداء ، وبذلوا الأموال ، وجاهدوا حتى انتصروا ، وكانت لهم الصولة والغلبة والدولة مع قلة عددهم وُعددهم . وذلك أثر الإيمان الصادق .

أما المسلمون اللاحقون فهم مع كثرة عددهم ووفرة أموالهم أذلاء في ديارهم ،

(١) الصيد .

(٢) حديد السهم .

(٣) التدح بكسر التاء : السهم قبل أن يراش .

(٤) ما يجعله حوالى الفوق مما يشبه الريش .

(٥) الفوق بضم الفاء : موضع الوتر من السهم .

مستسلمون لأعدائهم ، بخلاء بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والوطن ، وهذا أثر لإيمانهم . والبون شاسع بين الأثرين كما ترى .

السبب الرابع — انصراف الكثير من علماء الإسلام عن النظر والتفكير في العلوم الكونية ، واشتغالهم بعلوم الدين واللغة والأدب . والذي أعنيه بهذا الكلام أنه كان يجب أن يكون في عصر المجتهدين من علماء الدين كأي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل مجتهدون آخرون في استنباط المعادن من بطون المناجم ، والبحث في خواص الأجسام وقوانين الطبيعة للوصول إلى الكشف والاختراع ؛ وأن يقوم بجانب علماء اللغة والأدب كالحليل وسيبويه ، والفراء والأخفش ، والجاحظ وعبد القاهر ، والسكاكي والسعد والسيد ، والأصفهاني صاحب الأغاني ، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد . علماء آخرون من طراز آخر ، يبحثون في تنظيم الجيوش الإسلامية ، وتزويدها بآخر ما وصلت إليه يد الاختراع من معدات الدفاع والحرب ؛ وآخرون يبحثون في اختراع وسائل الراحة المختلفة ، وشئون الحياة العامة كالصحة والزراعة والصناعة والتجارة وغير ذلك مما يشاهد في غير بلاد العرب والإسلام . وها هنا أقول : إن جهلنا بعلوم الدنيا كان سبباً جوهرياً في تأخرنا وانحطاطنا في شئون الدنيا وفي شئون الدين . وما يثير في النفس أعظم العجب أن دستور العرب — وهو القرآن الكريم — تعرض في كثير من المناسبات إلى الحث على الأخذ بأسباب هذه العلوم ، على حين أن الكتب السماوية السابقة لم تتعرض إلى شيء من ذلك ، بل لم تشر إليه أية إشارة .

السبب الخامس — تطرق اليأس إلى نفوس العرب والمسلمين من إصلاح الحال . وقد نشأ عن هذا السبب هذه المملكات ؛ وهي :

(أ) الجبن وترك الجهاد ، لاعتقادهم ضعف أنفسهم وقوة عدوهم ، وأنه لا بد منتصر عليهم . وهو داء فتاك بالأمم ، لأنه يضعف فيهم الروح المعنوية ، ويُطمع فيهم الأعداء . وقد حدث هذا فعلاً .

(ب) البخل بالمال في سبيل المشروعات الخيرية والوطنية ، لأنهم يخافون الفقر ، ولا يرجون صلاحاً . وهذا عيب اجتماعي كبير ، لأنه يؤدي إلى

البطالة وضعف الإنتاج ، وهما وسائل الفقر . وقد يما قيل : الناس من خوف الفقر في فقر !

(ج) الاستسلام للخور وضعف العزيمة ، لا اعتقادهم أن الأجانب الغربيين سيقوموا الى كل شيء ، وفاقوم في كل شيء . وهو داء يتمل روح النهوض والنشاط ، ويثبط الهمم عن كل نافع مفيد .

(د) عدم الثقة بالنفس في الشؤون الاقتصادية والعمرانية . وهذا مذكوره ضعف العزيمة ، لا اعتقادهم بأن الاجنبي الأوروبي متقن عمله ، مجيد صناعته ، وأن الشرق لا خطر له في إتقان عمل ولا في إجادة صنعة !

وهذا الداء الفتاك كان يروج له ويدعو إليه أول نهضة د أوروبا ، مستشرقون مأجورون وشرقيون مفتونون ، مدللين على صحة دعاواهم المبهرجة بحال الشركات العربية ، التي كانت تؤلف ثم لا تلبث أن تنحل وتصفى .

وحقيقة الواقع أن هذه أوهام باطلة ، وأن فشل تلك الشركات كان منشؤه دسائس الأجانب وحيلهم الماكرة الفادرة ، التي أطاحت بكثير من مشروعات العرب في بلاد الشرق .

وبذلك على صحة ما أقول شيان :

الأول — أن اليابان دولة شرقية قصوى ؛ ولكن لما خلصت من دسائس هؤلاء ترفت في زمن وجيز حتى فاقت بعض دول د أوروبا ، حضارة وعلوما !

الثاني — أن الوعي الشرقي الوطني لما تنبه أخيرا الى أساليب هؤلاء الدعاة وخداعهم أخذ ينتج النتائج المثمرة ، ويقوم بالمشروعات الجليلة النافعة ، في نواحي الصناعة والمال والاقتصاد . وأوضح مثال لذلك « بنك مصر » وشركاته الناجحة الراجعة .

وعما قريب بمشيئة الله تعالى نرى كثيرا من الشركات العربية والإسلامية تنقب عن خيرات الأرض وكنوزها الطبيعية في صحارى مصر ، وطرابلس ، وجزيرة العرب ، والعراق ، والشام ، والأناضول . ويومئذ يعرف الناعبون من غربان المستشرقين بأن الشرق تنبه ، ولم يعد لقمة سائغة في حلق المستعمرين .

فلسفة القرآن والحياة الأخرى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد يوسف الشيخ
المدرس بكلية أصول الدين

قرأت في كتاب الفلسفة القرآنية للأستاذ العقاد فصلا في الحياة الأخرى عرض فيه لمذاهب الفلاسفة قديما وحديثا ، ومذاهب الأديان الكتابية في الحياة الثانية ، وكيف تكون وكيف يكون حال أصحاب هذه الحياة في نعيمهم وعذابهم ، لذاتهم وآلامهم .

فذكر أن الفلاسفة قبل الأديان وبعدها يؤمنون بالحياة الثانية ؛ وأشهرهم من الأقدمين أفلاطون ، ومن المحدثين ، كانت ، وهما وإن اتفقا في الإيمان بتلك الحياة الثانية إلا أن لكل منهما طريقته ومنهاجه ؛ فأفلاطون يؤمن بالحياة الثانية من طبيعة النفس وخصائصها وما لها من التجرد والبساطة ، وأنها من أجل ذلك لا تقبل العدم والانحلال . و « كانت » يؤمن بها من طريق شعورها بسلطة وإرادة إلهية تفرض عليها واجبات تقتضي لذلك العدالة الإلهية جزاء يميز بين المحسن والمسيء ، وليس ذلك في هذه الحياة الأولى كما هو الواقع المشاهد ، فلا مناص من حياة ثانية يتحقق فيها هذا الجزاء . ومن هنا لفت الكاتب أنظار الباحثين الى أن هذه المسألة مسألة بحث وفكر ، وليست مجرد اعتقاد وإيمان ، فهي من القضايا التي يمكن للعقل أن يتناولها بقضائه ، وأنكر على التجريبيين أن يتنكروا لهذه القضية ، وأن يغلقوا الباب فيها ، إذ ليس لهم من الأسانيد العلمية ما يبيح لهم هذا الإغلاق .

هذه الحقيقة كعقيدة من العقائد التي تدعو الشرائع الكتابية الى الإيمان بها ، تختلف عنها في تصويرها وتمثيلها كقضية يتناولها العقل بالبحث والتفكير ؛ فالعقل إذ يتناول الحياة الثانية وشؤونها بالبحث والنظر يفترض في ذلك فروضا شتى ؛ يفترض تارة حياة على مثال هذه الحياة الأولى ، وتارة يفترض حياة تباين

تلك الحياة وما فيها من المادة والجسمية والعرضية وسائر شئون المادة ؛ كل هذا يفترضه العقل أولاً ، ثم يطمئن أخيراً الى ما هدى اليه البحث والنظر كيفما كان . أما الأديان وكتبها إذ تطالب الناس وتطالبهم جميعاً بالإيمان بالحياة الثانية وما فيها من نعيم وعذاب ، لا بد أن تتمثل ذلك في صور لا يتعذر على كافة الناس فهمها ؛ لا بد أن تصور ذلك في أمثلة مما ألفه الناس وعرفوه ، فتحدث عن النعيم في الآخرة في صورة من الطيبات من ألوان الطعام والشراب والفاكهة ، والخور والولدان ، والقصور وما فيها من أثاث وأرائك ، وهكذا .

يتمثل ذلك في قوله تعالى في سورة الواقعة ، في جنات النعيم ، ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وخور عين كأمثال اللؤلؤ المسكون ، جزاء بما كانوا يعملون ، لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قتيلاً سلاًماً . .
وتحدث عن العذاب فتصوره نيراناً وسعيراً ، يسمع فيها المكذبون تغيظاً وزفيراً ، وهكذا .

يتمثل هذا في قوله تعالى في سورة الفرقان « بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ، وإذا ألقيوا منها مكاناً ضيقاً مقرّنين دعوا هنالك ثبورا ، .

هكذا يمثل القرآن النعيم الروحي والعذاب النفسي في هذه الأمثلة الحسية ، فيعبد الطريق أمام الجماهير والعامّة حتى يتمكنوا من الاقتناع والإيمان بما ادعت ودعت اليه الشرائع . أما ما وراء ذلك من المعنويات المجردة التي تخفى وراء تلك الأمثلة الحسية فينفذ إليها ذوو البصائر من الخاصة أهل النظر البعيد والتفكير العميق .

ولو أن الشرائع سلكت في تفهيم الجماهير والعامّة غير هذا السبيل ، فلقنتهم نعيماً وعذاباً في الآخرة ليس من جفّس ما ألفوا ولا يشبه ما اعتادوا وعرفوا ، لما وجدت لدعوتها سميماً ؛ فلا بد من أسلوب يحقق العقيدة عند جميع الناس خاصة وعامّة ، ولا بد فيها من التعبير عن المعاني بالمحسوسات .

هذا المسلك التمثيلي للعذاب والنعم ليس خاصا بالإسلام وكتابه ، بل ذلك سبيل الأديان وكتبها جميعا ، تجد ذلك في كتب العهد القديم والجديد ، وفي كتب التراتيل والدعوات . ونقل الأستاذ في مقاله نصوصا كثيرة في ذلك .

ينتهي الأستاذ في آخر مقاله الى أن التعذيب تطهير للنفوس وتكفير عن سيئاتها ومآله الغفران ، وأن الأنفس جميعا تتلاقى في حظيرة الرضوان . وأما الخلود والأبد فيفيدان الزمان الطويل ولا يفيدان البقاء بغير انتهاء .
هذا تلخيص وبيان لمقال الأستاذ العقاد .

وننكر في هذا المقال أمرين : الأول تصوير النعم والعذاب في الحياة الثانية كما صورته عند الفلاسفة وكتب الأديان . الثاني تكييف العقوبة في الآخرة وأجلها . أما النعم والعذاب في الآخرة فيختلف الباحثون فيه من فلاسفة ومليين : أما محض معنويات مجردة منقطعة الصلة بالمادة وغواشيها ، أم هما من جنس ما ألف الناس من العذاب والنعم المادى ، وإن اختلفا في الأولى والثانية كما وكيفاً ؟ هذا الاختلاف في تصوير النعم والعذاب يرجع إلى اختلاف آخر أعظم منه خطراً : هل الإنسان الذى له الحياة الثانية ينعم فيها ويمذب هو على نمط ذلك الإنسان المعهود في هذه الحياة الأولى ، تدخل المادة في تقويمه ، فهو إنسان ذو جسم ورأس ويد ورجل وأصبع وعين وأذن وأنف وفم ولسان وهكذا ؟ أم الإنسان الثانى هو ذلك الروح المجرد الذى كان يدبر شؤون الجسم في هذه الحياة الأولى ؟

جزم الفلاسفة الإلهيون بأن الإنسان الذى يحيا الحياة الثانية إنما هو ذلك الروح المجرد ، ولا يمكن أن يكون للمادة دخل في تقويمه وقوامه ، ولا سيما تلك المادة التى كانت من مقوماته ويدبر شؤونها في الحياة الأولى ، ومن ثم فذلك الإنسان الروحى المحض لا يمكن أن يكون له من اللذائذ والآلام إلا تلك المعنويات البريئة من المادة وغواشيها . وإذا فلا مناص لأولئك الفلاسفة إذا كانوا مؤمنين بالوحى وكتب الأديان أن يتأولوا نصوصها التى تتحدث عن الحياة الثانية وما فيها من إنسان مادى ونعم وعذاب كذلك على نحو ما أسلفنا .

وجزم المسلمون جميعاً بأن الانسان الثانى هو ذلك الانسان المعبود فى الحياة الدنيا ، فمن ثم جاز أن يكون له نعيم وعذاب من جنس ما ألفه ونعشه من الماديات ، فاذا ما جاءت الشرائع وكتبها تندعى وتدعو الى الإيمان بحياة أخرى فيها إنسان هو ذلك الانسان وله من النعيم والعذاب ما ألف الناس واعتادوا ، أنكون حينئذ فى ضرورة الى التأويل ، أم يجب أن نحترم ظاهر النص ، ذلك الظاهر الممكن الذى تحدثت به النصوص والذى لم نعثر على دليل ينطق بأحاطته ، وإن لم يكن هناك مانع من أن يكون بجانب العذاب والنعيم المادى ألوان أخرى من النعيم والعذاب الروحى ؟ بل جزم المحققون من أهل الملة كالغزالي والراغب بأن النعيم والعذاب الأخرى تنظم النوعين جميعاً .

تستطيع على ضوء هذا التكييف لهذا البحث أن تحدد موضع النزاع بين الفلاسفة والمليين فى أنه : هل يمكن أن يكون الانسان الثانى هو الانسان الأول تدخل المادة الأولى فى تنويعه كما دخلت فى تنويع الأول ؟

جزم الفلاسفة بأنه لا يمكن للأبد من تأويل النصوص الكتابية ، وأنها تمثيل للمعقول بالمحسوس .

وجزم المليون بأنه يمكن ، فلا بد من احترام ظاهر النصوص الكتابية والإيمان بذلك الظاهر كما ورد من غير تأويل وتمثيل .

وإننا نسوق اليك فى هذا النزاع أقوى جدل تحاور فيه الفلاسفة والمليون وكيف انتهى الأمر بينهم :

قال الفلاسفة : كيف يكون الانسان هو الانسان الأول وقد انعدم الأول ؟ وكيف يوجد الشئ ثم ينعدم ثم يوجد هو هو ؟ هل هذا إلا توسط العدم بين الشئ ونفسه ؟ فإن الانسان ثانياً هو الانسان أولاً وقد توسطهما العدم . وكيف يكون الشئ الواحد سابقاً على العدم لاحقاً له ؟ وكيف يكون الشئ الواحد طرفاً أول للعدم مقدماً عليه ، وطرفاً ثانياً له متأخراً عنه ؟ هذا أقوى ما تمسك به الفلاسفة .

وقد عارضهم المليون بأنه لا خلاف فى أن الانسان الأول قد ثبت له إمكان الوجود لذاته وماهيته ، وإلا لما وجد ، فيجب أن يستمر ذلك الامكان فى جميع

الأوقات كما هو الشأن في الخواص الذاتية ، فإذا أمكن الانسان الأول فليمكن الانسان الثانى ، إذ هو عين الأول ، ولا أثر لاختلاف الزمان في ذلك أولاً وثانياً .

وأما حديث توسط العدم بين الشيء ونفسه الى آخر ما أطلال به الفلاسفة فانما يتضح استحالة إذا كان ذلك في وقت واحد ، أما إذا كان في أوقات مختلفة كما في موضوعنا هذا ، فذلك بين الامكان . ألا ترى الى شخص يقف أمام شيء وقتاً ما ثم يقف خلفه وقتاً آخر ؟ فهذا شخص واحد كان طرفين ، وسابقاً ولاحقاً ، متقدماً ومتأخراً ، وقد أمكن ذلك لاختلاف الوقت .

وبعد ، فالانسان الأول الذى ندعى أنه عين الثانى لم ينعدم كلا وجزءاً ، بل ما غشيه من الفناء إنما هو انحلاله وزوال تركيبه ، أما عناصره التى كانت مؤلفة ثم زال اشلافها فما زالت باقية حتى تؤلف مرة ثانية ويتكون منها الانسان الثانى . وهذا هو تصوير المحققين من أهل الملة للانسان الثانى الذى يقوم على أنقاض الانسان الأول . فالعناصر التى دخلت في تقويم الانسان الأول لم يطمسها العدم بل ما زالت موجودة صالحة لأن يتكون منها الانسان مرة ثانية ، وإذا فما تشبث به الفلاسفة وأطالوا به لا ينهض حجة على ما زعموا ، بعد تصوير هؤلاء المحققين ؛ فإن شبهتهم إنما قامت على فكرة أن الانسان الأول قد انعدم كلا وجزءاً فلا يمكن أن يكون الانسان الثانى هو ذلك الانسان المعدم . ولكن المحققين من أهل الملة لا يرون هذا الرأى ؛ بل الانسان الأول باق بأجزائه المتناثرة ، والانسان الثانى لا يحتاج الى أكثر من جمع هذه الأجزاء وترتيبها ترتيباً خاصاً حتى تعود الى بنيتها الأولى فتصبح صالحة لتعلق الروح والحياة مرة ثانية .

ولعل في هذه اللجة الخاطفة من الجدل ما يكشف مكان الحق في تلك الخصومة ، وأنه يمكن إمكاننا بيننا لاربية فيه أن يكون الإنسان الثانى على نمط هذا الإنسان الأول ، دخلت عناصر الأول بعد تفرقها في تقويمه ؛ وإذا فلا مانع أن يكون له من الأجزاء ما هو مادي ، كما لا مانع أن يكون بجانب ذلك جزء روحي . وإذا فما جاء في كتب الأديان من حياة ثانية فيها إنسان تدخل المادة في مقوماته وأن له جزء مادياً من جنس ما ألف الناس وعرفوا ، لا يجوز تأويله بأنه تمثيل للعقول بالمحسوس تجوزاً وتنزلاً في خطاب العامة والجاهير ، بل هو .

تأويل لا تسيغه اللغة وأصولها؛ فإنه متى أمكن ظاهر النص حيث لم يكشف العقل سبيلا إلى إحالته بل قد اهتدى إلى إمكانه، وجب احترام ذلك الظاهر.

على أن من الفلاسفة الذين يؤمنون بما آمن به الفلاسفة الإلهيون ويتعصبون لمذاهبهم من قرر في عبارات لا لبس فيها ولا إبهام احترامه لظاهر النصوص الكتابية في هذا الموضوع.

وإني أضع أمام الأستاذ العتماد جملة قيمة في ذلك لابن سينا في كتاب النجاة صفحة ٤٧٧ :

قال ابن سينا « يجب أن تعلم أن المعاد منه مقبول من الشرع ولا سبيل إلى إثباته إلا من الشريعة وتصديق خبر النبوة، وهو الذي للبدن عند البعث. وخيرات البدن وشروعه معلومة لا تحتاج إلى أن تعلم، وقد بسطت الشريعة الحق التي أتانا بها نبينا المصطفى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم حال السعادة والشقاوة التي بحسب البدن، ومنه ما هو مدرك بالعقل والقياس البرهاني وقد صدقته النبوة وهو السعادة والشقاوة الثابتان بالمقاييس اللتان للأنفس، وإن كانت الأوهام منا تقصر عن تصورهما الآن لما نوضح من العلل. والحكماء الإلهيون رغبهم في إصابة هذه السعادة أعظم من رغبهم في إصابة السعادة البدنية، بل كأنهم لا يلتفتون إلى تلك وإن أعطوها فلا يستعظمونها في جنبه هذه السعادة التي هي مقارنة الحق الأول، هذه عبارات ابن سينا، وهي صريحة في إثبات المعاد البدني وما فيه من نعيم وعذاب مادي، وأن سبيل ذلك وبيانه وبسطه منوط بالشريعة الحق، كما هي صريحة في إثبات المعاد الروحي وما له من لذائد روحية وآلام نفسية، وأن سبيل ذلك البرهان والقياس، وأن ذلك لم تنكره النبوات بل جاءت مصدقة له، وأن إهمال الحكماء للسعادة والشقاوة البدنية ليس مبعثه إنكارهما، وإنما منشأ ذلك عظم رغبهم في إصابة أهم أنواع النعيم والسعادة، وأهمها مقارنة الحق الأول.

وهذا هو بعينه ما تهدف إليه السيدة رابعة العدوية بقولها (كما نقل الأستاذ في مقاله): نحن إذن صغار حتى نفرح بالفاكهة والطير، حين سمعت قارثا يتلو قوله تعالى: « وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون ».

وأما ما ذكره الأستاذ في آخر مقاله من أن التعذيب في الآخرة تطهير للنفوس ومآله الغفران، وأن الأنفس جميعا تتلاقى في حظيرة الرضوان. فوعدنا منه المقال الآتي.

حيرة العالم

وموقف رجال الدين

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغي

مدير مكتبة الأزهر

— ٢ —

ذكرت في كلمتي السابقة تحت هذا العنوان ما يشكو منه شعوب العالم من القلق في النواحي الاقتصادية والثقافية والخلقية ، وما تعانيه من البلاء بسبب اختلال الموازين في هذه النواحي ، وبخاصة الناحية الخلقية ؛ فرقابة الآباء أبناءهم رجعية ، وتمرد الأبناء وعنادهم حرية ، والخروج على الأساتذة والمعلمين ديمقراطية ، وتبرج النساء مدنية ، وتصوّهن واحتشامهم رق وعبودية ، والنفاق لباقة ، والثبات على المبدأ جمود وصلابة ، والرحمة جبن ، والتسامح عجز ، والسخاء خرق ، والشع حزم ، والغش في الصناعة والتجارة مهارة ، والصدق والأمانة خيبة وخسارة ، والعمل بالتقاليد غفلة عن مقتضيات الرقي والتقدم ؛ والدستور الخلقى الشائع إنما هو الثورة على الماضي ، والخضوع لسلطان الهوى والمصلحة .

وقد قرأت بعد ذلك مقالات لبعض كبار الكتاب من العرب والأفرنج تجاوزت فيها الشكوى ما أشرت إليه . ولاتفاق هذه المقالات في الفكرة التي تحدثت عنها ، واتجاهها في العلاج إلى الجهة التي توجهت إليها ، رأيت أن أقتبس منها في موضوعي ليعلم الناس ، وبخاصة هؤلاء الذين يطربهم صوت الأجني وتروقهم فكرته ، أني لست خيالياً فيما ذهبت إليه ، ولكني كنت واقعياً أصور الواقع الذي يحسه من شغلوا أنفسهم بحال الجماعات وما صارت إليه من سوء .

قال كاتب مصرى كبير في مقال له بصحيفة أسبوعية :

« لقد استولت على النفوس جميعاً روح الاستهانة بالمثل العليا ، وتملك القلوب والأجسام شيطان المتعة اليسيرة العاجلة ، ما من أحد يريد أن ينقطع إلى علم

أو يتوفر على فن ، إنما السكل يتطلع إلى الثمرة قبل الشجرة . ودب هذا الروح في شباب اليوم فلم يعد لهم جلد على درس أو صبر على كدح ، لا ينظرون إلى الجهد الذي يجب أن يبذل ، وكلهم يبصرون المراتب التي يجب أن يرقوا إليها ، لا يريدون أن يضيعوا وقتاً في الغرس البطيء والإعداد الطويل ، ولكنهم يريدون ثمرة غرس الآخرين عجائز متلفين ؛ لذلك قل الاطلاع العميق ، وندرت القراءة المجدية ، وكسدت الكتب القيمة ، فاختلت الموازين ، وفستت القيم .

وكتب الأستاذ فريرز ممثل أستاذ التربية بجامعة برمنجهام في مقال بعنوان (المصالحة بين جيلين) :

« لم يسبق أن شهدنا من قبل مثل هذا البون الشاسع الذي يفصل بين أجيال الناس ، وهذه ظاهرة نراها في كل بلد ، وهي ظاهرة قد تبلغ حالة الحرب بين الأطفال والمراهقين من جانب ، وبين والديهم ومعلميهم من الجانب الآخر ، وتمتاز هذه الظاهرة بوجود حالة بارزة من النفور المتزايد في نفوس الشباب والكمول نحو العجائز والشيوخ ، والفوارق بين سن الشباب وسن الشيخوخة تمثل اختلافاً لا بد منه في النظر إلى الأشياء ، وهو اختلاف طبيعي لا غبار عليه ، ولكن الفوارق الفاصلة التي نشهدها في هذا العصر من الشباب والشيوخ تذهب إلى أبعد من هذا الحد ، إذ تمثل هوة عميقة في نظام المجتمع تدعو إلى علاج حاسم سريع .

« وإلام نعزو هذا الانحلال الاجتماعي الذي نشهده بعيوننا ، وهو ليس قاصراً على بلد بل نراه في كل مكان ؟ وأول سبب يعزى إليها الفشل في توطيد العلاقات السليمة بين الأطفال والوالدين ناشئة من ذبوع آراء ونظريات في علم النفس الحديث ، وهي نظريات ذاتة شائعة لا توضع عادة في صياغة لفظية دقيقة ، ولا يفهمها الناس فهمًا كاملاً . ويقع بعض اللوم في هذا على الصحافة وعلى الخطباء المرتجلين وعلى المعلمين الضجورين ، وإن كانوا حسنى النية ، فن الأقوال الشائعة بين الوالدين في هذا العصر أن معلمى المدارس قد أخبروهم أن يمتنعوا عن ردع الأطفال وكبحهم أو صدمهم ، وبهذه الطريقة غدا علم النفس ، وهو بين أيدي الخبيرين أو الفهماء من الوالدين والمعلمين أداة لإنقاذ الطفل الصغير من عالم المخاوف والكبت والردع ومنحه حرية على أساس من الترويض السليم — غدا وسيلة لمنع الوالدين من القيام بأولى واجباتهم نحو ذرياتهم . وهناك عوامل

أخرى تفصل بين الجيلين ، وكثيرا ما تكون المدرسة التي تنزع إلى كثير من نواحي النشاط عاملا من هذه العوامل ، فهي تفرط في إدخال هذه النواحي لصالح التلاميذ فتنشئ الأندية والجمعيات ، ثم بعدئذ جمعيات المتخرجين والمتخرجات ، وهذه كلها تعمل لتنشيط النواحي الثقافية والخدمات الأخرى ، وتبقى على ولاء الطلاب والطالبات للمدرسة التي تخرجوا منها ، وتتطلب نواحي النشاط هذه تضحية من الوقت والجهد من معلمي المدرسة ، وما نتيجة هذا كله إلا أن يحيا الأولاد ووالدوهم ، وكثيرا ما يكون هؤلاء الآخرون من طراز الناس الذين يستحون ، والذين لم يحظوا إلا بقسط ضئيل من التعليم — في عالمين منفصلين ، وأن يقوم الأمهات المتعبات المهوكت القوى بالواجبات المنزلية ، بينما تبرز بناتهن كنجوم لامعة في لعبة التنس ، أو يشغفن كل الشغف بالروايات والحفلات الموسيقية .

ثم قال بعد أن أفاض في بحث علل هذا وأسبابه :

« وعلينا نجد رجال الدين أن نجاهد لكي نحقق المصالحة والوفاق : لأن الفشل في هذا المضمار يجر أوخم العواقب ، ولن تتحقق هذه المصالحة إلا في نطاق الدين ، والناس لا يتلاصقون معا إلا بمعونة الله ، ولن نعيش في شركة وألفة مع الآخرين إلا إذا عشنا في نطاق هذه المعاونة .

هذا حديث السكاتبين في تصوير القلق الذي يسود الأجيال المختلفة في الشعوب ، وهذه آراؤهم في علاج هذه الحالة . فعلاج هذه الحالة أن يتخلى الساسة عن مكان القيادة في الشعوب بعد أن أفلسوا في إسعادها ومزقوها شيعا وأحزابا ، وأذاقوها في ظلال هذه القيادة ألوانا من البؤس والشقاء ، إلى رجال الدين ، ورجال الدين بالدين أقدر على هذه القيادة إلى مواطن الأمن ومقامات السعادة .

وإني أكرر ما قلته من أن بعض القارئ لهذا الحديث سترسم على شفاههم ابتسامة الصخرية ، وسينفضون رؤوسهم استغرابا واستنكارا ؛ ولكن مالنا وللأغبياء الجهلاء أو حسبنا أن نصور ما نحس ويحس غيرنا ، ونقترح للعلاج ما نرى ونذكر ما يرى غيرنا عن يصغون لصوت الواقع ، ويفهمون منطق الحوادث ، وحسبنا أن نقول للساخرين :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصيح إلا ضحى الغد

ابن مضاء القرطبي

وكتابه « الرد على النحاة »

— ٣ —

مدخل الكتاب للأستاذ الدكتور شوقي ضيف

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار

المدرس بكلية اللغة العربية

قدّم الأستاذ الجليل الدكتور شوقي ضيف بين يدي كتاب ابن مضاء بحثاً طويلاً ممتعاً ، يقارب حجم الكتاب ، وسمه بالعنوان : « مدخل إلى كتاب الرد على النحاة » . وقد تناول في هذا المدخل ما يأتي :

- ١ — عصر الكتاب .
- ٢ — مؤلف الكتاب .
- ٣ — وصف نسخة الكتاب ، وتحقيق نسبتها إلى المؤلف .
- ٤ — آراء الكتاب : إلغاء نظرية العامل - إلغاء العلل الثواني والثالث - إلغاء القياس - إلغاء التمارين غير العملية .
- ٥ — حاجة النحو إلى تصنيف جديد : الانصراف عن نظرية العامل - منع التأويل والتقدير في الصيغ والعبارات .

ولقد تردّى الأستاذ الدكتور شوقي في المبحثين الأولين رداء المؤرخ الضليع ، والعالم المحقق ، وكان في المبحث الثالث وراقاً خبيراً ، وبحاجةً نحريراً ، وعالج في المبحث الرابع آراء ابن مضاء يجلوها ، ويدعمها بما يؤيدها ويثبت من أركانها ، وما كان أحوجها إلى هذا وهي على غير ما ألف الناس . وتناول في المبحث الأخير ما يراه من بناء نحو جديد ، بعد أن هدم هو وابن مضاء هذا النحو وقوضا من بنيانه . وكأنه في هذا يتجنب أن يكون ممن قيل فيه :

ويسمى إذا أبى ليهدم جاهداً وليس الذي يبني كمن شأنه الهدم

وسأقصر بحثي على المبحثين الرابع والخامس ؛ وسيكون من همي إبداء ما أشكل منهما ، والتعقيب عليهما . ولاني أقدم لإجلالي لصاحب المدخل ، وأعرف له إخلاصه للعلم وجده .

١ - ولقد كان الأستاذ الدكتور شوقي في عرضه لآراء ابن مضاء ليقاً صمماً خبيراً بما ينير الفكرة ويمثل المعنى . وقد استعان على عرضه بالأمثال يضربها ، والشعر ينشده ، والآثر يأتريه ، يشايه اطلاع واسع ، وقلب عقول ، وعبرة مواتية ، وبيان جزل بارع . ولكنه ساقه شغفه بآراء ابن مضاء ونضحه عنها ، وتشيعه له ، وسوء رأيه في النحاة ، أن يذكر أشياء لا يبدو وجهها ، ويرميهم بما قد يكونون برءاء منه .

(١) ففي ص ١٨ يذكر أن النحويين عتبروا بعبارات توهم أن الإعراب أحدثه العامل في اصطلاحهم . والتعبير بالإيهام يقتضي أن عباراتهم ليست صريحة ولا نصّاً في هذا المحذور المفقوت من الرأي . ويذكر أن ابن جني صرح بأن الإعراب في الحقيقة ومحصل الحديث من أثر المتكلم لا العامل . وابن جني إذ يصرح بهذا يبين عن مراد النحاة ، ويدفع عن عباراتهم ما أوهمته من فساد . وما علنا من النحاة من أنكر على ابن جني هذا البيان . والقارىء يخرج من هذا - بحق - إلى أن مراد النحاة إذ يقولون : إنَّ ضربَ يعمل الرفع أو النصب ، أن ضرب يدعو المتكلم إلى أن يراعى فيما يتعلق بضرب الرفع أو النصب على حسب ما يرسمون وفقاً لأثروه عن العرب . ولا يخامر القارىء بعد هذا ما يرميهم به ابن مضاء . ولشدّة ما يدهش القارىء إذ يرى في آخر هذه الصفحة كلاماً لصاحب المدخل ينقض عليه هذا الفهم الذي اطمأن إليه ، وعول عليه . وذلك حين يقول الأستاذ : « وإن النحاة ليبالغون في ذلك ، حتى لنراهم يذهبون إلى أن علامات الإعراب آثار حقيقية للعوامل ، وفي الحق أن هذا لا يتفق مع ما أسلفه صاحب المدخل عنهم من أن عباراتهم موهمة لهذا لا نصّ فيه ، ومن أن ابن جني قد دفع هذا الإيهام بتصريجه ، وابن جني - عند صاحب المدخل - كبير » من حذاقهم ومقدّم في الصناعة من مقدّمهم . ولست أدري أين وقف صاحب المدخل على

هذا الذي يعزوه إلى النحاة : أن علامات الإعراب آثار حقيقية للعوامل ا ف ا
 وقع في على إلا ما ينفي هذا الزعم ويبحثه من جذوره . فهذا الرضى ^(١) يقول :
 « ثم اعلم أن محدث هذه المعاني - يريد كون الاسم عمدة أو فضلة - في كل اسم
 هو المتكلم ، وكذا محدث علاماتها - يريد علامات الإعراب - لكنه نسب
 إحداث هذه العلامات إلى اللفظ الذي بواسطته قامت هذه المعاني بالاسم ،
 فسمى عاملا لكونه كالسبب للعلامة ، كما أنه كالسبب للمعنى المعلم ، ف قيل : العامل
 في الفاعل هو الفعل ، . ويقول الرضى ^(٢) أيضا : « إن النحاة جعلوا العامل كالعلة
 المؤثرة ، وإن كان علامة لا علة ، . وإني أسوق هنا نصا لنحو متأخر ، هو
 الشيخ يس ^(٣) : فقد قال ^(٤) في حواشيه على الألفية : « فعنى الكلام أنهم الرفعون
 لها - يريد المبتدأ والخبر - بسبب وجود الابتداء والمبتدأ . فمن حيث جعلوا الرفع
 موجودا مع وجودهما ، ومعدوما مع عدمهما ، جعلوهما كالسبب في الرفع ،
 وليس السبب في الحقيقة إلا المتكلم . ثم إنهم ينسبون العمل للألفاظ لتحقيق
 هذا الاصطلاح : إذ كانت هي العلامات ، واستعمله الناظم - يريد ابن مالك -
 كثيرا ؛ كقوله : ترفع كان المبتدأ الخ ، وهو اصطلاح عام في كلام أهل هذه
 الصناعة ؛ لضبط القوانين ، لا أنهم مدعون لذلك حقيقة ؛ لأن الألفاظ لا ترفع
 ولا تنصب ولا تجر . نبه على ذلك في الخصائص . وبهذا سقط ما شنع به ابن
 مضاء على النحويين أخذا بظاهر اللفظ من غير تحقيق مرادهم : فنسبهم إلى التقول
 على العرب ، وإلى الكذب في نسبة العمل إلى الألفاظ ؛ بل نسبهم إلى الاعتزال
 والخروج عن السنة ، وظلمهم - عفا الله عنه - إذ لم يعرف ما قصدوه . وقد صنف
 ابن خروف في الرد عليه جزأ سماه : تنزيه أئمة النحو ، عما ينسب إليهم من الغلط
 والسهو . ولقد كان خليقا بصاحب المدخل ألا يشايخ ابن مضاء على ظاهره ،
 ويستبطن الأمور . ولكن يبدو أن نحلة ابن مضاء وافقت هوى في نفسه ، فأراد
 أن يتخذ منها سندا وعضدا ، والحق أن ليس في كلام ابن مضاء سند وسلطان
 مبين . وليس من يعتصم به يأوى إلى ركن شديد .

(١) شرح الكافية ج ١ - ٢١ . (٢) المرجع السابق ج ١ - ١٨ .

(٣) تولى الشيخ إسحاق سنة ٨١٠٦١ . (٤) ج ١ - ٢٠٠ مطبعة دار

ب — وفي ص ١٩ يذكر أن ابن مضاء « رجع فكرة تزييف العامل الى من سبقوه اليها من أمثال ابن جنى ، وقد علمت أن ابن جنى ما كان ليزيف فكرة العامل ، وهو الذاب عنها ، والمبين لوجه الحق فيها ، والرائع لما فيها من إيهام أوقع ابن مضاء فيما لا يرضى من القول والتجنى على النحاة . وما عهدنا من ابن جنى انتقاضا على فكرة العامل وثورة بها . فابن مضاء لا سلف له في هذا التزييف . وهو أبو عذره .

ج — ويقول الأستاذ الجليل في ص ٢٠ : « أليست فكرة العامل هي التي تجعلنا نفكر في محذوفات ومضمرات لم يقصد اليها العرب حين نطقوا بكلامهم موجزا . ولو أنهم فكروا فيها لنطقوا بها ، وقد سلف لى من القول على كلام ابن مضاء أنه ليس بصحيح أن الذى جعل النحاة يفكرون في المحذوفات والمضمرات فكرة العامل ، بل هو المعنى ومنطق الكلام . ويسترعى النظر في هذا المقام قول الأستاذ : « ولو أنهم فكروا فيها لنطقوا بها ، فهل هذا الارتباط صحيح ! هل كل ما يفكر فيه المتكلم ينطق به ! فأين إذا ما يسمى في عرف أهل البيان « إيجاز الحذف » ، ونرى صاحب المدخل في هذه الصفحة يقر ابن مضاء على حذف ما علمه المخاطب ؛ كقوله تعالى : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا » أى أنزل خيرا . فهذا المحذوف هنا هل عزب عن علم المتكلم ! اللهم غفرا ! »

د — وفي ص ٢٦ يذكر أن ابن مضاء ينتهى الى أن ضمائر التثنية والجمع في مثل قاما وقاموا ليست ضمائر كما يزعم بعض النحاة ، بل هي علامات تدل على التثنية والجمع ؛ كما تدل التاء الساكنة على التأنيث . وكلام ابن مضاء في هذه المسألة أو ما وقف عليه الأستاذ عليه منه مضطرب ، كما أبان ذلك الأستاذ (ص ١٠٤) . على أن مما خلا من الاضطراب عند الأستاذ في كلام ابن مضاء أن الألف والواو ضميران ؛ ومن كلامه : « والدليل على ذلك قولهم في التثنية : قاما ويقومان ، وفي الجمع : قاموا ويقومون ؛ فهذه ضمائر دل عليها اللفظ ، فأما رأى الذى يقرر الأستاذ أن ابن مضاء انتهى اليه فهو موطن الاضطراب ، على أنه ذكره على أنه وجه ثان للوجه الأول ، ولا يقال في مثل هذا : إنه الرأى الذى انتهى اليه ، إلا أن يكون المراد أنه انتهى اليه في الذكر ، وهذا الفهم بعيد عن كلام الأستاذ .

هـ — وفي ص ٢٧ يذكر أن ابن مضاء حين يعقد فصلاً يدرس فيه باب التنازع يريد « أن يصور ما تجرّه نظرية العامل من رفض بعض أساليب العرب ، وأن يضع النجاة مكانها أساليب لا تعرفها العربية » . وابن مضاء حين يعرض لهذا الباب وباب الاشتغال يريد أن يبين أنه يمكن عرض مسائل النحو مع إنكار العامل والمعمول (ص ١٠٧) . وهو يقول في باب التنازع : « وأنا في هذا الباب لا أخالف النحويين إلا في أن أقول : علقت ، ولا أقول : أعلمت ، أفبعد هذا يكون مراده أن يبين ما تجرّه نظرية العامل ... ؟ ويقول الأستاذ صاحب المدخل عن النجاة : إنهم « يرفضون في باب التنازع صورة من التعبير دارت على ألسنة العرب ، وذلك أنهم قد يعبرون بعاملين ، ثم يأتون بعدهما بمعمول واحد على نحو ما نرى في مثل (قام وقعد إخوتك) وقول علقمة :

تعفق بالارطى لها وأرادها رجال فبذت نبلهم وكليب

... فيطلبون الى صاحب المثال الأول أن يقول : قام وقعدوا إخوتك ، أو يقول : قاموا وقعد إخوتك . ويطلبون الى علقمة أن يقول : (تعفقوا ... وأرادها رجال .. وكليب) أو يقول : (تعفق ... وأرادوها رجال ... وكليب) . والقارىء لهذا الكلام يرى أن الأسلوب (قام وقعد إخوتك) أسلوب دائر على ألسنة العرب ، بل هو الأسلوب الدائر على ألسنة العرب الذى لا يعرفون سواه . فأما ما يريده النحاة ويرسمونه بدل هذا الأسلوب - وهو أن يقال : قام وقعدوا إخوتك ، أو قاموا وقعد إخوتك - فهو منكر لا يعرفه العرب . انظر قوله عقب الكلام السابق : « وعلى هذه الصورة يرفض النحاة أساليب العرب ، ويضعون مكانها أساليب أخرى تسوّى لها لهم فكرة العامل » . وهكذا يصور الأستاذ مذهب ابن مضاء فى التنازع ! فهل هذا التصوير طبق الحقيقة ! إنا نرى فى كلام ابن مضاء (ص ١٠٩) : « وإن علقت زيدا بالفعل الأول قلت فى الثنية : قام وقعدا الزيدان » وفى الجمع « قام وقعدوا الزيدون » ، أفليس هذا الذى يقرره ابن مضاء هو الذى وضعه النحاة مكان المثال الذى أورده الأستاذ وزعم أنه دائر على ألسنة العرب ! الحق أن هذا المثال لم ينقل أحد أن العرب تكثر منه وتنتهجه ؛ فأما قول علقمة فواضح أنه فى الشعر وهو موطن الضرورات والخروج عن دائرة الاختيار .

وعليها أن تثق بالنحاة الأقدمين - وقد كانوا رواة ثقات ، وكانوا من التحري والتدقيق بالمكان الذي لا ينكره عليهم الأستاذ - في روايتهم ، ولا علينا أن نخالفهم في تخريجاتهم وتعقيدهم .

ويقول الأستاذ : « وقد استمر ابن مضاء يعرض هذه الصور ليبدل على ما صنعوه بأساليب اللغة من تعقيد ، ولا يحس الناظر في كلام ابن مضاء هذا الغرض يتوخاه وينتجيه . وإنما هو يجارى النحويين في عرض مسائل الباب ، ويزيد عليها . انظر قوله في ص ١١٥ : « فإن قيل : النحويون لم يذكروا في هذا الباب إلا الفاعل والمفعول والمجرور ، وهناك معمولات كثيرة على مذهبهم : كالمصادر والظروف والأحوال والمفعولات من أجلها ، والمفعولات معها والتمييزات . فهل تناس هذه على المفعولات بها أو لا تناس ؟ ، ويأخذ بعد هذا فيما يراه في هذه الفضلات التي فأت النحويين في باب التنازع . وكأنما يريد من هذا أن يبين مقدرته على وضع النحو على مذهبه ، وقد أحس أنها موضع شك عند الناس ، فبالغ في ذلك وأبلغ .

و — وفي ص ٢٩ يذكر أن ابن مضاء حين عرض لباب الاشتغال حمل « على دراسة النحاة لهذا الباب وتقسيمهم لصوره بين ما يجب رفعه ، وما يجب نصبه ، وما يترجح فيه الرفع والنصب — كذا ، وهو يريد : وما يترجح فيه الرفع وما يترجح فيه النصب — وما يحوز فيه الأمران » . ويقول عن ابن مضاء : « وإنه ليضع قاعدة بسيطة تفسر صيغ الاشتغال كلها ، ومتى تنصب ، ومتى ترفع ؛ وهي أن الاسم المتقدم إذا عاد عليه ضمير منصوب أو ضمير متصل بمنصوب نصب ؛ لأنه في مكان نصب ، وإلا رفع ؛ لأنه في مكان رفع . وبذلك حل باب الاشتغال وأراحنا من تعسف النحاة في حمل أمثله تارة على النصب ، وتارة على الرفع . والذي يقرأ القرطبي لا يرى فيه هذه السهولة وهذا اليسر الذي يصوره الأستاذ ، ولا يحسده بمنجاة عن صنيع النحاة في مسائلهم وتعقيدهم . ولا يرى ابن مضاء يطلق هذه القاعدة السحرية البسيطة » إذا عاد على الاسم المتقدم ضمير منصوب أو متصل بمنصوب نصب ، وإلا رفع ، فإن هذه القاعدة لا يصح إرسالها هكذا سدى كمالاً . فقد يعود على الاسم المتقدم ضمير منصوب ، ويجب رفع الاسم ؛ نجه

حول مقال «أسباب تأخر المسلمين»

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار

المدرس بكلية اللغة العربية

كتب زميلي الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عتر بحثاً قيماً في «أسباب تأخر المسلمين». وقد جاء في المقال الذي نشر في مجلة الأزهر في عدد جمادى الآخرة ما كان الأخلق به والأشبه بفضل أن ينأى عنه. فقد جعل من الذين كادوا للإسلام

زيد ما أحسنه. وقد ذكر هذا ابن مضاء نفسه (ص ١٣٠). ويتمول ابن مضاء في ص ١٣٩: «وإن جمئت بعد الاسم الذي يعود عليه من الفعل ضمير نصب بشرط وجزاء لم يجر فيه إلا الرفع: نحو «زيد إن تكرمه يكرمه». وكذلك إن جمئت بعده بحرف أو اسم للاستفهام: نحو «زيد كم مرة لقيته؟». وكذلك «عمرو هل رأيته؟» و«زيد من ضربه؟» و«عبد الله ما أصابه؟». وكذلك إن كان الفعل في موضع الصفة: نحو «أزيد أنت رجل تكرمه؟» وقال الشاعر:

أكل عام نعم تحوونه ! يلقحه قوم وتذجونه

وقد يجوز الرفع والنصب كما في بيت النمر بن تولب:

لا تجزعي إن منفس أهلكته فإذا هلكك فعند ذلك فاجزعي

يذكر الأستاذ في تعليقه (ص ١٣١) رواية الرفع. ونرى ابن مضاء يحذو حذو النحويين في صور الاشتغال، فيذكر موضع اختيار النصب، وموضع اختيار الرفع، إلى غير ذلك: ولا يسهل ابن مضاء غير هذا، فهي صور منطقية عمالية راعاها العرب في كلامهم، وتراه يبدأ كلامه بقوله: «لأن كل فعل تقدمه اسم وعاد منه على الاسم ضمير مفعول أو ضمير متصل بمفعول أو بمنفوض أو بحرف من الحروف التي يخفص ما بعدها، فإن ذلك الفعل لا يخلو أن يكون خبراً أو غير خبر، وغير الخبر يكون أمراً أو نهياً أو مستفهماً عنه أو محضوضاً عليه أو متعجباً منه. فإن كان أمراً أو نهياً فالاختيار فيه النصب، ويجوز رفعه...» ويمضي ابن مضاء في هذا الأسلوب من ذكر الصور وأحكامها كما يفعل النحاة.

كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وزيادا بن أبيه، وقد سلك هؤلاء مع عبد الله ابن سبأ. وقد سبقه بالطعن في كعب ووهب في عصرنا الأستاذ أحمد زكي باشا عليه رحمة الله: فقد قدح فيهما وقرنهما بعبد الله بن سبأ، وذكر أنهما بقيا على يهوديتهما ولم يدخل الإيمان في قلوبهما. وكان من الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى عليه رحمة الله ورضوانه، أن أملى مقالا نشر في مجلة «نور الإسلام» في المجلد الثالث سنة ١٣٥١ يرد فيه على أحمد زكي باشا. وجاء في مقاله: «فأما كعب الأحبار ووهب بن منبه فهما من العدول الثقات... وكان ابن عباس ينقل عن كعب الأحبار، ويرجع إليه هو وغيره من الصحابة». ولعل الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر يرجع إلى هذا المقال، وهو واجد فيه ما يردده إلى حسن الظن بهذين الإمامين اللذين هما من أعلام الإسلام إن شاء الله. وأما زياد فما علمت منه كيدا للإسلام، ولا بدا منه ما يسلكه مع الخوارج والرافضة ومبغضى العرب. ولقد استخلفه أبو موسى الأشعري على البصرة حين وفد على عمر، وقال في حقه لعمر: إنه جدير بكل خير ضابط لما استكني. ولقد ولي البصرة وضبط أمورها حتى إذا جاء عهد على رضى الله عنه طالبه بالمال، فقدمه إليه لم ينقص شيئا، فقال فيه على: مثلك فليؤتمن، وقال فيه لأصحابه يذكر عليه بالبصرة وكفايته: هو ابن مجدتها: وقد مهد العراق ووطأ أمره لما وية، وكان عوننا للخلفاء وذوى السلطان، حربا على البغاة والخوارج؛ فأنى يكون من المنتقضين على سلطان المسلمين الذين يبدون الفتن والدسائس!

وأحب أن أنه هنا على أن الأستاذ الجليل ذكر في عداد الذين كانوا سببا في تأخر المسلمين عبد الله بن أبي، والمفهوم من «تأخر المسلمين» انحطاطهم وانحدارهم بعد اكتمال مجدهم وازدهار سلطانهم واتساع فتوحهم، وقد مات عبد الله بن أبي في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، ونزل في شأنه قوله تعالى: «ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره». وما نظن الأستاذ يرى أن تأخر المسلمين كان في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام. واهله الهادى إلى سبيل الرشاد؟

مذهب الروافض في مصر وأثره فيها

لفضيلة الأستاذ الشيخ منصور رجب
المدرس بكلية أصول الدين

منذ أيام كتب الأستاذ عزيز خانكي مشكورا على صفحات جريدة الأهرام يحفز الهمم للاحتفال بالعيد الألفي للأزهر والقاهرة. فخطر ببال مذهب الروافض القوم الذين بنوا الأزهر، ذلك المذهب الذي ابتداء الأزهر حياته العلمية به. ومذهب الروافض هذا وإن كان السلام عليه يعد جزءا من تاريخ الفقه الاسلامي هو في الوقت نفسه حلقة من حلقات تاريخ الأزهر، بل هو الحلقة الاولى في تاريخ الأزهر العلمي: ذلك المكان الذي لمع نوره في تاريخ العلم، واشتهر اسمه في بلاد العالم، وسطعت شمس هذه القرون الطويلة على الاسلام والمسلمين في الشرق والغرب: الأمر الذي جعل أمير الشعراء المرحوم شوقي بك يحكي هذا المعهد الذي يطل على هذا الوجود من سماء ألف عام بتصديده الخالدة، ومما جاء فيها:

يا معهدا أفتى القرون جداره	وطوى الليالي ركنه والأعصرا
ومشى على يمس المشارق نوره	وأضاء أبيض لجها والاحمرا
وأقى الزمان عليه يحكى سنة	ويذود عن نسك ويمنع شعرا
في الفاطميين انتمى ينبوعه	عذب الأصول كجدهم متفجرا
عين من الفرقان فاض نيرها	وحيا من الفصحى جرى وتحذرا
ما ضرنى أن ليس أفقك مطلعى	وعلى كواكبه تعلت السرى
لا والذي وكل البيان إليك لم	أك دون غايات البيان مقصرا

أتعجل القول بأن الأزهر ابتداء حياته العلمية في شهر صفر سنة خمس وستين وثلاثمائة: ففي ذلك الوقت جلس فيه على بن الصبان القاضي على عصر أبيه في الفقه

على مذهب الروافض ، وكانوا يطلقون على هذا الفقه فقه آل البيت ، ويعرف هذا المختصر ، بالاختصار ، وعلى هذا يكون كتاب الاختصار هذا - بعض المصادر تعرفه ، بالاختصار ، أو الاتصار - أول كتاب افتتح الأزهر حياته العلمية به . وبهذه المناسبة أقول : إنى بحثت عن هذا الكتاب في مصر فلم أعثر عليه ، فتقدمت برغبة الى المرحوم الإمام المراغى فالمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق للبحث عنه ليحفظ تحفة تاريخية في مكتبة الأزهر ، وتقدمت بها أيضا إلى فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن حسن ، واليوم أتقدم الى فضيلة مولانا الأستاذ الأكبر الشيخ الشناوى شيخ الأزهر لعل عهده يكلل بالعثور على هذا الكتاب ، وليكون عملا مجيدا بمناسبة الاحتفال بالعيد الالني للأزهر .

وهذه الروافض هذا دخل مصر فاتحاً على يد جوهر الصقلي بجيوش مولاه المعز لدين الله ، وعاش فيها قرنين اثنين من الزمان أو يزيد قليلا - من سنة ٣٥٨ إلى ٥٦٧ - يعمل به في القضاء والفتيا ، إلى أن جاءت الدولة الأيوبية فصرفت قضاء الروافض كلهم ، وفوضت القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درياس الشافعى ، فلم يستتب عنه إلا من كان شافعى المذهب ، فتظاهر الناس من حينئذ بمذهب مالك والشافعى ، واختفى مذهب الروافض ، ولم يكن في الدولة الأيوبية بمصر كثير ذكر لمذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل إلا في آخرها .

وقبل أن نرى هذا المذهب في مصر ، أو بعبارة أخرى قبل أن نقدم الحلقة الأولى من حلقات تاريخ الأزهر العلمى ، تقدم لذلك بكلمتين اثنتين استيفاء للبحث وتنميا للفائدة .

الأولى عن الحركة العلمية الاسلامية بمصر قبل أن يكون الأزهر ؛ والثانية عن كيفية دخول هذا المذهب مصر ، وهل كان معروفاً فيها قبل أن يفتحها أصحابه فيكون الجو فيها من شأنه أن يمد السبيل ولو قليلا لدخول هذا المذهب ، أو جاءها من غير أن تهيأ له الافكار وتعبد الطرق ؟ .

ابتدأت الحركة العلمية بمصر بعد الفتح بتحفيظ القرآن الكريم ؛ وأول من أقرأ القرآن بها رجل من الصحابة شهد فتح مصر ، هو عبيد بن نحر المغافرى ، ويكنى أبا أمية . وفى سنة ٣٦ هـ عرفت مصر الاسلامية نوعا من الدرس لم يكن من

قبل ذلك ؛ هو التحدث في الترغيب والترهيب والفتن . وأول من أوجد بمصر هذا الدرس رجل من التابعين ولاء معاوية القضاء بمصر ، فكث بها قاضيا عشرين سنة ، وتوفي بدمياط سنة ٧٥ هـ ؛ ذلك هو سليم بن عزز التجيبي ، وهو أيضا أول من أوجد بمصر سجلا في المواريث .

أخذت هذه الحركة تنمو وتزداد شيئا فشيئا حتى جاء يزيد بن حبيب في عهد عمر بن عبد العزيز ، فزاد فيها كذلك شيئا لم يكن ؛ ذلك أنه أول من نشر العلم بمصر في الحلال والحرام . ويزيد بن حبيب هذا هو أستاذ الليث بن سعد . توفي سنة ١٢٨ هـ .

وحوالي منتصف القرن الثاني عرفت مصر في درس القرآن الكريم شيئا لم يكن ؛ ذلك أن عبد الرحمن بن ميسرة ، ذلك الفقيه العفيف الشريف ، كان أول الناس إقراء بمصر بحرف نافع . ولقد عرفت مصر في هذه الناحية في ذلك الوقت طائفة جلية من أئمة القراءات ، منهم رجل أصله مصرى قبلى انتهت إليه رئاسة الإقراء بالديار المصرية ؛ ذلك هو عثمان بن سعيد الملقب بورش . وابن سعيد هذا أخذ القراءة عن نافع ، ونافع هو الذي لقبه بورش لشدة بياضه .

على هذا النحو سارت الحركة العلمية الإسلامية بمصر . ولم يكد ينتهى القرن الثانى للهجرة حتى كان بها درس القراءات ، وتحفيظ القرآن الكريم ؛ وبحوار ذلك درس القصص ، ودرس أحكام الشريعة . وجد في هذا الدرس الأخير يزيد بن حبيب فتلميذه الليث بن سعد . وقد يكون من الخير هنا أن نقول : إن الليث بن سعد هذا كان من الفقهاء الفضلاء والكرماء الأجواد ، ويقال إن دخله كان في كل سنة خمسة آلاف دينار ، وكان يفرقها في الصلوات وغيرها . روى أن الامام مالكاً رضى الله عنه أهدى إليه صينية فيها تمر ، فأعادها مملوءة ذهباً . ويقال إنه من أهل « قلعشدة » قرية من قرى الوجه البحرى ، توفي سنة ١٧٥ .

وفي أيام الليث بن سعد هذا دخل مصر بعلم مالك عبد الرحيم بن خالد بن يزيد ابن يحيى مولى جمع — توفي بالأسكندرية سنة ١٦٣ هـ — فروى عنه الليث بن سعد وابن وهب ورشيد بن سعد ، ثم نشره بمصر عبد الرحمن بن القاسم ، فاشتهر بها مذهب مالك ، ولم يزل مشتهرا حتى قدم الى مصر محمد بن إدريس الشافعى في سنة ١٩٨ ،

فصحبه من أهل مصر جماعة من أعيانها كبنى عبد الحكم ، والربيع بن سليمان ، وأبي إبراهيم اسماعيل بن يحيى المزني ، وأبي يعقوب يوسف بن يحيى البويطلي ، وكتبوا عن الشافعي ما ألفه ، وعملوا بما ذهب إليه .

وما زال مذهب مالك ومذهب الشافعي رحمهما الله تعالى يعمل بهما أهل مصر ويولى القضاء من كان يذهب إليهما أو إلى مذهب أبي حنيفة رحمه الله ، إلى أن قدم جوهر الصقلي من بلاد المغرب بمذهب الروافض ، ومن حينئذ فشا بديار مصر هذا المذهب ، وعمل به في القضاء والفتيا ، وأنكر ما خالفه .

ولم يكن أهل مصر يعرفون مذهب أبي حنيفة معرفتهم بمذهب مالك والشافعي . ويعمل المقرئى ذلك بأن اسماعيل بن اليسع السكوفي الذي تولى قضاء مصر بعد ابن لهيعة كان يذهب إلى قول أبي حنيفة في إبطال الإحياس « فثقل على المصريين أمر المذهب وسئموه » .

ولهذه المناسبة نقول : إن فقهاء الحنابلة لم يسمع عنهم بمصر إلا في القرن السابع الهجري ؛ وذلك أن الإمام أحمد كان في القرن الثالث ؛ ولم يبرز مذهبه خارج العراق إلا في القرن الرابع ، وفي هذا القرن ملك الروافض مصر .

ويقول السيوطي في كتابه حسن المحاضرة : « إن أول إمام علمت حلوله بمصر الحافظ ابن عبد الغنى المقدسى صاحب العمدة » توفي بالقاهرة سنة ٦١١ هـ .

اتسعت الحركة العلمية الإسلامية بمصر بعد أن دخلها مذهب مالك والشافعي وبفضل من ظهر فيها من جبال العلم والدين ، ومن ورد عليها زائرا أو مقبلا من رجالات الفقه والحديث والأدب . وإذا أردت أن تتخيل هذه الحركة بمصر يومئذ ، فتخيل الشافعي يلتقى درس الفقه بمسجد عمرو ، وبجواره صاحبه وراوى كتبه الربيع بن سليمان المرادى ، يرحل إليه طلاب العلم من الآفاق ليسمعوا منه أقوال الشافعي ، فيؤدبهم بأدبه ، ويزودهم بلطائفه ، ويفقههم برأيه في الفقه والأخلاق والأدب .

روى الربيع بن سليمان عن الشافعي أنه كان يقول : « أكره أن يقال : أعظم الله أجرك ، يعنى في المصائب ؛ لأن معناه أكثر الله مصائبك ليعظم أجرك . وقال : « دخلت على الشافعي وهو مريض فقالت : قوتى الله ضعفك . فقال : « لو قوى ضعفى قتلتنى ! »

قلت : « والله ما أردت إلا الخير » قال : « أعلم أنك لو شتمتني لم ترد إلا الخير ، قل : قوتى الله قوتك وضعف ضعفك . فكان بهذا يغرس في الناس ملكة الذوق في الحديث والكتابة بحوار تزويدهم أحكام الفقه ، وتلقينهم الأحاديث الصحيحة . وكان الشافعي يعقد المناظرات لتقليب الرأي في الفقه ، ويعقد الاجتماعات لإنشاء شعر العرب : وأمر ذلك مشهور معلوم في كتب الطبقات والأدب .

وتخيل النسائي أفضه مشايخ مصر في عصره ، وأعرفهم بالصحيح والسقيم من الآثار ، وأعرفهم بالرجال : يخرج من بيته بزقاق القناديل بحوار مسجد عمرو ابن العاص : تخيله يخرج من بيته ليلقي درس الحديث ويؤدب الناس بأدب الإسلام . أو تخيل في هذه الحركة العلمية الإسلامية قبل أن يكون الأزهر ، وقبل أن يحكم مذهب الروافض مصر ، تخيل عبد الرحمن بن عمر بن أبي الفهم : ذلك الذي روى عنه البخاري : أو سليمان بن داود بن حماد ذلك الذي روى عنه أبو داود والنسائي : تخيلهما يجردان في تفقيه الطلاب على مذهب الإمام مالك رضى الله عنه .

تخيل المزني صاحب المبسوط والمختصر : ذلك الذي قال عنه الرافعي : إنه صاحب مذهب مستقل : والبويطي خليفة الشافعي في درسه : تخيلهما يفقهان الناس على مذهب الشافعي رضى الله عنه .

تخيل القاضي بكار بن قتيبة قاضي الديار المصرية ، وصاحب التصانيف في الشروط والوثائق والرد على الشافعي فيما تفقه على أبي حنيفة : وتخيل ابن أبي عمران موسى بن عيسى البغدادي شيخ الطحاوي : تخيلهما في درس الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان .

وهذا ابن هشام الذي هذب سيرة ابن اسحاق فنسبت إليه ، وابن ولاد مصنف كتاب الانتصار لسيبويه ، وشيخ الديار المصرية في العربية : تخيلهما في درس اللغة والنحو . وابن الحكم مصنف فتوح مصر وسعيد بن يونس صاحب تاريخ مصر . وأبو عمر الكندي مصنف فضائل مصر وكتاب قضاة مصر في دروس التاريخ .

هؤلاء وغيرهم كثير من أئمة الفقه والحديث والقراءات والنحو واللغة والشعر والأدب والأخلاق . ولو قدر لهذه الحركة أن تستمر كما كانت وقتئذ في إخلاص الشافعي لفقهه والنسائي لحديثه ، وابن هشام لغته ، وأبي تمام لشعره : لو قدر لها

أن تستمر على هذا النحو بمصر في كل عصورها لتغير وجه التاريخ فيها ، ليس في ذلك من شك .

وكانت هذه الحركة تتقبل الخلاف في الرأي بصدر رحب . قال الربيع بن سليمان : كان الشافعي لا يرى الإجازة في الحديث ، وأنا أخالف الشافعي في هذا الرأي ، ومع ذلك كان الربيع يخدم الشافعي والشافعي يحبه ويقربه إليه ، حتى قال له يوما : ما أحبك إلى ! . وقال له : ما خدمني أحد قط ما خدمني الربيع . وقال له : أنت راوية كتبتي .

وكنت ترى أحيانا شيئا من التنافس بين أفاضل العلماء والفقهاء في هذه الحركة ، شأن الناس في كل زمان ومكان . فهذا ابن عبد الحكم والبويطي تروى كتب الطبقات أن قد حصلت بينهما وحشة في مرض الشافعي لسبب الخلاف على الجلوس في حلقة الشافعي بجامع عمرو . ولم ينس هؤلاء العلماء الفضلاء نصيبهم من الدنيا ولم يعرضوا عنها ، بل تأدبوا فيها بأدب القرآن ، ومشوا بتوجيهات المأثور : « اعمل لدينك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

فهذا أبو عبد الله المصري الحافظ النحوي الذي روى عنه النسائي وقال عنه إنه ثقة ، كان بحوار عليه وفضله وأدبه يستأجر الأرض للزراعة ، ويشغل بأعمال الفلاحة . وكانت هذه الحركة العلمية القوية المنتجة في حلقات تعقد بجامع عمرو في القسطنطينية ، ثم اتسعت بجامع أحمد بن طولون في القسطنطينية ، واستمرت على هذا النحو حتى ملك الروافض مصر ، فبنوا القاهرة وبنوا فيها الأزهر ، فتزعم الأزهر هذه الحركة ، ورفع لواءها حتى يومنا هذا .

أما كيف دخل هذا المذهب مصر ، والأسباب التي جعلت الأزهر يقوى على حمل هذه الرسالة حتى الساعة ، فوعدنا له العدد القادم ، إن شاء الله .

تشابه النظم في القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الغنى عوض الراجحي

مدرس علوم الدين بكلية المقاصد الإسلامية بلبنان

في مقالات سابقة استطعنا أن نلم بفكرة إجمالية عن تشابه النظم في كلام الله كيف يتردد المعنى الأصلي الواحد في أكثر من موضع بعبارات تختلف في موضع عنها في آخر تقديمًا وتأخيرًا وذكرًا وحذفًا وفكًا وإدغامًا ونحو ذلك، وكيف كانت هذه الافتراقات لأسرار دقيقة وحكم بلاغية بالغة، ما يفرق نظم عن نظم، وهما لمعنى واحد في وجه من الوجوه إلا لمرر يبرره بل لمقتضى يقتضيه.

وفي هذا المقال أريد أن أبين ما يحد به البحث عن هذه الأسرار والكشف عن هذه الحكم، وما تحققه الدراسة التفصيلية لهذه الناحية في كتاب الله، فأقول:

عرّف القوم بلاغة الكلام بأنه مطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحته. ثم قالوا: ومقتضى الحال مختلف لأن مقامات الكلام مختلفة؛ فقام التذكير ببيان مقام التعريف، ومقام الإطلاق غير مقام التقييد، ومقام التقديم يغير مقام التأخير، وهكذا الحال في مقامات الذكر والحذف والفصل والوصل والأطناب والإيجاز. ثم قالوا: وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب الذي هو مقتضى الحال، وانحطاط شأن الكلام بعدم هذه المطابقة. وللبلغة طرفان: أعلى وهو الإيجاز بأن يرتقى الكلام في الحسن إلى أن يخرج عن طوق البشر، وأسفل وهو ما إذا غيّر عنه إلى ما دونه التحق بأصوات العجاوات وإن كان صحيح الأعراب. وبين الطرفين مراتب متفاوتة بعضها أعلى من بعض بحسب تفاوت المقامات ورعاية الاعتبارات.

المفارقات التي جاء عليها هذا المتشابه ، والتي سوف نسمى وراءها ونجذب في أثرها بالبحث والتحليل حتى نبين أنها كانت أثراً من آثار اختلاف المقامات ، وأنها كانت في كل موضع مطابقة تمام المطابقة لمقتضى الحال ؛ على قدر ما نبين من أسرارها تبين لنا رعاية المقامات في كلام الله وترقيته فيها ، وغناؤه بها ، ووفرته فيها واكتنازه لها الى درجة الاحاطة بما لا يمكن لغير علام الغيوب الاحاطة به . وعلى قدر ما نعقل من ذلك تتجلى لنا بلاغة القرآن وروعته وسر إعجازه للناس أجمعين . فإن البلغاء من العرب الذين تحداهم القرآن فأعجزهم - وعجز غيرهم أولى - لم يكن لهم وهم بشر أن يحيطوا علماً بمقامات الكلام ومقتضيات أحواله على نحو ما يحيط به من ذلك علم الحكيم الخبير ، الذي أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، وأن أعلم عالم بالبلاغة بذل عمره في التعرف على مقامات الكلام ومقتضيات أحوالها لا يعرف بعلمه هذا أكثر من أن هذه الحال مقتضى هذا المقام .

أما الاطلاع على كمية الأحوال ورعاية الاعتبار فغير ممكن ، ولو سلم إمكانه فإن الغاية فيه أو الاشراف عليها غير مسلمة ؛ لأن قدر البشر متناهية ؛ ومن رعاية المقامات ومعرفتها ما يتوقف على الولوج في خبايا الأشياء والاحاطة بطبائع البشر والتحرر من منطقة القصور الانساني والوقوف منها على شرف لتصريف القول ولإزجائه اليها بما هو نوع من التخليق فيها والتربية لها .

قال في شرح المطول للشيخ سعد الدين التفتازاني (١) : « فان قيل ليست البلاغة سوى المطابقة لمقتضى الحال مع الفصاحة ، وعلم البلاغة كافل لذلك ، فمن أتقنه وأحاط به لم لا يجوز أن يراعيها حق الرعاية فيأتي بكلام بليغ بل في الطرف الأعلى من البلاغة ؟ قلنا : لا يعرف بهذا العلم إلا أن هذه الحال مقتضى هذا الاعتبار . أما الاطلاع على كمية الأحوال ورعاية الاعتبار بحسب المقامات فأمر آخر ، ولو سلم فامكان الاحاطة به لغير علام الغيوب ممنوع ، وكثير من مهرة هذا الفن لا يقدر على تأليف كلام بليغ فضلاً عما هو في الطرف الأعلى من البلاغة ، (٢) .

(١) عند قمرينه بلاغة الكلام (٢) هذا هو الوجه في تصوير إعجاز القرآن ومناط التحدى والعجز عن المعارضة ، ومن أجله ألفت علوم البلاغة ، أما ما وراء ذلك من الهداية الفرآنية والتفريعات والأمور الغيبية فقد كان كثير منها كما نطق القرآن نفسه في زبر الأولين - راجع سورة الشعراء الآية ١٩٦ .

هذه المقامات والأحوال التي لا تمكن الاحاطة بها إلا الله ، والتي لا يزال يستكثر منها في الكلام ، ويترقى فيها ويتفنن في شأنها حتى يصل الكلام الذي انطوى عليها الى درجة الإعجاز - كان لعلماء البلاغة اليها عودة في علم المعاني بينوها نوع بيان ، وبسطوها شيئاً ما من البسط ، وسردوا الشيء الكثير من مقامات التقديم والتأخير والاطلاق والتقييد والذكر والحذف والفصل والوصل . فالتقديم للاهتمام والعناية ، والحذف للعلم بالمحذوف ، والفصل للتوكيد والبدل ، ونية السؤال الى ما الى ذلك مما قعدوه من هذه القواعد ، ووضحوه بمأثور الأمثلة وموروث العبارات .

في هذه الدراسة التي نحن بصددھا من حيث إنها دراسة مقارنة وتحليل ، لانقف عندما وقفوا عنده ، بل لا بد أن نبين من أين جاءت هذه العناية بالمقدم ، وكيف أنه جاء بنفسه مؤخراً في موضع آخر . نبين الاعتبار المناسب الذي أوجب التقديم تارة والتأخير أخرى في لفظ واحد ، نستعين في الوصول الى ذلك بما وقعت فيه العبارة في كل موضع من السياق .

كذلك لا ننقع بوقسوع الفصل في عبارة القرآن لارادة البدل أو التوكيد أو نية السؤال ، حتى نستبين لماذا أريد ذلك في هذا الموضع بخصوصه ؟ ولم وقعت العبارة المفصولة في موضع آخر موصولة ؟ وكمثل ذلك نصنع في سائر المقامات الأخرى من الذكر والحذف والاضمار والاظهار والافراد والجمع والادغام والفك والاطناب والإيجاز ، حتى نؤكد أن نكون بمنجاة من حملة عبد القاهر الجرجاني التي يقول فيها (١) .

« وقد وقع في ظنون كثير من الناس أنه يسكني أن يقال إنه قدم للعناية وأن ذكره أهم ، من غير أن يذكر من أين كانت العناية ولم كان أهم ؟ ولتخيلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم ، وهونوا الخطب فيه على الناظر ، حتى إنك ترى أكثرهم يرى تبهه والنظر فيه ضرباً من التكلف ، ولم نر ظناً أزرى بصاحبه من هذا وشبهه .

« وكذلك صنعوا في سائر الأبواب ، فجعلوا لا ينظرون في الحذف والذكر ،

والتكرار والاظهار، والاضمار والفصل والوصل، ولانوع من أنواع الفروق والوجوه، إلا نظرك فيما غيره أهم لك، بل فيما إن لم تعلمه لا يضرك. لا جرم أن ذلك قد ذهب بهم عن معرفة معنى البلاغة، ومنعهم أن يعرفوا مقاديرها، وصد أوجههم عن الجهة التي هي فيها، والشق الذي يحويها. والمداخل التي تدخل منها الآفة على الناس في شأن العلم، ويبلغ الشيطان منهم مراده في الصد عن طلبه وإحراز فضيلته، كثيرة، وهذه من أعجبها إن وجدت متعجبا.

«وليت شعري إذا كانت هذه أمورا هينة، وكان المدى فيها قصيرا والجدى يسيرا، من أين كان نظم أشرف من نظم، وبم عظم التفاوت واشتد التباين وترامى الأمر إلى الإعجاز، وإلى أن يقهر أعناق الجبابة؟ أو هاهنا أمور آخر نخيل في المزية عليها ونجعل الإعجاز كان بها، فتكون تلك الحوالة لنا عذرا في ترك النظر في هذه التي معنا والإعراض عنها وقلة المبالاة بها؟»

«أو ليس هذا التهاون - إن نظر العاقل - خيانة منه لعقله ودينه ودخولا فيما يزرى بذى الخطر ويغض من قدر ذوى القدر؟ وهل يكون أضعف رأيا وأبعد من حسن التدبر منك إذا همك أن تعرف الوجوه في «أنذرتهم، والإمالة في «رأى القمر»، وتعرف الصراط والزراط وأشباه ذلك بما لا يعدو فيه عليك اللفظ وجرس الصوت، ولا يمنعك إن لم تعلمه بلاغة، ولا يدفعك عن بيان، ولا يدخل عليك شكا ولا يغلق دونك باب معرفة، ولا يفضى بك إلى تحريف أو تبديل أو خطأ في تأويل، ولا يعينك ولا يهيك أن تعرف ما إذا جهلته عرضت نفسك لكل ذلك وحصلت فيما هنا لك وكان أكثر كلامك في التفسير وحيث تخوض في التأويل كلام من لا يثنى الشيء على أصله ولا يأخذه من مأخذه، ومن ربما وقع في الخطأ الفاحش الذي يبقى عاره وتشنع آثاره، اهـ.

لعل لا أكون مبالغا إذا قلت إن دراسة هذه الناحية في كتاب الله من أشق الدراسات وأعقها، لم تغفر بكثير من عناية الباحثين في القديم والحديث، ولم تحظ بمثل ما حظى به غيرها من النواحي التي ربما كانت أقل منها خطرا، ولم يترك الأوائل فيها ما يتناسب مع جلال الموضوع وقيمه العلمية ولم أجد من أفرد لها بحثا ممتعة أو أخرج فيها كتباً حافلة قيمة، إلا ما كان من مسائل صغيرة مشتقة في كتب التفسير والبلاغة وعلوم القرآن، وما كان من بعض رسائل صغيرة لقلة

من العلماء ، على ما في أكثر ذلك من القصور والاكتفاء بنسكته التفنن مع تهيب الخوض في أسرار هذه المفارقات والتزهيد في دراستها ، (١) .

ولعل كذلك لا أكون مبالغاً إذا قلت إن هذه الناحية في كتاب الله إنما كانت من أول ما أمر الله بتدبره حيث يقول « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ، وحيث يقول « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » وحيث يقول « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » وحيث يقول « ولقد صرفنا في هذا القرآن ليدركوا وما يزيدهم إلا نفورا ، وهل جاءت هذه المفارقات في المتشابه حيث توجب النظرة العابرة الوفاق اعتباطاً ، أو غفلة عن شناعة الافتراق حيث يجب الاشفاق ، أم أن ذلك كان إحكاماً لآي كتاب يمثل هذه الدقائق قد أخرج السنة المعاندين ، وأسأل عليهم الوادى عجزاً ، وسد عليهم منافذ القول سدا ١٤

عدل الولاية

قال ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة قال : استعمل ابن عامر عمرو بن عروة أصبغ على الأهواز ، فلما عزله قال له : ما جئت به ؟ قال له : ما معي إلا مائة درهم وأثواب . قال ابن عامر : كيف ذلك ؟ قال أصبغ : أرسلتني إلى بلد أهله رجلان : رجل له مالى وعليه ما على ، ورجل له ذمة الله ورسوله . فوالله ما دريت أين أضع يدي . فأعطاه ابن عامر عشرين ألفاً مكافأة له على أمانته .

وقال معاوية : إني لاستحي أن أظلم من لا يجد على ناصرا إلا الله .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الظلم ظلمات يوم القيامة » .

[١] راجع حاشية القونوي على البيضاوى ج ٢ ص ٧٧ حيث يستعرض للمفارقة بين الفصل في قوله تعالى في سورة البقرة « يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم » والوصل بالواو في قوله تعالى في سورة إبراهيم « يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم » فيبنى الفصل على أن الثاني بيان للاول ، والوصل على أن الثاني مناير للاول ثم يقول « فإن قيل لم اعتبر المغايرة في موضع دون آخر ؟ لجوابه أن النسكفة بناء على الارادة موقع الارادة هكذا فلا يحسن أن يرام له وجه » .

نظر علماء الازهر الى الشعر

لفضيلة الاستاذ الشيخ محمد كامل الفقى
المدرس بمعهد القاهرة

رسالة الازهرين دينية خلقية ، ينشرون دين الله فى الأرض ، ويحضون على الفضائل جدهم ، ويدعون الى مكارم الاخلاق بكل أسلوب ؛ ومن ثم كان طابعهم الجلال ، وسمتهم الزماتة والوقار ، وحديثهم النقى العفيف ، يحرصون كل الحرص على أن يكون شعرهم بعيدا من الفحش لإمامتهم فى الناس ، ويجهدون أنفسهم فى مجانبه ما لا يتفق مع هذه النزعة ، أو يجافى ذلك الاتجاه .

وفى هذا الأفق ينظر علماء الازهر الى الشعر ، وبهذه المثابة يرون رأيهم فيه ، فلم يكن من الجائز فى نظرهم ، أن يسرفوا فى قول الشعر هجاء وملاحاة ، أو يمعنوا فى قرضه خوفا فى عرض ، أو تأريثا لعداوة ؛ ولم يعهد فيهم أن يقولوا الشعر لا يتحرزون فيه عن ذكر الغافلات المقصورات فى خدورهن ؛ ورأوا من كرامة العلماء أن يعفوا عن المبالغة فى المدح والإطراء ، والتدلى إلى الكذب والتجنى على الناس ؛ وإذا حاموا حول ذلك فى شعرهم فبقصد واعتدال دون إغراق ولا مغالاة . وهذا الشعور من العلماء ، وتلك النظرة منهم إلى الشعر ، كانت جناية فى كثير من الاحيان على كثير من فنون الشعر وأغراضه ؛ فقد أنفوا أن تفيض شاعريتهم فى ألوان مختلفة تهتز لها الاسماع وتخفق لها القلوب ، فكان ذلك مضعفا لشعرهم فوق ما ضعف به من ضيق خيالهم وأفقهم المحدود الذى يعيشون فيه .

والشعر فى رأى الشاعر الذى لا يترمت ولا يتعفف ، خيال وتصور وافتتان ، لا تخرج ولا تصون فيه ، وأعذبه فى رأيه أكذبه كما يقولون ، ولكنه عندهم فى هذا المتجه مجافاة لرسالتهم ، وزراية بمكائهم ، وذلك هو الذى حمل العلماء

على أن يطووا صفحة فيها مجون وطرب ، وفيها خفة وغزل ، وألا ينشروا من ذلك إلا الهتين المقتصد ، وذلك هو الذى حضهم على أن يخفوا عن الناس شعرا أودعوه مكنون صدورهم ، ونجلى أخيلتهم ، وخفقة أفئدتهم ، وجعلهم يشعرون بأن من الشعر ما هو عورات يجب أن تستر ، واستهتار لا ينبغي أن يظهر .

وهذا هو السيد عبد الله نديم ، الأزهرى الخطيب الكاتب الشاعر، تبحث عن شعره الذى تدفقت به شاعريته الفياضة فلا تهدى إلا إلى غيض من فيض ، وقُلّ من كثر . حدث الأستاذ أحمد سمير ، المترجم له فى صدر مختاراته المعروفة بسلافة النديم ، أن له ديوانين منظومين يشتملان على سبعة آلاف بيت .

ويقول فى تصديره للسلافة « ولما كان فى يافا أول مرة بعث إلى محررا يكلفنى به أن أطلب ديوان شعره الصغير من صديقه المرحوم « عبد العزيز بك حافظ » فلما قصده وجدته مصابا فى قواه العقلية بما لم يدع للطلب مجالا ، ثم كتب إلى ثانيا بأن ديوانه الأوسط عند م . بك . ف . فطلبت منه فاعتذر بأنه ضاع ، فلما أنبأت المترجم بذلك أرسل إلى فى مكتوبه الثالث أنه إنما طلبهما ليحرقهما براة منهما ومن أمثالهما ، لأن فيهما هجوا كثيرا . وختم المكتوب بهذه العبارة « قد خلعت تلك الثياب الدنسة ، ولبست ثوب » إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا . »

ذلك هو رأى أحد شعراء الأزهر فى الشعر ، وتلك هى نظرتة له : فالحجاء فى نظره رجس ، والملاحاة فى رأيه ثوب من الدنس ؛ ومن ثم فهو يريد أن يحرق هذا الشعر ، وأن يجعل هذه الثروة القيمة حطباً للنار كي يذهب الله عنه الرجس ويطهره تطهيرا .

وهذا شاعر آخر من شعراء الأزهر الفحول وهو المرحوم الشيخ على الليث ، يلعن من يطبع ديوانه المخطوط ، لأنه يخشى حسابه على ما أودعه من قول يزعم أن فيه منسافة للورع والتقية .

ولعلنى لم أسمع أن شاعرا آخر غير أزمري طاوعته نفسه أن يحرق شعره لأن فيه هجوا وملاحاة ، منها كان شعره من الفثاة والصف والاحلال ، طلبا لتطهير

وبعدا من الرجس والدنس . ولعل أبطالم أسمع أن شاعرا آخر غير أزهري لعن من يطبع ديوانه المخطوط لسبب من الأسباب .

بل إن كثيرا من الشعراء غير الأزهريين يقيمون حول شعرهم ضجة هائلة من الدعاية والرويح ، ويحتشدون في طبع شعرهم محتالين على أرباب اليراعات أن يقدموا دواوينهم بعبارات التفريظ والإطراء المبالغين ؛ بل إن كثيرا من الشعراء غير الأزهريين يسعون لدى الشفعاء أن يتوسطوا لطبع شعرهم ، وعساهم ألا يقتصروا على طبع الشعر ، بل يقدموا لكل قصيدة بصورة رمزية خليعة تمثل فتاة عارية ، أو صبا ضارعا ، أو منظرا مسرفا في فحشه وخلاعه .

ويرى الأستاذ العقاد ، أن القدوة لشعراء الأزهريين في هذا المذهب ما يروى عن الإمام الشافعي ، إذ يقول :

ولولا الشعر بالعلماء يزي لكنت اليوم أشعر من لبيد (١)

وقد تكون القدوة عندهم في ذلك ما حكم الدين به على الشعر ، فهم يعلمون أن الاسلام إنما جاء بالجد الذي يحض على الثواب في الآخرة ، ويحرم على المسلمين فضلا عن علمائهم الكذب في القول ، وإشاعة الفاحشة وقذف المحصنات ، والحديث عن الخمر والمحرمات ، والولوغ في الأعراض وتأريث العداوات .

وهم يعلمون أن الله نزه محمد صلى الله عليه وسلم عن الشعر فقال « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » ، وأن الله ذم الشعراء بقوله « والشعراء يتبعهم الغاؤون » ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لأن يمتلئ جوف أحدكم فيريه (٢) خير له من أن يمتلئ شعرا » .

وهم يعلمون أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر حكمة » ، وأنه خلع على كعب بن زهير بردته التي اشتراها منه معاوية بثلاثين ألف درهم ، وتوارثها الخلفاء من بعده يلبسونها في الجمع والأعياد .

(١) شعراء مصر وبیشاتهم للأستاذ عباس العقاد ص ٩٠

(٢) وري النبح جوفه كوعى أفسده ، وورى فلان فلانا أصاب رثته

وأنه كان يكثر من استنشاد الخنساء في رثاء أخيها صخر، ويقول « هيه يا خنساء » وأنه دعا إلى الشعر واستعان به في دعوته، واتخذ حسان شاعرا له ينافع عنه، وكان يقول له « شن الغارة على بني عبد مناف، فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع الحسام في غبش الظلام » ١ .

وأنه استحسن شعر النابغة الجعدي ودعا له، وذلك حيث يقول النابغة :
« أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم قولي :

بلغنا السماء بمجدنا وجسدودنا وإنا لنبغى فوق ذلك مظهرنا
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أين المظهر يا أبا ليلى ؟ فقلت : الجنة يا رسول الله . قال : أجل إن شاء الله . ثم قال أنشدني فأنشدته من قولي :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر ^(١) تحمى صفوه أن يكدر
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حلیم إذا ما أورد الأمر أصدر
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا يفضض الله فاك . قال الراوى : فظرت إليه فكأن فاه البرد المنهل ما سقطت له سن ولا انفلتت ^(٢) ترف غروبه ^(٣) .
كما يعلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم أثناءه ودعا له، وأن الشعراء أنشدوا بين يديه واهتز لما أنشدوه . فهذه هي قتيلة أخت النضر بن الحارث الذي كان غالباً في عداوة المسلمين بمكة . يكثر أذاهم ويقن فتيان قریش الشعر في هجائهم ، أسره النبي في بدر وقتله ، فجاءته أخته وأنشدته :

يا راكبا إن الأتيل مظنة من صبح خامسة وأنت موفق ^(٤)
أبلغ به ميتا بأن تحية ما إن تزال بها النجائب تخفق ^(٥)

(١) بوادر : جمع بادرة وهي الحدة أو ما يبدر من الإنسان عند الحدة من الخفة إلى الاقتحام بالقول أو الفعل .

(٢) انفلتت : انتظمت - ترف : تبرق وتلمع - غروب الأسنان ماؤها وظلها .

(٣) دلائل الإعجاز ص ١٨ .

(٤) الأتيل : واد قرب بدر وهو الموضع الذي دفن به أخوها .

(٥) تخفق - كتضرب : تسرع .

منى إليك وعبرة مسفوحة جادت بوا كفها وأخرى تخنق (١)
 هل يسمعى النضر إن ناديته أم كيف يسمع ميت لا ينطق ؟ (٢)
 ظلت سيوف بنى أبيه توشه لله أرحام هناك تشقق (٣)
 صبرا يقاد الى المنية متعبا رسف المقيد وهو عان موثق (٤)
 أحمد ولدتك خير نجية فى قومها والفحل خل معرق (٥)
 ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحقق (٦)
 فالنضر أقرب من قتلت قرابة وأحقهم إن كان عتق يعتق (٧)
 لو كنت قابل فدية لفديته بأعر ما يغلى به من ينفق (٨)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو سمعت هذا قبل قتله لمننت عليه .
 وهم قد عرفوا أيضا أن كثيرا من شعراء الإسلام أنشدوا بين يدي النبي
 صلى الله عليه وسلم غزلا ، ومن ذلك ما أنشده كعب بن زهير بين يديه إذ يقول :

بانئت سعاد فقلبي اليوم متبول متمم إثرها لم يفد مكبول (٩)
 وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول (١٠)
 هيفاء مقبلة عجزاء مديرة لا يشتكى قصر منها ولا طول
 تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول (١١)

- (١) وكف المطر والدمع : سال .
- (٢) أم للاضراب ، أى بل إنه لا يسمع لانه لا ينطق .
- (٣) تنوشه : تتناولها .
- (٤) قتله صبرا وصبر الانسان على الثقل أن يحبس ويرمى حتى يموت . العانى : الأسير .
 الموتق المقيد بالوثاق .
- (٥) الفحل : كناية عن الأب ، والمعرق الأصيل .
- (٦) المحقق : المتناظر من أحقته إذا أخطاه .
- (٧) فلا بالشيء وغالى به : طلب فيه نمنا غالبا أو اشتراء كذا .
- (٨) المتبول : من تبله الحب إذا أضناه وأفسده أو ذهب بلبه وعقله . والمتمم للدلل المعبد
 وللنلول من وضع النل فى عنقه . وفى رواية مكبول وهو المقيد بالكبل أى القيد .
- (٩) الأفن : الذى يتكلم من قبل خياشيمه . غضيض الطرف من غضه إذا خفضه .
- (١٠) العوارض جمع عارضة وهى السن التى فى عرض الفم ، الظلم : شدة صفاء متون
 الأسنان . المنهل : النهل محركة أول الشرب . والمنهل المشرب والشرب والمنزل يكون
 بالمفاضة ، معلول : الطل محركة : الشربة الثانية أو الشرب بعد الشرب تباعا .

أوائل المتكلمين من المسلمين

واصل بن عطاء شيخ المعتزلة

لفضيلة الأستاذ الشيخ علي مصطفى الغرابي

المدرس بكلية أصول الدين

لقد تكلمت في مقال السابق على رأي واصل في «مرتكب الكبيرة من المسلمين»، وأنه جعله في منزلة بين منزلي الإيمان والكفر، وأنه سماه «فاسقا»، لا كافرا ولا مؤمنا ولا منافقا. وفي هذا المقال سأحدث إن شاء الله على موقف واصل من الآراء الكلامية التي راجت في عصره، ومن بينها مسألة «مرتكب الكبيرة»، على أن أبين مدى اهتمامه واهتمام غيره من المسلمين في ذلك العصر بتلك المسألة.

مرزوقية كميونر علوم دلي

المشاكل الكلامية في ذلك العصر :

إن المشاكل التي كانت تشغل بال المسلمين في أيام واصل بن عطاء — تقدم أنه عاش من سنة ٨٠ إلى سنة ١٣١ هـ — هي :

أولا : مسألة العصاة من المؤمنين ، أو مسألة «مرتكب الكبيرة» .

ثانيا : الحكم على عثمان وقاتليه ، ثم على علي بن أبي طالب وشيعته ، ثم السيدة عائشة ومن معها من المسلمين ، ثم معاوية ومن معه منهم .

ثالثا : هل الإنسان مجبور في أفعاله أو مختار ؟

رابعا : القرآن مخلوق أو غير مخلوق .

خامسا : صفات الله تعالى .

سادسا : من يستحق أن يكون خليفة المسلمين ؟

أما المسألة الأخيرة — وهي من مصح أن يكون خليفة — فإن السيف لا العقل ولا الدين كان صاحب الرأي فيها برغم آراء الفرق واختلافهم عليها؛ لهذا كانت للامويين أولاً، وللعباسيين ثانياً، ثم توزع أمرها بين المسلمين في شكل ولايات تصغر أو تكبر حسب قوة المقتضب .

وأما المشكلة الثانية — وهي الحكم على من ذكرنا من المتقاتلين من المسلمين — فإنها ضعفت أو انتهت بضعف الطوائف التي كانت تعتنقها وتعتصب لصاحبها . وسنرى رأى واصل فيها إن شاء الله .

وبقيت مشكلة « مرتكب الكبيرة من المؤمنين » ، ومشكلة الإنسان « هل هو مجبور أو مختار ؟ » ، ومشكلة « هل القرآن مخلوق أو غير مخلوق ؟ » ، ومشكلة « صفات الله » .

أما مشكلة الإنسان فقد كانت محل نزاع بين رأيين ، أحدهما رأى « الجعد ابن درهم » وجهم بن صفوان ، وهو أن الإنسان مجبور في أفعاله ، وأنه كالريشة المعلقة في مهب الرياح ؛ وثانيهما رأى « غيلان الدمشقي » ومعبد بن خالد الجهنى ، وهو على الضد من رأى الأول ، وهو أن الإنسان مختار في أفعاله لا مجبور .

وأما مشكلة القرآن فقد ظهرت عند الجعد وجهم بن صفوان ، ولكننى لم أر لواصل رأياً فيها ، ويظهر أنه لم يتكلم فيها ، وإنما ظهرت تلك المشكلة مرة أخرى على يد « بشر المريسي » أيام الرشيد ، ثم على يد « ثمامة بن أمرس النميري » رئيس المعتزلة في أيام المأمون والمعتصم والواثق من خلفاء الدولة العباسية ، وهو الذى جرى على يديه وعلى يد « أبى دؤاد » امتحان الفقهاء في خلق القرآن .

وأما مشكلة الصفات ، فقد بدأت عند الجعد وجهم ثم غيلان الدمشقي ، إلى أن جاء وكان له رأى فيها ، وسند كره إن شاء الله .

وأما مشكلة مرتكب الكبيرة فقد كان بدء أمرها عند الخوارج بعد أن اختلفوا مع على بن أبى طالب رضى الله عنه على التحكيم بينه وبين معاوية في القتال الذى كان بينهما ، ثم كان للرجثة فيها رأى ، كما كان للحسن البصرى فيها رأيه ، ثم كان رأى واصل بن عطاء . ولما كانت هذه المشكلة أهم المشاكل التي شغلت المسلمين في ذلك

الوقت فإن واصلًا قد بذل مجهودًا كبيرًا في سبيلها أكثر من المشاكل الأخرى التي حكمتها عنه كتب الفرق . ولاند ذكرت بعض هذه الكتب مناقشة واصل لآراء الفرق الأخرى حتى انتهى إلى إبطالها وتأييد رأيه بالحجة والدليل .

قال واصل لمخالفيه فيمن يرتكب الكبيرة من المؤمنين : قد أجمعتم أن سميت صاحب الكبيرة « بالفسق والفجور » فهو اسم له صحيح بإجماعكم ، لأن الخوارج تقول « إن مرتكب الكبيرة مع فسقه وفجوره كافر » ، والمرجئة تقول « هو مع فسقه وفجوره مؤمن » ، والشيعية تقول « هو كافر نعمة فاسق » . وقال الحسن البصري ومن تابعه « هو مع فسقه وفجوره منافق » . ثم إن القرآن قد نطق بهذه التسمية في آية القاذف قال تعالى « والذين يرمون المحصنات لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون » ، وكذلك في كثير من آياته سمي المؤمن العاصي « فاسقًا » . فوجب تسميته لهذين « فاسقًا » . وأما ما تفرد به كل فريق منكم من الأسماء فدعوى لا تقبل منه إلا بينة من كتاب الله أو من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم قال لهم : لقد وجدت أحكام الكفار المجمع عليها المنصوصة في القرآن كلها زائلة عن صاحب الكبيرة ، فوجب زوال اسم الكافر عنه بزوال حكمه ، لأن الحكم يتبع الاسم كما أن الاسم يتبع الفعل ، وأحكام الكفر المجمع عليها المنصوصة في القرآن على ضربين :

أحدهما : أن الله سبحانه وتعالى قال : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » ، فهذا حكم الله في أهل الكتاب وهو زائل عن صاحب الكبيرة .

وثانيهما : أنه قال تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منّا بعد وإما فداء » . وهذا حكم الله في مشركي العرب ، وفي كل كافر سوى أهل الكتاب ، وهو زائل عن صاحب الكبيرة . ثم قد جاءت السنة المجمع عليها على أن أهل الكفر لا يوارثون ولا يدفنون في مقابر أهل القبلة ، وليس يفعل ذلك بصاحب الكبيرة .

وحكم الله في المنافق أنه إن ستر نفاقه فلم نعلم به وكان ظاهر الإسلام فهو

عندنا مسلم ، له ما للسلين وعليه ما عليهم ، وإن أظهر كفره استتيب ، فإن تاب وإلا قتل . وهذا الحكم زائل عن صاحب الكبيرة .

وحكم الله في المؤمن الولاية والمحبة والوعد بالجنة ، قال الله جل ذكره « الله ولي الذين آمنوا ، وقال « وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ، وقال « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ،

وحكم الله في صاحب الكبيرة في كتابه أن لعنه وبرىء منه وأعد له عذابا عظيما ، فقال تعالى « ألا لعنة الله على الظالمين ، وقال « وإن الفجار لفي جحيم ، وما أشبه ذلك من القرآن ، فوجب أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن لزوال أحكام المؤمن عنه في كتاب الله ، ووجب أنه ليس بكافر لزوال أحكام الكفار عنه ، ووجب أنه ليس بمنافق لزوال أحكام المنافقين عنه في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ووجب أنه فاسق فاجر لإجماع الأمة على تسميته بذلك ، وبسمية الله له في كتابه . ولقد رأيت أن واصلا قد سلك في استدلاله على تسمية « مرتكب الكبيرة باسم الفاسق ، طريقا إلى تقرير دعواه تمسك فيه :

أولا بالقرآن الكريم والسنة ، مستدلا بما ورد فيه من تسمية القاذف باسم الفاسق .

ثانيا بالإجماع ، لأن المخالفين له كانوا جميعا متفقين على تسميته بالفاسق ، والخلاف بينهم في كونه - مع هذا - كافرا أو منافقا أو مؤمنا ، فهو قد أخذ بالجمع عليه ، وترك المختلف فيه .

بعد هذا الاستدلال انتهى واصل إلى أن صاحب الكبيرة يجب أن يسمى « فاسقا ، وأنه ليس بالمؤمن الكامل الإيمان ، كما أنه ليس بالكافر البالغ حد الكفر ، وكذلك ليس منافقا ، كما أنه ليس بمؤمن ، لأنه لا يجمع كل صفات المؤمنين ، وإذن يكون في « منزلة بين منزلي الإيمان والكفر » . هذا ما يتعلق بمرتكب الكبيرة عند واصل في الحياة الدنيا . ولكن أين يكون وضعه في الآخرة ؟ أ يكون كذلك في منزلة بين الجنة والنار بأن يكون من أهل الأعراف ؟ أو يكون مع المؤمنين في الجنة بعد استيفاء عقابه على ما قصر فيه من عمل ؟ أو يكون مع الكافرين خالدا في النار ؟ أو يكون مع المنافقين في الدرك الأسفل من النار خالدا فيها معهم ؟

لقد أجاب على هذا السؤال صاحب كتاب « الفرق بين الفرق » وهو من الأشاعرة ، بأن « واصل » كان يقول : « إن الفاسق مخلد في النار ، ولكنني لم أعتز على هذا الرأي لو ااصل عند غير الأشاعرة من كتاب الفرق . على أن هناك ما يدل على عدم صحة نسبة هذا الرأي لو ااصل وهو :

أولاً : استدلال واصل على تسمية « صاحب الكبيرة باسم الفاسق » حيث جعل أساس استدلاله على اختلاف التسمية هو اختلاف الأحكام ، فاستدل باختلاف الأحكام على اختلاف الأسماء ، وهو يعرف أن أحكام الكفار في الآخرة المخلود في النار ، فكيف يستدل على اختلاف التسمية باختلاف الأحكام ، ثم يحكم على الفاسق بأحكام الكفار ؟ أظن هذا ليس معقولاً ، بعد أن رأينا دقة واصل في استدلاله على دعواه !

ثانياً : أن المسلمين لما اختلفوا في علي وأصحابه ، وفي طلحة والزبير وعائشة أصحاب حرب الجمل ، وكفرهم ببعضهم البعض ، وخطأهم بعض آخر ، وقف واصل من هذه المسألة ، وقف العلماء المتورعين : هو يعلم أن الحق قطعاً لا يتعدد ، فلا بد أن يكون الحق مع أحد الفريقين ، ولكن لا يعرفه بالضبط ، لهذا ذهب إلى أن أحد الفريقين فاسق ، لا بعينه . ولقد طبق واصل حكم القرآن الكريم ، وهو عدم قبول شهادة الفاسق ما لم يتب على علي وأصحابه وعائشة ومن معها ، ولكن ليس من المعقول أن يحكم واصل على علي بن أبي طالب وأصحابه أو عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم بالمخلود في النار ، ولم أر لو ااصل هذا الرأي حتى كتب الأشاعرة نفسها لم تنقله لنا ، ولو صح عنه هذا الرأي لما سكت الأشاعرة عن التشهير به على واصل .

لهذا أرى أن ما يدعيه كتاب الفرق من الأشاعرة على واصل من « أن مرتكب الكبيرة أو صاحبها مخلد في النار » ليس صحيح النسبة إليه . وقد يجوز أن يكون أساس هذا الخطأ الذي وقع فيه هؤلاء الكتاب هو ما كتبه عن المعتزلة « ابن الراوندي » في كتابه « فضائح المعتزلة » . ويكون الأشاعرة قد خدعوا بما قاله خصم المعتزلة . ولا أظنهم يتعمدون التجني على رئيس المعتزلة وشيخهم ، وفي مقال تال إن شاء الله تتم الحديث على ما بقي من آراء واصل الكلامية .

بين الشعر والنظم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حامد عوني
المدرس بمعهد القاهرة

تضاربت الآراء ، واختلف مذاهب العلماء في تحديد معنى الشعر ، وضبط هذا النوع من طرق الأداء ضبطاً يميزه عن سائر أنواع الأساليب .
وقد أتيت لي أن أطلع على بعض الآراء في هذا المبحث ، راغباً أن أوف منها على ما يرضى الضمير ، ويستسيغه الفهم ، وتستشعره النفس .
وبعد استقصاء البحث بتدر ما سمحت به سعة الاطلاع ، وقوة الإدراك ، حكمت في ذلك الوجدان الحر ، والعقل الطليق من أغلال التقليد ، وقفت في آخره الأمر على رأي قد ارتاح إليه الضمير ، واستساغه العقل .
قال علماء العروض فيه : إنه الكلام الموزون المقفى . وإلى هنا لم يخط العروضيون خطوة . وهو تعريف بظاهره — كما نرى — لم يمد فيه هؤلاء حاقّ اللفظ ، وأصداء النغم ؛ فالوزن والتقفية كلاهما قوام الشعر عندهم ، وكأن عمدتهم فيه أن يكون الكلام مفرغاً في القالب الموسيقي ، موقفاً على نغم الألحان ، ولا يبالون — بعد ذلك — أكان مركباً من قضايا أولية ساذجة ، أم كان متضمناً معنى خيالياً مؤثراً ، وسواء أكان متسق المعاني منسجماً ، أم كان متنافر المدلولات مضطرباً ، ما دامت أجزاؤه متسقة على التوقيعات الموسيقية .
ونحن إذا تأملنا قليلاً علمنا أن ما قالوه تعريف للنظم لا للشعر ، وأنه الكلام الموزون المقفى ، أعم من أن يكون بين معاني كله التثام وتضافر ، أو تعاند وتنافر .

وإذا فبين الشعر والنظم من الفرق ما لا يخفى على أولى النظر ، إذ قد يكون المرء شاعراً يأتي بالآخيلة البديعة ، والحكم الرائعة ، والتجوز الساحر ؛ أو يأتي بالحقائق الناصعة المتضامة الآخذ بعضها برقاب بعض ؛ ولكنه — مع ذلك —

لا يجيد إفراغ ما يأتي به في القالب الموسيقي الشائق . وقد يكون ناظما يحسن وضع
الكلم على وفق توقيع الالخان ، ولكنك لا ترى في نظمه خيالا شعريا طريفا ، أو
معنى تمثيلا جميلا ، بل تراه ينظم الكلام هكذا غفلا ساذجا لا تصرف فيه ؛ وقد
نرى بين معاني كلمه تنافرا أو عداا يعاف بعضها بعضا ، ويبرأ بعضها من بعض .
فقد يشجيك ويطربك ما تسمعه من تلك النغم الموسيقية في بيت الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حتى أبوه يقاربه

مع ما تراه من سوء النظم ، وسقم الأليف : فليس هذا من الشعر في شيء ،
وإنما هي كلمات منظومة متراس بعضها إثر بعض .

فما عرف العروضيون الشعر حينئذ ، وإنما نظروا من جهة بنيته وقوافيه ،
فعرفوا القالب الذي يفرغ فيه ، وذلك هو النظم ، وبقي الشعر على حدة . ولو أن
الشعر كما عرفوا لكانت الشاعرية بين الأوزان والقوافي ، لافي المعاني والأساليب ،
ولكان كل من وضع قافية ، وأقام وزنا ، شاعرا ؛ وإذا لضايق ربح الفضاء
بعداد نجوم السماء من النظامين المتقسمين بسمة الشعراء .

ولعل تعريفهم هذا هو الذي بعث جماعة النظامين على التوفر عليه ، فما يكاد
أحدهم يقف بهذا الباب ، ويلم بالخفيف والثقيل من الأسباب ، حتى يغامر في النظم
بحسبه شعرا ، ثم يمعن فيه ما يمعن ، وكلما حاول أن يقترب من حقيقته اقتربا ،
أو غل عنها اغترابا . ولقد تقرأ له مائة بيت في غرض واحد فلا تشم في خلال
تلك الأسطار عبقا من المعاني الشعرية ، ولا تلمح في ثناياها شيئا من جلال الشعر .

يطلع عليك أبداع أولئك بيانا بأبيات في شكوى الهوى ، فيفيضها على سمعك
حتى إذا أصغيت له سمعت ألفاظا متافرة ، مشدودة الوثاق الى أوتاد من الوزن ،
ورأيت ديباجة كأنها الطلل البالي ، وخيالا يعافه العقل ، ويمجه الذوق ؛ لا يعنى
هذا النظام - متى استقام له الوزن ، وأسلمت له القافية قيادها - أن يرتفع بكلامه
عن مستوى السوق ، ولا في مقدوره أن ييدهك بمعنى مخترع ، أو يروعك ببيت
على غرار البلاغة مطبوع ؛ ولو كان شاعرا - كما يزعم - لا طملك من قلبه على موضع
ناره ، وأسمعك منه رنين أوتاره .

وبحيثك آخر بكلام ، وزون ، قفى فى الحماسة ، فاذا جلس اليك طفق يحصبك منه بما يغرى بك الكرى ، وتقلك على جناح خياله إلى أحد القطبين ، فافترقتما وكلاكما فى مكانه قائم ؛ ولو كان شاعراً لهنز من قلبك وتراجامدا ، وبعث من عزمك ما كان خامدا ، ثم اقتادك بشاعريته إلى الغاية التى يريد لها .

ويلقاك ثالث الجماعة بثالثة الأثافي فى وصف الحرب وأهوالها ، فاذا أعرته أذنا صاغية ، سمعت براعة الاستهلال تشف عن عتاب صديق ، أو شكوى من عنت الدهر ؛ فاذا جاوز المطلع ، وانحدر الى ما يليه ، لم يزد على أن يريك صديقين يتمازحان لاجيشين يقتتلان ؛ ولو كان شاعراً لدرج بنفس صاحبه بين صهيل الجياد ، ومواقع الجلال ، وخاض بها فى بحر من الدماء ، ثم مشى بها على جسر من الأشلاء .

إذا فبين الشعر والنظم من الفرق أن هذا وزن وتفعيل ، وسبب خفيف وآخر ثقيل ؛ وذلك تصوير لما يجيش به الصدر من حكمة ، وتهش له السريرة من أمنية ، ويسكن اليه العقل من حقيقة ، ويعلق به الخاطر من خيال ، وينطبع فى المناظر من جمال ، ويأخذ بغان النفس من كل .

ومن أراد أن يميز ما يمر بسمعه من قول : أنظم هو أم شعر ؟ فلينصت الى قائل ؛ فان شعر أن فى كل بيت من معانيه محييا جميلا يشرف من نافذته ، وحسنا يترقرق على قافيته ، فلم يتمالك أن يهش له ويضطرب ، وتنفاد له نفسه بزمام ، فذلك هو الشعر .

وإن مر به القول فلم يحدث فى نفسه من الأثر ، إلا مثل ما يحدثه مر الطائر فى الهواء ، ولم يجد فيه من روعة الشاعرية ما يصبو له القلب حنانا ، أو يصيب فى القلب مكانا ، فذلك هو النظم ، وخلق به أن يدخل فيه ما ليس من الشعر ولا قلامة ظفر .

فليعلم الذين زعموا الشعر وزنا وقافية ، أنهم فى واد ، وأن الشعر فى واد .

خطا بعضهم خطوة فشرط أن يكون الشعر مبنيا على استعارة ، معبرا عن خيال . فليت شعري أى شئ يريد ؟ إنه لا جرم يريد أن ينتهى ناحية الفلاسفة من أن الشعر هو ذلك المعنى الصالح فى عالم الخيال ، الجائل فى مسارح الوهم ، فلا يكاد تتناوله

الحواس الظاهرة ؛ لذلك أطلقه المناطق على القياس المركب من قضايا خيالية تؤثر في النفس ولو كاذبة أو مستحيلة ، كقياس قولهم في اجتماع الضدين : « أنا مضمّر الشكوى باللسان ، مظهرها بالدموع ، وكل مضمّر صامت ، وكل مظهر متكلم فأنا صامت متكلم » . ومن هنا قال علماء الأدب : « أشعر الحديث أكذبه ، أى أن أشد المعاني تأثيرا في النفس ، وألمكها للعواطف ، وأسلبها للشعور ، ألصقه بالخيال ، وأعلقه بالوهم . فكذلك يريد هذا القائل أن يقول لنا : إن الشعر هو ذلك القول المتضمن للخيال البديع المؤثر : فكأنه يرى رأى الفلاسفة أن لا تأثير لغير الخيال ، وأن التجوز في المعاني ، والتخطي بها من الحقيقة الى مسارح الخيال ، هو مصدر الروعة ، وموضع السحر لا غير .

ونحن إزاء هذا الرأي لا يسعنا ، إلا أن ندعن أن للخيال تأثيرا حادا في النفوس ما لم تخرج به المغالاة عن حدود المعقول . هذا شيء نحسه في أنفسنا ، وندركه بوجداناتنا حتى في لغة العامة : فانك لا تكاد تسمع مثلا عاميا ، أو تمثيلا سوقيا من بعض أفناء الناس وعوامهم إلا طرببت له وهششت عند سماعه ؛ ولكن الذى ننكره هو أن يستأثر الخيال بهذا التأثير ، ويستقل به دون الحقيقة . ذلك أن من المعاني التى لم تخلع أردية الحقيقة ما لا يقل روعة وتأثيرا عن تلك التى خلعت عليها المغالاة حلل الخيال الرائع ، والمجاز البديع .

فهاك الكتاب الكريم قد تحدى الامة العربية في أبين صفاتها ، وأسمى سماتها ، وأجل مفاخرها « تلك هى البلاغة نظما ونثرا » ، وما وسعها بعدد إلا أن تنحنى أمامه صاغرة ، وهى أسبق الدول فى حلبة البيان ، ومضرب المثل منها فى هذا الميدان . قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . وإنك لو تصفحت هذا الكتاب الحكيم ، وتلوت آية آية ، بل تفصيته كلمة كلمة ، لا أراك تجد فيه من معاني الكناية والمجاز إلا بقدر الملح فى الطعام ، ومع ذلك ترى شبح الإعجاز ماثلا أمام عينيك فى كل ناحية من نواحيه ، فأنتى قرأت وحيثما تلوت ، رأيت فى كل كلمة معجزة ، وبكل آية آية ، ولا تكاد تمنع مشاعرك من أن يملكها سحر هذا البيان . فهل ترى أن ما بهر ابن المغيرة ، وأفعم صدره روعة وجلالا من قوله تعالى : « إن الله يأمر

بالعدل والإحسان ، الآية ، حتى دعاه ذلك أن يقول : « والله إن له لحسلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفلهُ لمقدق ، وإن أعلاه لمشر ، ما يقول هذا بشر ، ؛ هل ترى ذلك لشيء راعه في الآية من تجوز في المعنى أو كناية فيه ؟ كلا إن هي إلا حقائق ناطقة يتجاذب بعضها بعضا . وهل ترى الجاحظ حين قال : « ولو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة ، لتبين له من بديع نظامها ورقة نسقها ، أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أبلغ العرب لعجز عنها ، نظر الى ما فيها من استعارة وكناية ليس غير ؟ أو هل ترى ابن مسعود حين قال في وصف القرآن : « لا يتفه ولا يتشان ، ، وإذا قال : « إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات دمنات أنائق فيهن ، قال ذلك من أجل ما فيها من تمثيل أو كناية فحسب ؟ أم ترى لذلك فقط قالوا في صفة القرآن : لا تفنى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ؟ أم هل ترى أن ما أعجز زعماء العرب وأساطينهم عن مباراته حتى وقفوا أمامه واجمين مبهورين لا يدرون ما يصنعون ، هو ما فيه من تجوز أو خيال ؟ .

وهل علمت أن لو كان ذلك البيان الساحر الذي تنخلع له قلوبنا روعة وجلالا حينما نسمع لكلامه تعالى ولید ما فيه من مجازات وأخيلة ، لأدى ذلك الى رفع الإعجاز عن الجهرة العظمى من آيات الله ، وأن يثبت ذلك فقط في آى من القرآن معدودة ، وفي مواضع من السور محدودة ، وفي هذا كفر صراح ؟ .

ما ذلك إذاً إلا لما تضمنته هذا الكلام من دقائق المعاني ، ولطائف الاسرار المختلفة ، في ذلك الأسلوب العجيب ، والنظم الرائع البديع ، في المعاني المختلفة والأغراض المتباينة ، لا فرق في ذلك بين حقيقة ومجازة ، وصريحه وكنايته .

هـبْ هذا التأثير العجيب وليد ما في القرآن من سر اختص الله به ، ومزية أودعها إياه دون سائر كلام البشر كما قد قيل ، فأى سر أودع في منظوم كلام البشر أو مشورهم مما هو مخلو من القضايا الخيالية ، سليم من خدائع المغالاة ، وتماويه الإغراق ، مع بلوغه الغاية في الجودة ، والنهاية في التأثير ، كقول أبي الطيب :

إذا قيل رفقا قال للحلم موضع وحلم الفتى في غير موضعه جهل
وقوله :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

أجل : إنا لا نذكر ما للحكم والأمثال من التأثير والروعة أيا كان الوضع الذى وضعنا به ، والقالب الذى أفرغنا فيه ، غير أن الذى نحسه فى أنفسنا أن ليس للحكمة أو المثل منطقاً بهما على انفراد من جمال التأثير ما يكون لهما منتظمين فى سلك حديث استدعاهما ، كالعقد النفيس فإنه فى جيد الحسنة أبهى وأنضر منه منعزلاً جانباً . ولا إخال عاقلاً يستطيع أن يسوى فى التأثير بين قول الشاعر : « وحلم الفتى فى غير موضعه جهل » منقطعاً عما تقدمه من الكلام ، وبين قوله هذا منسجماً مع قوله : « إذا قيل رفقا قال للحلم موضع ، فإن انتظامه معه فى سلك واحد ، واستدعاء صدر الكلام لعجزه ، أعطيا للحكمة روعة ، وأكسبها تأثيراً لم يكونا لها وهى دنقطة الصلة ، منعزلة المكان .

ولأنك إن تسمع لقولهم : « فإن المسك بعض دم الغزال » ، أو قولهم : « ما لجرح بميت إيلام ، أو قولهم : « إن معدن الذهب الرغام ، سمعت قولاً لا يبدو أن يكون مجرد خبر بأن المسك جزء من دم الغزال ، وأن الجرح الميت لا يحس ألم الوخز ، وأن الذهب مكانه التراب ، ولا يكاد يجوز ما سمعت صمخ أذنك ، ثم لا تلبث أن تسمع أو تقرأ قول المتنبي :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال
أو قوله :

وما أنا منهم والعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
أو قوله :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام
فلا تسكاد تضبط حواسك دون أن تتماكها روعة هذا الكلام . فانظر الى ذلك الذى كان خبراً ساذجاً كيف استحوال سحراً حللاً ، وانقلب رحيقاً مباحاً . فليت شعري : هل كان ذلك إلا بفضل ما بين الكلامين من حسن الانسجام ، ورقة الالتحام ، وأن صدر الكلام أخذ بناصية عجزه ، وآخره عمسك بعنق أوله ؟ ذلك هو السر فى أن كان للحكم والأمثال ذلك التأثير العجيب .
وإليك قصة الغلام الحجازى الذى وفد على عمر بن العزيز فاشترأب الغلام

للكلام ففنع الخليفة لحدائنه سنه قائلاً : ليتكلم من هو أسن منك ، فقال الغلام : يا أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، فإذا منح الله عبداً لساناً لا فظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد أجاده الاختيار ؛ ولو أن الأمر بالسن لكان ههنا من هو أحق بمجلسك هذا ! . فقال عمر : صدقت ، فهذا هو السحر الحلال .

فما كان عمر بن العزيز ذلك الحجّة الدامغة ، والقول الفصل ، لتفحمة مقالة غلام حدث لما فيها من تخيل وتجاوز ، بل لما فيها من نخامة المعنى ، ورشاقة الأسلوب . ألا ترى كيف جعلها سحراً حلالاً في حين أنها معان لم تبرح أصولها ، ولم تعر عن ثيابها ؟ ولكنها دقت نخلت ، وتناسقت فسحرت .

فلا وجه إذاً لأن يستأثر الخيال بالتأثير ، إذ ثبت أن لبعض المعاني الحقيقية من التأثير ما لا يستهان به . وإن الأسلوب الساحر ، والمعنى الدقيق اللذين أتى بهما الكتاب الحكيم لا قوم دليل على حقيقة ما نقول من أن دقة المعاني وتناسقها من أقوى عوامل التأثير وإن لم يعد بها التجوز من الحقيقة إلى الخيال .

وإذا أخذنا بنظرية القائل أن لا بد في الشعر من أن يكون مسبجاً للخيال ومسرحاً للوهم لمكانهما من التأثير ، فإذا يكون عذرنا أمام شعر زهير ، وبم تكون محجتنا إزاء الجهرة العظمى من شعر المتنبي ونحوهما مما هو خلو من القضايا الخيالية ، ونحن لا يسعنا بحال أن نشكر عليهما جودتهما وحسن تأثيرهما لما بين المعاني من جمال الانسجام ، وتوثق عرا الالتئام ، مع بهاء الرونق ، وصفاء الديباجة ، وفي ذلك من التأثير في النفس ما لا يقل شأنًا من بارع الاستعارة ورائع الخيال .

وهام أولاء الشعراء الجاهليون ما كانوا ليعنوا بزخرف القول ، أو ليتكافوا الأداء ، بل كانوا يتوخون الحقيقة ما شئت سداجتهم وفطرتهم ، ولا يقولون من الكلام إلا ما يخطر لهم بلا تعمل أو تأتق ؛ لذلك قل المجاز في شعرهم ، وندرت المبالغة ، في حين أنهم مضرب المثل في مضمار البيان . فهل نستطيع أن نخرج جل أشعارهم من غمار الشعر ولا نذكرهم في عداد الشعراء لأن شعرهم عاطل الجيد من حلي الخيال ؟ . فليس لنا بعد هذا البيان الواضح أن نختص المعاني المجازية والتخييلية بحسن الوقع وجمال التأثير ، فندعي أنها قوام الشعر ، والدعامة التي عليها يعتمد ، وبها يكون ، فإن ذلك بلا ريب غمط لحق كثير من خول الشعراء

حسن الجوار

وأثره في ربط الأسر

لفضيلة الأستاذ الحليل الشيخ على رفاعي

المفتش بإدارة الوعظ

من تعاليم الإسلام دعوته إلى حسن الجوار ، وقد حث الهمم وبعث العزائم
للتحلي بهذا الخلق العظيم ، بهدى مشرق كريم . قال الله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا
به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، وبذي القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذي القربى
والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم » . فن الآية
الكريمة ترى أن الله سبحانه أمر بالإحسان إلى الجار ذي القربى — القريب
المسكن أو الذي له مع الجوار قرب واتصال ينسب أو دين — وإلى الجار الجنب —
البعيد المسكن ، أو الذي لا تربطك به صلة القرابة .

وقد روى البزار عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال : « الجيران ثلاثة : جار له
حق واحد وهو أدنى الجيران ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق وهو أفضل
الجيران : فأما الذي له حق واحد فجار مشترك له حق الجوار ، وأما الذي له
حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار ، وأما الذي له ثلاثة حقوق
فجار مسلم ذو رحم له حق الإسلام وحق الجوار وحق الرحم » .

وإن الإحسان إلى الجار دليل الإيمان بالله واليوم الآخر ، يوم يجازى
المرء بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً .

روى مسلم عن أبي شريح الخزاعي رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره » . وقد أقسم النبي صلى
الله عليه وسلم أن من أساء إلى جاره تعرض من بوب الإيمان ؛ فني الصحيحين عن

أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ! قيل من يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه ، والبوائق : الشرور والآثام والإيذاء . »

وروى الطبراني عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه ، وهو يعلم . »

كذلك رغب صلوات الله وسلامه عليه في حسن الجوار ، ونفر من الإساءة إلى الجار ، ببيان جزاء من أحسن ومن أساء إلى جيرانه .

روى الامام أحمد وغيره عن أبي هريرة قال : قال رجل : يا رسول الله إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصدقتها وصيامها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها . قال « هي في النار » . وقال يا رسول الله : فان فلانة تذكر من قلة صيامها وصلاتها وإنها تصدق بالاثوار من الأقط - أى القطع من الأقط ، وهو شيء يتخذ من مخيض اللبن الغنمى - ولا تؤذي جيرانها . قال « هي في الجنة » .

وروى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه » .

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتشهير بالجار الذي يسيء إلى جاره ؛ ففي الطبراني عن أبي جحيفة رضى الله عنه قال : « جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو جاره ، قال : اطرح متاعك على الطريق ، فطرحه ، فجعل الناس يملكون عليه ويلعنونه ، فجاء الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ما لقيت من الناس ! قال : وما لقيت منهم ؟ قال يلعنونى ! قال : قد لعنك الله قبل الناس . فقال إني لا أعود . فجاء الذى شكاه الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ارفع متاعك فقد كفيت . » وأحسب أن هذا من أشد أنواع التأديب عند ذوى الضمائر الحية والفطر السليمة .

وإن من يتأمل وصية جبريل لنبينا صلوات الله وسلامه عليه يدرك مقدار حق الجار عليه فيؤديه كاملاً : « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

وقد بين صلوات الله وسلامه عليه حق الجار على جاره فيما رواه الطبراني

عن معاوية بن حيدة قال « قلت يا رسول الله ما حق الجار على ؟ قال : إن مرض عدته ، وإن مات شيعته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن أعور سترته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيتة ، ولا ترفع بناءك فوق بناءه فتسد عليه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذ به بريح قدرك إلا أن تغرف له ، . ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق وزاد « وإن اشتريت فاكهة فأهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سرا ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، .

إن من الإحسان إلى الجار أن تحب له ما تحب لنفسك ، فتتبنى له سعة المال وصلاح الحال وبلوغ الآمال ، وتعينه ما استطعت على بلوغ أمله ، وتسرع لنجاحه في الوصول إلى غرضه ، وإن كان جاهلاً فعلبه ، وإن كان عالماً فانصحه ، فالدين النصيحة .

وإذا كان إيذاء غير الجار ذنباً وإثماً كبيراً ، فايذاء الجار أكثر إثماً وأعظم جرماً . يعلم ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم « ما تقولون في الزنا ؟ قالوا حرام حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأن يزني الرجل بعشر نساء أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره . قال : ما تقولون في السرقة ؟ قالوا حرمها الله ورسوله فهي حرام ؛ قال : لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره ، .

إن حسن الجوار يزيد التراحم والتعاطف ، وسبيل التألف والتواد ؛ إذ به يحصل تبادل المنافع وقضاء المصالح واستقرار الأمن ، واطمئنان النفوس ، وسلامة الصدور ، فتضحى الحياة ، طيبة والعيشة هنيئة .

وقد فطن لذلك السعداء فضربوا للناس أروع الأمثال في حسن الجوار ؛ فن هؤلاء أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه : كان له جار إسكاف يعمل نهاره ويقضى ليله في الشراب والغناء ، وكثيراً ما كان يزعمج الإمام بجلبته ، ويتغنى بقول الشاعر :

أضاعوني وأنى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر

ففقد الإمام صوته ذات ليلة وعلم أنه مجبور . فصلى الصبح وذهب الى الأمير فقابلته بجلا مبجلا ، وأجابه إلى ما طلب من الإفراج عن جاره . ولما خرجا قال له الإمام : هل أضعتك يا فتى ؟ فقال لا ، بل حفظت ورعيت ، جزاك الله عنى خيراً عن حرمة الجوار . وتاب ولم يعد إلى ما كان عليه .

وما أحسن قول الله تعالى في مثل هذا المقام « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » .
وبعد ، فلو أحسن كل جار إلى جاره لوجدنا البلد على تعدد أسره أسرة واحدة ، يظللها علم السعادة ، فتجتمع القلوب على الصفاء ، وتطيب النفوس بترفعها عن العداوة والبغضاء ، فتتصرف الهمم الى الإصلاح والعمران ، وتنشد الرقي في كل الميادين ، فيرجح الوطن ، ويسعد كل من فيه .
فلنعتصم بحسن الجوار في سبيل وحدتنا ، حتى يكون المستقبل الزاهر لنا .
ومن الله التوفيق ؟

من مساوىء الحجاب

وقف أبو العتاهية إلى باب بعض الهاشميين فطلب الإذن ، فقيل له : تكون لك عودة . فقال :

لئن عدت بعد اليوم لاني لظالم سأصرف وجهي حيث تبغى المكارم
متى يظفر الغادى إليك بحاجة ونصفك محبوب ونصفك نائم
ومثله للعتابي :

قد أتيناك للسلام مرارا غير من منا بذاك المزار
فاذا أنت في استنارك باليه ل على مثل حالنا بالنهار

الطلاق في القانون المدني الفرنسي

لحاضرة الاستاذ صالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

لا يقع الطلاق في القانون المدني الفرنسي إلا بناء على حكم بدعوى يرفعها أحد الزوجين ضد الآخر، وبناء على أسباب معينة حصرها هذا القانون في أربعة . وستسكلم على هذه الأسباب أولا ثم تتبع ذلك ببيان لإجراءات دعوى الطلاق .

أسباب الطلاق

هي أربعة :

السبب الأول : الزنا — المراد بالزنا هو الواقعة التي تحصل من أحد الزوجين مع شخص آخر خلاف الزوج أثناء قيام الزوجية . هذا هو الزنا الذي يعتبره القانون الفرنسي سببا موجبا للطلاق ، والذي يعاقب عليه أيضا قانون العقوبات الفرنسي (وكذا القانون المصري أخذا من القانون الفرنسي المذكور !!) . فطبقا لنصوص المادتين ٢٢٩ ، ٢٣٠ م ف — يجوز لأحد الزوجين طلب الطلاق من زوجه الزاني . ومعنى هذا أن طلب الطلاق (كما في جميع الأحوال الأخرى) قاصر على أحد الزوجين فقط دون أى شخص آخر . ومنشأ هذا تاريخي راجع إلى القانون القديم في مادة الحيلولة (Séparation de Corps) . ولكن يلاحظ أن المادة ٢٢٩ من القانون المذكور تشترط في زنا الزوج ليكون سببا لطلب الزوجة الطلاق منه أن يكون زناه مصحوبا بظروف خاصة خطيرة ، كاحتفاظ الزوج بشريكته في جريمة الزنا بمنزل الزوجية ، وهذه المحاباة موجودة أيضا في قانون العقوبات الفرنسي في المادتين ٣٣٧ ، ٣٣٩ ع ف . إذ تقرر أن عقوبة الزوجة الزانية تكون بالحبس ، بينما أن الزوج لا يعاقب إلا إذا احتفظ بشريكته في منزل الزوجية ، كما أنه لا يعاقبه إلا بالفرامة لا الحبس . ولكن جاء قانون سنة ١٨٨٤ معدلا للقانون المدني الفرنسي ومسويا بين الزوجين في طلب

الطلاق بمجرد حصول الزنا من غير اشتراط الشرط السابق . وهذا هو النص الحالى للمادة ٢٣٠ م ف . وهذا التعديل راجع إلى أن الزوجة تضار بزنا زوجها على أى حال كان هذا الزنا .

وبما يؤسف له أن قانون العقوبات الفرنسى لا زال محتفظا بالفرق والمحاباة السابقتين فى المعاملة .

السبب الثانى : العقوبة المقيدة للحرية التى تمس السمعة والشرف — قررت المادة ٢٣٢ م ف بأن أحد أسباب طلب الطلاق هو الحكم على أحد الزوجين بعقوبة نعتتها بكلمتين Afflictive et infamante والمراد بذلك هو العقوبة التى يحكم بها على ارتكاب الجرائم المقيدة للحرية كعقوبة الإعدام والأشغال الشاقة والنفى والإبعاد والاعتقال . فالعقوبات الثلاث الأولى هى عقوبات على الجرائم العادية De droit commun والآخرى عقوبات على الجرائم السياسية . ويلاحظ أنه يجب أن تكون العقوبة موصوفة بالوصفين afflictive (مقيدة للحرية) و infamante (ماسة بالسمعة والشرف) . وأما العقوبات غير المقيدة للحرية ويطلق عليها كلمة infamante كالنفي والتجريد من الحقوق المدنية والتى لا تكون عقوبات مكملة فإنها لا تكون سببا للطلاق . وعلى هذا لا تكون العقوبات التى لا تمس الشرف والسمعة سببا للطلاق . وكذلك أيضا العقوبات على جرائم الجنح كالحبس والغرامة وكذا العقوبات التأديبية لا تكون سببا للطلاق . ومع ذلك فإنه يمكن اعتبار هذه العقوبات الأخيرة نوعا من الاضرار كما سيأتى فى موضعه .

ولكى تكون العقوبة السابق بيانها موجبة للطلاق ، ينبغى تحقيق شرطين : أولا : يجب أن يكون الحكم قد أصبح نهائيا غير قابل للطعن فيه بأى وجه من أوجه الطعن ، كما أنه لم يحصل رد اعتبار أو عفو شامل على ارتكاب الجريمة (لأنهاما يحوان أثر الجريمة) أما سقوط العقوبة بمضى المدة أو حصول العفو الخاص أى غير الشامل فلا يحوان أثر الجريمة ، وإنما يحوان العقوبة فقط ، وعلى هذا فيصح طلب الطلاق .

ثانيا : يجب صدور الحكم أثناء قيام الزوجية .

السبب الثالث : Epcés sérices grave ومعنى هذا هو إيذاء أحد الزوجين للآخر على أى شكل كان . ولكن يشترط أن يكون الإيذاء خطيرا . وهذا هو ما أشارت إليه المادة ٢٣١ م ف . وتنتج عن هذا نتيجتان :

(١) لكي يكون الإيذاء سببا للطلاق ينبغي أن يتجاوز حد اللوم والعتاب والمواخظة العادية .

(٢) أن خطورة الإيذاء موكول أمر قهـديرها للقاضى .

السبب الرابع : الاضرار أو المضارة — (Injures graves) — هذا هو السبب الشائع فى التطبيق أمام المحاكم ، وهو يشمل قذف أحد الزوجين للآخر قولاً أو فعلاً أو كتابة ؛ إذ أن هذا القذف يخالف واجبات الزوجية ويجعل حياتها منغصة لا تطاق . ويلاحظ أنه ليس من اللازم أن يضرر أحد الزوجين فى قذفه للآخر كراهة أو سوء نية . ومن أنواع الضرر السكر المستمر العلنى أو اعتياد لعب الميسر ، إذ أن مثل هذا يوجب سقوط الاعتبار والاحترام ومهينا لكرامة الزوج الآخر . وقد اعتبر هذا النوع من الفعل قذفا مستوجبا للطلاق . ويمكن التوسع كثيرا فى معنى الإيذاء حتى يشمل أحوالا عديدة يترتب عليها ضرر من أحد الزوجين للآخر ، كالإصرار اختيارا على مخالفة واجبات الزوجية ، وكالهجر اختيارا ، وكرفض الزوج بلا مبرر قبول زوجته فى منزل الزوجية أو إصرار أحد الزوجين على عدم العودة إلى منزل الزوجية أو محاولة ارتكاب جريمة الزنا أو حتى ارتكاب أمر تافه من سوء السلوك أو رفض إشهار الدين بعد إشهاره مدينا أمام مأمور الأحوال المدنية . . . الخ .

ويلاحظ أن القضاء قد توسع فى هذا الموضوع كثيرا ، ولكن هذا التوسع لا يخلو من النقد ، إذ مثل هذا التوسع قد يفضى الى تحوير مارمى اليه القانون من أغراض والى الخروج عليه . ألا ترى أن القانون قد نص على أن أحد أسباب الطلاق (وهو السبب الثانى) هو العقوبة المشينة للشرف والسمعة ، والمقيدة للحرية التى سبق بيانها . وهذا يدل بطريق المفهوم على أن غيرها من العقوبات كعقوبة الجنح لا تكون سببا للطلاق ، فاذا اعتبرت هذه العقوبة نوعا من الضرر

يلحق الزوج الآخر كانت حينئذ سببا للطلاق ، وهذا لا تعطيه دلالة النص للمادة المذكورة بطريق التصريح ، وعلى هذا لا يعتبر هذا النوع من العقوبة سببا للطلاق . ولكن يرد على هذا بما يأتي :

أولا : أن السببين الأول والثاني ليس للقاضي فيهما حرية تقدير واختيار ، بل إنه بمجرد حصول أحدهما وطلب الحكم بالطلاق بعد إثبات السبب يجب عليه وجوباً حتمياً إصدار حكم الطلاق ، بينما أنه في السببين الثالث والرابع للقاضي فيهما حرية اختيار وتقدير ، لأن الإيذاء أو الضرر يختلف باختلاف الناس وأقدارهم ، فمنهم من يرى الحبس مثلاً لا يشفيه . وإنما قد يتوسل به أحد الزوجين إلى الحصول على الطلاق لأغراض خاصة أخرى .

ثانياً : لما لم يكن من المستطاع حصر جميع الوقائع التي يمكن اعتبارها سببا مفضيا للطلاق ، اضطر المشرع لأن يضع ضابطا معبرا عنه تعبيرا عاما مرنا يصلح لجميع الأحوال والأشخاص والزمان والمكان ، لأن حياة الزوجية تختلف على حسب مشارب الناس وأذواقهم وطبائعهم وأخلاقهم ونظرم اليها ، كما ذكرنا سابقا في السبب الأول . فمثلا : ألا ترى أن شخصا من المراكز العالية يغض النظر عن زوجته فلا يعيرها اهتماما ، وترى الزوجة في ذلك ازدراء وامتهانا لكرامتها نظرا لمركزها العالي ، أفلا يصح لها في مثل هذه الحال أن تطلب الطلاق ؟ ومع ذلك (كما قلنا سابقا) القاضي له في مثل هذه الحال سلطة تقدير واسعة . ويلاحظ بصفة عامة أن الأسباب الأربعة التي حددها القانون لطلب الطلاق هي وقائع لا بد من حصولها ووقوعها ، كما يشترط أن تكون هذه الحوادث والوقائع حصلت بطريق الاختيار . أما إذا وقعت عن غير اختيار كما إذا حصلت عن اضطراب عقلي فلا تعتبر سببا موجبا للطلاق . اللهم إلا إذا تحقق وترتب عليها ضرر مؤكد فلا مانع عندي أن تكون سببا للطلاق .

الطلاق بالتراضي : لما أعاد قانون سنة ١٨٨٤ نظام الطلاق وأسبابه لم ينص على ذكر الطلاق الذي يحصل برضا الزوجين . وهذا النوع ما زال باقيا في القانون البلجيكي . وإنه وإن سكت المشرع الفرنسي عن هذا النوع (والذي كان قصده من عدم النص عليه هو منع الطلاق لآتفه الأسباب فيتفق الزوجان على

إيقاعه وفي ذلك ضرر عظيم في نظره) فإنه رغم ذلك قد خوافت إرادته فلجأ الى الحيل القانونية . فيستطيع الزوجان الاتفاق على الطلاق ويقوم أحد الزوجين برفع دعوى الطلاق ، تنتحلا وقائع وأسبابا غير صحيحة ثم لا يحضر الزوج الآخر أمام المحكمة ليرد على هذه الوقائع ، وإذ ذاك يصدر الحكم غيابيا ، وبذا يتحصل الزوجان على حكم الطلاق بطريق التحايل على القانون . وقد يحضر محامى المدعى عليه ويسكت عن الرد على الوقائع المزعومة (وهذا ما يحصل كثيرا أمام المحاكم خصوصا محكمة السين بباريس) وحينئذ يصدر الحكم حضوريا . كما يصح أن يترافع محامى المدعى عليه ويثبت عدم صحة الوقائع المدعاة ثم يطلب طلبا فرعيا أثناء سير الدعوى بصدور حكم الطلاق له ضد المدعى ، إذ أن الوقائع التى ادعاها المدعى ثبتت عدم صحتها ، فكان هذا قذفا في حق المدعى عليه ، وهذا القذف هو ما نص عليه القانون في السبب الثالث . وبهذه الحيلة توصل الزوجان الى استصدار حكم بالطلاق .

وبهذه الحيل والطرق الملتوية يسهل كثيرا الحصول على الطلاق رغم إرادة المشرع ؛ ولذا قيل بأنه من الأجدر أن يقرر نظام الطلاق بالتراضى مادام الواقع يقضى بذلك ومنعا للناس من التحايل على القانون وعلى عدم احترامه ، ولكن يجب إخضاعه لنوع من الرقابة خشية الفوضى . وبذلك لا تتكشف الفوضى ، ويمتنع التحايل وتطمئن النفوس .

الأحوال التى يعتبر فيها طلب الطلاق كأن لم يكن : أسباب ذلك ثلاثة :

(١) ترك بلا مبرر المسكن الذى عينه لها القاضى لتقيم فيه أثناء سير دعوى الطلاق .

(٢) موت أحد الزوجين أثناء سير دعوى الطلاق .

(٣) حصول الصلح بين الزوجين . ولكن هذا الصلح لا يمنع أحد الزوجين من طلب جديد للطلاق إذا جدت وقائع جديدة أو كانت هناك وقائع مجهولة . وقد رأت محكمة النقض والإبرام الفرنسية أن الوقائع الجديدة تحيى ثانيا الوقائع القديمة التى حصل منها الصلح وتكون جميعها سببا للطلاق .

ابن خلدون

المصلح الاجتماعي

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

ابن خلدون شخصية عربية ممتازة ، وعالم نحرير ، أفنى عمره في الاطلاع على كتب التاريخ وأحوال الأمم ، بل فيلسوف كبير لم تكن قراءته للكتب لمجرد الإلمام بالشئ ، وإنما كانت قراءة من يعمل عقله في المشاكل والظروف التي مرت بها الأمم ، فيستخلص منها قواعد عامة متشابهة ، تسير عليها الشعوب والحكومات في تطورها .

قرأ فيلسوفنا العربي ، التاريخ ، وألم بدقائقه وخوافيه ، فهداه عقله الراجح وذهنه المتوقد إلى المجتمعات الانسانية تسير في أحوالها وتطورها ورقبها وفق قوانين ثابتة مطردة لا تقبل التخلف .

والعلامة ابن خلدون باكتشافه لهذه الحقيقة إنما يعد الواضع الاصيل لعلم الاجتماع ، ولا يقتصر عند هذا الحد بل يتعداه الى التحدث عن فروع العلم والإفاضة في جزئياته ، فسبق بذلك علماء الغرب أمثال مونتسكيو وأوجيست كونت ، أما لماذا لم يسطع اسمه بين جدران الجامعات التي درست هذا العلم فإنه يرجع إلى سوء حظه بل إلى سوء حظ الأمة العربية كلها . فلم يظهر بعده تلاميذ يسرون على نهجه ، بعكس علماء الغرب الذين ظهر بعدهم من التلاميذ من يزيد عليهم صفلا وتهديا .

ولكن التاريخ المنصف لم يترك ابن خلدون في زوايا النسيان ؛ فقد ظهر في القرن العشرين من تناول آثاره بالدرس والتحصيل ، وقارن بينها وبين آثار الغربيين فتبينت له الحقيقة الرائعة ، وهي سبق الفيلسوف العربي لعلماء الغرب في اكتشاف أساس علم الاجتماع بمدة تقرب من خمسة قرون .

وأهم ما في آثار ابن خلدون - بالنسبة لموضوعنا - مقدمته ، التي كانت وستظل منبعاً خصباً للدارسين في جميع فروع علم الاجتماع ، وهي وإن كانت كذلك فإن تناولها في هذه الفصول ليس من ناحية العلم بل من ناحية الفن ، الفن الإصلاحي الذي يقوم على دراسة أحوال المجتمع دراسة دقيقة ومعرفة ما يناسبه من وجوه الإصلاح ، وما يتمشى مع رغباته ، وما يتعارض معها .

وإن أول ما يطالع المتصفح لمقدمة ابن خلدون يراه يعقد فصلاً تحت عنوان « المقدمة في فضل علم التاريخ » يحارب فيه الخرافات التي كانت منتشرة في زمانه ويضعها تحت مجهر العقل المدقق الفاحص ويناقشها بالحجة المنطقية ، فإن كان « فن التاريخ » فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم ، والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياساتهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا ، فإن فناء كهذا « محتاج إلى مأخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وثبوت ، يفضيان بصاحبها إلى الحق وينسكبان به عن المزالات والمغالطات ، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول المادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الانساني ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم » .

بعد هذا يمرض لنا العلامة ابن خلدون نماذج وأمثلة من الخرافات التي قال بها المؤرخون أمثال المسعودي وغيره ، ويتناولها بالحجج العقلية ، فيبين له منها مقدار المبالغة في سردها وطريقة روايتها ، ولو أنهم « قاسوها بأشباهها وسبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار ، لما ضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط ، سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر » .

فقد ذكر المسعودي وكثير من المؤرخين أن جيوش بني إسرائيل بعد أن أحصاهم موسى عليه السلام ، وأجاز من يطبق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها ، بلغوا ستمائة ألف أو يزيدون ، وهذا العدد مبالغ فيه في رأي ابن خلدون لأن روايه ذهل عن تقدير مصر والشام ، ومقدار اتساعهما لمثل هذا العدد من

الجيوش . زد على ذلك أن ملك الفرس ودولتهم كان أعظم من ملك بنى اسرائيل بكثير بدليل غلب بختنصر لهم ، والتهامه بلادهم ، وتخريبه لبيت المقدس قاعدة سلطانهم ، مع ما نعرف من عدم اتساع نطاق ملك بنى اسرائيل الى غير الأردن وفلسطين من الشام ، وبلاد يثرب وخيبر من الحجاز . ويفيض ابن خلدون في ذكر الحجج التي لا يتسع لها نطاق مقالنا ، بل نكتفي بما ذكرنا .

وقصة أخرى يتناولها فيلسوفنا بالتمحيص وهي التي ذكرها المفسرون في تفسير سورة الفجر في قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد ، فيقولون إن إرم اسم مدينة ذات عماد ، فلقد كان لعاد بن عوص بن إرم ابنان هما شديد وشداد ، ملكا من بعده فهلك شديد ، فخلص الملك لشداد ودانت له ملوكهم ، وحدث أن سمع شداد وصف الجنة ، فقال لأبنين مثلها ، فبنى مدينة إرم في صحارى عدن في مدة ثلثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة ، فجاءت مدينة عظيمة قصورها من الذهب ، وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الشجر والأنهار العذبة ، ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته ، حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم . هذا ما ذكره الطبري والثعالبي والزنجشري وغيرهم من المفسرين . ويذكر ابن خلدون بعد ذلك ما نقلوه عن عبد الله بن قلابة من الصحابة أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها وحمل منها ما استطاع ، فلما بلغ خبره الى معاوية أحضره فقص عليه قصته ، فبعث معاوية الى كعب الأحبار يستفسره ، فقال كعب : هي إرم ذات العماد ، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب إبل له ، ثم التفت فأبصر ابن قلابة ، فقال هذا والله ذلك . هذه القصة وحواشيها ، وهي خرافة في رأى ابن خلدون . والذي حمل المفسرين على القول بذلك في رأيه ، هو ما اقتضته صناعة الإعراب في لفظة ذات العماد أنها صفة إرم وحلوا العماد على الأساطين ، فتعين أن يكون بناء ، وساعدهم على ذلك قراءة ابن الزبير عاد إرم على الإضافة من غير توين . والحقيقة هي أن العماد هي عماد الأخبية بل الخيام ، وإن أريد بها الأساطين ، فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم بما اشتهر من قوتهم ، لأنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها ،

وإن أضيفت كما في قراءة ابن الزبير فعلى إضانة الفصيلة الى القبيلة ، كما تقول : قریش كنانة والیاس مضر وربیعة نزار . ولا یرى ابن خلدون أية ضرورة الى هذا المحمل البعيد الذى تقصده أمثال هذه الحكایات الواهية التى ینزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة .

وقصة ثالثة هی قصة العباسة أخت الرشید وجعفر البرمکی وما ینقلونه من أن سبب نكبة الرشید للبرامكة هو اختلاط جعفر بالعباسة . ولابن خلدون فی هذه القصة دفاعان : دفاع عاطفی یقول فیہ « فأین یطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها ؟ أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقدنا من بیتهما ؟ أو کیف تلحم نسبها بجعفر بن یحیی وتدنس شرفها العربی بمولى من موالى العجم بملكة جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشرف قریش ، وغایتہ أن جذبت دولتهم بضبعه وضيع أبیہ ، واستخلصتهم ورققتهم إلى منازل الاشراف ، . ودفاع عقلی یرر فیہ غصبة الرشید على البرامكة لما كان من استبدادهم واحتجافهم أموال الجباية لدرجة أن كان الرشید یطلب الیسیر من المال فلا یصل إلیه ، فكانوا غالبین على أمره ومشاركین فی سلطانه ، ولم یسكن له معهم تصرف فی أمور ملكه ، ولما عظمت آثارهم وبعد صیتهم عمروا خطط الدولة ومراتبها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم « واحتازوها عن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابه وسیف وقلم ، زد على ذلك أن الناس ضجوا من هذه الحال وتهامسوا بها فی مجالسهم الخاصة وفى مجالس الرشید : فلقد أراد الشاعر أن یحرك حفیظته قدس على المغنین البیتین التالین :

لیت هنداً أنجزت ما تعد وشفقت أنفسنا عما نجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا یستبد
فلما سمعها الرشید قال : « إی والله إنی عاجز » ، هذه هی الأسباب الحقیقیة فی نكبة البرامكة كما یقول العلامة ابن خلدون : استبدادهم إلى درجة أثارت الحفیظة فی قلوب القوم ، وامتدادها إلى سمع الرشید .

هذه بعض الامثلة التى تدل على محاربة فیلسوف المغرب للخرافة ، ونظره إلى حوادث التاریخ نظرة عقلیة فاحصة ، وعدم مبالاته لأحد فی قول الحق . ومحاربة ابن خلدون للخرافة تعد فصلاً من الفصول التى سنتابع نشرها بإذن الله ، بعنوان المقال ، فإلى اللقاء فی العدد التالى ٢

ابن رواحة

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجلان

المدرس بالأزهر الشريف

صلى رسول الله الظهر ، وجلس في أصحابه يتحدث اليهم الى أن قال :
زيد بن حارثة أمير الناس ، فإن قتل لجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فعبد الله
ابن رواحة ، فإن أصيب عبد الله ، فليرتض المسلمون بينهم رجلا فيجعلوه عليهم .
وكان ذلك عقب اعتداء (شرحبيل بن عمرو الغساني) على حامل كتاب
رسول الله الى صاحب (بصرى) إذ قتله ونكل به .

ولما نذب النبي المسلمين لبوا وعسكروا ، وهناك عقد الرسول اللواء ودفعه
الى قائد الجند في غزوة (مؤتة) وهي قرية من أعمال (البلقاء) قرب دمشق الشام .
وسار جيش المسلمين من المدينة بعد أن ودعه النبي حتى نزل (معان) من
قرى الشام . وعلم المسلمون أن (هرقل) قد نزل (مات) من البلقاء في مائة ألف
من جنود الروم المحاربين .

فكر المسلمون وتهيؤوا كثرة جيش الأعداء ، وأقاموا ليلتين ، وأرادوا أن
يكتبوا الى رسول الله ليردهم أو يزيدهم رجالا ...

في ذلك الموقف الرهيب ، التففت عبد الله بن رواحة ، وذكر وصاة الرسول ،
وحضرته كلماته يوم ودعه وودع الأمراء على الجيش ، وأدار في نفسه حديثا سمعه
من الرسول في لحظات (ثنية الوداع) ولم يلبث أن رفع صوته بشيء من حديث
رسول الله اغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ... ،

ويعضى عبد الله بن رواحة يستعرض وصاة النبي جميعها ، ويطير به خياله الشاعرى إلى موقف جثله الإيمان ، ورفعت عليه القداسة ، ونفحته طيوب الجنة التي وعده الله بها الشهداء من المكافئين في سبيل الله والداعين إلى نصرة دينه .
وخيل إلى عبد الله أنه بين يدي رسول الله في المدينة .

ونسى مكانه بين الجند في ربوع الشام ، وكأنه يسمع جواب الرسول حين طلب ابن رواحة منه أن يأمره بشيء يحفظه ويعيه ويعمل به فقال الرسول : يا عبد الله ! إنك قادم غدا على بلد السجود فيه قليل ، فأكثر السجود . ولما قال ابن رواحة : زدنى يا رسول الله ، قال النبي : اذكر الله فإنه عون لك على ما تطلب ... وسرعان ما هتفت به دواعي القوة وألمته ثورة الشجاع : إنها كلمات النبي وإنه عون الله . اهتز القائد الثالث ، والمؤمر على الجنود بعد (زيد وجعفر) وانتفض في الجموع ونادى بأعلى صوته ، وكأنه يرسل قصيدة من عاطفة مشبوبة ونفس مطمئنة :

نادى بأعلى صوته : يا معشر الجند ، والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ولا بكثرة سلاح ، ولا بكثرة خيول ... إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به .. انطلقوا انطلقوا والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان ، ويوم أحد فرس واحد . فإنما هي إحدى الحسينين : إما ظهور عليهم فذلك ما وعدنا الله ووعد نبينا ، وليس لوعده خلف ، وإما الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان ...

ولم يطل به القول إذ اندفع المسلمون وساروا قدماً إلى (مؤتة) وواجهوا المشركين ، ولم يبالوا جموعهم ولا عددهم ولا ذهبتهم ، والتقى الجيشان ، وقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم ، فأخذ اللواء (زيد بن حارثة) حتى قتل ، ثم أخذ اللواء جعفر ، فنزل عن فرسه وعرقبها - أى قطع عرقوبها وهو الوتر الذي خلف كعبها من مفصل القدم والساق وتلك عادة المحاربين إذا حمى الوطيس - ثم قاتل حتى قتل . ثم أخذ اللواء (عبد الله بن رواحة) ودارت رحى الحرب الزبون
إنه (عبد الله) الأنصارى الخزرجى ، أحد النقباء الذين تقدموا بين يدي

رسول الله في (بيعة العقبة) واشترك مع المدنيين الذين عاهدوا الله ورسوله على حرب الأحمر والأسود في رفع شأن الدين، ولم يغادر خبأهم ظل الجنة من يوم أن وعدهم الرسول وقت المبايعة على الجهاد .

ومن للجهاد غير عبد الله، صاحب السيف الباتر، واللسان الشاعر، ولقد باع نفسه لله ولرسوله وللدفاع عن المسلمين، وشهد (بدراً) وغزاً في (أحد)، وحضر غزوات (الحنديق) و (الحديبية) و (خيبر)، وكان مطافه الأخير الاستشهاد في (مؤتة) .

إنه الجندي الذي أخلص نفسه لدين الله، وتآدب على يدى رسول الله، حتى حظى بمنزلة الأثير بين الصحابة، وناله الرضا الراضى من النبي
أتى مرة إلى الرسول وهو يخطب، وقبل أن يصل إلى جموع الصحابة تستمع في المسجد دوى في أذنه قول النبي : اجلسوا . . . وكان عبد الله لما يزل خارج المسجد، يجلس في مكانه لا يتحرك، وسمع من بعيد حتى فرغ النبي من خطبته .
ولما أخبر الرسول بذلك قال داعياً لعبد الله : « زادك الله يا عبد الله حرصاً على طواعة الله وطواعة رسوله » .

إذا كان ابن رواحة ثالث ثلاثة من حملة الألوية يوم (مؤتة) فهو ثالث ثلاثة من الشعراء : هم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وابن رواحة، وهم من هم بلاء في الذود عن رسول الله ورد السنة الكفار؛ وشعره أقسى ما لقي المشركون، لأنه الميسم الذي أذل جبين المعاندين للدعوة بعد أن هدأت نغمة الجاهلية، وأطمانت للإسلام .

إنه الشاعر الذي صور شعره بأس المحارب، وسماحة الصديق، ودماثة الرفيق .
ولقد عاش عبد الله مثلاً شروداً في لين الجانب، وحسن المعاشرة، وموضع حب الأصدقاء .

قال أبو الدرداء : أعوذ بالله أن يأتي على يوم لا أذكر فيه ابن رواحة؛ كان إذا لقيني مقبلاً ضرب على صدرى، وإذا لقيني مدبراً ضرب بين كتفي؛ ثم يقول ملاطفاً : يا عويمر اجلس فلنؤمن ساعة، فنجلس فنذكر الله ماشاء، ثم يقول : يا عويمر هذه مجالس الإيمان . . .

وكذلك كان الرسول يحبه ويدعو له ... أنشد يوما قوله :

إني تفرست فيك الخير أعرفه والله يعلم أن ما خاتني البصر
أنت النبي ومن يحرم شفاعته يوم الحساب فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن في المرسلين ونصرا كالذي نصروا
فقال له الرسول : وأنت فثبتك الله يا ابن رواحة ، ! .

ولقد ثبته الله في (غزوة مؤتة) واستهان بالحرب لايياليها ، وورد الموت
كأنه يساق إلى لقاء حبيب .

وكان يتشوق وجه الاستشهاد . وفي ليلة ساجية قبل أن يصل إلى المعركة جعل
يهرج ويخاطب راحلته التي ستبلغه ، ويتمنى أن ترجع إلى أهله دونه ، فقال :

إذا أدنيتني وحملت رحلي مسيرة أربع بعد (الحساء)
فشأنك فانعمي وخلاك ذم ولا أرجع إلى أهلي ورأى
وجاء المؤمنون وغادروني بأرض الشام مشهور الثواء
وردك كل ذي نسب قريب إلى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالي طلع ولا نخل أسافلها رواء

إنه لا يحب إلا الاستشهاد ، ولا يبغى الرجوع إلى نخيله في المدينة حيث يلقي
أهله وعشيرته لأنه يريد الجنة .

حتى إذا أشفق عليه أحد رفاقه وهو (زيد بن أرقم) ، وكان في رعاية عبدالله
وتوقع مصيره فبكى . فقال له : وما عليك إذا رزقني الله الشهادة ورجعت أنت ؟
ولا غرابة فانه ابن رواحة الذي بكى يوم ودعه النبي وودع أمراء الحرب
فقيل له : ما يبكيك وأنت أنشطنا للحرب ؟ فقال : والله ما بي حب الدنيا ولا
صباة إليها ، ولكنني سمعت رسول الله يقرأ : « وإن منكم إلا واردها كان على
ربك حتما مقضيا » . ولست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود .

ثم أنشد شعرا منه :

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
أو طعنة ييمدى حران مجزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقولوا إذا مروا على جدتي يا أرشد الله من غاز وقد رشدنا

ولم يزل يحمل على نفسه ويهزج في المعركة بعد قتل جعفر وزيد :

يا نفس إلا تقبلي تموتي
هذي حياض الموات قد صليت
وما تمنيت فقد لقيت
إن تقبلي فعلمما هديت
وإن تأخرت فقد شقيت

ثم التفت إلى نفسه وسيفه أثناء المعركة وقال :

يا نفس إلى أي شيء تتوقين ؟ إلى فلانة ؟ يعني زوجته ، فهي طالق ، وإلى
فلان وفلان ؟ يعني غلاميه ، فهما حران ، وإلى (معجب) يعني حائطا له أي بستانا
فيه نخل غزير ؛ فهو لرسول الله . . ثم قال :

يا نفس

مالك تكرهين الجنة
أقسم بالله لتزله
طائفة أو لتكرهه
فطالما قد كنت مطمئنه

ونزل إلى ميدان القتال وقاتل حتى طعن ، فاستقبل الدم بيده فذلك به وجهه
ثم صرع بين الصفيين ، فجعل يقول : يا معشر المسلمين ذبوا عن لحم أخيكم . وراح
المسلمون يحملون على الأعداء فلم يزالوا كذلك حتى مات مكانه .

وبذلك استشهد عبد الله بن رواحة الشاعر الفارس ، والذي عاش طول حياته
يعشق الجنة ، فيكون أول خارج إلى الغزو وآخر قافل منه

فسلام عليه في جنات النعيم ، وسلام عليه في الشهداء الى يوم الدين ؟

أسرار الفصل والوصل

في المفردات والجمال

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد محمد سلو
إجازة التدريس من كلية اللغة العربية

هذه دراسة جديدة لأحكام المفردات والجمال في البلاغة العربية من حيث عطف بعضها على بعض أو تركه، وهي تقوم على أسس دقيقة، وأحكام واضحة، ولا يضيرها أنها تخالف آراء القدماء ما دام طابعها التفكير السليم، والسلامة من الخطأ والتناقض، والتجديد الشامل في دراسة هذا الموضوع البلاغي الدقيق.

أساس هذا البحث

أساس بحثي في هذا الموضوع يرجع إلى قاعدة منطقية سليمة متبعة في جميع الفنون، وهي « إن الأشياء المشتركة في مظهر من المظاهر، مندرجة تحت وصف عام هو السبب في اتحاد ذلك المظهر ».

وباتباعنا هذه القاعدة الواضحة أمكننا أن نبين أن الوصل سببه واحد، والفصل سببه واحد؛ كذلك أمكننا أن نبين السبب الحقيقي لحذف الواو وذكرها، وأن ذلك ليس راجعاً إلى الانشائية والخبرية كما ذكر القدماء، بل أصبح الموضوع كله يتلخص في كلمة واضحة دقيقة، وهي « كل متجاورين في المفردات والجمال لا بد وأن يكون بينهما صلة، فإذا كانت هذه الصلة واحدة غير متكررة حذفنا حرف العطف، وسمى ذلك: اتحاداً؛ وإذا تكررت عطفنا وسمى ذلك: تكراراً.

وبهذه الطريقة الجديدة أمكننا :

أولاً : تيسير هذا الموضوع تيسيراً تاماً بإفراغه في قاعدتين فقط ، بدلاً من هذه الكثرة المتشعبة .

ثانياً : تجنب التناقض كما كان في القواعد السابقة .

ثالثاً : إرجاع الأحكام إلى أسبابها الحقيقية بدلاً من أسباب وهمية ظهر تناقضها وعدم شمولها .

وقد عرضت بإيجاز بحثي هذا ، وهو على إيجازه واضح في عرض أفكاره ، ليكون هذا أدعى إلى تقبل الناقلين لنقده .

نتائج هذا البحث

رأيت أن أذكر هذه النتائج الخطيرة أول البحث ليلاحظ الناقد أثناء قراءته تحققها فيه .

وما هي النتائج :  مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم راسدي

أولاً : اتحاد المبني يدل على اتحاد المعنى :

قد جمعت بين متفرقات اتحدت ظواهرها ، وبينت أن اتحاد اللفظ فيها إنما ينشأ من اتحاد الملاحظة ؛ فبينت أن حذف العاطف بين أي جزئين ، سواء كانا مفردين أو جملتين أو مفرداً وجملة ، إنما ينشأ من اتحاد الصلة ، وأن ذكر الواو إنما ينشأ من تكرارها ؛ فكل ما سموه كمال الاتصال وكال الانقطاع وشبههما والتوسط بين السكاليين مع عدم التشريك في الإعراب أو الحكم ، كل ذلك ما هو إلا شيء واحد وهو « الاتحاد » . وثلاثة أنواع الوصل ما هي إلا شيء واحد وهو « التكرار » . وبينت أن واو المفعول معه كواو العطف ، تدل على تكرار الصلة ، وأن الجملة الحالية — كما يسمونها — المقترنة بالواو ليست الحالية وإنما هي معية ، وأن الحال مفرداً كان أو جملة لا يقترن بالواو ، وأن المصاحب مفرداً كان أو جملة يقترن بها .

ثانياً : المساواة بين المفردات والجمل في العلاقات :

بينت أنه لا فرق بين المفردات والجمل في العلاقات ، وأن الجمل المجتمعة تكون جملة كبرى ما هي إلا كالمفردات المجتمعة لتكون جملة ، وأن الكلام يتكون من طوائف بعضها مركب من بعض ليصبح الجميع وحدة مجتمع قائمة متساندة .

ثالثاً : كل متجاورين لا بد وأن يكون بينهما علاقة ، هذه العلاقة تؤثر

في العطف :

كانوا يجمعون بين الجملتين في آية واحدة من آيات الكتاب العزيز : كال الانقطاع . ولما أحسوا بشطط هذه التسمية قالوا : ليس المراد كال الانقطاع الحقيقي فلا بد من مناسبة ، ولكن ما هي هذه المناسبة ، وهل تؤثر في العطف ، وهل ترك اللغة العربية الدلالة على العلاقة في مجموعة واحدة ؟ .

لم يبينوا شيئاً من ذلك ، فبينت هذه المناسبة ، وبينت أنها لا بد وأن تؤثر في العطف وعدمه في كل أجزاء الموضوع صغرت أو كبرت ، وبينت أن بعض ماسمونه - كال الانقطاع - هو في الحقيقة كال اتصال ، وأن كال الانقطاع لا يكون إلا بين موضوعين لا علاقة بينهما ، لا بين جملتين في موضوع واحد .

رابعا : المعول عليه في الربط هو الصلة ، لا الانشائية ولا الخبرية ، ولا اتفاق

المتجاورين مدلولاً أو تخالفهما :

بينت أن المعول عليه هو الصلة ، فإذا كانت واحدة ، سردت الأجزاء بعضها وراء بعض بدون رابط تحت اسم : الاتحاد ؛ وإذا تكررت وأردت مجرد الجمع ذكرت الواو تحت اسم : التكرار . ولا يهمنا بعد ذلك اتحدت خبراً وإنشاء أم اختلفت ، ولا يهمنا كذلك اتفقت المتجاورات مدلولاً أم اختلفت ، كما هو مبين في البحث .

مدرسة النقد الادبي

لفضيلة الاستاذ الشيخ عبد السلام أبو النجا سرحان
المدرس بكلية اللغة العربية

في العصر الأموي :

ومع أن القرآن الكريم كان معينا فاض بالخير الكثير على اللغة العربية وآدابها ، وكوثرأ عذبانهل منه المسلمون فظهر على أسلأت ألسنتهم أسلوبا رائقا ، وعبارات موفقة ، وشعرا كله سلاسة وفصاحة وبيان - لم يكن عصر الخلفاء الراشدين كافيا لظهور أثره الأدبي في الشعر والنثر ، وإنما وضع ذلك في العصر الأموي ، وبرزت آثاره في خلاله .

الاتحاد والتكرار

الاتحاد : أن تكون الصلة التي في المتجاورين واحدة ، مثل أعجبنى محمد عليه .
فهنا اتحاد بين محمد وعله ؛ وحينئذ يؤتى بهما بدون حرف عطف نظرا لاتحادهما ، لأن المعنى أعجبنى محمد ، والمعجب منه عله ، فليس معنا إلا إعجاب واحد صدر مرة واحدة : فالإعجاب القائم بمحمد هو بعينه الإعجاب القائم بالعلم ، ولذلك جىء بمحمد ، وعله بدون حرف عطف بينهما نظرا لاتحاد الصلة وهي الإعجاب .

التكرار : أن تكون الصلة التي في المتجاورين متكررة ، وإن كانت من جنس واحد ولم يقصد غير مجرد الجمع بين المتجاورين تحت ذلك الجنس ، مثل أعجبنى محمد وعلى ؛ فهنا تكرار بين محمد وعلى ، وحينئذ يؤتى بالواو للدلالة على ذلك .
والصلة : هي ما في الألفاظ المتجاورة من معنى هو السبب في اجتماع هذه المتجاورات ، كالحديث في الفعل وفاعله ، وكالاخبار في الألفاظ الواقعة خبرا ، كما سيتضح في كل ما يأتي من الأمثلة :

والآن بعد أن ذكرت التعريفين ووضعتما بمثالين يجدر أن أنتقل إلى ذكر جميع أنواع الأمثلة في المفردات والجل ليتضح اندراجها تحت هذين التعريفين ؟

وقد اتسعت أرجاء الدولة في هذا العصر ، ودخل الاعاجم في دين الله أفواجا ، وبدأ التمازج والاختلاط يؤتى أكله ، فتزوج العرب بالأعجميات ، وحدث العكس لكن بقلّة ، وودع الأعجم مجدهم السياسي واستعاضوا عنه بالمجد العلمي ، فظهر الموالي في العلوم والمعارف ، واستولوا على مقاليد الحياة الثقافية ، واستتبع ذلك كثرة اللحن في لغة التخاطب ، وبدأت الحاجة أكثر الى صنع على بن أبي طالب وأبي الأسود الدؤلي ، بعد أن لانت السنة بعض الفصحاء المشهورين كخالد بن عبد الله القسري الخطيب اللعانة العظيم [ص ١٣٣ > ١ رغبة الآمل] بل لقد خشي عبد الملك ابن مروان على نفسه من اللحن وقال كلمته المشهورة - حين شد أسنانه بالذهب - « لولا المنابر والنساء ما باليت متى سقطت » [ص ١٦ > ١ البيان والتبيين] .

دعت هذه الحان الى اتساع مدى النقد ، وإلى الجد في صد سيل العجمة الجارف ، والمحافظة على العربية وآدابها ، وإعطائها السلطان المطلق على الحياة العامة والخاصة ؛ وقد وجدت لغة الضاد في أكناف الأمويين ورعاية ملوكهم وأمراءهم أكبر عصب دفع عنها عادية الحوادث ، ولقيت في رحابهم أعظم سند رد عنها غوائل الزمن ، إذ تعصبوا لسكل ما هو عربي ، وأشعلوا نار المنافسة بين الشعراء ، وأطلقوا العنان للعصبيات القبلية فأعادوها جذعة ، وأيقظوا الفتنة بين القبائل ، وفتحت قصور الخلفاء ومن دونهم للبرزين من الشعراء والأدباء والعلماء ، وأجيزوا جوائز لم يحلموا بها قبل ذلك .

وهكذا اشتعل أوار الحركة الأدبية ، واشتدت المنافسة بين الشعراء ، وفتح باب الهجاء على مصراعيه بعد أن أوصده عمر بن الخطاب ، وأوقد الخلفاء أنفسهم جذوة الخصومات ، وظهر التفاخر بالأحساب والأنساب .

وقد تبع ذلك ازدهار مدرسة النقد في هذا العهد ، وكثرة تلاميذها كثرة فائقة ، وانتشار فصولها في كل مكان ، وكانت مجالس الخلفاء والأمراء أكثر هذه الفصول نشاطا وأعظمها اتساعا ، وانتشر النقد حتى بين العوام ، وحذقته الجوارى والصبيان ، وكان عبد الملك بن مروان وأبناؤه أظهر عمدة هذه المدرسة ، كما كان الولاة والأعيان من أكبر أساتذتها ، وشهدت المساجد كثيرا من حلقات النقد واجتماعات الأدباء ، وكثرت المناقضات بين الشعراء ، وأهملها مناقضات الفرزدق وجريز ، وعاد ذلك على الأدب بالخير الكثير .

في العصر العباسي :

ولقد كان العصر الأموي بمثابة الدور المتوسط لمدرسة النقد الأدبي، كما كان صدر الإسلام بدء الفؤ، والعصر الجاهلي بدء التكوين .

أما العصر العباسي فكان عصر التخصص والتوسع والتعمق والانتشار السريع؛ ففيه أثمرت شجرة الدراسة النقدية وآتت أكلها طيبا، وازدانت الحياة الأدبية بالثمار الياقة والقطوف الدانية، وفيه ظهر رجال النقد وصار لهم سلطان ودولة، واستطاعوا أن يؤثروا في اتجاه الأدب وأن يقفوا سدا منيعاً أمام الثورة الجارحة على أساليب العرب الشعرية، فهاهم الشعراء واطمان إليهم الخلفاء، ونزل الجميع عند نقداهم إلا بعض الخلفاء والمجان .

وقد خطوا الخطوة الأخيرة في سبيل غايتهم، فدونوا قانون البيان العربي، ووضعوا الرسوم والحدود أمام الشعراء ليقفوا عندها ولا يتخطوها بحال .

لهذا مرع الناس نحو مدرسة النقد الأدبي يرشقون من رحيقها سلسيل البيان العربي، وسلافة الروح الأدبي، ويتذوقون أفلاويق البلاغة، ويكرعون من حياض الفصاحة، ومن شمس به طبعه فلم ينهل من موردها العذب ونميرها الصافي فلا ثقة بأدبه ولا اعتداد بمذهبه .

ومن الواضح أن الحاجة الشديدة هي التي أكبرت من شأن هذه المدرسة، فقد اشتد الاشتباك بين العرب والعجم، وامتزجت أيما امتزاج ثقافات الأمم المختلفة التي خفق عليها لواء الإسلام أو خضعت لسلطان المسلمين، ونشأ من كل هذا آثار سيئة واتجاهات هدامة للإسلوب العربي، فأصبحت لغة التخاطب مزيجاً من العربية واللغات الأخرى، وشاع الجهل باللغة فيما بين الخاصة، حتى إن الخليفة المعتصم جاءه كتاب من أحد عماله وقرأه عليه وزيره أحمد بن شاذي، وكان فيه لفظ « الكلاء » فسأله المعتصم : ما الكلاء ؟ فقال الوزير : لا أعلم ، فقال المعتصم متحسراً : « خليفة أمي ووزير عامي ١٩ إنا لله وإنا إليه راجعون ! » [ص ٢١٢ ج ٣ زهر الآداب] ولم يشف غلته إلا محمد بن عبد الملك الزيات الكاتب، وكانت هذه الحادثة سبباً في عزل ابن عمار وتولية ابن الزيات الوزارة [ص ٧١ ج ٢ وفيات الأعيان] .

وتدل الدراسة الأدبية على أن حركة النقد كانت عنيفة جداً ، وأن الجدل كان شديداً بين علماء اللغة من جهة ، والشعراء المأخوذين بمظاهر الحضارة والثقافات الجديدة من جهة أخرى .

لهذا تعددت مجالس النقد ، وكثرت مجامع الأدب ، وقام التنافس بين العلماء والأدباء والشعراء ، وظهرت مذاهب مختلفة في النقد الأدبي ، وأدى الأمر في النهاية إلى تدوين قواعد النقد ، وأصبح علماء ذا أصول وقواعد ، وتمخضت هذه الحركة عن مولود جديد تطور على الأيام حتى استقر في علوم البلاغة على يد الإمام عبد القاهر الجرجاني ورجال عصره .

ومن الصعب على الباحث أن يحصر عمدة المدرسة في هذا العصر أو يعدد أسانذتها وفصولها ، فقد كانت الدولة كلها ميداناً للكفاح العلى والنقد الأدبي ، وكان على رأس عمدائها أوائل الخلفاء العباسيين ، خصوصاً المنصور والمهدى والرشيد والمأمون الذين غذوها بعلمهم وعضدوها بمالهم وخبرتهم الواسعة واطلاعهم على ألوان الأدب وأفانيه ، وما كان لهم من دقة الإحساس وسلامة الذوق .

وقد أنتجت مدرسة النقد الأدبي - في هذا العصر - إنتاجاً ضخماً ، وتركت تراثاً عظيماً ، وخرجت كثيراً من أعلام العلم والأدب عرباً وأعاجم ، وقامت على أيديهم نهضة فذة في التاريخ الأدبي ساعدت ازدهارها عقيدتهم الراسخة بأنهم إنما يخدمون بذلك دستور دينهم الخالد : كتاب الله وسنة النبي العربي الذي بعثه الله في الأميين رسولا ً .

تنبيه على خطأ مطبعي

وقع في العدد قبل هذا في ص ٥٢٦ السطر ٤ في مقال « ابن مضاء القرطبي » : « وبعضهم يرى أنها لا عمد لها لا ترى » وصواب العبارة : « وبعضهم يرى أنها لها عمد لا ترى » .

تقاريط

موسى عليه السلام

هذا كتاب يقع في نحو مائة وثمانين صفحة بالقطع المتوسط وضعه فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد مطاوع المدرس بالأزهر في تاريخ موسى عليه السلام ، وقد أهداه إلى النبي صلى الله عليه وسلم صنوه في الجهاد والبلاء والعزم والتضحية ، وقد حدا فضيلته إلى وضع هذا الكتاب حفول حياة كليم الله بالحوادث فقال : « عنّ لي أن أرجع بالبصرة إلى فترة نأت عنا بعيد ، وأشرقت فيها شمس كليم الله موسى عليه السلام ، ذى العزم والبطش العتيد ، فبددت طغيان فرعون وملئه ، وحفلت بالحوادث الجسام بين موسى وقومه ، وتوالت فيها آيات الله ظاهرة جليلة ، وازدهرت فيها معجزات موسى عليه السلام مفحمة مرضية ؛ فهفت نفسى إلى نظم عقد حياته عليه السلام حلقة حلقة ، وإيضاح الحوادث في عهده حادثة حادثة . »

وقد وفي فضيلته بما وعد ، فنشكر له هديته ، ونثنى على عنايته بطبع كتابه طبعة راقية .

المحفوظات الأزهرية

وضع فضيلة الأستاذ الأملى الشيخ أحمد الشرباصى المدرس بالأزهر كتابا تحت هذا الاسم ذكر فيه أن درس المحفوظات درس ضائع في الأزهر الشريف والمعاهد الدينية ، وقد هاله هذا التضييع ، فأراد أن يعرف سره فرأى من أكبر أسبابه أن قطع المحفوظات تعاد وتكرر في مختلف الفصول حتى ملها الطلاب ، وسنة الحياة التجدد . ومن العجيب أن البرنامج الدراسى ينص على ذلك فيقول : يراعى أن تجدد المحفوظات في كل عام بقدر الامكان ؛ لذلك أراد فضيلته أن يضع للطلاب مجموعة تضم قطعاً مختارة من النظم والشعر تجمع بين القديم والجديد من الأدب ؛ وذيل كل واحدة منها بالتعريف بصاحبها ، وشرح مفرداتها وأبياتها بإيجاز ، تاركا للدرس ما يناسب المقام من التفصيل والتحليل والنقد .

وقد اطلعنا على ما أتى به من القطع الثرية والشعرية فوجدناها من أحسن ما يختار للناطقة من الأزهرين وغيرهم . فنثنى على عنايته ، ونرجو له زيادة من التوفيق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سر إخلاص المسلم لدينه - منافاة الشيوعية والاشتراكية
لمبادئ الاسلام

أسئلة

موجهة إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
من الصحن الأمريكي ١.١. دوروينيان

والاجوبة عليها

لقد تأثرت تأثراً عميقاً بما لا يحصى من تحميس المصري العادي لدينه ،
وحرصه على أداء صلاته كل يوم في حينها : الأمر الذي لا يفعله إلا قليل من
المسيحيين : وبذلك أود أن تسمحوا مشكورين بالإجابة على الأسئلة الآتية :

س ١ - ما الذي يدفع المسلم إلى الإخلاص لدينه على هذه الصورة :
هل هو دافع غريزي شخصي أو دافع الدين ؟ هل السر في ذلك هو التعليم الأولي
الذي يتلقاه المسلم سواء كان دينياً أو غيره ، أم تأثير الوالدين في النشء ؟
وبالجملة ما هي العوامل في هذا الشعور ، وما أهمها في رأيكم ؟

ج ١ - الإسلام دين الفطرة ، فهو دين طبيعي ينفذ إلى النفوس الفطرية من
غير مشقة ولا إجهاد فكري : وذلك لأنه دين يدعو أصحاب العقول إلى أعمال
فكرتهم في حقائقه ، ويتسع إلى المناقشات العقلية والمنطقية ، لا يتوارى عنها ،
ولا يستتر دونها بستر شكلي . ومن أجل ذلك ترى المصري العادي يتلقاه عن
رضا واقتناع ، ويؤمن به إيماناً راسخاً كأنه ضرورة من ضرورات حياته ، ووسيلة
متفردة في إسماعه . وقد يساعد على ذلك عوامل كثيرة ، منها ما يرجع إلى التربية

والتعليم تحت تأثير البيئة ولون الحياة التي يحياها المصري العادي ؛ ومنها ما يرجع الى الاستعدادات الموروثة والدوافع الشخصية الداخلية ؛ ومنها ما أشرت اليه في اختصار من أن الاسلام دين يعتقد ، لا دين يعلى إمامه . وسأفرد فيما يلي لكل حالة من الحالات التي ذكرتها كلمة يسيرة تزيد في إيضاح ذلك ، وتكشف عن حقيقته .

(١) الدين الإسلامي دين ذو قواعد سهلة واضحة لا تعقيد فيها ولا التواء . فالعبادات الدينية فيه عبادات يقوم بها المسلم لربه في أى مكان ، يسرّ في ذلك أو يعان . والله سبحانه وتعالى طالب العباد في عبادته أن يقف بين يديه منه إليه من غير واسطة ، وجعل مقام ذلك العبد إن كان تقيا في عبادته مخلصا لله فيها أكرم مقام وأعز موضع ، فقال تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، لا فرق في ذلك بين أعجمي أو عربي ، شرقي أو غربي . فكرم المرء عند الله بعمله يقرب منه سبحانه به ، وبعده عن الله بعمله إن كان شرا ، يخرج به عن رضاه ، ويستحق بشروه غضب الله في الدنيا ، وعقابه بالآخرة .

لكل ذلك ترى المسلم حريصا أن يكون قريبا من ربه كريم الموضع عنده ، وما أخف الوسيلة إلى ذلك وأهونها على النفس ! فقد يسر الله على عباده هذه التكاليف ، وما حملهم شيئا فوق طاقتهم ولا أرهقهم ، بل راعى سبحانه وتعالى الرأفة بعباده ، فكان رفيقا بهم في تكاليفه ، مترخصا لهم في حالاتهم التي تعرض من شدة أو عناء ، فقال تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، حتى لقد دعا سبحانه وتعالى كثيرا ممن أسرفوا على أنفسهم أن يعودوا إلى رضاه ، وهو غافر لهم الخوبة ، قابل منهم التوبة ، فقال عز من قائل « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم . وأنبيوا إلى ربكم وأسلوا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون » ، وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم في الدين من حرج » .

(٢) إن المتتبع لطبائع المصريين والباحث في دوافعهم النفسية واستعداداتهم

الموروثة من أجيال طويلة مضت ، يقرر أن لها أكبر الأثر في الإقبال على العبادات ، والقرب من الله ، والإخلاص في دعائه سبحانه وتعالى ، وخصوصاً حينما تحمل بهم الشدائد ، أو تحزبهم الكروب ؛ فما أسرعهم حين يتوجهون إلى الله سبحانه وتعالى ضارعين إليه أن يفك أسرهم ، ويفرج كربهم ، يخضعون في ذلك إلى قوله تعالى : « وإذا سألك عبادى عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » ، وقوله تعالى : « هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين » .

(٣) أما التعليم والتربية فإني أعتقد اعتقاداً قوياً في أثرهما في ذلك الإخلاص القوى ، والتفاني في الطاعة لله سبحانه وتعالى ؛ وذلك لأن التعليم الدينى في مصر كان هو السائد في القرى والمدن ، فقد انقضت حقبة طويلة والتعليم في المكاتب والمدارس أساسه حفظ القرآن الكريم وترتيبه ، وما كان يتعلم بجانبه من الكتابة والقراءة لم يكن إلا وسيلة لقراءة كتاب الله واستظهاره ، وحين تدرج التعليم في مصر حتى اشتمل التعليم المدنى في مراحله الابتدائية والثانوية والعالية ، كان غذاء هذه المدارس الجديدة المتخرجين في المكاتب التى قلت إن التعليم فيها يقوم على أساس قراءة كتاب الله وحفظ ما يمكن حفظه منه ؛ وما تجردت برامج الدراسة في المدارس الابتدائية والثانوية من دراسات كافية للبادئ الدينية في كل فرعها ؛ فانها تحرص دائماً على تحفيظ بعض آى القرآن زيادة على دراسة المبادئ الدينية الكثيرة . على أن التدرج في إنشاء هذه المدارس المدنية لم يحرم البلاد المصرية خاصة والبلاد الاسلامية عامة من المحافظة على أكبر معمد دينى له الأثر الكبير المشكور في شرح قواعد الدين وبيان عقائده ؛ ذلك هو الأزهر الشريف ، الذى له الفضل الأكبر في الاحتفاظ بالآثار الصالحة المتوارثة عن السلف من كبار المسلمين ورجال العلم منهم ؛ فقد بقى أكثر من ألف عام وهو ينبوع الفيض الذى تتفجر منه عيون الحكمة الاسلامية ، وتفيض من جوانبه جداول المعرفة في كل ناحية من نواحي العلم والدين والثقافة الاسلامية . ولا أكون مبالغا إذا قلت : إنه هو المعهد الوحيد الذى حفظ للمسلمين تراثهم ، وأبان لهم سبيلهم ، وأوضح أمامهم معالم الحق ، وجنبهم مسالك الضلال ؛ وأنه الى عهد

قريب جدا كان المهمد الوحيد الذي أخرج للمصريين من قامت بأفكارهم نهضاتها ومن استحدثت بهم مصر أسس حضارتها اتى يحنون ثمارها الآن .

ومن كل ذلك يتبين لك من غير خفاء ان التعليم الدينى كان ولا يزال سلطانه غير محدود على النفوس المصرية ، يدعوهم الأزهر إلى الاحتفاظ بدينهم ، والإخلاص لربهم من أول إنشائه إلى وقته الحاضر ، ولم يكن بعد ذلك موضع للعجب من تفانى المصريين في حبهم لربهم وإخلاصهم لدينهم ، وسيتيق ذلك إن شاء الله ما بقى الأزهر ، وما بقيت النفوس خالية من الهوى والغرض .

س ٢ — لأننى لست مقتنعا بما قيل من أن الشيوعية لا تستطيع أن تتسلل بين المسلمين . وهنا أود أن أنوه لفضيلتكم بأن كنيسة الروم الكاثوليك تمرض بشدة على هذا الشر ، ومع ذلك فإن كثيرا من الزعماء المسيحيين وخاصة في إيطاليا الكاثوليكية قد انقلبوا شيوعيين وناصبوا الكنيسة العداء ، أو استعروا في التردد على الكنيسة في أيام الآحاد ولكنهم يعملون للشيوعية في أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخمس والجمعة والسبت . ولست مقتنعا بما أعلن من أن المسلم الطيب لا يمكن أن يصبح شيوعيا ، لأن هذا هو عين ما قاله البابا عن الشيوعية ، ثم لم يلبث المسيحيون أنفسهم أن خالفوه . على أنه في حالة ما إذا كانت إجابةكم بالمثل ، هل لى أن أعال فضيلتكم عما إذا كنتم قد اتخذتم في الأزهر تدابير خاصة ضد الشيوعية ، مثل إصدار تحريرات معينة ضدها ، أو الإشارة إلى الوسائل التي يمكن التعرف بها على الشيوعية ومكافحتها ؟ .

ج ٣ — لقد داخلك الشك في أن الشيوعية لا تغفل بين صفوف المسلمين ولا أمنحك عذرا في هذا : لأنك لو عرفت الدين الاسلامى وكيف كفيل للمسلمين التساند الاجتماعى ، وأن واجبا محتوما على كل واحد منهم أن يأخذ بيد أخيه المسلم ، وأن يقف حاجزا بينه وبين الحاجة وما تستدعيه ضرورات الحياة ، لما توانيت لحظة في الإذعان معنا في أن الاسلام هو الصخرة التي ترتطم بها أمواج الشيوعية ثم تنحسر عنها واهنة مخدولة إن شاء الله . وحتى أوضح لك ما أجمته أقول :

قلت لك : إن الاسلام كفيل للمسلمين التساند الاجتماعى . وما يقههم شر الحاجة ، ويدفع عنهم مطالب الأيام . وسيله في ذلك :

أولا — أنه فرض على كل مسلم أن يجعل لله حقا في ماله ، سواء أكان ذلك

المال زروعا ، أو حيوانا من إبل أو بقر أو غنم ، أو عروض تجارة ، أو ذهبا أو فضة ، أو مالا مقوما من أى نوع ، بشرط أن يفيض عن حاجة المسلم من النفقة عليه وعلى عياله ، ومن تجب عليه نفقتهم ، وألا يكون مطالباً به في دين أو نحوه ، وقد يبلغ ذلك الحق عشر المال أى ١٠٪ ثم حدد أيضا وجوه الصرف لهذه الأموال التي تجتمع لدى بيت المال ، وجعل مصارفها الفقراء والمساكين ، ومن انقطعت بهم السبل ، ومن أضرقتهم دين لم يكن مسبياً عن معصية الله ، وغيرهم مما هو ثابت في الدين ومعروف من مأخذه . ولقد طالب الله سبحانه وتعالى المسلمين بدفع هذه الزكاة في مواضع كثيرة ، ولم ترد في القرآن آية من الآيات التي تدعو المسلمين إلى إقامة الصلاة إلا ممترونة بدعوتهم إلى إيتاء الزكاة . فالزكاة والصلاة في الاسلام ركعتان من الأركان التي قام عليها الإسلام ، ودعامتان متينتان بنى عليهما ديننا القوي . من ذلك قوله تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، . . . وبأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وبما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، . . . وقد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، .

ولولا أني لا أجد في مثل هذا المقام متسعاً لمررد كثير من الآيات التي تحتم على المسلمين أداء الزكاة كلما استحققت ، لأفضت في البحث معك ولأطالت ، ولكنني سأجتزئ بعد ما ذكرت بما أقص عليك من حادث خليفة المسلمين الأول أبي بكر الصديق ، وكيف أنه قام في أشد أوقات المسلمين وأعصبتها ، بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بإعلان حرب شعواء على كل من امتنع عن تأدية هذا الفرض : وتحمل في سبيل ذلك تعريض المسلمين لهول فزع منه من كانت لا تفرعه الخطوب ولا تزعزعه الحوادث ، خليفة المسلمين عمر بن الخطاب المعروف بشدته في الدين وعدم الهوادة فيه ، فجاء أبا بكر يطلب إليه التريث في إعلان هذه الحرب حتى تمر الشدة التي هم فيها : ولكن صرامة أبي بكر في دينه وتفانيه في الإخلاص لأركانه ودعائه . دفعاه إلى ألا يبالى بمكروه يقع فيه وقال له : والله لو منعوني عتال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه أو أهلك دونه ! وقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة

والزكاة ١. وغاض غمار هذه الحرب ، وخرج منها ظافراً ، معزاً لدين الله ، ومشتباً لأركان الإسلام .

ومن ذلك ترى أن الدين الإسلامى اتخذ طريقاً وسطاً حسناً فيه من طغيان الرأسمالية ، فأخذ من مال الأغنياء نصيباً مفروضاً يصرف الحاكم منه على الفقراء وذوى الحاجات ، كما ينفق منه على دور الاستشفاء ، وأما كن إيواء العجزة بحيث لا يترك لأمثال هؤلاء مجالاً للشكوى ، ولا مسلماً ينفذون منه إلى سلب أموال الناس وأخذها بالباطل ، وغير ذلك من المسائل التى تُذكر نازهاً فى نفوس الفقراء وسائل الرأسماليين ومكتنزي الذهب والفضة .

ثانياً — ومن المبادئ المقررة فى الإسلام أيضاً حرية التملك (الملكية الفردية) واحترامها ، وأن لكل فرد أن يقتنى من المال ما تمكنه من اقتنائه السبل المشروعة ، وليس عليه وراء ذلك إلا أن يؤدى الفرض الذى أشرنا إليه من قبل ، وله فى كل حالة أن يتصرف فى هذه الأموال بما يراه ، وتبقى بعده تركته لورثته ، فى حدود القوانين الإسلامية التى جاءت فى نصوص القرآن فى مواضع كثيرة منه . وقد دعا الدين الإسلامى جميع المسلمين بعد ذلك إلى التطوع بالإنفاق ، وشمعهم على التبرع لأعمال الخير ، ونهاهم فى كثير من المواقف عن الإفراط والتفريط ، فنهى عن السرف كما نهى عن التقير ، فقال تعالى فى الحث على الإنفاق : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبئت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم ، وقال تعالى : يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وبما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، وقال تعالى فى التوسط والاعتدال : ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ، وقال تعالى : والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحسب عليهم فى نار جهنم فتسكوى بها جبابهم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ،

ثالثاً — وإنك لو تأملت فى حكمة الإسلام فى احترام الملكية الفردية ووضع القواعد العامة للوارث ، لعرفت أن هذا من أكبر الدوافع التى تحفز الممولين إلى قوة الاستثمار والنشاط فى الإنتاج ، ويدعو إلى السهر على المصالح وبذل الجهود

القوية في تكثير الأموال ، وهو في الوقت نفسه يحمي هذه الأموال من أن تعبت بها يد السرف والتبذير . فالرجل الذي يعرف أن الأموال التي يذل في جمعها صخره وعقله ستصير بعد ذلك إلى الدولة ولا ينتفع بها بنوه بطريق مباشر ، ليس هناك ما يحفزّه إلى ادخارها ويدفعه إلى المحافظة عليها . ولا يصح أن يقال إن قواعد التكافؤ الاجتماعي قد تغنى عن ذلك ؛ فإن الطبيعة البشرية التي تدفع الآباء إلى المحافظة على بنينهم وجمع الأموال في سبيلهم ، لا يمكن بحال أن يغنى عنها أو يقوم مقامها ما يدّعيه ذوو الآراء الهدامة من مبادئها ظاهرها وفيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب .

إنك لو تأملت بعض ذلك لما ترددت لحظة في أن سبيل الشيوعية إلى المسلمين مليئة بالعوائير والأشواك ، وأنها إن شاء الله لن تجد المسلمين الطيبين لقمة سائغة ولا فريسة مستضعفة حتى يسهل عليها أن تنفذ إلى نفوسهم . ولعلّ لا أكون متجنّيا إذا قلت : إن المسلمين يختلفون اختلافا واسعا عن غيرهم : فإني أعتقد أن المسلمين يحبون دينهم من قلوبهم ، ويقومون بشعائر الإسلام حبا في القيام بها ، لا خاضعين لمؤثرات خارجة عنهم .

رابعا — هذا إلى ما تقرره المبادئ العامة في الدين الإسلامي من احترام الحريات والدعوة إلى الشورى وتبادل الرأي في المشاكل العامة ، مما طبع المسلمين بالطابع الدستوري من نحو ثلاثة عشر قرنا وبعض قرن . وهذا القرآن الكريم يطلب الله سبحانه وتعالى فيه من نبيه أن يشرك المسلمين معه في الرأي ، فقال تعالى : « وشاورهم في الأمر » ، ووصف المسلمين جملة في آية أخرى فقال : « وأمرهم شورى بينهم » . ولعلك واجد في القريب لعلماء المسلمين جولات وافية في دفع هذه النظريات الهدامة ومحاربتها ، بما يوضحونه للمسلمين من حقائق عن دينهم ، بالنشر والإذاعة ، والوعظ والخطابة .

س ٣ — وصف لي موظف في جامعة الدول العربية الإسلام بأنه يحمل طابع الاشتراكية : فما رأيكم في ذلك ، وإلى أي مدى تبلغ الاشتراكية الإسلامية ؟ وما هي أوجه الشبه على وجه التحقيق بين الاشتراكية الإسلامية والاشتراكية الحديثة ؟ . ويلوح لي مما استخلصته من أحاديث في هذا الشأن أن القرآن لم ينص صراحة على وجوب عدم المساس بالملكية الشخصية ، فما رأيكم في ذلك ؟ . وإذا

كان الاسلام بمائل من بعض الوجوه الاشتراكية الحديثة ألا ينتظر من وراء هذا التشابه أن يقوم بين الاسلام وبين الاشتراكية الدولية السياسية (مثل الشيوعية الماركسية) تشابه يؤدي الى توزيع الثروة الشخصية بأمر الحاكم أو الحاكم ؟ . إني أوجه هذا السؤال بالذات ، لأن بعض المصريين الشيوعيين قد قرروا الى أن آيات القرآن يمكن أن تمشي في سهولة مع الفلسفة الشيوعية فيما يتعلق بتوزيع الثروة . فإذا كان الامر كذلك فإن أمن العالم العربي يصبح بذلك مهددا (ومعه الأمن العالمي كله) بمجرد السماح للدعاية الشيوعية بالازدهار في هذا الجانب من العالم .

ج ٣ — إنه ليؤسفني أشد الأسف أن تستخلص مما جرى بينك وبين الناس من أحاديث حول الإسلام والاشتراكية من ناحية ، والإسلام والملكية الفردية من ناحية أخرى ، أن القرآن لم ينص على شيء من عدم المساس بالملكية الشخصية ، وأخذت لنفسك حق الادعاء من أن الإسلام بمائل من بعض الوجوه الاشتراكية ، وأنه ينتظر من وراء هذا التشابه أن تقوم صلات بين الإسلام وبين الاشتراكية الدولية السياسية تؤدي إلى توزيع الثروة الشخصية بأمر الحاكم ، وأنت توقع قرب تحقيق ذلك بما ألفاه في روعك بعض المصريين الشيوعيين كما تقول من أن آيات القرآن الكريم تمشي في سهولة مع الفلسفة الشيوعية ، بلئس ما سؤلتكم أنفسكم ! وألا ساء ما تحكمون ! لقد نسبتكم إلى آيات القرآن ما القرآن منه براء . فليس في القرآن آية تمشي مع الفلسفة الشيوعية في أي وضع من الأوضاع ، ولكن هؤلاء الشيوعيين الذين قرروا لك ما قرروه قد التوت بهم السبل ، وضلوا عن سبيل الله ، وأرادوا أن يضلوا الناس كذلك .

ولو أنك تفضلت فذكرت أسماء بعضهم لكان لنا منهم موقف آخر أمام الله وأمام الناس : فانا دائما على استعداد أن نأخذ أمثال هؤلاء بحرب لا قبل لهم بها ؛ وإن مما هوّن على أثر هذه العبارات أنك - هداك الله - قد التجأت إلينا لتعرف الرأي الحقيقي في الدين الاسلامي وفي كتاب الله . ولعلنا فيما قدمنا اليك نكون قد كشفنا لك عن شبهات هؤلاء المضللين ، وأبنا من حقيقة أمرهم من جهنم شيوع الفتنة بين المسلمين .

وإنا لنعلم أنك أن القرآن الكريم قد احترم الملكية الفردية وصانها بتواعد

وحدود لا تجعلها عرضة للتلف ولا للضياع ، ونظم انتقالها الى الأبناء والمستحقين وفصل القول في قواعد الموارث وتحديد الأنصبة فيما تركه الوالدان والأقربون قلّ منه أو أكثر ، فقال تعالى : « وابتلوا اليتامى حتى إذا باغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ، ثم قال تعالى بعد ذلك : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قلّ منه أو أكثر ، نصيبا مفروضا » ثم قال الله تعالى بعد ذلك : « يوصيكم الله في أولادكم للذكور مثل حظ الأنثيين ، الى آخر ما جاء في هذه الآيات من بيان الانصباء مفصلا ، ومن بيان الوصية التي للمالك في ماله لمن شاء ، مما يدل الدلالة الواضحة على حق الملكية لكل مالك ، وانتقال هذا الحق من بعده الى وراثته من أبنائه وأقربائه . ثم ختم هذا البيان الرائع بقوله سبحانه : « تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين . »

س ٤ — إذا كان القرآن يوصي بإثراء الفقراء في ثروات الأغنياء ، ويحرم المقامرة والرشوة والخذاع ، فما هو حكم الإسلام في أولئك الذين يرفضون أن يشركوا الفقراء في ثرواتهم ، ويدأبون على الغش والرشوة ؟ الخ : هل يمكن أن يعتبروا في هذه الحالة مسلمين طيبين ؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك فهل يمكن عمل شيء لإلزامهم بتنفيذ تعاليم القرآن ؟ وإذا كان أولئك الذين يخالفون تعاليم القرآن يحتفظون بتكاتفهم الاجتماعية ويواصلون نجاحهم في الحياة ، بل إن بعضهم لتغدق عليه ألقاب الشرف ، ألا يمكن أن تفرض عقوبات على مخالفة القرآن من جانب أولئك الذين يولون وجوههم نحو الشيوعية .

ج ٤ — أما ما طلبته من بيان حكم الإسلام فيمن يتأخر عن دفع الزكاة أو يرفضها فقد فصلنا لك في صدر هذا الحديث ما كان من خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر الصديق ، وما شنه من حرب شعواء على المانعين للزكاة . وحكم الإسلام هو أخذهم بتأدية هذه الفريضة بالتبليغ والدعوة اليها ، وإلا صودرت أموالهم بمقدار هذا النصيب المفروض . ولا يمكن بحال اعتبار هؤلاء من المسلمين الطيبين ، فهم عصاة يستتابون ليرجعوا عن غيهم ويؤمنوا بربهم . وإننا إن شاء الله سبحانه

وتعالى نأمل أن نخطو خطوات واسعة في الاحتكام الى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، بفضل ما يبدله الملك الصالح (فاروق الأول) الحريص على الإسلام والمؤيد لدين الله . نسأل الله أن يمز به الاسلام ، وأن يؤيده بنصر من عنده ، وأن يوفق المسلمين الى اتباع ما جاء في القرآن الكريم من الأوامر واجتناب ما نهى عنه .

« إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب . »

تبرع السيدات بحليهن

حضرة الأستاذ الأكبر يثى عليهن

زارت حضرة السيدة الحاجة نعمات هانم الطرزي ، حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وأعربت لفضيلته عما تكنه من شعور نحو جيشنا المجاهد لتحرير الأراضى المتهددة من خطر الصهيونية ، وقدمت إلى فضيلته مجموعة من الحلى الثمينة التى تملكها هى وسيدات وآنسات أسرته ، ورجت أن يخصص ثمنها للترفيه عن الجنود المصريين المجاهدين وإعانة أبناء الشهداء منهم ، فشكر لها فضيلته هذه الأريحية ، ودعا لها بخير .

ثم تحدث فضيلته عن هذا العمل المشكور فقال : « إن هذا العمل المبرور المجيد ليعد فاتحة كريمة وقدوة طيبة نرجو أن ينهج نهجها ويسير على سنتها كرائم العقيلات المصريات ، فيسارعن الى أعمال النجدة الوطنية والأريحية العربية ، ليكتبن بذلك فى تاريخ المرأة المصرية صفحات خالدة من الأريحية والوطنية .

« وإني أعلان أن باب الاقتداء بهذا العمل الكريم مفتوح للسيدات المصريات والعربيات جميعا ، وإن المسارعة فيه خير وأبقى . وإني أهيب بهن جميعا أن يكن فى هذا المضمار السابقات المجليات « إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم ، والله شكور حلیم . »

الحرب والاسلام

شرع الله الدين الإسلامى ليتولى الناسَ فى ناحيتهم الروحية والمادية ؛ ففى ناحيتهم الروحية أقامهم على الطريق السوى من تحكيم العقل ، وإيثار الحق ، وإقامة العدل ، و مراعاة الآداب ، وإعلان تساوى العالم أجمع فى الحقوق والواجبات ، لا فضل لأبيضهم على أسودهم ، ولا لعربهم على أعجميهم ، والعمل الجدى على جعل الحياة الأرضية مثابة لإخاء وتواد وتراحم بين أهلها أجمعين ، وتطلب المثل العليا فى كل مطلب من مطالب الروح ، ومقام من مقاوم العلم ، ومرمى من مرامى الحياة الفاضلة .

وفى ناحيتهم المادية سنّ لهم النظام والوحدة والتكافل ، وتناسى الذات فى سبيل حياة الجماعة ، والتضحية بلوغ المقامات المحمودة ، حتى إذا جرت الى الحرب . الحرب ، نعم الحرب : ألم تر أنها لا تزال وسيلة من وسائل حلول المشاكل الاجتماعية الى هذا العهد الذى بلغت الانسانية فيه أشدها ، ونالت العقول رشدًا ، فأبى أى مآل كانت تؤول حالة الجماعة الإسلامية التى دُعيت لنشر الدين العالمى العام ، فى عهد كان الحق لا يمكن الاحتفاظ به إلا بالقوة ، والحكمة لا يستطاع الإدلاء بها إلا إذا حاطتها القوة ، بل والحياة لا يتأتى أن تبقى إلا إذا ناхت عنها قوة ؟

إذا كانت الأمم الغربية بعد أن نالت ما نالته من ثقافة علمية عالية ، والمعنية فلسفية سامية ، ومدنية مادية راقية ، لا تزال تعتمد فى القرن العشرين لحل مشاكها المختلفة إلى الحرب ، فهل يعقل أن تحرّم الحرب على أمة تألفت قبل ثلاثة عشر قرنا ، ونيط بها إحداث تطور عالمى من الناحيتين الدينية والاجتماعية ، وهما أدعى الى إثارة النفوس من جميع الخلافات البشرية ؟

أباح الإسلام الحرب ، ولكنه حاطها من المصلفات بما لم تبلغ إليه مدنية القرن العشرين ، ولا الى ما يقرب منه ، وخلصها مما كانت تنشره الكتب التى يعتبرها الأوروبيون مقدسة . فقد جاء فى الكتاب الخامس من الزبور قوله :

« إذا أدخلك ربك في أرض لتملكها ، وقد أباد أمما كثيرة من قبلك ، فقاتلهم حتى تفنيهم عن آخرهم ، ولا تعظمهم عبدا ، ولا تأخذنك عليهم شفقة أبدا » .
وقد خاض الأوربيون باسم الدين حروبا كانت شر الحروب التي شبت بين البشر عامة ، في قسوتها وتناسي كل الحقوق الإنسانية فيها . فالإسلام لم ينفرد بين الأديان السابقة والفلسفات المعاصرة بأنه دين يقر الحرب ، ولكنه انفرد ، كعادته ، بتلطيف هذه المجازر الإنسانية الى آخر حد يمكن الوصول إليه ، بدون الإخلال بسلامة الحوزة : فوضع للحرب حدودا ، وشرط على الغزاة شروطا ، كلما ترمى الى احترام الدماء البشرية ، والعمل بأرقى ضروب العطف على الإنسانية ، ولم يهمل مع هذا أن يشير على ذويه بأنه إن جاء وقت ترى الإنسانية فيه أن الحرب أصبحت أداة وحشية ، وأن في التفاهم والتعطف خيرا بدلا منها ، فإن عليهم أن يتابعوا الإنسانية في ترقياها ، ويدخلوا فيما يدخل فيه الناس من اعتبار الحرب أداة وحشية ، والجرى على ما يجرى عليه الناس من حلول الخلافات بالطرق السلمية كما سيأتى .

قلت : إن الاسلام أباح الحرب ولكنه لم يف من حدتها ، حتى جاوز ما أدخلته المدنية عليها بمراحل كثيرة .
(أولا) أن تكون لغرض مشروع كالدفاع عن الحوزة . لا لهُوى ملك ، ولا متابعة لأطماع رئيس .

(ثانيا) أن تكون الرحمة شعار المؤمنين ، فلا يقتلون طفلا ولا شيخا ، ولا رجل دين ولا مستسلما ، ولا امرأة ، ولا أحدا من خدام المحاربين ، ولا أن يحرقوا دور أعدائهم ، أو يقطعوا أشجارهم .

(ثالثا) أن لا يسرفوا في استئثار انتصارهم ، فلا يجردون المغلوبين من حقوقهم ، ولا يصادرهم أموالهم ، ولا يضطهدونهم لدينهم ، ولا يتقاضون منهم إلا الجزية ، وهي مبلغ من المال ، كما قال العلامة (دوزى) الهولاندى في كتابه تاريخ الفرق الاسلامية ، يقل كثيرا عما كانت تتقاضاه منهم حكومات تلك الأمم المغلوبة .

ولم يهمل الإسلام مع هذا كله أن يشير على ذويه بأنه لو جاء وقت تعتبر فيه الحرب من الوسائل الوحشية ، عند ما تصل الإنسانية الى درجة من الرقي تسمح للتخاصمين أن يحلوا منازعاتهم بالتحكيم ، فعليهم أن يجروا في تيار هذا

التطور العظيم ، ويدخلوا فيما دخل فيه الناس من النظام الجديد ، فتمالى تعالى ، وإن جنحوا للسهم فاجنح لها ، وتوكل على الله .

أنا في هذا المقام مضطر لأجل إثبات أقوالى هنا أن استشهد مؤرخين لا يمتون الى الاسلام بصفة ، وإنما هم رجال اجتماعيون يعطون الحوادث حقها من البيان والتفصيل .

قال المسيو (هنرى دو كاسترى) أحد حكام الجزائر السابقين ، فى كتابه (الإسلام - تأثيرات ودراسات) L'Islam, impressions et études :

« بعد أن دان العرب للإسلام ، واستنارت قلوبهم بهذا الدين ، برزوا فى حال جديدة أمام أهل الأرض كافة ، هو حال المسالمة وحرية الأفكار فى المعاملات ، ائتماراً منهم بما ورد فى القرآن من الإيصاء بمحاسبة الناس ، بعد تلك الآيات التى كانت تنذر القبائل المارقة . إلى أن قال :

« هكذا كانت تعاليم النبي بعد أن دخل العرب فى الاسلام ، وقد اقتنى أثره فيها خلفاؤه من بعده ، وذلك يضطرنا الى القول بما قاله قبلنا (روبنسون) : إن شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين محاسبة الأجانب ، ومحبة انتشار دينهم . هذه العاطفة هى التى دفعتهم فى سبيل الفتح ، وهو سبب لا حرج فيه . فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه الظافرة ، إذ أغاروا على الشام ، وانقضوا انقضاض الصواعق على أفريقيا الشمالية من البحر الأحمر الى المحيط الاطلانطيقى . ولم يتركوا أثراً للعسف فى طريقةهم (تأمل) ، إلا ما كان لابد منه فى كل حرب ، فلم يبدوا قط أمة أبت الدخول فى الإسلام .

ثم قارن المسيو (هنرى دو كاسترى) بين هذه الرحمة والعطف من الإسلام ، وبين الشدة والروح الحربية فى الأديان التى تقدمته . فنقل عن الكتاب الخامس من الزبور قوله : « إذا اقربت من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الإيمان ، فإن قبلته فقد سلم كل من فيها . وإن أبت وبأدتك بالمدوان فشدد الحصار عليها ، ومتى وفقك الله للظفر بها فأحطم رأس كل ذكر فيها بحد الحسام » .

ثم قال المسيو (هنرى دو كاسترى) :

« فكان من وراء محاسبة المسلمين للأمم المقهورة أن انتشر الإسلام بسرعة ، وعلا قدر رجاله الفاتحين ، لما سبقه من ظلم براطرة المملكة الرومانية الشرقية (وهى مسيحية) التى أبغضها الناس ، وكرهوا الحياة فى ظلها . هذا وإذا

انتقلنا من الفتح الأول للإسلام الى حين استقراره ، رأينا أكثر محاسنة ، وأكرم معاملة لمسيحي الشرق كنه . فما عارض العرب أبدا شعائر الدين المسيحي ، بل بقيت : ومية نفسها حرة في مراسلة الأساقفة في مختلف البلاد الإسلامية . الى أن قال :

« وهذه المحاسنة العظيمة من جهة المنتصر للمقهور هي التي أضعفت تأثير الديانة النصرانية جدا ، ثم زالت بالمرّة من شمال أفريقيا . على أن الاسلام لم يكن له دعاة يقومون بنشره . فلم يكره على الأخذ به أحدا بالسيف ولا باللسان ، بل دخل القلوب عن حب واختيار . وكان هذا من آثار ما أودع في القرآن من صفات التأثير والأخذ بالآلالباب . »

« ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين في بلاد الأندلس حتى صاروا في حالة أهنأ من التي كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم (الازميجو) . »

ويقول دوزي العالم الكبير :

« إن هذا الفتح لم يكن ضارا بأسبانيا ، وما حدث من الهرج والمرج بعده لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة المطلقة الإسلامية في تلك البلاد . وقد أبى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم ، وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون في خدمة الخلفاء . وكثير منهم تولى قيادة الجيوش مثل (سيد) . وقد تولد من هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلا . الأمة الأندلسية إلى المسلمين ، وحصل بينهم تزواج كثير ، انتهى كلام المسيو دو كاستري . »

هذا أثر الفتوح الإسلامية ، والحروب التي شنها المسلمون على الأمم بقصد نشر الدعوة كما طلب الحق اليهم ، وكلفهم بالتميام به ، وهي سيرة لا يوجد لها مثيل في التاريخ الديني أو الاجتماعي لأمة من أمم الأرض .

وهذا الجيش الإسلامي العربي الذي يدافع الآن عن فلسطين قد فاز بتقدير العالم أجمع في استقامته في غزواته ، وعدله حيال أعدائه ، وقيامه بأعباء كل التكليف الأدبية التي تفرضها عليه مهمته ، حتى استحق ثناء جميع من وقف على أخباره ، وقارن بين سيرته وسيرة خصومه .

محمد فريد وهدي

مثل من الحيطه

في رواية الحديث

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طه محمد الساكت

المدرس بالأزهر

عن أنس رضي الله عنه قال : إنه لسمعني أن أحدكم حديثاً كثيراً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من تعمد على كذباً فليتبوأ مقعده من النار » . رواه الشيخان .

فليتبوأ مقعده : فليتخذ منزله ، من المباءة وهي المنزل ، يقال : بوأه الله منزلاً فتبوأه ، أي أسكنه إياه فسكنه .

على القرآن والحديث يعتمد الإسلام دين الله العام الخالد ، في شرعته ومنهاجه وهديه وإرشاده : فهما لهذا الدين الحنيف أصلان مشتبكان ، وصنوان لا يفترقان . وإلى هذا يشير قوله صلوات الله وسلامه عليه « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقوله : « ألا إنني أوتيت الكتاب ومثله معه ... » ^(١)

لا جرم أن العناية بهما ، والحفاظ عليهما ، والتثبت في روايتهما ، تعدل العناية بالاسلام ، والحفاظ عليه ، والاحتفال به ؛ إذ كانا أساس بنيانه ، ودعام أركانه ، وملاك أمره .

[١] الحديث رواه أبو داود عن المقدم بن معد يكرب ، وانظر بقية في أول تيسير الوصول . وروى الأول مالك في موطنه عن أبي هريرة . وانظر في هذا الموضوع طائفة مهمة من الأحاديث في ج ٣ م ١٩ ونرجو أن يكون لنا أو لغيرنا بحث منصف في الحديث الثاني من هذه الطائفة .

ومن فضل الله ورحمته بهذه الامة أن آتاهها ما لم يؤت أحداً سواها : ومن ذلك أن خصها بحفظ كتبها ، والعناية بآثار نبيها ، مما لم يعرف التاريخ مثله بل بعضه لامة من الأمم .

وقد كان من آيات نبوته ، وعظيم حكمته - صلوات الله وسلامه عليه - أن صرف هم أصحابه أول الأمر ، إلى كتاب ربه ، يتلونه حق تلاوته ، ويدرسونه حق دراسته ، ويهتدون بهديه ويستضيئون بنوره . وبلغ من اهتمامه بهذا الكتاب العزيز أن أذن لأصحابه بأن يحدثوا بحديثه دون أن يكتبوه ، فقال : « لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحُهِ ، حتى إذا اطمأن إلى بليغ عنايتهم بالتنزيل ، وشدة حرصهم عليه ، أذن لهم بكتابة الحديث عنه كما أذن لهم من قبل في روايته : فكان جل اعتماد الصحابة رضي الله عنهم على حفظهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلقيهم عنه ، ومن كتب منهم فإنما كان يكتب مبالغة في الحيلة والتثبت .

وكان منهم مكثر ومقلّ ووسط بين ذلك ، ومع تحريمهم جميعاً في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبليغ أمانتهم في الحديث عنه - من كتب منهم ومن لم يكتب - كان كثير منهم يسك عن الحديث وهو يحفظه خشية أن يخطئ وهو لا يشعر ؛ والثقة إذا حدث بشيء عمل به اعتماداً على ما يُعهد فيه من الصدق ، وليس الخطأ - وإن لم يَأْثُم صاحبه - بالأمر اليسير على أهل الورع والتقى ، وسادتهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ومن تَمَّ كان خوف أنس وأمثاله رضي الله عنهم ، مع أن أنسا كان خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أدري الناس به ، وأحفظهم لحديثه ، وقد رُوِيَ عنه مَثُون من الحديث ولكنها قليلة جداً إذا قيسَت بمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعمره الطويل المبارك ، وبحاجة الناس إلى مثل علمه وفهمه .

وأحفظ الصحابة للحديث غير مدافع أبو هريرة رضي الله عنه ، وقد ذكر البخاري أن ثمانمائة من التابعين قد رووا عنه ، ولم يقع هذا لغيره ، مع أن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قد كتب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر منه بشهادة أبي هريرة نفسه ، ولكن اشتغاله بالعبادة ، ونظره في كتب أهل الكتاب

ورحلاته إلى مصر أو الطائف — أقلت من تحديثه والآخذ عنه . ومع أن أبا هريرة لم يحدث بكل ما حفظ ووعى فقد أنكر عليه كثرة تحديثه جمع من الصحابة حتى أبان لهم عذره في ذلك فكفروا عنه ^(١) : روى البخاري عنه أنه قال : إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً ، ثم يتلو « إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . إلا الذين تابوا وأصلحوا ويتوبوا فأولئك أوتوا عليهم وأنا التواب الرحيم ، إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق في الأسواق ، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم ، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيخ بطنه ، ويحضر ما لا يحضرون ، ويحفظ ما لا يحفظون . ثم يبين لهم السر في عدم نسيانه بما أصابه من بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعائه له فيقول كما روى الشيخان عنه : قلت يا رسول الله إني أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه ! قال : أبسط رداءك ، فبسطته . قال : فغرف بيديه ثم قال ضمه فضممته فما نسيت شيئاً بعد ^(٢) . ثم يعتذر عن عدم تحديثه بكثير مما سمع فيقول كما روى عنه البخاري : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين ؛ فأما أحدهما فبثته ، وأما الآخر فلو بثته قطع هذا البلعوم ^(٣) .

ثم سار التابعون على نهج الصحابة في الحفظ والضبط والتحري في الرواية حتى جاء عصر التدوين ، فعنى الساف بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عناية لم يُعرف لها من بعد كتاب الله عز وجل مثيل . أنفقوا نفوسهم وأعمارهم وأموالهم في جمعه وتدوينه ، والبحث عن رواته طبقة طبقة إلى رسول الله

[١] وفي هذه الأيام ينكر عليه ، بل ينال منه قوم لاخلاق لم من علم ولا معرفة ، وربما ساعدتهم على طعنهم ما يصطنعه الوضاهون من أحاديث ينسبون لها إليه ، وليست من مروياته في شيء .

[٢] ولفظ مسلم « فما نسيت بعد ذلك شيئاً حدثني به » .

[٣] كناية عن القتل ، ويعنى بالوعاء الآخر أحاديث الفتن وأمراء السوء وأحوالهم وما إلى ذلك ، وقد تدرع الباطنية بهذا الحديث إلى نعر ضلالتهم من أن القرينة ظاهراً وباطناً ، ليتحلوا من هروء الشريعة وأحكامها ، وليتبعوا وحي الشيطان والهوى .

صلى الله عليه وسلم — وتقل الثقة عن الثقة إلى منتهى الحديث مما خص الله به المسلمين دون سائر الملل — وبينوا درجة كل حديث حسب قوة رجاله في العدالة والضبط والتحري. وبذلك مازوا الغث من الثمين، والخبيث من الطيب، ونفوا من رجال الحديث طوائف الدجاجة والمارقين، والوضاعين والكذابين، والجهلة المتعصبين، كما ينفي الكبير خبث الحديد .

ذلك أن أعداء الله ورسوله من الزنادقة والملحدين وأشياهم قد كادوا لهذا الدين من قديم؛ حاولوا جاهدين أن ينالوا من كتاب الله بالتحريف أو التبديل أو المعارضة، فأحبط الله سعيهم ورد كيدهم، وجعلهم هزأة الهازئين وسخره الساخرين، وصدق الله إذ يقول: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» .

جربوا محاولتهم بعد خيبتهم الأولى، في القول على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوضعوا ما شاء لهم الهوى، وكذبوا ما استحب لهم الكذب، ودوّه كثير منهم بأقويل في الترغيب والترهيب قد يوافق بعض منها معنى من معاني الحديث الصحيح؛ فانبرى لهم هؤلاء الأئمة الأعلام، فنقدوا أقوالهم، وكشفوا للناس زيفهم وفضحوا أمرهم ووقفوا طلاب الحديث على الصحيح منه والسقيم^(١).

والعجب كل العجب أن يغتر هؤلاء الضالين بعض الأعلام من المفسرين والمتصوفين، فيرووا في كتبهم طائفة من أحاديث موضوعة، نبه على وضعها أهل الحديث ونقدته وفياصل القول فيه^(٢).

وشرذمة أخرى ابتلى الله بها الإسلام والمسلمين، لا تقل خطرا عن أولئك الأفاكين والوضاعين؛ تلك التي تنسك من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مالا يوافق هواها، وتجحد ما يصد شهوة من شهواتها، أو ينف عتبة في طريقتها، ولو اتفق على صحته وصدق نسبته أئمة الهدى، وحماة الشريعة على حين يصدقون ما يصادف هواهم وإن قال الثقات الصادقون إنه كذب مفترى!! وقد يضلون

[١] في علم مصطلح الحديث بسط القول في الوضع وأسبابه، والوسائل إلى معرفة درجة الحديث وغير ذلك مما يهم المستزيد.

[٢] ولم في ذلك مصنفات معروفة كندكرة الموضوعات، وكشف الحفاه والالباس

أشياعهم ويوهون عليهم بتأويل سخيفة لا تختلف ضلالة عن جحد الحديث الصحيح وتكذيبه أو انتهاك حرمت الله ورسوله ! وقد ذهبت الجرأة بأذنانهم مذهب الشطط ، فرعموا أنه لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أحاديث معدودة !! .

ونحن لا نطمع في أن نهدي ، من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، ولكننا نذكر من نخشى عليه الاغترار بهؤلاء ، ومن حفظ شيئاً من مبالغة بعض السلف في رواية الحديث ، وغابت عنه أشياء : نذكرهم جميعاً بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انتقل الى الرفيق الأعلى عن مائة ألف من أصحابه أو يزيدون ، وهو عنهم جميعاً راض ، وكلهم ثقات عدول ، وإن كانوا عند الله درجات . ثم تلو عليهم قول الله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » وقوله جل سلطانه « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

مركز تحقيق كميونر علوم إسلامي

المبالاة بالعدو

خرج بعض أهل خراسان على قتية بن مسلم ، فأهمه ذلك . فقيل له : ما يهلك منهم ! وجه إليهم وكيع بن أبي صرد ، فإنه يكفيكم . فقال : لا ، إن وكيعاً رجل به كبر يتحاور أعداءه ، ومن كان هكذا قلّت مبالاته بأعدائه ، فلم يحترس منهم ، فيجد عدوه غرة منه .

ومن نصائح علي بن أبي طالب في نهز الحرب : انتهزوا الفرصة فإنها تمر مر السحاب ، ولا تطلبوا أثراً بعد عين .

غريب القرآن

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ فكرى يسن

مدير البحوث والثقافة المساعد

بالأزهر الشريف

علوم القرآن الكريم كثيرة متنوعة ، ومباحثه جمة متعددة ؛ وإن أول ما يجب أن يكون منها محل الاشتغال والمزاولة ، وموضع العناية والدراسة ، العلوم اللفظية المتعاقبة بتحقيق الألفاظ ، وتحديد معانيها ، ومعرفة المراد منها ، وفهم دلالاتها ، وطرق استعمالها ، والوقوف على خصائصها وهيئاتها ؛ لأن الإمام بذلك كله على وجه صحيح ، من المقدمات الضرورية لفهم القرآن ، وإدراك معانيه ؛ ولأن معرفة هذا الضرب من علوم القرآن ومباحثه شرط جوهري من الشروط التي وصفها العلماء بأنها لازمة لتفسير القرآن الكريم .

وقد يكون من المستغرب أن يوصف القرآن الكريم بأن فيه ألفاظا غريبة ، لأنه نزل بأفصح لغة العرب ، وعلى أساليبهم في كلامهم ؛ وحتى نقف على حقيقة الغرابة الموصوفة بها تلك الألفاظ ، يحمل بنا أن نذكر شيئا وجيزا عن معنى الغرابة ، وعلاماتها ، والغريب وأقسامه ، لنقتنى بعد ذلك ببيان المقصود من « غريب القرآن » ، وأنه ليس على عمومته كما يفهم بعض الناس ، تشابه غرابته وغرابة الكلمات اللغوية الأخرى .

١ — الغرابة وعلاماتها :

الغرابة : أن تكون الكلمة غير ظاهرة المعنى ، ولا مأنوسة الاستعمال .
وهي تعتبر تارة بالنظر الى جميع الأعراب الخالص من سكان البوادي ؛ وتارة بالنظر الى بعضهم ؛ وتارة بالنظر الى غيرهم من المولدين . فإذا وصفوا اللفظ بالغرابة مثلا في مقام القدح ، يراد الاعتبار الأول ، وهذه هي الغرابة المحلّة

بالفصاحة ، وإذا وصفوا اللفظ بالغرابة في مقام المدح ، يراد ذلك بالنظر الى المولدين .

أما إذا وصف اللفظ بالغرابة عند بعض الأعراب الخالص ، فلا يلزم به قدح ولا مدح ، كما يشهد بذلك استقرار موارد الاستعمال .

والغرابة علامتان : الأولى ، الاحتياج في معرفة معنى الكلمة الى بحث وتفتيش في مطولات كتب اللغة ، إذ لو كانت الكلمة مأنوسة للفصحى ، ما اقتصت بها كتب اللغة المطولة ، وذلك نحو : تكا كآثم ، في قول عيسى ابن عمر النخعي - وقد سقط عن حمارة ، فاجتمع عليه الناس - : « ما لكم تكا كآثم على تكا كؤم على ذى جنة انفرقوا عني ، . والثانية : الاحتياج الى تخريج الكلمة على وجه بعيد ، نحو : مُسَرَّج ، في قول العجاج .

ومقالة وحاجبا مُرججا وفاحجا ومُرسنا مُسرّجا

٢ - الغريب وأقسامه :

يقال لكل متباعد ، غريب ، ولكل شيء فيما بين جنسه عديم النظير : غريب ، وعلى هذا قوله عليه السلام : « بدأ الاسلام غريبا ، وسيعود كما بدا ، ، وقيل : العلماء غرباء ، لقلتهم بين الجهال ، . والغريب : الغامض من الكلام ، ومنه كلمة غريبة ، أى غامضة .

وقد قسم العلماء الغريب الى قسمين : غريب حسن ، وهو ما كان سليما من تنافر الحروف ، وغريب قبيح ، وهو ما كان متنافر الحروف ، وقالوا عن الغريب الحسن : إنه يختلف باختلاف النسب والإضافات ، وعن الغريب القبيح : إن الناس في استقباحه سواء ، ولا يختلف فيه عربي باد ، ولا قروي متحضر .

إذا علمنا هذا ، أمكن أن نصل بعد ذلك الى تحديد معنى « غريب القرآن » ، على ضوء هذه المعاني التي ذكرناها عن الغرابة والغريب .

تضمن القرآن الكريم كلمات كثيرة يطلق عليها اسم « غريب القرآن » ، وهي وإن عدت غريبة ، فليس ذلك بالنظر لاستعمال العرب العرباء لها ، لأن « غريب

القرآن ، ظاهر المعنى ، مأنوس الاستعمال عندهم ، ولأن ألفاظه هي لبّ كلام العرب وزبدته ، وواسطته وكرامته ، فلا يتصور - والحالة هذه - أن تكون هذه الكلمات غريبة عندهم ، وإنما اعتبرت هذه الغرابة بالنظر الى استعمال غير العرب العرباء .

وعلى هذا يكون غريب القرآن ، عبارة عن الكلمات التي تضمنها القرآن الكريم ، وخفي معناها ، ولم يؤلف استعمالها عند غير العرب الخالص من المولدين .

نعم قد وجد بين الصحابة أنفسهم - على جليل فضلهم ، وعظيم منزلتهم ، وعلى أنهم من العرب العرباء ، أصحاب اللغة الفصحى ، ومن نزل القرآن عليهم وبلغتهم - من توقف في بعض ألفاظ خفي عليه معناها ، ولم يوصل فيها شيئاً : فإنه يروى أن شيخ الصحابة أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، سئل عن قوله : « وفاكهة وأبا » ، فقال : « أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى ، إني أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم ، ، و يروى أن عمر قرأ في خطبته يوماً على المنبر ، قوله تعالى : « أو يأخذهم على تخوف » ، ثم سأل الناس عن التخوف ، فقال : « ما تقولون فيها ، والتخوف منها ؟ » ، فقام شيخ من هذيل ، فقال : « هذه لغتنا ، التخوف : التقصص ، فقال عمر : « هل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ » ، فقال : « نعم ، وأنشد البيت الآتي يستشهد به على ذلك :

تخوف الرجل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن^(١)

يقال عمر : « عليكم بديوانكم لا تضلوا » ، قالوا : « وما ديواننا ؟ » ، قال : « شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم » .

ويكون معنى « أو يأخذهم على تخوف » ، على هذا : أن يأخذهم بالهلاك بعد أن يبتليهم بالنقص والبلاء شيئاً فشيئاً ، في أنفسهم وأموالهم حتى يتملكهم الخوف ، ويتوقعوا الشر دائماً .

(١) تخوف : تنقص ؛ التامك : العظم السنام . والفرد : الكثير القردان . والسفن : الحديدية

التي يرد بها خشب القوس . يريد أن الرجل تنقص الناقة كما يأكل الحديد خشب القوس

ويروى أيضا أن ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، قال :
« كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال
أحدهما : أنا فطرتها ، يريد أنها ابتدأها ، » .

وقد سئل سعيد بن جبير عن قوله تعالى : « وحنا من لدنا ، فقال : « سألت
عنها ابن عباس فلم يجب فيها شيئا » .

وفي اعتقادنا أن هذا لا يرجع إلى غرابة هذه الالفاظ ، وإنما يرجع الى
تفاوت الصحابة فيما بينهم في معرفتهم بالادب الجاهلى وفهمه ، وإلى ملازمتهم
للنبي صلى الله عليه وسلم ، والإقامة بجنته ، وحضور مجالسه ، ومشاهدة الاسباب
التي دعت الى نزول الآيات ، ومعرفة عادات العرب في أقوالهم وأفعالهم ، وإلى
قوة الأذهان ، واختلاف درجة الثقافة ، والاطلاع على أخبار الأوائل والتاريخ
القديم . وإن هذا التفاوت لا يضير الصحابة ولا يؤخذ عليهم : لأنه موجود
في كل بيئة ، وكل وسط ، مهما علت منزلته ، أو كانت درجة حضارته ، إذ ليس
من المجهود أن يكون جميع أفراد طبقة واحدة في مستوى واحد من
المعرفة والتفكير .

هذا وقد عني المتقدمون بغريب القرآن عناية فائقة ، ووضعوا فيه أمهات
الكتب ، وأفرده منهم بالتصنيف خلائق لا يحصون ، منهم : أبو عبيدة ، والراهد
وابن دريد ، وأبو حيان ، وابن قتيبة ، والراغب الأصفهاني ، قال ابن الصلاح :
وحيث رأيت في كتب التفسير ، قال أهل المعاني فالمراد بهم مصنفو الكتب
في معاني القرآن كالزجاج والفراء والأخفش وابن الأنباري . وقد وردت بعض
آثار مرفوعة وموقوفة في الحث على معرفة « غريب القرآن » ، والتماس معانيه .

وتلك المصنفات التي أشرنا إليها ، على نفاستها ، وجلال قدرها ، لا يزال
الباحث فيها يلقى كثيرا من العناية والمشقة في الوصول إلى بغيته منها ، وذلك لما
تشتمل عليه من صعوبة نظام تأليفها ، وطريقة ترتيبها ، وشدة إيجازها أحيانا ،
وإسهابها أحيانا أخرى : فعسى أن ينفذ قريبا ما ترمى إلينا من مشروع معجم
القرآن الذي يقوم بوضعه ، مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، فإننا نعلم أن القائمين
على إخراجه نخبه من الجهابذة الأفاضل ، والعلماء النحارير . وفقهم الله ؟

دعائم الاستقرار

في التشريع القرآني

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني

المفتش بالازهر

بدأت - في الجزء السادس - شرح الدعامة الاولى من دعائم الاستقرار في التشريع القرآني ، وهي إقناع المكلفين بحاجتهم إلى التقيد بتشريع معين في أمر معين ، وأثبت بعض المظاهر التي تدل على هذه الدعامة في الكتاب الكريم ، وكان منها أن الله جل جلاله يقرن الأحكام التي يشرعها غالبا بما يدل على انبلاء تشريعه فيها على مصالح الناس أنفسهم ، وعلى أن أحوالهم تتطلبها ، ولا تستقيم بدونها ، ولهذا كثر تعليل الأحكام ببيان الباعث عليها ، أو المصلحة التي تتضمنها ، أو المضار التي تترتب على إهمالها وعدم الأخذ بها .

ومن أمثلة ذلك - غير ما ذكرناه - قوله جل ثناؤه : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير » ، وصدّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ؛ وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا . .

فهذه آية من الآيات التي نزلت في شأن القتال بين المؤمنين والمشركين ، وقد كان المؤمنون يتخرجون من قتال المشركين في الأشهر الحرم ؛ ولما حدث ما حدث في سرية عبد الله بن جعش إلى نخلة ، وُقُتل من المشركين من قتل ، وأسر منهم من أسر ، تساءل الناس من مؤمنين ومشركين : أيحل القتال في الأشهر الحرم ؟ كان المسلمون يتساءلون عن ذلك تحرجا وتائسا من أن يفعلوه ، ويظنون أنهم بذلك يرتكبون وزرا عظيما ، ويخرقون سياجا محترما مقدسا منذ عهد أبيهم

إبراهيم ؛ وكان المشركون يتساملون عن ذلك تساملاً الناقد المعارض الذي يتخذ من أفعال خصمه فرصة للتشنيع عليه والإثارة من حوله ؛ فقد ورد أن قريشاً قالوا حين بلغ إليهم أمر السرية وقتلاهم وأسراهم فيها : لقد سفك محمد الدم الحرام ، وأخذ المال ، وأسر الرجال ، واستحل الشهر الحرام ! فنزل قوله تعالى : يسألونك عن الشهر الحرام ، الآية : وفيها اعتراف صريح بأن قتالا تدور رحاه في الشهر الحرام كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به ، وصد عن المسجد الحرام ؛ فأقرت بذلك حرمة الأشهر الحرم ، واعترفت بقداستها ؛ ولكنها بينت بعد ذلك أن إخراج الناس من أوطانهم لمجرد اعتناقهم دين الحق ، هو أكبر عند الله من القتال في الأشهر الحرم ؛ وفتنة الناس عن دينهم هي أكبر إثماً من القتل عامة ، لأن القتل إزهاق للنفس ، وتضييع للشخص ، أما الفتنة فهي إبطال للعقيدة التي تفدى بالآرواح ولا تفدى بها الأرواح ؛ كما بينت أن هؤلاء المشركين لا هم لهم إلا صد الناس عن دين الله ، وزحزحتهم عما اعتنقوه عن عقيدة واطمئنان ، ليردوهم عنه - إن استطاعوا - بكل وسيلة ؛ وإذن فالمؤمنون في موقف المعتدى عليه ، والمشركون في موقف المعتدى ، وليس في شرعة الإنصاف والحزم أن يترك المعتدى يفعل ما يشاء ، بينما يقف المعتدى عليه مكبلاً مبهوتا متحرجا من أن يرد الاعتداء عن نفسه .

وانظر - أيها القارىء - إلى ما عيت به الآية الكريمة من إبراز الأثر المترتب على نجاح المشركين في فتنتهم إذا نجحوا ، فإنها تقول للمؤمنين : ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، فتثير بذلك كل ما في نفوس المؤمنين من اعتزاز بالدين وحرص عليه ومقت للتحول عنه . وأى مؤمن يرضى بأن يرتد عن دينه ، ويموت وهو كافر وتحبط أعماله في الدنيا والآخرة ، ويكون من أصحاب النار الخالدين فيها ؟ لا شك أن هذه أخطار تهدد المؤمنين في أعز شيء لديهم ، وأن كل شيء يهون في سبيل درئها والتوقى منها ، وبذلك تهبأت نفوس القوم لتقبل هذا التشريع ، وسلست من قلوبهم وساوس التحرج والتأثم التي كانت تستولى عليها .

وجاءت بعد ذلك الآيات الأخرى تقرر المبادئ الصالحة في هذا الشأن فتقول : « وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل » ، « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » ، « الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

هذا ولو ذهبنا نستقرئ التعليقات التي ذكرها القرآن الكريم للأحكام لاطال بنا هذا الاستقراء : ويكفي أن نضم إلى ما ذكرناه من الأمثلة مفصلاً ، أمثلة أخرى نكتفي فيها بالإشارة :

فن ذلك قوله تعالى في سياق ما أحل وما حرم من الطعام وغيره : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » جملة على اختصارها بدیعة الفوائد ، نفهم منها أن الله — جلت حكمته — لا يحلل ما يحلل ، ولا يحرم ما يحرم ، مجرد أن يتعبدنا بذلك ، ولكن لمعان فيما أحل وفيما حرم ، هي طيب الطيب ، وخبيث الخبيث : ونفهم منها أن الخبيث خبيث ولو كثرت وأغرى وفتن ، وأن الطيب طيب ولو قل وزوجم وصرفت عنه العيون .

وقوله تعالى في تعليل ما شرعته في شأن شاهدي الوصية « ذلك أدنى أن يأتيوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم » .

وفي تعليل جعل شهادة امرأتين بمثابة شهادة رجل واحد « أن تنصلي إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » .

وفي قصر تولى الكفار بعضهم على بعض ، وعدم إباحته للمؤمنين « إن لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » .

وفي توصية المؤمنين برعاية الأدب مع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم « ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله » .

وهكذا تحاط الأحكام بجميع مبرراتها ، وتكون لها هذه التعليقات وأمثالها بمثابة مذكرات إيضاحية ، تبين الغرض منها ، والباعث عليها ، والضرر الذي يتوقع إذا لم تشرع .

(٤) وفي تاريخ الأطوار التي مرت بها الخمر والميسر حتى انتهى أمرهما إلى التحريم ، ما يدل على رعاية هذا المسمى في التشريع : فالقرآن الكريم لم يحرم الخمر والميسر ابتداءً ، ولكن ترك الناس حتى شعروا بآثارهما السيئة في المجتمع ، وبما لهما من مفسد ، وما ينجم عنهما من ضرور ، وكان من آثار هذا الشعور أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن حكمهما ، فنزل عليه قوله تعالى « يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ، وصف الإثم بأنه كبير ، وعبر عن المنافع بعبارة تشعر بهوانها وقلة جدواها ، ولكنه على كل حال لم يصادم المكلفين بإنكار ما هم متمسكون به على نحو ما ، وكأنه يريد منهم أن يدركوا بأنفسهم أن هذه المنافع لا تذكر بجانب الآثار السيئة والمضار الكبرى ، وترك لهم الفرصة حتى يتبينوا ذلك ويؤمنوا به إيماناً عميقاً ، فلما استقر ذلك في نفوسهم ، وأصبح الجو مهيئاً لتشريعهم تمام التهيؤ ، حسم الأمر لحرم الخمر والميسر تحريماً قاطعاً معللاً : إذ يقول « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون . فقد قصرهما على وصف الرجس بعد أن كان يشير إلى ما هو شائع عندهم من منافعهما الضئيلة ، ثم أمر باجتنب ذلك الذي هو رجس من عمل الشيطان بعبارة حاسمة هي قوله « فاجتنبوه » بعد أن كان يشير إلى هذا دون نص عليه ، حيث أثبت الإثم الكبير والمنافع الضئيلة مما يحكم العقل معه بالحرمة : وكما مهد للحكم بوصف المحكوم عليه بأنه « رجس » ، و « من عمل الشيطان » ، أتبعه ببيانين : أحدهما إجمالي يبين الغرض من التشريع وهو قوله : « لعلكم تفلحون » ، أي إنما شرعنا لكم اجتناب ذلك رجاء أن تفلحوا ، والفلاح لفظ واسع المدلول لا يدع شيئاً من أسباب السعادة والطمأنينة والرضا والعافية إلا شمله : والآخر تفصيلي يوضح به كون هذه الأشياء « من عمل الشيطان » ، مبرزاً آثارها السيئة في المجتمع بأسلوب قوى مؤثر ، وذلك قوله تعالى : « إنما يريد الشيطان ، إلى آخر الآية ، حيث ذكر العداوة والبغضاء وهما جماع أسباب القلق والاضطراب والشقاء وألوان البلاء ، وذكر الصد عن ذكر الله وعن الصلاة فس بذلك عاطفة الإيمان في المؤمنين وأثار اشمزازها . ثم خاطبهم بهذه

الجملة الاستفهامية الرائعة في معناها التي من شأنها أن تلتقي للمقتنعين : « فهل أنتم منتهون ؟ » .

نعم إن سائر الأحكام والقوانين التي أتى بها القرآن الكريم لم تتطور كلها على هذا النحو الذي تطور إليه الأمر في الحزب والميسر ، ولم تأخذ كلها في الاحتياط والتدرج هذه الخطوات الوثيدة : ولكن ينبغي أن يعلم أن الأمر في كل حالة كان مبنياً على تقدير ظروف المجتمع ، ومدى استعداده ، ومقدار تأثره ؛ وربما اتخذت في بعض النواحي وسائل أخرى للإقناع غير تركهم وما يبعثه التدرج في نفوسهم من الاقتناع الشخصي كما رأيناه في المظاهر الأخرى التي بينا بها قيام التشريع القرآني على هذه الدعامات .

وهكذا يتبين أن الدعامات الأولى من الدعامات التي يقوم عليها التقنين والتشريع ، ويستحق من أجلها البقاء والاحترام ، قد برزت في التشريع القرآني بروزاً واضحاً ، حيث لم يأت حكم من أحكامه إلا والأمر يتطلبه ، والإحساس العام للمكلفين بقرينه ، وهو مقتنع به بفطرته ، أو بعد البيان من العليم الحكيم . ولم يبق في هذا المقال مجال لبيان الدعامات الثانية ، وهي اقتناع المكلفين بشرعية السلطة التي عنها تصدر التشريعات ، فلنربص بها العدد القادم إن شاء الله .

الرأى السديد

أشار حكيم على حكيم برأى ، فقال : لقد قلت بما يقول به الناصح الشفيق الذي يخلط حلو كلامه بمره ، وسهله بوعره ، ويحرك الإشفاق منه ما هو ساكن من غيره ؛ وقد وعيت النصيح وقبلته ، إذ كان مصدره من عند من لا يشك في مودته ، وصفاء غيبه ، ونصح حبه ، وما زلت بحمد الله إلى الخير طريقاً واضحاً ، ومناراً بيضاء .

قال العتيبي : قيل لرجل من عبس : ما أكثر صوابكم ! قال : نحن ألف رجل وفيها حازم واحد ، فنحن نشاوره فكأننا ألف حازم .

الاسلام في نظر المحايدين

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب

المدرس بكلية أصول الدين

-

تصدى كثير من الباحثين الأوروبيين للإسلام بالبسط والشرح والتحليل والتوجيه والاستنباط ، ولكن عددا غير يسير من أولئك الباحثين قد أذعنوا لعاطفة التعصب ، فاقتادتهم أهواء التحيز إلى طرق ملتوية مليئة بالاشواك ، يزيد بُعْدُهَا عن العدالة والنزاهة بقدر ما يمتنع أولئك العلماء في الخضوع لغاياتهم الخاصة ومنافعهم الفردية .

واقْد أضلت المطامع الحائلة هذا الفر من المثقفين فجعلوا يتعاملون على الإسلام دون ذنب اقترفه أو جناية جناها ، وأخذوا يتصيدون للكيد له والخط من شأنه توافه الأمور التي قد تبدو على ظواهرها للوهلة الأولى أنها هبات ، ولكن التعمق في جميع مناحيها لا يلبث أن يمحو من النفوس ذلك الوهم السطحي السريع .

وأكثر من ذلك أن أولئك القوم يتقمون أحيانا على هذا الدين ما يثبت العقل السليم والمنطق القويم والمقياس الاجتماعي الصحيح أنه مبعث الانسانية ومصدر سعادتها ، أو أنه هو المنقذ الوحيد لها من وهبتها .

ولا جرم أن هذه الشرذمة من الباحثين قد طبعت في هذا العصر بطابع الاستهانة والإهمال من جميع الذين يحترمون حكم العقل ويوقنون بأن النزاهة هي أولى بالإجلال وأدنى إلى الخلود .

وهناك فريق آخر من العلماء قد عرضوا للإسلام تُحْدق بهم النزاهة ، ويحف بهم نبل القصد ، ويحدوهم الأمل في الوصول إلى كشف بعض الحقائق المجهولة لدى يثائهم : ولكنهم انزلوا إلى حضيض الهفوات ، وهبوا

في تحقيق المكبوت رغم نقاء نياتهم ، وسمو غاياتهم . وسر ذلك الإخفاق إما أن يكون هو الجهل بروح اللغة العربية والفقه - رر عن إدراك مراميها ، وإما الاعتماد على مصادر زائفة مليئة بالأباطيل والأضاليل .

وأيا ما كان ، فإن هذا الباحث الذي سنبدأ اليوم هنا ببسط آرائه عن الإسلام ، ونناقشها على ضوء المطلق حيناً ، ونتحاكم وإياه فيها إلى التاريخ حيناً آخر ، والذي يدعى « ديني سورا » Denis Saurat الأستاذ في جامعة لندن ، هو عالم من أفراد الفريق الأخير الذي ثبت لدينا حسن نيته بهيئة قاطعة ، بعد أن درسنا منتجاته ، وتعقبنا آراءه وأفكاره ، نألفينا أنه ينظر إلى الإسلام بنفس العين التي ينظر بها إلى المسيحية والاسرائيلية ، وأنه يستعمل في حديثه عن القرآن نفس العبارات وعين الصيغ التي يتحدث بها عن الإنجيل والتوراة . وقصارى القول في هذا الشأن أنه إذا حاد عن محجة الصواب فيما يتعلق بالدين الخفيف ، فإن ذلك يكون من جانبه خطأ لا خبثاً ، وجهلاً لا شراً .

والآن اليك كيف ينظر الى الإسلام في كتابه « تاريخ الأديان » ، *Historie de celigions* الذي نشر في سنة ١٩٢٣ ، ولكن قبل أن نعرض لبسط آراء هذا العالم ينبغي أن نقرر بدياً أنه يجب على كل باحث قبل أن يخوض في شرح مذهب من المذاهب أو في تحليل آراء عالم من العلماء ، أن يتبين قبل كل شيء المبادئ التي يؤسس عليها ذلك العالم دعائم مذهبه ليسير في توجيهاته وأحكامه على ضوء المبررة الصحيحة لما هو بصده من آراء وأفكار .

ونحن إذا سائرنا هذا الماموس العلى - ولا بد لنا من مسيرته - فإنه يتحتم علينا أن نسجل هنا أن هذا الباحث يصدر في آرائه عن مبدئين أساسيين : أولهما أن تاريخ الأديان هو تاريخ لتمو تينك الرغبةتين البشريتين المتأصلتين في نفوس أفراد الجنس جميعه ، وهما الحاجة إلى وجود إله ، والحاجة الى الحياة بعد الموت الدينوى ؛ وثانى هذين المبدئين : هو أننا الآن في عصر على لا يستطيع الناس فيه أن يقبلوا من لدن الإله إلا ما تُقدم اليهم التجربة والملاحظة الأدلة على صحته .

ونحن إذا قبلنا المبدأ الأول على أنه لازم ركزته الحكمة الإلهية في النفوس البشرية لتعدداتها للتأليه إعدادا فطريا كي يفوق في متانتها جميع الإعدادات الاجتماعية، لأن المعارض لا يرقى في السكال إلى درجة المتأصل، فإن الذي لا ريب فيه هو أننا لا نستطيع قبول المبدأ الثاني الذي صدر عنه هذا الباحث في تفكيره، لأنه، فيما نرى، خاطيء من أساسه، إذ أنه يرمى إلى هدف خطر، وهو إحلال ما يدعو به بالعقل العلمي التجريبي محل العقل الانساني في ذاته، أو العقل من حيث هو. ولا ريب أن هذا الرأي - فضلا عن أنه فج سطحي - هو إقرار لطفيان العلم التجريبي على كل ما عداه من جوانب الحياة الفكرية والروحية، وفي هذا من الخطأ مالا يخفى على ذي لب حصيف، إذ كيف يحدد من لديه مُسكة من العقل ذلك الدور الهائل الذي قام به الفكر البشري الذاتي أثناء هذه الآلاف من السنين التي انسلخت من عمر الزمن قبل أن يرى العلم التجريبي نور الوجود.

أما الرأي المعتدل في هذا الشأن، فهو أنه إذا كان العلم التجريبي قد استولى على بعض جوانب العقل الانساني، فإن الذي لا مشاحة فيه بحال هو أنه لم يستوعب كل جوانبه، فضلا عن أنه يمحو كيانه الذاتي الأول ويستبدله بكيان جديد يدعى بالعقل العلمي الذي لا يتلقى شيئا آتيا عن أى طريق آخر غير طريق الملاحظة والتجربة. وإنما الحق في هذه النظرية هو أن الجوانب العلمي من جوانب العقل البشري الذاتي هو ملكة تنشأ فيه وتنعو كغيرها من الملكات، لأنه كما أن الوجود المطلق أعظم كثيرا من الوجود المحدود الذي يدركه العلم التجريبي، كذلك العقل المطلق من الملكة الخاصة بإدراك نتائج الملاحظة والتجربة.

ومهما يكن من شيء فإن الذي يبدو لنا جليا من روح هذا الباحث، أنه واقعي النزعة، تجريبي التفكير؛ وتلك وجهة نظر تختلف في أسسها ومراميها مع مبادئ جميع الديانات التي تقرر أن الإله لا يناله الحس بحال من الأحوال، وأنه مع ذلك أثبت الموجودات. وهذا يكفي لأن نعتبره عالما أجنبيا محايدا لا يروقه من الأديان إلا ما تشتمل عليه من مبادئ خلقية ناعمة، أو قواعد اجتماعية مفيدة للإنسانية. وإذا كان الاسلام أكثر اشتمالا على هذه المبادئ القوية، وتلك الأسس المتينة،

فقد كان من الطبيعي أن يظفر لدى هذا النوع من العلماء بأعلى الدرجات، إلا في حالة الخطأ التي تحيد بهم عن الصراط المستقيم .

ومن آيات رجحان كفة الاسلام في نظر أولئك العلماء المحايدين الذين لا يلتفتون إلا إلى الجوانب الخلقية والعمرانية من الدين ، أن هذا الباحث يبدأ حديثه عن الاسلام بقوله : « إن محمدا يكاد يكون هو الوحيد الذي نعرفه عن طريق التاريخ من بين عظماء مؤسسي الأديان ، إذ أن الخرافات لم تستطع أن تخفيه . . . وإن دين مواطنيه إبان ظهوره كان قد هوى إلى أدنى الدرجات ، أو قُلْ إنه كان لهما من بقايا عقائد بدائية قد تفككت عند ما ارتقت الحياة الاجتماعية في الأمم التي كانت تدين بها ولم يبق فيها راكد سوى الدين . ولا غرو فقد كان العرب يعبدون الجن والأرواح التي تقطن الأحجار إلى جانب عدد من آلهة القبائل المختلفة . ولقد محا الاسلام هذا كله ولم يبق منه سوى الحجر الأسود ، فقد ظل في وطن القداسة الجوهرية ، إذ وضعه محمد تحت حماية الخليل إبراهيم . ومن الممكن أن تكون هذه سياسة قصد بها التوفيق ، كما يمكن أن يكون ذلك ناشئا من احترام شخصي . »

ونحن نرى أن هذا الباحث قد بدأ حديثه في اعتدال واستقامة حينما كان الطريق أمامه واضحاً معبداً ، ولكنه عندما وصل إلى الحجر الأسود كان الأفق قد تلبد بقاتم السحب ، فساد الظلام ، وسرعان ما ضل صاحبنا الطريق فلم يستطع السير إلى الامام ، ولا الرجوع إلى الخلف ، فوقف حائر اللب ، خائر القوى يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، ويسلم نفسه للفروض والأوهام ، ويرسل قلبه باحثاً عن الممكن تارة ، وعن المحتمل تارة أخرى ، ولكن عذره في ذلك واضح ، وهو أن الحجر الأسود كاد - في كثير من المواقف - يكون سبباً في تبليبل عقول بعض المسلمين ، وتزلزل عقائدهم لولا أن فوضوا الأمر في شأنه إلى فاطر السموات والأرض ، معلنين أنه حجر لا ينفع ولا يضر ، وأنه من السمعيات التي وجب علينا تنفيذها ، وعزبت عن عقولنا حكمتها . ولا شك أن في هذا عذراً لأجنبي كباحثنا . وللحديث بقية .

تورة في المنطق

لخضرة الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهواني
المدرس بجامعة فؤاد الأول

مضى على كشف المنطق أكثر من عشرين قرناً من الزمان ، إذ ينسب إلى
أرسطو ، ولهذا سمي بالمعلم الأول . قال ابن قيم الجوزية في كتابه « إغاثة اللهفان
من مصايد الشيطان » ، يطعن على أرسطو ما يأتي : « ويسمونه المعلم الأول ، لأنه
أول من وضع لهم التعاليم المنطقية ، كما أن الخليل بن أحمد أول من وضع عروض
الشعر . وزعم أرسطو وأتباعه أن المنطق ميزان المعاني ، كما أن العروض ميزان
الشعر . وقد بين 'نظار الإسلام فساد هذا الميزان وعوجه ، وتعيجه للعقول ،
وتحييطة للأذهان ، وصنفوا في رده ونهايته كثيراً

غير أن منطق أرسطو ظل رائجاً كالطود لم تزعزع قوائمه هجمات رجال الدين
في العصر الوسيط ، إسلاميين كانوا أم مسيحيين . وعلى العكس من ذلك تناول
الشرح كتبه بالترتيب والتبويب والتهديب حتى أصبح أشد رسوخاً وأقوى دعامة .
والفضل الأول للرواقيين ، إذ جعلوا المنطق آلة لا تفهم الفلسفة بغيرها .
ومن تشبيهاتهم المأثورة : إن الفلسفة كالبلستان ، المنطق سوره ، والطبيعة شجره ،
والأخلاق ثمره .

وأغلب فلاسفة المسلمين يجعلون المنطق آلة العلوم ، ولا يعدونه جزءاً منها .
وفي ذلك يقول الشيخ الرئيس ابن سينا في أرجوزته المنطقية :

مالم يؤيد بمحصل آله واقية الفكر من الضلالة
وهذه الآلة علم المنطق منه إلى جل العلوم نرتقى
وظل العرب أمناء على هذا الانجاء حتى العصور المتأخرة . وتعريف صاحب
الشمسية مشهور ، لا يزال طلبة الأزهر يتداولونه حتى اليوم ، وهو : المنطق آلة
قانونية تعصم مراعاتها الذهن من الزلل . .

غير أن فلاسفة العصر الوسيط نحوا بالمنطق نحواً صورياً شكلياً ، فأصبح لفظاً محتماً ، وصار جديداً لا يفيد نتائج جديدة ، ولا يزيد في ثروة الفكر ، ولا يفترب من الواقع .

وأول ثورة عنيفة ضربت منطق أرسطو في الصميم ، هي تلك التي حمل لواءها ديكارت ويكون في القرن السابع عشر . أما ديكارت فهو صاحب المنطق الرياضي الذي استبدل به منطق القياس الجاف الجذب . وأما يكون فهو صاحب « الأورجانون الجديد » Novum Organum ، الذي يعارض فيه أورجانون أرسطو ، أي الآلة ، فموضع أساس المنهج التجريبي الذي يعد أساس كشف العلوم الحديثة .

ولكن ديكارت ويكون لم يتخلصاً تخلصاً تاماً من سلطان أرسطو . فظهرت في القرن الماضي مباحث ستيوارت مل ، ولاشلييه ، ورايبه ، وهوسرل ، وشلر وغيرهم ، واتجهوا بالمنطق وجهات جديدة مختلفة فيما بينها . ولكنهم جميعاً ظلوا عبيداً لحقاً جوهرى وقع فيه أرسطو وتبعه سائر الفلاسفة . ذلك هو التوحيد بين الفكر واللغة .

فالناطق من النطق . وهم يعرفون الإنسان بأنه حيوان ناطق . ويقصدون بذلك أنه مفكر . قال صاحب البصائر النصيرية : « إن فكر الإنسان في ترتيب المعاني قلما ينفك عن تخيل ألفاظها معها ، حتى كأن الإنسان يناجى نفسه بألفاظ متخيلة إذا أخذ في التروى والتفكر ، .

ولا تنكر مع القدماء أن اللغة ضرورية ، وأنها نستعين بها في تفكيرنا كما هو الواقع في الغالب . ولكن اللغة تقوم على الألفاظ ، والألفاظ رموز ، واصطلاحات نكسوها المعاني لتتعلق بها . ولذلك نبه أرسطو الى أن البحث في الألفاظ لا يهم المشتغل بالمنطق إلا عرضاً ، وأن ما يهمنا هو اختيار الألفاظ المحدودة المعاني حتى لا يقع المفكر في اللبس والغموض .

غير أن لغة الكلام التي نتداولها فيها كثير من العيوب . فهي لا تفي بالأغراض الدقيقة التي نحتاج إليها في التعبير العلمى الحديث . وإن كنت في ريب من ذلك

فانظر إلى لغة الرياضيين في الحساب والجبر والرسوم البيانية ، تجد أن التعبيرات الرياضية أدق وأوفى . فإن قلت ولكن اللغة غنية بالألفاظ والاصطلاحات ، قلنا : إن فائدتها لا تنكر في الأدب والبلاغة ، ولكن جدواها في العلم قليلة .

والأصل في اللغة أنها وسيلة التفاهم بين الناس في صلاتهم اليومية ، ولم يكن القصد منها التعبير عن العلوم .

وقد فطن أرسطو إلى بُعد اللغة عن الصياغة المنطقية الدقيقة ، فأراد أن يردها إلى أشكال مضبوطة ، فصاغ القضية التي تتركب من موضوع ومحمول ورابطة ، وضرب لذلك المثل المشهور « سقراط مائت » ،

Socrate est mortel

سقراط : هو الموضوع ، ومائت : هو المحمول . أو الصفة التي نصف بها سقراط ، والرابعة يصرح بها في اللغات الأجنبية ، ونعني بها فعل الكينونة ، ولكنها تطوى أو تضم في اللغة العربية ، لأن طبيعة اللسان العربي كذلك . وقد يصرح بها المناطقة فنملا عن اليونانية بقولهم « سقراط هو مائت » .

ويسمى شكل هذه القضية « الميعة » Apophantique من اللفظة اليونانية فانس أي النور . والمتصود أن الصفة التي نحملها على الموضوع ، توضحه وتأتي عليه الضوء ؛ لأننا إذا قلنا : سقراط ، وسكتنا ، لم نفهم شيئاً .

ولكن القضية الميعة ليست هي الشكل الوحيد الذي نعبر به عن أفكارنا ، بحيث يدخل الموضوع في المحمول دخولا تاماً : فهناك قضايا لا يتداخل حدّاها بل يضاف أحدهما إلى الآخر . وفي اللغة العادية أمثلة كثيرة لذلك ؛ تقول : القاهرة أكبر من الإسكندرية ، ويقع السودان جنوب مصر ، ومحمد أذكى من علي ... إلى غير ذلك .

ومن هنا ظهرت الحاجة إلى وضع « جبر » خاص بالمنطق هو الذي يسمى بالمنطق الرمزي أو الجبري أو العلي .

Logique symbolique, ou logistique.

ولهذا النوع من المنطق ، الذي يعد ثورة عنيفة في منطق أرسطو ، تاريخ

طويل يرجع إلى العصر الوسيط ، ولم يبرز إلا على يد ليبنتز في أوائل القرن الثامن عشر ، الذي أراد أن يكشف أشكالاً عامة تتلاءم مع جميع مناهج التفكير . غير أن ظهور المنطق الرمزي بحيث يحتل مكان المنطق القديم لم يتم إلا في العصر الحاضر ، ويرجع الفضل في ذلك إلى عدد كبير من العلماء ، منهم فيلسوف رياضي لا يزال على قيد الحياة هو برتراند رسل ، وهو يبلغ الثمانين من العمر في الوقت الحالي ، إذ هيأت شخصيته البارزة جمهوراً يستمع إليه ، ويأخذ بآرائه ، ويستعمل الأسلوب الجديد العلى في المنطق . ومما ساعد على ذلك أن الاتجاه الحديث في العلوم اتجه رياضي ، فلا غرو أن يصبح المنطق الحديث رياضياً . ويشغل اليوم هذا المنطق كثير من العلماء المختصين في الرياضة والطبيعة ، وظل الفلاسفة بعيدين عن هذه الحركة الجديدة .

ولم يكن العرب في العصر الوسيط بعيدين عن هذا الاتجاه ، فقد أحس مناطقتهم بضرورة رد المنطق إلى الرموز الجبرية ، ولهذا تجد في كتب أئمتهم شيئاً من ذلك ، إذ يقولون : كل ا ب ، وكل ب ح ، إذن كل ا ح . كأنهم استبدلوا الرموز الجبرية بالألفاظ اللغوية ، ولكن شكل القضية ظل منيراً (أبوفانتيك) من جهة ، كما أن المنطق الرمزي الحديث ينظر إلى الموضوع نظرة تخالف النظرة التي جرى عليها العرف من قديم ، مما نحدثك عنه بعد قليل .

ولو استمرت نهضة الحضارة الإسلامية ، ولم تعمل عوامل التوقف والتأخر عملها ، لكان خليقاً أن يصل فلاسفة العرب إلى ما وصل إليه علماء أوروبا اليوم في المنطق الحديث .

ولقد أصبح المنطق الرياضي في أيدي العلماء أداة دقيقة ثمينة يعز استبدال غيرها بها . وفطن الفلاسفة كذلك إلى أهمية المنطق الرمزي ، ولكنهم أحلوه في المرتبة الثانية ، وعدوه فرعاً لا غنى عنه من المنطق العام . أما منطق أرسطو الذي درجنا على درسه واستخدامه فهو ذو فائدة عملية في الحياة اليومية ، وهو إلى جانب ذلك رياضة عقلية . أما المنطق الرمزي فإنه يوضح الفكر الغامض حين

يلغى التعبيرات الملتبسة ، ويبعد عن الذهن آثار الغموض ، وهو أكثر ضرراً من الخطأ . وهو إلى جانب ذلك لا يوقع المرء في مزلق الأخطاء الناشئة عن الهدوى والعواطف ، والألفاظ الرنانة الخلابة التي تعبّر عن المثل العليا في المجتمعات الإنسانية .

أى أن المنطق الرمزي هو الذى يرد العقل حقاً إلى الصواب ، أو كما قال القدماء : إنه هو الذى يعصم الذهن من الزلل .

ولقد سمي المنطق الرمزي كذلك ، لأنه ضرب صفحاً عن الألفاظ الجارية في اللغة . ويقول الأستاذ موريس Mouris وهو من أئمة هذا الفن في كتابه ، مدخل إلى المنطق ، : إن استعمال الرموز بدلاً من الألفاظ المألوفة يرجع إلى الحاجة العملية أكثر مما يرجع إلى ضرورة منطقية . ذلك أن جميع القضايا يمكن التعبير عنها في أبواب من اللغة . غير أننا لا نستطيع أن نتقدم تقدماً كافياً بالمعرفة الرياضية والمنطقية بدون الاستعانة بالرموز المناسبة ، مثلنا في ذلك مثل صاحب التجارة الحديثة الذى لا يستغنى في تجارته عن استعمال الشيكات ، بدلاً من العملة ، أو مثل من يبني الدور الحديثة ويستعين بآلات خاصة . فالتفكير الرمزي ضروري إذا اتسع نطاق التفكير ، كما نحتاج إلى أدوات خاصة في التجارة الواسعة .

فإذا أردنا أن نصيد مقداراً كبيراً من السمك ، فعلينا أن نستعمل شباكاً من نوع خاص . أما معارضة المنطق الرمزي فإنها تشبه المعارضة التي ظهرت عند استعمال الآلات البخارية ، تنشأ من الميل إلى المحافظة والبعد عن التغيير .

والمنطق الرياضى ينظر في الألفاظ ، ثم في العلاقة بين رمز وآخر ، ثم في العلاقة بين هذه المجموعات . ولذلك يسمى المنطق الحديث منطق العلاقات .

والألفاظ ، أو الرموز التي نريد أن نضعها ، هي بطاقات نضعها على الأشياء الخارجية ، تدل عليها دلالة ذهنية ؛ مثل الباب ، والشباك ، والماء ، والشمس ، وهذا البيت ... الخ . فنحن نشاهد في الواقع أشياء محوسة لها طول وعرض

وعمق ، وتتصف بلون ، ولها شكل . وهذه الأشياء تتغير ، ويتصل بعضها ببعضها الآخر ، أو بينها علاقات يضاف أحدها إلى صاحبه . تقول : الباب أمام الشباك والشمس فوقنا في السماء وهكذا . . . كل شيء من هذه الأشياء كل لا يتجزأ ، له شخصية مستقلة .

وكان المنطق القديم ينظر إلى الأشخاص أو الأفراد ، ثم يجمعها في النوع ، ويرفع الجنس فوق النوع . النوع : إنسان ، يشمل سقراط وزيد وعمرو . . . وهكذا ، ثم تقول بعد ذلك : سقراط إنسان ، ثم تقول : الإنسان حيوان ، باعتبار أن الجنس حيوان يشمل أنواعاً منها الإنسان والطيور والزواحف ، إلى آخر أنواع الحيوان .

هذه النظرة غير دقيقة وغير صحيحة ، لأن الإنسان ليس بمجموع سقراط وزيد وفلان وفلان ؛ إذ الواقع أن : إنسان ، لا يتركب من زيد وعمرو ، وليس هذا الشخص وذاك وذاك أجزاء من النوع .

إذا كان الأمر كذلك فماذا نضع بدلاً من النوع والجنس ؟

يقول المنطق الرياضي : نضع المجموعة Ensemble ، وهي تدل على الأفراد بضروب ثلاثة من الدلالات .

الدلالة الأولى بالتعيين par désignation ، مثال ذلك : إذا دخلت مكتبة وطلبت من البائع : هذا الكتاب ، أو : هذه الكتب الثلاثة ، أو : هذه المجموعة من الكتب ،

الدلالة الثانية بالعدد par énumération ، مثال ذلك : الجراح حين يجري عملية جراحية يعد المشارط والأسلحة ، ويضع بها بيانا حتى لا يئسى منها سلاحاً في بطن الجريح .

الدلالة الثالثة بالإضافة أو العلاقة par relation . مثال ذلك : الدائرة هي مجموع النقط المتساوية الأبعاد من المركز .

هذه المجموعات تختلف عن : النوع ، في المنطق القديم . وما يهمنا منها هو الدلالة الأخيرة أي المجموعة التي تضم الأفراد لما بينهما من علاقات . كان المنطق

القديم يقول : إن النوع إنسان له صفات يملكها ، وهي تعرف عندهم بالمفهوم ، ويشمل أفراد بني الانسان ، ويصدق عليهم ويسمى الماصدق . وأن النوع يحتوى على جميع الصفات أى المفهوم ، ويدخل تحته جميع الماصدق أى الأفراد . غير أن المفهوم بالمعنى القديم لا يصبح له مكان إلى جانب المجموعات والعلاقات في المنطق الرمزي الحديث . وفي ذلك يقول وليم جيمس العالم النفساني والكاتب كلفظ لا يعرض .

والمنطق الرياضى يضع بدلا من الألفاظ رموزاً . فإن قلت : ولكن الألفاظ رموز ، قلنا : إن الاصطلاح الرياضى أدق وأحكم . وأول مظهر لهذه الدقة أن الرموز منها ثابتة Constant ، ومنها متغيرة Variable ؛ ولا يقال عن الألفاظ إنها ثابتة أو متغيرة .

والرموز الثابتة والمتغيرة مستمدة من الرياضيات . مثال ذلك : العدد ١٠ ، ثابت ، إذ له معنى لا يتغير مع الاستعمال في العمليات الحسابية . أما الرموز س ، ص ، وما إلى ذلك فهي متغيرة لأنها لا تحمل معنى مستقلاً بذاتها . فلو قلنا : هل الواحد عدد صحيح ؟ كان الجواب بالنفي أو بالإثبات ، ولكنه على أى حال جواب يدل على معنى سواء أكان صادقاً أم كاذباً . أما إن قلنا : هل س عدد صحيح ؟ فلن يكون للجواب معنى مفهوم . الخلاصة أن س ، عدد متغير لا يمكن أن يكون له معنى حتى نحدده .

ونعود بعد ذلك إلى الألفاظ واللغة التي درجنا على استعمالها .

الواقع أن دراسة تطور الانسان من الطفولة إلى الشباب تبين لنا أن المنطق أسبق من التفكير : لأن الطفل يتعلم لفظ الكلمات قبل أن يتعلم الحكم على مدلولاتها . وكثيراً ما يحفظ الشباب ألفاظاً لا يعرفون مغزاها . على أن وصول الذهن إلى مدلولات الألفاظ لا يتم إلا بإضافة الأشياء إلى غيرها وتحديد ما بينها من علاقات . وقد تكلم قدماء المنطق في الدلالات فقالوا : إنها على ثلاثة أنواع : دلالة المطابقة والتضمن والالتزام ، وذلك بالنظر إلى الشيء الذي يدل عليه اللفظ . ولكن المنطق الحديث ينظر إلى دلالة الألفاظ على المعنى من جهات ثلاث : (١) الشيء أو الموضوع . (٢) ما يشير إليه الشيء أو ما يوصف به .

(٣) الشخص الذى يشعر بهذا الشيء ويدركه . وهناك علاقة وثيقة بين هذه الجهات الثلاث . مثال ذلك « الورد أحمر » يفهم منها العالم معنى ، والشاعر معنى ثانياً ، والرسام معنى ثالثاً . ولا نقصد من هذا أن نخلط بين النسبية والذاتية ، فهذه المعاني المختلفة نشأت من النسبة بين المدرك لها وبين لون الورد .

مهما يكن من شيء فإن اتجاه المنطق الحديث هو أن يجعل التعبير موضوعياً ، وبذلك يدنو من العلم الصحيح . نحن نقول « الذهب أصفر » ونعد هذه القضية صحيحة ذات دلالة تامة ، وأنها قضية صادقة لأنها تنطبق على الواقع . ومع ذلك تعال نمتحن هذه القضية البسيطة في ظاهرها ، وسوف نجد أن الذهب ولونه الأصفر جزءان من العالم الزاخر بالأشياء والصفات ، وهو عالم شديد التعقيد ، وليس لنا أن نحكم بصدق هذه القضية أو كذبها إلا إذا نظرنا في جملة الظروف المحيطة بها . فالذهب أصفر في ضوء خاص ، فإذا تغير الضوء تغير اللون .

وأظن أنه أصبح من الواضح أن أصحاب المنطق الرياضى على صواب في نظرهم إلى الحدود ، واعتبار أن بعضها ثابت وبعضها متغير . فقد رأينا أن « أصفره ليس حداً ثابتاً بل متغيراً ، وذلك حسب الظروف المحيطة به .

ليس غرضنا أن نكتب بالتفصيل في هذا المنطق الحديث ، فقد ألفت فيه المطولات والمتون ، وإنما ضربنا المثل بشيء مما يقال في باب الالفاظ ومدلولاتها واستبدال الرموز بها .

وجملة القول : إن المنطق الرمزي أصبح أداة علماء الرياضة والطبيعة ، ولا يزال المنطق الارسططاليسى أداة اللغة المستعملة بين الناس في معاملاتهم ؟

من الحماسة

قال شاعر عربي :

وأخذى الحمد بالثمن الريح	أبت لي شيمتى وأبى تلادى
وضربى هامة البطل المشيح	وإقداى على المكروه نفسى
مكانك تحمدى أو تستريحى	وقولى كلما جشأت وجاشت

فلسفة القرآن والحياة الآخرة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد يوسف الشيخ
المدرس بكلية أصول الدين

أنكرنا في مقالنا السابق على الأستاذ العقاد في مقاله الحياة الآخرة من كتابه
« الفلسفة القرآنية » ، أمرين : أولهما أن النعيم والعذاب في الحياة الثانية رוחي
فحسب ، وأبنا أن النعيم والعذاب في الآخرة ينتظم أنواعا مختلفة من اللذائذ والآلام ،
ما هو مادي منها كالطعام والشراب والإحراق ، وما هو رוחي لا صلة له بالجسم
والجسمانيات ؛ وهذا أبعد الأمرين في باب النعيم والعذاب ، وليس الأمر قاصرا
على هذا الأخير كما جزم الأستاذ العقاد

وفي هذا المقال نناقش الشواهد التي ساقها تأييدا لما جزم به :

قال الأستاذ أولا : « فالإمام غفر الدين الرازي مثلا يقول في تفسير الاتكاه
على السرر الموضونة : معناه أن كل أحد يقابل كل أحد في زمان واحد ، ولا يفهم
هذا إلا فيما لا يكون فيه اختلاف جهات ، وعلى هذا فيكون معنى الكلام أنهم
أرواح ليس لهم أديار وظهور ، فيكون المراد من السابقين هم الذين أجسامهم أرواح
نورانية ، جميع جهاتهم وجه كالنور الذي يقابل كل شيء . »

وأقول : هذا أحد رأيين ذكرهما الإمام الرازي في تفسير التقابل ، قال الإمام
في تفسير قوله تعالى « على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين » : إن التقابل هنا
فيه وجهان : الأول أن المتكئين على السرر لا يتدابرون بل كل منهم يستقبل الآخر
في وقت واحد لا استدبار بينهم أصلا . والثاني أنهم متساوون في المكانة والرتبة
لا يرى أحدهم أنه دون الآخر ، فالتقابل في الوجه الأول بخلاف الثاني وفي الوجه

الثاني عدم التفاوت في المكانة والتقدير . وبعد ذلك رجح الإمام من الرأيين ثانيهما . فإن الأول يقتضي أن أولئك المتقابلين أرواح نورانية لا ظهور لهم ولا أدبار بل جميع جهاتهم وجه واحد كالور لا ظهر له ولا دبر ، يستقبل كل شيء ولا يستدبره ، حتى يمكن أن يتقابل الجميع في وقت واحد . هذا التصوير كما ترى لا يناسب المكانة التي قررها الله تعالى لهم في الاتكاء على السرر ، بل الذي ينسجم معها ولا ينافرها إنما هو الوجه الآخر ، فلماذا كان أقرب الوجهين .

نرى في هذا التمثل وجهين ذكرهما الإمام في تفسير التقابل ، اقتصر الأستاذ العقاد على أحدهما وتناسى الآخر ، وقد كان هو الراجح المختار عند الإمام الرازي : وقد استند في ترجيحه إلى ما يشهد شهادة سافرة بأن من النعيم الآخروي ما هو مادي ، فإن الاتكاء على السرر الموضوعنة حقيقة كما يشهد بأنه لا يمكن أن يكون لجسوم نورانية روحية حتى ليستحيل الوجه الأول من التقابل ويتعين الثاني منه ، يشهد أيضا بأن من النعيم الآخروي ما هو مادي وهو ظاهر ، فإن الاتكاء على السرر الموضوعنة لون من ألوان النعيم ، وقد سيق في الآية السكرية بيانا لما أعده الله تعالى للساقيين من نعيم وجزاء .

يذيل الأستاذ العقاد هذا الشاهد بقوله : وهذا فهم فيلسوف باحث في الجواهر والأعراض ، وفي مطالب الأرواح والأجسام .

وأقول : لم يفهم هذا الفيلسوف ما يحتمل الأستاذ العقاد ويحاول أن يضطره إلى فهمه حتى يختلس من الإمام شاهدا على ما زعمه ، بل الذي فهمه ذلك الفيلسوف واختاره هو ما يدحض ما زعمه الأستاذ . ولعل هذا هو السر الذي من أجله تناسى الأستاذ الوجه الثاني من الوجهين في معنى التقابل ، فأبرز لنا شاهدا من كلام الإمام تناوله الإمام نفسه بالتجريح ، وأغفل شاهدا تناوله بالتركية والترجيح . وإن كنت في ريب من مذهب الإمام ورأيه في نعيم الآخرة فاسمع قائله في الآية السكرية : وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابها ، ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون .

قال الامام بعد بيان طويل للبعث الجسمي وأن الانسان الثاني على نمط هذا الانسان الأول قال : المسألة الثالثة (ص ٣٤٤) : « اعلم أن مجامع اللذات إما المسكن أو المطعم أو المنكح ، فوصف الله تعالى المسكن بقوله تعالى « جنات تجري من تحتها الأنهار » ، والمطعم بقوله تعالى « كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل » ، والمنكح بقوله سبحانه « ولهم فيها أزواج مطهرة » ثم إن هذه الأشياء إذا حصلت وقارنها خوف الزوال كان التمتع منغصا ، فبين سبحانه أن هذا الخوف زائل عنهم فقال « وهم فيها خالدون » فصارت الآية دالة على كمال التمتع والسرور . هذه قالة الامام الرازي تبادى بلغة لا لبس فيها ولا إبهام بأن من النعم الأخرى ما هو مادي فيه مسكن ومطعم وزينة .

الشاهد الثاني في دعوى الأستاذ العقاد : ما فهمه الصوفية في ذم الآخرة : فقد فهموا نعيما روحيا غاية الوصول إلى الله تعالى ، وأتى الأستاذ بنصين من كلام المتصوفة يؤيدان هذا الشاهد .

الأول : سمعت رابعة العدوية قارئا يتلو قوله تعالى « وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون » فقالت : نحن إذن صغار حتى نفرح بالفاكهة والطيور .

الثاني : سمع الشبلي قوله تعالى « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » فصاح صيحة عظيمة وقال : فأين الذين يريدون الله تعالى . وكان يقول في قوله تعالى « كماوا واشربوا » إن كان ظاهره إنعاما فباطله انتقام وابتلاء واختبار لينظر تعالى من هو معه ومن هو من حظ نفسه .

وأقول : أسلفنا في مقالنا السابق أن المحققين من أهل الملل يرون أن النعيم والعذاب في الحياة الثانية ينتظم اللذائذ والآلام مادية وروحية ، وأن الثاني أبعد أثرا في باب النعيم والعذاب . وقد تأيد ذلك بالكتاب والسنة . والصوفية إذ تهدف إلى النعيم الروحي والوصول إلى جناب الحق تعالى ، لا ينكرون أن بجانب ذلك نعيما ماديا يغتبط به الجماهير والعامة من أهل الأديان . فالصوفية إذ يتكلمون في هذا الموضوع لا يتكلمون عما هو كائن ، إنما يتكلمون عن أمانهم وآمالهم لحسب ، وهو رجاء يهدف إلى نوال أبعد الأمور من النعيم .

وفي كلام الصوفية أنفسهم ما يشعر بما نقول ، قالت السيدة رابعة :

كلهم يعبدوك من خوف نار و يرون النجاة حظا جزيلا
أو بأن يدخلوا الجنان فيحفظوا بقصور ويشربوا سلسيلا
ليس لي في الجنان والنار حظ أنا لا أبتغي بحبي بدिला

فحديث الصوفية عن النعيم الروحي كما ترى في كلام السيدة رابعة إنما هو حديث عن الآمال التي يبتغونها عند الله تعالى ، كما هو شأن الفلاسفة في ذلك ، وحكاة ابن سينا في النجاة ، ونقلناه في مقالنا السابق : أما أن مرادهم أن النعيم الأخرى لا يكون إلا من هذا اللون الروحي فلا ، وليس حديثهم في ذلك .

وأما قول الشبلي كما حكاة الأستاذ في الآية السكرية كوا واشربوا : إن كان ظاهره إنعاما فباطنه انتقام وابتلاء واختبار ، فأقول : إنما كان المأكل والمشرب ابتلاء واختبارا لما يكتفه في هذه الحياة الأولى من تبعات وتكاليف ، فالطعام والشراب إنما يباح تناوله إذا كان من سبيل مباح لا غصب فيه ولا سرقة ، فهو مما يتعلق به أوامر الله تعالى ونواهيه ، فكان الأكل والشرب في الحياة الأولى ابتلاء واختبارا ، أما الطعام والشراب في الحياة الثانية ، فليس الأمر فيهما على هذا النوال ، بل هو محض متعة ولذة بريئة من التبعات والتكاليف جزاء خالصا للصالحين .

تناول الأستاذ العقاد أمرا آخر هو أن عذاب الآثمين ينقطع وينتهي أمرهم إلى الغفران ، وأن الأنفس جميعا تتلاقى في حظيرة الرضوان ، وأما ما ورد من النصوص الدينية من الخلود والابد فأنما يفيدان الزمان الطويل ، ولا يفيدان البقاء بغير انتهاء . وأقول : هذا الحكم في عمومه وشموله لم يقل به ملى ولا فيلسوف بل لهم في ذلك تفصيل .

قالوا : الإثم إما كفر وإما معصية أخرى . أما الكفر فقد أجمعوا على خلود صاحبه في العذاب لا ينتهى عذابه أبدا كيفما كان العذاب روحيا كما يرى الفيلسوف ، أو ماديا كما يرى الملى ، نقل ذلك عن الفريقين كتب الكلام .

قال الرازى في المحصل ووافقوه الطوسى في تعليقاته ص ١٦٩ : « اتفقت الفلاسفة على شقاوة النفوس الجاهلة ، واتفقوا على أن تلك الشقاوة مخلدة » . وقال العضد في المواقف ص ٥٨٢ : « قال الحكماء : النفوس الناطقة لا تقبل الفناء ،

ثم إنها بعد مفارقة البدن إما جاهلة جهلا مركبا، وإما عالمة: أما الجاهلة فتألم بعد المفارقة أبدا كالكافر عدنا، وذلك لأن دورها بقسماتها تقصانا لامطمع لها في زواله.

وحكى صاحب المقاصد عن الفلاسفة في ص ٢٢٤ ج ٢ قال: وتفصيل ما قال الحكماء: إن فوات كمالات النفس يكون إما لأمر عدى كنفسان غريزة العقل، أو وجودى كوجود الأمور المضادة للكمالات: وهى إما راسخة أو غير راسخة، وكل واحد من الأقسام الثلاثة إما أن يكون بحسب القوة النظرية أو العملية، فالكمال الذى يفوت النفس لقصان الغريزة في القوتين لا عذاب عليه بعد الموت، والذى يفوتها لوجود مضاد راسخ في القوة النظرية كالجهل المركب الذى صار ملكة للنفس لا يفارقها، فعذابه بعد الموت دائم. والذى يفوتها لوجود مضاد في القوة النظرية غير راسخ كاعتقادات العوام الخاطئة، أو في القوة العملية راسخا أو غير راسخ كالأخلاق الرديئة مستحكمة وغير مستحكمة فعذابها بعد الموت على فوت هذا الكمال ينقطع، إلا أنه يختلف كما وكيفما حسب اختلاف تلك الأخلاق الرديئة قوة وضعفا، وحسب اختلاف وجودها طولا وقصرا.

هذا رأى الفلاسفة: أما رأى المايين فقد حدث عنه الرازى في محصله، والعرض في موافقه، والسعد في مقاصده.

قال الرازى في صفحة ١٧٣: أجمعوا على أن وعيد الكافر المعاند دائم، وأما الكافر الذى بالغ في الاجتهاد ولم يصل الى المطلوب فقد زعم الجاحظ والغنبرى أنه معذور لقوله «ما جعل عليكم في الدين من حرج» والباقون أبوه (أى أبوا مازعه الجاحظ والغنبرى) بل حكمه كحكم المعاند فوعيده دائم، وادعوا فيه الإجماع. وقد نافس الطوسى رأى الشيخين فقال: المبالغ في الاجتهاد يستحيل أن يودى اجتهاده الى الكفر، بل إما أن يصل الى الحق أو يبقى ناظرا، وهو في كلا الأمرين ناج، وأما قوله تعالى ما جعل عليكم الخ خطاب لمن دخل في الدين.

وقال صاحب المواقف في صفحة ٥٨٦: أجمع المسلمون على أن الكفار مخلدون في النار أبدا لا ينقطع عذابهم، سواء بالغوا في الاجتهاد والنظر ولم يهتدوا، أو اهتدوا لكنهم عاندوا أو تكاسلوا. وأنكر ذلك طائفة خارجة من الملة الإسلامية.

وأنكر الجاحظ والعنبري الخلود للبالغ في الاجتهاد ولم يهتد . ثم قال صاحب
المواقف أخيراً : واعلم أن الكتاب والسنة والاجماع الذي انعقد قبل ظهور هؤلاء
المخالفين يبطل ما زعمه هؤلاء . بل قال شارح المواقف : إن ما زعمه هؤلاء يخالف
لما علم من الدين بالضرورة . وفي المقاصد صفحة ٢٢٨ مثل ما قال صاحب
المواقف : واعلم أن الخلود ظاهرة لازمة لآيات الوعد والوعيد في شأن الكافرين
والمؤمنين قلباً بحد آية منها خالية من الأبدية والخلود . وهذا هو السند الذي انعقد
إجماع المسلمين من أجله على خلود المؤمنين في نعيمهم ، والكافرين في عذابهم .
أما ما وراء الكفر من المعاصي والآثام فجوز غفرانها جمهور المسلمين تمسكاً بمثل
قوله تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . وشذ عنهم
في كبار الآثام أهل الاعتزال تمسكاً بمثل قوله تعالى « ومن يقتل مؤمناً متعمداً
فجزاؤه جهنم خالداً فيها » . وقد حمله الجمهور على المسكت الطويل حتى لا يتعارض مع
قوله تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

ولذلك بعد هذا البيان الذي تناول الآثام في أحكامها وجزائها ، وأن منها
ما عقابه أبدى مخلد ، ومنها ما له نهاية وغاية ، لا تطعن إلى ما زعمه الاستاذ العقاد
في مقاله « من أن العذاب تطهير وتكفير » ، وأن الأنفس جميعاً تتلاقى في حظيرة
الرضوان . بل من النفوس الآثمة ما يبقى دائماً في بئر الهوان بعيداً عن حظيرة
الرضوان ، وهم الآثمون بالكفر ، والجاهلون بالعقائد الحقّة جهلاً مركباً .

وما تمسك به الاستاذ سنداً لعموم ما زعمه « من أن المفسرين كادوا أن
يجمعوا على انتهاء عذاب الآخرة إلى الغفران » ، وأن الخلود والأبد يفيدان الزمان
الطويل ولا يفيدان البقاء بغير انتهاء ، فهذا لا يفيد شيئاً فيما زعمه ، فإن المفسرين
إنما ذهبوا إلى ذلك في الخلود الذي اقترن بالوعيد على إثم ليس من الكفر
في شيء ، كآية « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها » . أما الخلود
المقترن بوعيد الكفر لجمهور المفسرين على أنه الأبدية التي لا تنتهي ولا تقف
عند غاية . وكذلك الأحاديث الواردة في الغفران فإنما هي في الآثام التي ليست من
الكفر في شيء . وسند ذلك كله الآية المحكمة « إن الله لا يغفر أن يشرك به
ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

شعراء الأزهر

٣ - حسن القاياتي

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان

المدرس بكلية اللغة العربية

ذاك مُجَنِّدُهَا المَحْكَمَ ، وُعَدِيَّتُهَا المَرْجَبَ : حسن بن محمد بن عبد الجواد
ابن عبد اللطيف : زعيم بيت القاياتي ، بيت مصر الوسطى : الجيزة ، وبنى سويف ،
والمنيا ، والفيوم . وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية : وشيخ رواق الفشنية
في الأزهر الشريف ، والنائب الوفدي السابق .

يلتزم نسبه من جهة أبيه ، إلى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبي هريرة
رضي الله عنه : ومن جهة الأم إلى الحسين السبط رضي الله عنه .

وبيت القاياتي أشبه البيوت الدينية بالزوايا التي كان لها بالأوطان الإسلامية
في العمود المتوسطة شأن مذكور . فقد كان — وما يزال — محط رحال الوافدين
من الواحات ، ومن بلاد المغرب ، ومن أقاليم مصر الوسطى ؛ يلقون في أوضاعه
الكرامة ، وفي رحابه الفَيْح ، وفي سماحته الطبيعية ، عودة الغريب إلى وطنه ،
والتأزيع^(١) إلى كَنَظِهِ ، والطائر إلى فَتْنِهِ .

وهو — إلى أنه بيت دين وكرم — بيت علم وأدب وسياسة . فن أعلام
علمائه : السيد أحمد عبد الجواد أحد علماء الأزهر وشيخ الفشنية في القرن التاسع
عشر ، والسيد عبد العظيم محمد زعيمه السابق ؛ وكل رجاله أدباء ؛ ولهم في السياسة
المصرية مقام مشهود ؛ فالسيدان : محمد وأحمد عبد الجواد في الصف الأول من
زعماء الثورة العرابية ، وكان حظهم من آثارها النقي إلى سوريا الشقيقة لمدة أربع
سنوات ؛ والشيخ مصطفى الزياتي ، كان من أبرز أعضاء الوفد المصري ، وخلفه

(١) التأزيع : البعد المنعرج بمن إلى وطنه .

شقيقه السيد ابراهيم شيخ الفشنية السابق : وعلى الجملة : لم تجدد في مصر حركة وطنية أو دينية ، لم يبذل فيها بيتا القاياتي في القاهرة وفي « القايات » أوفى قسط من الجهود الأدبية والمادية بذل السخى المساح .

والسيد حسن القاياتي ، من لدات المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر السابق ، وصاحب الفضيلة الشيخ محمود أبى العيون سكرتير الأزهر ، نعمل تقارب أوطانهم الخاصة — مع ذلك — إلى اتصالهم في الأزهر لما وفدوا عليه لطلب العلم : فكانوا في دروسهم وأسمارهم ، وارتياضهم ، وفي أفراحهم وأنراحهم : وفي إقامتهم وأسفارهم : لا يكادون يفرقون : ولقد مضى شيخ الأزهر السابق إلى لقاء الله وقد أوفى على الغاية : وها هو ذا صديقه أبو العيون يسير في طريقها ، مد الله في أجله : وبقي شاعرنا شيخنا لرواق الفشنية لا لأن حرفة الأدب أدركته ، ولا لأن حظه من المحصول العلمى كان أقل من حظ صديقه العظيمين : بل لأن عزة الشاعرية أبت عليه أن يذل للجنة امتحان فيخضع لحكمها أعطته أو حرمته ، وقد يكون من بين أعضائها من هو دونه في موضوع الحكومة : ولولا ذلك لكان له اليوم شأن آخر : ولكم قتلنا له في الذروة والغارب لنثيه عن هذا الرأى ، ولكن كان قد فات الأوان ، وما شاء الله كان !

كان للمغفور له أمير الشعراء شوقي بك في حياته خصوم وأنصار ، وكان من أبرز خصومه الأستاذان الصديقان العظيمان : العقاد والمازنى ، فقد كانا ينقدان شعره وينشران النقد في الصحف ، بل لقد أخرجنا مجلة في نقده بخاصة أسمياها « الديوان » وكان الأمير يبغض النقد جدا . ومن دون هذين طائفة أخرى ، تنقده شفويا في المجالس والأسمار ، وكان منها المرحوم الأستاذ الهراوى ، وشاعرنا السيد حسن . أما أنا فكنت من أخلص أنصاره عاطفيا : واتفق أن نشر الأمير إحدى قصائده ، وأنشدت في بيت القاياتي ، فأخذت أسرف في مدح القصيدة بخاصة ، وفي مدح شعر الأمير بعامة ، إسرافا عاميا غالبا : فالتفت إلى السيد حسن ، وقال لي في حدة : على أى أساس بنيت هذا المدح ؟ فأطرقت ،

ولم أحرّ جواباً ! وكان أبلغ درس تلقّيتهُ في النقد الأدبي ، وأفدت منه ما آكل به خبزي في هذه الأيام !

ولقد مضى شاعرنا السيد حسن القاياتي بجزالة الأسلوب الشعري ونخامته ، وشرف المعنى ودقته ، بلا جدال : وما أحاشى من شعراء النهضة الحديثة من أحد لا من الأموات ، ولا من الأحياء . يبيد أن الناس - منذ جرير والفرزدق - يختلفون في أي الشعارين أفضل ؟ الشاعر ذو الأسلوب الجزل الفخم ، أم الشاعر ذو الأسلوب الرقيق العذب . قال يونس بن حبيب : « ما ذكر جرير والفرزدق في مجلس شهادته قط ، فاتفق المجلس على أحدهما ، وقال أبو الفرج - بعد أن أفاض في اختلاف الناس في جرير والفرزدق - : « أما من كان يميل إلى جزالة الشعر ونخامته وشدة أسره ، فيقدم الفرزدق ، وأما من كان يميل إلى أشعار المطبوعين ، وإلى الكلام السهل القزل ، فيقدم جريرا » . وهذا يشرح قول يونس بن حبيب ، وقد سئل عن رأيه الخاص فيهما ، فقال : « الفرزدق أشعر خاصة ، وجرير أشعر عامة ، فان نسبة الخاصة التي تروقها جزالة الشعر ونخامته ، إلى العامة التي تطربها أشعار المطبوعين ، لا تكاد تبين .

ومن هنا ذهب بالشهرة وُبعد الذكر ، كثيرون من الشعراء الذين يسمُّونهم أنفسهم بالسيد حسن عن مستواهم الشعري ، وهم في ذلك غير ملومين ، فتلك شناعة الجماهير ، لا في الشعر فحسب ، بل في أكثر شؤون الحياة .

ولعل أوضح ما يمثل المذهبين ، شعر السيد حسن القاياتي ، وشعر الشاعر الفحل ، الأستاذ محمود غنيم ، شاعر دار العلوم ؛ فهذا شاعر ينسق من شعره طاقة من الزهر ، وذاك شاعر يشيد من شعره هيكل من الصخر ؛ ولقد تلاقى الشاعران في رثاء المغفور له شيخ الأزهر السابق الشيخ مصطفى عبد الرازق طيب الله ثراه ؛ وتواردا على بعض المعاني ، فجلاها كل منهما مُعلّسة برّوتيه الخاص الذي يستعصى على التقليد ، وانفرد كل منهما بعمان آخر ، وكلاهما في مذهبه مجيد كل المجيد ؛ ومع كل أولئك ، تغلب جانب الجماهير ، فأنشدت قصيدة الشاعر غنيم على وجهها ، وأحسن استقبالها ، على حين اكتفى من قصيدة السيد بأبيات لعلها ليست أروعها ولا أندرها .

يذكر غنيم بيت عبد الرازق فيقول :

نمته أصول ، لو نمت النجم اعضها	لحرك عطفه من التيه إن بدا
ورباه بيت يخدم الناس شيخه	وإن كان فيه الطفل يولد سيدا
على البر والتقوى نأسس ركنه	ومن لبنات العلم والدين شيدا
نما زهر الآداب حول سياجه	وصاح به طير البيان مغردا
وطابت ثمار الفكر في ظل روضه	وأشده فيه الشعر درا منضدا
تشاهد فيه الشافعي ومالك	وتلقى ابن عباد به والمبرد
فللعلم منه سامر أي سامر	والأدب العالي هنالك منندي

ويتناوله القاياتي فيقول :

يا مصطفى أمل الحجا	في أمة خطبت حجاها
فطر الملائك ربها	في مثل خيمك ، واحتذاها
الشمس بيدك ، والعلا	تنهل عارفة وجاها
عرفوا أباك فسدتهم	والشمس ما عرفوا أباه
إن تعل أسرة نابه	فتعرفوا : من والداها ؟
للدين بيت ثقافة	للجامعات وما بناها
في هدى طه يعتلى	ناديك ، أم في علم طه ؟

ويعرض غنيم للأزهريين فيقول :

فتى حرر الإسلام من رق معشر	يرون الجريء الحر ليس موحد
قضى واجب الأوطان والدين كاملا	وأصدر في كل الأمور وأوردا
ولم يقض في ظل الصوامع عيشه	قعيدا ، وليس المسلم الحق قعدا
رأى العلم فيه فيلسوفا وما رأى	به الدين إلاقا متبهدا
فقل للثقاة الجامدين : رويدكم	مق كانت التقوى صلاة ومسجدا ؟
وما كل من يفشى المعابد مؤمنا	ولا كل من يستخدم العقل ملحد

ويعرض لهم القاياتي فيقول :

يا سيدا	عصفت	به	شيم	الجلالة	وابتناها
فتكت	بنفسك	عزة	كالار	يتلفها	لظاها
كرم	أحل	بربه	تلف	الازاهر	في نداها
ضحك	الغواة	لنبه	فبكي	الفضيلة	وافتهاها
أنف	الهوان	بساحة	البدر	يشرق	في ذراها

ويتناول غنيم تمسكه بمظاهر الاسلام ، في مضطرب الإلحاد ، فيقول :

رفعت لواء الشرق في الغرب واكتسى بك المظهر الشرقى عزا وسؤددا
وزانك ثوب زانه النبل والتقى فلاحمته هذا ، وذاك له سدى
لقد غرض من شأن العمامة معشر فشدت لها بين السماكين مقعدا



ويتناوله القاياتي فيقول : من تحقيق كميور علوم رمدى

شيم الملائك حلية في مصطفى ، وله تقاها
عرف الإله جلالة والزيغ يهتف : لا إله !

فأما بعد ، فإنني لم أقصد بإيراد هذه المثل إلى موازنة ، ولا إلى نقد : وإنما
نشدت زيادة الإيضاح ، الذي يوسع من آفاقه ويعين عليه الجمع بين الضدين ،
ورحم الله صاحب اليتيمة :

فالوجه مثل الصبح مبيض والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضد

ولقد حسن الشاعران كلاهما ، وتجلى فوقهما تجليا لا يخامره ريب ، وكان
بودى أن يتحد مذهباهما ، وأن تتفق قصيدتهما وزنا وقافية ، حتى أستوفيهما
موازنة ونقدا ، إذاعة لفضلهما ، وتفصيلا لنواحي الجمال الفني في شعرهما ،
ولكن : ما كل ما يتمنى المرء يدركه .

ومن السحر الذي ينفث السيد حسن القاياتي في عقده ، ثم يسميه شعرا :
قوله في الغزل من قصيدة :

إن في الغادين منى طفلة قام بدع الحسن منها وقعد
صوّرت من جوهر الشمس فها هي إلا ريق الثور جمد
أوقد الحسن على وجنتها جمر قلب ، فتلظى واتقد
يعكف الطرف عليها مغضياً قد رأى قبله حسن فسجد !

لا يراني الله إلا ذاكرا ليلة التوديع ، والبين يُعد
أقبلت والليل يرنو نجمه نظرة الزنجي حقدًا أو كمد
لا أدم البين ظلما ، وفم من فم دان ، وخذ فوق خدا
تمسح الدمع غزيراً يسد ثم تدفني إلى الصدر بيد
أرشفني ريقة قد بُردت من ثماياها بحبات البرد

ومن وطيّاته قوله في حرب طرابلس ، من مقصورة :

أكيداً لنا يا بغاث العدا ؟ دعوا البيض مركوزة والقنا
نصحنّا لكم : لا تهيجوا الأسود وقد يرسل النصح لا عن هوى
جنيتم وغى ، فاجتوا صابها فان لكل امرئ ما جنى
أيضا سوى خطى عزة فإما المعالي ، وإما الردى
نجدود بأرواحنا لاثنتين غداة الوغى ، وغداة الندى
زعمتم طرابلس ملكا لكم ألا ما أحب حديث المنى !
ترون السماء ، فهل تدنى لا يديكمو ؟ هي تلك السما !
أجدتم طعان المواسى الرقاق فأما طعان العوالى فلا
وقد تحسنون إنباء الظباء ولا تحسنون لقاء الظبا
رويدا عديد الدبي ، تمطروا من النيل مثل عديد الدبي
تدارك وقع النبال عليكم تدارك وقع الحبال

ومنها :

ألا يضحك الناس من زائف يرى المهتدين سبيل الهدى ؟
ومن مستطيل كفور الفؤاد يحاول مسعاة أهل التقى ؟
أللعدل جثتم ؟ معاذ الإباء متى عرف العدل فيكم ، متى ؟
أجوداً على العرب الطاعمين وفي داركم كل بادي الطوى ؟
وبرأ بقاصية العالمين والبر أولى به من دنا ؟
وما أصدق ما قال السيد ، في أمم الغرب بعمامة ، لا في الطليان بخاصة !

والسيد حسن - الى أنه شاعر فحل - كاتب بليغ ، يتوخى طريقة مزاجا من مذهبي الجاحظ وابن العميد في الكتابة : جزالة نغمة ، مع الترسل حيناً ، ومع السجع المطبوع حيناً ، ويبطئه بقلبه عن المراتة والسرعة التي تستدعيها طبيعة العصر ، إباؤه على التبذل ، وسموه عن الاتجار في أسواق الحياة : ولولا ذلك لعد في العشرة الأوائل من كتاب الشرق العربي .

مركز تحقيق كوفية علوم راسدي

ثم أما بعد ، فلعل - بما أعربت عنه من تحديد موقف السيد حسن من أدباء النهضة الحديثة في غير مجاملة ولا تحامل - أكون قد خرجت من منطقة (العجم) الذين خاطبهم في بعض ثوراته بقوله :

إني لأضخم من في مصر قافية لا تجحدوني هذا ، أيها العجم
فأني أول المؤمنين بهذه الضخامة ؛ بيد أنها سلاح ذو حدين !

حاشية : روت مجلة الأزهري (عدد جمادى الأولى ، مجلد ١٩) بيت السموه
ابن عادي ، هكذا :

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل
وعبارة : « حتف أنفه » لم يسبق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وصواب الرواية : « وما مات منا سيد في فراشه »

الى فلسطين

فلسطين جزء من البلاد العربية ، وهذه البلاد تؤلف منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا وحدة اجتماعية لا تقبل الانقسام ، كما لا تقبل أية وحدة عالمية في الأرض الآن . وقد جمعت بين أهلها رُبط قوية من اللغة والعادات والغايات الاجتماعية بحيث يضر بكيانها قيام دولة أجنبية في بقعة منها لا تمت إليها بسبب ، مهما تشبثت بأدلة تاريخية تثبت أن قدماءها كانوا يمشون بتلك البقعة قبل نحو (١٨٠٠) سنة . ولو كان يصح التشبث بأمثال هذه الأدلة التاريخية ، لأصبحت أكثر الممالك الأرضية في حالة عدم استقرار مستمر ، لأنه ليس منها واحدة ذات حدود طبيعية مقررّة ؛ ولكن العالم أصبح معترفا بأن للتحوّلات الاجتماعية أوضاعا لا بد من احترامها ، مادام قد مضت على قيامها أجيال ، واستقرت عليها الأحوال . ولهم البشر أن هذه القاعدة يجب أن تطبق حتى على الشؤون العالمية . من أمثلة ذلك سقوط الحق في المطالبة بعقار بعد مضي مدة معينة ، فتصبح ملكا لمقتنيه بوضع اليد . هذه قاعدة أملت الحاجة الى الاستقرار بين الأفراد ، فما بالك بالحاجة الى الاستقرار بين الأمم ؟

كانت الأمة الإسرائيلية بعد وفاة ابراهيم عليه السلام تسكن مصر ، فلما بعث اليهم موسى عليه السلام هاجر بهم من مصر الى شبه جزيرة طور سيناء : وبعد وفاة موسى تقدموا صوب فلسطين واحتلوها تحت قيادة يوشع . ومن عهد يوشع الى (شاول) كان اليهود في حروب دامية بينهم وبين أهل فلسطين . وخلف داود (شاول) فاتخذ أورشليم (مدينة القدس) عاصمة للملكة . ولما تولى بعده ابنه سليمان بنى الهيكل ، وتوفي سنة (٩٣٠) قبل الميلاد . ولم يتفق اليهود على من يخلفه ، فانقسموا الى دولتين : اسرائيل ، ويهوذا . ولما استولى الكلدانيون على أورشليم نُقل اليهود أسرى الى شواطئ الفرات . فلبثوا هناك حتى تولى الملك فيروش فسمح لليهود بالانتقال الى فلسطين .

وبعد هذه الأدوار كلها وقع اليهود تحت سيادة المقدونيين ، وبعدهم تحت سلطان السلوسيديين بسورية ، فأذاقوهم ألوان العذاب بسبب دينهم ، فثاروا عليهم واستردوا حريتهم ، وكان ذلك سنة (١٦٤) قبل الميلاد . وفي سنة (١٤٠) ق . م . طلبوا إلى امبراطور الرومان أن يجعل ملوك أورشليم اليهود تحت الحماية الرومانية .

وفي سنة (٧٠) م . ثار اليهود على الرومانيين ، فاستولى امبراطورهم تيتوس على أورشليم . وعاد اليهود إلى الثورة مرة أخرى سنة (١٣٥) فأطفاها الامبراطور ادريان . ومن هذا العهد فقد اليهود وجودهم القومى حتى وعدتهم به إنجلترا في معاهدتها مع فرنسا سنة (١٩١٦) ، وسجلتها في معاهدة لوزان سنة (١٩٢٣) .

أعلنت إنجلترا رسميا بأنها وعدت اليهود بوطن قومى ، فلما رأهم فسروا ذلك بإقامة دولة يهودية ، ردت عليهم رسميا بأنها لم تكن تقصد بالوطن القومى إقامة دولة ، وإنما قصدت به إيواء مهاجرين بنسبة ١ إلى ٢ من أهلها المسلمين . ولما آلت أن اليهود أخذوا يكثرون من شراء الأراضى ، وخشيت أن أهل البلاد الأصليين سينتهى أمرهم إلى إضاعة أراضيمهم ، أصدرت قانونا بتحريم بيع الأراضى مادامت لها الوصاية على فلسطين ، وأصرت على أنها لا تقبل من مهاجرين إلا ألفا وأربعمائة فى كل شهر . فلم يقنع اليهود بهذا العدد وأخذوا يكثرون من استيراد المهاجرين ، فكانت إنجلترا تقبض على سفنهم وتحول وجهتها إلى بعض ممتلكاتها الأفريقية ، وإلى جزيرة قبرص ومالطة .

العامل الذى حفز الاسرائيليين الى ضرورة إيجاد وطن قومى لهم ، وإقامة دولة يهودية ، بعد أن لبوا نحو ثمانية عشر قرنا مبعثرين فى الأرض ، هو ظهور نعمة جديدة بوجوب حفظ الدم الأوروبى (الآرى) نقياً من الدم السامى (نسبة الى سام) الذى ينتمى إليه اليهود . لم تكن كراهية الأوربيين لليهود بخافية على أحد منذ أن قغى عليهم بالجوار ، ولكن هذه الكراهية اشتدت بعد ظهور هذه النعمة فى القرن التاسع عشر . فكانت تحدث مجازر تفشى منها الأبدان فى روسيا وبولونيا ورومانيا وغيرها ، فكان اليهود يهاجرون الى تركيا وغيرها من بلاد المسلمين ، وإلى الأرجنتين بأمريكا الجنوبية ، ولكن نصيب الولايات

المتحدة منهم كان أعظم ، فقد هاجر فيها نحو أربعة ملايين نسمة ، وقد بلغوا ستة ملايين الآن . هذا الاضطهاد كان يحمل الجماعات منهم أن يتصرفوا ظاهرا ، ثم يعودون الى ملتهم بعد هدوء الثوار .

هذه الكوارث الاجتماعية حفزت الإسرائيليين أن يفكروا جديا في أمرهم ، فرأوا أنه لا منجاة لهم من هذه المجازر الدورية إلا إيجاد دولة يهودية لهم ، وكان أنجب من تصدى للدعوة لهذا الأمر ، كاتب كبير منهم من سكان فيينا يدعى (تيودور هرزل) ، فكتب في ذلك كتابات كثيرة اكتسب بها هوى أهل ملته إلا قليلا منهم ممن كانوا يرون في ذلك تضيقا لمجالم الحيوى ، كان ذلك سنة ١٨٩٦ .

أطال زعمائهم الروية في أى البلاد تصلح لذلك ، فقرروا أن تكون فلسطين ، إن سمح سلطان تركيا أن ينيلهم ذلك في مقابل مال طائل ، فلم يقبل ، فظلوا يفكرون في أن يجعلوا تلك الدولة في الأرجنتين بأمرىكا ، فلم يتفق لهم ذلك . ولما حدثت الحرب العامة في سنة (١٩١٤) ، واضطرت بريطانيا للبال وعدتهم بأن تسمح لهم باتخاذ فلسطين وطنا قوميا لهم ، وأباحت لهم الهجرة إليها . ولما رموا إلى تكوين دولة مستقلة فيها عارضتهم إنجلترا ، وأبانت لهم أن الوطن القومى لا يعنى إقامة دولة مستقلة كما قدمنا ، ولكن اليهود لم يقبلوا هذا التفسير ، واستمروا فيما هم فيه ، وشنوا عليها حرب عصابات مريرة .

وعما يجب أن نلفت إليه الأنظار ، أنه لما سمحت إنجلترا لليهود بالهجرة إلى فلسطين ، لم يبد من أهلها ما يشعر باستيائهم من هذا الأمر ، صادرين في ذلك عن أريحية المسلمين المعهودة في قبول اللاجئين ، وإيواء المضطهدين ، وهى خلال ورثوها عن آبائهم الأولين . وما كان يدور بخلدكم أن هذا الأمر سيتأدى إلى اقتطاع جزء من بلادهم ، لتقام فيه دولة لا تمت إليهم بسبب . فثارت نائرة أهل فلسطين ، ولجأوا إلى جامعتهم العربية ، فتولت دولها الدفاع عنهم . ثم حكمت هيئة الأمم المتحدة للفصل بين الفريقين ، باعتبار أنها المرجع الأعلى لما يشجر بين الأمم من خلاف . فلعبت السياسات المتعاكسة دورها ، وأقرت الهيئة مطلب الصهيونيين بأكثر الأصوات . فكان هذا القرار مثيرا للجامعة العربية إلى منع سريانها بالقوة ، وسرعان ما زحفت جيوش دولها إلى فلسطين يتقدمها الجيش

المصري الباسل، مليبا دعوة حضرة صاحب الجلالة قائده الأعلى الملك فاروق الأول الذي يرجع إليه الفضل في رفعه إلى درجة أرق جيوش العالم نظاما وتسليحا، وكان اليوم زحفه احتفال لم يسبق له مثيل، وجد فيه من تشجيع الشعب له، وإكباره إياه، وحفاوته به، ما رفع من قواه المعنوية إلى أعلى ما تصل إليه.

وزاد جلالة الملك في العناية بفلسطين إلى درجة أن تفضل بإرسال كتيبة من حرسه للاشتراك في قتال المعتدين، فكان الاحتفال بتوديعها من أبلغ ما عرف عن مصر في تاريخها الحديث. كان مئات الألوف من الناس محتشدين على طول الطريق من أول ثكنات الحرس بعابدين إلى محطة القاهرة، وكانت الهتافات الحماسية تخترق أجواز الفضاء محيية الجنود المرسلين، وداعية لجلالة قائدهم الأعلى فاروق الأول بدوام العز والتأييد؛ وكان في توديعهم على المحطة كثير من العظماء والوزراء.

وعند تحرك القطار ألقى حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمود أبو العيون سكرتير عام الأزهر خطبة بليغة كان لها وقع عظيم في قلوب الجنود والمحتفلين. وإليك نصها البديع:

« إلى الإمام يا حرس الفاروق! إلى الإمام يا جند الله! إلى الإمام يا أبناء البهاليل من العرب الأبحاد! قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وليجدوا فيكم غلظة! »

« انضحوا العار عن أنفسكم، وعن دينكم، وعن شرفكم، وعن تاريخكم، وعن أماكنتكم المقدسة، وعن فلسطين الجريحة، وتمثلوا بقول القائل:

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة ولو تسلت أسلناها على الأسل
لا ينزل المجد إلا في منازلنا كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

« سيروا على بركة الله يا جند الفاروق، فسيفرق الله بكم بين الحق والباطل! سيروا في حراسة الله، وفي رعايته وكلامته.

« يأيا الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون، »

سار القطار وغاب عن الأعين، والقلوب معهم، والدعوات تحف بهم وبإخوانهم الذين في ميدان القتال. نصرهم الله نصرا مؤزرا، وحفظ لبلاد

المسلمين كمالها وجلالها ومهابتها أبد الأبد ؟ ف

سبق الاسلام

إلى منع الاستكفاف

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعیدی
المدرس بكلية اللغة العربية

الاستكفاف : مصدر استكف الناس إذا مد إليهم كفه يستعطيهم ، وهو المعروف الآن باسم الشحاذة والتسول . والشحاذة : مصدر شحذ في السؤال إذا ألح فيه . والتسول مأخوذ من السؤال ، يقال سال سؤالا بمعنى سأل سؤالا ، والسؤالة : الكثير السؤال .

وقد سبق الإسلام الحكومات الحديثة إلى منع الاستكفاف والتسول ، لأنه وصمة عار في جبين كل شعب يظهر فيه ، ودليل على انحطاط أفراده وتأخرهم ، لأنه يدل على فساد نفوس فقرائهم وأغنيائهم : إذ يستسهل الفقراء هذه الحرفة الدنيئة ، ويؤثرونها على العمل الذي يقيمهم ذل السؤال ، وإن يمن الأغنياء بأموالهم على إنشاء الملاجئ التي تقوى العجزة ، ولا توجههم إلى مد أيديهم إليهم .

وفي الإسلام نصوص من القرآن والحديث تنهى عن الاستكفاف والتسول ، وهي النصوص التي يجب الاعتماد عليها في أمره ، ليأخذ المسلمون بها في حياتهم العامة والخاصة . ويعملوا على منع ظهور هذه الحرفة الدنيئة بينهم ، بالأحكام الزاجرة ، وبإنشاء الملاجئ التي تقى عجزتهم عن ذل السؤال ، كما عمل بهذا سلفهم الصالح ؛ ولهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، لأنه سن في ذلك نظامين وفيهما المعوزين من أصحابه ذل السؤال : أولها نظام المؤاخاة ، وقد سنه في أول الإسلام للموالى الذين أسلموا فطردهم أولياؤهم ولم ينفقوا عليهم ، وللشبان الذين أسلموا فطردهم أولياؤهم ومنعهم أموالهم : ثم سنه بعد هذا في أول الهجرة إلى المدينة للمهاجرين الذين منعهم قريش أموالهم في مكة ، فأخى

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : « ملعون من سأل بوجه الله ، وملعون من سئل بوجه الله ثم منع من سأله ما لم يسأل هجراً » . أى أمراً قبيحاً لا يابق ، أو سؤالاً قبيحاً أى بكلام قبيح . والسؤال بوجه الله هو أن يسأل الناس شيئاً بالله . فهذا الحديث يلعن السائل ، وليكنه يلعن المستول إذا لم يعطه .

وأما النصوص التى يفيد ظاهرها جواز السؤال فمنها قوله تعالى فى الآية - ١٧٧ من سورة البقرة : « ليس البر أن تولثوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين ،

ومنها قوله تعالى فى الآية - ١٩ - من سورة الذاريات « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » .

ومنها قوله تعالى فى الآيتين - ٢٤ ، ٢٥ - من سورة الماعز « والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » .

ومنها قوله تعالى فى الآية - ١ - من سورة الضحى « وأما السائل فلا تنهر » .

ومنها ما أخرجه أبو داود عن علي بن رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « للسائل حق ولو جاء على فرس » . وقد جاء فى الموطأ برواية زيد بن أسلم : « أعطوا السائل ولو جاء على فرس » .

ومنها ما أخرجه أبو داود والترمذى عن أم نجيد أنها قالت للبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إن المسكين ليقوم على بابي فلم أجد شيئاً أعطيه إياه . فقال لها : « إن لم تجدى إلا ظلفاً محرقاً فادفعيه إليه فى يده » . وفى رواية الموطأ : « ردوا المسكين ولو بظلف محرق » . والظلف خف الشاة ، وفى كونه محرقاً مبالغة فى قلة ما يعطى .

ومنها ما أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سأل الناس وله ما يغنيه ، جاء يوم القيامة ومسأته فى وجهه حموش أو خدوش أو كدوح » . وقيل يا رسول الله : ما يغنيه ؟ قال : « خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب » .

بين المهاجرين والأنصار، الى أن استغنى المهاجرون ، وصارت لهم أموال تغنيهم عن مساعدة إخوانهم من الأنصار .

والثاني نظام أهل الصفة ، وكانوا ناساً من فقراء المهاجرين لم يجدوا من العمل ما يكفيهم ذل السؤال ، فأنشأ النبي صلى الله عليه وسلم لهم مُصَفَّةً بالمسجد ، وهي مكان مسقوف منه ، فكانت بهذا أول ملجأ في الإسلام ، ولعلها أول ملجأ ظهر على وجه الأرض ، وحاز الاسلام به قصب السبق في نظام الملاجئ ؛ وكان أهل الصفة يمثلون في المسجد طلبة العلم ، فكانوا الجيل الأول من طلاب العلم بالمساجد في الإسلام ، وقد تبعهم الأجيال بعدهم في هذه السنة الى جيلنا الحاضر .

ولكن الاسلام فيه نصوص أخرى ربما يفيد ظاهرها جواز الاستكفاف والتسول ، ولعل إساءة فهمها هي التي تجعل المسلمين لا يستكفون الآن من انتشار الشحاذين والمتسولين في بلادهم ، ولا يرون في هذا عارا يلحق بهم ؛ ولهذا أردت أن أدرس النصوص التي وردت في هذا الباب ، لأحقق أمرها ، وأبين حكم الإسلام الصحيح فيها .

فأما النصوص التي وردت في منع التسول فمنها قوله تعالى في الآية - ٢٧٣ - من سورة البقرة : « للفقراء أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً » . فالمراد لا يسألون الناس أصلاً ، لأنه قال : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » . وهو ترك المسألة ، فعلم بذلك أنهم لا يسألون البتة ، ولأنه قال : « تعرفهم بسيماهم » . ولو كانت المسألة من شأنهم لما كانت الى معرفتهم بالعلامة حاجة ، ففعلنا الآية أنهم لا يكون منهم سؤال حتى يقع فيه إلحاف ، فهم لا يسألون الناس إلحافاً ولا غير إلحاف ، وهذا على حد قول امرئ القيس :

على لا حبٍ لا يُهتدى بماره

يريد نفي المنار والاهتداء به . وقد نزلت هذه الآية في أهل الصفة مدحاً لهم ، والمدح بشئ يقتضي ذم نقيضه ، فيكون سؤال الناس مذموماً يقتضي هذه المقابلة .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : « لأن يأخذ أحدكم حبله ، ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها ، خيره من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه » .

وقد قال الخازن في تفسير قوله تعالى في سورة الضحى « وأما السائل فملا تنهر » : يعنى السائل على الباب ، يقول : لا تزجره إذا سألك ، فقد كنت فقيرا ، فأما أن تطعمه ، وإما أن ترده ردا لنا برفق . وقال ابراهيم بن أدهم : القوم السؤال يحملون زادنا إلى الآخرة . وقال ابراهيم النخعي : السائل يريدنا إلى الآخرة ، ينجى إلى باب أحدكم فيقول : هل توجهون إلى أهليكم بشئ ؟

فالنصوص الأولى تدم الاستكفاف والتسول ، ومنها ما بالغ في ذم السائل بالله إلى حد اللعن ، وهو الظرد من رحمة الله تعالى ، ومثل هذا يفيد حرمة السؤال . ولكن النص الأخير منها لعن المسئول الذى لا يعطى السائل بالله ما لم يسأل هجراً ، وهذا يفيد وجوب إعطائه مع حرمة سؤاله . وبعضهم حمل اللعن في هذا على الكراهة الشديدة .

والنصوص الأخيرة منها ما يفيد جواز السؤال مطلقاً ، إذ أمرت بإعطاء السائل ولو جاء على فرس ، ومنها ما يفيد جواز السؤال عند الحاجة ، ومنعه عند الغنى ، وقد قُدِّرَ الغنى فيها بخمسين درهماً أو قيمتها من الذهب : ومنها ما يمدح القوم السؤال لأنهم يحملون زادنا إلى الآخرة .

والحقيقة أنه لا تعارض بين النصوص الأولى والأخيرة ، لأن ذم السؤال لا يقتضى المنع من الإعطاء : إذ هما فعلاّن مختلفان ، ويصدران من شخصين مختلفين ، والفعل الواحد من شخص واحد قد يذم ويكون صحيحاً في آن واحد ، كالصلاة في الأرض المفصولة : وكذلك جواز الإعطاء لا يقتضى جواز السؤال ، لأن السائل قد يكون محتاجاً ، فيعطيه المسئول دفعاً لحاجته ، ولا يصح أن يتركه إذا كان جائعاً مثلاً لهلك جوعاً ، وقد يعطى المسئول دفعاً لمذمة السائل أو غيره ، وهذا أيضاً مما يقتضى جواز الإعطاء ، وإن كان السؤال في ذاته مذموماً ، وإن كان السائل غنياً عن السؤال ، لأن المسئول لا يقصد في ذلك دفع حاجة السائل ، وإنما يقصد صون عرضه من الهجاء والذم .

والحق أنه لا شئ في ذلك على أفراد السائلين والمسئولين إذا كان السؤال عن حاجة ، وإنما الذنب في ذلك ذنب الجماعة أو ذنب الحكومة ، لأن الجماعة أو الحكومة هي المسئولة عن تعريض المحتاجين للسؤال ، وعن تعريض الأفراد

لسؤالهم ، فهي التي يمكنها أن تنشئ الملاجئ للمحتاجين ، وهي التي يمكنها أن تجمعهم فيها بما تملكه من قوة الحكم ، وهي التي يمكن أن تمنع التسول بما تفرضه من الزواجر .

فإذا قصرت الجماعة أو الحكومة في ذلك فلا شيء على المحتاجين إذا تولوا دفع حاجتهم بأنفسهم ، فسألوا الناس ما يحتاجونه لدفع جوع أو عرى أو نحو ذلك من أمورهم ، ولا شيء على المسؤولين إذا أجابوهم إلى ما يسألون ، بل قد يكون ذلك واجبا عليهم عند خوف هلاك السائل أو نحوه ؛ لأن تقصير الحكومة أو الجماعة في ذلك لا يقوم عذرا للأفراد ، ولا ينجيهم من عقاب الله إذا قصروا في دفع حاجة المحتاج .

ولم يكن على الاسلام أن يفعل أكثر من ذلك في علاج هذه المشكلة الاجتماعية ؛ فقد قام بعلاجها على ما يجب في جميع أحوالها ، فدم التسول والاستكفاف شر ذم ، ووضع نظام الإخاء ونظام الملاجئ لعلاجها بالعمل بعد علاجه بالقول ، وهذا من شأن الحكومات والجماعات ، وقد احتاط للمحتاجين إذا قصرت الحكومة أو الجماعة في أمرهم ، فلم تنشئ لهم الملاجئ أو نحوها مما يقيم الحاجة ويفنيهم عن السؤال ، فأمر الأفراد أن يعطوهم إذا سألوهم ، وما كان له أن ينههم عن إعطائهم إذا قصرت الحكومة أو الجماعة في أمرهم .

من مجمع فؤاد الأول

قررت لجنة الادب بمجمع فؤاد الأول أن تنوّه بخير الكتب الموافقة سنة ١٩٤٧ - ١٩٤٨ في الادب ، من شعر ، وقصص ، وبحوث ، ودراسات أدبية ولغوية ، على ألا يكون من بينها كتب مترجمة ، اللهم إلا إذا كان الكتاب المترجم من أمهات الكتب التي تعود على الادب العربي بفائدة وتضم إليه ثروة محقة .

والمرجو من الهيئات العلمية ودور النشر والمكتبات موافاة اللجنة بهذه الكتب أو إفادتها بأسمائها ونبد عنها .

كعب الاحبار

ووهب بن منبه وزيايد بن أبيه

بين الجرح والتعديل

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر
الأستاذ بكلية اللغة العربية

اطلعت في مجلة الأزهر بعدد رجب الماضي على كلمة تقدم للزميل المفضل ،
الأستاذ الشيخ محمد علي الجبار حول مقال (أسباب تأخر المسلمين) تلخص
في أنه أخذ على أمرين كان الأليق بي ألا يؤخذ على شيء منهما .

الأول — أتى جعلت من الذين كادوا للإسلام كعب الاحبار ووهب بن منبه
وزياد بن أبيه ، مع أنه لم يثبت كيد أحد منهم للإسلام ؛ وذكر الأستاذ أنه سبقني
بالطعن على كعب ووهب الأستاذ أحمد زكي باشا سنة ١٣٥١ هـ وقد رد عليه
الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى رحمه الله بما فيه مقنع بحسن الظن بهذين الإمامين .
أما زياد فلم يطعن فيه أحد .

الثاني — أتى سلكت في عداد الذين كانوا سبياً في تأخر الاسلام عبد الله
ابن أبي بن سلول ، مع أنه كان في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يمتثل أن تأخر
المسلمين كان في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .

وأحب قبل كل شيء أن أنبه الأستاذ المفضل على أنني لا أريد بكلمتي هذه
الرد عليه ومجادلته ، لأنني أعلم أن تقدمه إياي تقدم خالص لوجه العلم في وجهة
نظره ، لا تشوبه شائبة تحامل أو هوى ؛ كما أود أن أعلن أنني لست من المولعين
بجرح العلماء كما يشهد بذلك ، ووقفي مع الأب أفتاس ماري الكبر على في عددي
مجلة الرسالة (٥٠٦ ، ٥٠٧) لسنة ١٩٤٣ ، فقد هاجم الأفويين والنحاة ، ووصمهم
بعدم الفقه بأقوالهم ، وقد دافعت عنهم بما رد هذا الهجوم الباغي ، وكان له وقع

حسن في البينات العلمية : وأنى لا أكتب ما أكتبه إلا بعد بحث وتمحيص .
وهذا بيان الحقيقة مع الإيجاز .

كعب الأحبار : قلتُ إنه اشترك في المؤامرة على قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وقد بنيت هذا الحكم على الاستنتاج الذي يكاد يصل بي إلى درجة العلم ، من روايات ثقات المؤرخين في الكتب الآتية :

- ١ — الطبقات الكبرى لابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ . طبع أوروبا ج ٣ صفحات ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧ . وجزء ٧ ص ١٥٦ بالقسم الثاني منه .
- ٢ — مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ص ٢١٧ .
- ٣ — تاريخ الأمم والملوك للطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ ج ٥ ص ١٢ وما بعدها .

- ٤ — الكامل لابن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٠٣ هـ ج ٣ ص ٢١ وما بعدها . وهذه المراجع في متناول الجميع .

وهب بن منبه : لم أشرك في المؤامرة على قتل عمر ، ولكنني عدته في المتآمرين على الاسلام من طريق بث متون الروايات الإسرائيلية التي شوهت جمال معاني القرآن الكريم في كتب التفسير : مثل تفسير الرعد والبرق والجسد الذي ألقى على كرسي سليمان عليه السلام ، وما جاء في عسا موسى عليه السلام ، وغير ذلك مما حشيت به هذه الكتب من الإسرائيليات التي مصدرها في الغالب كعب الأحبار ووهب بن منبه . هذا جرح لهما بالإجمال .

أما مسألة جرح هذين الرجلين أو تعديلهما بالتفصيل فقد كتبت فيها مجلة المنار ما يشفى الغليل ويروى الغليل قبل أن يكتب فيها الأستاذ المرحوم أحمد زكي باشا ويرد عليه الأستاذ المغفور له الشيخ يوسف الدجوى بنحو تسع سنين . وذلك بالمجلدات أرقام ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ لسنوات ١٣٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ هـ . ويبلغ مجموع ما كتب في هذا البحث ٤٧ صفحة ! فليتفضل الأستاذ المفضل بالرجوع إليها ، وهو واجد فيها طلبته ، إن شاء الله .

ومن المتفق عليه بين محققى العلماء أن كعب الأحبار ليس من رجال البخاري

ولا مسلم الذين روي عنهم في الجامعين الصحيحين ، خلافا لما يؤخذ من كلام العلامة الاستاذ الدجوى في نور الإسلام سنة ١٣٥١ هـ تبعا لتذكرة الحفاظ التي خطأها في هذا العلامة الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، وأن وهب بن منبه ليس من رجال البخارى في الجامع الصحيح ١ زياد بن أبيه : كان رأس الشعوية الذين ينفضون العرب ، ويرمونهم زورا بكل نقيصة ، وكان يخفى هذا الأمر ويتظاهر بضده ليحسن السبك . وإني أورد هنا نص عبارة العلامة الشيخ محمود شكري الألوسى البغدادى في كتابه « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » ، قال : قال أبو عبيدة البكرى في شرح أمالى القالى : « كتاب مثالب العرب أصله لزياد بن أبيه ، فإنه لما ادعى أبا سفيان أبا علم أن العرب لا تقر له بذلك مع علمهم بنسبه ، فعمل كتاب المثالب ، وألصق بالعرب كل عيب وعار وباطل وإفك وبُهِت ، ثم ثنى على ذلك الهيثم بن عدى وكان دعيتا ، فأراد أن يعير أهل الشرف تشفيا منهم ، ثم جدد ذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى وزاد فيه ، لأن أصله كان يهوديا فأسلم جده على يدى بعض آل أبي بكر ، فانتمى إلى ولادتهم ، (ج ٣ ص ١٦٠) . أقول : ثم ورثه في هذا البغض ابنه عبيد الله ابن زياد وإلى الكوفة في عهد يزيد بن معاوية . وابن زياد هذا هو الذى أمر بقتل الحسين بن على رضى الله عنهما ، وأن تطأ الخيل بعد قتله صدره وظهره ١ . هذا زياد بن أبيه ، وهذا ابنه عبيد الله (١) ، وهذا موقفهما من أشراف العرب ١ . بقيت مسألة عبد الله بن أبى وعده من أسباب تأخر المسلمين مع أنه كان في عهد الرسول . والجواب عنها سهل ، فإن هذا المفاق كان جرثومة قوية تولدت منها الجرائم التي كانت سببا في تأخر المسلمين بعد اكتمال مجدهم ، وهذا نظير قوله تعالى « فلما آتاها صالحا جعلنا له شركاء فيما آتاها ، فتعالى الله عما يشركون » . فآدم عليه السلام وحواء لم يجعلوا شركاء ، وإنما كانا سبيين فيمن جعلوا الله شركاء من ذريتهما ، فلذا أسند إليهما اتخاذ الشركاء والمراد ذريتهما . وهذا واضح وبالله التوفيق ٢

(١) كانت غائته أن قتل يزيد إبراهيم بن الأشتر النخعي بالموصل سنة ٦٦ هـ ، وحملت رأسه إلى عبد الله بن الزبير بمكة . وتلك عاقبة الباغي الظلوم ١ (مروج الذهب للسودى ج ٣ ص ٤١ - ٤٢)

نظريـة المعرفة

بين الغزالي والفلاسفة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ سليمان دنيا
مدرس الفلسفة بكلية أصول الدين

للأستاذ الدكتور د جميل صليبا ، بحوث حول الغزالي ، تدل على عناية خاصة بفلسفته . حقق له كتاب د المنقذ من الضلال ، وطبعه عدة مرات ، وقدم له ببحوث تحليلية وافية ، تناولت حياته ، وفلسفته ، وخاصة ما جاء منها في كتاب د المنقذ ، . وفضلا عن كل ذلك فقد وضع فهرساً قيماً لكتبه ، عُنى فيه بإحصائها وتصنيفها ، وبيان المفقود منها والموجود ، والمطبوع والمخطوط ، وماز صحيح النسبة من زائفها ، ودل على أماكنها ومظان وجودها : وذلك عمل قيم جليل ، يقدره الباحثون قدره ، ويدركون أثره وخطره .

والدكتور د جميل ، من المعجبين بالغزالي المفضلين له على من سواه . ومن قوله فيه : « ونستطيع أن نلخص القول في فلسفة الغزالي بأنها صورة حية عن حياته الشخصية ، وأنها بقدر ما أهملت البحث في حوادث هذا العالم ، كانت تزداد عمقا وعمقا ونفوذا في ماهية الدين . ولا شك في أن الغزالي قد ارتفع عن مستوى الفلاسفة قبله ، الذين تمسكوا بالعقل ، واعتبروا الدين من منتوجات الخيال أو اختراعات المشترعين . على العكس من ذلك شرح لنا الغزالي العقيدة الدينية بأنها كشف باطنى ، وحقيقة روحية . ولا يمكن التردد في تفضيل محاولات الغزالي للوصول إلى الحقيقة العليا ، على مباحث الفلاسفة في عهده ، الذين اقتصرُوا في الغالب على تكرار ما قيل قبلهم ، .

ويظهر أن الدكتور « جميل » يتابع دراساته عن الغزالي ؛ فقد وقع في يدي عددان من مجلة المجمع العلمي العربي التي تصدر في دمشق ، وفيهما له مقالان كبيران عن الغزالي بعنوان « الغزالي وزعماء الفلاسفة » ، وعَسَى بزعماء الفلاسفة — كما جاء في مقاله — الفارابي وابن سينا : تناول في أولهما : أسباب حملة الغزالي على الفلاسفة وغايتها ، وطريقته في الرد على الفلاسفة ، وموضع الخلاف بينه وبين الفلاسفة .

ومهد لمقاله الثاني بعبارة في آخر مقاله الأول جاء فيها : فلنقتصر على الإشارة الى بعض القضايا التي تدل على أن الغزالي قد وُفق في نقده . لوضع أصول جديدة لفلسفة عامة جديدة . وهذه القضايا التي نريد ذكرها على سبيل المثال هي : مسألة المعرفة ، ومسألة العالم والزمان والمكان ، ومسألة السببية .

ورأيه في مسألة المعرفة هو ما أريد أن أعرض له في مقال هذا ، بالنقد والتعليق ، أو بالاستفسار عن أفكار جاءت فيه ، أراها بحاجة الى الإيضاح والبيان ، لعل الدكتور « جميل » يطالعنا بما يرفع عنها اللبس ويزيل الغموض . يرى الدكتور « جميل » ، أن للغزالي رأيا في المعرفة ، وللفلاسفة رأيا غيره : بل يرى أن « مسألة المعرفة هي الأساس الذي يرجع إليه الخلاف بين الغزالي والفلاسفة » .

أما رأى الفلاسفة — فيما يرى الدكتور « جميل » — فيرجع الى أن الحواس الظاهرة تقع على ما يصادفها من عالم المحسّات فتلتقط له صورا ، وتنقلها الى الحواس الباطنة ، التي تنقلها بدورها الى العقل ، بعد أن تكون قد عملت فيها — بقدر طاقتها المحدودة — عملا يساعد العقل على تخليصها من شوائب المادة وعلاقاتها ، وتحويلها من جزئي خاص الى كلي عام .

إلا أن الحواس والعقل ما كان لهما أن يصلا الى هذه النتيجة لولا مساعدة « العقل الفعال » الذي إليه يرجع الفضل في تصيير هذا التحويل ، حاصلا بالفعل ، بعد أن كان بمجهود العقل والحواس واقفا عند حد القوة .

قال الدكتور . جميل ، في مقاله : « كان الفلاسفة يقولون : إن المعرفة لا تتم بطريق التجربة ، بل تتم بإشراق الصور من « العقل الفعال » ، على العقل الإنساني . فالعقل يكون في أول أمره عقلا بالقوة ، ثم يصير عقلا بالفعل ، وذلك بما يصل إليه من الصور التي تؤديها إليه الحواس الظاهرة والباطنة . ولكن هذا الانتقال من القوة إلى الفعل لا يتم إلا بتأثير « العقل الفعال » . وتمايز العقول الإنسانية بعضها من بعض بمقدار استعدادها للاتصال بالعقل الفعال الذي تتلقى عنه المعرفة . وفي ضوء هذا العقل يستطيع عقلا أن يدرك الصور الكلية ، وبه يصير الإحساس معرفة . فأنت ترى أن الفلاسفة قد بنوا المعرفة على العقل : لأن العقل هو الذي يجرد الصور من اللواحق المشخصة وينزع من الصور المتخيلة صورا كلية . ولكن الصور المنتزعة من الإحساس والخيال لا تصبح صورا عقلية إلا بتأثير العقل الفعال . »

هذا هو تصوير الدكتور « جميل » لنظرية المعرفة عند الفلاسفة ، ولعله تلخيص لما جاء في الإشارات ج ٢ ص ٣٣٨ إخراجنا ، طبع عيسى الحلبي .

وأما رأي الغزالي - فيما يرى الدكتور أيضا - ، فيختلف عن مذهب الفلاسفة في مبادئه وغاياته ؛ لأنه قد بنى المعرفة على التجربة والكشف الباطني ، . وساق الدكتور ، استشهادا على أن المعرفة طريقين عند الغزالي ، قوله في الإحياء : « والقلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار . وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار والمشاهدات ، حتى يمتلئ علما ؛ ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ، ويعتمد إلى عمق القلب بتطهيره ، ورفع طبقات الحجب عنه ، حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله . »

ثم علق على النص قائلا : وهذا يدل على أن المعرفة - يعني عند الغزالي - تحصل في النفس بطريقتين مختلفتين :

« الأول : هو طريق الحواس والاعتبار والمشاهدة ، وهو طريق التجربة الخارجية ، أو طريق المعرفة غير المباشرة .

« والثاني : هو طريق القلب وتطهيره ، ورفع الحجب عنه ، وهو طريق التجربة الداخلية المباشرة ، .

لعل المقابلة التي أوجدها الدكتور بين رأى الفلاسفة في المعرفة ، وبين التجربة الخارجية التي هي أحد طريق المعرفة عند الغزالي ، تدل على أن الدكتور يذهب إلى أن التجربة الخارجية عند الغزالي لا يتدخل فيها ما يسميه الفلاسفة بالعقل الفعال ، وإنما يقوم بالدور كله ، الخواص الظاهرة والباطنة وعقل الإنسان .

ولكننا إذا رجعنا إلى كتاب « معارج القدس ، للغزالي الذي أغفله الدكتور في هذا البحث إغفالا تاما ، مع أنه من الكتب التي ألفها الغزالي في أخريات حياته ، واختصها بالمعارف الدقيقة الهامة عنده ، وأوجب أن لا يباح بها إلا لذوى العقول الناضجة ، وهو من الكتب الصحيحة النسبة إلى الغزالي حتى فيما يرى الدكتور . أقول : إذا رجعنا إلى هذا الكتاب ، وجدنا الغزالي يقول فيه ص ٦٢ : « وأما مراتب الإدراكات في التجريد ، فاعلم أن المدرك الذي يفتقر إلى تجريد ، لا يخلو في الوجود الخارجي عن لواحق غريبة وأعراض غاشية : من قدر وكيف وأين ووضع ...

« فإذا فهمت هذا فاعلم أن مراتب المدركات مختلفة في التجريد عن هذه الغوامض واللواحق ، وهي على أربع مراتب :

« الأولى : إنما هي الحس ، فإنه بمجرد نوعا من التجريد ؛ إذ لا تحل في الحاس تلك الصورة بل مثال منها ، إلا أن ذلك المثال إنما يكون إذا كان الخارج على قدر مخصوص ، وبعد مخصوص ، ويناله مع تلك الهيئة والوضع ؛ فلو غاب عنه أو وقع له حجاب لا يدركه .

« المرتبة الثانية : إدراك الخيال ، وهي ، أتم قليلا وأبلغ تحصيلًا ؛ فإنه لا يحتاج إلى المشاهدة ، بل يدرك مع الغيب ، إلا أنه يدرك مع تلك اللواحق والغوامض : من الكم والكيف ، وغير ذ



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

من هذه النصوص الكثيرة نستطيع أن نقول قول المثبت : إن الغزالي لم يغفل ما يسميه الفلاسفة بـ « العقل الفعال » سواء لديه العلم الذى ينبع من داخل القلب ، والعلم الذى ينحدر عن طريق قنوات الحواس .

ذلك : لأن معرفة الإلهام التى تنبع من داخل القلب عند الغزالي ، تقوم على أساس أن القلب إذا زال عنه صبدأ المعاصى ، وصقلت صفحته ، واستقبل اللوح المحفوظ — الذى هو فى لسان الشرع « قلوب الملائكة المقربين ، أو الروح الأخرى ، وفى لسان الفلاسفة « العقل الفعال » — انطبع فيه من المعارف ما هو مستعد له .

ولأن معرفة التجربة التى تأتى عن طريق قنوات الحواس ، العقل الفعال هو الذى يقوم بالدور الأخير فيها ؛ إنه هو الذى ينقل تحويل الجزئى إلى كلى ، من القوة إلى الفعل ؛ على ما أفادته النصوص السابقة .

وإذا كان كل الفارق الذى أوجده الدكتور « جميل » بين المعرفة عند الفلاسفة ، وبين طريق التجربة عند الغزالي ، هو الدور الذى يلعبه العقل الفعال فى معرفة الفلاسفة ، دون التجربة التى عند الغزالي ، أمكن لنا أن لا نقبل هذه التفرقة ما دامت هذه النصوص الكثيرة التى نقلناها عن كتاب معارج القدس قد أفادت بشكل قاطع أن الغزالي يعترف فى كل صنوف المعرفة بالدور الخطير الذى يلعبه العقل الفعال .

وإذن يحق لنا أن نقول : إن ما سماهما الدكتور « جميل » « المعرفة الفعلية عند الفلاسفة » و « التجربة الخارجية عند الغزالي » ، وأراد أن يجعلهما شيئين متباينتين ، هما شيء واحد ، لا شيان .

وإذا تم لنا أن المعرفة العقلية عند الفلاسفة ، هى نفس المعرفة التجريبية عند الغزالي ، فإننا نتساءل عن طريق الكشف الباطنى المسمى بالإلهام عند الغزالي ، هل هو غريب عن الفلاسفة لا يعرفونه ؟ أو فى عبارة أخرى : ينكرونه ولا يعترفون به ؟ .

وجواب الدكتور « جميل » عن هذا السؤال معروف كما اتضح من نصوصه التي سقناها سابقا ، وهو الإيجاب : إذ أنه يرى أن الغزالي باين الفلاسفة في الطريقين معا : طريق التجربة ، وطريق الكشف والإلهام .

وعندى أن الفلاسفة يعرفون أيضا طريق الكشف والإلهام ويقولون به ، فما هو ابن سينا يقرر في تصوف الإشارات قريبا مما يقرر الغزالي في تصوفه . ولو خشية الاطالة لسمت نصوصه الكثيرة حول هذا الموضوع ، وحسبي أن أحيل على النص ص ٢١٦ من طبعة ليدن .

وبعد ، فإن التأريخ للفيلسوف من بعض كتبه عمل ناقص وغير دقيق ، خصوصا فيلسوفا كالغزالي الذي أبنت في كتابي عنه ، الحقيقة في نظر الغزالي ، أنه له جملة مظاهر أو جملة مذاهب ؛ وتحت كل مظهر من مظاهره ، أو مذهب من مذاهبه ، تقع طائفة من كتبه ؛ فالاعتصار في التأريخ له على لون من هذه الكتب ، ليس إلا كشفا لمظهر واحد من مظاهره ؛ والقناعة بهذا المظهر معناها الرضا بأن تظل الجوانب الأخرى مجهولة ؛ وسيظل الغزالي — في حقيقته — مجهولا ، حتى تكشف كل هذه الجوانب .

ولعل شهرة الغزالي بالتصوف ، وبمناهضة الفلسفة والفلاسفة ، ألقيا في روع الباحثين أن الغزالي في ناحية والفلاسفة في ناحية أخرى ، ولكن صوفية الغزالي ومناهضته للفلسفة والفلاسفة ليسا إلا جانبا أو جانبين من جوانب كثيرة للغزالي ، لعلهما أهون هذه الجوانب شأنًا ؟

كتيبة

وَرُبَّ	ملتفة	العوالى	يلتمع الطرف في ذراها
إذا	توطت	حزون أرض	طحطحت الشم من رباهـا
يقودها	منه	ليث غاب	إذا رأى فرصة قضاهـا
تمضى	بآرائه	سيوف	يستبق الموت في ظباهـا
بيض	تخلى	القلوب سودا	إذا انتضى عزمه انتضاهـا



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

ومما تقدم يعلم أن فتوى الأزهر هي على قول ابن تيمية وأتباعه ، وليست على نص الإمام ، ولا على المذهب المفتي به .

كتبه الفقير محمد جميل الشطى
المفتي الحنبلى بدمشق
عفى عنه

هذا ومما تقدم يعلم السبب الحامل لنا على نشر هذا التعقيب ، والله يتولى
هدانا جميعا . دمشق — محمود ياسين

رد لجنة الفتوى

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى
آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد ، فقد اطلعت اللجنة على ما ورد في كلام صاحب الفضيلة الشيخ محمد
جميل الشطى المفتي الحنبلى بدمشق تعقيبا على فتوى هذه اللجنة في موضوع نقل
المسجد الى مكان آخر للمصلحة . وقد استخلص فضيلته من النصوص التي ذكرها
أن فتوى الأزهر هي على قول ابن تيمية وأتباعه ، وليست على نص الإمام أحمد
ولا على المذهب المفتي به .

وتفيد اللجنة بأن شيخ الاسلام ابن تيمية نسب الى الامام أحمد جواز نقل
المسجد الى مكان آخر للمصلحة . وهذا نص عبارته بعد كلام لا حاجة اليه في هذا
الموضوع : « النصوص عند أحمد وأصوله وعموم كلامه وكلام أصحابه وإطلاقه
يقتضى أن يفعل في ذلك ما هو مصلحة أهل الوقف ، فإن أصله في هذا الباب مراعاة
مصلحة الوقف ؛ بل أصله في عامة العقود اعتبار مصلحة الناس ؛ فإن الله أمر
بالصلاح ونهى عن الفساد ، وبعث رسله بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل
المفاسد وتقليلها ؛ وقال موسى لأخيه هارون ، اخلقني في قومي وأصلح ولا تتبع
سبيل المفسدين ، وقال شعيب ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وقال تعالى

« فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، وقال تعالى : « وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون . » .
وقد جوز الإمام أحمد بن حنبل إبدال مسجد بمسجد آخر للمصلحة ، كما جوز تغييره للمصلحة ، واحتج بأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبدل مسجد الكوفة القديم بمسجد آخر ، وصار المسجد الأول سوقا للبارين . . . ، الى آخر عبارته المذكورة في صفحة ٣٨٨ من الجزء الثالث من فتاواه .

والمأخوذ من هذه العبارة أمران : الأول : نسبة القول بجواز إبدال مسجد بمسجد آخر للمصلحة الى الإمام أحمد صراحة . ولا يمكن لمثل ابن تيمية في عليه وأمانته أن ينسب الى الإمام أحمد ما لم ينص عليه . ولو كان ابن تيمية قد أخذ هذا استنتاجا من القواعد والأصول لبين ذلك كما هو شأنه في غير هذه المسألة : لا سيما أنه ساق هذه العبارة « وقد جوز أحمد بن حنبل إبدال مسجد بمسجد آخر للمصلحة الخ » فساق الاستدلال بها على مطلوبه من أنه يجوز شراء عين يبدل الوقف في بلد آخر غير بلد الموقوف إذا كان في ذلك مصلحة للوقوف عليهم . وسوق هذه العبارة بهذا المساق دليل على أن ذلك هو مذهب الإمام أحمد ، وأنه مسلم به ومفروغ منه .

الأمر الثاني : أن ما ذكره من اقتضاء أصول أحمد ونصوصه وعموم كلامه وكلام أصحابه وإطلاقه أن يفعل في الوقف ما هو مصلحة لأهله — يتمشى أيضا أن مذهبه هو ما نسب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية . ويؤيد ذلك ما أورده فضيلة الشيخ الشطى وذكره صاحب الفروع من أن صالحا نقل عن الإمام أن نقل المسجد جائز لمنفعة الناس ، فاعتبر مجرد المصلحة في جواز نقل المسجد . وأيضا فالمنقول عن الإمام نصا أنه يجوز نقل المسجد إلى مكان آخر لضيقه ، وقد قيده بعض المشايخ كابن قدامة في المغنى بحالة ما إذا لم يمكن توسيعه ، مع أن الدليل الذي استدل به على جواز النقل لا يدل على ضرورة هذا التقييد وإنما يدل على جواز النقل للمصلحة . فإذا كان المسجد ضيقا ويمكن توسيعه وكانت المصلحة في نقله مع ذلك متوافرة بأن كان المكان الذي ينقل إليه المسجد أدعى إلى تكثير الجماعة والمصلين بأن يكون في شارع عام ييسر لكل شخص الوصول إليه وكان

في جو أحسن من جو المكان الذي فيه المسجد الأول الضيق ، فالمصلحة هنا متحققة مع إمكان التوسعة . ومتضمن ما نقل عن عمر رضى الله عنه جواز النقل حينئذ ، ونصه على ما جاء في المفتى : « ولنا ما روى أن عمر رضى الله عنه كتب إلى سعد لما بلغه أنه قد نقب بيت المال الذي بالكوفة : « انقل المسجد الذي بالتمارين واجعل بيت المال في قبلة المسجد فإنه لن يزال في المسجد مصل ، . قال صاحب المفتى : وكان هذا بمشهد من الصحابة ، ولم يظهر خلافه ، فكان إجماعا .

وهذا الدليل الذي اعتمده صاحب المفتى يدل على أنه يجوز نقل المسجد للمصلحة ولو كانت هذه المصلحة لا تتعلق بالمسجد نفسه ، فإن عمر رضى الله عنه أمر بنقل المسجد للحفاظ على مال بيت المال ، وكان من الممكن أن يبقى المسجد على حاله ، وأن يعين حراسا لبيت المال . وبعد ، فما جاء في الكتب التي ذكرها فضيلة المفتى من مسوغات نقل المسجد يظهر أنه ليس المقصود به حصر المسوغات فيما ذكر ، بل لأنه بوجود مسوغ من هذه المسوغات تتحقق المصلحة التي هي مناط الجواز ، فلو وجدت هذه المصلحة مع عدم وجود مسوغ من المسوغات المذكورة تعين جواز النقل لهذه المصلحة ، كما يدل على ذلك ما أشار إليه شيخ الاسلام ابن تيمية من اقتضاء نصوص الإمام أحمد وأصوله وعموم كلامه وكلام أصحابه وإطلاقه أن يفعل في ذلك ما هو مصلحة أهل الوقف ، وأهل الوقف في المساجد هم المسلمون .

وبما ذكرنا تبين أن مذهب أحمد جواز نقل المسجد إلى مكان آخر إذا كان هذا النقل خيرا وأصاح كما قالت اللجنة في فتواها . والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

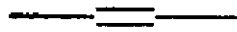
عبد المجيد سليم

الحلقة الأولى

في تاريخ الأزهر العلمي

لفضيلة الأستاذ الشيخ منصور رجب

مدرس الاخلاق بكلية أصول الدين



مذهب الشيعة هذا الذي دخل مصر على يد جوهر الصقلي في سنة ٣٥٨ هـ وعاش فيها حتى سنة ٥٦٧ هـ ، هو مذهب الإسماعيلية .

وسموا إسماعيلية نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق من ولد علي بن أبي طالب . ذلك أن الإمامية بعد جعفر هذا افرقوا فرقتين : فرقة قالت بإمامة ابنه موسى الكاظم ، والآخرى قالت بإمامة ابنه الأكبر اسماعيل بن جعفر ؛ لهذا سموا إسماعيلية . لكن لما كان اسماعيل قد مات في حال حياة أبيه ، حوّلوا الإمامة إلى ابنه محمد ؛ فهو صاحب الدعوة ، وهو عندهم المهدي المنتظر . وسمى محمد بن اسماعيل بهذا الاسم — المهدي المنتظر — استتاراً من اضطهاد الخلفاء العباسيين ، هذا الاضطهاد الذي حول العلويين من طلب الخلافة جهراً إلى الدعوة لأنفسهم سرا .

ولسنا نفيض في ذكر المذاهب الغالية التي شغلت الافكار في تلك الأزمان ، لأنها لم تدخل مصر ولم تدرس بالأزهر ، وبادت من زمان بعيد .

وأول كتاب افتتح الأزهر به حياته العلمية في صفر سنة ٣٦٥ هـ هو كتاب « الاقتصار » للقاضي أبي حنيفة النعمان المغربي في فقه هذا المذهب ، أو في فقه آل البيت كما كانوا يسمونه ، ولقد رجعت إلى دليل المخطوطات في العالم ، بركلبان ، فوجدته لم يحدد مكان هذا الكتاب وإن كان قد دنا على كتاب آخر للدؤلف نفسه وفي الموضوع ذاته ، ذلك الكتاب هو « مختصر الآثار فيما روى عن الأئمة الاطهار » وهو موجود في مكتبة « الفاتيكان » تحت رقم ١١٠٤/٥ ولقد تقدمت برغبة لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد

مأمون الشناوى ، لإحضار نسخة من هذا الكتاب ليحفظ تحفة تاريخية في مكتبة الأزهر ، وليكون مصدر الحلقة الأولى في تاريخ الأزهر العلمى . وفى اعتقاده أن هذا عمل طيب بمناسبة العيد الالئى للأزهر ، بكل عهد فضيلة الشيخ بالفخار والإكبار . وعلى ما تقدم يكون أبو حنيفة النعمان المغربى هذا هو أول عالم درست له كتب فى تاريخ الأزهر العلمى ، وابنه على هو أول عالم جلس للتدريس فى الأزهر .

وأبو حنيفة النعمان هذا يقدمه لنا « ابن خلكان » فى كتابه وفيات الأعيان بأنه كان مالكي المذهب ثم انتقل الى مذهب الإمامية ، وصنف كتاب ابتداء الدعوة للعبيدين ، وكتاب الأخبار فى الفقه ، وكتاب « الاقتصار » فى الفقه أيضا . ويقول نقلا عن ابن « زولان » فى كتاب أخبار قضاة مصر : « كان النعمان ابن محمد القاضى فى غاية الفضل من أهل القرآن والعلم بمعانيه ، وعالمًا بوجوه الفقه وعلم اختلاف الفقهاء ، واللغة ، والشعر الفحل ، والمعرفة بأيام الناس مع عقل وإنصاف ، وألف لأهل البيت من الكتب آلاف أوراق بأحسن تأليف وأملح سجع ، وعمل فى المناقب والمنايا كتابا حسنا ، وله ردود على المخالفين له ردا على أبي حنيفة وعلى مالك ، والشافعى ، وعلى ابن سريج . وكتاب اختلاف الفقهاء وينتصر فيه لأهل البيت رضى الله عنهم ، وله القصيدة الفقهية لقبها بالمنتخبة . وكان أبو حنيفة المذكور ملازما صحبة المعز أبي تميم معد المنصور ، ولما وصل من أفريقيا الى الديار المصرية كان معه ولم تطل مدته ، وتوفى سنة ٣٦٣ بمصر ، وصلى عليه المعز .

وكان لأبي حنيفة هذا أولاد نجباء سراة ، منهم أبو الحسن على ؛ وأبو الحسن على بن النعمان هذا يعتبر ابتداء سلسلة علماء الأزهر الشريف ، ذلك المعهد العظيم الذى شمع نوره على العالم الاسلامى ، والذى يقول عنه بحق المرحوم أحمد شوقى بك :

واذكره بعد المسجدين ^(١) معظما	لمساجد الله الثلاثة ^(٢) مكبرا
واخشع مليا ، واقض حق أئمة	طلعوا به زهرا وماجوا أمجرا
كانوا أجل من الملوك جلاله	وأعز سلطانا وأنخم مظهرا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم	حرم الأمان وكان ظلمهم الذرا ^(٣)
من كل بحر فى الشريعة زاخر	ويريكه الخلق العظيم غضنفرا

(١) الحرام والأفصى . (٢) الحرام والأفصى والأزهر . (٣) اللجأ .

وكان على بن النعمان محل عطف وثقة العزيز بالله ثانياً خلفاء دولة هذا المذهب بمصر ، الى أن قلده القضاء بالديار المصرية ، والشام ، والحرمين ، والمغرب ، وجميع مملكته ، والخطابة والإمامة ، ودار الضرب . وقرىء مرسوم توليته هذه الأشياء بالجامع الأزهر وجامع عمرو ، وكان أمرهما اليه . وكان من عادة الدولة وقتئذ أن من يقلد هذه الوظيفة يخلع عليه الخلع المذهبة ، ويقلد السيف ، ويتم له ذلك بلا طبل ولا بوق إلا إذا ولي أمر الدعوة مع الحكم ، فلقد كان للدعوة في خلعتها الطبل ، والبوق ، والبنود ، ولا تزال الطبول والبنود موجودة بمصر حتى الساعة عند أرباب الطرق الصوفية ، وهي بقية أو أثر من آثار هذه الدولة بمصر .

وكانت رتبة قاضي القضاء وقتئذ أجل رتب أرباب العمام بمصر . ويكون في بعض الأوقات داعياً فيقال له حينئذ : قاضي القضاء وداعى الدعاة . وكانت العادة ألا يحضر لإملاك ولا جنازة إلا بإذن . وكان داعى الدعاة يلى قاضي القضاء في الرتبة ، ويتزيا بزيه في اللباس وغيره .

ولما كان الأزهر بجوار القصر مكاناً لمجالس الدعوة أو مجالس الحكمة كما كانوا يسمونها أيضاً ، كان لابد من ذكر شيء أو وصف لهذه الدعوة حتى نعرف ما كان يقوم به الأزهر في هذا السبيل . وإذا كان مذهب الروافض يعتبر الكلام عليه تأريخاً للحلقة الأولى في تاريخ الأزهر العلمى ، فإن هذه الدعوة من هذا المذهب كالأساس الذى يقوم عليه البناء .

إن هذه الدعوة دعوة الاسماعيلية أو هذا المذهب ، وضع أصلاً في العراق ثم أخذ يعرف في البلدان الإسلامية ، فعرف في اليمن والشام وبلاد المغرب ، ومنها حضر الى مصر . وهذه الدعوة منسوبة الى شخص كان بالعراق يعرف بميمون القداح ، وكان من غلاة الشيعة ، ثم رتبها عبد الله بن ميمون هذا مذهباً جعله في تسع دعوات . ودعا الناس الى مذهبه فاستجاب له خلق كثير ، وكان يدعو الى الامام محمد بن إسماعيل فصار له مال ، واشتهرت دعائه ، وانتشروا في أقطار الأرض وتفقهاوا في الدعوة حتى وضعوا فيها الكتب الكثيرة ، وصارت علماً من العلوم المدونة .

العصر العظيم في تاريخ العالم

— ٣ —

« كُنْفَشْيُوس - جوتامو بودا - زَرْدَشت - فيثاغوراس ، من وجهة نظر تأليفية

تأليف : ف . ستانكا . تعريب : عمر طلعت زهران

« محاضرة خارج المنهج الدراسي أُلقيت في جامعة هامبورج في التاسع عشر من
سبتمبر سنة ١٩٤٦ ، ويجب أن ينظر الى ربط أصل نظريات هؤلاء الأربعة
باستخدام الحديد والاستقلال السياسي كفرض يحتاج الى فحص وتمحيص .

— ٣ —

وعلينا ، لكي نفهم هذه التعاليم ، أن نرجع الى مصادرها ، وهنا نجد صعوبات
جمة . وقد يكون سبب هذه الصعوبات ندرة هذه المصادر كما هو الحال مع
فيثاغوراس ، فلم يبق من كتاباته سطر واحد . هذا إذا تكلمنا عن كتاباته التي
يختلف الباحثون فيها ، فيما إذا كان قد كتب شيء على الإطلاق ، وقد فقدت
كتاباته تلاميذه أيضا . وأول المصادر المكتوبة عنه كانت مراجع لمؤلفين آخرين
لا ينتمون الى الفيثاغورية ، يتدثرون بالمؤرخين مثل « هيرودوت وديودورس ،
وفلاسفة مثل « أفلاطون وأرسطو » . أما أدق الأخبار عنهم فيمكن أن توجد
فقط في مؤلفات الكتاب الأفلوطينيين « يامبيخوس وبورفيرْيوس » ، أو في
مؤلفات « ديوجين » ، وعلينا أن نتذكر أن هذه الكتابات قد وضعت بعد موت
فيثاغوراس بنحو سبعة أو ثمانية قرون ، ويجب أن نكون على أشد الحذر حين
نأخذ من هذه المصادر المشككة غير المعتمد عليها .

أما الصعوبات التي تعترض مصادر البوذية فهي صعوبات جد مختلفة ،
لإذ هي على عكس الصعوبات الأولى ؛ فإن على الباحث أن يناضل لا ضد ندرة

المصادر ، بل ضد كثرتها وتعددتها . فانه يوجد على العموم ثلاثة أو أربعة أنواع من الكتابات البوذية : الكتابة البالية ، والسنسكريتية ، والصينية ، والكتابة اللامية بالتبت . وأقصر هذه الكتابات وأهمها هي الكتابة البالية عن البوذية الجنوبية ، وهي مع قصرها تبلغ ثلاثة أضعاف حجم الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد . أما السنسكريتية فأكثر طولا ؛ وتشمل الكتابات اللامية بالتبت ١٠٨٣ كتابا تقع في ١٠٨ مجلدات ، ولكنها جميعا تتضائل أمام الكتابات الصينية التي تكون من ١٦٦٢ كتابا تقع في ٦٧٠٠ مجلد ، فمن منا لا يستطيع ألا يضل في متاهات هذه النصوص ، كل واحد منها على حدة ، بله كلها مجتمعة .

أما صعوبات النصوص الزردشتية فانها ذات طبيعة مختلفة عن ذلك : فان هذه النصوص توجد في الزند أفستا ، وهو كتاب الزردشتين المقدس . وقد بنيت آمال كبيرة على نشر هذا الكتاب ، ولكن ما إن نشرها العالم الفرنسي انكتيل دوبيرون^(١) حتى خابت الآمال . فبدلا من وعظ موحى به ، وصورة فذة للصراع بين الخير والشر في الدالم ، وجد أن الزند أفستا إنما تحتوي على أناشيد وأدعية لا معنى لها ، خالية من الحياة على صورة السحر . . . ووجدت الخيبة صداها في كلمات المستشرق الانجليزى الكبير سير وليام جونز . إما ان يكون زردشت لم يكتب هذا الكتاب أبدا ، وإما أن يكون مجردا من العقل ، وفي كلتا الحالتين لا يستحق هذا الكتاب أن ينشر ، وكان سير وليام مغاليا في نقده إذ تمكن الباحثون بعد مجهود كبير من اكتشاف بعض آثار العظيمة الروحية السابئة ، ولكن هذه الآثار كان يغطيها طبقة كثيفة من الزيادات والتحريفات ، تجمعت على مر العصور ، فجعلت معرفة النص الصحيح مستحيلا .

وعلى الرغم من أى شيء ، فإن الأثر الذى تركه هؤلاء الحكماء على عقول البشر ، كان عميقا حتى إن أشباحهم لتبدو منيرة خلال ظلام العصور الماضية ، ومن خلال التحريف والتشويه الذى أصاب كتاباتهم .

ويطلق على كنفشيوس دائما أنه مؤسس الدين الوطنى للدولة الصينية ، ولكن كلمة « دين » هنا يجب أن تقابل ببعض التحفظ ، وعلى أية حال ، فهى

(١) Anquetil Duperron, Zend Avesta, Ouvrage de Zoroa-

1771.

لا تغنى أى نوع من العبادة أو إقامة الشعائر لمعبود ما ، فإن معنى « الإله » كان بعيدا عن الكنفشيوسية ؛ وكل ما نجمده هو كلمة « السماء » تستعمل بمعنى غامض . وحتى فى هذا الصدد يقف كنفشيوس ثابتا ويقول « لا تنكلم السماء ، وإنما تتمثل إرادتها فى أعمال الناس . وهذا كل شئ . » أما إذا سئل عن كيفية عبادة الأرواح الخالدة فإنه يجيب « إنا لا نعرف كيف نخدم الناس ، فكيف نستطيع أن نعبد الأرواح ؟ ، وبنفس هذا الأسلوب كان يجيب عن الأسئلة الميتافيزيقية . أما عن السؤال : ما هو الموت ؟ ، فإنه يجيب « إنا لا نعرف ما هى الحياة ، فكيف لنا أن نعرف ما هو الموت ؟ . »

وبجانب هذه الواقعية الصرفة التى نراها فى آرائه ، وحاجته إلى الاهتمام بكل أنواع الميتافيزيقا ، فإن منهجه فى البحث كان منهجا عقليا : التفكير فالدراسة فالبحث . فلا يوجد به شئ موحى به من أعلى ، ولا شئ يفوق الطبيعة أو يفوق العقل .

وكان مدار البحث فى دراساته هو الإنسان نفسه ، وأحيانا الفرد « يقول الجميع : الامبراطورية ، المملكة ، العائلة ، فأساس الامبراطورية هو المملكة وأساس المملكة هى العائلة ، وأساس العائلة هو الفرد » ولكن هذه الآراء الفردية نادرة ، فإن كنفشيوس كان جماعيا وكان عمله الأساسى هو موضع علاقات الجماعات : فى العائلة والدولة وفى البشرية . ولنا أن نسأل : فى أى اتجاه كان يبحث عن حل المشكلة ؟ ونستطيع أن نجيب دون تردد : فى العائلة . فإن العائلة كانت نقطة الابتداء لكل فلسفته الاجتماعية والسياسية . ويرى لنا مؤرخو حياته أن العظمة والجلال اللذين اكتنفا حفل جناز أمه أدهشوا مواطنيه وجعلاه ذائع الصيت . وأمضى بعد الجناز ثلاثة أيام بجانب المدفن مخصصا كل الوقت للتأمل والأعمال الفلسفية ، ومن هنا أነعت نظريته . وينبع من تمجيد العائلة ميله للدراسات التاريخية ، بل وهنا نجد منبع تمسكه « بالتقاليد » أيضا إن لم نقل « المحافظة » أو « الرجعية » ، لوصف مثله الأعلى للتحكم الأبوى فى العلاقات العائلية وعلاقات الدولة . ومن الطبع أن يكون هذا الشعور نفسه هو منبع العناصر التقدمية — إن لم نقل الثورية — فى آرائه وتعاليمه . ويجب أن تشمل

عناصر العلاقات العائلية علاقات المجتمعات الكبرى كالدولة والامبراطورية ، بل والانسانية جمعاء . وحين قال أحد أتباعه با كيا إنه لا إخوة له أجابه كنفشيوس : علينا أن ننظر للناس في العالم كله كأنهم إخوة ، وحينئذ لن يبكى إنسان لا فعدم إخوته . . وأجاب عن سؤال : ما هي الانسانية ؟ بقوله « الحب » ، وهو جواب يبدو كأنما هو أمر مسيحي . ولكن لنكن على حذر حتى لا نتخذ عنا ظواهر الكلمات ، فإن نشوة الحب العجيب في خطبة الجبل ^(١) كانت بعيدة عن عقل كنفشيوس الحذر الرزين ، المرتبط بأمور الأرض أشد الارتباط . وسئل هل يجازى الانسان الشر بالخير ؟ فأجاب : وكيف نجازى إذن عمل الخير ؟ ، أما نظريته في السلوك نحو الآخرين فقد بينها في « القانون الذهبي » : « ما لا تحب أن يعاملك به الناس ، لا تعامل به غيرك » ، وهي القاعدة الذائعة التي سبق بها كنفشيوس « كانت » ، بخمسة وعشرين قرنا .

وإذا ألح أى إنسان ، على الرغم من أى شيء ، في أن يبحث عما يثير العواطف في مؤسس أى دين ، فانه في حال كنفشيوس يوجد الشعور بالوقار ، والحذر ، والشعور بالتقاليد الدينية من التاجيتين العقلية والعملية ، ومهما كان الامر ، فانه شعور حقيقى أكدده كنفشيوس بحياته . فقد وضع برنامجا للإصلاح الاجتماعى والسياسى لتحقيق السعادة للعالم أجمع . لو قلدنى حاكم مقاليد الحكم اثنى عشر شهرا لحققت شيئا عظيما ، وفي مدى ثلاث سنوات أحقق أغراضى بأجمعها . . وقد اضطر الى ترك إقليمه ، لو ، وجاب الأرض بقية حياته من ولاية الى أخرى يبحث عن الحاكم الذى يقلده مقاليد الحكم . وكان يقابل فى أحسن الأحوال باحترام واستقبال غير حار دون وعود ، وأحيانا بمهقاء ، بل وبالسجن . ولكنه لم يجد الحاكم الذى يبحث عنه ، ولما شعر بدنو أجله قال « لم يوجد حاكم ذكى يقلدنى مقاليد الحكم ، لقد انتهى زمنى ! » وهذه آخر كلمات تروى عنه . لقد كان أول وأعظم « عقلى » هو فى نفس أول ولعله أعظم « دون كيشوت » ^(٢) بأحسن معانى هذه الكلمة .

(يتبع)

(١) السيد المسيح .

(٢) بطل القصة التى كتبها بهذا الاسم الكاتب الاسبانى « مرفنتيد » ، فى القرن ١٦ الميلادى . ويستعمل مجازا بمعنى إنسان خيالى أو عالم متحمس . (المغرب) .

في البلاغة العربية :

علماء البلاغة

لفضيلة الاستاذ الشيخ على محمد حسن العماري
مبعوث الأزهر بالمعهد العلي بأم درمان

لا تكاد تطلع على مؤلف في البلاغة العربية — منذ أخذت تتكون علماء قواعد ورسوم ، وتسلك طريقها إلى التثديد والتفصيل — حتى تجد العلماء يجهلون بالشكوى المرة ، من إهمال الناس لهذه العلوم ، وانصرافهم عنها ، وبعدهم عن التعمق في دراستها ، واكتفائهم بالقشور دون اللباب ، وتقاعسهم عن اكتناء أسرارها ، واستجلاب غوامضها ، وتفهم شواهداها .

فتجد عبد القاهر الجرجاني الإمام الجليل ، يطيل القول في وصف الظلم الذي لحق بهذه العلوم ، وعذره واضح ، فهو يرى للنحو مدارس ودارسين ، وكتبا تؤلف ، ومناظرات تقوم ، وتنافس اقويا حادا ؛ ويرى للفقه مجالس تدارسه ، وتأخذ في تحقيق أصوله ، واستخراج فروعه ، فتخرج بحوثا متجددة دائمة ؛ ويرى لعلم الكلام حركة نشيطة ، وحيوية غالبة ، فيشغل هذا العلم كثيرا من الأذهان ، ويسيطر على كثير من العقول ، ويبلغ ذروته في البحث والاستقصاء ، والاختزال والرد ؛ وهكذا يجد في التفسير والحديث والأصول والمنطق والأدب ... ثم ينظر في علوم البلاغة فلا يجد لها حياة بين الدارسين ، ويرى التعمق في دراستها أبعد ما يكون عن تفكير العلماء ، وإنما يكتفون — إذا درسوا — بالنظرة العابرة ، والجولة الحائرة ، والهمة الخائرة .

ثم يهيم السكاكي في القرن السادس فيرد ما يقوله عبد القاهر ، فيقول :
« ثم مع ما لهذا العلم من الشرف الظاهر ، والفضل الباهر ، لا ترى علما لقي من

الضيم مالمقي ، ولا كُني من سوم الخسف بما مني ؛ أين الذي مهّد له قواعد ،
ورتب له شواهد ، وبين له حدودا يرجع إليها ، وعين له رسوما يخرج عليها ،
ووضع له أصولا وقوانين ، وجمع له حججا وبراهين ، وشمّر لضبط متفرقاته
ذيله ، واستنمض في استخلاصها خيله ورجله ؟ ! علم تراه أيدي سبا ، فجزة حوته
الدبور ، وجزة حوته الصبا . .

ولم يكن عصر السعد والسيد بأحذب على هذه العلوم ، ولم يكن أهله أحفل
بها : فترى السعد يقول في مقدمه شرحه للقسم الثالث من مفتاح العلوم : « وبعد
انقراض علماء فن البيان ، المطلع على نكت نظم القرآن ، وانتقاض ممرّه على مر
الآزمان ، وانتقاض مدده بتعاقب الحدّثان ، كاد تبقى رباعه من غير طلل ورسم ،
وتذهب ذهاب جديس وطسم ، وتؤذن آيها بالطمس ، ويقرأ عليها : كان بالأمس ،
ويقول في مقدمة المختصر : « وإن هذا الفن قد نضب اليوم ماؤه فصار جدالا
بلا أثر ، وذهب رؤاؤه فعاد خلافا بلا ثمر ، حتى طارت بقية آثار السلف أدراج
الرياح ، وسالت بأعناق مطايا تلك الأحاديث البطاح ، ويردد هذه المعاني بتوضيح
واسهاب في مقدمة المطول .

ونلاحظ أن العلماء كذلك يحرصون في أوائل كتبهم على أن يُبينوا أن
هذه العلوم جليلة القدر ، عظيمة المنزلة ؛ لما يترتب عليها من فهم إعجاز القرآن ،
وأنها أولى العلوم بالدراسة ، وأحقها بالعناية ؛ فن الرسوم المقررة أن تجدد
في أوائل كتب البلاغة إشادة بمقادير هذه العلوم ، وشكوى من تقاصر الهمم
عن تحصيلها .

وهذه كلمة لأحد المؤلفين من علماء القرن الثامن تعطينا صورة قوية واضحة
للنهج الذي سارت عليه جمهرة كتبهم :

قال أمير المؤمنين علي بن حمزة صاحب كتاب « الطراز المتضمن لأسرار
البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، في مقدمة كتابه :

« أما بعد ، فإن العلوم الأدبية ، وإن عظم في الشرف شأنها ، وعلا على أوج
الشمس قدرها ومكانها ، خلا أن علم البيان هو أمير جندها ، وواسطة عقودها ،
فلسكها المحيط الدائر ، وقرها السامر الزاهر ، وهو أبو عذرتها ، وإنسان مقلتها ،

وشعلة مصباحها ، وياقوتة وشاحها ، ولولاه لم تر لساننا يحوك الوشى من حبل الكلام ، وينفث السحر بفتر الأكام ، وكيف لا وهو المطلع على أسرار الإعجاز ، والمستولى على حقائق المجاز ، فهو من العلوم بمنزلة الانسان من السواد ، والمهيمن عليها عند السبر والحك والانتقاد ، ولما فيه من الغموض ودقة الرموز ، واحتوائه على الأسرار والكنوز ، استولت عليه يد النسيان والذهول ، وآلت نجومه وشمسه الى الانكشاف والأفول ، ولم يختص بأحرازه من العلماء إلا واحد بعد واحد ، وطالما قيل : « إذا عظم المطلوب قل المساعد » وما ذاك إلا لقصور الهمم عن بلوغ غاياته ، وعجزها عن إدراكه والوصول الى نهاياته .

فإذا وصلنا الى عصرنا الحاضر نجد الشكوى لا تزال مرة قاسية ، ونحن - ولا شك - أحق بالشكوى ، وأولى بتصوير الظلم ، الذى مُنيت به هذه العلوم : فالمطابع العربية تلد كل يوم عشرات المؤلفات ، ومع ذلك فلا نجد منها فى علوم البلاغة إلا النزر اليسير ، أكثره للتجارة لا للعلم ، وبعضه للهدم لا للبناء .

غير أن ما عقدنا له هذا الفصل هو ظلم آخر وقع على هذه العلوم ، ولا يزال يقع : ذلك هو الإهمال الأليم فى الترجمة لعلوم البلاغة ، فأننا نجد المؤرخين قد وضعوا طبقات للنحاة ، وأخرى للفقهاء ، وثالثة للمحدثين ، وهكذا نجدهم ترجعوا للمفسرين والأطباء والأدباء وغيرهم ، ولكننا لا نجد مؤلفاً عني بجمع تراجم للبلاغيين فى كتاب خاص ، وإنما نجد تراجمهم موزعة فى الكتب ، ومن الصعب أن يهتدى الدارس الى ترجمة وافية لأحد هؤلاء الاعلام .

على أنا نلاحظ ما هو أمر من هذا : فلاحظ أن الذين ترجعوا لهؤلاء العلماء لم ينظروا الى هذا الجانب من نبوغهم ، وإنما نظروا الى جوانب أخرى : فإمام البلاغة عبد القاهر نحوى ، والسكاكى متكلم ، والزحشرى نحوى مفسر ... وهكذا ، ويحى ذكر البلاغة بعد ذلك مكمل : فإذا ترجعوا لعالم جليل كالسكاكى ، وذكروا خدمته لهذه العلوم ، لم يكتبوا كتابة تحليلية مفصلة . وهل أدعى إلى العجب من أن المترجمين للشيخ عبد القاهر لم يذكروا فى ترجمته كتابيه فى البلاغة ، وهما تاجان فى جبين هذا الفن ! .

وبدمى أنى أتكلم فى هذا عن الكثرة الكاثرة من هؤلاء الكاتبتين ، لا عن

جميعهم ، فربما قرأنا في بعض الكتب ترجمة لبعض هؤلاء العلماء غنى فيها صاحبها ببيان مناحيه واتجاهاته ، يضاف إلى ذلك أنا نجد بعض الكتب تغفل الحديث عن بعض هؤلاء الأعلام ؛ فصاحب معجم الأباء يؤرخ لكل من هب ودب — كما يقولون — ولكنه لا يكتب عن عبد القاهر ، وهو في معجم البلدان يذكر جماعة من فضلاء جرجان — وكان نزلها — ويترك عبد القاهر ؛ ولا يظفر السكاكي منه بغير سطور معدودات ، ثم يأتي بعد ذلك الكتّابون فلا يزيدون شيئا على هذه السطور .

هذا شأن الإمام والسكاكي ؛ أما من جاء بعدهم فانا نجد مشقات عظيمة في الحصول على تراجمهم ، يعرف ذلك من عاينه ، ولم تراجم ولكنها غير وافية ، وغير متداولة وكثير منها مخطوط ، ولذلك نجد الدارسين لهذه العلوم يرون أسماء كثيرة في الشروح والخواشي وهم لا يعرفون عنها شيئا ، بل إن عددا غير قليل منهم لا يقرأ هذه الأسماء قراءة صحيحة ، ومع أن مرجع هذا — كما ذكرت في مقال سابق — إلى عدم العناية بالنظر في تراجم العلماء ، ومعرفة اتجاهاتهم ، فإن كثيرا منه يقع على صعوبة الحصول على كتب التراجم .

البلاغة علم غامض ، وتراجم علمائه غامضة ، فبذا لو كشف هذا الغموض ؛ ولعل دراسة التراجم أكبر معين على تفهم العلم نفسه ؛ وهذا ما عقدت العزم عليه ، والله المعين ؟

صفة معترك

ومعترك تهز به المنايا	ذكور الهند في أيدي ذكور
لوامع يبصر الأعمى سناها	ويعمى دونها طرف البصير
يوم راح في مربال ليل	فا عرف الأصيل من البكور
وعين الشمس تنو في فثام	رنو البكر من بين الستور
فكم قصرت من عمر طويل	به وأطلت من عمر قصير

اجراءات الطلاق

العلاقة بين الشكل (الاجراءات) وقواعد الموضوع

لحضرة الاستاذ الفاضل صالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

كان من الواجب ذكر إجراءات الطلاق في قانون المرافعات المدنية، إلا أن المشرع لاحظ الارتباط الوثيق بين الطلاق وإجراءاته من جهة، وأنه يريد من جهة أخرى أن يضع عقبات مادية لحصول الطلاق حتى لا يكثر وقوعه. ثم أخيراً لما كان الطلاق ذا أهمية كبرى إذ يرتب عليه هدم الأسرة، اضطرت المشرع لوضع قواعد خاصة به؛ فكانت هناك مناسبة تامة بين الطلاق وإجراءاته، ولذا ذكرها في القانون المدني في باب الطلاق. وهذه الإجراءات تسير على مراحل:

المرحلة الأولى :

تبدأ هذه المرحلة أمام رئيس المحكمة المدنية الابتدائية، وتشمل عدة خطوات هي: (١) الأهلية الضرورية لرفع دعوى الطلاق. (٢) المحكمة المختصة. (٣) طلب المدعى المرفوع لرئيس المحكمة. (٤) محاولة الصلح بين الزوجين. (٥) قرار الرئيس بالسير في الدعوى. وهذا القرار قد يتضمن قراراً قاضياً باتخاذ مسكن منفصل عن مسكن الزوجية (أثناء سير الدعوى). (٦) الاجراءات التحفظية. وستكلم عن كل هذه الخطوات.

الأهلية الضرورية لرفع دعوى الطلاق :

الأصل أن كلا من الزوجين له الحق في رفع دعوى الطلاق، سواء كان ذلك بطلب أصل أو بطلب فرعي أو على سبيل الدفاع من جانب المدعى عليه. ولكن

ما الحكم فيما إذا كان أحد الزوجين ليست له أهلية التقاضى ؟ الجوابا عن هذا نقول :

واضح أن المرأة المتزوجة ليست في حاجة (في مثل هذه الحال) إلى أخذ تصريح أو إذن من زوجها لكي ترفع دعوى الطلاق ضده ، إذ أنه لا يرضى بذلك مطلقا ، فلها حينئذ أن ترفع دعواها بدون هذا الاذن . أما القاصر المتزوج لحيث كان أهلا لتقاضى في الدعاوى غير العقارية ، يكون حينئذ أهلا لتقاضى في دعوى الطلاق . وأما السفیه المبذر والمضطرب العقل ، وكذا المحجور عليه حجرا قانونيا ، و المحجور عليه حجرا قضائيا ، ومن به مرض عقلي وغير محجور عليه ، فهؤلاء يباشر لهم دعوى الطلاق القوام عليهم .
المحكمة المختصة :

المحكمة المختصة بنظر دعوى الطلاق هي المحكمة التي في دائرتها يقيم المدعى عليه .
طلب الطلاق :

تقدم عريضة طلب الطلاق لرئيس المحكمة المدنية الابتدائية المختصة من المدعى ، وهذا هو أول خطوة في إجراءات الطلاق والاساس الذى يبنى عليه ؛ فلذا يجب أن يحجر الطلب ويصدر عن محام . ولكن يجب أن يقدم طالب الطلاق بشخصه الطلب إلى الرئيس دون أى شخص آخر . فإذا استحال على الطالب الذهاب بشخصه لرئيس المحكمة انتقل هذا الأخير مع كاتب المحكمة إلى محل إقامة الطالب . والسرفى ذلك هو رغبة المشرع فى التوفيق والإصلاح بين الزوجين . ومع الأسف أثبتت التجارب أن هذا التحوط الذى نتمسك به المشرع لم يكن ذا فائدة عملية .

محاولة الصلح والتوفيق بين الزوجين :

الأصل أن التشريع الفرنسى يوجب فى كل قضية مدنية ترفع أن يحاول القاضى ابتداء الصلح والتوفيق بين الطرفين ، ولذا تمر الدعوى أولا أمام قاضى الصلح ، فإذا فشل فى هذه المحاولة أحالها الى المحكمة الابتدائية إذا لم تكن الدعوى داخلة فى اختصاصه .

والمشرع الفرنسي لم يهمل هذا الإجراء في دعوى الطلاق . ولكنه أوجب أن تكون محاولة الصلح بين الزوجين على يد رئيس المحكمة الابتدائية المدنية لما يتمتع به من سلطة أعلى ودرجة أرقى من قاضى الصلح . ولذا يؤشر الرئيس على طلب الطلاق بتعيين يوم وساعة يحضر فيها الزوجان أمامه ، ويجب أن يعلن أمر الحضور هذا إلى المدعى عليه على يد محضر وفي مدة لا تقل عن ثلاثة أيام للشول أمامه ، وكما يلاحظ أيضاً ميعاد المسافة . وعلى هذا تكون عريضة الدعوى مشتملة على طلب الطلاق من المدعى ، وعلى أمر الحضور من الرئيس .

ويجب أن يكون إعلان عريضة الدعوى حين إعلانها إلى المدعى عليه مقفلاً ، وإن عدم مراعاة هذه الاجراءات يترتب عليه بطلان الإعلان .

وحضور الزوجين في اليوم والساعة المحدتين يكون بشخصيهما دون أن يعاونهما أحد (من المحامين مثلاً) . فإذا استحال على أحد الزوجين الحضور بشخصه جاز للرئيس أن يعين المكان المناسب لأجل محاولة الصلح بين الزوجين . فإذا كان أحد الزوجين لم يستطع الحضور بشخصه وكان يقيم في دائرة محكمة أخرى جاز أن يرسل الرئيس إلى رئيس هذه المحكمة لأجل أن يحاول هذا الأخير التوفيق بين الزوجين . كما يجوز للرئيس أن يهمل الزوجين مهلة لا تتجاوز عشرين يوماً للتروى والتفكير في الصلح .

ولكن مع الأسف الشديد لا يقع هذا ولا يحصل عملياً .

أمر التصريح بالسيرى في الدعوى :

إذا لم يتم التوفيق والصلح بين الزوجين أصدر رئيس المحكمة قراراً يثبت فيه عدم حصول الصلح ، ويصرح للطالب بإعلان المدعى عليه بالحضور أمام المحكمة ، ويجب إعلان هذا القرار في بحر عشرين يوماً . ووصول الإعلان بعد هذه المدة لا يؤدي إلى بطلانه ، وإنما يبطل مفعول الاجراءات التحفظية التي يأمر بها رئيس المحكمة .

الاجراءات التحفظية

وهي تشمل :

(١) المسكن المنفصل عن مسكن الزوجية : قبل محاولة الصلح بين الزوجين

يجوز لرئيس المحكمة عند تقديم طلب الطلاق اليه أن يأذن للطالب بالاقامة في مسكن منفصل عن مسكن الزوجية، كما يأذن له بأخذ ما يلزمه من حاجاته، وغالباً يكون ذلك للزوجة . والرئيس هو الذى يعين هذا المسكن كما يرى، سواء عند أقاربها أو عند من تلوذ بهم أو فى أى مكان آخر . ويجوز أن تبقى الزوجة فى مسكن الزوجية إذا كانت هناك ضرورة لذلك ، والزوج يقيم فى أى مكان شاء .

ولا يجوز للزوجة أن تترك هذا المسكن إلا لضرورة قصوى، أو بناء على تصريح من رئيس المحكمة . ومخالفة هذا تستلزم جواز امتناع الزوج عن أن يؤدي النفقة المؤقتة لزوجته ، كما يجوز للزوج أيضاً طلب اعتبار الدعوى كأن لم تكن . وقرار الإقامة فى مسكن منفصل هو قرار مؤقت يجوز أن يعدل .

(ب) النفقة المؤقتة : يجوز لرئيس المحكمة أن يقرر نفقة مؤقتة لأحد الزوجين الذى فى حاجة إليها على الآخر . وعادة تكون النفقة للزوجة على زوجها .

(ج) حضانة وحفظ الأطفال : لرئيس المحكمة سلطة كبرى فى تقرير حضانة وحفظ الأطفال ، فله أن يقيهم فى يد أمهم أو أبيهم ، وهذا كله بعد الفشل فى الصلح بين الزوجين .

(د) الإجراءات الخاصة بأموال الزوجين : يجوز لرئيس المحكمة إصدار قرارات خاصة بالمحافظة على أموال الزوجين مدة سير الدعوى .
الظعن فى قرارات رئيس المحكمة :

لا يجوز الظعن فى القرارات التى تصدر قبل محاولة الصلح، ولكن القرارات التى تصدر بعد الفشل فيه يجوز الظعن فيها بكافة الطرق القانونية .

وهذه هى المرحلة الأولى وتبدأ المرحلة الثانية ؟

المؤلفات الجديدة

كتاب الكندي الى المعتصم بالله

الكندي هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق من أكبر الفلاسفة الاسلاميين . ولد حوالي سنة (١٨٥ هـ) وله في أكثر العلوم تأليف مطولة مشهورة ، ودعاه أهل عصره بفيلسوف العرب . تحدث عنه العلامة الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله وذكر ما اشتهر عنه من علوم الفلك والطب والهندسة ثم قال : ، أما شأنه في الفلسفة فهو أهم شؤونه ، ومظهر عبقريته ، ومناط الخلود لاسمه في ثنايا التاريخ ، .

للفيلسوف الكندي الذي نحن بصدد كتاب عمله لأمر المؤمنين المعتصم بالله ابن هارون الرشيد ، وهو كتاب موجز يشتمل على حدودها ومطالبها وأدلتها ، وعلى الموجودات ومراتبها وقواها وهيولها الخ الخ مما عني به القدماء ، وفكروا فيه تفكيراجديا ، ووصلوا من ذلك الى مدارك يحجب الإلمام بها لمن يطلب الحقيقة . وقد قدم له حضرة الاستاذ الضليح الدكتور أحمد فؤاد الأهواني مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الأول مقدمة جمعت من الكلام عليه وعلى ما يتعلق بالكندي ما يفيد الاطلاع عليه ، لانه اشتمل على استطرادات تاريخية تكشف للقارى ما كانت عليه أحوال ترجمة العلوم اليونانية في الفلك والطبيعة والطب وغيرها ، وفيما لقيته الفلسفة من عناية أو عنت . وهو تلخيص يغني عن قراءة المطولات ، وفيه آراء لكثير من الباحثين يخرج منه القارى بفوائد لا يجدها مجتمعة في صعيد واحد . فثنى على همة الاستاذ الدكتور الأهواني ، ونعجب بحسن إirاده وإصداره للبحوث المختلفة في أسلوب رائع منشط للتلاوة في أمثال هذه الموضوعات العالية .

الفلسفة الاسلامية في المغرب

لحضرة الاستاذ الجليل الدكتور محمد غلاب مدرس الفلسفة بالجامعة الأزهرية

وهو كتاب من أجمع الكتب لبيان حصّة المسلمين من زيادة مادة الفلسفة ، دفعا لأقوال من زعموا أن الفلاسفة الاسلاميين لم يزيدوا على أن كانوا مجرد نقلة للفلسفة اليونانية . فقد تصدى الدكتور غلاب لهذا الزعم فتقضه بالأدلة القاطعة ، وأتى على تلك الزيادات القيمة ، التي أضافها الفلاسفة المسلمون الى التراث الفلسفي

فزاد بها ثروة ، واتسع بها مدى . وفي هذا مفخرة للفلاسفة الاسلاميين ، لأنهم مع عدم النشاط الذى كانوا يصادفونه ، قد استطاعوا أن يأتوا فيها بجديد يشرفون به العبقرية الاسلامية .

ولاجل الوصول الى هذه الثمرة الثمينة ، اضطر الدكتور غلاب لعرض مذاهب ائمة الفلسفة الاسلامية كابن باجة ، وابن طفيل ، وابن رشد الخ ، وهو فى عرض هذه المذاهب يظهر ألمعية فائقة فى بيان الفروق الدقيقة بينها ، وفى حصة الاسلاميين من الزيادة على ما سبق الوقوف عند حده منها .

فهذا الكتاب ينشط الفاعلى على الاطلاع مدفوعا بجلالة الموضوع وبلاغة التعبير ، واتساق الموضوعات . فثنى على همة الدكتور المفضل بما هو أهله .

المذاهب الفلسفية العظمى

وهذا سفر ثان لحضرة الاستاذ النابه الدكتور محمد غلاب نفحنا به مع ما سبقه ، فكانا توأمين فى حلبة الإجادة والألمعية ؛ ذلك يطوف بنا على ما طواه التاريخ من الفلسفات القديمة ، وهذا يحول بنا فى حديقة غناء من الآراء الجديدة .

بدأ الدكتور كتابه بالإسلام بمصر النهضة فهدى لها ، وبين لونها ، وذكر أسبابها وتناججها ، والتيارات الفكرية التى ولدتها من أول التيار الأفلاطونى ثم الأرسطى فيبيروبوونتوناى فينيكولا الكوزى فيجورد انوبرونوفيشيل دومتنى .

ثم ألم بطائفة التيار العلمى من الفلاسفة الذين يزعمون أنهم يصدرون فى فلسفتهم عن العلم لا عن الفلسفة القدامى . وذكر ليوناردو فانس وكوبرنيك وجان كليبر وجاليليه من كاشفى الكيان الجديد للعالم .

ولم يهمل فى هذا المعترك الفكرى الخطير بيان نظرية الحركة ، ونظرية النسبية ، وكل ما مهد لنظور الفلسفة الحديثة ، وقد بينها ذاكرها ميزتها . ومر على ذكر بيكون واضع الدستور العلمى ، وتابع ما ذكره بيكون هذا عما سماه الأوثان ويريد بها الأهواء البشرية التى تحجب الحقائق عن الإنسان .

ومضى الاستاذ الجليل غلاب متابعا طريقه من الاستقراء والتمحيص مارا بديكارت ومالبرانش وسبينوزا وليبنيز وجساندى ذاكرها ما لى لكل واحد منهم من قسط فى إدراك الحقيقة ، فجاء كتابه عينا عدا من المذاهب والآراء والنظريات التى تشغل بال الإنسان ولا يهد لها مصرفا . فشكر للأستاذ هديته .

الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية

لحظرة الدكتور الجليل محمود حب الله أستاذ الفلسفة وعلم النفس
بكلية أصول الدين

لهذا الكتاب النفيس غاية على أعظم جانب من السمو، وهي تمكين الإنسان من استخدام جميع قواه الأدبية، في استكمال شخصيته الذاتية، وإيتائها بالوسائل التي تبلغها سعادتها القصوى، وطمأنيتها النفسية، وسكينتها القلبية. مطلب يتحرق للوصول إليه كل ذى عقل راجح، ولكن ما هو؟ هو أن يعرف الإنسان على صورة علمية واضحة كيفية استخدام ما ركب في طبيعته من الوسائل لبلوغها. والكتاب الذي بين أيدينا قين بأن يبين تلك الوسائل مستندا إلى المقررات العلمية، والفتوحات الفلسفية.

فقد بين مؤلفه الجليل بعبارات جلية بليغة، مهمة الوجدان من الحياة الإنسانية، وأنه هو القوة التي تغذي العواطف وتربّيها وتكونها، وأن العواطف تربّي الشخصية وتقويها. وهدف هذا الكتاب بعد هذا هو أن يبين أن جميع ما يتأثر به المرء من إشباع رغباته الروحية، والدينية، وما يشعر به من تطلب الطائنة القلبية، واتزان الشخصية، والتخلص من ربة الميول الحيوانية، والمتاع بالسعادة الحقيقية، وسائلها العملية مطبوعة في نفسه التي بين جنبيه، وليس فيها ما هو غريب عنها، وبمجرد تحريك الإرادة نحو الوصول إليها يحققها، وما عليه إلا أن يعرف وسيلة تحريك الإرادة لنيلها. ومهمة هذا الكتاب بيان كل ذلك بعبارات واضحة يفهما الكافة، وإن كانت من صميم الفلسفة، ولباب الحكمة العالية.

هذا الكتاب القيم الذي يبين مبلغ تأثير الوجدان في حياة الإنسان الأدبية يجب أن يكون في يد كل مشتغل ببلوغ السعادة التي وعد بها المقربون، فنثني الشاء كله على مؤلفه العلامة نفع الله به، وأمدّه بروح من عنده.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدُّرُوسُ الدِّينِيَّةُ

الدرس الديني الذي ألقاه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
الشيخ محمد مأمون الشناوي شيخ الجامع الأزهر في قصر عابدين العامر
جريا على السنة الملكية

بسم الله الرحمن الرحيم :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد
النبي الكريم ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

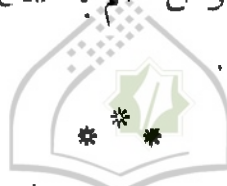
أما بعد : فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سنَّ سنة حسنة فله أجرها
وأجر فاعلها الى يوم القيامة » . وقد تفضل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك
المعظم الملك فاروق الاول - أيد الله به الدين ، وأبقاه ذخرا للإسلام والمسلمين -
تفضل حفظه الله فشرع هذه السنة الحميدة ، عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : « من دعا
إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا » .
ولا شك في أن مجلس العلم فيه الخير كله ، « هل يستوى الذين يعلمون والذين
لا يعلمون » . « وقل رب زدني علما » .

قال صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم
والله يعطي » ، وإن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي
أمر الله . . وقال صلى الله عليه وسلم : « من نفّس عن مؤمن كربة من كرب
الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله
عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة » ، والله
في عون العبد مادام العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما
سهّل الله له طريقا الى الجنة . .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : « إذا مررتهم برياض الجنة فارتعوا ، قيل : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس العلم ، . »

ألا وإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

عن على كرم الله وجهه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت : يا رسول الله وما المخرج منها ؟ قال : « كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو القول الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله ، فهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، من علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم . »



قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ، لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ . »

هذه الآية الكريمة اشتملت على أمور أربعة ، تعتبر خلاصة لعقائد الدين وشرائع الإسلام ، وهى : الجهاد فى الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والاعتصام بالله . ذلك أن الدين الإسلامى عقيدة وعمل ، والعقيدة تركزت فى الثقة بالله ، والاعتراف بأنه القوة العاىة التى منها المبدأ وإليها المنتهى ، ومنها النفع والضرر ، ولها الخلق والامر ، وهى الملجأ والملاذ فى الشدة والرخاء ، والسراء والضراء ؛ وإلى ذلك الإشارة بقوله جل شأنه : « واعتصموا بالله هو مولاكم ، . »

وأما العمل فمآله الى ثلاثة أنواع : عمل يمود نفعه على الفرد فى ذاته ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « فأقيموا الصلاة ، » وعمل يتعدى نفعه الى فرد أو أفراد من

بمجموع الأمة، وإليه الإشارة بقوله سبحانه : « وآتوا الزكاة » ؛ وعمل يعود نفعه على الأمة كلها من حيث هي أمة ذات كيان دولي ، لها وطن تحميه ، ودين تفديه ، وقومية ترعاها ، وذلك هو قوله تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده » . لجهاد العدو ضروري لحفظ كيان الأمة ورفع رايها وإعزاز كلمتها . والجهاد مبدأ مؤسس على نظرية اجتماعية طبيعية لازمت الإنسان منذ تكونت منه الجماعة المتباينة الأغراض ؛ والله جل شأنه خلق الإنسان وركب فيه غريزة حب البقاء ، وحبُّ البقاء يدفعه دائماً الى أن يجلب لنفسه كل ما يستطيع من نفع ، وكثيراً ما يكون ذلك سبباً في البغي والعدوان : فاقنضت حكمة الله أن يمنح كل إنسان قوة محدودة يستطيع بها أن يدفع عن نفسه . فالطفل في المنزل يقاوم العدوان بطبعه حتى إذا عجزت قوته لجأ الى والدته ، والولد الكبير يلجأ في حال عجزه الى أبيه أو أخيه الأكبر ، وأفراد الأمة إذا بغى بعضهم على بعض لجأ المغلوب الى الحاكم ، وهكذا الأمة في مجموعها ، شأنها في ذلك شأن الأفراد : تلجأ في دفع العدوان الى جيش قوى يحمي ذمارها ويرهب أعداءها . وإذا كان للأفراد أعمار طبيعية يموتون بانتهائها فليس للأمة مثل هذه الأعمار ، إنما حياة الأمة وبقاؤها ودوتها وفناؤها منوطان بقوتها وضعفها . فالجيش القوى مبدأ حياة الأمة وبقائها ، ومناط عزها وكرامتها .

وكل أمة تهاونت في جيشها وبخلت عليه بما لها فمآلها الفناء ، وإن بقي أفرادها على قيد الحياة فهم أحياء ولكنهم أذلاء مستعبدون ، لا يعاب بهم ، ولا يبالي بعديدهم .

يقول الله تعالى : « يأيتها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحكيكم » . قال العلماء معناه : إذا دعاكم للجهاد ففيه حياتكم وعزكم وبقاؤكم . وقال جل شأنه : « وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » ، معناه : أنفقوا في سبيل الله ولا تبخلوا فتمنعوا موقع الهلكة ويستأصلكم عدوكم .

وقد عرف الإسلام للجهاد عظيم خطره وكبير أثره ، فجعل غدوة أو راحة في سبيل الله خيراً من الدنيا وما فيها ، وفضل المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ؛ درجات منه ومغفرة ورحمة ، وكان الله غفوراً رحيماً .

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى : « أنا ضامن لمن خرج في سبيل لا يخرج به إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسلي أن أدخله الجنة أو أرجعه الى أهله

نائلا ما نال من أجر أو غنيمة ، . وقال تعالى : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فنبتوا آمنوا ، سألتى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » .

هذا والجهاد ثلاثة أنواع : جهاد الأعداء ، وجهاد الشيطان ، وجهاد النفس .

فجهاد الشيطان يكون بمخالفته فيما يوسوس به ، وعدم اتباعه فيما يزين للإنسان من القبائح والشُرور وسيئات الأعمال « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » . وجهاد النفس يكون بحبسها عن مألوفها ، ومنعها من الانغماس فى شهواتها ، وضبطها بميزان الشرع حتى لاتتعدى حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون .

وقوله تعالى « وجاهدوا فى الله حق جهاده » أمر بالجهاد بأنواعه الثلاثة ، أى ليسكن جهادكم كله لله ، ومن أجل الله ؛ ولذا قال تعالى : « حق جهاده ، أى جهادا حقا خالصا لوجه الله .

وبعد أن أمر الله تعالى بالجهاد الخالص لوجهه الكريم ، أردف ذلك بأمور كلها تبعث على الجهاد وترغب فيه ، فمنها قوله تعالى : « هو اجتباكم » . أى أن الله اختاركم لخدمته واصطفاكم لنصرة دينه ؛ ومن شأن العبد إذا اختاره سيده وقربه أن يتفانى فى خدمته ويخلص فى طاعته . ومنها قوله تعالى : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » . ومعناه أن الدين الذى شرعه الله ورضيه لكم ديناً كله يسر لا عسر فيه ، وسهل لا صعوبة فيه ، حتى إن الجهاد الذى يظنونه أمراً شاقاً وتكليفاً صعباً هو فى ذاته من أيسر الأمور على المؤمن الصادق الإيمان ، وما هو بصعب إلا على المتردد السقيم الوجدان .

أما قوى الإيمان الصادق العزم الواثق بالله وما عند الله ، فإن قوة إيمانه تدفعه الى الميدان دفعا كأنه عمل لا شعورى ، فيقدم لا يلوى على شئ . ولا يبالى ما وراءه من مال وولد ، وزوج وقريب ، لأنه يعتقد أن نتيجة هذا العمل إما الجنة ، وإما المجد والذكر الحسن .

روى أنه صلى الله عليه وسلم رغب فى الجهاد وذكر الجنة ، ورجل من الأنصار

يأكل تمرات في يده، فقال: إني لحريص على الدنيا إن جلست حتى أفرغ من هذه التمرات! فرماها من يده، وحمل بسيفه فقاتل حتى قتل.

« والمقتولون في سبيل الله أحياء عند ربهم يرزقون، لأنهم كانوا سيياً في حياة أمتهم. وهبوا حياتهم لتحيا أمتهم، فوهب الله لهم حياة خيرا من حياتهم » تكون أرواحهم في حواصل طيور خضر، يسرحون ويمرحون في رياض الجنة.

وقوله جل شأنه: « وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم ».

يريد أن دين الإسلام ميسر سهل كما كانت ملة إبراهيم عليه السلام ميسرة سهلة. « هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا »، يعني أن الله عز وجل رفع ذكركم في الكتب السابقة، ونوه بشأنكم في الأمم قبلكم، فسماكم في كتبهم مسلمين ومذعنين طائعين، وكذلك سماكم المسلمين في كتابكم هذا، وهو القرآن الحكيم. « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » فأنتم « خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ».

وأما قوله تعالى: « ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس، فهو مثل قوله جل شأنه في آية أخرى: « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ».

ورد أنه يؤتى بالأمم وأنبيائهم يوم القيامة فيقال للأنبياء: هل بلغتم أممكم؟ فيقولون: نعم بلغناهم. فينكرون. فيؤتى بهذه الأمة فيشهدون أنهم قد بلغوا، فتقول الأمم لهم: من أين عرفتم؟ فيقولون: عرفنا ذلك من الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم.

« فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » يريد: تقربوا إلى الله عز وجل بأنواع الطاعات لما خصكم بهذا الفضل العظيم.

« واعتصموا بالله » : ثقوا به في جميع شئونكم، واضرعوا إليه في كشف ما بكم، واحتموا به بحكمكم، واسألوه النصر ينصركم ويثبت أقدامكم، وتعرفوا إليه جل شأنه في الرخاء يعرفكم في الشدة، واستقيموا إليه واستغفروه، واطلبوا منه

الهداية والتوفيق والنصر والتأييد، فإنه وحده هو مولاكم وناصركم، ومتولى جميع أموركم، فنعلم المولى ونعم النصير .

هذا وإن للعاملين لذكرى، وإن للمصلحين لأثرا، وإن أولى العاملين بالذكر وأحق المصلحين بالآثر من نهضوا بأمتهم، وساروا بها إلى حيث تبلغ مجدها ورفعها ومكانتها بين الأمم. وهكذا كان المغفور له صاحب السمو الحديوي إسماعيل العظيم؛ فإنه رحمه الله قد بعث في مصر روح النهضة، وأفسح للأمة في مجال الرقي، وجعل المملكة المصرية تاج الممالك الشرقية وكعبة الأمم الغربية. وقد اختاره الله تعالى إلى جواره، فانتقل إلى الرفيق الأعلى راضيا مرضيا في مثل هذا اليوم من شهر رمضان، سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية.

نسأل الله تعالى أن يحزيه خير الجزاء، ويسكنه الفردوس الأعلى، إنه أرحم الراحمين.

اللهم إنا نتوجه إليك بقلوبنا وبصدق نياتنا أن تثبت أقدام عبادك المجاهدين، وتظهرهم على أعدائك الطغاة الباغين، وتمنحهم نصرك الذي وعدت به من يجاهد في سبيلك يا خير الناصرين، ونضرع إليك يا ذا الجلال والإكرام، أن تشمل بعونك ورعايتك المجاهد في سبيلك، الداعي لنصرتك، المؤيد لكلماتك، المخلص في طاعتك، الملك الصالح الموفق، مولانا صاحب الجلالة فاروقا الأول، وأن تحيي حياة طيبة، مباركا فيها، تعم بنفعها العباد والبسلا، وأن تمنحه وإخوانه أصحاب الجلالة والفخامة ملوك العرب ورؤساءهم نصرك المبين يارب العالمين، وأن توفق رجال حكومة جلالته إلى ما فيه الخير العميم، إنك على ما تشاء قدير.

ونسألك اللهم يا واسع الفضل والإحسان، أن تتغمد برحمتك ورضوانك الراحل الكريم، مولاي الملك العظيم، صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤادا الأول. اللهم اجعله في أعلى عليين مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الدرس الديني

الذي ألقاه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن
وكيل الأزهر بمسجد محمد علي بالقلعة في حفل عظيم ضم كبار العلماء ورجال الدولة

وكان ينوب عن حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فيه حضرة
صاحب المعالي إبراهيم عبد الهادي باشا رئيس الديوان الملكي .

بسم الله الرحمن الرحيم .

قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ
الصَّابِرِينَ . وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ
لَا تَشْعُرُونَ . وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ
وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ .
أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ . »

بين الله في الآيات السابقة ما أنعم به على المؤمنين من النعم العظيمة ، وبين
ما يجب عليهم من ذكره وشكره على هذه النعم ، وعدم إهمالها أو التحول بها
إلى غير ما وجدت له ، وذلك بقوله « فاذكروني أذكركم ، واشكروا لي
ولا تكفروا » . فكان من تمام إرشاده سبحانه إذ أمر بالشكر على النعم ،
أن يأمر بالصبر على الشدائد والنقم : فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر الله
عليها ، أو في نقمة فيصبر عليها . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عجباً
للمؤمن : لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له : إن أصابته سراء فشكر كان
خيراً له ، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له . »

والصبر : هو قهر النفس على احتمال المكاره في ذات الله ، وتوطئتها على تحمل المشاق وتجنب الجزع ، لتتربى في النفس ملكة الرضا ، والثبات على الحق ، واحتمال كل ما يشق على النفس .

فهو فضيلة هي أم الفضائل التي تربى في النفس ملكات الخير ، حتى إن الإنسان لا يكون شجاعاً ، ولا أميناً ، ولا عفيفاً ، ولا حليماً ، ولا غير ذلك من الفضائل إلا إذا كانت عنده فضيلة الصبر .

وقول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ » أمر عام ، وإرشاد شامل للمؤمنين ، أفراداً وجماعات ، بل والأمة في مجموعها .

فهو خطاب موجه الى الأفراد فيما ينزل بهم من المصائب والشدائد ، بأن يستعينوا بالصبر ، ويثبتوا أمام مصائبهم ، لينالوا من الله برد الرضا وحسن الجزاء . وموجه الى الجماعات من الأمة ، كل جماعة فيما تقوم به من عمل

فالمجاهدون في سبيل الله جماعة من الأمة تجاهد لإعلام كلمة الحق : عليهم أن يستعينوا في جهاد عدوهم وقهره بالصبر والثبات ، ولو ترامى لهم أنه أكثر منهم عدداً ، وأقوى عدة ، لأنهم بصبرهم وثباتهم ، يزيدهم الله قوة إلى قوتهم ، وهو نعم المعين - « كَمِ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَهُ كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ » ، والله مع الصابرين .

وكل جماعة تؤدي عملاً عاماً من طوائف الموظفين والعمال والصناعات وغيرهم يتمضي عليها واجب الوطن بأن تتحمل أعباء ثقيلة من العمل : يجب عليها أن تهض بهذه الأعمال ، ولا تجمل للضجر على نفسها سيلاً ، بل تستعين على إنجازها بالصبر وقوة العزيمة .

والخطاب موجه الى الأمة في مجموعها ، بأن تستعين بالصبر والثبات في مغالبة الشدائد ، وما يصادفها من عتبات وأحداث ، في سبيل تقدمها ، واستخلاص حقوقها ، كي يكتب لها البقاء والفوز في مضمار الحياة . . . فإن الأمة التي تفقد الصبر والثبات في الملمات ، وتزلزلها الأحداث فلا تقوى على احتمالها ، هي أمة ميتة كتب عليها الفناء ، ولا تلبث أن تصرعها الأقدار ، فتصبح كأن لم تكن بالامس .

أما الاستعانة بالصلاة فلأنها من أكبر العون على الثبات في الأمور ؛ إذ يجب أن تؤدَّى بالخضوع والتذلل والإخلاص لله سبحانه وتعالى ، وأن يوفّر المصلّي قلبه عليها بالشعور بعظمة الله تعالى ، وسلطانه ، وأنه الغالب على كل شيء ، وأنه الذي يُلجأ إليه في ملات الأمور ، ويُفزعُ إليه عند الكوارث ، وأنه لا أكبر في هذا الوجودِ سواه .

ولا شك أن من أقام صلاته على هذه الصفة ، فقد ذلّل نفسه لاحتمال المشقة فيما عداها من أمور الدين ، كما قال تعالى « وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكرُ الله أكبر » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة .

وقوله تعالى : « إن الله مع الصابرين » ، يعني أن الذين اتصفوا بالصبر ، وكان الصبر مُخلِّقاً لهم ، يمدّهم الله بمعاونته ، ويزيدهم من فضله توفيقاً وتسديداً وألطافاً كما قال « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » .

مركز تحقيق كاميون علوم إسلامي

بعد أن دعا الله المؤمنين إلى الاستعانة بالصبر على الشدائد في الأمور كلها ، وكان من أهمها الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، وفي هذا السبيل يقتل بعض المؤمنين ، قال : « ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياءٌ ولكن لا تشعرون » . ليعلمنا منزلة هؤلاء الشهداء ، وما أكرمهم به من النعيم المقيم .

ولم يبيّن الله حقيقة هذه الحياة التي يحياها الشهداء ، وليست لها آثارٌ ظاهرة لنا حتى يمكن البحث فيها ، وإنما أخبر الله بأنهم أحياء عنده ؛ ولهذا نحن نؤمن بهذه الحياة ، وأنها حياة يختص الله بها الشهداء ، وميّز أرواحهم بها على أرواح الناس : بها يرزقون ، ويستعمون ، كما جاء في الآية الأخرى : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله » .

هذا جزاء الشهداء من المجاهدين وما أكرمهم الله به . أما المجاهدون الذين لم يُقتلوا ، فهؤلاء مع ما يكون لهم من حسن الذكر بين الناس على ما قاموا به في سبيل الذود عن حنى الإسلام ، ودفع الطغيان عنه ، فإن كل ما يصيبهم في جهادهم من تعب وآلام ، وكل ما يشفقونه من النفقات ، عظمت أو قلت ، وما ينالونه من عدوهم من تقتيل وتجريح وكيد ، وغير ذلك ، سيكون لهم به عند الله أجر عظيم . يقول الله تعالى : ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ، ولا يطؤون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ،

وقوله تعالى : ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، يعنى أنه ستصيب المؤمنين محن وبلايا في سبيل الدفاع عن الحق لإعلاء كلمة الله . وقد أخبر الله بهذه المحن قبل وقوعها ، ليوطن المؤمنون أنفسهم على الصبر عليها إذا حلت بهم ، فيكون ذلك أبعد لهم عن الجزع ، وأسهل عليهم بعد الورود .

وقد أصاب المؤمنين بلاء وشدة من أعدائهم كانوا يغالبونها بالصبر والثبات وقوة الإيمان ، مع قلة عددهم وعدتهم ، وكثرة أعدائهم وقوتهم . وقد كانت واقعة الأحزاب امتحاناً أى امتحان لقوة إيمانهم ، وثباتهم على الحق . فقد جمعت الأحزاب من شتى القبائل في نحو عشرة آلاف مقاتل ، بتجريض من اليهود ، ليستأصلوا محمداً ومن معه من المسلمين ، وحاصروا المسلمين بالمدينة نحو شهر ، يظاهرونهم يهود بنى قريظة الذين خانوا ونقضوا ما كان بينهم وبين الرسول من عهد وميثاق . وقد أذاقوا المسلمين في هذا الحصار ألوان الشدائد ، من الألم والنصب والجوع ، وهم مع ذلك ثابتون مع قلة عددهم الذى لا يجاوز ثلاثة آلاف مقاتل ؛ سلاحهم الصبر وقوة الإيمان بالله ، حتى أرسل الله على أعدائهم ريحاً عاتية ، مزقت شملهم ، وفرقت جمعهم ، فبأوا بالخيبة والفشل ، ومكث الله للمسلمين من اليهود ، جزاء خيانتهم ونقضهم العهد .

وفى هذا يقول القرآن الكريم ، إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم ،
 وإذا زأغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى
 المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً ، الى أن يقول : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم
 لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا . وأنزل الذين
 ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم ، وقذف في قلوبهم الرعب ، فربما
 تعلمون وتأسرون فريقا : وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأرضالم تطأوها ،
 وكان الله على كل شيء قديرا ،

كذلك أصاب المسلمين الجوع فى أوقات متفرقة ، من قلة المال ، وما كان
 يصيبهم من الجذب والجوائح واشتغالهم بجهاد أعدائهم ، حتى بلغ من أمرهم أن كان
 بعضهم يقتات ببعض التمرات ، وبعضهم يشد الأحجار على بطنه من آلام الجوع ؛
 وكان من آثار اشتغالهم بالجهاد بأموالهم وأنفسهم ، أن أصابهم القتل ، وقلت
 الأيدى العاملة فى الزراعة والتجارة ، ففقدت بذلك الأموال والأنفس
 والثمرات .

ولما كانت هذه البلايا وغيرها غير قاصرة على عصر النبى صلى الله عليه
 وسلم ، بل المسلمون عرضة لأن تصيبهم فيما لا يزال من الزمان ، فى السلم وفى
 الحرب ، وردت البشارة عامة فى قوله تعالى « وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم
 مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، لتشمل جميع الصابرين الموجودين ومن
 يأتى بعدهم ممن وصفهم الله فى الآية .

وليس المراد مجرد النطق بهذه الكلمة « إنا لله وإنا إليه راجعون » ، وإنما
 المراد أن ينطقوا بها بدافع من الشعور النفسى بأن الله مالك أمرهم ، بيده ملكوت
 كل شيء ، لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته ، وأنهم فى جميع أمورهم راجعون إليه ،
 يخفف عنهم آلام منازل بهم ، ويدفع عنهم كييد المعتدين ، وينتصف لهم من
 الظالمين . فهؤلاء هم الصابرون حقا ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .
 وقد فاز هؤلاء الصابرون من الله تعالى بثلاث خصال لم يجمعها لغيرهم من

المؤمنين ، وهى التى ذكرت فى قوله : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ، ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » .

فصلوات الله عليهم : أن يثنى عليهم ، ويزيدهم تشريفاً وتكريماً وتعظيماً ؛ ورحمته عليهم : هى ما يكون لهم فى نفس المصيبة من لطف الله وإحسانه ، فيكون لهم منه حسن العزاء والرضا والتسليم بقضاء الله ؛ وهم المهتدون إلى الحق والصواب فيما ينبغى عمله فى أوقات الشدائد والمصائب ، فلا يستحوذ الجزع على نفوسهم ، ولا يذهب البلاء بالأمل من قلوبهم .

أما ما يجده الإنسان فى نفسه من ألم المصيبة والحزن ودمع العين فليس منها عنه ؛ لأنه مع كونه من الأمور القهرية التى لا قبل للإنسان بدفعها ، فإنه من الرحمة ورقّة القلب ، وهما من صفات المؤمنين .



وبعد أن انتهى فضيلته من هذا الحديث قال :

حضرة صاحب المعالى مندوب حضرة صاحب الجلالة الملك - أيها الشعب الكريم :

إن الله تعالى أمرنا بالصبر وحبيه إلينا ، وأرشدنا إلى أن نجعله عدتنا فى علاج أمورنا ، وقوتنا فى شدائدنا وجهادنا .

وانتد نزلت بنا شدائد وبلايا ، ومرّت بنا أحداث كان فيها حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك - أعزه الله - المجاهد الأول بنفسه وماله ، والمثل الأعلى لقيادة شعبه النبيل إلى مواطن العزة والكرامة والمجد ، بصبر وقوة عزم .

فالتاريخ يسجل له ما قام به فيما أصاب الأمة من الأمراض الفتاكة من الجائمية والملايا والكولرا . فقد جاهد فى هذا السبيل بالآلاف المؤلفة من ماله الخاص ، وشارك الأمة فى آلامها ، وذهب إلى الجهات المنكوبة بنفسه ليواسى أهلها ويعمل على تخفيف آلامها ومصائبها ؛ وكان يواصل الليل بالنهار يعمل ويشرف على ما تقوم به حكومته بصبر وجلد وقوة إيمان ، إلى أن أزال الله هذه الغمة ، وطهر البلاد منها .

والتاريخ يسجل له مواقف الحزم والثبات في معالجة قضية الوطن الكبرى ،
 مما كان له أثر عظيم في موقف البطولة الذي وقفه وفدنا الامين في مجلس الامن .
 والامة في هذا السبيل ترسم خطا جلالته وتشد أزره ، حتى كان ما استرده لها
 من حقوق مضت عليها عشرات السنين ؛ وهو لا يزال في مضمار المجد يجاهد
 ويصابر حتى يصل الى نهاية الشوط ، وبين يدي جلالته حقوق الامة كاملة غير
 منقوصة بإذن الله .

والعروبة والإسلام يسجلان له بالفخر ما كان له من الصبر والثبات
 في سبيل تكوين جامعة الدول العربية التي تدين لجلالته في وجودها . وها هي ذى
 قد أصبحت قوة يخشى بأسها بين الدول ، وجلالته أعزه الله في الطليعة ، يمدّها بقوة
 نفسه وعزماته الوثابة لاسترداد مجد العروبة ودفع الطغيان عنها . وها هو ذا
 قد تقدم الصفوف بجيش مصر الفوى الباسل للجهاد في سبيل الله ، سبيل مجد الوطن
 والعروبة والإسلام . وسيكتب التاريخ لجيش مصر البطولة والانتقال من نصر
 الى نصر ، في صحائف المجد والعزة والفخر .

هذه أمثلة مما كان لجلالته من صبر وثبات وقوة عزم . زاده الله قوة وثباتا
 وعزما ، والله ولى الصابرين .

نرجو الله العلى القدير أن يؤيده ، وأن يؤيد حكومة جلالته ، ويقوى عزمها
 فيما فيه خير الامة ومجدها وعزتها .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

هل فات زمان الاديان

يخيل للذين يشهدون الخطوات الواسعة التي يخطوها العلم في سبيل كشف القناع عن وجوه المجاهيل ، وفي متابعة البحث وراء عللها ، ومبلغ آثارها ، حتى تأدى الى فهم حقيقة المادة ، وتراعى له ما سيبتى على ذلك من حل مسائل أخرى ؛ قلنا يخيل الى الذين يشهدون ذلك أن عهد الدين قد آذن بالزوال ، وأن سيحل محله العلم في هداية الإنسان الى أقوم سبل الحياة ، وفي إيتائه بمسئل عليا من الأدب السامى يندفع الى الوصول إليه على أكمل ما يكون من ثقة وطمأنينة وبعد عن الشبهات . وقد نطق بهذا الحكم طائفة من العلماء وتلقفها عنهم رجال من المتصلين بهم من زعماء المذهب المادى ، فاندفعوا يروجونها في الجامعات والمجلات العلمية ، واشتدت حملتهم على الدين حتى زعموا أن بقاءه أصبح من المحال ، فساهى إلا ملاوة من الدر تمضى حتى يموت من بقى من أهل الجيل الحاضر المطبوعين بتأثير بيئاتهم وثقافتهم ، على الدين ، فينقضى عهد الدين ، ويشرق سلطان العلم ، فلا يناظره في قيادة النفوس منازع ، وتتوحد وجهة البشرية تحت ضيائه الساطع .

بنى هذا الحكم من قادة الماديين على أن العلم يكشف حقائق الموجودات ، ويبحث في عللها ، ويُعنى بتفسير ما يستطيع تفسيره منها ، وهو دائب على عمله هذا من يوم وُجد ، وقد تأدى الى ثمرات قيمة ، لا يتردد في عظمتها أحد . وهذا لا يؤثر في ضرورة الدين أقل تأثير حتى ولو وصل العلم الى غاية مراده من تفسير الموجودات وتعليلها ، الى أن يصبح الإنسان لا يجمل شيئاً منها . ذلك لأن للدين مطلباً آخر أسمى من مطلب العلم ، وأرفع منه موضوعاً ، وأعلق بالنفس الإنسانية من ثمرته مها جللت ، ألا وهو إيجاد صلة بين الإنسان ومبدعه ، يتأهل بها الى ما تتوق إليه نفسه من اقتباس فيوضاته ، والاستعداد لإدراك حقيقة حياته ، إدراكاً يطمئنه على خلود ذاته ، ويكشف له عن معنى حكمة الوجود وآياته ، ويحل له ما يزج العقول من متناقضاته . وهذا كله ليس من مهمة العلم أن يقوم به ، ولا فى استطاعته أن يحاوله . وهو الذى تألم النفوس من الجهل به ، وتفضل الإمام به على كل عزيز عليها . فماذا يفيد الإنسان أن يعرف سر تركيب الذرة المادية ، وأن يصل الى تفجيرها ، وأن يصنع منها قبلة تأتى على مدينة بأكملها ؛ أو أن يجيد استخدام الكهرباء فى حاجاته ، وأن يكتشف قوة

جديدة من قوى الوجود، تقوم له بما هو أخص وأرفع مما تقوم لنا به القوى المعروفة، أو أن يخترع آلة توضح في السفن والطائرات فتوصله إلى أقصى الأرض في دقائق قليلة، أو غير ذلك مما يدخل في عداد المعجزات : قلنا ماذا يفيد النفوس من هذا كله إذا كانت غير مطمئنة على حياتها، ولا تعرف حقيقة ذاتها، ولا مصير الأجزاء من أحوالها؟ وبأي نفع يعود عليها إذا مسها طائف من مرض، وضعفت مقاومة بنيتها له، وأصابها من الجزع ما يزيد علتها تفاقمًا حين يتراءى لها أن الفناء فاجر فاه ليلتلعها وبلاشي قواها العقلية، ولا تبقى منها إلا ذكرى لا تشعر هي بها وإن طبقت الأرض صينا وشهرة؟.

لا جرم أن العلم في الحدود التي حصره فيها لا يواقي النفس البشرية من هذه الناحية بأقل فائدة.

لسنا بسبيل بيان تمصير العلم وإنما بصدده حض قول من يزعم أن في العلم غناء عن الدين، وقد رأيت العكس، فإن العلم فضلا عن أن عمله مقصور على العالم المادي، فإن كثيرا من رجاله يتدخلون فيما لا يعنيه، ويقررون أن ما تحلم به النفوس الضعيفة من وجود باري للوجود، ونفس مستقلة عن الجثمان في الأحياء، أحاديث خرافة يجب أن تتجرد منها العقول السليمة. وتغالي بعضهم فقال إن هذه العقائد تنافي الإنسانية القوية الجديرة بالسيطرة على القوى الطبيعية، وأن المتمسكين بها ضعاف النفوس يغلب عليهم التراخي والزهد في الدنيا، والتغلب على الطبيعة وامتلاك زمامها لا تنافي لأهلهم من الذين جعلوا أمانتهم فيما وراء هذا العالم. إن أمثال هذه المحاولات تروج في العقول المحدودة، وتأتي بشمرات إلحادية تنافي المقام المحمود للإنسانية، وهي قائمة على سفسطة لا تقوى على الرد.

هل يصح أن يغيب عن هؤلاء الخصوم أن الأمم التي تنقسم الأرض وتسيطر عليها اليوم، قامت كلها على بواعث دينية؟ وأن أمم الشرق الأقصى التي تتناحر جماعاتها كذلك للحصول على حقوقها الطبيعية، وشعوب الشرق الأدنى التي تستعصى اليوم على الاستعمار، وتقاوم القوى المضادة لها باستبسال وعناد لا يتصف بها إلا ذوو النفوس الالوية، هل منعها أديانها عن الاندفاع وراء مطالبها المادية، وهل حطت من كبرياتها التومية ما تعتقده من الأصول الدينية؟

وهذه الأمة الإسلامية التي ظهرت في جزيرة العرب في بيئة لا تسمح طبيعتها بتيام أمة فيها، ألم ترها قامت تحت تأثير عقيدتها تفتح العالم وتستغل

الطبيعة حتى بلغت أقصى ما تبلغه أمة من العظمة الأدبية والمادية ؟ فلو كانت المطالب الروحية تصد النفوس عن الاشتغال بالشئون الدنيوية ، والمعارف الكونية ، لكانت الأمة الإسلامية في عهدها الأول - وقد نالت بسطة من الملك وسعة من السلطان - استقامت إلى مآلديها من العقائد ، وأهملت ما عداها من البحوث الفلسفية والعلمية ؛ بل كانت تصدت لما صادفته من هذه البحوث واعتبرتها من المكائد الشيطانية ، لإلهاء المؤمنين عن الواجبات الدينية فأحرقتها . ولكن العالم كله يشهد الآن وفي مقدمته المؤرخون ، بأن المسلمين في بدء نشوئهم ما احتكوا بأمة إلا أخذوا بأفضل ما عندها من المعلومات الكونية ، والأسرار الصناعية ، واكبوا على دراستها حتى بلغوا درجة الإمامة فيها قرونا كثيرة ، ولا تزال مؤلفاتهم ماثلة في الجامعات الأوروبية تشهد بصحة ما يقوله المؤرخون عنهم ، فأين تقع بعد هذا الدليل المحسوس دعوى زعماء الفلسفة المادية من أن الاشتغال بالأمور الدنيوية والعقائد الدينية ، يمتد القلوب ، ويصد النفوس عن الاهتمام بالأمور المادية ، ويحول دون الوصول إلى النهايات البعيدة للفتوحات الطبيعية . أما وقد دحضنا هذه الشبهة ، فنعود إلى القول بأن للدين مهمة لا يستطيع أن يقوم بها العلم بل هو كما ترى يحاول أن يستهين بها ، ويعزوها إلى السذاجة العقلية . لا لا ، ليس تفكير الإنسان في مضميره ، ولا البحث في علاقاته الروحية بما فوق الطبيعية ، من السذاجة العقلية ، ولكنه اسمى ما يجب أن يبحث فيه الإنسان ، وهو مدفوع إليه بعوامل طبيعية في ذاته ، فإن كان من المسموح به استخدام عبارة السذاجة العقلية في هذا البحث ، فإن هذا الوصف أولى بالذين يدعون أن ليس فوق الطبيعة المنظورة وجود أعلى منها يصح البحث عنه ، وخاصة في الوقت الذي ظهرت فيه مكتشفات تثبت أن فوق عقل الإنسان العادي عقلا باطنا أقوى منه إدراكا ، وأبعد منه نظراً ، وأشرف منه غاية ، ولا أريد أن أتعدى هذا الحد هنا . وكل ما أريد أن أقوله إن هذا الحنين من النفس لمعرفة ذاتها ، وكشف الستار عن عالمها ، وإحكام الصلة بينها وبين قيوماها ، من الأمور التي تهملها ، إلى أبعد حد ، ولا يمكن أن تنصرف عنها مهما شككها فيها المشككون ، ومهما بلغ اليه العلم من تسخير الطبيعة . فلا خوف على الدين من تقدم العلم بل إنني أتوقع ، وقد كثرت المكتشفات الروحية ، أن يصير العلم من أشياع الدين ، ويصبح من أخلص خدامه .

محمد فريد وجدي

الجنة تحت ظلال السيوف

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طه الساكت

المدرس بالأزهر

عن عبد الله بن أبي أوفى في رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها العدو ، انتظر حتى مالت الشمس ، ثم قام في الناس فقال : « أيها الناس ألا تتمنّون لقاء العدو ، وأسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا : واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف . ثم قال : اللهم مُنزل الكتاب ومُجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم ! » رواه الشيخان .

الحرب شر لا بد منه ! قضية آمن بها الناس جميعا ، ويزدادون إيمانا بها كلما اتسع العمران وتنافس الناس في هذه الحياة . وأخرى آمن بها الناس كذلك : مسلمهم وكافرهم ، إلا أعمى أو مكابرا ، يدمغه الحق ، فيولّى صاغرا ، ويدبر مستكبرا ، قد ختم الله على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ! تلك هي : أن الإسلام لا يتشبه الحرب ولا يتمناها ، ولا يقدم عليها إلا مضطرا : فهو دين الهدى والرحمة والسلام والطمأنينة ، والوقار والسكينة : فإذا اعتدى معتد على كرامته أو بغى باغ على حرمة ، رد العدوان بمثله ، لا يحيف ولا يجور ، ولا يغدر ولا يخون : فإذا كف الظالم ، وثاب الآثم ، ورجع المعتدى - صاحبه الإسلام وعفا عنه ، وأعاشه في كنفه وادعاه آمنا مطمئنا على نفسه وماله وعرضه ودينه ، يدافع عنه ويقا تل دونه ، ويرعى له من الحرمة والكرامة ما لا يرعاه له أهل ملته ، ولا يزال كذلك في مجبوحة الأمن والطمأنينة ، حتى يغدر أو يفجر فيعلنها على الإسلام حربا عوانا !^(١) هنالك لا يجحد الإسلام بدّا من الأخذ بالحزم والعزم في

(١) العوان : النصف (بوزن سبب) في سنها من كل شيء ، والعوان من الحرب : الذي قوتل فيها

مرة بعد مرة ، كأنهم جعلوا الأولى بكرا .

معاقبة الباغين، وتأديب الطاغين، وإلا كانت رحمته ضعفا، وعزته ذلا، وشجاعته جبنا! وتلك بعض الرذائل التي جاء لمحورها والقضاء عليها.

وهل يستطيع منصف أن يقول إن الإسلام يشتهي الحرب أو يدعو إليها في غير الضرورة التي لا يحصى عنها، وهذه إحدى غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم التي نهى فيها عن تمنى لقاء العدو والاشتباك معه؟

لم تعرف على وجه التحديد هذه الغزوة^(١) ولكن الذي عرف من سيرته صلوات الله عليه، حتى أضحى الجدل فيه عنادا ومكابرة، أنه ما خرج لملاقاة قوم قط إلا بعد أن سطعت الأدلة على غدرهم ومكرهم، وعلمهم سرا أو جبرا على هدم دعوته، ووضع العقبات والعراقيل في طريقها! ولم احتمل هو وأصحابه صابرين مصابرين من إيذاء لا يحتمل، وإغنيات لا يطاق! في إثارة السلم على الحرب، والعفو على العقوبة، واللين على البطش والقوة. وفي موادعة اليهود، وصلاح الحديبية، وفتح مكة وكثير غير ذلك، شواهد صدق لما نقول. وإذا كان الإسلام يمنح للسلم إن جنح العدو لها - ولو كان في جنوحه هذا مخادعا - فن العناد والمكابرة، بل من السخف والمهاترة، أن يرمى الإسلام أفاك أثيم، بأنه متعطش للدماء، أو معتد على الأبرياء!

وإذا أمر الإسلام أهله بأن يُعدوا لعدوهم ما استطاعوا من قوة، فما ذلك إلا لإرهاب العدو، والحيلة له، والحذر من كيد ومداهمته؛ والأخذ بالحزم والحيلة فضيلة من الفضائل التي اجتمع العقلاء عليها، ومظهر من مظاهر القوة التي لا تحيا أمة إلا بها. وما يقطع القلوب حسرة، ويفرى الأكباد هما، أن يأخذ أعداء الإسلام بهذه الحيلة - ولا أقول بهذه الفضيلة - من بعد أن يتخدعهم ويرموم بالتعصب، ويتوسلوا بهذه الفرية إلى إضعافهم وتجريدكم من كل حول وطول، ثم لا يتنبه المسلمون من بعد نومهم العميق إلا على فنون من القوة، وضروب من الرمي، تذهب بالصواب، وتطير بالآلالباب!

أوتيت ملكا فلم تحسن سياسته كذاك من لا يسوس الملك بخلقه

(١) غير أنها كانت بعد غزوة الأحزاب قطعا بدليل السياق.

نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تنى لقاء العدو ، رغبة في علاج الأمور بالسلم ، وكرهية لإراقة الدماء عند الخصومة ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ؛ ثم حذرا من الإعجاب والبغى ؛ فإن المعجب مزهو بنفسه ، قليل المبالاة بعدوه ، والباغى ظالم ، والظالم قلما ينتصر ، ومن بُغى عليه فهو مظلوم ، والله مع المظلوم وناصره ، وأخوف ما يخاف على الجيش إعجابه بنفسه ، وبغيه على غيره ، وقد قال قائل في غزوة حنين : لن نغلب اليوم من قلة ، حينما أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئا ! وقال على لابنه رضى الله عنهما : يا بني لا تدع أحدا إلى المبارزة ، ومن دعاك إليها فاخرج إليه لأنه باغ ، والله قد ضمن النصر لمن بُغى عليه ! ثم أمرهم أن يسألوا الله العافية لأن أحدا لا يعلم ما يتول إليه أمره مع عدوه ، فلأن يعافى فيشكر ، خير له من أن يتلى فيصبر ، كما يؤثر عن الصديق رضى الله عنه .

فإذا استفحل الداء ، وعز الدواء ، ولم تجد لدى العدو حيلة ولا وسيلة ، فلا مفر إذا من اللقواء ، والجهاد في سبيل الله ، وبيع النفس والنفيس لمرضاة الله ، والصبر تحت ظلال السيوف ، حيث الفوز العظيم بخضات النعيم .

أما انتظاره صلوات الله عليه حتى مالت الشمس عن كبد السماء فتلك عادة من عاداته في الحرب : روى النعمان بن مقرن رضى الله عنه قال : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوات ، فكان إذا طلع الفجر أمسك عن القتال حتى تطلع الشمس ، وإذا طلعت قاتل حتى إذا انتصف النهار أمسك حتى تزول الشمس ، فإذا زالت قاتل حتى العصر ثم أمسك حتى يصلى العصر ثم قاتل . وكان يقول : عند هذه الأوقات تهيج رياح النصر ، ويدعو المؤمنون لجيوشهم في صلواتهم . أخرجه أبو داود والترمذى .

وأما الدعاء في القتال وعند التحام الجيشين ، فكان من دأبه صلوات الله وسلامه عليه ، ومن أعظم الآداب التي أدب بها جنوده في الحرب ؛ ذلك لأن الدعاء ولا سيما في هذا الموطن ، عنوان الفرع إلى الله والالنجاء إليه وأن لا اعتماد في الانتصار إلا عليه ؛ ثم هو أمانة على أن هذا القتال في سبيله ومن أجل نصرته دينه ، وهو يقول وقوله الحق : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

وأشار صلوات الله وسلامه عليه وهو يدعو بهذا الدعاء ، إلى وجوه كريمة في طلب النصر : فيأنزال الكتاب يشير إلى قوله تعالى : قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، وبإجراء السحاب يشير إلى قدرته جل سلطانه على تسخير السحاب وإرسال الرياح وإغاثة عباده بالمطر ، فهو لا شك قادر على إغاثة المجاهدين في سبيله وإمدادهم بنصره ومعونته ؛ وبهزيمة الأحزاب يشير إلى تجريد التوكل عليه ، واعتقاد أنه لا نصر إلا من عنده سبحانه ، إذ هزم الأحزاب وبدد شملهم ، وفرق جموعهم ، وما كان للمسلمين بهم طاقة . ثم نبه على عظم هذه النعم الثلاث كلها ؛ فيأنزله تعالى كتابه العزيز كانت نعمة الدين ، وبإجراء السحاب كانت نعمة الدنيا ، وبهزيمة الأحزاب كان حفظ النعمتين جميعا .

هذه أثاره من آداب الحرب في الإسلام ، ونظره إليها ، ومن نظر بعين الإنصاف فإنه واجد في هذا الدين الخفيف ، أعلى مثل تنتظره المدنية ، ويصبر إليه الأنام ، في العزة والرفاهية والطمأنينة والسلام .

الحض على النضال

روى عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر : « أعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ! وكان أرى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن أبي وقاص ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه ، فقال : اللهم سد رميته ، وأجب دعوته . فكان لا يرد له دعاء ، ولا يخيب له سهم .

وذكر أسامة بن زيد أن شيوخا من أسلم حدثوه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم وهم يرمون ببطحان ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارموا يا بني إسماعيل فقد كان أبوك راميا وأنا مع ابن الأدرع . فقال القوم : يا رسول الله من كنت معه فقد فضلك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارموا وأنا معكم كلكم ، فانتضلوا ذلك اليوم ، ثم رجعوا بالسواء ليس لأحد على أحد منهم فضل .

دعائم الاستقرار

في التشريع القرآني

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المديني

المفتش بالأزهر

بيننا فيما سبق كثيرا من الآيات والموضوعات التي تدل على أن القرآن الكريم قد عني تمام العناية بأن يكون تشريعه قائما على إقناع المكلفين بحاجتهم إلى التقيد بتشريع معين في أمر معين ، حيث لم يأت حكم من أحكامه إلا والأمر يتطلبه ، والإحساس العام للمكلفين بترقبه ، وهو مقتنع به بفطرته ، أو بعد البيان من العليم الحكيم . وبذلك انتهى الكلام على الدعامة الأولى من دعائم الاستقرار في التشريع القرآني .

وأما الدعامة الثانية : ونقصد بها اقتناع المكلفين بشرعية السلطة التي عنها تصدر التشريعات ، فإننا نجد القرآن الكريم يبرزها أيضا ، ويعمل على أن تكون واضحة في نفوس الناس ، متقبلة بما ينبغي لها من قبول حسن عند المكلفين .

إن التشريع إلزام وتكليف ، يفرض فيه المشرع إرادته على طائفة من الناس ويأخذهم بها ، ويجعلها نظامهم الذي يسرون عليه ، ولا يحق لهم التفلت أو التخفف منه ؛ والفطرة تقضي بأن يكون الملزم والمشرع ذا سلطان مسلم به ، تخضع النفوس لإرادته ، وتدعن لحكمه ؛ وهذا السلطان قد يكون قائما على القوة المادية ، والقهر والغلبة ؛ فلولا ذلك ما بقي ، ولولا ذلك ما رضى به الراضون ، وخضع له الخاضعون ؛ وقد يكون مستمدا من الهيبة المعنوية والاحترام الروحي

وتقبل المكلفين له عن رضا نفسى ، وإيمان قلبى ، سواء أ كان هو جديرا بذلك فى نفس الأمر ، أو ليس جديرا به .

ولذلك شهد العالم فى أطواره المختلفة أنواعا من التشريعات ، اختلفت مصادرها ، واختلفت باختلاف هذه المصادر حظوظها من الاحترام والتقدير والبقاء . شهد العالم تشريعات القوة والضغط والجبروت ، حين يكون أصحاب الأمر مقتضيين للأمر ، لا يعتمدون فى حكمهم على حق مشروع ، وإنما يعتمدون على القوة والبطش والتشكيل بمن يقف فى سبيل رغباتهم ، فتبقى هذه التشريعات ما بقيت القوة التى تستند إليها ، حتى إذا انهارت انهارت معها غير مأسوف عليها . وشهد العالم نوعا آخر من التشريعات لا يعتمد القوة والإرهاب ، ولا يقوم على البطش والتشكيل ، ولكنه يعتمد الخداع والتضليل واستغلال جهل المحكومين أو غفلتهم أو سذاجتهم ؛ وتلك هى تشريعات الأجبـار والرهبان والرؤساء المتصدرين باسم الأديان ؛ كانوا يحلون ما يشاؤون ، ويحرمون ما يشاؤون ، وكان الناس لفرط عمايتهم وجهالتهم يتقبلون منهم ذلك ، ويتخذونهم أربابا ينزلون على أحكامهم ، ويرضون بتحليلهم وتحريمهم ؛ وقد بقى لهذه التشريعات سلطانها وقبولها عند الناس ما بقيت الجهالة والضلالة ، حتى إذا انكشف الغطاء ، وانجلت الغشاوات ، وأفاق العقل البشرى أو رشد وحصف ، تزلزلت هذه التشريعات بتزلزل مصادرها ، وانطوت مع التاريخ كما انطوى أصحابها .

ثم كان لا بد أن يدرك الناس أنهم متساوون فى الإنسانية ، وأن أحدا منهم لا يمتاز عن غيره بميزة تجعله مشرعا للآخرين ، وتلزمهم بقبول تشريعـه ، فهم جميعا مخلوقون لخالق واحد ، وهم جميعا مملوكون لمالك واحد ، هو الذى خلقهم وأنعم عليهم ، فله وحده حق التصرف فيهم ، والأمر والنهى ، وأن يقول هذا حلال وهذا حرام . كان لا بد أن يدرك الناس هذا ، لأنه هو الواقع الصحيح فى نفس الأمر ، ولأنه هو الذى تستقيم عليه شئون البشر ، ويستقر معه أمر التشريع ؛ ولهذا جاءت الدعوة الى التوحيد والإيمان بالله خالق قادر منعم ، والى جانبها الدعوة الى نبذ الأرباب من الرؤساء والاعبار والرهبان الذين زعموا لأنفسهم حق التحليل والتحريم ؛ فانحصرت الربوبية فى الله حـكـا

وتشريعا ، كما انحصرت فيه جل جلاله خلقا وإنعاما وتصريفا . بذلك جاءت الرسل ، وبذلك نزلت الكتب ، وقد أوضح القرآن الكريم هذا المعنى وجلاله حتى لم يعد في شأنه أدنى خفاء .

١ - قاله سبحانه وتعالى هو ، المشرع ، لأنه الخالق المالك المضم المتصرف ، والناس جميعا خاضعون لسلطانه بحكم ربوبيته وعبوديتهم ، قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل آله أذن لكم أم على الله تفترون ؟ ، « إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين » ، أليس الله بأحكم الحاكمين ، « وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذروا أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليكم ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون . أحكم الجاهلية يبغيون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون . » والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ، « ولا يشرك في حكمه أحدا ،

٢ - ومثل ذلك ألفاظ : شرع وشريعة وشرعة ونحوها ، فقد جاءت كلها مضافة إلى الله على أن الأمر فيها له ، ومنفية عن سواه أو منكرة عليه ، شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، فكل الشرائع هو الذي شرعها ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ، .

٣ - ومثل ذلك أيضا ألفاظ التحريم والتحليل ، قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، « وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم ، « قل أذكركم حرم أم اللاتنين ، « قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ، « لم تحرم ما أحل الله لك ، « فيحلوا ما حرم الله ، « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، « يأبى الذين

آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ، ، وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء ، بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميثقه فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم ، .

إلى غير ذلك من الآيات التي يغرس بها القرآن في نفوس المؤمنين مبدأ الحكم الصحيح والتشريع الصحيح ، من أن الحكم لله ، والتشريع لله ، والتحليل والتحريم لله ، وأنه ليس لأحد من المخلوقين أن يحكم أو يشرع إلا بما حكم الله وشرع الله .

٤ — وقد بين القرآن في هذا أن الرسل لا يأتون بشيء من التشريع ولا يحرمون ولا يحلون إلا بإذن الله ، وأنهم إنما يبلغون أحكام الله ؛ ولذلك نجد في الكتاب الكريم مثل قوله تعالى « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسألوا تسليما ، « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » .

ويعتبر القرآن أمر الأنبياء في ذلك مستمدا من أمر الله ، حيث وهب كلا قسطا من الحكم والتشريع باسمه تعالى وإذنه ؛ وفي ذلك يقول عن موسى « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما ، وعن يوسف « ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ، وعن لوط « ولوطا آتيناه حكما وعلما ، وعن داود وسليمان « وكلا آتينا حكما وعلما ، وقد دعا إبراهيم ربه فقال « رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين » إلى غير من الآيات .

وقد أوجز القرآن الكريم مصادر التشريع في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » .

فالمصدر الأول هو القرآن الكريم ، وإطاعة الله هي العمل به ؛ والمصدر

الثاني هو السنة ، وإطاعة الرسول هي العمل بها ؛ والمصدر الثالث هو إجماع أولى الأمر وأهل الحل والعقد الذين تثق بهم الأمة ، وطاعتهم هي النزول على ما اتفقوا عليه ، والرضوخ لما حكموا به استنباطا من كتاب الله وسنة رسوله ؛ فإذا لم يتفقوا على شيء ، بل تنازعوا فيه واختلفوا ، عرض ذلك على الكتاب والسنة ، وعمل بما يرشدان إليه ويدلان عليه .

وبهذا تبين أن المصادر كلها راجعة الى مصدر واحد هو الله جل علاه ، وأن التشريع القرآني يجعل المؤمنين مطمئنين الى أن مصادر تقييدهم وإلزامهم وتكليفهم هي مصادر لها هذا الحق ، وليس لأحد أن ينازعها فيه ، أو يتفلسف من سلطانه ، فتحقق من هذه الناحية الدعامة الثانية من دعائم التشريع والتسليف ، وتمتسك بالقوانين والأحكام التي شرعت على هذا الأساس هيبتها وقداستها .

هذا وقد شاع واستفاض على الألسنة في عصرنا الحاضر أن الأمة مصدر السلطات ، وأن من بين هذه السلطات سلطة التشريع ، فهي باسم الأمة ؛ فلا ينبغي أن يظن بهذا منافاة لما قلناه من أن التشريع لله ، فإن سلطة الأمة لا بد أن تتركز في دستور يرسم للعاملين باسمها مبادئ الحكم ومناهج التشريع ؛ ودستور الأمة الإسلامية الذي يرجع إليه ويبني الحكم والتشريع على أساسه هو الكتاب والسنة ، في دائرتيها يكون النظر ، وعلى هدهما تسير الأمة في تنظيم شئونها ورسم سياستها وتشريعها ؛ فالأمة حقا هي مصدر السلطات ، ولكن في حدود ذلك الدستور السماوي الذي يجب أن يخضع له كل نظام وكل حكم ، وأن يرد إليه ما يكون من نزاع أو خلاف . والله المستعان ؟

في وصف حصان

ذو أولق تحت العجاج وإنما	من صحة إفراط ذك الأولق
تغرى العيون به ويفلق شاعر	في نعتة عفوا وليس بمغلق
قد سالت الأوضح سبيل قرارة	فيه ففترق عليه وملقى
صافي الأديم كأنما ألسته	من سندس ثوبا ومن إستبرق

الأولق : خفة العقل . وهو غير مذموم في الخيل . والعجاج : الغنير . والأوضح يراد بها الألوان .

أسباب تأخر المسلمين

لفضيطة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر
الأستاذ بكلية اللغة العربية

وهذه أسباب التأخر من الدرجة الثانية . وأهمها ما يأتي :

السبب الأول - تفرق شمل المسلمين في أقطار الأرض إلى دويلات صغيرة ،
وانحلال رابطتهم بزعة أركان الخلافة الإسلامية ، ونزوعهم إلى الشعرة العصبية
وحمة الجاهلية ، وانقسامهم شيعا وأحزابا ، حتى لقد كانت هذه الدويلات
الإسلامية في وقت ما تُربى على اثنتي عشرة دولة ! منها ست في الشرق تفرعت
عن الدولة العباسية التي كانت إذ ذاك في طور الاحتضار . وهي : دولة بني بويه ،
والدولة السلجوقية التركية ، ودولة آل سُبُكْتُكِين ، والدولة الطولونية بمصر ،
والدولة الفاطمية ، والدولة الأيوبية . وكان الحكم في هذه الدول أغرب حكم
عرف في تاريخ الإسلام ، إذ كان لكل حكومة منها سلطان : سلطة شرعية
ظاهرية فقط ، ولها اسم الخلافة ، وتستمدّها من الخليفة العباسي برضاء : وسلطة
حاكمة فعلية ، ولها اسم الملك ، وهي مستمدة من هذا الخليفة قهرا عنه ^(١) !
وأكثر من ست دول في بلاد الأندلس العربية ، التي آل أمرها إلى أن تكون
كل قبيلة منها دولة مستقلة ، لها حاكم مستقل : وقد اشتهر هؤلاء بملوك الطوائف .
وفيهما يقول الشاعر :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر !
وآخر هذه الدويلات دولة بني الأحمر التي كانت من أقوى الأسباب في زوال
ملك العرب المسلمين من بلاد الأندلس .

وقد كان من أثر هذا التفرق المشؤم الذي منشؤه حب الرياسة والجاه والمال ،

(١) الدروس التاريخية للأستاذ الحضري بك ، رحمه الله

وعدم التنبيه إلى دسائس الأعداء - أن تضعض سلطان العرب ، وانطفأ مصباح الحضارة والعلوم الإسلامية في الشرق : وأن استسلمت بلاد الأندلس لأعداء العرب في الغرب ، بعد أن سطع نور المعارف ، وأشعت شمس العلوم الإسلامية في تلك الديار زهاء سبعة قرون من الزمان ؛ وأن تألفت على إثر سقوط دولة بني الأحمر محاكم التفتيش القسيسية الوحشية ، وأخذت تتحكم في رقاب المسلمين وفي أعراضهم وأموالهم وعقيدتهم ، وتصدر أحكامها الجائرة الغاشمة التي يقشعر لها بدن المروءة ، ويندى لها جبين الإنسانية حياء وخجلاً . ويندوب منها القلب حزناً وكداً ! .

يحدث كل هذا والمسلمون واجمون سامدون ، خاضعون لهذا الذل والهوان والفضيحة والعار ، لا يحركون ساكناً ، ولا يثارون لحرمانهم التي انتهكت ، وأعراضهم التي هتكت ، ومساجدهم التي هدمت !!

عبر التاريخ :

أيها القارىء ! لست أقصد بذكر هذه الحوادث الأليمة نبش الماضي السحيق ، وتقليب ذكرياته التي تُحْض النفس وتسكدر الصفو ، وتجلب الهموم والاحزان ؛ وإنما القصد أن يعتبر العرب والمسلمون بما في الاتحاد من عز وقوة بأس ، وبما في التفرق والتقاطع من ضعف وخذلان ودمار . قال الله تعالى : واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وقال عز شأنه : ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ربكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين .

العرب والمسلمون اليوم : لئن انطوى ماضى العرب والمسلمين بما فيه من محن ورزايا وعبر وعظات ، ولئن فرقتهم شياطين السياسة الاستعمارية التي اغتروا بزخرفها وبهرجها زمناً طويلاً - لقد تفتنوا اليوم لآلايب هذه السياسة وحيلها ، وأدركوا بالبرهان العملي الخطر الداهم الذي هم صائرون إليه ؛ ذلك الخطر الذي يتستر بأسماء مستعارة : تارة باسم الحروب الصليبية ، وأخرى باسم تمدن الشرق ومحو الهمجية ، وثالثة باسم الصهيونية أو الدولة اليهودية ، ورابعة باسم الاشتراكية

أو توزيع العدالة الاجتماعية . هذا ظاهر الحال ، وما هو في الحقيقة إلا شبح الموت وغول الفناء ونذير الشر والفساد ، وضياح البلاد واستعباد الأولاد والأحفاد - لا قدر الله شيئا من ذلك - . هذا ما أدركه العرب والمسلمون الآن ، بعد أن صهرتهم الحوادث ، ونبتهم التجارب ، وجمعتهم الشدائد ، فهبوا يدافعون عن فلسطين عرين العروبة ، وقدس الإسلام ، ومهد المسيح عليه السلام .

ومن الفأل الحسن نتيجة اتحاد العرب ، ذلك القرار الحازم الذي أصدرته حكومات الدول العربية في هذه الأيام ، وهو يقضى بمد يد المعونة الحربية الفعلية إلى عرب فلسطين المجاهدين ، بعد أن تخرجت الحال ، وسلمت مدينة حيفا وقبلها طبريا إلى انقواء الإرهابية الصهيونية ، وشرعت هذه القوات في مهاجمة يافا وعكا والقدس ، وعمما قريب ستسترد قوات العرب المجاهدين بمعونة الله ما بيد الصهيونيين ، ثم تذكر عليهم وتدحرم وتمزق جموعهم شرمزق ، وتستولى على عقارهم وأموالهم ، وتطهر البلاد من خبثهم ورجسهم ، فتعيش فلسطين بعد ذلك عربية حرة ، يرفرف عليها علم العروبة الخاص بها ، وينعم أهلها تحت ظلال السيادة العربية ، سواء في هذا العرب المسلمون والمسيحيون ، واليهود المواطنون المسلمون الذين عاشوا مع إخوانهم في العروبة متمتعين بالحرية التامة والطمأنينة الشاملة ثلاثة عشر قرنا من السنين العربية ، ولم يحركهم للشر إلا أطماع (الجويم (^(١)) . هذه آمال كل محب لخير الإنسانية ، مبغض لشره الطامعين المعتقدن الظالمين الآثمين ، وستتحقق هذه الآمال - إن شاء الله - بفضل اتحاد العرب ، وتعاون الشرق . وكل آت قريب ^(٢) .

(١) الجويم : اسم رمزي لليهود الصهيونيين ، الذين يريدون الاستيلاء على العالم كله ، ويعتبرون كل من سواهم من الناس بهائم !! انظر مقالات الأستاذة نقولا الحداد عن اليهود في أعداد مجلة الرسالة : مارس وابريل ومايو سنة ٤٨ .

(٢) بعد كتابة ما تقدم دخلت الجيوش النظامية لجامعة الدول العربية أراضي فلسطين ، لتحريرها من أيدي الصهيونيين ، فتقدمت تقدما مظفرا في جميع جهات القتال ، والمأمول أن يكتب النصر التام لهذه الجيوش المجاهدة في سبيل الله ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكذبهم فينقلبوا خائبين ، !!

وبعد : فموضوع فلسطين درس وطني عملي للعرب : لئن أضرَّ بهم في ناحية لقد نفعهم أعظم النفع في نواح كثيرة . وقد بما قيل : المصائب تجمع القلوب المتفرقة . وإلى الله التكريم نضرع أن يديم الاتحاد والوفاق بين أعضاء جامعة الدول العربية ، وباقي أعضاء الجامعة الإسلامية ، ليتبوأ العرب والمسلمون مكانتهم في المجتمع الإنساني العالمي ، ويقيموا بوساطة تعاليم الإسلام الرشيدة الحكيمة أمة عظيمة بيدها مقاليد السعادة والرفاهية لجميع بني الإنسان على السواء . وما ذلك على الله بعزيز .

السبب الثاني - التهاون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . المعروف كلمة جامعة ، ومعناه في عرف الشرع : الإحسان والرفق والخير . والمنكر ضد ذلك . وقد كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أخص صفات الأمة الإسلامية في عصرها الأول ؛ وبهما ترققت إلى أوج السعادة ومدارج السيادة . ويرجع الفضل في توالي الفتوحات الإسلامية في الشرق والغرب ، وانتشار الدين بين طبقات الأمم في آسيا وأفريقيا وبعض جهات أوروبا ، إلى هاتين الصفتين الحيويتين ، فلما تخلت عنهما الأمة الإسلامية ومال كثير من أفرادها إلى المداينة والمجاملة والمصانعة والتغاضي عن هفوات المسمى ، بل ربما يكال له المدح جزافا وبلا حساب ولا تقدير : لما حدث ذلك انحطت قيم الصالحين المصلحين ، وارتفعت أقدار المسيئين المفسدين ، فتولوا ما ليس من شأنهم ، وأشاعوا الفساد في بلاد الإسلام ، يعاونهم على ذلك أعداء الدين والعروبة ، فتتج عن هذه الحال السيئة ضعف المسلمين وتقهقرهم في ميادين العمل والإصلاح ؛ وهذا الذي حدث نتيجة المخالفة لقوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » ، ولقوله عليه الصلاة والسلام « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

خطب أبو بكر رضي الله عنه ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ، وَإِنَّا سَمِعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب ؛ وإن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرّون على أن يغيروا فلم يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

ومعنى هذا أن الأمر في قوله تعالى « عليكم أنفسكم » موجه إلى جميع أفراد الأمة الإسلامية بدون استثناء . يطالبهم فيه بإصلاح شئونهم وسلوكهم سبيل الهداية ، فإذا صلح أمرهم واهتدوا فلا يضرهم ضلال من ضل من الأمم الأخرى غير الأمة الإسلامية . هذا مراد الله تعالى من الأمر . ولكن كثيرا من الناس يفهم الآية على غير وجهها الصحيح ، فيزعم أن الأمر متوجه إلى بعض أفراد الأمة ، وأن هذا البعض إذا اهتدى فلا يضره ضلال البعض الآخر من أفراد هذه الأمة . وقد بين الرسول عليه السلام خطأ هذا الزعم ، وبينه كذلك خليفته أبو بكر من بعده . وبالرغم من هذا لا يزال سواد المسلمين متمسكين بهذا الزعم الباطل حتى يومنا هذا ؛ لذلك وقعوا فيما وقعوا فيه من تأخر وتقاطع ، وانحلال واضمحلال !

السبب الثالث - التواكل . وهو داء حديث من أدواء الأمة الإسلامية ، فشى في جميع ربوع الإسلام . ومعناه أن يهرب الشخص من الواجب عليه ويتكسل في قضائه على آخر ، ومنشؤه الكسل والخمول ، وحب الدعة والراحة .

وقد روج هذه الصفة الذميمة بين المسلمين دعاة الاستعمار الأوروبي ، وساعدهم على ذلك مناخ بلاد الإسلام ، وما منى به المسلمون من البعد عن دينهم ، والاستماع لكل ناعق ولو بالباطل !

تسرب هذا الداء إلى الحكام ، فأحجموا عن تشجيع الصانع الوطني ، ورضوا بأن يكون الشرق عالة على أوروبا في جميع لوازم حضارته ومعدات جيوشه ومقومات حياته !

وتسرب إلى موظفي الدواوين في بلاد الشرق ، فتعطلت مصالح الناس ، وكاد يقف دولاب العمل فيها ! وتسرب إلى المشتركين في عمل مشاع كالصناع والعمال

وخفراء الأمن ، فقل الإنتاج ، وقلت الثروة ، رترامى للناس شيع الفقر والمرض والجهل ، واختل نظام الأمن !

وتسرب الى أفراد الأسر الذين يشتركون في معيشة واحدة ، فنشأ عنه أن تبرم الولد بأبيه ، والأخ بأخيه ، والوالد ببنيه ، فهجر المتبرم أسرته حاقدا حائقا ؛ وبذا انحلت روابط الألفة ، ونمت عوامل التفريق والضعف .

وتسرب الى نفوس الشحاذين أقوياء الأبدان ، والى بعض طوائف الصوفية المرتزقة باسم التصوف ، فأمات فيهم روح العمل والنشاط ، وأصبحوا كالعضو الأشل في جسم الأمة الإسلامية ! ولوتنبه مجموع الأمة ولا سيما أولى الأمر منهم الى ما يرمى اليه قوله تعالى : **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ، لماحدث من هذا كله شيء ؛ ولكن الله في خلقه شئون !

السبب الرابع - إهمال تربية البنات تربية دينية صحيحة . وهذا السبب يكاد يعد من الأسباب الجوهرية في تأخرنا .

ولا أريد أن أطيل في التعليل لهذه الدعوى ؛ فإن المعروف أن المرأة العربية الإسلامية كان لها حظ كبير من علوم الاسلام وثقافته الدينية في عهد الرسول عليه السلام وخلفائه الراشدين ، مكنتها من أن تساهم بقسط وافر في نهضة الأمة وبناء حضارتها ، وتوالى فتوحاتها واتساع رقعتها . ثم تغيرت الحال في أواخر عهد الدولة العباسية نخباً مصباح تعليم المرأة ، وأخذت تنعثر في حياتها الاجتماعية بين الجود والتجديد : الجود الذي حرّمها حتى من تعليم دينها تعليماً مشمراً ، والتجديد الذي قد يشول بها إلى فقد شخصيتها النسائية كربة بيت ومخرجة جيل . وإذا عرفنا أن النساء نصف الأمة أو أكثر ، وأنهن إذا صلحن صلح حال الأمة كلها ، كما قال شاعر النبيل حافظ إبراهيم طيب الله ثراه :

الأم مدرسة إذا أعدتها أعددت شعباً طيب الأعراق

وأنهن إذا جهلن أو فسدن ، غرقت الأمة في بحر من الجهل والفساد ، كما قال أيضاً :

من لى بتربية النساء فإنها فى الشرق علة ذلك الإخفاق !

إذا عرفنا ذلك سهل علينا إدراك ما حاق بآمتنا من الضعف والتأخر بإهمال تربية النساء ، وإدراك ما نكتسب من قوة وتقدم بالعناية بتربيتن تربية دينية عصرية صحيحة .

السبب الخامس - جمود رجال الدين فى أقطار الإسلام ، وأعنى بهذا الجمود عدم مسايرة العصر فيما لا يضر الدين .

ومما لاشك فيه أنه قد حدثت فى العالم تطورات فى نظم الحياة وأساليب المعيشة ، وتطورات فى نظم القضاء وأساليب التعليم والتأليف ، وتطورات فى النظم الاقتصادية والاجتماعية ، وتطورات فى نظم التبشير بالدين والدعوة إليه ، وتطورات فى نظم الدفاع وأساليب الحرب . حدثت كل هذه التغيرات وغيرها فى غير بلاد العرب ، أعنى فى أوروبا ، ثم فى أمريكا ، فكانت نتيجتها ما شهدته العالم أجمع من القوة والرقى الماديين ، والتسلط على جميع بلاد العرب بل على جميع بلاد الشرق الإسلامى . فإذا كان موقف رجال الدين المسلمين من هذه التطورات ؟ الحق أنه كان موقفا غير مشرف ، إذ من المعروف أن علماء الدين ورجاله كانوا قدوة الأمة فى العصور الحالية ، فكان عليهم أن يوجهوها إلى كل صالح مفيد ، وأن يكونوا فى طليعة الداعين إلى الأخذ بكل تطور لا يمس عقيدة من عقائد الدين ، ولا يبطل حكما من أحكامه التى علمت منه بالضرورة ، ولا سيما فى الوقت الذى رأوا فيه تيار الغرب يحرف الشرق ، ويغزوه بعبادته الأروبية ، وقوانينه الوضعية ، ومبادئه الاستعمارية ، واختراعاته الحديثة ، ودسائسه المسبوكة التى طوحت بأمثال السيد جمال الدين الأفغانى ، والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والوطنى الغيور مصطفى باشا كامل . ومما يوجب الأسف الشديد أننا اضطررنا أخيرا إلى مسايرة العصر فى أشياء كثيرة ، ولكن بعد فوات الفرصة ، وبعد أن نكبنا فى عاداتنا وأخلاقنا وديننا ووطنيتنا ، فاللهم تداركنا بعفوك ورحمتك ، وقبض لهذه الأمة من يعيد إليها مجدها الغابر وعزها القديم ! .

والسلام صلة ،

ابن حزم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الله المراغي
مدير قسم المساجد بوزارة الأوقاف

نفسية ابن حزم في تأليفه :

أسلفنا القول في تاريخ ابن حزم أنه اغتنم فرصاً من حياته فألف في شتى العلوم التي نبغ فيها . والباحث في هذه المؤلفات يستشرف نفسية ابن حزم يتدفق تيارها في جداولها التي تنساب حاملة آراءه وعواطفه ، وشخصيته وشاعريته ، واستقلاله في رأيه ، وإيمانه بما يعتقده ، وتمصبه لمذهبه ، وعدم مبالاته بما يشيره خصومه من تقع يغير أفق الحياة حوله .

وعندى أن الوقوف على الحبي من نفسية ابن حزم مستطاع من قراءة وتبصير ما به في كتبه ، وليس أصدق في الاستدلال على تفكير المرء وما يخالج أحاسيسه مما يدبجه قلبه إذا عرف بالإيمان وثبات اليقين ؛ ولا ينكر أحد على ابن حزم أنه كان مؤمناً بما يعلنه ، قوى اليقين بما يظهره ، ثابت العقيدة بما يكتبه ، ينيء مظهره على ما يضمه : فقد كان شافعياً متحمساً لمذهبه ؛ لأنه كان مؤمناً به ؛ فلما تحول إلى مذهب الظاهرية كان شديد التعصب له ؛ فهل كان مرئياً في أولاه أو مغرضاً في أخراه ؟ لقد رُمى ابن حزم بذلك من بعض خصومه الألداء ، مستدلين على ذلك بأن لسانه كان سليطاً على الأئمة ، ومنهم الشافعي الذي كان يدين بمذهبه ويدافع عنه .

وإذا كان بعض الناس يرى أن القلم يستطيع أن يكتب غير ما يعتقد الكاتب لشهوة سائجة أو لغرض خاص ، فإن هذا النوع من الكتابة لم يكن مألوفاً في عهد ابن حزم إلا قليلاً ، ولا نستطيع أن نتصور هذا الاتهام في مؤلف يكتب في علوم الحديث ، والكلام ، والأصول ، والتفسير ، والفقه .

ولقد كتب ابن بشكوال والذهبي والمقترى وابن الأبار وابن خلدون وجولدسيهر وهورتن وياقوت وابن خلكان وابن القفطي والضبي وعبد الواحد المراكشي وابن خاقان وغيرهم من المسلمين وغير المسلمين ، من ناقدين ومعارضين ، ومؤيدين ومعارضين ، فلم يستطع أحد منهم أن ينكر على ابن حزم أنه رجل عقيدة

ودليل ، ورجل رأى وبرهان : وسواء أكان مصيباً أو مخطئاً فإنه ليس خاطئاً إن خافه التوفيق : وشتان بين مخطيء لا يخالفه الصواب ، وبين خاطيء يعتمد الخطأ ويكتب على غير هدى قاصداً ، ويضلل الناس عامداً ؛ وليس ابن حزم من النوع الثالث . ولا يمكن لمنصف أن يقول بذلك مهما غلا في نقده .

والحق أنه أحد رجلين : مجتهد مصيب يخالفه الصواب فله أجران ، أو مجتهد يخطيء حيناً فيكون له أجر ويصيب حيناً فيكون له أجران . هذا رأينا فيما اطلعنا عليه من مؤلفات ابن حزم ، وفيما تضمنه من آراء ، يوافقنا عليه المنصفون من نقاده ، ولا نبالي أن يخالفنا فيه المغالون من حساده .

مؤلفاته :

يمول المؤرخون : إن من بواكير مؤلفاته كتاب : طوق الحمامة في الألفة والالاف ، ألفه ابن حزم في شاطبة سوا إلى سنة ٤١٨ هـ على ما يقوله بعض الباحثين ، أوسنة ٤١٧ هـ على ما يقوله ابن الأثير .

والمطلع على هذا الكتاب يرى ابن حزم مثلاً لصفاء العاطفة ، ومرآة لدقة الأحاسيس ورقة المشاعر ؛ قص فيه من تجاربه وتجارب أهل عصره ، وأعرب عن نظراته العميقة ووجدانه المتغلغل بين الجوانح ، ما يضيء لنا جوانب الحياة في عهده ، وهو أمر لا يعرفه إلا القليل ، ولا يدرك من سره إلا النزر اليسير .

ويبدو أن المؤلف تكلم في هذا الكتاب على الألفة والمحبة والحب والعشق على نحو يتسق مع تفكيره ، وصاغ كلامه في أسلوب غنى فيه بإظهار شاعرية نفسه ، أو هي قد ظهرت على الرغم منه ، كما روى لنا فيه أشعاراً من نظمه الذي عرضنا لونا منه في المقال السابق . وإن عنوان الكتاب يهدي القارئ إلى موضوعه ، ويأخذ بيده إلى أمر لا تخلو نفس من الحديث فيه أو التطلع في أفقه أو التفكير في مآله . ومن مؤلفاته : رسالة في فضل الأندلس ، التي كتبها وأهداها إلى صديقه أبي بكر محمد بن إسحاق ، وفيها يتكلم على تصارييف مسلمى الأندلس المتقدمين ؛ ويظهر في هذه الرسالة تحول ابن حزم من مذهب الشافعية إلى مذهب الظاهرية . وإذا بحثنا في تاريخ تأليف هذه الرسالة وجدنا أنها قد تكون معاصرة أو قريبة العهد من تاريخ تأليف كتابه : طوق الحمامة . .

ويقول المقرئ وابن الأبار : إن ابن حزم ألف رسالة في فضل الأندلس إجابة لرغبة حاكم قلعة البوت . .

ومن مؤلفاته في التاريخ كتابه المسمى « نبط العروس » ، في تواريخ الخلفاء وكتاب « جهرة الأنساب أو أنساب العرب » ، الذي عني بآليفه حوالي سنة ٤٥٠ هـ . ولهذا الكتاب وزن كبير في نظر المؤرخين ، نوه عنه ابن خلدون في مقدمته في مواضع كثيرة عند تعرضه لأنساب العرب والبربر في المغرب والاندلس ، واتخذ بعض المؤرخين الأجانب سنداً في البحث عن تاريخ الحموديين والتجيبين والأمويين ، مما يدل على أن لأبحاث ابن حزم قيمة كبيرة في نظر الأجانب . ومن مؤلفاته في علم الأصول كتاب « الإحكام في أصول الأحكام » . وهو كتاب يبين شخصية ابن حزم الى حد كبير ومدى بعيد ، وقد طبعته مكتبة الخانجي في ثمانية أجزاء .

وإذا كان الكتاب يعرف من عنوانه ، فإن مقدمة هذا الكتاب تدل على الوجهة التي يهدف إليها ابن حزم من تأليفه ؛ فتراه يقول في هذه المقدمة عن شرائع الإسلام : « إن الله أودع تلك الشرائع في الكلام الذي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبليغه إلينا وسماء قرآنا ، وفي الكلام الذي ألقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم غير قرآن ، وألزمنا في كل ذلك طاعة نبينا عليه السلام ، وألزمنا تتبع تلك الشرائع في هذين الكلامين ، لنخلص بذلك من العذاب ، ونحصل على السلامة والحظوة في دار الخلود . ووجدناه تعالى قد ألزمنا ذلك بكتابه المنزل . وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ، فوجب علينا أن ننفر لما استنفرنا له خالقنا عز وجل ، فوجدناه قد قال في القرآن الذي قد ثبت أنه من قبله عز وجل والذي أودعه عهده اللازمة إلينا ، يأياها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

قال ابن حزم : فنظرنا في هذه الآية فوجدناها جامعة لكل ماتكلم الناس فيه أولهم عن آخرهم مما أجمعوا عليه واختلفوا فيه من الأحكام والعبادات التي شرعها الله عز وجل لهم لا يشذ عنها شئ من ذلك . فكان كتابنا هذا كله في بيان العمل بهذه الآية ، وكيفية بيان الطاعتين المأمور بهما لله تعالى ولرسوله عليه السلام . وهذا هو جماع الديانة كلها .

من هذه العجالة نستبين أن ابن حزم يرى أن الأدلة الشرعية هي :

- ١ - القرآن المنزل من عند الله .
 - ٢ - الكلام الذي أنطق الله به رسوله وسماء وحيا غير قرآن .
 - ٣ - الإجماع الذي عبرت عنه الآية بأنه طاعة أولى الأمر .
- أما القياس الذي رأى أكثر الفقهاء أنه دليل من الأدلة الشرعية ، فإن ابن حزم ينكره ويسفه من يقول به ويرميه بالجهل ، ولا يتخرج عن الإقذاع في النقد؛ الأمر الذي أخذه عليه خصومه ، وبغضه عند كثير من الناس .

يقول ابن حزم : ظن قوم بجهلهم أن قولنا بالدليل خروج منا عن النص والإجماع ، وظن آخرون أن القياس والدليل واحد : فأخطئوا في ظنهم أخش خطأ . ثم يقول في موضع آخر : وما هنا خلط أصحاب القياس فسموا الدليل علة والعلة دليلا ففحش شامطهم ، وسموا حكمهم في شيء لم ينص عليه بحكم قد نص عليه في شيء آخر دليلا ، وهذا خطأ ، بل هذا هو القياس الذي ننكره ونبطله .

ويقول في موضع آخر ، في شأن المخالف له فهو كاذب آفك مفتر . وهكذا تلازمه هذه الظاهرة في ردوده على من لا يشاركه الرأي ، فيقول عن رواية من روايات أهل الكوفة بشأن إجماع أهل المدينة : هذه رواية ليس في رواية أهل الكوفة أثبت منها ، وهذه زراية كنا نتمنى أن يتزده عنها لسان ابن حزم وقلبه ، فإن السباب لا يدل على قوة الحجة ؛ وقد علمنا القرآن الكريم أدب الخطاب والجدال والمناقشة ، وطالبنا أن نجادل أهل الكتاب بالتى أحسن .

وغريب من رجل في علم ابن حزم وأدبه يملك من أدب اللغة المختلفة الأساليب وشتى العبارات ، ألا يتخير لمصطلحاته وحواره أعف الالفاظ والأقوال . ولقد وضع في مقدمته أسماء المصطلحات التي تدور بين أهل النظر في أبحاثه وذكر منها : الحد والرسم والعلم والاعتقاد والبرهان والدليل والحجة والبدال والاستدلال والشغب والتقليد والإلهام . وقد أراد بالشغب السفطة ، فهو حتى في مصطلحاته ينتقي لبعض المعاني لفظا كان في استطاعته أن يستبدل به لفظا ليس من أقذاع ولا ينال من كرامة المجادل .

ونحن لا نوافق ابن حزم في هذا المسلك ، وإن كنا نجل فيه كرامة العلم وغزارة المادة . وللقول بقية نستوفي بها ترجمة ابن حزم ، إن شاء الله .

حول كتاب الرد على النحاة

لابن مضاء القرطبي

أفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة
المدرس بكلية اللغة العربية

أحمدُ للأستاذ شوقي ضيف جهده المشكور بنشره كتاب الرد على النحاة
لابن مضاء ، فقد مياً المهتمين بالدراسات النحوية الاطلاع على لون من ألوان
النقد لفنهم .

كما أشكر له جهده في تقديم مشروع لتنسيق النحو وتذليل صمابه .
وأجمل حديثي فيما يأتي :

طاف نقد ابن مضاء للنحو بأمور شكلية ، فلم ينفذ إلى جوهر النحو ولبابه ،
فيبرز لنا ما في قواعده من قصور ، وما وقع النحويون فيه من تقصير .

لم يصل النحويون الى قوانينهم عفوا صفوا ، وما واقفهم رهواسهوا ، وإنما
كان ذلك ثمرة جهود متتابعة متواصلة ، وصبر على عناء الاستقصاء والاستقراء
لكلام العرب شعره ونثره ، وسماع من الفصحاء ، وإنعام النظر في كتاب الله ؛
وبعد أن استقامت لهم هذه القوانين شغلوا أنفسهم بالتعليل لها وبيان أسرارها .
فيجمل بمن يتصدى للرد على النحويين أن يبين أولاً : عدم اطراد هذه
القوانين وأنها لا تنظم كلام العرب . لم يفعل هذا ابن مضاء ، وكان منه اعتراف
في مقدمة كتابه بأن النحويين بلغوا الغاية فيما أرادوا ؛ قال : « وقد وضع النحويون
صناعة النحو لحفظ كلام العرب من اللحن وصيائته عن التغيير ، فبلغوا من ذلك
إلى الغاية التي أموا ، وانتهوا إلى المطلوب الذي ابتغوا » .

دار حديث ابن مضاء في كتابه على أمور ثلاثة هي : العوامل ، التعليقات ،
التمارين الفرضية . وسأبين بإيجاز مدى اعتبار النحويين لهذه الأمور :

العوامل في صناعة النحو بمثابة الأمانة والدلالة ، تهدي الناظر في الكلام العربي إلى مراعاة ما تقتضيه من حركات الإعراب . قال ابن الأنباري في الإنصاف :

« العوامل بالإجماع إنما هي أمارات ودلالات ، والأمانة تكون بعدم شيء كما تكون بوجود شيء ؛ ألا ترى أنه لو كان معك ثوبان وأردت أن تميز أحدهما من الآخر فصبغت أحدهما وتركت صبغ الآخر ، لكان ترك صبغ أحدهما في التمييز بمنزلة صبغ الآخر ، ؟

فتصوير ابن مضاء للعوامل تصوير مبالغ فيه ، وقد اعتمد على بعض الأمثلة التي هي مثار اختلاف بين النحويين . فليست للعوامل هذه الهيمنة على كلام العرب تقبل بعضه وتنكر بعضه ، إنما يبحث النحويون عن العامل بعد سماع النص العربي . قال الرضي في شرح الكافية ج ١ ص ٢٠٨ : « وقال بعضهم : المستثنى منصوب بأستثنى ، كما أن المنادى منصوب بأنادى ، وإلا وحرف النداء دليلان على الفعلين المقدرين . وقد اعترض عليه بأنه يلزم منه جواز الرفع بتقدير أمتنع . ولا يلزم ذلك ؛ لأننا نعمل مائتة وورد من كلام العرب ، ولو ورد الرفع لكنا نقدر أمتنع ونحوه : ألا ترى أنه يجب النصب في إياك والأسد بتقدير بعد ونحوه ؟ ولو ورد الرفع نحو أنت والأسد لكنا نقدر أبعث أنت والأسد ونحوه .

وقد راعى أن ينسب ابن مضاء إلى أبي الفتح بن جنى مخالفته النحويين بإنكار العوامل ، ويستند في دعواه إلى نص مبتور ، ثم يقره على هذا الأستاذ شوقي دون أن يكلف نفسه الرجوع إلى الخصائص فيجد كلام ابن جنى صريحاً في أن العامل سبب للعمل ، وهو الذي يحمل المتكلم على أن يراعى ما يتطلبه من حركات الإعراب . ويتضمن تعليلاً لتقسيم النحويين العوامل إلى لفظية ومعنوية (الخصائص ١/ ١١٤) . ولو تجاوزنا هذا الموضوع من الخصائص وألقينا نظرة عابرة لوجدنا أحاديث عن العوامل في غير موضع .

في صفحة ١٠٧ تعرض ابن جنى لأقوال النحاة في ناصب المفعول به ، ورجح أن الناصب له هو الفعل وحده ، وضعف رأى من يقول إن الناصب هو الفاعل

أو الفعل مع الفاعل : كما تحدث عن عمل لا الزائدة في صفحة ٣٠٤ في قول الشاعر :
 لو لم تكن غطفان لا ذنوب لها إذن للام ذوو أحسابها عمرا
 وتكلم عن عوامل مختلفة في هذه المواضع ١١٢، ١٣١، ١٧٢، ١٩٣، ٣١٩،
 ٣٢٤ : وتذكر كتب النحو المختلفة أن ابن جني زاد عوامل لم يعترف بها جمهور النحاة :
 المنادى عنده منصوب بحرف النداء لنيابته عن الفعل المحذوف :
 وما الزائدة هي العاملة الرفع والنصب في نحو قول الشاعر :
 أبا خراشة أما أنت ذا نفر فإن قومي لم تأكلهم الضبيع
 لنيابتها عن كان المحذوفة .

وأجاز أن يتعلق الظرف والجار والمجرور بحروف النفي .
 نقل ذلك عنه ابن هشام في المغني ، والبغدادى في خزانة الأدب وغيرهما .
 فهل يقال بعد هذا إن ابن جني سبق ابن مضاء في تزييف نظرية العامل ؟ .

دفع النحويين إلى البحث عن متعلق الظرف والجار والمجرور نظام الأسلوب
 العربى : وجدوا أنه قد يسبق الظرف فعل أو اسم فيه معنى الفعل يرتبط به الظرف
 ومعناه خاص ، فقالوا : المتعلق الخاص يجب ذكره ولا يحذف إلا عند وجود
 القرينة : تقول : هذا الكتاب مطبوع في مصر ، ولو حذفت المتعلق اختلف المعنى .

ودليلهم على تقدير المتعلق العام ورود ذكره في قول الشاعر :
 لك العز إن مولاك عز وإن يهن فأنت لدى بجوحة الهون كائن
 ولما كانت الأساليب الفصيحة خالية من ذكره ، أوجب النحويون حذفه ،
 فلا يصح أن تقول : منزلنا المكان بشارع كذا ، كما يجرى ذلك على السنة العامة .
 فالبحث عن المتعلق بحث يتصل بسلامة الأسلوب وفصاحته . وقد حض ابن مضاء
 في كتابه على البحث في المسائل التى تفيد نطقا ، وإن نادى بالانصراف عن البحث
 فى متعلق الظرف .

وتعيين المتعلق إنما يحدده المعنى : فقد يوجد الفعل قبل الظرف ولا يصح
 تعلقه به ، كقول ابن دريد :

إن امرأ القيس جرى الى مدى فاعتاقه حمامه دون المدى

لو علق الجار والمجرور بالفعل « جرى » مع بقاءه على معناه ، لناقض صدر البيت عجزه ، وهو متعلق بحال محذوفة ، أى جرى قاصدا الى مدى .

الخطب في التعليقات النحوية أمون وأيسر . سأل سائل الخليل فقال له : أعن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك ؟ فقال : إن العرب نطقت على سجيته وطباعها وعرفت مواقع كلامها وقامت في عقولها علله وإن لم ينقل ذلك عنها ، وعلمت أنا بما عندي أنه علة لما علته به : فإن أكن أصبت العلة فهو الذى التمس ، وإن تكن هناك علة غير ما ذكرت فالذى ذكرته محتمل أن يكون علة له ، ومثلى فى ذلك مثل حكيم دخل دارا محكمة البناء عجيبه النظم والأقسام ، وقد صحت عنده حكمة بانها بالخبر الصادق والبراهين الواضحة ، فكلمها وقف هذا الرجل الداخل الدار على شيء منها قال : إنما فعل هذا هكذا لعله هو كذا ، لعله سنحت له وخطرت ؛ فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التى ذكرها هذا الذى دخل الدار ، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة ، إلا أن ما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة ... ثم يقول : فإن صحت لغيرى علة لما علته من النحو هو أليق بما ذكرته بالمعلول فليات بها .

وقال أبو الفتح فى الخصائص ٩٠/١ : اعلم أنا مع ما شرساد وعينا به فأوضحناه ، من ترجيح علل النحو على علل الفقه وإلحاقها بعلم الكلام . لا ندعى أنها تبلغ قدر علل المنكامين ، ولا عليها براهين المهندسين .

ويسر النحويين اعتبار ابن مضاء دراسة علل النحو بمنزلة دراسة اللغات والأدب والتاريخ ، حيث يتناول فى كتابه : « من المعارف التى لا تدعو الى جنة ولا تزجر عن نار » : اللغات والأشعار ، ودقائق علل النحو ، ومسلطات الأخبار .

وعندى أن صنيع النحويين فى العوامل والتعليل شبيه بما تصنعه الحكومات والهيئات فى تميزها ؛ تصوغ مواد القانون ثم تردف ذلك بمذكرة تفسيرية إيضاحية تنطوى على بيان وجوه الحكمة فى التشريع وملائمته لما شرع له .

وأنتقل الى الحديث عن مشروع التنسيق الذى وضعه الدكتور شوقي ضيف .

(١) ما يراه الاستاذ من وضع باب للفعل العام ينتظم الأفعال الناصية

وأحوال المضارع إعراباً وبناءً ، وأحوال الماضي والامر - موجود في الكتب التي بين أيدينا ؛ سار على هذا النظام جار الله في المفصل ، وابن الحاجب في الكافية ، تكلمنا عن الأسماء ثم الأفعال ثم الحروف . وشرح المفصل لابن يعيش وشرح الكافية معروفة متداولة .

(٢) هل يغنينا إدماج بعض الأبواب في بعض ، كإدماج الاختصاص في باب التمييز ، والإضافة في التوابع ، والمنادى ولا النافية للجنس في الممنوع من الصرف ، عن دراسة خصائص أسلوب كل منها وتفهم معانيها لتعرف نظائرها وأشباهها في كلام العرب ؟ .

(٣) أليكون حكماً على الخبر بأنه يكون منصوباً في نحو : ضربني العبد مسيئاً ، وفي نحو : أبا خراشة أما أنت ذا نفر ، ويكون مجروراً في نحو : وما ربك بظلام للعبيد ، مما يهون مسائل النحو ويرفع عنا إصرها ؟

لو أقرنا الأستاذ شوقي على أنه لا بد من تحديد مواقع كل حالة لكان الخلاف بينه وبين النحويين لا يتجاوز مجرد التسمية .

كيف نقول للبتيدي : إن الخبر ينصب بعد أتما ونرسل الكلام إرسالاً ، فيقع على أما من نوع آخر بعدها المبتدأ والخبر مرفوعان ، وبعدها الجار والمجرور : « وأما بركة ربك فحدث » وبعدها المفعول به : « وأما اليتيم فلا تقهر » ، وبعدها الجملة الشرطية ...

وكيف يغني قولنا : المبتدأ يكون مجروراً نحو « وما ربك بظلام للعبيد ، دون أن نفرق بين هذا الخبر المجرور بحرف جر زائد والمجرور بحرف جر أصلي ، وكيف ساغ العطف على الأول بالنصب في نحو قول الشاعر :

معاوى إننا بشر فأصبح فلسنا بالجمال ولا الحديد

كذلك معرفة موقع الجملة من الإعراب يترتب عليها ضبط ما بعدها في بيت كثير :

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا

ولا موجعات القلب حتى تولت

(٤) بيان موقع كم من الإعراب أمر لا بد منه ، لما يتبع ذلك من اختلاف في المعنى . فبيت الفرزدق :

كم عممة لك يا جرير وخالة فدعاء قد حلبت على عشارى
روى برفع عمه ونصبها وجرها ؛ فرواية الرفع تفيد أن لجرير عمه واحدة وخالة
واحدة قد حلبتا للفرزدق عشاره مرات كثيرة أو حلبًا كثيرًا ، وكم ظرفية أو دالة
على الحدث ؛ وروايتا الجر والنصب تفيدان أن لجرير عمات كثيرات وخالات
كثيرات أجيرات قد حلبن للفرزدق عشاره ، وكم دالة على ذات .

كذلك عرض النحويون لبيان الفرق بين النصب على الاختصاص والرفع
على الخبرية في نحو قول الشاعر :

إنا بنى نهشل لا ندعى لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينا
كما بينوا أى المعنيين أبلغ من الآخر .

فهل يطلب منا الدكتور الأديب أب تعرض عن مثل هذه الدراسات
ولا تقبل على تعرف دقائقها وتحصيل أمثالها ؟

وكيف يصح بعد هذا أن يقال : إن صناعة النحو صناعة لفظية تغفل شأن
المعاني وتغنى بالألفاظ ؟

أنا لا أنكر تشعب قواعد النحو ودقتها ؛ ولكنى أقول كما قال الدكتور
عبد الوهاب عزام بك في بعض كتبه : « قيل إن لغتنا صعبة بهذه المفردات وهذه
التركيب والأوزان ، وإنها تكاد تأتى على دارسها وتعجز طالبها ، وهذا حق
لاندفعه ، وإن عني عيباً فلا تنكره ، ولكنه ليس من نقصان في خلقها أو اختلال
في أبنيتها أو عجز في موادها وأوزانها ، ولكنه نتيجة التطور الكامل ، والنمو التام ؛
فأدنى الأشياء في هذا العالم أيسرها وأقلها تركيباً ، والكمال يصحبه التركيب
والتفصيل والإشكال والإعصال ... الخ

حى بن يقظان

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الاهوانى

مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الاول

هذه قصة صغيرة ، كتبها الفيلسوف الأندلسى أبو جعفر بن طفيل . وهى على صغر حجمها بالغة الأهمية من الناحية الفلسفية ، حتى لقد بلغ من قيمتها أن نقلت فى القرون الوسطى إلى اللغة اللاتينية ، وترجمت إلى كثير من اللغات الأوروبية الحديثة ؛ ولم يألف المسلمون التعبير عن الآراء فى شكل قصصى ؛ لهذا كانت رسالة حى بن يقظان من الطرافة بمكان عظيم ، لندرة هذا الأسلوب فى التأليف .

وهناك أسباب كثيرة تدفع المفكرين إلى صياغة أفكارهم فى ثوب قصصى ؛ منها التشويق ، ومنها تصوير المسائل فى صورة الحقيقة والواقع ، ومنها الهرب من استبداد الحكماء ، والخوف من ذوى السلطان .

وأكبر الظن أن ابن طفيل ركب متن القصة خشية على حياته من الاتهام بالكفر والزندقة والفلسفة ، وكان الاشتغال بالفلسفة فى عصره جريمة لا تغتفر ، وجناية على الشرع والدين ، يدفع الفلاسفة ثمنها ظالما ، إذ تمزق كتبهم ، ويرجون فى أعماق السجون ، ويضطهدون فى أموالهم وأهلهم ، وكان التعذيب الشنيع ، ثم الموت حرقاً هو عقاب المتفلسفين فى أوروبا .

والحنة التى وقع فيها أبو الوليد بن رشد من هذا القبيل .

ولقد تصدى كثير من الفقهاء ورجال الدين للفلاسفة ، وزيفوا آراءهم ، وبينوا ما فيها من مخالفة للدين ، وما ترمى إليه من كفر ، غير أن أقوى هؤلاء جدلا

وأبرزهم حجة هو أبو حامد الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة ، فانبرى له الفلاسفة يردون عن أنفسهم هذه التهمة المنسكرة ، لأن ثبوتها يقضى عليهم بالإعدام ، وهو حكم الدين على المشركين . ورد بعضهم ردا صريحا كما نقرأ في تهافت التهافت لابن رشد ، وغمز بعضهم الآخر الغزالي ولم ياجأ إلى التفنيد .

قال ابن طفيل في هذه الرسالة : « وأما كتب الشيخ أبي حامد الغزالي فهو بحسب مخاطبته للجمهور يربط في موضع ، ويحل في آخر ، ويكفر بأشياء ثم يتحللها ، ثم قال بعد أن عرض بمذهبه وكتبه وغموض ما جاء فيها ما يأتي « وقد ذكر (يريد الغزالي) في كتاب الجواهر : أن له كتباً مضموناً بها على غير أهلها ، وأنه ضمنها صريح الحق ولم يصل إلى الأندلس في علنا منها شيء . بل وصلت كتب يزعم بعض الناس أنها هي تلك المضمون بها ، وليس الأمر كذلك . وإذا كان الغزالي لم يعجبه لتقلبه في الرأي ، وشك في الاعتقاد الموروث واستعمال الرمز والإشارة دون صريح الحق ، فكذلك لم يعجبه أبو نصر الفارابي لأن ما وصل إلى الأندلس من كتبه أكثرها في المنطق ، وما ورد منها في الفلسفة كثيرة الشكوك ، ومن جملة ما ذكره مخالفا للشرع أن السعادة الإنسانية إنما تكون في هذه الحياة الدنيا ، مما أياس الخلق جميعا من رحمة الله تعالى ، وصير الفاضل والشرير في رتبة واحدة إذ جعل مصير الكل إلى العدم ، وهذه زلة لا تقال ، وعثرة ليس بعدها جبر . هذا مع ما صرح به من سوء معتقده في البوة وأنها بزعمه للقوة الخيالية خاصة ، وتفضيله الفلسفة عليها ، إلى أشياء ليس بنا حاجة إلى إيرادها .

ولم يسلم أبو بكر بن الصائغ من نقد ابن طفيل ، وبعد أن قدره قدره وقال عنه إنه أحذق المأخرين نظرا وأقربهم إلى الحقيقة وأثقفهم ذهنا وأصدقهم رؤية ، غير أنه شغلته الدنيا حتى اخترمت المنية قبل ظهور خزان علمه وبث خفايا حكمته ، وأن أكثر ما يوجد له من التآليف غير كاملة ، وأن ترتيب عبارته في بعض المواضع من كتابه رسالة الاتصال على غير الطريق الأكمل .

أما الفيلسوف الذي يبدو أنه سلم من لسانه وماآخذه ، فهو الشيخ الرئيس

ابن سينا، ومع ذلك فقد نبه الناس إلى أن كتاب الشفاء إذا أخذه التمارىء على ظاهره دون أن يتنبه لسره وباطنه، لم يوصل به إلى الكمال، وأن من أراد الحق الذى لاجمجة فيه فعليه بكتابه فى الفلسفة المشرقية .

فلما رأى ابن طفيل غموض التأليف، وخروجها عن سواء السبيل، أراد أن يكتب شيئاً يجيب به عن سؤال ذلك الأخ الكريم الذى طلب منه أن يبت إليه ما أمكنه بثه من أسرار الحكمة المشرقية التى ذكرها ابن سينا، وقال مخاطباً ذلك السائل : « وأرجو أن أصل من السلوك بك على أقصد الطريق وآمنها من الغوائل والآفات، . فكتب قصة حى بن يقظان وأبسال وسلامان .

فما هو ذلك الطريق المستقيم، وما هى تلك الغوائل والآفات، التى يخشاها ابن طفيل ويحذر منها.

الحق أن الآفات آفة واحدة، هى تهمة الكفر والخروج على الشرع الخفيف . أما الطريق، فهما فى الواقع عند ابن طفيل طريقان : طريق الحكمة، وطريق الشريعة، وكلاهما يوصل إلى الحق، والحق هو معرفة الله .

ولم يكن ابن طفيل أول من تعرض للتوفيق بين الفلسفة والدين، ولم يكن آخر من كتب فى هذا الموضوع . قال أصحاب رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، الذين كتموا أسماءهم : إنهم لا يعادون علماً من العلوم، ولا يتعصبون لمذهب من المذاهب، ولا يهجرون كتاباً من كتب الحكماء والفلاسفة، كما يعتمدون على كتب الأنبياء وما جاءوا به من التنزيل . وجعل أبو الوليد بن رشد فيلسوف قرطبة عنوان كتاب من تأليفه، وهو من أجملها وأهمها، « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، . فالصلة إذن بين الفلسفة والدين، أو بين الحكمة والشريعة، هى المسألة التى شغلت بال الفلاسفة فترة طويلة من الزمان . ومحور السؤال يدور على هذه القضية : هل يكتفى بالشرع وما جاء فيه، ويؤمن الناس بالله وأوامره ونواهيه حسب ما نزلت به الكتب السماوية على لسان الأنبياء والمرسلين، أو يلجأ الناس إلى عقولهم يهتدون بها إلى معرفة الخالق والتميز بين الخير والشر ؟

هما طريقان : طريق السمع أو الشرع أو النقل ، وطريق الفكر أو العقل .

وقد جمعت بعض المذاهب بين الطريقتين ، وقدمت أحدهما على الآخر . فالمتكلمون مثلاً يقدمون العقل على النقل ، والأشاعرة يقولون : معرفة الله بالعقل تحصل ، وبالسمع تجب ، فيقدمون الشرع على العقل .

ويريد الفلاسفة أن يقولوا إن اتباع طريق العقل يوصل الى معرفة الله ، كما يوصل طريق الشرع ، فلا تنافي بينهما . وهنا موضع الآفة ، لأنه إذا صح الاهتمام الى الله بالعقل فما وجه الحاجة الى الشرائع ؟

ونعود الى ابن طفيل فنجدّه يصور في قصته أن حى بن يقظان نشأ في جزيرة نائية فشب وحيداً يرضع من ابن غزالة الى أن اشتد ساعده وبلغ مبلغ الشباب والرجولة ، فنظر في أحوال الكائنات التي تحوطه واهتدى الى أسرار الجماد والنبات والحيوان كل ذلك بغير معلم ؛ ثم انعطف على نفسه فكشف سر الروح واهتدى الى العقل أداة المعرفة ، وتبين أن جوهره يخالف للبادة المحسوسة ، بل مفارق لها ، فانصرف عن الجسم واتصل بالروح الأعلى ، « وفنى عن ذاته وعن جميع الذوات ولم ير في الوجود إلا الواحد الحى القيوم » فكأنه وصل الى الله بالمشاهدة والاتصال ، كما يذهب أهل التصوف .

ولعلك تسأل : كيف شاهد حى بن يقظان الله ، وما أوصافه ؟ غير أن ابن طفيل هرب من الجواب معتذراً « بأن مجال العبارة هنا ضيق ، وأن الالفاظ على كل حال توهم غير الحقيقة » .

ثم تذهب القصة الى أن جزيرة قريبة من جزيرة حى بن يقظان كان يسكنها جماعة اعتنقت شريعة إلهية ، وكان على رأس الجماعة رجلان من أهل الخير والفضل ، أحدهما أسال والآخِر سلامان . أما أسال فكان أشد غوصاً على الباطن وأكثر عثوراً على المعاني الروحية ، وأطمع في التأويل ، وأما سلامان فكان أكثر احتفاظاً بالظاهر وأشدّ بعداً عن التأويل وأوقف عن التصرف والتأمل ، وكلاهما مجتهد في الأعمال الظاهرة ومحاسبة النفس ومجاهدة الهوى . وطلب أسال العزلة والتفكير ،

ولزم سلامان الجماعة وتعلق بالجمهور . ثم امتطى أسـال متن البحر ورحـل الى الجزيرة المجاورة يـشد العزلة والانعـراد ، فالتق هناك بحـي بن يقظان فتعارفا ، وتعلم حى لغة الانسان ، وحكى كل منهما لصاحبه ما يعرفه ، فوجدا أنهما متفقان فى العـناية وهى الوصول الى الله : حى بن يقظان بطريق العقل والتأمل ، وأسـال بطريق الملة والشريعة . وهكذا وفقت القصة بين الفلسفة والدين .

ولا ينبغى أن تصرقنا هذه النتيجة عن الأفكار الأخرى التى بثها ابن طفيل فى ثنايا قصته ، لأنها حقاً جديرة بالنظر والاعتبار . وهى أفكار تتصل بعلم الحياة وعلم النفس وعلم الاجتماع : أصل الحياة ، ومنشأ اللغة ، وظهور الحضارة ، وفضل الانسان على الحيوان ، وسبيل المعرفة ، وغير ذلك من المسائل الأساسية الداخلة فى صميم الفلسفة ، والتى وصل العلم الحديث الى حل بعضها ، ولا يزال الجدل دائراً حول بعضها الآخر .

من هذه المسائل نشأة الإنسان . وتحدثنا نظرية التطور أن الكائنات الحية ظلت تتسلسل فى الرقى حتى بلغت الإنسان ، وأن جميع الأحياء كانت مائة وأرقاها الأسماك ، ثم عاشت بعضها على اليابسة فنشأت الزواحف ، ثم ارتقى بعضها الى ذوات الأربع ، واختلفت أجناسها ، وتعددت أنواعها . وهذا كله كلام جميل يحاول به العلماء رد الكائنات الحية الى أصل واحد ، غير أن الرقى فى داخل الجنس الواحد ليس دليلاً على تطور الجنس بما يحمل من صفات ذاتية الى جنس آخر يختلف عنه فى الصفات . لهذا السبب ذهب القدماء الى أن الكائنات خلقت كذلك منذ نشأة الحياة وبدء الخليقة ، وتذهب الكتب الدينية هذا المذهب ، فتحدثنا أن نوحاً عند الطوفان ، حمل فى سفينته من كل صنف زوجين . وقد عرض ابن طفيل القضية على الوجهين دون أن يرجح أحدهما على الآخر : الوجه الأول أن حى بن يقظان نشأ بغير أب ولا أم ، بل تولد من الأرض ، وامتزج الحار بالبارد والرطب باليابس فى طينة تخمرت وتهيأت لقبول الروح الذى هو من أمر الله . فكأن ابن طفيل يحجز عن حل المشكلة الأبدية وهى خروج الحى من الميت ، فاضطر الى القول بأن الروح دائم الفيضان من عند الله . أما الوجه الثانى لنشأة حى بن يقظان عند من ينكرون تولده بغير أب

ولأم ، فإن ابنة أحد الملوك ، وكانت باهرة الحسن والجمال ، منعها أبوها من الزواج ، فتزوجت سرّاً قريباً لها يسمى يقطان وأنجبت منه « حى » ، وخشيت الفضيحة ، فوضعت في صندوق ألقت به في اليم حتى استقر على شاطئ الجزيرة التي عاش فيها ، وأرضعته فيه غزالة فقادت وليدها .

ولم ينطق حى بن يقطان لغة كهذه اللغات التي يتحدث بها الناس ، ولكنه أخذ يحكى نغمة الطيبة ، وكذلك كان يحكى جميع ما يسمعه من أصوات الطير وأنواع الحيوان . وهذه هي إحدى النظريات المسلم بها في العلم الحديث عن نشأة اللغة

ثم اهتدى الى قدرة يده على معالجة الأغصان واتخاذ العصي وتسوية أطرافها واستعمالها للدفاع . واليد في أعضاء الإنسان هي سر تفوقه على الحيوان ، والأصل في تحضره .

واتخذ لنفسه من الريش ستاراً لعورته ، لأن الحيوان مستور بالأذنان والأوبار . وهي نظرية بعيدة الاحتمال في عملة الكسواء ، إذ المشاهد أن بعض القبائل التي تعيش في خط الاستواء لا تزال عارية تماماً ، ولم يستتر الإنسان عورته إلا لأسباب اجتماعية تتعلق بالغريزة الجنسية وحيلة الذكور بالإناث .

ولا أريد أن أحدثك كيف اهتدى حى بن يقطان الى النار وفائدتها ، والى اتخاذ الأسلحة من الأحجار المشحوذة ، والى النظر في أجسام الكائنات وتشريحها لمعرفة أسرار تركيبها : لأننى أحب أن تقرأ بنفسك هذا الكتاب ، فتطلع على آراء فلاسفة المسلمين ، وتعرف أن الشرق بلغ في وقته من العلم والحضارة مبلغاً يجعلك تعزّ بالماضى وتفخر بالتراث القديم .

آفات البلاغة

قال محمد كاتب إبراهيم بن المهدي وكان راوياً وعلامة في النحو : سمعت أبا داود — وجرى شيء من ذكر الخطب وتمييز الكلام — يقول : تلخيص المعاني رفق ، والاستعانة بالغريب عجز ، والتشادق في غير أهل البادية نقص ، والنظر في عيوب الناس عى ، ومس اللحية هلك ، والخروج مما بنى عليه الكلام إسهاب .

مسئولية الاطباء

في الشريعة الاسلامية وفي القانون المقارن

لحضرة الاستاذ الدكتور أحمد محمد ابراهيم

القاضي بمحكمة الدنيا الوطنية

الناس في حاجة ماسة الى الاستعانة بالاطباء لعلاجهم بما يصيبهم من أمراض وما يحدث لهم من إصابات . ويقوم الاطباء - في سبيل ممارسة مهنتهم - بأعمال تعد في ظاهرها جرائم تستوجب العقاب ، فقد يصف الطبيب للمريض دواء يحدث له جسيم الآلام ، وقد يترعضوا من أعضائه ، أو يجري له جراحة فيشق صدره أو بطنه ، وقد يترتب على العلاج وفاة المريض أو شفاؤه بعاهة تلازمه إلى الأبد .

ورغم أن أكثر ما يقوم به الاطباء - وخصوصا الجراحين منهم - يستوجب العقاب ، فإن عدم مسؤولية الاطباء عن هذه الأفعال ليست محل خلاف . ولكن ما هو أساس عدم المسؤولية ، وما هي الشروط الواجب توافرها في عملهم حتى يعفوا من هذه المسؤولية ؟

ونرى - قبل بحث هاتين المسألتين - أن نذكر أن القوانين الوضعية في كل الدول المتعدية تنظم كيفية ممارسة مهنة الطب ، فتقصرها على الأشخاص الحاصلين على شهادات دراسية تؤهلهم للقيام بها ، بعد أن يكونوا قد أمضوا فترة طويلة في دراسة عليية وعملية لأصول هذه المهنة وقواعدها ، حتى تستطيع الدولة أن تأتمنهم على علاج رعاياها ؛ وإذا قام بالعلاج شخص من غيرهم فإنه يسأل عن نتيجة فعله مسؤولية الشخص العادي ، فلا يتمتع بأي حماية قانونية ، فضلا عن عقابه على جريمة ممارسة مهنة الطب بدون تصريح من الجهة المختصة .

وهذه التفرقة بين من حصل على شهادة تخول له ممارسة الأعمال الطبية وبين من لم يحصل عليها ، لانجدها واضحة في كتب الفقه الإسلامي . ومرد ذلك - فيما نعتقد - أن قصر ممارسة أعمال الطب على من درسوا قواعده لم تعرف بطريقة رسمية في الدول الإسلامية المختلفة ، وليس معنى ذلك أن قواعد الشريعة

الفراء تبيح ممارسة المهنة لكل شخص ، بل كل ما نقصده هو تقرير أن التنظيم الحديث لرجال هذه المهنة لم يكن مبرروفا لديهم وقت أن وضعوا الأحكام الفقهية التي ذكروها في كتبهم . فإذا تطور الزمن وصار من أهم واجبات الدولة أن تحافظ على صحة رعايتها وأن تقيم شر المشعوذين والدجالين ، فإننا نقرر - في اطمئنان - أن مثل هذا التنظيم ليس مما يتنافى مع أحكام الشريعة ، بل بالعكس فإنها توجبه ؛ فقد نص الفقهاء على أنه يحجر على المتطبب الجاهل لأنه يفسد أبدان الناس . وليس المقصود بالحجر هنا حقيقة الحجر وهو المعنى الشرعى الذى يمنع نفوذ التصرف ، فلو باع الطبيب الأدوية بعد الحجر نفذ بيعه ، ولكن المراد بالحجر هو المنع الحسى ، أى يمنع عن عمله حسيا ، لأن المنع عن ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ^(١) . كما نص في مذهب الإمام أحمد على أنه إذا قام بأعمال التطبيب شخص غير حاذق في فنه ، فإن فعله يعتبر فعلا محرما ^(٢) .

أساس عدم المسؤولية :

ذكرنا فيما تقدم أن عدم مسؤولية الأطباء عن أفعالهم ليست محل خلاف من أحد ، ولكن ما هو الأساس القانونى لعدم المسؤولية ؟

ذهب بعض الشراح وقضت بعض المحاكم بأن انعدام المسؤولية يرجع إلى رضا المجنى عليه ؛ فالعملية الجراحية لا يجوز للطبيب أن يجريها إلا بعد الحصول على موافقة المريض ، وهذا الرضا كاف للقول بعدم مسؤولية الطبيب ، واعتبار عمله مشروعاً . وهذه النظرية هى المعمول بها فى القضاء الانجليزى : لأن القاعدة عندهم — بصفة عامة — أن رضا المجنى عليه يبرر الفعل . ويقول بها بعض علماء ألمانيا ، وبها قضت محكمة النقض المصرية فى حكم قديم لها .

ويترتب على الأخذ بهذه النظرية أن رضا الشخص المعالج يعدم المسؤولية مهما كانت صفة المعالج ، فيستوى أن يكون طبيباً ماهراً أو أن يكون شخصاً لا دراية له بالمهنة ولم يحصل على أى دراسة فى علوم الطب ؛ كما يترتب عليه انعدام

(١) الدرر شرح الفروع ٢ - ص ٦٢٨ .

(٢) المفتى ٦ - ص ١٢٠ .

المسئولية مهما كان الباعث على العمل ، فلا مسئولية عليه ولو لم يكن يقصد العلاج بل كان غرضه بتر عضو حتى يستطيع الشخص الذى بتر أحد أعضائه أن يفر من التجنيد الإجبارى .

ويؤخذ على هذه النظرية — خصوصا فى مصر وفرنسا — أن انعدام رضا المجنى عليه ليس ركنا من أركان جرائم الجرح أو إعطاء المواد الضارة ، وعلى ذلك فرضاء وعدم رضاه يستويان فى النتيجة ، أى أن المسئولية تتوافر ولو كان الفعل برضاء المجنى عليه ؛ فمن يضرب شخصا أو يجرحه يعاقب ولو كان لم يفعل ذلك إلا بناء على إلحاح من المجنى عليه .

وقد ذهب بعض العلماء الفرنسيين إلى أن انعدام المسئولية يرجع إلى انعدام القصد الجنائى فالقصد الجنائى ، ركن فى جميع الجرائم العمدية ، فإذا انعدم انعدمت معه الجريمة ولم يكن ثم فعل يستوجب العقاب . والشخص المعالج لا يقصد الاعتماد على المريض بل يريد له الشفاء ، فنيته طيبة وليست نية آثمة .

ويترتب على التسليم بهذه الفكرة أنه يجب أن يعفى من المسئولية كل شخص يباشر أعمال الطب ولو لم يكن مرخصا له بذلك مادام أنه يقصد شفاء المريض بفعله ، فهذه النية الطيبة يستوى فيها من حصل على شهادات فى الطب ومن لم يحصل على شيء من ذلك .

ويعاب على هذه النظرية أنها تخلط بين الباعث وبين القصد الجنائى ، فالباعث على الفعل يختلف من شخص إلى شخص ومن حالة إلى حالة ، فقد يعتدى شخص على آخر انتقاما منه ، أو ليحصل على ماله ، أو ليظهر قوته ؛ ولكن القصد الجنائى فى كل الجرائم (التى من نوع واحد مهما اختلفت البواعث) واحد لا يتغير ، والقصد الجنائى هو أن يرتكب الشخص الفعل المحرم ، وهو يعتقد أنه محرم ؛ فشق البطن غير جائز ، وكل من ارتكب هذا الفعل وجب عقابه مهما كان الباعث على فعله ، لأن البواعث لا دخل لها فى وجود الجرائم وانعدامها .

والرأى السائد الآن فى مصر وفرنسا - هو أن عدم مسئولية الأطباء راجع إلى أن المشرع أراد ذلك ، فإنه بتنظيمه مهنة الطب وقصره حق ممارستها على من تلقى فيها دراسة خاصة وحصل على شهادة تؤهله لذلك ، قد أباح للخاصين على هذه الشهادة ممارسة الأعمال التى تقتضيها مهنتهم ولو كانت فى ذاتها جريمة يعاقب عليها

الشخص العادى . والعلة فى إباحة هذه الأفعال هى أن أعمال الأطباء تعود بالفائدة على الفرد وعلى المجتمع ؛ فمن صالح الفرد أن يعيش سليما قويا خاليا من الأمراض والعلل ، ومن صالح المجتمع أن يكون أفرادہ متمتعين بالصحة أقوياء خالين من الأمراض لينتجوا ويعود الخير على الجميع .

وإذا رجعنا الى كتب الفقه الاسلامى لمعرفة أساس انعدام مسؤولية الأطباء وجدنا أن أساس انعدام المسؤولية هو رضا المجنى عليه ؛ إذ رأى جمهور الفقهاء أنه لو قال شخص لآخر اقتلتى أو اجرحنى ففعل فلا يقتص منه لرضاء المجنى عليه بالفعل ^(١) ، وحكم الطبيب فى عدم المسؤولية هو حكم الشخص العادى فيها ، لأن الطبيب لا يقوم بعمله إلا بناء على رضا من المريض ، كما سنوضح فيما بعد .

ومن رأينا أنه يجب عدم الأخذ برأى جمهور الفقهاء فى هذه المسألة : فقد سبق أن بينا أهم الاعتراضات التى توجه اليه فى تفقده الحديث ، وهى اعتراضات لها قيمتها ولها وجاهتها ؛ فالأخذ بهذا رأى يهدم كل الآثار التى تترتب على تنظيم المشرع لمهنة الطب تنظيما من مقتضاه تحريم ممارستها على غير الأطباء : لأن الإعفاء من المسؤولية على أساس رضا المريض يشمل الطبيب وغير الطبيب ، وفى ذلك الخطورة كل الخطورة على الفرد وعلى المجتمع . فكثيرا ما يجمل المريض مصلحته وينساق خاف الدجالين وأدعياء الطب الذين قد يأتون أفعالا محققة الضرر وهم لا يعلمون ، ومع ذلك يفرون من العقاب بحجة أن قيامهم بالعلاج كان بناء على رضا المريض ودعوته .

ومن رأينا أنه يجب أن يكون سبب الإعفاء من العقاب فى الشريعة الإسلامية هو نفس السبب السائد الآن ، أى أن يكون أساس الإعفاء هو رغبة المشرع فى إباحة بعض الأفعال للأطباء ما دام القيام بواجب المعالجة يستدعيها ولو كانت فى ذاتها جرائم نظرا للفائدة التى تعود على الفرد وعلى المجتمع من ذلك . ويترب على الأخذ بهذه الفكرة ضرورة القول بمعاقبة غير الأطباء لو ارتكبوها ولو كان المريض هو الذى استدعاهم لعلاجه ، فإدام عملهم محرما ويجب الحجر عليهم

(١) من أراد زيادة الايضاح فليرجع الى مؤلفنا « القصاص فى الشريعة الإسلامية » ، ص ١١٠ وما بعدها والمراجع المشار اليها .

فكيف لا نعاقيهم ؟ . هذا فضلا عن أن قصر ممارسة المهنة على أشخاص معينين يتضمن منع سواهم من ذلك ^(١) .

شروط إباحة أعمال الطب :

ولا يكفي أن يكون الشخص طبيبا حتى يستطيع أن يعالج الناس ويقوم بإجراء الجراحات وهو آمن المستولية الجنائية ، بل لا بد من أن تتوفر في عمله الشروط الآتية حتى يستطيع أن يتمسك بالاعفاء من المستولية .

أولا : يجب أن يكون تدخل الطبيب لعلاج المريض . فمن أجل هذه الغاية

أباح المشرع أعمال الأطباء ، فإذا انحرف الطبيب عن هذه الغاية وقصد غرضا آخر بعلاجه عد مسئولا عن أعماله مسئولية الشخص العادي ، فإذا بتر الطبيب يد شخص حتى يفتر من الخدمة العسكرية أو جهض حاملا لأنها حملت سفاحا ، عوقب على هذه الأفعال ، واعتبرت مسئوليته عنها مسئولية عمدية . وقد أجمع كبار الفقهاء في فرنسا على أن الطبيب الذي يستأصل مبيض امرأة بناء على طلبها ولم تكن حالتها الصحية تستدعي القيام بهذه العملية ، فإنه يسأل عن هذا الفعل ، مسئولية عمدية . ويسأل الطبيب عن فعله أيضا إذا كان الغرض منه القيام بإجراء اكتشاف علمي دون أن يكون بقصد علاج المريض .

وقد يبدو أن هذا الشرط غير لازم وفقا لرأى جمهور فقهاء الشريعة مادام أن أساس الإعفاء هو رضا المجنى عليه . ولكننا إذا أمعنا النظر في بحث العلاقة بين الطبيب والمريض وجدنا أن هذا الشرط لا بد من توافره ، لأن الصلة بين الطبيب والمريض صلة عقدية يحكمها العقد الذي هم بينهما ، والمريض في العادة يطلب من الطبيب أن يتولى علاجه ويترك له اختيار طريقة العلاج ، فإذا تجاوز هذا الغرض فإنه يعد مسئولا عن أعماله التي ارتكبها خارج حدود العقد ، إلا أنه يجب أن نلاحظ أنه وفقا لرأى جمهور الفقهاء لا يسأل الطبيب ولو لم يكن يقصد العلاج ما دام المريض قابلا ذلك . والرأى الذي نقول به كفيلا بالعقاب في مثل هذه الحالات .

(١) ونحن لا نسلم بما يقول به جمهور الفقهاء من أن الرضا بالقتل أو المرح يسقط القصاص ،

انظر المرجع السابق ص ١١٢

من هدى الإسلام :

من أين لك هذا ؟

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم أحمد النمر
المدرس بمعهد القاهرة

يشعر الناس كبيرهم وصغيرهم أن المجتمع المصرى تسوء ظاهرة من أخطر الظواهر على حياة الأمم ، وتسلط عليه علة من أكبر العلل الهدامة لكيان الشعوب ؛ تلك هى ظاهرة استغلال المراكز للارتفاع الشخصى والثراء . وقد طغت هذه الظاهرة واستشرت حتى كادت تجرف فى تيارها النفوس الشريفة ، وتسم العقلية الجديدة . فهناك أناس حذعوا من حولهم بمظاهر الإخلاص والوطنية والغيرة على الصالح العام ، ولبسوا مسوح الزهد والقناعة حتى وثق الناس بهم ، ووصلوا بهذا الطريق الى المراكز التى يستطيعون فيها أن ينهضوا بالشعب ويقدموا له الدليل على صدق إخلاصهم ؛ ولكنهم بدل ذلك راحوا يستغلون غفلته ، ويسخرون مراكزهم للثراء ، ويتوصلون على حسابها الى المال الوفير ، ويصبحون بين يوم وليلة من ذوى الثروات الضخمة ، ويحسب الناس ويتساءلون : كم أخذ هذا ؟ وكم أنفق ؟ وماذا تبقى له بعد ذلك ؟ ! فيجدون أن الذى تبقى له أكثر مما أخذه !! فمن أين إذن أنفق عن بذخ ؟ ومن أين له كل هذا ؟ وسرت هذه الروح - روح استغلال المراكز للثراء - من الكبار للصغار ، ومن الرؤساء للبرموسين ، حتى أصبح من الغريب أن نجد الموظف العفيف ، وصاحب المركز النزيه ؛ فصغار الموظفين والعمال الذين يتولون أعمالا تتيح لهم هذه الفرصة لا يمكن أن يتركوها تمر دون أن ينتفعوا ، حتى أصبح هذا عادة عنده ، كأنه لا يتماضى من الدولة أجرا على عمله . وهؤلاء الذين ييدهم عقد الصفقات وإعطاء المشروعات

لا يمكن أن تفلت من أيديهم فرصة الانتفاع . والمتعمدون والمقاولون خير من يعرف هذا ويساعد عليه وإن كان يشكو منه . وأنا وأنت أيها القارىء نعرف هذا ونحدث عنه ، ونلجس في العمارات الشاهقة ، والضياع الواسعة التي تقيم بنفسها الدليل القوي على اتهام أصحابها . ومع هذا كله يقف المجتمع وتقف الدولة بتشريعيها وقوانينها وسلطانها عاجزة عن محاسبة هؤلاء وسؤالهم : من أين لهم هذه الثروة المفاجئة ، وكيف هبطت عليهم ؟ فليس في القانون للآن مادة تبيح محاسبة المالك ، من أين ملك ؟ ولقد كان هذا المعجز وهذا القصور سيئاً في قوة شيوع هذه الظاهرة وسيطرتها على العقول سيطرة تنذر بالخطر : فإن الدولة التي تفسد ذمم عمالها وخدامها ، ويذهب هباء نداء الواجب والضمير فيها ، دولة تحطم نفسها بنفسها ، وتقوض بنيانها بيد أبنائها ، وتعرف مقدماً حكم التاريخ فيها مهما بلغت هذه الدولة من متانة البنيان ، وعظمة السلطان ، ونباهة الشأن : فإنا بالناس بدولتنا الناشئة التي نريد أن نبني لها مجداً ونشيد لها نهضة ! .

ولقد دفعت الغيرة بعض الناس على أن يفكروا في قانون محاسبة الوزراء وغيرهم من الكبار ، ومنع قصور هذا عن الغاية المرجوة والعلاج المنشود فإنه يسير متعثراً في الظلام ، لا يكاد يرى النور حتى ترده إلى الظلمات أباد لا تريد له الحياة .

ولقد واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حالة فردية تشبه حالتنا التي نشكو منها الآن ، ولمس صورة من الصور الكثيرة التي تمر بنا ، وشعر عليه السلام بالخطر يهدد كيان الدولة الإسلامية الوليدة ، وينخر في عظام المجتمع الإسلامي وهو في بدء تكوينه ، فسارع عليه السلام ، وهو القائد الخبير والمربي الملمم والمشرع الذي لا ينطق عن الهوى : سارع إلى وضع علاج حازم حاسم كفيل بالفضاء على روح استغلال المراكز للانتفاع الشخصي وسد الباب في وجوه الطامعين : وضع عليه السلام العلاج وسبقنا إليه بأربعة عشر قرناً ، ولا زلنا نحن نئن ونشكو من فداحة الداء ، وفي أيدينا خير الدواء .

• روى البخارى في صحيحه عن أبي حميد الساعدي قال : « استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من بني أسد على صدقات بني سليم ، فلما جاء إلى رسول الله

وحاسبه قال : هذا الذى لكم وهذه هدية أهديت لى : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلا جلست فى بيت أهلك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا ؟ ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المنبر فخطب الناس وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فأنى أستعمل رجلا منكم على أمور مما ولانى الله فأتى أحدكم يقول : هذا لكم وهذه هدية أهديت لى فهلا جلس فى بيت أبيه وبيت أمه فينظر : أهدى أم لا إن كان صادقا ! فوالله لا يأخذ أحدكم منها شيئا بغير حقه إلا جاء الله بحمله على رقبته يوم القيامة ، إن كان بعيرا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تبعر ، ثم رفع عليه السلام يديه حتى رأينا بياض إبطيه وقال : ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت . . . !

وهذا الحكم وهذا القرار يتقرر مصير هذا الكسب الذى وصل الى يد هذا الرجل ويصل الى يد أمثاله من بعده الى يوم القيامة ، ويتبين حكم الإسلام فيه . فهذا رجل من الذى ولائم عليه الصلاة والسلام جباية الصدقات وتحصيل الضرائب من بنى سليم ، ذهب إليهم نائبا عن رسول الله ومثلا لبيت المال ليتقى من مواشيهم زكاتها المفروضة ، وقد رجع الى الرسول بالزكاة التى حصلها ومعه شئ خاص به ، هدية أهداها القوم له وخصوه بها ، وجاء الى رسول الله ولم يخفها عنه ، بل صارحه بها ظانا أن ذلك مما لا يتنافى مع مهمته ، ولا يتعارض مع وظيفته ، ولا يغضب رسول الله ، ما دامت هدية صادرة عن رضا واختيار ؛ ولكن كيف يتغاضى الرسول وهو الذى يضع الأسس والمبادئ لسعادة الشعوب ورقها وصيانة نظمها ، وسلامة أوضاعها ! أليست هذه الهدية مما يؤثر فى عمل الموظف ؟ أليست مالا أخذه بسلطان عمله ، وطمعاً فى رحابة صدره وتنازله عن بعض واجباته ، وتساهله معهم فى أية ناحية من النواحي تجر عليهم كسبا وفائدة ، وتعود على الدولة بالخسارة مهما كانت صغيرة أو كبيرة ؟ وقد قدر الرسول هذه النواحي — وهو خير من يتندر — فكان غضبه شديداً . انظر معى إلى قوله لعامله يؤنبه ويبين له خطاه — مع أنه كما يفهم كان عن حسنة — « هلا جلست فى بيت أهلك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك » أرايت تأنيباً مع توجيه ، وتقريعاً مع تشريع ، أشد من هذا وأوجع ؟ !

ولم يدع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحادثة تمر دون أن يعلق عليها ويضع بسببها مبدأ عاماً يبقى من بعده نبراساً وهدى للعالمين ، وشفاء لجراحات المجتمع وسداً لأطماع الطامعين ، فقام رسول الله إلى المنبر — كشأته في كل أمر خطير ذي بال — ووجه إلى أصحابه السلام ، ولم يرد أن يحبه صاحب الحادثة ، فلم يصرح باسمه في كلامه إبقاء على ما في نفسه من خير وتقديرًا لحسن النية في احتفاظه بهديته ؛ وهذا من كمال أدبه وعالي إدراكه ، عليه الصلاة والسلام .

لقد انتهر عليه السلام هذه المناسبة لتوجيه أصحابه إلى الأوضاع السليمة التي يجب أن يكونوا عليها ، وإلى الأسس الفاضلة التي تكون المجتمع الإسلامي السليم ، فتكلم في غضب ظاهر ؛ ولكن في أدب كامل ، وبين الحكم ، ولم يترك بيان سببه وتوجيهه إلا أنظاراً إلى علته ، فقال لأصحابه : كيف يستسيغ الواحد منكم وقد وليته عملاً عاماً أن يستغل سلطانه ووظيفته فيقبل الهدايا التي تقدم إليه من الناس ؟ هل يتصور الرجل منكم أنه كانت تأتيه هذه الهدايا لو كان شخصاً عادياً لا يرجى عطفه ولا تنتظر منه رعاية ومحابة في عمله ؟ لئن كان في شك من هذا فلا يجلس في بيت أبيه وأمه مجرداً من سلطان الوظيفة التي تجمع حوله آمال الطامعين فيه ، مجرداً من أمل الانتفاع من ورائه ، ولينظر هل يتقدم هؤلاء الناس له بالهدايا التي تقدموا بها إليه وهو في عمله ؟ إن هذه الهدايا ستقطع ولا شك عنه ، وسوف لا يظفر بها بحال ؛ فهي إذن مال أخذه بسيف الرغبة أو الرهبة ، وتحصل عليه بسلطان الدولة التي ليست ملكاً له ، فليس من الحلال أن يأخذه أو ينتفع به مهما صاحب هذا من مظاهر الرضا من الدافعين للهدايا ، فإن ما يكمّن وراء هذه المظاهر من أغراض غير شريفة ليكفي في ردها وفي تحريمها .

ويرى رسول الله عليه الصلاة والسلام أن الأمر خطير . وأن الموضوع يستدعي التوكيد والتشديد لاتصاله بأسس المجتمع الإسلامي ، فيقسم - وإنه لقسم لو تعلمون عظيم - : والذي نفسي بيده لا يأخذ أحدكم من هذا المال شيئاً بهذا الأسلوب إلا تحمّل وزره في الآخرة - بعد وزره في الدنيا - وفضحه الله على رؤوس الأشهاد يوم القيامة ، وصور له إثمته في هذا اليوم صوراً من الهدايا التي قبلها تعلن عن إثمته وتبرهن أمانته وأمام الناس على جورته وظلمه . ثم برفع الرسول

عليه السلام يديه في عناية واهتمام بالغين ، حتى يرى الصحابة بياض إبطيه ، ويتجه الى الله يشهده على أنه قد أبرأ ذمته ونصح لأمته ، وبين هذا الامر الخطير وأعطاه ما يستحقه من توجيه ، و يعلن أنه بذلك قد بلغ الرسالة وأدى ما في عنقه من أمانة ، وعلى الناس أن يختاروا ، فمن اهتدى فلهنقه ، ومن عمى فليها ، وما أنا عليكم بحفيظ .

هذا هو الهدى النبوى الكريم ، والتشريع الإسلامى الحكيم ، يريد الحاكم والعامل نظيفا في عمله نزيها في قصده ، عفا في تصرفاته ، بعيدا عن الشبهات ، لا يستحل إلا أجره ، ولا يستغل سلطانه ليلأ خزائنه وجيبه ، ولا يقبل مالا جاءه طمعا في جاهه وسلطانه العاجل أو الآجل ، وبذلك تصان المصالح العامة ، وتسير الامور في مجراها الطبيعى ، لا يؤثر عليها حيف أو جور ، يصل كل إنسان الى حقه ، ويطمئن الى سلامة تصرفات حكامه ، ولا يظن بهم الظنون ، ولا تضع على الدولة حقوق ، ولا يستغل مرافقها أصحاب المصالح الشخصية ، ولا تخضع للسيارات والآهواء ، فتفقد التوازن ، ويختل دولا العمل .

ألمست تحس أيها القارئ مع الشعب بفداحة الخطب الذى أصاب الدولة المصرية من سيطرة الشركات على مرافقها زمنا طويلا ، واستغلالها استغلالا يتجه كله الى مصلحة الشركة دون مراعاة مصالح الجمهور الذى يئن ويشكو ولا يجد من يحميه من عسف هذه الشركات الاجنبية واستهتارها ! . والذى مكن لهؤلاء الدخلاء من اللعب بمصالح الجمهور لإنماسهم بعض أبناء البلد الذين أنخمتمهم الشركات بعطاياها وهداياها وعضويات مجالسها .

إن الحديث النبوى الكريم الذى ذكرته ليضع الأساس لمحاسبة الوزراء والموظفين ومن يستغلون نفوذهم للثراء على حساب مصالح الشعب ، ويضع حدا للفوضى والارتباك ، ويقضى على روح الرشوة التى سيطرت على النفوس .

وهو أساس وضعه الرسول منذ أربعة عشر قرنا ، وقبل أن تكون أوروبا الحديثة التى نأخذ منها القوانين .

ومستابع البحث والكشف عن هذا المبدأ فى أعمال الخلفاء الذين تولوا سياسة المسلمين بعد الرسول عليه الصلاة والسلام .

ذكرى مرور خمسين سنة

الشيخ جمال الدين الافغانى

مصلح دينى وزعيم سياسى

لفضيلة الاستاذ محمود الشرقاوى

خرج جمال الدين من مصر أو أخرج منها بأمر من الخديو توفيق في أواخر سنة ١٨٧٩ ، فقصده إلى الهند مرة أخرى وأقام في حيدر آباد ، وفيها ألف كتابه « الرد على الدهريين » باللغة الفارسية ، وقد نقله إلى العربية الشيخ محمد عبده فيما بعد .

ويقول مؤرخو جمال الدين في إخراجه من مصر : إن توفيقا كان يقرب إليه جمال الدين ويعتز به قبل أن يلي عرش مصر ، وكان يعدّه إن هو ولى هذا العرش أن يؤيده في إصلاحاته وأن يعينه على تحقيقها ، فلما ارتقى توفيق عرش مصر أخذ جمال الدين يستنجزه وعده ويستحثه ويلج فيه حتى ضاق توفيق ذرعاً به فنفاه . ويقول الشيخ رشيد في تاريخ الأستاذ الامام : إن نشاط جمال الدين كان ينغص على انجلترا ، وكان فنصل انجلترا في مصر غير راض عنه ، وإن الحكومة البريطانية سمعت عند توفيق في نفيه .

وعندما كان جمال الدين مقيماً في حيدر آباد قامت الثورة العراقية ، وكانت الحكومة البريطانية تعتقد أن جميع الثورات والانقلابات التي تقوم في الشرق أو في بلاد الاسلام إنما هي من صنع جمال وتحريضه ، فخشيت منه في هذه الثورة العراقية ، وألزمته الانتقال من حيدر آباد إلى كلكتا ، وأقامت عليه الرقابة فيها .

فلما انتهت الفتنة العراقية باحتلال إنجلترا مصر، أباحت له حكومة الهند مبارحة البلاد، فغادرها الى لندن، واستقر فيها أياماً، ثم تركها الى باريس.

ويقول واحد من مؤرخي جمال الدين: إنه قصد في هذا الوقت الى أميركا، وإنه رغب في أن يتجنس بالجنسية الأميركية، ولكن هذه الرحلة وهذه الرغبة مشكوك فيهما جداً.

بقى جمال الدين في باريس ثلاث سنين، وكان في ذلك الوقت قد أحسن اللغة الفرنسية. أما العام الأول من هذه السنين فقد بقي فيه يكتب المقالات والفصول في الصحف الفرنسية، وكانت آراؤه التي يبديها في السياسة وفي الأمور العامة تلقى عناية كبيرة واهتماماً من الحكومات الأوروبية التي لها روابط بالبلاد الإسلامية.

وكان الشيخ محمد عبده في هذا الوقت نفسه مبعداً من مصر الى الشام بسبب الثورة العراقية، فبعث إليه جمال الدين أن يوافيه في باريس فوافاه إليها. ونظم السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده أمر إصدار مجلة إسلامية لنشر دعوتيهما الإصلاحية ومحاربة الاستعمار الذي نكبت به البلاد الإسلامية، فأصدرا لهذا الغرض مجلة «العروة الوثقى»، كان جمال الدين يدير سياستها العامة والشيخ عبده يحرر فصولها، وأزججت هذه الصحيفة الحرة القوية، الحكومة الإنجليزية، بسبب عنفها في خصومة الاستعمار البريطاني، فحاربتها حرباً عنيفة، ومنعت دخول أعدادها الى مصر والهند.

ولم تن الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية أيضاً في حرب هذه الصحيفة وإعانتها حتى لم يستطع الشيخان مولاة إصدارها، فتوقفت بعد أن أصدرا منها ثمانية عشر عدداً^(١).

قصد جمال الدين بعد توقف «العروة الوثقى»، عن الصدور إلى لندن، وتفاوض مع حكومتها في شؤون البلاد الإسلامية، وفي شؤون السودان خاصة

(١) صدر العدد الأول في ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ والأخير في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ وقد

أعيد طبع مقالاتها في القاهرة مرتين في سنة ١٩١٠ وسنة ١٩٢٨.

حيث كانت ثورة المهدي ناشبة وقتذاك (سنة ١٨٨٥) . ثم انتقل بعد ذلك إلى روسيا القيصرية فأقام فيها أربع سنين بين موسكو وبطرس برج .

وفي سنة ١٨٨٩ كان شاه الفرس ناصر الدين يزور أوروبا ، وكان جمال الدين أيضا في ميونخ ، فتقابلا ، ورغب الشاه إلى السيد أن يصحبه إلى إيران ، فلبى السيد الدعوة ، فلما ذهب إليها أكرمه الشاه وعينه وزيرا للحرب وقربه إليه ، ولكن الشاه أوجس بعد ذلك من جمال الدين ، حيث رأى محبة الناس له ، وشهد تأثيره في نفوسهم وقوة سلطانه عليهم جميعا . وأحس جمال الدين تغير الشاه عليه وتوجسه منه وخوفه ، فاستأذنه في الخروج ؛ ولكن الأمر فسد بين الشاه وبين جمال الدين قبل أن يخرج ، حتى احتفى جمال الدين بمقام الشاه عبد العظيم خوفا من بطش ناصر الدين ، وأقام في مقامه هذا سبعة أشهر حيث نال منه المرض ، ولم يجد ناصر الدين مندوحة من أن يجترى على حرمة الشاه عبد العظيم فيهاجم في مقامه جمال الدين . وقبض على جمال الدين ثم أخرج وهو مريض إلى حدود الدولة العثمانية ؛ ولكن جمال الدين كان قد استطاع أن يؤلب الناس على الشاه ، وأن يكيد له ، وأن يجاهر بخلعه ودعوة الناس للخروج عليه ، فلم تمض على إخراجه من إيران خمس من السنين أو ست حتى قامت الثورة على ناصر الدين واغتياله واحد من الثائرين ، ثم قال في اعترافه : إن القتل بتحريض جمال الدين^(١) فلما طلبته حكومة إيران لمحاكمته رفض السلطان عبد الحميد تسليمه .

ولما أخرج من إيران قصد البصرة فأقام بها إلى أن زال عنه مرضه ، ثم سافر إلى لندن مرة أخرى . ثم ترك لندن إلى الآستانة في سنة ١٨٩٣ . في هذه الفترة التي قضاها السيد في الآستانة رعاها السلطان عبد الحميد وأكرمه ، فخصص له قصراً منيفاً ، وأجرى عليه في كل شهر خمسا وسبعين ليرة عثمانية ، ولكن السيد كان في مقابل ذلك يحين السلطان وأسيره ، وبقي على هذا الحال حتى أصابه السرطان في فكه آخر سنة ١٨٩٦ ثم امتد إلى عنقه ، وبقي يتعرض حتى مات في يوم ٩ مارس من سنة ١٨٩٧ وقال بعض أصدقاء السيد : إن موته كان بتدبير عبد الحميد ، ثم دفن باحتفال مهيب في مقبرة المشايخ بالآستانة .

(١) أخرج جمال الدين من إيران في أواخر سنة ١٨٩٠ أو أوائل السنة الثانية . وقتل الشاه ناصر الدين في سنة ١٨٩٦ بيد ميرزا رضا الكرماني .

ونحن نجد من هذه الترجمة القصيرة الموجزة لحياة السيد أن شخصيته كانت فريدة بين شخصيات هذا الشرق الإسلامي ، فهو رجل من رجال الدين ، ولكنه يدرس إلى جانب هذه العلوم الدينية علوم الطب والتشريح والرياضة ، وهو يعرف إلى جانب لغته الوطنية الأفغانية ولغته الثقافية العربية ، اللغة الفارسية والتركية وقليلًا من الإنجليزية ، ويحسن اللغة الفرنسية^(١) وكذلك نرى أن هذه الحياة التي عاشها السيد كانت حياة فريدة بين حيوات الرجال في هذا الشرق الإسلامي من هذا العهد ، فهو رجل دين ، ولكنه يشتغل بالسياسة العامة ، ويشغل بالحرب ، حتى نرى ناصر الدين شاه الفرس يجعله وزير حربه ، ويشغل بالسياسة الشعبية ، فهو شريك في التهديد للثورة العراقية في مصر ، ومحاول أن يستفيد من الثورة المهدية في السودان ، ومتهم بالاشتراك في حزب تركيا الفتاة ، بالاستانة ، ومؤسس وموجه لجمعية العروة الوثقى في مصر وغيرها من بلاد هذا الشرق الإسلامي ، وهو يشتغل أيضًا بهذه السياسة ، الدبلوماسية ، فيفاوض الإنجليز ويفاوض الروس في شؤون المسلمين جميعاً ، وهو يمد عند توفيق أن يكون مصلحاً إذا ولى عرش مصر ويعاهده ، وهو يتخذ إلى جانب الدروس والشروح والمحاضرات وسيلة لم يتخذها رجال الدين من قبل .

فهو يحمل من الصحف ، أداة لدعوته السياسية والإصلاحية والدينية ، ويصدر في باريس مجلة « العروة الوثقى » ، ويكتب في صحف باريس مقالات تثير اهتمام الحكومات الأوروبية ، ويثير مع الكاتب الفرنسي الكبير « رينان » حواراً يشغل به المفكرين ، مدافعاً به عن الإسلام . ومقررًا صلاحيته وقابليته للعلم ولما يستجد ويفيد من حياة المدنية الحديثة : وهو رجل دين ، ولكنه رحب الفكر واسع الأفق غير متعصب لرأى ولا مذهب : يعمل لوحدة الأمم الإسلامية الدينية كما يعمل لوحدة السياسية : فقد روى مؤرخوه أنه سعى للتوفيق بين الشيعة وبين أهل السنة ، ورمى في سعيه هذا إلى هدف سياسي وهدف ديني معاً : وهو فوق هذا كله عارم الطبع يسعى سعيه إلى أهدافه متخذاً كل سبيل حتى سبيل العنف ، فيكاد يكون من المؤكد أنه شريك أو محرض على قتل

(١) ص ٨ و ١١ من كتاب الإسلام والتجديد في مصر .

شاه الفرس ناصر الدين ، وأنه سعى في بلاد كثيرة من بلاد الإسلام إلى قلب نظام الحكم التي يرى فيها تعطيلاً للنهضة . ونسب إليه أنه كان يرى جواز خلع الأمراء المسلمين الذين يمالئون النفوذ الأوربي ويؤيدونه في بلادهم . وروى « براون ، صديق جمال الدين أنه قال له ، لا أأمل في الإصلاح قبل قطع ستة رموس أو سبعة ، ^(١) وأنه سمى من هذه الرموس شاه العجم وكبير وزرائه ، وكلاهما قتل . ويقول مستر د بلنت ، إنه فكر في خلع خديو مصر أو التخلص منه ^(٢) لأنه اعتقد أن وجوده عائق عن الإصلاح .

ونرى من أخلاق جمال الدين هذه الحدة الصارمة التي جعلته يخاصم شيخ الإسلام في الأستانة ويطلب إليه أن يساجله علناً فيما يرى من رأى ، بل يطلب أن يحاكم شيخ الإسلام على أن تهجم على جمال الدين وسلط عليه الواعظين والصحف أن يسبوه وأن يتهموه بالإلحاد والزندقة . وقد انتهت هذه الحدة الصارمة وهذا اللجاج في خصومة شيخ الإسلام وحربه إلى أن يخرج جمال الدين من الأستانة كما رأينا من قبل . وكذلك نرى هذه الخلة نفسها في علاقات السيد بشاه الفرس ، وبتوفيق ، وبحكمومة الهند وإنجلترا ، وفي كل ما يتصل برأيه وجهاده .

وقد ألف جمال الدين كتابه ، الرد على الدهريين ، باللغة الفارسية حينما كان يقيم في الهند للمرة الثانية ، وقد كتب إليه صديق أن هذا المذهب الدهرى يحمى دعوة نشيطة إليه في هذه البلاد . وليس لهذا الكتاب قيمة كبيرة حتى إن كثيرين من مؤرخي جمال الدين وتلاميذه لا يذكرون نسبه إليه ، ولعله ألفه لغرض سياسى حيث نسب إلى حكومة الهند أنها تعين هؤلاء الداعين إلى المذهب الدهرى في الهند لتشغل الناس عن أمرهم وأمرها ، وانصرف المسلمين في الهند عن دينهم .

أما مجلة «العروة الوثقى» فقد رأينا أن ما كتب فيها كان للشيخ الإمام محمد عبده ، وأن السيد كانت له إدارة سياستها . وكذلك محاضراته التي ألقاها في الأستانة وهو عضو في مجلس المعارف ليست لها قيمة كبيرة حتى تلك التي أثارت شيخ الإسلام حسن أفندى فهمى .

(١) ص ١٥ من كتاب الإسلام والتجديد يدى مصر .

(٢) ص ١٥ من كتاب التاريخ العربى لاحتلال إنجلترا مصر .

فليس لهذا الكتاب ولا لهذه المحاضرات من القيمة ما يبرر هذه المسكاة الرفيعة التي وصل إليها جمال الدين ، ولا هذا الذكر الباقي له في تاريخ هذه النهضة الدينية السياسية للشرق الاسلامى .

فلم يبق إذن إلا أن يكون جمال الدين قد بلغ هذه المسكاة حياً وميتاً لذات نفسه وصفاته العظيمة الممتازة . هذه الشجاعة الأدبية والسطوة النفسية والسلطان فيما يعتقده الحق ، وهذا الإخلاص للبدأ والرأى والعقيدة ، والدؤوب فى السعى إلى تلك الغايات الكريمة البعيدة التى قصدها جمال الدين وسعى إليها ، وكده وجهده ولقى فى سبيلها العنت والتشريد والنق والتهمة والمرض : هذه الصفات وهذا الدؤوب والكدح هما اللذان جعلتا من السيد مصلحاً دينياً وزعيماً سياسياً كما وصفناه فى رأس هذين الفصلين ، وجعلت منه رائداً إماماً للشيخ محمد عبده ، ولذلك انفر القليل من المصلحين الذين لهم الفضل كله فى نهضة هذا الشرق الاسلامى العربى ، وفى هذه الثورة الفكرية التى لم تخب نارها منذ أوروها .

يقول مستر د بلنت ، فى كتابه الممتع « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » : إن جمال الدين هو أول من وجه الإصلاح الدينى فى العصر الأخير توجيهاً مشمراً ، ويرى « أن من أغرب ما يروى أن الفضل فى نشر هذا الإصلاح الدينى الحر بين العلماء فى القاهرة لا يعود إلى عربى أو مصرى أو عثمانى ، ولكن إلى رجل عبقري غريب يدعى السيد جمال الدين الأفغانى ، تلقى تربيته الدينية فى بخارى ، وبغير أن يتصل بأى أستاذ من الذين يعيشون فى مراكز الأفكار الاسلامية الراقية ، استنبط من درسه وتفكيره الآراء التى تعزى إليه اليوم (١) » .

ثم يقول مستر د بلنت ، إن دعوة جمال الدين تماثل « ما حدث من إحياء المسيحية بأوروبا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر (٢) » .

(١) ص ٧٧ من التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر .

(٢) ص ٧٨ من التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر .

دراسات للشعر في العصر المملوكي

السرقات والمعاني التي توارد عليها الشعراء

لفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف البيومي

المدرس بكلية اللغة العربية

ظاهرة أدبية من الواضح بحيث لا تخفى على النظرة العابرة ، بله العين الناقدة ، يلحظها الدارس للشعر في هذا العصر : تلكم هي السرقة ، أو التزامم على المعنى الواحد .

ولا أحسب لهذا التزامم من سبب غير نقص الثقافة وقصر الخيال ، وجذب القريحة ، وما يستتبعه ذلك من بحث عن أسباب للتفوق والإجادة قد يجدها الشاعر في الصنعة اللفظية والحلية البديعية حيناً ، وقد يجدها في توليد المعاني التي سبقه إليها غيره بالزيادة أو النقص أو النقل أحياناً ، وقد يجدها في غير هذا مما يصدق من ألوان السرقات حتى يكاد يخفى إلا على الناقد البصير .

وهكذا شاعت السرقة — كما شاع التقليد — في المعاني والأخيلة ، حتى تعدت الأموات إلى الأحياء .

فما يكاد الشاعر يُغير على معنى قديم فيجمله بحلية من حلي البديع ، أو يخفيه — وكثيراً ما يكون ذلك — في ثوب من أثواب التورية ، حتى تتلفه أيدي الشعراء بالصقل والتهذيب ، والزيادة والنقص ، وكل يحاول أن يختص به بما يلبسه من ثياب الصنعة والزخرف البديعي .

ومن العجيب أن الشعراء لم يجدوا في نفوسهم من ذلك غضاظة ، ولم يشعروا بشيء يمس كرامتهم شعراء يحسون الجمال فيعبرون عنه ، ويشعرون بالحياة فيحسنون تصوير هذا الشعور ، بل إن منهم من صرح بالسرقة في شعره ؛ فهذا ابن الوردي ، وهو شاعر مجيد ، يعلن في جرأة غريبة أنه يسرق ما أراد من المعاني ، ويعلل ذلك أو يعتذر عنه بما يذكر في هذه الآيات :

وأمرق ما أردت من المعاني فإن فتمت القديم حدث سيرى
 ولأن ساويته نظماً فحسبي مسارة القديم وذا الخيري
 وإن كان القديم أنتم معنى فهذا مبلغى ومطار طيرى
 وإن الدرهم المضروب باسمى أحب إلى من دينار غيرى
 وما ظنك بتوم بلغ من فقرهم فى المعانى ونضوب قرائحهم ولجذاب أخيلهم
 أن يمدحوا بالتقصيدة الواحدة أكثر من واحد ؟ !
 حكوا أن عويس النالية (١) « كان يفعل لك ، فلما عوقب على صنيعه قال :
 « هن أبكار أفكارى أزوجهن من شئت » .

ما ظنك بتوم هذه حالهم ؟ وما تظنهم فاعلين أمام هذا القصور الفاضح
 والعجز الشائن ؟ إنهم لا بد لاجئون إلى معانى السابطين يسرقونها سرقة مستترة
 بالتورية حيناً ، وسافرة فى أثوابها التى سرقت فيها نفسها فى كثير من الأحيان .
 وأخيراً أدت المنافسة التى كانت سوقها قائمة فى هذا العصر بين شعراء مصر
 والشام ، إلى سرقة هؤلاء من أولئك ، وأولئك من هؤلاء .

حكوا أن جمال الدين بن نباتة كان يخترع المعنى الذى لم يسبق إليه ويسكنه
 بيتاً عامراً من أبياته . فيغير عليه صلاح الدين الصفدى (٢) حتى اضطر ابن نباتة
 إلى أن يؤلف كتابه (خبز الشعير) يكشف به أمر هذه السرقة .
 قال ابن حجة وهو يتكلم على براعة الاستهلال :

وأما براعة الشيخ جمال الدين بن نباتة فى خطبة كتابه المسمى (خبز الشعير)
 فأنها خاص الخاص ، ولا بد من مقدمة تكون هى النتيجة الموجبة لتسمية هذا

(١) هو (عويس بن حجاج بن سيار) الأديب شرف الدين السعدى المعروف بعويس الصغير
 عيسى . العالية فى الشطرنج شاعر اشتهر فى المواليات ثم نظم العشر وعرف طرفاً من اللغة وشارك فى غيرها
 ولد سنة ٧٣٠ هـ وتوفى سنة ٨٠٧ هـ .

(٢) هو صلاح الدين (خليل بن أريك) الصفدى الأصل الدمشقى البدار ، من صدور العلماء
 ولحول شعراء زمانه ومتقدسى كتابه ، تولى كتابة الانشاء بمصر والشام ، وله عدة مؤلفات أشهرها
 وأعظمها (الوافى بالوافيات) كتاب تراجم يقع فى أكثر من ستين مجلداً يوجد منه مبعة عشر مجلداً
 مخطوطاً بدار الكتب الملكية ، وله (أعيان العصر) و (جناس الجناس) وعلق شرحاً على لامية العجم
 توفى سنة ٧٦٤ هـ .

الكتاب بخبز الشمير فإنه مأكول مذموم ، وما ذاك إلا أنه كان يخترع المعنى الذى لم يسبق إليه ويسكنه بيتا من أبياته العامرة بالمحسن ، فبأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدى بلفظه ولا يغير فيه غير البحر ، وربما عام فى بحر طويل يفتقر إلى كثرة الحشو ، واستعمال مالا يلائم ، فلم يسع الشيخ جمال الدين إلا أن جمعه من نظمه ونظم الشيخ صلاح الدين ، واستهل خطبته — وهذا مكان الاستشهاد لبراعة الاستهلال — بقوله تعالى « رب اغفرلى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا . ورتب كتابه المذكور على قوله : قلت أنا ، فأخذه الشيخ صلاح وقال .

ثم ذكر ابن حجة أمثلة كثيرة لذلك فى خزانة الأدب ، نذكر منها بعضا مع تعليق ابن حجة ، ليكون ذلك درسا للون من ألوان النقد فى هذا العصر .

فمن ذلك قول الشيخ جمال الدين : قلت :

ومولع بفخاخ يمسدها وشراك
قالت لى العين : ماذا يصيد ؟ قلت : كراكى (١)

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال :

أغار على سرح الكرى عندما رمى الـ كراكى غزال للبدور يحاكى
فقات ارجعى يا عين عن ورد حسنه ألم تنظريه كيف صاد كراكى
قال ابن حجة : وأحسن ما وقع فى هذا الباب للشيخ جمال الدين أنه قال :
بروحى عاطر الأنفاس ألقى على الحسن خالى الوجنتين
له خالان فى دينار خـد تباع له القلوب بحبتين
فأخذه الصلاح الصفدى وقال :

بروحى خـده المحمر أضحت عليه شامة هـرط الحجة
كأن الحسن يمشقه قديما فنقطه بدينار وحبه

فلما وقف الشيخ جمال الدين على هذين البيتين قال : لا إله إلا الله ، الشيخ صلاح الدين سرق - كما يقال - من الحبتين حبة .

(١) فى لفظ (كراكى) تورية : المعنى القريب جمع (كركى)

وبعد أن ذكر ابن حجة عدة أمثلة قال : قال الشيخ جمال الدين وأجاد الى الغاية :

فديتك أيها الرامي بقوس ولحظ يا ضنى قلبي عليه
لقوسك نحو حاجبك انجذاب وشبه الشيء منجذب اليه
فأخذ الشيخ صلاح الدين وقال :

تشرط من أحب فذبت وجدا فقال وقد رأى جزعى عليه
عقيق دمي جرى فأصاب خدي وشبه الشيء منجذب اليه
ثم قال ابن حجة يوازن بين المتطوعتين وهو لون من ألوان نقده :

وما أظن الشيخ صلاح الدين - غفر الله له - لما سمع ما قال الشيخ جمال الدين ونظم بعده هذين البيتين ، كان في حين الاعتدال ؛ وأين انجذاب القوس الى الحاجب من انجذاب الدم الى الخد ؟ وليته - يعني ابن نباتة - في براعة استهلاله بقوله : رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا ، قال بعدها : اللهم ومن دخل بيتي كافرا بفوائدي المنعمة ، وبيت شعري سارقا من ألفاظه ومعانيه المحكمة ، فاجعله في سره وعلايته ، وعاقبه على قوله ونيته !

وإنه وإن كان الصفدي قد أغار على معاني ابن نباتة ، قد سنّ ابن نباتة هذه السنة وسلك تلك الطريق من قبل ، فأغار على معاني (الوداعي) ^(١) الذي يذكر أن سبك التورية في قوالب لم يسبقه أحد إليها ، ولا سقط فكره عليها ^(٢) ، فمثل لنا بهذا سرقة المصريين من الشاميين ، كما مثل لنا الصفدي إغارة الشاميين على معاني المصريين .

فن مؤائد الوداعي التي تطفل ابن نباتة عليها قوله من قصيدة :

أثخن عيني الجراح ولا إثم م عليها لأنها نعاء
زاد في عشقها جنوني فقالوا : ما بهذا ؟ قلت : بي سورا

(١) هو الأديب الشاعر (علاء الدين علي بن المظفر بن إبراهيم بن عمر) الكندي الوداعي ، تولى عدة ولايات وكتب بديوان الانشاء بدمشق ، ولد سنة ٦٤٠ هـ وتوفي سنة ٧١٦ هـ .

(١) ابن تغري بردي بالمثل الصافي في ترجمة الوداعي .

(٢) هو القاضي الفاضل أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن اللخمي اليسياني ثم العسقلاني ثم المصري محي الدين ، وقيل مجير الدين الوزير صاحب ديوان الانشاء وشيخ البلاغة ، ولد سنة ٥٢٩ هـ .

أخذه ابن نباتة فقال وهو مطلع قصيدة :

قام يرنو بمقلة كحلاء علمتى الجنون بالسوداء

وقال الوداعى :

إذا رأيت عارضا مسلسلا فى وجنة كجنة يا عاذلى

فاعلم يقينا أننى من أمة تقاد للجنة بالسلاسل

أخذه الشيخ جمال الدين وزناً وقافية وقال :

أفدى التى ساق إليها مهجتي فرع طويل تحت حسن طائل

قلبي بصدغيها الى طلعتها يقاد للجنة بالسلاسل

وقال الوداعى من قصيد :

يفتن بالفاتر من طرفه ويريقه البارد يا حار

أخذه ابن نباتة وقال من قصيد :

لو ذقت برد رضاب من مقبله يا حار ما ملت أعضائي التى ثملت

قال ابن حجة : مع أن الشيخ جمال الدين فتر عن الفاتر ، يتصد الفاتر من طرف المحبوب فى بيت الوداعى .

وقد ذكر ابن حجة الكثير من تطفل ابن نباتة على الوداعى بالخزانة ولأنه ليخيل الى من يقرأ كل هذه السرقات التى سرقها ابن نباتة من الوداعى ، والتى عرضنا لبعضها ، والتى سرقها من غيره مما تزخر به كتب الأدب ، أن هذا الشاعر الذى سارت ملوك الأدب قاطبة بعد الفاضل خلف ركابه وتحت لوائه - لم يأت فى شعره بجديد . وإذا كانت هذه هى حال الملوك فما هى إذن حال الوزراء والأمراء ورجال الحاشية ؟ بل ما هى حال الرعايا والسوقة ؟ ! إنها حال مزرية حقاً ، مزرية بقدر الشعر وبكرامة الشعراء ، أن يغيروا هذه الإغارات الفاحشة على بضاعة الأحياء بعد تقليدهم التقليد ^(١) الفاضح الشائن لطرائق القدماء ؟

(١) ربما عرضنا لدراسة هذا التقليد فى مبحث خامس .

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْوَى

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الازهر الاستفتاء الآتى :

- ١ — يحلف غالب الزراع بالطلاق خارج المنزل أثناء العمل بالحقل أنه لا يفعل كذا ثم يفعله ؛ هل يقع أم لا ؟
 - ٢ — التغنى والترنم بالأذان والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم عقبه بالتغنى جهرا كما يفعله غالب المؤذنين ؛ هل ذلك جائز أم لا ؟
 - ٣ — ما حكم الجهر فى المسجد بتسبيح أو قراءة قرآن خصوصا سورة الكهف يوم الجمعة ؟ كما أن غالب المقرئين لا يقرءونها بل يقرءون مريم ، طه ، الضحى ، هل هذا جائز أم لا ؟
- أبو الفتوح السيد

الجواب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .
أما بعد : فتفيد اللجنة بما يأتى :

عن السؤال الاول :

إن الصيغة التى تجرى على السنة العامة بما هو مذكور بالسؤال ، من قبيل الطلاق المعلق الذى لا يقع بوجود المعلق عليه إذا كان قصد الخالف مجرد الحمل على فعل شيء أو تركه . وظاهر أن العامة لا يقصدون بهذه الايمان إلا مجرد الحمل على فعل شيء أو تركه ، فلا يقع بها طلاق . وهذا على ما ذهب اليه بعض العلماء ، وجرى عليه قانون المحاكم الشرعية ، وهو ما تفتى به اللجنة .

عن السؤال الثانى :

لأنه لا يجوز التغنى بالأذان تغنيا يغير كلماته بزيادة حركة أو زيادة حرف أو مد أو غيرها فى الأوائل أو الأواخر . أما التغنى بلا تغيير لحن ، لأن تحسين الصوت مطلوب .

وأما الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عقب الأذان فهي زيادة على الأذان المشروع : ولم تكن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا في عهد الصحابة والسلف ، رضوان الله عليهم أجمعين . ولا ينبغي لمسلم أن يغير ما كان عليه الرسول وأصحابه ومن تبعهم بإحسان في العبادات التي منها الأذان ، لا بزيادة ولا بنقص ولا بغيرهما ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » .

هذا وقراءة سورة الكهف كما هو معهود الآن في المسجد يوم الجمعة بصوت مرتفع قبل صلاة الجمعة ، بدعة مستحدثة ، لم تعرف في عهد الرسول عليه السلام ولا في زمن الصحابة والسلف الصالح . ويظن العامة أن قراءتها بهذه الكيفية وفي ذلك الوقت من شعائر الإسلام فهي مكروهة ، لا سيما أن قراءتها على هذا الوجه تحدث تشويشا على المصلين . وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يصلون ويحجرون بالقراءة فقال : « أيها الناس اكلكم يناجي ربه ، فلا يجهر بعضهم على بعض » . وكذلك الحكم في قراءة غير سورة الكهف من القرآن ، وفي الجهر بالتسبيح أو التهليل ، مما يحدث تشويشا على المصلين . بل نص بعض علماء المالكية على أن ذلك إذا أحدث تشويشا كان حراما .

أما الجهر بالذكر عقب انتهاء الإمام من الصلاة المفروضة ، فقد صح عن ابن عباس أن رفع الصوت به كان على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى قال ابن عباس « ما كنت أعرف انقضاء صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالتكبير » . وهذا واضح في مشروعية الجهر بالذكر في هذا المقام .

وحل الإمام الشافعي رحمه الله ما صح عن ابن عباس على أنه كان يقصد التعليم . والظاهر الإطلاق ، سواء قصد به التعليم أم لا . ولكن بشرط ألا يحدث بذلك تشويش على من يكون في الصلاة . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

عبد المجيد سليم

من تاريخ الحضارة الإسلامية :

عباس بن فرناس

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي

« عبقرية الفكر الإسلامي ، ومفخرة الشرق
السائرة ، وحديث الإنسانية الأولى ، وأول
طيار ركب متن الهواء . »

١ — يؤمن كثير من الناس بأن الشرق موطن الخيال ، ووادي الأحلام
والسحر ؛ وأن الفكر الإسلامي من نبتة الفكر السامي ، فيه اضطراب الفكرة ،
والعجز عن إدراك الحقيقة في جوهرها ، والتنوع بالبحث في حواشيها ومظاهرها .
ويقولون إن الحضارة الإسلامية حضارة عقيمة ، لم تُسدِّ للإنسانية يداً ،
ولم ينثُرْ بحملٍ منها جيد . فالجل هو الجل ، مركب البداوة ، ومطية الحضارة
الإسلامية ؛ والمصباح هو المصباح ، زيت وقيل : استضاء به المسلمون في أزهى
عصورهم ، كما استعمله الإنسان منذ فجر عصور التاريخ . والماء هو الماء ،
تجرى به الأنهار ، وتغصُّ به الأودية ، ويحمّله المسلمون على ظهورهم وفوق
متون رواحلهم كما كان يصنع القدماء . والفنُّ هو الفن ، لم تنبغ فيه في الإسلام
يد صناع ، ولا روح ملهم ، ولا عبقرية خالدة ؛ وأين لنا في الفن الإسلامي
ما نفاخر به معابد أثينا ، وصروح روما ، وفن الكاسرة ، وأهرام الفراعين ؟
والعلم هو العلم ، كما خلفته مدارس الإغريق ، ومعاهد الرومان وجامعات
الاسكندرية وجنديسابور وحرّان ونصيبين .

ونقول لهؤلاء الشاكين : رويدكم ، رويدكم ! لقد عافت الحضارة الإسلامية
ركوب الجل ، فحافات تذليل الهواء ، وأُنفتْ من هذا الفراس النضليل ، فتخذت
الثريات المشرقة في القصور والمساجد وعلى حفاّفي الشوارع والميادين . وأبت
أن تعيش في نصَب البداوة ، فأدخلت الماء العذب في أنابيب الرصاص إلى

القصور والحمامات والرياض ، وفجرت من ثغور التماثيل الفنية الرائعة المصنوعة من الذهب الأبريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المموه ، ، وأجرته الى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الجميلة ، في أحواض الرخام المرمرية المنقوشة العجيبة . والفن الاسلامي أمامكم فانظروه : في آثار بغداد وقرطبة والقاهرة ودمشق وسواها ، وفي قصور الزهراء والحمام ، ومساجد الشرق العظيمة الشاحنة التي تسخر بالزمن وتبسم في وجوه الأيام ، وإذا لم يسعدكم الوقت والحظ بالاطلاع على التراث العلمي المجيد الذي خلفه رجال الفكر الاسلامي ، فاقروا ما يكتبه عنه المنصفون من الشرقيين والغربيين . والنهضة الاسلامية في الاقتصاد والزراعة والصناعة والتجارة ، وفي الإدارة والسياسة ، والطب والعلاج ، وفي جميع ميادين النشاط الانساني : لا تتعجلوا بالحكم عليها قبل أن تتعرفوا مدى ما وصلت اليه من عبقرية وقوة ومدنية .

فليتقدم هؤلاء في الحكم على حضارة أظلت العالم أحقاباً طوالاً ، ونقلت جميع الحضارات القديمة - بعد أن هضمتها وهزبتها ووجهتها توجيهاً جديداً - الى العالم في أول عصر النهضة الحديثة ، وكانت السبب المباشر في قيام الحضارة الاوربية التي يضئ نورها الدنيا الآن تحت قيادة كميونر علوم راسدي

هذه نظرات عابرة أكتبها تمهيداً لبحثي عن أبي القاسم « عباس بن فرناس » ، مفخرة الشرق ، والمفكر العظيم الذي رددت ذكره الأجيال .

٢ - نشأ « عباس » في بلاد الاندلس في أوائل القرن الثالث الهجري : والدولة للأمويين أحفاد الداخل البطل الأموي الكبير .

وكان لابد له - ككل شاب طامح - أن يرد مناهل العلم ، ويندب فكره وعقله بالثقافة الإسلامية في مساجد قرطبة ودور العلم فيها ؛ فتلذذ على رجال العلم ثم أعلام الفلسفة الذين كانوا يفكرون ويبحثون ويستنبطون في خفية بعيداً عن عيون الناس والجمهور ممن لا يستسيغون التفكير الحر ولا يشجعون عليه .

ثم خرج « عباس » الى الحياة العامة ، شاباً متأثر الفكر ، متأجج العزيمة ، مشتعل الذكاء ؛ لا يريد أن يفكر كما يفكر الناس ، ولا أن يعيش كما يعيشون ، ولا أن يُعنى بما يعنون به ؛ بل أراد أن يفكر كما يجب أن يفكر ، وأن يستنبط ويخترع ويحدد

كما شاء له عقله وقواه الفكرية السكامة فيه . ولم تكن آمال « ابن فرناس » ، وأفكاره من خيالات الشباب وأكاذيب النفس ، بل كانت مظهرًا لعقلية مبدعة ، وتفكير سليم .

٣ — وبعد قليل تمكن هذا الذهن الحاد التوى من استنباط طريقة لصنع الزجاج من الحجارة ، فكان أول مبتكر لهذه الطريقة الجديدة ، التي نسير على أثرها في شيء من التجديد والدقة والسرعة .

ثم أخذت نفسه تحدّثه : كيف نعيش دون التفكير في اختراع شيء جديد يعرف به حساب الدقائق والساعات والأيام ؟ إن اختراع الشرق الساعات المائية ، فليخترع هو ما تفخر به الأندلس والأندلسيون : وفعلًا تم له ما أراد ، فاختراع آله البديعة ، المنقالة ، التي صنعها على غير مثال لمعرفة الأوقات .

٤ — وحول « ابن فرناس » فكره من جديد إلى ملكة النور . أياضل هذا الأفق الفسيح ، والجو الرخب ، ميدانا للطيور ترفرف بأجنحتها فيه ، ناعمة بجماله ؟ ولم لا يشاركها فيه الإنسان ؟ هذه الطيور ، أليست تطير بجناحين ، يساعدهما ريش كثيف ، فلم لا يكون لابن فرناس جناحان ممدودان وريش منتشر على جسده ليطير كما تطير النور في الهواء ؟

وأخذ يكسو نفسه بالريش ويمدّ له جناحين ، ثم كان يوم المحاولة الخطيرة الفريدة ، التي هي أول محاولة بشرية للطيران : فاجتمع الناس من كل حدب ، ليروا هذا الرجل كيف يفتح هذه الآفاق الجديدة أمام الإنسان .

وحرك عباس جناحيه ، ونشر ريشه ، وأخذ يداعب الهواء : فارتفع في الجو ، وطار مسافة بعيدة ، والناس في أماكنهم ينظرون ويعجبون ويسخرون . ثم كان لابد لهذا الطائر أن يهبط إلى الأرض ، فهبط رويدا رويدا ، حتى قرب منها ، فلم يستطع حفظ توازنه ، فسقط مصابا برضوض في جسده .

لقد نظر « ابن فرناس » إلى جناحي الطائر وريشه ، فأمن بأنهما وسيلة في الطيران ، ولم ينظر إلى ذيله ليعرف مدى مساعدته له في طيرانه وحفظ

توازنه وحين هبوطه الى الارض : فلم يصنع له ذيلا كما صنع ريشا وجناحين ، فأصبحت التجربة بإخفاق ما كان أجدره ابن فرناس ، أن يتلافى سببه .

عجب الناس ، وسخروا من « عباس » ، وهزئوا به ، ونظم الشعراء الشعر في السخرية والتندر عليه . وهكذا شأن العبقرين في كل جيل ، يسبقون زمنهم فلا يفهمهم الناس ولا يفهمونهم ، بل ويعادونهم عداة شديدا .

قد يكون نقد الناس وسخريتهم سببا لإحجامه عن إعادة التجربة من جديد ، وقد يكون الباعث على ذلك جهله بسبب إخفاقه في محاولته الأولى وخوفه على نفسه أن تلاقى صدمات جديدة ، وقد يكون الصارف له ما أصيب به من جروح دامية أثرت في صحته .

وعلى أى فرض ، فما كان أقرب « ابن فرناس » إلى الظفر بأمنيته ، وإلى غزو هذا الأفق الجديد وتسخيرها للناس . ولو فعل ذلك لانقلبت الحياة ، وتغير مجرى الحضارة ، ولسجلت الحياة لعباس بن فرناس هذا النصر الذى سجلته بعد أكثر من عشرة قرون « للأخوين رايت » .

هـ — لم يسكن هذا الفكر النائر ، والعقل الجبار . بل أخذ يعمل ويتكر ، حتى تمكن من وضع صورة في بيته ، تمثل هيئة السماء ، يخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والرمود والبروق ؛ فعجب منه بعض الناس ، وسخر به الآخرون . ويقول فيه مؤمن بن سعيد الشاعر الأندلسي :

سما عباس الاديب أبى ا لقاسم ناهيك حسن رانقها

.....

وهكذا قضى « ابن فرناس » حياته في تجديد وابتكار ، في سبيل خدمة الحضارة ، والرقى بالحياة الإسلامية في عصره .

٦ — وكان مع هذا موسقيا بارعا ، يعد أول من فك كتاب بطليموس في الموسيقى والألحان ، وأول من فك من الأندلسيين كتاب العروض للخليل ابن أحمد .

٧ - وهو مع هذا النبوغ شاعر أديب : اتصل بالأمير الأموي حاكم الأندلس محمد بن عبد الرحمن ، الذي اعتلى عرش البلاد من ٢٣٨ هـ الى ٢٧٣ هـ : فكان له عنده مقام نبيل ، ومدحه بتصانيد أدبية كثيرة :

أنشد الأمير محمدًا من أبيات :

رأيت أمير المؤمنين محمدًا وفي وجهه بذر المحبة يشمر
فقدته مؤمن بن سعيد ، وعابه أن جعل وجه الأمير أرضًا تغرس فيها البذور .
وخرج أهل طليطلة حوالى عام ٢٤٠ هـ على الأمير محمد واستعانوا بالافرنج ،
فخرج إليهم بجيوشه وهزمهم وهدم قنطرة مدينتهم : وفي ذلك يقول ابن فرناس :
أضحت طليطلة معطلة من أهلها في قبضة الصقر
تركت بلا أهل توهلها مهجورة الاكناف كالقبر
ما كان يبقى الله قنطرة نصبت لحمل كتائب الكفر
وغنى ابن زرياب بعض الرؤساء ، وعباس بن فرناس حاضر معه ، هذين
البيتين :

ولولم يشقنى الظاعنون لشاقتني قنطرة حمام تداعت في الديار وقوع
تداعين فاستبكين من كان ذاهوى نوائح ما تجسرى لها دموع
فدليلهما « عباس » ، يمدح هذا الرئيس وكان اسمه محموداً :

شدت بمحمود يدى حين خانها زمان لأسباب الرجاء قطوع
بنى لمساعى الجود والمجد قبلة إليها جميع الأجودين ركوع
فأجزل له العطاء ، وأسنى له المكافأة :

وبعد ابن فرناس من أوائل من اخترعوا فن الموشحات ، وله القليل منها ،
مما بقى من أدبه محفوظا في كتب الأدب الأندلسي ومصادره .

٨ - وبعد فهذه صورة مصغرة لهذا الرجل ، الذى لثم بحق حكيم الأندلس ،
والذى شغل الفكر الأندلسي حيا وميتا ، وكان أول من فكر فى الطيران ، والذى
مضى على وفاته أحد عشر قرنا من الزمان أو يزيد . وكما أود أن أعاود الكتابة
عنه مرة أخرى ؟

المبادئ الاشتراكية في الاسلام

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

يتحدث الشرق اليوم عن الاشتراكية جهارا نهارا بعد أن كان يتحدث عنها بين أروقة جدران كشيقة، والفضل في ذلك يرجع إلى الحرب الأخيرة وما صححته عن موقف الاشتراكية حيال نظام المجتمعات، وعن الغاية التي ترمى إليها.

والمذهب الاشتراكي كأي مذهب اقتصادي يضع أسسا جديدة يسير عليها المجتمع. وكأي مذهب على ازدهار في ربوع الغرب، ثم انتقل إلى الشرق فوجد مؤيدين ومعارضين، أقول إن المذهب الاشتراكي وجد عند الشرقيين كما هي العادة عندهم من يعقد المقارنة بينه وبين النظم الاسلامية، ويبين موقف الإسلام منه، ومدى اتفاق الاشتراكية مع روح الدين وجوهره، بل إن منهم من قال إن النظام الاشتراكي موجود في الشريعة وفي النظم الاسلامية بخلافه، ومنهم من قال بعكس ذلك؛ وظلت هذه الأقوال تتأرجح تارة نحو اليمين وتارة نحو اليسار، إلى أن أدلى صاحب القول الفصل في مسائل الإسلام برأيه في هذا الموضوع^(١) ولأول مرة رأيت مجلة الأزهر تنشر مقالاً بعنوان «الإسلام والاشتراكية»، فوددت أن أشارك برأيي في هذا الموضوع بنشر بحث صغير على هامش رسالتي الجامعية، وأبلى أكون بلشره قد وضعت في بناء العلم لبنة.

نبذة تاريخية

ولدت الاشتراكية يوم أن ولدت الرأسمالية، دون أن تسمى باسمها، ولم يحس بها الناس إلا يوم أن اصطدمت حاجات الإنسان مع المصلحة الرأسمالية، ولقد كانت هذه الاصطدامات منذ العصور الأولى للتاريخ، فأراد البعض أن يحقق رغبة في المساواة بين الأفراد. وبكفي أن نذكر آيتين من كتاب أعمال الرسل

(١) إشارة إلى حديث فضيلة الأستاذ الأكبر لسعادة وزير المجر المفوض في مصر، وتعليق سعادة الأستاذ الجليل مدير المجلة عليه في المجلد التاسع عشر عنه ١٣٦٧ العدد السابع.

لبولس الرسول لتعرف أن العالم قد حقق معنى الاشتراكية قبل ميلاد المسيح بقرنين . ففي الإصحاح الثاني يقول « وكانت عجائب وآيات تجري على أيدي الرسل ، وجميع الذين آمنوا كانوا معاً ، وكان عندهم كل شيء مشتركاً ، والأملاك والممتلكات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع ، كما يكون لكل واحد احتياج » . وفي الإصحاح الرابع يقول « وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ، ولم يكن أحد يقول إن شيئاً من أمواله له . بل كان عندهم كل شيء مشتركاً ، وبقوة عظيمة كان الرسل يؤدون الشهادة بقيام الرب يسوع ، ونعمة عظيمة كانت على جميعهم ، إذ لم يكن فيهم أحد محتاجاً ، لأن كل الذين كانوا أصحاب حتمول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأخذون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل ، فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج » .

ولقد حاول بعض الفلاسفة من قديم الزمان أن يضعوا نظماً عامة للمجتمع ، يفترضون فيها العدالة المطلقة والمساواة في الحقوق والواجبات ، ولكن هذه النظم كان فيها للخيال نصيب كبير . وإذا رحنا نحن لمرض صوراً لبعض تفكيرهم فلا بد أن نرجع إلى الدولة التي ازدهر فيها الفكر القديم ، وحاول أن ينفذ إلى صميم المشكلات يلتمس لها حلولاً ، ونعني بها دولة اليونان القديمة ، فنجد أفلاطون في كتابيه الجمهورية والقوانين يبغي دولة يلغى فيها نظام الملكية الفردية ، وتلغى فيها أنظمة الأسرة ، وبذلك تصبح الأموال والنساء والأطفال ملكاً للجميع ، ليتحقق غرض أفلاطون الأكبر ، وهو أن تصبح المدينة أسرة واحدة وإن لم ينصح أستاذ المعلم الأول بإلغاء نظم الزواج إلا في طبقة واحدة من طبقات المجتمع .

هذا هو أساس فكرة أفلاطون ، ومنها نرى أن الواقع المحسوس لم يكن له مجال عند الفيلسوف ، بل أراد أن يرسم بقلبه ما تناه في صميم قلبه ، والحال التي يبغي أن يكون عليها المجتمع ؛ ولكن أفلاطون بعد أن صدمه الواقع المحسوس في تجربته عاد فعدل عن فكرته وخفف من شيعيته ، فتمال بتقسيم الأموال الموجودة بالتساوي على الأفراد ليستغلوها على أن تستمر ملكيتها للدولة ، ويمكن أن يرث أولاد المستغل حق الاستغلال ؛ كما رجع عن قوله في إلغاء نظم العائلة واحتفظ بنظام الأسرة ، بشرط أن يتم الزواج تحت رعاية الدولة .

وفي القرون الوسطى نجد الفلسفة المسيحية تقول: إن الخطيئة الأولى لا تزال لها آثارها الفعالة في حياة الناس؛ فالظلم والاستعباد قائم، وحب الشهوات والماديات يسود عوضاً عن الفضائل، وربما كانت الملكية الفردية أساساً مساعداً بجوار الخطيئة الأولى لهذا البلاء القائم واقدياً، والذي ينجم عنه عدم المساواة. حقاً إن المسيحية لا تلغى الملكية الفردية، وإنما تريد ملكية في مصلحة المجموع حتى يرفع البؤس والشتاء عن الناس، فهي تريد مجتمعاً تضعف فيه الأنانية. ولقد بالغ بعض المنكرين ووصف ذلك بالاشتراكية، وهي على كل حال وإن لم تكن من قبيل الاشتراكية الحديثة إلا أنها تقرب من اشتراكية الإسلام المعتدلة، كما سنعرف ذلك بعد قليل.

وعلى أثر انهيار النظام الإقطاعي في أوروبا في العصور الوسطى، ابتداءً بالتصادم بين الرأسمالية والطبقة العاملة، وكان ذلك في أواسط القرن الخامس عشر، ولما ظهرت فكرة إلغاء الملكية في ذهن العالم الإنجليزي توماس مور وسجلها في كتابه « الأتوبيا Utopia » وكانت هذه الفكرة نتيجة للشعور بالفارق العظيم بين طبقة الملاك وهم اللوردات ورجال الدين، وبين الفلاحين، ولكن أتوبيا مور كانت كمدينة أفلاطون حلماً يصعب تحقيقه، ولقد ظل هذا الحلم يتردد في ذهن الجماعات، فأخذ العمال يفضلون شيئاً فشيئاً عن السادة ويزالون أعمالاً يدوية، ثم أخذوا يتجمعون في جماعات، كل أبناء حرفة معاً. ثم أخذ حلم توماس مور يتحقق شيئاً فشيئاً على مدى أربعة قرون حتى كان القرن التاسع عشر، فوقفت الأحلام على قدميها نظاماً شيوعياً ونظاماً اشتراكياً.

والواقع أن الفكرة الشيوعية والفكرة الاشتراكية كما نسمع عنهما اليوم نبتت في الأتوبيا التي قال بها توماس مور، وبدأت تنضج على القرون، إلى أن كان نضوجها الكامل نظرياً وعملياً على يد لينين الذي يعتبر الصدى الحقيقي لمور.

وبعد الثورة الفرنسية وتطور الصناعة دخل الناس في عهد جديد، وظهرت في فرنسا نظريات ترمي إلى تنظيم العلاقات في الجماعة، فدامت الثورة قد كفلك لهم المساواة فلا بد من تحقيقها فعلياً. ولقد حاول سان سيمون أن ينظم الإنتاج الصناعي، لأن الصناعة في ذلك الوقت كانت كل شيء، وقال بقيام حكومة صناعية

مكان الحكومة السياسية ، لتحقيق مبدأ العدالة الذي يقول : لكل تبعاً لكفاءته ، ولكل كفاءة أو مقدرة تبعاً لأعمالها .

وفي الوقت الذي قامت فيه دعوة سان سيمون في فرنسا ، قامت في إنجلترا ما يسمى اشتراكية الجمعيات ، وحمل لواءها « روبرت أوين » في إنجلترا ، وشارل فوربيه ، في فرنسا ، ولقد كان لروبرت أوين مصانع ، فأنشأ فيها مساكن وحدائق للعمال ، وأسس لهم صناديق ادخار ، وخفض ساعات العمل ، ولم يحاول فوربيه إلغاء الملكية الفردية ، وإنما حاول توحيد الإنتاج ليصبح للمالك وصاحب رأس المال والعامل نصيب متناسب في المنتجات مع نصيبهم في الإنتاج .

ويطول بنا المقام اذا نحن حاولنا أن نقف عند كل صاحب دعوة اشتراكية نلخص أساس مذهبه ، ويكفي أن نختم تلك النبذة التاريخية برسول الاشتراكية في العصر الحديث ، ألا وهو « كارل ماركس » ، وهو الذي بدأ الاشتراكية من يوم دعوته عهداً جديداً ، إذ تنتقل من الخيالية الى العملية ، والواقع أن مقام كارل ماركس في عالم الاقتصاد والاجتماع كمقام أرسطو في عالم المطلق ، فليس من شك أنه كانت هناك أفكار تداولها الناس من قديم الزمن ، وهي أفكار تمت بطبيعتها الى الأنظمة الاشتراكية كما وجدناها عند أفلاطون وغيره من الفلاسفة ، ولكن العلماء لا يعتبرون مثل هذه الأفكار مكونة لنظام كامل يسمح ان يسمى مذهباً اشتراكياً ، الى أن جاء عالم جمع شذور هذه الأفكار المتفرقة ، وحاول أن يوفق بينها وأن يلائم بين أجزائها ، وأضفى عليها بعض التجارب التي حدثت خلال التاريخ ؛ وجمع كل ذلك تحت ضوء الفكر العلي المظم بحيث بدت هذه الأفكار مكونة لجسم مذهب علي ، وهذا العالم هو : كارل ماركس .

ولقد قام مذهب ماركس نتيجة لفشل المذهب الحر في التجارة الذي نادى به آدم سميث في إنجلترا وفولتير وروسو وجماعة الفيزوكراث في فرنسا ، والذي كان شعاره « دعه يعمل دعه يمر » ، وكان من أثره ظهور فئة الأغنياء الرأسماليين الذي ساعد على توسيع الشقة بينهم وبين الفقراء ظهور الثورة الصناعية واختراع الآلات ، ولقد أسس ماركس مذهب الاقتصادى على أساس المادية التاريخية . ويتلخص في أن المصالح المادية هي التي تحرك الأفراد ، فجميع التطورات والتقلبات التي تصيب المجتمع ترجع الى كفاح الطبقات لتحسين حالها ، فلقد

قامت المنازعات في القديم بين الأرقاء والسادة الى أن تحرر الأرقاء وأصبح لهم حق الحياة، وحديثاً نرى الثورات تقوم لتوفر للطبقة الدنيا حياة رغدة، وسيستمر هذا النزاع حتى يأتي اليوم الذي يتلام فيه نظام الملكية مع نظام الانتاج، وبذلك تصير الملكية اشتراكية .

الاشتراكية الحديثة :

إذا كان معنى الشيء يتبين في خلال العرض التاريخي له ، فإننا نرى أن الاشتراكية بمعناها العام هي فكرة ومذهب لتنظيم الدولة والمجتمع ، وهي تبغى تحقيق المساواة بمعناها الحقيقي ، ولكن كيف يمكنها تحقيق ذلك ؟ إن التاريخ قد سجل الحوادث الدامية في سبيل الحصول على المال والعقار والاحتفاظ به ، وإن المتأمل لصفحاته ليروعه ذلك الظلم الذي أوقعه الأغنياء بالفقراء وبالتحكم فيهم ، فما العمل ؟ إن الذي يميز الناس بعضهم عن بعض هي الملكية الفردية . إذن ففي إلغائها تحقيق للمساواة ، وهذه الرأسمالية التي هي في صميمها إيثار وتحكم من الأقلية في الأغلبية ، والتي قال عنها لينين إنها أعلى مراتب الاستعمار ، في إلغائها العدل كل العدل . هذا هو المبدأ العام للاشتراكية تتفق فيه كل علمائها وإذا كانت المذاهب الاشتراكية تختلف فيما بينها ، فإنها تتفق أيضا في الغايات التي ترمى إليها ، فكلها تتفق على أن النظام الاقتصادي الحالي نظام غير عادل ، ولا بد من مساواة اقتصادية بين جميع الأفراد بلا تمييز في القومية أو الجنس أو السن ، ونظام الملكية الخاصة في نظرهم أساس للاستعباد السياسي والاخلاقي والفكري ، فلا بد من إلغائه وجعل ثروات الانتاج موحدة جميعها في أيدي الدولة تديرها لمصلحة الجميع ، والأفراد يؤدون أعمالا للدولة نظير أجور تعطى لهم بالتساوي ، على أساس قيمة العمل الذي يذجه كل منهم ، والمستنون والضعفاء والمرضى الذين لا يستطيعون أن يؤدوا عملا على المجتمع أن يعولهم ويوفر لهم أسباب الراحة . كذلك يجب أن يكون التعليم مجانا للجميع ، والمهم أن هذه الغايات يجب أن تقوم دولة اشتراكية لتنفيذها ، وهي المالكة الوحيدة لجميع الثروات ووسائل الانتاج ، وهي التي تتولى استثمارها ، فتدير المصانع والمناجم ووسائل المواصلات والنقل ، وتشرف على تربية الفرد ومده بسائر حاجاته .

عظّات

من التّاريخ

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز السيد موسى

واعظ القاهرة

نشرت في مجلة الأزهر كليات من التاريخ عن حياة القاندين أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد، واستتبع الحديث عنهما طرفاً من الحديث عن الخليفتين العظيمين أبي بكر وعمر، وسجل التاريخ بين هؤلاء الأربعة وثائق تاريخية في الفتوحات الشامية، فندى أن تأتي بها لما فيها من العظّات البالغة والتعاليم الحازمة.

رسالة من أبي بكر إلى أبي عبيدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله بن عتيق بن أبي قحافة إلى أبي عبيدة ابن الجراح . سلام الله عليك . أما بعد ، فقد وليت خالداً قتال العدو في الشام ، فلا تخالقه ، واسمع له وأطع ، فإنّي وليته عليك وأنا أعلم أنّك خير منه ، ولكن ظننت أنّ له فطنة في الحرب ليست لك . أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد . »

وكتب خالد من الحيرة إلى أبي عبيدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى أبي عبيدة بن الجراح . سلام الله عليك . أما بعد ، فقد أتاني كتاب رسول الله يأمرني بالسير إلى الشام والقيام على جندها والتولي لأمرها ، والله ما طلبت ذلك قط ولا أردته إذ وليته ، فأنت على حالك الذي كنت عليه ، لا نعصيك ولا نخالفك ، ولا نقطع دونك أمراً ، فأنت سيد المسلمين ، لا تنكر فضلك ، ولا نستغنى عن رأيك . »

مات أبو بكر قبل واقعة اليرموك بعشرين ليلة ، وبويع بالخلافة من بعده عمر بن الخطاب ؛ وبينما واقعة اليرموك قائمة على قدم وساق وصل إلى أبي عبيدة كتاب قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح . أوصيك بتقوى الله الذى يبق ولا يبق سواه ، الذى هداانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور ، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد ، فقم بأمرهم بحق الذى عليك ، لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، وتنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم ، وتعلم كيف ماتاه . وإياك وإلقاء المسلمين فى الهلكة . وقد ابتلاك الله بى وابتلانى بك ، فغض بصرى عن الدنيا وأله قلبك عنها . إياك أن تهلكك كما أهلكك من كان قبلك ، فقد رأيت مصارعهم ، فلم يبلغ أبو عبيدة إلى خالد خطاب العزل والمعركة قائمة ، بل ترك الأمر على حاله حتى انتهت المعركة بقيادة خالد .

هذه وثائق تاريخية أعرضها للعظة والعبرة بما فيها من خلق عظيم ونبل كريم . فإن الخليفة الأول يكتب إلى قائد الشام وفاتحها يطلب منه التحدى عن القيادة إلى خالد فاتح العراق مع الإشادة بفضله حيث يقول له : وأنا أعلم أنك خير منه . فتقبل ذلك بصدر واسع ونفس هادئة وقلب مطمئن ، ورضى أن يكون مقودا بعد أن كان قائدا مع أسبقته فى الإيمان وأقدميته فى الجهاد فى سبيل الله .

وهذا خالد بن الوليد يكتب إلى أبي عبيدة بأنه تولى القيادة مكانه ، وهو كتاب يقدر فيه أبا عبيدة كل التقدير ، ويحله كل الإجلال ، حيث يقول له : لا نعصيك ولا نخالفك ولا نقطع دونك أمرا فأنت سيد المسلمين لا نتكبر فضلك ولا نستغنى عن رأيك . ولم يعلق بنفسه زهو القيادة ولا كبرياء الرياسة ، بل قدم على أبي عبيدة ولا شئ فى نفسه غير الإخلاص والود . وتلقاه أبو عبيدة ولا شئ فى نفسه غير الإخلاص والود ، وكل واحد تولى أمره وهو عنه راض بما هيء له .

هذه نفسية القائدين العظميين . والخليفة الأول لم يول خالد القيادة لشئ فى نفسه ، إنما كان ذلك لما يرى فيه من الدربة العسكرية والخبرة الحربية ويقصد من وراء ذلك الصالح العام . ثم دار الفلك دورته وجاءت الخلافة إلى الخليفة الثانى ، ولم يكده يضع يده على أمورها حتى أرسل رسولا إلى أبي عبيدة يخبره بعزل خالد وإسناد القيادة إليه . وصل ذلك الرسول وتسلم منه أبو عبيدة ذلك الكتاب ، وواقعة اليرموك قد حى فيها وطيس القتال ، ورأى أبو عبيدة

بحكمته السامية ونظاره البعيد أن يرجى تسليم ذلك الكتاب الى خالد حتى تنتهى هذه المعركة ، لأن هدفه المصلحة العامة ، والمصلحة الخاصة أمام الجميع لا تساوى مثقال ذرة . فهذا خالد أخذ القيادة من أبي عبيدة ، وهذا أبو عبيدة أخذها من خالد ، والصدقة هي الصدقة ، والود هو الود ، وهما الصديقان الوفيان على أى ناحية من النواحي . واسمع حديث الوفاء والود الذى جرى بينهما عند ما وقف خالد على جلية الأمر بعد عشرين يوما من وصول ذلك الكتاب : دخل خالد على أبي عبيدة فقال : يغفر الله لك جاءك كتاب أمير المؤمنين فلم تعلمنى وأنت تصلى خلفى والسلطان سلطانك . فقال أبو عبيدة : يغفر الله لك ما سلطان الدنيا أريد وما للدنيا أعمل ، وإن ما ترى سيصير الى زوال وانقطاع ، وإنا نحن أخوان ، وما يضير الرجل أن يلى عليه أخوه فى دينه ولا دنياه ، بل يعلم الوالى أنه يكون أدناهما إلى الفتنة وأوقعهما فى الخطيئة لما يعرض له من الهلكة إلا من عصم الله عز وجل وقليل ما هم . وإن الخليفة الثانى لم يعزل خالد البرية إنما عزله كما قال فى كتابه إلى الأمصار : إني لم أعزل خالدًا عن سخطه أو خيانه ، ولكن الناس فتنوا به خفت أن ياكلوا اليه ويبتلوا به ، فأجبت أن يعلموا أن الله هو الصانع والالاء يكونوا بعرض فتنة . ذلك هو السبب . وإن سيدنا عمر قدّره بعد ذلك كل التقدير ، فانه لما فتح خالد قنسرين تحت قيادة أبي عبيدة وانتهى الخبر الى عمر قال : أتمر خالد نفسه : رحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى .

كل هذا يريك رأى العين كيف محق الإسلام أخلاق الجاهلية ، وأحل محلها أخلاقا تمثل الإخاء والتحاب وعدم التجاسد . فان مثل هذا التبديل فى القيادة كان فى عهد الجاهلية يثير حربا ضروسا بين القائدين . فهذا التبديل فى الأخلاق من المعجزات التى تبقى على الدهر أدلة قاطعة على أن الإسلام دين إلهى كان له أكبر الأثر فى ترقية الإنسانية .

تلك صفحة مجيدة من مجد الاسلام ، تصور لك النفوس الطيبة والقلوب المخلصة لله وفى سبيل الله ، ولعلمها تكون عظة وعبرة لقادتنا وعظماؤنا يتخذون منها نهجا قويمًا وطريقا مستقيما يسلكونها فى حياتهم لنهضة بلادهم وإحياء شعوبهم . وبذلك تسعد الأمم وترقى إلى القمم .

الوضع في الحديث

أو الكذب على رسول الله

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد رشاد عبد الظاهر خليفة
من العلماء المتخرجين في تخصص التدريس

لا نرى أكبر جرماً بعد الكذب على الله عز وجل من يتناول على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكذب والاختلاق عليه .

وكفاه أن أعد الله له عذاباً أليماً في نار جهنم ، كما أخبرنا الصادق الأمين بقوله « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

ولقد أساء إلى السنة النبوية في عصورها الأولى أقوام أفاكون كـ محمد بن سعيد المصلوب بالشام وإبراهيم بن أبي يحيى الأسلي بالمدينة ، والواقدي ببغداد ، ومقاتل بن سليمان بخراسان والسكلي بالكوفة ، ومحمد بن زياد اليشكري ، وعبد الله بن سبأ اليهودي وأضرابه ممن تستروا بالإسلام وأخفوا وراء التشيع أغراضهم الدنيئة .

قال حماد بن زيد : وضعت الزنادقة أربعة آلاف حديث ليفسدوا على الناس دينهم .

أو للتعصب والانتصار للمذاهب كما فعل الشيعة والخوارج ، والكرامية (١) ، والخطائية ، والسالمية .

(١) الكرامية : بتشديد الراء مع فتح الكاف : قوم ينسبون لمحمد بن عبد الله بن كرام . والخطائية : بفتح الخاء وتشديد الطاء : فرقة تنسب لآبي الخطاب الأسدي ، كان يقول بأن الله حل في أناس من أهل البيت على التعاقب . ثم ادعى الألوهية . ثم قتل . وجاء أتباعه من بعده . وقالوا أبو الخطاب نبي وفرضوا طاعته بل زادوا على ذلك فقالوا الأئمة أنبياء ، والحسن والحسين ابنا الله وجعفر الصادق إله ، ولكن أبو الخطاب أفضل منه .

والسالمية : فرقة تنسب للحسن بن محمد بن أحمد بن سالم السلمي .

روى عن ابن لهيعة أنه قال : سمعت شيخا من الخوارج تاب فجعل يقول
: إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم فإننا كنا إذا هويتنا
أمراً صيرناه حديثاً . .

وهذا جابر بن يزيد الجعفي الشيعي يزعم أن عنده خمسين ألف حديث ، أو سبعين
ألف حديث يرويها عن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب .
أو للجهل الغالب ابتغاء العبادة والزهادة والتقرب من المولى عز وجل
والطمع في الثواب والترغيب والترهيب .

ومن هذا القبيل أحاديث القصاص . فقديمًا أكثر القصاص من الأحاديث
التي ليس لها أصل ، وكان ثقات المحدثين يتعرضون لتكذيبها فيتعرضون لسطط
العامّة والإيقاع بهم .

يذكر أن الشعبي في أيام عبد الملك بن مروان نزل (تدمر) فسمع شيخا عظيم
اللحية يقول : إن الله خلق صورين في كل صور نفختان : نفخة الصعق ، ونفخة القيامة .
قال الشعبي : فرددت عليه وقلت : إن الله لم يخلق إلا صورا واحداً ، وإنما
هي نفختان .

فقال لي يا فاجر : إنما يحدثني فلان عن فلان وترد علي ؟ ثم رفع نعله وضربني
بها ، وتتابع القوم على ضربا فما أقفلوا حتى قلت لهم : إن الله خلق ثلاثين صورا .

وروى الخطيب البغدادي عن محمد بن يونس قال : كنت بالأهواز فسمعت
شيخا يقص : لما زوج النبي صلى الله عليه وسلم عليا فاطمة أمر شجرة طوبى أن
تنثر اللؤلؤ الرطب يتهداه أهل الجنة بينهم في أطباق . . . ! فقلت له يا شيخ هذا كذب
على رسول الله . فقال لي : ويحك اسكت ، حدثني الناس . قلت من حدثك ؟ فروى
لنا إسنادا عن ابن عباس .

وروى عن الليث بن سعد أنه قال : قدم علينا شيخ بالأسكندرية يروي لناافع
ونافع يومئذ حي ، فكتبنا عنه صحيفتين عن نافع ، فلما خرج الشيخ أرسلنا بالصحيفتين
إلى نافع ، فما عرف منهما حديثا واحدا .

ولعمري إن هؤلاء هم أضر شيء على الدين الإسلامي من سواهم ، وأعظم خطرا عليه ، إذ يحملون العامة والبسطاء على اتباعهم والاقتداء بهم والتسك بأقوالهم التي ما أنزل الله بها من سلطان .

قال ابن الجوزي في كتابه الموضوعات : معظم البلاء في وضع الحديث من القصاص ، لأنهم يريدون أحاديث ترقق وتنفق ، والصحيح ثقل في هذا ، ولأن القصاص لا يتحرون الصواب ، ولا يحترزون من الخطأ لقلة علمهم وتقواهم ، اهـ .

وجزى الله علماء الحديث أحسن الجزاء تلقاء ما قاموا به من الجرح والتعديل ونقد الحديث وروائه وبيان الصحيح منه والموضوع ، والحسن منه والضعيف ، حتى ألفوا في هذا الغرض الموسوعات الضخمة ، والأسفار التي تنوء بالعصبة أولى القوة .

وإني أذكر لك أيها القاري الكريم طائفة منها لتكون لك مرجعا ودليلا تهتدى إليه :

فمن ذلك الجرح والتعليل لابن أبي حاتم ، وكتب الذهبي ، وهي فريدة في بابها ، وكتاب الكامل لابن عدي في الضعفاء ، وكتب الميزان للحافظ العسقلاني ، وكتاب العلل للإمام أحمد بن الحلال ، والعلل المتناهية لابن الجوزي ، والآلء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة لجلال الدين السيوطي . وغيرها مما لا يمكن استقصاؤه ولا الإحاطة به .

وبعد : فإن للحديث الموضوع علامات وقرائن يعرف بها ، كأن تظهر عليه مسحة الاخلاق ، وتشم منه رائحة الكذب ؛ وذلك بأن تأباه العقول السليمة وتنفر منه القلوب الصحيحة . قال ابن الجوزي : إن الحديث المنكر يشعر له جلد الطالب للعلم ، وينكسر منه قلبه في الغالب .

وقال الربيع بن خيثم : إن للحديث ضوءا كضوء النهار نعرفه ، وظلمة كظلمة الليل نذكره ، وطبعي أنه لا يعرف هذا إلا من له ملكة قوية في فن الحديث ، واطلاع واسع .

وإني أسوق إليك جملة من الأحاديث الباطلة التي لا كتبها السنة العوام ،
ورددتها أفواههم في الصباح والمساء . فمن ذلك :

أكرموا عمّكم النخلة - لو اعتقد أحدكم في حجر لنفعه - ضاع العلم بين أنفاز
النساء - قدس القدس على لسان سبعين نبيا آخرهم عيسى بن مريم - لا يدخل ولد
زنا ، ولا شيء من نسله الى سبعة آباء الجنة . وهذا معارض بقوله تعالى : « ولا
تزر وازرة وزر أخرى ، ومن ذلك أيضا : الأرض على صخرة ، والصخرة على
قرن ثور - عذاب أمتي في دنياها أو في قبورها - عليكم بدين العجائز .

هذه أمثلة صغيرة للأحاديث الموضوعة التي لم يقلمها الرسول عليه
الصلاة والسلام .

ومن القرائن ما يؤخذ من حال الراوى كما وقع لغياث بن ابراهيم النخعي
حيث دخل على المهدي (والد هارون الرشيد) فوجده يلعب بالحمام فساق
في الحال إسنادا الى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا سبق إلا في نصل أو
خف أو حافر أو جناح ، فزاد في الحديث أو جناح ، فعرف المهدي أنه كذب
لأجله ، فأمر بذيح الحمام . ثم قال لغياث هذا : أمهد أن قفاك لتفك كذاب .

ومنها أن يكون لفظ الحديث ركيكا أو مصادما للقرآن الكريم أو السنة
المتواترة أو الإجماع القطعي أو صريح العقل ، كالحديث الذي وضعه أحد الملاحدة
وتفوه فيه بكلام لا يصدر عن عاقل فضلا عن نبي مرسل ، فقال مسندا للرسول
عليه السلام « رأيت ربي بمنى يوم النفر على جمل أورق عليه جبة صوف
أمام الناس ، .

سبحانك هذا بهتان عظيم ، وكذب محض يصادم قول الله تعالى « ليس
كشله شيء . .

ويعرف الوضع في الحديث أيضا بأن يكون فيه وعيد شديد على ذنب
صغير ، مثل : من ترك العشاء قال له ربه لست ربك فاطلب ربا سواي .

أو فيه وعد عظيم على فعل شيء حقير ، مثل : من أطعم لئمة بنى الله له
في الجنة ألف مدينة في كل مدينة ألف بيت في كل بيت ألف حورية وصيفة .
ونحو : لقمة في بطن جائع أفضل من بناء ألف جامع .

فواجب الحكومة ومشیخة الأزهر مصادرة تلك الكتب حتى لا تفسد عقيدة العوام وتشيع بها فيها من أباطيل وأكاذيب .

وواجب على إخواننا المسلمين أن يطلعوا على كتب السنة الصحيحة كالبخارى ومسلم وسنن أبي داود والذسائي وابن ماجه والترمذی فإنها أحسن مرجع لهم بعد كتاب الله العزيز ، وفيها ما يغنيهم ويجدون فيها ضالهم المنشودة وطب قلوبهم ، وإصلاح نفوسهم .

ولا تخلو بعض كتب التفسير كالحازن والبيضاوي والكشاف من الأحاديث الواهية والموضوعة كحديث ^(١) الغرائق ، وأحاديث فضائل السور التي رويت عن أبي عصمة نوح بن مريم المروزي قاضي مرو ، فقيل له من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة ، وليس عند أصحاب عكرمة هذا ؟ فقال : إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقهاء أبي حنيفة ومغازي محمد بن اسحاق فوضعت هذا حسبة (أي احتساباً لوجه الله تعالى) .

اعلم أن السور التي صحت الأحاديث في فضلها ، الفاتحة والزهروان (البقرة وآل عمران) والأنعام والسيق الطوال بحملا (البقرة إلى آخر برامة بعد الأنفال وبرامة سورة واحدة) السكف ويسن والدخان والملك والزلزلة والكافرون ، والنصر ، والإخلاص ، والمعوذتان ، . وما عداها لم يصح فيه شيء .

رب قائل يقول : هل تحل رواية الحديث الموضوع للعالم بحاله ؟ فالجواب : لا يصح مطلقاً سواء أكان في فضائل الأعمال أم في القرآن أم في الترغيب والترهيب أم في المواعظ والقصص أم في صفات الله تعالى إلا إذا كان مقرونا ببيان الوضع ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » رواه مسلم في صحيحه .

(١) الغرائق جمع غُرُوق اسم لطائر من طيور الليل يشبه الكركي ، استعير لفظ الغرائق للأصنام وحديث الغرائق هو أنه يقال إن النبي عليه السلام قرأ في سورة النجم بمجلس من قریش بعد أن رأيت اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى بإلقاء الشيطان على لسانه من غير علمه صلى الله عليه وسلم به : تلك الغرائق العلاء وإن شاءعن لرحمى . ففرحوا بذلك .

السنة النبوية الشريفة

ومنزلتها من الدين وضرورة العمل بها

والإنكار على من ردّها

لحضرة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي

الفصل الثامن

سنة رسول الله هي الحكمة في قول الله

قال الإمام الشافعي في رسالته ص ٧٦ :

قال الشافعي : ففرض الله على الناس اتباع وحيه وسنن رسوله ، فقال في كتابه : ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ، ٢ / البقرة / ١٢٩ .

وقال جل ثناؤه : كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ، ٣ / البقرة / ١٥١ .

وقال : لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليكم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ، ٣ / آل عمران / ١٦٤ .

وقال جل ثناؤه : هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ، ٦٢ / الجمعة / ٢ .

وقال : واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ، ٢ / البقرة / ٢٣١ .

وقال : وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ، ٤ / النساء / ١١٣ .

وقال : واذكروا ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً ، ٣٣ / الأحزاب / ٣٤ .

فذكر الله الكتاب ، وودو القرآن ، وذكر الحكمة ، فسمعت من أَرْضَى
من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله .

وهذا يشبه ما قال . والله أعلم .

لأن القرآن ذكر وأُتبعته الحكمة ، وذكر الله مَنَّهُ على خلقه بتعليمهم الكتاب
والحكمة ، فلم يحز - والله أعلم - أن يقال : الحكمة ههنا إلا سنة رسول الله .
وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله ، وأن الله افترض طاعة رسوله ، وحتم
على الناس اتباع أمره ، فلا يجوز أن يقال لقول فرض إلا لكتاب الله ثم سنة
رسوله : كما وصفنا من أن الله جعل الإيمان برسوله مقرونا بالإيمان به .
وسنة رسول الله مبيّنة عن الله معنى ما أراد دليلا على خاصه وعامه . ثم
قرن الحكمة بها بكتابه فأتبعها إياه ، ولم يجعل هذا لاحد من خلقه غير رسوله . هـ .

الفصل التاسع

الحجة في تثبيت خبر الواحد

قال الإمام الشافعي في رسالته ص ٤٠١ :

قال الشافعي : فإن قال قائل : اذكر الحجة في تثبيت خبر الواحد بنص خبر
أو دلالة فيه أو إجماع ، فقلت له : أخبرنا سفيان عن عبد الملك بن عمير
عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن النبي قال :
« نضر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها ، فرب حامل فقه غير فقيه ،
ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه . ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص
العمل لله ، والنصيحة للمسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فأن دعوتهم تحيط من ورائهم .
فلما ندب رسول الله إلى استماع مقالته وحفظها وأداها امرأاً يؤديها ،
والامرؤ واحد ، كل على أنه لا يأمر أن يؤدي عنه إلا من تقير به الحجة على
من أدّى إليه ، لأنه إنما يؤدي عنه حلال ، وحرام يحتنب ، وحدث يقام ، ومال
يؤخذ ويُعطى ، ونصيحة في دين ودنيا . هـ .

وقال في ص ٤٠٦ :

أخبرنا مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : بينما الناس بقباء

في صلات الصبح إذ أتاهم آت فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه قرآن ، وقد أمر أن يستقبل القبلة (الكعبة) فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة .

وأهل قِبَاءَ أهل سابقة من الأنصار وفقه ، وقد كانوا على قبلة كَفَرَضَ الله عليهم استقبالها .

ولم يكن لهم أن يدعوا فرض الله في القبلة إلا بما تقوم عليهم الحجة ، ولم يلقوا رسول الله ، ولم يسمعوا ما أنزل الله عليه في تحويل القبلة ، فيكونون مستقبلين بكتاب الله وسنة نبيه سماعاً من رسول الله ، ولا بخبر عامّة ؛ وانتقلوا بخبر واحد — إذا كان عندهم من أهل الصدق — عن فرض كان عليهم ، فتركوه إلى ما أخبرهم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أحدث عليهم من تحويل القبلة . ولم يكونوا ليفعلوه - إن شاء الله - بخبرٍ إلا عن علم بأن الحجة تثبت بمثله ، إذا كان من أهل الصدق .

ولا ليحدثوا أيضاً مثل هذا العظيم في دينهم إلا عن علم بأن لهم إحدائه . ولا يدعون أن يخبروا رسول الله بما صنعوا منه .

ولو كان ما قبلوا من خبر الواحد عن رسول الله في تحويل القبلة ، وهو فرض ، مما يجوز لهم — لقال لهم — إن شاء الله — رسول الله : قد كنتم على قبلة ، ولم يكن لكم تركها إلا بعد علم تقوم عليكم به حجة ، من سماعكم مني ، أو خبر عامّة ، أو أكثر من خبر واحد عنى . ٥١ .

وقال أيضاً في ص ٤٥٧ :

ولو جاز لأحد من الناس أن يقول في علم الخاصة : أجمع المسلمون قديماً وحديثاً على تثبيت خبر الواحد والالتزام إليه ، بأنه لم يعلم من فقهاء المسلمين أحد إلا وقد ثبتته — جاز لي .

ولكني أقول : لم أحفظ عن فقهاء المسلمين أنهم اختلفوا في تثبيت خبر الواحد بما وصفت من أن ذلك موجود على كلهم . ٥١ .

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري الجزء الثالث عشر ص ٢٠٢ :

وقد نقل بعض العلماء لقبول خبر الواحد أن كل صاحب وتابع سئل عن نازلة في الدين فأخبر السائل بما عنده فيها من الحكم أنه لم يشترط عليه أحد

منهم أن لا يعمل بما أخبر به من ذلك حتى يسأل غيره فضلا عن أن يسأل الكواف ، بل كان كل منهم يخبره بما عنده فيعمل بمقتضاه ، ولا ينكر عليه ذلك ؛ فدل على اتفاقهم على وجوب العمل بخبر الواحد . هـ .

وقال الإمام البخارى فى صحيحه الجزء التاسع ص ٨٦ :

باب ما جاء فى إجازة خبر الواحد الصدوق فى الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام ، وقول الله تعالى « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينبذوا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » ، ٩ / التوبة / ١٢٢ .
ويسمى الرجل طائفة لقوله تعالى « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، ٤٩ / الحجرات / ٩ .

فلو اقتتل رجلان دخل فى معنى الآية .

وقوله تعالى « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » ٤٩ / الحجرات / ٦ .
وكيف بعث النبى صلى الله عليه وسلم أمراءه واحدا بعد واحد ، فإن سها أحد منهم رد إلى السنة هـ .

وقال أيضا ص ٨٨ :

حدثنى يحيى بن قزعة ، حدثنى مالك عن أسحق بن عبد الله بن أبى طلحة عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : كنت أسقى أبا طلحة الأنصارى وأبا عبيدة بن الجراح وأبى بن كعب شرابا من فضيخ ، وهو تمر ، فجاءهم آت فقال : إن الخمر قد حرمت . فقال أبو طلحة : يا أنس قم إلى هذه الجرار فاكسرها .

قال أنس : فقممت إلى مهراس لما فضربتها بأسفله حتى انكسرت . هـ .

وقال الشارح الحافظ ابن حجر فى فتح البارى الجزء الثالث عشر ص ٢٠٢ :

(الحديث الثامن) حديث أنس : كنت أسقى أبا طلحة وأبا عبيدة بن الجراح الحديث ، وفيه : فجاءهم آت فقال : إن الخمر قد حرمت ، وقد تدمم شرحه مستوفى فى كتاب الأشربة ، وإن الآتى المذكور لم يسم ، وإن من جملة ما ورد فى بعض طرقه « فوالله ما سألوها ولا راجعوها بعد خبر الرجل ، وهو حجة قوية فى قبول خبر الواحد ، لأنهم أثبتوا به نسخ الشيء الذى كان مباحا حتى أقدموا من أجله على تحريمه ، والعمل بمقتضى ذلك . هـ .

فَعَلِ الْمُؤَلِّفَانِ الْجَدِيدُ

تهافت الفلاسفة للإمام الغزالي

للإمام حجة الإسلام الغزالي كتب جمّة، منها كتاب (تهافت الفلاسفة) ضمنه ردوداً على الفلاسفة الإسلاميين الذين عبّوا من مبادئ الفلسفة اليونانية، ورموا إلى التوفيق بينها وبين الإسلام، وابتعدوا في نظر حجة الإسلام عن القصد؛ فرأى بعد أن شاركهم في الاطلاع عليها، ووقف على جهات ضعفها، أن يبين تلك الجهات من الضعف في كتاب أسماه تهافت الفلاسفة كان له تأثير كبير في صد تيار الفلسفة اليونانية عن المسلمين. وقد طبع هذا الكتاب في مصر وغيرها، ولكن طبعة من تلك لم تبلغ شأواً التي بين أيدينا الساعة في جمال الخط وصفاة الورق وإتقان الطباعة، وملاحظة الترقيم. ولا غرو، فإن متولى طبعه فضيلة الأستاذ النابه الشيخ سليمان دنيا أستاذ الفلسفة وعلم الكلام في كلية أصول الدين. وبما جباه به الأستاذ من العناية التعليق على الكثير من عباراته مما جعل المطالع لا يقف حياء معضلة إلا وجد عنها كلاماً يعين على حلها. وتجده في بعض تلك التعليقات يتوسع ليوفي المقام حقه من البيان. وهذا ما لا يوجد في النسخ المطبوعة التي تقدمته، بله أخطاء كثيرة وقعت فيها.

وبما يزيد هذا الكتاب قيمة علمية أنه وضع له مقدمة ذكر تاريخ المؤلف وطريقته في البحث عن الحقيقة، وتحريه عن الطريق المأمون للإيصال إليها، وهو فصل أوجز فيه كل ما قاله حجة الإسلام في هذا الباب، على نحو لا يحتاج تأليه معه إلى زيادة بيان، وبكشف عن ناحية في الإمام الغزالي لم يشاركه فيها إمام غيره من المؤلفين.

فثنى على فضيلة الأستاذ ثناء يوفي بحقه من إبرازه هذا الكتاب الجليل في هذا الشكل البديع، ويعينه على اتحاف قراء العربية بأمثاله.

الحقيقة في نظر الغزالي

لفضيلة الاستاذ العلامة الشيخ سليمان دنيا أيضا

الإمام الغزالي من أكبر رجالات الاسلام ، ومن أكثرهم سلطانا على العقول والقلوب ، ناهيك أنه دعى بحجة الاسلام ، ولم يدع بهذا الوصف غيره من العلماء العاملين . وقد عرض لامهات الامور الاعتقادية ، التي حامت حولها الافهام ، واعركت في سبيلها الافلام ، فأفاض فيها متبعا طريقة جمعت بين حرية النظر وسداد الاستدلال ، ألفاها المسلمون تجديدا أخاذا بالالباب ، وثابا الى بعيد الغايات ، فاعتدوا بكل ما كتب ، واعتبروا مذهبه موصلا الى لباب الباب .

نعم إن الامام الغزالي لم تنزه كتاباته عن النقد ، ولكن أنصاره تولوا هذا النقد بالدحض ، فخلص له مذهب في فهم الحقائق يسد أقوى مطامع العقول ، وأبعد مطامح الأرواح . فيكون التصدي لبيان الحقيقة في نظر الغزالي عملا لا يتناول اليه إلا رجل ذو فهم ثاقب ، وذوق عال ، وتقدير دقيق ، ونظر بعيد ، وقد دل ما بين أيدينا من كتاب (الحقيقة في نظر الغزالي) أن مؤلفه الألمي الشيخ سليمان دنيا رجل هذا المجال . فقد لخص مذهبه تخيصا موفيا ، وشرحها شرحا كافيا ، وناقشها نقاشا مواتيا ، خلص منه الى بيان صميم الحقيقة في نظر الامام الغزالي ، وما وصل اليها إلا بعد فهم وبسط لا يستطيعهما إلا الجدير بالخصوص في هذه المواطن . وإننا لنسر حين نرى في عهدنا هذا من يحلل مذهب حجة الاسلام الغزالي هذا التحليل الدقيق ويصل منه الى ما وصل اليه من التحقيق . إنه لتوفيق عظيم ، وإنا بعمله لمن المعجبين .

كتاب الاشارات والتنبيهات

لرئيس ابن سينا

أهدانا فضيلة الاستاذ العلامة الشيخ سليمان دنيا المتقدم ذكره مع كتابيه السابقين كتابا ثالثا هو ما جعلناه عنوانا لهذه السطور .

الشيخ الرئيس ابن سينا من أشهر فلاسفة المسلمين وأطبائهم ، وقد طبقت

شهرته العالم كله ، وترجمت كتبه الى كثير من اللغات الأوروبية ، ودرست في جامعاتها ، ولا يزال بعضها يدرس فيها .

لهذا الأستاذ الجليل كتاب في المنطق أسماء الاشارات والتنبيهات اشتهر في الخافقين وطبع مرات ، ولكن طبعاته لا تخلو من الخطأ وخال من المنطق ، فرأى مؤلفنا الفاضل أن يخرج هذا الكتاب إخراجاً علمياً ، يأخذ على قدر الطاقة - بما للإخراج العصري من يسر وسهولة ، ودقة وتمحيص .

وقد تم لفضيلة المؤلف ما أراد ، فظهر القسم الأول منه في المنطق . وقد صدره بمقدمة أتى فيها على آراء حجة الاسلام الغزالي والشيخ الرئيس ابن سينا ومهمته ومصدره .

ثم يحى منطق ابن سينا بعد تلك المقدمة لا سرداً كما تفعل دور الطباعة ولكن مع تعقيبات هامة مطولة وهوجزة تدفع حيرة التالى فى كثير من مواطنه ، يخرج منه مطالعه حاصل على فقه منطقى يستوعب جميع معضلاته .

فأشكر فضيلة المؤلف على هديته القيمة ، ونرجو له دوام التوفيق الى أمثال هذه الاعمال العلمية العظيمة .

كتاب الدين والحج

هذا أجمع ما رأينا من الكتب المؤلفة فى موضوع خاص . فقد استوعب فيه مؤلفه الفاضل الحاج عباس كرايه كل ما يتصل بالحج من فرائض وسنن وأدعية وكل ما يتعلق به مما يجب أن يعرفه الحاج . وزاد فى تكميله فوضع صوراً للأماكن المقدسة وعين بالكيلو مترات بعدها عن المدن الحجازية ، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة مما يطرأ على فكر الحاج أو لا يطرأ إلا أتى عليها . ومن فوائده أنه بدأ بشرح أركان الإسلام الخمسة ثم تناول الحج بالكلام فوفاه حقه من كل ناحية . ولو كنا نريد أن نعد ما أتى به من الفوائد عدا لاستوعب ذلك مكاناً كبيراً من هذه المجلة . فكتفى بهذا الإيجاز .

وما لا يصح أن نغفله أن مؤلفه الفاضل عمده إلى ضروب من المشوقات للاطلاع كالصور الفوتوغرافية ، والاكتشاف من صور الخطوط اليدوية خص بها بعض الأدعية والمواقف . فجاء كتاباً فريداً فى باب يشكر صاحبه على وضعه ويرجى له الجزاء الاوفى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حديث القرآن عنه يوم بدر :

الحديث الديني

الذي ألقاه صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد عبد اللطيف دراز
مدير الأزهر والمآهد الدينية

في قصر عابدين العامر ليلة ١٧ من رمضان سنة ١٣٦٧

بسم الله الرحمن الرحيم

« يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين . إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ، وما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم . كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذا يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتوعدون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين . ليقض الحق ويُبطل الباطل ولو كره المجرمون . »

هذه الآيات الكريمة هي صدر سورة الأنفال المدنية ، وتسمى سورة بدر . والأنفال : الغنائم ، وكان قد وقع شيء من الخلاف على قسمتها يوم بدر ، فقررت الآية الأولى أن أمر الغنائم موكل إلى الله ورسوله ، يقضى الله فيها بحكمه ، وينفذ الرسول قضاء ربه . وقد بين هذا الحكم في موضع آخر ، من السورة نفسها : قال تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . » فهذا حكم الخمس ، وأما الأخماس الأربعة فهي قسمة بين المجاهدين ، وقد بينت السنة كيفية هذا التوزيع .

ولما كان هذا الخلاف على قسمة الغنائم مما لا ينبغي لهم ، ولا يتناسب وسمو
الغاية التي يستهدفها المجاهدون في سبيل الله ، ويقفون أنفسهم على تحقيقها ، وهي
إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وتقرير الحرية الدينية
بين الناس حتى لا تكون فتنة في الأرض ويكون الدين كله لله ؛ نقول : لما كان
الخلاف على الغنائم وقسمتها مما لا يتناسب وسمو هذا المثل الأعلى ، وكان الخلاف
على إطلاقه في الغنائم أو في غيرها مما يخشى منه على وحدتهم ، وقوة الرابطة
الإسلامية في نفوسهم - لفتهم القرآن إلى ذلك ، وأهاب بهم أن يتركوا
الخلاف وسائر الأسباب التي تؤدي إلى الفرقة ، وإفساد ذات البين ، وأن يكفوا
الفصل فيما اختلفوا فيه إلى الله ورسوله ، مدعين للحكم ، راضين بالقضاء :
« فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » .

ثم يتبين هذا الإيمان بما فصل من دلالة في الاعتقاد وآثاره في الأعمال ؛
فهم في قلوب المؤمنين خشية من الله إذا ذكر ، واستحضار لجلاله وعظمته في كل
حين ؛ وهو في عقولهم حكمة ونور تزيده آيات الله بصرأ بالحق ، وسعة في المعرفة ،
ورسوخاً في اليقين ؛ وهو في نفوسهم إطمئنان بالدين ، وتسليم لأمر الله ورضاً
بقضائه ؛ وهو فيما بينهم وبين الله ، صلاة وعبادة ومناجاة ، وفي مجتمعهم أخوة ،
وتعاطف ، وإيثار ومواساة ؛ فهم ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت
عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم
ينفقون . .

ثم أخذ القرآن الكريم - على سفته - يقيم البرهان على ما طالبهم به ،
من الرضا بحكم الله ، وحسن التوكل عليه ، بما يقرر هذه الحقيقة في نفوسهم ؛
وهو أنه لما كان الإنسان بالغاً ما بلغ علمه ، لا يعرف من وسائل الحق وسبل
الصلاح ما يعلمه الله جل شأنه بوسع علمه ، وعظيم إحاطته ، وهو لهذا قد يخفى
عليه من الغايات البعيدة ، والمثل العليا ، ما يريد الله جل شأنه أن يبلغه إياه ،
ويحمله عليه - وجب أن يسلم الأمر لله تسليماً ، وأن لا يشك في الأمر بعد
أن جاءه اليقين من الله ، ولا ينبغي أن يصده عن امتثال الأمر والرضا به ، ما عسى
أن يكون فيه مما تكرهه النفس أو يثقل عليها حمله ؛ فرتب أمر عظيم الخطب ،

شديد الوقع ، ثقيل على النفس ، يكون له من العاقبة المرضية ، والغاية الحسنى ،
مالم تكن النفس تؤمله وترجوه ، بل مالم تكن تدركه ولا تحيط به .

كان جمهور من المؤمنين يرفض الصلح في الحديبية على الوجه الذي تم عليه ،
وعدوا قبوله مهانة ومذلة لما في ظاهره من تحكم وعسف لا يليق بعزة المؤمنين ؛
وكانوا لهذا يريدون أن يأخذوا طريقهم إلى مكة بقوة السيف ، حتى إن عمر بن
الخطاب قال يا رسول الله ، ألسنت برسول الله ! قال بلى ، قال أولسنا بالمسلمين !
قال بلى ، قال أوليسوا بالمشركين ؟ قال بلى . قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟
قال : أنا عبد الله ورسوله إن أخالف أمره ولن يضيعني .

ومع أن المسلمين لم يدركوا حقيقة الخير فيما ثقل على نفوسهم من هذا الصلح ،
فقد كان نصراً مؤزراً وفتحاً مبيناً للإسلام والمسلمين ؛ فإذا كان بعض الناس
يجهلون الحكمة في بعض ما يقضى الله به من قضاء ، وما يلزمهم من أحكام ،
فليعلموا أن قانون الحق والباطل لا يجري دائماً على ما يحبون وما يكرهون ؛ فقد
تحب النفوس الشيء وهو وبال عليها ، وقد تكرهه وهو لها صلاح وخير . كما
أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك
في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وهل لو استسلموا
فقدعوا عن الجهاد يوم بدر كما كانوا يريدون . ورجعوا إلى المدينة خائفين ،
أكانوا قد حصلوا على المجد الذي حصلوا عليه يوم بدر ، واستحوذوا على ذلك العز
والنصر الذي ساقه إليهم الجهاد ، والتضحية في سبيل الله ؟ أما إنهم لو فعلوا لكان
فشلمهم خاتمهم ، ونهاية أمرهم ؛ ولكن الله الذي يتولى الصالحين ، ويؤيد عباده
المؤمنين ، قد أراد لهم غير ما كانوا يريدونه لأنفسهم ، فحملهم بتوقيفه وتأيدته
ومعونته على الخطة التي نالوا بها أعلى المثل وأشرف الغايات .

يذكر القرآن الكريم بهذه الآيات موقفهم يوم بدر ، وكان ذلك في رمضان
في السابع عشر منه من السنة الثانية للهجرة . وبجمل القصة : أن النبي صلى الله عليه
وسلم ، أراد أن يجزى قريشاً ببعض ما عاملوا به المسلمين في مكة ، حيث
أخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، وشردوهم في البلاد ظلالاً وهدواناً ، ولمن انتصر
بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغيثون

في الأرض بغير الحق ، فأمر عليه السلام أصحابه أن يخرجوا لغير قريش القادمة بتجارته من الشام لعل الله يعوضهم بها بعض ما سلبته منهم قريش في مكة من دور وأموال ، وما أزعجهم عنه من وطن كان أحب الأوطان إليهم ، وأقربها بجوار بيت الله وحرمة الأمين ، إلى نفوسهم وقلوبهم ، حتى ليقول النبي عليه السلام يوم هجرته مشيراً إلى مكة : « والله إنك لأحب بلاد الله إلي ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت » .

ومع ذلك فأى مال وأى متاع كان يمكن أن يستعويض به النبي عليه السلام والمهاجرون عن قرارهم في وطن يحبونه مثل هذا الحب ويناجونه مثل هذه المناجاة ؟ ولكنه الانتصار بعد الظلم ، وتأديب المعتدين ببعض ما فعلوا ، وملاقة البغي والظليان بما يكسر شوكته . وينكس رأيته ، إحقاقاً للحق وإزهاقاً للباطل ، وتأيداً لكلمة الله ، وإعزازاً لدينه ؛ وفي ذلك يقول الله جل شأنه : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

وكان المسلمون يوم بدر قليلي العدد قليلي العدد لم يخرجوا حرب ولا لقتال ، وإنما خف منهم من خف للقاء العير ومصادرة أموال الأعداء ؛ ولم يكن مع هذه الأموال جيش محارب ، بل كان عليها أبو سفيان بن حرب في نفر من تجار قريش وأتباعهم ، فلما علم بأمر المسلمين وما اعتزموا من مصادرة التجارة أرسل إلى مكة يستنهبها لإنقاذ أموالها ، فلم يبق فيها رجل يستطيع القتال إلا خرج أو استأجر مكانه من يخرج ؛ فتجمع بذلك جيش لقريش بلغ عدده أضعاف عدد المسلمين يقوده أبو جهل بن هشام ، ويسير تحت رايته الملاء من عظماء قريش وصناديدها . وتصرف أبو سفيان لأمره فخاد بالعير عن طريق المدينة إلى ساحل البحر ، ثم أخذ طريقه على جدة فإلى مكة ، ثم أرسل إلى أبي جهل يشير عليه بالرجوع حيث لم تبق حاجة إلى القتال بعد نجاة الأموال ؛ فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد

ماء بدر فتتحر الجزور ، ونشرب الخمر ، وتعزف على رءوسنا القيان ، ويسمع العرب بمسيرنا هذا ، فلا يزال الناس يهابوننا بعدها أبدا .

وبذلك تمحضت غاية قريش من القتال إلى أن صارت كما سماها الله بطرا ورتاء الناس ، وكان هذا مما صنعه الله للمسلمين وإن كانوا لا يشعرون ، حتى تقابل في الميدان الباطل المزهو بنفسه المختال بكثرتة وقوته ، مع الحق تفيض به قلوب المؤمنين إخلاصاً له وثباتاً عليه ، فيقع الفريقان تحت حكم الله العدل وسنته القاهرة في الحق والباطل والإخلاص والرياء ؛ لكن المسلمين لم يكونوا قد جاءهم تأويل ذلك بعد ، وإنما كانوا ينظرون إلى الموقف بحسب ما ظهر لهم من أسبابه ، فهم قليل وأعدائهم كثير ، وهم قد خرجوا بغير استعداد ليقابلوا العير لا النفير ؛ فلا غرابة أن يتخوفوا ما دهمهم من أمر لم يكونوا على استعداد له ، وأن يذكروا ذلك للنبي عليه السلام ويجادلوه فيه : « يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » . ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان واثقاً من أمره عارفاً بربه مؤمناً بتأييده ونصره : ومع ذلك فقد وقف - على سنته الشريفة في الإنصاف والحرية والشورى - يستشير أصحابه : « انتهى الموقف بقول قائلهم : امض يا رسول الله لما أراك الله ، والله لو استعرضت بنا هذا البحر تخوضه لخصناه وراك ما تخلف منا أحد » فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم ، ثم قال : « سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم » ١ .

والطائفتان : طائفة النفير أي الجيش ، وهي الطائفة ذات الشوكة برجالها وقوتها : وطائفة العير ، أي قافلة التجارة والأموال ، وهي التي لا شوكة لها ولا محذور من لقاءها ، بل فيها ما يحب من الأموال والمتاع ؛ وفي هذا يقول الله جل شأنه : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليعق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

وقد تكررت كلمة الحق في هذا السياق . ولها في كل موضع معنى . فهو في قول الله تعالى « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق » : الصواب والحكمة بطاعة الله

ورضوانه؛ وفي قوله تعالى : يجادلونك في الحق ، : القتال ، خلص له القصد بعد
 نجاة العير وأصبح حقيقة الموقف دون سواء ؛ وفي قوله : ويريد الله أن يحق
 الحق بكلماته ، : وعد الله الذي وعده رسوله ، وهو تمكينه من إحدى الطائفتين ؛
 وفي قوله : ليحق الحق ويبطل الباطل ، : الإسلام : يبين الله لرسوله الحكمة في
 تمكينه من الطائفة ذات الشوكة بعد أن وعدهم إحدى الطائفتين مهمة . وهذه
 الحكمة هي إن إحقاق الحق وإعزازه لا يكون بالاستيلاء على الأموال
 والغنائم ، لكن بتمكين الله رسوله والمؤمنين من رموس الكفر وأئمة الباطل ،
 وقطع دابر المجرمين .

طائفتاه :

أما إحداهما : فلا تذكر في القرآن الكريم إلا مقرونة بالحق ، وحسبها حقاً
 في خروجها ومسيرها وغايتها ، أن وليها الله ، وأن قائدها رسول الله .
 وأما الأخرى : فقد خرجت من دارها بطراً ورثاء الناس ، وقفت حياتها
 على تأييد الباطل ومناوأة الحق ومطاردة الرسول والمؤمنين ؛ وقد التقى الجمعان
 على ماء بدر بالقرب من المدينة : الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا
 يقاتلون في سبيل الطاغوت .

وهذا أول مشهد شهده الخصمان حرباً في سبيل العقيدة ، وقتالاً بين الحق
 والباطل ؛ فلا جرم أن كان له من الرجاء والخوف في نفوس المسلمين ما يناسب
 عواقبه الجليلة العظيمة ، إذ عليه يتوقف سير الدعوة الإسلامية وتقرير مكانتها ؛
 ولا عجب أن حمل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم — حينما رأى كثرة أعدائه
 وقلة أصحابه في العدد والعدد — على أن يبتهل إلى ربه ويستغيثه ويستنجزه وعده
 قائلاً : « اللهم أنجز لى ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام
 فكن تعبد في الأرض ، .

صبر المسلمون في القتال وثبتوا لأعدائهم ثبات الجبال ، وآمنوا إيماناً نزلت
 عليه الملائكة من السماء ، وكانت ساعة استجاب الله فيها لرسوله صلى الله عليه وسلم ،

ومنع المسلمين ظهور أعدائهم فاتبعوهم ، فريقتاً يقتلون ، ويأسرون فريقتاً ، وفر من نجا منهم إلى مكة مهزوماً طريداً : وكانت النتيجة أكبر من نصر متعارف ، وأهم من فوز فريق على فريق : كانت آية بيّنة عنت لها وجوه العرب ، فأخذوا يتأملون الأمر أكثر من ذي قبل ، وينظرون إلى الدعوة نظراً إلى حقيقة عظيمة تمثل السمع والبصر والفؤاد : فلا عجب أن سمي الله يوم بدر فرقاً بما فرق به بين الحق والباطل ، وأن كان ليوم بدر ولأبطاله المؤمنين من المسكنة في الإسلام وفي تاريخ المسلمين ما لم ينله مشهد سواه . وفي ذلك الموقف من الرسول قبيل الموقعة يقول الله جل شأنه : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مرءفين . وما جعله الله إلا بشرياً ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم » .

حضرات السادة :

إنه لمن ين الطالع وسعادة المناسبة ، أن نتذكر موقعة بدر في مياعدها من هذا الشهر الكريم : فقد كانت في السابع عشر من رمضان ، وأن نتذكرها وجيوش العرب والمسلمين في فلسطين ما زالت في موقف الجهاد في سبيل الحق الذي جاهد في سبيله المسلمون يوم بدر ، وأن نرى الباطل اليوم — كما كان يوم بدر بل أشد وأظنى — متألّياً بجمعه وحوله وطوله على الحق الذي يستمد معونته ونصرته من الله العزيز الحكيم . فإن تكن لنا من الإسلام هداية فهدايتنا اليوم منه أن نؤمن كما آمن أهل بدر ، وأن نشق بأنفسنا كما وثقوا بأنفسهم ، وأن نوقن يقيناً لا يخالجه أدنى شك بأن الله الذي أقام السموات والأرض بالحق ، وأرسل رسله بالهدى ودين الحق ، وأنزل الكتب من السماء قياماً بالحق ودعوة إليه ، لا يؤيد جل شأنه الباطل مهما طغى وبغى وكثر أتباعه ، على الحق وإن قل أعوانه وأنصاره . وإذا رأيت الباطل مزهواً مختالاً يريد أن يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولاً ، فاصبروا له ساعة من الزمان ، وارقبوا ما يؤول إليه أمره . فإنه في اضمحلال وإلى زوال ، ولا مناص له — طال الزمن أم قصر — من أن تدمغه سعة الله التي لا تحول ولا تزول ، بصاعقة من الحق تزلزل أركانه وتهدم بنيانه ، ويومئذ يعلم المبطلون الذين حموا هذا الباطل وأقاموه مراغمة لأبسط مبادئ العدالة

أن مقاليد السموات والأرض بيد الله لا بأيديهم ، وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ، لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . .

ألا وإن مثل القضية بين الحق والباطل في التاريخ كثيرة لا تعد ، أشبهها بقضية اليوم موقف مصر وعليها صلاح الدين ، ومعها العرب والمسلمون ، في وجه الصليبيين : ثم في وجههم ووجه التتار جميعاً ... وقفت مصر إذ ذاك للدنيا كلها ، كما تقف اليوم للدنيا كذلك وعليها الفاروق العظيم ، ومعها إخوانها العرب والمسلمون ؛ وكما نصرها الحق بالأمس سينصرها اليوم إن شاء الله . ومن يعيش يره ، ولتعلمن نبأه بعد حين .

أما بعد ، فإني أبتهل إلى الله جل شأنه في هذه الليلة العظيمة والذكرى المباركة التي نتذكر بها آيات الله وهدى الله في شهر الله رمضان ، أن يؤيد الفاروق العظيم ويمد في عمره ويبسط في مملكته ، وأن يعينه سبحانه ويكلاه برعايته وتوفيقه فيما وقف نفسه عليه من العمل الدائب والجهاد المتواصل في سبيل النهوض بالامة وتقدمها في سائر مناحي الحياة .

وأسأله سبحانه أن يحزبه خير الجزاء على ما أناله للمسلمين في مصر وفي خارج مصر من هذه المجالس الطيبة المباركة ، حيث يجتمعون ليستمعوا إلى كتاب الله يتلى عليهم ويتدارسونه بينهم .

كما أسأله جل شأنه أن يؤيد ويرعى بالتوفيق والسداد سائر ملوك العرب والمسلمين ورؤسائهم وأمرائهم ، وأن يعينهم في جهادهم الحق ضد الباطل والمبطلين ، ويسددهم في السلم والحرب ، ويكتب النصر والظفر للمجاهدين ، وأن يعيد على أيديهم دولة العروبة ومجد الإسلام .

والسلام عليكم ورحمة الله .

الاسلام حمى الانسانية من الانهيار

لم تتجل حاجة العالم الى الإسلام مثل ما تجلت في عهدنا هذا .
لقد كان قيام الإسلام في أول وجوده حدا فاصلا بين التدهور الاجتماعى العام ،
وبين العالم كله : وقد لخص المستشرق (جول لا بوم) الفرنسى صاحب الفهرست
لآيات القرآن العظيم ، حالة العالم كله قبيل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأثبت بالأدلة
التاريخية أن العالم برمته كان في حالة تنازع وتناحر ، لا يبدأ لأمة جأش ، ولا يترك لها
عهد استقرار ، يمكن أن تتطور فيه في الوجهة الادبية والعلمية ، بل كانت تتطور في التبدل
في هاتين الناحيتين ، حتى لو كانت بقيت على ما كانت عليه لتجردت بعد بضعة قرون
أخرى من كل ما حصله أجدادها من أدب وعلم وصناعة ، وباءت بأسوأ ما يبوء به
العارون من هذه الفتوحات العقلية المكتملة للإنسانية ، فقال العلامة جول لا بوم :
« حوالى ميلاد محمد في القرن السادس الميلادى ، كان جو العالم متلبدا بغيوم
الاضطرابات والفتن . .

ثم أخذ يسرد ما كانت عليه الأمم قاطبة في جميع أنحاء الأرض من التناحر
الوحشى بين الجماعات البشرية ، ثم قال :
« الخلاصة أن جو العالم الأرضى كان متلبدا بسحب القلاقل الهمجية ،
وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير ، وكان
أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة في إصلاء نيران الحروب والمعارك :
ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيرا حادا وإن كان وقتيا إلا شئ
واحد ، وهو الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال
الحروب وفقراء الحرائين وسذج المتسولين . .

ثم ختم المسيو جول لا بوم مقدمته التفصيلية هذه بقوله :
« في عهد هذه الأحوال الخالصة ، وفي وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ،
ولد محمد بن عبد الله في ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ م . .

وقد ثبت تاريخيا وبشهادة المؤرخين أنفسهم أن المسلمين الأولين انتشروا
في الأرض يبلغون الأمم دعوة الإسلام : فاندفعوا يقتبسون ما صادفوه من العلوم
والصناعات لدى تلك الأمم ، وأخذوا يتدارسونها ويتقنونها ، ودفعهم حب التكمّل

الى البحث عن نصوصها في مصادرها المكتوبة ، فلم يحرقوا ما صادفوه في البلاد التي افتحوها من الكتب العلمية ، كما كان يفعل غيرهم من الفاتحين ، ولكنهم كانوا يستولون فيها على أمهات المصادر العلمية ، ويستأجرون العارفين بلغاتها لكي يترجموها لهم ترجمة حرفية ، ويغدقون على أولئك التراجم من المال ما يغريهم على الدؤوب والاجتهاد والتبارى في الإنتاج : ثم أكبوا على دراستها وتطبيقها على العمل ، وساعدتهم في ذلك مفاوئهم وأمرؤهم وأسريائهم حتى انتقلت إليهم الخلافة العلمية بعد اليونانيين والرومانيين ، وأصبحت جامعاتهم محط رحال مريدي الاستفادة من جميع الأمم ، وزادوا في مواد العلوم بما اكتشفوه في الطب والكيمياء والطبيعات والرياضيات الخ . ولم يهملوا الفلسفة على مجافة جمهورهم لها ، لا لاعتبارات وهمية ، ولكن لما ظهر لهم من أنها تركّز في مقدماتها على الخيالات والظنيات ، وهذه في نظرهم لا توصل الى يقين ، فالشغل بها يكون عرضة للأخطاء : وقد ثبت بعد نظرهم في هذا الموضوع ، وصدقت فراستهم فيه ، فقد اتضح بعد أن ترقّت العلوم أن كل الظنيات الفلسفية كانت خيالات لا حقيقة لها ، فصرف المسلمون همّهم في إتقان العلوم المرتكزة على الأدلة الواقعية ، والمنافع الحيوية ، فارتقت معارفهم ، وتطوّرت مداركهم ، ووصلوا الى مدى بعيد من الرقي استحقوا به خلافة الله في الأرض . والى القارىء رأى مؤرخى أوروبا في ذلك :

قال العلامة (سديو) Sédillot في كتابه تاريخ العرب :

« كان المسلمون في القرون الوسطى متفردين في العلم والفلسفة والفنون ، وقد نشروها أينما حلت أقدامهم ، وتسربت عنهم الى أوروبا ، فكانوا هم سببا لنهضتها وارتقائها . »

هل يدري القارىء ماذا كانت أوروبا في ذلك العهد ، وخاصة بعد أن مزقت الحروب الداخلية أحشاءها ، وتوقفت الحركة العلمية فيها قرونا طويلة ؟ .
الأولى بنا في هذا المقام أن نستشهد بالأجانب . قال العلامة (دريبر) في كتابه (المنازعة بين العلم والدين) :

« إن أوروبا في ذلك العهد كانت غاصة بالغابات الكثيفة من إهمال الناس للزراعة ، وكانت المستنقعات قد كثرت حوالى المدائن ، وكانت تنتشر منها روائح

قتالة اجتاحت الناس وأكثهم . وكانت البيوت فى باريز ولوندرة تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب . ولم يكن فيها نوافذ ولا أرضيات خشبية . أما الأبسطه فكانت مجهزة لديهم ، وكان يقوم مقامها القش ينشرونه على الأرض نشرًا . ولم يكونوا يعرفون المداخن ، فكان الدخان يطوف الدار ثم يتسرب من ثقب صنعوه له فى السقف . فكان الساكنون فيها معرضين لضروب الإصابات الخطيرة . وكان الناس لا يعرفون للنظافة معنى ، فيلقون بأحشاء الحيوانات ، وأقذار المطابخ أمام بيوتهم أكواما تتصاعد منها روائح قاتلة ، ولا رقيب عليهم . وكانت الأسيرة تنام فى حجرة واحدة رجالا ونساء وأطفالا ، وكثيرا ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات المنزلية .

إلى أن قال : « هذه الجهالة كان من أثرها على أوروبا أن عمتها الخرافات والأوهام ، فأنحصر التداوى فى زيارة الأماكن المقدسة ، ومات الطب وحييت أحاييل الدجاجة . الخ الخ . »

نقول : احفظ هذا وقابله بما كانت عليه الحالة عند المسلمين فى تلك الأيام ببركة النهضة العلمية والاجتماعية التى أوجدتها الإسلام ، ننقله لك عن العلامة دريبر نفسه فى كتابه المذكور ، قال :

« لم تكن أوروبا العصرية بأعلى ذوقا ، ولا أرق مدنية ، ولا ألطف رونقا من عواصم الأندلس على عهد العرب ، فقد كانت شوارعهم مضاعة بالأنوار ، ومبلطة أجمل تبليط ، والدور مفروشة بالأبسطه ، وكانت تدفأ شتاء بالمواعيد ، وتهوى صيفا بالنديمات المعطرة بواسطة إمرار الهواء تحت الأرض من خلال أوعية مملوءة زهرا : وكانت لهم حمامات ومكتبات ومطاعم وينابيع مياه عذبة الخ . ويقول فى مواطن أخرى : « إن جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الأوربيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطاب العلم ، وكان ملوك أوروبا وأمراؤها يقدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها . »

لسنا هنا بصدد أن المسلمين لم يمض عليهم قرنان حتى بلغوا الى هذه الدرجة السامية من الرقى بينما كان الأوربيون فى حالة فقرى سريعة نتيجة للحروب التى

كانت ناشبة بين جماعاتهم ، ولكننا بسبيل التدليل على أنه لولا المسلمون لاستمرت أوروبا في تدهورها ووصلت الأمم العائشة فيها إلى أسوأ مما وصفه العلامة (دريبر) ولتلاشى منها كل ميل إلى تدارك الخطر ، وانتهى أمر العالم كله إلى همجية محضة .

ولكن السنة الإلهية التي شوهدت آثارها في الجماعات البشرية على مدى الزمان ، تدل أن التدهور متى بلغ إلى درجة مؤذنة بسيادة الوحشية الباهتة ، بعث الخالق أمة من العدم ، وحلها بالميل التي تدفعها إلى الرقي ، وأمدّها بالوحي الذي يرشدها إلى الصراط السوي ، فترتقي في سنين معدودة إلى أرقى ما تسمح به الوسائل المعاصرة ، وتنجي ميراث العقلية البشرية من التلاشى ، وتستولي عليه وتزيده مادة ، وتنتشر في الأرض فتبث في أممها من روحها ما يقف من تدهورها ، وما يمدّها من عوامل حياتها ، فتسترد البشرية نزوعها الطبيعي للبقاء ، وتبلغ ما قدر لها من الارتقاء .

وقد اختار مدبر الكون جل شأنه لإحداث النهضة العالمية الأخيرة الأمة الإسلامية ، فقامت بها ندبت له تحت تأثير الوحي الإلهي ، والقيادة النبوية المهمة ، فوقفت الحركة القهقرية التي كانت شملت الأمم كافة ، ورسمت لها طريق النجاة ، بما حصلت عليه من التراث الأدبي والعلمي والمدني للبشرية ، وزادت عليه .

نعم إن الله يغار على عباده فلا يدعم تحت سلطان الأهواء حتى تؤديهم إلى الفناء ، فلم تكن الأمة العربية لناط هذه المهمة بأمة أخرى ، ولكنه اختار العرب ومنحهم هذه الكرامة ، ولا حرج لفضل الله . وقد صرح الكتاب الشريف بذلك فقال تعالى : « وإن تولوا (أي عجزوا عما تستدعيه هذه المهمة العالمية) يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » .

فعلى الذين يكتبون في الإسلام ويعلمونه للناس أن ينووا بهذه المهمة الإسلامية الخطيرة ويدلّلوا عليها بشهادات الأجانب أنفسهم لها ، كما نفعل ، فإنها تضع الإسلام من الأذهان في مكائته العليا ، وتكون أفعل في نشره من جميع عوامل النشر .

محمد فريد وهري

البعوث في الإسلام

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ طه محمد الساكت
مبعوث الأزهر الى مكة المكرمة

عن أنى موسى رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أحداً من أصحابه فى بعض أمره قال : « بشّروا ولا تنفّروا ، وبشّروا ولا تمسّروا » .

وعن سعيد بن أبى بردة عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسلم بعثه ومعاذاً الى اليمن فقال : « يشرّوا ولا تمسّروا ، وبشّروا ولا تنفّروا ، وتطاولوا ولا تختلفوا ، رواهما الشيخان .



حق على الدعاة الى الله عامة ، ومن ولاه الله منهم مقاليد الأمور خاصة ، أن يتبينوا تاريخ البعث فى الإسلام ، وكيف كان يتخيرها النبى عليه الصلاة والسلام : فإنما تنجح الدعوة وتوثق أكلها بمقدار إخلاص صاحبها وحسن اختياره . ونحاول هنا ، ونحن فى بعث الى البلد الحرام ، أن نقبس من الهدى النبوى فى البعث الإسلامية ، ما نرجو أن يكون للدعاة منارا ، وللهادين ضياءً .

هاجر النبى صلوات الله وسلامه عليه ، من مكة إلى المدينة ، على رأس ثلاث عشرة سنة ، رأى فيها وهو صابرٌ مُصابِرٌ ، من ضروب الأهوال ، ما ينوء بُشم الجبال . وما إن استقر أمر الإسلام أو كاد حتى أخذ عليه الصلاة والسلام يبعث البعث إلى البلاد النائية ، يجاهدون فى الله حق جهاده ، ويدعون إلى الله على هدى وبصيرة ، ويحكمون بين الناس بالحق ، ويفقهونهم فى دين الله عز وجل (١) .

وكان صلوات الله عليه يوصى ببعثه بوصايا الجامعة ، وعظاته البليغة ، ليسكونوا عنوان الهداية وموضع القدوة .

(١) فالمراد بالبعث هنا : ما يشمل الغزاة والمجاهدين ، والقضاة والمرشدين .

وهذا نموذج من وصيته لما بمث صاحبيه أبا موسى الأشعري ، ومعاذ ابن جبل الى قومهما وبلدهما باليمن ، وكانا من أعلم الصحابة بالحلال والحرام ، وأدراهم بأحكام الإسلام ؛ أوصاهما بخلال ثلاث ، هن جماع الفقه والحكمة ، وعماد العلم والمعرفة ؛ وعليهن يبنى أمر الدين كله أصولا وفروعا ، وآدابا ومكارم ، وهن أو بما يُردّ إليهن كان يوصى أصحابه في عامة الأمر وخاصته .

الأولى : التيسير ، وهو ضد التعسير ، والمراد به التسهيل على الناس والتخفيف عليهم في الدعوة والعبادة ، والعلم والعمل ، وأخذهم بالتدرج في الأمور شيئا فشيئا ، ولا سيما حدثاء العهد بالإسلام . ومن قارب حد التكليف من الصبيان ، ليمرنوا على الإسلام وخصاله ، إلى أن يأنسوا به ويهشوا له ، ويختلط بهم اختلاط اللحم بالدم ؛ ولا بأس حينذاك أن يأخذهم ببعض الحزم والشدة . ولو حمل الناس على الحق جملة لتركوه جملة . وكمن دأب عسر ولم ييسر ، وشدد ولم يخفف ، غاب سعيه ، وضاع أمله ، وذهبت دعوته أدراج الرياح .

إنه لا ينبغي لأحد أن يتصدى للدعوة إلا من بعد أن يفقه سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومنهاجه فيها ، كما لا يحل لإمام أو أمير أن يوليها أحدا إلا إذا كان لها كفتاً ، وبها جديراً . لقد بنى هذا الدين على التيسير ، وأشاعه النبي صلى الله عليه وسلم في جميع أقطاره ، وقال : إن الدين يسر ، ولن يُشادَّ الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا ؛ ونهى عن التعمق في الدين ، وشدد التنكير على المتعمقين ، وقال : هلك المتطعون ثلاثا . ودخل المسجد فإذا حبل ممدود بين ساريتين ، فقال ما هذا الحبل ؟ قالوا : هذا حبل لزينب ، فإذا فترت تعلقت به ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : حُلِّثُوهُ ، ليصلَّ أحدكم نشاطه ، فإذا فتر فليرقد . ودخل على عائشة رضي الله عنها وعندما امرأة ، فقال من هذه ؟ قالت هذه فلانة ، تذكر من صلاتها . قال : مه ، عليكم بما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملوا .

وقالت عائشة رضي الله عنها : ما أُخِّير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين قطُّ إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله

فيمتقم الله بها . ودخل المسجد أعرابي فانتحى منه ناحية ، وبال فيها ، فثار اليه الناس وهموا به ، فزجرهم صلوات الله وسلامه عليه وقال دعوه وأهريقوا على بوله ذنوبا من ماء - أو تجذلا من ماء^(١) - فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين . وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يذكر الناس كل خميس فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن لو ددت أنك تذكرنا كل يوم فقال : لا يمنعني من ذلك إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتخولنا بالموعظة خشية السامة علينا . وكانت الحنيفية السمحة فرائض وسنا ، وآدابا وفضائل ، ليأخذ كل من بعد الفرائض بالتقسط الذى يسر الله له . ورخص الله للناس فى كل ما يشق عليهم أداؤه ، فأباح للمسافر الفطر فى رمضان ، وأوجبه على من خشى هلاكا أو قاربه ؛ وأمر صلى الله عليه وسلم العاملين على الصدقات أن ييسروا على الأغنياء فى الجباية فيكثفوا بالوسط ولا يرهقوهم بأخذ السمين والمتقى . وسن للمسافر قصر الصلاة ، وأمر الإمام بالتخفيف فيها ؛ فإن فى الناس المريض والضعيف وذا الحاجة . وكان إذا سمع بكاء الطفل ، يتجوز فى صلاته رفقا بأمه . وكان يأمر بالآخذ بالرخصة ويقول : إن الله يحب أن توفى رخصه كما يحب أن توفى عزائمه . . . الى غير ذلك من أمثلة لا يحصىها العد ، ثابتة كلها فى صحيح الآثار ، ومتقى الأخبار ، بلغت - أو كادت - مبلغ التواتر .

ومالنا نعدّد الأمثلة ونبسّط الأدلة ، وقد علم الناس جميعا أن دين الله هو دين الفطرة ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وأنه واضح المنهج فى عقائده وأحكامه ، سهل المآخذ فى كل أمر من أموره ، وحسب الناظر فيه ومن ابتغاه ديننا أن يعلم أن الأعرابي الجلف كان يجلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار ، فيتلقى عنه الدين كله ، فإذا هو خلق آخر ، قد ملئ نورا وهدى ، وكان منذ ساعة قطعة من الظلمات تمشى على الأرض .

لا جرم أن الدين يسر ، ولكن لا يحسب الذين لا يفقهون ، أن يسره أو التيسير فيه ، يدعو إلى النهاون فى أمره ، أو التساويل فى فصوصه ، أو تتبع الرخص التى تروى عن علمائه والفتهاء فيه ؛ فإن الدين حبل الله المتين ، وصراطه

(١) الذنوب والسجل : الدلو ، وأو لشك من الراوى فى أى الفطين قاله صلى الله عليه وسلم .

المستقيم ، لم يكن في شأن من شئونه غالبا ولا جافيا ، وكان بين ذلك قواما ، لا إفراط ولا تفريط .

إنه ليوشك من تأول فيه لشهوة أو هوى ، أو تهاون فيه عن عمى وجهالة ، أو تتبع الرخص المروية هنا وهناك ، يتلقفها تلقف المتلاعبين ، أو يعتمد عليها اعتماد الجاحدين المهوسين إنه ليوشك هؤلاء جميعا أن يخرجوا من الدنيا بغير دين . فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم .

قال شراح الحديث - وذلك من أحسن ما قالوا - : وإنما أردف صلى الله عليه وسلم أمره بالتيشير نهيته عن التعسير ، مع أن الأمر بالشئ يستتبع النهي عن ضده ، تقوية وتوكيدا ، حتى لا يدع لمتنطع عذرا ؛ على أنه لو اقتصر على التيسير لتحقيق امثال الأمر مرة واحدة ، وإن عسر مرارا : فلما قرنه بالنهي عن التعسير ، فهم أن المراد المداومة على التيسير .

تلك الجملة الأولى من الخلال الثلاث . وإذا ضاق المقام عن استيفاء الخلتين الآخرين ، فالم وعد عددا الآتي ، إن شاء الله تعالى .

تصيد الدراهم

قال الأصمعي : كنت عند الرشيد إذ دخل عليه إبراهيم الموصلي فأنشده :
 وآمرة بالبخل قلت لها اقصرى فليس إلى ما تأمرين --- بيل
 فعلى فعال المكثرين تجملا ومالى كما قد تعلمين قليل
 فكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ورأى أمير المؤمنين جميل

فقال الرشيد : لله آيات تأتينا بها ما أحسن أصولها ، وأبين فصولها ! يا غلام أعطه عشرين ألفا . قال الموصلي : لا أخذت منها درهما . قال الرشيد : ولم ؟ قال : لأن كلامك يا أمير المؤمنين خير من شعري ! . قال : أعطوه أربعين ألفا . قال الأصمعي : فعلت أنه أصيد لدراهم الملوك منى .

الحج عن الغير

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين
المدير المساعد لإدارة البحوث والثقافة بالأزهر

يكثّر الكلام بين الناس عند كل موسم من مواسم الحج ، حول موضوع « الحج عن الغير » ، ويمتد حديثهم عنه ، واهتمامهم به ، الى حدّ التساؤل عن أصله وحكمه ، وعما يقع من إفاد بعض الأفراد كل عام للحج عن غيرهم ، وعما يرصده بعض الأشخاص من الأموال والأحباس للإنفاق منها بعد موتهم في هذا السبيل ، وهل لذلك كاه أصل في الإسلام ، وجاءت به أحكامه ؟ أو هو أمر جرى به متعارف الناس ومألوفهم ؟ .

وقد رأينا من أجل ذلك ، أن نؤثر هذا الموضوع الهام ، بالكتابة فيه ، رعاية لمناسبة موسم الحج ، وإذواءً لعلّة المتحدثين فيه .

معروف أن من بين التكاليف الشرعية العملية ، العبادات ؛ ومعروف أيضا أن العبادات تنوع الى أنواع : فمنها ما هو ماليّ محض كالزكاة ، ومنها ما هو بدنيّ محض كالصلاة ، ومنها ما هو مركب منهما كالحج ؛ فالأولى تقبل النيابة مطلقا في حالتي الصحة والمرض ، لحصول المقصود - وهو إيصال النفع الى الفقراء - بفعل النائب ؛ والثانية لا تقبل النيابة بحال ، لأن المقصود - وهو تزكية النفس ، والاتصال بالخالق - لا يحصل بفعل النائب .

أما الثالثة ، وهي الحج ، فالجمهور من الفقهاء على أنها تقبل النيابة ؛ فن عجز عن الحج بنفسه ، وجب عليه أن يستنيب غيره ليحج عنه ، ولكنهم اختلفوا بعد ذلك في الشروط والالتزامات ، والأوصاف والأحوال ، التي يجب أن تتوفر في الحاج والمحجوج عنه ؛ وقد نمنا كل فريق منهم فيها المنحى الذي

يوافق أصول مذهبه ، ويتفق مع قواعده ، وهي مبسطة في كتب الفروع ، فليرجع إليها من أراد .

أما غير الجمهور فإنه يرى أن الحج وإن كان عبادة مركبة من بدنية ومالية ، إلا أنه قد غلب فيها جانب البدنية ، فهي لا تقبل النيابة : فمن كان عليه حجة الإسلام ، فلا يجوز له أن ينوب من يحج عنه ، سواء كان صحيحاً أم مريضاً ترجى صحته : ومن يحج عن الحج بنفسه ، ولم يقدر عليه في أى عام من حياته ، فقد سقط عنه الحج بناتاً : وإذا استأجر من يحج عنه ، سواء كان صحيحاً أم مريضاً ، وسواء كان الحج ورعاً أم نفلاً ، فإنه لا يكتب له أصلاً ، بل يقع نفلاً للأجير ، وللستأجر ثواب مساعدته على الحج ، وبركة الدعاء الذى يدعو به .

وقد اعتمد الجمهور في الاستدلال لمذهبه على ما صح عنه من أحاديث وآثار ، وبخاصة ذلك الحديث المشهور المعروف بحديث الخثعمية ،^(١) وهو ما أخرجه البخارى عن ابن عباس ، قال : كان الفضل رديف النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاءت امرأة من خثعم ، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل الى الشق الآخر ، فقالت : إن فريضة الله أدركت ابن شيخنا كبيراً ، لا يثبت على الراحلة ، أفأحج عنه ؟ قال : نعم ، وذلك في حجة الوداع . قال ابن العربى : حديث الخثعمية أصله يتفق على صحته في الحج ، خارج عن القاعدة المستقرة في الشريعة من أن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وفقاً من الله في استدراك ما فرط فيه المرة بولده وماله .

هذا هو وضع المسألة في ذاتها ، وبحسب ظاهرها الفقهي ، ولكن الواقع أن للمسألة وراء هذا الوضع ، مراكمتنا ، وأصلاً دقيقاً ، هو مثار الخلاف فيها ، والنزاع عليها ، وقد اصطخبت حوله الآراء ، وتشعبت فيه الأفكار ، ووقف منه بعض العلماء موقف القبول والتأييد ، كما وقف منه البعض الآخر موقف الرد والتفنيد . وهذا الأصل - وقد أشار إليه ابن العربى في كلامه السابق - هو : أن الإنسان إذا جعل ثواب عمله لغيره - صلاة كان هذا العمل ، أو صوماً ، أو حجاً ، أو صدقة أو قراءة قرآن ، أو ذكراً ، أو غير ذلك ، من جميع أنواع البر - هل يجعل بهذا

(١) نسبة الى خثعم وهي قبيلة مشهورة .

الجعل ، ويصل الثواب الى ذلك الغير ، وينفعه ؟ أو أنه لا يجعل ، بل يلغو ، ولا يصل الثواب الى الغير ، ولا ينفعه ؟ .

وقد افرق العلماء حيال هذا الاصل ، الى فريقين : فريق يرى أنه ليس للإنسان أن يفعل شيئاً من ذلك ، وأنه لا يصل الثواب ، ولا يحصل الانتفاع به ، واستدل على رأيه هذا ، بقوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى ، ويُنحى قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، وقوله : « لا يصوم أحد عن أحد ، ولا يصلي أحد عن أحد » .

والفريق الآخر يرى أن الإنسان له ذلك ، وأن الثواب يصل ، وينفع : وقد استدل بما جاء في الصحيحين ، من « أنه صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين أملحين ^(١) ، أحدهما عن نفسه ، والآخر عن أمته ؛ وبما جاء في سنن ابن ماجه ، من أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يضحى يشترى كبشين عظيمين سمينين ، أقرنين أملحين ، موجوئين ، فذبح أحدهما عن أمته ، بمن شهد الله بالوحدانية ، وله بالبلاغ ، وذبح الآخر عن محمد وآل محمد ، ؛ وبما رواه ابن أبي شيبة من « أنه صلى الله عليه وسلم ، أتى بكبشين أملحين عظيمين ، أقرنين موجوئين ، فأضجع أحدهما ، وقال : بسم الله ، والله أكبر ، اللهم عن محمد وآل محمد : ثم أضجع الآخر ، وقال : بسم الله ، والله أكبر ، اللهم عن محمد وأمته ، بمن شهد لك بالوحد ، وشهد لي بالبلاغ ، ؛ فإن هذه الروايات كلها ، تدل على أنه صلى الله عليه وسلم ، جعل تضحية إحدى الشاتين عن أمته ، وجعل ثوابها لها ؛ وهذا تعلم منه عليه الصلاة والسلام ، أن الإنسان ينفعه عمل غيره .

وقد استدلوا أيضا بما روى عن أنس أنه سأله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يا رسول الله إنا نتصدق من مواتنا ، ونحج عنهم ، وندعو لهم ، فهل يصل ذلك إليهم ؟ ، قال : « نعم ، إنه ليصل إليهم ، وإنهم ليفرحون به ، كما يفرح أحدكم بالطبق إذا أهدى إليه » .

فهذه الآثار كلها ، وكثير في السنة غيرها ، يبلغ القدر المشترك فيها ، بين السك ، مبالغ التواتر ، وهو أن من جعل شيئاً من الصالحات لغيره ، نفعه الله به .

(١) الملاحظة : يياض يشوبه شعرات سود .

وليس هذا فقط ، فقد جاء في القرآن الكريم الأمر بالدعاء للوالدين ، في قوله تعالى : « وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » كما جاء فيه الإخبار باستغفار الملائكة للمؤمنين في قوله تعالى : « والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن في الأرض » وفي قوله : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا » وساق عبارتهم : « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك » إلى قوله « وقهم السيئات » — فهذا كله قطعي في حصول الانتفاع بعمل الغير ؛ وهو — كما ترى — يخالف ظاهر آية : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » إذ ظاهرها أنه لا ينفع استغفار أحد لأحد بوجه من الوجوه ، لأنه ليس من سعيه ، فلا يكون له منه شيء ، فيجب إذن القطع بانتفاء إرادة ظاهر الآية ، ويحتمل حينئذ أن تكون مقيدة بالثواب الذي لم يهبه العامل لغيره ، أما الذي يهبه لغيره ، فإنه يصل وينفع ، ويكون المراد من الآية على هذا ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى : أي إلا إذا وهبه العامل له ، فإنه يصل وينفع .

أما حديث : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث » فقد ردوا على المستدلين به ، بأنه إن دل على انقطاع عمل الميت ، فإنه لا يدل على انقطاع عمل غيره ، والكلام في عمل الغير ، لا في عمل الميت ، على أنه ليس فيه شيء مما يستبعد عقلا ، لأنه ليس فيه إلا جعل ماله من الأجر لغيره ، والله تعالى هو الموصل إليه ، وهو قادر عليه ، ولا يختص ذلك بعمل دون عمل .

وأما حديث : « لا يصوم أحد عن أحد » ولا يصلي أحد عن أحد ، فقد قالوا في الرد على من استدل به : إن ذلك في حق الخروج عن العهدة ، وسقوط الفريضة ، لا في حق الثواب ، والانتفاع به .

هذا هو الأصل السكامن وراء تلك المسألة ، والمثير للخلاف فيها ؛ وهذا هو تفصيل موقف العلماء منه ، وبيان حججهم ، وردودهم ؛ والظاهر من مجموعها ، رجحان الرأي القائل بوصول الثواب إلى الغير ، والانتفاع به ، إذا شاء الله تعالى .

دعائم الاستقرار

في التشريع القرآني

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني
المفتش بالأزهر

الدعامة الثالثة :

قد يقتنع الناس بحاجتهم الماسة إلى التقييد بتشريع معين في جانب معين ، وبأن السلطة التي صدر عنها هذا التشريع هي سلطة ذات حق مسلم به في إصداره وتنفيذه ؛ وبهذا وذاك يتبها لهذا التشريع عاملان من عوامل تقبله وارتياح النفوس إليه ، والنزول على حكمه .

ولكن هناك عاملا ثالثا لا بد منه في استقرار هذا التشريع ، وبقاءه محترما ، وعدم تعرضه للعواصف النفسية التي من شأنها إذا ثارت أن تقتلع القوانين ، وتطيح بالنظم . هذا العامل دو ما نعينه « بالدعامة الثالثة » ، من دعائم الاستقرار في التشريع القرآني ؛ وهو إقناع المكلفين بأن القيود التي أتى بها هذا التشريع قد جاءت على قدر الحاجة دون شطط ولا إسراف ، وعلى قدر الاستطاعة دون تعجز ولا إعنات .

وقد عنى القرآن الكريم أشد العناية ببيان أمرين عليها تقوم جميع التكاليف الإلهية ، وفي دائرتيها كانت جميع الواجبات الإنسانية :

أحدهما : كون الشريعة وسطا ، أو « صراطا مستقيما » .

والثاني : بحج التكاليف في حدود الاستطاعة البشرية ، وهو ما يعبر عنه « أهل الشرع » « بنفي الحرج » .

فأما كون الشريعة الإسلامية وسطاً ، فهو ظاهر فيما كلفنا به من العقائد ، وفيما كلفنا به من العبادات ، وفيما رسم لنا من قواعد السلوك الاجتماعي المعبر عنه في الفقه ، بالمعاملات . .

١ — فن ذلك : أن العقيدة الإسلامية في الله جل جلاله ، قائمة على وصفه تعالى بكل جميل ، وتنزيهه عن كل قبيح ، وقد أمرنا بأن نفكر في آثار الله ، ولم نؤمر — بل نهينا — أن نفكر في ذات الله : لأن آثار الله في الخلق والإيجاد والتصريف واضحة يمكن أن نراها بعقولنا كما نراها بعيوننا ، وأن نسيح فيها السبح الطويل دون أن نخشى ضللاً أو نخاف تها : أما ذات الله فهي فوق العقول التي ألقت التقدير والتكييف ، والتحديد والقياس والتشبيه .

هذه العقيدة في جانب الألوهية كافية للإيمان ، ولو أن امرأً لقي ربه وهو يعلم أنه إله واحد قادر متصف بجميع صفات الكمال ، منزّه عن جميع صفات النقص ، لكان إيمانه عند الله مقبولاً .

وقد ركب متن الشطط قوم حاولوا أن يخوضوا بمقولهم في هذا المجال ، إذ حسبوا أنهم قادرون على إدراك ذات الله وكنه صفاته ، وعقدوا ما شاءوا بين الذات والصفات من نسب ، واختلفوا في أن الثانية هي عين الأولى أو غيرها ، وفي أنها قائمة بها أو مستقلة عنها ، وفي أنها قديمة بقدمها أو لا كقدمها ، إلى غير ذلك من الظنون والفروض التي شغلوا بها أنفسهم وشغلوا بها الناس ، وفتحوا بها على العقول أبواب الشكوك والفتن ، وهم في ذلك إن لم يشبهوا فقد قاربوا ، وقالوا على الله بغير علم ، كما زعم الذين قالوا : اتخذ الله ولداً ، أو الذين قالوا : الملائكة بنات الله . فالكل ينسب إلى الله ما لم يأذن به الله ، ويحاول أن يتصور الألوهية تصوراً مادياً ، مع أن حقيقة النفس الإنسانية والروح البشرية لم تدرك ، ولم يعلم على وجه يصح ما هي ولا كيف هي ؟ ١

كما ركب متن الشطط قوم تناسوا الله وخلقهم وتصريفهم وقدرته ، فزعموا أن هذه الدنيا وليدة المصادفات أو التفاعلات ، كذلك وجدت ، وكذلك مستظل حتى يصادفها الفساد ، ويدركها نوع من الخلل في النسب والمقاييس .

اشتط هؤلاء وهؤلاء ، ووقف كل منهما في جانب الألوهية على طرف منافيض : قوم يؤمنون بالإله ولكنهم يقحمون عقولهم فيما ليس لها طاقة به من معرفة كنهه وحقيقته ، وقوم يسكفرون به وينكرونه وتعمى قلوبهم عن آياته وآثاره : والقرآن الكريم ينادى أولئك وهؤلاء أن الهدى غير ما تزعمون ، وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .

يقول الله عز وجل في حض العباد على التفكير في خلقه وآثاره وماله من تصريف وتدير : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لاولى الألباب » ، « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » ، « فانظروا كيف بدأ الخلق » ، « انظروا إلى ثمره إذا أثر وينعه » ، « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها » ، « قل سيروا في الأرض ثم انظروا » ، « وفي أنفسكم أثبات بصرون » .

ويقول الله عز وجل في وصف نفسه ، وإعلام المخلوقين بأنه فوق ما يعقلون وما يدركون : « وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » ، « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » ، « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » ، « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة : وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل . لاتدرکه الابصار وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير . »

فالقرآن الكريم لم يأت لنا أبداً بشيء يفصح عن ذات الله تعالى من حيث الحقيقة والكنه ، وإنما هو يلفت دائماً إلى آثار الله في الخلق والتصرف .

وقد قص الله علينا ما كان من نقاش بين نبيه موسى عليه السلام ، وفرعون حين أعلنه بأنه مرسل من رب العالمين ، فأراد فرعون أن يتمكر به ، وأن يقحمه في ورطة لا خلاص له منها : « قال فرعون : وما رب العالمين » ، سأل عن حقيقة الرب ، لأن السؤال بما ، لطلب الحقيقة ، فلو حاول موسى أن يجيبه عما سأل لحاول محالا ، وأثار على نفسه نقاشاً وجدالاً ، ولو سكت عن الجواب لبان عجزه ؛ ولكن

موسى رد على فرعون رداً حكيماً ، قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ، فكأنه قال له : ليس لك أن تسأل عن ذات الله وحقيقته ، فذلك فوق عقلك وفوق قدرتك وفهمك ، ولكن سل عن آثاره تعلم أنه رب كل شيء في السماء والأرض وما بينهما خلقاً وتصريفاً وحكماً وعلماً . وهذا هو الجواب الحق ، لأن ذات واجب الوجود سبحانه وتعالى يستحيل أن تعرف بالماهية التي تستدعي التركيب من الأجزاء ، فلم يبق إلا أن يعرف بآثاره وأفعاله ؛ وقد تناسى فرعون ذلك لأنه لا يريد إلا المجادلة بالباطل : « قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ ، يعنى فلتعجبوا له : أنا أسأله عن الماهية والحقيقة ، وهو يجيبني بنسبة الآثار إليه خلقاً أو تصريفاً . وعندئذ عدل موسى إلى جواب آخر : « قال : ربكم ورب آبائكم الأولين ، وفيه أيضاً معنى لفته إلى عدم إمكان السؤال عن الذات ، مع انتقال إلى بيان أثر آخر من آثار القدرة الإلهية هو أقرب وضوحاً من الأول ، لأن أمر السموات والأرض ربما أشكل على بعض العقول ، أما شعور العاقل بأنه مخلوق متناسل من مخلوقين فهو أقرب قبولاً ، وليس من السهل إنكاره . ولكن فرعون أصر على أن الجواب غير السؤال ، واشتد في هذه المرة ما لم يشتد في المرة السابقة : « قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، أى فهو لا يفهم السؤال فضلاً عن أن يجيب . وهنا أجابه موسى بأثر آخر من آثار القدرة الإلهية هو أشد الآثار وضوحاً وجلالاً : « قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » . فالمشرق يشير إلى طلوع الشمس وظهور النهار ، والمغرب يشير إلى غروبها ومجيء الليل ؛ وهذان أمران دائماً مستمران لا شك أنها عن تدبير وقدره من مدبر قادر .

في هذا كله يظهر لنا مبلغ إصرار فرعون ، وهو المتكلم بلسان أهل الباطل والإضلال ، على اقتحام ما لا يقتحم ، ومحاولة البحث عما لا سبيل إلى معرفته ، ليتخذ ذلك سبيلاً إلى الفتنة والشك ، وإلقاء الريب في النفوس المستعدة بطبعها للإيمان ؛ ويظهر لنا إصرار موسى ، وهو المتكلم بلسان أهل الحق والهداية ، على صرف الحديث عن ذلك المقتحم الصعب ، والاكتفاء بمعرفة الله عن طريق آثاره وآياته ؛ وهذه ولا شك سبيل المؤمنين ، وهى سبيل وسط بين المبالغين في تصور الألوهية كما تتصور المادة ، والمبالغين في إنكارها مع وجود آثارها ، ووضوح أفعالها وتدبيرها .

فهذا مثال من التوسط في العقيدة ؛ ولنا غيره من المثل لو أردنا استقصاء
لما اتسع لنا مجال هذه المقالات ، ولكننا نشير الى بعضه :

٢ — فن ذلك عقيدة الإسلام في التوسط بين الزاعمين بأن الإنسان مجبور
ظاهرا وباطنا ، والزاعمين بأنه خالق لكل فعل من أفعال نفسه دون دخل لله .

في القرآن آيات يستدل بها هؤلاء ، وآيات يستدل بها هؤلاء ، والنقاش
والجدال بينهما طويل ؛ ولكن التأمل المنصف الخالي من التعصب يستطيع أن يعلم
الحق ، وأن يراه واضحا في كتاب الله ، كما هو واضح في الواقع .

بيان ذلك : أن كلاً منا يشعر في نفسه بأمرين لا يستطيع أن يجادله فيهما
مجادل : أحدهما : أنه فاعل متصرف يأتي الشيء بإرادته ، ويمتنع عنه بإرادته ،
فن قال إنه مجبور على الأفعال كالريشة في مهب الريح فقد أنكر هذا الإحساس ؛
والثاني : أنه مع ذلك تحيط به ظروف وأسباب في الكون والمجتمع ، خارجة
عن إرادته ، ليس له في تكييفها تأثير ، وهذه الظروف قد تعطل إرادته في بعض
الاحيان فلا يتم تنفيذها ، وقد تلائم هذه الإرادة فتم ؛ فإذا نظرنا إلى هذه
الظروف وتلك التأثيرات الخارجة عن إرادة الإنسان ، والتي لها حظ
في التمام أو عدم التمام ، كان لنا أن نعتبر أن إرادة الإنسان ليست هي كل شيء ،
وأنه لا يتم بمجرد حصول شيء من الأشياء أو عدم حصوله ؛ ولما كانت
هذه الأسباب ، أو هذه الظروف ، ليست من صنع فرد أو أفراد ، أو هي منتبهة
إلى أن تكون كذلك ، وأن ترجع إلى الخالق جل وعلا ، علمنا أن للعبد جانبا
من الفعل والإرادة ، وأنه مسوق فيما وراء هذا الجانب بقوى ، وخاضع
لأسباب من صنع الله .

على أن إرادة الإنسان فعل شيء من الأشياء لا تأتي ارتجالا ، وإنما تتكون
حسب التأثيرات المحيطة به أيضا ، وربما كان لإرادة الغير تحكم فيها من حيث
لا يشعر الإنسان .

فالحاصل : أن الإنسان فاعل مختار ، ولكنه في نفس الوقت مقيد
بما يشعر به وما لا يشعر به من القيود التي تفرضها الظروف والأسباب
والأحوال المحيطة به ؛ فالأمر في شأنه وسط . وبمثل هذا نفهم معنى قوله تعالى :

« والله خلقكم وما تعملون ، حيث أسند الفعل للعبد والخلق الله ؛ فالعبد مباشر ،
واقه هو المهيء لأسباب تلك المباشرة ، ولولا تهيئته لم تتم . وكذلك نفهم مثل قوله
تعالى « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » ، وقوله « إن ينصركم الله فلا غالب
لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده » ، ونفهم لماذا نفعل الفعل ونسأل
الله فيه التوفيق .

٣ — كما يفيدنا ذلك أيضا في إدراك معنى التوكل الصحيح الذى هو مزيج
من الثقة بالله والتوجه إليه ، والتماس الأسباب والسمى لها ؛ فالتوكل الصحيح
توسط بين الذين يعتقدون أن الأمر كله للأسباب والأمور المادية ، والذين
يظنون أن التوجه الى الله يقتضى إبطال السعى والعمل .

٤ — ومن الأمثلة التى تدل على أن ما جاء به الإسلام من العقائد وسط ،
منهج الحذاق فى الإيمان بالغيب ، حيث يتوسطون فلا ينكرون شيئا ورد عن
المعصوم ، ولو خالف بظاهره العقل ، ولا يتوسعون فيؤمنون بتفاصيل لم ترد
عن طريق صحيح كما يفعل الجاهلون والمسرعون الى تصديق كل ما يروى دون
فحص ولا تثبت .

الى غير ذلك من المثل التى نرى فى القرآن توضيحا لها وتبينا ، ولا يتسع
المجال لبسطها والإفاضة فيها .

وكما يقال هذا فى العقائد الإسلامية ، يقال فى العبادات التى كلفنا الله بها ،
والمعاملات التى رسم لنا طريق السلوك فيها .

فالصلاة : انقطاع عن المادة واتصال بالروح الأعلى ، ولكن فى أوقات
مناسبة محصورة ، بحيث لا ينخلع الإنسان من حياته وأعماله ونشاطه ، ولا
ينخرط فيها انخراطا كلياً فتظلم نفسه ، ويتبلد حسه . والصوم ليس حرمانا كاملا
بالليل والنهار ، أو قصر ا على بعض المباحات دون بعض ، وإنما هو حرمان وبقى
لمدة ساعات محدودة ، لك بعدما أن تناول كل ما تريد من المباح ، وأن تلبس
ما أحل الله لك ، فيجتمع لك من هذا وذاك تربية الروح ، وتليية الجسم .

وقل مثل هذا في الزكاة ، والحج ، والنكاح ، والطلاق ، وحل البيع ، وحرمة الربا ، والاعتراف بالحرب مع النهي عن الاعتداء ، والأمر بأخذ الحذر مع النهي عن الإسراف في التظنن ، وتشريع القصاص مع العدل والمساواة فيه ، وإباحة الانتصار للنفس مع الترغيب في جانب العفو ، وغير ذلك مما كلفنا الله تعالى به ، وكانت سنة الإسلام فيه التوسط ، دون ميل الى جانب التفريط ، أو جنوح الى ناحية الإفراط .

والقرآن الكريم يعبر عن هذا المبدأ الذي تظهر آثاره في كل تشريع بمثل قوله ، وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، ، كلوا واشربوا ولا تسرفوا ، ، وكان بين ذلك قواما ، ، إنه لا يحب المسرفين ، ، ولا تطيعوا أمر المسرفين ، ، إن الله لا يهدي من هو مسرف ، ، وأحل الله البيع وحرم الربا ، ، لا تظلمون ولا تظلمون ، ، لا تُضَارَّ والدة بولدها ولا مولود له بولده ، ، وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، ، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، ، ولكم في القصاص حياة ، ، يأيتها الذين آمنوا خذوا حذركم ، ، ولا تقولوا لمن أتى إليكم السلام لست مؤمنا ، ، ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيعون في الأرض بغير الحق ، ، وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم ، .

• يتبع ،

الى غير ذلك من الآيات ؟

استعطاف

كتب النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر ملك الحيرة بالمرأق في الجاهلية يتنصل إليه عما بلغه عنه من أبيات :

فإن أك مظلوما فعبد علمته	وإن تك ذا عتب فذلك يعتب
حلفت فلم أترك لنفسك رية	وليس وراء الله للرم مذهب
لئن كنت قد بلغت عني جناية	لمبلغك الواشى أغش وأكذب
ألم تر أن الله أعطاك صورة	ترى كل ملك دونها يتذبذب
فإنك شمس والملوك كواكب	إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

عدة المؤمنين

في وقت الحرج

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم العدوى
شيخ المعهد فؤاد الأول بأسبوط

لا يخلو إنسان في هذه الحياة التي ملئت بالكوارث والحروب والنوازل والخطوب، من هم يقض عليه المضاجع، أو شجن يستثير المدامع، أو حشرات تنم عنها في الغالب الزفرات؛ غير أنهم متفاوتون في أشجانهم، متباينون في أحزانهم؛ هذا يبكي الطلول التي خلعت من أقمارها، ويندب أحبابا كانوا كالزهور في أكمامها، وذاك بنوح على فلذة كبد طواها الردى وضما الثرى، وآخر تهيج به ذكريات حسب ضاع ونسب أبيد؛ وغير هؤلاء وهؤلاء من ليس على غرارهم أزججه أن غاض معين الوفاء، ونضب سلسيل الهناء، يذكر الأصدقاء وخيانتهم، والأبناء وعقوقهم، ويسكب الدمع السخين في إثر أمل ضائع، وأمانى صارت كالسراب. وهناك رجل آخر يقول: ما بال هذا الزمان أضيق رزقا، وأنضب حياء، وأفسد خلقا، وأقل سعادة وأنسا، أبرما بتساوة الحياة، وفرارا من جمود الواقع. يضعف عن احتمال الشدة، ويضيق ذرعا بمرارة العيش. وليس كل أولئك بذوى أشجان، عند الباحث الفيلسوف، الذي يستشف هواجس النفوس، وينظر من وراء حجاب إلى خلجات الضمائر، وإن كانوا خليقين بهذا الاسم في نظر العواطف؛ بل الحقيق بأن يكون ذا شجن في نظر الفيلسوف، ذلك الشخص الذي يقلب الدهر له ظهر المجن، في كل خطوة يخطوها، فكلمها بنى صرحا لوطنه، هدمه الزمن، وكلما وضع لبنة في سبيل هناء الجماعة، ذهبت بها الأيام، وأتت عليها. وكذلك الشخص الذي يكون مطمح النفوس، وموئل الرجاء، فيخيب أمل الناس فيه، ويتلاشى رجاؤهم عنده؛ هو أيضا حرى بأن يسكون من ذوى الأشجان، في نظر الباحث الفيلسوف.

وإذا كان قد قدر لكل قلب أن يأخذ نصيبه من آلام الحياة وأشجانها، فقد قدر للأمم أيضا هذا النصيب، وهي لها مكانها بين الزعازع. وفي تقلبات الأيام، وحوادث الزمن صور شتى لتلك المآسى بين الأمم، هي أدلة يقينية على أنها لا تمتاز عن الفرد إلا في الشكل، لا في الموضوع.

وقد أنشأ الله الحياة الدنيا لتكون دار محنة وبلاء لعباده جميعا حتى الانبياء أخذوا من المحن والبلايا بنصيب، فجاهدوا الباطل، وجاهدوا أهل العناد؛ دعوتهم الحق، والحق على أولئك ثقل، وعدتهم الصبر، والصبر قليل.

فلا غرو إذا عاشوا غرباء في الأرض، لأنهم من السماء، وكانوا أمثلة لبؤس العيش، لأنهم مثل عليا للمواعظ والعبر؛ ومصدق ذلك قول الله عز وجل في الكتاب الحكيم، مخاطبا المؤمنين «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم: مستهم البأساء والضراء، وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، ألا إن نصر الله قريب». على أن ضيق الرسل بالشدائد لا يكون إلا بمقدار ما فيهم من صفات البشر، وما جبلوا عليه من غرائز الإنسان، ولكن لا تلبث آلامهم أن تتلاشى، ووقع الخطوب على نفوسهم أن يهين، حين أشع على قلوبهم ما فيهم من قوة الروح، وما بين جوانبهم من قوى اليقين.

وقد رسم الله لعباده المؤمنين طريقا يسلكونه في وقت الشدائد، ويلوذون بكنفه في المحن، ويلجئون إليه إذا عبس الدهر أو تسكر الزمن؛ طريقا معبدا غير ذي عوج، وسبيلا ممهدا لا يحتاج لاكثر من نقطة الضمير وانتباه النفس والإحساس الصادق السليم؛ فالمؤمن الحق يحمل بين جنبيه عقيدة صادقة، تهدي البصر، وتثير البصيرة، وتحول بينه وبين المخالفة والعصيان، وتغرس في الغرائز النفسية القوة والصلابة، فلا يتبرم بخطب، ولا يهن عند شدة.

على أننا لو منحننا فصاحة سحبان، أو بلاغة الأيادي، ما كان في مكنتنا حصر الآثار الكريمة لعقيدة الإيمان، ولا الإتيان على ما تله من فضائل. فلنكتف إذا بسرد بعض تلك الآثار، وعرضها في صور محدودة، وهي إذا تمت للمؤمن، لقي الشدائد بقلب المطمئن الآمن، وتحمل الأزمات بصبر أولى العزم، نخدم أمته ووطنه، في وقت الحرج.

فن سلاح المؤمنين في وقت الحرج : الإقلاع عن الذنوب ، واتقاء المخالفة ،
وتطهير النفس من دخائل الحقد والضغينة ، والإجابة إلى الله ، والرجوع
إلى حمائه ، واستدراك ما فات من التقصير ، فإن الشدائد أغلب ما تكون جزاء
عن المعاصي ، والغفلة عن عقاب الله : « إن الله لا يُغَيِّر ما يقوم حتى يغيروا
ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » :
ومن عدة المؤمن في وقت الشدة ، ومن ذخائره في الأزمات : الصدق ، الذي
يقول فيه الرسول الكريم : « تحروا الصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، والبر
يهدى إلى الجنة ، وإن المرء ليتجرى الصدق ، حتى يكتب عند الله صدقاً » .

وقال الأحنف بن قيس لابنه : يا بني ! يكفيك من شرف الصدق أن الصادق
ليقبل قوله في عدوه : ومن دناءة الكذب أن الكاذب لا يقبل قوله في صديقه
ولا عدوه .

قيل : مرَّ عمر بن الخطاب بمجوز تبيع اللبن ، فقال : يا مجوز ! لا تغشى
المسلمين ، ولا تشوب لبك بالمساء . فقالت : نعم يا أمين المؤمنين . ثم مر عليها
بعد ذلك فقال : يا مجوز ! ألم أعهد إليك أن لا تشوب لبك بالمساء ؟ فقالت :
والله ما فعلت يا أمير المؤمنين . فتكلمت بنت لها من داخل الحباء ، فقالت :
يا أماء ! أغشا وحنثاً ؟ ! فسممها عمر ، فأعجبته ، وقال لولده : أياكم يتزوجها ،
فلعل الله أن يخرج منها نسمة طيبة ؟ فتزوجها ابنه عاصم ، فكان من ذريته
سيدنا عمر بن عبد العزيز .

فالصدق في كل الأحوال حسن ، طيب الأثر ، وهو في وقت الحرج أنسب
بالمؤمن ، وألحق بعقائد المؤمنين : فالمؤمن يصدق في القول ، فلا يكذب ،
ولا ينشر الإشاعات الكاذبة ، التي ترهف الأعصاب ، وتهيج النفوس الآمنة ،
وتجنى على الأمة والوطن البلايا ، من الخوف والذعر ، والفوضى والاضطراب .

فالذي يكون سبباً في حصول هذه الزلزلة ، يكون عضواً فاسداً في الأمة ،
يجب بتره ، لتوفر للأمة طمأنينتها ، ويجتمع لها الاستقرار والأمان .

ويصدق المؤمن في الفعل فلا يفش المسلمين ، ولا يخونهم ؛ ويصدق في السلوك ، فيكون مظهره عين مخبره ، وعلته ترجمان سره .

ومن ذخائر المؤمنين في وقت الحرج : اتحاد الكلمة ، وحمى الصفوف ، لتلقى الامة الخطب بجهود بنينا ، ولتكون كتلة واحدة في الشدة ، فلا تنقسم لها عروة ، ولا يفك العدو ما بين بنينا من أواصر الدين ، ووشائج الوطنية . عند ذلك تسير أعمالها في طريق الإصلاح العام ، ويكثر إنتاجها للخير البلاد ، وسعادة العباد . فعلى قادة الامة وذوى رأى فيها ، أن يعملوا على ذلك بما أوتوا من قوة ، فقد جد الجد ، واشتد الكرب ، وما من عار أن يضحي الشريف الكريم ، والزعيم العظيم ، ببعض وقته ، في سبيل هذا المقصد النبيل ، وأن تتصافى القلوب ، وتتساقى النفوس كثوس الحب الخالص ، ليكون لهم في صفحات التاريخ الأثر الخالد ، والذكرى التى يفوح عبرها على مر الدهور ، وكر السنين ، وينقلها الجيل بعد الجيل .

ومن عدة المؤمنين في وقت الحرج : حسن القدوة .

أجل ! فإن حسن القدوة بليغ الأثر في وقت الشدة ، وما هو الزمان زمان شدة والعصر عصر قحط وبلاء ، يلاقى فيه العامل البسيط ، والفلاح الكدود ، شظف العيش وخشونته ؛ غلّت الأقوات ، وضنت السماء بالماء ، وبخلت الأرض بالنماء ، فارتفعت الأسعار ، وطمع التجار ، فقاسى الفقير من الشدة ما أثقل كاهله ، وأحنى ظهره ، وهو ينظر إلى بعض مواطنيه وهم يسرفون في الكاليات ، ويبالغون في النوافل والزيادات ؛ ولو أنهم أحسنوا إلى أبناء وطنهم ، لشاركهم في خشونة العيش ، ولو بقدر ؛ أو حكموا الدين والاخلاق ، لو أسوهم في بأسائهم ، في كل نارلة . فقد كان كبار المسلمين في العصر الأول ، قدوة حسنة لارعية ، ومظهراً صادقاً لحسن الأسوة .

فقد لبس عمر رضى الله عنه المرقع من الثياب ، وأكل خبز الشعير من غير إدام ؛ وعمر إذ ذاك يجي إليه خراج : العراق ، والحجاز ، ومصر ، والشام ،

وما إلى ذلك ينضم ؛ وتدفق إليه كنوز فارس والروم ، على يد أبطال الإسلام الفاتحين . فكان فعله هذا أخذاً بقلوب الرعية ، مستولياً على مشاعرهم ، فكانوا لذلك لا يضعفون عند خطب ، ولا تلين قناتهم لشدة ؛ فكان عمر بسيرته سائس أمم ، ومربي دول ، وراعي ممالك .

قالوا : استعمل عمر على حمص ، عمير بن سعيد ، ؛ فلما مضت السنة ، استدعاه فلم يشعر عمر إلا وقد قدم عليه عمير ، ماشياً ، حافياً ، عكازته بيده ، وإداوته ، ومروده ، وقصعته على ظهره ؛ فلما نظر إليه عمر ، قال : يا عمير ! أأجدبت البلاد ، أم البلاد بلاد سوء ؟ فقال : ولمه ، يا أمير المؤمنين ، وقد جئت إليك بالدنيا ، أجرها بقرابها ؟ فقال له عمر : وما معك من الدنيا ؟ قال : عكازة أتوكأ عليها ، وأدفع بها عدوا إن لقيته ، ومزود أحمل فيه طعامي ، وإداوة أحمل فيها ماء شرابي وطهوري ، فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع لما معي . فقام عمر إلى قبر الرسول ، وقبر أبي بكر ، فبكى ساعة ، ورجع إلى عمير ، فقال : ما صنعت في عملك يا عمير ؟ فقال : أخذت الإبل من أهل الإبل ، والجزية من أهل الجزية ، عن يد وهم صاغرون ، ثم قسمتها بين الفقراء ، والمساكين ، وأبناء السبيل ، ولو ممي شئ لآحضرتك إليك . فقال له عمر : عد إلى عملك يا عمير ، فقال : يا أمير المؤمنين ! ناشدتك الله ، إلا رددتني إلى أهلي . فأذن له عمر ، وأرسل خلفه من يعرف جلية أمره ؛ وإذا بعيشه في أهله ، خبز الشعير ، فرفع الرجل إلى عمير مائة دينار ، كان قد بعث بها عمر إليه ، فصرفها في الحال في إخوانه الفقراء ، فرجع الرقيب إلى عمر يقول : جئتك من عند أزهد الناس ، وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير . فكان عمير هذا صورة صادقة لزهد الولاة ، وحسن سياستهم في الرعية . وكان في مقاله لعمر أفصح واعظ ، وأبلغ مذكر .

فبمثل هؤلاء تسعد الأمم ويكثر رجاؤها ، وتؤمن الفتن والزلازل . فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

ومن الفضائل التي يلجأ إليها المؤمن في وقت الشدة : الصبر ، والصبر ملاك الخير في كل النواحي ، وعنوان الرجولة الكاملة ، وما المخترعات إلا بالصبر . فالصبر مطية لا تكبو وإن عنف عليها الزمان ، فهو مطية النصر والظفر ؛ ولذا

يقول القرآن الكريم : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا ، وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . . فَاثْبُتُوا مَعَ الصَّابِرِينَ فِي الشَّدَائِدِ يَعِينُهُمْ ، وَيَشُدُّ أَرْصَهُمْ ، لِأَنَّهُمْ انْتَظَرُوا النَّصْرَ مِنْهُ ، وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ فِي عَقَبِ أَمْرِهِمْ ، وَاعْتَمَدُوا عَلَيْهِ فِي كُلِّ شَأْنِهِمْ .

وفي قصة غزوة بدر في القرآن الكريم ، ما يشير إلى نتائج الصبر ومكانة التقوى ، من أنها بشير النصر ، إذ يقول جل وعز : « وَلَقَدْ فَصَّرْنَاكُمْ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، إِذْ يَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ بِكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ، بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ، وَيَقُولُ : « إِنْ تَتَّبِعُونَ هَذِهِ سَبِيلَهُمْ ، وَإِنْ تَصْبِرُوا سَبِيلَهُمْ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . . وليس المراد بالتقوى مجرد امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، بل هي هنا أوسع مجالاً وأرحب فناءً ، وأعم دائرة . إنها والحياة حياة جهاد ، تشمل اتقاء الوسائل المنافية للحياة الراقية ، اتقاء وسائل الخزي والعار ، اتقاء وسائل التدهور في الجماعة والفرد .

يقول ابن عباس رضي الله عنه : عَقَمَتِ النِّسَاءُ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، كَلْعَدَى بِهِ يَوْمَ صَفَيْنَ ، وَعَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ بَيْضَاءُ ، وَهُوَ يَقِفُ عَلَى شَرِذْمَةٍ مِنَ النَّاسِ يَحْضُرُهُمْ عَلَى الْقِتَالِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى وَأَنَا فِي كَيْفٍ مِنَ النَّاسِ ، وَفِي أُغْيَلَةٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ اتَّجَلَّبُوا السَّكِينَةَ ، وَأَكْمَلُوا اللَّامَةَ ، وَأَفْلَقُوا السُّيُوفَ فِي الْأَغْمَادِ ، وَكَافَحُوا بِالْأُظْبَانِ ، وَصَلُّوا السُّيُوفَ بِالْخَطِيِّ ، فَإِنَّكُمْ بَعِثَ اللَّهُ . عَاوَدُوا السَّكْرَ ، وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرَسِ ، فَإِنَّهُ عَارٍ فِي الْأَعْقَابِ ، وَنَارٌ فِي الْحِسَابِ : وَطَيَّبُوا عَلَى الْحَيَاةِ أَنْفُسًا ، وَسِيرُوا إِلَى الْمَوْتِ سِيرًا مُبْجِحًا (أَيُّ لَيْسَ سَهْلًا) . وَاصْبِرُوا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ رَاكِبٌ صَعْدَتُهُ : فَصَمْدًا صَمْدًا ، حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ ، ثُمَّ قَرَأَ : « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . .

ابن مضاء القرطبي

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

ز - وفي ص ٣٧ يذكر الأستاذ أن ابن مضاء يلغى القياس متأثراً بزعته الظاهرية ؛ ولا يكاد الباحث يصدق أن نحوياً يلغى القياس . واللغة تعتمد على القياس في كثير من مظاهرها ، ولو أغلق باب القياس لماتت اللغة ، ودخل على الناس من ذلك حرج وضيق . فالقياس جار في اللغة العربية ، في لسان العرب ، وفي لسان من هذا حظهم من المستعربين .

ولا نرى في كلام ابن مضاء تصريحاً بهذا الإلغاء الذي ينحله إياه الأستاذ شوقي الناصر لعلم ابن مضاء ؛ وإنما ينبغي القرطبي على النحاة أنهم قد يخطئون في العلل ، وقد يقيسون الشيء على الشيء ، دون حاجة إلى القياس ؛ إذ يكون المقيس قد علم أمره ، واستقر حكمه ، وقد يكون الشيئان في درجة واحدة ، في استحقاق الحكم اللغوي ، وقد لا يكون في المقيس العلة التي استحق بها المقيس عليه الحكم . وعمود حديثه الكلام على العلل الثواني والثالث . وقد استجره هذا إلى الكلام على إعراب الفعل المضارع ، وقياس البصريين إياه على إعراب الأسماء ، وهو لا يرى هذا ، بل يرى أن الإعراب أصل في المضارع ، كما هو أصل في الأسماء ؛ إذ الداعي إلى الإعراب - وهو التمييز بين المعاني المتواردة على الكلمة - موجود في الفعل ، كما هو في الاسم على السواء ؛ وليس من دهرى في هذا البحث ، أن أبحث في رأي ابن مضاء . هذا ، وإنما هي أنه في هذا المقام لا يقول بإلغاء القياس .

هو يعيب النحويين في قياسهم الفعل على الاسم في الإعراب ، ويذكر أوجهاً أخطأوا فيها ، حين عالجوا هذا القياس ، وحين نسبوه إلى العرب ، والعرب أحكم من أن يقعوا في هذا القياس الفائل الذي تصوره النحاة .

ويأتي الأستاذ في هذا الموطن ، ويضع على ابن مضاء العنوان : « الدعوة الى إلغاء القياس » . ولا يضع أيدينا على الموضوع الذي ينبئ عن هذه الدعوة المنكرة . ويقول الأستاذ في تعليقه على هذا الموطن : « يلاحظ ابن مضاء هنا أن النحاة لم يدرسوا القياس دراسة صحيحة كما يعرفها الفقهاء » . وإني أوافق على هذا ، ولا أوافق على أنه يقول بإلغاء القياس . ولو أن الأستاذ جعل العنوان : « الدعوة الى تهذيب القياس » ، لكان له وجه من الحق ، وسند من الواقع . وكيف يدعو ابن مضاء الى إلغاء القياس ، وهو قد قاس في بعض المواطن دون أن يحس في ذلك أنه يخالف ما رَسَم في كتابه ؟ فهو يقول في ص ١١٥ : « فإن قيل : النحويون لم يذكروا في هذا الباب — يريد باب التنازع — إلا الفاعل والمفعول والمجرور ، وهنا معمولات كثيرة ، على مذهبه : كالمصادر والظروف والأحوال والمفعولات من أجلها ، والمفعولات معها ، والتمييزات ؛ فهل تقاس هذه على المفعولات بها ، أولا تقاس ؟ قيل : أما المصدر فالظاهر من كلامهم أنه لا يكون في هذا الباب : وذلك أن المصادر إنما يجاء بها لتأكيد الفعل ، والحذف مناقض للتأكيد ... وإن قصد بالمصدر تبين النوع ، كان أشبه بالمفعول به ، . ويمضى ابن مضاء في قياس سائر المعمولات على المفعول به . »

والحق أن ابن مضاء يدعو إلى عدم الإسراف في تلمس العلل ، وعصر الذهن في استخراجها : ومن النحويين من سبقه الى وجوب الاقتصاد في العلل : فهذا أبو حيان ، رأى النحويين يعملون كسر تاء المؤنث ، في نحو أنت ضربت ، فلا يعجبه ذلك ، ويقول ^(١) : « وهذه التعاليل لا يحتاج إليها ؛ لأنها تعليل وضعيات والوضعيات لا تعلل » .

وقد ركب ابن مضاء متن الإسراف في هذا ، فسوّى بين حركات البنية ، وكسر العين ، في عظم ، وبين الحركات في الأواخر التي يجتلبها العامل .

٢ — وفي مبحث : « حاجة النحو الى تصنيف جديد » ، ترى الأستاذ

صاحب المدخل ، يلتقي عبء النحو الذي يبد الناس ، وثقله ، على العامل ، ويحمله من ذلك ما يقع تحته طليحا موقعا .

وفي الحق أن صعوبة النحو ، من صعوبة موضوعه : الإعراب والبناء ، وسيظل نحو العربية متشعب الأطراف متعدد المناحي ، مادام فيها إعراب وبناء . والبناء لا يعجب أحد أن يكون سبب العسر ، فهو في العربية يكون على الحركات والسكون ، كالإعراب . وما أخلق العامل أن يتمثل - إذ ينسب إليه ظلما العسر ، وهو منه برىء - بقول الشاعر :

لحملتي ذنب امرئ ، وتركته كذي العُر : يكوى غيره وهورائع

وترى صاحب المدخل يحتج إذ يدعى أن العامل مجلبة للعسر ، بأنه يشغل النحويين بشروطه ، ومواضع حذفه ، وتقديمه وتأخير ، وغير ذلك من أحوال العامل ، التي غنى بها النحاة . وهذه الأحوال لا تمت إلى النطق بصلة ، عند صاحب المدخل ؛ ومن رأيه ألا يهتم النحاة إلا بما يفيد نطقاً . والنحويون إذ يبحثون في شروط العامل ، ومواطن حذفه وتقديمه وتأخير ، يرون أنهم يبحثون فيما يفيد نطقاً ، ويحاولون جهدهم أن يصوروا ما جرى عليه العرب ، حتى يكون المؤتمى بهم جاريا على سنتهم ، غير منحرف عن منهاجهم ؛ ولصاحب المدخل أن ينقدم في علل العمل مثلا ، واختلافهم فيها .

وفي الحق أن هذا فضل فلسفة ونظر ، يكون مثله في سائر العلوم المدونة ، لإشباعا لهمة النفوس الطليعة .

والواقع أن علل العمل وتاريخها ، لا يزال البحث فيها ناقصا : وقد يهتدى إلى الحق فيها بعد إحسان درس اللغات السامية القديمة .

ويرى صاحب المدخل أن إلغاء العامل ينشأ عنه ترتيب النحو على غير الترتيب الراهن ؛ فإن هذا يتيح أن يجمع الإلف إلى إلفه ، والشيء إلى وفقه ، ويضم اللفق إلى لفته ؛ وقد أفاض في ذكر الأمثلة للترتيب المقترح . والنحويون ما عدوا أن سلكوا هذا المسلك ، فضموا الشيء إلى إلفه ، وقد يكونون في هذا أحكم نظرا ، وأسد رأيا .

وسأعتقب على بعض كلام الأستاذ صاحب المدخل :

(أ) في ص ٤٩ : يذكر أن ابن مضاء دعا إلى تيسير النحو ، وإلغاء العامل ، فلم يستجب له نخاعة المغرب ، ولا نخاعة المشرق : وقد علمت السبب في هذا الانصراف عن رأى ابن مضاء ، وأنه لا يقوم على أساس صحيح ، ولو كان في مذهبه قوة وصلاح ، لصالح للبقاء : ومثله في ذلك ، مثل مذهب الظاهرية في الفروع : فهو مذهب ليس له أتباع وأنصار ، ولم يرزق من النضج والسداد ما ينافس المذاهب الأخرى . وقد كان الأستاذ صاحب المدخل حرياً أن يسه ما وسع النخاعة من قبله ، أو أن يستريب في رأى ابن مضاء ، فلا يقدم على تحييده واعتاقه ، قبل تمحيصه وتبين الحق فيه .

(ب) وفي ص ٥١ ، وما بعدهما : ينعي على النخاعة تقسيمهم العوامل ، إلى عوامل قوية ، وعوامل ضعيفة ، ووضعهم للعمل شروطاً وحدوداً . والنحويون إذ يشترطون للعمل شروطاً ، إنما يستنبطون ذلك من الكلام العربي ، على حسب ما بلغهم عن العرب ، أو شافوهم : وقد كان منهم من خالط العرب في محاوراتهم وأحاديثهم . كأبي عمرو بن العلاء ، والخليل ، والكسائي ، فلم يضعوا ما وضعوا من ذات أنفسهم ، ولا اتباعاً لهوى أو خيال .

(ج) هـ ، فـ ، و ، لا ، الحجازيتان ، هل يرى أن يرتفع المبتدأ بعدهما ، وينتصب الخبر دون شرط : فيقال : ما مسيئاً من أعتب ، وما محمد إلا رسولا ؟ وهل يرى إذا قيل هذا أن هذا القول موافق لغة الحجاز ؟ إن النحويين لم يفعلوا بشروطهم إلا أن يكونوا أمناء في تصوير الصورة التي نطق بها الحجازيون ، وما كانوا في شروطهم مسرفين أو راغبين في التعقيد .

(د) وكذلك القول في نواصب المضارع : يرى الأستاذ إهمال شروطها ، ووضع شروطها يحقق ما جرى عليه العرب ، والإخلال بها إخلال بنظمهم ؛ ولو درسنا من النواصب (إذن) وجرى على مذهب صاحب المدخل ، فوضعنا أنها تنصب مطلقاً ، لكان الدارس لهذا ينصب المضارع ، في نحو (زيد ينبج إذن) ، و (هو إذن ينبج) والنصب في هذا لا يوافق لغة العرب .

(هـ) ويقول في شأن حروف الجر : إن النحاة يشترطون فيها أن تتكرر حين تعمل في اسمين متعاطفين ، وأن تتصل بمعمولها . ويعاهد نفسه أن يحذف هذا من النحو الجديد .

والحكم الأول الذى نسبته إلى حروف الجر أرسله حيث قيده النحاة ، وكأنه جرى على طريقته في الإرسال والإهمال ، وما هكذا يساعد تورد الإبل . ذلك أن النحاة إنما يضعون هذا الحكم عند العطف على الضمير المخفوض ، بحرف أو اسم : كما في قوله تعالى : « فقال لها وللأرض : فأما في غير ذلك نحو : مررت بمحمد وعلى ، فلا يقول نحوى بوجوب التكرار : ومن ذلك قوله تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات » . على أن المسألة الأولى ليست بمجما عليها : فن النحويين من لا يوجب التكرار ، ويخرج على ذلك قراءة حمزة : « واتقوا الله الذى تسألون به والأرحام » ، بجر الأرحام - ، وما جاء دون تكرار قول الشاعر :

فاليوم قد بت تهجونا وتشتبنا فاذهب فما بك والأيام من عجب
وقد عرض لهذا ابن مالك في قوله : *تأنيدي*
وعود خافض لدى عطف على ضمير خفوض لازما قد جعلنا
وليس عندي لازما ؛ إذ قد أتى في النظم والنثر الصحيح مثبتا

فأما الحكم الثانى الذى نسبته إلى حروف الجر - وهو أن تتصل بمعمولها - فتراه يهمله أيضا ولا يقول به ، فيجوز على هذا أن تقول : لقيت في محمدا الطريق ، تريد لقيت محمدا في الطريق . وقد يوافقنى القارىء على أن هذا لا يطابق النطق العربى ، بل لا أخطئ إذ قلت : إنه لا يوافق اللسان العامى الذى هو على إرث من اللسان العربى .

(و) وترى صاحب المدخل في القول في ترتيب النحو ، على أثر إلغاء نظرية العامل ، يرى أن يقرن الفعل المضارع المتصل بنون التوكيد ، مع الفعل المضارع المنصوب ؛ إذ لا فرق بين التقييلين ؛ فالمضارع مفتوح فيهما . فإما أن يجعل الفتح فيهما من قبيل الإعراب ، أو من قبيل البناء . فأما التفريق بينهما ، فهو من آثار العامل ؛ وإذ بطل المؤثر بطل الأثر ، كما يقول المتكلمون . ولكن المنصف يرى

أن النحويين تحملوا على الفرق بينهما لوجود فوارق حرية بالاعتبار . فالفعل المضارع المنصوب يتغير حاله إذا دخل عليه جازم ، أو إذا خلا من الناصب والجازم . وليس الأمر كذلك في المضارع المتصل بنون التوكيد : فإن آخره لا يتغير . فمن ثم جعل أحدهما مبنيًا ، والآخر معربًا : وأيضا فإن المنصوب يتبع بالنصب ، تقول : يعجبني أن تسر أباك وتواصل أخاك ؛ فأما الفعل المضارع المتصل بنون التوكيد ، فقد يكون محله جزما ، فيتبع بالجزم ؛ تقول : إما تجتهدن في دروسك وتتفهمها تنجح ، يجزم وتفهمها . فترى من هذا أن النحاة غير عابئين فيما صنعوا . وهكذا يقال فيما رأى من قرن الفعل المضارع المتصل بنون الإناء ، مع الفعل المضارع المجزوم . ولا أراي في حاجة إلى بيان هذا وتوضيحه .

(ز) وفي النحو الجديد يرى أن يجعل المرفوع بعد كان فاعلا ، والمنصوب حالا . كما يرى الكوفيون : وهذا رأى غير ناضج ؛ فإن العمد بالحال أن يكون نكرة : تقول : جاء محمد ضاحكا ، حين تريد الحال ، ولا تقول : جاء محمد الضاحك ؛ وكان ذلك ، لأن الوصف في هذه الحالة يراد به الحدوث والتجدد ، وهو في هذه الحالة في موقع الفعل ، فلا يلائمه التعريف . والمنصوب في باب كان ، كثيراً ما يكون معرفة .

(ح) وتراه يجعل المرفوع بعد ما ، ودلا ، الحجازيتين مبتدأ ، والمنصوب خبراً : وقد يكون هذا جالبا للعسر في دراسة النحو ؛ فإن هذا يلزم الطالب أن يراعى تقسيم خبر المبتدأ إلى خبر مرفوع ، وإلى خبر منصوب ، والخبر المنصوب يكون في كذا وكذا : وخير من هذا ، وأعون على الضبط ، صنع النحاة . وتراه في هذا الموطن يورد المثال : (ضربني العبد مسيئاً) ، ويجعل مسيئاً خبراً عن ضربني ، ويعرف عن رأى النحاة في جعل مسيئاً حالا والخبر محذوفا ؛ ذلك أن من رآه العزوف عن الحذف والتقدير . ولكن المعنى لا يستقيم على تخريجه هذا ؛ فإن هذا يقضى بالحكم على ضربه العبد بأنه مسيء ، والمتكلم لا يريد هذا ، وإنما يريد أن الضرب وقع على العبد حال إساءة العبد ، وأنه حل بمن يستحقه .

وتراه بعد هذا يعرض للنبيت :

أبا خراشة أما أنت ذا نفر فإن قومي لم تأكلهم الضبع

ولا يرضى تخريج النحاة ؛ إذ يجعلون ذا نفر خبراً لكان المحذوفة ؛ ويرى

أن ذا نفر خبر المبتدأ الذى هو أنت ، ولا ضير عنده أن ينتصب خبر المبتدأ على الشذوذ . ومن المقرر ألا يلجأ فى التخرج إلى الشذوذ ما كان عنه مندوحة ؛ وحذف كان ثبت فى مواطن كثيرة ، لا يسع صاحب المدخل إنكارها : وإلا فإذا يرى فى قولهم : إن خيراً فخير ، والتمس ولو خاتماً من حديد ؟

وتراه بعد هذا فى ص ٥٥ : يذكر أن خبر المبتدأ قد يكون مجروراً بحرف الجر الزائد ، فلا بدع أن يكون منصوباً ، والنحويون يقدرّون الخبر المجرور مرفوع المحل ، حتى ليراعى الرفع فى التابع ؛ تقول : ما زيد بقائم ولا قاعد ، بالرفع ؛ وذلك فى لغة التميميين .

(ط) وفى ص ٥٥ ، وما بعدها ، يعرض للنصب والمرفوع بعد (إن) وأخواتها ، فيجعل المنصوب مبتدأ ، والمرفوع خبراً لمبتدأ : وهذا أيضاً فيه تفسير : لما علمت أن الطالب سيؤخذ بتفصيلات عديدة ، وتقسيات هو فى غنى عنها ، بما وضع النحاة من تمييز كل نوع بحالة لا تلتبس بالآخرى .

(ي) وهو يرى ألا يفرد باب — لظن وأخواتها — وأن يجعل ذلك فى باب تعدى المفعول به ؛ وإذا علم القارئ أن المفعول — ظن وأخواتها — أحكاماً خاصة ، عمل عليها العرب ، وراعوها فى كلامهم : كإلغاء والتعاقب ، لا يسعه إلا أن يفرد لها باباً ، كما صنع النحاة . وهذا لئلا يشتبه أمر هذه الأفعال ، بنحو : أعطى وكسا .

وبما يسترعى النظر فى هذا المقام ، أن صاحب المدخل يأبى عن فكرة التعدى وال لزوم فى الأفعال : لأنها تدل على العمل ، وترتبط به ؛ وهو يوصى بأحد هذه الاصطلاحات : واقعة وغير واقعة . مجاوزة وغير مجاوزة ، مؤثرة وغير مؤثرة . وبحل العجب رضاه بالاصطلاح الأخير : وفيه من التصرّيح بتأثير الفعل وعمل العامل ما ليس فى المتعدى وال لازم .

(ك) وفى ص ٥٧ : يذكر أن النحويين فى باب الفاعل ، قلما وقفوا وأشاروا إلى صيغه الخاصة حين يخرج من الرفع إلى الجر : ومن المعروف أنه يحجر بمن الزائدة بعد النفي والاستفهام ، فى مثل : هل جاء من أحد ؟ وأيضاً فإنه يحجر

في عبارتين دائماً : وهما : كفى بالله شهيداً ، وصيغة التعجب ، في مثل : « أسمع بهم وأبصر ، والواقف على كتب النحو يرى أنهم عرضوا في باب الفاعل لخروجه من الرفع الى الجر : يرى هذا في التوضيح وشرحه ، ويراها في الأشموني ، إذ يعقد أحد تنبيهاته لهذا الحكم .

(ل) وفي ص ٥٨ : يذكر من الشذوذ في باب الفاعل بحيثه جملة ، ويقول : ويجب أن نصور ذلك فيه : فنذكر أنه يأتي جملة باطراد بعد : أن وأن ولو وما ، ، فتراها يجعل مجيء الفاعل جملة شاذاً ، ثم يجعل منه ما هو مطرد : والمعروف أن الشاذ لا يكون مطرداً . فهل تراه لا يعبأ بالاصطلاح الذي لا بد منه في العلوم ؟ ! ولعله يريد أن الأصل في الفاعل أن يكون مفرداً ، وبحيثه جملة خلاف الأصل ، وهذا هو المعنى بكونه شاذاً . وأياً ما كان الأمر ، فهو يعتمد الخروج على ما قرره النحاة ، وهو جعل الفاعل بعد الحروف المذكورة مفرداً ، هو المصدر المنسبك كما يقولون : وذلك أن قولك : يسر المرء ما ذهب الليالي ، يساوى تماماً : يسر المرء ذهاب الليالي : ولا يحسن الناطق بالكلام الأول ، أنه نطق بجملتين . فقد يكون نظر النحويين أسد .

(م) وفي ص ٥٩ : يذكر من أنواع التمييز ، التمييز بعد الضمير ، نحو : لله دره فارسا ، والضمير في هذا الأسلوب ليس بشرط : فلو قلت : لله در محمد فارسا ، لم يتغير الأسلوب .

وأراني بعد هذا قد أبديت ما عن لي حين قراءة المدخل ، لكتاب ابن مضاء ، ولست أدعي العصمة من الخطأ ، وإنما هو بحث أعرضه ، وإني لمتن على صاحب المدخل غير كافر له . والله يهدينا جميعاً سواء السبيل ؟

حسن التوسل

أتى عبد الملك بن مروان بأعرابي سرق ، فأمر بقطع يده . فأنشأ يقول :
 يدى يا أمير المؤمنين أعيدها بعفوك أن تلقى مكانا يشينها
 ولا خير في الدنيا وكانت خسيصة إذا ما شمالي فارقتها يمينها
 فأبى أمير المؤمنين إلا قطعها . فقالت أمه يا أمير المؤمنين : إنه واحد
 وكاسي . قال : بثس الكاسب كان لك ، وهذا حد من حدود الله . قالت :
 يا أمير المؤمنين اجعله من بعض ذنوبك التي تستغفر الله منها . فعفا عنه .

مسئولية الاطباء

لحضرة الاستاذ الدكتور أحمد محمد ابراهيم
القاضى بمحكمة المنيا الوطنية

جراحة التجميل :

قلنا إنه يجب أن يكون تدخل الطبيب بقصد شفاء المريض وإلا فهو مسئول .
ولكن ظهرت فى العهد الأخير رغبة قوية - خصوصا بعد الحرب العالمية الأولى -
نحو معالجة بعض العيوب الخلقية بإجراء عمليات جراحية لإزالتها ، لما يترتب
على بقائها من جعل المشوهين محل سخريه الناس ، فضلا عما يشور فى نفوسهم
من الغم والسكد ، لما يحسون به من نقص عن سواهم من البشر : فسا حكم هذه
الجراحة التى سميت بجراحة التجميل ؟

الرأى الراجع فى فرنسا ، هو أن العمليات التى لا ينتظر أن يتخاف عن
إجرائها خطر ، تعد من الأعمال الطبية المشروعة : أما إذا كانت خطرة فلا يجوز
القيام بها .

ويرى الفقهاء الألمان أن جراحة التجميل عمل تقره الدولة ، ولا يستوجب
المسئولية .

ويرى علماء بلجيكا إباحة جراحة التجميل ، ما لم تمنع من أداء واجب اجتماعى .
وهن الواضح أن جراحة التجميل مباحة لدى جمهور فقهاء الشريعة ما دام
أساس الإعفاء من المسئولية هو رضا الشخص المعالج : وظاهر أنه فى هذه
الحالات يكون تدخل الطبيب بناء على طلب ورضا المعالج : ومن ثم فلا محل
للمسئولية .

وقد سبق أن بينا أننا لا نقر جعل الرضا أساسا للإعفاء من المسئولية :
ونرى فيما يختص بجراحة التجميل أن المسألة تتوقف على العيب المطلوب علاجه

ومدى تضرر صاحبه منه ، وهل يلحقه منه عاروشين أم لا . والمسألة تقديرية نرى أن يترك الفصل فيها للمحاكم وفقا لظروف كل حالة ، فما يعد عيبا في المرأة قد لا يعد عيبا في الرجل ، كما أن بعض الأشخاص كثيرا ما يقدمون على إجراء هذه العمليات لا ليزيلوا عيبا بل ليزدادوا جمالا . ويجب أن يدخل في الاعتبار أيضا مدى خطورة الجراحة التي سيجريها الطبيب ؛ فإن كان الأمل في نتيجتها أوفى الشفاء منها ضعيفا ، فتمد وجب أن تمتنع . مهما كانت صفة العيب المطلوب إزالته .

وليس القول بجواز إزالة العيب الخلقي مخالفا لأحكام الشريعة ، بل على العكس ؛ فإنها إن لم تكن توجهه فهي لا تحرمه ؛ فقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن بعض العيوب الخلقية تمتنع من انعقاد الإمامة ، وهذا يوحى بأن من الواجب إزالة هذه العيوب متى كان ذلك ممكنا . قال هؤلاء الفقهاء : إنه يمنع من انعقاد الإمامة ، ما شان وقبح ولم يؤثر في عمل ولا نهضة كجدع الأنف وسمل إحدى العينين ... فالسلامة منه تكون شرطا معتبرا في عقدتها ليسلم ولاية الملة من شين يعاب ونقص يزرى فتقل به الهيبة . وفي قلتها نهور عن الطاعة ، وما أدى إلى هذا فهو نقص في حقوق الإمامة ^(١) .

ثانيا : يجب أن يكون العلاج طبقا لقواعد مهنة الطب . فمن المفروض على الطبيب أن يراعى أصول المهنة عند معالجة المريض ، فإذا خالفها وجب أن يسأل عن ذلك ، وهو لا يسأل إلا عن الخطأ الجسمي ، أما الخطأ في الآراء أو الوسائل الفنية المختلف عليها بين الأطباء فلا يسأل عنه مهما كانت نتيجته . والعلة في إعفائه من المسؤولية في هذه الحالات هي الرغبة في إعطاء الطبيب شيئا من الحرية حتى يمكن لعلم الطب أن يتقدم .

وإذا تجاوز الطبيب حدود عمله متعمدا فإن مسؤوليته تكون مسؤولية عمدية : أما إذا كان قد أخطأ فإنه يسأل مسؤولية غير عمدية .

وهذا الشرط محتم لدى فقهاء الشريعة الغراء . ونرى قبل أن نستخلص القاعدة

(١) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٨ .

العامه في هذا الموضوع عندهم أن نذكر شيئاً مما جاء في كتب الفقه عن هذا الموضوع ، ليتضح للقارىء الأساس الذى أقنأ عليه رأينا .

جاء في كتاب معين الحـكام ، إذا حـجم الحـجام أو بزغ البيطار أو ختن الختان فمات ، لم يضمن . هذا إذا لم يجاوز موضع الفعل ؛ فإن جاوز موضع الفعل فقطع الحشفة ؛ ذكر فى النوازل أنه إن مات فعليه نصف بدل النفس ، فإن برى فكمال بدل النفس ، لأنه مات بجرحين وهو مأذون فى أحدهما . وفى ديات شرح الطحاوى : فعليه القصاص ، ولو قطع بعض الحشفة لا قصاص عليه . ولم يذكر ماذا يجب عليه . وفى الفتاوى الصغرى فى كتاب الديات : يجب حكومة العدل .

الكامل : إذا صب الدواء فى عين رجل فذهب ضوءها لا يضمن كالختان إلا إذا غلط . حجام قال لآخر : فى عينك لحم إن لم تزله عميت عينك ، فقال : إني أزيله عنك ، فقطع الحجام لحماً من عينه وهو ليس بخاذق فى هذه الصفة فعميت عينه ، يلزمه نصف الدية .

سئل نجم الأئمة الحلبي عن صبية سقطت من السطح فانفتح رأسها فقال كثير من الجراحين : إن شققتم رأسها تموت ، وقال واحد منهم إن لم تشقوه اليوم أنا أشقه وأبرئها ، فشقه ثم مات بعد يوم أو يومين : هل يضمن ؟ فتأمل ملياً ثم قال : لا ، إذا كان الشق بإذن وكان معتاداً ولم يكن فاحشاً خارج الرسم . فقيل له : إنما أذنوا على أنه علاج مثله . فقال : ذلك لا يوقف عليه ، فاعتبر نفس الإذن . قيل له : فلو قال هذا الجراح : إن مات فأنا ضامن : هل يضمن ؟ قال : لا (١) .

وجاء فى كتاب تبين الحقائق ، لا يضمن - حجام أو بزاع أو قصار لم يعدد الموضع المعتاد ، لأنه التزمه بالعقد فصار واجبا عليه ، والفعل الواجب لا يجمع الضمان ، كما إذا حد القاضى أو عزروا مات المضروب بذلك ، إلا إذا كان يمكنه التحرز عنه كدق الثوب ونحوه ، لأن قوة الثوب ورقته يعرف به ما يحتمله من الدق بالاجتهاد ، فأمكن تقييده بالسليم منه ، بخلاف الفصد ونحوه فإنه ينبئ على قوة الطبع وضعفه ، ولا يعرف ذلك بنفسه ولا ما يحتمله من الجرح ، فلا يمكن تقييده

(١) معين الحـكام ص ١٩٨ .

بالسليم ، وهو غير السارى ، فسقط اعتباره ، إلا إذا جاوز المعتاد فيضمن الزائد كله إذا لم يهلك ، وإن هلك يضمن نصف دية النفس (١) .

وفي متن الأمير وحاشية حجازى العدوى عليه : أنه إذا جهل الطبيب ضمن . وظاهره أن الضمان عليه في ماله . وهذا ظاهر سماع أشهب . ويضمن أيضا إذا قصر كأن أراد قلع سن فقلع غيرها خطأ أو تجاوز - بغير اختياره - الحد المعلوم في الطب عند أهل المعرفة ، كأن زلت أو ترامت يد خاتن ، أو سقى عليلا دواء غير مناسب للداء معتقدا أنه يناسبه وقد أخطأ في اعتقاده (٢) .

وإذا خلع الطبيب سنا غير المتفق عليها ، فإن كان ذلك عمدا فعليه القصاص ، وإن كان خطأ فالعقل (٣) .

ونص في مذهب الإمام أحمد على أنه لا ضمان على حجام ولا ختان ولا متطبب إذا عرف منهم حذق الصنعة ولم تكن أيديهم . فإذا لم يكونوا ذوى حذق في صناعتهم ولا لهم بها بصارة ومعرفة لا يحل لهم مباشرة القطع . فإذا قطع أحدهم مع هذا كان فعله محرما فيضمن سرايته كالقطع ابتداء . وكذا يضمن الطبيب إذا كان حاذقا ولكن وقع منه إهمال لا يجوز أن يقع منه كأن يجاوز قطع الختان إلى الحشفة أو إلى بعضهما ، أو قطع في غير محل القطع ، أو يقطع بآلة كآلة يكثر ألمها ، أو في وقت لا يصلح القطع فيه ، وأشباه هذا .

والذى يمكن استخلاصه من الأحكام المقدمة هو أن الطبيب الحاذق لا يضمن إذا قام بواجبه على الوجه الكامل بأن اتبع قواعد الطب والجراحة في معالجة مريضه مهما كانت نتيجة العلاج ، فيستوى في الحكم أن يشفى من مرضه أو أن يلقى ربه .

وكذلك لا يسأل الطبيب إذا أخطأ في عمله خطأ يسيرا يمكن أن يقع فيه أى طبيب ، أما إذا كان الخطأ مما لا يجوز أن يقع فيه طبيب بأن كان ناتجا عن جهل أو خطأ فاحش ، فإنه يسأل عن فعله ، ومسئوليته تكون مسئولية غير عمدية .

(١) تبين الحقائق ج ٥ ص ١٢٧ ، وعلل المؤلف كون الواجب في حال الهلاك نصف الدية بأن النفس تلفت بمأذون فيه وغير مأذون فيه ، فيضمن بحسابه وهو النصف ، حتى إن الختان لو قطع الحشفة وبرأ المقطوع تجب عليه دية كاملة لأن الزائد هو المشقة وهو عضو .

(٢) متن الأمير وحاشية حجازى العدوى ج ٢ ص ٤٠٦ (٣) المرجع السابق ص ٢٥٩ .

عود على بدء

السيد القاياتي

لحضرة الأستاذ السيد عناني

شكر الله للمجلة الأزهر صنعها في إفساح المجال لدراسة شاعر خل ، من شعراء الأزهر ، هو : السيد حسن القاياتي : وجزى ناسج بردها ، الأستاذ الجليل عبد الجواد رمضان ، خير الجزاء ، أن فتح لعشاق الدراسات الأدبية الرفيعة ، هذا الحصن الشامخ ، من حصون الأدب ، التي تهيب الدنو منها كثير من الدارسين . وما أريد أن أعقب على الأستاذ ، فيما أورد للسيد من ترجمة ، ولا فيما قدم من عرض لآثاره : فإنه لحقيق بأن يكون ابن بجدة ذلك : وإنما أحب أن أجلي رأي المتواضع ، فيما انتهى إليه من حكم ، قد لا يتفق كثيراً . مع ما قدم من مقدمات ، وما عقد من مقارنة بينه وبين شاعر دار العلوم : الأستاذ محمود غنيم ، وهو واحد من الشعراء الذين يسمون هم أنفسهم بالسيد عن مستواهم الشعري ، وما قرر في دراسته من أن « شاعرنا القاياتي مضى بجزالة الأسلوب الشعري ونغمته ، وشرف المعنى ودقته ، بلا جدال . وما أحاشى من شعراء النهضة الحديثة من أحد لا من الأموات ولا من الأحياء . . . » فإن هذا التقرير بدتياً ، وهو حق في جلته ، يقتضى ألا تعقد مقارنة بينه وبين أحد ، وأن يكون المجلّي دائماً حتى فيما توارد عليه وغيره من معان ، وأن يكون المفن المتأنق عند ما يقيم أنموذجا من نماذج الفن الرفيع ، يقف المشاهد عنده مأخوذاً مشدوهاً ، لا ذلك البناء الربني الذي يشيد من شعره هيكل من الصخر : « فإن » من مضى بجزالة الأسلوب ونغمته بين الشعراء ، أضن بخرائد الشعر أن تستحيل بين يديه إلى صخور . . ومن ثم فإني آمل ألا يؤاخذني الأستاذ في أن أخالفه فيما انتهى إليه من حكم ، يبدو أنه تأثر فيه بشذشة الجماهير وحكمها الفطير : فلا ريب في أنه مؤمن معي

أن الجماهير لا تستطيع التغلغل في دقائق الفنون الرفيعة عامة ، في أي عصر من العصور ، ولا في أي أمة من الأمم - على تفاوت بينها في ذلك - . ولا ريب في أن رسالة الفن ، في أي ناحية من نواحيه ، هي إرشاد هذه الجماهير ، وتهذيب شعورها ، والسمو بمستواها الفني ، حتى تستطيع أن ترتفع إلى تصور المثل العليا في الحياة ؛ ومن ثم فإنها لن تفهم ذلك بدياً ولا تقبل عليه إلا أن تسنح لها الفرص أو يوجد من يهديها إليها . وعلى ذلك لابد أن يكون ما يقدمه الفنان فوق مستواها مع أن النزول إليها في الوقت نفسه أيسر سبيلاً وأقل كلفة وعناء ؛ بيد أن هذا ليس غرض الفنان الحق الذي يؤمن برسائله ، ويعرف أن مهمته هي إرشاد هذه الجماهير إلى المثل العليا في الحياة ؛ وإلا ما شهدت الدنيا روائع الفن التي قدمها مبدعوها في مختلف العصور قرباناً خالصاً للبشرية ، غير مباليين برضاء الجماهير ولا غضبها ؛ هذه الجماهير التي أبدع القاياتي وصفها - من حيث تقديرها للشعر - إذ يقول :

طائر الصيت لديهم كل من أرسل الشعر سقيماً أو لحن
وقد سجل لنا التاريخ أن كثيراً من الفنانين ضحوا بعيشهم وسمعتهم ، بل بحياتهم كلها ، إيماناً منهم برسالتهم وجعل أجيالهم ، إلى أن أتت أجيال باعدت بينها وبينهم السنين ، فأرسلت آيات تقديرها وعرفانها إلى أرواحهم ، وعطرت بتقديرها لهم تاريخهم ؛ وتلك قضية أعتقد أن الأستاذ عبد الجواد موافق عليها .
وعلى ضوء هذا نعرض لدراسة بعض آثار السيد ، من حيث الغرض الفني للشعر ؛ وليكن مثالنا قصيدته في رثاء المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق ، مقارنة بما أورده الأستاذ من قصيدة الشاعر محمود غنيم في نفس المقال ، والشاعران - عندي - من مدرسة واحدة ، ومذهب شعري واحد ، إذ أن ثقافتها واحدة ، وليس كما يذهب الأستاذ عبد الجواد من أنهما يمثلان مذهبين مختلفين ، ولا تفاوت بينهما إلا بمقدار تفاوتهما في الموهبة الشعرية ، ورسوخ القدم في الفن .

يذكر غنيم بيت عبد الرازق فيقول :

نمته أصول لو نمتي النجم بعضها لحرك عطفه من التيه إن بدا
ورباه بيت يخدم الناس شيخه وإن كان فيه الطفل يولد سيدا

على البر والتقوى تأسس ركنه ومن لبنات العلم والدين شيئا
ويذكره القبايات فيقول :

الشمس بيتك ، والعلا تنهل عارفة ، وجاها
عرفوا أباك فسدتهم والشمس ما عرفوا أباهما
للدين بيت ثقافة للجامعات ، وما بناها
في هدى طه يعتلى ناديك ، أم في علم طه . ا

ويعرض غنيم موقفه من الأزهرين فيقول :

فنى حرر الإسلام من رق معشر يرون الجرىء الحر ليس موحدًا
قضى واجب الأوطان والذين كاملا وأصدر في كل الأمور وأوردا
ولم يقض في ظل الصوامع عيشه قعيداً ، وليس المسلم الحق قعيداً
ويعرض لهم القبايات فيقول :

يا سيداً عصفت به شيم الجلالة ، وابتناها
فكتك بنفسك عزة كالنار يتلفها لظاها ... ا
كرم أحـل بربه تلف الأزاهر في نداها ... ا
ضحك الغـواة لنبله فبكى الفضيلة وافـداها
أنف الهوان بساحة البـدرُ يشرق في ذراها

ولن نمضى في إعادة ما أثبتته الأستاذ رمضان ، وإنما نكتفى بهذه الأبيات لكل من الشعارين ، في غرض واحد تواردا على بعض معانيه ، وسيرى القارىء أن غنيم مع تقديرنا له وعلى سهولة شعره وجمال تراكيبه ، متأثر أليماً تأثر بأخيلة القدامى ومعانيهم ، وأنه لم يسجل معنى جديداً ، ولا تشبهاً مبتكراً : بل صور لنا في بساطة محبة بيت عبد الرازق على ما كان عليه فعلاً ، ولم يزد على حكاية الحال المشاهدة بالبصر !!

أما القاياني فإنه يعرض لنا في كل بيت معنىً جديداً مبتدعاً ، في لفظ أنيق رشيق ، فيه جمادة الاستبصار وقوة الأسر : وتلك إحدى مميزات القاياني ، التي جعلت له طابعاً خاصاً تفرد به ، كما تميز بدقة التشبيهات وابتداعها ، فلا يقع منها إلا على كل فريد حسن في موضعه ، واشتغال كل بيت من أبياته على فكرة مستقلة تقرأ بها النفس ، أو صورة ذهنية يسعد بها العقل والفكر . وتأمل أبيات السيد المذكورة آنفاً ، تدلُّك بنفسها على ما فيها من جمال فني ، وابتداع في التشبيه البياني ، وبخاصة البيتين : الثاني والثالث .

وستجد أن الطاقة الفنية عند الأستاذ غنيم محدودة بحكاية الحال ونقل الصورة المشاهدة ، على رغم رنين الألفاظ وجرسها ؛ ولا شك أن المعاني المستخرجة من غير شاهد الحال أصعب منالاً من المصورة للواقع المشاهد ؛ وكما يقول ابن الأثير : « وللمهجوم على عذارى المغاني المحمية بحجب البواتر ، أيسرُ من الهجوم على عذارى المعاني المحمية بحجب الخواطر » .

ولقد بنى الأستاذ عبد الجواد حكمه على الشاعرين على اعتبار أن الأول يمثل الرقة والعدوثة التي تستهوي الجماهير ، وأن الثاني يمثل الجزالة التي لا تستهوي إلا الخاصة التي لا تكاد تذكر . وفي هذه المناسبة نحب أن نسأل الأستاذ عن الفرق بين الجزالة والرقة ؟ اللهم إن كانت الجزالة هي المتانة في اللفظ ، مع عدوثة في الفم ، وحسن وقعه على السمع ، وكانت الرقة هي اللطافة في التعبير مع بعده عن الإسفاف والصنعة ، مع سلاسته وخلوه من التعقيد ، فإنه ليس ثمة فرق يذكر بينهما سوى ما يدركه السامع الخبير بذوقه من فرق بين لفظ وآخر ، وأدائه للمعنى الذي حمله ؛ ولم يبق من فرق فعلي سوى السمو في المعنى ، وشرف الفكرة التي يتناولها الشاعر ، ودقة الصورة التي يريد أن يبرزها .

ولقد ظل الشعر العربي منذ انحلال الدولة العباسية يدور في دائرة واحدة تقريباً ، هي دائرة اللفظ ، وجعلها الشعراء حلبة تسابقهم ؛ أما المعنى ، أما التحليق في دُنَى من المعاني ، وابتداع صور جديدة يزودون بها عالم الفكر ، فهذه لم تكن لهم على بال ، حتى صَحَّ لبعض النقاد أن يهتموا الشعر العربي بأنه مشغلة الفارغين ، وهم في ذلك جند معذورين .

فإذا وافقنى الأستاذ على هذه القضية أيضاً ، وهى أنه ليس ثمة مانع من أن تجمع الرقة والجزالة فى واحد ، وأن كل جزل رقيق وبالعكس - سوى ماتمليه المناسبات الخاصة من اختيار الفاظ معينة قد تبعد عن الرقة أو الجزالة قليلاً أو كثيراً - فإننا نكون قد وصلنا الى أن السيد قد جمع بين الغيتين ، وتفرد بالحسنين بين شعراء النهضة ؛ وحسبى فى الاستدلال نفس الأبيات التى أوردها الأستاذ ووسمها بحق بأنها سحرٌ من السحر ، وإن أطلق عليه الشعر . وهى التى منها :

إن فى الغادين منى طفلة قام بدعُ الحسن منها وقعد
مُصوّرت من جوهر الشمس فما هى إلا ريقُ السّور جمدٌ .
أوقد الحسنُ على وجنتها جمر قاي . فتلظى واتقـ
يمكف الطرف عليها مُغضياً قد رأى قبلة حسن فسنبدا

ليت شعرى هل رأى الشعر العربى فى أزهى عصوره ، بل فى كل عصوره ، شعراً يُسَمُّو هذا الشعر رقة وعذوبة وجمالاً ؟ وهل رأت البلاغة العربية أزهى من هذه الصور المتلاحقة ، فى قلب مُحبٍ يودع حبيبته ؟ إنه فى فنان ماهر ، بكل ما فى هذا اللفظ من قوة .

ومما يشهد لشاعرنا برسوخ القدم فى فنه ، وحساسيته المرهفة ، فى الوقوف على الفرق الدقيق بين الجزالة والرقة ، مقصودته فى حرب طرابلس سنة ١٩١١ ، والى آورد الأستاذ شيئاً منها ، ولا أمل بتكراره ؛ بل أورد شيئاً من قصيدته فى ثورة دمشق فى سنة ١٩٢٥ وما فعله بها الفرنسيون :

لغير الهدى أجلب العاصف وللنبل أن يغضب الآنف
إذا رسف الشعب ذاق الفناء كأن الهواء هو الراسف
قبول المظالم يغرى الظلوم كما لج فنانك الصادف
إذا عطل الشعب هماته فأنبل ما يرتجى حاتف
بلاء الدخيل وكيد العشير كما اجتمع النار والعاصف

هو الغرب : لا قلبه نابض برحى ، ولا طمره ذارف
حرى بنفكيره أن يسيل نجيعاً كما يطرق الرافع
تباب لعديه ، لا يومه أعان ، ولا أمسه السالف
أسى للحليفة إذ غدرها تليد ، وإذ حلفها طارف
لقد جدد الغرب حتى العيون غزا الشرق فتانها الشاغف
كان الدنانير غريبة فوارس جحفها زاحف

والقصيدة في نحو السبعين بيتاً كلها على هذا الفسق الفريد الطراز، قوة وجزالة،
حتى أنت ألقاظها كما يقول ابن الأثير : كأشخاص عليها مهابة ووقار .

ولما كان شاعرنا طليعة المجددين لديباجة الشعر وأخيلته ومعانيه ، فإننا
نجدل مميزات شعره لتبين مدى أهدافه ومقاصده ، وحدود رسالته وأوضاعها ،
ولنستطيع تفهم أدبه وفنه ، فنقول : إنها :

- ١ — التألق في اختيار اللفظ مع صفائه وعذوبته .
- ٢ — ابتداع صور من المعاني لم يسبق إلى أكثرها .
- ٣ — جمال التشبيهات المنزوعة من المدركات الحسية .
- ٤ — استقلال كل بيت من قصيدة بفكرة مستقلة .
- ٥ — تخيير الأوزان والقوافي التي لم يطرقها كثير من الشعراء .

وليست هذه كل مميزات شعر السيد ، وإن كان بعضها حسب شاعر من غار؛
فاذا علمت إلى ذلك أنه ظل طوال حياته ، يرسل شعره في شتى الأغراض ،
لا يقصد به إلا إرضاء رغباته الفنية البحت ، علمت أن له هدفا يقصده ، ورسالة
معينة ؛ وذلك أن يحدد شباب الشعر ، ويميد إليه مجده الفني من حيث السمو
في المعنى ، والإشراق في التعبير ، وتزويده بصور جديدة من الاخيلة ، متخذاً
من منابع اللغة الأصلية معينه ، ومن هدى القرآن مثله . أو كما يقول هو نفسه
واصفاً بيانه :

بيان هاد غذته آى من المثاني فرق آيا
يراعة صرفت جمالا كما يشق اليراع قابا

ولقد مضى شاعرنا في تحقيق أهدافه وأداء رسالته ، في هدوء هو طبيعه ،
وسكون هو سميته ، وسماحة هي ديدنه ، وانصراف عن الضجة والدعابة الزائفة ؛
وظل على ذلك عمره — مد الله فيه — مؤمناً بحق ، أنه إن لم يفهمه جيله فسيأتي
من بعدهم من ينصفه ويثأر له ؛ وهذه الخلال ، وتلك السجايا هي التي جنت عليه
وباعدت بينه وبين الجماهير ، لا شعره ولا فنه ، وإن كان إرضاءها أيسر من لا
وأقرب سبيلا . ولكن للرجل مثالية فنية عبر عنها إذ يقول :

ليس طيب الذكر حقا كاه يذكر البدر بحسن ما فتن
ومثالية أخلاقية تمثل في قوله :

عصى الجلالة لا أعزى إلى الهون لولا سجود الصلاة
هذا وليس الرجل بالقليل الخبرة بوسائل العصر ، والوصول إلى ما يريد ؛
فهو في ذلك ذو الناب والمخالب ، ولكنه يعتصم بخلقه وسجاياه ، وقد يسر إليه
في أسباب الرزق والنعمة . واسمعه يصف عصره هذا الوصف الدقيق إذ يقول
في قصيدة ضافية :

يا عصر ما فيك من عتوَاد يا عصر ما فيك من خفايا
ما للثنايا ترف بشرا على الجوى يصدع الحنايا ؟
علام تزهى بعصر علم تدم في حمده التحايا ؟
لدى البغايا لنا خلال وما لنا رقة البغايا !!
نطالع الحفل بالمخازي يا قبح لا تنظر المرايا
والآن وقد وصلنا إلى هذا المدى من البيان ، لا تغالي إذا قلنا إن السيد بحق
رائد جيله وطليلة مجديده ، وشاعر البيان الأصيل ، وواصف الجمال الرائع ؛
وإن من الجناية على الذوق الفني لأبناء هذا الجيل أن يقال إنه شاعر الخاصة
وحدهم . وإليك طاقات من أزاهيره هي خير ختام لهذا الحديث :

قال يصف شجرة صناعية زينت بعقود من ثريات الكهرباء في قصيدة
طويلة منها :

لقد أورك الغصن حتى زها وشف به النور حتى التهب
لمن كفن يحمل المبدعات كما يحمل العود حبلو الطرب

سَرِيٌّ من الحسن في مُتَرَفٍ من الغُصن يزهى بنور عجب
عن السُّلك أو مَضُّ نَوَّارِهِ فهل مرَّ قلبي حتى وَجِبَ
سَمَاءٌ تَأَلَّقَ بالنَّيَّراتِ فنجمٌ أضاء ونجمٌ غَرِبَ
ضِيَاءٌ ، فَكَفَّ ، كغمر الجفونِ ووجهه تَهَلَّلَ ثم اُكْتُابُ
إلى أن يقول :

سُمِّتَ المعاد وأن الحياة كأنفاس أبنائها مُتَسَلِّبُ
مُتَيْنًا . وكم نَعْبُدُ الزائفات بزيف الجمال وزيف الأدب

ومن غزل القاياتي في صدر قصيدة وطنية ، وهو في شرعة الأدب بدع من
البدع لا شعر من الشعر ، قوله :

هتفت بأكية يوم الظعن ليت هذا البين لم يملكُ حسن
غضبة الله على يوم النوى إنه دلَّ على القلب الشجن
آه من وقفة بين لم تذر دمعةً في مقلة الظبي الأغن
مقلة ملأى بسحر لم تنبت ليلةً في الدهر ملأى من وسن
وفؤاد أسكنته لوعةً ودَّ من طول خفوقٍ لو سكن
أقبلت مُطلقة من قرطها زهرةً أولى بها ذاك الفن
تخلط الدلَّ بمضى حزن حرَّ قلبي ، من دلال في حزن

ويقول مطالباً زعماء مصر بالإصلاح :

عوّدونا من قياد نهضةً إنما الامة هدى واعتياد
علّمونا ، أصلحونا ، حطّموا كل قيد يستبيننا أو صفاد
الغنى والمجسّد ، رهن بالغنى جدّدوه ، كالتغنى بامتداد
كذب الفاوون ، ليست حرةً أمةً تعنا بعلم واقتصاد

ويقول واصفا طفلاً يرضع ثدي أمه :

فَتَّانَةُ الدَّلِّ من بعض الأماليد تدنى مُنلى ثديها من ثغر مولود
 طفلٌ يميل على نهدي فيرضعه أخذ الحمام بأطراف العناقيد !!
 وهكذا جل شعر السيد ، بل كل شعره ، متعة للسمع والقلب ، ونزهة
 للخاطر ؛ فحكته وحى حسّ مرهف ، وغزله يستبي أشد الغيد دلاً ، وشكاته
 تلين أشد القلوب عتواً ؛ ولولا ضيق النطاق لأوردت للقراء كثيراً وكثيراً . وم
 يصدق عليه قول القائل :

أطاعته أنواع البلاغة فاهتدى إلى الشعر من نهج إليه قويم

تحايل

قال أبو عبيدة : أخذ سراقه بن مرداس أسيراً يوم جبانة السبيع تقدم
 في الأسرى إلى المختار صاحب الدعوة العلوية . فأنشده سراقه :

امنن على اليوم يا خير من تعيد فخير من لي وصلى وسجد
 نخلى سبيله . فلم يف سراقه بما وعد من الانضمام إليه ، ولحق بجيش إسحاق
 ابن الأشعث ، فوقع أسيراً ثانية وأتى به المختار أسيراً ، فقال له : ألم أعف عنك ؟
 لاقتلك ! قال سراقه : لن تفعل . قال المختار : ولم ؟ قال : لأن أبي أخبرني أنك تفتح
 الشام حتى تهدم دمشق حجراً حجراً وأنا معك . نخلى سبيله . فهرب ثانية ووقع
 أسيراً . فقال له المختار : لاقتلك هذه المرة !

فقال : ليس هؤلاء الذين أسروني ، فإننا لما التقينا رأينا قوما عليهم ثياب
 بيض وتحتهم خيل بلق تطير بين السماء والأرض .

فقال المختار : خسلوا سبيله ليخبر الناس بذلك ، ثم هرب سراقه ودعا لقتال

المختار وقال :

ألا من مبلغ المختار عني بأن البلق دم مضمرات
 أرى عيني ما لم ترأياه كلانا عالم بالترهات
 كفرت بوحكم وجعلت نذرا على قتالكم حتى الممات

المبادئ الاشتراكية في الاسلام

المحاضرة الأستاذ سعيد زايد

الاشتراكية في الإسلام

مما سبق ندرك أن الاشتراكية في صميمها ترى أولاً وبالذات إلى المساواة الفعلية في كل شيء، وخاصة في الواجب الاقتصادي، فهي في جوهرها مساواة وعمل؛ وندرك أيضاً أنها لم تأخذ الشكل العملي، أو كما يقال: لم تبلور أفكارها على شكل مبادئ عامة إلا على يدى كارل ماركس.

بقى علينا أن نعرف إذا كانت أسسها والمبادئ التي رغبت في تحقيقها قد تحققت فعلاً في الإسلام قبل ذلك بحوالى اثني عشر قرناً أم لا.

ذخر القرآن الكريم بالآيات التي تحض على المساواة في الحقوق والواجبات: «يأياها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم» إلى غير ذلك من الآيات. وسيرة الرسول الكريم كلها تنطق بالعدل وتحت على المساواة، وتحارب التفاخر والغرور، فلقد قال عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع: «يأياها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر، فضل إلا بالتقوى: ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، ألا ذليلنا منكم الغائب». وكذلك سيرة الخلفاء الراشدين مملوءة بما يصح أن يفخر به المسلم من تحقيق للعدل والمساواة. ويطول بنا المقام إذا نحن حاولنا أن نقف عند سيرة كل منهم فنبين أثرها من آثاره.

ولقد منح الإسلام حرية للمسلمين لا تنص عليها أعظم دساتير العالم. لخليفة المسلمين اختياره موكول إليهم، والحرية الفكرية كانت مكفولة في الإسلام،

وما زال التراث الذى خلفه المتكلمون ، وخاصة المعتزلة وفلاسفة الاسلام ، محفوظا الى اليوم ؛ وحرية العقيدة كانت محققة أيضاً ؛ قال تعالى « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي » ؛ والحرية المدنية أيضاً . ويكفى أن نذكر أن الإسلام كان يتلمس أوهى الاسباب للقضاء على الرق حتى يحقق لجميع الافراد الرشد المدنى ، واتبع فى إلغائه طريقة حكيمة سارت تدريجيا حتى قضت عليه .

وأية مساواة أعظم من وقوف المسلمين بعضهم بجانب البعض ، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم ، فى الصلاة ، وقيامهم بحركات واحدة من ركوع وسجود ؟ هنا تخضع نفس الكبير ، وترتفع نفس الصغير ؛ وكذلك وقوفهم عرابا إلا من ثياب الإحرام فى الحج ، لا يكاد المرء ، أو بتعبير أصح : تعدم التفرقة بينهم ، أليس فى ذلك مثال المساواة ؟

بقى أن نعرف كيف حقق الإسلام المساواة المادية ؟ قال تعالى « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . ولقد كانت الغنيمة أيام الرسول هى ما يستولى عليه جيوش المسلمين من منقول ، فكان صلى الله عليه وسلم يختص بخمسها لتوزيعها على الأشخاص المنصوص عليهم فى الآية ، والأربعة الاخماس الأخرى كانت توزع على رجال الجيش بنسبة مجهود كل شخص فى الحرب ؛ وطبق الرسول هذه القاعدة فى الأرض أيضاً عند ما فتحت الجيوش خيبر . وعندما جاء عمر رضى الله عنه فرق فى الغنيمة بين المنقول وغير المنقول ، فكان يوزع الغنيمة على الجيش كما كان يوزعها الرسول تطبيقاً للآية ؛ أما بالنسبة للأرض فكان يعتبرها فيئاً أو وقفاً على الناس ، تطبيقاً لآية الفى التى يقول فيها سبحانه وتعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دُوله بين الأغنياء منكم » . ولقد عمل بهذه الآية فى جميع الأراضى التى فتحها المسلمون فى عهد عمر ، ومنها مصر التى ظلت طيلة حكم العرب وهى مملوكة لبيت المال الذى كانت تدفع منه أرزاق الجنود وما تحتاجه المصالح العامة فى البلد الذى حصل منه المال ؛ ويصرف الباقي على الناس على أساس ما يؤدونه للدولة من عمل ومجهود ، أو على أساس ما قدمه السابقون من خير للإسلام .

ويحسن هنا أن نذكر نصاً للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم في كتابه الخراج ، إذ ذكر أنه لما جاءت عمر بن الخطاب رضى الله عنه الفتوح وجاءت الأموال قال : « إن أبا بكر رضى الله تعالى عنه رأى في هذا المال رأياً ولى فيه رأى آخر ؛ لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه ؛ ففرض للمهاجرين والأنصار من شهد بدراً خمسة آلاف خمسة آلاف ، وفرض لمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر ولم يشهد بدراً أربعة آلاف أربعة آلاف ، وفرض لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم اثني عشر ألفاً اثني عشر ألفاً إلا صفية وجويرية فإنه فرض لهما ستة آلاف ستة آلاف ، فأبيا أن يقبلا ، فقال لهما : إنما فرضت لهن للهجرة . فقالتا : لا إنما فرضت لهن لمكانهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان لنا مثله ، فعرف ذلك عمر ، وفرض لهما اثني عشر ألفاً ، وفرض للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم اثني عشر ألفاً ، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف ، وفرض لعبد الله بن عمر — ابنه — ثلاثة آلاف . فقال : يا أبت ، لم زدته على ألفاً ؟ ما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لأبي ، وما كان له ما لم يكن لي . فقال : إن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك ، وكان أسامة أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك . وفرض للحسن والحسين خمسة آلاف ألحقهما بأبيهما لمكانهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين ألفين ، فرعر ابن أبي سلمة فقال : زيدوه ألفاً . فقال له محمد بن عبد الله بن جحش : ما كان لأبيه ما لم يكن لأبائنا ، وما كان له ما لم يكن لنا . فقال : إني فرضت له بأبيه أبي سلمة ألفين ، وزدته بأمه أم سلمة ألفاً ، فإن كان لك أم مثل أم سلمة زدتك ألفاً . وفرض لأهل مكة والناس ثمانمائة ثمانمائة ، فرببه النضر بن أنس فقال عمر : افرضوا له ألفين . فقال طلحة : جثتك بمثله ففرضت له ثمانمائة وفرضت لهذا ألفين ؟ فقال : إن أبا هذا القيني يوم أحد فقال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقلت : ما أراه إلا قد قتل ، فسل سيفه وكسر غمده وقال : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل فإن الله حي لا يموت ، فقاتل حتى قتل ، وأبو هذا يرعى الشاء في كذا وكذا . . . فعمل بهذا في خلافته .

وهناك نص آخر يشهد على عدل عمر ، إذ يعتبر الأرض التي استولى عليها جيش المسلمين فيئاً . قال أبو يوسف « فلما جاء فتح العراق . . . وشاورهم في قسمة الأرضين التي أفاء الله على المسلمين من أرض العراق والشام ، فكلم قوم فيها وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا . فقال عمر رضي الله تعالى عنه : فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ؟ ما هذا برأى . فقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه : فما الرأي ما الأرض والعلوج إلا بما أفاء الله عليهم ، فقال عمر : ما هو إلا كما تقول ولست أرى ذلك ، والله لا يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلا على المسلمين ، فإذا اقتسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأراامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق ؟ » .

ولقد رأى عثمان وعلي وطاحه وابن عمر رأي عمر . . . لكن الفاروق العادل لم يكتف بهذا ، بل أرسل في طلب عشرة من الألفجار . . . من الأوس وخسة من الخزرج ، وقال لهم « . . . خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هوأى ، معكم من الله كتاب يطق بالحق ، فإني لئن كنت فطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق ، وعرض عليهم الأمر » فقالوا جميعاً الرأي رأيك فنعم ما رأيت ؛ إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقون به ، رجع أهل الكفر إلى مدنهم ، فقال عمر « قد بان لي الأمر ، فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون ؟ » .

هذا ما كان يتبعه الإسلام في تقسيم الغنائم . ولقد كان من نتيجة ذلك أن تجمعت بالطبع عند الأفراد ثروة فردية أو ملكية فردية حصلوا عليها من التجارة ومن أخذ أنصبتهم من بيت المال ، ولكن الإسلام فرض أشياء حالت دون تكديس الأموال ودون ظهور نظام الطبقات ، فقانون التوريث الإسلامي ساعد على توزيع الثروة على أكبر عدد ممكن ، ووسع دائرة الانتفاع بها ، فكل أبناء المتوفى لهم حق الميراث ، بعكس القانون الإنجليزي مثلاً الذي يقتضي بانتقال ثروة الأب إلى الابن الأكبر ، وبذلك تظل الثروة مكدسة في يد فرد واحد من أفراد العائلة

وقول الرسول « لا رعية لوارث » الذي صار بعد ذلك مبدأ فقهيًا له حكمة وأية حكمة ، فهو يمنع انتقال الثروة كلها الى أحد الأبناء . أليس في هذا اشتراكية معتدلة تجعل العدل والمساواة نصب أعينها ؟

والزكاة التي هي إحدى أركان الإسلام الخمسة ، قد فرضت على كل ما يمتلك الشخص من أموال وتجارة وزراعة وما الى ذلك من أشياء . وأكبر مثل للمساواة فيها فرضها على الشخص الذي يمتلك قوت يوم وليلة بمناسبة عيد الفطر ، لتعم البهجة وينتشر السرور : قال تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » .

ولقد حبيب الإسلام في الصدقة : قال تعالى « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم » وندد بالبخل وحب الشح خشية الفقر : قال تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » . ومجدد الإيثار ، قال تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

ولقد كفل بيت مال المسلمين العيش للمسنين والعاطلين من المرضى ، وللمواليد أيضا : وكلنا يعرف قصة الأم التي فطمت ولدها قبل الأوان ، فلما مر عمر بن الخطاب ليلا وسمعه يبكي واستقصى السبب فعرف أنها فطمته لينال راتبه من بيت المال ، فأصبح الصباح على صوت منادى عمر ينادى في المسلمين : أن لا تفطموا أولادكم قبل الأوان لينالوا راتبهم من يوم ولادتهم .

كلمة تقديرية :

هذه بعض نظرات سريعة في الإسلام كشفت لنا عن نوع من الاشتراكية يمكن تسميته بالاشتراكية المعتدلة ، اشتراكية وجدت في روح الشريعة السمحة ، وفي سيرة النبي والخلفاء الراشدين . وإن الباحثة المدقق ليلس آثارها في كل شيء ؛ فلقد ظهرت روحها في بعض آثار الفلاسفة والأدباء والشعراء ، ولئن أراد أستاذنا الأكبر ألا ينعت الإسلام إلا بأنه إسلام وكفى ، فإني أرى أن في قول فضيلته

لنظرة هؤلاء الذين يمثلون الدنيا صياحا بأن في الاشتراكية عدلا ومساواة، الى أن الإسلام قد حقق مساواة وعدلا يفوق عدلهم ومساواتهم، فإن كان الإسلام لم يبلغ الملكية الفردية، إلا أنه جعل فيها حقوقا للفقير والبائس والمحروم.

الإسلام إذن هو الإسلام كما قال أستاذنا الأكبر، فإن وجد فيه الباحثون عدلا وحرية ومساواة تطابق روح الاشتراكية فواجب عليهم أن لا يسألوا عما حقق الإسلام من الاشتراكية، بل عما حققت الاشتراكية من روح الإسلام. وإذن فيمكننا بدون تعسف أن نغير موضوع مقالنا - إذا أردنا أن نعطي الفضل لذويه، وأن نقول السابق الأول في حلبة الآراء قلادة النصر - الى : المبادئ الإسلامية في النظام الاشتراكي . .

وبعد، فهذا بحث سريع على هامش رسالتنا الجامعية - كما قدمنا - ويوم أن يسمح لنا بنشر كل ما رأينا، سيرى حضرات القراء أن الإسلام قد فاق الاشتراكية وأى نظام آخر في تحقيق المبادئ الإنسانية النبيلة.

بديهة موفقة

أقبل أعرابي إلى داود بن المهلب فقال له : إني مدحتك فاستمع . قال : على رسلك ، ثم دخل بيته وتقلد سيفه وخرج فقال : قل ، فإن أحسنت حكمتك ، وإن أسأت قتلناك . فأنشأ يقول :

أمنت بدادود وجود يمينه	من الحدث الخشي والبؤس والفقر
فأصبحت لا أخشى بدادود نبوة	من الحدثان إذ شددت به أزرى
له حكم لقمان وصورة يوسف	وحكم سليمان وعدل أبي بكر
فنى تفرق الأموال من جود كفه	كما يفرق الشيطان من لينة القدر

فقال له داود : قد حكمتك فإن شئت على قدرك ، وإن شئت على قدرى . قال الأعرابي : بل على قدرى . فأعطاه خمسين ألف درهم . فقال له بعض الجلساء : هلا احتكمت على قدر الأمير ؟ قال : لم يك في ماله ما ينني بقدره ! . قال له داود : أنت في هذه أشعر منك في شعرك . وأمر له بمثل ما أعطاه .

المنطق اليونانى والمنطق الرمزى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدي
المدرس بكلية اللغة العربية

نشرت مجلة الأزهر فى عدد شعبان سنة ١٣٦٧ هـ من المجلد التاسع عشر ،
مقالا تحت عنوان : (ثورة فى المنطق) وهو للأستاذ الفاضل الدكتور أحمد فؤاد
الاهوانى المدرس بجامعة فؤاد الأول ، وقد أشار فيه الى ثورة جديدة توجه
الآن نحو المنطق اليونانى ، باسم المنطق الرمزى ، أو الجبرى ، أو العلى . وكمن
ثورة قامت على المنطق اليونانى منذ نقل الى اللغة العربية ، فلما نقل الى اللغات
الأوربية الحديثة ، قامت عليه مثل هذه الثورات ، ولكنه صمد لها كلها ، ولم
تحدث هذه الثورات فى صميمه تغييراً يذكر .

لقد ثار على هذا المنطق بعض علماء المسلمين باسم الدين ، لأنه كان مختلطاً
ببعض مسائل الفلسفة اليونانية ، فحرموا الاشتغال به من هذه الناحية ، لأنه
ضار بالدين فى ذاته ؛ ولكن الله قيض له علماء آخرين من المسلمين قاموا بإنصافه ،
فجردوه من هذه المسائل الفلسفية التى لا تدخل فى صميمه ، حتى صار علماً لا يؤخذ
على أنه وسيلة خاصة بتلك الفلسفة ، بل يؤخذ على أنه علم قائم بذاته ، يخضع لحكمه
غيره من العلوم ، ولا يخضع لحكم تلك الفلسفة ولا لغيرها ، وقد بلغ تعصب
الإمام الغزالى له أنه كان يقول : من لا معرفة له بالمنطق لا يوثق بعلمه .

ثم قامت عليه ثورة أخرى من بعض علماء العربية ، لأنه يعتمد على أصول
اللغة اليونانية ، وهى تخالف العربية فى كثير من أصولها ، فلا يمكن أن يقوم
هذا المنطق فى العربية كما يقوم فى اليونانية . وقد غفل هؤلاء العلماء عن العلاقة
التي تقوم بين المنطق واللغة اليونانية ، فهو لا يتصل بأسلوبها فى المحادثة أو الخطابة
أو الشعر ، وإنما يتصل بالأسلوب العلمى الذى ترتب فيه التعاريف ترتيباً خاصاً
يوصل الى حقائقها ، وترتب فيه المقدمات ترتيباً خاصاً يوصل الى نتائجها ؛ وهذا
الأسلوب لا يفرق فى اللغة اليونانية واللغة العربية ، ولا فى غيرهما من اللغات
البشرية ، لأنه أسلوب يتأثر بأسلوب العلم فى التعريف والتدليل والمناظرة

والحجاج ، والعلم لا يقف عند لغة من اللغات ، بل يجرى حكمه على اللغات جميعا ؛
فشأن علم المنطق في هذا كشأن العلوم الإلهية والطبيعية والرياضية ، تتفق مسائلها
في جميع اللغات ، ولا تختلف في لغة منها عن غيرها .

ثم قامت عليه ثورة ثالثة ، في أوائل النهضة الحاضرة ، يراد منها تقديم المنطق
الاستقرائي ، على المنطق القياسي ، لأن المنطق الاستقرائي يعتمد على التجربة ،
وقد قامت النهضة الحاضرة على أساس الاعتماد عليها في العلم ، فليكن المنطق
الاستقرائي الذي يعتمد عليها أحق بالتقديم على المنطق القياسي ؛ وبعضهم يغالى
في هذا ، ويجعله هو الأحق باسم علم المنطق ، والمنطق اليوناني يعرف القسمين ،
ومنطق القياس فيه هو الذي يعتمد على استنباط الجزئيات من الكلّيات ، ومنطق
الاستقراء فيه هو الذي يعتمد على استنباط الكلّيات من الجزئيات ، ولكنه كان
يهم بالمنطق الأول أكثر من الثاني ، لأن الكلّيات التي يعتمد عليها في الاستنباط
مرجعها إلى العقل ، أما الجزئيات التي يعتمد الاستقراء عليها في الاستنباط فمرجعها
إلى الحس ، والعقل هو الذي يحكم على الحس ، دون العكس ، فيكون ما يرجع
إليه أولى بالتقديم ، مما يرجع إلى الحس ؛ على أن كلا منهما له مجاله في الحكم ،
ولو كان مجالها واحدا ، لكان هناك معنى لتقديم أحدهما على الآخر ،
ولمّا اهتم المنطق اليوناني بمنطق القياس لكثرة أحكامه ، وتنوع مسائله .

وهذه ثورة رابعة على المنطق اليوناني ، وهي ثورة أصحاب المنطق الرمزي ،
يدّعون فيها أن المنطق القديم ينظر إلى الأشخاص أو الأفراد ، ثم يجمعها
في النوع ، ويرفع الجنس فوق النوع ، فالنوع كإنسان ، يشمل : سقراط وزيدا
وعمر وغيرهم ، ثم تقول : سقراط إنسان ، ثم تقول : الإنسان حيوان : لأن
الحيوان يشمل أنواعا ، منها الإنسان والطيور ، إلى آخر أنواعه .

ثم يدّعون أن هذه النظرة غير دقيقة ، وغير صحيحة ، لأن الإنسان ليس بمجموع
سقراط وزيد ، وفلان وفلان ، إذ الواقع أنه لا يتركب من زيد وعمر ،
وليس هذا الشخص وذاك الشخص ، أجزاء من النوع ؛ وإذا كانت الأمور
كذلك ، فإنه يجب البحث عن أمر آخر بدلا من النوع والجنس .

ولا شك أنهم يخطئون في نسبة ذلك إلى المنطق القديم ؛ لأن دلالة النوع فيه

ليست من دلالة الكل على أجزائه ، كما يدعون ، وإنما هي من دلالة الكل على جزئياته ، والفرق كبير بين الدالتين ؛ وإذا كانت هذه الدعوى غير صحيحة ، فإن ما بنوه عليها في منطقهم الرمزي يكون غير صحيح أيضا ، وهو إلى هذا من الغموض بحيث لا تظهر له ثمرة كشمرة الجنس والنوع .

وهكذا يدعون في ثورتهم على المنطق اليوناني ، أنه يعتمد على الألفاظ ، أما المنطق الرمزي فإنه يعتمد على الرموز ، وهو في هذا أدق وأحكم ، لأن الرموز منها الثابت كالعدد - ١ - فإن له معنى لا يتغير مع الاستعمال في العمليات الحسابية ، ومنها ما يتغير مثل - س ، ص - فإنه متغير لا يحمل معنى مستقرا في ذاته ؛ فإذا قلنا : هل الواحد عدد صحيح ؟ كان الجواب بالنفي ، أو الإثبات ، ولكنه على أى حال جواب يدل على معنى ، سواء أ كان صادقا أم كاذبا ؛ أما إذا قلنا : هل - س - عدد صحيح ؟ فلن يكون للجواب معنى مفهوم ، لأن - س - عدد متغير ، لا يمكن أن يكون له معنى حتى نحدده ، فهذا شأن الرموز ، أما الألفاظ فإنه لا يقال فيها إنها ثابتة أو متغيرة ؛ وبهذا يكون اتجاه المنطق الرمزي إلى أن يجعل التعبير موضوعيا ، وهذا يدنيه من العلم الصحيح ، لا نقول : الذهب أصفر ، ونعد هذه القضية صحيحة ذات دلالة تامة ، ولكننا إذا امتحنا ما نجد الذهب ، ولونه الأصفر ، جزمين من العالم الزاخر بالأشياء والصفات ، وهو عالم شديد التعقيد ؛ وليس لنا أن نحكم بصدق هذه القضية أو كذبها ، إلا إذا نظرنا في جملة الظروف المحيطة بها ، فالذهب أصفر في ضوء خاص ، فإذا تغير الضوء تغير اللون . وعلى هذا يكون أصحاب المنطق الرمزي على حق في نظرهم إلى الحدود ، واعتبار أن بعضها ثابت وبعضها متغير ، فقد رأينا أن الصفرة ليست حدا ثابتا بل متغيرا ، وذلك حسب الظروف المحيطة به .

ولا شك أن المنطق القديم ليس في شيء من هذه الدعوى أيضا ، لأنه ينظر في المفاهيم لا في الألفاظ ، ونظره في الألفاظ بالعرض لا بالذات ، وهو مع هذا يجعل من الصفات ما هو ثابت ، وما هو متغير ، ويسمى الثابت باللازم ، ويسمى المتغير بالمفارق ؛ كما يجعل من الصفات ما هو ذاتي ، لا يمكن إلا أن يكون ثابتا . وما أجدر ما ذكره في صفرة الذهب بأن يعد من السفسطة ، وما أجدر المنطق الذي يعتمد على مثل هذا بأن يكون سفسطة باطلة ؟

نواحي الاعجاز في أخلاق الرسول

لفضيلة الاستاذ الشيخ أحمد شاهين
من علماء الأزهر

باتت السيرة النبوية موضع عناية كثير من قادة الفكر الحر في الشرق والغرب جميعاً؛ فقد أعنوا هنالك وهنا يبحثوا ودراسوها على الطريقة العلمية السائدة بين باحثي العصر في تحقيق الأحداث الإنسانية الكبرى، وتحليل الشخصيات التاريخية البارزة. وهذه العناية بالسيرة كانت بعض نتائج البعث الثقافي والنهضات القومية في الشرق الإسلامي الحديث. أما في الغرب فكانت من مظاهر تحرير الفكر الأوروبي من سلطان الكنيسة التي شلّت تقدمه أجيالاً، حتى حطم أغلاله وأدرك استقلاله، فانبعث ينشد الحقائق المجردة من سائر آفاق المعرفة الإنسانية، ومنها أفق الحضارة الإسلامية الزاهرة.

وقد وفق لفيف من مفكرى الغرب الأحرار الى فهم جوانب عدة من مدنية القرآن، وحقائق الدين الخفيف، وقاريخ خاتم النبيين، وصدعوا في أنهم بما أدركوه ثمة من الحقائق والقيم؛ فعُدل دكارليل، موقف كثير من مفكرى الانجليز من نبي الإسلام العظيم. وطلع د دار منغام، على الفرنسيين بما أدهشهم من مزايا الإسلام وعظمة رسوله محمد. كما انبرى د تلمستوى، يدافع بجرارة وإخلاص عن النبي العربي في العالم السلافي المتعصب. وكذلك أتاحت النهضة الفكرية وحرية الرأي للأوروبيين الوقوف على كثير من حقائق الإسلام وحقيقة رسوله الأعظم، من الظلام الكثيف والمفتريات الخسيسة الشائعة التي حاولت بها الكنيسة تلبس هذا الدين على الأوروبيين، حتى لا يقضى على سلطانها في الغرب كما قضى عليه في المشرق. ولكن الى أى حد فهم هؤلاء المفكرون المنصفون نبي الإسلام؟

لقد حال بينهم وبين حقيقة الرسول العربي أن المدنية الإسلامية كانت مدنية عربية خالصة ، فلا يتاح لباحث ما أن يحسن فهمها على وجهها مالم يحسن فهم لغة القرآن وروحها وأسرار بلاغتها . كذلك زاد في صعوبة فهمها لهذا الرسول تشويه ما نتمل من تاريخه الى اللغات الأوروبية ، بفعل نفر من صنائع الكنيسة من المبشرين أو أنصار الاستعمار من المستشرقين . زد على ذلك تسلط المنهج العلمي الطبيعي على أولئك الباحثين في تمحيص التاريخ وتعليل حوادثه ، فهم دائماً مقيدون بالظاهر من قوانين المادة وأحكامها في الشرح والتعليل ، حتى لقد حاولوا تفسير الظواهر الميتافيزيقية في حياة النبيين تفسيراً مادياً ، ولو أدى ذلك الى الاعتساف ، بل الى التخبیط أحياناً ، كما سترى بعدُ حين نعود الى مناقشة هؤلاء الباحثين في مدى فهمهم لنبي الإسلام ، وإنما ألعنا هنا الى منهجهم القاصر ، لتأثيره الظاهر على من عاجل السيرة من كتابنا المحدثين .

هذا وإن من سمات الضعف في دراسات هؤلاء المفكرين المحدثين ، أن الجانب الخلقى من السيرة لم يظفر منهم بما يستحقه من العناية والبحث ، رغم أنه من أبرز العناصر في شخصية الرسول ، وأغناها بالمعاني والقيم السامية ، وأحفلها بمظاهر العظمة والبطولة ودلائل النبوة ونواحي الإعجاز . ولقد قصصنا عليك في بحثنا السالف صورة من أخلاقه صلى الله عليه وسلم في شبابه وقبل مبعثه : فإذا تأملناها الآن في ضوء العلم وتحت مجهر (السيكولوجيا) الحديث ، سطعت لعينيك معجزة روحية باهرة ، تخلفت بها بعض نواميس الوجود الروحية ، كما تخلفت بعض نواميس المادية ، بما ظهر على يديه عليه السلام من المعجزات الحسية الجبارة . وآية ذلك أنك لا ترى في تلک الاخلاق ما عده العلم الحديث العوامل الأساسية في تشكيل الاخلاق والسلوك ، وذلك هو تأثير البيئة وروح الجماعة ، والوراثة ، والغريزة .

اشتهر الرسول في هذه السن الباكرة بالتواضع والرفق والإخلاص الى الصمت والعزلة . وما كان لهاته الخلال في بيئته شأن ما : ذلك بأنه نبت في بيئة صحراوية قاسية بخلت على سكانها بكثير من حاجات العيش الضرورية ، ونأت بهم عن المدنية ، ولم تعمّر فيها الشرائع السماوية على وجهها طويلاً ، فأدى ذلك وغيره الى تفكيك الروابط الإنسانية بينهم ، فتفاقت بينهم سنة تنازع البقاء ، حتى أصبحوا يعيشون

في إقليمهم عيشة الضواري والسباع : صراع دائم، وتناحر مستمر؛ ومن ثم كان مظهر النجابة في الشبيبة يومئذ بالشجاعة والمهارة في أساليب السكر والفخر، أو بالشجاعة والنبوغ في فنون الشعر والنثر. بهذا كانوا يتقنون غارات الالسة في المجامع والمحافل، وبذلك يتقنون غارات الالسة في معترك الجحافل؛ وكلما ظهر في قبيلة شاعر مجيد أو فارس صنيدي، دقت البشائر ومشى إليها أحلافها بالتهاني. فكيف نأى محمد بن عبد الله عن هذا الصراع، وترفع عن أقرانه من الشباب، وآثر التمسك والزهد؟ لقد كان تحصيل الغنائم والمنع بقوة السلاح وسيلة مألوفة من وسائل الكسب، بل من دواعي الفخر والإعجاب، فما له لا يساير زمانه ويحاكي أقرانه؟ إن هنا عواطف وغرائز بطل عملها في سلوك هذا الفتى القرشي اليتيم. أين غريزة التقليد ومحاكاة النظير والمباراة؟ وأين عواطف العصبية وحب الظهور والاثرة؟ لم يكن محمد ضعيفا ولا رعيديا، ولا بذى عى أو حصر، وكان من أشرف العرب بيتا وأعلام صوتا، فما الذى صرفه عن مجاراة أمثاله من الشبيبة؟ وما الذى عقد لسانه عن قرص الشعر أو التغريد به في المفاخرة والمكاثرة؟ إن محمدا عليه السلام لم يتلق قبل بعثته من عوامل التربية الخاصة ما يعصمه من تحكم البيئة، أو يجعل تأثيرها عكسيا، أو يرقى بغرائزه وعواطفه على أسلوب ما من أساليب الابدال والإعلاء والتسامي.

وما هنا، هاهنا تجلى المعجزة في ضوء العلم المجرد. كان محمد في صباه يمت عبادته قومه وعاداتهم، على حين كان من أبرز الصفات الوارثية في بني قومه التعصب الأعمى للتقاليد وتقديس العرف، وكان الرجل منهم يتحامل على نفسه ويخالف ضميره وعقله في سبيل النزول على مقتضيات العرف والتقاليد الموروثة، حتى وأدوا أفلاذ كبدهم عملا بالعرف السائد.

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإني ترشد غزية أرشد
إنا لنرى هاته المناعة الخلقية في سلوك محمد هي بعض إرهاب نبوته، ونواحي الإعجاز في أخلاقه العظيمة. يؤيدنا في ذلك العلم المجرد ومنطق البحث المحايد؛ ولكن ذلك مالا يراه بعض الباحثين المعاصرين في السيرة النبوية: لقد عرض لهاته الظاهرة، ظاهرة المناعة والتنفك، في أخلاق الرسول علان من أعلامنا المحدثين، هما أستاذنا الجليل هيكل باشا والاستاذ العقاد، فحاولا تفسير هذه الظاهرة على

المنهج السالف الذكر ، فقال الاول في كتابه (حياة محمد) ما نصه : « أما أنه نأى عنها (يعنى خلاعة الشباب) فذلك ما يشهد به التاريخ ، لكنه لم ينأ عنها عجزاً عن النيل منها ، فقد كان الخلقاء المقيمون بأطراف مكة والذين لا يجدون أسباب الرزق إلا الضنك والإملاق ، يجدون الوسيلة إليها ، بل كان بعضهم أشهر من أجماد مكة وأشرف قریش إمعاناً فيها وإدماً لها ؛ إنما كانت نفس محمد صلى الله عليه وسلم مشغوفة بأن ترى وأن تسمع وأن تعرف ، وكان حرمانه من التعليم الذى يتعلمه بعض أنداده من أبناء الأشراف جعله أشد للمعرفة تشوقاً وبها تعلقاً ، كما أن النفس العظيمة التى تجلت من بعد آثارها وما يزال يغمر العالم ضياؤها ، كانت فى توقها إلى الكمال ترغب عن هذا اللهو الذى يصبو إليه أهل مكة ، إلى نور الحياة المتجلى فى مظاهر الحياة لمن هداه الحق إليها ، ولاكتناه ما تدل هذه المظاهر عليه وما تحدث الموهوبين به . كل ذلك ظهر منذ الصبا الاول مظهر الكمال والرجولية وأمانة النفس حتى دعاه أهل مكة جميعاً الأمين . » وقال الثانى فى كتابه القيم عبقرية محمد : « تهيأ للعبادة بميراثه ونشأته وتكوينه ، فولد فى بيت السدانة والتقوى ، وتقدمه آباء يؤمنون ويوفون بإيمانهم ، ويعتقدون ويخلصون فيما اعتقدوه ، ونشأ يتيماً من طفولته ، فانطوى على نفسه ، وتعود التأمل والجد والعزوف عن عبث الصغار ، والنظر إلى ما حوله بعين الناقد المترفع عن الدنيا ، الجانح إلى الطهر واستقامة الضمير ، الخ .

إذن فالدكتور هيكل يرى تلك الظاهرة أثر حب المعرفة والكمال ، والشعور بالنقص والحرمان عند إنسان حرمه فقره من العلم والتعليم . ويراها العقاد أثر بيئة صالحة ووراثية خيرة وتأمل مستمر ؛ ولكن إذا علمنا أن الأمية كانت خصيصة غالبية على العرب فى جاهليتهم ، وأنه لم تكن لهم علوم تذكر ، اللهم إلا معلومات بدائية بسيطة كانوا يتداولونها ويتوارثها الخلف عن السلف ؛ فلم تكن الأمية إذاً مما يعاب على الأميين أو يحط من قدرهم فى تلك البيئة حتى يستشعروا نقصاً ، أو تولد لهم عقدا نفسية تدفعهم إلى محاولة التعويض بأسلوب شاذ ، كالتماس المعرفة بالانقطاع فى شعف الجبال للتأمل والتفكير . فهذا لم يكن طريقاً للمعرفة عند القرشيين فى ذلك العهد ، اللهم إلا نفر من مشيختهم من أصابوا علماً أو نحلة عند أهل الكتاب ..

وإذا علمنا أن نزعة الخير في النفس وحبا للكمال لا يصرف سلوكها عن الأهداف التي تواضعت عليها البيئة واعتبرتها خيرا ، إذ القيم دائما نسبية ، والبيئة هي أول الاعتبارات في تقريرها وتحديد ما ؛ وإذا علمنا كذلك أن خصائص الوراثة عند الإنسان خاضعة دائما لبيئته ، فهي التي تبرزها وتنميتها وتكيفها بطابعها الخاص ، وهذا القانون متخلف في أخلاق محمد عليه السلام ، إذ أن نسكه حينذاك لم يكن من طراز النسك في بيئته ، بدليل مقتته للأوثان ، على حين لم يكن قومه يحدون غضاضة في تقديسها ، وقد نصبوها حول البيت لتكون شفعاءهم عند الله تقر بهم إليه زلفى . . . كذلك نعلم أن اليتيم لا يحمل على الانزواء أو الانطواء من كان على شاكلة محمد من الأبطال العظام - إذا علمنا ذلك كله صعب علينا قبول هذا التفسير من أستاذينا الجليلين : هيكل والعقاد ؛ إذن فلا مندوحة للباحث المحايد الذي ينصف الحقيقة المجردة من التسليم بهذا التفسير الحق الوارد في حديث القاضي عياض المتقدم في صدر بحثنا السالف ، وذلك هو العصمة ، وإلا فعمدنا بكل مصلح تنكر لأساليب الحياة في بيئته أن يكون في ثورته متشعبا بأفكار ومبادئ أخرى ، ولكن محمد بن عبد الله لم يتح له علم ولا معرفة على يد معلم أو مرشد . وههنا سر المعجزة . كثيرا ما ظهر العباقرة المثاليون والأبطال المصلحون في البيئات المنحطة ، كما تظهر حجارة المساس وسبائك الذهب في باطن الأرض بين الثرى والجنادل ، ولكن كما لم نسمع بأن ماسة كريمة أو سيكة ذهب خالص عثر عليها في منجمها وهي مصفاة مصقولة قد صيغت حلية بدعنة دقيقة الصنع وذلك من غير أن تمتد إليها يد من قبل ، كذلك لم نسمع ولا سمع التاريخ أن عبقريا قد ظهرت عبقريته وخصائص نبوغه دون أن تتناوله عوامل التربية المختلفة ، إلا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ؛ إلا هذا الفتي الأمي الذي نشأ فقيرا يتما بين سخافات الجاهلية وخرافات البدو الحمجية ، ثم كان على هذا السمو النفسى والخلق العظيم . إن الذين ذهبوا إلى أن الفطرة في أصلها خير محض لا ينكرون أن إهمالها وتعرضها للتأثرات الفاسدة يفسدها ، كالأرض الطيبة إذا أهملت سبخت وأنبئت الطفليات . وههنا تتجلى المعجزة ، معجزة العصمة التي رمز إليها شق الصدر ، وأظهرها حديث القاضي ، وشهد بها العالم ، ودل عليها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله « أدبني ربي فأحسن تأديبي » .

المسئولية الادبية

لفضيلة الأستاذ منصور رجب
المدرس بكلية أصول الدين

يخالف الإنسان القانون فيسرق ، أو يغصب بالقوة ، أو يقتل ، أو يشهد الزور ، فماذا يحصل ؟

يحصل أن تسأله الدولة عن هذه المخالفات التي ارتكبها ضد المواطنين الذين ترعاهم ، ثم يتقدم للقضاء فيحكم القاضي عليه بالعقوبة التي فرضها القانون ، وقدورها على من يعصى أمره ويضر غيره من الناس . وهذه المسئولية تسمى المسئولية القانونية ، أو المسئولية الاجتماعية ؛ لأن المخالفات فيها ارتكبت ضد القوانين الوضعية التي جاءت لتنظيم مصالح الأفراد في علاقاتهم المتبادلة بعضهم مع بعض في الجمعية الإنسانية .

ويحصل أن ترى ناساً من عباد الله يثنون تحت نير الفقر ، والجهل ، والمرض . ويراهم عبد من عباد الله يكثر الذهب والفضة ، يسره أن يراها كل يوم تزداد وتزداد ، ولا يسره بل يخيفه أن ينزل عن شيء منها لتخفيف ويلات هذه الإنسانية المغدبة ؛ فهل يسأله القانون عن هذا الشح كما يسأل السارق ، والغاصب ، والقاتل ، وشاهد الزور ، ثم يفرض عليه عقوبة لعدم إحسانه على عباد الله ، وامتناعه عن أداء خدمة المحتاج وهو قادر على أدائها ؟ !

ويحصل أن تساعد إنساناً في مسألة ما ، فتضيع من وقتك ، وراحتك ومالك أحياناً حتى تفضيها له ، ثم لا يلبث أن يخذل هذا الجليل ، ويكفر بهذه النعمة ، ويقلب لك ظهر المجن ؛ فهل يسأله القانون ، كما يسأل ذلك السارق ، والغاصب ، والقاتل ، وشاهد الزور ، ثم يفرض عليه عقوبة لجحده النعمة ، وكفره بهذا الجليل ؟ لا .

نرى أن ذلك البائس ، وهذا الجاحد للجميل ، وإن لم يسألا أمام المحاكم الوطنية لمخالفتهما القوانين الوضعية ، فإنهما مسئولان أمام قانون آخر ليس

كذلك القانون ، وفي محكمة أخرى ليست كذلك المحكمة . . . ذلك هو قانون الأخلاق ، وتلك هي محكمة الضمير الإنساني ، وهذه المسؤولية تسمى المسؤولية الأدبية ، أو المسؤولية الأخلاقية .

والإلزام في المسؤولية القانونية أو المسؤولية الاجتماعية آت من سلطة خارجة عن ذات الشخص ؛ تلك هي سلطة القانون الذي يحرم ، والدولة التي تعاقب ؛ وفي المسؤولية الأدبية أو المسؤولية الأخلاقية ترى الإلزام آتيا من سلطة داخلية ذاتية غير خارجة عن الشخص ؛ تلك هي سلطة الضمير الإنساني الذي يأمر وينهى ، ويعاقب ويثيب .

وعلى هذا فالإنسان مسئول أدبيا أو أخلاقيا عن أعماله جميعها من ألفها إلى يائها أمام محكمة الضمير ، وما هو إلا محكمة استئناف كبرى ترجع إليها كل أعمال الإنسان ساعة بعد ساعة ، ويوما بعد يوم ، عامة أو خاصة كانت هذه الأعمال . وليس الأمر كذلك في دائرة المسؤولية القانونية أو المسؤولية الاجتماعية . فبينما ترى القانون الأخلاقي في دائرة المسؤولية الأدبية يقضى على الإنسان بفعل كل ما فيه منفعة الأمة ومنفعته الشخصية ؛ بينما ترى هذا ، ترى القانون الوضعي في دائرة المسؤولية القانونية لا يشمل إلا المسائل العمومية التي تنظم أعمال الإنسان من جهة علاقته بغيره من الناس ؛ أما سير الأفراد الشخصي فلا يتدخل فيه القانون الوضعي ؛ فهو لا يتدخل إلا حيث يؤذى الناس بعضهم بعضا ، فركز العليم علم القانون وعلم الأخلاق واحد ، وهو تنظيم أعمال الإنسان للوصول به إلى الدرجة الممكنة في السعادة التي هي الخلو من القلق ، والألم ، والاضطراب . لكن محيط أحدهما أكبر من محيط الآخر .

والسبب في هذا الاختلاف بين العليمين أمران كما يقول « بنتام » ، في كتابه أصول الشرائع :

الأول : أن علم القوانين لا يمكن أن يؤثر مباشرة على سير الأفراد الشخصي إلا بالعقوبة ، والعقوبة ضرر لا يجوز الحكم به إلا إذا نتج من إيقاعه خير أكبر منه . وإذا نظرنا إلى كثير من الأحوال الشخصية رأينا أن العقوبة عليها تنتج ضرراً أكبر من ضرر الفعل الذي حكم من أجله على مرتكبه ؛ لأن تنفيذ القوانين

في مثل هذه الحال يستلزم استعمال وسائل من شأنها إزعاج الخواطر ، وإيقاع الرعب في الأفكار ، وهو ضرر أشد مما جاء القانون لاجتنابه .

الأمر الثاني . أن علم القوانين محفوف دائماً بالخوف من إصابة برىء . حال كون المراد معاقبة الجاني ، وهو في الأحوال الشخصية يصل إلى درجة الخطر ؛ ومنشأ هذا الخطر ما يوجد من الصعوبة في تعريف الجرائم النفسية ، وتوضيحها والوقوف على كنهها . مثلاً : القسوة ، وكفران النعمة ، والخيانة ، والمورابة ، وما شابهها من القبائح ، مردولة عند الناس ، لكن لا تقع تحت سلطة القانون لتعذر الوقوف عليها تماماً ، كالسرقة ، والقتل ، وشهادة الزور ، وغير ذلك .

ومن هنا جاءت ضرورة تمسك الناس بالدين ، واتباع الأخلاق الفاضلة ، لإبقاء لحسن الروابط بين الناس ، وحفظاً للنظام العام في هذه الحياة . فالدين قد سد الفراغ الذي لم يستطع القانون أن يسده ، والدين قد أمر بأشياء لم يستطع القانون أن يأمر بها . فهو ضروري للاجتماع السياسي ، وهو ضروري للاجتماع الذي له علاقات يومية وغير يومية . ضروري لكل ذلك ضرورة الماء للحياة ، ما دام الإنسان أشد قابلية للاجتماع من النحل ومن سائر الحيوانات التي تعيش قطعاناً .

لذلك أمر الدين الإسلامي بالإحسان ، قال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » وقال : « وأحسن كما أحسن الله إليك » وقال سبحانه : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » .

وما دامت المسئولية الادبية نتيجة لطبيعتنا الإنسانية ، والطبيعة الإنسانية قد طغت عليها المادية بشكل مزعج ، ولا يمكن الشك - كما يقول أرسطوطاليس في كتابه السياسة ترجمة أستاذنا الجليل مربي الجليلين احمد لطفى السيد باشا - « في أن الدولة هي بالطبع فوق العائلة ، وفوق كل فرد ، لأن الكل هو بالضرورة فوق الجزء ، ما دام أنه متى فسد الكل فليس بعد من جزء ، لا أرجل ولا أيدي ، إلا أن يكون على سبيل المجاز ، كما يقال : يد من حجر ، لأن اليد متى فصلت عن الجسم لا تبقى يداً على الحقيقة ؛ وإن الأشياء لتعرف على العدم بآثارها التي توقعها والتي من شأنها أن توقعها ، فتقطع استعدادها الأولى لا يمكن أن يقال هي أنفسها » .

ما دام هذا وذاك ، وأن الطبع يدفع الناس بفرائضهم الى الاجتماع السياسى ، فن مصلحة هذا الاجتماع إذن التوسع فى القانون بفرض عقوبة على من يخالف بعض القوانين الاخلاقية المتعلقة بالإحسان ، إذا امتنع القادر عن أداء خدمة المحتاج وهو قادر على أدائها ، إذا تسبب عن هذا الامتناع ضرر .

وهذه الفكرة نادى بها « بنتام » ، من زمن ، فلقد قال : « القانون قصير فيما يجب عليه ، لأنه كان ينبغى أن يعد من الجرائم امتناع شخص عن أداء خدمة المحتاج وهو قادر على أدائها إذا تسبب عن هذا الامتناع ضرر ، كما إذا مر رجل على طريق فرأى جريحاً ولم يساعده أو لم يستدع غيره لمساعدته : ومن رأى غيره قابضاً على كأس فيه سم ولم يشعره : ومن رأى شخصاً وقع فى ومدة لا يستطيع الخروج منها بنفسه ولم يأخذ بيده . فى مثل هذه الأحوال يجب أن يتدخل القانون بأن يضع عقوبة تشين من ارتكبها أو يضمنه فى ماله بالضرر الذى يمكن إزالته . »

وحتى يضع المشرع هذا القانون ، أَدْعُو إلى تقوية الروح الدينية فى نفوس الشعب : فالقرية فى حاجة الى إصلاح وإصلاح . وهذه المناسبة تحضرنى حكاية عن الخليفة الاول أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه ، رواها الغزالي فى كتابه إحياء علوم الدين ، قال : شهد شاهد عند عمر رضى الله عنه ، فقال للشاهد : اتنى بمن يعرفك ، فأناه برجل ، فأثنى عليه خيراً ، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا ، فقال : كنت رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الاخلاق ؟ فقال : لا ، قال : فعاملته بالدرهم والدينار الذى يستبين به ورع الرجل ؟ قال : لا ، قال : أظنك رأيت قائماً فى المسجد يهمهم بالقرآن يخفض رأسه طورا ويرفعه أخرى ؟ قال : نعم ، فقال : اذهب فلست تعرفه ، وقال للرجل : اذهب فانتنى بمن يعرفك .

وبعد ، فإذا كانت الآراء تتعدد بتعدد الرموس ، وكلما وجد اجتماع وجد شرع ، فأساس حفظ الربط الواقع فى الاجتماع تلك الحكمة الخالدة :

« لا تعامل الناس بما لا تحب أن يعاملوك به ، والسلام . »

المرحلة الثانية

أمام المحكمة الابتدائية وأمام الاستئناف

لحضرة الاستاذ صالح بكير

المدرس بكلية أصول الدين

بمجرد عرض القضية أمام المحكمة الابتدائية يتبع فيها ما يتبع في القضايا العادية . ولكن منذ سنة ١٨٨٦ حظر نشر المرافعات في دعاوى الطلاق إلا نشر نص الحكم فقط ، ويلاحظ أن طرق الإثبات المعروفة التي تجري وتحصل بجميع الطرق في الدعاوى العادية ، لها بعض الخصائص في دعاوى الطلاق ، فلا يؤخذ باعتراف من أسندت إليه وقائع تكون سبباً للطلاق ، فلا يعتبر دليلاً كافياً لاحتمال أن يكون هناك تواطؤ بين الزوجين على الطلاق ، بل يجب تحقيق هذه الوقائع للثبوت من صحتها . كما أن شهادة الأقارب والخدم يصح الأخذ بها في إجراءات التحقيق ، ولكن شهادة الفروع لا تقبل . ويصح الاستشهاد بالخطابات المتبادلة بين أحد الزوجين وبين أجنبي ، ولكن يشترط أن يكون الحصول عليها بطريق مشروع ، فلا يجوز اختلاسها مثلاً .

ويجوز للقاضي رئيس المحكمة أن يتخذ إجراءات جديدة للمحافظة على حقوق وأموال الزوجين ، كما يجوز له أن يعدل القرارات السابقة التي أصدرها بهذا الشأن ، وكل هذا إذا دعت ضرورة إليه .

وطرق الطعن في حكم الطلاق هي كالطرق في القضايا العادية ، وإنما لها بعض الخصائص . فمثلاً لا يجوز تنفيذ حكم الطلاق فوراً ، كما لا يجوز لمن صدر ضده الحكم أن يقوم بتنفيذه قبل صيرورته نهائياً ، وذلك بأن ينتظر انتهاء مواعيد الطعن المقررة قانوناً .

المرحلة الثالثة

بعد صدور الحكم النهائي يجب نشره وإعلانه بالصحف ، كما يجب تسجيله والتأشير به على هامش عقد الزواج . ويلاحظ أن أثر الحكم بالطلاق يكون من يوم صدوره والنطق به .

آثار الطلاق

تترتب على صدور الحكم بالطلاق آثار كثيرة ، منها ما يرجع إلى الزوجين ، ومنها ما يرجع إلى أولادهما ، ومنها ما يرجع إلى أموالهما : وسنذكر بإيجاز أهم تلك الآثار .

فالذي يرجع إلى الزوجين ، هو أن الزواج ينقضى وينحل ويعسود كل من الزوجين إلى الحالة التي كانا عليها قبل الزواج ، فيحمل كل منهما اسمه الخاص ، ويجوز لكل منهما التزوج بآخر مع ملاحظة انقضاء عدة المرأة ، كما يجوز لهما أن يتزوجا من بعضهما ثانياً . وتنقضى التزامات الزوجية والاتفاقات المالية الخاصة بنظامهما المالي ، كما تسقط الحقوق المالية وحقوق الانتفاع بأموال الآخر بالنسبة لمن صدر ضده الحكم ، إلى آخر ذلك .

وأما بالنسبة للأولاد ، فالطلاق لا يؤثر في حالتهم ، فهم يعتبرون أولاداً شرعيين ، ولا تسقط حقوقهم المالية نحو والديهم ، فنجب عليهما نفقتهم وكسوتهم وتربيتهم وتعليمهم ، كما لا تسقط سلطة الوالدين ولا ولايتهم عليهم . وتكون حضانتهم عادة لمن صدر لصالحه حكم الطلاق . ومع ذلك إذا قضت مصلحة الأولاد أن تجعل حضانتهم للزوج الآخر أو لأجنبي ، وللقاضى مثل ذلك بالنسبة لإدارة أموال الأولاد .

الانفصال الجسمانى

الانفصال الجسمانى هو أن يعيش كل من الزوجين بعيداً عن الآخر ومستقلاً . وقد بينا فيما سبق أن هذا ما كانت تنجأ إليه الكنيسة من لا تجيز الطلاق .

ولما أن شرعت الدولة (في فرنسا) الطلاق في القانون المدني ، كان قد ألغى الانفصال الجسائي ، ولكنه أعيد ثانية على اعتبار أنه نوع من تهديئة خواطر الزوجين ، حتى يتبصروا في عاقبة أمر الطلاق قبل الإقدام عليه ، فيصطلحا ويعوا إلى عشرتهما السابقة .

ولكن التجارب أثبتت عدم صحة هذا الرأي نظرا لما شوهد أن حياة الانفصال الجسائي هي حياة نفاق وشقاق أشد من حياة الزوجية ، وربما تكون سببا (بل هو الواقع) لفساد الأخلاق ، لما يشعر به كل من الزوجين من حرية واستتار .

وأسباب الانفصال هي عين أسباب الطلاق ، ولا بد من دعوى ترفع أمام القضاء ليصدر به حكم . وتختلف إجراءات دعوى طلب الانفصال الجسائي عن دعوى الطلاق اختلافا قليلا .

ولا يترتب على - حكم الانفصال الجسائي - انقضاء الزوجية ، بل تبقى جميع التزامات الزوجية ما عدا المساكنة منها . ولكل من الزوجين أخذ ماله يستقل به .

وينتهي الانفصال الجسائي بموت أحد الزوجين ، وبالطلاق لأسباب جديدة غير أسباب الانفصال ، وبالصلح ، وبانقلاب الانفصال إلى طلاق إذا مضى على الانفصال ثلاث سنوات بلا صلح ، ويصدر الطلاق بناء على طلب أحد الزوجين ، ولا يحتاج هذا الطلب إلى إجراءات كإجراءات دعوى الطلاق .

الطلاق في الفقه الاسلامي

الطلاق في الفقه الاسلامي هو حل رباط الزوجية الصحيحة في الحال وفي الاستقبال بعبارة تفيد ذلك ، أو من القاضي بناء على طلب الزوجة .

والطلاق نوعان : رجعي وهو الذي يجوز للزوج أن يعيد زوجته إلى عصمته بدون عقد ومهر جديدين ، وبائن والبائن نوعان : بائن بينونة صغرى وهو الذي لا يجوز للزوج أن يعيد زوجته إلى عصمته إلا بعد عقد ومهر جديدين ؛ وبائن

بثينة كبرى وهو الذى يحتاج فوق ذلك إلى أن تزوج المرأة زوجها آخر وتطلق منه وتنتهى عدتها ثم تعقد على زوجها الاول عقدا جديدا بمهر جديد .

والطلاق من حيث العبارة صريح وكناية . وأحكام الطلاق مذكورة فى جميع كتب الفقه بإسهاب فلا داعى للإطالة بذكرها . والذى يهمنا هو أن الطلاق فى الفقه الإسلامى يختلف كثيرا عن التشريعات الأخرى تمام الاختلاف . ونحن نتعرض هنا فقط لذكر بعض أحكام لقوانين صدرت أخيرا فى موضوع الطلاق حيث الجارى عليه العمل بالمحاكم الشرعية هو مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه . ولأسباب كثيرة دعت الحكومة لأن تأخذ بعض أحكام الطلاق من المذاهب الأخرى وتصدر بها قانونا ألزمت به المحاكم الشرعية فى اتباعه ، وتتلخص هذه الأحكام فيما يأتى :

- (١) لا يقع الطلاق غير المنجز إذا قصد به الحمل على فعل شيء أو تركه لا غير .
- (٢) للقاضى أن يفرق بين الزوجين بناء على طلب الزوجة لغيبه الزوج ولكن بشروط خاصة .
- (٣) لا يقع طلاق السكران والمسكره .
- (٤) الطلاق المقترن بعدد لفظا أو إشارة لا يقع إلا طلاقا واحدة .
- (٥) كنايات الطلاق وهى ما تحتل الطلاق وغيره لا يقع بها الطلاق إلا بالنية .
- (٦) يجوز للقاضى أن يفرق بين الزوجين للضرر بناء على طلب الزوجة ولكن بشروط خاصة . وهذا التفريق يكون طلاقا بائنا .
- (٧) يجوز للقاضى أن يطلق على الزوج زوجته لغيب بالزوج ، ولكن بشروط خاصة .

ولمى هنا ينتهى بحثنا الموجز فى أحكام الزواج والطلاق فى الفقه الإسلامى وبعض الشرائع الأخرى . وسنبداً ببحث جديد خاص بموضوع المعاملات فى كل من الفقه الإسلامى والتشريعات الأجنبية بمناسبة مشروع القانون المدنى المعروض الآن بالبرلمان . وموعداً بذلك قريبا .

الدين يسر لا عسر

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم على أبو الخشب

المدرس بمعهد القاهرة

يخيل إلى أن بعض الداعين إلى الدين ، والقائمين بحمل رسالته ، هم السبب الأول والآخر ، في تنفير الراغبين فيه ، بما يصورون لهم من أنه تكليف كله مشقة ، وفرائض أغلبها يرجع إلى الإغناط والحرص . . . مع أن المتتبع لأفعال النبي صلى الله عليه وسلم ، وهدايته لقومه ، وتعليمه لصحابته ، ونهيه في مناسبات مختلفة عن المبالغة الداعية إلى السأم والملل ، يعتقد تمام الاعتقاد أنه « يسر لا عسر » . وإذا كان هنالك من التكاليف ما يشتمل على المشقة نوعاً ما ، فإن ذلك منوط بالاستطاعة ، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وهذا هو السر في أن الناس يتفاوتون عند الله سبحانه وتعالى — يوم القيامة — في الدرجات والمنازل . ولعله معنى قول الصادق المصدوق « فاكفوا من العمل ما تطيقون » . وقد رأينا القرآن الكريم يعنى الاعمى والمريض والاعرج والشيخ الفاني وذوى العاهات ومن لا يستطيعون أن يقفوا في ميادين القتال ، من الجهاد . كما رأينا أنه لا يجعل إنفاق الرجل على أهله ومن هم في عياله إلا مقدراً بحسب استطاعته ، ومرتبباً بما يتسع له ماله . وليس ذلك خاصاً بهذين النوعين من الواجبات على المسلم ، ولكنه يجعل الأمور — دائماً أبداً — في حدود الطاقة ، وفي نطاق القدرة .

وهامهم أولاً صحابة النبي رضوان الله عليهم أرادوا أن يحاكموه في « صوم الوصال » فلم يقرّهم على ذلك ، ونهاهم أعنف النهي وأشدّه ، مبيناً لهم أنهم لا يطيقون ما يطيق ، لأن له من الخصوصيات النفسية والروحية ما يجعله كأنما يبيت يطعمه ربه ويسقيه .

وربما كان في هذه الحادثة نفسها ما صح عن بعضهم من أن زوجته اشتكت منه — إلى جانب هذا — أنه لا ينام ، ولا يباشر عملاً من أعمال الدنيا ، ولا يقوم

بشيء من خدمة تناط به ، أو تطلب منه ؛ ولهذا كانت دهشته صلى الله عليه وسلم
وسؤاله : « ومن يعمل له ؟ » ، فقال له أحدهم : كنا يا رسول الله تكفيه مؤنة ذلك .
فقال : « كلكم خير منه ... » . وقد نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله
ابن عمرو لما علم عنه أنه يقوم الليل ويصوم النهار بقوله : « صم وأفطر ، وقم
ونم وأت أهلك . ١١ » . وفي حادثة تطويل الإمامة في الصلاة يقول للمطيل :
« أفئتان أنت ، أفئتان أنت ، أفئتان أنت » .

وقد يقول قائل : إن ذلك حيث ابتدأت الدعوة والإسلام — حينئذ —
غريب عن العرب ، فلم تكن مهمته سوى تأليف القلوب ، وتوحيد الصفوف ،
وجمع الكلمة : ولذا كانت التشريعات — على سنة النشوء والتطور — تدريجاً ،
كما في تحريم الخمر حيث لم ينه عن ثمرها طرفة واحدة ، بل تدرج إلى ذلك بالوسائل
والطرق التي لا تجعل النهي عنها مخالفاً للطبائع والفطر .

والدعوة التي رسمها القرآن الكريم « بالحكمة والموعظة الحسنة » ، يجب
أن يكون المتصدى لها على شيء من الباقة والكياسة ، والذوق والسياسة ،
والفهم للتشريع — على هذا الوجه — حتى لا يفتقر الناس منه ، ويكون ضرره
في الهداية أكبر من نفعه .

وقد لبب عمر رضي الله عنه برجل وساقه إلى النبي عليه السلام ، لأنه استمع
إليه يقرأ آية على خلاف ما تلقى هو .

وانظر كيف كانت رحابة صدر الرسول الأعظم ، وسروره وبشره ، وفرحه
واغتباطه بهذين المتخاصمين : اقرأ يا فلان .. اقرأ يا فلان ، ويعقب على قراءة
كليهما بقوله : هكذا نزلت . ثم يقول « نزل القرآن على سبعة أحرف » ، ...
وفي هذا مثل رائع من السلوك الذي يجب أن يسلكه الداعي إلى الله ، أما العنف
والشمدة ، والحق وضيق العطن ، وما أشبه ذلك مما يفر الناس ويجهلون شيئا
وأحزاباً ، فإنني أعتقد أنه ليس من الدين في شيء .

على أن التكاليف تهدف إلى كبح النزوات ، وقمع الاطماع ، وإطفاء نيران
الحزازات ، وجعل الترابط بين الأفراد والجماعات قائماً على الحب والتآلف ،

والمعونة والتكاتف... وللدين معالم ينتهى إليها الضال ، ويلقى عصاه عندها المسترشد ، والحلال بّين والحرام بّين ، وما بعد كتاب الله وسنة رسوله إلا أن تخضع الرقاب ، وتذعن للحكمة وفصل الخطاب....

ولا تنكر أن القانون السماوى لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، إنما تنكر التطبيق ، فإنه لا يحمل بالأريب اللبيب أن يقوم فى حلقة من حلقات العوام لا تعرف أركان الإسلام الضرورى ليفسر لها معنى قوله سبحانه : « ثم استوى على العرش » : أو يتحدث متحدث عن مهارات السابقين فى حقيقة الجن والملائكة ، بين قوم لا يعرفون فرائض الوضوء التى لا بد منها لتصح الصلاة ، أو يضنى إنسان فؤاده فى أن صفات الله عين ذاته أو غيرها لمن يدينون بتعدد الأرباب.

وإذا كان الشاذى فى الكتابة يتبدى بحروف الهجاء ، فإن للدين أوليات يتدرج منها المتدينون ، ويعبرها المسلمون . وإذا كان الطبيب لا يعالج المريض إلا بالدواء الذى تسيغه أمعاؤه ، وتحمله معدته ، فإن الواقع المرشد يجب أن يكون كذلك . ولا نجد نهجه صلى الله عليه وسلم تعدى قوله « فقاربوا وسددوا » . وكأنه فى الحديث : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » ، كان يتنبأ بما سيكون ، لأن الإسرائيليات التى احتشدت بها بعض الكتب ، واحتفلت لها بعض العقول ، وتناقلها - بعد ذلك - حثالات الأجيال ، كحاطب ليل يجمع الدق والجزلا ، تجعلنا نأسف الأسف كله إذا تصورنا كيف أننا نستعرض فى خيلتنا دعاة ومصلحين فلا نكاد نجد اثنين يتفقان على محجة واحدة ، أو يتلاقيان على مشروع سواء . وبهذا تخلفنا عن قافلة الزمن ، وتأخرنا عن ركب الحياة . . . وصدق الله العظيم : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

سعد الدين التفتازاني

٧٢٢ - ٧٩٢ هـ

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ علي محمد حسن العماري
مبعوث الازهر إلى المعهد العلمي بأم درمان

نشأته وتصرفه : هو العلامة مسعود بن عمر ، ولد في تفتازان إحدى قرى خراسان الكبرى ؛ وأخذ العلم عن أكابر العلماء في عصره ، كمضد الدين الأيجي وقطب الدين الرازي ، وطار ذكره ، ورحل إليه الطلبة ، وصنف (الريحانة) وفرغ منها في سنة ٧٢٨ وعمره حينئذ ستة عشر عاما ، ثم فارق بلده ، ورحل على عادة العلماء في تلك العصور ، ونزل كثيرا من البلدان ؛ ونستطيع أن نستخلص من التواريخ التي ذكروها لمؤلفاته ، والبلاد التي ألفت فيها ، طريقة رحلاته ؛ فهو قد نزل أولا (هراة) وألف فيها كتاب (المطول) سنة ٧٤٨ ، وأتم المختصر سنة ٧٥٦ هـ ، وانتقل من هراة إلى (خوارزم) وألف في هذه الحقة (شرح التوضيح سنة ٧٥٨) و (شرح العقائد سنة ٧٦٨) ثم عاد إلى هراة ، وألف (فتاوى الحنفية سنة ٧٦٩) ثم عاد إلى خوارزم ، وألف (حاشية المضد سنة ٧٧٠) ومنها رحل إلى سرخس وفيها ألف (مفتاح الفقه سنة ٧٧٢) ثم عاد إلى خوارزم وألف (رسالة الإرشاد سنة ٧٧٤) ، وذهب بعد ذلك إلى سمرقند حيث ألف (المقاصد وشرحه سنة ٧٨٤) ، ثم عاد إلى سرخس ، وألف (شرح تلخيص المفتاح سنة ٧٨٦) وعاد إلى سمرقند ، وألف (حاشية الكشف سنة ٧٨٩) بظاهر سمرقند . ويختلف المؤرخون بعد ذلك ؛ فيرى جماعة منهم أنه مات بسمرقند ثم نقل إلى سرخس بعد ثلاثة أشهر ، ويذكر (خواندمير) أن المقام استقر بالتفتازاني في خوارزم .

ونلاحظ من هذا السرد لكتبه أنه شرح التلخيص للخطيب القزويني ثلاث مرات : في سنة ٧٤٨ و ٧٥٦ و ٧٨٦ ، والذي نعرفه أنه شرح تلخيص المفتاح في كتابيه المطول والمختصر ، وأما كتابه الثالث في البلاغة فهو (شرح القسم الثالث من المفتاح) فلعل ما ذكر في سنة ٧٨٦ هو هذا الكتاب . كما يبدو أن هذه الرحلات كان سببها — مع شغفه بالمعرفة — سوء حاله في بلده : فإنه كان يشكو مر الشكوى في مقدمات كتبه ، ومن ذلك ما ذكره عن المختصر ، فقد قال إنه ألف كل سطر منه في بلد ، قال في مقدمته : « فانتصبت لشرح الكتاب على وفق مقترحهم ثانيا ، ولعناني العناية نحو اختصار الأول »^(١) ثانيا ، مع جمود القريحة بصير البليات ، وخمود الفطنة بصرصر النكبات ، وتراعى البلدان في والأقطار ، ونبو الأوطان عنى والأوطار ، حتى طفقت أجوب كل أغبر قاتم الأرجاء ، وأحرر كل سطر منه في شطر من الغرباء .

يوما بحزوى ويوما بالعقيق وبال — عذيب يوما ، ويوما بالخليصاء
ولعله قدم بذلك الى اتصاله بحمود جاني بك ، الذي لقي في ظله الأمان ،
وقدم إليه هذا الكتاب ، وقد اتصل بتيمورلنك . ويتمول (ابن عرب شاه) :
كان التفاتاني كقطب الدين الرازي من العلماء الذين اجتذبهم بلاط مغل القفجاق
الغربية .

وقد كانت رحلته الى سمرقند باستدعاء تيمورلنك له عندما استولى عليها ،
فإنه دعاه وأغدق عليه كثيرا من النعم ، وقربه من مجلسه : وفي حضرة تيمورلنك
جرت المناظرة المشهورة بينه وبين تليذه السيد الشريف الجرجاني .

عصره عاش السعد في القرن الثامن الهجري ، وهو عصر ركبت فيه ريح
العلم ، وقبل الابتكار في التأليف ، وأصبحت الكتب تدور حول ما ألفه
القدماء ، شرحا وتحشية وتقريراً ، واختصاراً . وليس معنى هذا أن هذا
العصر لم يكن فيه نابغة ، بل كان فيه جماعة من الأفاضل ، وحسبنا فيلسوف
العربية ابن خلدون : ولكن معناه أن الهمم كانت متقاصرة : ولقد كان العلماء
الاعلام يشكون من خمود جذوة العلم : وسعد الدين نفسه يحدثننا عن ذلك فيقول :

(١) يريد بالأول "الشرح الكبير وهو المطول" .

ثم رأيت الجمع الكثير من الفضلاء، والجم الغفير من الأذكياء، يسألونني
صرف المهمة نحو اختصاره — يريد المطول — والاقتصار على بيان معانيه،
وكشف أسرارهِ، لما شاهدوا من أن المحصلين قد تقاصرت همهم عن
استطلاع طوابع أنوارهِ، وتقاعدت عزائمهم عن استكشاف خبيثات أسرارهِ.
ثم يقول: « وإن هذا الفن قد نضب اليوم ماؤه فصار جدالاً بلا أثر، وذهب
رواؤه فعاد خلافاً بلا ثمر، حتى طارت بقية آثار السلف أدراج الرياح، وسالت
بأعناق مطايا تلك الأحاديث البطاح، ».

ومع أن هذا ترديد لما قاله الشيخان الجليلان عبد القاهر والسكاكي، ومع
أننا نقوله الآن، إلا أني أعتقد أن أقرب هذه الأقوال إلى الواقع هو قول السعد:
فإن أقل ما يوصف به عصره هذا الوصف.

أسلوبه وطريقته: كانت طريقة السعد في التأليف والجدل والمناظرة، طريقة
المناقشة حول الألفاظ، وتحقيق مدلولاتها، وإيراد الاعتراضات والأجوبة
حول المسائل العلمية، وهو من العلماء الذين غلبت عليهم طريقة الفلسفة والمنطق؛
وتكاد تكون مؤلفاته على اختلاف أنواعها صورة لهذه العقلية المنطقية: وقد
كان لهذه الطريقة أنصار كثيرون في عصر السعد وبعد عصره، كما كان لها عظيم
الإجلال والتقدير، ولا يزال كثير من علمائنا يراها العلم كل العلم، غير أن ابن
خلدون لم تعجبه هذه الطريقة، كما لم تعجب كثيرين غيره؛ فقد جاء على لسان
بعض من ترجموا له، بعد أن ذكر أنه كان يدرس في الجامع الأزهر، جاء على
لسانه هذه الفقرة: « كان يسلك في إقرائه الأصول مسلك الأقدمين كالغزالي والفخر
الرازي، مع الإنكار على الطريقة المتأخرة التي أحدثها طلبة العجم ومن تبعهم
من التوغل في المشاحة اللفظية، والتسلل في الحدية والرسمية اللتين أثارهما العضد
وأتباعه في الحواشي عليه، وينهى الناقل غضون إقرائه عن شيء من هذه الكتب
مستنداً إلى أن طريقة الأقدمين من العرب والعجم وكتبهم في هذا الفن على
خلاف ذلك، وأن اختصار الكتب في كل فن، والتقييد بالألفاظ على طريقة
العضد وغيره، من محدثات المتأخرين، والعلم وراء ذلك كله، ».

والحق أني لا أفهم معنى لأن يأخذ الجم الغفير من العلماء في تخريج تعبير

للسكاكى أو للخطيب أو غيرهما ، حتى ليوجهوا تقديمه وتأخيريه وحذفه وذكره كأن ماجاء فى هذه المؤلفات من النصوص الأدبية التى يعنى بنقلها وتوجيهها ، ثم يطول حول ذلك الجدل والمناقشة والمناظرة ، وقد نصل فى النهاية الى أن المؤلف لم يقصد الى شىء مما ذهبوا اليه ، وإنما هى الشهوة الجامعة فى مصنع الكلام : وصدق ابن خلدون : فإن العام وراء ذلك كله .

أما أسلوبه فهو أسلوب أعجمى ألكن اللسان ، عقدت الفلسفة تفكيره ، وشاب المنطق تعبيره ، وظهر ضعف عصره الأدبى فى كتابته ، فنراه يكثر من التلبيح والتضمين والتورية والجناس ، والاستعارات المزدوجة ، والسجع البارد الممجوج : على أنه لا يخلو فى بعض الأحيان من لمحات أدبية طريفة ، انظر إليه وقد ثقل فى التعبير ، وأسرف فى حشو أسلوبه بالمصطلحات ، قال فى مقدمة المختصر : نحمدك يا من شرح صدورنا لتلخيص البيان فى إيضاح المعانى ، ونور قلوبنا بلوامع التبيان من مطالع المثاني ؛ ونصلى على نبيك المؤيد لدلائل إعجازه بأسرار البلاغة ، وعلى آله وأصحابه المحرزين قصبات السبق فى مضمار الفصاحة والبراعة .

ويسمون هذا حسن ابتداء ، وبالنأمل فى هذه العبارات القصيرة نجد أنه ذكر خمس كتب : التلخيص ، والإيضاح ، والبيان ، ودلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، كما نجد الشرح والبيان ، والمعانى ، والفصاحة ، والبراعة . وانظر إليه وهو يتحدث عن الذين يأخذون من كتبه ويسرقون من تأليفه ، تجده رق بعض الشىء قال : أما الأخذ والانتهاج فأمر يرتاح له اللبيب ، فللأرض من كأس الكرام نصيب ، وكيف ينهر عن الأنهار السائلون ، ولمثل هذا فليعمل العاملون . وهو يشير الى قول الشاعر :

شربنا وأهرقنا من الكأس جرعة وللأرض من كأس الكرام نصيب

ومن الغريب أن أسلوبه فى المطول أسهل وأوضح بكثير من أسلوبه فى المختصر مع أنه ألف الثانى بعد الأول بثنائى سنوات ، ولذلك أرى - إذالم يكن بد من دراسة السعد فى الأزهر - أن يستعاض عنه بالمطول فسيجد الطلاب فيه حاجتهم دون رجوع طويل الى الحواشى والتقارير . وعلى العموم فأسلوبه معقد ، ولا سيما

في علوم البلاغة، وهي التي تحتاج الى الأسلوب الأدبي المحبب الى النفوس .
ومن شعره :

طويت بإحراز العلوم ونيلها رداء شبابي ، والجنون فنون
وحين نعاطيت العلوم وشرحها تبين لي أن الفنون جنون

آراء العلماء فيه : كان للسعد في عصره منزلة عظيمة ، وكان من شرف العالم أن ينتمى إليه ، بل كان علماء الروم - فيما بعد - يجعلون من جملة أوصاف كبار علماءهم أنه كان يميل إلى ترجيح جانب السعد ، أو إلى ترجيح جانب السيد الشريف . وقد قرأ ابن خلدون ، وهو في مصر مؤلفات السعد وآثى عليه في مقدمته ، فقال : « ولقد وقفت على تأليف متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشهر بسعد الدين التفتازاني ، منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان تشهد بأن له ملكة راسخة في هذه العلوم ، وفي أثناءها ما يدل على أن له اطلاعا على العلوم الحكيمة ، وقدا عالية في سائر الفنون العقلية ، والله يؤيد بنصره من يشاء . »

وترجم له ملازاده فقال : « أستاذ العلماء المتأخرين ، وسيد الفضلاء المتقدمين ، مولانا سعد الملة والدين ، ومعدل ميزان المعقول والمنقول ، مفتاح أغصان الفروع والأصول . »

وفي ترجمة الشوكاني : « متفرد بعلومه في القرن الثامن ، لم يكن له في أهله نظير فيها ، وله من الحظ والشهرة والصيت في أهل عصره فن بعدهم مالا يلحق به غيره ، ومؤلفاته قد طارت الى جميع البلدان ، وتنافس الناس في تحصيلها . »

وفي دائرة المعارف الإسلامية للقرن العشرين في ترجمته : « حجة مشهور في البلاغة والمنطق وما وراء الطبيعة والكلام وغيرها من العلوم ، »

الى الاستاذ الاكبر

« بمناسبة سفر البعوث الثقافية ، إلى الأقطار الإسلامية ،

نغنت بمأمون — فأغنت — فضائله
وما الشعرُ في روض الشَّامِ ، وهذه
سل الأزهر المعمور ، ينبئك أنه :
وأصبح مأمونا على العلم والهدى
هو المجد والإسلام ، فاعمل موفقا
فلا الدهر يمحوه ، ولا جحدُ جاحد
وقد شملتنا من يدك كوارف
توخيت فيها الحق والعهد ، فالتقى
إذا الحق حيطت بالوفاء سبيله
وفيك ضمان أيد الفعل عهد
فا أنت حصيه ، وما أنت قائله ؟
حمائم تدعو به ، وعنادله ؟
تجلت دياجيه ، وقرت كبلابه
وقد كاد يلويه عن الرشد باطله
فبلغد والتاريخ ما أنت فاعله
ولا بحلى الأشعار يزدان عاطله
هي الغيث وافت بالسعود نحايه
بشكر محروم النوال ونائله
فحرزه راضى ألفؤاد وآمله
ستغمرنا آلاؤه وفواضله

فيا رجل الإسلام في حين تلتقى
زاهت راية الفاروق فادعم ظلالها
حبا الدين والدنيا شبابا ونائلا
وحولك أجناد إذا ما نثرتهم
شباب وشيب ثقّف الدين منهم
بيمينك يغزون الوجود مطالعا
سنرضيك إخلاصا ، فإنك مخلص
أواخره جياشة ، وأوائله
بروح من الإسلام تزهو تخمائله
وقام بأعباء العروبة كاهله
نظمت خميسا لا تُبارى مقاوله
إذا نزلوا وردا تطيب مناهله
فيشرق داجيه ، ويخضر ماحله
ومن يصل الإسلام ، فالله واصله

كلية اللغة العربية عبد الجواد رمضان

السنة النبوية الشريفة

ومنزلتها من الدين وضرورة العمل بها

والإنكار على من ردّها

لحضرة الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي

الفصل العاشر

أقسام الصحيح ودرجة أحاديث البخارى ومسلم

جاء في مقدمة ابن الصلاح ص ١٢ :

أعلى أقسام الصحيح هو الذى يقول فيه أهل الحديث كثيراً : صحيح متفق عليه ، يطلقون ذلك ويعنون به اتفاق البخارى ومسلم ، لا اتفاق الأمة عليه ؛ لكن اتفاق الأمة عليه لازم من ذلك ، وحاصل معه ، لاتفاق الأمة على تلقى ما اتفقا عليه بالقبول . وهذا القسم جميعه مقطوع بصحته ، والعلم اليقيني النظرى واقع به . . . هـ .

وقال أيضا فى ص ١١ :

قال الحافظ أبو نصر الوايلى السنجرى : أجمع أهل العلم ، الفقهاء وغيرهم ، على أن رجلا لو حلف بالطلاق أن جميع ما فى كتاب البخارى مما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قد صَحَّ عنه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاله لاشك فيه - أنه لا يحنث ، والمرأة بحالها فى حبالته .

وجاء فى حجة الله البالغة - الجزء الأول ص ١٠٦ :

أما الصحيحان فقد اتفق المحدثون على أن جميع ما فىهما من المتصل

المرفوع صحيح بالقطع ، وأنها متواتران إلى مصنفيهما ، وأنه كل من يهون أمرهما فهو مبتدع ، متبع غير سبيل المؤمنين . ٥١ .

وقال الأستاذ أحمد محمد شاكر ناشر كتاب اختصار علوم الحديث للحافظ

ابن كثير ص ٢٢ :

الحق الذى لا مرية فيه عند أهل العلم بالحديث من المحققين ، ومن اعتدى بهديهم وتبعهم على بصيرة من الأمر ، أن أحاديث الصحيحين صحيحة كلها ، ليس فى واحد منها مطعن أو ضعف ، وإنما انتقد الدارقطنى وغيره من الحفاظ بعض الأحاديث ، على معنى أن ما انتقدوه لم يبلغ فى الصحة الدرجة العليا التى التزمها كل واحد منهما فى كتابه ؛ وأما صحة الحديث فى نفسه فلم يخالف أحد فيها ، فلا يهولنك إرجاف المرجفين ، وزعم الزاعمين ، أن فى الصحيحين أحاديث غير صحيحة : وتبع الأحاديث التى تكلموا فيها وانقدها على القواعد الدقيقة التى سار عليها أئمة العلم واحكم عن بينة ، والله الهادى الى سواء السبيل . ٥١ .

وقال الحافظ ابن كثير فى كتابه اختصار علوم الحديث ص ٢٣ :

(حاشية) ثم وقفت بعد هذا على كلام لشيخنا العلامة ابن تيمية مضمونه : أنه نقل القطع بالحديث الذى تلقته الأمة بالقبول عن جماعات من الأئمة ؛ منهم القاضى عبد الوهاب المالكى ، والشيخ أبو حامد الإسفرائينى ، والقاضى أبو الطيب الطبرى ، والشيخ أبو إسحق الشيرازى ، من الشافعية ، وابن حامد ، وأبو يعلى بن الفراء ، وأبو الخطاب ، وابن الزاغونى وأمثالهم ، من الحنابلة ؛ وشمس الأئمة السرخسى ، من الحنفية .

قال : وهو قول أكثر أهل الكلام من الأشعرية وغيرهم ، كآبى إسحق الإسفرائينى وابن فورك .

قال : وهو مذهب أهل الحديث قاطبة ، ومذهب السلف عامة . .

الفصل الحادى عشر

صحيح الإمام البخارى وما قيل فيه

جاء فى مقدمة ابن الصلاح ص ٨ :

فقد روينا عن البخارى أنه قال : ما أدخلت فى كتاب الجامع إلا ما صح ، وتركت من الصحاح لملال الطول . ١٠١ . وقد قال البخارى : أحفظ مائة ألف حديث صحيح وماتى ألف حديث غير صحيح . وجلة ما فى كتابه الصحيح سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون حديثاً بالأحاديث المكررة ، وقد قيل إنها بإسقاط المكررة أربعة آلاف حديث . ١٠١ .

وجاء فى طبقات الشافعية الجزء الثانى ص ٦ :

عن محمد بن حمدونة يقول : سمعت محمد بن إسماعيل يقول : أحفظ مائة ألف حديث صحيح ، وأحفظ مائتى ألف حديث غير صحيح .

وفى ص ٧ :

قال شيخنا أبو عبد الله الحافظ : روى من وجهين ثابتين عن البخارى أنه قال : أخرجت هذا الكتاب من نحو ستمائة ألف حديث وصرفته فى ست عشرة سنة ، وجعلته حجة فيما بينى وبين الله تعالى . ١٠١ .

وأقول أنا : قد عدت أحاديث البخارى الأصلية (جامع مسانيد صحيح البخارى) فوجدتها ٢٦٠٥ بغير المكرر .

تذنيه

لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، وردت هذه الآية فى هذا البحث فى العدد السابق ص ٨٥٨ خطأ ، وصححها ما ذكر هنا .

أبو القاسم الزمخشري

٥٣٨ هـ

فضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوي
المدرس بمعهد القاهرة

حداني أن أكتب في الزمخشري ، تفسير الكشاف ، : فقد بدأت أقرأ فيه بشيء من التروية ، وكان يحفزني اليه علمي بما لصاحبه من خولة في البيان ، وإمامة في البصر بتصوير الفسرآن . فكنت أجد اليه حنيناً في النفس ، وطرباً في القلب ، حتى استطعت أن أخلص للنظر فيه من بعض تلك الشواغل التي لا تهادن ، وذلك الفضول الذي لا يكاد يفارق : فإذا الأسلوب الموثق ، واللفظ الرائق ، والعبقرية الخارقة : وأحببت أن أتقدم بتصوير ما أجد لقراء مجلة الأزهر الغراء عني أن أهيج فيهم مشاطرتي هذا الإعجاب ، والغوص على در ذلك الكتاب : ولكنني آثرت أن أبدأ بالتصوير للمؤلف قبل تقديم المؤلف ، لنصح الرغبة فيما قصدت اليه ، من صادق الإقبال عليه .

قال زمخشري محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان ، وأحد رجلين قيل فيهما : لولا الأعرجان ، لضاعت بلاغة القرآن . وثانيهما يوسف بن أبي بكر السكاكي .

والزمخشري من زمخشري ، إحدى قرى خوارزم من بلاد المعجم . وقد تعجب حين تعلم أن أولئك الأعاجم هم الذين تولوا اللغة العربية ، وحاطوا الشريعة الإسلامية فرعوها حق رعايتها .

وقد ألهب في هؤلاء الأعاجم جذوة النشاط شعورهم بالنقص العنصري في نظر العرب ، وحرصهم على أن يكونوا موضع التقدير من الخلفاء والكبراء ، فوصلوا الليل بالنهار ، وجابوا في العلم الفياثي والقفار ، وكان منهم مفاخر الإسلام والمسلمين ، من أمثال الإمام أبي حنيفة ومالك والشافعية وغيرهم .

والصولي والجاحظ وابن العميد والصاحب والخوازمي ، وأمثال سيبويه وعبد القاهر والسكاكي ، وكثير جدا ممن رفعوا شأن العلم والإسلام .

ونشأ الزمخشري في نهاية القرن الخامس وأوائل السادس ، فهو من أدياب العصر العباسي الرابع ؛ ذلك العصر الذي ظهرت فيه ثمار آداب اللغة ، وكانت قد ازدهرت في العصر العباسي الثالث ، وتسابق الناس فيه إلى العلم والآداب ، وكثرت المؤلفات ، وانتشرت المدارس ، وولدت علوم جديدة ، وظهرت مصنفات عظيمة ، أهمها كتب النحو والصرف والبيان التي كان عليها معول العلماء في نشر هذه الفنون ونقلها إلى من بعدهم ، وتفانى في التحصيل رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع ، فأخصبت اللغة العربية ببحوثهم ، ونضرا الله البيان والإيمان بهم : كالإمام عبد القاهر الجرجاني واضع البلاغة ومؤسس قواعدهما ، بكتايبه العظيمين ، وإمام النحو . توفي سنة ٤٧١ . والتبريزي شارح الحاسة والمعلقات وغيرهما ، توفي سنة ٥٠٢ ، والراغب الأصفهاني مصنف غريب القرآن ومؤلف المحاضرات ، توفي سنة ٧٠٢ ؛ والحريري والميداني وابن الشجري والإمام الزمخشري والإمام السكاكي والعكبري وابن الأثير والصفاني وغيرهم ممن أعلوا منار العلم والآداب إنما إعلاه بما دونوا ، وبمن علوا . أحسن الله جزاء الجميع .

ذلك هو العصر الذي كان الزمخشري أحد رجاله وخريجيه ، ونشأ الزمخشري فيه وهو على غاية الذكاء وتمام الاستعداد ، ومنتهى الاجتهاد ، مع دين قوي ، وعقل سليم ، فكان إماماً يشار إليه ، وعلمياً يعشى إلى ضوء هدايته . صنف فجمع من جواهر العلم ودرره ، وهذب من أصول النقد والبيان ، وفتح من أكام الأزهار ما لا يهدى إلى مثله إلا مثله ، وكتب فبذ الكتابين ، وأعرق في تصحيح البيان بما أعيى على المعاصرين . وقال شعرا إلا أنه لم يكن فيه من المبرزين . كما هو شأن العلماء الأفذاذ .

وقد عرّف بشيء من تاريخه المؤرخ ابن خلسكان فقال : « الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان ، كان إمام عصره غير مدافع ، تشد إليه الرجال في فنونه ، أخذ الأدب عن أبي منصور نصر ، وصنف التصانيف البديعة ، منها الكشف في تفسير القرآن العزيز لم يصنف قبله مثله ، والمحاجاة بالمسائل النحوية ، والمفرد والمركب في العربية ، والفاق في تفسير الحديث ، وأساس البلاغة

فى اللغة ، ورييع الأبرار ، ونصوص الأخبار ، ومتشابه أسامى الرواة ، والنصائح الكبار ، والنصائح الصغار ، وضالة الناشد والرائض فى علم الفرائض ، والمفصل فى النحو وقد اعتنى بشرحه خلق كثير ، والآنموذج فى النحو ، والمفرد والمؤلف ، ورموس المسائل فى الفقه ، وشرح أبيات سيوييه ، والمستقصى فى أمثال العرب ، وسوائر الأمثال ، وديوان التمثيل ، وغير ذلك . وكان قد سافر الى مكة حرسها الله وجاور بها زمانا فصار يقال له : جار الله لذلك ، وكان هذا الاسم علما عليه . . انتهى المراد من عبارة ابن خلكان .

وفى كلام الزحشرى فى مقدمه الكشف مايدل على أنه كان مرجعا فى حل الغامض ، وموتلا لدراسة آى الكتاب على النهج الذى رسمه ؛ فهو يقول هنالك : ولقد رأيت إخواننا فى الدين من أفاضل الفقه العدلية ^(١) الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية كلما رجعوا الى فى تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب ، أفاضوا فى الاستحسان والتعجب ، واستطبروا شوقا الى مصنف يضم أطرافا من ذلك ، حتى اجتمعوا الى مقترحين أن أملى عليهم الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ، فاستعفيت فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد : والذى حدانى على الاستعفاء على علمى أنهم طلبوا ما الإجابة إليه على واجبة ، لأن الخوض فيه كفرض العين ^(٢) ما أرى عليه الزمان من رثالة أحواله وركاكة رجاله وتقاصر همهم عن أدنى عدد هذا العلم ، فضلا عن أن تترقى الى الكلام المؤسس على علمى المعانى والبيان . . . الخ .

ف هذه عبارة تبين ما كان للرجل من إحاطة بغرائب العلم ، ولا سيما فى علمى المعانى والبيان ، وتقاصر همهم الأقران عن مجاراته .

والزحشرى كان على جانب كبير من توثق العلاقة بينه وبين ربه ، ويتجلى لك ذلك فيما كان من مجاورته بالبيت العتيق ، ويبدو لك ذلك فى مسلكه الوعظى الذى سلكه فى مقاماته ، فلم يقبل أن تكون فكاهة أو هزلا كالذى عرف لغيره من المقامات

(١) هم المعتزلة وكانوا يسمون أنفسهم أصحاب العدل لأنهم يقولون إن الله لا يقدر القبيح

ولا يخلق الشر . (٢) ما : خبر اسم الموصول السابق .

فهى مقامات جمعت من نبل المقصد وإيثار الجذ وحسن التوجيه ما دل على همة عالية ونفس كبيرة .

والزخشرى وإن كان يقول متواضعاً كما روى عنه : اقسم بالله وآياته ، ومشعر الحج وميقاته ، إن الحريرى حرى بأن تكتب بالبر مقاماته ... فإننا من الناحية الأدبية نرى أن مقامات الزخشرى قد فاقت مقامات الحريرى عراققة فى البيان وحسن السبك ، وإيثار جانب المعنى على جانب اللفظ ، لأنه أرسخ قدماً ، وأبعد فى ميدان البلاغة مدى . على أن مقامات الحريرى قد أربت على غيرها لغرائب اللغة ونفائس الأدب .

وقد وجه الزخشرى إلى ناحية الامتياز فى مقاماته وهو يقدمها إلى القارىء فقال : وتوصيتك ألا تمكن منها إلا من يوازيك فى صفك ، أو يذانيك من أولى الفضل والديانة ، وأن تربأ بهاعن أولئك الذين يحسبون أنهم يحسنون ولا يحسنون ، لشكون من العمال يقول عيسى عليه السلام : لا تطرحوا الدر تحت أرجل الخازير : فان العلم بنقلته يكبر بكبرهم ويصغر بصغرهم وتكذيفك ألا تتر على شيء من تلك الأجماع وغيرها من أبواب الصنعة إلا ما أملاً وجه تمكته وثبات قدمه والاستعداد له قبل . ورده لعل أن ما سماه الناس البديع من تحسين الألفاظ وتزيينها بطلب الطباق فيها والتجنيس والتسجيع والترصيع . لا يملح ولا يبرع حتى يوازي مطبوعه مصنوعه ، وإلا فاقلق فى أمانته ، ونبا عن موافقه . فنبود بالعرام ، مرفوض عند الخطباء والشعراء .

هذا أسلوب جميل فى ذاته ، ومسلوك جليل فى توجيهه ، يدل على نفوذ بصر ، وصحة طبع ، وسمو عبقرية تأبى على التقاليد .

وذكروا أن الزخشرى كان مقطوع لإحدى الرجلين ، وهذا قد يكون من العوامل فى تصحيح دينه وانقطاعه للعلم وصفاء النفس ، فإن المصيبة إذا نزلت بالنفس البشرية ولا سيما إذا شوهدت شيئاً من الجمال ، فهى جديرة أن تنصرفها عن الدنيا ، وأن تجذبها إلى التماس السعادة فى متع روحية كريمة ، واتجاهات هى أخرى أن تعوض النقص الجسدى . ولعل الجاحظ كان من هذا الصنف الذى ألغى كثيراً من متع الحياة فى سبيل متعة النفس والعقل . ويذكر فى سبب قطع رجله ما تحدث به عن نفسه قال : دخلت بغداد فاجتمعت بالفقيه الحنفى الدامغانى

فسألتى عن سبب قطع رجلى ، فقالت : « دعاء الوالدة : وذلك أنى كنت فى صباى
أمسكت عصفورا وربطته بخيط ، ثم أفلت وجذبتة فانتطعت رجله بلخيط ، فغضبت
أُمى ودعت على بتمطع رجلى ، فلما وصلت الى سن الطلب رحلت الى بخارى
لطلب العلم فسمعت عن الدابة فانكسرت رجلى . وهذه الرواية تدل على ما كان
من صحة إيمان الرجل وسلامة اعتقاده .

على أن الزخشرى كالمسكاكى كان معتزليا ، وكان متعصبا لمذهب الاعتزال .
وهذا المعنى صرف كثيرا من الناس عن مطالعة تفسيره والانتفاع بدرره وجواهره .
وفى الحق ما كان ذلك داعيا الى تلك العسفة ، وما يزال الحق فى مسائل
الخلاف عند الله سبحانه يفصل فيه . على أنه لم يكن هناك خلاف ذو بال
لو أنصروا ، ولكن شهوة الظفر والانتصار وما أحاط بمسائل الكلام من ظروف
سياسية وشعر سياسية قد وسع الهرة وأبعد الشقة ، وعقد كثيرا من مسائل
هذا الدين السمح . وامرئى لقد اختلف هؤلاء وهؤلاء فى مسائل نهى الإسلام
عن الخوض فيها ، فزول الجميع وتكبوا عن الجسادة .

الزخشرى متزلى كما قالوا ، ولكن ذلك لا يمنع أن نقرأ كلامه وننتفع بما فيه .
على أن لهجة الرجل كثيرا ما تكون لهجة حق وسبيل نصح ، لا تخلو من توجيه
صالح . وإصلاح قويم . فاستمع اليه وهو يناقش فى تفسير « ويعدم فى طينانهم
يعمبون » ويقول فى آخر المناقشة بعد أن خطأ رأى الخصم من ناحية اللغة :

« المعنى الصحيح ما طابته اللفظ وشهد بصحته ، والإمكان بمنزلة الأروى
من النعام : ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المبجى أن يتعاهد فى مذاهبه
بقام النظم على حسنه . والبلاغة على كمالها ، وما وقع به التحدى سليما من القادح ،
فإذا لم يتعهد أوضاع اللغة فهو من معاهد النظم البلاغية على مراحل . »

وقد ذهب ابن خلدون مذهباً معتدلاً لمن يحمى على مذاهب أولئك الكلاميين
من الأشاعرة والماتريدية ، فقال وهو يحدث عن التفاسير :

« ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشف للزخشرى
من أهل خوارزم العراق ، إلا أن مؤلفه كان من أهل الاعتزال فى العقائد ، فيأتى
بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حين تعرض له فى آى القرآن ، فصار بذلك للباحثين
من أهل السنة انحراف عنه ، مع إقرارهم برسوخ قسمة فيما يتطرق باللسان

والبلاغة . وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السفية محسناً للحجاج عنها فلا جرم أنه مأمون من غوائله ، فليغتنم مطالعته لغرابته في فنون اللسان .

الزحشرى كما رأيت مصنف عزيز المادة ، مبدع في العلوم اللسانية والشرعية ، ثم هو إلى ذلك كاتب بذ الأقران ، وسلم من كثير مما تورط فيه المعاصرون من طغيان المحسنات على البلاغة ، كما ترجم عن ذلك في مقدمة المقامات ، وذلك لأن الرجل كما قلت نفاذ البصيرة سليم الفطنة واسع الذرع من البيان العربى الصحيح متأثر بقوة ما يروى ويحفظ . وتستطيع أن تقرأ فى كتب الزحشرى لترى كيف كان خولة بيان وقوة بلاغة يحفل أسلوبه بغزارة المعنى وقوة التأثير ، مع ما يحمل من طابع البديع وجمال الصنعة ، حتى ليخيل إلى القارىء أنه ينثر كنانة اللغة العربية بين يديه فيأخذ منها ما يحقق الغرض فى وضوح وقوة ، ويخصب الأسلوب به بالجمال والروعة .

ويعجبني من ثمره قوله فى خطبة الأساس وهو يشرح الباعث على وضع الكتاب: « ولما أنزل الله كتابه مختصاً من بين الكتب السماوية بصفة البلاغة التى تقطعت عليها أعناق العتاق السبق ، وونت عنها خطى الجياد القرح ، كان الموفق من العلماء الأعلام أنصار ملة الإسلام الذابين عن بيضة الحنيفية البيضاء ، المبرهين على ما كان للعرب العرباء حين تحدوا به من الإعراض عن المعارضة بأسلات ألسنتهم والفرع إلى المقارعة بأسنة أسلهم^(١) من كانت مطامح نظره ومطامح فكره الجهات التى توصل إلى تبين مراسم البلغاء ، والعثور على منازم الفصحاء ، والخبرة بين متداولات ألفاظهم ومتعاورات أقوالهم ، والمغايرة بين ما انتقوا منها وانتخلوا ، وما انتدوا عنه فلم يتقبلوا ، الخ .

هذا أسلوب جزل قوى بليغ مع ما يحمل من أثر الصنعة . ولك أن ترجع إلى أدب الزحشرى وكتاباتاته فى مختلف كتبه لتظفر بمادة عجيبة وفصح نادرة ومعين فياض وبعد ، فحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق ؛ ولكن لا بد أن أشير قبل مغادرة البحث إلى أن للزحشرى شعرا لا يقل رصانة عن ثمره ، إلا أنه كشعر

(١) خبر كان فى قوله كان الموفق

العلماء المبرزين لا يظفر بخيال الشعراء ، بل يغلب عليه المعنى العلى والحكمة
الراشدة : ولعله إلى النظم أقرب منه إلى معنى الشعر المرموق . ومن أجود شعره
قوله يصف المتقى :

إذا العيون اجتمعت في بذاته تعلموا نواظرها عنه وتقتحمه
ما زال يستحقر الدنيا بهمة حتى ترقى إلى الأخرى به همه
فذلك أعظم من ذى التاج متكئا على النمارق محتفا به حشمه

كانت ولادة الزمخشري يوم الأربعاء السابع والعشرين من رجب سنة ٦٧٠ هـ
بزمخشري : وتوفي ليلة عرفة سنة ٥٣٨ هـ بمرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة .
نعمه الله بواسع عفوه ورحمته .

من سيرة عمر بن عبد العزيز

لما تولى الخلافة وفد إليه الشعراء لتهنئته على عادتهم ، فأقاموا بيابه أياما
لا يأذن لهم ، حتى قدم إليه عدى بن أرطاة ، وكانت له عنده مكانة ، فقابلته
جرير ، وأنشده :

يا أيها الرجل المزجي مطيته هذا زمانك ، إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقية أنى لدى الباب كالمصفود فى قرآن
فلما دخل على عمر قال له : يا أمير المؤمنين : الشعراء يبابك ، وأقوالهم باقية ،
وسنانهم مسنونة . فقال : يا عدى ، ومالى وللشعراء ! ثم سأله عن الباب ، وكلما
ذكر له واحداً ، أنشد له عمر أبياتاً نائية من شعره ، وأبى أن يأذن له ، حتى انتهى
إلى جرير ، قال له : أو ليس هو الفائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجمى بسلام ؟
فإن كان ولا بد فليدخل هذا ، فدخل وأنشده قصيدة ، فلما انتهى منها ، قال له
أمير المؤمنين : يا جرير ، لقد وليت هذا الأمر ، وما أملك إلا ثلاثمائة درهم ، فأتة
أخذها عبد الله ، ومائة أخذتها أم عبد الله ، يا غلام أعطه المائة الباقية .
فقال جرير : والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال كسبته إلى .

صحائف خالدة

هذه رسالة تقع في ثمانين صفحة حسنة الطبع والإخراج وضعها الأستاذ الفاضل إبراهيم الشورى بالمفوضية السعودية بمصر ، أتى فيها على تاريخ جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود عاهل العرب العظيم في عهدنا هذا ، بسط فيها تدبيره في استرداده لملك آبائه من حوزة ابن الرشيد ، والجرأة الفائقة ، والاستبسال النادر الذى توصل بها هذا الملك العبقري إلى الفوز على خصمه .

وقد اشتملت الرسالة بعد هذا على تاريخ حياة العاهل العظيم ، وما قام به من سياسة الملك ، وتهذئة روع القبائل ، وتأمين الطرق وتيسير التبادل ، ملأ بالأدوار التى تقلبت فيها حياته المباركة من زعامة قبائل نجد الى ملك الحجاز . ولم ينس ما اقتضته هذه الأدوار من الحزم والعزم وحسن السياسة ، وبسالة المقاصد : وهى صفات رفعتة الى مستوى كبار القادة فى جيلنا الحاضر .

ولم يغفل المؤلف الفاضل ما امتاز به هذا الملك الجليل من الصفات النبيلة كالرجولة السكاملة ، والسياسة الرشيدة ، والتقوى المحمودة ، ووجهه للرعية . ولم يترك أخص النواحي التى تقدر بها كفايات الملوك من إشرافه على القضاء والإدارة ، وتيسير المعيشة ، وكرمه الذاتى ، وتجرده من الغايات الشخصية .

ولم ينس المؤلف الفاضل أن ينوه بالناحية التى تهتم كل مسلم يحب أن يرى الأمة العربية تتابع تاريخها العظيم ، فتصل حاضرها بماضيها فى نشر العلم ، وتهيئة البيئة للمدنية الفاضلة ، فذكر أن أول ما اتجهت إليه رغبته تحضير البدو ، فبجى لهم القرى وساعدهم على الاستقرار ، وجدّ فى جلب المياه الى النواحي التى تفتقر إليها ، وفى تنشيط الصناعة والزراعة والتجارة . وقد أدخل وسائل الانتقال بتمهيد الطرق وإدخال التلغونات الى مدن الحجاز ونجد ، والاستكثار من السيارات .

الخلاصة : أن ما يقوم به جلالة الملك عبد العزيز من الأعمال الممهدة لتحضير البوادي من أشق الأعمال ، ولكنها إزاء مهمة عالية كهفته تتدلل صعابها مع الزمن . فرجو له عمرا مديدا ، وتأبيدا وتسديدا ، ونثنى على مؤلف هذه الرسالة القيمة التى آتقنا بهذه المعلومات الثمينة .



عيد الجلولس الملكى السعيد

أقيمت الاحتفالات به فى جميع بلاد الدولة المصرية
وأذاع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
كلمة بليغة عنه بالراديو

كان يوم الخميس السادس من شهر مايو من أسعد أيام مصر ، حيث تبوأ
أريكه دولتها حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، فاحتفلت به الأمة
فى جميع مدنها وقراها احتفالاً لم ير له نظائر غير مثيلاتها فى كل عام . فسكنت
حيثما توجهت ألفيت الأعلام المصرية تحفّق على الدور والمتاجر ، وترى سمات
البشر مرتسمة على الوجوه ، يردد أصحابها أطيب التمنيات للذات الملكية ، ويتذكرون
الأعمال العظيمة التى تمت فى عهده للبلاد ، بما ضاعف ثروتها ، ورفع من قدرها ،
وزاد فى رفّته أهليها .

وبما زاد فى إظهار مواهب جلالته الفاروق ، الأحداث العظيمة التى حدثت
فى أيامه ، وأكبرها شأنها الحرب العالمية ، وموقع مصر من ساحات القتال ؛
وناهيك بما يستدعيه موقف الحياد الذى وقفته مصر من حسن السياسة ، وبعد
النظر ، وشدة الاحتياط ، حتى مرت تلك السنوات الست التى أهلكت الحرث
والنسل فى أوروبا ، ولم يمس بلادنا سوء يؤثر فى نظامها السياسى والاجتماعى ،
ولا فى انزائها الاقتصادى ، بل لساننا نبألغ إذا قلنا إن مصر جنت من رواج
محاصيلها ثروة أضافتها إلى ثروتها ، واتضح للعالم كله أن لها مركزاً ممتازاً بين
الشرق والغرب يقتضى أن تعيش مستقلة حرة .

هذا غيض من فيض نذكره تيمناً بهذا اليوم السعيد ، وقد أحصى حضرة
صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر من
مآثر حضرة صاحب الجلالة ، فى كلمته النبيلة التى أذاعها بالراديو فى مناسبة هذا
العيد السعيد ، ما أطلق كل لسان بالدعاء لجلالته بأن يقيه الله ذخراً لأمته ، وملاذاً
للشرق بنعم برعايته .

محمد فريد وهبى